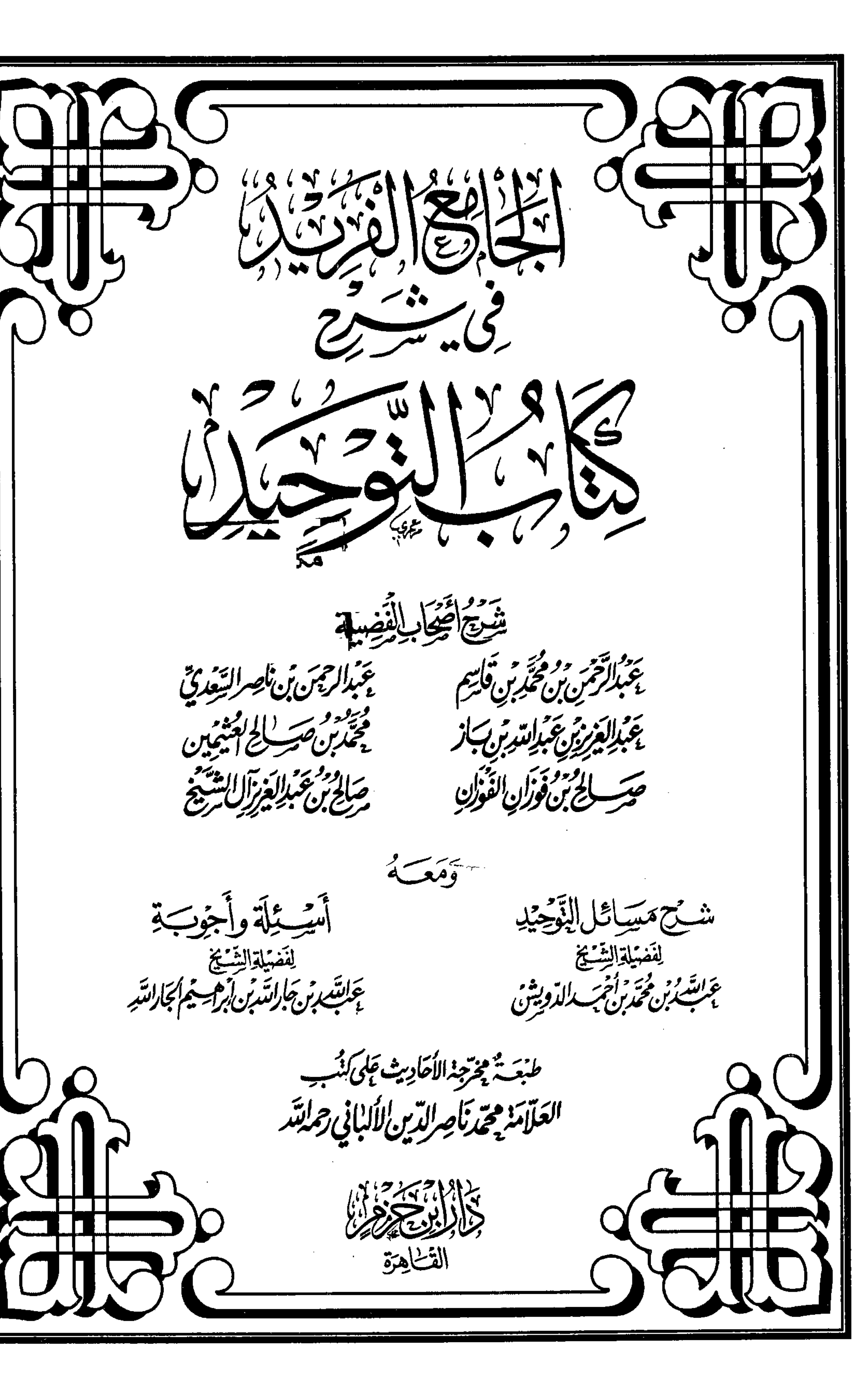


الجامع الفريد في شرح كتاب التوحيد

شرح أصحاب الفضيلة

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم — عبد الرحمن بن ناصر السعدي

عبد العزيز بن عبد الله بن باز — محمد بن صالح العثيمين

صالح بن فوزان الفوزان — صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

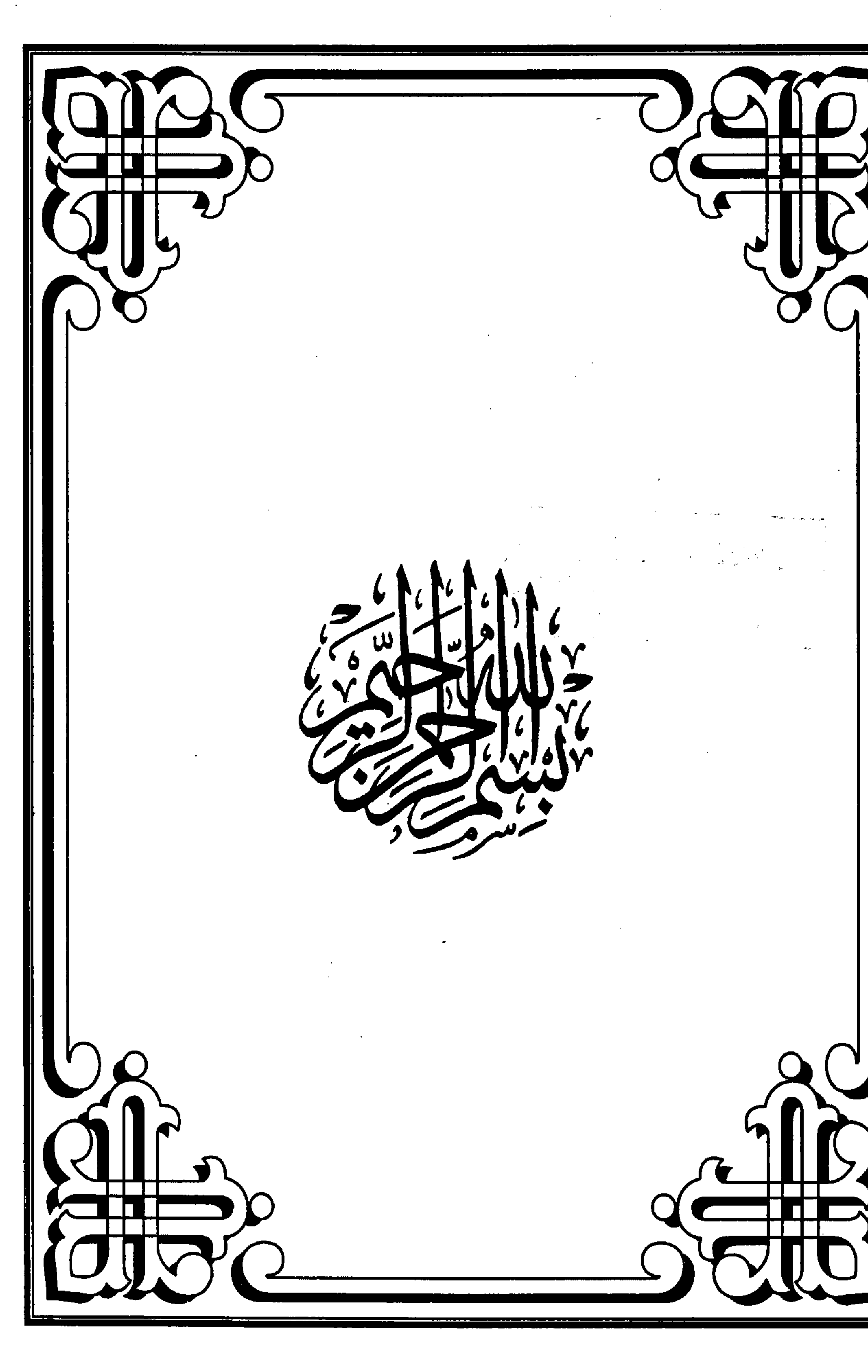
ومعه

شرح مسائل التوحيد
لفضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش

أسئلة وأجوبة
لفضيلة الشيخ
عبد الله بن جار الله بن إبراهيم الجار الله

طبعة مخرجة الأحاديث على كتب
العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله

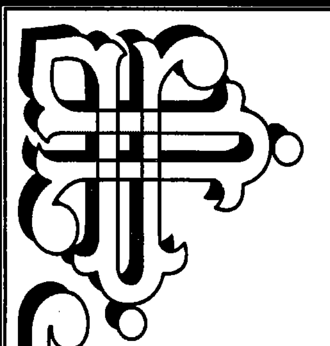
دار ابن حزم
القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم



الجامع الفريد في شرح كتاب التوحيد

المجلد الثاني



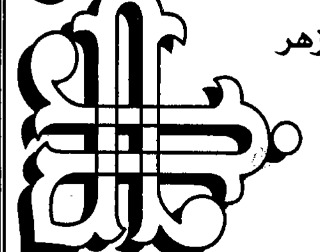


حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨ م

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٤٣٧١



جمهورية مصر العربية
٢٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
القاهرة

تليفون: ٠٠٢٠٢٥١٤٣١٤١
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٥١١١٧٥٠

الدرس السادس والعشرون:

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

روىٰ مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي ﷺ [عن النبي ﷺ قال][(١)]: «من أتىٰ عرافًا، فسأله عن شيء فصدقه[بما يقول][(٢)] لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا»[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أتىٰ كاهنًا، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ»[(٤)] رواه أبو داود.

وللأربعة والحاكم – وقال: صحيح علىٰ شرطهما-[عن أبي هريرة][(٥)]: «من أتىٰ عرافًا أو كاهنًا، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ»[(٦)].

ولأبي يعلىٰ بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا[(٧)].

وعن عمران بن حصين مرفوعًا: «ليس منا من تطير أو تُطيِّر له، أو تَكَهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحر أو سُحر له، ومن أتىٰ كاهنًا فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ»[(٨)] رواه البزار

---

(١)في نسخة ابن باز: «قالت».

(٢)سقط من نسخة ابن باز، والسعدي، والفوزان. والمثبت من نسخة ابن قاسم، وابن عثيمين، وهيٰ عند أحمد في «المسند»(٤/ ٦٨،٥/ ٣٨٠).

(٣)أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم (٢٢٣٠)، وأحمد (٤/ ٦٨) واللفظ له، عن بعض أزواج النبي ﷺ.

(٤)أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في الكهان، برقم (٣٩٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٥٩٤٢).

(٥)في نسخة الفوزان: «عن النبي»، وبياض في نسخة ابن قاسم.

(٦)أخرجه الترمذي، كتاب: الطهارة، باب: كراهية إتيان الحائض، برقم (١٣٥)، وابن ماجه، كتاب: الطهارة وسنتها، باب: النهي عن إتيان الحائض، برقم (٦٣٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٥٩٣٩).

(٧)أخرجه أبو يعلىٰ (٩/ ٢٨٠)، قال الحافظ في «الفتح»(١٠/ ٢١٧):«إسناده جيد ومثله لايقال بالرأي».

(٨)أخرجه البزار، برقم (١٨٧٣)، والطبراني (١٨/ ١٦٢-برقم ٣٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٥٤٣٥).

بإسناد جيد، ورواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن من حديث ابن عباس؛ دون قوله: «ومن أتىٰ...» إلىٰ آخره[٩].

قال البغوي: العراف: الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدمات يُستدل بها علىٰ المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق[١٠].

وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم: ما أرىٰ من فعل ذلك له عند الله من خلاق[١١].

فيه مسائل:

الأولىٰ: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تُكهِّن له.

الرابعة: ذكر من تُطير له.

الخامسة: ذكر من سُحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

الشرح

(٩) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، برقم (١٤٥٣) من حديث عبد الله بن مسعود، ولم أقف عليه فيه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٠) انظر «مجموع الفتاوىٰ» (٣٥/ ١٧٣).

(١١) أخرجه عبد الرزاق، برقم (١٩٨٠٥)، والبيهقي، برقم (٨/ ١٣٩)، وفي «الشعب»، برقم (٥١٩٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا.

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله: «باب ما جاء في الكهان ونحوهم»:**

أي: باب ذكر ما جاء في أحكام الكهان من التغليظ الأكيد، والوعيد الشديد، وما جاء من الأحكام في نحوهم كالعرافين والمنجمين والرمالين. لما ذكر السحر وأنواعه ذكر أحكام الكهان ونحوهم؛ لمشابهتهم للسحرة، والكهان هم الذين يتعاطون الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعون معرفة الأسرار، ويأخذون عن مسترق السمع. قال الشارح: الكاهن لفظ يطلق على العراف والذي يضرب بالحصى والمنجم، وقال الخطابي: الكهان -فيما علم بشهادة الامتحان- قوم لهم أذهان حادة، ونفوس شريرة، وطبائع نارية، فهم يفزعون إلى الجن ويستفتونهم في الحوادث، فيلقون إليهم الكلمات» ا.هـ.

وكانوا قبل البعثة كثيرين كشق وسطيح، فمنهم من يزعم أن له تابعا من الجن يلقي إليه الأخبار، ومنهم من يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها، من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا يخصونه باسم العراف، كالذي يدعي معرفة المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك، وبعد البعثة قل مسترقو السمع؛ لأن الله حرس السماء بالشهب، وأكثر ما يقع ما يخبر به الجن أولياءهم من الإنس مما يسمونه كشفا وكرامة وولاية، وقد اغتر بهم كثير من الناس يظنون أنهم أولياء الله وهم من أولياء الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾[الأنعام:١٢٨]الآية.

❁ **قوله: «روى مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم»:**

هي حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، ذكره أبو مسعود الثقفي في مسندها، وكذلك سماها بعض الرواة.

❁ **قوله: «عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من أتى عرافًا...»:**

وفي بعض روايات الصحيح: «**من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»(١٢). قال الشارح: ليس في مسلم «فصدقه بما يقول»؛ فظاهر الحديث أن الوعيد مرتب على مجيئه، سواء صدقه أو شك في خبره؛ لأن إتيان الكهان منهي عنه، كما في «صحيح مسلم» عن معاوية بن الحكم «فلا تأتهم»؛ ولأنه إذا شك في خبره فقد شك في أنه لا يعلم الغيب، وذلك موجب للوعيد، بل يجب أن يقطع ويعتقد أنه لا يعلم الغيب إلا الله. وقوله: «لم تقبل له صلاة»؛ أي: لا ثواب له فيها؛ لاقترانها بالمعصية، وإن كانت

---

(١٢) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم (٢٢٣٠)، من حديث صفية عن بعض أزواج ﷺ.

مجزئة بسقوط الفرض عنه في الدنيا لوجود شروطها وأركانها، فإنها لا تلزمه الإعادة إجماعًا، وفيه النهي عن إتيان الكاهن ونحوه، وإذا كانت هذه حال السائل فحال المسئول أسوأ وأشر وأعظم. قال القرطبي: يجب علىٰ من قدر علىٰ ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطىٰ شيئًا من ذلك من الأسواق، وينكر عليهم أشد النكير، وعلىٰ من يجيء إليهم.

❁ **قوله: «وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: من أتىٰ كاهنًا...»:**

هذا الحديث مختصر، ولفظه: **«من أتىٰ كاهنا فصدقه بما يقول، أو أتىٰ امرأة حائضا أو امرأة في دبرها، فقد برئ مما أُنزِل علىٰ محمدﷺ»**(١٣). ورواه أحمد والترمذي والنسائي بنحوه وغيرهم، وله شواهد صحيحة.

❁ **قوله: «وللأربعة والحاكم وقال صحيح علىٰ شرطهما عن...»:**

هكذا بيض المصنف لاسم الراوي، والأربعة هم أهل السنن أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه، وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا، وإسناده علىٰ شرط الصحيح، وصححه العراقي في آماليه، وقواه الذهبي، والمصنف تبع فيه الحافظ في الفتح، أو لعله أراد الذي قبله.

❁ **قوله: «فقد كفر بما أنزل علىٰ محمدﷺ»:**

المراد بالمنزل الكتاب والسنة؛ أي: من ارتكب الكهانة فقد برئ من دين محمدﷺ وما أنزل عليه. وفي الطبراني عن واثلة مرفوعًا: «من أتىٰ كاهنًا فسأله عن شيء حجبت عنه التوبة أربعين ليلة، فإن صدقه بما قال كفر». والأحاديث التي فيها الكفر مقيدة بتصديقه، وظاهر الحديث أنه يكفر متىٰ اعتقد صدقه بأي وجه كان، وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر فلا ينقل عن الملة، أو يتوقف فيه كما هو أشهر الروايتين عن أحمد؟ والذي يصدق العراف أو الكاهن لم يكفر بالطاغوت، بل مؤمن به، وغالب الكهان قبل النبوة إنما يأخذون عن الشياطين.

❁ **قوله: «ولأبي يعلىٰ بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا»:**

أي: مثل حديث أبي هريرة موقوفا علىٰ ابن مسعود، وأبو يعلىٰ هو الإمام الحافظ محدث الجزيرة أحمد بن علي بن المثنىٰ التميمي الموصلي، صاحب التصانيف كالمسند وغيره، روىٰ عن يحيىٰ بن معين وخلق، مات سنة ٣٠٧هـ. وهذا الأثر رواه البزار أيضا، ولفظه: **«من أتىٰ كاهنا أو ساحرا فصدقه بما**

---

(١٣) سبق تخريجه.

يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[14]. ومثل هذا له حكم الرفع، وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر مع ما تقدم؛ لأنهما يدعيان علم الغيب الذي استأثر الله به، كما أخبر به في كتابه، وذلك كفر والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضا؛ لأن الله أمرنا في كتابه بالإيمان به وحده، والكفر بهذه الأمور كقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[النساء:٥١].

قوله: «ليس منَّا»:

فيه وعيد شديد؛ فيدل على أن هذه الأمور من الكبائر، ولا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك. وقوله: تطير؛ أي: فعل الطيرة، أو تطير له؛ أي: قبل قول المتطير له وتابعه، وكذا الكهانة، كالذي يأتي الكاهن ويصدقه ويتابعه، وكذا من عمل الساحر له السحر، فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها أو عملت له عالما راضيا بذلك فقد برئ منه رسول الله ﷺ؛ لكونها إما شركًا كالطيرة، أو كفرا كالكهانة والسحر، فمن رضي بذلك وتابع فهو كالفاعل؛ لقبوله الباطل واتباعه، ويأتي حديث: «ثلاثة لا يدخلون الجنة»[15]. وذكر منهم: المصدق بالسحر.

قوله: «رواه البزار بإسناد جيد»:

ورواه أبو نعيم من حديث علي، فتعدد طرقه تثبت أن له وجودا في الأصل، وإن كان فيها مقال، وقال المنذري: إسناد البزار جيد. ا هـ. والبزار هو الإمام الحافظ المشهور أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري، صاحب المسند الكبير سماه «البحر الزاخر»، صدوق روى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق، أصله من البصرة ومات في الرملة سنة ٢٩٢هـ.

قوله: «ورواه الطبراني في الأوسط...»:

فهو من رواية البزار، وقال المنذري: إسناد الطبراني حسن.

قوله: «قال البغوي...»:

البغوي هو الإمام الحجة، منسوب إلى بغ مدينة بين هراة ومرو، ويقال لها أيضًا: بغشور. واسمه الحسين بن مسعود، محي الدين الفراء الشافعي، عالم خراسان وصاحب التصانيف كـ«التهذيب» و«شرح

---

(١٤) أخرجه البزار، برقم (١٨٧٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وقد سبق تخريجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٥) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٩)، وابن حبان، برقم (٥٣٤٦)، وغيرهما من حديث أبي موسى رضي الله عنه، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (٢٥٣٩) «صحيح لغيره».

السنة» و«المصابيح» و«التفسير»، سمع عن جماعات منهم القاضي الحسين والمليحي والداودي والصيرفي، وعنه محمد العطاري ومحمد أبو الفتوح الطائي وجماعة، مات سنة ٥١٦هـ. وظاهر كلامه أن العراف هو الذي يخبر عن الواقع كالسرقة وسارقها والضالة ومكانها وغير ذلك بأسباب ومقدمات، بأقيسة فاسدة يدعي معرفتها بها، وخيالات شيطانية، وربما تنزلت عليه الشياطين، وما زجت أنفاسه الخبيثة أنفاس إخوانه من الشياطين، فإنها تنزل علىٰ الكاهن والمنجم والرمال والساحر ونحوهم، وكل من ادعىٰ شيئا من هذه الأمور لقوله تعالىٰ: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[الشعراء:٢٢٢].

قوله: «والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل»:

ويدعي معرفة الأسرار، ويأخذ عن مسترق السمع ونحو ذلك، وسمي عرافا لادعائه المعرفة.

قوله: «وقيل: الذي يخبر عما في الضمير»:

أي: وقيل: الذي يخبر عما في الضمير داخل أيضًا في اسم العراف.

قوله: «العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم»:

كالحازر الذي يدعي علم الغيب، أو يدعي الكشف. وقال أيضا: والمنجم يدخل في اسم العراف، وعند بعضهم هو في معناه. وقال أيضا: والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء، وحكىٰ ذلك عن العرب، وعند آخرين هو من جنس الكاهن وأسوأ حالا منه، فيلحق به من جهة المعنىٰ. وقال الإمام أحمد: العرافة طرف من السحر، والساحر أخبث. وقال ابن القيم: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفًا وعرافًا.

قوله: «ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطريقة»:

فهؤلاء أدخلهم شيخ الإسلام في اسم العراف، والمقصود من هذا: معرفة من يدعي معرفة علم شيء من المغيبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنىٰ فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف، ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل والزجر والطيرة والضرب بالحصىٰ والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر، ونحو ذلك من علوم الجاهلية أعداء الرسل كالفلاسفة والكهان والمنجمين، وجاهلية العرب قبل البعثة، وكل هذه الأمور يسمَّىٰ صاحبها كاهنًا وعرافًا أو ما في معناهما، ومن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد، وكذا الذي يعزم علىٰ المصروع، ويزعم أنه يجمع الجن وأنها تطيعه، والذي يحل السحر، فإذا كان ذلك لا يحصل إلا بالشرك والتقرب إلىٰ الجن فإنه يكفر.

❁ **قوله: «وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد»:**

كتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدعي بها علم الغيب هو الذي جاء فيه الوعيد، وهو الذي يسمىٰ علم الحروف، فيقطون حروف «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ»، فيجعلون «الألف» واحدًا و«الباء» اثنين، إلىٰ نهاية الحرف العاشر، ثم يبدءون «الكاف» عشرة و«اللام» عشرين، وهكذا إلىٰ «الشين» مائتين، إلىٰ أن تتم هذه الحروف، وأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به.

❁ **قوله: «وينظرون في النجوم»:**

أي: ويعتقدون أن لها تأثيرًا، فيأخذون أمورهم ومقاصدهم بما يبين لهم علىٰ زعمهم الفاسد من النجوم بأعداد وحساب، يزعمون أنهم يدركون بذلك علم الغيب؛ يعني: فهذا النوع أيضًا من العرافين.

❁ **قوله: «ما أرىٰ من فعل ذلك له عند الله من خلاق»:**

لا أرىٰ بالفتح بمعنىٰ لا أعلم، ويجوز الضم بمعنىٰ لا أظن لهم عند الله من نصيب. وهذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعًا، ولفظه: «رب معلم حروف أبي جاد، دارس في النجوم، ليس له عند الله خلاق يوم القيامة». ورواه عنه حميد بن زنجويه بلفظ: «رب ناظر في النجوم». وقد استأثر الله بعلم الغيب كما قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩]. وفيه من الفوائد عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم، والحذر من كل علم لا تعلم صحته من كتاب الله وسنة رسولهﷺ.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «باب ما جاء في الكهان ونحوهم»:**

أي: من كل من يدعي علم الغيب بأي طريق من الطرق، وذلك أن الله تعالىٰ هو المنفرد بعلم الغيب، فمن ادعىٰ مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرها أو صدق من ادعىٰ ذلك؛ فقد جعل لله شريكًا فيما هو من خصائصه وقد كذَّب الله ورسوله.

وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلىٰ الوسائط التي تستعين بها علىٰ دعوىٰ العلوم الغيبية فهو شرك من جهة دعوىٰ مشاركة الله في علمه الذي اختص به ومن جهة التقرب إلىٰ غير الله، وفيه إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في الكهان ونحوهم»:

ونحوهم: من العرافين والرمالين والسحرة ومن يدعي علم الغيب.

والكاهن: هو الذي له راء من الجن؛ أي: صاحب وحكمهم أنه يجب القضاء عليهم وتعزيرهم وتكذيبهم وعدم سؤالهم.

قوله: روىٰ مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبيﷺ أنه قال: «**من أتىٰ عرَّافًا فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**» (١٦).

بعض أزواجه: هي حفصة كما قال المخرجون.

فصدقه: ليست هذه اللفظة في مسلم فلعل المؤلف وهم أو نقله من نسخة فيها هذه الكلمة في مجموعة التوحيد: «**فصدقه**» هي عند أحمد، فرواية مسلم تدل علىٰ أن السؤال المجرد لا يجوز؛ لأن فيه رفعًا من شأنهم وسؤالهم وسيلة إلىٰ تصديقهم وتعظيمًا لقدرهم ولما يقومون به من الشعوذة فينبغي تركهم وتناسيهم، وعند مسلم عن معاوية بن الحكم قال: «ليسوا بشيء، ولا يأتوهم» (١٧). احتقارًا لهم وإعراضًا عنهم وإماتة لهم ولشأنهم.

❁ **قوله**: «**وعن أبي هريرة مرفوعًا: من أتىٰ كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد**»:

يدل علىٰ إن إتيانهم لا يجوز، وتصديقهم في ادعاء علم الغيب كفر؛ لأن علم الغيب إلىٰ الله وحده وهم ليسوا رسلًا وكذلك الكاهن كافر إذا ادعىٰ علم الغيب ومن صدقه كفر؛ لأنه لم يؤمن بقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل:٦٥] فيجب الحذر منهم.

قوله: «**ولأبي يعلىٰ بسند جيد عن ابن مسعود موقوفًا مثله**»: وهذا له حكم الرفع؛ لأنه لا يقوله من رأيه بل لا يكون إلا عن النبيﷺ.

❁ **قوله**: «**وعن عمران بن حصين مرفوعًا: ليس منا من تَطير أوتُطيِّر له أو تَكهن أو تُكهِّن له...**»: وهذا وعيد وترهيب لمن فعل هذه الأمور.

ليس منا؛ أي: ليس من المتبعين لسنة رسول اللهﷺ.

---

(١٦) سبق تخريجه.

(١٧) لم أقف عليه من حديث معاوية بهذا اللفظ ولكنه عند البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم، برقم (٧٥٦١)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم (١٢٣/٢٢٢٨)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

أما التكفير فيؤخذ من أدلة أخرىٰ فيها التفصيل وإن كان ظاهره التكفير.

فالتطير سواء لنفسه أو تُطير له غيره برضاه، أو تكهن بنفسه أو تكهن له غيره برضاه.. أما التكفير، ففيه تفصيل كما تقدم. وتصديقهم كفر أكبر ومن ادعىٰ علم الغيب يستتاب وإلا قتل وإذا لم يدعِ علم الغيب؛ فإنه يعزر حتىٰ لا يعود إليه.

❁ **قوله:** «قال البغوي: العراف: الذي يدع معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها ...»:

مقدمات؛ أي: بأشياء ينظمها يستدل بها علىٰ مكان المسروق وقد يعرفها بالآثار كآثار الدابة ورعيها وهذه قد تقع لكن لا يكون من العرافين المذمومين إلا إذا ادعىٰ علم الغيب أما الأمور الحسية فليست من هذا الباب.

عما في الضمير: فيقول أراد فلان كذا وقصد كذا بما يسأله صاحبه من الشياطين والجن.

فائدة:

لا يجوز تعلم السحر أبدًا حتىٰ إذا قصد به فك السحر؛ لأنه لابد وأن يترتب عليه عبادة لغير الله أو فعل محرم أو ترك واجب.

❁ **قوله:** «قال أبو العباس: العراف اسم الكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ...»:

وهذه تدل كلها -أي: النصوص والآثار- علىٰ أن هؤلاء الكهنة والسحرة والرمالين هم المذمومون وهم الذين يدعون علم الغيب.

قوله: «قال ابن عباس: في قوم يكتبون «أبا جاد» وينظرون في النجوم»؛ أي: حروف «أبجد» وهي حروف الهجاء؛ فيكتبون الحروف ويضمونها إلىٰ بعض ويقولون: يقع كذا ويقع كذا.

ما له من خلاق؛ أي: من حظ ونصيب لأن فيه ادعاء لعلم الغيب وهو كفر.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «باب ماجاء في الكهان ونحوهم»:

الكهان: جمع كاهن، والكهنة أيضًا جمع كاهن، وهم قوم يكونون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما كان في السماء، تَسْتَرِقُ السمع من السماء، وتخبر الكاهن به، ثم الكاهن يضيف إلىٰ هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء؛ اعتقده الناس عالمًا بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم؛ فهم مرجع للناس في الحكم؛ ولهذا يسمُّون الكهنة؛ إذ هم يخبرون عن الأمور في المستقبل، يقولون: سيقع كذا وسيقع كذا، وليس من

الكهانة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب؛ فإن الأمور التي تدرك بالحساب ليست من الكهانة في شيء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر؛ فهذا ليس من الكهانة؛ لأنه يدرك بالحساب، وكما لو أخبر أن الشمس تغرب في ٢٠ من برج الميزان مثلًا في الساعة كذا وكذا، فهذا ليس من علم الغيب، وكما يقولون: إنه سيخرج في أول العام أو العام الذي بعده مذنب «هالي»، وهو نجم له ذنب طويل؛ فهذا ليس من الكهانة في شيء؛ لأنه من الأمور التي تدرك بالحساب؛ فكل شيء يدرك بالحساب، فإن الإخبار عنه ولو كان مستقبلًا لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة.

وهل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس في خلال أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا؛ لأنه أيضًا يستند إلىٰ أمور حسية، وهي تكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف علىٰ صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم؛ فيكون صالحًا لأن يمطر، أو لا يمطر، ونظير ذلك في العلم البدائي إذا رأينا تجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول: يوشك أن ينزل المطر.

فالمهم أن ما استند إلىٰ شيء محسوس؛ فليس من علم الغيب، وإن كان بعض العامة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون: إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبيح، كما قال السفاريني:

فكل معلوم بحس أو حجا فنكره جهل قبيح بالهجا

فالذي يُعلم بالحس لا يمكن إنكاره ولو أن أحدًا أنكره مستندًا بذلك إلىٰ الشرع لكان ذلك طعنًا بالشرع.

قوله: «من»: شرطية، فهي للعموم.

والعراف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة؛ أي: من ينتسب إلىٰ العرافة.

والعراف قيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المسقبل، وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل علىٰ معرفة الغيب بمقدمات يستعملها، وهذا المعنىٰ أعم، ويدل عليه الاشتقاق؛ إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطىٰ هذه الأمور وادعىٰ بها المعرفة.

قوله: **«فسأله، عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»**:

ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يومًا، ولكنه ليس علىٰ إطلاقه؛ فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلىٰ أقسام:

القسم الأول: أن يسأله سؤالًا مجردًا؛ فهذا حرام لقول النبيﷺ: «**من أتىٰ عرافًا...**» فإثبات العقوبة علىٰ سؤاله يدل علىٰ تحريمه؛ إذ لا عقوبة إلا علىٰ فعلٍ محرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله: فهذا كفر لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن، حيث قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل:٦٥].

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره: هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله؛ فهذا لا بأس به، ولا يدخل في الحديث، وقد سأل النبيﷺ ابن صياد، فقال: «**ماذا خبأت لك؟ قال: الدخ فقال: اخسأ، فلن تعدو قدرك**»[١٨]؛ فالنبيﷺ سأله عن شيء أضمره له؛ لأجل أن يختبره، فأخبره به.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور يتبين بها كذبه وعجزه، وهذا مطلوب، وقد يكون واجبًا. وإبطال قول الكهنة لا شك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجبًا؛ فصار السؤال هنا ليس علىٰ إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل علىٰ حسب ما دلت عليه الأدلة الشرعية الأخرىٰ.

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الجن يخدمون الإنس في أمور، والكهان يستخدمون الجن ليأتوهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب ما يضيفون، وخدمة الجن للإنس ليست محرمة علىٰ كل حال، بل هي علىٰ حسب الحال.

فالجني يخدم الإنس في أمور لمصلحة الإنس، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة، بل لأنه يحبه في الله ولله، ولا شك أن من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس؛ لأنه يجمعهم الإيمان بالله.

وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضي اللهﷻ؛ إما في الذبح لهم، أو في عبادتهم، أو ما أشبه ذلك.

والأغرب من ذلك أنهم ربما يخدمون الإنس لأمر محرم من زنا أو لواط؛ لأن الجنية قد تستمتع بالإنسي بالعشق والتلذذ بالاتصال به، أو بالعكس، وهذا أمر معلوم مشهود، حتىٰ ربما كان الجني الذي في الإنسان ينطق بذلك، كما يعلم من الذين يقرءون علىٰ المصابين بالجن.

---

(١٨) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلىٰ عليه وهل يعرض علىٰ الصبي الإسلام، برقم (١٣٥٤)، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر ابن صياد، برقم (٢٩٣٠)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

والنبي ﷺ حضر إليه الجن وخاطبهم وأرشدهم، ووعدهم بعطاء لا نظير له، فقال لهم: **«كل عظم ذُكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة؛ فهي علف لدوابكم»**(١٩) وذكر أن في عهد عمر رضي الله عنه امرأة لها رئيٌّ من الجن، وكانت توصيه بأشياء، حتىٰ إنه تأخر عمر ذات يوم، فأتوا إليها، فقالوا: ابحثي لنا عنه. فذهب هذا الجني الذي فيها، وبحث وأخبرهم أنه في مكان كذا، وأنه يسم إبل الصدقة.

وقوله: «فصدقه»:

ليس في «صحيح مسلم»، بل الذي في «مسلم»: **«فسأله؛ عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»**، وزيادتها في نقل المؤلف؛ إما لأن النسخة التي نقل منها بهذا اللفظ «فصدقه»، أو أن المؤلف عزاه إلىٰ «مسلم» باعتبار أصله، فأخذ من «مسلم»: «فسأله»، وأخذ من أحمد: «فصدقه».

❁ **قوله: «لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»:**

نفي القبول هنا هل يلزم منه نفي الصحة أولا؟

نقول: نفي القبول إما أن يكون لفوات شرط، أو لوجود مانع؛ ففي هاتين الحالين يكون نفي القبول نفيًا للصحة، كما لو قلت: من صلىٰ بغير وضوء لم يقبل الله صلاته، ومن صلىٰ في مكان مغصوب لم يقبل الله صلاته عند من يرىٰ ذلك.

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع؛ فلا يلزم من نفي القبول نفي الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفي: إما نفي القبول التام؛ أي: لم تقبل علىٰ وجه التمام الذي يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة.

وإما أن يراد به أن هذه السيئة التي فعلها تقابل تلك الحسنة في الميزان، فتسقطها، ويكون وزرها موازيًا لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطته.

ومثله قوله ﷺ: **«من شرب الخمر، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»**(٢٠).

---

(١٩) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة علىٰ الجن، برقم (٤٥٠)، والترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة الأحقاف، برقم (٣٢٥٨)، وأحمد (١/ ٤٣٦)، وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢٠) أخرجه الترمذي، كتاب: الأشربة، باب: شارب الخمر، برقم (١٨٦٢)، والنسائي -بنحوه- كتاب: الأشربة، باب: الآثام المتولدة عن شرب الخمر...، برقم (٥٦٦٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وابن ماجه، كتاب: الأشربة، باب: من شرب الخمر لم تقبل له صلاة، برقم (٣٣٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٦٣١٢).

❁ **قوله:** «أربعين يومًا»:

تخصيص هذا العدد لا يمكننا أن نعلله؛ لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالبًا أن يعرف حكمته، فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خصصت بذلك؛ فهذا من الأمور التي يقصد بها التعبد لله، والتعبد لله بما لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته؛ لأنه أبلغ في التذلل، صحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن كون الإنسان ينقاد لما لا يعرف حكمته دليل على كمال الانقياد والتعبد لله ﷻ؛ فهو من حيث العبودية أبلغ وأكمل، أما ذاك؛ فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلغ؛ لأن النفس إذا علمت بالحكمة في شيء اطمأنت إليه بلا شك، وازدادت أخذًا له وقبولًا؛ فهناك أشياء مما عينه الشرع بعدد أو كيفية لا نعلم ما الحكمة فيه، ولكن سبيلنا أن نكون كما قال الله تعالى عن المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦]. فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله، إلا ما استثني؛ كالقسم الثالث والرابع، لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة، التي ترتب على تشجيعهم وإغراء الناس بهم، وهم في الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة.

❁ **قوله:** «من أتى كاهنًا»:

تقدم معنى الكهان، وأنهم كانوا رجالًا في أحياء العرب تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قوله: «فصدقه»؛ أي: نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر؛ يعني: تثبيته وتحقيقه، فقال: هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: «بما يقول». «ما» عامة في كل ما يقول: حتى ما يحتمل أنه صدق؛ فإنه لا يجوز أن يصدقه؛ لأن الأصل فيهم الكذب.

❁ **قوله:** «فقد كفر بما أنزل على محمد»:

أي: بالذي أنزل، والذي أنزل على محمد ﷺ القرآن؛ أنزل إليه بواسطة جبريل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشعراء:١٩٢، ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾[النحل:١٠٢]، وبهذا نعرف أن القول الراجح في الحديث القدسي أنه من كلام الله تعالى

معنىٰ، وأما لفظه؛ فمن الرسول ﷺ، لكنه حكاه عن الله؛ لأننا لو لم نقل بذلك لكان الحديث القدسي أرفع سندًا من القرآن، حيث إن الرسول ﷺ يرويه عن ربه مباشرة والقرآن بواسطة جبريل.

ولأنه لو كان من كلام الله لفظًا؛ لوجب أن تثبت له أحكام القرآن؛ لأن الشرع لا يفرق بين المتماثلين، وقد علم أن أحكام القرآن لا تنطبق علىٰ الحديث القدسي؛ فهو لا يتعبد بتلاوته ولا يقرأ في الصلاة، ولا يعجز لفظه، ولو كان من كلام الله؛ لكان معجزًا؛ لأن كلام الله لا يماثله كلام البشر، وأيضًا باتفاق أهل العلم فيما أعلم أنه لو جاء مشرك يستجير ليسمع كلام الله وأسمعناه الأحاديث القدسية، فلا يصح أن يقال: إنه سمع كلام الله؛ فدل هذا علىٰ أنه ليس من كلام الله، وهذا هو الصحيح، وللعلماء في ذلك قولان: هذا أحدهما، والثاني: أنه من قول الله لفظًا.

فإن قال قائل: كيف تصححون هذا والنبي ﷺ ينسب القول إلىٰ الله، ويقول: قال الله تعالىٰ، ومقول القول هو هذا الحديث المسوق؟ **قلنا**: هذا كما قال الله تعالىٰ عن موسىٰ وفرعون وإبراهيم: قال موسىٰ، قال فرعون، قال إبراهيم... مع أننا نعلم أن هذا اللفظ ليس من كلامهم ولا قولهم؛ لأن لغتهم ليست اللغة العربية، وإنما نقل نقلًا عنهم، ويدل لهذا أن القصص في القرآن تختلف بالطول والقصر والألفاظ، مما يدل علىٰ أن الله سبحانه ينقلها بالمعنىٰ، ومع ذلك ينسبها إليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾[الزخرف:٢٦،٢٧]، وقال عن موسىٰ: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾[الأعراف:١٢٨]، وقال عن فرعون: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[الشعراء:٣٤].

❁ **قوله**: «بما أنزل علىٰ محمد»:

ذكر أهل السنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه مُنَزَّل أو أُنزل من الله؛ فهي دالة علىٰ علو الله – سبحانه وتعالىٰ – بذاته، وعلىٰ أن القرآن كلام الله؛ لأن النزول يكون من أعلىٰ، والكلام لا يكون إلا من متكلم به.

❁ **قوله**: «كفر بما أنزل علىٰ محمد»:

وجه ذلك: أن ما أنزل علىٰ محمد قال الله تعالىٰ فيه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[النمل:٦٥]، وهذا من أقوىٰ طرق الحصر؛ لأنه فيه النفي والإثبات؛ فالذي يُصدِّق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله؛ فهو كافر كفرًا أكبر مخرجًا عن الملة، وإن كان جاهلًا ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب؛ فكفره كفر دون كفر.

قوله: «وللأربعة والحاكم»:

الأربعة هم: أبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم ليس من أهل «السنن»، لكن له كتاب سمي «صحيح الحاكم».

قوله: «صحيح على شرطهما»:

أي: شرط البخاري ومسلم، لكن قوله: «**على شرطهما**» هذا على ما يعتقد، وإلا؛ فقد يكون الأمر على خلاف ذلك.

ومعنى قوله: «**على شرطهما**»؛ أي: أن رجاله رجال «الصحيحين»، وأن ما اشترطه البخاري ومسلم موجود فيه. ونحن لا ننكر أن هناك أحاديث صحيحة لم يذكرها البخاري ومسلم؛ لأنهما لم يستوعبا الصحيح كله، وهذا أمر واقع، ولكن ينظر في قول من قال: إن هذا الحديث على شرطهما؛ فقد تكون فيه علة خفية خفيت على هذا القائل، ويكون البخاري ومسلم علماها وتركا الحديث من أجلها.

قوله: «صحيح»:

يقولون: الحاكم ممن يتساهل بالتصحيح؛ ولهذا قالوا: لا عبرة بتصحيح الحاكم، ولا بتوثيق ابن حبان، ولا بوضع ابن الجوزي، ولا بإجماع ابن المنذر.

وهذا القول فيه مجازفة في الحقيقة؛ لأن كلمة «لا عبرة»، أي: لا يلتفت إليه، والصواب أنه لا يؤخذ مقبولًا في كل حال، مع أني تدبرت كلام ابن المنذر رَحِمَهُ اللَّهُ، ووجدت أنه دائمًا إذا نقل الإجماع يقول: إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم، وهو بهذا قد احتفظ لنفسه، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ولكننا مع ذلك نقول: إذا كان الرجل ذا اطلاع واسع؛ فقد يكون هذا القول إجماعًا، إما إذا كان هذا الرجل لا يعرف إلا ما حوله؛ فإن قوله هذا لا يكون إجماعًا ولا يوثق به، ولا نحكم بأنه إجماع.

مثاله: فلو قال رجل: لم يدرس إلا المذهب الحنبلي في مسألة، وقال هذا إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم؛ فإن قوله هذا لا يعتبر؛ لأنه لم يحفظ إلا قولًا قليلًا من أقوال أهل العلم.

قوله: «من أتى عرافًا أو كاهنًا»:

«أو» يحتمل أن تكون للشك، ويحتمل أن تكون للتنويع؛ فالحديث الأول بلفظ عراف، والثاني بلفظ كاهن، والثالث جمع بينهما؛ فتكون «أو» للتنويع.

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه؛ لأن كثرة الأدلة مما يُقوِّي المدلول، أرأيت لو أن رجلًا أخبرك بخبر فوثقت به، ثم جاء آخر وأخبرك به ازددت توثقًا وقوة؛ ولهذا فَرّق الشارع بين أن يأتي الإنسان بشاهد واحد أو شاهدين.

وظاهر صنيع المؤلف: أن حديث أبي هريرة: «من أتىٰ عرافًا أو كاهنًا» أنه موقوف؛ لأنه قال: عن أبي هريرة، لكنه لما قال في الذي بعده: «موقوفًا» ترجح عندنا أن الحديث الذي قبله مرفوع.

قوله: «مرفوعًا»:

أي: إلىٰ النبي ﷺ.

قوله: «ليس منا»: تقدم الكلام علىٰ هذه الكلمة، وأنها لا تدل علىٰ خروج الفاعل من الإسلام، بل علىٰ حسب الحال.

قوله: «تطير»:

التطير: هو التشاؤم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير؛ لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بها، وقد سبق ذلك.

ومنه ما يحصل لبعض الناس إذا شرع في عمل، ثم حصل له في أوله تَعَثُّر تركه وتشاءم؛ فهذا غير جائز؛ بل يعتمد علىٰ الله ويتوكل عليه، وما دمت أنك تعلم أن في هذا الأمر خيرًا؛ فغامر فيه، ولا تتشاءم؛ لأنك لم توفق فيه لأول مرة؛ فكم من إنسان لم يوفق في العمل أول مرة، ثم وفق في ثاني مرة أو ثالث مرة؟!

ويقال: إن الكسائي - إمام النحو - طلب النحو عدة مرات، ولكنه لم يوفق، فرأىٰ نملة تحمل نواة تمر، فتصعد بها إلىٰ الجدار، فتسقط، حتىٰ كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلىٰ الجدار وتجاوزته؛ فقال: سبحان الله ! هذه النملة تكابد هذه النواة حتىٰ نجحت؛ إذًا أنا سأكابد علم النحو حتىٰ أنجح. فكابد؛ فصار إمام أهل الكوفة في النحو.

قوله: «أو تُطير له»: بالبناء للمفعول؛ أي: أمرَ من يتطير له، مثل أن يأتي شخص، ويقول: سأسافر إلىٰ المكان الفلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك لأنظر: هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك؛ فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: «من تطير»: يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

قوله: «أو تَكَهن أو تُكهن له»:

سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب في المستقبل، يقول: سيكون كذا وكذا، وربما يقع؛ فهذا متكهن، ومن الغريب أنه شاع الآن في أسلوب الناس قولهم: تكهن بأن فلانًا سيأتي، ويطلقون هذا اللفظ الدال علىٰ عمل محرم علىٰ أمر مباح، وهذا لا ينبغي؛ لأن العامي الذي لا يفرق بين الأمور يظن أن الكهانة كلها مباحة، بدليل إطلاق هذا اللفظ علىٰ شيء مباح معلوم إباحته.

❁ قوله: «أو تكهن له»:

أي: طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول للكاهن: ماذا يصيبني غدًا، أو في الشهر الفلاني، أو في السنة الفلانية، وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

❁ قوله: «أو سَحَر أو سُحِر له»:

تقدم تعريف السحر، وتقدم بيان أقسامه.

قوله: «أو سُحِر له»؛ أي: طلب من الساحر أن يسحر له، ومنه النُّشْرة عن طريق السحر؛ فهي داخلة فيه، وكانوا يستعملونها علىٰ وجوه متنوعة، منها أنهم يأتون بطست فيه ماء، ويَصبُّون فيه رصاصًا، فيتكون هذا الرصاص بوجه الساحر؛ أي: تكون صورة الساحر في هذا الرصاص، ويسمونها العامة عندنا «صب الرصاص»، وهذا من أنواع السحر المحرم، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من فاعله.

الشاهد من هذا الحديث: قوله: «ومن أتىٰ كاهنًا...» إلخ.

❁ قوله: «ورواه الطبراني في «الأوسط»»:

بإسناد حسن من حديث ابن عباس...» إلخ؛ فيكون هذا مقويًا للأول.

❁ قوله: «قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات...»:

العراف: صيغة مبالغة فإما أن يراد بها الصيغة، وإما أن يراد بها النسبة. وهو الذي يَدّعي معرفة الأشياء، وليس كل من يَدَّعي معرفة يكون عرافًا، لكن من يدعي معرفة تتعلق بعلم الغيب، فيدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها علىٰ مكان المسروق والضالة ونحوها.

وظاهر كلام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه شامل لمن ادعىٰ معرفة المستقبل والماضي؛ لأن مكان المسروق يعلم بعد السرقة، وكذلك الضالة قد حصل الضياع، ولكن المسألة ليست اتفاقية بين أهل العلم، ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقيل: هو»؛ أي: العراف الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المُغَيّبات في المستقبل.

❁ قوله: «وقيل: هو الذي يخبر عما في الضمير»:

أي: أن تضمر شيئًا فتقول: ما أضمرتُ؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا. أو المغيبات في المستقبل، تقول: ماذا سيحدث في الشهر الفلاني في اليوم الفلاني؟ ماذا ستلد امرأتي؟ متىٰ يقدم ولدي؟ وهو لا يدري.

والخلاصة: أن العلماء اختلفوا في تعريف العراف؛ فقيل:

هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها علىٰ مكان المسروق والضالة ونحوها؛

فيكون شاملًا لمن يخبر عن أمور وقعت وقيل: الذي يخبر عما في الضمير. وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

❁ **قوله: «وقال أبو العباس ابن تيمية»:**

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، يكنىٰ بأبي العباس، ولم يتزوج، ولم يتركه من باب الرهبانية، ولكنه -والله أعلم- كان مشغولًا بالجهاد العلمي مع قلة الشهوة، وإلا لو كان قوي الشهوة لتزوج، وليس كما يدعي المُزَوِّرون أن له ولدًا مدفونًا إلىٰ جانبه في دمشق؛ فإنه غير صحيح قطعًا.

وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جزم بهذا، ولكن شيخ الإسلام قال: وقيل العراف، وذكره بقيل، ومعلوم أن ما ذُكر بقيل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم ينقضه؛ فهذا دليل علىٰ أنه ارتضاه.

وعلىٰ كل حال؛ فشيخ الإسلام ساق هذا القول وارتضاه، ثم قال: ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء الرَّمال والمُنجِّم ونحوهم؛ فإنهم يدخلون فيه بالعموم المعنوي؛ لأن عندنا عمومًا معنويًّا، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعمومًا لفظيًّا، وهو ما دل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملًا له. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن استخدام الإنس للجن له ثلاث حالات:

الحال الأولىٰ: أن يستخدمهم في طاعة الله، كأن يكون له نائبًا في تبليغ الشرع؛ فمثلًا: إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقىٰ منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه في تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة علىٰ أمور مطلوبة شرعًا، فهذا لا بأس به، بل إنه قد يكون أمرًا محمودًا أو مطلوبًا، وهو من الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والجن حضروا النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن، وولوا إلىٰ قومهم منذرين، والجن فيهم الصلحاء والعباد والزهاد والعلماء؛ لأن المنذر لا بد أن يكون عالمًا بما ينذر، عابدًا مطيعًا لله سبحانه في الإنذار.

الحال الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحة، مثل أن يطلب منهم العون علىٰ أمر من الأمور المباحة، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمة؛ صار حرامًا، كما لو كان الجني لا يساعده في أموره إلا إذا ذبح له أو سجد له أو ما أشبه ذلك.

ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مرة في سفره، فاشتغل فكر أبي موسىٰ، فقالوا له: إن امرأة من أهل المدينة لها صاحب من الجن، فلو أمرتها أن ترسل صاحبها للبحث عن عمر، ففعل،

فذهب الجني، ثم رجع، فقال: إن أمير المؤمنين ليس به بأس، وهو يَسِمُ إبل الصدقة في المكان الفلاني، فهذا استخدام في أمر مباح.

الحال الثالثة: أن يستخدمهم في أمور محرمة؛ كنهب أموال الناس وترويعهم، وما أشبه ذلك؛ فهذا محرم، ثم إن كانت الوسيلة شركًا صار شركًا، وإن كانت وسيلته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجني الفاسق يألف هذا الإنسي الفاسق ويتعاون معه على الإثم والعدوان؛ فهذا يكون إثمًا وعدوانًا، ولا يصل إلىٰ حد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من يسأل الجن، ويصدقهم في كل ما يقولون؛ فهذا معصية وكفر، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي، فمن قرآها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتىٰ يصبح، كما ثبت ذلك عنهﷺ، وهي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ...﴾الآية[البقرة:٢٥٥].

❁ **قوله: «يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم»:**

الواو هنا ليست عطفًا، ولكنها للحال؛ يعني: والحال أنهم ينظرون، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها.

قوله: «**ما أُرىٰ من فعل ذلك**»: ويجوز بفتح «الهمزة»؛ بمعنىٰ: أعلم، وبالضم؛ بمعنىٰ: ماظن.

وقوله: «**أبا جاد**»: هي:

أبجــــد هــــوز حطــــي كلمــــن ... ســــعفص قرشــــت ثخــــذ ضــــظغ

وتعلم أباجاد ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجمل، وما أشبه ذلك؛ فهذا لا بأس به، وما زال أناس يستعملونها، حتىٰ العلماء يؤرخون بها، قال شيخنا عبد الرحمن بن سعديرَحِمَهُ اللَّهُ في تاريخ بناء المسجد الجامع القديم:

جــــد بالرضــــا واعــــط المنــــىٰ ... مــــن ســــاعدوا في ذا البنــــا
تاريخــــه حــــين انتهــــىٰ ... قــــول المنيــــب اغفــــر لنــــا
والــــشهر في شــــوال يــــا ... رب تقبــــل ســــعينا

فقوله: «اغفر لنا» لو عددناها حسب الجمل صارت ١٣٦٢هـ.

وقد اعتنىٰ بها العلماء في العصور الوسطىٰ، حتىٰ في القصائد الفقهية والنحوية وغيرها، ويؤرخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، ولم يرد ابن عباس هذا القسم.

الثاني: مُحَرَّم، وهو كتابة «أبا جاد» كتابة مربوطة بسير النجوم وحركتها وطلوعها وغروبها، وينظرون في النجوم ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة علىٰ ما سيحدث في الأرض، إما علىٰ سبيل العموم؛ كالجَدْب والمرض والحرب وما أشبه ذلك، أو علىٰ سبيل الخصوص؛ كأن يقول لشخص: سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس في هذا وما أشبه ذلك؛ فهم يربطون هذه بهذه، وليس هناك علاقة بين حركات النجوم واختلاف الوقائع في الأرض.

❁ **قوله**: «**ما أرىٰ من فعل ذلك له عند الله من خلاق**»:

قوله: «**خلاق**»؛ أي: نصيب.

ظاهر كلام ابن عباس أنه يرىٰ كفرهم؛ لأن الذي ليس له نصيب عند الله هو الكافر؛ إذ لا ينفىٰ النصيب مطلقًا عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عُذِّب بقدر ذنوبه، أو تجاوز الله عنها، ثم صار آخر أمره إلىٰ نصيبه الذي يجده عند الله.

ولم يبين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة في الدنيا، وذلك أننا إن حكمنا بكفرهم، فحكمهم في الدنيا أنهم يستتابون، فإن تابوا، وإلا؛ قتلوا كفارًا.

وإن حكمنا بعدم كفرهم؛ إما لكون السحر لا يصل إلىٰ الكفر، أو قلنا: إنهم لا يكفرون؛ لأن المسألة فيها خلاف؛ فإنه يجب قتلهم لدفع مفسدتهم ومضرتهم، حتىٰ وإن قلنا بعدم كفرهم؛ لأن أسباب القتل ليست مختصة بالكفر فقط، بل للقتل أسباب متعددة ومتنوعة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾[المائدة:٣٣]، فكل من أفسد علىٰ الناس أمور دينهم أو دنياهم؛ فإنه يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلىٰ الإخراج من الإسلام.

والنظر في النجوم ينقسم إلىٰ أقسام:

الأول: أن يستدل بحركاتها وسيرها علىٰ الحوادث الأرضية، سواء كانت عامة أو خاصة؛ فهو شرك إن اعتقد أن هذه النجوم هي المدبرة الأمور، أو أن لها شركًا؛ فهو كفر مخرج عن الملة، وإن اعتقد أنها سبب فقط؛ فكفره غير مخرج عن الملة، ولكن يسمىٰ كفرًا؛ لقول النبي ﷺ علىٰ إثر سماء كانت من الليل: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من**

عبادي مؤمن بي وكافر، أما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[٢١].

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلىٰ قسمين بحسب اعتقاد قائله.

الثاني: أن يتعلم علم النجوم ليستدل بحركاتها وسيرها علىٰ الفصول وأوقات البذر والحصاد والغرس وما أشبهه؛ فهذا من الأمور المباحة؛ لأنه يستعان بذلك علىٰ أمور دنيوية.

القسم الثالث: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات وجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة؛ فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية أو فرض عين.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن: يؤخذ من قوله ﷺ: **«من أتىٰ كاهنًا، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد»**[٢٢]، ووجهه: أنه كذب بالقرآن، وهذا من أعظم الكفر.

الثانية: التصريح بأنه كفر: تؤخذ من قوله: **«فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد»**.

الثالثة: ذكر من تُكهن له: تؤخذ من حديث عمران بن حصين؛ حيث قال: **«ليس منا»**؛ أي: إنه كالكاهن في براءة النبي ﷺ منه.

الرابعة: ذكر من تطير له: تؤخذ من قوله: **«أو تطير له»**.

الخامسة: ذكر من سحر له: تؤخذ من قوله: **«أو سحر له»**.

وأتىٰ المؤلف بذكر من تكهن له، أو سحر له، أو تطير له؛ لأنه قد يعارض فيه معارض، فيقول هذا في الكهان، وهذا في المتطيرين، وهذا في السحرة؛ فقال: إن من طلب أن يفعل له ذلك؛ فهو مثلهم في العقوبة.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد: وتعلم ذلك فيه تفصيل لا يحمد ولا يذم؛ إلا علىٰ حسب الحال التي تُنَزَّل عليها، وقد سبق ذلك.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف: وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

---

(٢١) سبق تخريجه.

(٢٢) سبق تخريجه.

القول الأول: أن العراف هو الكاهن والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل؛ فهما مترادفان؛ فلا فرق بينهما.

القول الثاني: أن العراف هو الذي يستدل علىٰ معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها المسروق ومكان الضالة ونحوها؛ فهو أعم من الكاهن؛ لأنه يشمل الكاهن وغيره، فهما من باب العام والخاص.

القول الثالث: أن العراف هو الذي يخبر عما في الضمير، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

فالعراف هو الكاهن أو أنه أعم منه، أو أن العراف يختص بالماضي، والكاهن بالمستقبل؛ فهما متباينان، والظاهر أنهما متباينان؛ فالكاهن من يخبر عن المغيبات في المستقبل(والعراف من يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها علىٰ المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك) غير واضح؛ لأنهما لو كانا متباينين لقلنا: والعراف هو الذي يخبر عما في الضمير أو أن يكونا من باب العام والخاص فيقال في العراف ما هو مطبوع هنا بين القوسين.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «**باب ما جاء في الكهان ونحوهم**»:

«**الكهان**»: جمع كاهن وهو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل اعتمادًا علىٰ الاستعانة بالشياطين.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لَمَّا كان الكهان ونحوهم يدعون علم الغيب الذي قد اختص به الله تعالىٰ، وذلك دعوىٰ مشاركة الله تعالىٰ في علم الغيب، أراد المصنف أن يبين في هذا الباب ما جاء في حقهم وحق من صدقهم من الوعيد.

«**ما جاء في الكهان**»؛ أي: من التغليظ والوعيد.

«**ونحوهم**»: كالعرَّافين والمنجِّمِين والرمَّالِين.

❁ **قوله**: «**عن بعض أزواج النبي**»:

هي: حفصة.

«**لم تقبل له صلاة**»؛ أي: لا ثواب له فيها.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يبين ﷺ الوعيد المترتب علىٰ الذهاب إلىٰ الكهان ونحوهم لسؤالهم عن المغيبات التي لا يعلمها إلاَّ الله، أنَّ جزاء من فعل ذلك حرمانه من ثواب صلاته لمدة أربعين يومًا؛ لتلبسه بالمعصية. وفي هذا

وعيدٌ شديدٌ ونهيٌ أكيدٌ عن هذا الفعل، مما يدل على أنه من أعظم المحرمات، وإذا كان هذا جزاء من أتى الكاهن فكيف بجزاء الكاهن نفسه؟ نعوذ بالله من ذلك ونسأله العافية.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي عن إتيان الكهان ونحوهم، وعن تصديقهم لمنافاته للتوحيد.

ما يستفاد من الحديث:

١- المنع من الذهاب إلى الكهان وسؤالهم عن المغيبات وتصديقهم في ذلك وأنه كفرٌ.

٢- تحريم الكهانة، وأنَّها من أكبر الكبائر.

فائدة:

من ذهب إلى الكهان ولم يصدقهم لم تقبل له صلاة أربعين يومًا[٢٣]، كما جاء في ذلك الحديث الآخر وأما من صدقهم فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

❁ **قوله: «بما أنزل على محمد»:**

أي: الكتاب والسنة.

المعنى الإجمالي للحديث بروايتيه:

الوعيد الشديد على إتيان الكهان والعرافين لسؤالهم عن المغيبات وتصديقهم في ذلك؛ لأنَّ علم الغيب قد اختص الله تعالى به. فمن أتاهم وصدقهم فقد كفر بالوحي المنزل على محمد ﷺ.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي عن إتيان الكهان والعرافين وبيان الوعيد في ذلك.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم الذهاب إلى الكهان والعرافين وسؤالهم ووجوب الابتعاد عنهم؛ لأنَّ ذلك كفر إذا صدقهم، ومحرم إذا لم يصدقهم.

٢- وجوب تكذيب الكهان والمنجمين.

٣- من أتاهم وصدقهم فقد كفر بالوحي المنزل على محمد ﷺ.

٤- أنَّ الكهانة شرك؛ لأنها تتضمن دعوى مشاركة الله تعالى في علم الغيب.

---

(٢٣) سبق تخريجه.

قوله: «ليس منا»:

أي: لا يفعل هذا من هو من أشياعنا العاملين باتباعنا المقتفين لشرعنا.

«من تطيَّر»: فعل الطيرة.

«أو تطير له»: أمر من يتطير له. ومثله بقية الألفاظ.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يقول ﷺ لا يكون من أتباعنا المتبعين لشرعنا من فعل الطيرة أو الكهانة أو السحر أو فعلت له هذه الأشياء؛ لأنَّ فيها ادعاء لعلم الغيب الذي اختص الله به، وفيها إفساد للعقائد والعقول، ومن صَدَّق من يفعل شيئًا من هذه الأمور فقد كفر بالوحي الإلهي الذي جاء لإبطال هذه الجاهليات ووقاية العقول منها، ويلحق بذلك ما يفعله بعض الناس من قراءة ما يسمىٰ بالكف، أو ربط سعادة الإنسان وشقائه وحظه بالبروج ونحو ذلك.

وقد بين كل من الإمامين البغوي وابن تيمية معنىٰ العراف، والكاهن والمنجم والرمال بما حاصله: أن كل من يدعي علم شيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن أو مشارك له في المعنىٰ فيلحق به، والكاهن هو الذي يخبر عما يحصل في المستقبل ويأخذ عن مسترق السمع من الشياطين كما سبق في أول كتاب التوحيد.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي والتغليظ عن فعل الكهانة ونحوها وتصديق أهلها.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم ادعاء علم الغيب؛ لأنَّه ينافي التوحيد.

٢- تحريم تصديق من يفعل ذلك بكهانة أو غيرها؛ لأنه كفر.

٣- وجوب تكذيب الكهان ونحوهم ووجوب الابتعاد عنهم وعن علومهم.

٤- وجوب التمسك بما أُنْزِلَ علىٰ الرسول ﷺوطرح ما خالفه.

قوله: «يكتبون أبا جاد»:

أي: يقطعون حروف «أبجد هوز...إلخ» التي تسمىٰ حروف الجمل ويتعلَّمونها لادِّعاء علم الغيب.

«وينظرون في النجوم»؛ أي: ويعتقدون أنَّ لها تأثيرًا فيبنون أمورهم علىٰ زعم فاسد واعتقاد باطل في النجوم والحساب الذي يظنون أنهم يدركون به علم الغيب.

«ما أرىٰ»: بفتح الهمزة بمعنىٰ: لا أعلم، وبضمِّها بمعنىٰ: لا أظنُّ.

«من خلاقٍ»: من نصيب.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

يقول ابن عباس: لا أعلم أو لا أظن أنَّ من يكتب حروف أبا جاد وينظر في النجوم ويبني علىٰ ذلك الحكم علىٰ المستقبل، ما أرىٰ لمن فعل ذلك نصيبًا عند الله؛ لأن ذلك يدخل في حكم العرافين المدعين لعلم الغيب.

مناسبة الأثر للباب:

أنه يدل علىٰ أن كتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدعي بها، معرفة علم الغيب والنظر في النجوم علىٰ اعتقاد أن لها تأثيرًا، كل ذلك يدخل في العرافة ومن فعله فقد أضاع نصيبه من الله.

ما يستفاد من الأثر:

١- تحريم تعلم أبي جاد علىٰ وجه ادعاء علم الغيب به؛ لأنَّه ينافي التوحيد. أما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به.

٢- تحريم التنجيم؛ لأنَّه وسيلة إلىٰ الشرك بالله تعالىٰ.

٣- عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم؛ لأن ذلك من باب الاستدراج لهم.

<u>قال العلامة صالح آل الشيخ:</u>

❁ **قوله**: «باب ما جاء في الكهان ونحوهم»:

هذا الباب أتىٰ بعد أبواب السحر؛ لأن حقيقة عمل الكاهن أنه يستخدم الجن لإخباره بالأمور المغيبة في الماضي، أو الأمور المغيبة في المستقبل التي لا يعلمها إلا الله -جل جلاله- فالكاهن يجتمع مع الساحر في أن كلًّا منهما يستخدم الجن لغرضه ويستمتع بالجن لغرضه.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن الكهانة استخدام للجن، واستخدام الجن كفر وشرك أكبر بالله -جل وعلا- لأن استخدام الجن في مثل هذه الأشياء لا يكون إلا بأن يتقرب إلىٰ الجن بشيء من العبادات، فالكهان لابُدَّ -لكي يُخدموا بذكر الأمور المغيبة- أن يتقربوا إلىٰ الجني ببعض العبادات، إما بالذبح، أو الاستغاثة، أو بالكفر بالله -جل وعلا- بإهانة المصحف أو بسب الله، أو نحو ذلك من الأعمال الشركية الكفرية.

فالكهانة صنعة مضادة لأصل التوحيد، والكاهن مشرك بالله -جل وعلا- لأنه يستخدم الجن ولا يمكن أن تخبره الجن بالمغيبات إلا إذا تقرب إليها بأنواع العبادات.

وكانت الكهانة منتشرة في بلاد العرب في الجزيرة وفي غيرها، والكهان أناس يُدّعىٰ فيهم الولاية والصلاح، وأن عندهم علم ما مضىٰ، أو عندهم علم المغيبات التي ستحدث للناس، أو تحدث في الأرض، ولهذا كانت العرب تعظم الكهان وتخاف منهم، وكانت تعطي الكاهن أجرًا عظيمًا لأجل ما يخبر عنه.

والكاهن -كما ذكرنا- لا يصل إلىٰ حقيقة عمله بأن يخبر عن الأمور المغيبة إلا باستخدام الجن، والتقرب إليهم التقربات الشركية، فتستمتع الجن به من جهة ما صرف لها من العبادة، ويستمتع هو بالجني من جهة ما يُخبره به من الأمور المغيبة.

والجن تصل إلىٰ الأمور المغيبة التي تصدق فيها عن طريق استراق السمع، فإن بعضهم يركب بعضًا حتىٰ يسمعوا الوحي الذي يوحيه الله -جل وعلا- في السماء، فربما أدرك الشهاب الجني قبل أن يلقي الكلمة لمن تحته، وربما أدركه بعد أن يلقي الكلمة، فتأتي هذه الكلمة للجن فيعطونها الكهان، فيكذب معها الكاهن، أو تكذب معها الجن مائة كذبة، حتىٰ يعظم شأن الكهان، وحتىٰ تعظم عبادة الإنس للجن.

وقبل بَعْثة النبي عليه الصلاة والسلام كان استراق السمع كثيرًا جدًّا، وبعد بعثته عليه الصلاة والسلام حُرست السماء من أن تسترق الجن السمع، لأجل تنزل القرآن والوحي، حتىٰ لا يقع الاشتباه في أصل الوحي والنبوة، وبعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام رجع الاستراق ولكنه قليل بالنسبة لما كان عليه قبل البعثة، فصارت عندنا أحوال استراق السمع ثلاثة:

١ - قبل البعثة كثير جدًّا.

٢ - وبعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام: لم يحصل استراق من الجن، وإن حصل فهو نادر في غير وحي الله -جل وعلا- بكتابه لنبيه ﷺ.

٣- بعد وفاته عليه الصلاة والسلام رجع استراق السمع أيضًا، ولكنه ليس بالكثرة التي كانت قبل ذلك؛ لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا، والله -جل وعلا- بيّن في القرآن في آيات كثيرة من أن النجوم والشهب ترمي الجن، كما قال جل وعلا: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾[الحجر: ١٨] ونحو ذلك من الآيات التي فيها أن الشهب مرصدة للجن.

إذا ظهر ذلك فالكاهن قد يُطلق عليه العراف، والكاهن والعراف اسمان متداخلان، فقد يطلق أحدهما على الآخر، وعند بعض الناس يطلق الكاهن على من يخبر بما يحصل في المستقبل، ويطلق العراف على من يخبر عن الغائب عن الأعين مما حصل في الماضي من مثل مكان المسروق، أو السارق من هو؟ ونحو ذلك مما هو غائب عن الأنظار وإنما يعلمه العراف بواسطة الجن.

والصحيح في ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية: من أن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلمون في معرفة الأمور بتلك الطرق. فكل من تكلم في معرفة الأمور المغيبة الماضية أو المستقبلة بتلك الطرق: طريق التنجيم، أو الخط في الرمل، بطريق الطرق، أو بالودع، ونحو ذلك من الأساليب، أو بالخشبة المكتوب عليها أبا جاد، ونحو ذلك من قراءة الفنجان، أو قراءة الكف، كل من يخبر عن الأمور المغيبة بشيء يجعله وسيلة لمعرفة الأمور المغيبة يسمى كاهنا، ويسمى عرافًا؛ لأنه لا يحصل له أمره إلا بنوع من أنواع الكهانة، وسيأتي ذلك إن شاء الله.

❁ **قوله: «باب ما جاء في الكهان ونحوهم»:**

و(نحوهم) يعني من العرافين، والمنجمين، والذين يخطون في الرمل، والذين يكتبون على الخشب، ونحو ذلك.

❁ **قوله: «روى مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «من أتى عرّافًا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»»:**

هكذا ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث الباب بهذا اللفظ، وعزاه لمسلم، وقد نبّه الشراح على أن لفظه في مسلم: «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**» بدون لفظة: «**فصدقه**» أما لفظة «**فصدقه**» فقد رواها الإمام أحمد في «مسنده».

وعلى هذا فالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ذكر هذا اللفظ، وعزاه لمسلم على طريقة أهل العلم في عزو الحديث لأحد صاحبي الصحيح إذا كان أصله فيهما لاتحاد الطريق أو نحو ذلك.

قوله: «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**» هذا الحديث فيه جزاء الذي يأتي العراف ويسأله، فمن أتى عرافًا فسأله عن شيء -ولو لم يصدقه- فإنه لا تقبل له صلاة أربعين يومًا.

والمقصود من قوله: «**لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**» أنها تقع مجزئة لا يجب عليه قضاؤها، ولكن لا ثواب له فيها؛ لأن الذنب والإثم الذي اقترفه حين أتى العراف فسأله عن شيء يقابل

ثواب الصلاة أربعين يومًا، فأسقط هذا هذا، ويدل ذلك علىٰ عظم ذنب الذي يأتي العراف فيسأله عن شيء ولو لم يصدقه، وهذا عند أهل العلم علىٰ حالتين:

الحالة الأولىٰ: من أتىٰ العراف فسأله عن شيء رغبة في الاطلاع، أما من أتىٰ العراف فسأله للإنكار عليه وحتىٰ يتحقق أنه عراف فلا يدخل في ذلك؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

الحالة الثانية: أن يأتي العراف أو الكاهن فيسأله عن شيء، فإذا أخبره الكاهن أو العراف صدقه بما يقول، فالحديث الأول الذي عن بعض أزواج النبي ﷺ فيه أنه: «**لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**» والحديث الثاني فيه أنه: «**كفر بما أنزل علىٰ محمد** ﷺ» فيتضح بالحديثين أن الحالة الثانية -وهي من أتىٰ العراف أو الكاهن فسأله عن شيء فصدقه- أنه يكفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ وأنه لا تقبل له صلاة أربعين يومًا.

وهذه الحالة تدل علىٰ أن الذي أتىٰ الكاهن أو العراف فصدقه، أنه لم يخرج من الملة؛ لأنه حدّ عليه الصلاة والسلام عدم قبول صلاته بأربعين يومًا، والذي أتىٰ الكاهن إذا حُكم عليه بأنه كافر كفرًا أكبر ومرتد وخارج من الملة فإن صلاته لا تقبل بتاتًا حتىٰ يرجع إلىٰ الإسلام، وقد قال طائفة من أهل العلم: دل قوله: «**فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**» علىٰ أن قوله: «**كفر بما أنزل علىٰ محمد**» أنه كفر أصغر وليس بالكفر المخرج من الملة، وهذا القول هو القول الأول، وهو الصحيح، وهو الذي يتعين جمعًا بين النصوص، فإن قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**» يدل علىٰ أنه لم يخرج من الإسلام، والحديث الآخر وهو قوله: «**من أتىٰ كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد**» يدل علىٰ كفره، فعلمنا بذلك أن كفره كفر أصغر، وليس كفرًا مخرجًا من الملة، هذا أحد الأقوال في مسألة كفر من أتىٰ الكاهن فصدقه بما يقول.

والقول الثاني: أنه يُتوّقف فيه، فلا يقال يكفر كفرًا أكبر، ولا يقال أصغر، وإنما يقال: إتيان الكهان وتصديقهم كفر بالله -جل وعلا- ويسكت عن ذلك، ويطلق القول كما جاء في الحديث، وهذا لأجل التهديد والتخويف حتىٰ لا يتجاسر الناس علىٰ هذا الأمر، وهذا هو مذهب الإمام أحمد في المنصوص عنه.

والقول الثالث من أقوال أهل العلم: أن الذي يصدق الكاهن كافر كفرًا أكبر مخرجًا من الملة، وهذا القول فيه نظر من جهتين:

الجهة الأولى: ما ذكرنا من الدليل من أن قوله عليه الصلاة والسلام: «**لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**» يدل على أنه لم يكفر الكفر الأكبر، ولو كان كفر الكفر الأكبر لم يحد عدم قبول صلاته بتلك المدة من الأيام.

والجهة الثانية: أن تصديق الكاهن فيه شبهة، وادعاء علم الغيب أو تصديق أحد ممن يدعي علم الغيب كفرٌ بالله -جل وعلا- كفرًا أكبر، لكن هذا الكاهن الذي ادّعىٰ علم الغيب يُخبر بالأمور المغيبة فيما صدق فيه عن طريق استراق الجن للسمع، فيكون إذًا هو نقل ذلك الخبر عن الجني، والجن نقلوه عمّا سمعوه في السماء، وهذه شبهة. فقد يأتي الآتي إلىٰ الكاهن ويقول: أنا أصدقه فيما أخبر من الغيب؛ لأنه قد جاء علم ذلك الغيب من السماء عن طريق الجن، وهذه الشبهة تمنع من تكفير من صدق الكاهن الكفر الأكبر.

فالقول الأظهر أن كفره كفرٌ أصغر وليس بأكبر، لدلالة الأحاديث، ولظهور التعليل في ذلك.

قوله: «**فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ**» يعني القرآن؛ لأنه قد جاء في القرآن وما بينه النبيﷺ من السنة أن الكاهن، والساحر، والعراف لا يفلحون، وأنهم يكذبون ولا يصدقون.

❁ **قوله**: «**وعن عمران بن حصين مرفوعًا: ليس منا من تَطير أو تُطير له أو تَكهن ...**»:
يأتي في باب ما جاء في التطير.

قوله: «**ليس منا**» يدل علىٰ أن الفعل محرم، ويقول بعض أهل العلم: إن قوله عليه الصلاة والسلام: «**ليس منا**» يدل علىٰ أنه من الكبائر.

قوله: «**أو تكهن**» يعني ادّعىٰ علم الغيب، وادعىٰ أنه كاهن، أو أخبر بأمور من المغيبة يخدع من رآه بأنه كاهن.

قوله: «**أو تُكهن له**» يعني: من رضي أن يُتكهن له فأتىٰ فسأل عن شيء.

قوله: «**أو سحر أو سحر له ومن أتىٰ كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمدﷺ**».

وهذا كله لأجل أن تصديق الكاهن فيه إعانة له علىٰ الشرك الأكبر بالله -جل وعلا- هذا حكم الذي يأتي الكاهن.

أما الكاهن فذكرنا حكمه، وهو أنه مشرك بالله الشرك الأكبر؛ لأنه لا يمكن له أن يخبر بالأمور المغيبة إلا بأن يُشرك.

❁ **قوله: «قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات...»:**

هذا الذي ذكرنا من أن العراف عند بعض أهل العلم من يخبر بأمور سبقت لكنها خفية غيبية عن الناس، لكنها من حيث الوجود وقعت في ملكوت الله.

قوله: «**وقيل هو الكاهن**» يعني أن العراف والكاهن اسمان لشيء واحد.

«**والكاهن**»: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل: الذي يخبر عما في الضمير، وقال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «العراف اسم للكاهن، والمنجم، والرمال ونحوهم» المنجم: هو الذي يستخدم علم التنجيم والتأثير، يقول: إذا ظهر نجم كذا والتقىٰ بنجم كذا فمعناه أنه سيحدث كذا وكذا، أو إذا ولد لفلان ولد في برج كذا فإنه سيحصل كذا وكذا له من الغنىٰ والفقر، أو السعادة، أو الشقاوة، ونحو ذلك، فيستدلون بحركة النجوم علىٰ حال الأرض وحال الناس فيها، وسيأتي تفصيله إن شاء الله.

«**والرمال**» هو صاحب الطرق، أو الذي يخط في الرمل، أو يستخدم الحصىٰ علىٰ الرمل.

«**ونحوهم**» يعني: مِن مثل الذين يقرئون الكف، ويقرئون الفنجان، أو في هذا العصر الذين يكتبون في الصحف والجرائد والمجلات البروج، وما يحصل في ذلك البرج، وأنت إذا ولدت في هذا البرج فمعناه أنه سيحصل لك في هذا الشهر كذا وكذا، هذه كلها من أنواع الكهانة كما سيأتي.

❁ **قوله: «وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوم يكتبون «أبا جاد» وينظرون في النجوم: ما أرىٰ من فعل ذلك له عند الله من خلاق»** (٢٤):

وذلك لأن كتابة (أبا جاد) والنظر في النجوم -يعني للتأثير- نوع من أنواع الكهانة، والكهانة محرمة وكفر بالله جل وعلا.

واعلم أن أصناف الكهانة كثيرةجدًّا وجامعها الذي يجمعها أنه يستخدم الكاهن وسيلة ظاهرة عنده ليقنع السائل بأنه وصل إليه العلم عن طريق أمور ظاهرة كالنجوم، أو عن طريق الخط، أو عن طريق الطرق، أو عن طريق الودع، أو عن طريق الفنجان، أو عن طريق الكف، أو عن طريق النظر في الحصىٰ، أو عن طريق الخشب ونحو ذلك، هذه كلها وسائل يَغُرُّ بها الكاهن

---

(٢٤) أخرجه عبد الرزاق، برقم (١٩٨٠٥)، والبيهقي، برقم (٨/ ١٣٩)، وفي «الشعب»، برقم (٥١٩٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا.

من يأتيه، وهي في الحقيقة وسائل لا تحصّل ذاك العلم، ولكن العلم جاءه عن طريق الجن، وهذه الوسيلة إنما هي وسيلة لخداع الناس، ولكي يظن الظان أنها تؤدي إلى العلم وأن هؤلاء أصحاب علم وفن بهذه الأمور، وفي الواقع هو لا يتحصل على العلم الغيبي عن طريق خط، أو عن طريق فنجان، أو عن طريق النظر في البروج، أو نحو ذلك، وإنما يأتيه العلم عن طريق الجن، وهو يُظهر هذه الأشياء حتى يحصل على المقصود كي يصدقه الناس أنه لا يستخدم الجن، وأنه ولي من الأولياء، وإلا فكيف يستنتج المغيبات من هذه الأمور الظاهرة؟! ويوجد في بعض البلاد -كغرب أفريقيا وبعض شمالها وفي الشرق- من يتعاطى هذه الأشياء، ويزعم أنه من الأولياء، ويقول: إن الملائكة تخبره بكذا، فهو لا يفعل الفعل إلا بإرشاد من الملائكة، فالذي يفعل هذه الأفعال من الأمور السحرية أو الكهانة يعتبر في تلك البلاد من الأولياء، ولهذا ترى بعض الشّراح يذكر في مقدمة هذه الأبواب أن أولياء الله تعالى لا يتعاطون الشرك، ولا يتعاطون مثل هذه الأمور، فأولياء الله مقيدون بالشرع، وليسوا من أولياء الجن.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن أي: لكونه يتعاطىٰ علم الغيب،والقرآن ينهىٰ عن ذلك.

الثانية: التصريح بأنه كفر، أي: إذا ادعىٰ أنه يعلم به الغيب فهو كفر ينقل عن الملة،وإذا لم يدع ذلك فهل هو كفر أو يتوقف فيه؟ فلا يقال: ينقل عن الملة،ولا يقال: لا ينقل عن الملة كما قاله في الشرح عن أحمد.

الثالثة: ذكر من تكهن له، أي: قبل قول الكاهن.

الرابعة: ذكر من تطير له، أي: قبل قول المتطير.

الخامسة: ذكر من سحر له، أي: قبل قول الساحر.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد، أي: المسمىٰ علم الحرف والمراد تعلمه للاستدلال به علىٰ المغيبات كما يفعل الكهان أما تعلمه للتهجي وحساب الجمل فغير داخل في النهي كما ذكره في الشرح.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن، والعراف، أي: إن الكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل والذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها. وقيل: إنهما بمعنىٰ واحد.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن الكهانة لا تخلو من الشرك المنافي للتوحيد.

س: كيف دخلت الكهانة في الشرك؟

جـ: دخلت فيه من جهتين:

١ – من جهة دعوىٰ مشاركة الله في علم الغيب الذي اختص به.

٢ – ومن جهة التقرب إلىٰ غير الله كاستخدام الشياطين والاستعانة بهم.

❁ **قوله: «روي مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبيﷺ عن النبيﷺ قال:...».**

س: ما المراد بالمنزل على محمدﷺ؟

جـ: الكتاب والسنة

س: ما هو الجمع بين قوله ﷺ: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا» وبين قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمدﷺ» ثم اذكر ما يستفاد من الأحاديث السابقة؟

جـ: الجمع بينهما أن الوعيد علىٰ عدم قبول الصلاة محمول علىٰ مجرد مجيء العراف وسؤاله؛ لأن في بعض روايات «الصحيح» لم يذكر فيها لفظ «فصدقه» والوعيد بالكفر محمول علىٰ مجيئه وتصديقه.

ما يستفاد من الأحاديث:

١ – كفر الكاهن والعراف ونحوهما؛ لأنهم يدَّعون علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه.

٢ – تحريم إتيان الكهان ونحوهم وسؤالهم وتصديقهم والوعيد الشديد علىٰ ذلك.

٣– كفر من يأتيهم ويصدقهم.

٤– أنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

❁ **قوله: «وعن عمران بن حصين مرفوعًا: ليس منا من تَطير أو تُطير له أو تَكهن ...».**

س: وضح معاني الكلمات المذكورة في الحديث؟

جـ: قولهﷺ «ليس منا» وعيد شديد يدل علىٰ أن هذه الأمور من الكبائر. «من تطيَّر» فعل

الطيرة «**أو تطير له**» أمر من يتطير له وقبل قول المتطير وتابعه، «**أو تكهن**» فعل الكهانة، «**أو تكهن له**» أتىٰ الكاهن وسأله فصدقه، «**سحر**»عمل السحر، «**سحر له**» قبل قول الساحر وصدقه وتابعه.

فكل من تلقىٰ هذا الأمور عمن فعلها فقد برئ منه رسول الله ﷺ

س: اذكر الفرق بين العراف والكاهن والمنجم والرمال؟

جـ: هذه الأسماء لمن يدعي معرفة شيء من علم الغيب لكن طرقهم مختلفة.

فالعراف: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها علىٰ المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك وقيل: هو الكاهن.

والكاهن: هو الذي يأخذ عن مسترق السمع ويخبر عن المغيبات في المستقبل وقيل: هو الذي يخبر عما في الضمير.

والمنجم: هو الذي يستدل بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الأرضية.

والرمال: هو الذي يدعي معرفة المغيبات بطريق الضرب بالحصىٰ والخط في الرمل.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

❁ **قوله: «قال ابن عباس في قوم يكتبون: أبا جاد، وينظرون في النجوم...»**.

س: ما المقصود بتعلم أبا جاد وما حكم تعلمه وما هو الخلاق، وما معنى قول ابن عباس هذا؟

جـ: المقصود به: معرفة حساب الجمل فيقطعون حروف أبجد هوز، حطي، كلمن...إلخ فيجعلون الألف عن واحد والباء عن اثنين، والجيم عن ثلاثة والدال عن أربعة إلىٰ نهاية الحرف العاشر ثم يبدءون بالكاف من (كلمن) فيجعلونها عن عشرين واللام عن ثلاثين وهكذا إلىٰ أن تتم حروف هذه الكلمات.

وتعلمها علىٰ نوعين: حرام وجائز، فالحرام لمن يدعي بتعلمها معرفة علم الغيب. والجائز لمن يتعلمها للهجاء وحساب الجمل. والخلاق: النصيب.

ويقول ابن عباس: ما أعلم أو ما أظن أن من يكتب هذه الحروف ويتعلمها وينظر في النجوم ويعتقد أن لها تأثيرًا في الكون ما أظن أن له عند الله نصيبًا في الآخرة.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس السابع والعشرون:

باب ما جاء في النشرة

عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان»[٢٥]. رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

[وفي «البخاري»][٢٦] عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته؛ أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به؛ إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع؛ فلم ينه عنه[٢٧][انتهى] [٢٨].

وروي عن الحسن؛ أنه قال: «لا يحل السحر إلا ساحر»[٢٩].

قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

[أحدهما][٣٠]: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات[والأدوية والدعوات][٣١] المباحة؛ فهذا جائز».

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال.



---

(٢٥) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في النشرة ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن به مس الجن، برقم (٣٨٦٨)، وأحمد (٣/ ٢٩٤)، والبيهقي، برقم (١٩٣٩٧)، وغيرهم من حديث جابر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٤٥٥٣).

(٢٦) في نسخة ابن قاسم: «وللبخاري».

(٢٧) أخرجه البخاري معلقًا، كتاب: الطب، باب: هل يستخرج السحر (١٠/ ٢٣٢/ فتح).

(٢٨) ساقطة من نسخة الفوزان وابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي وابن قاسم وابن باز.

(٢٩) سبق تخريجه.

(٣٠) ساقطة من نسخة الفوزان وابن قاسم وابن باز.

(٣١) في نسخة ابن قاسم: «الدعوات والأدوية».

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله:** «**باب ما جاء في النشرة**»:

بضم النون من نشر الشيء: فرقه، فالنشرة ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من يظنُّ أن به سحرًا أو مسًّا من الجن، سميت بذلك؛ لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء؛ أي: يحل ويكشف ويزال عنه، ومنه الحديث: فلعل طبا أصابه، ثم نشره بـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[الفلق:١]؛ أي: رقاه.

❁ **قوله:** «**عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال: هي من عمل الشيطان**»:

أي: الأكبر أو جنس الشياطين، وأل في النشرة للعهد؛ أي: النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها، هي من عمل الشيطان أو بواسطته؛ لأنهم ينشرون عن المسحور بأسحار واستخدامات شيطانية، فهذه حرام بالاتفاق.

❁ **قوله:** «**رواه أحمد بسند جيد وأبو داود**»:

في «سننه» عن جابر، ورواه الفضل بن زياد في كتاب «المسائل»، عن عبد الرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن عمه وهب بن منبه عن جابر، قال ابن مفلح: إسناده جيد، وحسنه الحافظ.

❁ **قوله:** «**وقال: سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله**»:

أراد أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أن ابن مسعود يكره النشرة التي هي من عمل الشيطان، كما يكره تعليق التمائم مطلقًا، فدل علىٰ أنه يذهب إلىٰ ما ذهب إليه ابن مسعود، وهو تحريم هذا كله، ومستنده الحديث. وروىٰ ابن أبي شيبة وأبو داود في «المراسيل» عن الحسن رفعه: «**النشرة من عمل الشيطان**»(٣٢).

❁ **قوله:** «**وللبخاري عن قتادة**»:

أي: روىٰ في «صحيحه» تعليقًا، وفي بعض النسخ وفي «البخاري»، ووصله الأثرم عن قتادة بنحوه، وقتادة هو ابن دعامة بن قتادة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سدوس البصري، ثقة فقيه من أحفظ التابعين، قالوا: إنه ولد أكمه سنة ٦١هـ، روىٰ عن أنس وغيره، وعنه أيوب السختياني، مات سنة ١١٧هـ.

❁ **قوله:** «**قلت لابن المسيب: رجل به طب**»:

بكسر «الطاء»؛ أي: سحر، يقال: طب الرجل بالضم إذا سحر، ويقال: كنوا عن السحر بالطب تفاؤلًا، كما يقال للديغ: سليم، والطب اسم للبرء من الداء، أو اسم للداء من الأضداد.

---

(٣٢) سبق تخريجه.

❁ **قوله: «أو يؤخذ عن امرأته»:**

بفتح «الواو» مهموز وتشديد الخاء المعجمة، أي: يحبس عن امرأته ولا يصل إلىٰ جماعها، والأخذة بضم الهمزة والتأخيذ رقية بسحر تحبس بها السواحر أزواجهن عن غيرهن من النساء، وأخذ: سحر، أو خرزة يؤخذ بها، وأخذته رقته بالسحر؛ أي: فماذا يصنع به؟

❁ **قوله: «أيحل عنه أو ينشر»:**

يحل بضم«الياء» وفتح «الحاء» مبني للمجهول من حل العقدة يحلها نقضها وفكها، وينشر بضم «الياء» وتشديد «الشين»، ونشر عنه إذا رقاه، كأنك تفرق عنه العلة.

❁ **قوله: «قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح»:**

أي: لا بأس بمعالجته بأمور مباحة، لم يرد بها إلا المصلحة ودفع المضرة.

❁ **قوله: «فأما ما ينفع فلم ينه عنه»:**

هذا من ابن المسيب ﷺ يحمل علىٰ نوع من النشرة لا محذور فيه، كالرقىٰ بأسماء الله وكلامه، ولا يعلم أنه سحر، وحاشاه ﷺ أن يفتي بجواز قصد الساحر الكافر المأمور بقتله ليعمل السحر، فإنما هو فساد وكفر.

❁ **قوله: «وروي عن الحسن أنه قال: لا يحل إلا ساحر»:**

ذكره عنه ابن الجوزي في جامع المسانيد، وقال: هي حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر.

❁ **قوله: «قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور وهي نوعان...»:**

فيزول ذلك السحر، والناشر هو الذي يحل السحر، والمنتشر هو الذي يحل عنه السحر بطلبه أو رضاه، وهو حرام، وتقدم حكمه وذكر الوعيد عليه.

❁ **قوله: «والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة فهذا جائز»:**

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام هذا الإمام الجليل، لما فيه من الجمع بين القولين، وبيان أنه لا تنافي بينهما، وإنما يصدق بعضها بعضًا، ومما جاء في النشرة المباحة ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله، تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب علىٰ رأس المسحور: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ [يونس:٨١]إلىٰ قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٨٢] وقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١١٨] الأربع الآيات، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ﴾الآية [طه:٦٩] وقال ابن بطال: في كتاب وهب بن منبه إنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين، ثم

يضربه بالماء، ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله، فالنوع الثاني الذي ذكر ابن القيم يشير إلى نحو هذا، وعليه يحمل قول من أجاز النشرة من العلماء، إحسان ظن بهم، وما كان بالسحر فيحرم.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «باب النشرة»:

وهو حل السحر عن المسحور. ذكر فيه المصنف كلام ابن القيم في التفصيل بين الجائز منه والممنوع وفيه كفاية.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «باب ما جاء في النشرة»:

«النشرة»: حل السحر عن المسحور يقال: نشر عنه إذا حل ما أصابه.

❁ **قوله:** «عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ سئل عن النشرة فقال: هي من عمل الشيطان»:

يدل الحديث النهي عن النشرة المعروفة في الجاهلية؛ لأن «أل» للعهد الذهني وهي حل السحر على المسحور بسحر مثله.

«من عمل الشيطان»؛ لأن الساحر يتقرب إلى الشياطين بما يحبونه من عبادتهم والنذر لهم فيسعفونهم بإعطائهم الإجابات عما يسألونه مما يخفي عليهم من عمل الساحر، وما فعله في المسحور فهذا من عمل الشيطان.

❁ **قوله:** «سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله»:

أي: النشرة التي من عمل الشيطان والتي يتقرب فيها إلى الشياطين.

❁ **قوله:** «وفي البخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل طب... لا بأس به»:

وهذا الكلام محمول على الحل الذي لا بأس به وهو الحل بالرقية والمعوذات والأشياء المباحة؛ لأن هذا من الإصلاح والإصلاح مأمور به والمنكر منهي عنه.

❁ **قوله:** «وروي عن الحسن قال: لا يحل السحر إلا ساحر»:

أي: لا يحله بالطرق الشيطانية إلا السحرة. أما حله بالطرق الشرعية فهذا يحله أهل العلم والبصائر وأهل الخبرة والتجارب ومن القراءة أن يقرأ عليه الفاتحة ويكرر عليه آية الكرسي أو كلاهما ويقرأ عليه آيات السحر في الأعراف وطه ويونس والكافرون والمعوذتين وينفث مع القراءة، يقرأ عليه وعلى زوجته وهذه رقية استعملها العلماء ونفع الله بها.

ومن ذلك ما ذكره بعض المتقدمين[٣٣] أنه تؤخذ ورقات من شجر السدر الأخضر فتدق ويجعل في ماء ثم يقرأ عليه هذه الآيات فيشرب المسحور منه أو المحبوس ثلاث مرات ما تيسر ثم يغتسل بالباقي فيزول عنه ما أصابه، فهذه نشرة شرعية ومن المباح: الأدوية المجربة التي لا محظورة فيها ولا تكون نجسة ولا استعانة فيها بالشياطين ولا فيها ما حرم الله وهذا الحق والصواب.

قوله: «قال ابن القيم: النشرة نوعان»... وتقدمت.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب النشرة»:

تعريف النشرة:

في اللغة؛ بضم النون: فُعلة من النشر، وهو التفريق. وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور؛ لأن هذا الذي يحل السحر عن المسحور: يرفعه، ويزيله، ويفرقه.

أما حكمها؛ فهو يتبين مما قاله المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من أحسن البيانات.

ولا ريب أن حل السحر عن المسحور من باب الدواء والمعالجة، وفيه فضل كبير لمن ابتغىٰ به وجه الله، لكن في القسم المباح منها؛ لأن السحر له تأثير علىٰ بدن المسحور وعقله ونفسه وضيق الصدر، حيث لا يأنس إلا بمن استعطف عليه. وأحيانًا يكون أمراضًا نفسية بالعكس، تنفر هذا المسحور عمن تنفره عنه من الناس، وأحيانًا يكون أمراضًا عقلية؛ فالسحر له تأثير إما علىٰ البدن، أو العقل، أو النفس.

قوله: «عن النشرة»:

«أل» للعهد الذهني؛ أي: المعروفة في الجاهلية التي كانوا يستعملونها في الجاهلية، وذلك طريق من طرق حل السحر، وهي علىٰ نوعين:

الأول: أن تكون باستخدام الشياطين، فإن كان لا يصل إلىٰ حاجته منهم إلا بالشرك؛ كانت شركًا، وإن كان يتوصل لذلك بمعصية دون الشرك؛ كان لها حكم تلك المعصية.

الثاني: أن تكون بالسحر؛ كالأدوية والرُّقىٰ والعُقَد والنَّفْث وما أشبه ذلك؛ فهذا له حكم السحر علىٰ ما سبق.

---

(٣٣) هذا ما ذكره ابن بطال من أنه في كتب وهب بن منبه. انظر: فتح الباري(١٠/ ٢٣٣)، وما أخرجه عبد الرزاق، برقم (١٩٧٦٣).

ومن ذلك ما يفعله بعض الناس، أنهم يضعون فوق رأس المسحور طستًا فيه ماء ويَصبُّون عليه رصاصًا ويزعمون أن الساحر يظهر وجهه في هذا الرصاص، فيستدل بذلك على من سحره، وقد سئل الإمام أحمد عن النشرة، فقال: إن بعض الناس أجازها، فقيل له: إنهم يجعلون ماء في طَسْت، وإنه يغوص فيه، وإنه يبدو وجهه، فنفض يده وقال: ما أدري ما هذا؟ ما أدري ما هذا؟ فكأنه رَحِمَهُ اللَّهُ توقف في الأمر وكره الخوض فيه.

❁ **قوله**: «من عمل الشيطان»:

أي: من العمل الذي يأمر به الشيطان ويوحي به؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء ويوحي إلى أوليائه بالمنكر، وهذا يغني عن قوله: إنها حرام، بل هو أشد؛ لأن نسبتها للشيطان أبلغ في تقبيحها والتنفير منها، ودلالة النصوص على التحريم لا تنحصر في لفظ التحريم أو نفي الجواز، بل إذا رتبت العقوبات على الفعل كان دليلًا على تحريمه.

❁ **قوله**: «رواه أحمد بسند جيد وأبو داود»:

سند أبي داود إلى أحمد متصل؛ لأنه قد حدثه وأدركه.

❁ **قوله**: «فقال: ابن مسعود يكره هذا كله»:

أجاب رَحِمَهُ اللَّهُ بقول الصحابي، وكأنه ليس عنده أثر صحيح عن النبي ﷺ في ذلك، وإلا لاستدل به.

والمشار إليه في قوله: «يكره هذا كله» كل أنواع النشرة، وظاهره: ولو كانت على الوجه المباح على ما يأتي، لكنه غير مراد؛ لأن النشرة بالقرآن والتعوذات المشروعة لم يقل أحد بكراهته، وسبق أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يكره تعليق التمائم من القرآن وغير القرآن.

وعلى هذا؛ فالكلية في قول أحمد: «يكره هذا كله» يراد بها النشرة التي من عمل الشيطان، وهي النشرة بالسحر والنشرة التي من التمائم.

وقوله: «يكره»: الكراهة عند المتقدمين يراد بها التحريم غالبًا، ولا تخرج عنه إلا بقرينة، وعند المتأخرين خلاف الأولى؛ فلا تظن أن لفظ المكروه في عرف المتقدمين أو كلامهم مثله في كلام المتأخرين، بل هو يختلف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا...﴾[الإسراء:٢٣]، إلى أن قال بعد أن ذكر أشياء محرمة: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[الإسراء:٣٨] ولا شك أن المراد بالكراهة هنا التحريم.

قوله: «رجل به طب»؛ أي: سِحْر، ومن المعلوم أن الطب هو علاج المرض، لكن سمي السحر طبًّا من باب التفاؤل، كما سمي اللديغ سليمًا والكسير جبيرًا.

قوله: «أو يؤخذ عن امرأته»:

أي: يحبس عن زوجته؛ فلا يتمكن من جماعها، وهو ليس به بأس، وهذا نوع من السحر.

والعجيب أنه مشتهر عند الناس أنه إذا كان عند العقد، وعقد أحد عقدة عند العقد؛ فإنه يحصل حبسه عن امرأته، وبالغ بعضهم؛ فقال: إذا شبك أحدهم بين أصابعه عند العقد حبس الزوج عن أهله، وهذا لا أعرف له أصلًا، ولكن كثيرًا ما يقع حبس الزوج عن زوجه ويطلبون العلاج.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن من العلاج أن يطلقها، ثم يراجعها؛ فينفك السحر. لكن لا أدري هل هذا يصح أم لا؟ فإذا صح؛ فالطلاق هنا جائز؛ لأنه طلاق للاستبقاء، فيطلق كعلاج، ونحن لا نفتي بشيء من هذا، بل نقول: لا نعرف عنه شيئًا.

و «أو» في قوله: «**أو يؤخذ**» يحتمل أنها للشك من الراوي: هل قال قتادة «به طب» أو قال: «يؤخذ عن امرأته؟»؛ أي: أو قلت: يؤخذ، ويحتمل أن تكون للتنويع؛ أي: أنه سأله عن أمرين: عن المسحور، وعن الذي يؤخذ عن امرأته.

قوله: «أيحل عنه أو ينشر»:

لا شك أن «أو» هنا للشك؛ لأن الحل هو النشرة.

قوله: «لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح»:

كأن ابن المسيب رَحِمَهُ اللهُ قسم السحر إلى قسمين: ضار، ونافع.

فالضار محرم، قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[البقرة:١٠٢]، والنافع لا بأس به، وهذا ظاهر ما روي عنه، وبهذا أخذ أصحابنا الفقهاء، فقالوا: يجوز حل السحر بالسحر للضرورة، وقال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز حل السحر بالسحر، وحملوا ما روي عن ابن المسيب بأن المراد به ما لا يعلم عن حاله: هل هو سحر، أم غير سحر؟ أما إذا علم أنه سحر؛ فلا يحل، والله أعلم، ولكن على كل حال حتى ولو كان ابن المسيب ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز؛ فلا يلزم من ذلك أن يكون جائزًا في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول ﷺ عن النشرة؟ فقال: «**هي من عمل الشيطان**».

قوله: «وروي عن الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر».

هذا الأثر إن صح؛ فمراد الحسن الحل المعروف غالبًا، وأنه لا يقع إلا من السحرة.

قوله: «قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور...إلخ»:

هذا الكلام جيد ولا مزيد عليه.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: النهي عن النشرة: تؤخذ من قولهﷺ: «**هي من عمل الشيطان**»، وهنا ليس فيه صيغة نهي، لكن فيه ما يدل علىٰ النهي؛ لأن طرق إثبات النهي ليست الصيغة فقط، بل ذم فاعله ونحوه، وتقبيح الشيء وما أشبه ذلك يدل علىٰ النهي.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه: تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله وتفصيله.

إشكال وجوابه:

ما الجمع بين قول الفقهاء -رحمهم الله- يجوز حل السحر بالسحر، وبين قولهم يجب قتل الساحر؟ الجمع أن مرادهم بقتل الساحر من يضر بسحره دون من ينفع؛ فلا يقتل، أو أن مرادهم بيان حكم حل السحر بالسحر للضرورة، وأما الإبقاء علىٰ الساحر، فله نظر آخر، والله أعلم.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «**باب ما جاء في النُّشْرَةِ**»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما ذكر المصنف حكم السحر والكهانة، ذكر في هذا الباب ما جاء في النشرة؛ لأنها قد تكون من قبل الشياطين والسحرة، فتكون مضادة للتوحيد.

«**النشرة**»: نوع من العلاج والرقية يعالج به من كان يظنُّ أنَّ به مسًّا من السحر؛ سميت بذلك؛ لأنَّها ينشر بها عنه ما خامره من الداء؛ أي: يكشف ويزال.

❁ **قوله**: «**سئل عن النشرة**»:

أي: النشرة التي كان أهل الجاهلية يعملونها.

«**هي من عمل الشيطان**»: لأنهم ينشرون عن المسحور بأنواع من السحر واستخدامات شيطانية.

«**يكره هذا كله**»: أي: النشرة التي هي من عمل الشيطان.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أنَّ النبيﷺ سئل عن علاج المسحور علىٰ الطريقة التي كانت تعملها الجاهلية ما حكمه؟ فأجابﷺ بأنه من عمل الشيطان أو بواسطته؛ لأنَّه يكون بأنواع سحرية واستخداماتٍ شيطانية، فهي شركية ومحرمة.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّه دلَّ علىٰ تحريم النشرة التي هي من عمل الشيطان وهي نشرة الجاهلية.

ما يستفاد من الحديث:

١- النهي عن النشرة على الصفة التي تعملها الجاهلية؛ لأنّها سحر والسحر كفر.

٢- مشروعية سؤال العلماء عما أشكل حكمه؛ حذرًا من الوقوع في المحذور.

﴿ **قوله:** «وفي البخاري عن قتادة...»:

«ترجمة قتادة»: هو ابن دعامة السدوسي البصري ثقة من أحفظ التابعين، مات سنة بضع عشرة ومائة.

«به طب»: بكسر «الطاء»؛ أي: سحر، كنُّوا عنه بالطبِّ تفاؤلًا.

«يؤخَّذ»: بفتح «الواو» مهموزةٍ وتشديد «الخاء»؛ أي: يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها.

«لا بأس به»؛ أي: بمعالجته بأمورٍ مباحةٍ لم يرد بها إلاّ المصلحة ودفع المضرة.

﴿ **قوله:** «لا يحل السحر إلاَّ ساحرٌ»:

أي: لا يقدرُ على حلِّه إلاَّ من يعرف السحر.

المعنى الإجمالي للأثرين:

أنَّ ابن المسيب سئل عن حكم النشرة فأفتى بجوازها؛ نظرًا لأن المقصود منها النفع وزوال الضرر، ولم ينه عما كان كذلك، ومقصوده نوع من النشرة لا محذور فيه: كالرقى بأسماء الله وكلامه. وأما الحسن فمقتضى كلامه منع النشرة؛ لأنَّه لا يقدر على حل السحر إلاَّ من له معرفة بالسحر. وهذا محمول على حل السحر بسحر مثله، وهو من عمل الشيطان. وفي التفصيل الذي ذكره ابن القيم جمعًا بين القولين - حاصله: أن علاج المسحور بأدويةٍ مباحةٍ وقراءة قرآنٍ أمر جائز - وعلاجه بسحر مثله محرم. والله أعلم.

مناسبة الأثرين للباب:

بيان التفصيل في حكم النشرة وبيان الجائز والممنوع منها.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

﴿ **قوله:** «باب ما جاء في النشرة»:

النشرة متعلقة بالسحر، وأصلها من النَّشر وهو قيام المريض صحيحًا، وهي اسم لعلاج المسحور، سميت نشرة؛ لأنه ينتشر بها أي: يقوم ويرجع إلى حالته المعتادة.

وقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هنا: «باب ما جاء في النشرة» يعني: من التفصيل، وهل النشرة جميعًا - وهي حل السحر- مذمومة؟ أو أن منها ما هو مذموم، ومنها ما مأذون فيه؟

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة، وهي أنه كما أن السحر شرك بالله -جل وعلا- يقدح في أصل التوحيد، وأن الساحر مشرك الشرك الأكبر بالله، فالنشرة التي هي حلّ السحر قد تكون من ساحر، وقد تكون من غير ساحر بالأدوية المأذون فيها، أو الأدعية ونحو ذلك، فإذا كان من ساحر فإنها مناقضة لأصل التوحيد، ومنافية لأصله، فالمناسبة ظاهرة في الصلة بين هذا الباب وباب ما جاء في السحر، وكذلك مناسبتها لكتاب التوحيد؛ لأن كثيرين ممن يستعملون النشرة يشركون بالله جل وعلا.

والنشرة قسمان: نشرة جائزة، ونشرة ممنوعة.

فالنشرة الجائزة: هي ما كانت بالقرآن، أو بالأدعية المعروفة، أو بالأدوية عند الأطباء، ونحو ذلك، فإن السحر يكون عن طريق الجن -كما تقدم- ويحصل منه -حقيقةً- إمراض في البدن، وتغيير في العقل والفهم، وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يُعالج بالمضادات التي تزيل ذلك السحر، فمما يزيله القرآن الكريم، والقرآن هو أعظم ما ينفع في إزالة السحر، وكذلك الأدعية، والأوراد، ونحو ذلك مما هو معروف من الرقىٰ الشرعية.

ونوع من السحر يكون في البدن، أي: من جهة عضوية، فهذا أحيانًا يُعالج بالرقىٰ والأدعية والقرآن، وأحيانًا يعالج عن طريق الأطباء العضويين، وذلك لأن السحر -كما سبق - يُمرض حقيقة، فإذ أزيل المرض أو سبب المرض فإنه يبطل السحر، ولهذا قال ابن القيم في آخر الكلام: «**والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات، والأدوية، والدعوات المباحة فهذا جائز**» لأنه يحصل منه المرض، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يعالج بما أذن به شرعًا من الرقىٰ والأدوية المباحة.

والقسم الثاني من النشرة: وهي التي من أنواع الشرك أن ينشر عنه بغير الطريق الأول بطريق السحر، فيحل السحر الأول بسحر آخر، وذكرنا أن السحر لا ينعقد أصلًا إلا بأن يتقرب الساحر للجني، أو أن يكون الجني يخدم الساحر الذي يشرك بالله دائمًا.

كذلك حل السحر لابُدَّ فيه من إزالة سببه وهو خدمة شياطين الجن للساحر. وهذا لا يمكن إلا للجن، فإن الساحر الثاني الذي يُنشّر السحر ويرفع السحر لابُدَّ أن يستغيث أو أن يتوجه إلىٰ بعض جنّه في أن يرفع أولئك الجن الذين عقدوا هذا السحر أن يرفعوا أثره فعلىٰ هذا لا يكون السحر من حيث العقد والابتداء إلا بالشرك بالله، ومن حيث الرفع والنشر لا يكون إلا بالشرك بالله -جل وعلا- ولهذا قال الحسن: «**لا يحل السحر إلا ساحر**».

يعني: لا يحل السحر بغير الطريق الشرعية المعروفة إلا ساحر، فإذا جاء أحد وقال: أنا أحل السحر، وقيل له: تستخدم القراءة والتلاوة والأدعية؟ فإن قال:لا، قيل: هل أنت طبيب تطب ذلك المسحور؟ فإن قال: لا، فهو إذًا ساحر؛ لأنه إذا لم يستخدم الطريقة الثانية فإنه لا يمكن أن يحل السحر إلا ساحر؛ لأنه فك أثر الجن في ذلك السحر، ولا يمكن إلا عن طريق شياطين الجن الذين يؤثرون في ذاك.

۞ **قوله:** «**عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال: هي من عمل الشيطان**»[٣٤]:

هذا سؤال عما كان معهودًا معروفًا عندهم في هذا الاسم وهو اسم النشرة، والذي كان معروفًا معهودًا هو أن النشرة إنما هي من جهة الساحر؛ لأنها -عند العرب- حل السحر بمثله، لهذا لما سئل النبي عليه الصلاة والسلام عن النشرة، قال: «**هي من عمل الشيطان**» قال العلماء: (أل) أو لام التعريف في قوله: «**النشرة**»: هذه للعهد، يعني: النشرة المعهود استعمالها، وهي حل السحر بمثله، فقال عليه الصلاة والسلام «**هي من عمل الشيطان**» لأن رفع السحر لا يكون إلا بعمل شيطان جني، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**هي**» يعني: الرفع والنشر «**من عمل الشيطان**» لأن العقد أصلًا من عمل الشيطان، والرفع والنشر من عمل الشيطان، فإذا هو سؤال عن النشرة التي كانت تستخدم في الجاهلية.

۞ **قوله:** «**رواه أحمد بسند جيد وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله**»:

وقوله: «**يكره هذا كله**» يعني: أن تكون النشرة عن طريق التمائم التي فيها القرآن؛ لأنه مرّ بنا أن ابن مسعود كان يكره جميع أنواع التمائم حتىٰ من القرآن، كما قال إبراهيم النخعي رحمه الله كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن ومن غير القرآن. يعني: أصحاب ابن مسعود، فابن مسعود كان يكره التمائم من القرآن، وهو أن يُعلق شيئًا من القرآن لأي غرض، لدفع العين، أو لإزالة السحر، ورفع الضرر، لهذا قال الإمام أحمد لما سُئل عن النشرة التي تكون بالتمائم من القرآن، قال: ابن مسعود يكره هذا كله.

أما النشرة باستخدام النفث، والرقية من غير تعليق فلا يمكن للإمام أحمد ولا لابن مسعود أن يكرها ذلك؛ لأن النبي ﷺ استخدم ذلك، وأذن به عملًا في نفسه، وكذلك في غيره عليه الصلاة والسلام.

---

(٣٤) سبق تخريجه.

❁ **قوله: «وللبخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب، أو يؤخذ عن امرأته، أيُحل عنه أو ينشّر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه»:**

يريد ابن المسيب بذلك ما ينفع من النشرة بالتعوذات، والأدعية، والقرآن، والدواء المباح، ونحو ذلك، أما النشرة التي هي بالسحر، فابن المسيب أرفع من أن يقول: إنها جائزة، ولم يُنه عنها، والنبي ﷺ يقول: «هي من عمل الشيطان» لهذا قال: «**لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه**» يعني: من الأدوية المباحة، ومن الرقى، والتعوذات الشرعية، وقراءة القرآن، ونحو ذلك، فهذا لم ينه عنه، بل أذن فيه.

❁ **قوله: «وروي عن الحسن أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر»:**

وهذا بيّنا معناه.

❁ **قوله: «قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور وهي نوعان...»:**

«**فيبطل عمله عن المسحور**» وهذه حقيقة النشرة الشركية.

إذا تبين ذلك، فإن حكم حل السحر بمثله أنه لا يجوز ومحرم، بل هو شرك بالله -جل وعلا- لأنه لا يحل السحر إلا ساحر. وبعض العلماء من أتباع المذاهب يرى جواز حل السحر بمثله إذا كان للضرورة، كما قال فقهاء مذهب الإمام أحمد في بعض كتبهم: ويجوز حل سحر بمثله ضرورة. وهذا القول ليس بصواب، بل هو غلط؛ لأن الضرورة لا تكون جائزة ببذل الدين والتوحيد عوضًا عنها، ومعروف أن الضروريات الخمس التي جاءت بها الشرائع أولها: حفظ الدين، وغيره أدنى منه مرتبة -ولا شك- فلا يبذل ما هو أعلى لتحصيل ما هو أدنى، وضرورة الحفاظ على النفس وإن كانت من الضروريات الخمس، لكنها دون حفظ الدين مرتبة، ولهذا لا يُقدم ما هو أدنى على ما هو أعلى، أو أن يُبذل ما هو أعلى لتحصيل ما هو أدنى من الضروريات الخمس، والأنفس لا يجوز حفظها بالشرك، ولأن يموت المرء وهو على التوحيد خير له من أن يُعافى وقد أشرك بالله -جل وعلا- لأن السحر لا يكون إلا بشرك، والذي يأتي الساحر ويطلب منه حل السحر، فقد رضي قوله وعمله، ورضي أن يعمل به ذاك، ورضي أن يُشرك ذاك بالله لأجل منفعته، وهذا غير جائز.

فتحصل من هذا أن السحر -نشرًا ووقوعًا- لا يكون إلا بالشرك الأكبر بالله -جل وعلا- وعليه فلا يجوز أن يُحَلّ لا من جهة الضرورة، ولا من جهة غير الضرورة من باب أولى بسحر مثله، بل يُحل وينشّر بالرقى الشرعية.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة، أي: لحديث جابر قال: «**سئل النبي ﷺ عن النشرة،فقال: هي من عمل الشيطان**».

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال، أي: كما دل عليه كلام العلامة ابن القيم -رحمه الله- فالأول ما كان بسحر،والثاني ما كان بدعوات ورقى وأدوية مباحة، واعلم أن المؤلف لم يذكر إلا مسألتين مع أنه قال: فيه مسائل، والجواب والله أعلم أنه فعل ذلك لتتفق عبارته المطردة في جميع الأبواب مع قصده المثنى، فإن العرب تطلق لفظ الجمع وتريد به المثنى، كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[التحريم:٤] أي: قلباكما،والمراد: عائشة،وحفصة، أو على قول من يجعل أقل الجمع اثنان، كما حمل بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾[النساء:١١] على الأخوين والله أعلم.

* الأسئلة *

س: اذكر مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن بعض أنواع النشرة من السحر وهو لا يحصل غالبًا إلا بالشرك المنافي للتوحيد.

س: عرف النشرة لغة وشرعًا، ولماذا سميت بهذا الاسم؟

جـ: النشرة لغة: الكشف والإزالة. وشرعًا: حل السحر عن المسحور بنوع من العلاج والرقية، سميت نشرة؛ لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء؛ أي: يكشف ويزال.

س: اذكر ما قيل في النشرة وكيف تجمع بين هذه الأقوال وبين أنواع النشرة وحكم كل نوع؟

جـ: عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال: «**هي من عمل الشيطان**»[٣٥] رواه أحمد بسند جيد وأبو داود.

وقال: سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله؛ أي: يكره النشرة التي هي من عمل الشيطان.

٢ – سعيد بن المسيب يقول: لا بأس بها إنما يريدون بها الإصلاح. رواه البخاري عن قتادة.

٣ – وروي عن الحسن البصري أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر.

والجمع بين هذه الأقوال أن النشرة –حل السحر عن المسحور– نوعان:

١ – حل بسحر مثله: وهو الذي من عمل الشيطان وعليه يحمل قول الحسن وهذا النوع محرم.

٢ – النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فمثل هذا جائز وعليه يحمل قول سعيد بن المسيب.

(٣٥) سبق تخريجه.

❁ قوله: «وفي «البخاري» عن قتادة قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته...».

س: ما المقصود بالطب هنا؟ وما معنى: يؤخذ عن امرأته؟ وما المراد بقوله: «أيحل عنه أو ينشر»؛ فقال: لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح؟

جـ: المقصود بالطب هنا: السحر، ومعنىٰ: يؤخذ عن امرأته يحبس عنها فلا يصل إلىٰ جماعها.

والمراد بقوله: أيحل عنه؛ أي: ينقض عنه السحر. أو ينشر؛ أي: يكشف ويزال عنه.

فقال: لا بأس به؛ يعني: أن النشرة لا بأس بها؛ لأنهم يريدون بها الإصلاح وهو إزالة السحر ولم ينه عما يراد به الإصلاح وهذا محمول علىٰ النشرة الخالية من السحر كما تقدم والله أعلم.

الدرس الثامن والعشرون:

باب ما جاء في التطير

وقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف:١٣١].

وقوله: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾[يس:١٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوىٰ، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر»[٣٦]. أخرجاه، وزاد مسلم: «ولا نوء، ولا غول»[٣٧].

ولهما عن أنس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوىٰ، ولا طيرة، ويعجبني الفأل. قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة»[٣٨].

ولأبي داود بسند صحيح عن[عروة][٣٩] بن عامر، قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ، فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإن رأىٰ أحدكم ما يكره؛ فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[٤٠].

وعن[٤١] ابن مسعود مرفوعًا: «الطيرة شرك الطيرة شرك وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل»[٤٢]. رواه أبو داود والترمذي وصححه وجعل آخره من قول ابن مسعود.

---

(٣٦) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: لا هامة، برقم (٥٧٥٧)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: لا عدوىٰ ولا طيره ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض علىٰ مصح، برقم (٢٢٢٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٧) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: لا عدوىٰ ولا طيره ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض علىٰ مصح، برقم (١٠٦/ ٢٢٢٠) بلفظ، «لا عدوىٰ ولا هامة ولا نوء ولا صفر»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٨) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: لا عدوىٰ، برقم (٥٧٧٦)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم، برقم (٢٢٢٤)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣٩) في نسخة ابن قاسم، وابن باز، وابن عثيمين «عقبة»، والمثبت موافق لما في مصدري التخريج.

(٤٠) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في الطيرة، برقم (٣٩١٩)، بسنده عن عمرو بن عامر قال أحمد القرشي... فذكره، وابن أبي شيبة، برقم (٢٦٣٩٢)، والبيهقي، برقم (١٦٢٩٨) عن عروة بن عامر، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة»، برقم (١٦١٩).

(٤١) في نسخة السعدي وابن باز: «وله من حديث».

(٤٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في الطيرة، برقم (٣٩١٠)، والترمذي، كتاب: السير، باب: الطير، برقم (١٦١٤)، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: ممن كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة، برقم (٣٥٣٨)، وأحمد (١/ ٤٤٠)، وغيرهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٣٩٦٠).

ولأحمد من حديث ابن عمرو[٤٣]: «من ردته الطيرة عن حاجته؛ فقد أشرك.[قالوا: فما كفارة ذلك؟][٤٤] قال: «أن تقولوا[٤٥]: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[٤٦].

وله من حديث الفضل بن العباس: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»[٤٧].

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، مع قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

الثانية: نفي العدوى.

الثالثة: نفي الطيرة.

الرابعة: نفي الهامة.

الخامسة: نفي الصفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب.

السابعة: تفسير الفأل.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل.

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده.

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.



---

(٤٣) في نسخة ابن باز: «ابن عمر»، وما أثبتناه هو الصواب.

(٤٤) في نسخة ابن باز: «فقالوا فما كفارة ذلك؟»، وفي نسخة ابن قاسم: «قالوا وما كفارة ذلك يا رسول الله؟»، وفي نسخة الفوزان، ومسند أحمد: «قالوا يا رسول الله ما كفارة ذلك»، والمثبت من نسخة ابن عثيمين، ونسخة السعدي.

(٤٥) عند ابن قاسم، ابن باز، والفوزان: «يقول»، وفي نسخة السعدي: «تقول»، وفي مسند أحمد: «يقول أحدهم»، والمثبت من نسخة ابن عثيمين.

(٤٦) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وابن أبي شيبة، برقم (٢٦٤١١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٠٦٥).

(٤٧) أخرجه أحمد (١/ ٢١٣) من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما، وفيه انقطاع مسلمة الجهني لم يسمع من الفضل.

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله: «باب ما جاء في التطير»:**

أي: من النهي عنه والوعيد فيه، مصدر تطير يتطير، والطيرة اسم مصدر من تطير طيرة، كما يقال: تخير خيرة، ولم يجئ في المصادر على هذه الزنة غيرهما، والتطير: التشاؤم بالشيء بما يقع من المرئيات أو المسموعات في قلوب أهل الشرك والعقائد الضعيفة، الذين لا يجعلون توكلهم على الله، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء والعطاس والنجوم وغير ذلك، فكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع أو دفع ضر، وإنما هو خواطر وحدوس وتخمينات لا أصل لها. قال المدائني: سألت رؤبة بن العجاج ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه، قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد. اهـ.

ومن العرب من يتشاءم بالبارح، ويتبرك بالسانح وبالعكس، ولم تكن قاطبة تعتقد هذا وتقول به، بل قد جاء عن بعضهم إنكاره ومنه:

وما أنا ممن يزجر الطير همه ... أطار غراب أم تعرض ثعلب

ولا السانحات البارحات عشية ... أمَرَّ سليم القرن أم مَرّ أعضب

وغير ذلك مما هو مشهور عنهم، وفي «الصحيح» عنه -عليه الصلاة والسلام- حين سئل عنه قال: «**ذلك شيء يجده أحدكم فلا يصدنه**»(٤٨). وقال: «**إذا تطيرت فلا ترجع**»(٤٩). ولا يضر إلا من أشفق منه وخاف واعتنى به، فيكون أسرع إليه من السيل إلى منحدره، وتفتح له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه، ويفتح له الشيطان من المناسبات القريبة والبعيدة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه، وينكد عليه عيشه، ولما كان التطير من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب؛ لكونه من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، ولكونه يتعلق القلب به خوفًا وطمعًا؛ ولكونه منافيًا للتوكل على الله، واعتقاد نفع أو ضر بسبب طائر ونحوه، أفرده المصنف رحمه الله بالترجمة، وإن كان من الشرك الأصغر فهو من أقبح الشرك.

---

(٤٨) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، برقم (٥٣٧)، وأحمد (٥/ ٤٤٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٤٩) أخرجه الطبراني، برقم (٣٢٢٧)، وأحمد بن عمرو الشيباني في «الآحاد والمثاني»، برقم (١٩٦٢) من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام»، برقم (٣٠٢).

❁ **قوله:** «وقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾»:

﴿أَلَآ﴾أداة تنبيه، و ﴿إِنَّمَا﴾أداة حصر؛ أي: إنما جاءهم الشؤم من قبله، قدره وقضاه عليهم بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله؛ ردًّا لمقالة آل فرعون الكاذبة الباطلة، حيث قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾؛ أي: الخصب والرخاء والسعة والعافية، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: نحن الجديرون والحقيقون به، ونحن أهله،: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌ﴾بلاء وقحط،: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٣١] فيقولون: هذا بسبب موسىٰ وأصحابه أصابنا بشؤمهم كما يقول المتطير لمن يتطير به، فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ليس شؤمهم إلا عند الله؛ أي: من قبله وحكمه الكوني القدري. قال ابن عباس: طائرهم ما قضي عليهم وقدر لهم. وقال الزجاج: الشؤم الذي وعدوا به من العقاب عنده، لا ما ينالهم في الدنيا.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

تسجيل علىٰ أكثرهم بالجهالة وعدم العلم، وأنهم لا يدرون، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أن موسىٰ ما جاء إلا بالخير والبركة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

❁ **قوله:** «وقوله: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾الآية»:

وهذه الآية أيضًا رد علىٰ من كذب الرسل، فأصيبوا بالبلاء، فإنهم لما ضاقت عليهم الحيل وعييت عليهم العلل، ادعوا أن سبب البلاء جاء من قبل الرسل وبسببهم، فـ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[يس:١٨]، فقالت لهم الرسل: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾؛ أي: سبب شؤمكم، أو حظكم وما نالكم من شر معكم بسبب أفعالكم وكفركم، لا من قبلنا كما تزعمون، ولا بسببنا بل ببغيكم وعدوانكم، وسوء عقيدتكم وقبح أعمالكم، فما وقع بكم من الشر فعملكم الخبيث سببه الجالب له، وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله، ويحتمل أن يكون المعنىٰ: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾؛ أي: راجع عليكم، فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم، وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾[يس:١٩]؛ أي: من أجل أنّا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام، : ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾[يس:١٩] قال قتادة: أإن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا؟ ومناسبة الآيتين للترجمة أن التطير من عمل الجاهلية المشركين، وقد ذمهم الله به ومقتهم، وقد نهىٰ رسول الله ﷺ عن التطير، وأخبر أنه شرك كما سيأتي.

❁ قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا عدوىٰ ولا طيرة»:

العدوىٰ: الفساد وما يعدي من جرب وغيره؛ أي: يتجاوز من واحد إلىٰ آخر من الإعداء كالدعوىٰ، يقال: أعداه الداء يعديه إعداء. إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء، وذلك بأن يكون ببعير جرب مثلًا فتُتَّقىٰ مخالطته بإبل أخرىٰ؛ حذرًا أن يتعدىٰ ما به من الجرب إليها، فيصيبها ما أصابه فأبطله الإسلام؛ لأنهم كانوا يظنون أن المرض بنفسه وطبعه يتعدىٰ، فأخبر -عليه الصلاة والسلام- أن الله هو الذي يمرض وينزل الداء. فإن قيل: جاء عنه ﷺ «وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»، وقال: «لا يورد ممرض علىٰ مصح»[٥٠]. وقال في الطاعون: «من سمع به في أرض فلا يقدم عليه»[٥١]. قيل: اختلف العلماء في ذلك، والأولىٰ ما قاله البيهقي وابن القيم وابن رجب وغيرهم من أهل التحقيق في ذلك وهو أن قوله: «لا عدوىٰ» علىٰ الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلىٰ غير الله، وأن الأمور تتعدىٰ بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته وتقديره مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سببا لحدوث ذلك، أو ذريعة إلىٰ إعدائه أو لأذيته بالتوهم والخوف، وذلك سبب لإصابة المكروه به. ولهذا قال: «فر من المجذوم»[٥٢]. ولما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يعدي شيء. قال له أعرابي: النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها، فقال: فمن أجرب الأول؟ لا عدوىٰ ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها»[٥٣]. رواه أحمد وغيره، فأخبر أن ذلك كله بقضاء الله وقدره، ولكن العبد مأمور باتقاء الشر إذا كان في عافية، فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء، وفي النار، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، فإن هذه أسباب للمرض والتلف.

---

(٥٠) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: لا هامة، برقم (٥٧٧١)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: لا عدوىٰ ولا طيرة ولا هامة ولا صفر...، برقم (١٠٥/ ٢٢٢١)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥١) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: ما يذكر في الطاعون، برقم (٥٧٢٩)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: الطاعون، والطيرة، والكهانة، ونحوها، برقم (٢٢١٩)، وغيرهما من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(٥٢) سبق تخريجه.

(٥٣) أخرجه الترمذي، كتاب: القدر، باب: لا عدوىٰ ولا هامة ولا صفر، برقم (٢١٤٣)، وأبو يعلىٰ، برقم (٥١٨٢)، وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وأحمد (٢/ ٣٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٧٧٣٣).

قال ابن حبيب في المجذومين: يحكم عليهم بتنحيتهم ناحية، إذا كثروا، وهو الذي عليه فقهاء الأمصار، وأرسل عليه الصلاة والسلام إلى المجذوم في وفد ثقيف: «**ارجع فقد بايعناك**»[٥٤]. وإذا قوي توكل العبد جاز له، كما أخذ عليه الصلاة والسلام بيد المجذوم، وقال: «**كل، بسم الله ثقة بالله وتوكُّلًا عليه**»[٥٥].

قوله: «ولا طيرة»:

يحتمل أن يكون نفيا أو نهيا؛ أي: لا تطيروا، والخبر قطعًا يدل على أن المراد النفي والإبطال لهذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه، ولما قيل له عليه الصلاة والسلام: «**ومنا أناس يتطيرون. قال: ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم**»[٥٦]. فأخبر أن تأثيره وتشاؤمه بالطير إنما هو في نفسه وعقيدته، لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لما رآه وسمعه، فبين فساد الطيرة، وأن الله لم يجعل فيها دلالة، ولا نصبها سببًا. وفي «المصباح»: كانت العرب إذا أرادت المضي لمهم مرت بمجامع الطير وأثارتها لتستفيد هل تمضي أو ترجع؟ فنهى الشارع عن ذلك، وقال: «**لا هامة ولا طيرة**»، وقال: «**أقروا الطير في وكناتها**»[٥٧]؛ أي: على مجاثمها. اهـ. ومر طائر يصيح فقال رجل: خير خير. فقال ابن عباس: لا خير ولا شر، فأنكر عليه لئلا يعتقد تأثيره، وصاح غراب فقال رجل: خير. فقال طاوس: وأي خير عند هذا؟ لا تصحبني.

---

(٥٤) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: اجتناب المجذوم ونحوه، برقم (٢٢٣١)، النسائي، كتاب: البيعة، باب: بيعة من به عاهة، برقم (٤١٨٢)، وأحمد (٤/ ٣٩٠)، وغيرهم من حديث الشريد بن سويد الثقفي رضي الله عنه.

(٥٥) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في الطيرة، برقم (٣٩٢٥)، والترمذي، كتاب: الأطعمة، باب: الأكل مع المجذوم، برقم (١٨١٧)، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: الجذام، برقم (٣٥٤٢)، وغيرهم من حديث جابر رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٤١٩٥).

(٥٦) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، برقم (٥٣٧)، وأحمد (٥/ ٤٤٨)، وغيرهما من حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه.

(٥٧) أخرجه أبو داود، كتاب: العقيقة، برقم (٢٨٣٥)، وأحمد (٦/ ٣٨١)، وغيرهما من حديث أم كرز الكعبية رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (١١٧٧).

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «**إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس**»[(٥٨)]. ونحوه فالمراد لمن يتشاءم بها، فيكون شؤمها عليه، وإلا فمن توكل علىٰ الله ولم يتشاءم ولم يتطير لم تكن مشئومة عليه لحديث أنس: «**الطيرة علىٰ من تطير**».

وقال ابن القيم: إخباره بالشؤم ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعيانًا مشئومةً علىٰ من قاربها وساكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، كما يعطي الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير علىٰ وجهه، ويعطي غيرهما ولدًا مشئوما يريان الشر علىٰ وجهه، والله خالق الخير والشر، فيخلق بعض هذه الأعيان مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها، ويخلق بعضها مشئومة يتضرر بها من قاربها، وكل ذلك بقضاء الله وقدره، كما خلق سائر الأسباب، وكما خلق المسك وضده، وذلك مدرك بالحس، فهذا لون والطيرة الشركية لون آخر.

قوله: «**ولا هامة ولا صفر. أخرجاه**»:

«الهامة»: بتخفيف «الميم» وقد تشدد: البومة، إذا وقعت إلىٰ بيت أحدهم يقول: نعت إليَّ نفسي، أو أحدًا من أهل داري، أو يخرب المنزل، وقيل: إن العرب كانت تعتقد أن عظام الميت، وقيل: روحه تنقلب هامة تطير، ولا تزال تنادي علىٰ قبره ونحوه؛ للأخذ بثأره. قال النووي: ويجوز أن يكون المراد النوعين، فإنها جميعًا باطلان، وجاءت السنة بنفي ذلك وإبطاله، وضلالة الجاهلية فيما تعتقده من ذلك.

و«صفر» بفتح «الفاء» قيل: المراد تأخيرهم المحرم إلىٰ صفر، وهو النسيء الذي كانوا يفعلونه، يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وكانوا يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهر مشئوم، فأبطل ﷺ ذلك، والتشاؤم به من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح خاصة. وقيل: صفر حية في البطن، وهي دود تصيب الماشية والناس، وربما قتلت صاحبها، وكانت أعدىٰ من الجرب عند العرب، وهذا المشهور عند أكثر أهل العلم، منهم: سفيان وأحمد والبخاري وجابر بن عبد الله وهو راوي الحديث، ويجوز أن يكونا مرادين معًا، وأن الصفرين جميعًا باطلان.

---

(٥٨) أخرجه البخاري، كتاب: النكاح، باب: ما يتقىٰ من شؤم المرأة، برقم (٥٠٩٤)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: الطيرة والفأل ويكون فيه من الشؤم، برقم (٢٢٢٥)، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

❁ **قوله:** «**زاد مسلم: ولا نوء ولا غول**»:

النوء واحد الأنواء يزعمون أنهم يمطرون به، وسيأتي في بابه إن شاء الله تعالىٰ، والغول بالضم اسم وجمعه أغوال وغيلان، قال الجمهور: كانت العرب تزعم أن الغول، وهي جنس من الشياطين في الفلاة، تتراءىٰ للناس وتتلون تلونًا في صور شتىٰ، فتضلهم عن الطريق فتهلكهم، فنفاه النبيﷺ وأبطله، ويقال: ليس المراد نفي وجود الغول، بل ما تزعمه العرب من تصرفه في نفسه أو أنها لا تستطيع أن تضل أحدًا مع ذكر الله، لحديث: **لا غول ولكن السعالي سحرة الجن**(٥٩)؛ أي: ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل، ومنه الحديث: «**إذا تغولت الغيلان، فبادروا بالأذان**»(٦٠)؛ أي: ادفعوا شرها بذكر الله، فدل أنه لم يرد بنفيها عدمها.

❁ **قوله:** «**ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: لا عدوىٰ ولا طيرة ويعجبني الفأل**»:

الفأل مهموز فيما يسوء ويسر، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وإنما أعجبه الفأل؛ لأنه حُسْنُ ظن بالله، والعبد مأمور بحسن الظن بالله، وإذا أمل الفائدة منه ورجا العائدة من كل سبب، ضعيف أو قوي، فهو علىٰ خير، والتشاؤم سوء ظن بالله، وإذا قطع الإنسان ظنه بالله كان عمله من الشر، والطيرة فيها سوء ظن بالله، وتوقع للبلاء، والتفاؤل نحو أن يكون الرجل مريضًا فيسمع من يقول: يا سالم، أو يا مفلح، أو يكون طالبًا ضالة فيسمع من يقول: يا واجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته، وتفرح نفسه وتنشط من غير اعتماد عليه، وإنما هو حسن ظن بالله، وإن أوجب مضيًا أو ردًّا صار من الطيرة. ولما طلع سهيل بن عمرو عام الحديبية قال رسول الله ﷺ: «**سهل أمركم**».

❁ **قوله:** «**قوله: قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة**»:

بينﷺ أن الفأل يعجبه، فدل علىٰ أنه ليس من الطيرة المنهي عنها. قال ابن القيم: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضىٰ الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلىٰ ما يوافقها ويلائمها، والله جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم

---

(٥٩) انظر: «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٤/ ٢١٧)، و«صحيح مسلم بشرح السيوطي» (٥/ ٢٣٩).

(٦٠) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٥، ٣٨١)، وابن خزيمة برقم (٢٥٤٨)، والنسائي في «الكبرىٰ»، برقم (١٠٧٩١)، وابن أبي شيبة، برقم (٢٩٧٤١)، وغيرهم من حديث جابر ﷺ وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٥٤٥).

الفلاح والسلامة والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك، فإذا سمعت الأسماء أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال، فأحزنها وأثار لها خوفًا وتطيرًا وانكماشًا، وانقباضًا عما قصدته وعزمت عليه، فأورث لها ضررًا في الدنيا ونقصًا في الإيمان ومقارفة للشرك.

قوله: «ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر»:

صوابه عن عروة بن عامر، وكذا رواه العسكري من طريق حبيب بن أبي ثابت عنه، كما رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وهو مكي اختلف في نسبه، فقال أحمد: عروة بن عامر القرشي. وقال غيره: الجهني. واختلف في صحبته، وقال المزي: لا صحبة له تصح.

قوله: «قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ، فقال: أحسنها الفأل»:

تقدم أنه ﷺ قال: «ويعجبني الفأل»[٦١]. وصحح الترمذي أنه كان إذا خرج لحاجة يحب أن يسمع: يا نجيح يا رشيد، ولأبي داود إذا بعث عاملًا سأله عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإذا كره اسمه رئي كراهية ذلك في وجهه، ففيه استعمال الفأل. قال ابن القيم: أخبر أن الفأل من الطيرة، وهو خيرها، فأبطل الطيرة، وأخبر أن الفأل منها، ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد ونفع أحدهما ومضرة الآخر.

قوله: «ولا ترد مسلمًا»:

أي: لا ترد المسلم عن شيء قصده لإيمانه أنه لا نافع ولا ضار إلا الله، وإنما ترد المشرك الذي يعتقدها، قال الطيبي: تعريض بأن الكافر بخلافه.

قوله: «فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت»:

أي: لا تأتي الطيرة بالحسنات، ولا تدفع المكروهات بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات وتدفع السيئات، والحسنات هنا النعم، والسيئات المصائب. كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء:٧٨] إلى قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩] ففيه نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وهذا هو التوحيد، وفيه التصريح بأنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًّا، فيعد من اعتقدها سفيها مشركًا.

---

(٦١) سبق تخريجه.

❁ **قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بالله»:**

أي: ولا تحول ولا انتقال من حال إلىٰ حال، ولا قوة علىٰ ذلك إلا بالله وحده لا شريك له، وهذا استعانة به سبحانه علىٰ فعل التوكل وعدم الالتفات إلىٰ الطيرة التي قد تكون سببًا لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها، ومعاملة له بنقيض قصده، وهذا الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذي هو أقوىٰ الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات.

❁ **قوله: «وعن ابن مسعود مرفوعًا: الطيرة شرك الطيرة شرك»:**

ولفظ أبي داود: «**الطيرة شرك الطيرة شرك الطيرة شرك**»[٦٢] ثلاثًا. وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلق القلب علىٰ غير الله، ولو لم يكن فيها إلا سوء الظن بالله لكفىٰ بها قبحًا. قال في شرح السنن: وإنما جعل الطيرة من الشرك؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعًا أو تدفع عنهم ضرًّا إذا عملوا بموجبها، فكأنهم أشركوا مع الله.

قوله: «زما منا ... ولكن الله يذهبه بالتوكل»؛ أي: وما منا أحد إلا ويعتريه ويخطر له ويقع في قلبه من الطيرة شيء، فحذف اعتمادًا علىٰ فهم السامع، ولكن لما توكلنا علىٰ الله في جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه، واعتمادنا عليه والاستناد عليه. وللطبراني وغيره من حديث حارثة: «**ثلاث لازمة أمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن، قيل: وما يذهبهن؟ قال: إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض**»[٦٣]. قال المصنف: «**فيه أن الواقع في القلوب مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل**».

❁ **قوله: «ورواه أبو داود والترمذي وصححه»:**

ورواه ابن ماجه وابن حبان وغيرهم.

❁ **قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود»:**

وهو قوله: «وما منا إلا إلىٰ آخره»، نقله الترمذي عن سليمان بن حرب، ووافقه علىٰ ذلك أهل العلم وهو المتعين؛ فإنه ﷺ معصوم من الشرك بالإجماع. وقال ابن القيم: وهو الصواب؛ فإن الطيرة نوع من الشرك، كما هو في أثر مرفوع: «**من ردته الطيرة فقد قارف الشرك**»[٦٤].

---

(٦٢) سبق تخريجه.

(٦٣) أخرجه الطبراني، برقم (٣٢٢٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني»، برقم (١٩٦٢) من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام»، برقم (٣٠٢).

(٦٤) أخرجه البزار، برقم (٢٣١٦)، من حديث رويفع بن ثابت رضي الله عنه، وقال «وهذا الحديث لا نعلم أحدًا يرويه بهذا اللفظ إلا رويفع بن ثابت وحده وشيبم بن بيتان غير مشهور وإنما ذكرنا حديثه إذ كان لا يروىٰ عن ﷺ هذا الكلام إلا عنه وقد روىٰ غير هذا الحديث أيضا» اهـ وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٠٦٥).

قوله: «ولأحمد من حديث ابن عمرو»:

هو أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، كان اسمه العاص فسماه النبي ﷺ عبد الله، أحد السابقين المكثرين، وأحد العبادلة الفقهاء، من أحفظ الصحابة، واختلف في وفاته وموضعها، فقيل: مات بالطائف ليالي الحرة سنة ٦٣هـ، وقيل غير ذلك.

قوله: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»:

وذلك أن الطيرة هي التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها كإرادة السفر ونحوه، فمنعه عما أراده وسعىٰ فيه ما رأىٰ وما سمع تشاؤمًا فقد دخل في الشرك؛ لكونه لم يخلص توكله علىٰ الله بالتفاته إلىٰ ما سواه، فكان للشيطان منه نصيب.

قوله: «**قالوا: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال: أن يقول اللهك لا خير إلا خيرك ...**»:

أي: لا معبود بحق سواك، فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع في قلبه، ولم يلتفت إليه كفر الله عنه ما وقع في قلبه ابتداء، لزواله من قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد علىٰ الله وحده، والإعراض عما سواه، ففيه أن الطيرة لا تضر من كرهها، ومضىٰ في طريقه، وأما من استرسل مع الشيطان في ذلك فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره؛ لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله الذي الخير كله بيديه، يجلبه لعبده بمشيئته وقدرته وإرادته، ويدفع عنه الضر بقدرته وإحسانه، فلا خير إلا منه، وهو الذي يدفع الشر عن عبده، وما أصابه من ذلك فبذنبه، كما قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النساء:٧٩]. قال المصنف: «**الطيرة تعم أنواعًا، منها ما لا إثم فيه كما قال عبد الله: وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل، فإذا وقع في القلب شيء وكرهه ولم يعمل به، بل خالفه وقال ذلك لم يضره شيء، فإن عمل من الحسنات شيئا فهو أبلغ وأتم في الكفارة، ولو قدرنا أن تلك الطيرة من الشرك الخفي أو الظاهر ثم تاب، وقال هذا الكلام علىٰ طريق التوبة فكذلك**».

قوله: «ولـه من حديث الفضل ابن عباس»:

أي: روىٰ أحمد من حديث الفضل بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ قال: «**خرجت مع رسول الله ﷺ يومًا فبرح ظبي فمال في شقه فاحتضنته، فقلت: يا رسول الله تطيرت، فقال: إنما الطيرة..**»[٦٥] إلىٰ آخره، وفي إسناده انقطاع بين ابن مسلمة راويه وبين الفضل، شهد الفضل الفتح وحنينًا، وثبت مع النبي ﷺ وكان رديفه في حجة الوداع، وكان أكبر أولاد العباس، وبه يكنىٰ، مات رضي الله عنه سنة ١٣هـ، وله ٢٢ سنة.

---

(٦٥) أخرجه أحمد (١/ ٢١٣)، ومن حديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما.

قوله: «**إنما الطيرة ما أمضاك أوردك**»:

هذا حد الطيرة المنهي عنها فسرها رسول الله ﷺ بقاعدة كلية، وهي ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراده أو يمنعه من المضي فيه، فتلك الطيرة، ومن مضى أو امتنع بسببها فقد أشرك، وأما الفأل الذي كان يحبه -عليه الصلاة والسلام-، ففيه نوع بشارة فيسربه العبد ولا يعتمد عليه، بخلاف ما يمضيه أو يرده؛ فإن للقلب عليه نوع اعتماد، وهذا فرق واضح بين الطيرة والفأل.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «**باب ما جاء في التطير**»:

وهو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع وغيرها فنهى الشارع عن التطير وذم المتطيرين وكان يحب الفال ويكره الطيرة.

والفرق بينهما أن الفال الحسن لا يخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله وليس فيه تعليق القلب بغير الله بل فيه من المصلحة النشاط والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة.

وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود أو على حالة من الأحوال المهمة ثم يرى في تلك الحال ما يسره: أو يسمع كلامًا يسره مثل: يا راشد أو سالم أو غانم فيتفاءل ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه: فهذا كله خير وآثاره خير وليس فيه من المحاذير شيء.

وأما الطيرة: فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا فيرى أو يسمع ما يكره أثر في قلبه أحد أمرين أحدهما أعظم من الآخر

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعي فيترك ما كان عازمًا على فعله أو بالعكس فيتطير بذلك وينكص عن الأمر الذي كان عازمًا عليه فهذا كما ترى قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه وأخل بتوحيده وتوكله. ثم بعد هذا لا تسأل عما سيحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين وتعلقه بالأسباب وبأمور ليست أسبابًا وانقطاع قلبه من تعلقه بالله. وهذا من ضعف التوحيد والتوكل ومن طرق الشرك ووسائله ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني: أن لا يستجيب لذلك الداعي ولكنه يؤثر في قلبه حزنًا وهمًّا وغمًّا فهذا وإن كان دون الأول لكنه شر وضرر على العبد وضعف لقلبه وموهن لتوكله وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيره وربما تدرج به إلى الأمر الأول

فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وذمها ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل وينبغي لمن وجد شيئًا من ذلك وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه علىٰ دفعها ويستعين بالله علىٰ ذلك ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «باب ما جاء في التطير»:

تعريف التطير:

في اللغة: مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور علىٰ الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر: هل يذهب يمينًا أو شمالًا وما أشبه ذلك، فإن ذهب إلىٰ الجهة التي فيها التيامن؛ أقدم، أو فيها التشاؤم؛ أحجم.

أما في الاصطلاح: فهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وهذا من الأمور النادرة؛ لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح؛ لأن الاصطلاح يدخل علىٰ الألفاظ قيودًا تخصها، مثل الصلاة لغةً: الدعاء، وفي الاصطلاح؛ أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها.

وإن شئت؛ فقل: التطير: هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

بمرئي مثل: لو رأىٰ طيرًا فتشاءم لكونه موحشًا.

أو مسموع مثل: من هَمَّ بأمر فسمع أحدًا يقول لآخر: يا خسران، أو يا خائب؛ فيتشاءم.

أو معلوم؛ كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات، فهذه لا ترىٰ ولا تسمع.

واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن المتطير قطع توكله علىٰ الله واعتمد علىٰ غير الله.

الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وَهْم وتخييل، فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل له؟! وهذا لا شك أنه يخلُّ بالتوحيد؛ لأن التوحيد عبادة واستعانة، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣].

فالطيرة محرمة، وهي منافية للتوحيد كما سبق، والمتطير لا يخلو من حالين:

الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.

الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهَمٍّ وغَمٍّ يخشىٰ من تأثير هذا المتطير به، وهذا أهون.

وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر علىٰ العبيد، بل انطلق إلىٰ ما تريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد علىٰ الله ﷻ، ولا تسئ الظن بالله ﷻ.

وقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آيتين:

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾: هذه الآية نزلت في قوم موسى كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٣١] قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ومعنى: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾: أنه إذا جاءهم البلاء والجَدْب والقَحْط قالوا: هذا من موسى وأصحابه: فأبطل الله هذه العقيدة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾: ﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاح تفيد التنبيه والتوكيد، و ﴿إِنَّمَا﴾أداة حصر.

وقوله: ﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾: مبتدأ، و ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾خبر، والمعنى: إنما يصيبهم من الجدب والقحط ليس من موسى وقومه، ولكنه من الله؛ فهو الذي قَدَّره ولا علاقة لموسى وقومه به، بل إن الأمر يقتضي أن موسى وقومه سبب للبركة والخير، ولكن هؤلاء -والعياذ بالله- يُلَبِّسون على العوام ويوهمون الناس خلاف الواقع.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: فهم في جهل؛ فلا يعلمون أن هناك إلهًا مدبرًا، وأن ما أصابهم من الله وليس من موسى وقومه.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾؛ أي: قال الذين أرسلوا إلى القرية في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ ...﴾[يس:١٣]الآيات.

فقالوا ذلك ردًّا على قول أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ [يس:١٨] أي: تشاءمنا بكم، وإننا لا نرى أنكم تدلوننا على الخير، بل على الشر وما فيه هلاكنا؛ فأجابهم الرسل بقولهم ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾؛ أي: مصاحب لكم فما يحصل لكم؛ فإنه منكم ومن أعمالكم، فأنتم السبب في ذلك. ولا منافاة بين هذه الآية والتي ذكرها المؤلف قبلها؛ لأن الأولى تدل على أن المُقدِّر لهذا الشيء هو الله، والثانية تُبيِّن سببه، وهو أنه منهم؛ فهم في الحقيقة طائرهم معهم؛ أي: الشؤم الحاصل عليهم معهم ملازم لهم؛ لأن أعمالهم تستلزمه؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾[الروم:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[الأعراف:٩٦].

ويستفاد من الآيتين المذكورتين في الباب: أن التطير كان معروفًا من قبل العرب وفي غير العرب؛ لأن الأولى في فرعون وقومه، والثانية في أصحاب القرية.

وقوله: ﴿أَإِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: ينبغي أن تقف على قوله: ﴿ذُكِّرْتُم﴾؛ لأنها جملة شرطية، وجواب الشرط محذوف تقديره: أئن ذكرتم تطيرتم، وعلى هذا؛ فلا تصلها بما بعدها.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الإبطالي؛ أي: ما أصابكم ليس منهم، بل هو من إسرافكم.

وقوله: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾؛ أي: متجاوزون للحد الذي يجب أن تكونوا عليه.

قوله ﷺ: «لا عدوى»: «لا» نافية للجنس، ونفي الجنس أعم من نفي الواحد والاثنين والثلاثة؛ لأنه نفي للجنس كله، فنفى الرسول ﷺ العدوى كلها.

و«**العَدْوى**»: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكون في الأمراض الحِسِّية يكون أيضًا في الأمراض المعنوية الخُلُقيّة، ولهذا أخبر ﷺ أن جليس السوء كنافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة(٦٦).

فقوله: «**لا عدوى**»: يشمل الحسية والمعنوية، وإن كانت في الحسية أظهر.

❁ **قوله: «ولا طيرة»**:

اسم مصدر تطير؛ لأن المصدر منه تطيُّر، مثل الخِيَرَة اسم مصدر اختار، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]؛ أي: الاختيار؛ أي: أن يختاروا خلاف ما قضى الله ورسوله من الأمر.

واسم المصدر يوافق المصدر في المعنى، ولذلك تقول كَلَّمتُه كلامًا؛ بمعنى: كَلّمته تكليمًا، وسلمت عليه سلامًا؛ بمعنى: سلمت عليه تسليمًا. لكن لما كان يخالف المصدر في البناء سَمَّوه اسم مصدر، والطيرة تقدم أنها هي التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

❁ **قوله: «ولا هامة»**:

الهامَة؛ بتخفيف «الميم» فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها طير معروف يشبه البومة، أو هي البومة، تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل؛ صارت عظامه هامة تطير وتصرخ حتى يؤخذ بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه.

---

(٦٦) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: في العطار وبيع المسك، برقم (٢١٠١)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، برقم (٢٦٢٨)، وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

التفسير الثاني: أن بعض العرب يقولون: الهامة هي الطير المعروف، لكنهم يتشاءمون بها، فإذا وقعت علىٰ بيت أحدهم ونعقت؛ قالوا: إنها تنعق به ليموت، ويعتقدون أن هذا دليل قرب أجله، وهذا كله بلا شك عقيدة باطلة.

قوله: «ولا صفر»:

قيل: إنه شهر صفر، كانت العرب يتشاءمون به ولا سيما في النكاح.

وقيل: إنه داء في البطن يصيب الإبل وينتقل من بعير إلىٰ آخر، وعلىٰ هذا؛ فيكون عطفه علىٰ العدوىٰ من باب عطف الخاص علىٰ العام.

وقيل: إنه نَهْيٌ عن النسيئة، وكانوا في الجاهلية ينسئون، فإذا أرادوا القتال في شهر المحرم استحلوه، وأخروا الحرمة إلىٰ شهر صفر، وهذه النسيئة التي ذكرها الله بقوله تعالىٰ: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾[التوبة:٣٧]، وهذا القول ضعيف، ويضعفه أن الحديث في سياق التطير، وليس في سياق التغيير، والأقرب أن صفر؛ يعني: الشهر، وأن المراد نفي كونه مشئومًا؛ أي: لا شؤم فيه، وهو كغيره من الأزمان يُقدّر فيه الخير ويُقدّر فيه الشر.

وهذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليس نفيًا للوجود؛ لأنها موجودة ولكنه نفي للتأثير، فالمُؤثِّر هو الله، فما كان منها سببًا معلومًا، فهو سبب صحيح، وما كان منها سببًا موهومًا؛ فهو سبب باطل، ويكون نفيًا لتأثيره بنفسه إن كان صحيحًا، ولكونه سببًا إن كان باطلًا.

فقوله: **«لا عدوىٰ»**: العدوىٰ موجودة، ويدل لوجودها قولهﷺ: **«لا يورد ممرض علىٰ مصح»**(٦٧)؛ أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة علىٰ صاحب الإبل الصحيحة؛ لئلا تنتقل العدوىٰ، وقولهﷺ: **«فر من المجذوم فرارك من الأسد»**(٦٨): والجُذَام مرضٌ خبيثٌ معدٍ بسرعة ويتلف صاحبه؛ حتىٰ قيل: إنه الطاعون؛ فالأمر بالفرار من المجذوم لكي لا تقع العدوىٰ منه إليك، وفيه إثبات لتأثير العدوىٰ، لكن تأثيرها ليس أمرًا حتميًّا، بحيث تكون علة فاعلة، وأمر النبيﷺ بالفرار، وأن لا يورد ممرض علىٰ مصح من باب تجنب الأسباب لا من باب تأثير الأسباب بنفسها؛ فالأسباب لا تؤثر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب الأسباب التي تكون سببًا

---

(٦٧) سبق تخريجه.

(٦٨) سبق تخريجه.

للبلاء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، ولا يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوىٰ؛ لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرىٰ.

فإن قيل: إن الرسول ﷺ لما قال: «**لا عدوىٰ. قال رجل: يا رسول الله، الإبل تكون صحيحة مثل الظباء، فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال النبي ﷺ «فمن أعدىٰ الأول؟**»(٦٩)؛ يعني: أن المرض نزل علىٰ الأول بدون عدوىٰ، بل نزل من عند الله ﷻ؛ فكذلك إذا انتقل بالعدوىٰ؛ فقد انتقل بأمر الله، والشيء قد يكون له سبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم، فَجَرَبُ الأول ليس سببه معلومًا؛ إلا أنه بتقدير الله تعالىٰ، وجَرَبُ الذي بعده له سبب معلوم، لكن لو شاء الله تعالىٰ لم يَجْرَب، ولهذا أحيانًا تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية، وقد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويَسْلَم آخرون ولا يصابون.

فعلىٰ الإنسان أن يعتمد علىٰ الله، ويتوكل عليه، وقد روي أن النبي ﷺ جاءه رجل مجذوم؛ فأخذ بيده وقال له: «**كل**»(٧٠)؛ يعني: من الطعام الذي كان يأكل منه الرسول ﷺ؛ لقوة توكله ﷺ؛ فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي.

وهذا الجمع الذي أشرنا إليه هو أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث، وادّعىٰ بعضهم النسخ؛ فمنهم من قال: إن الناسخ قوله: «**لا عدوىٰ**»، والمنسوخ قوله: «**فر من المجذوم**»، «**ولا يورد ممرض علىٰ مصح**»، وبعضهم عكس، والصحيح أنه لا نسخ؛ لأن من شروط النسخ تَعَذُّر الجمع، وإذا أمكن الجمع وجب الرجوع إليه؛ لأن في الجمع إعمال الدليلين، وفي النسخ إبطال أحدهما، وإعمالهما أولىٰ من إبطال أحدهما؛ لأننا اعتبرناهما وجعلناهما حجة، وأيضًا الواقع يشهد أنه لا نسخ.

❁ قوله: «ولا صفر»:

فيه ثلاثة أقوال سبقت، وبيان الراجح منها.

والأزمنة لا دخل لها في التأثير وفي تقدير الله ﷻ؛ فصفر كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر، وبعض الناس إذا انتهىٰ من شيء في صفر أَرَّخ ذلك وقال: انتهىٰ في صفر الخير، وهذا من باب مداواة البدعة ببدعة، والجهل بالجهل؛ فهو ليس شهر خير ولا شهر شر.

---

(٦٩)سبق تخريجه.

(٧٠)سبق تخريجه.

أما شهر رمضان، وقولنا: إنه شهر خير؛ فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شهر خير، وقولهم: رجب المعظم؛ بناءً علىٰ أنه من الأشهر الحرم. ولهذا أنكر بعض السلف علىٰ من إذا سمع البومة تنعق قال: خيرًا إن شاء الله؛ فلا يقال: خير ولا شر، بل هي تنعق كبقية الطيور.

فهذه الأربعة التي نفاها الرسولﷺ تُبيِّن وجوب التوكل علىٰ الله وصدق العزيمة، ولا يضعف المسلم أمام هذه الأشياء؛ لأن الإنسان لا يخلو من حالين:

إما أن يستجيب لها بأن يُقْدِم أو يُحْجِم أو ما أشبه ذلك؛ فيكون حينئذ قد عَلَّق أفعاله بما لا حقيقة له ولا أصل له، وهو نوع من الشرك.

وإما أن لا يستجيب بأن يكون عنده نوع من التوكل ويقدم ولا يبالي، لكن يبقىٰ في نفسه نوع من الهم والغم، وهذا وإن كان أهون من الأول، لكن يجب ألا يستجيب لداعي هذه الأشياء التي نفاها الرسولﷺ مطلقًا، وأن يكون معتمدًا علىٰ اللهﷻ.

وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل، فإذا نظر ذكر النار تشاءم، وإذا نظر ذكر الجنة قال: هذا فأل طيب؛ فهذا مثل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام.

فالحاصل أننا نقول: لا تجعل علىٰ بالك مثل هذه الأمور إطلاقًا؛ فالأسباب المعلومة الظاهرة تقي أسباب الشر، وأما الأسباب الموهومة التي لم يجعلها الشرع سببًا بل نفاها؛ فلا يجوز لك أن تتعلق بها، بل أحمد الله علىٰ العافية، وقل: ربنا عليك توكلنا.

قوله: «لا نوء»:

واحد الأنواء، والأنواء: هي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة، وهذه النجوم بعضها يسمىٰ النجوم الشمالية، وهي لأيام الصيف، وبعضها يسمىٰ النجوم الجنوبية، وهي لأيام الشتاء، وأجرىٰ الله العادة أن المطر في وسط الجزيرة العربية يكون أيام الشتاء، أما أيام الصيف، فلا مطر.

فالعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء، ويتفاءلون بها؛ فبعض النجوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضها بالعكس يتفاءلون به فيقولون: هذا نجم سعود وخير، ولهذا إذا أمطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يقولون: مطرنا بفضل الله ورحمته، ولا شك أن هذا غاية الجهل.

ألسنا أدركنا هذا النوء بعينه في سنة يكون فيه مطر وفي سنة أخرىٰ لا يكون فيه مطر، ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التي كانت كثيرًا ما يكون في زمنها الأمطار.

فالنوء لا تأثير له؛ فقولنا: طلع هذا النجم، كقولنا: طلعت الشمس؛ فليس له إلا طلوع وغروب، والنوء وقت تقدير، وهو يدل علىٰ دخول الفصول فقط.

وفي عصرنا الحاضر يعلق المطر بالضغط الجوي والمنخفض الجوي، وهذا وإن كان قد يكون سببًا حقيقيًّا، ولكن لا يفتح هذا الباب للناس، بل الواجب أن يقال: هذا من رحمة الله، هذا من فضله ونعمه قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾[النور:٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾[الروم:٤٨].

فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية من الأمور الجاهلية التي تصرف الإنسان عن تعلقه بربه.

فذهبت أنواء الجاهلية، وجاءت المنخفضات الجوية، وما أشبه ذلك من الأقوال التي تصرف الإنسان عن ربه سبحانه وتعالىٰ نعم، المنخفضات الجوية قد تكون سببًا لنزول المطر، لكن ليست هي المؤثر بنفسها؛ فتنبه.

❁ **قوله: «ولا غول»:**

جمع غَوْلَة أو غُولة، ونحن نسميها باللغة العامية: الهولة؛ لأنها تهول الإنسان.

والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يمينًا أو شمالًا تلونت لهم الشياطين بألوان مفزعة مخيفة، فتدخل في قلوبهم الرعب والخوف، فتجدهم يكتئبون ويستحسرون عن الذهاب إلىٰ هذا الوجه الذي أرادوا، وهذا لا شك أنه يضعف التوكل علىٰ الله، والشيطان حريص علىٰ إدخال القلق والحزن علىٰ الإنسان بقدر ما يستطيع، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[المجادلة:١٠].

وهذا الذي نفاه الرسولﷺ هو تأثيرها؛ وليس المقصود بالنفي نفي الوجود، وأكثر ما يبتلىٰ الإنسان بهذه الأمور إذا كان قلبه معلقًا بها، أما إن كان معتمدًا علىٰ الله غير مبال بها؛ فلا تضره ولا تمنعه عن جهة قصده.

قوله في حديث أنس: «لا عدوىٰ، ولا طيرة». تقدم الكلام علىٰ ذلك.

❁ **قوله: «ويعجبني الفأل»:**

أي: يسرني، والفأل بَيَّنه بقوله: **«الكلمة الطيبة»**.

فـ **«الكلمة الطيبة»** تعجبهﷺ؛ لما فيها من إدخال السرور علىٰ النفس والانبساط، والمضي قُدُمًا لما يسعىٰ إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة، بل هذا مما يشجع الإنسان؛ لأنها لا تؤثر عليه، بل تزيده طمأنينة وإقدامًا وإقبالًا.

وظاهر الحديث: الكلمة الطيبة في كل شيء؛ لأن الكلمة الطيبة في الحقيقة تفتح القلب وتكون سببًا لخيرات كثيرة، حتىٰ إنها تدخل المرء في جملة ذوي الأخلاق الحسنة.

وهذا الحديث جمع النبيﷺ فيه بين محذورين ومرغوب؛ فالمحذوران هما: العدوىٰ والطيرة، والمرغوب هو الفأل، وهذا من حسن تعليم النبيﷺ، فمن ذَكَرَ المرهوب ينبغي أن يذكر معه ما يكون مرغوبًا، ولهذا كان القرآن مثاني إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة، وهكذا.

۞ **قوله: «عن عقبة بن عامر»:**

صوابه عن عروة بن عامر؛ كما ذكره في «التيسير»، وقد اختلف في نسبه وصحبته.

قوله: «**ذكرت الطيرة عند رسول الله**»: وهذا الذكر إما ذكر شأنها، أو ذكر أن الناس يفعلونها، والمراد، تحدث الناس بها عند رسول اللهﷺ.

۞ **قوله: «أحسنها الفأل»:**

سبق أن الفأل ليس من الطيرة، لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام؛ فإنه يزيد الإنسان نشاطًا وإقدامًا فيما توجه إليه؛ فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإلا؛ فبينهما فرق؛ لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمُتَطَيَّر به، وضعف توكله علىٰ الله، ورجوعه عما هَمَّ به من أجل ما رأىٰ، لكن الفأل يزيده قوة وثباتًا ونشاطًا؛ فالشبه بينهما هو التأثير في كل منهما.

قوله: «**ولا ترد مسلمًا**»: يفهم منه أن من ردته الطيرة عن حاجته؛ فليس بمسلم.

۞ **قوله: «فإذا رأىٰ أحدكم ما يكره»:**

فحينئذ قد تردُ علىٰ قلبه الطيرة، ويبتعد عما يريد، ولا يقدم عليه، وقد ذكر النبيﷺ دواء لذلك وقال: «**فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات...**» إلخ.

قوله: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت**»: وهذا هو حقيقة التوكل، وقوله: «**اللهم**»؛ يعني: يا الله، ولهذا بُنيت علىٰ الضم؛ لأن المنادىٰ علم، بل هو أعلم الأعلام وأعرف المعارف علىٰ الإطلاق، و«الميم» عوض عن «يا» المحذوفة، وصارت في آخر الكلمة تبركًا بالابتداء باسم الله سبحانه وتعالىٰ، وصارت ميمًا؛ لأنها تدل علىٰ الجمع؛ فكأن الداعي جمع قلبه علىٰ الله.

۞ **قوله: «لا يأتي بالحسنات إلا أنت»:**

أي: لا يُقدِّرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا الله وحده لا شريك له، وهذا لا ينافي أن تكون الحسنات بأسباب؛ لأن خالق هذه الأسباب هو الله، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسباب خلقها الله؛ صار الموجد حقيقة هو الله.

والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن في عينه. ويشمل ذلك الحسنات الشرعية؛ كالصلاة والزكاة وغيرها؛ لأنها تسر المؤمن، ويشمل الحسنات الدنيوية، كالمال والولد ونحوها، قال تعالىٰ: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾[التوبة:٥٠] وقال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[آل عمران:١٢٠].

❁ **قوله**: «إلا أنت»:

فاعل يأتي؛ لأن الاستثناء هنا مفرغ.

قوله: «**ولا يدفع السيئات إلا أنت**»: السيئات: ما يسوء المرء وقوعه وينفر منه حالًا أو مآلًا، ولا يدفعها إلا الله، ولهذا إذا أصيب الإنسان بمصيبة التجأ إلىٰ ربه تعالىٰ، حتىٰ المشركون إذا ركبوا في الفلك، وشاهدوا الغرق؛ دعوا الله مخلصين له الدين، ولا ينافي هذا أن يكون دَفْعُها بأسباب؛ فمثلًا لو رأي رجلًا غريقًا، فأنقذه؛ فإنما أنقذه بمشيئة الله، ولو شاء الله لم ينقذه؛ فالسبب من الله، فعقيدة كل مسلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا الله، وبمقتضىٰ هذه العقيدة؛ فإنه يجب أن لا يسأل المسلم الحسنات ولا يسأل دفع السيئات إلا من الله، ولهذا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يسألون الله الحسنات ويسألون دفع السيئات، قال تعالىٰ عن زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[آل عمران:٣٨]، وقال تعالىٰ عن أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٣]، وهكذا يجب أن يكون المؤمن أيضًا.

❁ **قوله**: «**ولا حول ولا قوة إلا بك**»:

في معناها وجهان:

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله؛ فـ«الباء»؛ بمعنىٰ: «في»؛ يعني: إلا في الله وحده، ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون الحول والقوة المنفيان عن غير الله هما الحول المطلق والقوة المطلقة؛ لأن غير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبية ليست بكاملة؛ فالحول الكامل والقوة الكاملة في الله وحده.

الثاني: أنه لا يوجد لنا حول ولا قوة إلا بالله؛ فالباء للاستعانة أو للسببية، وهذا المعنىٰ أصح، وهو مقتضىٰ ورودها في مواضعها؛ إذ إننا لا نتحول من حال إلىٰ حال، ولا نقوىٰ علىٰ ذلك إلا بالله؛ فيكون في هذه الجملة كمال التفويض إلىٰ الله، وأن الإنسان يبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من

الحول والقوة. فإن صحّ الحديث؛ فالرسولﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المتشائم أن نقول: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**».

قوله: «مرفوعًا»:

أي: إلىٰ النبيﷺ.

قوله: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك**»: هاتان الجملتان يؤكد بعضهما بعضًا من باب التوكيد اللفظي.

وقوله: «**شرك**»: أي: إنها من أنواع الشرك، وليست الشرك كله، وإلا؛ لقال: الطيرة الشرك.

وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر المخرج عن الملة، أو أنها نوع من أنواع الشرك؟ نقول: هي نوع من أنواع الشرك؛ كقولهﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر**»[٧١]؛ أي: ليس الكفر المخرج عن الملة، وإلا لقال: «هما بهم الكفر»، بل هما نوع من الكفر.

لكن في ترك الصلاة قال: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[٧٢]، فقال: «**الكفر**»؛ فيجب أن نعرف الفرق بين «أل» المعرفة أو الدالة علىٰ الاستغراق، وبين خلو اللفظ منها، فإذا قيل: هذا كفر؛ فالمراد: أنه نوع من الكفر لا يخرج من الملة، وإذا قيل: هذا الكفر؛ فهو المخرج من الملة.

فإذا تطير إنسان بشيء رآه أو سمعه؛ فإنه لا يعد مشركًا شركًا يخرجه من الملة، لكنه أشرك من حيث إنه اعتمد علىٰ هذا السبب الذي لم يجعله الله سببًا، وهذا يضعف التوكل علىٰ الله ويوهن العزيمة، وبذلك يعتبر شركًا من هذه الناحية، **والقاعدة**: إن كل إنسان اعتمد علىٰ سبب لم يجعله الشرع سببًا؛ فإنه مشرك شركًا أصغر.

وهذا نوع من الإشراك مع الله؛ إما في التشريع إن كان هذا السبب شرعيًّا، وإما في التقدير إن كان هذا السبب كونيًّا، لكن لو اعتقد هذا المتشائم المتطير أن هذا فاعل بنفسه دون الله؛ فهو مشرك شركًا أكبر؛ لأنه جعل لله شريكًا في الخلق والإيجاد.

---

(٧١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إطلاق اسم الكفر علىٰ الطعن في النسب والنياحة، برقم (٦٧)، وأحمد (٢/ ٤٩٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إطلاق اسم الكفر علىٰ من ترك الصلاة، برقم (٨٢)، وأبو داود، كتاب: السنن، باب: في رد الإرجاء، برقم (٤٦٧٨)، والترمذي، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة، برقم (٢٦١٨)، وغيرهم من حديث جابر رضي الله عنه.

❁ **قوله: «وما منا»:**

«منا»: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، إما قبل (إلا) إن قدرت ما بعد إلا فعلًا؛ أي: وما منا أحد إلا تطير، أو بعد (إلا)؛ أي: وما منا إلا متطير.

والمعنىٰ: ما منا إنسان يسلم من التطير، فالإنسان يسمع شيئًا فيتشاءم، أو يبدأ في فعل؛ فيجد أوله ليس بالسهل فيتشاءم ويتركه.

والتوكل: صدق الاعتماد علىٰ الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله وفعل الأسباب التي جعلها الله تعالىٰ أسبابًا. فلا يكفي صدق الاعتماد فقط، بل لا بد أن تثق به؛ لأنه سبحانه يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣].

❁ **قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود»:**

وهو قوله: «**وما منا إلا....**» إلخ.

وعلىٰ هذا يكون موقوفًا، وهو مدرج في الحديث، والمدرج: أن يُدخل أحد الرواة كلامًا في الحديث من عنده بدون بيان، ويكون في الإسناد والمتن، ولكن أكثره في المتن، وقد يكون في أول الحديث، وقد يكون في وسطه، وقد يكون في آخره، وهو الأكثر.

مثال ما كان في أول الحديث: قول أبي هريرة ﷺ: «**أسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقاب من النار**»[٧٣]؛ فقوله: «**أسبغوا الوضوء**» من كلام أبي هريرة، وقوله: «**ويل للأعقاب من النار**» من كلام الرسول ﷺ. ومثال ما كان في وسطه قول الزهري في حديث بدء الوحي: «**كان رسول الله ﷺ يَتحنَّث في غار حراء، والتحنث: التعبد**»[٧٤]، ومثال ما كان في آخره: هذا الحديث الذي ذكره المؤلف، وكذا حديث أبي هريرة، وفيه: «**فمن استطاع منكم أن يطيل غرته؛ فليفعل**»[٧٥]؛ فهذا من كلام أبي هريرة.

---

(٧٣) أخرجه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: غسل الأعقاب، برقم (١٦٥)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل الرجلين بكمالها، برقم (٢٤٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧٤) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، برقم (٤٩٥٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ، برقم (١٦٠)، وغيرهما من حديث عائشة ﷺ.

(٧٥) أخرجه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: فضل الوضوء والغر المحجلون من آثار الوضوء، برقم (١٣٦)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل، برقم (٢٤٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

❁ **قوله**: «من ردته الطيرة عن حاجته»:

«من»: شرطية، وجواب الشرط: «فقد أشرك»، واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصلح لمباشرة الأداة، وحينئذ يجب اقترانه بالفاء، وقد جمع ذلك في بيت شعر معروف، وهو قوله:

اسمِيةٌ طَلبيّةٌ وبِجَامِدٍ وبِمَا وقَدْ وبِلَنْ وبالتَّنفِيسِ

وقوله: «عن حاجته»: الحاجة: كل ما يحتاجه الإنسان بما تتعلق به الكمالات، وقد تطلق على الأمور الضرورية.

❁ **قوله**: «فقد أشرك»:

أي: شركًا أكبر إن اعتقد أن هذا المُتشاءَم به يفعل ويحدث الشر بنفسه، وإن اعتقده سببًا فقط فهو أصغر؛ لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا الباب، وهي: إن كل من اعتقد في شيء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كونًا ولا شرعًا؛ فشركه شرك أصغر؛ لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله قد جعله سببًا كونًا أو شرعًا؛ فالشرعي: كالقراءة والدعاء، والكوني: كالأدوية التي جُرِّب نفعها.

وقوله: «فما كفارة ذلك»؛ أي: ما كفارة هذا الشرك، أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟ لأن الكفارة قد تطلق على كفارة الشيء بعد فعله، وقد تطلق على الكفارة قبل الفعل؛ وذلك لأن الاشتقاق مأخوذ من الكفر، وهو الستر، والستر واقٍ؛ فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

❁ **قوله**: «اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك»:

يعني: فأنت الذي بيدك الخير المباشر؛ كالمطر والنبات، وغير المباشر؛ كالذي يكون سببه من عند الله على يد مخلوق، مثل: أن يعطيك إنسان دراهم صدقة أو هدية، وما أشبه ذلك؛ فهذا الخير من الله، لكن بواسطة جعلها الله سببًا، وإلا؛ فكل الخير من الله ﷻ.

وقوله: «لا خير إلا خيرك»: هذا الحصر حقيقي؛ فالخير كله من الله سواء كان بسبب معلوم أو بغيره.

❁ **قوله**: «لا طير إلا طيرك»:

أي: الطيور كلها ملكك؛ فهي لا تفعل شيئًا، وإنما هي مسخرة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[الملك:١٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النحل:٧٩]؛ فالمهم أن الطير مسخرة بإذن الله؛ فالله تعالى هو الذي يدبرها ويصرفها ويسخرها تذهب يمينًا وشمالًا، ولا علاقة لها بالحوادث.

ويحتمل أن المراد بالطير هنا ما يتشاءم به الإنسان؛ فكل ما يحدث للإنسان من التشاؤم والحوادث المكروهة؛ فإنه من الله كما أن الخير من الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾[الأعراف:١٣١]. لكن سبق لنا أن الشر في فعل الله ليس بواقع، بل الشر في المفعول لا في الفعل، بل فعله تعالىٰ كله خير؛ إما خير لذاته، وإما لما يترتب عليه من المصالح العظيمة التي تجعله خيرًا. فيكون قوله: «لا طير إلا طيرك» مقابلًا لقوله: «ولا خير إلا خيرك».

قوله: «ولا إله غيرك»:

«لا»: نافية للجنس، «وإله»؛ بمعنىٰ: مألوه؛ كغراس؛ بمعنىٰ مغروس، وفراش؛ بمعنىٰ مفروش، والمألوه: هو المعبود محبة وتعظيمًا يتأله إليه الإنسان محبّة له وتعظيمًا له.

فإن قيل: إن هناك آلهة دون الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾[هود:١٠١].

أجيب: أنها وإن عُبِدَت من دون الله وسُمِّيت آلهة؛ فليست آلهة حقًّا؛ لأنها لا تستحق أن تعبد، فلهذا نقول: لا إله إلا الله؛ أي: لا إله حق إلا الله.

يستفاد من هذا الحديث:

١- أنه لا يجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته، وإنما يتوكل علىٰ الله ولا يبالي بما رأىٰ أو سمع أو حدث له عند مباشرته للفعل أول مرة؛ فإن بعض الناس إذا حصل له ما يكره في أول مباشرته الفعل تشاءم، وهذا خطأ؛ لأنه ما دامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية، فلا تهتم بما حدث.

٢- أن الطيرة نوع من الشرك؛ لقوله: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**»[٧٦].

٣- أن من وقع في قلبه التطير ولم ترده الطيرة؛ فإن ذلك لا يضر كما سبق في حديث ابن مسعود: «**وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل**».

٤- أن الأمور بيد الله خيرها وشرها.

٥- انفراد الله بالألوهية؛ كما انفرد بالخلق والتدبير.

قوله في حديث الفضل: «**إنما الطيرة**»: هذه الجملة عند البلاغيين تسمىٰ حصرًا؛ أي: ما الطيرة إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث في قلبك ولم تلتفت إليه، ولا ريب أن السلامة منها حتىٰ

---

(٧٦) سبق تخريجه.

في تفكير الإنسان خير بلا شك، لكن إذا وقعت في القلب ولم ترده ولم يلتفت لها؛ فإنها لا تضره، لكن عليه أن لا يستسلم، بل يدافع؛ إذ الأمر كله بيد الله.

❁ **قوله**: «ماأمضاك أو ردك»:

أما «ما ردك»؛ فلا شك أنه من الطيرة؛ لأن التطير يوجب الترك والتراجع. وأما «ما أمضاك»؛ فلا يخلو من أمرين:

الأول: أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاحه أو عدم نجاحه بالتطير، كما لو قال: سأزجر هذا الطير؛ فإذا ذهب إلىٰ اليمين؛ فمعنىٰ ذلك: اليُمْن والبركة فيقدم؛ فهذا لا شك أنه تطير؛ لأن التفاؤل بمثل انطلاق الطير عن اليمين غير صحيح؛ لأنه لا وجه له؛ إذ الطير إذا طار؛ فإنه يذهب إلىٰ الذي يرىٰ أنه وجهته، فإذا اعتمد عليه؛ فقد اعتمد علىٰ سبب لم يجعله الله سببًا، وهو حركة الطير.

الثاني: أن يكون سبب المُضيِّ كلامًا سمعه أو شيئًا شاهده يدل علىٰ تيسير هذا الأمر له؛ فإن هذا فأل، وهو الذي يعجب النبي ﷺ لكن إن اعتمد عليه وكان سببًا لإقدامه؛ فهذا حكمه حكم الطيرة، وإن لم يعتمد عليه ولكنه فرح ونشط وازداد نشاطًا في طلبه؛ فهذا من الفأل المحمود.

والحديث في سنده مقال، لكن علىٰ تقدير صحته هذا حكمه.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: التنبيه علىٰ قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾، مع قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾: أي: لكي يتنبه الإنسان، فإن ظاهر الآيتين التعارض، وليس كذلك؛ فالقرآن والسنة لا تعارض بينهما ولا تعارض في ذاتهما، إنما يقع التعارض حسب فهم المخاطب، وقد سبق بيان الجمع أن قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾أن الله هو المقدر ذلك، وليس موسىٰ ولا غيره من الرسل، وأن قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾من باب السبب؛ أي: أنتم سببه.

الثانية: نفي العدوىٰ: وقد سبق أن المراد بنفيها نفي تأثيرها بنفسها لا أنها سبب للتأثير؛ لأن الله قد جعل بعض الأمراض سببًا للعدوىٰ وانتقالها.

الثالثة: نفي الطيرة؛ أي: نفي التأثير لا نفي الوجود.

الرابعة: نفي الهامة: وقد سبق تفسيرها.

الخامسة: نفي الصفر: وسبق تفسيره.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك، بل مستحب: تؤخذ من قول النبيﷺ: «**يعجبني الفأل**»، وكل ما أعجب النبيﷺ؛ فهو حسن، قالت عائشة رضي الله عنها: «**كان النبيﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله**»(٧٧).

السابعة: تفسير الفأل: فسره النبيﷺ بأنه: الكلمة الطيبة، وسبق أن هذا التفسير على سبيل المثال لا على سبيل الحصر؛ لأن الفأل كل ما ينشط الإنسان على شيء محمود؛ من قول، أو فعل مرئي أو مسموع.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل؛ أي: إذا وقع في قلبك وأنت كاره له؛ فإنه لا يضرك ويذهبه الله بالتوكل؛ لقول ابن مسعود: «وما منا إلاَّ... ولكن الله يذهبه بالتوكل».

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده: وسبق أنه شيئان:

أن يقول: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

أو يقول: «اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك: وسبق أن الطيرة شرك، لكن بتفصيل، فإن اعتقد تأثيرها بنفسها؛ فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنها سبب؛ فهو شرك أصغر.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة؛ أي: ما أمضاك أو ردك.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: ﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾:

تمام الآية الثانية: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[يس:١٩].

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كانت الطيرة نوعًا من الشرك الذي يتنافى مع التوحيد أو ينقص كماله عقد المصنف لها هذا الباب في كتاب التوحيد تحذيرًا منها.

---

(٧٧) أخرجه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: التيمن في الوضوء والغسل، برقم (١٦٨)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: التيمن في الطهور وغيره، برقم (٢٦٨)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

«ما جاء في التطير»؛ أي: من الوعيد والتطير: مصدر تطير وهو التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع.

﴿أَلَآ﴾: أداة تنبيه.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر.

﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾: ما قُضي عليهم وقدر لهم.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنَّما جاءهم الشؤم من قبله وبحكمه الكوني القدريِّ بسبب كفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: وصف لهم بالجهالة وعدم العلم وأنهم لا يدرون.

﴿طَٰٓئِرُكُم﴾؛ أي: حظكم وما نابكم من شر.

﴿مَّعَكُمْ﴾: أي: بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾: أي: من أجل أنا ذكرناكم قابلتمونا بقولكم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[يس:١٨].

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: عادتكم الإسراف في العصيان فمن ثم جاءكم الشؤم. والسرف: الفساد وهو مجاوزة الحد في مخالفة الحقِّ.

المعنىٰ الإجمالي للآيتين:

الآية الأولىٰ: لَمَّا كان قوم فرعون إذا أصابهم غلاء وقحط قالوا: هذا أصابنا بسبب موسىٰ وأصحابه وبشؤمهم رد الله تعالىٰ عليهم بأنَّ ما أصابهم من ذلك إنما هو بقضائه وقدره عليهم بكفرهم، ثم وصف أكثرهم بالجهالة وعدم العلم، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنَّ موسىٰ ما جاء إلا بالخير والبركة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

٢- الآية الثانية:

أنَّ الله سبحانه رد علىٰ من كذب الرسل فأصيب بالبلاء، ثم ادعىٰ أن سببه جاء من قبل الرسل وبسببهم، فبين الله سبحانه أن سبب هذا البلاء من قبل أنفسهم، وبسبب أفعالهم وكفرهم، لا من قبل الرسل كما ادعو. وكان اللائق بهم أن يقبلوا قول الناصحين ليسلموا من هذا البلاء؛ لكنهم قوم متمادون في المعاصي فمن ثم جاءهم الشؤم والبلاء.

مناسبة الآيتين للباب:

أنَّ الله ذكر أنَّ التطير من عمل الجاهلية والمشركين، وقد ذمهم الله تعالىٰ ومقتهم.

ما يستفاد من الآيتين:

أنَّ التطير من عمل الجاهلية والمشركين.

إثبات القضاء والقدر والإيمان بهما.

أنَّ المصائب بسبب المعاصي والسيئات.

في الآية الأولىٰ: ذم الجهل؛ لأنه يؤدِّي إلىٰ عدم معرفة الشرك ووسائله، ومن ثم الوقوع فيه.

في الآية الثانية: وجوب قبول النصيحة؛ لأنَّ عدم قبولها من صفات الكفار.

أنَّ ما جاءت به الرسل فهو الخير والبركة لمن اتبعه.

❁ **قوله:** «لا عدوىٰ»:

العدوىٰ اسم من الإعداء، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلىٰ غيره، والمنفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية أنَّ العلة تسري بطبعها لا بقدر الله.

«ولا طيرة»: الطيرة هي: التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأشخاص و «لا» يحتمل أن تكون نافية أو ناهية والنفي أبلغ.

«ولا هامة»: الهامة بتخفيف الميم: البومة كانوا يتشاءمون بها، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله.

«ولا صفر»: قيل المراد به: حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس، يزعمون أنها أشد عدوىٰ من الجرب، فجاء الحديث بنفي هذا الزعم، وقيل المراد: شهر صفر كانوا يتشاءمون به، فجاء الحديث بإبطال ذلك.

❁ **قوله:** «ولا نوء»:

سيأتي بيان ذلك في بابه إن شاء الله.

«ولا غول»: الغول جنس من الجنِّ والشياطين، يزعمون أنَّها تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فجاء الحديث بإبطال ذلك، وبيان أنَّها لا تستطيع أن تضلَّ أحدًا أو تهلكه.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

ينفيﷺ ما كانت تعتقده الجاهلية من اعتقادات باطلة من التشاؤم بالطيور وبعض الشهور والنجوم وبعض الجنِّ والشياطين، فيتوقعون الهلاك والضرر منها؛ كما كانوا يعتقدون سريان الأمراض من محل الإصابة إلىٰ غيرها بأنفسها. فيردﷺ كل هذه الخرافات، ويغرس مكانها التوكل علىٰ الله وعقيدة التوحيد الخالص.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّه يدل علىٰ إبطال الطيرة، وأنَّها اعتقاد جاهلي.

ما يستفاد من الحديث:

إبطال الطيرة.

إبطال اعتقاد الجاهلية أنَّ الأمراض تعدي بطبيعتها لا بتقدير الله تعالىٰ.

إبطال التشاؤم بالهامة وشهر صفر.

إبطال اعتقاد تأثير الأنواء.

إبطال اعتقاد الجاهلية في الغيلان.

وجوب التوكل علىٰ الله والاعتماد عليه.

أنَّ من تحقيق التوحيد الحذر من الوسائل المفضية إلىٰ الشرك.

إبطال ما يفعله بعض الناس من التشاؤم بالألوان، كالأسود والأحمر، أو بعض الأرقام والأسماء، والأشخاص وذوي العاهات.

قوله: «**الفأل**»: مهموز فيما يسر ويسوء بخلاف الطيرة، فلا تكون إلاَّ فيما يسوء.

«**الكلمة الطيبة**»: كأن يكون الرجل مريضًا فيسمع من يقول: يا سالم، فيؤمل البرء من مرضه.

مناسبة ذكر الحديث في الباب:

أنَّ فيه بيان أنَّ الفأل ليس من الطيرة المنهي عنها.

ما يستفاد من الحديث:

أنَّ الفأل ليس من الطيرة المنهي عنها.

تفسير الفأل.

مشروعية حسن الظن بالله والنهي عن سوء الظن به.

الفرق بين الفأل والطيرة:

الفأل يكون فيما يسر.

الفأل فيه حسن ظنٍّ بالله، والعبد مأمور أن يحسن الظن بالله.

الطيرة لا تكون إلاَّ فيما يسوء.

الطيرة فيها سوء ظن بالله، والعبد منهي عن سوء الظن بالله.

۞ **قوله: «عن عروة بن عامر...»:**

«**ترجمة عروة**»: هو: عروة بن عامر القرشي، وقيل: الجهني المكي. ذكر ابن حبان في الثقات.

«ولا ترد مسلمًا»: بخلاف الكافر فإنَّها ترده عن قصده.

«لا يأتي بالحسنات... إلخ»؛ أي: ولا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع السيئات.

«ولا حول»: الحول: التحول والانتقال من حالٍ إلىٰ حالٍ.

«ولا قوة»: علىٰ ذلك.

«إلاَّ بك»: وحدك.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يذكر الراوي أنَّ الطيرة ذكرت عند النبيﷺ؛ ليبين للناس حكمها وما يعمل حيالها، فأبطل النبيﷺ الطيرة، وأخبر أنَّ الفأل منها؛ ولكنه خيرٌ منها - وأخبرﷺ أنَّ الطيرة لا ترد مسلمًا عن قصده؛ لإيمانه أنَّه لا ضارَّ ولا نافع إلا الله، وإنما ترد المشرك الذي يعتقدها - ثم أرشدﷺ إلىٰ العلاج الذي تدفع به الطيرة وهو هذا الدعاء المتضمن تعلق القلب بالله وحده في جلب النفع ودفع الضر والتبري من الحول والقوة إلا بالله.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه إبطال الطيرة وبيان ما تدفع به واستثناء الفأل منها.

ما يستفاد من الحديث:

إبطال الطيرة وبيان ما تدفع به من الدعاء والذكر.

أنَّ ما يقع في القلب من الطيرة لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل.

أنَّ الفأل من الطيرة وهو خيرها.

وجوب التوكل علىٰ الله والتبري من الحول والقوة إلا بالله.

❁ **قوله: «الطيرة شرك»:**

لما فيها من تعلق القلب علىٰ غير الله.

«وما منَّا إلاَّ»: فيه إضمار تقديره: وما منَّا إلا وقع في قلبه شيء منها.

«يذهبه بالتوكل»؛ أي: التوكل علىٰ الله في جلب النفع ودفع الضرِّ يذهب الطيرة.

«آخره من قول ابن مسعود»: وهو قوله: «وما منا..إلخ» وهو الصواب؛ لأنَّها شرك، والنبي معصوم من الشرك.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أنَّ الرسولﷺ يخبر ويكرر الإخبار؛ ليتقرر مضمونه في القلوب، أنَّ الطيرة شرك؛ لما فيها من تعلق القلب علىٰ غير الله وسوء الظنِّ به.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّه يدل علىٰ أنَّ الطيرة شرك.

ما يستفاد من الحديث:

١- أنَّ الطيرة شرك؛ لأنَّ فيها تعلق القلب بغير الله.

٢- مشروعية تكرار إلقاء المسائل المهمة؛ لتحفظ وتستقر في القلوب.

٣- أنَّ الله يذهب الطيرة بالتوكل عليه، فلا تضر من وجد في نفسه شيئًا منها ثم توكل علىٰ الله ولم يلتفت إليها.

۞ **قوله: «ولأحمد من حديث ابن عمرو...»:**

التراجم:

١- ابن عمرو هو: عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أحدُ السابقين المكثرين.

٢- الفضل هو: الفضل بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبيﷺ.

«**فقد أشرك**»: لأنه لم يخلص توكله علىٰ الله بالتفاته إلىٰ غيره.

«**كفارة ذلك**»؛ أي: ما يقع من الطيرة.

«**لا إله غيرك**»؛ أي: لا معبود بحق سواك.

«**إنَّما الطيرة**»؛ أي: المنهي عنها.

«**ما أمضاك**»؛ أي: حملك علىٰ المضي فيما أردت.

«**أوردك**»: عن المضي فيه.

المعنىٰ الإجمالي للحديثين:

يخبرﷺ أنَّ الطيرة المنهي عنها والتي هي شرك، حقيقتها وضابطها ما حمل الإنسان علىٰ المضي فيما أراده أو ردَّه عنه اعتمادًا عليها، فإذا ردَّته عن حاجته التي عزم عليها كإرادة السفر ونحوه فقد ولج باب الشرك وبرئ من التوكل علىٰ الله وفتح علىٰ نفسه باب الخوف. ومفهوم الحديث أنَّ من لم تثنه الطيرة عن عزمه فإنَّها لا تضره. ثم أرشدﷺ إلىٰ ما تدفع به الطيرة من الأدعية مما فيه الاعتماد علىٰ الله والإخلاص له في العبادة.

مناسبة الحديثين للباب:

أنَّ فيهما بيانًا لحقيقة الطيرة الشركية.

ما يستفاد من الحديثين:

١- أنَّ الطيرة شرك.

٢- أن حقيقة الطيرة الشركية ما دفعت الإنسان إلىٰ العمل بها.

٣- أنَّ ما لم يؤثر علىٰ عزم الإنسان من التشاؤم فليس بطيرة.

٤- معرفة الذكر الذي تدفع به الطيرة عن القلب وأهميته للمسلم.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب ما جاء في التطير»:

سبق بيان أن الطيرة نوع من السحر، ولهذا جاء المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الباب بعد الأبواب المتعلقة بالسحر؛ لأنها من أنواعه بنص الحديث.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن التطير نوع من الشرك بالله -جل وعلا- بشرطه، والشرك الذي يكون من جهة التطير منافٍ لكمال التوحيد الواجب؛ لأنه شرك أصغر.

وحقيقة التطير: أنه التشاؤم أو التفاؤل بحركة الطير من السوانح والبوارح، أو النطيح والقعيد، أو بغير الطير مما يحدث. فكانوا في الجاهلية إذا أراد أحد أن يذهب إلىٰ مكان، أو يمضي في سفر، أو أن يعقد له خيارًا استدل بما يحدث له من أنواع حركات الطيور، أو بما يحدث له من الحوادث علىٰ أن هذا السفر سفر سعيد فيمضي فيه، أو أنه سفر سيئ وعليه فيه وبال فيرجع عنه.

وعلىٰ هذا فضابط الطيرة الشركية التي من قامت في قلبه وحصل له شرطها وضابطها فهو مشرك الشرك الأصغر، هو ما جاء في آخر الباب من قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك**»[٧٨] . فالطيرة شرك، وهي التي تقع في القلب، ويبني عليها المرء إمضاء في الفعل، أو نكوصًا عنه. فإذا خرج مثلًا من بيته وهو ينوي سفرًا أو رحلة، أو ينوي القيام بصفقة تجارة، أو نحو ذلك، فحصل أمامه حادث، فهذا الحادث الذي حصل أمامه من تصادم سيارة، أو اعتداء من واحد علىٰ آخر، أو نحو ذلك، إن أوقع في قلبه شؤمًا، واستدل بهذا الحادث علىٰ أنه سيفشل في سفره أو تجارته أو أنه سيصيبه

---

(٧٨) سبق تخريجه.

مكروه في سفره، ورجع ولم يمضِ فقد حصل له التطير الشركي، أما إذا حصل ذلك في قلبه وحصل له نوع تشاؤم، ولكنه مضىٰ وتوكل علىٰ الله، فهذا لا يكاد يسلم منه أحد، كما جاء في حديث ابن مسعود «وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»(٧٩). كما سيأتي.

فهذه حقيقة التطير الشركي وضابطه، وتبين أن التطير عام ليس خاصًا بالطير وحركاتها، وقد تقدم في «باب ما جاء في شيء من أنواع السحر» أن العيافة متعلقة بالطير، كما فسرها عوف الأعرابي بقوله: «العيافة زجر الطير». فهي متعلقة بالطير من حيث إنه يحرك الطير ويزجره حتىٰ ينظر أين يتحرك، وأما الطيرة فهي أن يتشاءم أو يتفاءل ويمضي أو يرجع بحركة تحصل أمامه ولو لم يزجر أو يفعل، أو بشيء يحصل أمامه، إما من الطير أو من غيره.

❁ **قوله:** «باب ما جاء في التطير»:

يعني: من أنه شرك بالله -جل وعلا- إذا أمضىٰ أو رجع، وكفارة التطير إذا وقع في القلب، ونحو ذلك من الأحكام.

❁ **قوله:** «﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾[الأعراف: ١٣١]»:

هذا مقطع من آية في سورة الأعراف أولها: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٣١] يعني: إذا أتاهم خصب وسعة وزيادة في الأرزاق ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ يعني: نحن المستحقون لها، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ يعني: أصابهم جدب، أو نقص في الأرزاق، أو بلاء، قالوا: هذا بسبب شؤم موسىٰ ومن معه، فهم الذين بسببهم وبسبب أقوالهم وأعمالهم حصل لنا هذا السوء وهذه الويلات، فتطيروا بهم، يعني: جعلوهم سببًا لما حصل لهم، قال جل وعلا: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾ يعني: ما يطير عنهم من عمل صالح أو طالح، وأنهم يستحقون الحسنات أو يستحقون السيئات، كل هذا عند الله -جل وعلا- أو أن معنىٰ قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن سبب ما يأتيهم من الحسنات أو ما يأتيهم من السيئات أن ذلك من جهة القضاء والقدر، فهو عند الله جل وعلا.

---

(٧٩) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في الطيرة، برقم (٣٩١٠)، والترمذي، كتاب: السير، باب: الطيرة، برقم (١٦١٤)، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة، برقم (٣٥٣٨)، وأحمد (١/ ٤٤٠)، وغيرهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٣٩٦٠).

ومناسبة هذه الآية لهذا الباب: أن هذا التطير من صفات أعداء الرسل، ومن خصال المشركين، وإذا كان كذلك فهو مذموم، ومن خصال المشركين الشركية، وليست من خصال أتباع الرسل، وأما أتباع الرسل فإنهم يعلقون ذلك بما عند الله من القضاء والقدر، أو بما جعله الله -جل وعلا- لهم من ثواب أعمالهم أو العقاب على أعمالهم كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

❁ **قوله:** ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ ﴾[يس: ١٩]:

وهي من سورة يس، والذين تطيروا بأولئك هم المشركون أصحاب تلك القرية حيث قالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[يس: ١٨] قال أتباع الرسل: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾[يس: ١٩] يعني: سبب وقوع السيئات عليكم، أو سبب قدوم الحسنات عليكم هو من عند أنفسكم، فالسوء الذي سينالكم والعقاب الذي سينزل بكم ملازم لكم ملازمة ما تتطيرون به من عمل سوء، ومن معاداة للرسل، وتكذيب للرسل، هذا ملازم لكم وستتطيرون به قالوا: ﴿ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ ﴾ لأنه من جهة أنهم فعلوا السيئات وكذبوا الرسل وهذا سيقع عليهم وباله.

ومناسبة هذه الآية للباب كمناسبة الآية قبلها من أن هذه هي قالة المشركين وأعداء الرسل.

❁ **قوله:** «**وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: لا عدوىٰ ولا طيرة...**»:

موطن الشاهد قوله: «**ولا طيرة**» من المعلوم أن المنفي هنا ليس هو وجود الطيرة؛ لأن الطيرة موجودة من جهة اعتقاد الناس، ومن جهة استعمالها، وكذلك العدوىٰ موجودة من جهة الوقوع، ولهذا قال العلماء: النفي هنا راجع إلىٰ ما تعتقده العرب ويعتقده أهل الجاهلية؛ لأن (لا) هنا: نافية للجنس واسمها مذكور، وخبرها محذوف لأجل العلم به، فإن الجاهليين يؤمنون بوجود هذه الأشياء، ويؤمنون أيضًا بتأثيرها، فالمنفي ليس هو وجودها، وإنما هو تأثيرها فيكون التقدير هنا: لا عدوىٰ مؤثرة بطبعها ونفسها وإنما تنتقل العدوىٰ بإذن الله -جل وعلا- وكان أهل الجاهلية يعتقدون أن العدوىٰ تنتقل بنفسها، فأبطل الله ذلك الاعتقاد، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا عدوىٰ**» يعني: مؤثرة بنفسها.

«**ولا طيرة**» أي: مؤثرة أيضًا، فإن الطيرة شيء وهمي يكون في القلب، لا أثر له في قضاء الله وقدره، فحركة السانح، والبارح، أو النطيح، أو القعيد، لا أثر لها في حكم الله وفي ملكوته، وفي قضائه وقدره، فخبر (لا) النافية للجنس تقديره: (مؤثرة) أي: لا طيرة مؤثرة، بل الطيرة شيء وهمي.

وكذلك قوله: «ولا هامة ولا صفر...» إلخ الحديث.

وقد سبق بيان أن خبر (لا) النافية للجنس يحذف كثيرًا في لغة العرب إذا كان معلومًا، كما قال ابن مالك في آخر باب (لا) النافية للجنس في الألفية:

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر إذا المراد مع سقوطه ظهر

❁ **قوله: «ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: لا عدوىٰ ولا طيرة ويعجبني الفأل...»:**

«**لا عدوىٰ**» يعني: لا عدوىٰ مؤثرة بنفسها، بل بإذن الله جل وعلا.

«**ولا طيرة**» مؤثرة أصلًا، وإنما ذلك راجع إلىٰ قضاء الله وقدره.

قوله: «**ويعجبني الفأل**» قالوا: وما الفأل؟ قال: «**الكلمة الطيبة**»: كان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل وفسره بأنه الكلمة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة إذا سمعها فتفاءل بها، وأنه سيحصل له كذا وكذا من الخيرات، يكون من باب حُسن الظن بالله -جل وعلا- فالفأل حسن ظن بالله، والتشاؤم سوء ظن بالله -جل وعلا- ولهذا كان الفأل ممدوحًا ومحمودًا، والشؤم مذمومًا.

ومعلوم أن العبد مأمور بأن يحسن الظن بالرب -جل وعلا- ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يتفاءل، وكل ذلك من تعظيم الله -جل وعلا- وحسن الظن به وتعلق القلب به، وأنه لا يفعل للعبد إلا ماهو أصلح له.

❁ **قوله: «ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل»:**

الطيرة: يعني: التأثر بالكلمة؛ لأننا ذكرنا أن الطيرة عامة تشمل الأقوال والأعمال التي تحصل أمام العبد، فإذا كان ثَمَّ تطير فإن أحسنه الفأل، يعني: أن يقع في قلبه أنه سيحصل له كذا وكذا من جراء كلمة سمعها، أو من جراء فعل حصل له. وأحسنُ ذلك الفأل وغيره مذموم، وإنما كان الفأل محمودًا وممدوحًا ومأذونًا فيه، لما ذكرنا من أنه إذا تطير متفائلًا فإنه محسن الظن بالله - جل وعلا- لأن التفاؤل يشرح الصدر، ويؤنس العبد، ويذهب الضيق الذي يوحيه الشيطان ويسببه في قلب العبد، والشيطان يأتي للعبد فيجعله يتوهم أشياء تضره وتحزنه، فإذا فتح العبد علىٰ قلبه باب التفاؤل أبعد عن قلبه باب تأثير الشيطان في النفس.

قوله: «ولا ترد مسلمًا» هذا خبر في معنىٰ النهي، وقد بينا أن النهي قد يُعدل عنه إلىٰ الخبر، كما أن الأمر قد يعدل عنه إلىٰ الخبر لتأكيد النهي ولتأكيد الأمر، قال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

﴿ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ﴾[النحل: ٤٩] فهذا خبر مثبت لكنه كالأمر المؤكد، وقوله: «لا ترد مسلمًا» هذا خبر منفي لكن فيه النهي أن ترد الطيرة مسلمًا عن حاجته، فإذا ردته عن حاجته، فقد حصل له الشرك بالتطير.

قوله: «فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت...»:

هذا دعاء عظيم في دفع ما يأتي للقلب من أنواع التشاؤم وأنواع الطيرة.

قوله: «وعن ابن مسعود مرفوعًا: الطيرة شرك الطيرة شرك...»:

يعني: أنها شرك أصغر بالله جل وعلا.

وقوله: «وما منا إلا» يعني: إلا وقد يقع في قلبه بعض التطير؛ لأن هذا من الشيطان، والشيطان يأتي القلوب فيغريها بما يفسدها، «وما منا إلا» يعني: ويعرض له ذلك.

قوله: «ولكن الله يذهبه بالتوكل» لأن حسنة التوكل وإتيان العبد بواجب التوكل يذهب عنه كيد الشيطان بالتطير، فالواجب على العبد إذا عرض له شيء من التشاؤم ألا يرجع عما أراد عمله، بل يُعظم التوكل على الله -جل وعلا- لأن هذه الأشياء التي تحصل لا تدل على الأمور المغيبة؛ لأنها أمور طرأت ووقعت هكذا أمام العبد، وليس لها أثر فيما يحصل مستقبلًا.

قوله: «ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك...»:

هذا هو ضابط الطيرة التي تكون شركًا، وهو أن ترد المتطير عن حاجته، فإذا لم ترده عن حاجته، ولم يستجب لها، فلا حرج عليه في ذلك إلا إن عظُمت في قلبه، فربما دخلت في أنواع محرمات القلوب، والذي يذهب ذلك كله هو التوكل على الله، وتعظيم الرغب فيما عنده وحسن الظن بالله جل وعلا.

قوله: «قالوا: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال: أن تقول اللهم لا خير إلا خيرك ...»:

لا طير إلا طيرك: يعني: لن يحصل إلا قضاؤك الذي قضيته، أو لن يحصل ويُقضى إلا ما قدرته على العبد. فعلم المغيبات إنما هو عند الله جل وعلا.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: التنبيه علىٰ قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:١٣١] مع قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ [يس:١٩] أي: ما أصابهم من شؤم فهو بقدر الله بسبب ذنوبهم، وقوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ أي: حظكم وما نابكم من شر معكم بذنوبكم. ذكر معناه في الشرح.

الثانية: نفي العدوىٰ، أي: انتقال المرض من بدن إلىٰ آخر بطبعه بدون قدر الله.

الثالثة: نفي الطيرة، أي: إنها لا تنفع ولا تضر وهي التشاؤم بالطيور وأصواتها وممارها.

الرابعة: نفي الهامة، أي: إنها لا تنفع ولا تضر والمراد بها البومة.

الخامسة: نفي الصفر، أي: إنه لا ينفع ولا يضر، والمراد: شهر صفر، وقيل غيره.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب، أي: ليس من الطيرة المذمومة.

السابعة: تفسير الفأل، أي: هو الكلمة الطيبة كمن له ضائع فيسمع من يقول: يا واجد، فيتفاءل بذلك.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل أي لقوله: «وما منا إلا» أي: وما منا إلا ويقع في قلبه شيء من ذلك، ولكن الله يذهبه بالتوكل فإذا وقع في قلبه شيء من ذلك فمضىٰ، ولم يلتفت إليه لم يضره ذلك.

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده، أي: من وجد شيئًا من الطيرة فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك.

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك، أي: لما يقع في القلب من اعتقاد النفع والضر بسببها.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة، أي: هي ما أمضىٰ العبد أو ردّه أي: حمله علىٰ المضي بعدما عزم علىٰ عدمه أورده عنه بعدما عزم عليه.

* الأسئلة *

س: اذكر مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

ج: هي أن الطيرة من الشرك المنافي للتوحيد أو لكماله الواجب لما فيها من تعلق القلب بغير الله.

س: عرف التطير واذكر حكمه؟

ج: التطير: هو التشاؤم بمرئي أو مسموع من الطيور ونحوها وحكمه: التحريم؛ لأنه من الشرك.

❁ **قوله**: «قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف:١٣١]».

س: اشرح هاتين الآيتين وبين مناسبتهما للباب؟

ج: أخبر الله تعالىٰ في الآية الأولىٰ أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة وهي الخصب والسعة والرخاء: ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: نحن الحقيقون والجديرون بها ونحن أهلها ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾؛ أي: بلاء وقحط تطيروا بموسىٰ ومن معه فيقولون: هذا بسبب موسىٰ وأصحابه فقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ﴾؛ أي: ما قضىٰ عليهم وقدر لهم: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بحكمه وقضائه بسبب كفرهم وتكذيبهم لآيات الله ورسله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لا يفهمون ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسىٰ عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾؛ المعنىٰ: والله أعلم حظكم وما نالكم من شر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ليس من أجلنا ولا بسببنا.

ومناسبة الآيتين للباب:

أنها دلتا علىٰ أن التطير من أعمال الكفار وقد ذمهم الله به ومقتهم عليه.

❁ **قوله**: «عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا عدوىٰ ولا طيرة ولا هامة ولا صفر...».

س: بين معاني الكلمات المذكورة في الحديث، وبين الشاهد منه للباب؟

ج: ينفي الرسول ﷺ ما كان عليه أهل الجاهلية وما كانوا يعتقدونه من أن هذه الأشياء تؤثر بنفسها من غير إرادة الله.

العدوىٰ: انتقال المرض من المريض إلىٰ الصحيح وكانت العرب في الجاهلية تعتقد أن المرض يعدي بطبعه من غير تقدير الله تعالىٰ.

الطيرة: سبق تعريفها وهي الشاهد من الحديث للباب.

الهامة: طير من طيور الليل تسمىٰ البومة كانوا يعتقدون أنها إذا وقعت علىٰ بيت أحدهم تخبره بموته أو موت أحد من أهل داره فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله.

صفر: قيل: هو شهر صفر كان أهل الجاهلية يتشاءمون به وقيل: - صفر- دواب تخرج في البطن تهيج عند الجوع وربما قتلت يعتقدون أنها أعدىٰ من الجرب فأبطل النبيﷺ ذلك.

النوء: موضع سقوط الكوكب وقيل: هو الكوكب -النجم- كانوا ينسبون إليه نزول المطر.

الغول: واحد الغيلان وهو جنس من الشياطين كانوا يعتقدون أنها تتعرض لهم في الطريق فتضلهم عنه وتهلكهم فنفىٰ النبيﷺ ذلك؛ بمعنىٰ: أنها لا تستطيع أن تضل أحدًا مع ذكر الله تعالىٰ والتوكل عليه.

❁ **قوله: «عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: لا عدوىٰ...»[٨٠]. متفق عليه.**

س: كم أنواع الطيرة وما هي؟ وما هو الفأل وما الفرق بينه وبين الطيرة؟

جـ: الطيرة نوعان:

أحدهما: الفأل وهو الكلمة الطيبة؛ أي: الكلام الحسن يسمعه الإنسان فيسره ويقوي رجاؤه وثقته بالله تعالىٰ وهو محمود؛ لأنه حسن ظن بالله.

ومثاله: أن يكون الإنسان مريضًا فيسمع رجلًا يقول: يا سالم أو يكون فاقدًا ضالة فيسمع آخر يقول: يا واجد فيقع في قلبه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته.

النوع الثاني: الطيرة المحرمة وهي ما يحمل الإنسان علىٰ المضي فيما أراده أو يمنعه من المضي فيه وهي مذمومة؛ لأن فيها اعتمادًا علىٰ غير الله وسوء ظن به.

والفرق بين الفأل والطيرة: أن الفأل يستعمل فيما يسر ويسوء والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء.

س: ما معنى قولهﷺ: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك»[٨١] وما المراد بالحسنات والسيئات هنا؟ وما الذي يستفاد من هذا الدعاء؟

جـ: المعنىٰ: لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات بل أنت وحدك لا شريك لك

---

(٨٠) سبق تخريجه.

(٨١) سبق تخريجه.

الذي تأتي بالحسنات وتدفع السيئات. والمراد بالحسنات هنا: النعم والسيئات: المصائب. ومعنىٰ: «**لا حول ولا قوة إلا بك**»: الحول التحول والانتقال أي: لا تحول من حال إلىٰ حال ولا قوة علىٰ ذلك إلا بالله وحده لا شريك له.

ويستفاد من هذا الدعاء:

١ - التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته.

٢ - نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر.

❁ **قوله: «عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا ولكن الله...».**

س: ما الذي يؤخذ من هذا الحديث، ولماذا صارت الطيرة من الشرك؟ وما نوع هذا الشرك، وما معنى قول ابن مسعود: «وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»؟

جـ: يؤخذ منه تحريم الطيرة وأنها من الشرك لما فيها من التعلق علىٰ غير الله. والمراد بالشرك هنا الشرك الخفي.

ومعنىٰ قول ابن مسعود: «وما منا إلا»؛ أي: إلا وقد وقع في قلبه شيء من الطيرة ولكن لما توكلنا علىٰ الله واعتمدنا عليه أذهبه الله عنا بتوكلنا واعتمادنا عليه وحده.

❁ **قوله: «ولأحمد من حديث ابن عمرو: من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك...».**

س: ما معنى هذا الحديث وما الذي يتضمن؟

جـ: معناه لا يجلب الخير ولا يدفع الشر غيرك ولا معبود سواك ويتضمن الاعتماد علىٰ الله وحده والإعراض عما سواه. وأن الطيرة لا تضر من كرهها ومضىٰ في طريقه.

وقوله: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك» هذا بيان الطيرة المنهي عنها أنها ما يحمل الإنسان علىٰ المضي فيما أراد أو يمنعه من المضي فيه كما تقدم، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس التاسع والعشرون:

باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في «صحيحه»: «قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاثٍ: زينةً للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدَىٰ بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به»(٨٢). انتهىٰ.

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عُيينة فيه(٨٣). ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

وعن أبي موسىٰ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر»(٨٤). رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه».

فيه مسائل:

الأولىٰ: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد علىٰ من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

۞ **قوله**: «باب ما جاء في التنجيم»:

أي: ذكر ما لا يجوز منه وذمه وتحريمه، وما ورد من الوعيد فيه، وذكر ما يجوز. قال شيخ الإسلام: التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الأرضية؛ كالمطر والربيع والمحل وغير ذلك.

---

(٨٢) أخرجه البخاري معلقًا، كتاب: بدء الخلق، باب: في النجوم (٦/ ٢٩٦- فتح)، والطبري (١٤/ ٩٢) وغيرهما عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٨٣) في نسخة الفوزان: «ولم يرخص فيه ابن عيينة».

(٨٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٩)، وابن حبان، برقم (٥٣٤٦)، والحاكم، برقم (٧٢٣٤) وغيرهم من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعف الجامع»، برقم (٢٥٩٨).

وقال: السحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع؛ وذلك أن علم النجوم الذي هو من السحر نوعان: علمي وهو الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث وعملي وهو الذي يقولون فيه: إنه تأثير القوى السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية كالطلاسم ونحوها. وفي كشف الظنون: هو علم يعرف به الاستدلال على حوادث علم الكون والفساد بالتشكلات الفلكية، وهي أوضاع الأفلاك والكواكب كالمقارنة والتثليث والتسديس والتربيع إلى غير ذلك، وينقسم إلى حسابيات وطبيعيات ووهميات.

وقال الخطابي: «علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع؛ كأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنهم يدركون معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها، ويدعون أن لها تأثيرًا في السفليات وأنها تجري على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاط لعلم قد استأثر الله به لا يعلمه سواه». وقال الشارح: «علم التنجيم على ثلاثة أقسام:

أحدها: القول بأن الكواكب فاعلة مختارة، وأن الحوادث مركبة على تأثيرها، وهذا كفر بالإجماع.

الثاني: الاستدلال على الحوادث بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها، فلا شك في تحريمه، وتقدم أنه من الشرك، وإن قالوا: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته، فإن ذلك من علم الغيب الذي استأثر الله به، وينبغي أن يقطع بكفره. **والثالث**: ما ذكره المصنف في تعلم المنازل للتسيير لا التأثير».

❁ **قوله: «قال قتادة: خلق الله هذه النجوم...إلخ»:**

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[الملك:٥]؛ أي: زينا السماء الدنيا منكم التي هي أدنى سماء إليكم من غيرها بمصابيح، جمع مصباح وهو السراج، عبر بها عن الكواكب، ونكَّرها للتعظيم؛ أي: بمصابيح عظيمة ليست كمصابيحكم التي تعرفونها.

❁ **قوله: «ورجومًا للشياطين»:**

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[الملك:٥]؛ أي: جعلنا المصابيح رجومًا جمع رجم سمي به ما يرجم به؛ أي: يرمي، والمراد بالشياطين مسترقو السمع كما تقدم. وروى ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعًا: «**أما السماء الدنيا فإن الله خلقها من دخان، وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا، وزينها بمصابيح النجوم، وجعلها رجومًا للشياطين، وحفظها من كل شيطان رجيم**».

❁ **قوله: «وعلامات يهتدي بها»:**

أي: دلالات على الجهات والبلدان ونحو ذلك، «يهتدي بها» بصيغة المجهول؛ أي: يهتدي بها الناس في ذلك، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[الأنعام:٩٧]، لا في علم الغيب كما يزعمه المنجمون، وتقدم وجه بطلان زعمهم، وأنه لا حقيقة له.

❁ **قوله: «فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه»:**

أي: فمن زعم فيها غير ما ذكر الله في كتابه من هذه الثلاث فقط فادعىٰ بها علم الغيب، بأن زعم أن فيها سعدًا ونحسًا ونحو ذلك، فقد أخطأ حيث زعم شيئًا ما أنزل الله به من سلطان، وأضاع نصيبه؛ أي: حظه من الدين ومن كل خير.

❁ **قوله: «وتكلف ما لا علم له به»:**

وأشغل نفسه بما يضره ولا ينفعه، ولا سبيل له إليه، وليس مأمورًا به، وهذا الأثر أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا، كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وأخرجه أيضًا عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والخطيب وغيرهم، ولفظه: «إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدي بها، وجعلها رجومًا للشياطين، فمن تعاطي فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن ناسًا جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب، ولو أن أحدًا علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء» ا. هـ.

والأحاديث في ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة، منها قوله: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**»(٨٥)، وقوله: «**مما أخاف علىٰ أمتي التصديق بالنجوم**». رواه عبد بن حميد من وجهين محتجًا به من طرق، ونحوه عند ابن عساكر وأبي يعلىٰ وابن عدي والخطيب وحسنه السيوطي، وغير ذلك مما هو معلوم، وأصله في الكتاب والسنة كثير، وأجمع عليه السلف والأئمة.

وقول قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ يدل علىٰ أن علم التنجيم هذا قد حدث في عصره، فأوجب له إنكاره علىٰ من اعتقده وتعلق به، وهذا العلم مما ينافي التوحيد ويوقع في الشرك؛ لأنه ينسب الحوادث إلىٰ غير من أحدثها وهو الله تعالىٰ بمشيئته وإرادته، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾[فاطر:٣]، ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[النمل:٦٥].

---

(٨٥) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في النجوم، برقم (٣٩٠٥)، وابن ماجه، كتاب: الأدب، باب: تعلم النجوم، برقم (٣٧٢٦)، وأحمد (١/ ٣١١) وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

❁ قوله: «وكره قتادة تعلم منازل القمر...إلخ»:

فسلك مسلك قتادة سدًّا للباب وحسمًا للمادة؛ لئلا يتوصل إلىٰ الممنوع. وهذا القسم من علم النجوم هو تعلم منازل الشمس والقمر للاستدلال بذلك علىٰ القبلة وأوقات الصلوات والفصول، وإذا كان هذا كراهة بعض السلف لعلم التسيير فكيف بعلم التأثير؟ قال الخطابي: أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهي عنه؛ وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئًا بأكثر من أن الظل ما دام متناقصًا فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة، إلا أن أصل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته، وأما ما يستدل به من النجوم علىٰ جهة القبلة، فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين، ومعرفتهم بها، وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ويشاهدها حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم؛ إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفتهم.

❁ قوله: «ذكره حرب منهما»:

أي: عن قتادة وابن عيينة، وحرب هو ابن إسماعيل بن خلف الحنظلي الإمام الحافظ أبو محمد الكرماني الفقيه، من جلة أصحاب أحمد، روىٰ عنه وعن إسحاق وابن المديني وغيرهم، وله كتاب المسائل التي سأل عنها أحمد وغيره، مات سنة ٢٨٠هـ.

❁ قوله: «ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق»:

إسحاق هذا هو ابن إبراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي النيسابوري الإمام المعروف بابن راهويه؛ سمي بذلك لأن أباه ولد في طريق مكة، فقالت المراوذة: راهويه؛ لأنه ولد في الطريق، إمام من أئمة المسلمين، وروىٰ عنه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم، مات سنة ٢٣٩هـ وإنما رخَّصا فيه لأن فيه مصلحة ومنفعة دينية؛ كعلم الأوقات والطرقات، ودنيوية كقطع الأشجار وجذ الثمار، وروىٰ ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرىٰ بأسًا أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به، قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير، فإنه باطل محرم قليله وكثيره، وأما علم التسيير فتعلم ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور، وما زاد عليه لا حاجة إليه لإشغاله عما هو أهم منه، ورجح الشيخ وابن القيم أن تعلم معرفة وقت الكسوف الشمسي والقمري لا يدخل في النهي.

❁ قوله: «وعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»:

يعني: الأشعري واسمه عبد الله بن قيس بن حضار بن حرب بن عامر، صحابي جليل مشهور باسمه وكنيته، قدم المدينة مع جعفر، واستعمله النبي ﷺ علىٰ بعض اليمن، وعمر علىٰ البصرة، ثم عثمان علىٰ الكوفة، مات بالكوفة، وقيل: بمكة سنة ٥٠هـ، وقيل غير ذلك.

❁ قوله: «قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: ثلاثة لا يدخلون الجنة...»:

هذا من أحاديث الوعيد نقرها ونمرها كما جاءت، ولا نتأولها تأويلات تخرجها عن مقصود رسول الله ﷺ وتغيرها عن معانيها التي دلت عليه، وهو أبلغ في الزجر، وأردع عن الجرائم، وأحسن ما يقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج من الملة فهو راجع إلىٰ مشيئة الله، فإن عذبه به فقد استوجب العذاب، وإن غفر له فبفضله ورحمته.

❁ قوله: «مدمن الخمر»:

أي: المداوم علىٰ شربها حتىٰ مات ولم يتب؛ سميت خمرًا لمخامرتها العقل، أو لتغطيته، أو لتخمير المشروب.

❁ قوله: «وقاطع الرحم»:

أي: القرابة بكونه لا يقوم بواجبها، كما قال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾[محمد:٢٣].

❁ قوله: «ومصدق بالسحر»:

أي: بجميع أنواعه ومنه التنجيم، كما في الحديث: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**»(٨٦). وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة، وليس المراد أن يعتقد أنه حق، لكن إذا صدق ساحرًا بما يخبر به ففيه الوعيد علىٰ ذلك، وإن كان يرىٰ ويعتقد أنه حرام، وكل هذه الثلاثة المذكورة في الحديث من الكبائر. قال الذهبي والشيخ وغيرهما: ويدخل فيه تعلم السيميا وعملها وهي محض السحر، ويدخل فيه عقد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه وأشباه ذلك، بكلمات مجهولة.

❁ قوله: «رواه أحمد وابن حبان في صحيحه»:

ورواه الطبراني والحاكم وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين وأقره الذهبي.

---

(٨٦) سبق فيما قبله.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «باب ما في التنجيم»:

التنجيم نوعان:

نوع يسمىٰ علم التأثير: وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الكونية، فهذا باطل ودعوىٰ لمشاركة الله في علم الغيب، الذي انفرد به، أو تصديق لمن ادَّعىٰ ذلك، وهذا ينافي التوحيد لما فيه من هذه الدعوىٰ الباطلة، ولما فيه من تعلق القلب بغير الله، ولما فيه من فساد العقل؛ لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان.

النوع الثاني: علم التسيير: وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب علىٰ القبلة والأوقات والجهات، فهذا النوع لا بأس به، بل كثير منه نافع، قد حث عليه الشارع إذا كان وسيلة إلىٰ معرفة أوقات العبادات، أو إلىٰ الاهتداء به في الجهات.

فيجب التفريق بين ما نهىٰ عنه الشارع وحرمه وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه فالأول هو المنافي للتوحيد دون الثاني.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب ما جاء في التنجيم»:

لما كان التنجيم شائعًا معمولًا به ذكره المؤلف.

التنجيم: مصدر نجم ينجم تنجيمًا؛ أي: حزر وحدس بما يعتقده في النجوم، والتنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الأرضية فينظرون في النجوم، واجتماعها وافتراقها وطلوعها وتقاربها وتباعدها، ويستدلون بها علىٰ أنه يقع كذا وكذا، وهذا باطل من دعوىٰ علم الغيب التي أبطلها الله بقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل:٦٥].

أما النظر في النجوم من باب التسيير لمعرفة منازل القمر لتحديد أوقات الصلاة والمطر فلا بأس به كما هو رأي أحمد وإسحاق بن راهويه.

قوله: «قال البخاري في صحيحه»:

عن قتادة قال: خلق الله هذه النجوم لثلاث قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾[الملك:٥]، وقوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل:١٦].

قوله: «من تأول فيها غير ذلك أخطأ...» بأن زعم أنها تدل علىٰ كذا وكذا من علوم الغيب فقد أخطأ، وأضاع نصيبه؛ أي: من الآخرة. وتكلف ما لا يعلم.

قوله: «علامات يهتدىٰ بها»: هذا علم المنازل والتسيير.

❁ **قوله:** «**وكره قتادة تعلم منازل القمر ولم يرخص ابن عيينة فيه...**»:

وهذا قول مرجوح لهما ورخص فيه أحمد وإسحاق وهو الصواب.

❁ **قوله:** «**عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا يدخلون الجنة...**»:

مدمن خمر، هذا من باب الوعيد؛ لأنه من كبائر الذنوب وصاحبه تحت المشيئة إن لم يتب إذا لم يستحلها فإن استحلها كفر.

قاطع الرحم: كذلك من الكبائر.

مصدق بالسحر: أي: إذا صدق أنه حق يغير الأشياء وأن صاحبه علىٰ حق وأنه مصيب أو أن صاحبه يعلم الغيب فهذا يكون كفرًا وصاحبه كافر، أما إذا صدق بأنه موجود وأن له تأثيرًا ولكن يعلم أن حرام ومنكر فهذا لا حرج فيه؛ لأن الله أخبر أنه موجود كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[البقرة:١٠٢].

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «**باب ما جاء في التنجيم**»:

التَّنجيم: مصدر نجّم بتشديد الجيم؛ أي: تعلم علم النجوم، أو اعتقد تأثير النجوم.

وعلم النجوم ينقسم إلىٰ قسمين:

١- علم التأثير.

٢- علم التسيير.

فالأول: علم التأثير: وهذا ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

أ- أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة؛ بمعنىٰ: أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور، فهذا شرك أكبر؛ لأن من ادعىٰ أن مع الله خالقًا فهو مشرك شركًا أكبر؛ فهذا جعل المخلوق المسخر خالقًا مُسخرًا.

ب- أن يجعلها سببًا يدعي به علم الغيب؛ فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها علىٰ أنه سيكون كذا وكذا؛ لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا، مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاءً؛ لأنه ولد في النجم الفلاني، وهذا حياته ستكون سعيدة؛ لأنه ولد في النجم الفلاني؛ فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلةً لادعاء علم الغيب، ودعوىٰ علم الغيب كفر مخرج عن الملة؛ لأن الله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل:٦٥]، وهذا من أقوىٰ أنواع الحصر؛ لأنه بالنفي والإثبات؛ فإذا ادعىٰ أحدٌ علم الغيب؛ فقد كذَّب القرآن.

ج- أن يعتقدها سببًا لحدوث الخير والشر؛ أي: أنه إذا وقع شيء نسبه إلىٰ النجوم، ولا ينسب إلىٰ النجوم شيئًا إلا بعد وقوعه؛ فهذا شرك أصغر.

فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبي ﷺ: في قوله في الكسوف: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده**»[٨٧]؛ **فمعنىٰ ذلك: أنهما علامة إنذار.**

والجواب من وجهين:

الأول: أنه لا يُسلَّم أن للكسوف تأثيرًا في الحوادث والعقوبات من الجَدْب والقَحْط والحروب؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته**»[٨٨]، لا في ما مضىٰ ولا في المستقبل، وإنما يخوف الله بهما العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثاني: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيرًا؛ فإن النص قد دل علىٰ ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصًّا به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصلًا أنها لهما تأثيرًا في هذا؛ لأن الحديث لا يقتضيه؛ فالحديث ينصُّ علىٰ التخويف، والمُخَوِّف هو الله تعالىٰ، والمَخُوف عقوبته، ولا أثر للكسوف في ذلك، وإنما هو علامة فقط.

الثاني: علم التسيير، وهذا ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها علىٰ المصالح الدينية؛ فهذا مطلوب، وإذا كان يعين علىٰ مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجبًا، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم علىٰ جهة القبلة؛ فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبلة، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبلة؛ فهذا فيه فائدة عظيمة.

الثاني: أن يستدل بسيرها علىٰ المصالح الدنيوية، فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها علىٰ الجهات؛ كمعرفة أن القطب يقع شمالًا، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالًا، وهكذا؛ فهذا جائز، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:١٦].

---

(٨٧) أخرجه البخاري، كتاب: الكسوف، باب: قول النبي ﷺ: «يخوف الله عباده بالكسوف»، برقم (١٠٤٨) واللفظ له من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، ومسلم، كتاب: الكسوف، باب: ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة، برقم (٩١١) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

(٨٨) أخرجه البخاري، كتاب: الكسوف، باب: هل يقول: كسفت الشمس أو خسفت؟ برقم (١٠٤٧)، ومسلم، كتاب: الكسوف، باب: صلاة الكسوف، برقم (٩٠١) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر؛ فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون.

والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل: طلع النجم الفلاني؛ فهو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح. والصحيح عدم الكراهة؛ كما سيأتي إن شاء الله.

❁ **قوله**: «في أثر قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث»:

اللام للتعليل؛ أي: لبيان العلة والحكمة.

قوله: «**لثلاث**»: ويجوز لثلاثة، لكن الثلاث أحسن؛ أي: لثلاث حكم؛ لهذا حذف تاء التأنيث من العدد.

والثلاث هي:

الأولى: زينة للسماء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥]؛ لأن الإنسان إذا رأى السماء صافية في ليلة غير مقمرة وليس فيها كهرباء يجد لهذه النجوم من الجمال العظيم ما لا يعلمه إلا الله؛ فتكون كأنها غابة محلاة بأنواع من الفضة اللامعة، هذه نجمة مضيئة كبيرة تميل إلى الحمرة، وهذه تميل إلى الزرقة، وهذه خفيفة، وهذه متوسطة، وهذا شيء مشاهد.

وهل نقول: إن ظاهر الآية الكريمة أن النجوم مُرصَّعة في السماء، أو نقول: لا يلزم ذلك؟

الجواب: لا يلزم من ذلك أن تكون النجوم مرصعة في السماء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣]؛ أي: يدورون، كل له فلك، وأنا شاهدت بعيني أن القمر خسف نجمة من النجوم؛ أي: غطاها، هي من النجوم اللامعة الكبيرة كان يقرب حولها في آخر الشهر، وعند قرب الفجر غطاها؛ فكنا لا نراها بالمرة، وذلك قبل عامين في آخر رمضان؛ إذن هي أفلاك متفاوتة في الارتفاع والنزول، ولا يلزم أن تكون مُرصَّعة في السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الملك:٥] قلنا: إنه لا يلزم من تزيين الشيء بالشيء أن يكون ملاصقًا له، أرأيت لو أن رجلًا عَمَّر قصرًا وجعل حوله ثُريات من الكهرباء كبيرة وجميلة، وليست على جدرانه؛ فالناظر إلى القصر من بُعْدٍ يرى أنها زينة له، وإن لم تكن ملاصقة له.

الثانية: رجومًا للشياطين؛ أي: لشياطين الجن، وليسوا شياطين الإنس؛ لأن شياطين الإنس لم يصلوها، لكن شياطين الجن وصلوها؛ فهم أقدر من شياطين الإنس، ولهم قوة عظيمة نافذة، قال تعالىٰ عن عملهم الدال علىٰ قدرتهم: س ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾[ص:٣٧]؛ أي: سخرنا لسليمان: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾[ص:٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[النمل:٣٩]؛ أي: من سبأ إلىٰ الشام، وهو عرش عظيم لملكة سبأ؛ فهذا يدل علىٰ قوتهم وسرعتهم ونفوذهم، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾[الجن:٩].

والرَّجْم: الرمي.

الثالثة: علامات يهتدي بها، تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[النحل:١٥، ١٦]؛ فذكر الله تعالىٰ نوعين من العلامات التي يهتدىٰ بها:

الأول: أرضية، وتشمل كل ما جعل الله في الأرض من علامة؛ كالجبال، والأنهار، والطرق، والأودية، ونحوها.

والثاني: أفقية في قوله تعالىٰ: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[النحل:١٦].

والنجم: اسم جنس يشمل كل ما يهتدىٰ به، ولا يختص بنجم معين؛ لأن لكل قوم طريقة في الاستدلال بهذه النجوم علىٰ الجهات، سواء جهات القبلة أو المكان، برًّا أو بحرًا، وهذا من نعمة الله أن جعل علامات علوية لا يحجب دونها شيء، وهي النجوم؛ لأنك في الليل لا تشاهد جبالًا ولا أودية، وهذا من تسخير الله قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾[الجاثية:١٣].

❁ **قوله: «وكره قتادة تعلم منازل القمر»**:

أي: كراهة تحريم بناءً علىٰ أن الكراهة في كلام السلف يراد بها التحريم غالبًا، و قوله: «**تعلم منازل القمر**» يحتمل أمرين:

الأولىٰ: أن المراد به معرفة منزلة القمر، فالليلة يكون في الشرطين، ويكون في الإكليل؛ فالمراد معرفة منازل القمر كل ليلة؛ لأن كل ليلة له منزلة حتىٰ يتم ثمانيًا وعشرين وفي تسعٍ وعشرين وثلاثين لا يظهر في الغالب.

الثاني: أن المراد به تعلم منازل النجوم؛ أي: يخرج النجم الفلاني في اليوم الفلاني، وهذه

النجوم جعلها الله أوقاتًا للفصول؛ لأنها [٢٨] نجمًا، منها [١٤] يمانية و [١٤] شمالية؛ فإذا حلت الشمس في المنازل الشمالية صار الحر، وإذا حلت في الجنوبية صار البرد؛ ولذلك كان من علامة دنو البرد خروج سهيل، وهو من النجوم اليمانية.

قوله: «ولم يرخص فيه ابن عيينة»:

هو سفيان بن عيينة المعروف، وهذا يوافق قول قتادة بالكراهة.

قوله: «ذكره حرب»: من أصحاب أحمد، روي عنه مسائل كثيرة.

قوله: «إسحاق»: هو إسحاق بن راهويه.

والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر؛ لأنه لا شرك فيها، إلا إنْ تَعَلَّمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد، وأنها هي الجالبة لذلك؛ فهذا نوع من الشرك، أما مجرد معرفة الوقت بها: هل هو الربيع، أو الخريف، أو الشتاء، فهذا لا بأس به.

قوله: «في حديث أبي موسىٰ: الجنة»:

هي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وسُمِّيت بذلك؛ لكثرة أشجارها لأنها تُجِن من فيها؛ أي: تستره.

قوله: «مدمن خمر»: هو الذي يشرب الخمر كثيرًا، والخمر حَدَّه الرسول ﷺ بقوله: «كل مسكر خمر» (٨٩)، ومعنىٰ «أسكر»؛ أي: غَطَّىٰ العقل، وليس كل ما غطىٰ العقل فهو خمر؛ فالبنج مثلًا ليس بخمر، وإذا شرب دهنًا فأغمي عليه فليس ذلك بخمر؛ وإنما الخمر الذي يغطي العقل علىٰ وجه اللذة والطرب؛ فتجد الشارب يحس أنه في منزلة عظيمة وسعادة وما أشبه ذلك، قال الشاعر:

ونشربها فتتركنا ملوكًا ... وأسدًا ما ينهنهنا اللقاء

وقال حمزة بن عبد المطلب - وكان قد سكر قبل تحريم الخمر - للنبي ﷺ: «وهل أنتم إلا عبيد أبي» (٩٠)؛ فالذي يغطي العقل علىٰ سبيل اللذة محرم بالكتاب والسنة، ومن استحله؛ فهو

---

(٨٩) أخرجه مسلم، كتاب: الأشربة، باب: بيان أن كل مسكر خمر...، برقم (٢٠٠٣)، وأبو داود، كتاب: الأشربة، باب: النهي عن الأشربة، برقم (٣٦٧٩) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٩٠) أخرجه البخاري، كتاب: المساقاة، باب: بيع الحطب والكلأ، برقم (٢٣٧٥)، ومسلم، وكتاب: الأشربة، باب: تحريم الخمر...، برقم (١٩٧٩) وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بلفظ: «هل أنتم إلا عبيد لآبائي».

كافر، إلا إن كان ناشئًا ببادية بعيدة، أو حديث عهد بالإسلام، ولا يعلم الحكم الشرعي في ذلك؛ فإنه يُعَرَّف ولا يكفر بمجرد إنكاره تحريمه.

قوله: «قاطع الرّحم»: الرَّحِم: هم القرابة، قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٥]، وليس كما يظنه العامة أنهم أقارب الزوجين؛ لأن هذه تسمية غير شرعية، والشرعية في أقارب الزوجين: أن يُسمَّوا أصهارًا.

ومعنىٰ قاطع الرحم: أن لا يصله، والصلة جاءت مطلقة في الكتاب والسنة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾[الرعد:٢١]، ومنه الأرحام وما جاء مطلقًا غير مقيد؛ فإنه يتبع فيه العرف كما قيل:

وكُلُّ ما أتىٰ ولمْ يُحدَّدِ بالشَّرع كالحِرْزِ فبالعرفِ احْدُدِ

فالصلة في زمن الجوع والفقر: أن يعطيهم ويلاحظهم بالكسوة والطعام دائمًا، وفي زمن الغني لا يلزم ذلك، وكذلك الأقارب ينقسمون إلىٰ قريب وبعيد؛ فأقربهم يجب له من الصلة أكثر مما يجب للأبعد، ثم الأقارب ينقسمون إلىٰ قسمين من جهة أخرىٰ: قسم من الأقارب يرىٰ أن لنفسه حقًّا لا بد من القيام به، ويريد أن تصله دائمًا، وقسم آخر يقدر الظروف وينزل الأشياء منازلها؛ فهذا له حكم، وذلك له حكم.

والقطيعة يرجع فيها إلىٰ العرف، إلا أنه يستثنىٰ من ذلك مسألة، وهي: ما لو كان العرف عدم الصلة مطلقًا، بأن كنا في أمة تشتتت وتقطعت عرىٰ صلتها كما يعرف الآن في البلاد الغربية؛ فإنه لا يعمل حينئذ بالعرف، ونقول: لا بد من صلة، فإذا كان هناك صلة في العرف اتبعناها، وإذا لم يكن هناك صلة فلا يمكن أن نعطل هذه الشريعة التي أمر الله بها ورسوله.

والصلة ليس معناها أن تصل من وصلك؛ لأن هذا مكافأة، وليست صلة؛ لأن الإنسان يصل أبعد الناس عنه إذا وصله، إنما الواصل كما قال الرسول ﷺ: «من إذا قطعت رحمه وصلها»(٩١)، هذا هو الذي يريد وجه الله والدار الآخرة.

وهل صلة الرحم حق لله أو للآدمي؟

الظاهر أنها حق للآدمي، وهي حق لله باعتبار أن الله أمر بها.

---

(٩١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٠)، والطبراني في «الأوسط»، برقم (٦٦٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٢٩) وغيرهم من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «غاية المرام»، برقم (٤٠٦).

قوله: «ومصدق بالسحر»: هذا هو شاهد الباب، ووجهه أن علم التنجيم نوع من السحر، فمن صَدَّق به فقد صَدَّق بنوع من السحر، فقد سبق: «أن من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر»[٩٢]، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المنجِّم: سيحدث كذا وكذا، وصدق به فإنه لا يدخل الجنة؛ لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل:٦٥].

فإن قيل: لماذا لا يجعل السحر هنا عامًّا ليشمل التنجيم وغير التنجيم؟

أجيب: أن المصدق بما يخبره به السحرة من علم الغيب يشمله الوعيد هنا، وأما المصدق بأن للسحر تأثيرًا؛ فلا يلحقه هذا الوعيد؛ إذ لا شك أن للسحر تأثيرًا، لكن تأثيره تخييل، مثل ما وقع من سحرة فرعون حيث سحروا أعين الناس حتىٰ رأوْا الحبال والعصي كأنها حيات تسعىٰ، وإن كان لا حقيقة لذلك، وقد يسحر الساحر شخصًا فيجعله يحب فلانًا ويبغض فلانًا؛ فهو مؤثر، وقال تعالىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[البقرة:١٠٢]؛ فالتصديق بأثر السحر علىٰ هذا الوجه لا يدخله الوعيد؛ لأنه تصديق بأمر واقع.

أما من صدق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهبًا أو نحو ذلك؛ فلا شك في دخوله في الوعيد؛ لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله ﷻ.

وقوله: «ثلاثة لا يدخلون الجنة»: هل المراد الحصر وأن غيرهم يدخل الجنة؟

الجواب: لا؛ لأن هناك من لا يدخلون الجنة سوىٰ هؤلاء، فهذا الحديث لا يدل علىٰ الحصر.

وهل هؤلاء كفار؛ لأن من لا يدخل الجنة كافر؟ اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد علىٰ أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارج يقولون: هو كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان علىٰ أنهم مخلدون في النار، فَيُجْرُون هذا الحديث ونحوه علىٰ ظاهره، ولا ينظرون إلىٰ الأحاديث الأخرىٰ الدالة علىٰ أن من في قلبه إيمان وإن قَلَّ؛ فإنه لا بد أن يدخل الجنة.

(٩٢) سبق تخريجه.

القول الثاني: أن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل بدليل النصوص الكثيرة الدالة علىٰ أن من في قلبه إيمان وإن قل؛ فلا بد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب؛ لأن من استحله كافر ولو لم يفعله، فمن استحل قطيعة الرحم أو شرب الخمر مثلًا؛ فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد التي تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها، بل يقال: هكذا قال الله وقال رسوله ونسكت؛ فمثلًا: قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٩٣]، هذه الآية من نصوص الوعيد؛ فنؤمن بها، ولا نتعرض لمعناها ومعارضتها للنصوص الأخرىٰ، ونقول: هكذا قال الله، والله أعلم بما أراد؛ ولهذا مذهب كثير من السلف؛ كمالك وغيره، وهذا أبلغ في الزجر.

القول الرابع: أن هذا نفي مطلق، والنفي المطلق يُحمل علىٰ المقيد؛ فيقال: لا يدخلون الجنة دخولًا مطلقًا؛ يعني: لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخولًا يسبقه عذاب بقَدْر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلىٰ الجنة؛ وذلك لأن نصوص الشرع يُصدّق بعضها بعضًا، ويلائم بعضها بعضًا، وهذا أقرب إلىٰ القواعد وأَبيَن حتىٰ لا تبقىٰ دلالة النصوص غير معلومة؛ فتقيد النصوص بعضها ببعض.

وهناك احتمال: أن من كانت هذه حاله حري أن يختم له بسوء الخاتمة، فيموت كافرًا، فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يئول حاله إليه، وحينئذ لا يبقىٰ في المسألة إشكال؛ لأن من مات علىٰ الكفر فلن يدخل الجنة، وهو مخلد في النار، وربما يؤيده قولهﷺ: «**لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا**»(٩٣)؛ فيكون هذا قولًا خامسًا.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: الحكمة في خلق النجوم: وهي ثلاث:

- أنها زينة للسماء.
- ورجوم للشياطين.
- وعلامات يُهتدىٰ بها.

وربما يكون هناك حِكَم أخرىٰ لا نعلمها.

الثانية: الرد علىٰ من زعم غير ذلك لقول قتادة: «من تأول فيها غير ذلك؛ أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

---

(٩٣) أخرجه البخاري، كتاب: الديات، برقم (٦٨٦٢) وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، بلفظ: «لا يزال المؤمن».

ومراد قتادة في قوله: «غير ذلك»: ما زعمه المنجمون من الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وأما ما يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة، فلا ضلال لمن تأوله.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل: سبق ذلك.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل: من صدق بشيء من التنجيم أو غيره من السحر بلسانه، ولو اعتقد بطلانه بقلبه؛ فإن عليه هذا الوعيد، كيف يصدق وهو يعرف أنه باطل؛ لأنه يؤدي إلى إغراء الناس به بتعلمه وبممارسته.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: «باب ما جاء في التنجيم»:**

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: لَمَّا كان بعض التنجيم باطلًا، لما فيه من دعوى مشاركة الله في علم الغيب، وتعلق القلب بغير الله، ونسبة التصرف إلى النجوم، وذلك ينافي التوحيد، ناسب أن يعقد له باب هنا يبين فيه الممنوع والجائز منه؛ ليكون المسلم على بصيرة من ذلك.

ما جاء في التنجيم؛ أي: ذكر ما يجوز منه وما لا يجوز منه وذمه وتحريمه وما ورد من الوعد فيه.

والتنجيم هو: الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وهو ما يسمى بعلم التأثير.

❁ **قوله: «قال البخاري في صحيحه»:**

أي: تعليقًا.

«خلق الله النجوم لثلاث»: هذا مأخوذ من القرآن الكريم.

«زينة للسماء»: إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[الملك:٥].

«ورجومًا للشياطين»: إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[الملك:٥].

وعلاماتٍ؛ أي: دلالاتٍ على الجهات والبلدان ونحو ذلك.

يهتدي بها؛ أي: يهتدي بها الناس إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[الأنعام:٩٧].

فمن تأول فيها غير ذلك؛ أي: من زعم فيها غير ما ذكره الله تعالى في هذه الثلاث فادَّعى بها علم الغيب.

فقد أخطأ: حيث تكلَّم رجمًا بالغيب.

وأضاع نصيبه؛ أي: حظَّه من عمره؛ لأنه اشتغل بما لا فائدة فيه، بل فيه مضرة.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

أنَّ قتادةرَحِمَهُ اللَّهُ يذكر الحكمة التي خلق الله من أجلها النجوم - كما ذكره الله في كتابه - ردًّا علىٰ الذين ظهروا في عصره، ويعتقدون في النجوم غير ما ذكره خالقها في كتابه. وهؤلاء قالوا بلا علمٍ، وأفنوا أعمارهم فيما يضرهم، وكلفوا أنفسهم ما ليس في مقدورها الحصول عليه. وهكذا كل من طلب الحق من غير الكتاب والسنة.

مناسبة الأثر للباب:

أنَّ فيه بيان الحكمة في خلق النجوم - كما ذكرها الله في كتابه - والردَّ علىٰ من زعم في النجوم حكمة تخالف ما ذكره الله فيها.

ما يستفاد من الأثر:

١- بيان الحكمة في خلق النجوم كما دلَّ عليها القرآن.

٢- الرد علىٰ من زعم أنَّ النجوم خلقت لحكمة غير ما ذكر الله فيها.

٣- أنه يجب الرجوع إلىٰ كتاب الله؛ لبيان الحق من الباطل.

٤- أنَّ من طلب الهدىٰ من غير الكتاب والسنة فقد الصواب وضيَّع وقته وتكلف ما لا قدرة له في الوصول إليه.

قوله: «ولم يرخص فيه ابن عيينة...»

التراجم:

١- **ابن عيينة**: أي: سفيان بن عيينة.

٢- **حربٌ**: أي: حرب الكرماني من جلة أصحاب أحمد.

٣- **أحمد**: أي: الإمام أحمد بن حنبل.

٤- **وإسحاق**: أي: إسحاق بن راهويه.

منازل القمر: التي ينزل القمر في كل ليلة منزلةً منها، وهي ثمانٍ وعشرون منزلةً، ومعرفة ذلك تسمىٰ بعلم التسيير.

الغرض من هذا السياق:

بيان خلاف العلماء في حكم تعلم منازل القمر الذي هو: «علم التسيير» الذي الغرض منه الاستدلال به علىٰ القبلة، وأوقات الصلوات، ومعرفة الفصول. فإذا كان هذا اختلافهم في هذا

النوع الذي لا محذور فيه حسمًا للمادة؛ لئلا يتوصل - إلىٰ الممنوع - فما بالك بمنعهم من تعلم علم التأثير الذي هو ضلال وخطر.

قوله: «وعن أبي موسىٰ...»:

ترجمة أبي موسىٰ: هو: أبو موسىٰ الأشعري عبد الله بن قيسٍ، صحابي جليل مشهور، مات بالكوفة سنة ٥٠هـ.

لا يدخلون الجنة: هذا من نصوص الوعيد التي تمرّ كما جاءت.

مدمن الخمر: المداوم علىٰ شربها حتَّىٰ مات ولم يتب.

قاطع الرحم؛ أي: الذي لا يقوم بواجب القرابة.

ومصدق بالسحر: الذي من أنواعه التنجيم، كما مرَّ في الحديث: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**»(٩٤).

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبرﷺ علىٰ وجه التحذير أنَّ ثلاثة من العصاة لا يدخلون الجنة.

الأول: المداوم علىٰ شرب المسكر من أي شيء كان.

الثاني: الذي لا يقوم بواجب القرابة التي أمر الله بصلتها.

الثالث: مصدق بالسحر الذي يجمع أنواعًا كثيرةً وأشكالًا متعددةً، ومنها التنجيم.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه وعيد مصدقٍ بالسحر، ومنه التنجيم الذي هو موضوع الباب.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم التنجيم وأنَّه من الكبائر؛ لأنَّه داخل في السحر الذي لا يدخل الجنة من صدق به.

٢- تحريم شرب الخمر والوعيد الشديد في حق من مات ولم يتب من شربها.

٣- وجوب صلة القرآبة وتحريم قطيعتها.

٤- وجوب التكذيب بالسحر بجميع أنواعه.

---

(٩٤) سبق تخريجه.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب ما في التنجيم»:

يعني في حكم التنجيم، وأنه منقسم إلىٰ جائز ومحرم، والمحرم منه نوع من أنواع السحر، وهو كفر وشرك بالله -جل وعلا- فادعاء معرفة المغيبات عن طريق النجوم، وهو التنجيم المذموم المحرم الذي هو من أنواع الكهانة والسحر.

والتنجيم الذي يتعاطاه الناس ثلاثة أنواع:

الأول: التنجيم الذي هو اعتقاد أن النجوم فاعلة مؤثرة بنفسها، وأن الحوادث الأرضية منفعلة ناتجة عن النجوم، وعن إرادات النجوم، وهذا تأليه للنجوم، وهو الذي كان يصنعه الصائبة ويجعلون لكل نجم وكوكب صورة وتمثالًا، تحلُّ فيها أرواح الشياطين، فتأمر أولئك بعبادة تلك الأصنام والأوثان، وهذا بالإجماع كفر أكبر وشرك كشرك قوم إبراهيم.

والنوع الثاني من التنجيم: هو ما يسمىٰ علم التأثير، وهو الاستدلال بحركة النجوم والتقائها وافتراقها، وطلوعها وغروبها، علىٰ ما سيحصل في الأرض، فيجعلون حركة النجوم دالة علىٰ ما سيقع مستقبلًا في الأرض، والذي يفعل هذه الأشياء ويستدل بها يقال له: المنجِّم، وهو نوع من أنواع الكهان؛ لأنه يخبر بالأمور المغيبة عن طريق الاستدلال بحركات الأفلاك وتحرك النجوم، وهذا النوع محرم وكبيرة من الكبائر، وهو نوع من الكهانة وكفر بالله -جل وعلا- لأن النجوم ما خلقت لذلك، وهؤلاء تأتيهم الشياطين فتوحي إليهم بما يريدون وبما سيحصل في المستقبل ويجعلون حركة النجوم دليلًا علىٰ ذلك.

وقد أبطل قول المنجمين في أشياء كثيرة من الواقع ونحو ذلك كما في فتح عمورية في قصيدة أبي تمام المشهورة:

السيف أصدق أنباء من الكتب ....

وغيرها.

النوع الثالث مما يدخل في التنجيم: ما يسمىٰ بعلم التسيير، وهو أن يتعلم منازل النجوم وحركاتها، لأجل أن يعلم القبلة، والأوقات، وما يصلح من الأوقات للزرع وما لا يصلح، والاستدلال بذلك علىٰ وقت هبوب الرياح، وعلىٰ الوقت الذي جرت سنة الله أن ينزل فيه من المطر كذا، ونحو ذلك.

فهذا يسمىٰ علم التسيير، وقد رخص فيه بعض العلماء، وسبب الترخيص فيه: أنه يجعل النجوم وحركاتها والتقاءها وافتراقها، وطلوعها أو غروبها، يجعل ذلك وقتًا وزمنًا، لا يجعله سببًا، فيجعل هذه النجوم علامة علىٰ زمن يصلح فيه كذا وكذا، والله -جل وعلا- جعل النجوم علامات، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾[النحل: ١٦] فهي علامة علىٰ أمور كثيرة، كأن يعلم -مثلًا- أنه بطلوع النجم الفلاني يدخل وقت العشاء، فدخول الوقت ليس بسبب طلوع النجم، ولكن حين طلع استدللنا بطلوعه علىٰ دخول الوقت، وإلا فهو ليس بسببٍ لحصول البرد، وليس بسبب لحصول الحر، وليس بسبب للمطر، وليس بسبب لمناسبة غرس النخل أو زرع المزروعات ونحو ذلك، ولكنه وقت، فإذا كان علىٰ ذلك فلا بأس به قولًا أو تعلمًا؛ لأنه يجعل النجوم وظهورها وغروبها أزمنة وذلك مأذون فيه.

❁ **قوله: «قال البخاري في صحيحه قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء»:**

كما قال جل وعلا: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظًا﴾[فصلت: ١٢]، ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[الملك:٥]، والآيات علىٰ ذلك كثيرة.

«وعلامات يُهتدىٰ بها» كما قال جل وعلا: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾[النمل: ٦٣]، وقال جل وعلا: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾[النحل: ١٦] ونحو ذلك من الآيات، فهي علامات يهتدىٰ بها إلىٰ معرفة الجهات، كجهة القبلة، وجهة الشمال، وجهة الغرب، وجهة الشرق، ويهتدىٰ بها أيضًا إلىٰ معرفة أماكن البلاد والقرىٰ، حيث يُعرف أن البلدة الفلانية باتجاه النجم الفلاني، فإذا أراد السائر ليلًا في البر أو في البحر أن يتجه إلىٰ بلد معين استدل واهتدىٰ بالنجوم إليه، ونحو ذلك مما أجرىٰ الله سنته به.

❁ **قوله: « فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»:**

وهذا صحيح؛ لأن النجوم خلق من خلق الله ولا نفهم سرها إلا بما أخبر الله -جل وعلا- به، فما أخبرنا به أخذناه، وما لم نخبر به فلا يجوز أن نتكلف فيه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: **«إذا ذكر القدرفأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا»**.(٩٥). والمراد

(٩٥) أخرجه الطبراني برقم(١٠٤٤٨)، وغيره من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٥٤٥).

هنا بذكر النجوم، يعني: في غير ما جاء به الدليل، إذا ذكر القدر في غير ما جاءت به الأدلة فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي في غير ما جاء به من فضلهم وحسن صحبتهم وسابقتهم ونحو ذلك من الدليل فأمسكوا، وكذلك إذا ذكرت النجوم وما فيها بغير ما جاء فيه الدليل فأمسكوا؛ لأن ذلك ذريعة لأمور محرمة.

۞ **قوله**: «وكره قتادة تعلم منازل القمر ولم يرخص ابن عيينة فيه. ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق »:

جعل الله عز وجل القمر منازل كما قال: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾[يس: ٣٩]، فله ثمانية وعشرون منزلًا ينزل في كل ليلة منزلة منها، فما حكم تعلم هذه المنازل؟ فيها قولان لأهل العلم: فقد كرهه بعضهم، ورخص فيه طائفة، وهو الصحيح؛ لأنه -جل وعلا- امتن على عباده بذلك فقال: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[يونس: ٥] وظاهر الآية أن حصول المنة به في تعلمه، وذلك دليل الجواز.

۞ **قوله**: «عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة...»»:

ووجه الاستدلال من هذا الحديث قوله: «**ومصدق بالسحر**» وقد تقدم أن من التنجيم ما هو من أنواع السحر، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»(٩٦). وإذا صدق بالنجوم، فإنه مصدّق بالسحر، والمصدق بالسحر لا يدخل الجنة.

قال هنا: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن خمر**» وإدمان الخمر من الكبائر.

«**وقاطع الرحم**» وهي من الكبائر.

«**ومصدق بالسحر**» وهو أيضًا من الكبائر.

ومما يدخل في التنجيم في هذا العصر بوضوح -مع غفلة الناس عنه- ما يكثر في المجلات مما يسمونه البروج، فيخصصون صفحة أو أقل منها في الجرائد، ويجعلون عليها رسم بروج السنة برج الأسد، والعقرب، والثور، إلىٰ آخره، ويجعلون أمام كل برج ما سيحصل فيه، فإذا كان الرجل أو المرأة مولودًا في ذلك البرج يقول: سيحصل لك في هذا الشهر كذا وكذا، وهذا هو

---

(٩٦) سبق تخريجه.

التنجيم الذي هو التأثير، والاستدلال بالنجوم والبروج علىٰ التأثير في الأرض، وعلىٰ ما سيحصل في الأرض، هو نوع من الكهانة، ووجوده في المجلات والجرائد علىٰ ذلك النحو وجود للكهان فيها، فهذا يجب إنكاره إنكارًا للشركيات ولادّعاء معرفة الغيب وللسحر وللتنجيم؛ لأن التنجيم من السحر كما ذكرنا، ويجب إنكاره علىٰ كل صعيد، ويجب أيضًا علىٰ كل مسلم ألَّا يدخله بيته، وألَّا يقرأه، ولا يطّلع عليه؛ لأن الاطلاع علىٰ تلك البروج وما فيها -ولو لمجرد المعرفة- يدخل في النهي من جهة أنه أتىٰ الكاهن غير منكر عليه.

وإذا قرأ هذه الصفحة وهو يعلم برجه الذي وُلد فيه، أو يعلم البرج الذي يناسبه، وقرأ ما فيه، فكأنه سأل كاهنًا، فلا تقبل له صلاة أربعين يومًا، فإن صدق بما في تلك البروج فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد، وهذا يدلك علىٰ غربة التوحيد بين أهله، وغربة فهم حقيقة هذا الكتاب -كتاب التوحيد- حتىٰ عند أهل الفطرة وأهل الدعوة، فإنه يجب إنكار ذلك علىٰ كل صعيد، وألّا يؤثم المرء نفسه، ولا من في بيته بإدخال شيء من الجرائد التي فيها ذلك في البيوت؛ لأن هذا معناه إدخال للكهنة إلىٰ البيوت، وهذا -والعياذ بالله- من الكبائر، فواجب إنكار ذلك وتمزيقه والسعي فيه بكل سبيل حتىٰ يُدحر أولئك؛ لأن أهل التنجيم وأهل البروج هم من الكهنة، والتنجيم له معاهد معمورة في لبنان وفي غيرها، يتعلم فيها الناس حركة النجوم، وما سيحصل بحسابات معروفة، وجداول معينة، ويخبرون بأنه من كان من أهل البرج الفلاني فإنه سيحصل له كذا وكذا عن طريق تعلم وهمي يغرهم به رءوسهم وكهانهم، فالواجب علىٰ طلبة العلم أن يسعوا في تبصير الناس بحقيقة ذلك في كلماتهم، وبعد الصلوات، وفي خطب الجمع؛ لأن هذا مما كثر البلاء به، والإنكار فيه قليل، والتنبيه عليه ضعيف، والله المستعان.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم، أي: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك، أي: إنه أخطأ وأضاع نصيبه، وكلف له ما لا علم له به لأنه ادعى شيئًا لم يدل عليه الدليل بل قد نفاه.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل، أي: بعضهم منع منه، وبعضهم رخص فيه قال ابن رجب: الممنوع منه علم التأثير، والمأذون فيه علم التسيير، كما بسطه في الشرح.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل، أي لقوله: ومصدق بالسحر وهذا هو الشاهد في الحديث؛ لأن علم النجوم نوع من السحر كما تقدم.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن بعض أنواع التنجيم من الشرك المنافي للتوحيد.

س: اذكر أنواع التنجيم مع التعريف لكل نوع وبيان حكمه؟

جـ: التنجيم نوعان:

الأول: يسمىٰ علم التأثير وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الأرضية وهذا النوع محرم؛ لأنه من الشرك المنافي للتوحيد لما فيه من ادعاء علم الغيب وتعلق القلب بغير الله تعالىٰ.

والنوع الثاني: علم التسيير وهو الاستدلال بالشمس والقمر والنجوم علىٰ القبلة والأوقات والجهات وهذا النوع جائز كما تقدم.

س: ما الحكمة في خلق النجوم مع ذكر الدليل، وما حكم من زعم فيها غير ما خلقت له؟

جـ- خلق الله النجوم لثلاث خصال:

١ - زينة للسماء كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك:٥].

٢ - ورجومًا للشياطين قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥].

٣ - وعلامات يهتدىٰ بها؛ أي: دلالات علىٰ الجهات يهتدي بها الناس في ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

ومن زعم فيها غير ذلك فقد أخطأ طريق الحق وأضاع نصيبه من كل خير وتكلف ما لا علم له به.

س: ما حكم تعلم منازل القمر؟

جـ: فيه خلاف بين العلماء فرخص فيه الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، ولم يرخص فيه الإمام أبو قتادة وابن عيينة، وهذا الخلاف راجع إلىٰ ما تقدم في أقسام التنجيم فمن رخص فيه قصد علم التسيير الجائز ومن لم يرخص فيه قصد علم التأثير المحرم.

۞ قوله: «وعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة...»».

س: اشرح هذا الحديث وبين مناسبته لهذا الباب؟

جـ: هذا الحديث من نصوص الوعيد التي كره العلماء تأويلها وقالوا: أمروها كما جاءت، وهذا الوعيد يرجع إلىٰ مشيئة الله تعالىٰ فإن عذبهم فباستحقاقهم ذلك وإن غفر لهم فبفضله وعفوه ورحمته، فقد توعد الرسول ﷺ هؤلاء الثلاثة بعدم دخول الجنة:

١ - مدمن خمر وهو المداوم علىٰ شربها ومات ولم يتب.

٢ - وقاطع الرحم وهو الذي لا يصل أقاربه أو يسيء إليهم بالأقوال والأفعال.

٣ - ومصدق بالسحر وهو الذي يعتقد أن للسحر مفعولًا وتأثيرًا من دون الله ومنه التنجيم لحديث «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر»(٩٧) وهذا وجه مناسبة الحديث للباب.

---

(٩٧) سبق تخريجه.

الدرس الثلاثون:

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة:٨٢].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة[٩٨]»، وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[٩٩]. رواه مسلم.

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه، قال: «صلىٰ لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية علىٰ إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف، أقبل علىٰ الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[١٠٠].

ولهما من حديث ابن عباس معناه وفيه قال بعضهم: «لقد صدق نوء كذا وكذا»، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ...﴾[١٠١] [الواقعة:٧٥ - ٨٢].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية الواقعة.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها.

---

(٩٨) في نسخة الفوزان: «والنياحة علىٰ الميت».

(٩٩) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: التشدد في النياحة، برقم (٩٣٤)، وأحمد (٥/ ٣٤٢) وغيرهما من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(١٠٠) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم، برقم (٨٤٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، برقم (٧١) وغيرهما من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(١٠١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، برقم (٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من[١٠٢] الملة.

الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، بسبب نزول النعمة.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

الثامنة: التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا».

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها؛ لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم؟ »

العاشرة: وعيد النائحة.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء»:

أي: من النهي عن ذلك والوعيد الشديد، والتغليظ الأكيد، وبيان أنه كفر، والاستسقاء طلب السقيا، والمراد به هنا نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء جمع نوء، والنوء في أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر ناء ينوء نوءًا نهض وطلع، فالنوء هو الطالع سمي نوءًا؛ لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء مقابله الطالع بالمشرق، وقيل: ناء سقط وغاب، ولا تخالف بين القولين، وهي ثمانية وعشرون نجمًا، معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها، مشهورة بمنازل القمر، ينزل كل ليلة منزلة منها في كل شهر. قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾[يس:٣٩]. تسقط كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلها ذلك الوقت من المشرق، تنقضي جميعها مع انقضاء السنة، وكانت العرب تزعم أن سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر وينسبونه إلى النجم الساقط، ويقولون: مطرنا بنوء كذا.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾»:

أي: تجعلون حظكم من شكر الله عليكم إذا أصابكم المطر والبركة والخير ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بنسبة النعم لغير الله من الكواكب والمخلوقات التي لا قدرة لها على شيء، وأخرج أحمد والترمذي وغيرهما عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ «يقول: شكركم: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾

(١٠٢) في نسخة السعدي: «عن».

تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا» ويأتي عن ابن عباس نحوه، وروي عن جمهور المفسرين، وبه يظهر وجه استدلال المصنف بالآية، ويقال: وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، والآية تشمل المعنيين.

قوله: «وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه»:

هو الحارث بن الحارث الشامي صحابي، يكنىٰ أبا طالب وخلطه غير واحد بأبي مالك الأشعري، وهو متقدم الوفاة، وهذا متأخر حتىٰ روىٰ عنه أبو سلام كما في صحيح مسلم.

قوله: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية...إلخ»:

خرج مخرج الذم نسبة إلىٰ الجهل؛ أي: ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة، ولكنها تارة تكثر وتارة تقل، وذلك بظهور الإسلام وضعفه، والمراد بالجاهلية هنا ما قبل المبعث، سموا بذلك لفرط جهلهم، وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية. قال شيخ الإسلام: «أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًّا لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلىٰ الجاهلية ذم لها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[الأحزاب:٣٣]؛ فإن في ذلك ذمًّا للتبرج، وذمًّا لحال الجاهلية الأولىٰ، وهذا يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة».

قوله: «الفخر بالأحساب»:

أي: التشرف بالآباء والتعاظم بعدّ مناقبهم ومآثرهم وفضائلهم، وذلك جهل عظيم؛ إذ لا شرف إلا بالتقوىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣]، ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾[سبأ:٣٧] ولأبي داود: «**إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس بنو آدم وآدم من تراب**»[١٠٣]. قال المصنف: «فخر الإنسان بعمله منهي عنه، فكيف افتخاره بعمل غيره»؟

---

(١٠٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: التفاخر بالأحساب، برقم (٥١١٦)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: فضل الشام واليمن، برقم (٣٩٥٥)، وأحمد (٢/ ٣٦١) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قوله: «والطعن في الأنساب»:

أي: الوقوع فيها بالتنقص والعيب وقصد الذم، والحط من الرتبة كـ: ليس فلان من ذرية فلان أو آل فلان، قدحًا لا لبيان المطلوب شرعًا، ويأتي أيضًا، ولما عير أبو ذر رجلًا بأمه قال عليه الصلاة والسلام: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»(١٠٤). متفق عليه، قال شيخ الإسلام: «فدل علىٰ أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية المذموم، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب كفره» ا. هـ والمراد العملية لا الاعتقادية.

قوله: «والاستسقاء بالنجوم»:

أي: نسبة السقيا ومجيء المطر إلىٰ النجوم نسبة تأثير أو إيجاد، وهو الذي خافه النبي ﷺ علىٰ أمته، فأخرج أحمد وغيره «**أخاف علىٰ أمتي ثلاثًا: استسقاء بالنجوم، وحيف السلطان، وتكذيبًا بالقدر**»(١٠٥)؛ فإذا قال: مطرنا بنوء كذا أو بنجم كذا، فلا يخلو إما أن يعتقد أن له تأثيرًا في إنزال المطر فهذا شرك أكبر بالإجماع، وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية، كاعتقادهم في الأموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضر، وإما أن ينسب إنزال المطر إلىٰ النجم، مع اعتقاد أن الله هو الفاعل، وصحح الشارح أنه يحرم نسبة ذلك إلىٰ النجم، وصرح ابن مفلح في «الفروع» أنه يحرم قول: مطرنا بنوء كذا، وجزم في الإنصاف بتحريمه، ولم يذكرا خلافًا، وهو الذي أراده النبي ﷺ ونفاه وأبطله، وأخبر أنه من أمر الجاهلية، حماية منه لجناب التوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك ولو بالعبارات الموهمة التي لا يقصدها الإنسان؛ وذلك لأنه نسب ما هو من فعل الله إلىٰ خلق مسخر لا ينفع ولا يضر، ولا قدرة له علىٰ شيء فيكون شركًا أصغر، والله أعلم. وفيه التنبيه علىٰ ما هو أولىٰ منه كدعاء الأموات وسؤالهم الذي هو عين الشرك، وهذا بخلاف ما لو قال: مطرنا في نوء كذا، فكما لو قال: مطرنا في شهر كذا فلا بأس بذلك.

قوله: «والنياحة»:

أي: رفع الصوت بالندب علىٰ الميت، وإفراط رفعه بالبكاء، وإن لم يقترن بندب ولا نوح، وضرب الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك؛ لأن ذلك تسخط بقضاء الله وقدره، وذلك ينافي الصبر الواجب، وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة، فأما البكاء من غير نياحة ولا ندب

---

(١٠٤) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية...، برقم (٣٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل...، برقم (١٦٦١) وغيرهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(١٠٥) أخرجه أحمد (٥/ ٨٩)، وأبو يعلىٰ، برقم (٧٤٦٢،٧٤٧٠) وغيرهما من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، وصححه الألباني «في صحيح الجامع»، برقم (٣٠٢٢).

وشق جيب فقال شيخ الإسلام: «البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، ولا ينافي الرضا بقضاء الله».

❁ **قوله**: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام...إلخ»:

أي: تبعث من قبرها، وتوقف يوم الحساب والجزاء، وفيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم، وهو إجماع في الجملة لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية [مريم:٦٠]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١٠٦)؛ ولذلك لا يجوز إطلاق الوعيد على شخص عرف بفعل ذنوب توعد الشرع عليها بوعيد لذلك؛ ولأنها تكفر أيضًا بالحسنات الماحية والمصائب، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض، وبالشفاعة بإذن الله، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك به شيئًا.

❁ **قوله**: «وعليها سربال من قطران»:

واحد السرابيل وهي الثياب والقمص؛ يعني: أنهن يلطخن بالقطران، فيكون لهن كالقمص حتى يكون اشتعال النار والتصاقها بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن، وألمها بسبب الحر أشد، وقال ابن عباس: «القطران هو النحاس المذاب» ا.هـ. ليكون أشد لحر النار وصليها أعاذنا الله منها.

❁ **قوله**: «ودرع من جرب»:

الدرع ثوب ينسج من حديد يلبس في الحرب وقاية من سلاح العدو، والجرب داء، ويقال: خلط غليظ يحدث تحت الجلد من مخالطة البلغم الملح للدم، فيحدث منه بثور صغار له حكة شديدة ألبستها عوضًا عن الثوبين الذين مزقتهما في الدنيا من أجل المصيبة.

❁ **قوله**: «ولهما عن زيد بن خالد الجهني»:

المدني صحابي مشهور شهد الحديبية، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح، مات سنة ٦٨هـ، وله ٨٥ سنة، وقيل غير ذلك.

❁ **قوله**: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية»:

صلى لنا؛ أي: صلّى بنا، فاللام بمعنى الباء، والحديبية بتخفيف الياء وتشدد تقدم أنها قرية سميت ببئر هناك على مرحلة من مكة، تسمى الآن الشميسي، كان بها الصلح سنة ٦ من الهجرة، وهو الفتح المبين.

---

(١٠٦) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: فضل التوبة...، برقم (٣٥٣٧)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة، برقم (٤٢٥٣)، وأحمد (٢/ ١٣٢، ١٥٣) وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

❁ **قوله: «على إثر سماء كانت من الليل»:**

إثر بكسر الهمزة وهو ما يعقب الشيء، و«سماء»؛ أي: مطر كان في تلك الليلة؛ سماه بذلك لكونه ينزل من جهة السماء، والسماء يطلق على كل ما ارتفع.

❁ **قوله: «فلما انصرف أقبل على الناس»:**

أي: لما التفت إليهم من صلاته بوجهه الشريف ﷺ، ويحتمل أنه أراد السلام لا القيام من مكانه، كما يدل عليه قوله: أقبل على الناس؛ أي: التفت إلى المأمومين كما هو معلوم من حاله وحال أصحابه، وإتيانهم بالذكر المندوب.

❁ **قوله: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟»:**

لفظ استفهام، ومعناه التنبيه. وفي النسائي: «**ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟**»(١٠٧)، وهذا من الأحاديث القدسية، وفيه إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم.

❁ **قوله: «قالوا الله ورسوله أعلم»:**

أي: من كل عالم، وفيه حسن الأدب للمسئول إذا سئل عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه، وذلك واجب.

❁ **قوله: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»:**

يعني: إذا اعتقد أن للنوء تأثيرًا في إنزال المطر فهذا كفر؛ لأنه شرك في الربوبية، وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر؛ لأنه نسب نعمة الله إلى غيره؛ لأن الله لم يجعل النوء سببًا لإنزال المطر فيه، ودل على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره، والإضافة في قوله: (عبادي) هنا للعموم؛ لقوله: «**مؤمن بي وكافر**»(١٠٨)، كقوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[التغابن:٢]. قال المصنف: «وفيه التفطن للإيمان في هذا الموضع، يشير إلى أنه الإخلاص».

❁ **قوله: «فأما من قال: مطرنا بفضل الله...إلخ»:**

أي: من نسب المطر إلى الله، واعتقد أنه أنزله بفضله ورحمته من غير استحقاق من العبد على ربه، وأثنى به عليه، فقال: مطرنا بفضل الله ورحمته. وفي رواية: «**فأما من حمدني على سقياي،**

---

(١٠٧) أصل الحديث عند البخاري، ومسلم، وقد سبق تخريجه؛ وهذا لفظ النسائي أخرجه في كتاب: الاستسقاء، باب: كراهية الاستمطار بالكوكب، برقم (١٥٢٥) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(١٠٨) سبق فيما قبله.

وأثنىٰ علي فذاك من آمن بي». والفضل والرحمة صفتان لله، ومذهب أهل السنة والجماعة أن ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسولهﷺ من صفات الذات، كالحياة والعلم، وصفات الأفعال كالرحمة التي يرحم الله بها عباده، كلها صفات لله قائمة بذاته، ليست قائمة بغيره، وفيه أن النعم لله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده، وهو الذي يحمد عليها، ولا ينافي الدعاء لمن أحسن إليك وذكر ما أولاك من المعروف، إذا سلم دينك، والسر - والله أعلم - أن العبد يتعلق قلبه بمن يظن حصول الخير من جهته وإن كان لا صنع له في ذلك، وذلك نوع شرك خفي فمنع من ذلك.

۞ **قوله: «وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»:**

يعني: نسبة المطر إليه، قال الشافعي وغيره: علىٰ ما كان أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلىٰ أنه يمطر نوء كذا، فذلك كفر كما قال النبيﷺ. وقال المصنف: فيه التفطن للكفر في هذا الموضع يشير إلىٰ أن نسبة النعمة إلىٰ غير الله كفر؛ ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر، فيكون من جحد النعم؛ لعدم نسبتها إلىٰ الذي أنعم بها، ونسبتها إلىٰ غيره كما سيأتي، ولما كان إنزال الغيث من أعظم نعم الله وإحسانه إلىٰ عباده لما اشتمل عليه من منافعهم، فلا يستغنون عنه أبدًا كان من شكره أن يضيفوه إليه سبحانه ويشكروه؛ فإن النفوس مجبولة علىٰ حب من أحسن إليها، والله سبحانه هو المنعم علىٰ الإطلاق.

۞ **قوله: «قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا»:**

أي: صدق سحاب ومطر النجم الفلاني، ولفظه عن ابن عباس قال: مطر الناس علىٰ عهد رسول اللهﷺ فقال النبيﷺ: **«أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر»**، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا»(١٠٩). قال: فنزلت هذه الآية، وفي رواية أخرىٰ: **«ما أنعمت علىٰ عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم كافرين»**(١١٠).

۞ **قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾:**

هذا قسم من الله سبحانه، يقسم بما شاء من خلقه علىٰ ما شاء، والأكثرون أن المراد نجوم السماء، ومواقعها مغاربها ومطالعها، وجوابه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾[الواقعة:٧٧] فتقديره: ليس الأمر كما زعمتم في

---

(١٠٩) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، برقم (٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١١٠) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، برقم (٧٢)، والنسائي، كتاب: الاستسقاء، باب: كراهية الاستمطار بالكواكب، برقم (١٥٢٤) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

القرآن أنه سحر وكهانة، بل هو قرآن كريم، وقال ابن عباس؛ يعني: نجوم القرآن، نزل جملة ليلة القدر إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا في السنين بعدد مواقعها؛ أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: إنه وحي الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقوله الكفار: إنه سحر أوكهانة أو شعر، بل هو قرآن كريم؛ أي: عظيم كثير الخير؛ لأنه كلام الله ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[الواقعة:٧٨] معظم محفوظ موقر. قيل: هو اللوح المحفوظ، وصحح ابن القيم أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[عبس:١٣-١٦]. ويدل عليه قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:٧٩] يعني الملائكة، وقال جماعة: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من الجنابة والحدث، والمراد بالقرآن هاهنا المصحف؛ لما رواه مالك وغيره أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «أن لا يمس القرآن إلا طاهر»[(١١١)]. وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الواقعة:٨٠]؛ أي: هذا القرآن منزل من رب العالمين، لا كما يقولون: إنه سحر وكهانة وشعر، أو مخلوق، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، منزل من رب العالمين ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشعراء:١٩٣] على قلب محمد ﷺ بإجماع المسلمين ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الذي ذكرت نعوته الموجبة لإعظامه ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ متهاونون به. وعن ابن عباس وغيره مكذبون، وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾؛ أي: شكركم التكذيب، وأكثر الروايات أنها نزلت في القائلين بنوء كذا وكذا من غير تعرض لما تقدم.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «باب ماجاء في الاستسقاء بالأنواء»:

لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم وإضافتها إليه قولًا واعترافًا واستعانة بها على طاعته، كان قول القائل: مطرنا بنوء كذا وكذا ينافي هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء.

والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله؛ فإنه الذي تفضل بها على عباده ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه، وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال، فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم.

فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق ويضيفها إليه، ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره، وهذا الموضع من محققات التوحيد وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.

---

(١١١) أخرجه مالك، برقم (٤٦٩)، والدارمي، برقم(٢٢٦٦)، والبيهقي(١/ ٨٧) وغيرهم من حديث عبد الله بن أبي بكر بن حزم، وصححه الألباني في «تخريج أداء ما وجب لابن دحية»، برقم (١١٠).

قال العلامة ابن باز:

﴿ **قوله:** «باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء»:

أي: طلب السقيا وهو المطر، وقد شرع الله الاستسقاء به سبحانه والاستسقاء: الضراعة إلىٰ الله عند وجود الجدب، بدلًا مما عليه أهل الشرك من الطلب من النجوم والتعلق الاستغاثة بها وكانوا يستسقون بالنجوم وهي الأنواء وهي ثمان وعشرين نوءًا ينزلها الشمس والقمر في مدارها ينزلها القمر في الشهر والشمس في السنة، وكانوا في الجاهلية يتعلقون بها ويستغيثون بها وهذا من شركهم وضلالهم.

﴿ **قوله:** «كما قال سبحانه: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾»:

تكذبون إنزال الله للمطر وإغاثته لكم وتسألون النجوم وتستغيثون بها فكذبهم لذلك؛ لأن هذه النجوم لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئًا من الأمر؛ فوجب علىٰ المؤمنين الأخذ بما جاء عن النبي ﷺ والعمل به والحذر مما عليه أهل الجاهلية ومن ذلك:

﴿ **قوله:** «عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونها».

أي: لا يزال في الناس من يتعاطاها ويتأس بالكفرة، ومنها:

١ - **الفخر بالأحساب:** فيقول: أنا ولد فلان ويتعظم بذلك ويحتج علىٰ باطله ويفتخر بها علىٰ الناس، والأحساب هو ما يكون للآباء من مآثر وشجاعة وجود وكرم وهو من سنة الجاهلية؛ لأن رفعة الإنسان بعمله أما عمل غيره فليس له.

٢ - **الطعن في الأنساب:** بأن ينتقص الناس فيقول: فلان نجار وفلان حداد وفيه كذا وكذا علىٰ سبيل التنقص والعيب لا علىٰ سبيل الخبر فلا بأس فيه.

٣ -**الاستسقاء بالنجوم:** فيقول: سقينا بنوء كذا وكذا ويسألونها مباشرة.

٤ - **النياحة:** إذا مات الميت صاحوا ومزقوا ثيابهم ونتفوا شعورهم، ويحثون التراب عليهم وهو موجود عند بعض المسلمين فيجب الحذر منها ومحاربتها، وفي الحديث: **«ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعىٰ بدعوىٰ الجاهلية»** (١١٢) وقال: **«أنا بريء من الصالقة والحالقة والشاقة»** (١١٣) الصالقة: التي ترفع صوتها عند المصيبة.

---

(١١٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ليس منا من شق الجيوب، برقم (١٢٩٤) وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(١١٣) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما ينهىٰ من الحلق عند المصيبة، برقم (١٢٩٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم ضرب الخدود...، برقم (١٠٤) وغيرهما من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

❁ **قوله: «والنائحة إذا لم تتب... سربال من قطران ودرع جرب»:**

الغالب في النائحة أن تكون في النساء ولذلك عبر بالأنثىٰ، وقد يفعله الرجال، وهو محرم علىٰ الرجال والنساء. وذكر القطران؛ لأنه أشد في الاشتعال والأذىٰ وكذلك الدرع من الجرب مؤذٍ؛ وهذا لسوء عاقبتها ومنقلبها إلا إذا تابت.

مسألة: لا بأس أن يتزوج الإنسان من أناس ليسوا ذوي حسب، وإن كانت المرأة ذات دين خوفًا من أذىٰ قومه ومضايقتهم له وهذه عادات ولا بأس فيها بشرط أن لا يكون تركه لهم لتنقصهم واحتقارهم عنده.

فائدة:

بعض القرىٰ يذبحون الذبائح في رءوس الجبال لينزل المطر وهذا من الشرك الأكبر؛ لأنه من الذبح للجن والأحجار والأصنام، وقد ينزل المطر فيكون ابتلاء لهم.

❁ **قوله: «ولهما عن زيد بن خالد قال: صلىٰ لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية»:**

أثر سماء؛ أي: أثر مطر، سُمِّي سماء؛ لأنه ينزل من جهة العلو.

فلما انصرف عن صلاته أقبل علىٰ الناس بوجهه: من عادته ﷺ أنه إذا سلم استغفر ثلاثًا وقال: اللهم أنت السلام.... ثم يعطي الناس وجهه ويذكر بقية الأذكار.

الله ورسوله أعلم: هذا من أدب الصحابة رضي الله عنهم وبعد موته ﷺ يقال: الله أعلم؛ لأن الوحي انقطع فلا يعلم ما بعده كما في الحوض إلا ما يعرضه الله عليه كالصلاة عليه.

❁ **قوله: «فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب»:**

لأنه علم أن الله منزل الأمطار وهذا المطر من رحمة الله وفضله.

أما من قال: «مطرنا بنوء كذا»؛ لأنه من أنواع الكفر، ولا يقول: صدق نوء كذا أو سقينا بنوء كذا، بل يقول: مطرنا بفضل الله ورحمته.

«مطرنا بنوء كذا»: إن قصد به أنه هو الذي خلق المطر وهو المتصرف في الكون فهذا كفر أكبر، وإن قصد إنه سبب لهذا المطر فهذا من أنواع الكفر ولكنه كفر أصغر؛ لأنه ليس هو المتسبب بل كله من الله تعالىٰ، والنجم ظرف من الظروف، تقع فيه الحوادث كما تقع في الأيام والليالي، أما إذا قال: مطرنا في الصيف أو نحوه فلا بأس؛ لأنه إخبار عن الوقت؛ فالواجب الحذر من أخلاق الجاهلية والاعتراف بنعمة الله سبحانه. ا. هـ.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء»:

الاستسقاء: طلب السُّقْيا، كالاستغفار: طلب المغفرة، والاستعانة: طلب المعونة، والاستعاذة: طلب العوذ، والاستهداء: طلب الهداية؛ لأن مادة استفعل في الغالب تدل علىٰ الطلب، وقد لا تدل علىٰ الطلب، بل تدل علىٰ المبالغة في الفعل، مثل: استكبر؛ أي: بلغ في الكبر غايته، وليس المعنىٰ طلب الكبر، والاستسقاء بالأنواء؛ أي: أن تطلب منها أن تسقيك.

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولىٰ: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا! اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك، فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[المؤمنون:١١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[يونس:١٠٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة علىٰ النهي عن دعاء غير الله، وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلىٰ هذه الأنوار علىٰ أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها، فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك في الربوبية؛ لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني:

شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سببًا مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل؛ لأن كل من جعل سببًا لم يجعله الله سببًا لا بوحيه ولا بقدره، فهو مشرك شركًا أصغر.

قوله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾؛ أي: تصيرون، وهي تنصب مفعولين: الأول: ﴿رِزْقَكُمْ﴾، والثاني: «أن»، وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول ثانٍ، والتقدير: وتجعلون رزقكم كونكم تكذبون أو تكذيبكم.

والمعني: تكذبون أنه من عند الله، حيث تضيفون حصوله إلىٰ غيره.

قوله: ﴿رِزْقَكُمْ﴾: الرزق هو العطاء، والمراد به هنا: ما هو أعم من المطر، فيشمل معنيين:

الأول: أن المراد به رزق العلم؛ لأن الله قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ

﴿...تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ...﴾[الواقعة:٧٥ - ٨٢]؛ أي: تخافونهم فتداهنونهم، وتجعلون شكر ما رزقكم الله به من العلم والوحي أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثاني: أن المراد بالرزق المطر، وقد روي في ذلك حديث عن النبيﷺ لكنه ضعيف[(١١٤)]، إلا أنه صح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء[(١١٥)]، وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسبًا للباب تمامًا.

والقاعدة في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعًا بدون منافاة تحمل عليهما جميعًا، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح.

ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد؛ لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر بمن ينعم عليها؛ فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك، سواء قلنا: المراد بالرزق المطر الذي به حياة الأرض، أو قلنا: إن المراد به القرآن الذي به حياة القلوب، فإن هذا من أعظم الرزق، فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب؟!

واعلم أن التكذيب نوعان:

أحدهما: التكذيب بلسان المقال، بأن يقول: هذا كذب، أو المطر من النوء ونحو ذلك.

والثاني: التكذيب بلسان الحال، بأن يعظم الأنواء والنجوم معتقدًا أنها السبب؛ ولهذا وعظ عمر بن عبد العزيز الناس يومًا، فقال: «**أيها الناس، إن كنتم مصدقين، فأنتم حمقى، وإن كنتم مكذبين، فأنتم هلكى**»[(١١٦)]. وهذا صحيح؛ فالذي يُصدق ولا يعمل أحمق، والمكذب هالك، فكل إنسان عاصٍ نقول له الآن: أنت بين أمرين: إما أنك مصدق بما رُتب على هذه المعصية، أو مكذب، فإن كنت مصدقًا فأنت أحمق، كيف لا تخاف فتستقيم؟! وإن كنت غير مصدق فالبلاء أكبر فأنت هالك كافر.

---

(١١٤) أخرجه الترمذي، كتاب: التفسير، سورة الواقعة، برقم (٣٢٩٥)، وأحمد (١/ ٨٩، ١٠٨، ١٣١) وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(١١٥) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، برقم (٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١١٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٩٠) عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

❁ **قوله: «في حديث أبي مالك: أربع في أمتي»:**

الفائدة من قوله: «أربع» ليس الحصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها في المعنى، وإنما يقول النبي ﷺ ذلك من باب حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد؛ لأنه يقرب الفهم، ويثبت الحفظ.

قوله: «أمتي»؛ أي: أمة الإجابة.

قوله: «من أمر الجاهلية». أمر هنا بمعنى شأن؛ أي: من شأن الجاهلية وهو واحد الأمور، وليس واحد الأوامر؛ لأن واحد الأوامر طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

وقوله: «من أمر الجاهلية»؛ إضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقبيح والتنفير؛ لأن كل إنسان يقال: فِعلُك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب؛ إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل، ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية، فالغرض من الإضافة هنا أمران:

١- التنفير.

٢- بيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان، إذ ليست أهلًا بأن يراعيها الإنسان أو يعتني بها؛ فالذي يعتني بها جاهل.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل البعثة؛ لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله؛ ولهذا يسمون بالأميين، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ نسبةً إلى الأمِّ، كأن أمه ولدته الآن.

لكن لما بُعث فيهم هذا النبي الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤]؛ فهذه منَّةٌ عظيمة أن بُعث فيهم النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الأمور السامية:

١- يتلو عليهم آيات الله.

٢- ويزكيهم، فيطهر أخلاقهم وعبادتهم وينميها.

٣- ويعلمهم الكتاب.

٤- والحكمة.

هذه فوائد أربع عظيمة لو وزنت الدنيا بواحدة منها لوزنتها عند من يعرف قدرها، ثم بين الحال من قبل فقال: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ و«إن» هذه ليست نافية بل مؤكدة؛ فهي مخففة من الثقيلة؛ يعني: وإنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

إذن المراد بالجاهلية ما قبل البعثة؛ لأن الناس كانوا فيها علىٰ جهل عظيم؛ فجهلهم شامل للجهل فىٰ حقوق الله وحقوق عباده، فمن جهلهم أنهم ينصبون النصب ويعبدونها من دون الله، ويقتل أحدهم ابنته لكي لا يُعيَّر بها، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر.

قوله: «لا يتركونهن»؛ المراد: لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع، بأن يكون كل واحد منها عند جماعة، والثاني عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين، وقد تجتمع هذه الأقسام فىٰ قبيلة، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعًا، إنما الأمة كمجموع لابد أن يوجد فيها شيء من ذلك؛ لأن هذا خبر من الصادق المصدوقﷺ، والمراد بهذا الخبر التنفير؛ لأنهﷺ قد يخبر بأشياء تقع وليس غرضه أن يُؤخذ بها، كما قالﷺ: **«لتركبن سنن من كان قبلكم»**[(١١٧)]؛ أي: فاحذروا، وأخبرﷺ: **«أن الظعينة تخرج من صنعاء إلىٰ حضرموت لا تخشىٰ إلا الله»**[(١١٨)]؛ أي: بلا محرم، وهذا خبر عن أمر واقع وليس إقرارًا له شرعًا.

قوله **«أمتي»**؛ أي: أمة الإجابة.

قوله: **«الفخر بالأحساب»**، الفخر: التعالىٰ والتعاظم، والباء للسببية؛ أي: يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه.

والحَسَبُ: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد؛ كأن يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة، فيفتخر بذلك، وهذا من أمر الجاهلية؛ لأن الفخر في الحقيقة يكون بتقوىٰ الله الذي يمنع الإنسان من التعالىٰ والتعاظم، والمتقي حقيقة هو الذي كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد تواضعًا للحق وللخلق.

وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية؛ فلا يجوز لنا أن نفعله؛ ولهذا قال تعالىٰ لنساء نبيهﷺ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[الأحزاب:٣٣]، واعلم أن كل ما ينسب إلىٰ الجاهلية، فهو مذموم ومنهي عنه.

---

(١١٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: لتركبن سنن من كان قبلكم، برقم(٢١٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨)، وأبو يعلىٰ، برقم (١٤٤١) وغيرهم من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(١١٨) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٦١٢) وغيره من حديث خباب ابن الأرت رضي الله عنه، بلفظ« حتىٰ يسير الراكب من صنعاء إلىٰ حضرموت...».

قوله: «**الطعن في الأنساب**»، الطعن: العيب؛ لأنه وخز معنوي كوخز الطاعون في الجسد؛ ولهذا سمي العيب طعنًا.

والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن في نسبه كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مُقطِّعة البظور؛ وهي شيء في فرج المرأة يقطع عند ختان النساء.

قوله: «**والاستسقاء بالنجوم**»؛ أي: نسبة المطر إلى النجوم مع اعتقاد أن الفاعل هو الله ﷻ، أما إن اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر والسحاب أو دعاها من دون الله لتنزل المطر، فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

قوله: «**والنياحة على الميت**»، هذا هو الرابع، والنياحة: هي رفع الصوت بالبكاء على الميت قصدًا، وينبغي أن يضاف إليه على سبيل النوح، كنوح الحمام.

والندب: تعداد محاسن الميت.

والنياحة من أمر الجاهلية، ولابد أن تكون في هذة الأمة، وإنما كانت من أمر الجاهلية:

إما من الجهل الذي هو ضد العلم، أو من الجهالة التي هي السفه، وهي ضد الحكمة. **وإنما كانت لأمور، هي:**

١- أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزنًا وعذابًا.

٢- أنها تسخط من قضاء الله وقدره واعتراض عليه.

٣- أنها تهيج أحزان غيره.

وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله – وهو من علمائنا الحنابلة – أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا في المقبرة صرخ رجل وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف:٧٨]، فقال له ابن عقيل رحمه الله: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهييج الأحزان.

٤ – أنه مع هذه المفاسد لا يرد القضاء، ولا يرفع ما نزل.

والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة، لكن الغالب وقوعها من النساء؛ ولهذا قال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها**»[(١١٩)]؛ أي: إن تابت قبل الموت، تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا

---

(١١٩) سبق تخريجه.

الذنب لا تكفره إلا التوبة، وأن الحسنات لا تمحوه؛ لأنه من كبائر الذنوب والكبائر لا تمحىٰ بالحسنات؛ فلا يمحوها إلا التوبة.

قوله: «**تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران**»؛ أي: تقام من قبرها.

وقوله: السربال: الثوب السابغ كالدرع، والقطران معروف، ويسمىٰ«الزفت»، وقيل: إنه النحاس المذاب.

قوله: «**ودرع من جرب**»: الجرب: مرض معروف يكون في الجلد، يؤرق الإنسان، وربما يقتل الحيوان، والمعنىٰ: أن كل جلدها يكون جربًا بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء؛ لأن الجرب؛ أي: شيء يمسه يتأثر به، فكيف ومعه قطران؟!

والحكمة؛ أنها لما لم تُغط المصيبة بالصبر غُطيت بهذا الغطاء سربال من قطران ودرع من جرب، فكانت العقوبة من جنس العمل.

ويستفاد من الحديث:

١- ثبوت رسالتهﷺ؛ لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوقع كما أخبر.

٢- التنفير من هذه الأشياء الأربعة: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة علىٰ الميت.

٣- أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليها في الآخرة، وكل ذنب عليه الوعيد في الآخرة، فهو من الكبائر.

٤- أن كبائر الذنوب لا تكفر بالعمل الصالح؛ لقوله: «إذا لم تتب قبل موتها»(١٢٠)

٥- أن من شروط التوبة أن تكون قبل الموت لقوله: «إذا لم تتب قبل موتها»؛ ولقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔنَ﴾[النساء:١٨].

٦- أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة، فمن أهل العلم من قال: إنه داخل تحت المشيئة: إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له.

---

(١٢٠) السابق.

ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة، وإنه لابد أن يعاقب، وإلىٰ هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:١١٦]؛ فقال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، وبهذا نعرف عظم سيئة الشرك، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا**»[(١٢١)]؛ لأن الحلف بغير الله من الشرك، والحلف بالله كاذبًا من كبائر الذنوب، وسيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب.

٧- ثبوت الجزاء والبعث.

٨- أن الجزاء من جنس العمل.

٩- قوله في حديث زيد بن خالد: «**صلىٰ لنا**»؛ أي: إمامًا؛ لأن الإمام يصلي لنفسه ولغيره؛ ولهذا يتبعه المأموم، وقيل: إن اللام بمعنىٰ الباء، وهذا قريب وقيل: إن اللام للتعليل؛ أي: صلىٰ لأجلنا.

قوله: «**صلاة الصبح بالحديبية**»؛ أيْ: صلاة الفجر، والحديبية فيها لغتان: التخفيف، وهو أكثر، والتشديد وهي اسم بئر سمي بها المكان، وقيل: إن أصلها شجرة حدباء تسمىٰ حديبية، والأكثر علىٰ أنها اسم بئر، وهذا المكان قريب من مكة بعضه في الحل وبعضه فى الحرم، نزل به الرسول ﷺ في السنة السادسة من الهجرة لما قدم معتمرًا، فصده المشركون عن البيت، وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، ويسمىٰ الآن الشّمِيسي.

قوله: «**علىٰ إثر سماء كانت من الليل**»؛ الإثر معناه: العقب، والأثر: ما ينتج عن السير.

قوله: «**سماء**»: المراد به المطر.

قوله: «**كانت من الليل**»: «من» لابتداء الغاية، هذا هو الظاهر والله أعلم، ويحتمل أن تكون بمعنىٰ في للظرفية.

قوله: «**فلما انصرف**»؛ أي: من صلاته، وليس من مكانه بدليل قوله: «**أقبل علىٰ الناس**».

قوله: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**»: الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سيلقىٰ عليهم، وإلا، فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله؛ لأن الوحي لا ينزل عليهم.

ومعنىٰ قوله: «**هل تدرون**»؛ أي: هل تعلمون.

---

(١٢١) أخرجه الطبراني(٩/ ١٨٣)، وعبد الرزاق (٨/ ٤٦٩)، وابن أبي شيبة (٣/ ٧٩) وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (٢٩٥٣).

والمراد بالربوبية هنا: الربوبية الخاصة؛ لأن ربوبية الله للمؤمن خاصة، كما أن عبودية المؤمن له خاصة، ولكن الخاصة لا تنافي العامة؛ لأن العامة تشمل هذا وهذا، والخاصة تختص بالمؤمن.

قوله: «**قالوا: الله ورسوله أعلم**» فيه إشكال نحوي؛ لأن «**أعلم**» خبر عن اثنين، وهي مفرد، فيقال: إن اسم التفضيل: إذا نوي به معنىٰ «من»، وكان مجردًا من «أل» والإضافة لزم فيه الإفراد والتذكير، وفيه أيضًا إشكال معنوي، وهو أنه جمع بين الله ورسوله بالواو، مع أن الرسول ﷺ لما قال له الرجل: «**ما شاء الله وشئت، قال أجعلتني لله ندًّا؟!**»[١٢٢]

فيقال: إن هذا أمر شرعي، وقد نزل علىٰ الرسول ﷺ، وأما إنكاره علىٰ من قال: **ما شاء الله وشئت**؛ فلأنه أمر كوني، والرسول ﷺ ليس له شأن في الأمور الكونية.

والمراد بقولهم: «**الله ورسوله أعلم**» تفويض العلم إلىٰ الله ورسوله، وأنهم لا يعلمون.

قوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**». «**مؤمن**» صفة لموصوف محذوف؛ أي: عبد مؤمن، وعبد كافر.

و«**أصبح**»: من أخوات كان، واسمها: «**مؤمن**»، وخبرها: «**من عبادي**»، ويجوز أن يكون «**أصبح**» فعلًا ماضيًا ناقصًا، واسمها ضمير الشأن؛ أي: أصبح الشأن، فـ «**من عبادي**» خبر مقدم، و«**مؤمن**»: مبتدأ مؤخر؛ أي: أصبح شأن الناس منهم مؤمن ومنهم كافر.

قوله: «**فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته**»؛ أي: قال بلسانه وقلبه، والباء للسببية، والفضل: العطاء والزيادة.

والرحمة: صفة من صفات الله، يكون بها الإنعام والإحسان إلىٰ الخلق.

وقوله: «**فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب**»؛ لأنه نسب المطر إلىٰ الله ولم ينسبه إلىٰ الكوكب، ولم ير له تأثيرًا في نزوله، بل نزل بفضل الله.

قوله: «**وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا**»؛ الباء للسببية؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب، وصار كافرًا بالله؛ لأنه أنكر نعمة الله ونسبها إلىٰ سبب لم يجعله الله سببًا، فتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسي نعمة الله، وهذا الكفر لا يخرج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلىٰ النوء علىٰ أنه سبب وليس إلىٰ النوء علىٰ أنه فاعل؛ لأنه قال: «**مطرنا بنوء كذا**»، ولم يقل: أنزل علينا المطر نوء كذا؛ لأنه لو قال ذلك، لكان نسبة المطر

---

(١٢٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤) وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٣٩).

إلىٰ النوء نسبة إيجاد، وبه نعرف خطأ من قال: إن المراد بقوله: «مطرنا بنوء كذا» نسبة المطر إلىٰ النوء نسبة إيجاد؛ لأنه لو كان هذا هو المراد لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا ولم يقل: مطرنا به فعلم أن المراد أن من أقر بأن الذي خلق المطر وأنزله هو الله، لكن النوء هو السبب؛ فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة.

والمراد بالكوكب: النجم، وكانوا ينسبون المطر إليه، ويقولون: إذا سقط النجم الفلاني جاء المطر، وإذا طلع النجم الفلاني جاء المطر، وليسوا ينسبونه إلىٰ هذا نسبة وقت، وإنما نسبة سبب، **فنسبة المطر إلىٰ النوء تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:**

١- نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.

٢- نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.

٣- نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله: مطرنا بنوء كذا؛ أي: جاءنا المطر في هذا النوء؛ أي: في وقته؛ ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول: مطرنا بنوء كذا، ويجوز مطرنا في نوء كذا، وفرقوا بينهما أن الباء للسببية، و«في» للظرفية، ومن ثَمَّ قال أهل العلم: إنه إذا قال: مطرنا بنوء كذا وجعل الباء للظرفية فهذا جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنىٰ، لكن لا وجه له من حيث اللفظ؛ لأن لفظ الحديث: «من قال: مطرنا بنوء كذا»، والباء للسببية أظهر منها للظرفية، وهي وإن جاءت للظرفية كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ﴾[الصافات:١٣٧،١٣٨]، لكن كونها للسببية أظهر، والعكس بالعكس؛ فـ«في» للظرفية أظهر منها للسببية وإن جاءت للسببية، كما في قوله ﷺ: **«دخلت امرأة النار في هرة»**(١٢٣)

والحاصل: أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقًا، ولا يظن أنها تأتي سببية، فهذا جائز، ومع ذلك فالأَوْلىٰ أن يقال لهم: قولوا: في نوء كذا.

قوله: «ولهما»:

الظاهر أنه سبق قلم، وإلا فالحديث في «مسلم» وليس في «الصحيحين».

ومعنىٰ الحديث: أنه لما نزل المطر نسبه بعضهم إلىٰ رحمة الله وبعضهم قال: لقد صدق نوء كذا وكذا، فكأنه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو نزل بسببه.

---

(١٢٣) أخرجه البخاري، كتاب: المساقاة، باب: فضل سقي الماء، برقم (٢٣٦٥)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: تحريم قتل الهرة، برقم (١٥١/ ٢٢٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ومنه ما يذكر في بعض كتب التوقيت: «وقل أن يخلف نوؤه»، أو: «هذا نوؤه صادق»، وهذا لا يجوز، وهو الذي أنكره الله ﷻ على عباده، وهذا شرك أصغر، ولو قال: بإذن الله، فإنه لا يجوز؛ لأن كل الأسباب من الله، والنوء لم يجعله الله سببًا.

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[الواقعة:٧٥]. اختلف في ﴿لَآ﴾، فقيل: نافية، والمنفي محذوف، والتقدير: لا صحة لما تزعمون من أن القرآن كذب أو سحر وشعر وكهانة، أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم.

فأقسم لا علاقة لها بـ ﴿لَآ﴾ إطلاقًا، وهذا له بعض الوجه، وقيل: إن المنفي القسم، فهي داخلة على «أقسم»؛ أي: لا أقسم ولن أقسم على أن القرآن قرآن كريم؛ لأن الأمر أبين من أن يحتاج إلى قسم، وهذا ضعيف جدًّا.

وقيل: إن ﴿لَآ﴾ للتنبيه، والجملة بعدها مثبتة؛ لأن ﴿لَآ﴾ بمعنى: انتبه، أقسم بمواقع النجوم ... وهذا هو الصحيح.

فإن قيل: ما الفائدة من أقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويصدقون كلامه، فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به، فلا فائدة منه، قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾[البقرة:١٤٥].

أجيب: أن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الثاني: أن المؤمن يزداد يقينًا من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبد، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾[البقرة:٢٦٠].

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه؛ فكأنه يقيم في هذا المقسم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عظم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان الوجهان لا يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنويهًا له بها وتنبيهًا على عظمها.

الخامس: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات.

وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[الواقعة:٧٥]. الله – سبحانه – يتحدث عن نفسه بضمير المفرد؛ لأنه يدل على الانفراد والتوحيد، فهو سبحانه واحد لا شريك له، ويتحدث عن نفسه بضمير الجمع؛ لأنه يدل على العظمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ الآية [يس:١٢]ولا يتحدث عن نفسه بالمثنى؛ لأن المثنى محصور باثنين. والباء حرف قسم، والمواقع جمع موقع. واختلف في النجوم؛ فقيل: إنها النجوم المعروفة؛ فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.

وأقسم الله بها؛ لما فيها من الدلالة على كمال القدرة في هذا الانتظام البديع، وما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب؛ فإن السماء عند نزول الوحي مُلئت حرسًا شديدًا وشهبًا.

وقيل: إن المراد آجال نزول القرآن، ومنه قولهم: «**نزل القرآن مُنجَّمًا**»، وقول الفقهاء: يجب أن يكون دين المكاتب مؤجلًا بنجمين فأكثر؛ فيكون الله أقسم بمواقع نزول القرآن، وقد سبقت لنا قاعدة مفيدة؛ وهي أنه إذا كان المعنيان لا يتنافيان تحمل الآية على كل منهما، وإلا طُلب المرجح قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[الواقعة:٧٦]، ﴿لَقَسَمٌ﴾: خبر إن، وهذا القسم أكد الله عظمته بإن واللام تنويهًا بالمُقْسَم عليه وتعظيمه.

وقوله: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ مؤكِّد ثالث؛ كأنه قال: ينبغي أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه، فهو أعظم من أن يكون مجهولًا، فإنه يحتاج إلى علم وانتباه، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته، فانتبهوا.

قوله: ﴿لَقُرۡءَانٌ﴾[الواقعة:٧٧] مصدر مثل الغفران والشكران بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول، فعلى الأول يكون المراد: أنه جامع للمعاني التي تضمنتها الكتب السابقة من المصالح والمنافع، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾[المائدة:٤٨]، وعلى الثاني يكون بمعنى المجموع؛ لأنه مجموع مكتوب.

قوله: ﴿كَرِيمٌ﴾[الواقعة:٧٧] يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال في العطاء متعد للغير، ويطلق على الشيء البهيِّ الحَسَن، ومنه قول النبي ﷺ: «**إياك وكرائم أموالهم**»[١٢٤]؛ أي: البهي منها

---

(١٢٤) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، برقم (١٤٩٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، برقم (٢٩/١٩) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والحسن، وهذا كمال في الذات وهذان المعنيان موجودان في القرآن؛ فالقرآن لا أحسن منه بذاته، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥].

والقرآن يعطي أهله من الخيرات الدينية والدنيوية والجسمية والقلبية، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[الفرقان:٥٢]؛ فهو سلاح لمن تمسك به، ولكن يحتاج إلىٰ أن نتمسك به بالقول والعمل والعقيدة؛ فلابد أن يصدق العقيدة العمل، قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١٢٥)

ووصف الله القرآن في آية أخرىٰ بأنه مجيد، والمجد صفة العظمة والعزة والقوة، والقرآن جامع بين الأمرين: فيه قوة وعظمة، وكذا خيرات كثيرة وإحسان لمن تمسك به.

قوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[الواقعة:٧٨] كتاب: فعال، بمعنىٰ: مفعول، مثل: فراش بمعنىٰ: مفروش، وغِراس بمعنىٰ: مغروس، وكتاب بمعنىٰ: مكتوب.

والمكنون: المحفوظ، قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[الصافات:٤٩]، واختلف المفسرون في هذا الكتاب علىٰ قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء.

الثاني: وإليه ذهب ابن القيم أنه الصحف التي في أيدي الملائكة، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ...﴾[عبس:١١ - ١٥]، فقوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ يرجح إن المراد الكتب التي في أيدىٰ الملائكة؛ لأن قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:٧٩]؛ أي: الملائكة، يوازن قوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾، وعلىٰ هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد.

قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾: الضمير يعود إلىٰ الكتاب المكنون؛ لأنه أقرب شيء، وهو بالرفع ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ باتفاق القراء، وإنما نبهنا علىٰ ذلك؛ لدفع قول من يقول: إنه خبر بمعنىٰ النهي، والضمير يعود علىٰ القرآن؛ أي: نهىٰ أن يمس القرآن إلا طاهر، والآية ليس فيها ما يدل علىٰ ذلك، بل هي ظاهرة في أن المراد به اللوح المحفوظ؛ لأنه أقرب مذكور، ولأنه خبر، والأصل في الخبر أن يبقىٰ علىٰ ظاهره خبرًا لا أمرًا ولا نهيًا حتىٰ يقوم الدليل علىٰ خلاف ذلك، ولم يرد ما يدل

---

(١٢٥) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، برقم (٥٢)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، برقم (١٥٩٩) وغيرهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

علىٰ خلاف ذلك، بل الدليل علىٰ أنه لا يراد به إلا ذلك، وأنه يعود إلىٰ الكتاب المكنون؛ ولهذا قال الله: ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ باسم المفعول، ولم يقل: إلا المطَّهِّرون، ولو كان المراد المطَّهِّرين لقال ذلك، أو قال: إلا المتطهرون، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة:٢٢٢].

والمطهرون: هم الذين طهرهم الله تعالىٰ، وهم الملائكة، طُهِّروا من الذنوب وأدناسها، قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾[التحريم:٦].

وقال تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء:٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٦ - ٢٧]، وفرق بين المطَّهِّر الذي يريد أن يفعل الكمال بنفسه، وبين المطَّهر الذي كمله غيره وهم الملائكة، وهذا مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أن المراد بالكتاب: الكتب التي في أيدي الملائكة، وفي الآية إشارة علىٰ أن من طهر قلبه من المعاصي كان أفهم للقرآن، وأن من تنجس قلبه بالمعاصي كان أبعد فهمًا عن القرآن؛ لأنه إذا كانت الصحف التي في أيدي الملائكة لم يمكن الله من مسها إلا هؤلاء المطهرين، فكذلك معاني القرآن.

فاستنبط شيخ الإسلام من هذه الآية: أن المعاصي سبب لعدم فهم القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[المطففين:١٤]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[القلم:١٥]، فهم لا يصلون إلىٰ معانيها وأسرارها؛ لأنه ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون.

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنه ينبغي لمن استفتي أن يُقدِّم بين يدي الفتوىٰ الاستغفار لمحو أثر الذنب من قلبه حتىٰ يتبين له الحق، واستنبطه من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١٠٥، ١٠٦].

قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الحاقة:٤٣]. خبر ثان لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، وهو كقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:١٩٢]، وكقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[فصلت:٢، ٣]، فهو خبر مكرر مع قوله: ﴿لَقُرْءَانٌ﴾.

و ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ أي: منزل، فهي مصدر بمعنىٰ اسم المفعول منزل من رب العالمين، أنزله الله علىٰ قلب النبي ﷺ؛ لأنه محل الوعي والحفظ بواسطة جبريل، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: خالقهم.

ويستفاد من الآية ما يلي:

١ - أن القرآن نازل لجميع الخلق، ففيه دليل على عموم رسالة النبي ﷺ.

٢ - أنه نازل من ربهم، وإذا كان كذلك فهو الحكم بينهم الحاكم عليهم.

٣- أن نزول القرآن من كمال ربوبية الله، فإذا أضيف إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[فصلت:٢،٣]علم أن القرآن رحمة للعباد أيضًا، وربوبية الله مبنية على الرحمة، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٢ ، ٣] وكل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه، فهو رحمة بهم.

٤ - أن القرآن كلام الله؛ لأنه إذا كان الله أنزله؛ فهو كلامه لا كلام غيره كما قاله السلف - رحمهم الله - وهو غير مخلوق؛ لأن جميع صفات الله حتى الصفات الفعلية ليست مخلوقة والقرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

فإن قيل: هل كل منزل غير مخلوق؟

قلنا: لا، لكن كل منزل يكون وصفًا مضافًا إلى الله، فهو غير مخلوق كالكلام، وإلا فإن الله أنزل من السماء ماء وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾[الحديد:٢٥] وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[الزمر:٦] والأنعام مخلوقة، فإذا كان المُنْزَل من عند الله صفه لا تقوم بذاتها، وإنما تقوم بغيرها لزم أن يكون غير مخلوق؛ لأنه من صفات الله.

قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾[الواقعة:٨١]. الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والحديث: القرآن، والمدهن: الخائف من غيره الذي يحابيه بقوله وفعله.

والمعنى: أتدهنون بهذا الحديث وتخافون وتستخفون؟! لا ينبغي لكم هذا، بل ينبغي لمن معه القرآن أن يصدع به وأن يبينه ويجاهد به، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[الفرقان:٥٢].

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة:٨٢] أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف؛ أي: أتجعلون شكر رزقكم؛ أي: ما أعطاكم الله من شيء من المطر ومن إنزال القرآن؛ أي: تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبي ﷺ وإن كان ذكرها في المطر، فإنها تشمل المطر وغيره.

وقيل: إنه ليس في الآية حذف، والمعنى: تجعلون شكركم تكذيبًا، وقال: إن الشكر رزق، وهذا هو الصحيح، بل هو أكبر الأرزاق، قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

فالنعمة تحتاج إلىٰ شكر، ثم إذا شكرتها فهي نعمة أخرىٰ تحتاج إلىٰ شكر ثانٍ، وإن شكرت في الثانية؛ فهي نعمة تحتاج إلىٰ شكر ثالث، وهكذا أبدًا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

قوله: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: ﴿أن﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول تجعلون الثاني: أي: تُصيِّرون شكركم تكذيبًا، ولا شك أن هذا من السفه أن يقابل الإنسان نعمة ربه بالتكذيب إن كانت وحيًا كذَّب خبره ولم يمتثل أمره ولم يجتنب نهيه، وإن كانت عطاءً تنمو به الأجسام نسبه إلىٰ غير الله، قال: هذا من النوء أو هذا من عملي، كما قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير آية الواقعة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، وقد مر تفسيرها.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية: وهي الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء، والنياحة علىٰ الميت.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها: وهي الاستسقاء بالأنواء، وكذلك الطعن في النسب، والنياحة علىٰ الميت، كما في حديث: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة علىٰ الميت**»(١٢٦)

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة؛ وهي أن الاستسقاء بالأنواء بعضه كفر مخرج عن الملة وبعضه كفر دون ذلك، وقد سبق بيان ذلك.

الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة؛ أي: إن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلىٰ مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلىٰ النوء، والواجب علىٰ الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلىٰ أسبابها مجردة عن الله، بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سببًا، مثال ذلك: رجل غرق في ماء، وكان عنده رجل قوي، فنزل وأنقذه، فإنه يجب علىٰ هذا الذي نجا أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمرًا قدريًا وأمرًا شرعيًا أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ، فأنت تعتقد أن هذا سبب محض.

---

(١٢٦) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إطلاق اسم الكفر علىٰ الطعن في النسب والنياحة، برقم (٦٧/ ١٢١)، وأحمد (٢/ ٤٩٦) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أما إن غرق ويسر الله له فخرج، فقال: إن الولي الفلاني أنقذني، فهذا شرك أكبر؛ لأنه سبب غير صحيح، ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب، بل يريد أنه منقذ بنفسه؛ لأن اعتقاد أنه سبب وهو في قبره وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالىٰ، فيقعون في الشرك الأكبر من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون، ثم قد يفتنون، فيحصل لهم ما يريدون عند دعاء الأولياء لا به؛ لأننا نعلم أن هؤلاء الأولياء لا يستجيبون لهم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾[فاطر:١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف:٥].

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع: وهو نسبة المطر إلىٰ فضل الله ورحمته.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع: وهو نسبة المطر إلىٰ النوء؛ فيقال: هذا بسبب النوء الفلاني، وما أشبه ذلك.

الثامنة التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا»، وهذا قريب من قوله: «**مطرنا بنوء كذا**»؛ لأن الثناء بالصدق علىٰ النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعده، ثم بتنفيذ وعده.

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها؛ لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم»: وذلك أن يلقي العالم علىٰ المتعلم السؤال لأجل أن ينتبه له، وإلا فالرسول ﷺ يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله، لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر؛ فقال: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟** »، وهذا يوجب استحضار قلوبهم.

العاشرة: وعيد النائحة: وذلك بقوله: «**إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**»، وهذا وعيد عظيم.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** «باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لَمَّا كان نسبة نزول المطر إلىٰ النوء علىٰ وجه الاعتقاد - أنَّ له تأثيرًا في نزوله - شركًا أكبر كاعتقاد جلب النفع أو دفع الضرِّ في الأموات والغائبين، أو شركًا أصغر إن كان لا يعتقد أن لها تأثيرًا، وإنما هي أسباب لنزول المطر ناسب أن يعقد له المصنف بابًا في كتاب التوحيد للتحذير منه.

ما جاء؛ أي: من الوعيد.

في الاستسقاء: أي: طلب السقيا ومجيء المطر.

بالأنواء: جمع نوءٍ؛ وهي منازل القمر، وهي ثمانية وعشرون منزلةً ينزل القمر كل ليلةٍ منزلة منها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾[يس:٣٩]، وهي عبارة عن ثمانية وعشرين نجمًا معروفة المطالع في كل ثلاثة عشر يومًا يغيب واحد منها مع طلوع الفجر، ويطلع رقيبه من المشرق وتنقضي كلها مع انقضاء السنة القمرية، وتزعم العرب في الجاهلية أنَّه إذا غاب واحد منها وطلع رقيبه يكون مطرٌ وينسبونه إلىٰ طلوع النجوم أو غروبه ويقولون: مطرنا بنوء كذا.

❁ **قوله**: «﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾[الواقعة:٨٢]»:

أي: تجعلون نصيبكم – من شكر نعمة الله بانزال المطر – التكذيب.

﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: بنسبة النعم لغير الله من الكواكب فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

أنَّ الله – سبحانه وتعالىٰ – يعيب علىٰ المشركين كفرهم بنعمة الله بنسبة نزول المطر إلىٰ النجم، ويخبر أنَّ هذا القول كذبٌ محضٌ؛ لأنَّ نزول المطر إنما هو بفضل الله وتقديره ولا دخل فيه لمخلوقٍ.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ الله –سبحانه– أنكر نسبة نزول المطر إلىٰ غيره من النجوم والأنواء وسمَّاه كذبًا.

ما يستفاد من الآية:

١ – إبطال نسبة نزول المطر إلىٰ الأنواء.

٢– أنَّ نسبة نزول المطر إلىٰ النوء كذبٌ.

٣– وجوب شكر الله علىٰ نعمه ووجوب نسبة المطر إليه تفضيلًا منه وإحسانًا.

❁ **قوله**: «**وعن أبي مالك الأشعري** ﷺ...»:

أ– **ترجمة أبي مالك**: اسمه الحارث بن الحارث الشامي صحابيٌّ.

من أمر الجاهلية: المراد بالجاهلية هنا ما قبل البعثة؛ سموا بذلك لفرط جهلهم، وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية.

لا يتركونهن؛ أي: ستفعلها هذه الأمة إمَّا مع العلم بتحريمها، أو مع الجهل بذلك.

الفخر بالأحساب؛ أي: التعاظم علىٰ الناس بالآباء ومآثرهم.

والطعن في الأنساب؛ أي: الوقوع فيها بالعيب والتنقص.

والاستسقاء بالنجوم؛ أي: نسبة السقيا ومجيء المطر إلىٰ النجوم والأنواء.

والنياحة؛ أي: رفع الصوت والندب علىٰ الميت.

تقام يوم القيامة: تبعث من قبرها وتوقف يوم الحساب والجزاء.

سربالٌ من قطرانٍ؛ أي: ثوبٌ من نحاسٍ مذابٍ تلطخ به فيصير كالثوب.

درعٌ: الدرع: ثوبٌ ينسج من حديدٍ، يُلبس في الحرب.

من جربٍ: الجرب: مرضٌ جلديٌّ.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر النبي ﷺ أنه سيستمر في الأمة شيء من المعاصي التي كان يفعلها الناس قبل البعثة، وذلك يتمثل في أربع خصال هي: التعاظم بالآباء مع أنه لا شرف إلا بالتقوىٰ، وتنقص أنساب الناس وعيبها، ونسبة نزول المطر إلىٰ طلوع النجوم والأنواء ورفع الصوت بالبكاء علىٰ الميت وندبه، ثم يبين الوعيد في حق الخصلة الأخيرة بأنَّ من استمرَّ عليها من غير توبةٍ فإنَّه يأتي يوم القيامة ملطخًا جسمه بالنحاس المذاب حتىٰ يكون ذلك كالقميص؛ لتشتعل به النار، وتلتصق بجسمه وتنتن رائحته.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه دليلًا علىٰ تحريم الاستسقاء بالأنواء، وأنه من أمور الجاهلية.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم الاستسقاء بالأنواء، وأنَّه من أمور الجاهلية.

٢- أنَّ ما كان من أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم.

٣- أنَّ ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام.

٤- منع التشبه بالجاهلية.

٥- تحريم الافتخار بالأحساب، وأنه من أمور الجاهلية.

٦- تحريم الوقوع في الأنساب بذمِّها وتنقُّصها.

٧- تحريم النياحة وبيان عقوبتها وأنَّها من الكبائر.

٨- أنَّ التوبة تكفر الذنب وإن عظم.

٩- أنَّ المسلم قد يكون فيه شيء من خصال الجاهلية ولا يقتضي ذلك كفره.

❁ **قوله: «ولهما عن زيد بن خالد الجهني...»:**

ترجمة زيد بن خالد: هو الجهني المدني صحابيٌّ مشهورٌ.

صلَّىٰ لنا؛ أي: صلَّىٰ بنا، فاللام بمعنىٰ الباء.

الحديبية: قرية سميت ببئرٍ هناك علىٰ مرحلة من مكة، تسمىٰ الآن الشميسي.

إثر: بكسر الهمزة ما يعقب الشيء.

سماءٌ: مطرٌ سُمِّي بذلك؛ لأنه ينزل من السماء وهي كل ما ارتفع.

من الليل؛ أي: كان في تلك الليلة.

فلمَّا انصرف؛ أي: التفت إلىٰ المأمومين وليس المراد الانصراف من المكان.

أتدرون: لفظ استفهام معناه التنبيه.

من عبادي: المراد العبودية العامة.

وكافرٌ؛ أي: الكفر الأصغر.

مطرنا بنوء كذا وكذا؛ أي: نسب المطر إلىٰ غير الله وهو يعتقد أنَّ المنزل له هو الله.

صدق نوء كذا وكذا؛ أي: صدق سحاب ومطر النجم الفلانيَّ.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾، هذا قسمٌ من الله ﷻ وهو يقسم بما شاء من خلقه.

﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾؛ أي: مطالع الكواكب ومغاربها علىٰ قول الأكثر من المفسرين.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يذكر لنا هذا الصحابي الجليل ما كان من إرشاد النبي ﷺ لأمته، بمناسبة نزول المطر، وما ينبغي لهم أن يقولوه عند ذلك، فيروي ﷺ عن ربِّه أنه حينما امتحن الناس بإنعامه عليهم بإنزال الغيث الذي فيه حياتهم، انقسموا إلىٰ قسمين: قسم اعترف بفضل الله ونسب النعمة إليه علىٰ وجه الشكر، وقسم أنكر فضل الله ونسب النعمة إلىٰ طلوع النجم أو غروبه وسمي عمل الأول إيمانًا وعمل الثاني كفرًا.

وفي رواية ابن عباس أنَّ هذه الآيات وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥]. وما بعدها نزلت في إنكار نسبة نزول المطر إلىٰ النجوم.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه تحريم نسبة المطر إلىٰ النجم وتسميته كفرًا وكذبًا.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم نسبة نزول المطر إلىٰ النجم وتسميته كفرًا.

٢- مشروعية تعليم الناس وتنبيههم علىٰ ما يخل بالعقيدة.

٣- وجوب شكر الله علىٰ النعمة، وأنَّه لا يجوز إضافتها إلىٰ غيره.

٤- إلقاء التعليم علىٰ طريقة السؤال والجواب؛ لأنَّه أوقع في النفس.

٥- أنَّ من سئل عمَّا لا يعلم فإنَّه يتوقف ويكل العلم إلىٰ عالمه.

٦- وصف الله بالفضل والرحمة.

٧- أن من الكفر ما لا يخرج من الملة.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء»:

هذا «**باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء**» والاستسقاء بالأنواء هو نسبة السقيا إلىٰ الأنواء، والأنواء: هي النجوم، يقال للنجم: نوء.

والعرب والجاهليون كانوا يعتقدون أن النجوم والأنواء سبب في نزول المطر، فيجعلونها أسبابًا، ومنهم -وهم طائفة قليلة- من يجعل النوء والنجم هو الذي يأتي بالمطر كما سبق في حال الطائفة الأولىٰ من المنجمين الذين يجعلون المفعولات منفعلة عن النجوم وعن حركتها.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ«**باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء**» يعني: باب ما جاء في نسبة السقيا إلىٰ النوء، وعبّر بلفظ الاستسقاء؛ لأنه جاء في الحديث «**والاستسقاء بالنجوم**».

ومناسبة هذا الباب لما قبله من الأبواب: أن الاستسقاء بالأنواء نوع من التنجيم؛ لأنه نسبة السقيا إلىٰ النجم وذلك أيضًا من السحر؛ لأن التنجيم من السحر بمعناه العام.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن الذي ينسُب السقيا والنعمة والفضل الذي يؤتاه حين نزول المطر إلىٰ النوء أو النجم، يكون قلبه ملتفتًا عن الله -جل وعلا- إلىٰ غيره، ومتعلقًا بغيره ناسبًا النعم إلىٰ غير الله -جل وعلا- ومعتقدًا أن النجوم أسباب لهذه المسببات من نزول المطر ونحوه، وهذا مناف لكمال التوحيد، فإن كمال التوحيد الواجب يوجب علىٰ العبد أن ينسب النعم جميعًا إلىٰ الله وحده، وألّا ينسب شيئًا منها إلىٰ غير الله، ولو كان ذلك الغير سببًا، فينسب النعمة إلىٰ مسديها ولو كان من أجرىٰ الله علىٰ يديه تلك النعم سببًا من الأسباب، فإنه لا ينسبها إلىٰ غير الله -جل وعلا- كيف وأن النجوم ليست بسبب أصلًا؟! ففي ذلك نوعان من التعدي:

١- أنها ليست بأسباب أصلًا.

٢- أن تجعل أسبابًا لم يجعلها الله -جل وعلا- أسبابًا، وتنسب النعم والفضل والسقيا إليها، وهذا منافٍ لكمال التوحيد، وكفر أصغر بالله جل وعلا.

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الواقعة: ٨٢]»:

قال علماء التفسير: معنىٰ هذه الآية: وتجعلون شكر رزقكم، أي: شكر ما رزقكم الله من النعم ومن المطر أنكم تكذبون بأن النعمة من عند الله بنسبتها لغير الله -جل وعلا- وإضافتها إلىٰ الأنواء، والواجب -شكرًا لنعم الله جل وعلا، وشكرًا لله جل وعلا، علىٰ ما رزق وأنعم وتفضل- أن تُنسب النعم جميعًا إلىٰ الله، وأن ينسب الفضل إلىٰ الرب وحده دون ما سواه.

قوله: «وعن أبي مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن...»:

قوله: «**من أمر الجاهلية**» هذا دليل علىٰ ذمها وأنها من شعب الجاهلية، ومن المعلوم أن شعب الجاهلية جميعًا يجب الابتعاد عنها؛ لأن خصال أهل الجاهلية مذمومة، كما جاء في صحيح البخاري من حديث ابن عباس أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**أبغض الرجال إلىٰ الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه، ومبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية**»(١٢٧). فكل شعب من شعب أهل الجاهلية إذا ظهر من يعيده إلىٰ أهل الإسلام بعد أن أنقذهم الله من ذلك ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام وظهور القرآن والسنة وبيان الأحكام فإنه مبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية، وهو من أبغض الرجال إلىٰ الله جل وعلا.

فقوله: «**من أمر الجاهلية**» هذا دليل علىٰ الذم، وليس الإخبار بأنها باقية دليل الإباحة.

قوله: «**لا يتركونهن الفخر بالأحساب**» يعني: علىٰ وجه التكبر والرفعة.

«**والطعن في الأنساب**» أي: النيل، والقدح في أنساب الناس من غير دليل شرعي، ومن غير حاجة شرعية، فإن القاعدة التي ذكرها الإمام مالك وغيره من أهل العلم: أن الناس مؤتمنون علىٰ أنسابهم، فإذا كان لا يترتب علىٰ ذكر النسب أثر شرعي من إعطاء حق لغير أهله، أو بميراث، أو بعقد نسبة، أو

---

(١٢٧) أخرجه البخاري، كتاب: الديات، باب: من طلب دم امرئ بغير حق، برقم (٦٨٨٢)، وغيره من حديث ابن عباس ﷺ.

بزواج، ونحو ذلك فإن الناس مؤتمنون على أنسابهم، أما إذا كان له أثر فلابُدَّ من الإثبات، لا سيما إذا كان مخالفًا لما هو شائع متواتر عند الناس، فالطعن في الأنساب من أمور الجاهلية.

«**والاستسقاء بالنجوم**» وهو نسبة السقيا إلى النجوم، ويشمل ما هو أعظم من ذلك وهو أن تطلب السقيا من النجم، كحال الذين يعتقدون أن الحوادث الأرضية تحصل بالنجوم نفسها، وأن النجوم هي التي تحدث المقدرات الأرضية، والمنفعلات الأرضية.

قوله: «**والنياحة، وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب**» رواه مسلم.

النياحة من الكبائر وهي رفع الصوت عند المصيبة، وشق الجيب ونحو ذلك، وهي منافية للصبر الواجب، ومن خصال الجاهلية.

❁ **قوله: «ولهما عن زيد بن خالد الجهني ﷺ قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال:...»** [(١٢٨)]:

قوله: «**على إثر سماء كانت من الليل**» يعني: مطرًا، والمطر يطلق عليه سماء؛ لأنه يأتي من جهة العلو، كما قال الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

يعني: إذا نزل المطر.

«**فلما انصرف**» يعني: من صلاة الصبح.

«**أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم**». هذه من الكلمات التي تُقال في حياته عليه الصلاة والسلام، وأما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فإذا سئل المرء عما لا يعلم فليقل: لا أدري، أو فليقل: الله أعلم، ولا يقل: الله ورسوله أعلم؛ لأن ذكر علم النبي عليه الصلاة والسلام مقيد بحياته الشريفة عليه الصلاة والسلام.

«**قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**» هنا قسم العباد إلى قسمين: مؤمن بالله -جل وعلا- وهو الذي نسب هذه النعمة وأضافها إلى الله -جل وعلا- وشكر الله عليها، وعرف أنها من عند الله، وحمد الله وأثنى عليه بها.

---

(١٢٨) سبق تخريجه.

والصنف الثاني: «**وكافر**» ولفظ كافر اسم فاعل الكفر، أو اسم من قام به الكفر، وهذا يصدق على الكفر الأصغر والكفر أكبر، فهم انقسموا إلى مؤمنين وإلى كافرين، والكافرون منهم نوعان:

النوع الأول: من كفر كفرًا أصغر، كمن يقول: مطرنا بنوء كذا وكذا، يعتقد أن النوء والنجم والكوكب سبب في المطر، فهذا كفره كفر أصغر؛ لأنه لم يعتقد التشريك والاستقلال، ولكنه جعل ما ليس سببًا سببًا ونسب النعمة إلى غير الله، فقوله من أقوال أهل الكفر، وهو كفر أصغر بالله -جل وعلا- كما قال العلماء.

والنوع الثاني: كافر الكفر الأكبر، وهو الذي اعتقد أن المطر أثر من آثار الكواكب والنجوم، وأنها هي التي تفضلت بالمطر، وهي التي تحركت بحركة لما توجه إليها عابدوها أنزلت المطر إجابة لدعوة عابديها، وهذا كفر أكبر بالإجماع؛ لأنه اعتقاد ربوبية وإلهية لغير الله جل وعلا.

«**فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب**» لأنه نسب النعمة لله وحده، ونسبة النعمة لله وحده دلت على إيمانه.

❁ **قوله: «ولهما من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه: قال بعضهم: «لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾**[الواقعة: ٧٥-٨٢]»: وهذا ظاهر.

وهنا تنبيه في المسألة: وهو ما يحصل أحيانًا من بعض الناس من أنهم يقولون في الوسمي مثلًا إذا طلع يأتي المطر، ونجم سهيل إذا طلع فسيحصل كذا ونحو ذلك، فهذا القول كما علمتَ له حالتان:

الحال الأولى: أن يقول ذلك معتقدًا أن النجم أو البرج الذي أتى هو زمن جعل الله سنته فيه أنه يأتي فيه المطر، وإن شاء الله سيأتي مطر ونحو ذلك، فهذا جعلٌ للوسم زمنًا، وهذا جائز.

الحال الثاني: أن يقول: الوسم جاء وسيأتي المطر، أو طلع النجم الفلاني وسيأتينا كذا وكذا معتقدًا أن هذا الفصل أو ذلك البرج أو ذلك النجم سبب، فهذا كفر ونسبة للنعمة لغير الله، واعتقاد تأثير أشياء لا تأثير لها.

فينبغي أن يُفرّق بين ما يستعمله العوام من جعل تلك المواسم، والنجوم أزمانًا وأوقاتًا للمطر أو للبرد، أو الحر، وبين نسبة أهل الشرك والضلال الأفعال للنجوم، إما استقلالًا، وإما على وجه التسبب.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة، أي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الواقعة:٨٢] أي: تجعلون شكركم على هذه النعمة أنكم تكذبون،تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية، أي: الفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالأنواء والنياحة على الميت.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها أي: مثل الاستسقاء بالأنواء والطعن في النسب والنياحة.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة، أي: مثل الطعن في النسب، والنياحة.

الخامسة: قوله: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بسبب نزول النعمة، أي: لما نزلت النعمة منهم من آمن لما أضافها إلى فضل الله ورحمته،ومنهم من كفر لما أضافها إلى النوء.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع، أي: هو إضافة النعمة إلى الله والاعتراف بذلك.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع، أي: هو إضافة النعمة إلى غير الله لكونه إنكارًا لها، وإشراكًا في الربوبية.

الثامنة: التفطن لقوله: لقد صدق نوء كذا وكذا، أي: لما نزل المطر قال بعضهم ذلك فأضاف المطر إليه فنزلت: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾[الواقعة:٨٢]الآية.

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله: « **أتدرون ماذا قال ربكم؟** »، أي: ليكون أوقع في النفس وأعظم تنبيهًا لهم.

العاشرة: وعيد النائحة، أي لقوله: إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب، والنياحة: رفع الصوت بالبكاء على الميت.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن نسبة مجيء المطر إلى الأنواء واعتقاد أن لها تأثيرًا في إنزال المطر شرك ينافي التوحيد.

س: ما هو الاستسقاء، وما المراد به هنا، وما هي الأنواء، ولم سميت بهذا الاسم؟

جـ: الاستسقاء طلب السقيا، والمراد به هنا نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء، والأنواء جمع نوء وهو موضع سقوط الكوكب، وقيل: أنه الكوكب وهو النجم، وكانت العرب في الجاهلية تزعم أنه مع طلوع نجم وغروب آخر يكون مطر ينسبونه إليها وهي منازل القمر.

وإنما سمي نوءًا؛ لأنه إذا سقط الغارب منها في المغرب ناء الطالع بالمشرق؛ بمعنى: نهض وطلع.

قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة:٨٢].

س: اشرح هذه الآية، وبين مناسبتها لهذا الباب؟

جـ: يقول الله - تعالى - إنكم يا معشر المشركين حينما ينشر الله عليكم رحمته، فينزل المطر الذي بسببه ينبت الزرع ويدر الضرع فتحيا العباد والبلاد المجدبه، إنكم تنسبون هذه النعم إلى الأنواء وإنكم حقًا لكاذبون.

ومناسبة الآية للباب: أن من نسب نعمة من النعم إلى غير الله وهو المطر في هذا الموضع إنه مشرك كافر.

❁ **قوله: «عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي...».**

س: اشرح هذا الحديث مع بيان معاني الكلمات المذكورة فيه، وما المراد بالجاهلية هنا، ولم سميت بهذا الاسم، واذكر الشاهد من الحديث للباب؟

جـ: أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًّا لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام. والمراد بالجاهلية هنا ما قبل مبعث النبي ﷺ سُمُّوا بذلك لكثرة جهلهم، وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية.

معاني الكلمات:

١ - **الفخر بالأحساب**: والمراد به التعاظم والتطاول والتكبر على الناس بالمال والشرف والجاه.

٢ - **الطعن في الأنساب**: وهو الوقوع فيها بالعيب والتنقص والقدح.

٣ - **الاستسقاء بالنجوم**: وهو نسبة مجيء المطر إلى النوء وهو سقوط النجم، وهذا هو الشاهد من الحديث للباب.

٤ - **النياحة على الميت**: وهي رفع الصوت بالندب جزعًا على الميت، وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة عليها.

س: اشرح قوله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[129]، مع بيان معاني الكلمات الآتية: تقام سربال، قطران، درع، واذكر ما يستفاد منه؟

جـ: **معاني الكلمات**: تقام: توقف، سربال: واحد السرابيل، وهي الثياب والقمص، القطران: هو النحاس المذاب، والدرع: هو القميص.

معنى الحديث: يخبر الرسول ﷺ بشدة عذاب النائحة، وأنها إذا ماتت من غير توبة توقف يوم القيامة وقد ألبست ثوبًا من نحاس؛ يعني: أنهن يلطخن بالنحاس المذاب، فيكون لهن كالقمص حتى يكون اشتعال النار في أجسادهن أعظم ورائحتهن أنتن وألمهن بسبب الجرب أشد، فيسلط على أعضائها الجرب والحكة بحيث يغطي بدنها تغطية الدرع له؛ لأنها كانت تجرح بكلماتها المحرقة قلوب ذوي المصيبات.

ويستفاد من هذا الحديث: تحريم النياحة والحث على التوبة وأنها تكفر الذنوب وإن عظمت.

❁ **قوله**: «عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه **قال**: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة...».

س: بين معاني الكلمات الآتية: صلى لنا، الحديبية، إثر سماء، انصرف، وما معنى الاستفهام في قوله هل تدرون، وما المقصود بالإضافة في قوله من عبادي؟ وما الذي يؤخذ من قولهم الله ورسوله أعلم، وما هو الكوكب، اذكر ما يستفاد من هذا الحديث وبين مناسبته للباب؟

---

(١٢٩) سبق تخريجه.

جـ: صلىٰ لنا؛ أي: بنا، الحديبية: موضع قريب من مكة، إثر سماء: عقب مطر، انصرف: التفت من صلاته إلىٰ المأمومين، والاستفهام للتنبيه، والإضافة لعموم المسلم والكافر، ويؤخذ من قولهم: الله ورسوله أعلم حسن الأدب، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، والكوكب: النجم.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ - أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلىٰ غيره.

٢ - أن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده.

٣ - إثبات صفة الفضل والرحمة لله تعالىٰ.

ومناسبة الحديث للباب: أنه دل علىٰ أن نسبة مجيء المطر إلىٰ الأنواء كفر بالله.

س: اذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ...﴾[الواقعة: ٧٥ - ٨٢]، ثم اشرح الآية، وبين المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، ولماذا خصصت مواقع النجوم بالقسم بها؟

جـ: سبب نزول الآيات ما روىٰ البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: مطر الناس علىٰ عهد النبيﷺ، فقال النبيﷺ: «**أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا**»(١٣٠)، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، إلىٰ قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة:٧٥ - ٨٢].

شرح الآية: أقسم الله تعالىٰ بمواقع النجوم وهي مساقط كواكب السماء ومغاربها، وله أن يقسم بما شاء من خلقه علىٰ ما يشاء والمقسم عليه القرآن الكريم.

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه: أن النجوم جعلها الله يهتدي بها في ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدي بها في ظلمات الغي والجهل.

وخُصَّت مواقع النجوم بالقسم بها لما في غروبها من زوال أثرها والدلالة علىٰ مؤثر دائم لا يتغير وهو الله تعالىٰ.

---

(١٣٠) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، برقم (١٢٧/ ٧٣) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

س: اذكر حكم نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء؟

جـ: هو علىٰ نوعين: أحدهما: أن يعتقد أن للنوء تأثيرًا في إنزال المطر فهذا كفر؛ لأنه أشرك في الربوبية والمشرك كافر.

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلىٰ النجم مع اعتقاد أن الله هو الفاعل لذلك، لكن أجرىٰ الله العادة بنزول المطر عند سقوط ذلك النجم فهو من الشرك الأصغر؛ لأنه نسب نعمة الله إلىٰ غيره. والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس الحادي والثلاثون:

باب قول الله تعالى

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[التوبة:٢٤].

عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(١٣١). أخرجاه.

ولهما عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف(١٣٢) في النار»(١٣٣) وفي رواية «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتىٰ...»(١٣٤) إلىٰ آخره.

وعن ابن عباس قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالىٰ في الله، وعادىٰ في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان - وإن كثرت صلاته وصومه - حتىٰ يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس علىٰ أمر الدنيا وذلك لا يُجدي علىٰ أهله شيئًا» رواه ابن جرير(١٣٥). وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة:١٦٦]، قال: «المودَّة»(١٣٦).

---

(١٣١) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان، برقم (١٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ...، برقم (٤٤) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(١٣٢) في نسخة السعدي وابن قاسم والفوزان: «أن يُلقىٰ».

(١٣٣) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، برقم (١٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، برقم (٤٣) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(١٣٤) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: الحب في الله، برقم (٦٠٤١) وغيره من حديث أنس رضي الله عنه.

(١٣٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد»، برقم (٣٥٣)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة»، برقم (٣٩٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا.

(١٣٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٧٨)، والحاكم(٢/ ٢٧٢)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور(١/ ١٦٦) لعبد بن حميد.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب التقديم[(١٣٧)] محبته ﷺ علىٰ النفس والأهل والمال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل علىٰ الخروج من الإسلام.

الخامسة: أن للإيمان حلاوةً قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربع[(١٣٨)] التي لا تنال ولاية الله إلا بها ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

السابعة: فهم الصحابي للواقع، أن عامة المؤاخاة علىٰ أمر الدنيا.

الثامنة: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة:١٦٦].

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حبًّا شديدًا.

العاشرة: الوعيد علىٰ من كان الثمانية أحب إليه من دينه.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نِدًّا تساوي محبته محبة الله، فهو الشرك الأكبر.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ...﴾ الآية»:

لَّما كان من المحبة محبةٌ خاصة لا تصلح إلا لله عز وجل، وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع وكمال الطاعة، وإيثاره علىٰ غيره، ولا يجوز تعليقها بغير الله أصلًا، ومتىٰ أحب العبد بها غير ه تعالىٰ كان مشركًا شركًا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وقد سوّىٰ المشركون بين الله وبين آلهتهم فيها، ترجم لها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآية الكريمة؛ ليظهر ويوضح ما دلت عليه من الشرك باتخاذ الند، وهو المثل والشرك في محبة التأله والتعظيم التي هي أصل دين الإسلام، وبكمالها يكمل، وبنقصها ينقص، قال ابن كثير: يذكر تعالىٰ حال المشركين به في الدنيا، وما لهم في الآخرة من العذاب والنكال، حيث

---

(١٣٧) في نسخة السعدي: «تقديم».

(١٣٨) في نسخة السعدي: «الأربعة».

جعلوا لله أندادًا؛ أي: أمثالًا ونظراء: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾؛ أي: يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم، وهو اختيار شيخ الإسلام في الآية، كما حكىٰ الله هذه التسوية عنهم في قوله: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧، ٩٨]، وقال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]، وهذا الند وهذه التسوية وهذا العدل إنما هو في المحبة لا في الخلق والربوبية؛ فإنه ليس أحد من أهل الأرض يثبته، بخلاف المحبة؛ فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا وساووهم به وعدلوهم بربهم في المحبة والتعظيم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ أي: أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لله، وقيل: لأندادهم، فدلت الآية علىٰ أن من أحب شيئًا كحب الله فقد اتخذه ندًّا لله، قال المصنف: «**وفيه أن من اتخذ ندًّا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر**». اهـ.

والمحبة قسمان: مشتركة ومختصة. والمشتركة ثلاثة أنواع: طبيعية كمحبة الجائع للطعام، ومحبة إجلال وإعظام، ومحبة إشفاق كمحبة الولد لوالده والوالد لولده، ومحبة أنس وإلف كمحبة الشريك في تجارة أو صناعة أو سفر أو غير ذلك، فهذه الثلاثة لا تستلزم التعظيم، ولا يؤاخذ أحد بها، ولا تزاحم المحبة المختصة، فلا يكون وجودها شركًا في محبة الله، لكن لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه من تلك، وأما المختصة فهي محبة العبودية، المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم والطاعة والإيثار علىٰ مراد النفس، فهذه لا تصلح إلا لله وحده، ومتىٰ أحب العبد بها غيره فقد أشرك الشرك الأكبر.

۞ **قوله**: «**وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ...﴾ الآية**»:

أمر الله نبيه أن يتوعد من أحب هذه الأصناف فآثرها أو بعضها علىٰ حب الله ورسوله، وفعل ما أوجب الله عليه من الأعمال التي يحبها ويرضاها، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك، وكانت نزلت في المسلمين الذين بمكة، لمَّا أمروا بالهجرة قالوا: إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا، وذهبت تجارتنا، وخربت ديارنا وقطعنا أرحامنا، وكان منهم من يتعلق به أهله وولده، ويقولون: ننشدك بالله أن تضيعنا فيرق لهم ويدع الهجرة، فبدأ الله بالآباء والأبناء والإخوان، وكذا الأصدقاء ونحوهم، وزهدهم فيه، ثم قطع علائقهم عن زخارف الدنيا فقال: ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ أي: اكتسبتموها، وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلىٰ غيره. ﴿وَتِجَارَةٌ﴾؛ أي: أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح.

﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بفوات وقت رواجها.

﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾؛ أي: منازل تعجبكم الإقامة فيها.

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾؛ أي: إن كانت هذه الأشياء أحب إليكم.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ والمراد بالحب هنا: الحب الاختياري المستتبع لأثره، الذي هو الملازمة وتقديم الطاعة، لا ميل الطبع؛ فإنه أمر جبلي لا يمكن تركه، ولا يؤاخذ العبد عليه، ولا يكلف بالامتناع منه.

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾؛ أي: انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه؟ قال المصنف: «وفيه الوعيد علىٰ من كانت الثمانية أحب إليه من دينه». ا. هـ.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾[آل عمران:٣١].

فإنه لما كثر المدعون لمحبة الله طولبوا بإقامة البينة، فجاءت هذه الآية ونحوها، فمن ادعىٰ محبة الله وهو يحب ما ذكر علىٰ الله ورسوله فهو كاذب، كمن يدعي محبة الله وهو علىٰ غير طريقة رسول الله ﷺ.

❁ **قوله**: «عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه ...**»:

أي: لا يؤمن الإيمان الواجب، والمراد: كماله، ونفي اسم الشيء علىٰ معنىٰ نفي الكمال عنه مستفيض في كلام العرب، ولابن حبان: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان، ومعنىٰ الحقيقة هنا: الكمال، حتىٰ يكون الرسول ﷺ أحب إلىٰ العبد «**من ولده ووالده والناس أجمعين**»(١٣٩)؛ لأن بسببه ﷺ الحياة الأبدية، والإنقاذ من الضلال إلىٰ الهدىٰ، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه، كما في قصة عمر لما قال له: «**لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: والذي نفسي بيده، حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك، قال له عمر: فإنك الآن أحب إلي من نفسي، فقال: الآن يا عمر**»(١٤٠). رواه البخاري. ومحبته ﷺ تقتضي طاعته واتباع ما أمر به، وتقديم قوله دون من سواه، قال شيخ الإسلام: وكل مسلم يكون محبًّا بقدر ما معه من الإسلام، وكل مسلم لا بد أن يكون مؤمنًا، وإن لم يكن مؤمنًا الإيمان المطلق؛ لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين، وفي هذا الحديث أن الأعمال من الإيمان؛ لأن المحبة من عمل القلب، وفيه أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها.

---

(١٣٩) سبق تخريجه.

(١٤٠) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ، برقم (٦٦٣٢) وغيره من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه.

❁ **قوله: «ولهما عنه»:**

أي: وللبخاري ومسلم عن أنس ﷺ.

❁ **قوله: «قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاث من كن فيه وجدبهن حلاوة الإيمان»:**

أي: ثلاث خصال من وجدن فيه تامة وجد بهن حلاوة الإيمان، لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وغذائه، والحلاوة هنا هي التي يعبر عنها بالذوق، وهي حلاوة محسوسة، يجدها أهل الإيمان في قلوبهم، أعلىٰ من حلاوة المطعوم الحلو في الفم، فيستلذ الطاعات ويتحمل المشقات في رضىٰ الله، ويحبه بفعل طاعته وترك مخالفته، وقد شبه الإيمان بالشجرة في قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[إبراهيم:٢٤]؛ فالكلمة هي كلمة الإخلاص، والشجرة الإيمان، وأغصانها الأمر والنهي، وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير، وثمرها عمل الطاعات، وحلاوة الثمر جني الثمرة، وغاية كماله تناهي نضج الثمرة، وبه تظهر حلاوتها.

❁ **قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»، وفي لفظ: «أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»(١٤١):**

والمراد بالسوي هنا: ما يحبه الإنسان بطبعه؛ كمحبة المال والولد والأزواج ونحوها، وثنّىٰ الضمير هنا لتلازم المحبتين، ومحبة الله تستلزم محبة طاعته؛ فإنه يحب من عبده أن يطيعه، والمحب يحب ما يحب محبوبه ولا بد.

أي: يحب المرء الذي يعتقد إيمانه وعبادته، لا يحبه إلا لله؛ أي: لأجل طاعة الله، وكان الصحابة يؤثر بعضهم بعضًا علىٰ نفسه محبة في الله ولله وتقربًا إليه، قال الله عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩]، ومن لازم محبة الله محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده، ومحبة الله ومحبة من يحبه الله من كمال الإيمان، وحقيقة الحب في الله أن لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر.

❁ **قوله: «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقىٰ في النار»:**

يعود؛ أي: يرجع، فمعناه: يصير والعود والرجوع؛ بمعنىٰ: الصيرورة، والمقصود: أنه يستوي عنده الأمران؛ كراهة عوده إلىٰ الكفر ككراهة قذفه في النار، وفيه دليل علىٰ فضيلة من أكره علىٰ الكفر فأبىٰ إلىٰ أن يقتل، قال شيخ الإسلام: أخبر ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجود

---

(١٤١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ...، برقم (٤٤/ ٦٩)، والنسائي، كتاب: الإيمان، باب: علامة الإيمان، برقم (٥٠١٤) وغيرهما من حديث أنس ﷺ.

الحلاوة للشيء يتبع المحبة له، فمن أحب شيئًا واشتهاه، إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، والسرور أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهىٰ، فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريغها ودفع ضدها، فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ فإن محبة الله ورسوله لا يكتفىٰ فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وتفريغها أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، ودفع ضدها أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف في النار.

❁ **قوله:** «**وفي رواية: لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتىٰ...إلىٰ آخره**»:

هذه الرواية أخرجها البخاري في الأدب من «صحيحه»، ولفظه: «**لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتىٰ يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتىٰ أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلىٰ الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، وحتىٰ يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**».

❁ **قوله:** «**وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من أحب الناس في وأبغض في الله**»:

أي: أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك؛ فالحب في الله من ثمرات حب الله، ومن موجبات الإسلام. «**وأبغض في الله**»؛ أي: أبغض من كفر بالله وأشرك به وعصاه؛ لارتكابه ما يسخط الله، وإن كانوا أقرب الناس إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ الآية [المجادلة:٢٢].

❁ **قوله:** «**ووالىٰ في الله وعادىٰ في الله**»:

والىٰ بالمحبة والنصرة بحسب القدرة، وعادىٰ من كان عدوًّا لله ممن أشرك به وكفر وظاهر بالمعاصي، وهذا والذي قبله من لوازم محبة العبد لله، فمن أحب الله أحب فيه ووالىٰ أولياءه وعادىٰ أهل معصيته وأبغضهم، وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها، وبكمالها يكمل توحيد العبد، وبضعفها يضعف، وهذه المراتب الأربع هي ثمرة الإيمان ودعائم الملة.

❁ **قوله:** «**فإنما تنال ولاية الله بذلك**»:

أي: توليه لعبده، والولاية، بفتح الواو وتكسر: المحبة والنصرة، وبالكسر: الإمارة، والمراد هنا الأولىٰ. وأخرج أحمد وغيره عن النبي ﷺ: «**لا يجد العبد صريح الإيمان حتىٰ يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاية لله**»[١٤٢].

---

(١٤٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٠)، والطبراني في «الأوسط»، برقم (٦٥١) وغيرهما من حديث عمرو بن الجموح رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب»، برقم (١٧٨٥).

❁ **قوله: «ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك»:**

أي: لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره والفرح به، وإن كثرت عبادته حتى يكون كذلك؛ أي: حتى يحب في الله ويبغض في الله، ويعادي في الله ويوالي في الله، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس:٥٨]، وفي حديث أبي أمامة مرفوعًا: «**من أحب في الله وأبغض في الله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[١٤٣] رواه أبو داود، وللترمذي من حديث معاذ نحوه[١٤٤]، وزاد أحمد: «**ونصح لله**»، وله عن عمرو بن الجموح: «**لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله**»[١٤٥]، ومن حديث البراء: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**»[١٤٦].

❁ **قوله: «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا»:**

أي: إذا ضعف داعي الإيمان أحب دنياه وأحب لها، وآخى لأجلها، وهذا هو الغالب على أكثر الخلق؛ فإنك لا تجد غالبهم إلا وهو يقدم محبة دنياه، ويؤثر ما يهواه على ما يحبه الله ورسوله، وإذا كانت البلوى قد عمت بهذا في زمن ابن عباس خير القرون، فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان، ووقع ما أخبر بهﷺ من غربة الإسلام، وأنه سيعود غريبًا كما بدأ.

❁ **قوله: «وذلك لا يجدي على أهله شيئًا»:**

أي: لا ينفعهم بل يضرهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:٦٧].

---

(١٤٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، برقم (٤٦٨١)، والطبراني(٨/ ١٣٤، ١٧٧)، وفي «الأوسط»، برقم (٩٠٨٣)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٠) وغيرهم من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(١٤٤) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (٦٠)، برقم (٢٥٢١)، وأحمد (٣/ ٤٣٨، ٤٤٠)، والحاكم، برقم (٢٦٩٤) وغيرهم من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(١٤٥) سبق تخريجه.

(١٤٦) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦)، والطيالسي، برقم (٧٤٧)، وابن أبي شيبة (٧/ ٨٠) وغيرهم من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (٣٠٣٠).

❁ **قوله:** «رواه ابن جرير»:

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم الجملة الأولىٰ منه فقط.

❁ **قوله:** «وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ قال: المودة»:

أي: الوصل التي كانت بينهم في الدنيا، يتواصلون بها ويتحابون بها، تقطعت بهم، وخانتهم أحوج ما كانوا إليها، وصارت عداوةً يوم القيامة، وتبرأ بعضهم من بعض، ولعن بعضهم بعضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾[العنكبوت:٢٥]، وأول الآية: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾[البقرة:١٦٦]؛ فالمتبعون كانوا علىٰ الهدىٰ وأتباعهم ادعوا أنهم علىٰ طريقتهم، وهم مخالفون لهم، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم، فيتبرءون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله، وهكذا حال كل من اتخذ من دون الله وليًا؛ فإن الله عز وجل أبطل ذلك العمل، وقطع تلك الأسباب، ولم يبق إلا السبب الواصل بين العبد وربه، وهو تجريد عبادته وحده من الحب والبغض والعطاء والمنع والموالاة والمعاداة، وتجريد متابعة الرسول ﷺ، وهذا هو السبب الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ...﴾[البقرة:١٦٥]»:

أصل التوحيد وروحه: إخلاص المحبة لله وحده، وهي أصل التأله والتعبد له، بل هي حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتىٰ تكمل محبة العبد لربه وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها، ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعًا لهذه المحبة، التي بها سعادة العبد وفلاحه.

ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه؛ وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أندادٍ من الخلق يحبهم كحب الله، ويقدم طاعتهم علىٰ طاعة الله، ويلهج بذكرهم ودعائهم فهذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله. وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره ممن لا يملك له شيئًا، وهذا السبب الواهي الذي تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج ما يكون العبد لعمله وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضًا وعداوة.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله، وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرهم، وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر، وحجر، وبشر، وملك، وغيرها وهي أصل الشرك وأساسه.

وهنا قسم رابع: وهو المحبة الطبيعية التي تتبع ما يلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة فإن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيات وإلا بقيت من أقسام المباحات والله أعلم.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]:

هذا الباب في إثبات محبة الله وأنها من أهم العبادات وأفضل القربات وأساس الدين؛ لأن حبه يقتضي الإخلاص له والامتثال لأمره، وترك نهيه والانقياد له والآية تبين أن من الناس من يتخذ أندادًا من الجن والإنس والأحجار يحبونهم كحب الله محبة عبادة فصار حبهم لهذه الأنداد كحبهم لله أو كحب المؤمنين لله وهؤلاء ضلوا فأحبوا مع الله ونذروا وخضعوا ودعوا لمن أحبوهم. ومحبة غير الله يجب أن تكون تابعة لمحبة الله كمحبة الرسل؛ نحبهم لأنهم رسل الله فلا نحبهم محبة عبادة، وكذلك المؤمنين نحبهم؛ لأنهم أطاعوا الله فنواليهم، أما محبة الذل والعبادة فهذه لله وحده لا يشاركه فيها أحد والمشركون يصرفون هذه المحبة للأنداد وبعضهم يجرأ على الحلف بالله كاذبًا ولا يجرأ على الحلف بالأنداد والشيوخ كاذبًا، ويقول هذه الأنداد أشد وأسرع انتقامًا من الله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من محبة هؤلاء المشركين لأندادهم؛ لأنهم أخلصوا العبادة لله وعرفوا حقه تعالى.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ أي: لو رأوا ذلك واستحضروه لأحبوا الله أكثر وعظموه وأخلصوا له ولكن جهلهم وقلة بصيرتهم أوقعهم في الشرك.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[البقرة:١٦٦]؛ أي: إذا رأى المعبودون من

أولياء الله والرسل وتبرءوا من عبادتهم ويقولون: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[القصص:٦٣]، أما المحبة الطبيعية كمحبة الطعام والنساء والأولاد فهذه لا تقدح في محبة الله إذا لم تؤثر على محبة الله، فإن زادت حتى صارت قادحة في محبة الله - كأن يطيع زوجته في معصية الله - فإن هذه المحبة تكون منقصة للإيمان بقدر ما يؤثر على محبة الله فلا بد أن تكون مقيدة بشرع الله.

❁ **قوله:** «**وعن أنس مرفوعًا: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه...**»[١٤٧]:

وهذا يدل على وجوب محبة رسول الله ﷺ محبة تليق به وتقتضي اتباعه وامتثال أمره وترك نواهيه ولا تكون محبة عبادة بل تابعة لمحبة الله.

❁ **قوله:** «**ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ...**»:

وعنه مرفوعًا «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان...**» تدل على وجوب محبة الله ورسوله على غيرهما من الآباء والأبناء والأموال فيطيع الله ويعمل بأمره ولو خالف هوى ولده أو زوجه أو غيرهما وهكذا الآية ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ...﴾ تدل على وجوب تقديم الجهاد في سبيله إذا وجب النفير على هوى النفس والأقارب وإلا كان متوعدًا كما قال: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ وهذا من أسباب كمال الإيمان ويجب عليه أن يبغض الكفر وأهله ويعتقد بطلانه.

وفي الحديث: «**سبعة يظلهم الله...**» وذكر: «**وشابان تحابا في الله اجتمعا عليه**»[١٤٨].

❁ **قوله:** «**وقال ابن عباس: من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله... طعم الإيمان**»[١٤٩]:

أي: حلاوته.

فإنما تنال ولاية الله بذلك؛ أي: تنال ولاية الله بالموالاة والمعاداة في الله، حتى يكون كذلك؛ أي: يوالي ويعادي، وقد صارت عامة مؤاخذة الناس على أمر الدنيا: هذا في زمانه رضي الله عنه؛ أي: غلب على الناس الحب والبغض في الدنيا وهذا أمر خطير.

وذلك لا يجدي على أهله شيئًا، بل قد يضرهم إذا صدهم عن الحق وخالف شرع الله، أما إذا اشتغلوا بالدنيا في البيع والشراء وطلب الرزق، وكان لا يضر إيمانهم ولا يوقعهم في المعاصي ويستعينون بذلك على طاعة الله فهذا لا حرج فيه.

---

(١٤٧) سبق تخريجه.

(١٤٨) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، برقم (٦٦٠)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم (١٠٣١) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٤٩) سبق تخريجه.

❁ قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾:

قال ابن عباس: المودة؛ أي: التي كانت بينهم على غير دين الله. انقطعت يوم القيامة وخانتهم وصارت عداوة.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ قوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ...﴾»:

جعل المؤلف رحمه الله - تعالىٰ - الآية هي الترجمة، ويمكن أن يُعنىٰ بهذه الترجمة باب المحبة.

وأصل الأعمال كلها هو المحبة، فالإنسان لا يعمل إلا لما يحب، إما لجلب منفعة، أو لدفع مضرة، فإذا عمل شيئًا، فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام، أو لغيره كالدواء.

وعبادة الله مبنية على المحبة، بل هي حقيقة العبادة؛ إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك قشرًا لا روح فيها، فإذا كان الإنسان في قلبه محبة لله وللوصول إلىٰ جنته، فسوف يسلك الطريق الموصل إلىٰ ذلك؛ ولهذا لما أحب المشركون آلهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلىٰ أن عبدوها من دون الله أو مع الله.

والمحبة تنقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: محبة عبادة، وهي التي توجب التذلل والتعظيم، وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، وهذه خاصة بالله، فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة؛ فهو مشرك شركًا أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

القسم الثاني: محبة ليست بعبادة في ذاتها، وهذه أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفي الله، وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله؛ أي: كون الشيء محبوبًا لله تعالىٰ من أشخاص؛ كالأنبياء، والرسل، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

أو أعمال، كالصلاة، والزكاة، وأعمال الخير، أو غير ذلك. وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو محبة الله.

النوع الثاني: محبة إشفاق ورحمة، وذلك كمحبة الولد، والصغار، والضعفاء، والمرضىٰ. النوع الثالث: محبة إجلال وتعظيم لا عبادة، كمحبة الإنسان لوالده، ولمعلمه، ولكبير من أهل الخير.

النوع الرابع: محبة طبيعية؛ كمحبة الطعام، والشراب، والملبس، والمركب، والمسكن.

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول، والبقية من قسم المباح؛ إلا إذا اقترن بها ما يقتضي التعبد صارت عبادة؛ فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة، وكذلك يحب ولده محبة شفقة، وإذا اقترن بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة.

وكذلك المحبة الطبيعية؛ كالأكل والشرب والملبس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة؛ ولهذا «حُبِّب للنبيﷺ النساء والطيب»(١٥٠) من هذه الدنيا، فحبب إليه النساء؛ لأن ذلك مقتضى الطبيعة ولما يترتب عليه من المصالح العظيمة، وحبب إليه الطيب؛ لأنه ينشط النفس ويريحها ويشرح الصدر، ولأن الطيبات للطيبين، والله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

فهذه الأشياء إذا اتخذها الإنسان بقصد العبادة صارت عبادة، قال النبيﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»(١٥١)

وقال العلماء: إن ما لا يتم الواجب إلا به؛ فهو واجب، وقالوا: الوسائل لها أحكام المقاصد، وهذا أمر متفق عليه.

وقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آيتين:

الأولى التي ترجم بها وهي قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾:

﴿مِنَ﴾ تبعيضية، هي ومجرورها خبر مقدم، و ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ مبتدأ مؤخر.

قوله: ﴿أَندَادًا﴾. جمع ند، وهو الشبيه والنظير.

قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في كيفيته ونوعه؛ **فالنوع**: أن يحب غير الله محبة عبادة.

والكيفية: أن يحبه كمحبة الله أو أشد، حتى إن بعضهم يعظم محبوبه ويغار له أكثر مما يعظم الله ويغار له؛ فلو قيل: احلف بالله، لحلف وهو كاذب ولم يبال، ولو قيل: احلف بالند؛ لم يحلف، وهو كاذب، وهذا شرك أكبر.

وقوله: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾. للمفسرين فيها قولان:

الأول: أنها على ظاهرها، وأنها مضافة إلى مفعولها؛ أي: يحبونهم كحبهم لله، والمعنى يحبون هذه الأنداد كمحبة الله، فيجعلونها شركاء لله في المحبة، لكن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء لله، وهذا هو الصواب.

---

(١٥٠) أخرجه النسائي، كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء، برقم (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)، وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(١٥١) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، برقم (١)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات»..، برقم (١٩٠٧) وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الثاني: أن المعنىٰ كحب الله الصادر من المؤمنين؛ أي: كحب المؤمنين لله، فيحبون هذه الأنداد، كما يحب المؤمنون الله ﷻ، وهذا وإن احتمله اللفظ، لكن السياق يأباه؛ لأنه لو كان المعنىٰ ذلك لكان مناقضًا؛ لقوله تعالىٰ فيما بعد: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

وكانت محبة المؤمنين لله أشد؛ لأنها محبة خالصة ليس فيها شرك، فمحبة المؤمنين أشد من حب هؤلاء لله.

فإن قيل: قد ينقدح في ذهن الإنسان أن المؤمنين يحبون هذه الأنداد نظرًا لقوله: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، فما الجواب؟

أجيب: أن اللغة العربية يجري فيها التفضيل بين شيئين وأحدهما خالٍ منه تمامًا، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤] مع أن مستقر أهل النار ليس فيه خير، وقال تعالىٰ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] والطرف الآخر ليس فيه شيء من هذه الموازنة، ولكنها من باب مخاطبة الخصم بحسب اعتقاده.

مناسبة الآية لباب المحبة:

مُنع الإنسان أن يحب أحدًا كمحبة الله؛ لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة، وهذا يوجد في بعض العُباد وبعض الخدم، فبعض العباد يعظمون ويحبون بعض القبور أو الأولياء كمحبة الله أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون الله ويعظمونهم أكثر مما يعظمون الله، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٨].

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾:

﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ اسم كان، وباقي الآية مرفوع معطوف عليه، وخبر كان ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، والخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ والمخاطب في قوله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ الأمة.

والأمر في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ يراد به التهديد؛ أي: انتظروا عقاب الله؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بإهلاك هؤلاء المؤثرين لمحبة هؤلاء الأصناف الثمانية علىٰ محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله.

فدلت الآية علىٰ أن محبة هؤلاء وإن كانت من غير محبة العبادة إذا فضلت علىٰ محبة الله صارت سببًا للعقوبة.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يهمل أوامر الله لأوامر والده، فهو يحب أباه أكثر من ربه.

وما في القلوب وإن كان لا يعلمه إلا الله، لكن له شاهد في الجوارح؛ ولذا يروىٰ عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «ما أسرَّ أحد سريرةً إلا أظهرها الله تعالىٰ علىٰ صفحات وجهه وفلتات لسانه»؛ فالجوارح مرآة القلب.

فإن قيل: المحبة في القلب ولا يستطيع الإنسان أن يملكها؛ ولهذا يروىٰ عن النبي ﷺ أنه قال: «**اللهم إن هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك**»(١٥٢) وكيف للإنسان أن يحب شيئًا وهو يبغضه، وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكنًا؟

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد، فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة وبالعكس، إما لسبب ظاهر أو لإرادة صادقة؛ فمثلًا: لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك، فتكرهه لهذا السبب، أو لإرادة صادقة؛ كرجل يحب شرب الدخان، فصار عنده إرادة صادقة وعزيمة ثابتة، فكره الدخان، فأقلع عنه.

وقال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ: «**إنك لأحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، قال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده، حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك، قال: الآن والله لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر**»(١٥٣).

فقد ازدادت محبة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ وأقره النبي ﷺ علىٰ أن الحب قد يتغير، وربما تسمع عن شخص كلامًا وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب، فتعود محبتك إياه.

قوله في حديث أنس: «**لا يؤمن**» هذا نفي للإيمان، ونفي الإيمان تارة يراد به نفي الكمال الواجب، وتارة يراد به نفي الوجود؛ أي: نفي الأصل.

والمنفي في هذا الحديث هو كمال الإيمان الواجب، إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول ﷺ إطلاقًا، فلا شك أن هذا نفي لأصل الإيمان.

---

(١٥٢) أخرجه أبو داود، كتاب: النكاح، باب: القسم بين النساء، برقم (٢١٣٤)، والترمذي، كتاب: النكاح، باب: التسوية بين الضرائر، برقم (١١٤٠)، والنسائي، كتاب: عشرة النساء، باب: ميل الرجل إلىٰ بعض نسائه دون بعض، برقم (٣٩٤٣)، وابن ماجه، كتاب: النكاح، باب: القسمة بين النساء، برقم (١٩٧١) وغيرهم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(١٥٣) سبق تخريجه.

قوله: «من ولده»: يشمل الذكر والأنثىٰ، وبدأ بمحبة الولد؛ لأن تعلق القلب به أشد من تعلقه بأبيه غالبًا.

قوله: «ووالده» يشمل أباه، وجده وإن علا، وأمه، وجدته وإن علت.

قوله: «والناس أجمعين» يشمل إخوته وأعمامه وأبناءهم وأصحابه ونفسه؛ لأنه من الناس، فلا يتم الإيمان حتىٰ يكون الرسول أحب إليه من جميع المخلوقين، وإذا كان هذا في محبة رسول الله ﷺ، فكيف بمحبة الله تعالىٰ؟!

ومحبة رسول الله ﷺ تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء، فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثاني: لَمَّا قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته.

الثالث: لما آتاه الله من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

الرابع: أنه سبب هدايتك وتعليمك وتوجيهك.

الخامس: لصبره علىٰ الأذىٰ في تبليغ الرسالة.

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله.

ويستفاد من هذا الحديث ما يلي:

١- وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ علىٰ محبة النفس.

٢- فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال؛ لأنه يجب أن تقدم محبته علىٰ نفسك ومالك.

٣- أنه يجب علىٰ الإنسان أن ينصر سنة رسول الله ﷺ ويبذل لذلك نفسه وماله وكل طاقته؛ لأن ذلك من كمال محبة رسول الله ﷺ، ولذلك قال بعض أهل العلم في قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[الكوثر:٣]؛ أي: مبغضك، قالوا: وكذلك من أبغض شريعته ﷺ، فهو مقطوع لا خير فيه.

٤- جواز المحبة التي للشفقة والإكرام والتعظيم؛ لقوله ﷺ: «**أحب إليه من ولده ووالده ...**»، فأثبت أصل المحبة، وهذا أمر طبيعي لا ينكره أحد.

٥- وجوب تقديم قول الرسول ﷺ علىٰ قول كل الناس؛ لأن من لازم كونه أحب من كل أحد أن يكون قوله مقدمًا علىٰ كل أحد من الناس، حتىٰ علىٰ نفسك، فمثلًا: أنت تقول شيئًا وتهواه وتفعله، فيأتي إليك رجل ويقول لك: هذا يخالف قول الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول أحب إليك من نفسك، فأنت تنتصر للرسول أكثر مما تنتصر لنفسك، وترد علىٰ نفسك بقول

الرسولﷺ، فتدع ما تهواه من أجل طاعة الرسولﷺ، وهذا عنوان تقديم محبته على محبة النفس؛ ولهذا قال بعضهم:

تعصي الإلـه وأنـت تـزعم حبـه هـذا لعمـري في القيـاس بـديع

لـو كـان حبـك صـادقًا لأطعتـه إن المحـب لمـن يحـب مطيـع

إذًا يؤخذ من هذا الحديث: وجوب تقديم قول الرسولﷺ على قول كل الناس حتى على قول أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى قول الأئمة الأربعة ومن بعدهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦].

لكن إذا وجدنا حديثًا يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة أو مخالفًا لقول أهل العلم وجمهور الأمة؛ فالواجب التثبت والتأني في الأمر؛ لأن اتباع الشذوذ يؤدي إلى الشذوذ؛ ولهذا إذا رأيت حديثًا يخالف ما عليه أكثر الأمة أو يخالف الأحاديث الصحيحة التي كالجبال في رُسوِّها؛ فلا تتعجل في قبوله، بل يجب عليك أن تراجع وتطالع في سنده حتى يتبين لك الأمر، فإذا تبين؛ فإنه لا بأس أن يُخَصَّص الأقوى بأضعف منه إذا كان حجة، فالمهم التثبت في الأمر، وهذه القاعدة تنفعك في كثير من الأقوال التي ظهرت أخيرًا، وتركها الأقدمون وصارت محل نقاش بين الناس؛ فإنه يجب اتباع هذه القاعدة، ويقال: أين الناس من هذه الأحاديث؟ ولو كانت هذه الأحاديث من شريعة الله؛ لكانت منقولة باقية معلومة مثل ما ذكر أن الإنسان إذا لم يطف طواف الإفاضة قبل أن تغرب الشمس يوم العيد، فإنه يعود محرمًا، فإن هذا الحديث وإن كان ظاهر سنده الصحة، لكنه ضعيف وشاذ، ولهذا لم يُذكر أنه عمل به إلا رجل أو رجلان من التابعين، وإلا، فالأمة على خلافه، فمثل هذه الأحاديث يجب أن يتحرى الإنسان فيها ويتثبت، ولا نقول: إنها لا يمكن أن تكون صحيحة.

مناسبة هذا الحديث للباب:

مناسبة هذا الحديث ظاهرة، إذ محبة الرسولﷺ من محبة الله؛ ولأنه إذا كان لا يكمل الإيمان حتى يكون الرسولﷺ أحب إلى الإنسان من نفسه والناس أجمعين، فمحبة الله أولى وأعظم.

❁ **قوله**: «في حديث أنس الثاني: ثلاث من كن فيه»:

أي: ثلاث خصال، و«كن» بمعنى وجدن فيه.

وإعراب «ثلاث»: مبتدأ، وجاز الابتداء بها؛ لأنها مفيدة على حد قول ابن مالك:

ولا يجـوز الابتـداء بـالنكرة مـا لم تفـد.........

وقوله: «من كن فيه»: «من»: شرطية، و«كن»: أصلها كان؛ فتكون فعلًا ماضيًا ناسخًا، والنون اسمها، و«فيه»: خبرها.

قوله: «وجد بهن»: وجد: فعل ماضٍ في محل جزم جواب الشرط، والجملة من فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ.

وقوله: «وجد بهن حلاوة الإيمان». الباء للسببية، وحلاوة: مفعول وجد، وحلاوة الإيمان: ما يجده الإنسان في نفسه وقلبه من الطمأنينة والراحة والانشراح، وليست مدركة باللعاب والفم، فالمقصود بالحلاوة هنا الحلاوة القلبية.

الخصلة الأولىٰ من الخصال الواردة في الحديث:

قوله: «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»: الرسول محمدﷺ وكذا جميع الرسل تجب محبتهم.

قوله: «**أحب إليه مما سواهما**»؛ أي: أحب إليه من الدنيا كلها ونفسه، وولده، ووالده، وزوجه، وكل شيء سواهما، فإن قيل: لماذا جاء الحديث بالواو «**الله ورسوله**»، وجاء الخبر لهما جميعًا «**أحب إليه مما سواهما**»؟

فالجواب: لأن محبة الرسولﷺ من محبة الله؛ ولهذا جعل قوله: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ركنًا واحدًا؛ لأن الإخلاص لا يتم إلا بالمتابعة التي جاءت عن طريق النبيﷺ

الخصلة الثانية:

قوله: «**وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله**».

قوله: «**وأن يحب المرء**» يشمل الرجل والمرأة.

قوله: «**لا يحبه إلا لله**»: اللام للتعليل؛ أي: من أجل الله؛ لأنه قائم بطاعة اللهﷻ.

وحب الإنسان للمرء له أسباب كثيرة: يحبه للدنيا، ويحبه للقرابة، ويحبه للزمالة، ويحب المرء زوجته للاستمتاع، ويحب من أحسن إليه، لكن إذا أحببت هذا المرء لله، فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

الخصلة الثالثة:

قوله: «**وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**».

هذه الصورة في كافر أسلم؛ فهو يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن

يقذف في النار، وإنما ذكر هذه الصورة؛ لأن الكافر يألف ما كان عليه أولًا، فربما يرجع إليه بخلاف من لا يعرف الكفر أصلًا.

فمن كره العود في الكفر كما يكره القذف في النار، فإن هذا من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

قوله: «**وفي رواية: لا يجد أحد حلاوة الإيمان**» أتىٰ المؤلف بهذه الرواية؛ لأن انتفاء وجدان حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولىٰ عن طريق المفهوم، وهذه عن طريق المنطوق، ودلالة المنطوق أقوىٰ من دلالة المفهوم.

❁ **قوله:** «**في أثر ابن عباس**رضي الله عنهما: **من أحب في الله**»:

«**من**»: شرطية، وفعل الشرط أحب، وجوابه جملة: «**فإنما تنال ولاية الله بذلك**».

و«**في**»: يحتمل أن تكون للظرفية؛ لأن الأصل فيها الظرفية، ويحتمل أن تكون للسببية؛ لأن «في» تأتي أحيانًا للسببية، كما في قوله ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة**»(١٥٤)؛ أي: بسبب هرة.

وقوله: «**في الله**»؛ أي: من أجله، إذا قلنا: إن «في» للسببية، وأما إذا قلنا: إنها للظرفية، فالمعنىٰ: من أحب في ذات الله؛ أي: في دينه وشرعه لا لعرض الدنيا.

قوله: «**وأبغض في الله**»: البغض الكره؛ أي: أبغض في ذات الله، فإذا رأىٰ من يعصي الله كرهه.

وفرق بين «في» التي للسببية و«في» التي للظرفية، فالسببية الحامل له علىٰ المحبة أو البغضاء هو الله، والظرفية موضع الحب أو الكراهة هو في ذات الله ﷻ فيبغض من أبغضه الله، ويحب من أحبه.

قوله: «**ووالىٰ في الله**»: الموالاة هي المحبة والنصرة وما أشبه ذلك.

قوله: «**وعادىٰ في الله**»: المعاداة ضد الموالاة؛ أي: يبتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم في الله.

قوله: «**فإنما تنال ولاية الله بذلك**»: هذا جواب الشرط؛ أي: يدرك الإنسان ولاية الله ويصل إليها؛ لأنه جعل محبته وبغضه وولايته ومعاداته لله.

وقوله:«**ولاية**». يجوز في الواو وجهان: الفتح والكسر، قيل: معناهما واحد، وقيل: بالفتح بمعنىٰ النصرة، قال تعالىٰ: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾[الأنفال:٧٢]، وبالكسر بمعنىٰ الولاية علىٰ الشيء.

قوله: «**بذلك**»: الباء للسببية، والمشار إليه الحب في الله والبغض فيه، والموالاة فيه والمعاداة فيه.

---

(١٥٤) أخرجه البخاري، كتاب: المساقاة، باب: فضل سقي الماء، برقم (٢٣٦٥)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: تحريم قتل الهرة، برقم (١٥١/ ٢٢٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وهذا الأثر موقوف، لكنه بمعنىٰ المرفوع؛ لأن ترتيب الجزاء علىٰ العمل لا يكون إلا بتوقيف، إلا أن الأثر ضعيف.

فمعنىٰ الحديث: أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتىٰ يكون كذلك، ولو كثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلًا عن مؤمن أن يوالي أعداء الله، فيرىٰ أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه بالنقائص والعيوب، ثم يواليهم ويحبهم؟! فهذا لو صلىٰ وقام الليل كله وصام الدهر كله؛ فإنه لا يمكن أن ينال طعم الإيمان، فلابد أن يكون قلبك مملوءًا بمحبة الله وموالاته، ويكون مملوءًا ببغض أعداء الله ومعاداتهم، وقال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ:

أَتُحِبُّ أعداءَ الحبيبِ وتَدَّعي ... حُبًّا لـه مَا ذاكَ في إِمْكَانِ

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيت النصراني أُغمض عيني، كراهة أن أرىٰ بعينىٰ عدو الله».

هذا الذي يجد طعم الإيمان، أما – والعياذ بالله – الذىٰ يرىٰ أن اليهود أو النصارىٰ علىٰ دين مرضي ومقبول عند الله بعد بعثة النبيﷺ، فهو خارج عن الإسلام، مكذب بقول الله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥] ولكثرة اليهود والنصارىٰ والوثنيين صار في هذه المسألة خطر علىٰ المجتمع، وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرق بين مسلم وكافر، ولا يدري أن غير المسلم عدو لله ﷻ، بل هو عدو له أيضًا، لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[الممتحنة:١]، فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصداقة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة:٥١].

فالآن أصبحنا في محنة وخطر عظيم؛ لأنه يخشىٰ علىٰ أبنائنا وأبناء قومنا أن يركنوا إلىٰ هؤلاء ويوادوهم ويحبوهم؛ ولذلك يجب أن تخلص هذه البلاد بالذات منهم، فهذه البلاد قال فيها الرسول ﷺ: «لأخرجن اليهود والنصارىٰ من جزيرة العرب حتىٰ لا أدع إلا مسلمًا»[١٥٥]، وقال:

---

(١٥٥) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد، باب: إخراج اليهود والنصارىٰ من جزيرة العرب، برقم (١٧٦٧)، وأبو داود، كتاب: الخراج والفيء والإمارة، باب: إخراج اليهود والنصارىٰ من جزيرة العرب، برقم (٣٠٣٠) وغيرهما من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«أخرجوا اليهود والنصارىٰ من جزيرة العرب» (١٥٦)، وقال «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» (١٥٧)، وهذا كله من أجل أن لا يشتبه الأمر علىٰ الناس ويختلط أولياء الله بأعدائه.

قوله: «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس علىٰ أمر الدنيا، وذلك لا يجدي علىٰ أهله شيئًا»

قوله: «عامة». أي: أغلبية.

وقوله: «مؤاخاة الناس»: أي: مودتهم ومصاحبتهم؛ أي: أكثر مودة الناس ومصاحبتهم علىٰ أمر الدنيا، وهذا قاله ابن عباس، وهو بعيد العهد منا قريب العهد من النبوة، فإذا كان الناس قد تغيروا في زمنه، فما بالك بالناس اليوم؟

فقد صارت مؤاخاة الناس -إلا النادر- علىٰ أمر الدنيا، بل صار أعظم من ذلك، يبيعون دينهم بدنياهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧]، ولما كان غالب ما يحمل علىٰ الخيانة هو المال وحب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[الأنفال:٢٨].

ويستفاد من أثر ابن عباس رضي الله عنهما:

أن لله تعالىٰ أولياء، وهو ثابت بنص القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البقرة:٢٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[المائدة:٥٥]؛ فلله أولياء يتولون أمره ويقيمون دينه، وهو يتولاهم بالمعونة والتسديد والحفظ والتوفيق، والميزان لهذه الولاية قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[يونس:٦٢].

قال شيخ الإسلام: «من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا». والولاية سبق أنها النصرة والتأييد والإعانة.

والولاية تنقسم إلىٰ: ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله، فمن الأولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البقرة:٢٥٧]، ومن الثانية قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾[المائدة:٥٦].

والولاية التي من الله للعبد تنقسم إلىٰ عامة وخاصة؛ **فالولاية العامة:** هي الولاية علىٰ العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق؛ فالله هو الذي يتولىٰ عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[الأنعام:٦٢].

---

(١٥٦) أخرجه البزار، برقم (٢٣٠)، وابن أبي عاصم في «الأحاد المثاني»، برقم (٢٣٤) وغيرهما من حديث عمر رضي الله عنه.

(١٥٧) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد، باب: جوائز الوفد، برقم (٣٠٥٣)، ومسلم، كتاب: الوصية، باب: ترك الوصية...، برقم (١٦٣٧) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته، وهذه خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[البقرة:٢٥٧]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[يونس:٦٢، ٦٣].

قوله: «وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة:١٦٦]، قال: المودة». يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة:١٦٦].

الأسباب: جمع سبب، وهو كل ما يتوصل به إلى شيء.

وفي اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، فكل ما يوصل إلى شيء؛ فهو سبب، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾[الحج:١٥]، ومنه سُمِّي الحبل سببًا؛ لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر.

وقوله: «قال: المودة»؛ هذا الأثر ضعَّفه بعضهم، لكن معناه صحيح؛ فإن جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون لتنجيهم تتقطع بهم، ومنها محبتهم لأصنامهم وتعظيمهم إياها، فإنها لا تنفعهم، ولعل ابن عباس رضي الله عنهما أخذ ذلك من سياق الآيات، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ...﴾[البقرة:١٦٥]، ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة:١٦٦].

وبه تعرف أن مراده المودة الشركية، فأما المودة الإيمانية كمودة الله تعالى ومودة ما يحبه من الأعمال والأشخاص، فإنها نافعة موصلة للمراد، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ...﴾[الزخرف:٦٧].

❁ قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير آية البقرة: وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، وسبق ذلك.

الثانية: تفسير آية براءة: وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ...﴾ الآية، وسبق تفسيرها.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال، وفي نسخة: «وتقديمها على النفس والأهل والمال».

ولعل الصواب: وجوب تقديم محبته كما هو مقتضىٰ الحديث، وأيضًا قوله: «**علىٰ النفس**» يدل علىٰ أنها قد سقطت كلمة تقديم أو وتقديمها، وتؤخذ من حديث أنس السابق ومن قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ...أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، فذكر الأقارب والأموال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل علىٰ الخروج من الإسلام: سبق أن المحبة كسبية، وذكرنا في ذلك حديث عمر رضي الله عنه لما قال للرسول ﷺ: «**والله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال له ومن نفسك. فقال: الآن، أنت أحب إلي من نفسي**»[١٥٨]، وقوله: «**الآن**» يدل علىٰ حدوث هذه المحبة، وهذا أمر ظاهر، وفيه أيضًا أن نفي الإيمان المذكور في قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده...**»[١٥٩] لا يدل علىٰ الخروج من الإسلام؛ لقوله في الحديث الآخر: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**»[١٦٠]؛ لأن حلاوة الإيمان أمر زائد علىٰ أصله؛ أي: إن الدليل مركب من الدليلين.

ونفي الشيء له ثلاث حالات: فالأصل أنه نفي للوجود، وذلك مثل: «**لا إيمان لعابد صنم**» فإن منع مانع من نفي الوجود؛ فهو نفي للصحة، مثل: «**لا صلاة بغير وضوء**»[١٦١]؛ فإن منع مانع من نفي الصحة، فهو نفي للكمال، مثل: «**لا صلاة بحضرة طعام**»[١٦٢]؛ فقوله: «**لا يؤمن أحدكم**» نفي للكمال الواجب لا المستحب، قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله: «**لاينفىٰ الشيء إلا لانتفاء واجب فيه ما لم يمنع من ذلك مانع**».

الخامسة: إن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها. تؤخذ من قوله: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**»[١٦٣]، وهذا دليل انتفاء الحلاوة إذا انتفت هذه الأشياء.

السادسة: أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها، وهي: الحب في الله، والبغض في الله، والولاء في الله، والعداء في الله، لا تنال ولاية الله إلا بها، فلو صلىٰ الإنسان وصام ووالىٰ أعداء الله؛ فإنه لاينال ولاية الله، قال ابن القيم:

---

(١٥٨) سبق تخريجه.

(١٥٩) سبق تخريجه.

(١٦٠) سبق تخريجه.

(١٦١) أخرجه -بنحوه- مسلم، كتاب: الطهارة، باب: وجوب الطهارة للصلاة، برقم (٢٢٤)، وأحمد (٢/ ٥١) وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(١٦٢) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد، باب: كراهية الصلاة بحضرة الطعام، برقم (٦٧/ ٥٦٠) وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١٦٣) سبق تخريجه.

أَتُحِـبُّ أعـداءَ الحبيـبِ وتَـدَّعي   حُبًّـا لـه مَـا ذاكَ في إِمْكَـانِ

وهذا لا يقبله حتىٰ الصبيان أن توالي من عاداهم.

وقوله: «ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها» مأخوذة من قول ابن عباس: «ولن يجد عبد طعم الإيمان ...» إلخ.

السابعة: فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة علىٰ أمر الدنيا. الصحابي يعني به ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقوله: «إن عامة المؤاخاة علىٰ أمر الدينا» هذا في زمنه؛ فكيف بزمننا؟!

الثامنة: تفسير قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾: فسرها بالمودة، وتفسير الصحابي إذا كانت الآية من صيغ العموم تفسير بالمثال؛ لأن العبرة في نصوص الكتاب والسنة بعموماتها، فإذا ذكر فرد من أفراد هذا العموم، فإنما يقصد به التمثيل؛ أي: مثل المودة، لكن حتىٰ الأسباب الأخرىٰ التي يتقربون بها إلىٰ الله وليست بصحيحة، فإنها تنقطع بهم ولا ينالون منها خيرًا.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حبًّا شديدًا، وتؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]، وهم يحبون الأصنام حبًّا شديدًا، وتؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، فأشد: اسم تفضيل يدل علىٰ الاشتراك في المعنىٰ مع الزيادة؛ فقد اشتركوا في شدة الحب، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حبًا لله من هؤلاء لأصنامهم.

العاشرة: الوعيد علىٰ من كان الثمانية أحب إليه من دينه: الثمانية هي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾[التوبة:٢٤].

والوعيد في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ فأفاد المؤلف -رحمه الله تعالىٰ- أن الأمر هنا للوعيد.

الحادية عشرة: أن من اتخذ ندًّا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر. لقوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، ثم بين في سياق الآيات أنهم مشركون شركًا أكبر، بدليل ما لهم من العذاب.

<u>قال العلامة ابن فوزان:</u>

❁ **قوله:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾:

تمام الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾[البقرة ١٦٥].

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لَّما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام، فبكمالها يكمل دين الإنسان، وبنقصها ينقص توحيد الإنسان، نبَّه المصنف علىٰ ذلك بهذا الباب.

﴿أَندَادًا﴾: أمثالًا ونظراء.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ أي: من حبِّ أصحاب الأنداد لله. وقيل: من حبِّ أصحاب الأنداد لأندادهم.

معنىٰ الآية إجمالًا:

يذكر تعالىٰ حال المشركين في الدنيا، وما لهم في الآخرة من العذاب، حيث جعلوا لله أمثالًا ونظراء من خلقه يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم. ويذكر سبحانه أنَّ المؤمنين يخلصون المحبة لله كما يخلصون له سائر أنواع العبادة.

ما يستفاد من الآية:

١- أنَّ من اتَّخذَ ندًّا تساوي محبته محبة الله فهو مشرك الشرك الأكبر.

٢- أنَّ من المشركين من يحب الله حبًّا شديدًا ولا ينفعه ذلك إلاَّ بإخلاص المحبة لله.

❁ **قوله:** ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ...﴾:

الآية كاملة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤]

﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾: أقرباؤكم مأخوذٌ من العشرة.

﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾: اكتسبتموها.

﴿كَسَادَهَا﴾: فوات وقت نفاقها ورواجها.

﴿وَمَسَٰكِنُ﴾: منازل.

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾؛ أي: إن كانت هذه الأشياء أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله.

﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾؛ أي: انتظروا ما يحل بكم من عقابه.

معنى الآية إجمالًا:

أمر الله نبيه أن يتوعد من أحب هذه الأصناف فآثرها أو بعضها على حبِّ الله ورسوله وفعل ما أوجب الله عليه من الأعمال التي يحبُّها ويرضاها؛ كالهجرة والجهاد ونحو ذلك، فبدأ الله بالآباء والأبناء والإخوان وكذا الأصدقاء ونحوهم، فمن ادَّعى محبة الله وهو يقدِّم محبة هذه الأشياء على محبته فهو كاذب ولينتظر العقوبة.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها وجوب تقديم محبة الله ومحبة ما يحبُّه الله من الأشخاص والأعمال على محبة ما سوى ذلك.

ما يستفاد من الآية:

١- وجوب محبة الله تعالى ومحبة ما يحبه.

٢- وجوب حبِّ النبيﷺ.

٣- الوعيد على من كانت هذه الثمانية أو غيرها أحبَّ إليه من دينه.

❁ **قوله**: «لا يؤمن أحدكم»:

أي: الإيمان الكامل.

«**حتى أكون أحبَّ إليه**»: بنصب «**أحبَّ**» خبر «**أكون**».

«**والناس أجمعين**»: من عطف العام على الخاص.

المعنى الإجمالي للحديث:

يخبرﷺ أنَّ أحدًا لن يؤمن الإيمان الكامل الذي تبرأ به ذمته ويستحق به دخول الجنة حتى يقدم محبة الرسولﷺ على محبة أقرب الناس إليه، وعلى محبة كل مخلوق؛ لأن بسببهﷺ حصول الحياة الأبدية، والإنقاذ من الضلال إلى الهدى، ومحبتهﷺ تقتضي طاعته واتباع ما أمر به وتقديم قوله على قول كل مخلوقٍ.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه دليلًا على وجوب تقديم محبة الرسولﷺ على محبة كل مخلوق، وأن تحقيق الإيمان مشروط بذلك.

ما يستفاد من الحديث:

١- وجوب محبة الرسولﷺ وتقديمها على محبة كل مخلوق.

٢- أنَّ الأعمال من الإيمان؛ لأنَّ المحبة عمل قلبٍ، وقد نفي الإيمان عمَّن لم يكن الرسول ﷺ أحب إليه مما ذُكِر.

٣- أنَّ نفي الإيمان لا يدل علىٰ الخروج من الإسلام.

٤- أنَّ الإيمان الصادق لابد أن يظهر أثره علىٰ صاحبه.

قوله: «ولهما عنه»:

أي: وللبخاريِّ ومسلم عن أنسٍ.

«ثلاث من كن فيه»؛ أي: ثلاث خصالٍ من وجدن فيه، وجاز الابتداء بثلاثٍ؛ وإن كانت نكرة؛ لأنَّها علىٰ نية الإضافة.

«وجد بهن حلاوة الإيمان»: لما يحصل له من لذة القلب ونعيمه وسروره.

«أحَبَّ إليه»: منصوب علىٰ أنه خبر يكون.

«مما سواهما»: مما يحبه الإنسان بطبعه؛ كالولد والأزواج ونحو ذلك.

«أن يحبَّ المرء»: الذي يعتقد إيمانه وعبادته.

«لا يحبه إلا لله»؛ أي: لأجل طاعة الله.

«أن يعود في الكفر»؛ أي: يرجع إليه.

«كما يكره أن يلقىٰ في النار»؛ يعني: يستوي عنده الأمران الإلقاء في النار أو العودة في الكفر.

«وفي روايةٍ»؛ أي: للبخاريِّ.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر ﷺ أنَّ المسلم إذا توفرت فيه ثلاث خصالٍ هي: تقديم محبة الله ورسوله علىٰ محبة ما سواهما من أهل ومالٍ، ويحبّ من يحبه من الناس من أجل إيمانه وطاعته لله لا لغرض دنيوي، ويكره الكفر كراهيةً متناهيةً بحيث يستوي عنده الإلقاء في النار والرجوع إليه، من توفرت هذه الخصال الثلاث فيه ذاق حلاوة الإيمان فيستلذ الطاعات ويتحمل المشقات في رضا الله.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه فضيلة تقديم محبة الله ورسوله محمد ﷺ علىٰ محبة ما سواهما.

ما يُستفاد من الحديث:

١- فضيلة تقديم محبة الله ورسوله محمد ﷺ علىٰ كل شيء.

٢- فضيلة المحبة في الله.

٣- أنَّ المؤمنين يحبون الله تعالىٰ محبةً خالصةً.

٤- أنَّ من اتصف بهذه الخصال الثلاث؛ فهو أفضل ممن لم يتصف بها ولو كان المتصف بها كافرًا فأسلم أو كان مذنبًا فتاب من ذنبه.

٥- مشروعية بغض الكفر والكافرين؛ لأنَّ من أبغض شيئًا أبغض من اتصف به.

❁ **قوله:** «من أحب في الله»:

أي: أحبَّ المؤمنين من أجل إيمانهم بالله.

«**ووالىٰ في الله**»؛ أي: والىٰ المؤمنين بنصرتهم واحترامهم وإكرامهم.

«**وأبغض في الله**»؛ أي: أبغض الكفار والفاسقين لمخالفتهم لربِّهم.

«**وعادىٰ في الله**»؛ أي: أظهر العداوة للكفار بالفعل كجهادهم والبراءة منهم.

«**ولاية الله**»: بفتح الواو تولِّيه لعبده بالنصرة والمحبة.

«**طعم الإيمان**»: ذوق الإيمان ولذته والفرح به.

«**مؤاخاة الناس**»: تآخيهم ومحبة بعضهم لبعض.

«**علىٰ أمر الدنيا**»؛ أي: لأجل الدنيا فأحبُّوها وأحبُّوا لأجلها.

«**وذلك**»؛ أي: المؤاخاة علىٰ أمر الدنيا.

«**لا يجدي علىٰ أهله شيئًا**»: لا ينفعهم أصلًا بل يضرهم.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

يحصر ابن عباس رضي الله عنهما الأسباب التي توجب محبة الله لعبده ونصرته له في محبة أولياء الله، وبغض أعدائه، وإظهار هذه المحبة وهذه العداوة علانيةً بمناصرة المؤمنين ومقاطعة المجرمين وجهادهم. ويذكر أنه لن يذوق الإيمان ويتلذذ بطعمه من لا يتصف بذلك وإن كثرت عبادته. ثم يذكر ابن عباس أنَّ هذه القضية قد انعكست في وقته فصار الناس يتحابون ويباغضون من أجل الدنيا، وهذا لا ينفعهم بل يضرهم، ثم فسر هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ بأن المراد بها أنَّ المحبة التي كانت بينهم في الدنيا تقطعت بهم يوم القيامة وخانتهم أحوج ما كانوا إليها، وتبرأ بعضهم من بعض، لما كانت هذه المحبة في غير الله.

مناسبة الأثر للباب:

فيه أنَّ حصول محبة الله لعبده ونصرته له مشروط بأمرين:

أحدهما: محبة أولياء الله وبغض أعدائه بالقلب.

ثانيهما: إظهار محبة أولياء الله وبغض أعدائه بالفعل من مناصرة أوليائه وجهاد أعدائه.

ما يستفاد من الأثر:

١- بيان الأسباب التي تُنال بها محبة الله لعبده ونصرته لعبده.

٢- وصف الله بالمحبة علىٰ ما يليق بجلاله.

٣- مشروعية وفضيلة الحب في الله والبغض في الله، وأنَّه لا يغني عنهما كثرة الأعمال الصالحة.

٤- مشروعية مناصرة المؤمنين وإعانتهم، وبغض الكافرين وجهادهم.

٥- بيان ثمرة الحبِّ في الله والبغض في الله من ذوق طعم الإيمان والتلذذ به.

٦- ذمُّ الحبِّ والبغض من أجل الدنيا وبيان سوء عاقبته.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ...﴾ الآية»:

هذا الباب والأبواب التي بعده شروع من الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر العبادات القلبية، وما يجب أن تكون عليه تلك العبادات من الإخلاص لله -جل وعلا- فهذا في ذكر واجبات التوحيد ومكملاته، وبعض العبادات القلبية، وكيف يكون إفراد الله -جل وعلا- بها.

وابتدأها بباب المحبة، وأن العبد يجب أن يكون الله -جل وعلا- أحب إليه من كل شيء حتىٰ من نفسه، وهذه المحبة المراد منها محبة العبادة، وهي المحبة التي فيها تعلق بالمحبوب، بما يكون معه امتثال للأمر رغبًا إلىٰ المحبوب واختيارًا، واجتناب النهي رغبة واختيارًا.

فمحبة العبادة هي المحبة التي تكون في القلب، يكون معها الرغب والرهب، والطاعة والسعي في مراد المحبوب، والبعد عما لا يحب المحبوب. والموحد لم يوحد الله إلا بسبب ما وقر في قلبه من محبة الله -جل وعلا- لأنه استدل بربوبية الله -جل وعلا- وأنه الخالق وحده، وأنه ذو الملكوت وحده، وأنه ذو الفضل والنعمة علىٰ عباده وحده، وأنه محبوب، وأنه يجب أن يُحب، وإذا أحب العبد ربه، فإنه يجب عليه أن يوحده بأفعال العبد حتىٰ يكون محبًا له علىٰ الحقيقة؛ لذلك نقول: المحبة التي هي من العبادة هي المحبة التي يكون فيها اتباع للأمر، واجتناب للنهي، ورغب

ورهب، ولهذا قال طائفة من أهل العلم: المحبة المتعلقة بالله ثلاثة أنواع:

١- محبة الله على النحو الذي وصفنا، وهذا نوع من العبادات الجليلة، ويجب إفراد الله -جل وعلا- بها.

٢- محبة في الله، وهو أن يحب الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأن يحب الصالحين في الله، وأن يحب في الله، وأن يبغض في الله.

٣- محبة مع الله، وهذه محبة المشركين لآلهتهم، فإنهم يحبونها مع الله -جل وعلا- فيتقربون إلى الله رغبًا ورهبًا نتيجة محبة الله، ويتقربون إلى الآلهة رغبًا ورهبًا نتيجة لمحبتهم لتلك الآلهة، ويتضح المقام بتأمل حال المشركين، وعبدة الأوثان، وعبدة القبور في مثل هذه الأزمنة، فإنك تجد المتوجه إلى قبر الولي في قلبه من محبة ذلك الولي وتعظيمه ومحبة سدنة ذلك القبر ما يجعله في رغب ورهب، وفي خوف وطمع، وفي إجلال حين يعبد ذلك الولي، أو يتوجه إليه بأنواع العبادة لأجل تحصيل مطلوبه، فهذه محبة العبادة صرفُها لغير الله -جل وعلا- شرك أكبر به، بل هي عماد الدين، بل هي عماد صلاح القلب، فإن القلب لا يصلح إلا بأن يكون محبًّا لله -جل وعلا- وأن تكون محبته لله -جل وعلا- أعظم من كل شيء، فالمحبة التي هي محبة الله وحده -يعني محبة العبادة- هذه من أعظم أنواع العبادات، وإفراد الله بها واجب، والمحبة مع الله محبة العبادة هذه شركية، فمن أحب غير الله -جل وعلا- محبة العبادة فإنه مشرك الشرك الأكبر بالله جل وعلا.

هذه الأنواع الثلاثة هي المحبة المتعلقة بالله، أما النوع الثاني من أنواع المحبة وهي المحبة المتعلقة بغير الله من جهة المحبة الطبيعية، فقد أذن بها الشرع وأجازها؛ لأن المحبة فيها ليست محبة العبادة والرغب والرهب الذي هو من العبادة، وإنما هي محبة الدنيا، وذلك كمحبة الوالد لولده، والولد لوالده، والرجل لزوجته، والأقارب لأقربائهم، والتلميذ لشيخه، والمعلم لأبنائه، ونحو ذلك من الأحوال، وهذه محبة طبيعية لا بأس بها، بل جعلها الله -جل وعلا- غريزة في الإنسان.

❁ قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية»[البقرة: ١٦٥]:

أندادًا، يعني: أشباهًا ونظراء وأكْفاء، يعني: يساوونه في المحبة، لهذا قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ وأحد وجهي التفسير في قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن المشركين يحبون الأنداد كحبهم لله.

والوجه الثاني من التفسير: أن المشركين يحبون الأنداد كحب المؤمنين لله.

والوجه الأول أظهر، والكاف فيه هنا في قوله: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ بمعنىٰ: مثل، أي: يحبونهم مثل حب الله، وهي كاف المساواة ومثلية المساواة، ولهذا قال -جل وعلا- في سورة الشعراء مخبرًا عن قول أهل النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] قال العلماء: سووهم برب العالمين في المحبة بدليل هذه الآية، ولم يسووهم برب العالمين في الخلق والرزق وأفراد الربوبية.

قوله: «وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ...﴾ الآية»:

هذا يدل علىٰ أن محبة الله -جل وعلا- واجبة، وأن محبة الله يجب أن تكون فوق كل محبوب، وأن يحب الله أعظم من محبته لأي شيء، قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، وهذا وعيد فيدل علىٰ أن تقديم محبة غير الله علىٰ محبة الله كبيرة من الكبائر، ومحرم من المحرمات؛ لأن الله توعد عليه وحكم علىٰ فاعله بالفسق والضلال، فالواجب لتكميل التوحيد أن يحب العبد الله ورسوله فوق كل محبوب، ومحبة النبي عليه الصلاة والسلام هي محبة في الله ليست محبة مع الله؛ لأن الله هو الذي أمرنا بحب النبي عليه الصلاة والسلام، فإن من أحب الله -جل وعلا- أحب رسله.

قوله: «عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه ...»»:

قوله: «**لا يؤمن أحدكم**» يعني: الإيمان الكامل. وقوله: «**حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**» يعني: أن تكون محابي مقدمة علىٰ محاب غيري، فحتىٰ أكون أحب إليه وأعظم في نفسه من ولده ووالده والناس أجمعين، وفي حديث عمر المعروف أنه قال للنبي عليه الصلاة والسلام: إلا من نفسي فقال: «**يا عمر حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**» فقال عمر: أنت الآن أحب إلي من نفسي، قال: «**فالآن يا عمر**» يعني كملت الإيمان.

فقوله: «**لا يؤمن أحدكم**» يعني: الإيمان الكامل حتىٰ يقدم محبة النبي عليه الصلاة والسلام علىٰ محبة الولد والوالد والناس أجمعين، ويظهر هذا بالعمل، فإذا كان يقدم محاب هؤلاء علىٰ ما فيه مرضاة الله -جل وعلا- وعلىٰ ما أمر به عليه الصلاة والسلام؛ فإن محبته للنبي عليه الصلاة والسلام تكون ناقصة؛ لأن المحبة محركة كما قال شيخ الإسلام في كتابه «**قاعدة في المحبة**»: المحبة هي التي تُحرك، فالذي يحب الدنيا يتحرك إلىٰ الدنيا، والذي يحب العلم يتحرك إلىٰ العلم، والذي يحب الله -جل وعلا- محبة عبادة ورغب ورهب يتحرك طالبًا لمرضاته، ويتحرك مبعدًا عما فيه مساخط الرب جل وعلا.

كذلك الذي يحب النبي عليه الصلاة والسلام على الحقيقة، فإنه يسعىٰ في اتباع سنته، وفي امتثال أمره، وفي اجتناب نهيه، والاهتداء بهديه، والاقتداء بسنته عليه الصلاة والسلام.

❁ **قوله: «ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...»»:**

«**ولهما عنه**»: والاستدلال به ظاهر علىٰ أن محبة الله ورسوله يجب أن تكون مقدمة علىٰ محبة ما سواهما، وأنها من كمال الإيمان، وأن العبد لن يجد كمال الإيمان إلا بذلك.

«**وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتىٰ ...**» إلىٰ آخره: المقصود بالحلاوة هنا الحلاوة الناتجة عن تحصيل كماله؛ لأن الإيمان له حلاوة توجد في الروح، وكلما سعىٰ العبد في تكميل إيمانه اشتد وجده لهذه الحلاوة؛ واشتد شعوره بتلك الحلاوة واللذة التي تكون في القلب.

❁ **قوله: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من أحب في الله وأبغض في الله...»:**

هذه محبة في الله راجعة إلىٰ الأمر والنهي، وهي من أقسام المحبة.

قوله: «**أحب في الله**» يعني: كانت محبته لذلك المحبوب لأجل أمر الله.

«**أبغض في الله**» يعني: كان بغضه لذلك المبغَض لأجل أمر الله.

«**ووالىٰ في الله**» كانت موالاته للعقد الذي بينه وبين ذاك في الله -جل وعلا- من أخوة إيمانية.

«**وعادىٰ في الله**» يعني: لما حصل بينه وبين ذاك الذي خالف أمر الله إما بكفر أو بما دونه.

«**فإنما تنال ولاية الله بذلك**» يعني: إنما يكون العبد وليًّا من أولياء الله بهذا الفعل، وهو أن يوالي في الله ويعادي في الله جل وعلا.

والولاية -بالفتح- هي المحبة والنصرة. يقال: والَىٰ، وَلَايَةً، يعني: أحب محبة، ونصر نصرة، وأما الوِلاية -بالكسر- فهي الملك والإمارة، قال جل وعلا: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾[الكهف: ٤٤]، يعني: أن المحبة والنصرة إنما هي لله -جل وعلا- وليست لغيره، فقوله: «**إنما تنال ولاية الله بذلك**» يعني: تنال محبة الله ونصرته بذلك، بأن يأتي بالمحبة في الله والبغض في الله.

❁ **قوله: «ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه، حتىٰ يكون كذلك...»:**

المؤاخاة والمحبة في الدنيا هذه تراد للدنيا، والدنيا قصيرة زائلة، وإنما يغتر بها أهل الغرور. وأما أهل المعرفة بالله، والعلم بالله، وأهل كمال توحيده، وأهل كمال الإيمان، وتحقيق التوحيد فإنما تكون محابهم ومشاعرهم القلبية وأنواع العلوم والمعارف التي تكون في القلب وأنواع العبادات

والمقامات والأحوال التي تكون في القلب يكون ذلك كله تبعًا لأمر الله ونهيه ورغبة في الآخرة، أما الدنيا فلها أهلون، وهي مرتحلة عنهم، وهم مقبلون علىٰ أمر آخرتهم، ولذلك لن تجدي المحبة في الدنيا علىٰ أهلها شيئًا، إنما الذي يجدي هو الحب في الله والرغب في الآخرة.

❁ **قوله**: «**وقال ابن عباس في قوله**: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[البقرة: ١٦٦]، **قال: المودة**»:

لأن المشركين كانوا يشركون بآلهتهم، ويحبونها، ويظنون أنها ستشفع لهم يوم القيامة لأجل مودتهم لها، ومحبتهم لها، وستنقطع تلك الأسباب وتلك الحبال المدعاة الموهومة يوم القيامة، ولن يجدوا نصيرًا، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ يعني: كل ما ظنوه سببًا نافعًا ينفعهم عند الله فإنه سينقطع يوم القيامة ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[البقرة: ١٦٦].

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية البقرة، أي: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾: أمثالاً ونظراء يحبونهم كحب الله محبة تعظيم وخضوع.

الثانية: تفسير آية براءة أي: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ﴾[التوبة:٢٤] إلىٰ قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ [التوبة:٢٤]، انتظروا ما يحل بكم من عقابه.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ علىٰ النفس والأهل والمال، أي لقوله: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**».

الرابعة: نفي الإيمان لا يدل علىٰ الخروج من الإسلام، أي: إن قوله: « **لا يؤمن أحدكم**» لا يدل علىٰ أنه كافر ولكن يؤخذ منه أنه قد ترك واجبًا عليه وتعرض للوعيد بحسبه.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها، أي لقوله في الحديث: « **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**».

السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها، أي: الحب في الله،والبغض في الله،والموالاة في الله،والمعاداة في الله.

السابعة: فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة علىٰ أمر الدنيا أي: بسبب ضعف الإيمان يوالي لدنياه ويعادي لها، وإذا كان هذا في ذلك الوقت فكيف بعده؟

الثامنة: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾[البقرة:١٦٦]، أي: المودة والوصل التي كانت بينهم في الدنيا لغير الله خانتهم أحوج ما كانوا إليها.

التاسعة: أن المشركين من يحب الله حبًّا شديدًا، أي لقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة:١٦٥] أي: من حب أصحاب الأنداد لله علىٰ أحد الأقوال، أو لقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾[البقرة:١٦٥]. أي: يحبونهم كما يحبون الله فيكون قد أثبت لهم محبة الله،ولكنها مشوبة بالشرك.

العاشرة: الوعيد علىٰ من كان الثمانية أحب إليه من دينه، أي لقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[التوبة:٢٤] .

الحادية عشرة: أن من اتخذ ندًّا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر، أي لقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] مما هو دال علىٰ أنه كفر،ولأن هذه المحبة عبادة لا تصلح إلا لله فإذا صرفت إلىٰ غيره صارت شركًا أكبر.

* الأسئلة *

قوله: «قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾»:

س: اشرح هذه الآية وبين مناسبتها لكتاب التوحيد؟

جـ: أخبر الله تعالىٰ أن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا؛ أي: أمثالًا ونظراء وأشباهًا يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم.

ومناسبة الآية لكتاب التوحيد: أن من أحب أحدًا كما يحب الله فقد أشرك الشرك الأكبر المنافي للتوحيد.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ...﴾.

س: بين معاني الكلمات الآتية: ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾، ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾، ﴿وَتِجَٰرَةٌ﴾، ﴿كَسَادَهَا﴾، ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾، ثم اشرح الآية وبين مناسبتها لهذا الباب؟

جـ: ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾: أقرباؤكم الأدنون، ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾، اكتسبتموها، ﴿وَتِجَٰرَةٌ﴾: أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح، ﴿كَسَادَهَا﴾: بوارها وعدم رواجها، ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾: منازل تعجبكم للإقامة بها، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾: انتظروا ماذا يحل بكم من العقاب.

شرح الآية: يأمر الله رسوله أن يثبِّت المؤمنين ويقوي عزائمهم علىٰ الانتهاء عما نهوا عنه من موالاة الآباء والإخوان الذين استحبوا الكفر علىٰ الإيمان، ويزهدهم فيهم ويقطع علائقهم عن زخارف الدنيا علىٰ وجه التوبيخ والترهيب.

ومناسبة الآية للباب: أن فيها وعيدًا شديدًا علىٰ من كانت الثمانية أحب إليه من دينه.

قوله: «عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه ...».

س: اشرح هذا الحديث وما الذي تقتضي محبة الرسول ﷺ؟ وما مناسبته للباب؟

جـ: أخبر ﷺ أن الإنسان لا يكون آتيًا بالإيمان الواجب حتىٰ يقدم محبة الرسول ﷺ علىٰ محبة نفسه وأقرب الناس إليه، وأن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ أكبر عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين، ففيه وجوب تقديم محبته ﷺ علىٰ النفس والأهل والمال.

وتقتضي محبته ﷺ طاعته ومتابعته والعمل بسنته.

ومناسبة هذا الحديث للباب: أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها.

❁ **قوله: «عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد...»».**

س: وضح معاني الكلمات الآتية: ثلاث، كُنَّ فيه، حلاوة الإيمان، واشرح هذا الحديث، وما الذي تستوجب محبة الله؟

ج: ثلاث: أي: ثلاث خصال، كن فيه: أي: وجدت فيه تامة، حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في رضا الله ورسوله.

يخبر الرسول ﷺ أن من اتصف بهذه الصفات نال اللذة والبهجة والسرور والفرح وهي أن تكون محبة الله ورسوله مقدمة علىٰ محبة الأولاد والأموال والأزواج وغيرها، وأن تكون محبة الإنسان لغيره من الناس خالصة لله، وأن يكره ضد الإيمان كما يكره الإلقاء في النار.

وتقتضي محبة الله: فعل طاعته وترك مخالفته والعمل بكتابه وسنة رسوله ومحبة ما يحبه ومن يحبه كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده.

❁ **قوله: «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من أحب في الله وأبغض في الله ووالىٰ في الله...».**

س: وضح معاني الكلمات المذكورة في الحديث؟

ج: أحب في الله: أي: أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك.

أبغض في الله: أي: أبغض من كفر بالله وأشرك به وخرج عن طاعته؛ لأجل ما فعلوا مما يسخط الله.

والىٰ في الله: نصر أولياءه وأهل طاعته وأيدهم.

عادىٰ في الله: حارب أهل معصيته وجاهد أعداءه.

ولاية الله: تولية لعبده ومحبته ونصرته له.

ولن يجد أحد طعم الإيمان: أي: لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره.

حتىٰ يكون كذلك: أي: حتىٰ يحب في الله ويبغض في الله ويعادي في الله ويوالي في الله.

مؤاخاة الناس: تآخيهم ومحبتهم وموالاتهم علىٰ شئون الدنيا.

لا يجدي علىٰ أهله شيئًا: أي: لا تنفعهم محبتهم لأجل الدنيا، بل تضرهم.

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾؟

جـ: المعنىٰ: أن المشركين مع الله في المحبة في الدنيا انقطعت عنهم هذه المحبة في الآخرة ولم تغن عنهم شيئًا، وتبرأ بعضهم من بعض فينقطع يوم القيامة كل سبب ووسيلة كانت لغير الله.

س: اذكر أنواع المحبة مع التعريف لكل نوع؟

جـ: المحبة أربعة أنواع:

١ - محبة الله وهي أصل الإيمان والتوحيد.

٢ - المحبة في الله وهي محبة أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين، ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرها وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

٣ - محبة مع الله وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملك وغيرها وهي أصل الشرك وأساسه.

٤ - محبة طبيعية وهي ثلاثة أقسام:

(أ) محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد.

(ب) محبة شفقة ورحمة كمحبة الولد.

(جـ) محبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس.

وكذلك محبة الطعام والشراب واللباس والنكاح ونحوها، وهذه إذا كانت مباحة وأعانت علىٰ طاعة الله فهي عبادة، وإن توسل بها إلىٰ محرم فهي محرمة وإلا بقيت من أقسام المباحات.

س: ما هي الأسباب الجالبة لمحبة الله لعبده ومحبة العبد لربه؟

جـ: عشرة:

١ - قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

٢ - التقرب إلىٰ الله بالنوافل بعد الفرائض.

٣ - دوام ذكر الله علىٰ كل حال باللسان والقلب والعمل.

٤ - إيثار محابه علىٰ محابك عند غلبات الهوىٰ.

٥ - مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها.

٦ - مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

٧- انكسار القلب بين يديه.

٨ - الخلوة به وقت النزول الإلهي آخر الليل.

٩ - مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم.

١٠ - مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب.. (مدارج السالكين لابن القيم جزء ٣ ص ١٧) والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرس الثاني والثلاثون:

باب قول الله تعالى
﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[التوبة:١٨].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية[العنكبوت:١٠].

عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «إن من ضعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمَدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريصٍ، ولا يرده كراهية كارهٍ»(١٦٤).

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضىٰ عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»(١٦٥) رواه ابن حِبَّانَ في «صحيحه».

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة. تفسير آية العنكبوت.

الرابعة: أن اليقين يَضْعُفُ ويقوىٰ.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

---

(١٦٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٢٢١)، وأبو نعيم في «حلية الاولياء» (٥/ ١٠٦)، (١٠/ ٤١) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٢٠٠٩).

(١٦٥) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: (٦٤)، برقم (٢٤١٤)، وابن حبان، برقم (٢٧٦، ٢٧٧) واللفظ له، وغيرهما من حديث عائشة ، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله**: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية»:

لما كان الخوف من الله أجل مقامات الدين وأشرفها وأفضلها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالىٰ، نبه المصنف بالترجمة بهذه الآية علىٰ وجوب إخلاص الخوف لله، وقد ذكره الله في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[النحل:٥٠]، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٨]، ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[الأحزاب:٣٩]، وغير ذلك من الآيات. و ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والشيطان علم لإبليس اللعين ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾[آل عمران:١٧٥]؛ أي: يخوفكم بأوليائه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس شديد، وقال قتادة: يعظمهم في صدوركم. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أولياءه الذين خوفكم إياهم ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري، وتوكلوا علي فإني كافيكم وناصركم عليهم، وهذا هو الإخلاص الذي أمر الله به عباده ورضيه منهم. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ جعله شرطًا في الإيمان؛ لأن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله علىٰ خوف الناس، ولأن من عرف أن الخوف عبادة، وصرفه لغير الله شرك، لم يصرفه لغيره.

وكلما قوي إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم، قال المصنف: وفيه أن إخلاص الخوف من الفرائض، والخوف علىٰ ثلاثة أقسام:

(أحدها): خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أو غير ذلك أن يصيبه بما يكره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[الزمر:٣٦]، وهو الواقع من عُبَّاد القبور ونحوها، يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد.

(الثاني): أن يترك ما يجب عليه من جهاد وأمر بمعروف ونهيٍ عن منكر لغير عذر خوفًا من بعض الناس، فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، وهذا هو سبب نزول الآية، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾[آل عمران:١٧٣]. وفي الحديث: «**إن الله تعالىٰ يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تغيره؟ فيقول: رب خشية الناس، فيقول: إياي كنت أحق أن تخشىٰ**»(١٦٦). رواه أحمد وغيره.

---

(١٦٦) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، برقم (٤٠٠٨)، وأحمد(٣/ ٣٠، ٤٧، ٧٣، ٩١)، والبيهقي(١٠/ ٩٠)، والطيالسي، برقم (٢٢٠٦)، وعبد بن حميد، برقم (٩٧١، ٩٧٢) وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».

(الثالث): الخوف الطبيعي، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك، فهذا لا يذم، كقوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[القصص:٢١]. وأما خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة، وهو الذي قال الله فيه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم:١٤] ونحو ذلك، فهو أعلىٰ مراتب الإيمان.

❁ **قوله:** «﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ...﴾الآية»:

(إنما) أداة حصر، يخبر تعالىٰ أنه لا يعمر مساجده حقيقة إلا الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، وداوموا علىٰ إقام الصلاة بأركانها وواجباتها وسننها، وأعطوا الزكاة مستحقيها، وأخلصوا لله الخشية؛ أي: المخافة والهيبة التي ينبني عليها أساس العبادة، والتي هي مخ عبودية القلب، ولا تصلح إلا لله وحده، وهي الشرط الذي هو وجه مناسبة الآية للترجمة، ولا محالة أن الإنسان يخشىٰ المحاذير الدنيوية، ولكن ينبغي له أن يخشىٰ في ذلك قضاء الله وتصريفه.

وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨]؛ أي: وأولئك هم المهتدون، وكل عسىٰ في القرآن فهي واجبة. وفي الحديث: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان**»(١٦٧). قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية. رواه أحمد والترمذي وغيرهما؛ فأثبت تعالىٰ عمارتها للمؤمنين بعد أن نفىٰ ذلك عن المشركين؛ لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، لا مجرد العمارة بالبناء فقط، وإن كان يدخل فيها، ويعم ترميمها وتنظيفها، فلا تكون عامرة إلا بالإيمان والعمل الصالح، الخالص من شوائب الشرك والبدع، وإدامة العبادة والذكر، وصيانتها عما لم تبن له.

❁ **قوله:** «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ...﴾ **الآية**»:

أي: ومن بعض الناس من يدَّعِي الإيمان بلسانه، ولم يثبت في قلبه: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: لأجل الله جل وعلا؛ فأصابته محنة اعتقد أنها من نقمة الله فارتد عن الإسلام. قال ابن عباس: يعني: فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله. وقال ابن القيم: «أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، أنه إذا أوذي في الله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ له -وهي أذاهم ونيلهم له بالمكروه، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم- جعل ذلك في فراره منه، وتركه السبب الذي يناله به ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الذي فر منه المؤمنون بالإيمان؛ فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلىٰ الإيمان، وتحملوا ما

---

(١٦٧) أخرجه الترمذي، كتاب: التفسير، باب: سورة التوبة، برقم (٣٠٩٣)، وأحمد (٣/ ٦٨، ٧٦)، وابن خزيمة، برقم (١٥٠٢)، وابن حبان، برقم (١٧٢١)، والدارمي، برقم (١٢٢٣) وغيرهم من حديث أبي سعيد ﷺ، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب؛ وهذا لضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرسل إلىٰ موافقتهم، ففر من ألم عذابهم إلىٰ عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس بمنزلة ألم عذاب الله، وغبن كل الغبن إذ استجار من الرمضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلىٰ ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله عليم بما انطوىٰ عليه صدره من النفاق» ا. هـ. فلا ينبغي للعبد أن يخاف غير الله، ولا يصدق عليه الإيمان الشرعي إلا باعتقاد القلب وعمله، وقول اللسان وعمل الجوارح، وفيه الخوف من مداهنة الخلق، والمعصوم من عصمه الله، ومطابقة الآية للترجمة أن الخوف من الناس أن ينالوه بما يكره بسبب الإيمان بالله من جملة الخوف من غير الله.

۞ **قوله:** «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله»:

الضعف بالضم في لغة قريش، وبالفتح في لغة تميم ضد القوة والصحة؛ فالمضموم مصدر ضَعُفَ ضُعْفًا كقَرُبَ قُرْبًا، والمفتوح من باب قتل، واليقين ضد الشك: كمال الإيمان. وقال ابن مسعود: «اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان». وروي عنه مرفوعًا. ويدخل فيه تحقيق الإيمان بالقدر السابق، كما في حديث ابن عباس مرفوعًا: «**فإن استطعت أن تعمل بالرضا في اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر علىٰ ما تكره خيرًا كثيرًا**»[١٦٨]. وفي رواية: كيف أصنع باليقين؟ قال: «**أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»[١٦٩]. فمن ضعفه أن تؤثر رضاهم علىٰ رضىٰ الله، فتوافقهم علىٰ ترك المأمور أو فعل المحظور؛ استجلابًا لرضاهم؛ وذلك لأنه لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضا المخلوق، بما يجلب له سخط خالقه، وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأنه آثر رضا المخلوق علىٰ رضا الخالق، وتقرب إليه بما يسخط الله، ومن قوي إيمانه آثر رضا الخالق علىٰ رضا المخلوق، فحصل له رضا الله ورضا الخلق.

---

(١٦٨) أخرجه الحاكم، برقم (٦٣٠٣)، وابن أبي الدنيا في«الفرج بعد الشدة»، برقم (٧)، وأبو عبد الله الدقاق في«مجلس رؤية الله»، برقم (١٨٨، ٧١٦)، وهناد في «الزهد»، برقم (٥٣٦) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بسند ضعيف جدًا، فيه «عبد الله بن ميمون بن قداح القرشي»، قال البخاري: «ذاهب الحديث»، وقال أبو زرعة: «واهي الحديث»، وقال الترمذي: «منكر الحديث»، وانظر«تهذيب الكمال» (٤/ ٣٠٠).

(١٦٩) أخرجه الحاكم، برقم (٦٣٠٤)، والطبراني (١١/ ١٢٣)، والقضاعي، برقم (٧٤٥) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بسند ضعيف فيه«عيسىٰ بن محمد القرشي» قال العقيلي(٣/ ١٠٩٣): «عيسىٰ بن محمد القرشي عن ابن أبي مليكة مجهول بالنقل، ولا يعرف إلا به، ولا يتابع عليه».

❁ **قوله**: «وأن تحمدهم علىٰ رزق الله»:

وتشكرهم علىٰ ما وصل إليك من أيديهم بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه، وتنسىٰ الله ﷻ فإن المتفضل في الحقيقة هو الله الذي قدره لك وأوصله إليك، وإذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا. ولا ينافي هذا الحديث: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**»(١٧٠)؛ لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم؛ لكون الله ساقه علىٰ أيديهم، فتدعو لهم أو تكافئهم لحديث: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه**»(١٧١)؛ فإضافة الصنيعة إليهم إنما هو لكونهم صاروا أسبابًا في إيصال المعروف إليك، وإلا فالذي قدره وساقه هو الله وحده.

❁ **قوله**: «وأن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله»:

لأنه لم يقدِّر لك ما طلبته علىٰ أيديهم، فلو قدره لك لساقته المقادير إليك.

❁ **قوله**: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص...إلخ»:

بل كل شيء بقضاء الله وقدره سبحانه وبحمده، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[فاطر:٢]. ومن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأنه هو الذي يرزق بسبب وبلا سبب ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقًا علىٰ رزق، ولم يذمه علىٰ منع، ويفوض أمره إلىٰ الله، ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه، ويسلم قلبه له، وقد بايع جماعة رسول الله ﷺ أن لا يسألوا الناس شيئًا ولم يبح إلا لضرورة، محافظة علىٰ كمال الحب لله، وإخلاص التوكل عليه. قال شيخ الإسلام: اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله، وما وعد الله أهل طاعته، واليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بقدر الله لم تكن موقنًا لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان علىٰ ذلك إما ميل إلىٰ ما في أيديهم، فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله نصرك ورزقك، وكفاك مؤنتهم، وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفًا منهم، ورجاء لهم، وذلك من ضعف اليقين، وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلىٰ الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم علىٰ ما لم يُقَدِّر كان ذلك من ضعف

---

(١٧٠) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في شكر المعروف، برقم (٤٨١١)، والترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: الشكر لمن أحسن إليك، برقم (١٩٥٤)، وأحمد(٢/ ١٩٥، ٣٠٢، ٣٨٨، ٤٦١)، وابن حبان، برقم (٣٤٠٧) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني «في صحيح سنن أبي داود».

(١٧١) أخرجه أبو داود، كتاب: الزكاة، باب: عطية من سأل بالله عز وجل، برقم (١٦٧٢)، والنسائي، كتاب: الزكاة، باب: من سأل بالله عز وجل، برقم (٢٥٧٦)، وأحمد (٢/ ٦٨، ٩٥، ٩٩، ١٢٧) وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

يقينك، فلا تخفهم ولا ترجهم، ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمَّه الله ورسوله منهم فهو المذموم، ولما قال بعض وفد بني تميم: «أي محمد، أعطني فإن حمدي زين وذمي شين»، قال: «ذلك الله ﷻ».

قوله: «**من التمس رضىٰ الله بسخط الناس؛ ﷺ...إلخ**»:

بهذا اللفظ، ورواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي، وأعله بمحمد بن مروان السدي، وقال: ضعيف. وفيه أيضًا عطية العوفي ذكره الذهبي في الضعفاء والمتروكين، ومعناه صحيح، وتمامه: «**وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضىٰ واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**». وفيه: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال من مسمىٰ الإيمان، والشاهد من حديث الباب قوله: «**ومن التمس رضىٰ الناس بسخط الله**». ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة، قال: كتب معاوية إلىٰ عائشة أن اكتبي لي كتابًا، توصيني فيه ولا تكثري علي، فكتبت إليه: سلام عليك أما بعد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضىٰ الله بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضىٰ الناس بسخط الله، وكله الله إلىٰ الناس**»[١٧٢]. والسلام عليك. «التمس»؛ أي: طلب، وقال شيخ الإسلام: وكتبت عائشة إلىٰ معاوية، وروي أنها رفعته. «**من أرضىٰ الله بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضىٰ الناس بسخط الله، لم يغنوا عنه من الله شيئًا**»[١٧٣]. هذا لفظ المرفوع، ولفظ الموقوف: «**من أرضىٰ الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضىٰ عنه الناس، ومن أرضىٰ الناس بسخط الله، عاد حامده من الناس ذامًّا**»[١٧٤]. وهذا من أعظم الفقه في الدين؛ فإن من أرضىٰ الله بسخطهم كان قد اتقاه، وكان عبده الصالح، والله يتولىٰ الصالحين، والله كافٍ عبده: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق:٢، ٣]. والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض، وإذا تبينت العاقبة، ومن أرضىٰ الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا، وأما كون حامده ينقلب له ذامًّا فهذا يقع كثيرًا، ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوىٰ لا تحصل ابتداءً عند أهوائهم. وفي هذا الحديث بيان عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم علىٰ رضىٰ الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين كقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾[التوبة:٧٧] الآية.

---

(١٧٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: (٦٤)، برقم (٢٤١٤)، والقضاعي، برقم (٤٩٩) وغيرهما من حديث عائشة ﵂، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(١٧٣) أخرجه ابن حبان، برقم (٢٧٧)، والقضاعي، برقم (٥٠١)، وعبد بن حميد، برقم (١٥٢٤)

(١٧٤) أخرجه ابن الجعد، برقم (١٥٩٣)، بسند منقطع.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[آل عمران:١٧٥]»:

هذا الباب عقده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده، والنهي عن تعلقه بالمخلوقين، وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك. ولا بد في هذا الموضع من تفصيل، يتضح به الأمر، ويزول الاشتباه.

اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة، وتارة يقع طبيعة وعادة، وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته؛ فإن كان الخوف والخشية خوف تَأَلُّهٍ وَتَعَبُّدٍ وتقرب بذلك الخوف إلىٰ من يخافه، وكان يدعو إلىٰ طاعة باطنة وخوف سرِّي يزجر عن معصية من يخافه، كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر، الذي لا يغفره الله؛ لأنه أشرك في هذه العبادة التي هي من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله علىٰ خوفه لله.

وأيضًا فمن خشي الله وحده علىٰ هذا الوجه فهو مخلص موحد، ومن خشي غيره فقد جعله لله ندًّا في الخشية، كمن جعل لله ندًّا في المحبة.

وذلك كمن يخشىٰ من صاحب القبر أن يوقع به مكروهًا أو يغضب عليه، فيسلبه نعمة، أو نحو ذلك مما هو واقع من عُباد القبور.

وإن كان الخوف طبيعيًّا كمن يخشىٰ من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشىٰ ضرره الظاهري، فهذا النوع ليس عبادة، وقد يوجد من كثير من المؤمنين، ولا ينافي الإيمان. وهذا إذا كان خوفًا محققًا قد انعقدت أسبابه فليس بمذموم.

وإن كان هذا خوفًا وهميًّا: كالخوف الذي ليس له سبب أصلًا، أو له سبب ضعيف، فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء، وقد تعوذ ﷺ من الجبن،[١٧٥] فهو من الأخلاق الرذيلة؛ ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع، حتىٰ إن خواص المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمنًا وطمأنينة؛ لقوة إيمانهم وشجاعتهم الشجاعة القلبية، وكمال توكلهم؛ ولهذا أتبعه بهذا الباب.

---

(١٧٥) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من العجز والكسل وغيره، برقم (٢٧٠٦)، والترمذي، كتاب: الدعوات، باب: (٧١)، برقم (٣٤٨٥) وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]:

أراد المؤلف أن يبين وجوب خوف الله -تعالىٰ- خوفًا يحمله علىٰ الإخلاص له وأداء ما فرض عليه والوقوف عند حدوده، والخوف ثلاثة أقسام:

١- الخوف من الله:

وهو أعظمها وأوجبها ويجب فيه الإخلاص وصرفه لغيره شرك، شرك أن يخاف منها أن تصيبه بمكروه.

٢- خوف يحمل علىٰ فعل معصية الله وترك الواجب:

وهو الخوف من المخلوق وهو معصية وفيه نزل قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ ويحمله علىٰ ترك الجهاد؛ والواجب ألا يخاف الإنسان من المخلوق إلا خوفًا يحمله علىٰ ما شرعه الله وأباحه، ولا يحمله علىٰ المعاصي؛ فالخوف من المخلوق في الأشياء الحسية والطبيعية جائز لا بأس به فهو فطري ويشرع الحذر من مقتضاه، كالخوف من اللص فيغلق بابه أو يخاف من سبع فيحمل السلاح أو المرض ونحوها، والترجمة في النوع الثاني، وهو الذي حدث في أحد من بثِّ الشيطان الخوف في قلوب المؤمنين من الكافرين والتثبيط عن الجهاد فنهاهم الله وأمرهم بالثبات فنفر إليهم النبي بعد أحد ولم يحصل قتال لأنهم فروا.

٣- الخوف الطبيعي:

من اللص والسبع والمرض ونحوه.

وقوله:﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا الخوف الذي أوجبه الله ويستثنىٰ منه الخوف الطبيعي العادي.

❁ **قوله:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾:

هذا ذم لهم وهو أن بعض الناس إذا أوذي لم يصبر بل يحمله الخوف علىٰ فعل ما حرم الله وترك طاعة الله وما أمر به وهذا مذموم؛ لأن الواجب أن يتقي الله وإذا أوذي في الله أخذ بالأسباب الشرعية من طلب المحاكمة والشكوىٰ إلىٰ ولاة الأمور وغير ذلك.

❁ **قوله:** «وعن أبي سعيد مرفوعًا: إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله»:

أي من ضعف الإيمان أن تسخط الله لترضي الناس وأن تشكر الناس علىٰ النعمة التي ساقها الله إليك بواسطتهم والواجب أن تشكر الله، وإذا فعلوا معروفًا لك فإنهم يشكرون ويجازون لكن

الحمد كله لله وحده هو الذي هداهم وجعلهم يحسنون إليك، فيجب حمد الله أولًا وتخصيصه بذلك وتشكر المخلوقين على قدر إحسانهم ومعروفهم «**ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله**»(١٧٦) ولكن يكون حمد الله أعظم؛ لأنه هو المتسبب في ذلك فحرك قلوبهم إلى الإحسان إليك.

وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله: أي: تذم لأنهم لم يصنعوا لك الخير الذي لم يكتبه الله لك والواجب أن تسأل الله من فضله، وإذا كان حقك عندهم فإن الله لا يضيعه وسوف تأخذه يوم القيامة. وهذا لا يمنع أن يطالب الإنسان بحقه كحقه في الزكاة إن كان من أهلها، ولكن لا يذمهم من أجل عدم إعطائهم بل يذم من ذمه الله ويحمد من حمده الله؛ فذمهم لأنهم منعوا حق الله وفعلوا ما لا ينبغي لا من أجل أنهم لم يعطوك فلا تنتقم لنفسك.

۞ **قوله**: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره»:

أي: الذي لم يقدر لك لا يأتي بالحرص عليه بل عليك بأخذ الأسباب، ولكن إذا لم يحصل المطلوب فإنه لا يعجز وما قدره الله من الرزق لا يرده أحد ولو كره الناس.

۞ **قوله**: «وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ...»:

حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**من التمس رضى الله بسخط...**».

هذا يدل على أنه يجب على المسلم أن يلتمس رضى الله ويأخذ بالأسباب؛ لأنه إذا رضي الله حصل له كل خير وإذا سخط حصل له كل شر.

ولكن إرضاء الله لا يمنع من الأخذ بالأسباب التي تدفع سخط الناس وإيذائهم ولكن بدون سخط الله أما إذا كان يسخط الله فإنه لا يفعله ولا يخافهم ويتوكل على الله.

وفي رواية عن عائشة: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله، ومن التمس رضا الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا وعاد حامده له ذامًّا**».

قال العلامة ابن عثيمين:

۞ **قوله**: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]:

إن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أعقب باب المحبة بباب الخوف؛ لأن العبادة ترتكز على شيئين: المحبة، والخوف.

---

(١٧٦) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من العجز والكسل وغيره، برقم (٢٧٠٦)، والترمذي، كتاب: الدعوات، باب: (٧١)، برقم (٣٤٨٥) وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فبالمحبة يكون امتثال الأمر، وبالخوف يكون اجتناب النهي، وإن كان تارك المعصية يطلب الوصول إلىٰ الله، ولكن هذا من لازم ترك المعصية، وليس هو الأساس.

فلو سألت من لا يزني لماذا؟ لقال: خوفًا من الله.

ولو سألت الذي يصلي؛ لقال: طمعًا في ثواب الله ومحبة له.

وكل منهما ملازم للآخر؛ فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول إلىٰ رحمته.

وهل الأفضل للإنسان أن يُغلِّب جانب الخوف أو يغلِّب جانب الرجاء؟

اختلف في ذلك:

فقيل: ينبغي أن يغلِّب جانب الخوف؛ ليحمله ذلك علىٰ اجتناب المعصية ثم فعل الطاعة.

وقيل: يغلِّب جانب الرجاء؛ ليكون متفائلًا والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل.

وقيل: في فعل الطاعة: يغلِّب جانب الرجاء؛ فالذي مَنَّ عليه بفعل هذه الطاعة سيَمُنُّ عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: إذا وفقك الله للدعاء؛ فانتظر الإجابة؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]، وفي فعل المعصية يغلب جانب الخوف؛ لأجل أن يمنعه منها ثم إذا خاف من العقوبة تاب. وهذا أقرب شيء، ولكن ليس بذاك القرب الكامل؛ لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[المؤمنون:٦٠]؛ أي: يخافون أن لا يقبل منهم، لكن قد يقال بأن هذه الآية يعارضها أحاديث أخرىٰ؛ كقوله ﷺ في الحديث القدسي عن ربه: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني**»(١٧٧)

وقيل: في حال المرض يغلِّب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف؛ فهذه أربعه أقوال.

وقال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا؛ فأيهما غلب هلك صاحبه؛ أي: يجعلهما كجناحي الطائر، والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط.

وخوف الله تعالىٰ درجات؛ فمن الناس من يغلو في خوفه، ومنهم من يفرّط، ومنهم من يعتدل في خوفه.

---

(١٧٧) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالىٰ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، برقم (٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: الحث علىٰ ذكر الله تعالىٰ، برقم (٢٦٧٥) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والخوف العدل هو الذي يَرُد عن محارم الله فقط، وإن زدت علي هذا؛ فإنه يوصلك إلىٰ اليأس من روح الله.

ومن الناس من يفرّط في خوفه بحيث لا يردعه عما نهىٰ الله عنه.

والخوف أقسام:

الأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع، وهو ما يسمىٰ بخوف السر.

وهذا لا يصلح إلا لله -سبحانه- فمن أشرك فيه مع الله غيره؛ فهو مشرك شركًا أكبر، وذلك مثل: مَن يخاف من الأصنام أو الأموات، أو من يزعمونهم أولياء ويعتقدون نفعهم وضرهم؛ كما يفعله بعض عُباد القبور: يخاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله.

الثاني: الخوف الطبيعي والجبلي؛ فهذا في الأصل مباح؛ لقوله تعالىٰ عن موسىٰ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[القصص:٢١]، وقوله عنه أيضًا: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[القصص:٣٣]، لكن إن حمل علىٰ ترك واجب أو فعل محرم؛ فهو محرم، وإن استلزم شيئًا مباحًا كان مباحًا، فمثلًا: من خاف من شيء لا يؤثر عليه وحمله هذا الخوف علىٰ ترك صلاة الجماعة مع وجوبها؛ فهذا الخوف محرم، والواجب عليه أن لا يتأثر به.

وإن هدده إنسان علىٰ فعل محرم، فخافه وهو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به، فهذا خوف محرم؛ لأنه يؤدي إلىٰ فعل محرم بلا عذر، وإن رأىٰ نارًا ثم هرب منها ونجا بنفسه؛ فهذا خوف مباح، وقد يكون واجبًا إذا كان يتوصل به إلىٰ إنقاذ نفسه.

وهناك ما يسمىٰ بالوهم وليس بخوف، مثل أن يرىٰ ظل شجرة تهتز، فيظن أن هذا عدو يتهدده؛ فهذا لا ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك، بل يطارد هذه الأوهام لأنه لا حقيقة لها، وإذا لم تطاردها؛ فإنها تهلكك.

مناسبة الخوف للتوحيد: إن من أقسام الخوف ما يكون شركًا منافيًا للتوحيد.

وقد ذكر المؤلف فيه ثلاث آيات:

أولها: ما جعلها ترجمة للباب، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[آل عمران:١٧٥].

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾: صيغة حصر، والمشار إليه التخويف من المشركين.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾: ذا: مبتدأ، ﴿الشَّيْطَانُ﴾: يحتمل أن يكون خبر المبتدأ، وجملة ﴿يُخَوِّفُ﴾ حال من الشيطان.

ويحتمل أن يكون ﴿الشَّيْطَانُ﴾ صفة لـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أو عطف بيان، و ﴿يُخَوِّفُ﴾: خبر المبتدأ، والمعنىٰ: ما هذا التخويف الذي حصل إلا من شيطان يخوف أولياءه.

و ﴿يُخَوِّفُ﴾ تنصب مفعولين، الأول محذوف تقديره: يخوفكم، والمفعول الثاني: ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾.

ومعنىٰ يخوفكم؛ أي: يوقع الخوف في قلوبكم منهم، و ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾؛ أي: أنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بذلك؛ فكل من نصر الفحشاء والمنكر، فهو من أولياء الشيطان، ثم قد يكون النصر في الشرك وما ينافي التوحيد؛ فيكون عظيمًا وقد يكون دون ذلك.

وقوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ من ذلك ما وقع في الآية التي قبلها، حيث قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾[آل عمران:١٧٣]؛ وذلك ليصدوهم عن واجب من واجبات الدين، وهو الجهاد، فيخوفونهم بذلك، وكذلك ما يحصل في نفس من أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهىٰ عن المنكر، فيخوفه الشيطان ليصده عن هذا العمل، وكذلك ما يقع في قلب الداعية.

والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، فإذا ألقىٰ الشيطان في نفسك الخوف؛ فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام علىٰ كلمة الحق ليس هو الذي يدني الأجل، وليس السكوت والجبن هو الذي يبعد الأجل؛ فكم من داعية صدع بالحق ومات علىٰ فراشه؟! وكم من جبان قتل في بيته؟!

وانظر إلىٰ خالد بن الوليد، كان شجاعًا مقدامًا ومات علىٰ فراشه، وما دام الإنسان قائمًا بأمر الله؛ فليثق بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وحزب الله هم الغالبون.

قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾: لا ناهية، والهاء ضمير يعود علىٰ أولياء الشيطان، وهذا النهي للتحريم بلا شك؛ أي: بل امضوا فيما أمرتكم به وفيما أوجبته عليكم من الجهاد، ولا تخافوا هؤلاء، وإذا كان الله مع الإنسان؛ فإنه لا يغلبه أحد، لكن نحتاج في الحقيقة إلىٰ صدق النية والإخلاص والتوكل التام، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وعُلم من هذه الآية أن للشيطان وساوس يلقيها في قلب ابن آدم منها التخويف من أعدائه، وهذا ما وقع فيه كثير من الناس، وهو الخوف من أعداء الله فكانوا فريسة لهم، وإلا لو اتكلوا علىٰ الله وخافوه قبل كل شيء لخافهم الناس؛ ولهذا قيل في المثل: مَن خاف الله خافه كل شيء، ومن اتقىٰ الله اتقاه كل شيء، ومن خاف من غير الله خاف من كل شيء.

ويفهم من الآية أن الخوف من الشيطان وأوليائه منافٍ للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلىٰ الشرك؛ فهو منافٍ لأصله، وإلا؛ فهو منافٍ لكماله.

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ﴾. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، والمراد بالعمارة: العمارة المعنوية، وهي عمارتها بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحوها، وكذلك الحسية بالبناء الحسي؛ فإن عمارتها به حقيقة لا تكون إلا ممن ذكرهم الله؛ لأن من يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر لم يعمرها حقيقة؛ لعدم انتفاعه بهذه العمارة؛ فالعمارة النافعة الحسية والمعنوية من الذين آمنوا بالله واليوم الأخر؛ ولهذا لما افتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، وأضاف سبحانه المساجد إلىٰ نفسه تشريفًا؛ لأنها موضوع عبادته.

قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: ﴿مَنْ﴾: فاعل يعمر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور، وهي: **الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.**

واليوم الآخر: هو يوم القيامة، وسُمي بذلك؛ لأنه لا يوم بعده.

قال شيخ الإسلام: ويدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت مثل فتنة القبر وعذابه ونعيمه؛ لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامته وارتحل إلىٰ دار الجزاء.

ويقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر كثيرًا؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان إلىٰ الامتثال، فإنه إذا آمن أن هناك بعثًا وجزاءً؛ حمله ذلك علىٰ العمل لذلك اليوم، ولكن من لا يؤمن باليوم الآخر لا يعمل؛ إذ كيف يعمل لشيء وهو لا يؤمن به؟!

قوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أتىٰ بها علىٰ وجه قويم لا نقص فيه، **والإقامة نوعان:**

إقامة واجبة: وهي التي يقتصر فيها علىٰ فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات.

وإقامة مستحبة: وهي التي يزيد فيها علىٰ فعل ما يجب فيأتي بالواجب والمستحب.

قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: ﴿وَءَاتَى﴾ تنصب مفعولين: **الأول هنا الزكاة،**

والثاني: محذوف: تقديره مستحقها.

والزكاة: هي المال الذي أوجبه الشارع في الأموال الزكوية وتختلف مقاديرها حسب ما تقتضيه حكمة الله ﷻ.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: في هذه الآية حصر طريقة الإثبات والنفي.

﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ نفي، ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إثبات، والمعنىٰ: أن خشيته انحصرت في الله ﷻ؛ فلا يخشىٰ غيره.

والخشية نوع من الخوف، لكنها أخص منه، والفرق بينهما:

١ – أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي وحاله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، والخوف قد يكون من الجاهل.

٢ – أن الخشية تكون بسبب عظمة المخشي، بخلاف الخوف؛ فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخُوف.

قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾: قال ابن عباس: «عسىٰ من الله واجبة»[(١٧٨)]، وجاءت بصيغة الترجي؛ لئلا يأخذ الإنسان الغرور بأنه حصل علىٰ هذا الوصف، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٩٨ – ٩٩]؛ فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فالذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا جديرون بالعفو.

الشاهد من الآية: قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، ومن علامات صدق الإيمان أن لا يخشىٰ إلا الله في كل ما يقول ويفعل.

ومن أراد أن يصحح هذا المسير، فليتأمل قول الرسول ﷺ: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»**[(١٧٩)].

الآية الثالثة قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، و ﴿مِنَ﴾ تبعيضية.

وقوله: ﴿مَن يَقُولُ﴾: ﴿مَن﴾: مبتدأ مؤخر، والمراد بهؤلاء: من لا يصل الإيمان إلىٰ قرارة قلبه، فيقول: آمنا بالله، لكنه إيمان متطرف، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١]، ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾؛ أي: علىٰ طرف.

فإذا امتحنه الله بما يُقدرُ عليه من إيذاء الأعداء في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله.

قوله: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾. ﴿فِى﴾: للسببية؛ أي: بسبب الإيمان بالله وإقامة دينه، ويجوز أن تكون ﴿فِى﴾ للظرفية علىٰ تقدير: «فإذا أوذي في شرع الله»؛ أي: إيذاء في هذا الشرع الذي تمسك به.

---

(١٧٨) أخرجه الطبراني (١٠/ ٩٤).

(١٧٩) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (٥٩)، برقم (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣)، والطبراني (١٢/ ٢٣٨) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾: ﴿جَعَلَ﴾: صيَّر، والمراد بالفتنة هنا الإيذاء، وسُمي فتنة؛ لأن الإنسان يفتتن به، فيَصد عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾[البروج:١٠] وإضافة الفتنة إلى الناس من باب إضافة المصدر إلى فاعله.

قوله: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾: ومعلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله، فيوافق أمره؛ فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله؛ فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم جعلًا لهذه الفتنة كالعذاب؛ فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله؛ لأنه جعل إيذاءهم كعذاب الله، ففر منه بموافقة أمرهم؛ فالآية موافقة للترجمة.

وفي هذه الآية من الحكمة العظيمة، وهي ابتلاء الله للعبد لأجل أن يمحص إيمانه، وذلك على قسمين:

الأول: ما يقدره الله نفسه على العبد، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾[الحج:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة:١٥٥، ١٥٦].

الثاني: ما يقدره الله على أيدي الخلق من الإيذاء امتحانًا واختبارًا، وذلك كالآية التي ذكر المؤلف.

وبعض الناس إذا أصابته مصائب لا يصبر، فيكفر ويرتد أحيانًا - والعياذ بالله - وأحيانًا يكفر بها خالف فيه أمر الله ﷻ في موقفه في تلك المصيبة، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصًا عظيمًا؛ فليكن المسلم على حذر، فالله حكيم يمتحن عباده بما يتبين به تحقق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد:٣١].

قوله: «الآية»؛ أي: إلى آخر الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

كانوا يدعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان، فإذا انتصر المسلمون قالوا: نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنيمة وغيرها.

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل في مثل هذا السياق: إن الواو عاطفة على محذوف يُقدر بحسب ما يقتضيه السياق.

وقيل: إنها عاطفة على ما سبقها على تقدير أن الهمزة بعدها؛ أي: وأليس الله؟

قوله: ﴿أعلم﴾ مجرور بالفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل؛ فالله أعلم بما في صدور العالمين؛ أي: بما في صدور الجميع؛ فالله أعلم بما في نفسك منك، وأعلم بما في نفس غيرك؛ لأن علم الله عام.

وكلمة ﴿أعلم﴾: اسم تفضيل، وقال بعض المفسرين ولا سيما المتأخرون منهم: ﴿أعلم﴾ بمعنىٰ: عالم؛ وذلك فرارًا من أن يقع التفضيل بين الخالق والمخلوق، وهذا التفسير الذي ذهبوا إليه ذهبوا إليه كما أنه خلاف اللفظ؛ ففيه فساد المعنىٰ؛ لأنك إذا قلت: أعلم بمعنىٰ عالم، فإن كلمة عالم تكون لإنسان وتكون لله، ولا تدل علىٰ التفاضل؛ فالله عالم والإنسان عالم.

وأما تحريف اللفظ فهو ظاهر؛ حيث حرفوا اسم التفضيل الدال علىٰ ثبوت المعنىٰ وزيادة إلىٰ اسم فاعل لا يدل علىٰ ذلك.

والصواب أن ﴿أعلم﴾ علىٰ بابها، وأنها اسم تفضيل، وإذا كانت اسم تفضيل فهي دالة دلالة واضحة علىٰ عدم تماثل علم الخالق وعلم المخلوق، وأن علم الخالق أكمل.

وقوله: ﴿بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المراد بالعالمين: كل من سوىٰ الله؛ لأنهم عَلَم علىٰ خالقهم، فجميع المخلوقات دالة علىٰ كمال الله وقدرته وربوبيته.

والله أعلم بنفسك منك ومن غيرك، لعموم الآية. وفي الآية تحذير من أن يقول الإنسان خلاف ما في قلبه؛ ولهذا لَمَّا تخلف كعب بن مالك في غزوة تبوك قال للرسول ﷺ حين رجع: «إنى قد أوتيت جدلًا، ولو جلست إلىٰ غيرك من ملوك الدنيا لخرجت منهم بعذر، لكن لا أقول شيئًا تعذرني فيه فيفضحني الله فيه»(١٨٠).

الشاهد من الآية قوله: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ فخاف الناس مثل خوف الله تعالىٰ.

❁ **قوله:** «**في حديث أبي سعيد: إن من ضعف اليقين**»:

«**من**»: للتبعيض، والضعف ضد القوة، ويقال: ضَعفٌ بفتح الضاد أو ضُعف بضم الضاد، وكلاهما بمعنىٰ واحد؛ أي: من علامة ضعف اليقين.

قوله: «**أن ترضي الناس**»: «**أن ترضي**»: اسم إن مؤخر، و«**من ضعف اليقين**» خبرها مقدم والتقدير: إن إرضاء الناس بسخط الله من ضعف اليقين.

قوله: «**بسخط الله**»: الباء للعِوَض؛ يعني: أي: تجعل عوض إرضاء الناس سخط الله، فتستبدل هذا بهذا، فهذا من ضعف اليقين.

---

(١٨٠) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (٥٩)، برقم (٢٥١٦)، وأحمد(١/ ٢٩٣)، والطبراني (١٢/ ٢٣٨) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

واليقين أعلىٰ درجات الإيمان، وقد يراد به العلم، كما تقول: تيقنت هذا الشيء؛ أي: علمته يقينًا لا يعتريه الشك؛ فمن ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله؛ إذ إنك خفت الناس أكثر مما تخاف الله، وهذا مما ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم؛ فتجد الإنسان يجيء إلىٰ شخص فيمدحه، وقد يكون خاليًا من هذا المدح، ولا يُبين ما فيه من عيوب، وهذا من النفاق وليس من النصح والمحبة، بل النصح أن تُبين له عيوبه ليتلافاها ويحترز منها، ولا بأس أن تذكر له محامده تشجيعًا إذا أُمِن في ذلك من الغرور.

قوله: «وأن تحمدهم علىٰ رزق الله»: الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، ولكنه هنا ليس بشرط المحبة والتعظيم؛ لأنه يشمل المدح.

و **«رزق الله»**: عطاء الله؛ أي: إذا أعطوك شيئًا حمدتهم ونسيت المسبِّب وهو الله، والمعنىٰ: أن تجعل الحمد كله لهم متناسيًا بذلك المسبب، وهو الله؛ فالذي أعطاك سبب فقط، والمعطي هو الله؛ ولهذا قال النبيﷺ: **«إنما أنا قاسم والله يعطي»**(١٨١).

أما إن كان في قلبك أن الله هو الذي منَّ عليك بسياق هذا الرزق، ثم شكرت الذي أعطاك؛ فليس هذا داخلًا في الحديث، بل هو من الشرع، لقولهﷺ: **«من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه»**(١٨٢).

إذن الحديث ليس علىٰ ظاهره من كل وجه؛ فالمراد بالحمد: أن تحمدهم الحمد المطلق ناسيًا المُسبب وهو اللهﷻ، وهذا من ضعف اليقين، كأنك نسيت المنعم الأصلي، وهو اللهﷻ، الذي له النعمة الأولىٰ، وهو سفه أيضًا؛ لأن حقيقة الأمر أن الذي أعطاك هو الله، فالبشر الذي أعطاك هذا الرزق لم يخلق ما أعطاك؛ فالله هو الذي خلق ما بيده، وهو الذي عَطَّفَ قلبه حتىٰ أعطاك، أرأيت لو أن إنسانًا له طفل، فأعطىٰ طفله ألف درهم وقال له: أعطها فلانًا، فالذي أخذ الدراهم يحمد الأب؛ لأنه لو حمد الطفل فقط لعدَّ هذا سفهًا؛ لأن الطفل ليس إلا مرسلًا فقط، وعلىٰ هذا فنقول: إنك إذا حمدتهم ناسيًا بذلك ما يجب لله من الحمد والثناء؛ فهذا هو الذي من ضعف اليقين، أما إذا حمدتهم علىٰ أنهم سبب من الأسباب، وأن الحمد كله للهﷻ، فهذا حق، وليس من ضعف اليقين.

---

(١٨١) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين، برقم (٧١)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: النهي عن المسألة، برقم (١٠٣٧) وغيرهما من حديث معاوية رضي الله عنه.

(١٨٢) سبق تخريجه.

قوله: «وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله»: هذه عكس الأولى، فمثلًا: لو أن إنسانًا جاء إلى شخص يوزع دراهم، فلم يعطه، فسبه وشتمه؛ فهذا من الخطأ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لكن من قَصَّر بواجب عليه؛ فَيُذَم لأجل أنه قصر بالواجب لا لأجل أنه لم يعط؛ فلا يذم من حيث القدر؛ لأن الله لو قَدَّر ذلك لوجدت الأسباب التي يصل بها إليك هذا العطاء.

وقوله: «ما لم يؤتك»: علامة جزمه حذف الياء، والمفعول الثاني محذوف؛ لأنه فضلة، والتقدير: ما لم يؤتكه.

قوله: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره» هذا تعليل؛ لقوله: «أن تحمدهم وأن تذمهم».

و«رزق الله»: عطاؤه، لكن حرص الحريص من سببه بلا شك، فإذا بحث عن الرزق وفعل الأسباب فإنه يكون فعل الأسباب الموجبة للرزق، لكن ليس المعنى أن هذا السبب موجب مستقل، وإنما الذي يرزق هو الله تعالى، وكم من إنسان يفعل أسبابًا كثيرة للرزق ولا يُرْزَق، وكم من إنسان يفعل أسبابًا قليلةً فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعي، كما لو وجد ركازًا في الأرض أو مات له قريب غني يرثه، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: «ولا يرده كراهية كاره»؛ أي: أن رزق الله إذا قُدر للعبد؛ فلن يمنعه عنه كراهية كاره؛ فكم من إنسان حسده الناس، وحاولوا منع رزق الله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا.

❁ **قوله: «في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: من التمس رضا الله بسخط الناس»:**

«التمس»: طلب، ومنه قوله ﷺ في ليلة القدر: «التمسوها في العشر»(١٨٣)

وقوله: «رضا الله»؛ أي: أسباب رضاه، وقوله: «بسخط الناس»: الباء للعِوَض؛ أي: بأنه طلب ما يرضي الله ولو سخط الناس به بدلًا من هذا الرضا، وجواب الشرط: «رضي الله عنه وأرضى عنه الناس».

وقوله: « رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»: هذا ظاهر، فإذا التمس العبد رضا ربه بنيَّةٍ صادقة رضي الله عنه؛ لأنه أكرم من عبده، وأرضى عنه الناس، وذلك بما يلقي في قلوبهم من الرضا عنه ومحبته؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

---

(١٨٣) أخرجه البخاري، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، برقم (٢٠١٦) وغيره من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله»: «التمس»: طلب؛ أي: طلب ما يرضي الناس، ولو كان يسخط الله؛ فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده؛ لهذا قال: «سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»؛ فألقىٰ في قلوبهم سخطه وكراهيته.

قوله: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله»؛ أي: خوفًا منهم حتىٰ يرضوا عنه؛ فقدم خوفهم علىٰ مخافة الله تعالىٰ.

فيستفاد من الحديث ما يلي:

١- وجوب طلب ما يرضي الله وإن سخط الناس؛ لأن الله هو الذي ينفع ويضر.

٢- أنه لا يجوز أن يلتمس ما يسخط الله من أجل إرضاء الناس كائنًا من كان.

٣- إثبات الرضا والسخط لله علىٰ وجه الحقيقة، لكن بلا مماثلة للمخلوقين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورىٰ:١١]، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وأما أهل التعطيل؛ فأنكروا حقيقة ذلك، قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الإنتقام، وهذا لا يليق بالله، وهذا خطأ؛ لأنهم قاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق، فنرد عليهم بأمرين: بالمنع، ثم النقض:

فالمنع: أن نمنع أن يكون معنىٰ الغضب المضاف إلىٰ الله ﷻ كغضب المخلوقين.

والنقض: فنقول للأشاعرة: أنتم أثبتم لله ﷻ الإرادة، وهي ميل النفس إلىٰ جلب منفعة أو دفع مضرة، والرب ﷻ لا يليق به ذلك، فإذا قالوا: هذه إرادة المخلوق. نقول: والغضب الذي ذكرتم هو غضب المخلوق، وكل إنسان أبطل ظواهر النصوص بأقيسة عقلية، فهذه الأقيسة باطلة لوجوه:

الأول: أنها تبطل دلالة النصوص، وهذا يقتضي أن تكون هي الحق، ومدلول النصوص باطل، وهذا ممتنع.

الثاني: أنه تَقَوُّلٌ علىٰ الله بغير علم؛ لأن الذي يبطل ظاهر النص يُؤَوِّله إلىٰ معنىٰ آخر؛ فيقال له: ما الذي أدراك أن الله أراد هذا المعنىٰ دون ظاهر النص؟ ففيه تقول علىٰ الله في النفي والإثبات في نفي الظاهر، وفي إثبات ما لم يدل عليه دليل.

الثالث: أن فيه جناية علىٰ النصوص، حيث اعتقد أنها دالة علىٰ التشبيه؛ لأنه لم يعطل إلا لهذا السبب؛ فيكون ما فهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كفرًا أو ضلالًا.

الرابع: أن فيها طعنًا في الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين؛ لأننا نقول: هذه المعاني التي صرفتم النصوص إليها هل الرسول ﷺ وخلفاؤه يعلمون بها أم لا؟

فإن قالوا: لا يعلمون؛ فقد اتهموهم بالقصور، وإن قالوا: يعلمون ولم يبينوها؛ فقد اتهموهم بالتقصير. فلا تستوحش من نص دل علىٰ صفة أن تثبتها، لكن يجب عليك أن تجتنب أمرين هما: التمثيل والتكييف؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾[النحل:٧٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء:٣٦]، فإذا أثبت الله لنفسه وجهًا أو يدين؛ فلا تستوحش من إثبات ذلك؛ لأن الذي أخبر به عن نفسه أعلم بنفسه من غيره وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا، وهو يريد لخلقه الهداية، وإذا أثبت رسوله ذلك له؛ فلا تستوحش من إثباته؛ لأنه ﷺ: أصدق الخلق، وأعلمهم بما يقول عن الله، وأبلغهم نطقًا وفصاحة، وأنصح الخلق للخلق.

فمن أنكر صفة أثبتها الله لنفسه أو أثبتها له رسوله، وقال: هذا تقشعر منه الجلود وتنكره القلوب؛ فيقال: هذا لا ينكره إلا إنسان في قلبه مرض، أما الذين آمنوا فلا تنكره قلوبهم، بل تؤمن به وتطمئن إليه، ونحن لم نُكلَّفَ إلا بما بَلَغَنا، والله يريد لعباده البيان والهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[النساء:٢٦]؛ فهو لا يريد أن يعمي عليهم الأمر، فيقول: إنه يغضب وهو لا يغضب، وقوله: إنه يهرول وهو لا يهرول، هذا خلاف البيان.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير آية آل عمران: وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وسبق.

الثانية: تفسير آية براءة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، وسبق.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت. وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، وقد تكلمنا علىٰ تفسيرها فيما سبق.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوىٰ: تؤخذ من الحديث: «**إن من ضعف اليقين ...**» الحديث.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث، وهي: أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم علىٰ رزق الله، وأن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض: وتؤخذ من قوله في الحديث: «من التمس...» الحديث، ووجهه ترتيب العقوبة علىٰ من قَدَّم رضا الناس علىٰ رضا الله تعالىٰ.

السابعة: ذكر ثواب من فعله: وهو رضا الله عنه، وأنه يرضي عنه الناس، وهو العاقبة الحميدة.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه: وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس، ولا ينال مقصوده.

وخلاصة الباب:

أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف، وأن لا يبالي بأحد في شريعة الله تعالىٰ، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالىٰ وإن سخط الناس عليه؛ فالعاقبة له، وإن التمس رضا الناس وتعلق بهم وأسخط الله؛ انقلبت عليه الأحوال، ولم ينل مقصوده، بل حصل له عكس مقصوده، وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ...﴾[آل عمران:١٧٥]»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّه لَمَّا كان الخوف من أجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالىٰ، نبَّه المصنف بهذا الباب علىٰ وجوب إخلاصه لله.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: علمٌ علىٰ إبليس اللعين.

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾؛ أي: يخوِّفُكُم بأوليائه ويوهمكم أنَّهم ذوو بأسٍ شديدٍ.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾؛ أي: لا تخافوا أولياءه الذين خوفكم إياهم.

﴿وَخَافُونِ﴾: فلا تخالفوا أمري.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: لأنَّ الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله علىٰ خوف الناس.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر تعالىٰ أنَّ من كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه؛ لئلا يجاهدوهم ولا يأمروهم بمعروفٍ ولا ينهوهم عن منكرٍ، ونهانا أن نخافهم، وأمرنا أن نخافه وحده؛ لأنَّ هذا هو مقتضىٰ الإيمان، فكلَّما قوي إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكُلَّما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم.

ما يستفاد من الآية:

١- أنَّ الخوف عبادة يجب إخلاصه لله.

٢- أنَّ صرفَ الخوف لغير الله شرك، كأن يخاف من غير الله من وثنٍ أو طاغوتٍ أن يصيبه بما يكره.

٣- التحذير من كيد الشيطان.

❁ قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾:

تمام الآية: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[العنكبوت:١٠].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾؛ أي: بعض الناس.

﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾؛ أي: يدَّعي الإيمان بلسانه.

﴿أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ ﴾؛ أي: لأجل الله جلَّ وعلا.

﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ ﴾: أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه.

﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾: أي: جعل أذىٰ الناس الذي يناله بسبب تمسكه بدينه، كعذاب الله الذي يناله علىٰ ارتداده عن دينه، ففرَّ من ألم أذىٰ الناس إلىٰ ألم عذاب الله فارتد عن دينه.

﴿نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾: فتح وغنيمة.

﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾: في الدين فأشركونا في الغنيمة.

﴿بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: بما في قلوبهم من الإيمان والنفاق.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر تعالىٰ عن الداخل في الإيمان بلا بصيرةٍ أنَّه إذا أصابته محنةٌ وأذًىٰ من الكفار جعل هذا الأذىٰ - الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم - جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي ناله من أجله كعذاب الله الذي فرَّ منه المؤمنون، ففرَّ من ألم عذاب أعداء الله في تركه دينه إلىٰ عذاب الله، فاستجار من الرمضاء بالنار. وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم والله عليم بما انطوىٰ عليه صدره من النفاق.

مناسبة الآية للباب:

أنَّها أفادت أنَّ الخوف من الناس أن ينالوه بما يكره بسبب الإيمان بالله من جملة الخوف من غير الله المستلزم لضعف الإيمان.

ما يستفاد من الآية:

١-أنَّ الخوف من أذىٰ الناس بسبب الإيمان خوف من غير الله.

٢- وجوب الصبر علىٰ الأذىٰ في سبيل الله.

٣- دناءة همَّة المنافقين.

٤- إثبات علم الله تعالىٰ.

❁ قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾:

تمام الآية: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[التوبة:١٨].

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنما تستقيم عمارتها بالعبادة والطاعة.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ...﴾؛ أي: الجامعين للكمالات العلمية والعملية.

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: الخشية هي: المخافة والهيبة، والمراد بالخشية هنا؛ أي: خشية التعظيم والعبادة والطاعة. أما الخشية الجبلية كخشية المحاذير الدنيوية فلا يكاد أحدٌ يسلم منها. وينبغي أن يخشىٰ في ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المتصفون بهذه الصفات.

﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: أولئك هم المهتدون، وكل «عسىٰ» من الله فهي واجبة.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

لَمَّا نفىٰ تعالىٰ عمارة المساجد المعنوية بالعبادة عن المشركين في الآية التي قبلها، أثبت في هذه الآية عمارتها بالعبادة للمؤمنين الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، وداوموا علىٰ إقام الصلاة بأركانها، وواجباتها وسننها، وأعطوا الزكاة مستحقِّيها، وأخلصوا لله الخشية وهي المخافة والهيبة.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها وجوب إخلاص الخشية؛ أي: الخوف والهيبة التي هي أساس العبادة لله وحده.

ما يستفاد من الآية:

١- وجوب إخلاص الخشية لله وحده.

٢- أنَّ الشرك لا ينفع معه عمل.

٣- أنَّ عمارة المساجد إنَّما تكون بالطاعة والعمل الصالح لا بمجرد البناء.

٤- الحث علىٰ عمارة المساجد حسيًّا ومعنويًّا.

❁ قوله: «ضعف»:

بضم الضاد وفتحها ضد القوة والصحة.

«اليقين»: ضد الشك هو: كمال الإيمان.

«ترضي الناس بسخط الله»؛ أي: تؤثر رضاهم علىٰ رضا الله.

«وأن تحمدهم»؛ أي: تشكرهم وتثني عليهم.

«علىٰ رزق الله»؛ أي: ما وصل منه إليك علىٰ أيديهم بأن تضيفه إليهم وتنسىٰ المنعم المتفضل.

«وأن تذمَّهم علىٰ ما لم يؤتك الله»؛ أي: إذا طلبتهم شيئًا فمنعوك ذمَمْتَهُم علىٰ ذلك.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يبين ﷺ في هذا الحديث ما ينبغي أن يكون عليه المسلم، من قوة الثقة بالله، والتوكل عليه، واعتقاد أنَّ كُلَّ شيءٍ بتدبيره ومشيئته، ومن ذلك الأسباب إذا شاء الله رتب عليها نتائجها فأدت المطلوب بها، وإن شاء منعها من أداء نتائجها - وكل ذلك راجعٌ إلىٰ الله فهو المحمود علىٰ السراء والضراء والشدة والرخاء - وهذا هو كمال اليقين، وأما من تعلَّق قلبه بالناس ومال مع الأسباب فإن نال شيئًا من الخير علىٰ أيدي الناس مدحهم، وإن لم ينل مراده ذمَّهم ولامهم فهذا قد ضعف يقينه واختلَّ توكله علىٰ الله، ثم ختم ﷺ الحديث بما يؤكد ويوضح ما قرَّره في أوله بأَنّ العطاء والمنع يجريان بأمر الله وحسب حكمته ولا يرجعان إلىٰ حرص العبد أو كراهته.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه وجوب تعلق القلب بالله في جلب النفع، ودفع الضرِّ، وخوفه وخشيته وحده، وعدم الالتفات إلىٰ الخلق بمدحٍ أو ذمٍّ علىٰ ما يحصل من الإعطاء والمنع.

ما يستفاد من الحديث:

١- وجوب التوكل علىٰ الله وخشيته وطلب الرزق منه.

٢- إثبات القضاء والقدر.

٣- عدم الاعتماد علىٰ الأسباب.

٤- تقديم رضا الله علىٰ رضا المخلوق.

❁ **قوله**: «التمس»: طلب.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يبين ﷺ الطريق الذي يحصل به رضا الله، ورضا الناس، والطريق الذي يحصل به سخط الله، وسخط الناس؛ وذلك أنَّ الناس لقصور معرفتهم بالعواقب وغلبة المؤثرات عليهم، قد تتعارض رغبتهم مع ما شرعه الله مما فيه صلاحهم عاجلًا وآجلًا، وهنا يتميز موقف المؤمن الصحيح الإيمان من موقف مزعزع الإيمان. فالمؤمن يؤثر رضا الله علىٰ رضا الناس، فيستمر مع شرع الله لا تأخذه في الله لومة لائم، فيتولاه الله بنصره؛ لأنه قد اتقىٰ الله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[الطلاق:٢].

ومزعزع الإيمان يؤثر رضا الناس علىٰ رضا الله فيحقق لهم مطلوبهم، وإن كان مخالفًا لما شرعه الله، وهذا في الحقيقة قد خاف الناس ولم يخف الله، وسينعكس عليه مراده فينقلب حامده في الناس ذامًّا، ولن يغنوا عنه من الله شيئًا، فضرّ نفسه وضرَّ من أراد نفعهم بمعصية الله.

مناسبة الحديث للباب:
أنَّ فيه وجوب خشية الله وتقديم رضاه علىٰ رضا المخلوق.

ما يستفاد من الحديث:

١- وجوب خشية الله وتقديم رضاه علىٰ رضا خلقه.

٢- بيان عقوبة من آثر رضا الناس علىٰ رضا الله.

٣- وجوب التوكل علىٰ الله والاعتماد عليه.

٤- بيان ما في تقديم رضا الله من العواقب الحميدة وما في تقديم رضا الناس علىٰ رضا الله من العواقب السيئة.

٥- أنَّ قلوب العباد بيد الله سبحانه.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[آل عمران:١٧٥]»:

هذا الباب في بيان عبادة الخوف، ومناسبته لكتاب التوحيد ظاهرة، وهي أن خوف العبد من الله -جل وعلا- عبادة من العبادات التي أوجبها الله -جل وعلا- فالخوف والمحبة والرجاء عبادات قلبية واجبة، وتكميلها تكميل للتوحيد، والنقص فيها نقص لكمال التوحيد.

والخوف من غير الله -جل وعلا- ينقسم إلىٰ ما هو شرك، وإلىٰ ما هو محرم، وإلىٰ ما هو مباح، فهذه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الخوف الشركي، وهو خوف السر، يعني: أن يخاف في داخله من هذا المخوف منه، وخوفه لأجل ما عند هذا المخوف منه ما يرجوه أو يخافه من أن يمسه سرًّا بشيء، أو أنه يملك له في آخرته ضرًّا أو نفعًا، فالخوف الشركي متعلق في الدنيا بخوف السر، بأن يخاف أن يصيبه ذلك الإله بشر وذلك شرك.

والخوف المتعلق بالآخرة، معناه أن يخاف العبد غير الله ويتعلق خوفه بغير الله من ألّا ينفعه ذلك الإله في الآخرة، فلأجل رغبة في أن ينفعه ذلك الإله في الآخرة وأن يشفع له، وأن يقربه منه في الآخرة، وأن يبعد عنه العذاب في الآخرة، خاف منه فأنزل خوفه به.

فالخوف من العبادات العظيمة التي يجب أن يُفرد الله -جل وعلا- بها وسيأتي مزيد تفصيل لذلك.

والقسم الثاني: الخوف المحرم، وهو أن يخاف من مخلوق في امتثال واجب، أو البعد عن المحرم، مما أوجبه الله أو حرمه، كأن يخاف من مخلوق في أداء فرض من فرائض الله، أو في أداء

واجب من الواجبات، فلا يصلي خوفًا من مخلوق، ولا يحضر الجماعة خوفًا من ذم المخلوق له أو استنقاصه له، فهذا محرم، قال بعض العلماء: وهو نوع من أنواع الشرك؛ لأن ترك الأمر والنهي الواجب بشرطه خوفًا من ذم الناس، أو من ترك مدحهم له، أو من وصمهم له بأشياء، فيه تقديم لخوف الناس على خوف الله تعالى، وهذا محرم؛ لأن الوسيلة إلى المحرم محرمة.

القسم الثالث: الخوف الطبيعي المأذون به، وهذا أمر طبيعي كخوفٍ من عدو، أو من سبع، أو من نار، أو من مؤذٍ ومهلك، ونحو ذلك.

❁ **قوله**: «باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[آل عمران:١٧٥]»:

وجه الاستدلال من هذه الآية: أنه قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ وهذا نهي عن إنزال عبادة الخوف بغيره، فهذا يدل على أنه نهيٌ عن أحد أفراد الشرك.

قوله: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أمر بالخوف منه جل وعلا، فدل على أن الخوف عبادة من العبادات، وتوحيد الله بهذه العبادة توحيد، وإشراك غير الله معه في هذه العبادة شرك، والخوف من الخلق -كما ذكرنا- في ترك فريضة الجهاد، إنما يكون من جرّاء الشيطان، فالشيطان هو الذي يخوف المؤمنين من أوليائه، ويخوف أهل التوحيد وأهل الإيمان من أعداء الله -جل وعلا- لكي يتركوا الفريضة، فلهذا كان ذلك الخوف محرمًا، يعني: الخوف من الأعداء الذي يترتب عليه ترك فريضة من فرائض الله من الجهاد وغيره، والواجب ألا يخاف العبد إلا ربه -جل وعلا- وأن يُنزل خوفه به، وألا يخاف أولياء الشيطان.

فقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ معناها على الصحيح من التفسير أو على الراجح: يخوفكم أولياءه، يعني: يخوف أهل الإيمان أولياء الشيطان، ففاعل ﴿يُخَوِّفُ﴾ ضمير يعود على الشيطان، والمفعول الأول محذوف دل عليه السياق، والتقدير: يخوف الشيطانُ الناسَ أولياءه، يعني: يجعل الشيطان أهل التوحيد في خوف من أعدائهم، لهذا قال السلف في تفسيرها: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ يعني: يخوفكم أولياءه، وهذا ظاهر من الآيات قبلها كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[آل عمران: ١٧٣].

❁ **قوله**: «﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾[التوبة: ١٨]»:

وجه الدلالة من الآية قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وهذا نفي واستثناء وتقدم أن مجيء أداة

الاستثناء بعد النفي يدل على الحصر والقصر، فالآية دالة بظهور على أن الخشية يجب أن تكون من الله، وأن الله أثنى على أولئك لأنهم جعلوا خشيتهم لله وحده دون ما سواه، والخشية أخص من الخوف.

❁ **قوله:** «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[العنكبوت:١٠]»:

قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ بأن خاف منها، وترك ما أوجب الله عليه، أو أقدم على ما حرم الله عليه خشية من كلام الناس.

❁ **قوله:** «وعن أبي سعيد ﷺ مرفوعًا: **إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله...**»:

وجه الاستدلال من هذا الحديث قوله: «**إن من ضعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط الله**».

«**من ضعف اليقين**» يعني: من أسباب ضعف الإيمان، والذي يضعف الإيمان ارتكاب المحرمات؛ لأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فدل على أن إرضاء الناس بسخط الله معصية وذنب ومحرم؛ لأن هذا الذي أرضى الناس بسخط الله خافهم أو رجاهم، وهذا مناسبة إيراد الحديث في الباب.

❁ **قوله:** «وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله...**»:

هذا جزاء الذي أفرد الله بعبادة الخوف وجزاء الذي لم يُكمل التوحيد في عبادة الخوف، فالذي التمس رضا الله بسخط الناس عظم الله وخافه، ولم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، بل جعل عذاب الله -جل وعلا- أعظم فخاف الله وخشيه وطمع فيما عنده، فلم يلتفت إلى الناس، ولم يرفع بهم رأسًا، فكان جزاؤه أن رضي الله عنه، وجعل الناس يرضون عنه.

«**ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**» لأنه ارتكب ذنبًا بأن خاف الناس، وجعل خوفه من الناس سببًا لعمل المحرم، أو ترك فريضة من فرائض الله، لهذا قال: ومن التمس رضا الناس بسخط الله «**فكان جزاؤه أن سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس**».

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية آل عمران، أي: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾، والمعنىٰ: يخوفكم بأوليائه.

الثانية: تفسير آية براءة، أي: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ﴾[التوبة:١٨] الآية، والشاهد قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾[التوبة:١٨] فأثنىٰ علىٰ من أفرده بالخشية فدل علىٰ أنها عبادة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت، أي: قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾[العنكبوت:١٠]، ففيها ذمٌّ لمن ترك الواجب عليه خوفًا من فتنة المخلوق.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوىٰ، أي لقوله: إن من ضعف اليقين... إلخ، فمنطوقه يدل علىٰ ضعفه،ومفهومه يدل علىٰ قوته.

الخامسة: علامة ضعفه ومن ذلك هذه الثلاث، أي: أن ترضي الناس بسخط الله، وتحمدهم علىٰ رزق الله، وتذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض، أي لقوله: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾[آل عمران:١٧٥] فجعله شرطًا في الإيمان فدل علىٰ انتفاء الإيمان عند انتفائه ؛لأن المشروط ينتفي عند انتفاء شرطه.

السابعة: ذكر ثواب من فعله، أي: هو حصول إيمان فاعله ولكونه سببًا لرضا الله عن صاحبه.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه، أي: هو انتفاء الإيمان عنه وسخط الله عليه كما في حديث عائشة.

* الأسئلة *

۞ قوله: «قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ...﴾»:

س: من هو المخاطب في هذه الآية، وما المقصود بالشيطان، وما المراد بأوليائه؟ اشرح هذه الآية وبين مناسبتها لكتاب التوحيد.

جـ: المخاطب في هذه الآية المؤمنون. والمقصود بالشيطان إبليس. والمراد بأوليائه حزبه وجنده وأعوانه.

شرح الآية: يخبر الله تعالىٰ أن الشيطان يخوف المؤمنين بأوليائه ويعظمهم في صدورهم ونهىٰ الله المؤمنين أن يخافوا غيره وأمرهم أن يقصروا خوفهم علىٰ الله، فلا يخافون أحدًا سواه إن كانوا مؤمنين؛ لأن الإيمان يقتضي أن يؤثروا خوف الله علىٰ خوف الناس.

ومناسبة هذه الآية لكتاب التوحيد: أنها دلت علىٰ وجوب إفراد الله بالخوف؛ لأنه عبادة فصرفه لغير الله شرك ينافي التوحيد.

س: عرّف الخوف واذكر أنواعه مع بيان حكمها؟

جـ: الخوف هو الفزع والوجل وتوقع العقوبة وهو أربعة أنواع:

١ - خوف الله تألهًا وتعبدًا له وتقربًا إليه وهو من أعظم واجبات الإيمان.

٢ - خوف السر وهو أن يخاف الإنسان من غير الله: من وثن أو طاغوت أو ميت أو غائب أن يصيبه بما يكره وهذا شرك أكبر ينافي التوحيد.

٣ - أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفًا من بعض الناس فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد.

٤ - الخوف الطبيعي وهو الخوف من عدو أو سبع ونحو ذلك مما يخشىٰ ضرره، فهذا جائز ولا يذم فاعله.

❁ قوله: «قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ...﴾[التوبة:١٨]»:

س: اشرح هذه الآية مع بيان المقصود بالخشية وعمارة المساجد، ثم بين مناسبة هذه الآية للباب؟

جـ: يقول تعالى: إنما يليق بعمارة مساجد الله مَنْ صَدَّق بالله وصَدَّق بالبعث والجزاء فآمن بقلبه وعمل بجوارحه فأقام الصلاة وداوم عليها مستوفيًا لشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وأخرج الزكاة الواجبة من ماله وأعطاها لمستحقيها، وأفرد الله بالخشية والخوف ولم يخش أحدًا سواه. والمراد بالخشية: خشية التعظيم والعبادة والطاعة.

والمقصود بعمارة المساجد: ما يعم عمارتها الحسية بالبناء والترميم وعمارتها المعنوية بدوام العبادة فيها بالصلاة والذكر.

ومناسبة الآية للباب: أنها دلت على أن المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات أفردوا الله بالخوف والخشية دون سواه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[العنكبوت:١٠].

س: اشرح هذه الآية وبين مناسبتها للباب؟

جـ: يقول الله - تعالى - مخبرًا عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت في قلوبهم أنهم إذا أوذوا في الله؛ أي: من أجله وفي سبيله بأن عذبهم المشركون على الإيمان به؛ كما حصل في أول الإسلام جعلوا فتنة الناس وهي أذاهم لهم في الدنيا بمنزلة عذاب الله في الآخرة فجزعوا من ذلك ولم يصبروا.

ومناسبة الآية للباب: أن الله ذم فيها من خاف الناس وجعل عقوبتهم مثل عقوبة الله فارتد عن دينه بسبب خوفهم وأذيتهم.

❁ **قوله:** «عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس...»».

س: وضح معاني الكلمات المذكورة في الحديث، وبين مناسبته لهذا الباب؟

جـ: **ضعف اليقين:** الضعف ضد القوة، واليقين كمال الإيمان.

ترضي الناس بسخط الله: تؤثر رضاهم على رضى الله وتقرب إليهم بما يسخط الله.

تحمدهم على رزق الله؛ أي: تثني عليهم بما أوصل إليك من أيديهم بأن تضيفه إليهم، وهذا لا ينافي شكرهم بمكافأتهم والدعاء لهم.

وأن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله؛ أي: إذا طلبت منهم شيئًا فمنعوك ذممتهم عليه؛ لأن الله لم يُقَدِّرْ لك ما طلبته علىٰ أيديهم.

فمن علم أن الله هو المنفرد بالعطاء والمنع وأنه هو الذي يرزق العبد من حيث لا يحتسب لم يمدح مخلوقًا علىٰ رزق ولم يذمه علىٰ منع، بل يفوِّض أمره إلىٰ الله ويعتمد عليه ولهذا قال ﷺ: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره»(١٨٤)؛ أي: إذا قدر لك رزقًا أتاك ولو اجتهد الخلق في منعه، وإذا لم يقدر لم يحصل ولو اجتهدوا في إيصاله إليك.

ومناسبة الحديث للباب: أن فيه ذمًّا لمن خاف الناس وَقَدَّمَ رضاهم علىٰ رضىٰ الله.

قوله: «عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس...»».

س: ما معنى «التمس»، واذكر ما يستفاد من هذا الحديث، وبَيِّن مناسبته للباب؟

جـ: معنىٰ التمس: طلب، ويستفاد من هذا الحديث:

١ - أن من اتقىٰ الله كفاه مؤنة الناس.

٢ - الحث علىٰ تقديم رضىٰ الله علىٰ رضىٰ الناس والتحذير من ضده.

٣ - أن مَنْ أرضىٰ الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا.

٤ - إثبات صفتي الرضاء والسخط لله تعالىٰ كما يليق بجلاله وعظمته.

ومناسبة الحديث للباب: أن فيه وعيدًا لمن خاف الناس فآثر رضاهم علىٰ رضا الله. والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



---

(١٨٤) سبق تخريجه.

الدرس الثالث والثلاثون:

باب قول الله تعالى

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

[المائدة:٢٣].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ الآية [الأنفال:٢].

[وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الآية](١٨٥) [الأنفال:٦٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ الآية [الطلاق:٣].

وعن ابن عباسٍ، قال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين [قالوا له](١٨٦): ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾(١٨٧) الآية [آل عمران:١٧٣]. رواه البخاري والنسائي.

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض.

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها.

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومحمد ﷺ في الشدائد.

الشرح

(١٨٥) سقط من نسخة ابن باز.

(١٨٦) في نسخة ابن قاسم: «قال له الناس».

(١٨٧) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، سورة آل عمران، باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾، برقم (٤٥٦٣) وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله:** «قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾»:

التوكل: الاعتماد والتفويض، وهو من عمل القلب، يقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلىٰ فلان إذا اعتمدت عليه، أراد المصنف بالترجمة بهذه الآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله؛ فإن تقديم المعمول يفيد الحصر؛ أي: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ لا علىٰ غيره، فهو أجمع أنواع العبادة، وأعلىٰ مقامات التوحيد، وأعظمها وأجلها؛ لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد علىٰ الله في جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله؛ ولذلك أمر الله به في غير آية من كتابه، بل جعله شرطًا في الإيمان والإسلام، كما في الآية، وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[يونس:٨٤]، فدل علىٰ انتفاء الإيمان والإسلام بانتفائه. وقال شيخ الإسلام: وما رجا أحد مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه؛ فإنه شرك. والتوكل قسمان: أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالتوكل علىٰ الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت، فهذا شرك أكبر. وأما التوكل علىٰ الأحياء الحاضرين والسلاطين ونحوهم فيما أقدرهم الله عليه، من رزق أو دفع أذىٰ ونحو ذلك فهو نوع شرك أصغر، والمباح أن يوكل شخصًا بالنيابة عنه في التصرف من أمور دنياه، فهذا جائز بالإجماع، لكن لا يقول: توكلت عليه، بل وكلته؛ فإنه ولو وكله فلا بد أن يتوكل في ذلك علىٰ الله.

❁ **قوله:** «وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾»:

وجلت: خافت، قال ابن عباس: المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آياته، ولا يتوكلون علىٰ الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر تعالىٰ أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ الآية، فأدوا فرائضه، وقال السدي: «هو الرجل يهم يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيوجل قلبه»، رواهما ابن جرير وغيره، وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾، دلت علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه، وقد أجمع عليه أهل السنة: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: لا يرجون غيره بل يعتمدون عليه، ويفوضون أمورهم إليه، فوصفهم -تعالىٰ- بأعلىٰ مقامات الإحسان وهي الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل علىٰ الله وحده، وهذه تقتضي كمال الإيمان، وحصول أعماله الظاهرة والباطنة.

❁ قوله: «وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾»:

أي: الله وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلىٰ أحد، ونظيرها قوله: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٢]. فالرغبة والتوكل والحسب ونحو ذلك لله وحده، كما أن العبادة والتقوىٰ والسجود لا يكون إلا لله وحده، وبه يظهر مطابقة الآية للترجمة، فإذا كان هو الكافي لعبده وحده، وجب أن لا يتوكل إلا عليه.

❁ قوله: «وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾»:

أي: كافيه، وقد جعل الله - سبحانه - لكل عمل جزاء، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، وإذا كان الله - سبحانه - نفسه كافيًا عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه فلا مطمع فيه لعدو، ولو توكل عليه حق توكله فكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له فرجًا ومخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب، وفيها دليل علىٰ فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، والتنبيه بالقيام بالأسباب مع التوكل؛ فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها.

❁ قوله: «وقوله: وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حسبنا الله...»:

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، أي: كافينا فلا نتوكل إلا عليه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر:٣٦]. ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ أي: نِعْمَ الموكول إليه أمور عباده، ونعم من توكل عليه المتوكلون، كما قال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[الحج:٧٨]. ومخصوص نعم محذوف، تقديره: نعم الوكيل الله، فهو سبحانه حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه.

وفي رواية: «كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: حسبنا الله ونعم الوكيل»(١٨٨). رواه البخاري؛ وذلك لما دعا قومه إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له فأبوا، فكسر أصنامهم، فجمعوا له حطبًا، وأضرموا له نارًا، ورموه بالمنجنيق ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[الأنبياء:٦٨]، فعارضه جبرائيل في الهوىٰ، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فقال الله: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[الأنبياء:٦٩، ٧٠].

---

(١٨٨) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: قول الله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، برقم (٤٥٦٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦/ ١٥٤، ٣١٦) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد، فمر بهم ركب من عبد القيس فقالوا: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قالوا: هل أنتم مبلغون عنا محمدًا رسالةً؟ قالوا: نعم، قالوا: فإذا وافيتموه فأخبروه أنَّا قد أجمعنا السير إليه وإلىٰ أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، خارجًا لقتالهم في سبعين راكبًا، منهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وسعد وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وأبو عبيدة - لما بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم - فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[آل عمران:١٧٣، ١٧٤] ورد الله كيد أبي سفيان، وألقىٰ الرعب في قلبه، فرجع إلىٰ مكة. وفي الحديث: «**إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل**»[(١٨٩)]. فهي كلمة التفويض والاعتماد، والكلمة التي شرع أن تقال عند الكروب والشدائد، وفيه أن التوكل أعظم الأسباب في حصول الخير، ودفع الشر في الدنيا والآخرة.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «قول الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»:

أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان وجوب التوكل علىٰ الله والاعتماد عليه في جميع أمور الدين والدنيا، والتوكل: هو التفويض إلىٰ الله والثقة به والإيمان بأنه مسبب الأسباب وكل شيء بيده وما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن، ويعلم أن القدر قد سبقه بكل شيء وليس للعبد قدرة علىٰ أي شيء لم يشأه سبحانه وتعالىٰ مع الأخذ بالأسباب.

قوله: « وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ...﴾»:

أي: كافيك الله وكافي أتباعك عن كل ومن كفاه الله ما أهمه لم يحتج إلىٰ أحد؛ فالواجب علىٰ المؤمن أن يتوكل علىٰ الله مع أخذه بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه، وترك الأسباب التي تضره في دينه ودنياه، فيعمل الطاعات ويترك المعاصي لينال الجنة ويأكل ويشرك ويتجنب ما يضره؛ لأن هذا سبب حياته فهذا لا ينافي التوكل بل التوكل مجموع الأمرين:

١- الثقة بالله وأنه مسبب الأسباب ومصرف الأمور وكل شيء بيده.

٢- الأخذ بالأسباب.

وليس التوكل ترك الأسباب كما تقول الصوفية، بل لابد من الأمرين ويستعين بالله في ذلك.

---

(١٨٩)عزاه صاحب الكنز، برقم (٣٤١٧)، لابن مردويه في التفسير، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٧٢٩).

❁ **قوله**: «وعن ابن عباس قال...»:

حديث ابن عباس قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين.... قالها إبراهيم فأنجاه الله من النار ألقاه النمرود وقال: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الأنبياء:٦٩]، فكفاه شرها وشرهم ونجاه منهم وصارت آية معجزة تدل على صدق رسالته، وقال محمد ﷺ بعد أحد حين قالوا له: إن المشركين قد جمعوا لكم ليكروا عليكم ثانية فقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فكفاه الله.

وهكذا ينبغي للمسلم أن يقولها عند الشدائد لكن هذا لا يمنع من الأخذ بالأسباب؛ لأن النبي قالها وقد لبس الدرع وحمل السلاح ووضع الخوذة على رأسه وكذلك فعل أصحابه. ويوم الأحزاب حفر الخندق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾[النساء:٧١].

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله**: «باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾»:

مناسبة هذا الباب لما قبله:

هي أن الإنسان إذا أفرد الله – سبحانه – بالتوكل؛ فإنه يعتمد عليه في حصول مطلوبه وزوال مكروهه، ولا يعتمد على غيره.

والتوكل: هو الاعتماد على الله – سبحانه وتعالى – في حصول المطلوب ودفع المكروه، مع الثقة به وفعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف له، ولا بد من أمرين:

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتمادًا صادقًا حقيقيًّا.

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها.

فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب نقص توكله على الله، ويكون قادحًا في كفاية الله؛ فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه.

ومن جعل اعتماده على الله ملغيًا للأسباب فقد طعن في حكمة الله؛ لأن الله جعل لكل شيء سببًا، فمن اعتمد على الله اعتمادًا مجردًا كان قادحًا في حكمة الله؛ لأن الله حكيم، يربط الإسباب بمسبباتها، كمن يعتمد على الله في حصول الولد وهو لا يتزوج.

والنبي ﷺ أعظم المتوكلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب؛ فكان يأخذ الزاد في السفر، ولما خرج إلى أحد ظاهر بين درعين؛ أي: لبس درعين اثنين(١٩٠) ولما خرج مهاجرًا أخذ من يدله

---

(١٩٠) أخرجه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: لبس الدرع، برقم (٢٥٩٠)، وأحمد(٣/ ٤٤٩)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ١٧١) وغيرهم من حديث السائب بن يزيد ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

الطريق[١٩١] ولم يقل: سأذهب مهاجرًا وأتوكل على الله، ولن أصطحب معي من يدلني الطريق، وكان ﷺ يتقي الحر والبرد، ولم ينقص ذلك من توكله.

ويذكر عن عمر رضي الله عنه أنه قَدَمَ ناسٌ من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد، فجيء بهم إلى عمر، فسألهم، فقالوا: نحن المتوكلون على الله، فقال: لستم المتوكلين، بل أنتم المتواكلون.

والتوكل نصف الدين؛ ولهذا نقول في صلاتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥]؛ فنطلب من الله العون اعتمادًا عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته.

وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود:٨٨]، ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل؛ لأن الإنسان لو وُكِل إلى نفسه وُكِل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعباده؛ فهو حين يعبد الله يشعر أنه متوكل على الله، فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل، وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه في أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد في الغالب على الأسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك فيفوتنا ثواب عظيم، وهو ثواب التوكل، كما أننا لا نوفق إلى حصول المقصود كما هو الغالب، سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها.

والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه، بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضر؛ فيعتمد عليه اعتمادًا كاملًا، مع شعوره بافتقاره إليه؛ فهذا يجب إخلاصه لله تعالى، ومن صرفه لغير الله فهو مشرك شركًا أكبر؛ كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيًّا في الكون، فيعتمد عليهم في جلب المنافع ودفع المضار.

الثاني: الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، وقال بعضهم: من الشرك الخفي، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفته في حصول رزقه؛ ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار، فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر؛ فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب، بل جعله فوق السبب.

---

(١٩١) أخرجه البخاري، كتاب: الإجارة، باب: استئجار المشركين...، برقم (٢٢٦٣) وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها.

الثالث: أن يعتمد علىٰ شخص فيما فُوض إليه التصرف فيه، كما لو وكلت شخصًا في بيع شيء أو شرائه، وهذا لا شيء فيه؛ لأنه اعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا فوقه؛ لأنه جعله نائبًا عنه، وقد وكل النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن يذبح ما بقي من هديه[١٩٢]، ووكل أبا هريرة علىٰ الصدقة[١٩٣]، ووكل عروةَ بن الجعد أن يشتري له أضحية[١٩٤]، وهذا بخلاف القسم الثاني؛ لأنه يشعر بالحاجة إلىٰ ذلك، ويرىٰ اعتماده علىٰ المتوكَّل عليه اعتماد افتقار.

ومما سبق يتبين أن التوكل من أعلىٰ المقامات، وأنه يجب علىٰ الإنسان أن يكون مصطحبًا له في جميع شئونه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يكون للمعطلة أن يتوكلوا علىٰ الله ولا للمعتزلة القدرية»؛ لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالىٰ، والإنسان لا يعتمد إلا علىٰ من كان كامل الصفات المستحقة؛ لأنه يعتمد عليه.

وكذلك القدرية؛ لأنهم يقولون: إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف في أعمال العباد؛ ومن ثَمَّ نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق، وبه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين. وقد ذكر المؤلف في هذا الباب أربع آيات؛ أولها ما جعله ترجمةً للباب، وهي:

❁ قوله: «قول الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾»:

﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلقة بقوله: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، وتقديم المعمول يدل علىٰ الحصر؛ أي: علىٰ الله لا علىٰ غيره، **﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾**؛ أي: اعتمدوا.

والفاء لتحسين اللفظ وليست عاطفة؛ لأن في الجملة حرف عطف وهو الواو، ولا يمكن أن نعطف الجملة بعاطفين فتكون لتحسين اللفظ، كقوله تعالىٰ: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ ﴾[الزُّمَر:٦٦]، والتقدير: «**بل الله أعبد**».

قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾: ﴿إِن﴾: شرطية، وفعل الشرط ﴿كُنتُم﴾، وجوابه قيل: إنه محذوف دل عليه ما قبله، وتقدير الكلام: إن كنتم مؤمنين فتوكلوا، وقيل: إنه في مثل هذا التركيب

---

(١٩٢) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: لا يعطي الجزار من الهدي شيئًا، برقم (١٧١٧)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: الصدقة بلحوم الهدي...، برقم (١٣١٧) وغيرهما من حديث علي رضي الله عنه.

(١٩٣) أخرجه البخاري، كتاب: الوكالة، باب: إذا وكل رجلًا...، برقم (٢٣١١) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٩٤) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية؛ فأراهم، برقم (٣٦٤٢) وغيره من حديث عروة بن الجعد رضي الله عنه.

لا يحتاج إلىٰ جواب اكتفاء بما سبق فيكون ما سبق كأنه فعل معلق بهذا الشيء، وهذا أرجح؛ لأن الأصل عدم الحذف.

وقول أصحاب موسىٰ في هذه الآية يفيد أن التوكل من الإيمان ومن مقتضياته، كما لو قلت: إن كنت كريمًا فأكرم الضيف؛ فيقتضي أن إكرام الضيف من الكرم.

وهذه الآية تقتضي انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل علىٰ الله، إلا إن حصل اعتماد كُلِّي علىٰ غير الله؛ فهو شرك أكبر ينتفي الإيمان كله.

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، والحصر هو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه، والمعنىٰ: ما المؤمنون إلا هؤلاء. وذكر الله في هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف:

أحدها: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خافت لما فيها من تعظيم الله تعالىٰ، مثال ذلك: رجل هَمَّ بمعصية، فذكر الله أو ذُكِّر به، وقيل له: اتق الله؛ فإن كان مؤمنًا فإنه سيخاف، وهذا هو علامة الإيمان.

الوصف الثاني: قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾؛ أي: تصديقًا وامتثالًا، وفي هذا دليل علىٰ أن الإنسان قد ينتفع بقراءة غيره أكثر مما ينتفع بقراءة نفسه، كما أمر الرسول ﷺ عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه، فقال: كيف أقرا عليك وعليك أنزل؟ فقال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**» فقرأ عليه من سورة النساء حتىٰ بلغ قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[النساء:٤١]، قال: «**حسبك**» فنظرت، فإذا عيناه تذرفان[١٩٥].

الوصف الثالث: قوله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يعتمدون علىٰ الله لا علىٰ غيره، وهم مع ذلك يعملون الأسباب، وهذا هو الشاهد.

الوصف الرابع: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: يأتون بها مستقيمة كاملة، والصلاة: اسم جنس تشمل الفرائض والنوافل.

الوصف الخامس: قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

---

(١٩٥) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: قوله تعالىٰ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾، برقم (٤٥٨٢) وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

من للتبعيض؛ فيكون الله يمدح من أنفق بعض ماله لا كله، أو تكون لبيان الجنس؛ فيشمل الثناء من أنفق البعض ومن أنفق الكل، والصواب: أنها لبيان الجنس، وأن من أنفق الكل يدخل في الثناء إذا توكل علىٰ الله تعالىٰ في أن يرزقه وأهله كما فعله أبو بكر(١٩٦)، أما إن كان أهله في حاجة أو كان المنفق عليه ليس بحاجة ماسة تستلزم إنفاق المال كله؛ فلا ينبغي أن ينفق ماله عليه.

الآية الثالثة قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ المراد به: الرسول ﷺ يخاطب الله رسوله بوصف النبوة أحيانًا وبوصف الرسالة أحيانًا، فحينما يأمره أن يُبلِّغ يناديه بوصف الرسالة، وأما في الأحكام الخاصة، فالغالب أن يناديه بوصف النبوة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[التحريم:١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[الطلاق:١].

و﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: فعيل بمعنىٰ مفعَل بفتح العين ومفعِل بكسرها؛ أي: مُنبأ، ومُنبِئ؛ فالرسول ﷺ منبأ من قبل الله، ومنبئ لعباد الله.

قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافيك، والحسب: الكافي، ومنه قوله: أُعطي درهمًا فحسب، وحسب خبر مقدم، ولفظ الجلالة مبتدأ مؤخر، والمعنىٰ: ما الله إلا حسبك، ويجوز العكس؛ أي: أن تكون حسب مبتدأ ولفظ الجلالة خبره، ويكون المعنىٰ: ما حسبك إلا الله، وهذا أرجح.

قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿مَنِ﴾: اسم موصول مبنية علىٰ السكون، وفي عطفها رأيان لأهل العلم، قيل: حسبك الله، وحسبك من اتبعك من المؤمنين؛ فـ ﴿مَنِ﴾ معطوفة علىٰ لفظ الجلالة؛ لأنه أقرب، ولو كان العطف علىٰ الكاف في حسبك لوجب إعادة الجار، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٢]؛ فالله أيد رسوله بالمؤمنين، فيكونون حسبًا له هنا كما كان الله حسبًا له. وهذا ضعيف، والجواب عنه من وجوه:

أولًا: قولهم: عطف عليه لكونه أقرب ليس صحيح؛ فقد يكون العطف علىٰ شيء سابق، حتىٰ إن النحويين قالوا: إذا تعددت المعطوفات يكون العطف علىٰ الأول.

ثانيًا: قولهم: لو عطف علىٰ الكاف لوجب إعادة الجار، والصحيح أنه ليس بلازم، كما قال ابن مالك:

---

(١٩٦) أخرجه أبو داود، كتاب: الزكاة، باب: الرخصة في ذلك -أي الرجل يخرج من ماله- برقم (١٦٧٨)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما، برقم (٣٦٧٥)، والدارمي، برقم (١٦٦٠) وغيرهما من حديث عمر رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وليس عندي لازمًا إذ قد أتى ... في النثر والنظم الصحيح مثبتًا

ثالثًا: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالتأييد لهم غير كونهم حسبه؛ لأن معنى كونهم حسبه أن يعتمد عليهم، ومعنى كونهم يؤيدونه؛ أي: ينصرونه مع استقلاله بنفسه، وبينهما فرق.

رابعًا: أن الله – سبحانه – حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾[التوبة:٥٩]؛ ففرق بين الحسب والإيتاء، وقال تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر:٣٨]، فكما أن التوكل على غير الله لا يجوز؛ فكذلك الحسب لا يمكن أن يكون غير الله حسبًا، فلو كان لجاز التوكل عليه، ولكن الحسب هو الله، وهو الذي عليه يتوكل المتوكلون.

خامسًا: أن في قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ ما يمنع أن يكون الصحابة حسبًا للرسول ﷺ؛ وذلك لأنهم تابعون، فكيف يكون التابع حسبًا للمتبوع؟! هذا لا يستقيم أبدًا؛ فالصواب أنه معطوف على الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾؛ أي: وحسب من اتبعك من المؤمنين، فتوكلوا عليه جميعًا أنت ومن اتبعك.

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾؛ جملة شرطية تفيد بمنطوقها أن من يتوكل على الله، فإن الله يكفيه مهماته وييسر له أمره؛ فالله حسبه ولو حصل له بعض الأذية، فإن الله يكفيه الأذى، والرسول ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك يصيبه الأذى ولا تحصل له المضرة؛ لأن الله حسبه؛ فالنتيجة لمن اعتمد على الله أن يكفيه ربه المؤونة.

والآية تفيد بمفهومها أن من توكل على غير الله خُذِل؛ لأن غير الله لا يكون حسبًا كما تقدم، فمن توكل على غير الله تخلى الله عنه، وصار موكولًا إلى هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله بمقدار توكله على غير الله.

❁ **قوله**: «في أثر ابن عباس رضي الله عنهما: قالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾»:

وهذا في نص القرآن لما انصرف أبو سفيان من أُحُد أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وأصحابه ليقضي عليهم بزعمه، فلقي ركبًا، فقال لهم: إلى أين تذهبون؟ قالوا: نذهب إلى المدينة، فقال: بَلِّغُوا محمدًا وأصحابه أنَّا راجعون إليهم فقاضون عليهم، فجاء الركب إلى المدينة، فبلَّغوهم، فقال رسول الله ﷺ ومن معه: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، وخرجوا في نحو سبعين راكبًا، حتى بلغوا حمراء الأسد، ثم إن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة، وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين، حيث اعتمدوا عليه تعالى.

قوله: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: الركب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: أبا سفيان ومن معه، وكلمة الناس هنا يمثل بها الأصوليون للعام الذي أريد به الخصوص.

قوله: ﴿حَسْبُنَا﴾؛ أي: كافينا، وهي مبتدأ ولفظ الجلالة خبره.

قوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: ﴿نِعْمَ﴾: فعل ماض، ﴿ٱلْوَكِيلُ﴾: فاعل، والمخصوص محذوف تقديره: هو؛ أي: الله، والوكيل: المعتمد عليه سبحانه، والله - سبحانه - يطلق عليه اسم وكيل، وهو أيضًا مُوكِّل، والوكيل في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[النساء:٨١]، وأما الموكل ففي مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾[الأنعام:٨٩].

وليس المراد بالتوكيل هنا إنابة الغير فيما يحتاج إلىٰ الاستنابة فيه؛ فليس توكيله سبحانه من حاجة له، بل المراد بالتوكيل الاستخلاف في الأرض لينظر كيف يعملون.

وقول ابن عباس ﷺ: «إن إبراهيم قالها حين ألقي في النار» قول لا مجال للرأي فيه؛ فيكون له حكم الرفع.

وابن عباس ممن يروي عن بني إسرائيل؛ فيحتمل أنه أخذه منهم، ولكن جزمه بهذا، وقرنه لما قاله الرسول ﷺ مما يبعد أن يكون أخذه من بني إسرائيل.

الشاهد من الآية: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ حيث جعلوا حسبهم الله وحده.

تنبيه:

قولنا: **«وابن عباس ممن يروي عن بني إسرائيل»** قول مشهور عند علماء المصطلح، لكن فيه نظر، فإن ابن عباس ﷺ ممن ينكر الأخذ عن بني إسرائيل، ففي «صحيح البخاري» أنه قال: **«يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل علىٰ نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يُشَبْ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بَدَّلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب؟! فقالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! ولا والله ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم»**(١٩٧).

---

(١٩٧) أخرجه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، برقم (٢٦٨٥) وغيره من حديث ابن عباس ﷺ.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأول: أن التوكل من الفرائض: ووجهه أن الله علق الإيمان بالتوكل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وسبق تفسيرها.

الثانية: أنه من شروط الإيمان: تؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وسبق تفسيرها.

الثالثة: تفسير آية الأنفال: وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ الآية، والمراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل، وإلا؛ فالإنسان يكون مؤمنًا وإن لم يتصف بهذه الصفات، لكن معه مطلق الإيمان، وقد سبق تفسير ذلك.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها؛ أي: آخر الأنفال: وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، وهذا هو الراجح على ما سبق.

الخامسة: تفسير آية الطلاق: وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، وقد سبق تفسيرها.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد: يعني قول: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

وفي الباب مسائل غير ما ذكره المؤلف، منها:

زيادة الإيمان، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾.

ومنها: أنه عند الشدائد ينبغي للإنسان أن يعتمد على الله مع فعل الأسباب؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه قالوا ذلك عندما قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، ولكنهم فوضوا الأمر إلى الله، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ومنها: أن اتباع النبي ﷺ مع الإيمان سبب لكفاية الله للعبد.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣]»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أراد المصنف بهذا الباب بيان أنَّ التوكل فريضة يجب إخلاصه لله؛ لأنَّه من أفضل العبادة وأعلى مقامات التوحيد.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا على غيره.

﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾: اعتمدوا عليه وفوِّضوا أموركم إليه.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يذكر تعالىٰ أن موسىٰ عليه السلام أمر قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، ولا يرتدُّوا علىٰ أدبارهم خوفًا من الجبارين، بل يمضوا قدمًا لا يهابونهم ولا يخشونهم، متوكلين علىٰ الله في هزيمتهم، مصدِّقين بصحة وعده لهم إن كانوا مؤمنين.

ما يستفاد من الآية:

١- وجوب التوكل علىٰ الله وحده سبحانه، وأن صرف التوكل لغير الله شركٌ؛ لأنه عبادة.

٢- أنَّ التوكل علىٰ الله شرط في صحة الإيمان ينتفي الإيمان عند انتفائه.

❁ قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾:

تمام الآية: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال: ٢]

﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: خافت من الله.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: لا علىٰ غيره.

﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: يفوضون إليه أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إيَّاه.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يصف الله - جلَّ وعلا - المؤمنين حقَّ الإيمان بثلاث صفاتٍ عظيمةٍ هي:

١- الخوف منه عند ذكره، فيفعلون أوامره ويتركون زواجره.

٢- زيادة إيمانهم عند سماع تلاوة كلامه.

٣- وتفويض الأمور إليه والاعتماد عليه وحده.

مناسبة الآية للباب:

أنَّها تدلّ علىٰ أنَّ التوكل علىٰ الله وحده من صفات المؤمنين.

ما يستفاد من الآية:

١- مشروعية التوكل علىٰ الله وأنه من صفات المؤمنين.

٢- أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ فيزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

٣- أنَّ الإيمان بالله يستدعي التوكل عليه وحده.

٤- أنَّ من صفات المؤمنين الخشوع والذل لله تعالىٰ.

❁ **قوله:** «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤﴾»:

﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾؛ أي: كافيك الله وحده وكافي أتباعك.

﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾: أي: كافيه.

المعنىٰ الإجمالي للآيتين:

يخبر الله - سبحانه - نبيَّه وأمته بأَنَّه هو وحده كافيهم، فلا يحتاجون معه إلىٰ أحدٍ، فليكن توكلهم ورغبتهم عليه وحده، كما جعل سبحانه لكل عملٍ جزاءً، فجعل جزاء التوكل عليه كفايته للمتوكل، فإذا كان الله سبحانه كافيًا المتوكل عليه وحسبه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوٍّ.

مناسبة الآيتين للباب:

أنهما يَدُلَّان علىٰ وجوب التوكل علىٰ الله؛ لأَنَّه هو الكافي لمن توكل عليه.

ما يستفاد من الآيتين:

١- وجوب التوكل علىٰ الله؛ لأَنَّه من أعظم أنواع العبادة.

٢- بيانُ فضل التوكل علىٰ الله وفائدته، وأَنَّه أعظمُ الأسباب لجلبِ النفع ودفع الضرِّ.

٣- أنَّ الجزاء من جنس العمل.

❁ **قوله:** «وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: حسبنا الله ونعم الوكيل...»:

﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافينا فلا نتوكل إلا عليه.

﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾؛ أي: الموكول إليه أمور عباده.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

يروي عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ هذه الكلمة العظيمة: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها الخليلان إبراهيم ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - في موقفين حرجين لَقِياهُما من قومهما - وذلك حينما دعا إبراهيم قومه إلىٰ عبادة الله فأبوا وكسر أصنامهم فأرادوا أن ينتصروا لها فجمعوا حطبًا وأضرموا له نارًا ورموه بالمنجنيق إلىٰ وسطها، فقال هذه الكلمة، فقال الله للنار: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[الأنبياء:٦٩]، وحينما أرسلت قريش إلىٰ محمدٍ ﷺ تتوعده وتقول: إنَّا قد أجمعنا السير إليك وإلىٰ أصحابك لنستأصلكم، فقال ﷺ عند ذلك هذه الكلمة العظيمة: «حسبنا الله ونعم الوكيل». ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾[آل عمران:١٧٤].

مناسبة الأثر للباب:

أنَّ فيه أنَّ هذه الكلمة التي هي كلمة التفويض والاعتماد علىٰ الله، هي الكلمة التي تقال عند الكروب والشدائد، وهي تدل علىٰ التوكل علىٰ الله في دفع كيد الأعداء.

ما يستفاد من الأثر:

١- فضل هذه الكلمة، وأنَّه ينبغي أن تقال عند الشدائد والكروب.

٢- أنَّ التوكل من أعظم الأسباب في حصول الخير ودفع الشر في الدنيا والآخرة.

٣- أنَّ الإيمان يزيد وينقص.

٤- أنَّ ما يكرهه الإنسان قد يكون خيرًا له.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «**قول الله تعالىٰ:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾[المائدة: ٢٣]»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد أن التوكل علىٰ الله فريضة من الفرائض، وواجب من الواجبات، وأن إفراد الله -جل وعلا- به توحيد، وأن التوكل علىٰ غير الله شرك مخرج من الملة، والتوكل علىٰ الله شرط في صحة الإسلام، وشرط في صحة الإيمان، فالتوكل عبادة عظيمة، فعقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب لبيان هذه العبادة.

وحقيقة التوكل علىٰ الله -جل وعلا- أن يعلم العبد أن هذا الملكوت إنما هو بيد الله -جل وعلا- يصرفه كيف يشاء، فيفوض الأمر إليه، ويلتجئ بقلبه في تحقيق مطلوبه وفي الهرب مما يسوؤه، يلتجئ في ذلك ويعتصم بالله -جل وعلا- وحده، فينزل حاجته بالله ويفوض أمره إلىٰ الله، ثم يعمل السبب الذي أمر الله به، فحقيقة التوكل في الشرع تجمع تفويض الأمر إلىٰ الله -جل وعلا- وفعل الأسباب، بل إن نفس الإيمان سبب من الأسباب التي يفعلها المتوكلون علىٰ الله، بل إن نفس التوكل علىٰ الله -جل وعلا- سبب من الأسباب، فالتوكل حقيقته في الشرع تجمع عبادة قلبية عظيمة، وهي تفويض الأمر إليه، والالتجاء إليه، والعلم بأنه لا أمر إلا أمره، ولا شيء إلا بما قدره وأذن به كونًا، ثم فعل السبب الذي أوجب الله -جل وعلا- فعله أو أمر بفعله، فترك فعل الأسباب ينافي حقيقة التوكل الشرعية، كما أن الاعتماد علىٰ السبب وترك تفويض الأمر إلىٰ الله -جل وعلا- ينافي حقيقة التوكل الشرعية، فالمتوكل في الشرع هو من عمل السبب، وفوّض الأمر إلىٰ الله -جل وعلا- في الانتفاع بالسبب، وفي حدوث المسبب من ذلك السبب، وفي توفيق الله وإعانته فإنه لا حول ولا قوة إلا به جل وعلا.

والتوكل -كما قال الإمام أحمد- عمل القلب، فالتوكل عبادة قلبية محضة، ولهذا كان إفراد الله -جل وعلا- بها واجبًا، وكان صرفها لغير الله -جل وعلا- شركًا.

والتوكل على غير الله -جل وعلا- له حالان:

الحال الأولى: أن يكون شركًا أكبر، وهو أن يتوكل على أحد من الخلق فيما لا يقدر عليه إلا الله -جل وعلا- كأن يتوكل على المخلوق في مغفرة الذنب، وأن يتوكل على المخلوق في تحصيل الخيرات الأخروية، أو يتوكل على المخلوق في تحصيل ولد له، أو في تحصيل وظيفة له، فيتوكل عليه بقلبه، وهو لا يقدر على ذلك الشيء، وهذا يكثر عند عباد القبور وعباد الأولياء، فإنهم يتوجهون إلى الموتى بقلوبهم يتوكلون عليهم، ويفوضون أمر صلاحهم فيما يريدون في الدنيا والآخرة إلى أولئك الموتى، وإلى تلك الآلهة والأوثان التي لا تقدر من ذلك على شيء، فهذه عبادة صُرفت لغير الله -جل وعلا- وهو شرك أكبر بالله -جل وعلا- منافٍ لأصل التوحيد.

والحال الثانية: أن يتوكل على المخلوق فيما أقدره الله -جل وعلا- عليه، وهذا نوع شرك، بل هو شرك خفي، وشرك أصغر، ولهذا قال طائفة من أهل العلم: إذا قال: توكلت على الله وعليك، فإن هذا شرك أصغر، ولهذا قالوا: لا يجوز أن يقول: توكلت على الله ثم عليك؛ لأن المخلوق ليس له نصيب من التوكل، فإن التوكل إنما هو تفويض الأمر والالتجاء بالقلب إلى من بيده الأمر وهو الله -جل وعلا- والمخلوق لا يستحق شيئًا من ذلك.

فالتوكل على المخلوق فيما يقدر عليه شرك خفي ونوع شرك أصغر، والتوكل على المخلوق فيما لا يقدر عليه المخلوق، وهذا يكثر عند عباد القبور والمتوجهين إلى الأولياء والموتى، هو شرك مخرج من الملة.

وحقيقة التوكل الذي ذكرناه لا يصلح إلا لله -جل وعلا- لأنه تفويض الأمر إلى من بيده الأمر والمخلوق ليس بيده الأمر، فالتجاء القلب ورغب القلب وطمع القلب في تحصيل المطلوب إنما يكون ذلك ممن يملكه وهو الله -جل وعلا- أما المخلوق فلا يقدر على شيء استقلالًا، وإنما هو سبب، فإذا كان سببًا فإنه لا يجوز التوكل عليه؛ لأن التوكل عمل القلب، وإنما يجعله سببًا بأن يجعله شفيعًا، أو واسطة، ونحو ذلك، فهذا لا يعني أنه متوكل عليه. فيجعل المخلوق سببًا فيما أقدره الله عليه ولكن يفوض أمر النفع بهذا السبب إلى الله -جل وعلا- فيتوكل على الله ويأتي بالسبب الذي هو الانتفاع من هذا المخلوق بما جعل الله -جل وعلا- له من الانتفاع أو من القدرة ونحو ذلك.

❁ قوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾[المائدة: ٢٣]»:

هذه الآية فيها الأمر بالتوكل علىٰ الله وحده، ولَمّا أمر به علمنا أنه من العبادة، ولَمّا قدّم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ علىٰ ما يتعلق به وهو الفعل ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ دل علىٰ وجوب إفراد الله -جل وعلا- بالتوكل وأن التوكل عبادة يجب أن تُحصر وتُقصر في الله -جل وعلا- هذا وجه الدلالة من الآية.

ودليل آخر في هذه الآية، وهو قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حيث جعل الإيمان لا يصح إلا بالتوكل، وأن التوكل شرط الإيمان، فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا هو الشرط، وجوابه محذوف، وتقديره: فأفردوا الله بالتوكل، فجزاء الشرط هو إفراد الله بالتوكل، فصارت دلالة الآية من جهتين.

وكذلك قوله -جل وعلا- في آية سورة يونس: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[يونس: ٨٤]، فقوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ أمر بإفراده بالتوكل -جل وعلا- وقدّم الجار والمجرور لإفادة الحصر والقصر والاختصاص بالله -جل وعلا- ثم جعل إفراده بالتوكل -جل وعلا- شرطًا في صحة الإسلام فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾، فهاتان الآيتان دلتا علىٰ أن التوكل عبادة، وأن إفراد الله به -جل وعلا- واجب، وأنه شرط في صحة الإسلام، وشرط في صحة الإيمان، وهذا كله يدل علىٰ أن انتفاءه مُذهبٌ لأصل التوحيد منافٍ لأصله إذا توكل علىٰ غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله.

❁ قوله: «وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾[الأنفال: ٢]»:

وجه الدلالة من الآية: أنه وصف المؤمنين بهذه الصفات الخمس وآخرها قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وظاهر من دلالة الآية حيث قدم الجار والمجرور علىٰ أنهم أفردوا الله بالتوكل، فدل علىٰ أن هذه العبادات الخمس هي أعظم مقامات أهل الإيمان، وهذا ينبغي التنبه له، إذ كل أمور الدين والعبادات والفروع العملية التي يعملها العبد، إنما هي فرع عن تحقيق هذه الخمس التي جاءت في هذه الآية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وهذه الصفة تجمع الكلمات الشرعية وتجمع الدين جميعًا؛ لأن ذكر الله فيه القرآن وفيه السنة.

❁ قوله: «وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾[الأنفال: ٦٤]»:

يعني: كافيك الله، وكافي من اتبعك من المؤمنين؛ لأن الحسب هو الكافي، والكلمة المشابهة لها (حَسَب) تقول: هذا بحسب كذا، يعني: بناء علىٰ كذا، وأما الكافي فهو (الحسْب) بسكون السين.

ووجه مناسبة الآية لهذا الباب: أن الله حسْب من توكل عليه، قال جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق: ٣]، فالله حسب من توكل عليه، فدل علىٰ أن الله -جل وعلا- أمر

عباده بالتوكل عليه حتىٰ يكون كافيهم من أعدائهم وحتىٰ يكون -جل وعلا- كافي المؤمنين من المشركين، قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ يعني: كافيك الله، ولهذا أعقبها المؤلف بالآية الأخرىٰ وهي قوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ والتوكل علىٰ الله -جل وعلا- كما سبق يرجع إلىٰ فهم توحيد الربوبية، وإلىٰ عِظم الإيمان بتوحيد الربوبية، فإن بعض المشركين قد يكون عنده من التوكل علىٰ الله الشيء العظيم.

والتوكل علىٰ الله من العبادات العظيمة التي تطلب من المؤمن، ولهذا نقول: إن إحداث التوكل في القلب يرجع إلىٰ التأمل في آثار الربوبية، فكلما كان العبد أكثر تأملًا في ملكوت الله في السماوات والأرض، والأنفس، والآفاق، كان علمه بأن الله هو ذو الملكوت وأنه هو المتصرف، وأن نصره لعبده شيء يسير جدًّا بالنسبة إلىٰ ما يجريه الله -جل وعلا- في ملكوته، فيعظم المؤمن بهذا التدبر الله -جل وعلا- ويعظم التوكل عليه، ويعظّم أمره ونهيه، ويعتقد أن الله -جل جلاله- لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالىٰ.

۞ **قوله:** «وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾»:

رتب الحسب -وهو الكفاية- علىٰ التوكل عليه، وهذا فضيلة التوكل، وفضيلة المتوكلين عليه.

۞ **قوله:** «وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾»:

وهذا يبين عِظم هذه الكلمة، وهي قول المؤمن: حسبنا الله ونعم الوكيل، فإذ حقق العبد التوكل علىٰ الله حقيقة في القلب فقد حقق هذا النوع من توحيد التوكل في النفس، فإن العبد إذا أعظم رجاءه في الله، وأكمل توكله علىٰ الله، فإنه وإن كادته السماوات والأرض ومن فيهن فإن الله سيجعل له من أمره يسرًا وسيجعل له من بينها مخرجًا.

قوله: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾: يعني: كافينا الله.

﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾: يعني: ونعم الوكيل ربنا، هذه كلمة عظيمة قالها إبراهيم -عليه السلام- في الكرب، وقالها أيضًا النبي -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه في الكرب لما قال لهم الناس: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾[آل عمران: ١٧٣] وذلك لعظم توكلهم علىٰ الرب جل وعلا.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض أي لقوله: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، وهذا أمر، والأمر للوجوب.

الثانية: أنه من شروط الإيمان، أي لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾، فجعله شرطًا في حصول الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال، أي: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال:٢] الآية، والشاهد قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[الأنفال:٢].

الرابعة: تفسير الآية في آخرها، أي: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾[الأنفال:٦٤] الآية، أي: الله كافيك وكافي من اتبعك.

الخامسة: تفسير آية الطلاق، أي: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣] أي: كافيه.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم ومحمد ﷺ في الشدائد، أي: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[آل عمران:١٧٣]، ومعناها: هو كافينا ونعم الوكيل، هو سبحانه وتعالى.

* الأسئلة *

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

س: ما معنى هذه الآية، وبين مناسبتها لكتاب التوحيد؟

جـ: يقول تعالىٰ: إن كنتم مؤمنين بالله ومصدقين به، فلا تعتمدوا في جميع أموركم إلا عليه وحده.

ومناسبة الآية لكتاب التوحيد: أن التوكل علىٰ الله عبادة يجب إخلاصه لله؛ فصرفه لغيره شرك ينافي التوحيد.

س: عرف التوكل واذكر أنواعه، مع بيان حكمها، وما علاقته بالإيمان؟

جـ: التوكل هو الاعتماد والتفويض وهو أربعة أنواع:

١ - التوكل علىٰ الله في جميع الأمور من جلب المنافع ودفع المضار، وهو واجب ومن شروط الإيمان.

٢ - التوكل علىٰ المخلوقين في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؛ كالتوكل علىٰ الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت، في رجاء مطالبهم من نصر أو رزق أو حفظ فهذا شرك أكبر ينافي التوحيد.

٣ - التوكل علىٰ الأحياء الحاضرين؛ كالتوكل علىٰ الأمير والسلطان ونحوهم فيما أقدرهم الله عليه من رزق أو دفع إيذاء ونحو ذلك فهذا نوع شرك أصغر.

٤ - توكيل الإنسان غيره في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه كالبيع والشراء والإجارة، فهذا جائز، ولكن لا يقول: توكلت عليه، بل يقول: وكلته، فإنه لو وكله فلا بد أن يتوكل في ذلك علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

❁ **قوله: «قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ...﴾[الأنفال:٢]»:**

س: اشرح هذه الآية، واذكر الشاهد منها للباب، وما الذي يستفاد منها؟

جـ: وصف الله المؤمنين في هذه الآية بصفات حميدة وصلوا بواسطتها إلىٰ حقيقة الإيمان وكماله.

١ - أنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم؛ أي: خافت، فأدوا فرائضه وتركوا ما نهاهم عنه.

٢ - أنهم يعتمدون علىٰ الله وحده ويتوكلون عليه ويفوضون أمورهم إليه، وهذه الصفة هي الشاهد من الآية للباب.

٣ - أنهم إذا تليت عليهم آيات الله ازداد إيمانهم وتحقق يقينهم.

٤ - أنهم يقيمون الصلاة ويأتون بها علىٰ الوجه الأكمل بأوقاتها وواجباتها وشروطها وأركانها.

٥ - أنهم ينفقون مما رزقهم الله من أموالهم النفقات الواجبة والمستحبة.

وبهذه الخصال الخمسة نالوا الجزاء الأوفىٰ والدرجات العلىٰ والمغفرة والرزق الكريم في جنات النعيم.

وتفيد الآية: أن الإيمان يزيد بالطاعة، كما أنه ينقص بالمعصية.

س: كيف رتب هذا الجزاء على هذه الأعمال الخمسة دون غيرها من الواجبات؟

جـ: لأن هذه الأعمال مستلزمة لفعل الواجبات وترك جميع المحرمات.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٤] »:

س: اشرح هذه الآية، وبين مناسبتها للباب.

جـ: يقول تعالىٰ مخاطبًا لرسوله محمد ﷺ كافيك وكافي أتباعك من المؤمنين، فلا تحتاجون معه إلىٰ أحد.

ومناسبة الآية للباب: هي أنه إذا كان الله هو الكافي لعبده وجب أن لا يتوكل إلا عليه.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق: ٣].

س: ما معنىٰ هذه الآية، وما الذي تدل عليه، وهل التوكل ينافي القيام بالأسباب أم لا، علل لما تقول؟

جـ: **معنىٰ الآية:** أن من يعتمد علىٰ الله فهو كافيه وتدل علىٰ فضل التوكل وأنه من أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، والتوكل لا ينافي القيام بالأسباب؛ لأنه من جملة الأسباب المأمور بها شرعًا فترك الأسباب المأمور بها قادح في التوكل.

قوله: «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ».

س: ما معنى ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، واذكر شيئًا من فضل هذه الكلمة؟

جـ: معنىٰ حسبنا الله: كافينا ومتولِ أمورنا فلا نتَّكل إلا عليه.

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ أي: نعم الموكول إليه والمعتمد عليه.

ومن فضل هذه الكلمة العظيمة أنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام في الشدائد وجاء في الحديث: «إذا وقعتم في الأمر العظيم، فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»[١٩٨].

والله أعلم. وصلىٰ الله علىٰ محمد.

---

(١٩٨) أورده المتقي الهندي في «كنز العمال»، برقم (٣٤١٧)، وعزاه لابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٧٢٩).

الدرس الرابع والثلاثون:

باب قول الله تعالى

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٩].

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»(١٩٩).

وعن ابن مسعود(٢٠٠)، قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»(٢٠١) رواه عبد الرزاق.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف.

الثانية: تفسير آية الحجر.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾»:

أراد المصنف بالترجمة بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب، وأنه ينافي التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك، وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء،

---

(١٩٩) أخرجه الطبراني (١٢/ ٢٥٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٩): «رواه البزار و الطبراني ورجاله موثقون»، وحسنه الألباني في «الصحيحة» برقم(٢٠٥١).

(٢٠٠) في نسخة ابن قاسم: «وعن ابن عباس»، والمثبت موافق لما في مصادر التخريج.

(٢٠١) أخرجه الطبراني (٩/ ١٥٦)، وعبد الرزاق (١٠/ ٤٥٩) وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد» (١/ ١٠٩): « إسناده صحيح»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥/ ٧٩).

كما دل عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فلا يغلب جانب الرجاء فيأمن مكر الله، ولا يغلب جانب الخوف فييأس من روح الله. قال بعض السلف: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن». قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:٥٧]، ومعنىٰ الآية أن الله تعالىٰ لما ذكر حال أهل القرىٰ المكذبين للرسل، بين أن الذي حملهم علىٰ ذلك هو الأمن من مكر الله، وعدم الخوف منه؛ وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنعم، فتمادوا في المعاصي والمخالفات، واستبعدوا أن يكون ذلك مكرًا. وفي الحديث: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا علىٰ معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**»[٢٠٢] رواه أحمد وغيره. وقال الحسن: «من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له». وفسر السلف المكر باستدراج الله العبد بالنعم إذا عصىٰ، وإملائه له حتىٰ يأخذه أخذ عزيز مقتدر. قال المصنف: «مكر الله هو أنه إذا عصاه وأغضبه أنعم عليه بأشياء يظن أنها من رضاه عليه» اهـ. وخوف العبد ينشأ من أمور: معرفته بالجناية وقبحها، وتصديق الوعيد وأن الله رتب علىٰ المعصية عقوبتها، وكونه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب، وبهذه الثلاثة يتم له الخوف، وقوته بحسب قوتها وضعفها، وذلك قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد.

قوله: «وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦﴾»:

القنوط: استبعاد الفرَج، واليأس منه - والفرق بينهما لطيف - وسوء الظن بالله، وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم منافيان لكمال التوحيد، ذكرهما المصنف تنبيهًا علىٰ أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفًا راجيًا، يخاف ذنبه ويعمل بطاعة الله ويرجو رحمة ربه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:٥٧]. وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[الزمر:٩]؛ ومعنىٰ الآية: أن الله لما بشر إبراهيم بإسحق استبعد ذلك علىٰ كبر سنه، فقالت له الملائكة: ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي لا ريب فيه، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾[الحجر:٥٥]؛ أي: الآيسين، فقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر:٥٦]. فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم، لكنه قال

---

(٢٠٢) أخرجه أحمد(٤/ ١٤٥)، والطبراني (١٧/ ٣٣٠)، وفي «الأوسط»، برقم (٩٢٧٢) وغيرهما من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (٤١٣).

ذلك على وجه التعجب، والضالون المخطئون طريق الصواب، أو الكافرون، كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. وفي الترمذي وغيره مرفوعًا: «العاجز الراجي لرحمة الله أقرب منها من العابد القنط». وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الزمر:٥٣]. وقال الشيخ: «القنوط بأن يعتقد بأن الله لا يغفر له إما بكونه إذا تاب لا يقبل توبته، وإما أن يقول: نفسه لا تطاوعه على التوبة بل هو مغلوب معها، فهو ييأس من توبة نفسه».

❁ **قوله: «وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر...»:**

أي: قطع الرجاء والأمل من الله، فيما يرومه ويقصده ويخافه ويرجوه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وذلك إساءة ظن بالله، وجهل بسعة رحمته وجوده ومغفرته، والإشراك بالله في ربوبيته أو عبادته هو أكبر الكبائر بالإجماع، ولهذا بدأ به، وقد تقدم في غير موضع.

❁ **قوله: «والأمن من مكر الله»:**

أي: من استدراجه للعبد، أو سلبه ما أعطاه من الإيمان، وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها، وهذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم ورجاله ثقات، إلا أن في سنده شبيب بن بشر لينه أبو حاتم، ووثقه ابن معين. وقال ابن كثير: «في إسناده نظر والأشبه أن يكون موقوفًا».

❁ **قوله: «وعن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله...»:**

قال أبو السعادات: «القنوط هو أشد اليأس، وفي التنبيه على الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط، ولا ييأس بل يرجو رحمة الله، فينبغي له عند استكمال العافية والنعم أن يرجح جانب الخوف؛ فإنه إذا غلب الرجاء الخوف فسد القلب، وعند المصائب والموت يغلب جانب الرجاء، ويحسن الظن بالله ﷻ».

وقوله: «واليأس من روح الله». **رواه عبد الرازق**، هو ابن همام بن نافع الحميري مولاهم، أبو بكر الصنعاني الحافظ، المصنف الشهير، سئل أحمد: أرأيت أحدًا أحسن حديثًا من عبد الرزاق؟ قال: لا. روي عن أبيه وعمه وهب ومعمر وغيرهم، وعنه ابن عيينة ومعتمر وهما من شيوخه، وأحمد وإسحاق وخلق، ولد سنة ١٢٦هـ، ومات ببغداد سنة ٢١١هـ. ورواه أيضًا ابن جرير بأسانيد صحاح، ولا يظن أن الكبائر محصورة في هذين الحديثين فقط، فقد تقدم حديث:

«اجتنبوا السبع الموبقات»(٢٠٣). وقول ابن عباس: «هن إلىٰ السبعين أقرب منهن إلىٰ السبع». وفي رواية: «إلىٰ السبعمائة». وقد عرفوها بما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو لعن أو غضب أو عذاب، ومن بَرِئَ منه الرسولﷺ، أو قال: «ليس منا». وما سوىٰ ذلك صغائر، وليس المراد ليتهاون بها، بل كل المعاصي يجب اجتنابها، فكم من صغيرة عادت كبيرة.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾[الأعراف:٩٩] »:

مقصود الترجمة أنه يجب علىٰ العبد أن يكون خائفًا من الله، راجيًا له راغبًا راهبًا، إن نظر إلىٰ ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشي ربه وخافه، وإن نظر إلىٰ فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وُفِّق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها، وخاف من ردها بتقصيره في حقها. وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها، وخشي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم واليسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشىٰ بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضًا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر ويخشىٰ من اجتماع المصيبتين فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع، وبه تحصل السعادة. ويُخشىٰ علىٰ العبد من خُلُقين رذيلين:

أحدهما: أن يستولي عليه الخوف حتىٰ يقنط من رحمة الله وروحه.

الثاني: أن يتجارىٰ به الرجاء حتىٰ يأمن مكر الله وعقوبته فمتىٰ بلغت به الحال إلىٰ هذا فقد ضيَّع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان.

وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران.

أحدهما: أن يسرف العبد علىٰ نفسه ويتجرأ علىٰ المحارم فيصر عليها ويصمم علىٰ الإقامة علىٰ

---

(٢٠٣) أخرجه البخاري، كتاب: الوصايا، باب: قول الله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، برقم (٢٧٦٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٩) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله؛ لأجل أنه مقيم علىٰ الأسباب التي تمنع الرحمة، فلا يزال كذلك حتىٰ يصير له هذا وصفًا وخلقًا لازمًا. وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد. ومتىٰ وصل إلىٰ هذا الحد لم يرج له خيرٌ إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوىٰ خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها. فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلىٰ الكسل، لعلم أن أدنىٰ سعي يوصله إلىٰ ربه وإلىٰ رحمته وجوده وكرمه.

وللأمن من مكر الله أيضًا سببان مهلكان:

أحدهما: إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك، فلا يزال معرضًا غافلًا مقصرًا عن الواجبات منهمكًا في المحرمات، حتىٰ يضمحل خوف الله من قلبه، ولا يبقىٰ في قلبه من الإيمان شيء؛ لأن الإيمان يحمل علىٰ خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابدًا جاهلًا معجبًا بنفسه، مغرورًا بعمله، فلا يزال به جهله حتىٰ يَدُلَّ بعمله ويزول الخوف عنه، ويرىٰ أن له عند الله المقامات العالية، فيصير آمنًا من مكر الله، متكلًا علىٰ نفسه الضعيفة المهينة، ومن هنا يُخذل ويحال بينه وبين التوفيق، إذ هو الذي جنىٰ علىٰ نفسه.

فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد.

قال العلامة ابن باز:

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾:

هذا الباب لبيان تحريم الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله وبيان بعض هذه الكبائر.

فالأمن من مكر الله من الكبائر وهو يفضي إلىٰ التساهل في محارم الله؛ لأن من أمن من مكر الله ساءت أعماله وأخلاقه وتصرفاته ولم يخف الله، والقنوط هو اليأس من رحمة الله، كذلك فإنه يسوء ظنه بالله وتنكسر نفسه وتحترق. والواجب أن يكون المسلم بين الأمرين، فيرجوا الله ويخاف ذنوبه ومعاصيه فلا يغرق في المعاصي ويأمن مكر الله، وكذلك لا ييأس من رحمة الله بل يكون كالطير بين الجناحين، وفضل بعض العلماء جانب الخوف في حال الصحة؛ لأنه أقدر علىٰ المعاصي وجانب الرجاء في حال المرض؛ لأنه يضعف من الأعمال والطاعات، والأصل أن يكون بينهما.

❁ **قوله:** «وعن ابن عباس رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر فقال: الشرك بالله...»[٢٠٤]:

هذا يروي مرفوعًا وموقوفًا والموقوف له حكم الرفع؛ لأنه لا يقال بالاجتهاد، وربما قالها ابن عباس عن نفسه اجتهادًا واستدلالًا بالنصوص. والكلام صحيح على كل حال.

❁ **قوله:** «قال ابن مسعود أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله...»:

والشرك أعظم الذنوب وبه تحبط جميع الأعمال. وكذلك القنوط وهو شدة اليأس وهو من الكبائر لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

هذا استفهام بمعنى النفي؛ أي: أن هذا من صفاتهم فقط والكبائر الأخرى غير الشرك لا تحبط به الأعمال.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ...﴾»:

هذا الباب اشتمل على موضوعين:

الأول: الأمن من مكر الله.

والثاني: القنوط من رحمة الله، وكلاهما طرفا نقيض.

واستدل المؤلف للأول بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ﴾. الضمير يعود على أهل القرى؛ لأن ما قبلها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

فقوله: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ يدل على كمال الأمن لأنهم في بلادهم، وأن الخائف لا ينام، وقوله: ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يدل أيضًا على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق؛ لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا في الضحى - في رابعة النهار - يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء؛ فهم نائمون وفي رغد، ومقيمون على معاصي الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم، غافلون عن ذكر خالقهم؛ فهم في الليل نوم، وفي النهار لعب، فبين الله ﷻ أن هذا من مكره بهم؛ ولهذا قال: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فالذي يَمُنُّ الله عليه بالنعم والرغد والترف، وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو في الحقيقة خاسر.

---

(٢٠٤) سبق تخريجه.

فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمك من جوع، وآمنك من خوف، وكساك من عري، فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله، بل أنت خاسر؛ لأن هذا من مكر الله بك.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: الاستثناء للحصر؛ وذلك لأن ما قبله مُفرَّغ له؛ فالقوم فاعل، والخاسرون صفتهم.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ دليل على أن لله مكرًا، والمكر هو: التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، ومنه ما جاء في الحديث: «الحرب خدعة»(٢٠٥).

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق؛ فلا يجوز أن تقول: إن الله ماكر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحًا، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾[الأنفال:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[النمل:٥٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾[الأعراف:٩٩]، ولا تُنْفَى عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها في المقام التي تكون مدحًا يوصف بها وفي المقام التي لا تكون مدحًا لا يوصف بها. وكذلك لا يسمى الله بها؛ فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر.

وأما الخيانة، فلا يُوصف الله بها مطلقًا؛ لأنها ذم بكل حال؛ إذ إنها مكر في موضع الائتمان، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾[الأنفال:٧١]، ولم يقل: فخانهم.

وأما الخداع؛ فهو كالمكر يُوصف الله به حيث يكون مدحًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[النساء:١٤٢]، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه.

ويستفاد من هذه الآية:

١- الحذر من النعم التي يجلبها الله للعبد لئلا تكون استدراجًا؛ لأن كل نعمة فلله عليك وظيفة شكرها، وهي القيام بطاعة المُنعم، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم؛ فاعلم أن هذا من مكر الله.

٢- تحريم الأمن من مكر الله، وذلك لوجهين:

---

(٢٠٥) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد، باب: الحرب خدعة، برقم (٣٠٣٠)، ومسلم، كتاب: الجهاد، باب: جواز الخداع في الحرب، برقم (١٧٣٩) وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

الأول: أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب.

الثاني: قوله تعالى ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

قوله: «وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾»:

الموضوع الثاني مما اشتمل عليه هذا الباب القنوط من رحمة الله. واستدل المؤلف له بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾.

﴿وَمَن﴾: اسم استفهام؛ لأن الفعل بعدها مرفوع، ثم إنها لم تكن لها جواب، والقنوط: أشد اليأس؛ لأن الإنسان يقنط ويبعد الرجاء والأمل، بحيث يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه.

قوله: ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾: هذه رحمة مضافة إلى الفاعل ومفعولها محذوف، والتقدير: «من رحمة ربه إياه».

قوله: ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾: إلا أداة حصر؛ لأن الاستفهام في قوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ مراد به النفي، و ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ فاعل يقنط.

والمعنى لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، والضال: فاقد الهداية، التائه الذي لا يدري ما يجب لله سبحانه، مع أنه سبحانه قريب الغير؛ ولهذا جاء في الحديث: «عجب ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره؛ ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب»(٢٠٦).

وأما معنى الآية؛ فإن إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بغلام عليم قال لهم: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[الحجر: ٥٤ - ٥٦].

فالقنوط من رحمة الله لا يجوز؛ لأنه سوء ظن بالله عز وجل، وذلك من وجهين:

الأول: أنه طعن في قدرته سبحانه؛ لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لم يستبعد شيئًا على قدرة الله.

الثاني: أنه طعن في رحمته سبحانه؛ لأن من علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله سبحانه؛ ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالًا.

---

(٢٠٦) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، برقم (١٨١)، وأحمد (٤/ ١٢)، والطيالسي، برقم (١٠٩٢) وغيرهم من حديث أبي رزين رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٣٥٨٥).

ولا ينبغي للإنسان إذا وقع في كربة أن يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه، وكم من إنسان وقع في كربة وظن أن لا نجاة منها، فنجاه الله - سبحانه -: إما بعمل صالح سابق مثل ما وقع ليونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الصافات:١٤٤]، أو بعمل لاحق، وذلك كدعاء الرسول ﷺ يوم بدر(٢٠٧) وليلة الأحزاب(٢٠٨)، وكذلك أصحاب الغار(٢٠٩).

وتبين مما سبق أن المؤلف رحمه الله أراد أن يجمع الإنسان في سيره إلى الله تعالى بين الخوف فلا يأمن مكر الله، وبين الرجاء فلا يقنط من رحمته؛ فالأمن من مكر الله ثَلْمٌ في جانب الخوف، والقنوط من رحمته ثَلْمٌ في جانب الرجاء.

❁ **قوله: في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر»:**

جمع كبيرة، والمراد بها: كبائر الذنوب، وهذا السؤال يدل على أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد دل على ذلك القرآن، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[النساء:٣١]، وقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾[النجم:٣٢]، والكبائر ليست على درجة واحدة؛ فبعضها أكبر من بعض.

واختلف العلماء: هل هي معدودة أو محدودة؟

فقال بعض أهل العلم: إنها معدودة، وصار يعددها ويتتبع النصوص الواردة في ذلك.

وقيل: إنها محدودة، وقد حدها شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله، فقال: «كل ما رتب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محبوب أو بحصول مكروه»، وهذا واسع جدًّا يشمل ذنوبًا كثيرة. **ووجه ما قاله: أن المعاصي قسمان:**

قسم نهي عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد؛ فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات؛ كقوله ﷺ: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة،**

---

(٢٠٧) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، برقم (١٧٦٣)، والترمذي، كتاب: التفسير، سورة الأنفال، برقم (٣٠٨١) وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢٠٨) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق، برقم (٤١١٥)، ومسلم، كتاب: الجهاد، باب: استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو، برقم (١٧٤٢) وغيرهما من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢٠٩) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: إذا اشترى شيئا لغيره...، برقم (٢٢١٥)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: قصة أصحاب الغار...، برقم (٢٧٤٣) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ورمضان إلىٰ رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[٢١٠]، وكذلك ما ورد في العمرة إلىٰ العمرة[٢١١]، والوضوء من تكفير الخطايا[٢١٢]، فهذه من الصغائر.

وقسمٌ رُتِّب عليه عقوبة خاصة؛ كاللعن، أو الغضب، أو التبرؤ من فاعله، أو الحد في الدنيا، أو نفي الإيمان، وما أشبه ذلك؛ فهذه كبيرة تختلف في مراتبها.

والسائل في هذا الحديث إنما قصده معرفة الكبائر ليجتنبها، خلافًا لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط، ولذلك نقصت بركة علمهم.

قوله: «الشرك بالله»: ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر؛ لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا»؛ وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب؛ فدل علىٰ أن الشرك من الكبائر مطلقًا.

والشرك بالله يتضمن الشرك بربوبيته، أو بألوهيته، أو بأسمائه وصفاته.

قوله: «اليأس من روح الله»: اليأس: فقد الرجاء، والروح بفتح الراء قريب من معنىٰ الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، واليأس من روح الله من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة.

قوله: «الأمن من مكر الله»: بأن يعصي الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[الأعراف:١٨٢ - ١٨٣].

وظاهر هذا الحديث: الحصر، وليس كذلك؛ لأن هناك كبائر غير هذه ولكن الرسول ﷺ يجيب كل سائل بما يناسب حاله؛ فلعله رأىٰ هذا السائل عنده شيء من الأمن من مكر الله أو اليأس من روح الله، فأراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغي أن يفطن لها الإنسان فيما يأتي من النصوص الشرعية مما ظاهره التعارض، فيحمل كل واحد منها علي الحال المناسبة ليحصل التآلف بين النصوص الشرعية.

---

(٢١٠) أخرجه مسلم، كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس...، برقم (٢٣٣)، والترمذي، كتاب: الصلاة، باب: فضل الصلوات الخمس، برقم (٢١٤) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢١١) أخرجه البخاري، كتاب: العمرة، باب: وجوب العمرة وفضلها، برقم (١٧٧٣)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: فضل الحج...، برقم (١٣٤٩) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢١٢) أخرجه مسلم، كتاب: الطهارة، باب: خروج الخطايا مع ماء الوضوء، برقم (٢٤٤)، والترمذي، كتاب: الطهارة، باب: فضل الطهور، برقم (٢) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❁ **قوله**: «في أثر ابن مسعود: الإشراك بالله»:

هذا أكبر الكبائر؛ لأنه انتهاك لأعظم الحقوق، وهو حق الله تعالىٰ الذي أوجدك وأعدك وأمدك؛ فلا أحد أكبر عليك نعمةً من الله تعالىٰ.

قوله: «**الأمن من مكر الله**»: سبق شرحه.

قوله: «**القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله**»: المراد بالقنوط: أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب، والمراد باليأس هنا أن يستبعد الإنسان زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك؛ لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود.

والخلاصة: أن السائر إلىٰ الله يعتريه شيئان يعوقانه عن ربه، وهما الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، فإذا أصيب بالضراء أو فات عليه ما يحب؛ تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعىٰ لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله؛ فتجد الإنسان مقيمًا علىٰ المعاصي مع توافر النعم عليه، ويرىٰ أنه علىٰ حق فيستمر في باطله؛ فلا شك أن هذا استدراج.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير آية الأعراف: وهي قوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وقد سبق تفسيرها.

الثانية: تفسير آية الحجر: وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وقد سبق تفسيرها.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله: وذلك بأنه من أكبر الكبائر؛ كما في الآية والحديث، وتؤخذ من الآية الأولىٰ، والحديثين.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط: تؤخذ من الآية الثانية والحديثين.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[الاعراف:٩٩]:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الباب أن يبين أنَّ الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله من أعظم الذنوب، وأنَّ كلًّا منهما ينافي كمال التوحيد، وأنَّه يجب علىٰ المؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء.

مكرُ الله: استدراجه العبد بالنعم إذا عصىٰ وإملاؤه له حتىٰ يأخذه أخذ عزيزٍ مقتدرٍ.

﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: الهالكون.

﴿يَقْنَطُ﴾: القنوط: استبعاد الفرج واليأس منه.

﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: المخطئون طريق الصواب.

المعنىٰ الإجمالي للآيتين:

يذكر الله - سبحانه - حال أهل القرىٰ المكذبين للرسل، أنَّ الذين حملهم علىٰ تكذيبهم هو الأمن من استدراج الله لهم، وعدم الخوف منه؛ فتمادوا في المعاصي والمخالفات، واستبعدوا الاستدراج من الله، وهذه حال الهالكين.

وفي الآية الثانية يحكي الله عن خليله إبراهيم عليه السلام أنَّه لما بشرته الملائكة بولده إسحاق عليه السلام استبعد ذلك علىٰ كبر سنِّه، فقالت له الملائكة: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾[الحجر:٥٥]؛ أي: الآيسين، فأجابهم بأنَّه ليس بقانطٍ؛ لكنه قال ذلك علىٰ وجه التعجب.

ما يستفاد من الآيتين:

١- **في الآية الأولىٰ:** التحذير من الأمن من مكر الله، وأنَّه من أعظم الذنوب.

٢- **في الآية الثانية:** التحذير من القنوط من رحمة الله، وأنَّه من أعظم الذنوب.

٣- **في الآيتين:** أنه يجب علىٰ المؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء، فلا يغلِّب جانب الرجاء فيأمن مكر الله ولا يغلب جانب الخوف فييأس من رحمة الله.

٤- أنَّ الخوف والرجاء من أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله وحده لا شريك له.

❁ **قوله: «الكبائر»:**

جمع كبيرةٍ وهي: كل ذنبٍ توعد الله صاحبه بنارٍ أو لعنةٍ أو غضبٍ أو عذابٍ أو نفي الإيمان أو رتب الله عليه حدًّا في الدنيا.

«الشرك بالله»: في ربوبيته وعبوديته.

«واليأس من روح الله»؛ أي: قطع الرجاء والأمل من الله فيما يرومه ويقصده ويخافه ويرجوه.

«من مكر الله»: أي: من استدراجه للعبد أو سلبه ما أعطاه من الإيمان.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

ذكر رسول الله ﷺ في هذا الحديث أنَّ كبائر الذنوب هي: أن يجعل لله -سبحانه- شريكٌ في ربوبيته أو عبوديته وبدأ به؛ لأنه أعظم الذنوب. وقطع الرجاء والأمل من الله؛ لأن ذلك إساءة

ظنٍّ بالله وجهلٍ بسعة رحمته، والأمن من استدراجه للعبد بالنعم حتىٰ يأخذه علىٰ غرةٍ. وليس المراد بهذا الحديث حصر الكبائر فيما ذكر؛ لأنَّ الكبائر كثيرة، لكن المراد بيان أكبرها كما يفيده أثر ابن مسعود الذي ساقه المؤلف بعده.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّه يدل علىٰ أنَّ الأمن من مكر الله واليأس من رحمته من كبائر الذنوب.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم الأمن من مكر الله واليأس من رحمته، وأنهما من أكبر الكبائر كما عليه المرجئة والخوارج.

٢- أنَّ الشرك أعظم الذنوب وأكبر الكبائر.

٣- أنَّ الواجب علىٰ العبد أن يكون بين الخوف والرجاء، فإذا خاف لا ييأس، وإذا رجا لا يأمن.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾[الأعراف: ٩٩]»:

هذا «باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾» [الأعراف: ٩٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾[الحجر: ٥٦]:

هذا الباب عقده المؤلف للآيتين جميعًا لاتصالهما. والمراد بهذا الباب بيان أن الجمع بين الخوف والرجاء واجب من واجبات الإيمان، ولا يتم التوحيد إلا بذلك، فعدم الجمع بين الخوف والرجاء منافٍ لكمال التوحيد، فالواجب علىٰ العبد أن يجعل خوفه مع الرجاء، وأن يجعل رجاءه مع الخوف، وألّا يأمن المكر كما لا يقنط من رحمة الله جل وعلا، فالآية الأولىٰ وهي قول الله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فيها بيان أن المشركين من صفاتهم أنهم أمنوا عقاب الله فلم يخافوا، والواجب بالمقابل أن تكون قلوبهم خائفة وجلة من الله -جل وعلا- قال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أيعلمون تلك المثلات، وفعل الله -جل وعلا- بالأمم السالفة، التي قصها الله في سورة الأعراف فأمنوا مكر الله؟! فإذا كان كذلك، وحصل منهم الأمن مع وجود النذر فيما حولهم، وأن الله قص عليهم القصص والأنباء فإن ذلك من صفات الخاسرين كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

والأمن من مكر الله ناتج عن عدم الخوف، وترك عبادة الخوف، وعبادة الخوف قلبية، والمراد هنا خوف العبادة. وهذا الخوف إذا كان في القلب فإن العبد سيسعىٰ في مراضي الله ويبتعد عن مناهيه، وسيعظِّم الله -جل وعلا- ويتقرب إليه بالخوف؛ لأن الخوف عبادة، ويكون عبادة من وجوه منها: أن يتقرب إلىٰ الله -جل وعلا- بالخوف، وأن يتقرب إلىٰ الله -جل وعلا- بعدم الأمن من مكره، وذلك أن الله هو ذو الجبروت، فعدم الأمن من مكر الله راجع إلىٰ عدم فهم صفات الله -جل وعلا- وأسمائه التي منها: القهار، الجبار، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، ونحو ذلك من صفات الربوبية.

ومكر الله -جل وعلا- من صفاته التي تطلق مقيدة، فالله -جل وعلا- يمكر بمن مكر بأوليائه وأنبيائه، وبمن مكر بدينه؛ لأنها في الأصل صفة نقص، ولكن تكون صفة كمال إذا كانت بالمقابلة؛ لأنها حينئذٍ فيها معنىٰ إظهار العزة والقدرة والقهر والجبروت وسائر صفات الجلال، فمكر الله -جل وعلا- من صفاته التي يتصف بها علىٰ وجه التقييد، فنقول: يمكر بأعداء رسله، يمكر بأعدائه، يمكر بمن مكر به، ونحو ذلك.

وحقيقة مكر الله -جل وعلا- ومعنىٰ هذه الصفة: أنه -جل وعلا- يستدرج العبد ويملي له، حتىٰ إذا أخذه لم يفلته، فييسر له الأمور حتىٰ يظن أنه في غاية الأمن، فيكون ذلك استدراجًا في حقه، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إذا رأيتم الله يعطي العبد، وهو مقيم علىٰ معاصيه، فاعلموا أن ذلك استدراج**»(٢١٣). وهذا ظاهر من معنىٰ المكر؛ لأن في معنىٰ المكر والكيد وأمثالهما معنىٰ الاستدراج.

ولا ترادف في اللغة، بل هناك فروق بين المكر والاستدراج والكيد، ونحو ذلك، لكن نقول هذا من جهة التقرير، فالمكر فيه استدراج، وفيه زيادة أيضًا علىٰ الاستدراج بحيث يكون قلب ذلك المستدرَج آمنًا من كل جهة.

❁ **قوله**: «وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾»:

هذا فيه أن من صفة الضالين أنهم يقنطون من رحمة الله -جل وعلا- ومعنىٰ ذلك بالمفهوم أن صفة المتقين المهتدين أنهم لا يقنطون من رحمة الله، بل يرجون رحمة الله -جل وعلا- والجمع بين الخوف والرجاء واجب شرعًا، فإن الخوف عبادة، والرجاء عبادة، واجتماعهما في القلب واجب فلابُدَّ أن يكون هذا وهذا جميعًا في القلب حتىٰ تصح العبادة.

---

(٢١٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبراني في «الكبير»، برقم (٩١٣)، من حديث عقبة بن عامر ﷺ وصححه الألباني في «الصحيحة»، برقم (٤١٣).

ومن هنا اختلف العلماء في أيهما يغلّب الخوف أم الرجاء؟ هل يغلب العبد جانب الرجاء أو يغلب جانب الخوف؟ والتحقيق أن ذلك علىٰ حالين:

الأولىٰ: إذا كان العبد في حال الصحة والسلامة فإنه إما أن يكون مسددًا مسارعًا في الخيرات، فهذا ينبغي أن يتساوىٰ في قلبه جانب الخوف والرجاء، فيخاف ويرجو؛ لأنه من المسارعين في الخيرات. وإذا كان في حال الصحة والسلامة وكان من أهل العصيان، فالواجب عليه أن يغلب جانب الخوف حتىٰ ينكفّ عن المعصية.

الحال الثانية: إذا كان في حال المرض المخوف فإنه يجب عليه أن يعظّم جانب الرجاء علىٰ الخوف، فيقوم في قلبه الرجاء والخوف، ولكن يكون رجاؤه أعظم من خوفه، وذلك لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا يمت أحدكم إلا وهو يُحسّن الظن بربه تعالىٰ**»(٢١٤). وذلك من جهة رجائه في الله جل جلاله.

ومن هنا اختلف كلمات أهل العلم، فتجد بعضهم يقول: يجب أن يتساوىٰ الخوف والرجاء، وبعض السلف قال: يُغلب جانب الخوف علىٰ جانب الرجاء، وبعض السلف يغلب جانب الرجاء علىٰ جانب الخوف، وهي أقوال متباينة ظاهرًا، لكنها متفقة في الحقيقة؛ لأن كل قول منها يرجع إلىٰ حالة مما ذكرنا.

فمن قال: يغلب جانب الخوف علىٰ الرجاء فهو في حق الصحيح العاصي. ومن قال: يغلب جانب الرجاء علىٰ الخوف فهو في حق المريض الذي يخاف الهلاك أو من يخاف الموت. ومن قال: يساوي بين الخوف والرجاء فنظر إلىٰ حال المسددين المسارعين في الخيرات، الذين وصفهم الله -جل وعلا- بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء: ٩٠]، وقوله -جل وعلا- في سورة الإسراء: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾[الإسراء: ٥٧]، وهذا ظاهر.

---

(٢١٤) أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالىٰ عند الموت، برقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عقد هذا الباب لبيان وجوب أن يجتمع الخوف والرجاء في القلب وقد مر بنا أن هذه الأبواب متتالية لبيان حالات القلب والعبادات القلبية وأحكام ذلك.

❁ **قوله**: «**وعن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **أن رسول الله** ﷺ **سئل عن الكبائر** فقال: «**الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله**»»:

وجه الشاهد من ذلك: أنه جعل اليأس من روح الله، وهو ذهاب الرجاء من القلب وترك الإتيان بعبادة الرجاء، جعله من الكبائر، وجعل الأمن من مكر الله، وهو ذهاب الخوف من الله -جل وعلا- من القلب جعله من الكبائر، فعدم الرجاء في الله من الكبائر، وعدم الخوف من الله -جل وعلا- من الكبائر، وهي كبائر من جهة أعمال القلوب، واجتماع الكبيرتين معًا بألّا يكون عنده رجاء ولا خوف أعظم من كبيرة ترك الخوف وحده من الله، أو ترك الرجاء وحده من الله جل وعلا، ولهذا قرن بينهما في هذا الحديث حيث قال: «**سئل عن الكبائر فقال: الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله**» وبهذا يتبين لك الفرق بين اليأس من روح الله أو القنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله؛ لأن اليأس راجع إلىٰ ترك عبادة الرجاء، والأمن من مكر الله راجع إلىٰ ترك عبادة الخوف، واجتماعهما واجب من الواجبات، وذهابهما أو الانتقاص منهما نقص في كمال توحيد من قام ذلك بقلبه.

❁ **قوله**: «**وعن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله...»**»:

في هذا الأثر ما في الحديث قبله، لمن فصّل في القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، فجعل القنوط من رحمة الله شيئًا، وجعل اليأس من روح الله شيئًا آخر، وهذا باعتبار بعض الصفات لا باعتبار أصل المعنىٰ، وإلا فإن القنوط من الرحمة واليأس من الروح بمعنىً واحد، لكن يختلفان من حيث ما يتناوله هذا، ويتناوله هذا، فالقنوط من رحمة الله عام؛ لأن الرحمة أعم من الروح، والرحمة تشمل جلب النعم ودفع النقم، وروح الله -جل وعلا- يطلق في الغالب في الخلاص من المصائب، فقوله: القنوط من رحمة الله هذا أعم، ولهذا قدمه فيكون ما بعده من عطف الخاص علىٰ العام، أو أن يكون هناك ترادف في أصل المعنىٰ، واختلاف في الصفات، أو بعض ما يتعلق باللفظ.

فهذا الحديث مع الحديث قبله والآيتين دلالتهما علىٰ ما أراد المؤلف من عقد هذا الباب واحدة، ودلالة الجميع أن الخوف والرجاء واجب اجتماعهما في القلب وإفراد الله -جل وعلا- بهما، والمقصود خوف العبادة، ورجاء العبادة.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف، أي: قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾، الآية، والمعنى أن الله ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل،وبين أن الذي حملهم على ذلك كونهم أمنوا مكر الله.

الثانية: تفسير آية الحجر، أي: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾[الحجر:٥٦] ففيها ذم القنوط،والحث على الرجاء، والأولى فيها ذم الأمن والحث على الخوف.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله، أي: إنه من الكبائر.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط، أي: لكونه من الكبائر أيضًا.

* الأسئلة *

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾».

س: اذكر معنى هذه الآية، وبين مناسبتها لكتاب التوحيد.

جـ: معنىٰ الآية أن الله تبارك وتعالىٰ لما ذكر أهل القرىٰ المكذبين للرسل بين أن الذي حملهم علىٰ ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه، وأخبر أنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وهم الهالكون.

ومناسبة الآية لكتاب التوحيد: أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب، وأنه ينافي كمال التوحيد.

س: ما هو مكر الله؟

جـ- مكر الله، قال ابن كثير: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم، وقال ابن جرير: هو استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم(٢١٥)؛ يعني: أن الله – تعالىٰ – يسبغ علىٰ العبد نعمه علىٰ عصيانه وكفره ثم يأخذه بغته وهو لا يشعر.

س: اذكر مقصود المؤلف بهذا الباب.

جـ: مقصوده التنبيه علىٰ وجوب الجمع بين الخوف والرجاء.

❁ **قوله:** «قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[الحجر:٥٦]».

س: ما هو القنوط، وما مناسبة الآية للباب، ولماذا ذكر المؤلف هذه الآية مع التي قبلها، ومن هم الضالون؟

جـ: **القنوط:** استبعاد الفرج واليأس منه.

ومناسبة الآية للباب: أن القنوط من رحمة الله ذنب عظيم ينافي كمال التوحيد، كما أن الأمن من مكر الله كذلك.

---

(٢١٥) أخرجه الطبري(٩/ ٩).

وذكر المؤلف هذه الآية مع التي قبلها تنبيهًا علىٰ أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفًا راجيًا يخاف ذنوبه ويعمل بطاعة الله ويرجو رحمته.

والضالون: هم المخطئون طريق الصواب أو الكافرون.

قوله: «عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر فقال: الشرك بالله...».

س: عرف الكبائر، وهل هي منحصرة في هذه الثلاث أم لا. وضح ما تقول.

ج: الكبائر جمع كبيرة وهي كل معصية فيها حد في الدنيا كالقتل والزنا والسرقة وشرب الخمر، أو وعيد في الآخرة من عذاب أو غضب أو لعنة أو نفي إيمان أو بريء منه الرسول ﷺ أو قال ليس منا من فعل كذا وكذا... وهي غير منحصرة في هذه الثلاث بل هي كثيرة، وهذه الثلاث من أكبرها كما في حديث ابن مسعود.

س: بين معاني الكلمات الآتية: الشرك بالله، اليأس من روح الله، الأمن من مكر الله، القنوط من رحمة الله، ولماذا ذكر المؤلف هذا الحديث المتضمن لهذه الأشياء في كتاب التوحيد؟

ج: **الشرك بالله:** هو أكبر الكبائر وهو أن يجعل الله شريكًا في ربوبيته أو عبادته يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو يحبه كما يحب الله، أو يصرف له نوعًا من أنواع العبادة، وهو هضم للربوبية، وتنقص للإلهية، وسوء ظن برب العالمين.

اليأس من روح الله: قطع الرجاء من رحمته.

الأمن من مكر الله: عدم الخوف من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان.

القنوط من رحمة الله: شدة اليأس من رحمته وتقدم معناه.

وذكر المؤلف هذا الحديث المتضمن لهذه الأشياء في كتاب التوحيد تحذيرًا منها؛ لأن منها ما ينافي التوحيد كالشرك بالله، ومنها ما ينافي كماله كبقيتها.

الدرس الخامس والثلاثون:

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضىٰ ويسلم»[٢١٦].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة علىٰ الميت»[٢١٧].

ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: «ليس مِنَّا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوىٰ الجاهلية»[٢١٨].

وعن أنس: أن رسول الله قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له بالعقوبة[٢١٩] في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتىٰ يوافي به يوم القيامة»[٢٢٠].

وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالىٰ إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي، فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[٢٢١] حسنه الترمذي.

---

(٢١٦) أخرجه الطبري (٢٨/ ١٢٣)، والبيهقي(٤/ ٦٦) وفي «شعب الإيمان» (٧/ ١٩٦) وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

(٢١٧) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إطلاق اسم الكفر علىٰ الطعن في النسب والنياحة، برقم (٦٧)، وأحمد (٢/ ٣٧٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢١٨) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ليس منا من شق الجيوب، برقم (١٢٩٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم ضرب الخدود...، برقم (١٠٣) وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢١٩) في نسخة ابن القاسم: «العقوبة».

(٢٢٠) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: الصبر علىٰ البلاء، برقم (٢٣٩٦)، والحاكم، برقم (٨٧٩٩)، وأبو يعلىٰ، برقم (٤٢٥٤) وغيرهم من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢٢١) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: الصبر علىٰ البلاء، برقم (٢٣٩٦)، والقضاعي، برقم (١١٢١) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: إرادة الله به الشر.

السابعة: علامة حب الله للعبد.

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله:** «باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله»:

أراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بيان وجوب الصبر على الأقدار وبيان فضله، وتحريم ضده المنقص لكمال التوحيد، والإيمان عند أهل السنة: نطق باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان يزيد وينقص. والصبر في اللغة الحبس والكف، ومنه: قتل فلان صبرًا، إذا أمسك وحبس، ومنه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[الكهف:٢٨]؛ أي: احبس نفسك معهم، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «والصبر ضياء»، ولهما: «ما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر»[٢٢٢]. وقال علي: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ثم رفع صوته وقال: أما إنه لا إيمان لمن لا صبر له. قال أحمد: ذكره الله في تسعين موضعًا من كتابه، وهو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما، **وينقسم إلى ثلاثة أقسام:** صبر على ما أمر الله به، وصبر عما نهى الله عنه، وصبر على ما قدره الله من المصائب، وهو واجب بالإجماع.

---

(٢٢٢) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، برقم (١٤٦٩)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل التعفف والفضل، برقم (١٠٥٣) وغيرهما من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

❁ **قوله**: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾»:

أول الآية: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بقدره ومشيئته وإرادته الكونية القدرية، وحكمته التامة، كقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ الآية [الحديد:٢٢]. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾؛ أي: من أصابته مصيبة فعلم أنها من قدر الله فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدىٰ الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدًىٰ في قلبه ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيرًا منه، كما قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧]، وفي الحديث الصحيح: «**عجبًا للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»(٢٢٣)، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تنبيه علىٰ أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته، وذلك يوجب الصبر والرضىٰ.

❁ **قوله**: «**قال علقمة: هو الرجل، تصيبه المصيبة، فيعلم...**»:

هذا الأثر رواه الأعمش عن ابن ظبيان قال: كنا عند علقمة، فقرئ عليه هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ إلىٰ آخرها، وهذا سياق ابن جرير، وقد رواه ابن أبي حاتم، وصححه الشارح، وروي أيضًا عن ابن مسعود، وهذا التفسير منهم للإيمان المذكور في الآية باللازم؛ إذ هو لازم للإيمان الراسخ في القلب، وفيه دليل علىٰ أن الأعمال من مسمىٰ الإيمان، وفيها بيان أن الصبر سبب لهداية القلوب، وأنها من ثواب الصابر. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن:١١]؛ يعني: يسترجع يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة:١٥٦] وعلقمة: هو ابن قيس بن عبد الله بن علقمة ابن سلامان بن كهل بن بكر بن عوف، ويقال: ابن المنتشر بن النخع الكوفي، ولد في حياة النبي ﷺ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم، وهو من كبار التابعين وعلمائهم وثقاتهم، مات بعد الستين وله تسعون.

---

(٢٢٣)أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، برقم (٢٩٩٩)، وابن حبان، برقم (٢٨٩٦) وغيرهما من حديث صهيب رضي الله عنه.

❁ **قوله:** «اثنان في الناس هما بهم كفر»:

«هما»؛ أي: الاثنتان، بالناس؛ أي: فيهم، «كفر» حيث كانتا من أعمال الجاهلية هما قائمتان بالناس، ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله، فأطلق الكفر علىٰ من قامت به خصلة من هاتين الخصلتين، لكن ليس من قامت به شعبة من شعب الكفر يصير كافرًا الكفر المطلق، حتىٰ يقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس من قامت به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمنًا الإيمان المطلق، حتىٰ يقوم به أصل الإيمان. وفرق بين الكفر المعرف بأل وذلك المخرج من الملة، كما في قوله: «**ليس بين العبد وبين الكفر والشرك إلا ترك الصلاة**»(٢٢٤)، وبين الكفر المنكر في الإثبات فذلك يقتضي التشديد والتهويل والزجر.

❁ **قوله:** «الطعن في النسب»:

أي: عيبه، ويدخل فيه أن يقال: ليس هذا ابن فلان مع ثبوت نسبه، أو ليس بنو فلان من بني فلان مع انتسابهم إليهم، وهذا مع عدم وجود دلائل ظاهرة، أو حكم شرعي بنفيه، فلا يجوز الطعن بمستور النسب ومجهوله، فإن الناس مأمونون علىٰ أنسابهم. أما إذا كان ذلك لبيان النسب وإثباته وترجيعه إلىٰ أصله فهذا لا يدخل في هذا الوعيد.

❁ **قوله:** «والنياحة علىٰ الميت»:

أي: رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت ومحاسنه، والتوجع والتفجع؛ لما فيه من التسخط علىٰ قدر الله المنافي للصبر، كقول النائحة: واعضداه واناصراه، ونحو ذلك، والشاهد فيه تحريم الجزع المنافي لكمال التوحيد، وفيه دليل علىٰ وجوب الصبر، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

❁ **قوله:** «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب»:

هذا من نصوص الوعيد، وقد كره السلف تأويلها؛ ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ في الزجر، وهو يدل علىٰ أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب، وخص الخد لكونه في الغالب، وإلا فضرب بقية الوجه مثله، والجيوب جمع جيب، وهو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وشقها: تمزيقها جزعًا علىٰ الميت، وذلك من عادة أهل الجاهلية.

---

(٢٢٤) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر علىٰ من ترك الصلاة، برقم (٨٢)، والنسائي، كتاب: الصلاة، باب: الحكم في تارك الصلاة، برقم (٤٦٤) وغيرهما من حديث جابر ﵁.

قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية»:

قال شيخ الإسلام: هو ندب الميت، وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور، وقال ابن القيم: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشائخ، وتفضيل بعضهم على بعض، يدعو إلى ذلك ويوالي عليه، وعن أبي أمامة أنه - عليه الصلاة والسلام - لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور. رواه ابن ماجه، وصححه ابن حبان، وهذه الأمور من الكبائر؛ لما اشتملت عليه من التسخط على الرب جل وعلا، وقد يُعفى عن اليسير منها إذا لم يكن على وجه النوح والتسخط، نص عليه أحمد. «ولما دخل أبو بكر على النبي ﷺ بعد وفاته وضع فمه بين عينيه، ويده على صدغيه، وقال: وانبياه واخليلاه واصفياه»[٢٢٥] رواه أحمد.

وصح عن فاطمة أنها قالت: «يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه»[٢٢٦] الحديث، والحديث لا يدل على البكاء أصلًا، وإنما يدل على النهي عما ذكر فيه، وعلى البكاء برنة، وحلق شعر، وخمش وجه، ونحو ذلك، وأما البكاء على وجه الرحمة والرأفة ونحو ذلك فحسن مستحب، لا ينافي الرضى بقضاء الله، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه، ولما مات إبراهيم قال ﷺ: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون**»[٢٢٧].

قوله: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا**»:

أي: صُب عليه المصائب والبلاء صبًّا؛ لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليست عليه ذنب يوافي به يوم القيامة، وفي الصحيح: «**ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة**»[٢٢٨]؛ فالمصائب نعمة؛ لأنها تكفر الذنوب، وتدعو إلى الصبر، فيثاب عليها، وتقتضي

---

(٢٢٥) أخرجه أحمد(٦/ ٣١)، وأبو يعلى، برقم (٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٢٩) وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في«الإرواء»، برقم (٣/ ١٥٧)

(٢٢٦) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٦٢) وغيره من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢٢٧) أخرجه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان...، برقم (٢٣١٥)، وأبو داود، كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت، برقم (٣١٢٦) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢٢٨) أخرجه الترمذي، كتاب: الجنائز، باب: الصبر على البلاء، برقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء، برقم (٤٠٢٣)، وأحمد(١/ ١٧٢، ١٧٣)، والدارمي، برقم (٢٧٨٣) وغيرهم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

الإنابة إلىٰ الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلىٰ غير ذلك من المصالح، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصٍ أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فهذه العافية خير له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة.

قوله: «وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه...»:

«يوافي» بضم الياء وكسر الفاء، منصوب بـ«حتىٰ»؛ أي: لا يجازىٰ بذنبه في الدنيا، بل يؤخر عنه العقوبة، حتىٰ يجيء في الآخرة مستوفي الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العذاب، وهذا مما يزهد العبد في الصحة الدائمة، خوفًا أن تكون طيباته عجلت له في الحياة الدنيا، وفيه أن البلاء للمؤمن من علامات الخير، والخوف من الصحة الدائمة خشية أن تكون علامة شر، والتنبيه علىٰ رجاء الله، وحسن الظن به فيما يقضيه لك مما تكره، وهذه الجملة هي آخر الحديث. ورواه الترمذي وحسنه والحاكم والطبراني، والحاكم أيضًا عن عبد الله بن مغفل، وابن عدي عن أبي هريرة، ولما روىٰ الترمذي هذا الحديث والذي بعده بإسناد واحد وصحابي واحد، وكان معناهما واحدًا، ساقهما المصنف كالحديث الواحد.

قوله: «**إن عظم الجزاء مع البلاء**»:

بكسر العين وفتح الظاء فيهما، ويجوز ضمها مع سكون الظاء؛ أي: من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية كان ثوابه أعظم وفضله أجزل، فإذا صبر واحتسب فإنه حينئذ يثاب علىٰ ما تولد منها، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سببًا لعمل صالح كالصبر والرضىٰ والتوبة والاستغفار فإنه حينئذ يثاب علىٰ ما تولد منها.

قوله: «**وإن الله -تعالىٰ- إذا أحب قومًا ابتلاهم**»:

هذا صريح في حصول الابتلاء لمن أحبه الله؛ ولهذا ورد في حديث سعد: «أي الناس أشد بلاءً؟ » قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل يبتلىٰ الرجل علىٰ قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض وما عليه خطيئة**»(٢٢٩). وهذا ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في نفوسهم، الذي هو في الحقيقة رحمة، ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا دفعًا، فلأن لا يكون لغيرهم أولىٰ وأحرىٰ، وفي أثر إلهي: «**أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب**».

---

(٢٢٩) سبق فيما قبله.

❁ **قوله:** «فمن رضي فله الرضىٰ»:

أي: من رضي بما قضاه الله وقدره عليه من الابتلاء، فله الرضىٰ من الله جزاءً وفاقًا، والرضىٰ قد وصف الله به نفسه في مواضع من كتابه، ومذهب السلف إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته، فإذا رضي الله عنه حصل له كل خير، وسلم من كل شر، والرضىٰ: هو أن يسلم العبد أمره إلىٰ الله، ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه.

❁ **قوله:** «ومن سخط فله السخط»:

سخط بكسر الخاء وهو الكراهية للشيء، وعدم الرضىٰ به؛ أي: من سخط علىٰ الله فيما دبره، فله السخط من الله، وكفىٰ بذلك عقوبة، وعن محمود ابن لبيد مرفوعًا: «**إذا أحب الله قومًا ابتلاهم فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع**»(٢٣٠)، وقال المنذري: رواته ثقات. وقد يستدل به علىٰ وجوب الرضىٰ، واختار الشيخ وغيره عدم الوجوب، وقال: لم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء علىٰ أصحابه، وأعلىٰ من الرضىٰ أن يشكر الله علىٰ المصيبة، لما يرىٰ من إنعام الله عليه بها.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «**باب من الإيمان بالله الصبر علىٰ أقدار الله**»:

أما الصبر علىٰ طاعة الله، والصبر عن معصيته، فهو ظاهر لكل أحد: أنهما من الإيمان، بل هما أساسه وفرعه، فإن الإيمان كله صبر علىٰ ما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه، وصبر عن محارم الله.

فإن الدين يدور علىٰ ثلاثة أصول:

تصديق خبر الله ورسوله وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما؛ فالصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة داخل في هذه العموم، ولكن خُصَّ بالذكر لشدة الحاجة إلىٰ معرفته والعمل به.

فإن العبد متىٰ علم أن المصيبة بإذن الله، وأن الله أتم الحكمة في تقديرها، وله النعمة السابغة في تقديرها علىٰ العبد، رضي بقضاء الله، وسلم لأمره، وصبر علىٰ المكاره تقربًا إلىٰ الله، ورجاءً لثوابه، وخوفًا من عقابه، واغتنامًا لأفضل الأخلاق، فاطمأن قلبه، وقوي إيمانه وتوحيده.

---

(٢٣٠) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩)، والطبراني، برقم (٣٢٢٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ١٤٥) وغيرهم من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (٣٤٠٦)

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب من الإيمان بالله الصبر علىٰ أقدار الله»:

أراد المؤلف أن يبين أن الصبر علىٰ ما يقدره الله من الإيمان، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يجزع عند المصيبة في نفسه أو ولده أو ماله أو أهله بل يتحمل قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة:١٥٥] هذا بعد قوله: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ ...﴾ وقال: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الأنفال:٤٦] ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[الزمر:١٠] وفي الحديث: «**ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**»(٢٣١).

قوله: «﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة»:

أي: يؤمن بأن الله قضىٰ وقدر المصيبة فيحتسب ولا يجزع، وبهذا يهدي الله قلبه للخير ويطمئنه ويسدده بسبب عمله الطيب. قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلم وقبلها: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾.

قوله: «وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: اثنتان في الناس...»:

الطعن في الأنساب؛ أي: التنقص في الأنساب تكبرًا وتعاظمًا علىٰ الناس واحتقارًا لهم فهذا من الكفر المنكر أي: شعبة من شعب الكفر، وهو كفر دون كفر وهو من الكفر الأصغر لا الأكبر، وهو من خصال الجاهلية، وفي الحديث السابق: «**أربعة في أمتي من أمر الجاهلية**»(٢٣٢). أما إذا قصد بالنسب التعريف بالناس فلا بأس ولا يدخل في الحديث.

النياحة علىٰ الميت: هذا يدل علىٰ الجزع وهو رفع الصوت بالصياح والنياحة فلا يجوز، أما دمع العين وهو البكاء فلا بأس كما في الحديث: «**والعين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي الله، وإنا علىٰ فراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(٢٣٣).

قوله: «ولهما عن ابن مسعود...»:

حديث ابن مسعود مرفوعًا: «**ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا...**».

---

(٢٣١) سبق تخريجه.

(٢٣٢) سبق تخريجه.

(٢٣٣) سبق تخريجه.

وهذا يدل على الجزع أيضًا وهو من عمل الجاهلية ويجب الصبر والثبات والعلم بأن الله قدر هذه الأقدار وقسمها ولا بد من الموت، ومع هذا يتعاطى الأسباب الشرعية.

وفي الحديث: «**أنا بريء من الصالقة والحالقة والشاقة**»(٢٣٤).

❁ **قوله**: «**عن أنس مرفوعًا: إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد...**»:

إذا أراد بعبده تكفير السيئات عجل له العقوبة إما بالفقر وإما بالمرض أو تلف ماله... فيكفر الله بها خطاياه وسيئاته، وإذا أراد الشر أمسك عنه بذنبه فيكون معافى في كل شيء حتى يوافي ذنوبه كلها في الآخرة، فيكون أشد من الدنيا.

فكثرة المصائب قد يمحى بها جميع المعاصي والسيئات فعليه بالصبر.

❁ **قوله**: «**وقال النبي ﷺ: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء...**»:

أي: كلما عظم البلاء عظم الجزاء فإذا اشتد المرض وكثر فيكون التكفير أكثر، وإذا اشتدت المصيبة في المال وغيره صار الجزاء أعظم والثواب أكثر.

قوله: «**وإذا أحب الله قومًا ابتلاهم**»؛ أي: ابتلاهم ليمحص ذنوبهم ويزيل خطاياهم حتى يلقوه سالمون من الذنوب فيدخلون الجنة من أول وهلة ومثل هذا حديث: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى المرء على قدر دينه**»(٢٣٥) وفي رواية: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى المرء على قدر دينه**»(٢٣٦) فإذا كان دينه قويًا شدد عليه البلاء.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله**: «**باب من الإيمان الصبر على أقدار الله**»:

«**الصبر**»: في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: «**قتل صبرًا**»؛ **أي**: محبوسًا مأسورًا.

وفي الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء، وهو **ثلاثة أقسام**:

الأول: الصبر على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه:١٣٢] وقال

---

(٢٣٤) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما ينهى من الحلق عند المصيبة، برقم (١٢٩٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم ضرب الخدود...، برقم (١٠٤) وغيرهما من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢٣٥) سبق تخريجه.

(٢٣٦) أخرجه الحاكم، برقم (٥٤٦٣)، والنسائي في «الكبرى»، برقم (٤/ ٣٧٩) وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[الإنسان:٢٣ - ٢٤]، وهذا من الصبر علىٰ الأوامر؛ لأنه إنما نزل عليه القرآن ليبلغه؛ فيكون مأمورًا بالصبر علىٰ الطاعة، وقال تعالىٰ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الكهف:٢٨]، وهذا صبر علىٰ طاعة الله.

الثاني: الصبر عن معصية الله؛ كصبر يوسف عليه السلام عن إجابة امرأة العزيز حيث دعته إلىٰ نفسها في مكانة لها فيها العزة والقوة والسلطان عليه، ومع ذلك صبر وقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَٰهِلِينَ﴾[يوسف:٣٣]؛ فهذا صبر عن معصية الله.

الثالث: الصبر علىٰ أقدار الله، قال تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[الإنسان:٢٤]، فيدخل في هذه الآية حكم الله القدري، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[الأحقاف:٣٥]؛ لأن هذا صبر علىٰ تبليغ الرسالة وعلىٰ أذىٰ قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدىٰ بناته: «مرها؛ فلتصبر ولتحتسب»(٢٣٧).

إذن الصبر ثلاثة أنواع؛ أعلاها الصبر علىٰ طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر علىٰ أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلا فقد يكون الصبر علىٰ المعصية أشق علىٰ الإنسان من الصبر علىٰ الطاعة إذا فتن الإنسان مثلًا بامرأة جميلة تدعوه إلىٰ نفسها في مكان خال لا يطلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة؛ فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون علىٰ النفوس، قد يصلي الإنسان مائة ركعة وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر علىٰ الطاعة؛ فقد يموت له مثلًا قريب أو صديق أو عزيز عليه جدًّا، فتجده يتحمل من الصبر علىٰ هذه المصيبة مشقة عظيمة.

وبهذا يندفع الإيراد الذي يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر؛ إذ بعض المعاصي يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق؛ فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هي بقطع النظر عن الصابر.

---

(٢٣٧) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في قول الله تعالىٰ ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، برقم (٧٤٤٨)، ومسلم، كتاب: الجنائز، باب: البكاء علىٰ الميت، برقم (٩٢٣) وغيرهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

وكان الصبر على الطاعة أعلى؛ لأنه يتضمن إلزامًا وفعلًا، فتلزم نفسك الصلاة فتصلي، والصوم فتصوم، والحج فتحج... ففيه إلزام وفعل وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر على المعصية؛ لأن فيه كفًّا فقط؛ أي: إلزامًا للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار؛ فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فعلًا ولا تركًا، وإنما هو من قدر الله المحض.

وخص المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب الصبر على أقدار الله؛ لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية؛ لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية الله تعالى.

قوله: «على أقدار الله»: جمع قدر، وتطلق على المقدور وعلى فعل المقدِّر، وهو الله تعالى، أما بالنسبة لفعل المُقدِّر، فيجب على الإنسان الرضا به والصبر، وبالنسبة للمقدور؛ فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا. **مثال ذلك**: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدَّر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به؛ لأنه من تمام الرضا بالله ربًّا.

وأما بالنسبة للمقدور الذي هو احتراق السيارة؛ فالصبر عليه واجب، والرضا به مستحب وليس بواجب على القول الراجح.

والمقدور قد يكون طاعات، وقد يكون معاصٍ، وقد يكون من أفعال الله المحضة؛ فالطاعات يجب الرضا بها، والمعاصي لا يجوز الرضا بها من حيث هي مقدور، أما من حيث كونها قدر الله؛ فيجب الرضا بتقدير الله بكل حال، ولهذا قال ابن القيم:

فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط ال ... مقضي حين يكون بالعصيان

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية؛ فعليه الرضا لأن الله هو الذي قدر هذا، وله الحكمة في تقديره، وإذا نظر إلى فعله؛ فلا يجوز له أن يرضى به لأنه معصية، وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور.

✿ **قوله**: «قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾»:

﴿وَمَن﴾: اسم شرط جازم، وفعل الشرط ﴿يُؤْمِنۢ﴾، وجوابه ﴿يَهْدِ﴾، والمراد بالإيمان بالله هنا الإيمان بقدره.

قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾: يرزقه الطمأنينة، وهذا يدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب، فإذا اهتدى القلب اهتدت الجوارح؛ لقوله ﷺ **«إن في الجسد مضغه، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»** (٢٣٨).

---

(٢٣٨)سبق تخريجه.

❁ **قوله: «قال علقمة»:**

هو من أكابر التابعين.

قوله: «**هو الرجل تصيبه المصيبة...**» إلخ: وتفسير علقمة هذا من لازم الإيمان؛ لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله، فيرضىٰ ويُسلم، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر.

❁ **قوله: «في حديث أبي هريرة: اثنتان»:**

مبتدأ، وسوغ الابتداء به التقسيم، أو أنه مفيد للخصوص.

قوله: «**بهم كفر**»: الباء يحتمل أن تكون بمعنىٰ «من»؛ أي: هما منهم كفر، ويحتمل أن تكون بمعنىٰ «في»؛ أي: هما فيهم كفر.

قوله: «**كفر**». أي: هاتان الخصلتان كفر ولا يلزم من وجود خصلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافرًا، كما لا يلزم من وجود خصلتين في الكافر من خصال الإيمان؛ كالحياء، والشجاعة، والكرم؛ أن يكون مؤمنًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**بخلاف قول رسول الله ﷺ: «بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة»**[٢٣٩] فإنه هنا أتىٰ بأل الدالة علىٰ الحقيقة؛ فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة، بخلاف مجيء «**كفر**» نكرة؛ فلا يدل علىٰ الخروج عن الإسلام.

قوله: «**الطعن في النسب**»؛ أي: العيب فيه أو نفيه، فهذا عمل من أعمال الكفر.

قوله: «**النياحة علىٰ الميت**»؛ أي: أن يبكي الإنسان علىٰ الميت بكاء علىٰ صفة نوح الحمام؛ لأن هذا يدل علىٰ التضجر وعدم الصبر، فهو مناف للصبر الواجب، وهذه الجملة هي الشاهد للباب.

والناس حال المصيبة علىٰ مراتب أربع:

الأولىٰ: التسخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط علىٰ ربه ويغضب علىٰ قدر الله عليه، وقد يؤدي إلىٰ الكفر، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾[الحج:١١]، وقد يكون باللسان؛ كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح؛ كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور، و أشبه ذلك.

---

(٢٣٩) سبق تخريجه.

الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

الصبر مثل اسمه مر مذاقته لكن عواقبه أحلىٰ من العسل

فيرىٰ الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحمله ويتصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلىٰ من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره وإن كان قد يحزن من المصيبة؛ لأنه رجل يسبح في القضاء والقدر؛ أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به علىٰ سهل أو جبل، إن أصيب بنعمة أو أصيب بضدها؛ فالكل عنده سواء، لا لأن قلبه ميت، بل لتمام رضاه بربه - سبحانه وتعالىٰ - يتقلب في تصرفات الرب ﷻ، ولكنها عنده سواء؛ إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه، وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

الرابعة: الشكر، وهو أعلىٰ المراتب، وذلك أن يشكر الله علىٰ ما أصابه من مصيبة، وذلك يكون في عباد الله الشاكرين حين يرىٰ أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته شكر الله علىٰ ذلك، قال النبي ﷺ: **«ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شيء إلا كفر له بها، حتىٰ الشوكة يشاكها»**(٢٤٠)

كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك.

❁ **قوله**: **«في حديث ابن مسعود: مرفوعًا»**:

أي: إلىٰ النبي ﷺ.

قوله: **«من ضرب الخدود»**: العموم يراد به الخصوص؛ أي: من أجل المصيبة.

قوله: **«ومن شق الجيوب»**. هو طوق القميص الذي يدخل منه الرأس، وذلك عند المصيبة تسخطًا وعدم تحمل لما وقع عليه.

قوله: **«ودعا بدعوىٰ الجاهلية»**: دعوىٰ مضاف والجاهلية مضاف إليه، وتنازع هنا أمران:

الأول: صيغة العموم «دعوىٰ الجاهلية»؛ لأنه مفرد مضاف فيعم.

---

(٢٤٠) أخرجه البخاري، كتاب: المرضىٰ، باب: ما جاء في كفارة المرضىٰ، برقم (٥٦٤٠)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن...، برقم (٢٥٧٢) وغيرهما من حديث عائشة ﵂.

الثاني: القرينة؛ لأن ضرب الخدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة فيكون دعا بدعوىٰ الجاهلية عند المصيبة، مثل قولهم: واويلاه! وانقطاع ظهراه!

والأولىٰ أن ترجح صيغة العموم، والقرينة لا تخصصه؛ فيكون المقصود بالدعوىٰ كل دعوي منشؤها الجهل.

وذكر هذا الأصناف الثلاثة؛ لأنها غالبًا ما تكون عند المصائب، وإلا، فمثله هدم البيوت، وكسر الأواني، وتخريب الطعام، ونحوه مما يفعله بعض الناس عند المصيبة.

وهذه الثلاثة من الكبائر؛ لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعلها.

ولا يدخل في الحديث ضرب الخد في الحياة العادية، مثل ضرب الأب لابنه، لكن يكره الضرب علىٰ الوجه للنهي عنه، وكذلك شق الجيب لأمر غير المصيبة.

❁ **قوله**: «**في حديث أنس: إذا أراد الله بعبده الخير**»:

الله يريد بعبده الخير والشر ولكن الشر المراد لله تعالىٰ ليس مرادًا لذاته بدليل قول النبي ﷺ: «**والشر ليس إليك**» (٢٤١). ومن أراد الشر لذاته كان إليه، ولكن الله يريد الشر لحكمة، وحينئذ يكون خيرًا باعتبار ما يتضمنه من الحكمة.

قوله: «**عجل له بالعقوبة في الدنيا**»: العقوبة: مؤاخذة المجرم بذنبه، وسميت بذلك؛ لأنها تعقب الذنب، ولكنها لا تقال إلا في المؤاخذة علىٰ الشر.

وقوله: «**عجل له العقوبة في الدنيا**». كان ذلك خيرًا من تأخيرها للآخرة؛ لأنه يزول وينتهي؛ ولهذا قال النبي ﷺ للمتلاعنين: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**» (٢٤٢)

وهناك خير أولىٰ من ذلك وهو العفو عن الذنب، وهذا أعلىٰ؛ لأن الله إذا لم يعاقبه في الدنيا ولا في الآخرة؛ فهذا هو الخير كله، ولكن الرسول ﷺ جعل تعجيل العقوبة خيرًا باعتبار أن تأخر العقوبة إلىٰ الآخرة أشد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[طه:١٢٧].

---

(٢٤١) أخرجه مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٧١)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: مايستفتح به الصلاة من الدعاء، برقم (٧٦٠) وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢٤٢) أخرجه أبو دادو، كتاب: الطلاق، باب: اللعان، برقم (٢٢٥٦)، وأحمد (١/ ٢٣٨، ٣٠٩)، وأبو يعلىٰ، برقم (٢٧٤٠) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

والعقوبة أنواع كثيرة:

منها: ما يتعلق بالدين، وهي أشدها؛ لأن العقوبات الحسية قد يتنبه لها الإنسان، أما هذه، فلا يتنبه لها إلا من وفقه الله، وذلك كما لو خفت المعصية في نظر العاصي؛ فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة علىٰ حرمات الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

ومنها: العقوبة بالنفس، وذلك كالأمراض العضوية والنفسية.

ومنها: العقوبة بالأهل؛ كفقدانهم، أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال؛ كنقصه أو تلفه وغير ذلك.

قوله: «**وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه**». «**أمسك عنه**»؛ أي: ترك عقوبته، والإمساك فعل من أفعال الله، وليس معناه تعطيل الله عن الفعل، بل هو لم يزل ولا يزال فعالًا لما يريد، لكنه يمسك عن الفعل في شيء ما لحكمة بالغة؛ ففعله حكمة، وإمساكه حكمة.

قوله: «**حتىٰ يوافي به يوم القيامة**»؛ أي: يوافيه الله به؛ أي: يجازيه به يوم القيامة، وهو الذي يقوم به الناس من قبورهم لله رب العالمين.

وسمي بيوم القيامة لثلاثة أسباب:

١- قيام الناس من قبورهم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦].

٢- قيام الأشهاد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

٣- قيام العدل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث: تسلية الإنسان إذا أصيب بالمصائب لئلا يجزع؛ فإن ذلك قد يكون خيرًا، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة؛ فيحمد الله أنه لم يؤخر عقوبته إلىٰ الآخرة.

وعلىٰ فرض أن أحدًا لم يأت بخطيئة وأصابته مصيبة؛ فنقول له: إن هذا من باب امتحان الإنسان علىٰ الصبر، ورفع درجاته باحتساب الأجر، لكن لا يجوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يرىٰ أنه لم يخطئ أن يقول: أنا لم أخطئ فهذه تزكية؛ فلو فرضنا أن أحدًا لم يصب ذنبًا وأصيب بمصيبة فإن هذه المصيبة لا تلاقي ذنبًا تكفره لكنها تلاقي قلبًا تمحصه؛ فيبتلي الله الإنسان بالمصائب لينظر هل يصبر أو

لا؟ ولهذا كان أخشىٰ الناس لله ﷻ وأتقاهم محمد ﷺ ، يوعك كما يوعك رجلان منا(٢٤٣) .

وذلك لينال أعلي درجات الصبر فينال مرتبة الصابرين علىٰ أعلي وجوهها؛ ولذلك شُدد عليه ﷺ عند النزع ومع هذه الشدة كان ثابت القلب، ودخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر وهو يستاك فأمده بصره «يعني: ينظر إليه» فعرفت عائشة رضي الله عنها أنه يريد السواك، فقالت: آخذه لك؟ فأشار برأسه نعم. فأخذت السواك وقضمته وآلانته للرسول ﷺ ، فأعطته إياه، فاستن به، قالت عائشة: ما رأيته استن استنانًا أحسن منه، ثم رفع يده وقال: «في الرفيق الأعلىٰ»(٢٤٤)

فانظر إلىٰ هذا الثبات واليقين والصبر العظيم مع هذه الشدة العظيمة، كل هذا لأجل أن يصلَ الرسول ﷺ أعلىٰ درجات الصابرين، صبر لله، وصبر بالله، وصبر في الله حتىٰ نال أعلىٰ الدرجات. فمن أُصيب بمصيبة، فحدثته نفسه أن مصائبه أعظم من معائبه فإن يُدلّ علىٰ ربه بعمله ويَمُنُّ عليه به فليحذر هذا.

ومن ذلك يتضح لنا أمران:

١- أن إصابة الإنسان بالمصائب تعتبر تكفيرًا لسيئاته وتعجيلًا للعقوبة في الدنيا، وهذا خير من تأخيرها له في الآخرة.

٢- قد تكون المصائب أكبر من المعائب ليصلَ المرء بصبره أعلىٰ درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

❁ **قوله: «وقال النبي ﷺ: إن عظم الجزاء إلىٰ آخره»:**

هذا الحديث رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فَصَحابِيُّه صحابي الحديث الذي قبله: قوله: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**»؛ أي: يتقابل عظم الجزاء مع البلاء، فكلما كان البلاء أشد وصبر الإنسان صار الجزاء أعظم؛ لأن الله عدل لا يجزي المحسن بأقل من إحسانه، فليس الجزاء علىٰ الشوكة يشاكها كالجزاء علىٰ الكسر إذا كُسر، وهذا دليل علىٰ كمال عدل الله، وأنه لا يظلم أحدًا، وفيه تسلية المصاب.

---

(٢٤٣) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: شدة المرض، برقم (٥٦٤٧)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن...، برقم (٥٣٢٣) وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢٤٤) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٣٦) وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها.

قوله: «**وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم**»؛ أي: اختبرهم بما يقدر عليهم من الأمور الكونية؛ كالأمراض، وفقدان الأهل، أو بما يكلفهم به من الأمور الشرعية، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[الإنسان:٢٣، ٢٤] فذكره الله بالنعمة وأمره بالصبر؛ لأن هذا الذي نُزل عليه تكليف يكلف به.

كذلك من الابتلاء الصبر عن محارم الله كما في الحديث: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله**»(٢٤٥) فهذا جزاؤه أن الله يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

قوله: «**فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**». «من» شرطية، والجواب: «**فله الرضا**»؛ أي: فله الرضا من الله، وإذا رضي الله عن شخص أرضىٰ الناس عنه جميعًا، والمراد بالرضا: الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله، وهذا واجب بدليل قوله: «**ومن سخط**» فقابل الرضا بالسخط، وهو عدم الصبر علىٰ ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولم يقل هنا: «فعليه السخط» مع أن مقتضىٰ السياق أن يقول: «فعليه»، كقوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[فصلت:٤٦].

فقال بعض العلماء: إن اللام بمعنىٰ علىٰ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[الرعد:٢٥]؛ أي: عليهم اللعنة.

وقال آخرون: إن اللام علىٰ ما هي عليه، فتكون للاستحقاق؛ أي: صار عليه السخط باستحقاقه له، فتكون أبلغ من «علىٰ»؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾؛ أي: حقت عليهم باستحقاقهم لها، وهذا أصح.

ويستفاد من الحديث:

إثبات المحبة والسخط والرضا لله ﷻ، وهي من الصفات الفعلية لتعلقها بمشيئة الله تعالىٰ؛ لأن « **إذا** » في قوله: «**إذا أحب قومًا**» للمستقبل، فالحب يحدث فهو من الصفات الفعلية.

والله تعالىٰ يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويبغضه عند وجود سبب البغض، وعلىٰ هذا؛ فقد يكون هذا الشخص في يوم من الأيام محبوبًا إلىٰ الله وفي آخر مبغضًا إلىٰ الله؛ لأن الحكم يدور مع علته.

---

(٢٤٥) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الصدقة باليمين، برقم (١٤٢٣)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة، برقم (١٠٣١) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما الأعمال؛ فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات، فيئولون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إرادتها، قالوا: لأن إثبات هذه الصفات يقتضي النقص ومشابهة المخلوقين، والصواب ثبوتها لله ﷻ على الوجه اللائق به كسائر الصفات التي يثبتها من يقول بالتأويل.

ويجب في كل صفة أثبتها لنفسه أمران:

١- إثباتها على حقيقتها وظاهرها.

٢- الحذر من التمثيل أو التكييف.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير آية التغابن، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن:١١]، وقد فسرها علقمة كما سبق تفسيرًا مناسبًا للباب.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله: المشار إليه بقوله: « هذا » هو الصبر على أقدار الله.

الثالثة: الطعن في النسب: وهو عيبه أو نفيه، وهو من الكفر، لكنه لا يُخرج من الملة.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية: لأن النبي ﷺ تبرأ منه.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير: وهو أن يعجل له الله العقوبة في الدنيا.

السادسة: إرادة الله به الشر؛ أي: علامة إرادة الله به الشر، وهو أن يؤخر له العقوبة في الآخرة.

السابعة: علامة حب الله للعبد: وهي الابتلاء.

الثامنة: تحريم السخط؛ يعني: مما يبتلى به العبد؛ لقوله ﷺ: «**من سخط فله السخط**»، وهذا وعيد.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء: وهو رضا الله عن العبد؛ لقوله ﷺ: «**من رضي فله الرضا**».

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: «قال علقمة...»:

«ترجمة علقمة»: هو علقمة بن قيس بن عبد الله بن علقمة، ولد في حياة النبي ﷺ وهو من كبار التابعين وعلمائهم وثقاتهم، مات بعد الستين من الهجرة.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أراد المصنف بهذا الباب بيان وجوب الصبر على الأقدار وتحريم التَّسخُّط منها؛ لأن ذلك ينافي كمال التوحيد.

«الإيمان»: في اللغة: التصديق الذي معه ائتمان للمخبر وفي الشرع: نطق باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح.

«الصبر»: في اللغة: الحبس والكف - وشرعًا هو: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكِّي والسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشقِّ الجيوب.

﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾: فيعتقد أنَّ المصيبة بقضائه وقدره، ويسترجع عندها.

﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: للصبر عليها.

«هو الرجل تصيبه... إلخ»: هذا تفسير للإيمان المذكور في الآية.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر تعالىٰ أنَّ من أصابته مصيبة فعلم أنها من قدر الله، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدىٰ الله قلبه، وعوَّضه عمَّا فاته من الدنيا هُدًىٰ في قلبه ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما أخذ منه أو خيرًا منه.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها دليلًا علىٰ فضيلة الصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة.

ما يستفاد من الآية:

١- فضيلة الصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة كالمصائب.

٢- أنَّ الأعمال من مسمىٰ الإيمان.

٣- أنَّ الصبر سبب لهداية القلب.

٤- أنَّ الهداية من ثواب الصابر.

قوله: «هما»:

أي: الاثنتان.

«بهم كفر»؛ أي: هاتان الخصلتان كفر قائم بالناس، حيث كانتا من أعمال الكفار.

«الطعن في النسب»؛ أي: الوقوع فيه بالعيب والتنقص.

«والنياحة علىٰ الميت»؛ أي: رفع الصوت بالندب بتعديد شمائله؛ لما في ذلك من التسخط علىٰ القدر.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر ﷺ أنه سيستمر في الناس خصلتان من خصال الكفر، لا يسلم منهما إلاَّ من سلمه الله.

«الأولىٰ»: عيب الأنساب وتنقصها.

«الثانية»: رفع الصوت عند المصيبة تسخُّطًا علىٰ القدر.

لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يكون كافرًا الكفر المخرج من الملة حتىٰ يقوم به حقيقة الكفر.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه دليلًا علىٰ تحريم النياحة؛ لما فيها من السخط علىٰ القدر وعدم الصبر.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم النياحة، وأنَّها من خصال الكفر ومن الكبائر.

٢- وجوب الصبر؛ لأنَّه إذا حرمت النياحة دلَّ علىٰ وجوب ضدِّها وهو الصبر.

٣- أنَّ من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

٤- تحريم الطعن في الأنساب وتنقصها.

قوله: «ليس منا»:

هذا من باب الوعيد ولا ينبغي تأويله.

«من ضرب الخدود»: خصَّ الخدَّ؛ لأنه الغالب، وإلاَّ فضرب بقية الوجه مثله.

«وشق الجيوب»: جمع جيبٍ وهو: مدخل الرأس من الثوب.

«دعوىٰ الجاهلية»: هي: النذب علىٰ الميت والدعاء بالويل والثبور.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أنَّ الرسول ﷺ يتوعد من فعل شيئًا من هذه الأمور؛ لأنها مشتملة علىٰ التسخط علىٰ الربِّ وعدم الصبر الواجب، والإضرار بالنفس من لطم الوجه، وإتلاف المال بشق الثياب وتمزيقها والدعاء بالويل والثبور، والتظلم من الله تعالىٰ.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه دليلًا علىٰ تحريم التسخط من قدر الله بالقول والفعل، وأنَّ ذلك من كبائر الذنوب.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم التسخط من قدرالله بالقول أو الفعل، وأنَّه من الكبائر.

٢- وجوب الصبر عند المصيبة.

٣- وجوب مخالفة الجاهلية؛ لأنَّ مخالفتهم من مقاصد الشارع الحكيم.

قوله: «**عظم الجزاء مع عظم البلاء**»:

بكسر العين وفتح الظاء؛ أي: مَنْ كان ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم.

«**فمن رضي**»: بما قضاه الله وقدره عليه من الابتلاء.

«**فله الرضا**»: من الله جزاءً وفاقًا.

«**ومن سخِط**»: بكسر الخاء والسخط: الكراهية للشيء وعدم الرضا به.

«**فله السخط**»؛ أي: من الله عقوبة له.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر ﷺ أن عظمة الأجر وكثرة الثواب مع عظم الابتلاء والامتحان الذي يجري علىٰ العبد في هذه الدنيا إذا صبر واحتسب، وأنَّ من علامة محبة الله لعبده أن يبتليه؛ فإن رضي بقضاء الله وقدره عليه، واحتسب الأجر والثواب وأحسن الظن بربه رضي الله عنه وأثابه، وإن تسخط قضاء الله وجزع لما أصابه سخط الله عليه وعاقبه.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه بيان علامة محبة الله لعبده وبيان حكمته فيما يجريه عليه من المكاره.

ما يستفاد من الحديث:

١- بيان علامة محبة الله لعبده وهي الابتلاء.

٢- وصف الله بالمحبة والرضا والسخط علىٰ ما يليق بجلاله.

٣- إثبات الحكمة لله في أفعاله.

٤- أنَّ الجزاء من جنس العمل.

٥- الحث علىٰ الصبر علىٰ المصائب.

٦- أنَّ الإنسان قد يكره الشيء وهو خير له.

قوله: «**وقال ﷺ: إذا أراد الله بعبده الخير...**»:

هذا الحديث والذي قبله رواهما الترمذي بسندٍ واحدٍ وصحابيٍّ واحدٍ؛ ولذلك جعلهما المؤلف كالحديث الواحدِ.

«**عجَّل له العقوبة في الدنيا**»؛ أي: ينزل به المصائب لما صدر منه من الذنوب، فيخرج منها وليس عليه ذنب.

«أمسك عنه بذنبه»؛ أي: أخَّر عنه عقوبة ذنبه.

«يوافي به»: بكسر الفاء مبني للفاعل منصوب بـ «حتي»؛ أي: يجيء يوم القيامة مستوفر الذنوب فيستوفي ما يستحقه من العقاب.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبرﷺ أن علامة إرادة الله الخير بعبده معاجلته بالعقوبة علىٰ ذنوبه في الدنيا حتىٰ يخرج منها وليس عليه ذنب يُوافىٰ به يوم القيامة؛ لأن مَنْ حوسب بعمله عاجلًا خف حسابه في الآجل، ومن علامة إرادة الشر بالعبد أن لا يُجازىٰ بذنوبه في الدنيا حتىٰ يُوافىٰ يوم القيامة مستوفر الذنوب وافيها، فيجازىٰ بما يستحقه يوم القيامة.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه الحثَّ علىٰ الصبر علىٰ المصائب والرِّضا بالقدر؛ لأنَّ ذلك في صالح العبد.

ما يستفاد من الحديث:

١- علامة إرادة الله الخير بعبده معاجلته بالعقوبة علىٰ ذنوبه في الدنيا.

٢- علامة إرادة الشر بالعبد أن لا يجازىٰ بذنبه حتىٰ يوافىٰ به يوم القيامة.

٣- الخوف من الصحة الدائمة أن تكون علامة شر.

٤- التنبيه علىٰ حسن الظن بالله ورجائه فيما يقضيه الله عليه من المكروه.

٥- أنَّ الإنسان قد يكره الشيء وهو خير له، وقد يحب الشيء وهو شر له.

٦- الحث علىٰ الصبر علىٰ المصائب.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب من الإيمان بالله الصبر علىٰ أقدار الله»:**

الصبر من المقامات العظيمة، والعبادات الجليلة التي تكون في القلب وفي اللسان وفي الجوارح، وحقيقة العبودية لا تثبت إلا بالصبر؛ لأن العبادة أمر شرعي، أو نهي شرعي، أو ابتلاء بأن يصيب الله العبد بمصيبة قدرية فيصبر عليها.

فحقيقة العبادة أن يمتثل الأمر الشرعي، وأن يجتنب النهي الشرعي، وأن يصبر علىٰ المصائب القدرية التي ابتلىٰ الله -جل وعلا- العباد بها. فالابتلاء حاصل بالدين وحاصل بالأقدار، فبالدين كما قال -جل وعلا- لنبيهﷺ في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول

الله ﷺ: «قال الله تعالىٰ: إنما بعثتك لأبتليك، وأبتلي بك»[٢٤٦]. فحقيقة بعثة النبي عليه الصلاة والسلام الابتلاء، والابتلاء يجب معه الصبر، والابتلاء الحاصل ببعثته بالأوامر والنواهي.

فالواجبات تحتاج إلىٰ صبر، والمنهيات تحتاج إلىٰ صبر والأقدار الكونية تحتاج إلىٰ صبر، ولهذا قال طائفة من أهل العلم: إن الصبر ثلاثة أقسام: صبر علىٰ الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة.

ولما كان الصبر علىٰ المصائب قليلًا أفرد له الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب لبيان أنه من كمال التوحيد، ومن الواجب علىٰ العبد أن يصبر علىٰ أقدار الله؛ لأن تسخط العباد وعدم صبرهم كثيرًا ما يظهر في حال الابتلاء بالمصائب، فعقد هذا الباب لبيان أن الصبر واجب علىٰ أقدار الله المؤلمة، ونبّه بذلك علىٰ أن الصبر علىٰ الطاعة واجب، وأن الصبر عن المعصية واجب.

وحقيقة الصبر في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: قتل فلان صبرًا إذا حبس أو ربط فقتل من دون مبارزة ولا قتال. ويقال للصبر الشرعي: إنه صبر؛ لأن فيه حبس اللسان عن التشكي، وحبس القلب عن التسخط، وحبس الجوارح عن إظهار السخط من لطم الخدود، وشق الجيوب، ونحو ذلك، فحبس هذه الأشياء هو حقيقة الصبر، فالصبر إذًا في الشرع هو حبس اللسان عن التشكي، وحبس القلب عن التسخط، وحبس الجوارح عن إظهار السخط بشق أو نحو ذلك.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «ذُكر الصبر في القرآن في أكثر من تسعين موضعًا، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد؛ لأن من لا صبر له علىٰ الطاعة، ولا صبر له عن المعصية، ولا صبر له علىٰ أقدار الله المؤلمة، فإنه يفوته أكثر الإيمان».

۞ **قوله: «باب من الإيمان بالله الصبر علىٰ أقدار الله»:**

يعني: أن من خصال الإيمان بالله الصبر علىٰ أقدار الله، والإيمان له شعب، كما أن الكفر له شعب، فنبه بقوله: «من الإيمان بالله الصبر» علىٰ أن من شعب الإيمان الصبر، ونبّه في الحديث الذي رواه مسلم علىٰ أن النياحة من شعب الكفر، فيقابل كل شعبة من شعب الكفر شعبة من شعب الإيمان، فالنياحة علىٰ الميت شعبة من شعب الكفر، يقابلها في شعب الإيمان الصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة.

---

(٢٤٦) أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

❁ **قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ⑪﴾[التغابن: ١١]، قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلم»:**

هذا تفسير من علقمة -أحد التابعين- لهذه الآية، وهو تفسير ظاهر الصحة والصواب، وذلك أن قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ إنما ورد في سياق ذكر ابتلاء الله بالمصائب، فـ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ يعني: يعظم الله -جل وعلا- ويمتثل أمره ويجتنب نهيه و﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للصبر، و﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ لعدم التسخط، و﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للعبادات، ولهذا قال: «**هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله**» وهذا هو الإيمان بالله «**فيرضىٰ ويسلم**».

والمصائب من القدر، والقدر راجع إلىٰ حكمة الله -جل وعلا- وحكمة الله -جل وعلا- هي وضع الأمور في مواضعها الموافقة للغايات المحمودة منها، فالحكمة بعامة مرتبطة بالغايات المحمودة من وضع الأمر في موضعه، فمن وضع الأمر في غير موضعه فقد ظلم، ومن وضع الأمر في موضعه عدل، وقد يكون غير حكيم، أي: قد يكون عادلًا ولكن غير حكيم، فإذ وضع الأمر في موضعه الموافق للغاية المحمودة منه فذاك هو الحكيم، والله -جل وعلا- منفي عنه الظلم ومثبت له كمال العدل سبحانه حيث يضع الأمور في مواضعها، ومثبت له -جل وعلا- كمال الحكمة حيث إن وضعه الأمور في مواضعها موافق للغايات المحمودة منها، فنعلم بذلك أن المصيبة إذا أصابت العبد فإن الخير له فيها، إما أن يصبر فيؤجر، وإما أن يتسخط فيؤزر علىٰ ذلك، وهذا في حق الخاسرين، فالله -جل وعلا- له الحكمة من الابتلاء بالمصائب؛ لهذا يجب علىٰ العبد أن يعلم أن ما جاء من عند الله هو قدر الله -جل وعلا- وقضاؤه الموافق لحكمته فيجب الصبر علىٰ ذلك.

قوله: «**يعلم أنها من عند الله**» يعني: أن الله هو الذي أتىٰ بها، وهو الذي أذن بها قدرًا وكونًا.

«**فيرضىٰ ويسلم**» الرضىٰ بالمصيبة مستحب وليس بواجب، ولهذا يختلط علىٰ كثيرين الفرق بين الرضا والصبر، وتحرير المقام في ذلك أن الصبر علىٰ المصائب واجب من الواجبات؛ لأن فيه ترك التسخط علىٰ قضاء الله وقدره، والرضىٰ له جهتان:

الجهة الأولىٰ: راجعة إلىٰ فعل الله -جل وعلا- فيرضىٰ بقدر الله الذي هو فعله، ويرضىٰ بفعل الله، ويرضىٰ بحكمة الله، ويرضىٰ بما قسم الله -جل وعلا- وهذا الرضىٰ بفعل الله -جل وعلا- واجب من الواجبات، وتركه محرم ومنافٍ لكمال التوحيد.

والجهة الثانية: الرضىٰ بالمقضي، أي: بالمصيبة في نفسها، فهذا مستحب، ليس واجبًا علىٰ العباد أن يرضوا بالمرض، وأن يرضوا بفقد الولد، وأن يرضوا بفقد المال، لكن هذا مستحب وهو رتبة الخاصة من عباد الله، لكن الرضىٰ بفعل الله -جل وعلا- بمعنىٰ الرضا بقضاء الله من حيث هو واجب، أما الرضا بالمقضي فإنه مستحب، ولهذا قال علقمة: «**هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ**» يعني: علىٰ قضاء الله، «**ويسلم**» لعلمه أنها من عند الله -جل جلاله- وهذا من خصال الإيمان.

❁ **قوله**: «**وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: اثنتان في الناس...**»:

يعني: خصلتين من شعب الكفر قائمتين، وستبقيان في الناس: «**الطعن في النسب، والنياحة علىٰ الميت**».

وجه الشاهد من هذا الحديث قوله: «**والنياحة علىٰ الميت**» لأن النياحة مخالفة للصبر، والصبر الواجب فيه حبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك، وحبس اللسان عن التشكي والعويل، هذا هو النياحة، فالنياحة من شعب الكفر؛ لأنها منافية للصبر.

وكونها من شعب الكفر لا يدل علىٰ أن مَنْ قامت به فهو كافر الكفر المطلق المخرج من الملة، بل يدل علىٰ أن من قامت به قامت به خصلة من خصال الكفار، وشعبة من شعب الكفر، ولهذا قال هنا: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر**» فنكّر كلمة «كفر» والقاعدة في فهم ألفاظ الكفر التي تأتي في الكتاب والسنة أن الكفر إذا أتىٰ معرّفًا بالألف واللام فإن المراد به الكفر الأكبر، وإذا أتىٰ منكرًا -أي بدون الألف واللام- فإنه يدل علىٰ أن الخصلة تلك من شعب الكفر، ومن خصال أهل الكفر، وأن ذلك كفر أصغر كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(٢٤٧). لأن ذلك من خصال الكفار، ونحو ذلك قوله: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»(٢٤٨). هذا في الكفر الأصغر.

---

(٢٤٧) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: الإنصات للعلماء، برقم (١٢١)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان معنىٰ قول النبي ﷺ لا ترجعوا بعدي كفارًا، برقم (٦٥) من حديث جرير رضي الله عنه، مرفوعًا.

(٢٤٨) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، برقم (٤٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، برقم (٦٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أما الكفر المعرف بالألف واللام فالقاعدة التي حررها الأئمة كشيخ الإسلام وغيره أنه إذا أتىٰ فيراد به الكفر الأكبر، كقوله عليه الصلاة والسلام: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»(٢٤٩).

۞ **قوله: «ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوىٰ الجاهلية»»:**

دل هذا الحديث علىٰ أن من فعل هذه الأفعال فهو ليس من أهل الإيمان، وقد سبق بيان أن كلمة «ليس منا» تدل علىٰ أن الفعل من الكبائر، ولهذا فإن ترك الصبر وإظهار التسخط كبيرة من الكبائر، والمعاصي تُنقص الإيمان؛ لأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ونقص الإيمان قد ينقص كمال التوحيد، بل إن ترك الصبر منافٍ لكمال التوحيد الواجب.

۞ **قوله: «عن أنس مرفوعًا: إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد...»:**

هذا فيه بيان حكمة الله -جل وعلا- التي إذا استحضرها المصاب فإنه يعظُم عنده الصبر، ويتحلىٰ بهذه العبادة القلبية العظيمة وهي ترك التسخط، والرضا بفعل الله -جل وعلا- وقضائه؛ لأن العبد إذا أريد به الخير فإن العقوبة تُعجّل له في هذه الدنيا؛ لأن رفع أثر العقوبة عن العبد يكون بعشرة أشياء، منها: أن تُعجّل له العقوبة في الدنيا، يعني: أن يعاقب في الدنيا بمرض، أو بفقد مال، أو بمصيبة؛ لأن مخالفة أمر الله في ملكوته لابُدَّ أن تقع لها عقوبة، إن لم يغفر الله -جل وعلا- ويتجاوز، فإذا كانت العقوبة في الدنيا فإنها أهون من أن تكون في البرزخ، أو أن تكون يوم القيامة؛ ولهذا جاء في الحديث الآخر الذي رواه البخاري وغيره قال عليه الصلاة والسلام: «**من يرد الله به خيرًا يُصب منه**»(٢٥٠). ولهذا كان بعض السلف يتهم نفسه إذا رأىٰ أنه لم يصب ببلاء أو لم يمرض ونحو ذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحمىٰ مثلًا: «**لا تسبوا الحمىٰ فوالذي نفسي بيده إنها لتنفي الذنوب عن العبد كما ينفي الكير خبث الحديد**»(٢٥١). ففي المصائب نعم علىٰ العبد، والله -جل وعلا- له الحكمة البالغة فيما يُصلح عبده المؤمن.

---

(٢٤٩) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إطلاق اسم الكفر علىٰ من ترك الصلاة، برقم (٨٢)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: في رد الإرجاء، برقم (٤٦٧٨)، والترمذي، كتاب: الإيمان، باب: ترك الصلاة، برقم (٢٦١٩)، وغيرهم من حديث جابر رضي الله عنهما.

(٢٥٠) أخرجه البخاري، كتاب: المرضىٰ، باب: ما جاء في كفارة المرض، برقم (٥٦٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٣٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢٥١) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، برقم (٢٥٧٥)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

قوله: «**وقال ﷺ: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء...**»:

دل قوله: «**من رضي فله الرضا**» علىٰ أن الرضا عبادة؛ لأن رضا الله عن العبد إذا رضي عنه دال علىٰ أن ذلك الفعل محبوب له، وذلك دليل أنه من العبادات، وكذلك الجملة الثانية دليل علىٰ أن السخط محرم، قال: «**ومن سخط فله السخط**» يعني من الله جل وعلا.

وحقيقة السخط علىٰ الله -جل وعلا- أن يقوم في قلبه عدم محبة ذلك الشيء، وكراهته، وعدم الرضا به، واتهام الحكمة فيه، فمن قامت به هذه الأشياء مجتمعة فقد سخط، ويظهر أثر السخط علىٰ اللسان أو علىٰ الجوارح، أو في القلب من جهة عدم الرضا بالأوامر، وعدم الرضا بالنواهي، وعدم الرضا بالشرع، فيتسخط الأمر، ويتسخط النهي، ويتسخط الشرع، فهذا كبيرة من الكبائر ولو امتثل ذلك فإن تسخطه وعدم الرضا بذلك قلبًا دليل علىٰ انتفاء كمال التوحيد في قلبه، وقد يصل بالبعض إلىٰ انتفاء التوحيد من أصله إذا لم يرض بأصل الشرع وسخطه بقلبه واتهم الشرع أو اتهم الله -جل وعلا- في حكمه الشرعي.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية التغابن، أي: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن:١١] والمعنىٰ من أصابته مصيبة فعلم أنها من عند الله فرضي وسلم؛ هدىٰ الله قلبه.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله، أي: من علم أنها بقدر الله فصبر واحتسب فقد آمن بالله.

الثالثة: الطعن في النسب، أي: النهي عنه.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، وشق الجيوب،ودعا بدعوىٰ الجاهلية، أي لقوله: « **ليس منا**»...إلخ، وذلك لمنافاتها للصبر علىٰ ما قدره الله وهو واجب.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير، أي: إنه يعجل له العقوبة في الدنيا.

السادسة: إرادة الله به الشر، أي: إنه يمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافىٰ به يوم القيامة.

السابعة: علامة حب الله للعبد، أي: إذا ابتلاه دل علىٰ محبته.

الثامنة: تحريم السخط، أي لقوله: « **ومن سخط فله السخط**».

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء، أي لقوله: « **فمن رضي فله الرضا**».



* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن عدم الصبر علىٰ أقدار الله وتسخطها ينافي التوحيد والإيمان.

س: عرف الصبر لغة وشرعًا، واذكر أقسامه، وبين حكمه ومنزلته من الإيمان.

جـ: الصبر في اللغة: الحبس والمنع، وفي الشرع: حبس النفس عن الجزع وحبس اللسان عن التشكي والتسخط وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما عند المصيبة، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، **والصبر ثلاثة أنواع:**

١ - صبر علىٰ ما أمر الله به.

٢ - وصبر عن ما نهىٰ الله عنه.

٣ - وصبر علىٰ ما قدره الله من المصائب.

وحكمه: الوجوب.

س: قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن: ١١] اشرح هذه الآية، واذكر ما يستفاد منها، وبين مناسبتها للباب.

جـ: أي: من أصابته مصيبة فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدىٰ الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا وعما أصابه هدىٰ في قلبه ويقينًا صادقًا، فعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطأه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ويستفاد من هذه الآية: أن الصبر علىٰ المصيبة سبب لهداية القلوب وطمأنينتها وأنها من ثواب الصابرين.

ومناسبة الآية للباب: أنها بينت ثواب الصبر والتحلي به والحث عليه.

❁ قوله: «في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: اثنتان في ...».

س: ما معنى: الطعن في النسب وما هي النياحة، وضّح درجة الكفر المذكور في الحديث، ثم اشرح الحديث وبين مناسبته للباب؟

جـ: الطعن في النسب: عيبه والقدح فيه ومن ذلك أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه وآل

فلان ليس نسبهم جيدًا ونحو ذلك. والنياحة علىٰ الميت رفع الصوت بالبكاء وتعداد فضائل الميت. ودرجة الكفر المذكور في الحديث صغرىٰ؛ لأنه - والله أعلم - من الكفر الذي لا ينقل عن الملة.

فقد أخبر الرسول ﷺ أن هاتين الخصلتين: الطعن في النسب والنياحة علىٰ الميت كفر؛ لأنهما من أعمال الكفار في الجاهلية.

ومناسبة الحديث للباب: أنه دل علىٰ تحريم النياحة لما فيها من التسخط علىٰ القدر المنافي للصبر.

قوله: «عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: ليس منا من ضرب الخدود...».

س: اشرح هذا الحديث، وبين مناسبته لهذا الباب، وما هي دعوى الجاهلية؟

جـ: هذا الحديث من نصوص الوعيد التي كره العلماء تأويلها ليكون أوقع في النفس وأبلغ في الزجر؛ فقد برئ رسول الله ﷺ ممن فعل هذه الأشياء، وهو يدل علىٰ أن عمل هذه الأشياء عند المصيبة من الكبائر.

وضرب الخدود: لطمها جزعًا علىٰ الميت وخص الخد بذلك لكونه الغالب وإلا فضرب بقية البدن مثله، والجيوب: جمع جيب وهو ما يدخل فيه الرأس من الثوب وشقها تمزيقها جزعًا علىٰ الميت وهو من عادة أهل الجاهلية.

ودعوىٰ الجاهلية: هي ندب الميت والدعاء بالويل والثبور، وكذلك الدعاء إلىٰ القبائل والعصبية للأنساب ومثله التعصب للمذاهب والطوائف والمشائخ.

ومناسبة الحديث للباب: أنه أفاد تحريم هذه الأشياء وأنها تنافي الصبر والإيمان الواجب.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافىٰ به يوم القيامة**»(٢٥٢) رواه الترمذي وحسنه والحاكم.

س: اشرح هذا الحديث، وبين مناسبته للباب، وما معنى: أمسك عنه، يوافى به؟

جـ: يخبر الرسول ﷺ أن علامة إرادة الله بعبده الخير أن يصب عليه البلاء والمصائب، فمرة في نفسه وأخرىٰ في أهله وأولاده وتارة في ماله لما حصل منه من الذنوب فيخرج من الدنيا وليس عليه ذنب فيلقىٰ الله وما عليه خطيئة يجازىٰ بها يوم القيامة، وأن علامة إرادة الله بعبده الشر أن لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتىٰ يجيء في الآخرة وافر الذنوب فيستوفي ما يستحقه من العقاب، ومعنىٰ: **أمسك عنه**: أخر عقوبته ومعنىٰ يوافىٰ به: يجيء بذنبه يوم القيامة.

ومناسبة الحديث للباب: أنه دل علىٰ أن المصائب التي يبتلىٰ بها الإنسان مكفرات لذنوبه إذا صبر واحتسب.

---

(٢٥٢) سبق تخريجه.

❁ قوله: «قالﷺ: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله - تعالىٰ - إذا أحب قومًا ...».

س: اشرح الحديث، وبين مناسبته للباب.

جـ: أخبر الرسول ﷺ أن من كان ابتلاؤه أشد فجزاؤه أعظم، وأن علامة حب الله لعباده أن يبتليهم بالمصائب لتكفر عنهم ذنوبهم وسيئاتهم، ويزيد في حسانتهم ويعظم لهم الأجر والثواب، فمن رضي عن الله بما قدره عليه وقضاه فله الرضاء من الله، ومن سخط أقدار الله سخط الله عليه.

والرضاء والسخط من الله صفتان من صفاته يجب الإيمان بهما وإثباتهما لله علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته كسائر صفاته، والرضاء من الإنسان هو أن يسلم أمره لله ويحسن الظن به ويرغب في ثوابه. والسخط هو الكراهية للشيء وعدم الرضىٰ به.

ومناسبة الحديث للباب: أن فيه وعيدًا لمن سخط أقدار الله ولم يصبر علىٰ البلاء.

س: اذكر ما يستفاد من هذا الباب؟

جـ: يستفاد منه:

١ - وجوب الصبر وأنه من الإيمان.

٢ - فضل الصابرين وكثرة ثوابهم.

٣ - تحريم الطعن في النسب والنياحة علىٰ الميت.

٤ - شدة الوعيد علىٰ من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوىٰ الجاهلية عند المصيبة.

٥ - تحريم السخط وثواب الرضاء بالبلاء.

الدرس السادس والثلاثون:

باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية [الكهف: ١١٠]

وعن أبي هريرة مرفوعًا: قال الله تعالىٰ: «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري، تركته وشركه»[٢٥٣]. رواه مسلم.

وعن أبي سعيد مرفوعًا: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ ». قالوا: بلىٰ[٢٥٤]. قال: «الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي، فيزين صلاته، لما يرىٰ من نظر رجل [إليه][٢٥٥]»[٢٥٦] رواه أحمد.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية الكهف.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنىٰ.

الرابعة: أن من الأسباب أنه تعالىٰ خير الشركاء.

الخامسة: خوف النبي ﷺ علىٰ أصحابه من الرياء.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن المرء يصلي لله، لكن يزينها لما يرىٰ من نظر رجلٍ[٢٥٧] إليه.

الشرح

---

(٢٥٣) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، برقم (٢٩٨٥) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢٥٤) زاد في نسخة ابن القاسم: «يا رسول الله».

(٢٥٥) ساقطة من نسخة ابن قاسم، وابن باز، والفوزان، والسعدي، والمثبت من نسخة ابن عثيمين.

(٢٥٦) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الرياء والسمعة، برقم (٤٢٠٤) واللفظ له، وأحمد(٣/ ٣٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٢٥٧) في نسخة السعدي: «الرجل».

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله: «باب ما جاء في الرياء»:**

أي: من النهي والتحذير عنه، وبيان أنه من الشرك الأصغر، ما لم يرد في أصل العمل وإلا كان من الأكبر، ولما كان خلوص العمل من الشرك والرياء شرطًا في قبوله لمنافاة الشرك والرياء للتوحيد نبه عليه المصنف تحقيقًا للتوحيد.

والرياء: مصدر راءىٰ يرائي مراءاة ورياء، وهو أن يُري الناس أنه يعمل عملًا علىٰ صفة، وهو يضمر في قلبه صفة أخرىٰ، فهو مستحق للذم والعقاب، ولا ثواب له إلا فيما خلصت فيه النية لله تعالىٰ. وقال الحافظ: الرياء إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدونه عليها اهـ. والفرق بينه وبين السُّمعة، أن الرياء لما يرىٰ من العمل كالصلاة والصدقة، والسُّمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث به. وهذه الترجمة والتي بعدها في الشرك في النية، وهو البحر الذي لا ساحل له، وقَلَّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، أو نوىٰ شيئًا غير التقرب إلىٰ الله وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته، والإخلاص: أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإراداته ونياته.

❁ **قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ...﴾ الآية»:**

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء، بل ذلك لله وحده لا شريك له، أوحىٰ إليَّ أن توحدوه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يخاف المصير إليه، ويأمل لقاء الله ورؤيته. وقال شيخ الإسلام: فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة، وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه يوم القيامة اهـ. وفسر اللقاء بالمعاينة؛ فإنه تعالىٰ أجل وأعظم من أن تحيط به الأبصار: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[الكهف:١١٠] وهو ما كان موافقًا لشرع الله، مقصودًا به وجهه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أن لا يرائي بعمله، بل لا بد أن يريد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، أن يكون خالصًا لله، وأن يكون صوابًا علىٰ شريعة رسوله ﷺ. قال ابن القيم: أي: كما أنه إله واحد لا إله إلا هو، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يتفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالص من الرياء، المقيد بالسنة.

و﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم، والآية دليل علىٰ أن أصل الدين الذي بعث به رسوله ﷺ هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وتضمنت النهي عن الشرك كله قليله وكثيره صغيره وكبيره.

❁ **قوله: «قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك»**:

أي: أنا أغنىٰ عن المشاركة؛ وذلك أنه لما كان المرائي قاصدًا بعمله الله وغيره، كان قد جعل لله شريكًا، فإذا كان كذلك فالله هو الغني علىٰ الإطلاق، وجميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار، فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذي جعل له فيه شريك؛ فإن كماله وكرمه وغناه يوجب أن لا يقبل ذلك، وأخرج أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس: «**من صلىٰ يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك، وإن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، فمن أشرك بي شيئًا فإن جدة عمله وقليله وغيره لشريكه الذي أشرك به، أنا عنه غني**»(٢٥٨).

❁ **قوله: «من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري...»**:

أي: من قصد بعمله غيري من المخلوقين تركته وشركه، وفي بعض الأصول «وشريكه»، وبعضها «وشركته». ولابن ماجه: «**فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك**»(٢٥٩)؛ أي: فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، فعمل المرائي باطل لا ثواب له، ويأثم به. والضمير في «تركته» يجوز أن يرجع إلىٰ العمل. قال ابن رجب: «**العمل لغير الله أقسام**: فتارة يكون رياءً محضًا كحال المنافقين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:١٤٢] وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدىٰ نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل علىٰ بطلانه، وإن كان أصله لله ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطرًا ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أو لا؟ فيجازىٰ علىٰ أصل نيته، فيه خلاف، رجح أحمد وغيره لا يبطل بذلك، وأنه يجازىٰ بنيته الأولىٰ» اهـ. ولا يظن الظان أنه يكتفي فيه بحبوط عمله فلا له ولا عليه، قال الشيخ: بل هو مستحق للذم والعقاب، وقد دل الكتاب والسنة علىٰ حبوط العمل بالرياء، وجاء الوعيد عليه،

---

(٢٥٨) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥)، وأبو يعلىٰ، برقم (٤١٢١) وغيرهما من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (١٧٤٩).

(٢٥٩) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الرياء والسمعة، برقم (٤٢٠٢)، وأحمد (٢/ ٣٠١،٤٣٥)، وابن خزيمة، برقم (٩٣٨) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وأما إذا عمل العمل لله خالصًا، ثم ألقىٰ الله الثناء الحسن في قلوب المؤمنين، ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر بذلك لم يضره، وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: «تلك عاجل بشرىٰ المؤمن»(٢٦٠) رواه مسلم. وفي حديث أبي هريرة: يدخل علي الرجل في بيتي وأنا أصلي فيسرني ذلك، فقال: «يرحمك الله، لك أجران: أجر السر وأجر العلانية»(٢٦١)؛ لأنه لم يقصد رؤية أحد عند الشروع، ولا قام بقلبه أن يراه أحد.

❁ **قوله: « ألا أخبركم بما هو أخوف...»:**

«أخوف» اسم تفضيل مبني علىٰ زيادته علىٰ غيره في أصل الفعل؛ أي: أشد خوف خافه ﷺ علىٰ أصحابه أكثر مما خافه عليهم من فتنة المسيح الدجال؛ لخفائه وقوة الداعي إليه، وعسر التخلص منه، لما يزينه الشيطان والنفس الأمارة في قلب صاحبه.

❁ **قوله: «الشرك الخفيُّ»:**

سماه خفيًّا؛ لأنه عمل قلب لا يعلمه إلا الله؛ ولأن صاحبه يظهر أن عمله لله، وقد قصد به غيره، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله. وعن شداد بن أوس قال: كنا نعد الرياء علىٰ عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر. رواه ابن جرير وغيره، وصححه الحاكم. قال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل علىٰ الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا أكبر بحسب حال قائله ومقصده، ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذا المتابعة كما قال الفضيل في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[هود:٧] قال: أخلصه وأصوبه، فإن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان علىٰ السنة.

وقوله: «بلىٰ»، فيه الحرص علىٰ العلم، وأن من عرض عليك أن يخبرك بما فيك فلا ينبغي لك رده، بل قابله بالقبول والتعلم.

---

(٢٦٠) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أثني علىٰ الصالح فهي بشرىٰ ولا تضره، برقم (٢٦٤٢)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الثناء الحسن، برقم (٤٢٢٥) وغيرهما من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢٦١) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: عمل السر، برقم (٢٣٨٤)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الثناء الحسن، برقم (٤٢٢٥) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

❁ قوله: «ورواه أحمد»:

ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم، وفيه قصة، ولفظ ابن ماجه: **خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: «ألا أخبركم»** (٢٦٢) الحديث. وفسر ﷺ ما خافه على أصحابه بتزيين صلاة الرجل لأجل الناظر إليه، وسماه أيضًا شرك السرائر، وحذرهم منه فيما رواه ابن خزيمة في صحيحه عن محمود بن لبيد قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: **«إياكم وشرك السرائر»، قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: «يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر»** (٢٦٣). وفيه شفقة النبي ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال، وإذا كان يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم، فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك أكبره وأصغره.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ قوله: «باب ما جاء في الرياء»(٢٦٤):

اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين وروح التوحيد والعبادة، وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله وثوابه وفضله؛ فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائع الإسلام الخمس وحقائق الإيمان التي هي الإحسان، وبحقوق الله وحقوق عباده مكملًا لها قاصدًا بها وجه الله والدار الآخرة، لا يريد بذلك رياءً ولا سمعة ولا رياسة ولا دنيا وبذلك يتم إيمانه وتوحيده.

ومن أعظم ما ينافي هذا مراءاة الناس، والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدح في الإخلاص والتوحيد.

واعلم أن الرياء فيه تفصيل: فإن كان الحامل للعبد على العمل قصد مراءاة الناس واستمر على هذا القصد الفاسد، فعمله حابط، وهو شرك أصغر، ويخشى أن يتذرع به إلى الشرك الأكبر وإن كان الحامل على العمل إرادة وجه الله مع إرادة مراءاة الناس، ولم يقلع عن الرياء بعمله فظاهر النصوص أيضًا بطلان هذا العمل.

---

(٢٦٢) أخرجه مسلم، كتاب: الفتن، باب: الآيات التي تكون قبل الساعة، برقم (٢٩٠١)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: أشراط الساعة، برقم (٤٠٤١) وغيرهما من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه.

(٢٦٣) سبق تخريجه.

(٢٦٤) دمج الشيخ رحمه الله بين شرحه لهذا الباب والباب الذي بعده..فتنبه.

وإن كان الحامل للعبد علىٰ العمل وجه الله وحده ولكن عرض له الرياء في أثناء عمله، فإن دفعه وخلص إخلاصه لله لم يضره، وإن ساكنه واطمأن إليه نقص العمل وحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام في قلبه من الرياء وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء.

والرياء آفة عظيمة، ويحتاج إلىٰ علاج شديد، وتمرين النفس علىٰ الإخلاص ومجاهدتها في مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة، والاستعانة بالله علىٰ دفعها لعل الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده.

وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أغراضها. فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا القصد، ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة؛ فهذا ليس له في الآخرة من نصيب وهذا العمل علىٰ هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن، ولو كان ضعيف الإيمان لا بد أن يريد الله والدار الآخرة.

وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان فهذا - وإن كان مؤمنًا - فإنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصًا تامًّا، ولكنه يأخذ علىٰ عمله جُعلًا ومعلومًا، يستعين به علىٰ العمل والدين، كالجعالات التي تجعل علىٰ أعمال الخير، وكالمجاهد الذي يترتب علىٰ جهاده غنيمة أو رزق وكالأوقاف التي تجعل علىٰ المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها، فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده؛ لكونه لم يرد بعمله الدنيا وإنما أراد الدين، وقصد أن يكون ما حصل له معينًا له علىٰ قيام الدين.

ولهذا جعل الله في الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءًا كبيرًا لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة، كما قد عرف تفاصيل ذلك، فهذا التفصيل يبين لك حكم هذه المسألة كبيرة الشأن، ويوجب لك أن تنزل الأمور منازلها. والله أعلم.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله: «باب ما جاء في الرياء»:**

هذا الباب عقده المؤلف للتحذير من الرياء، والرياء مصدر راءىٰ يرائي؛ أي: أظهر عمله ليراه الناس ويثنوا عليه أو ليحصل به غرضًا دنيويًّا، أو يسمع بقراءته وتسبيحه أو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ولهذا جاء في الحديث: «**من يرائي؛ يرائي الله به ومن يسمع يسمع الله به**»(٢٦٥) وفي

---

(٢٦٥) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الرياء والسمعة، برقم (٦٤٩٩)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله...، برقم (٢٩٨٧) وغيرهما من حديث جندب ﷺ.

رواية: «من راءىٰ راءىٰ الله به، ومن سمع...» (٢٦٦) أي: يفضحه والجزاء من جنس العمل والواجب علىٰ المسلم أن يخلص العمل ويرجو الثواب من الله.

قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[الكهف: ١١٠]:

العمل الصالح لا بد فيه من أمرين:

١ - الإخلاص لله وحده في جميع أنواع العبادات.

٢ - أن يكون موافقًا للشريعة وليس بدعة.

فمن كان يرجو لقاء الله صادقًا في رجائه فليعمل عملًا صالحًا موافقًا للشريعة ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا.

قوله: «وعن أبي هريرة مرفوعًا: قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك من عمل...»:

هذا بيان براءة الله من الأعمال التي فيها شرك وأن الله لا يقبل عملًا فيه شرك لغيره، وفي لفظ **«أنا بريء منها بل هي لمن أشركه»** فهذا يدل علىٰ وجوب الإخلاص.

قوله **«وعن أبي سعيد مرفوعًا...»**: وفي الحديث الصحيح عن أبي سعيد مرفوعًا: **«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من الدجال...»**.

ويقول الله يوم القيامة للمرائين: **«اذهبوا إلىٰ من كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»** (٢٦٧) وهذا يدل علىٰ خطورة الرياء خاصة علىٰ العباد فخاف علىٰ الصحابة وهم أفضل الناس؛ لأن الرياء يقع في الصالحين ويبتلون به كغيرهم ويتساهلون به.

والدجال ممكن أن يُعرف بعلامات لكن الشرك الخفي أشد منه؛ لأنه يكون في القلوب، ولا يطلع عليه الناس لكن قد يعرف بعلامات تظهر علىٰ صاحبه ويقول النبي فيما صح عنه: **«أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»** فسئل عنه قال: **«الرياء، يقول الله يوم القيامة للمرائين..»**(٢٦٨)

(٢٦٦) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله...، برقم (٢٩٨٦)، والطبراني (١٢/ ٢٧) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢٦٧) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (٩٥١).

(٢٦٨) سبق تخريجه.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب ما جاء في الرياء»:

المؤلف – رحمه الله تعالىٰ – أطلق الترجمة؛ فلم يفصح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه علىٰ الرياء علىٰ ما جاء فيه.

تعريف الرياء:

مصدر راءىٰ يرائي؛ أي: عمل عملًا ليراه الناس، ويقال مراءاة كما يقال: جاهد جهادًا ومجاهدة، ويدخل في ذلك: من عمل العمل ليسمعه الناس ويقال له: مسمِّع، وفي الحديث عن النبيﷺ أنه قال: «**من راءىٰ راءىٰ الله به، ومن سمَّع سمَّع الله به**»[٢٦٩].

والرياء: خلق ذميم، وهو من صفات المنافقين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:١٤٢].

والرياء يبحث في مقامين:

المقام الأول: في حكمه.

فنقول: الرياء من الشرك الأصغر؛ لأن الإنسان قصد بعبادته غير الله وقد يصل إلىٰ الأكبر، وقد مثل ابن القيم للشرك الأصغر؛ فقال: «مثل يسير الرياء»، وهذا يدل علىٰ أن الرياء الكثير قد يصل إلىٰ الأكبر.

المقام الثاني: في حكم العبادة إذا خالطها الرياء، وهو علىٰ **ثلاثة أوجه:**

الأول: أن يكون الباعث علىٰ العبادة مراءاة الناس من الأصل، كمن قام يصلي من أجل مراءاة الناس ولم يقصد وجه الله؛ فهذا شرك والعبادة باطلة.

الثاني: أن يكون مشاركًا للعبادة في أثنائها، بمعنىٰ أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله، ثم يطرأ الرياء في أثناء العبادة.

فإن كانت العبادة لا ينبني آخرها علىٰ أولها، فأولها صحيح بكل حال، والباطل آخرها.

مثال ذلك: رجل عنده مائة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين مخلصًا، وراءىٰ في الخمسين الباقية؛ فالأولىٰ حكمها صحيح، والثانية باطلة.

---

(٢٦٩) سبق تخريجه

أما إذا كانت العبادة ينبني آخرها على أولها، فهي على حالين:

أ- أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه؛ فإنه لا يؤثر عليه شيئًا؛ لقول النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»(٢٧٠).

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصًا لله، وفي الركعة الثانية أحس بالرياء فصار يدافعه؛ فإن ذلك لا يضره ولا يؤثر على صلاته شيئًا.

ب - أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدافعه؛ فحينئذ تبطل جميع العبادة؛ لأن آخرها مبني على أولها ومرتبط به.

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصًا لله، وفي الركعة الثانية طرأ عليه الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه، فاطمأن لذلك ونزع إليه؛ فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض.

الثالث: ما يطرأ بعد انتهاء العبادة؛ فإنه لا يؤثر عليها شيئًا، اللهم إلا أن يكون فيه عدوان؛ كالمن والأذى بالصدقة؛ فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلًا لأجر الصدقة فيبطلها؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[البقرة:٢٦٤].

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة.

وليس من الرياء أيضًا أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة في نفسه بل ذلك دليل على إيمانه، قال النبي ﷺ: «**من سرته حسناته وساءته سيئاته فذلك المؤمن**»(٢٧١) وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك؛ فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»(٢٧٢).

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾»:

يأمر الله نبيه أن يقول للناس: إنما أنا بشر مثلكم، وهو قصر النبي ﷺ على البشرية، وأنه ليس ربًا ولا ملكًا، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾، فذكر المثل من باب تحقيق البشرية.

---

(٢٧٠) أخرجه البخاري، كتاب: الطلاق، باب: الطلاق في الإغلاق...، برقم (٥٢٦٩)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: تجاوز الله عن حديث النفس...، برقم (١٢٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢٧١) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: لزوم الجماعة، برقم (٢١٦٥)، وأحمد (١/ ١٨)، وابن حبان، برقم (٧٢٥٤) وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢٧٢) سبق تخريجه.

قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾: الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم:١١].

وفي الشرع: إعلام الله بالشرع.

والوحي: هو الفرق بيننا وبينه ﷺ؛ فهو متميز بالوحي كغيره من الأنبياء والرسل.

قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: هذه الجملة في تأويل مصدر نائب فاعل ﴿يُوحَىٰٓ﴾، وفيها حصر طريقه ﴿أَنَّمَآ﴾؛ فيكون معناها: ما إلهكم إلا إله واحد، وهو الله فإذا ثبت ذلك؛ فإنه لا يليق بك أن تشرك معه غيره في العبادة التي هي خالص حقه، ولذلك قال تعالىٰ بعد هذا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠].

فقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ المراد بالرجاء: الطلب والأمل؛ أي: من كان يؤمل أن يلقىٰ ربه، والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة؛ **لأن اللُّقيا علىٰ نوعين:**

الأول: عامة لكل إنسان، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[الانشقاق:٦]؛ ولذلك قال مفرِّعًا علىٰ ذلك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق:٧-٨] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ...﴾ الآية [الانشقاق:١٠].

الثاني: الخاصة بالمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالىٰ، كما ذكر بعض أهل العلم.

فقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، والأمر للإرشاد؛ أي: من كان يريد أن يلقىٰ الله علىٰ الوجه الذي يرضاه سبحانه، فليعمل عملًا صالحًا: والعمل الصالح ما كان خالصًا صوابًا.

وهذا وجه الشاهد من الآية.

فالخالص: ما قصد به وجه الله، والدليل علىٰ ذلك قوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات»**(٢٧٣).

والصواب: ما كان علىٰ شريعة الله، والدليل علىٰ ذلك قوله ﷺ: **«من عمل عملًا ليس عليه أمرنا، فهو رد»**(٢٧٤).

---

(٢٧٣) سبق تخريجه.

(٢٧٤) سبق تخريجه.

ولهذا قال العلماء: هذان الحديثان ميزان الأعمال؛ فالأول: ميزان الأعمال الباطنة. والثاني: ميزان الأعمال الظاهرة.

قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾، لا: ناهية والمراد بالنهي الإرشاد.

قوله: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾، خص العبادة؛ لأنها خالص حق الله، ولذلك أتىٰ بكلمة «رب» إشارة إلىٰ العلة، فكما أن ربك خلقك ولا يشاركه أحد في خلقك؛ فيجب أن تكون العبادة له وحده؛ ولذلك لم يقل: «لا يشرك بعبادة الله»، فذكر الرب من باب التعليل، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة:٢١].

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾: نكرة في سياق النهي؛ فتكون عامة لكل أحد.

والشاهد من الآية: أن الرياء من الشرك؛ فيكون داخلًا في النهي عنه.

وفي هذه الآية دليل علىٰ ملاقاة الله تعالىٰ، وقد استدل بها بعض أهل العلم علىٰ ثبوت رؤية الله؛ لأن الملاقاة معناها المواجهة.

وفيها دليل علىٰ أن الرسولﷺ بشر لا يستحق أن يعبد؛ لأنه حصر حاله بالبشرية، كما حصر الألوهية بالله.

❁ **قوله**: «**في حديث أبي هريرة**: «**قال الله تعالىٰ**»:

هذا الحديث يرويه النبيﷺ عن ربه، ويسمىٰ هذا النوع بالحديث القدسي.

قوله: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك**».

قوله «أغنىٰ». اسم تفضيل، وليست فعلًا ماضيًا؛ ولهذا أضيفت إلىٰ الشركاء؛ يعني: إذا كان بعض الشركاء يستغني عن شركته مع غيره؛ فالله أغنىٰ الشركاء عن المشاركة.

فالله لا يقبل عملًا له فيه شرك أبدًا، ولا يقبل إلا العمل الخالص له وحده، فكما أنه خالق وحده؛ فكيف تصرف شيئًا من حقه إلىٰ غيره؟! فهذا ليس عدلًا، ولهذا قال الله عن لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]، فالله الذي خلقك وأعدك إعدادًا كاملًا بكل مصالحك وأمدك بما تحتاج إليه، ثم تذهب وتصرف شيئًا من حقه إلىٰ غيره؟! فلا شك أن هذا من أظلم الظلم.

قوله: «**عملًا**»: نكرة في سياق الشرط؛ فتعم أي عمل من صلاة، أو صيام، أو حج، أو جهاد، أو غيره.

قوله: «**تركته وشركه**»؛ أي: لم أثبه علىٰ عمله الذي أشرك فيه.

وقد يصل هذا الشرك إلىٰ حد الكفر، فيترك الله جميع أعماله؛ لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه.

والمراد بشركه: عمله الذي أشرك فيه، وليس المراد شريكه؛ لأن الشريك الذي أشرك به مع الله قد لا يتركه؛ كمن أشرك نبيًّا أو وليًّا؛ فإن الله لا يترك ذلك النبي والولي.

ويستفاد من هذا الحديث:

١- بيان غنىٰ الله تعالىٰ؛ لقوله: «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك».

٢- بيان عظم حق الله، وأنه لا يجوز لأحد أن يشرك أحدًا مع الله في حقه.

٣- بطلان العمل الذي صاحبه الرياء؛ لقوله: «تركته وشركه».

٤- تحريم الرياء؛ لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبوله يدل علىٰ الغضب، وما أوجب الغضب؛ فهو محرم.

٥- أن صفات الأفعال لا حصر لها؛ لأنها متعلقة بفعل الله، ولم يزل الله ولا يزال فعالًا.

❁ **قوله**: «**في حديث أبي سعيد: ألا**»:

أداة عرض، والغرض منها تنبيه المخاطب؛ فهو أبلغ من عدم الإتيان بها.

قوله: «**بما هو**»: ما: اسم موصول بمعنىٰ الذي.

قوله: «**أخوف عليكم عندي**»؛ أي: عند الرسول ﷺ؛ لأنه ﷺ من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، وأعظم فتنة في الأرض هي فتنة المسيح الدجال، لكن خوف النبي ﷺ من فتنة هذا الشرك الخفيِّ أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك؛ لأن التخلص منه صعب جدًّا، ولذلك قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي علىٰ شيء مجاهدتها علىٰ الإخلاص»، وقال النبي ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»(٢٧٥) ولا يكفي مجرد اللفظ بها، بل لا بد من إخلاص وأعمال يتعبد بها الإنسان لله ﷻ.

قوله: «**المسيح الدجال**»: المسيح؛ أي: ممسوح العين اليمنى، فذكر النبي ﷺ عيبين في الدجال:

أحدهما حسي: وهو أن الدجال أعور العين اليمنىٰ؛ كما قال النبي ﷺ: «**إن الله لا يخفىٰ عليكم، إنه ليس بأعور، وإن الدجال أعور العين اليمنىٰ**»(٢٧٦)

---

(٢٧٥) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: الحرص علىٰ الحديث، برقم (٩٩) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢٧٦) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالىٰ ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، برقم (٧٤٠٧) وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والثاني معنوي: وهو الدجال؛ فهو صيغة مبالغة، أو يقال: بأنه نسبة إلىٰ وصفه الملازم له، وهو الدجل والكذب والتمويه، وهو رجل من بني آدم، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ بحكمته يخرجه ليفتن الناس به، وفتنته عظيمة؛ إذ ما في الدنيا منذ خلق آدم إلىٰ أن تقوم الساعة فتنة أشد من فتنة الدجال.

والمسيح الدجال ثبتت به الأحاديث واشتهرت حتىٰ كان من المعلوم بالضرورة؛ لأن النبي ﷺ أمر أمته أن يتعوذوا بالله منه في كل صلاة، وقد حاول بعض الناس إنكاره وقالوا: ما ورد من صفته متناقض ولا يمكن أن يصدق به، لكن هؤلاء يقيسون الأحاديث بعقولهم وأهوائهم، وقدرة الله بقدرتهم، ويقولون: كيف يكون اليوم عن سنة والشمس لها نظام لا تتعداه؟ وهذا لاشك جهل منهم بالله؛ فالذي جعل هذا النظام هو الله، وهو القادر علىٰ أن يغيره متي شاء؛ فيوم القيامة تُكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتكشط السماء، كل ذلك بكلمة «كن». ورد هذه الأحاديث بمثل هذه التعاليل دليل علىٰ ضعف الإيمان وعدم تقديره الله حق قدرته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

فالذي نؤمن به أنه سيخرج في آخر الزمان، ويحصل منه كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ

ونؤمن أن الله علىٰ كل شيء قدير، وأنه قادر علىٰ أن يبعث علىٰ الناس من يفتنهم عن دينهم؛ ليتميز المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب، مثل ما ابتلىٰ الله بني إسرائيل بالحيتان يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، ومثل ما ابتلىٰ الله المؤمنين بأن أرسل عليهم الصيد وهم حرم، تناله أيدهم ورماحهم؛ ليعلم الله من يخافه بالغيب، وقد يبتلي الله أفراد الناس بأشياء يمتحنهم بها، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الحج:١١].

قوله: «الشرك الخفي». الشرك قسمان: خفي وجلي.

فالجلي: ما كان بالقول مثل: الحلف بغير الله أو قول: ما شاء الله وشئت، أو بالفعل مثل: الانحناء لغير الله تعظيمًا.

والخفي: ما كان في القلب، مثل: الرياء؛ لأنه لا يبين؛ إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله، ويسمي أيضًا «شرك السرائر»، وهذا هو الذي بينه الله بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩]؛ لأن الحساب يوم القيامة علىٰ السرائر، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩- ١٠] وفي الحديث الصحيح فيمن كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهىٰ عن المنكر ويفعله: أنه «يلقىٰ في النار حتىٰ

تندلق أقتاب بطنه؛ فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار، فيسألونه، فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهىٰ عن المنكر ويفعله»(٢٧٧)

قوله: «يقوم الرجل، فيصلي، فيزيِّن صلاته». يتساوىٰ في ذلك الرجل والمرأة، والتخصيص هنا يسمىٰ مفهوم اللقب؛ أي: أن الحكم يعلق بما هو أشرف، لا لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل.

وقوله: «فيزين صلاته»؛ أي: يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير ونحو ذلك.

قوله: «لما يرىٰ من نظر رجل إليه»: «ما»: موصولة، وحذف العائد؛ أي: للذي يراه من نظر رجل، وهذه هي العلة لتحسين الصلاة؛ فقد زين صلاته ليراه هذا الرجل فيمدحه بلسانه أو يعظمه بقلبه، وهذا شرك.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير آية الكهف. وسبق الكلام عليها.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

وذلك لقوله: «تركته وشركه»، وصار عظيمًا؛ لأنه ضاع علىٰ العامل خسارًا، وفحوىٰ الحديث تدل علىٰ غضب الله ﷻ من ذلك.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنىٰ؛ يعني: الموجب للرد هو كمال غني الله ﷻ عن كل عمل فيه شرك، وهو غني عن كل عمل، لكن العمل الصالح يقبله ويثيب عليه.

الرابعة: أن من الأسباب أنه تعالىٰ خير الشركاء؛ أي: من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحدًا، أن الله خير الشركاء، فلا ينازع من جعل شريكًا له فيه.

الخامسة: خوف النبي ﷺ علىٰ أصحابه من الرياء؛ وذلك لقوله ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال». وإذا كان يخاف ذلك علىٰ أصحابه؛ فالخوف علىٰ من بعدهم من باب أولىٰ.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن المرء يصلي لله، لكن يزينها لما يرىٰ من نظر رجل إليه. وهذا التفسير ينطبق تمامًا علىٰ الرياء؛ فيكون أخوف علينا عند رسوله ﷺ من المسيح الدجال.

---

(٢٧٧) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٦٧)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، برقم (٢٩٨٩) وغيرهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

ولم يذكر المؤلف مسألة خوف النبي ﷺ على أمته من المسيح الدجال؛ لأن المقام في الرياء لا فيما يخافه النبي ﷺ على أمته.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[الكهف: ١١٠]:

تمام الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠].

مناسبة ذكر هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنه لما كان الرياء مخلًّا بالتوحيد ومحبطًا للعمل الذي قارنه ناسب أن ينبه عليه المؤلف في هذا الباب.

«**الرياء**»: مصدر راءى مراءاةً ورياءً وهو أن يقصد أن يرى الناس أنه يعمل عملًا على صفة وهو يضمر في قلبه صفة أخرى.

﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل للناس.

﴿أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: في البشرية ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء.

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: معبودكم بحق الذي أدعوكم إلى عبادته معبود واحد لا شريك له.

﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: يخاف المصير إليه ويطمع برؤيته يوم القيامة.

﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: هو ما كان موافقًا لشرع الله مقصودًا به وجهه.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: لا يرائي بعمله.

﴿أَحَدًۢا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم كل أحدٍ كائنًا من كان.

المعنى الإجمالي:

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبر الناس أنه بشرٌ مثلهم في البشرية ليس له من الربوبية والألوهية شيء، وإنما مهمته إبلاغ ما يوحيه الله إليه، وأهم ما أوحي إليه أنَّ المعبود حقًّا معبودٌ واحدٌ - هو الله - لا يجوز أن يشرك معه أحدٌ في العبادة، ولابد من المصير إليه في يوم القيامة، فالذي يرجو النجاة في هذا اليوم من عذاب الله يستعدُّ له بالعمل الخالص من الشرك الموافق لما شرعه الله.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها الأمر بإخلاص العمل من الشرك الذي منه الرياء.

ما يستفاد من الآية:

١ - أنَّ أصل الدين هو إفراد الله بالعبادة.

٢- أنَّ الرياء شرك.

٣- أنَّ الشرك الواقع من المشركين هو الشرك في العبادة.

٤- أنَّه لا يجوز أن يُعبد مع الله أحدٌ لا من الأصنام ولا من الأنبياء والصَّالحين ولا غيرهم.

قوله: «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك»:

أي: عن مشاركة أحدٍ، وعن عملٍ فيه شرك.

«أشرك معي فيه غيري»؛ أي: قصد بعمله غيري من المخلوقين.

معنىٰ الحديث إجمالًا:

يروي النبيﷺ عن ربهﷻ - وهو ما يسمىٰ بالحديث القدسي - أنه يتبرأ من العمل الذي دخله مشاركة لأحد برياءٍ أو غيره؛ لأنَّه سبحانه لا يقبل إلاَّ ما كان خالصًا لوجهه.

مناسبة ذكره في الباب:

أنه يدل علىٰ عدم قبول العمل الذي داخله رياء أو غيره من أنواع الشرك.

ما يستفاد منه:

١- التحذير من الشرك بجميع أشكاله؛ وأنَّه مانع من قبول العمل.

٢- وجوب إخلاص العمل لله من جميع شوائب الشرك.

٣- وصف الله بالغنىٰ.

٤- وصف الله بالكلام.

قوله: «أخوف»:

أفعل تفضيل؛ أي: أشد خوفًا.

«المسيح»: صاحب الفتنة العظمىٰ، سمي مسيحًا؛ لأن عينه ممسوحة، أو لأنه يمسح الأرض؛ أي: يقطعها بسرعة.

«الدجال»: كثير الدجل؛ أي: الكذب.

«الشرك الخفي»: سمَّاه خفيًّا؛ لأنَّ صاحبه يظهر أن عمله لله وهو في الباطن قد قصد به غيره.

«يزين صلاته»: يحسِّنُها ويطيلها ونحو ذلك.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

كان الصحابة يتذاكرون فتنة المسيح الدجال ويتخوفون منها، فأخبرهمﷺ أنَّ هناك محذورًا

يخافه عليهم أشد من خوف فتنة الدجال وهو الشرك في النية والقصد الذي لا يظهر للناس، ثم فسَّرَهُ بتحسين العمل الذي يُبتغىٰ به وجه الله من أجل رؤية الناس.

مناسبة ذكر الحديث في الباب:

أنَّ فيه التحذير من الرياء، وفيه تفسيره.

ما يستفاد من الحديث:

١- في الحديث شفقته ﷺ علىٰ أمته ونصحه لهم.

٢- أنَّ الرياء أخوف علىٰ الصالحين من فتنة الدجال.

٣- الحذر من الرياء ومن الشرك عمومًا.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب ما جاء في الرياء»:

هذا «باب ما جاء في الرياء» يعني: من الوعيد، وأنه شرك بالله جل وعلا.

والرياء حقيقته من الرؤية البصرية، وذلك بأن يعمل عمل العبادة لكي يُرىٰ أنه يعمل العمل الذي هو من العبادة، إما من صلاة، أو تلاوة، أو ذكر، أو صدقة، أو حج، أو جهاد، أو امتثال أمر، أو اجتناب نهي، ونحو ذلك، لا لطلب ما عند الله ولكن لأجل أن يراه الناس علىٰ ذلك فيثنوا عليه به. هذا هو الرياء، وقد يكون الرياء في أصل الإسلام كرياء المنافقين، فالرياء علىٰ درجتين:

الدرجة الأولىٰ: رياء المنافقين، بأن يُظهر الإسلام ويبطن الكفر لأجل رؤية الخلق، وهذا منافٍ للتوحيد من أصله وكفر أكبر بالله -جل جلاله- ولهذا وصف الله المنافقين بقوله: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] فقوله: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: الرياء الأكبر الذي هو إظهار أصل الإسلام وشعب الإسلام، وإبطان الكفر وشعب الكفر.

والنوع الثاني من الرياء: أن يكون الرجل مسلمًا أو المرأة مسلمة، ولكن يرائي بعمله أو ببعض عمله، فهذا شرك خفي، وذلك الشرك مناف لكمال التوحيد، والله -جل وعلا- قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]علىٰ قول من قال: إن قوله: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ يدخل فيه الشرك الخفي والأصغر.

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[الكهف: ١١٠]»:

قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ هذا نهي عن الإشراك، والنهي هنا عام لجميع أنواع الشرك، ومنها شرك الرياء، ولهذا يستدل السلف بهذه الآية علىٰ مسائل الرياء، كما أوردها الإمام -رحمه الله تعالىٰ- هنا؛ لأنه قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ يعني: بما يشمل ترك المراءة، فإن الرياء شرك وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ هذا عموم يعم أنواع الشرك جميعًا؛ لأن ﴿يُشْرِكْ﴾ نكرة جاءت في سياق النهي، فعمت أنواع الشرك.

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾: يعم جميع الخلق بمراءة أو بتسميع أو بغير ذلك، فدلالة الآية علىٰ الباب ظاهرة، وأن المراءة نوع من الشرك الأصغر، وضرب من الشرك الخفي؛ لأننا نقول: الرياء شرك أصغر باعتبار أنه له ليس بأكبر، ولا مخرج من الملة، وتارة نقول: الرياء شرك خفي؛ لأنه ليس بظاهر، وإنما هو باطن خفي في قلب العبد؛ ولهذا تجد أن كثيرين من أهل العلم يعبرون عن الشرك الأصغر بيسير الرياء، وتارة يعبرون عن الشرك الخفي بالرياء، ذلك لأن الشرك يختلف من حيث الإطلاق -كما سبق- من عالم إلىٰ آخر فتارة يقسمون الشرك إلىٰ أكبر وأصغر، ومنهم من يقسمه إلىٰ أكبر وأصغر وخفي، وكل له اصطلاحه، وكل الأقوال صواب.

قوله: «**وعن أبي هريرة مرفوعًا: قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك من عمل...**»:

هذا الحديث يدل علىٰ أن الرياء مردود علىٰ صاحبه، وأن الله -جل وعلا- لا يقبل العمل الذي خالطه الرياء، والعلماء فصلوا في ذلك فقالوا: الرياء إذا عرض للعبادة فله أحوال:

الحالة الأولىٰ: أن يعرض للعبادة من أولها، فإذا عرض للعبادة من أولها فإن العبادة كلها باطلة، كأن ينشئ الصلاة لنظر فلان، فولم يرد أن يصلي، لكن لما رأىٰ فلانًا ينظر إليه صلىٰ، فهذا عمله حابط، يعني أن الصلاة التي صلاها حابطة، وهو مأزور علىٰ مراءاته ومرتكب الشرك الخفي، الشرك الأصغر.

والحالة الثانية: أن يكون أصل العبادة لله، ولكن خلط ذلك العابد عمله برياء، كمن أطال الركوع وأكثر التسبيح وأطال القراءة والقيام لأجل من يراه، فأصل العبادة -والتي كانت لله- له، وما عدا ذلك فهو حابط؛ لأنه راءىٰ في الزيادة علىٰ الواجب فيحبط ذلك الزائد وهو آثم عليه، لا يؤجر عليه ولا ينتفع منه ويؤزر علىٰ إشراكه وعلىٰ مراءاته في العبادات البدنية. أما العبادات المالية فيختلف الحال عن ذلك.

قوله: «من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» يعني: بجميع أنواع المشركين وبجميع أنواع الأعمال؛ لأن (عملًا) في قوله: «من عمل عملًا» نكرة جاءت في سياق الشرط، فعمت جميع الأعمال: الأعمال البدنية، والأعمال المالية، والأعمال التي اشتملت علىٰ مال وبدن، فالبدنية: كالصلاة والصيام، والمالية: كالزكاة والصدقة، والمشتملة علىٰ بدن ومال: كالحج والجهاد ونحو ذلك، والمقصود من قوله: «من عمل عملا» أنه أنشأه «أشرك فيه معي غيري» جعله لله ولغير الله جميعًا، فإن الله -جل وعلا- أغنىٰ الشركاء عن الشرك، لا يقبل إلا ما كان له وحده سبحانه وتعالىٰ.

۞ **قوله:** «وعن أبي سعيد مرفوعًا: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال...**»:

هذا فيه بيان أن هذا النوع من الشرك هو أخوف علىٰ هذه الأمة عند النبي ﷺ من المسيح الدجال، ذلك أن أمر المسيح أمر ظاهر بيّن، والنبي عليه الصلاة والسلام بين ما فيه من شأنه، وبين صفته، وحذر الأمة منه، وأمرهم بأن يدعوا آخر كل صلاة، وأن يستعيذوا من شر المسيح الدجال، ومن فتنة المسيح الدجال، أما الرياء فإنه يعرض للقلب كثيرًا، والشيطان يأتي إلىٰ القلوب وهذا الشرك يقود العبد إلىٰ أن يتخلىٰ شيئًا فشيئًا عن مراقبة الله -جل وعلا- ويتجه إلىٰ مراقبة المخلوقين، لذلك صار أخوف عند النبي ﷺ علينا من المسيح الدجال، ثم فسره بقوله: «**الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرىٰ من نظر رجل**».



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف، أي: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[الكهف:١١٠]، أي: إن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحًا موافقًا للشرع،وخالصًا لله ليس فيه شرك. والرياء ينافي الإخلاص.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله أي: لفقده شرطه المصحح له وهو الإخلاص.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى، أي لقوله: « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك**».

الرابعة: أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء، أي: فلا يقبل العمل الذي يشرك به غيره.

الخامسة: خوفه ﷺ على أصحابه من الرياء أي لقوله: « **ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال**».

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه، أي: كما ذكره في آخر الحديث،وسماه خفيًا؛ لكون صاحبه يظهر للناس شيئًا وقد أخفى خلافه.



* الأسئلة *

س: عرف الرياء، وما الفرق بينه وبين السمعة، وما علاقة هذا الباب بكتاب التوحيد؟

جـ: الرياء مشتق من الرؤية وهو ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه، وقيل: هو فعل الخير لإرادة الغير، والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمد صاحبها.

والفرق بين الرياء والسمعة أن الرياء لما يُرىٰ من العمل؛ كالصلاة، والسمعة لما يسمع من القول؛ كالقراءة وأنواع الذكر.

وعلاقة هذا الباب بكتاب التوحيد: أن الرياء شرك أصغر مناف لكمال التوحيد.

❁ **قوله:** «قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ...﴾[الكهف: ١١٠]».

س: اشرح هذه الآية واذكر سبب نزولها وبين مناسبتها للباب وما الذي يستفاد منها؟

جـ: يقول تعالىٰ مخاطبًا لرسوله ﷺ قل لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك: إنما أنا بشر مثلكم ليس لي من الربوبية ولا من الألوهية شيء بل ذلك كله لله وحده لا شريك له أوحاه إلي، وإنما أخبركم أنما إلهكم الذي أدعوكم إلىٰ عبادته إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه ورؤيته يوم القيامة وجزاءه الصالح فليعمل عملًا صالحًا وهو ما كان لله موافقًا لسنة رسول الله ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا؛ أي: لا يرائي بعمله أحدًا.

سبب نزولها: ما روىٰ ابن أبي حاتم بسنده عن طاوس قال: قال رجل: يا رسول الله إني أقف الموقف أريد به وجه وأحب أن يرىٰ موطني فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا حتىٰ نزلت هذه الآية.

ومناسبتها للباب: أن السعادة والخير والفلاح في لقاء الله - تبارك وتعالىٰ - وأن لقاء الله يحصل بالعمل الصالح الخالص من الرياء والسمعة.

ويستفاد منها: أن العمل الصالح مردود إذا دخله شيء من الشرك والرياء.

❁ **قوله:** «عن أبي هريرة مرفوعًا قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك...».

س: ما معنى هذا الحديث واذكر مناسبته لهذا الباب؟

جـ: معناه: أنا غني عن المشاركة وغيرها فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير.

ومناسبته للباب: أن عمل المرائي باطل لا ثواب له فيه بل يأثم به.

❁ قوله: «وعن أبي سعيد مرفوعًا: ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي...».

س: اذكر معنى هذا الحديث، ولماذا نوع هذا الشرك المذكور فيه، ولماذا سماه خفيًّا؟ اذكر ما يستفاد من هذا الحديث؟

ج: معناه: إني أخاف عليكم من الرياء أكثر مما أخاف عليكم من فتنة المسيح الدجال. وسمي هذا العمل شركًا خفيًّا؛ لأنه عمل قلب لا يعلمه إلا الله؛ ولأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره أو أشرك فيه بتزيين صلاته لأجله، وهذا شرك أصغر كما قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال: الرياء**» رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي.

ويستفاد من هذا الحديث: شفقة النبي ﷺ علىٰ أمته ونصحه لهم وخوفه عليهم من الرياء المحبط للعمل.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



الدرس السابع والثلاثون:

باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا...﴾الآية [هود:١٥].

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخَميصة، تعس عبد الخَميلة، إن أُعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش.طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة، كان في الساقة، إن أستأذن، لم يؤذن له، وإن شفع، لم يشفع»(٢٧٨).

فيه مسائل:

الأولىٰ: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».

السادسة: قوله «وإذا شيك، فلا انتقش».

السابعة: الثناء علىٰ المجاهد الموصوف بتلك الصفات.



الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا»:

أراد المصنفرَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك، ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك علىٰ كثير

(٢٧٨) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد، باب: الحراسة في سبيل الله، برقم (٢٨٨٧).

من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، فإن قيل: فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله؟ قيل: بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس، والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء.

وهو أيضًا إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام، ويفارق الرياء لكونه عمل عملًا صالحًا أراد به عرضًا من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالًا، أو يجاهد للمغنم، أو غير ذلك؛ ولهذا سماه عبدًا لذلك، بخلاف المرائي؛ فإنه إنما يعمل ليراه الناس ويعظموه، والذي يعمل لأجل الدراهم أعقل من المرائي، وكلاهما خاسر، نعوذ بالله من موجبات غضبه.

قوله: «وقوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ...﴾»:

قال ابن عباس: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ثوابها، ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي: مالها، ﴿نُوَفِّ﴾ أي: نوفر لهم ثواب: ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بالصحة والسرور في المال والأهل والولد: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾[هود:١٦]؛ لأنهم لم يعملوا إلا للحياة الدنيا وزينتها: ﴿وَحَبِطَ﴾ في الآخرة: ﴿مَا صَنَعُواْ﴾ فيها، فلم يكن لهم ثواب؛ لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفي إليهم ما أرادوا ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٦]؛ أي: كان عملهم في نفسه باطلًا؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له، قيل: ثم نسختها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[الإسراء:١٨] الآية، يعني: قيدتها، فلم تبق الآية علىٰ إطلاقها. وقال الضحاك: من عمل صالحا من أهل الإيمان من غير تقوىٰ عجل له ثواب عمله في الدنيا. ورجحه ابن القيم. وقال قتادة: يقول تعالىٰ: من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلىٰ الآخرة وليس له حسنة يعطىٰ بها جزاء، وأما المؤمن فيجازىٰ بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة. وثبت من حديث أبي هريرة: **«إن أول الناس يقضىٰ عليه يوم القيامة رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت علىٰ رسولي؟ قال: بلىٰ يا رب. قال فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة له: كذبت، ويقول الله له: «بل أردت أن يقال: فلان قارئ فقد قيل ذلك»**. وذكر صاحب المال وأن الله يقول له: **«بل أردت أن يقال: فلان جواد»**. وذكر المجاهد وأن الله يقول له: **«بل أردت أن يقال: فلان جريء فقد قيل ذلك»**. ثم قال: **«يا أبا هريرة أولئك أول من تسعر بهم النار

يوم القيامة. وهؤلاء لهم أعمال، لكن لم يريدوا بها وجه الله، ولما سئل عنه كاد يغشى عليه خوفا، وكذا معاوية لما سمعه، وقال: صدق الله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية»(٢٧٩).

وسئل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية فقال: ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم، ولا يعرفون معناه، فمن ذلك العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله، من صلاة وصدقة وصلة وإحسان وترك ظلم ونحو ذلك، مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصًا لله، لكن لا يريد به ثواب الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا هم له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا قد يعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب، وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكر مجاهد في الآية أنها نزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالا صالحة ونيته رئاء الناس، لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالًا صالحة يقصد بها مالًا، مثل أن يحج لمال يأخذه، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضًا هذا النوع في تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد كما هو واقع كثيرًا.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصًا في ذلك، لكنه على عمل يكفره كفرًا يخرجه عن الإسلام، مثل اليهود والنصارى وكثير من هذه الأمة، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام، وتمنع قبول أعمالهم، فهذا النوع أيضًا قد ذكر في هذه الآية عن أنس وغيره، وكان السلف يخافون منها، قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة لتمنيت الموت؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]. بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلاة والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله، طالبًا ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالًا صالحة قاصدًا بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه ثم يحج بعده لأجل الدنيا، كما هو واقع فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القرآن كثيرًا ما يذكر أهل الجنة الخلص، وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا والله أعلم.

---

(٢٧٩) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، برقم (١٩٠٥)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب: الرياء والسمعة، برقم (٢٣٨٢)، والنسائي، كتاب: الجهاد، باب: من قاتل ليقال فلان جريء، برقم (٣١٣٧) وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

❁ **قوله**: «في الصحيح»:

أي: «صحيح البخاري» في الجهاد بلفظ: «تعس عبد الدنيا والدرهم والخميصة والخميلة»[٢٨٠].

وفي رواية: «والقطيفة» إلخ وبعضه في الرقاق.

❁ **قوله**: «تعس عبد الدينار»:

تعس بكسر العين ويجوز الفتح؛ أي: سقط. وقال الحافظ: والمراد هنا هلك، وقال: وهو ضد سعد؛ أي: شقي. وفي النهاية: «يقال تعس يتعس إذا عثر وانكب لوجهه» اهـ. فتعس دعاء عليه بالهلاك، وقيل: التعس الشر، ومنه قوله: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أراد إلزامهم الشر. وقيل: البعد. وعبد الدينار طالبه الحريص علىٰ جمعه، القائم علىٰ حفظه، لا يرضىٰ ولا يغضب ولا يحب ولا يبغض إلا لأجله، سماه عبدًا له لشدة شغفه وحرصه عليه، ولكونه هو المقصود بعمله، وكل من توجه بقصده لغير الله فقد جعله شريكًا له في عبوديته، وخص العبد بالذكر دون المالك والجامع إيذانًا بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها، كالأسير الذي لا يجد خلاصًا، والدينار مثقال معروف من الذهب، مضروب من المعاملات القديمة، قيل: أصله فارسي، وقيل: عربي.

❁ **قوله**: «تعس عبد الدرهم»:

وهو قطعة من الفضة، سميت به للمعاملة وهو ستة دوانق نصف مثقال وخمسه، ويزن المثقال اثنتين وسبعين شعيرة متوسطة.

❁ **قوله**: «تعس عبد الخميصة»:

جمعها خمائص، ثوب خز أو صوف معلم، أو هو الكساء المربع له أعلام، وقيل: لا تسمىٰ خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة.

❁ **قوله**: «تعس عبد الخميلة»

بفتح الخاء جمعها خمل، كل ثياب لها خمل من أي شيء كان، والطنفسة والخمل الهدب، وفي رواية: «القطيفة»، وفسرت بذلك، بدأ بعبد العين ثم بعبد العروض، فكأن المراد كل ما كان من الدنيا نقدًا أو عرضًا.

---

(٢٨٠) سبق تخريجه.

قوله: «إن أُعطي رضي، وإن لم يعط سخط»: يؤذن بشدة الحرص على ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[التوبة:٥٨] فصار سخطهم ورضاهم لغير الله.

قال: «تعس وانتكس» قال الحافظ: «أي: عاوده المرض». وفي النهاية: «انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة». قال الطيبي: «فيه الترقي بالدعاء عليه؛ لأنه إذا تعس انكب على وجهه، وإذا انتكس انقلب على رأسه بعد أن سقط».

❁ **قوله: «وإذا شيك فلا انتقش»:**

أي: إذا أصابته شوكة فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش، دعاء عليه أيضًا، حتى لو تصيبه الشوكة في رجله لم يجد من يأخذها بالمنقاش؛ لحقارته وهوانه والمراد أن من كانت هذه حاله فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوءه في العواقب، وأنه يجد أثر هذه الدعوات، في الوقوع فيما يضره في العاجلة والآجلة. قال شيخ الإسلام: فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر، وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه، ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي، وإن منع سخط، كقوله: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[التوبة:٥٨] فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقا منها برياسة أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده، وهكذا حال من طلب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان: ما يحتاج إليه العبد كطعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلب من الله ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده، يستعمله في حاجته، بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، من غير أن يستعبده، فيكون هلوعًا. وما لا يحتاج إليه العبد، فينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدًا ومعتمدًا على غير الله، فلا يبقى معه حقيقة العبودية، ولا حقيقة التوكل على الله بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غيره، وهذا أحق الناس بقوله: «تعس...الخ »، فهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما يحب الله، ويبغض ما يبغض الله، فهذا الذي استكمل الإيمان.

❁ **قوله: «طوبىٰ لعبد آخذٍ بعنان فرسه في سبيل الله»:**

طوبىٰ: اسم الجنة، وقيل شجرة فيها، لما روىٰ أحمد من حديث أبي سعيد: «قال رجل: يا رسول الله وما طوبىٰ؟ قال: شجرة في الجنة، مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»(٢٨١). وروىٰ ابن جرير وغيره عن وهب: أن في الجنة شجرة يقال لها: طوبىٰ، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، وقيل: طوبىٰ فرح وقرة عين، وقيل: غبطة، وقيل: حسنىٰ، و «عنان» بكسر العين سير اللجام، لما ذكر حال من سخطه ورضاه لأطماع الدنيا، إن حصلت رضي وإن لم تحصل سخط، قاطعًا النظر عن رضىٰ الله وسخطه، حتىٰ صار عبدًا لتلك، بين حال عبد الله الصادق الساعي في مراضي الله، والمبتعد عن مساخطه، ولو كان في ذلك مشقة النصب والتعب، فقال: «طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله... إلخ »؛ أي: ملازمها في جهاد المشركين، قال عليه الصلاة والسلام: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر؛ فهو في سبيل الله»(٢٨٢).

❁ **قوله: «أشعث رأسه»:**

أشعث: صفة لعبد، مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف؛ للوصف ووزن الفعل، ورأسه مرفوع علىٰ الفاعلية؛ أي: هو ثائر الشعر، أشغله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالادهان وتسريح الشعر.

❁ **قوله: «مغبَّرة قدماه»:**

مغبرة بالجر صفة ثانية لعبد؛ أي: من الغبار والتراب، بخلاف المترفين المتنعمين.

❁ **قوله: «إن كان في الحراسة؛ كان في الحراسة»:**

الحراسة بكسر الحاء؛ أي: إن كان في حماية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم فهو فيها، غير مقصر ولا غافل.

❁ **قوله: «وإن كان في الساقة؛ كان في الساقة »:**

أي: وإن كان في آخر الجيش فهو فيها، يقلب نفسه في مصالح الجهاد، فكل مقام يقوم فيه سواء كان ليلًا أو نهارًا، رغبة في ثواب الله، وطلبًا لمرضاته، ومحبة لطاعته. قال ابن الجوزي: المعنىٰ

---

(٢٨١) أخرجه أحمد (٣/ ٧١) وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (٣٧٣٦).

(٢٨٢) أخرجه البخاري، كتاب:العلم، باب: من سأل وهو قائم -عالمًا- جالسًا، برقم (١٢٣)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، برقم (١٤٩/ ١٩٠٤) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

أنه خامل الذكر، لا يقصد السمو، فأين اتفق له السير سار، فكأنه قال: إن كان في الحراسة استمر فيها، وإن كان في الساقة استمر فيها، وإنما ذكر الحراسة والساقة؛ لأنهما أشد مشقة. وفيه فضل الحراسة في سبيل الله، وأخرج أحمد وغيره عن عثمان مرفوعًا: «**حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها**»(٢٨٣).

❁ **قوله**: «**إن استأذن لم يؤذن له**»:

أي: إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يؤذن له؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة، ولأنه ليس من طلابها، وإنما يطلب ما عند الله، لا يقصد بعمله سواه.

❁ **قوله**: «**وإن شفع لم يُشفَّع**»:

بفتح أوله وثانيه؛ أي: لو ألجأ الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله لم يشفع بتشديد الفاء مبني للمفعول؛ أي: لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم، وهذه الأمور ونحوها لا تكون لهوان المؤمن على الله، بل لكرامته، وفيه فضل الخمول والتواضع، وفضل الجهاد في سبيل الله. وعن أبي هريرة أن رجلًا قال: «**يا رسول الله علمني عملًا أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله، فقال: هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟ فقال: أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال: أما والذي نفسي بيده لو طوقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله؛ إن فرس المجاهد في سبيل الله ليستن في طوله، فيكتسب له بذلك حسنات**»(٢٨٤).

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله**: «**باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا** »:

الشرك نوعان أكبر وأصغر، وهذا قد يكون من الأكبر وتارة يكون من الأصغر، فإذا أراد بإسلامه ودخوله الدين الدنيا فهذا شرك أكبر كالمنافقين فهم في الدرك الأسفل من النار، وتارة يكن أصغر كمن يرائي بقراءته وأمره ونهيه، أو يجاهد لأجل الغنيمة ليس لله وهو مؤمن مسلم لكن تعرض له هذه الأمور.

---

(٢٨٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الجهاد، باب: فضل الرباط في سبيل الله، برقم (٢٧٦٦) من حديث عثمان رضي الله عنه وحسنه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (١٠٨٥٩).

(٢٨٤) أخرجه -بنحوه- البخاري، كتاب: الجهاد، باب: فضل الجهاد والسير، برقم (٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❁ **قوله: «قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ ...﴾»:**

أي: لا ينقصون. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٦]، وهذا وعيد: والآية في الكفار الذين عبدوا الله لأجل الدنيا كالمنافقين، وعمومه يوجب الحذر من إرادة الإنسان بعمله الدنيا ولو كان ذلك في بعض الأمور.

وهكذا قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[الشورى:٢٠]، وكذلك قوله ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[الإسراء:١٨] وفي الآية قيد أطلقته الآية السابقة وهو أن ليس كل من أراد الدنيا تحصل له فقد يحصل له بعض ما أراد.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[الإسراء:١٩] فالإرادة لا تكفي وحدها بدون السعي والإيمان فلا بد من عمل وإيمان بالله وتوحيد له وإخلاص فهذا هو الذي يكون سعيه مشكورًا من الله ومن المؤمنين؛ فيدل علىٰ وجوب الإخلاص وأن العمل يبطل مع الشرك بالله.

❁ **قوله: «وفي «الصحيح» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تعس عبد الدرهم ...»:**

«**في الصحيح**»: صحيح البخاري.

«**الخميلة**»: كساء سادة ليس فيه نقوش.

«**الدينار**»: من الذهب.

«**الدرهم**»: من الفضة.

«**الخميصة**»: كساء له أعلام منقش.

أي: تعس من هذا قصده بعمله ودخوله في الإسلام، أو عمل ما أظهر من أعمال الإسلام فتعس من كان عمله لأجل النقود وهذا المتاع كالمنافقين وغيرهم؛ لأنه يذهب ثوابه ويحصل له الإثم والوزر، فدعىٰ عليه بالتعاسة والانتكاسة.

«**إذا شيك فلا انتقش**»؛ أي: فلا يوجد من يخرجها وهذا دعاء عليه بتعسير الأمور وسوء العاقبة.

طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله؛ أي: من شدة عنايته وانشغاله بالجهاد غير متفرغ للعناية بترجيل شعره ودهنه ونحوه وغير متفرغ لتنظيف بدنه.

إذا كان في الحراسة كان في الحراسة؛ أي: مغمور في الناس غير معروف وهذا من كمال إخلاصه وصدقه فلا يتحرىٰ مناصب الأمور ومعاليها ولا التقدم عند الملوك والأمراء والوجهاء

فلهذا لا يعرفونه. فهذا له الجنة والكرامة بخلاف المنافق، ومن كان عمله للدنيا في أمره ونهيه وجهاده أو غير هذا من شئون الدين فقد حبط عمله.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا »:

«**من** » للتبعيض؛ أي: بعض الشرك.

قوله: «**الدنيا**». مفعول بإرادة؛ لأن إرادة مصدر مضاف إلىٰ فاعله، وإذا أردت أن تعرف المصدر إن كان مضافًا إلىٰ فاعله أو مفعوله؛ فحوله إلىٰ فعل مضارع مقرون بـ«أن»، فإذا قلنا: باب من الشرك أن يريد الإنسان بعمله الدنيا؛ فالإنسان فاعل، وعلىٰ هذا؛ فإرادة مصدر مضاف إلىٰ فاعله، والدني مفعول به.

وعنوان الباب له ثلاث احتمالات:

الأول: أن يكون مكررًا مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعني واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله أخص من هذا الباب؛ لأنه خاص في الرياء، وهذا أعم، وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعًا مستقلًا عن الباب الذي قبله، وهذا هو الظاهر؛ لأن الإنسان في الباب السابق يعمل رياء يريد أن يمدح في العبادة، فيقال، هو عابد، ولا يريد النفع المادي.

وفي هذا الباب لا يريد أن يمدح بعبادته ولا يريد المراءاة، بل يعبد الله مخلصًا له، ولكنه يريد شيئًا من الدنيا؛ كالمال، والمرتبة، والصحة في نفسه، وأهله، وولده، وما أشبه ذلك؛ فهو يريد بعمله نفعًا في الدنيا، غافلًا عن ثواب الآخرة.

أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا:

١- أن يريد المال؛ كمن أذن ليأخذ راتب المؤذن، أو حج ليأخذ المال.

٢- أن يريد المرتبة؛ كمن تعلم في كلية ليأخذ الشهادة فترتفع مرتبته.

٣- أن يريد دفع الأذىٰ والأمراض والآفات عنه؛ كمن تعبد لله كي يجزيه الله بهذا في الدنيا بمحبة الخلق له ودفع السوء عنه وما أشبه ذلك.

٤- أن يتعبد لله يريد صرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير.

وهناك أمثلة كثيرة.

تنبيه:

فإن قيل: هل يدخل فيه من يتعلمون في الكليات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟

فالجواب: أنهم يدخلون في ذلك إذا لم يريدوا غرضًا شرعيًا، فنقول لهم:

أولًا: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية، بل اتخذوا هذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقول النافعة للخلق؛ لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية علىٰ الشهادات، والناس لا يستطيعون الوصول إلىٰ منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة؛ وبذلك تكون النية سليمة.

ثانيًا: أن من أراد العلم لذاته قد لا يجده إلَّا في الكليات؛ فيدخل الكلية أو نحوها لهذا الغرض، وأما بالنسبة للمرتبة؛ فإنها لا تهمه.

ثالثًا: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين -حسني الدنيا وحسني الأخرة- فلا شيء عليه لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢،٣]؛ فرغبه في التقوىٰ بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب.

فإن قيل: من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص مع أنه أراد المال مثلًا؟

أجيب: إنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقًا، فلم يقصد مراءاة الناس ومدحهم، بل قصد أمرًا ماديًّا؛ فإخلاصه ليس كاملًا؛ لأن فيه شركًا، ولكن ليس كشرك الرياء يريد أن يمدح بالتقريب إلىٰ الله، وهذا لم يرد مدح الناس بذلك، بل أراد شيئًا دنيًا غيره.

ولا مانع أن يدعو الإنسان في صلاته ويطلب أن يرزقه الله المال، ولكن لا يصلي من أجل هذا الشيء؛ فهذه مرتبة دنيئة.

أما طلب الخير في الدنيا بأسبابه الدنيوية؛ كالبيع، والشراء، والزراعة؛ فهذا لا شيء فيه، والأصل أن لا نجعل في العبادات نصيبًا من الدنيا، وقد سبق البحث في حكم العبادة إذا خالطها الرياء في باب الرياء.

ملاحظة:

بعض الناس عندما يتكلمون علىٰ فوائد العبادات يحولونها إلىٰ فوائد دنيوية.

فمثلًا يقولون: في الصلاة رياضة وإفادة للأعصاب، وفي الصيام فائدة إزالة الرطوبة وترتيب الوجبات، والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هي الأصل؛ لأن الله لم يذكر ذلك في كتابه، بل ذكر أن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر.

وعن الصوم أنه سبب للتقوىٰ؛ فالفوائد الدينية في العبادات هي الأصل والدنيوية ثانوية، لكن عندما نتكلم عند عامة الناس؛ فإننا نخاطبهم بالنواحي الدينية، وعندما نتكلم عند من لا يقتنع إلا بشيء مادي؛ فإننا نخاطبه بالنواحي الدينية والدنيوية، ولكل مقام مقال.

❁ **قوله: «قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾»:**

أي: البقاء في الدنيا.

قوله: ﴿وَزِينَتَهَا﴾؛ أي: المال، والبنين، والنساء، والحرث، والأنعام، والخيل المسومة؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[آل عمران:١٤].

قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾: فعل مضارع معتل الآخر مجزوم بحذف حرف العلة الياء؛ لأنه جواب الشرط.

والمعنى: أنهم يعطون ما يريدون في الدنيا، ومن ذلك الكفار لا يسعون إلا للدنيا وزينتها، فعجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[الأحقاف:٢٠].

ولهذا لما بكىٰ عمر حين رأىٰ النبي ﷺ قد أثر في جنبه الفراش، فقال: «**ما يبكيك؟**». قال يا رسول الله! كسرىٰ وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت علىٰ هذه الحال. فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم**»(٢٨٥)، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم؛ لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلىٰ الجحيم، صار عليهم أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا.

قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: البخس: النقص؛ أي: لا ينقصون مما يجازون فيه؛ لأن الله عدل لا يظلم، فيعطعون ما أرادوه.

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: المشار إليه يريدون الحياة الدنيا وزينتها.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾: فيه حصر وطريقة النفي والإثبات، وهذا يعني: أنهم لن يدخلوا الجنة؛ لأن الذي ليس له إلا النار محروم من الجنة والعياذ بالله.

قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾: الحبوط: الزوال؛ أي: زال عنهم ما صنعوا في الدنيا.

---

(٢٨٥) أخرجه البخاري، كتاب: المظالم، باب: الغرفة والعُلِّيَّة المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها...، برقم (٢٤٦٨)، ومسلم، كتاب: الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء...، برقم (٣٤/ ١٤٧٩) من حديث عمر رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: ﴿وَبَٰطِلٞ﴾: خبر مقدم لأجل مراعاة الفواصل في الآيات والمبتدأ ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، فأثبت الله أنه ليس لهؤلاء إلا النار، وأن ما صنعوا في الدنيا قد حبط، وأن أعمالهم باطلة.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ مخصوصة بقوله تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾[الإسراء:١٨].

فإن قيل: لماذا لا نجعل آية هود حاكمة علىٰ آية الإسراء، ويكون الله توعد من يريد العاجلة في الدنيا أن يجعل له ما يشاء لمن يريد؟ ثم وعد أن يعطيه ما يشاء؟

أجيب: إن هذا المعنىٰ لا يستقيم لأمرين:

أولًا: أن القاعدة الشرعية في النصوص أن الأخص مقدم علىٰ الأعم، وآية هود عامة؛ لأن كل من أراد الحياة الدنيا وزينتها وُفِّي إليه العمل وأُعطي ما أراد أن يعطىٰ، أما آية الإسراء؛ فهي خاصة: ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[الإسراء:١٨]، ولا يمكن أن يُحكَم بالأعم علىٰ الأخص.

الثاني: أن الواقع يشهد علىٰ ما تدل عليه آية الإسراء؛ لأن في فقراء الكفار من هو أفقر من فقراء المسلمين؛ فيكون عموم آية هود مخصوصًا بآية الإسراء؛ فالأمر موكول إلىٰ مشيئة الله وفيمن يريده.

واختلف فيمن نزلت فيه آية هود:

١- قيل: نزلت في الكفار؛ لأن الكافر لا يريد إلا الحياة الدنيا، ويدل لهذا سياقها والجزاء المرتب علىٰ هذا، وعليه يكون وجه مناسبتها للترجمة أنه إذا كان عمل الكافرين يراد به الدنيا، فكل من شاركهم في شيء من ذلك؛ ففيه شيء من شركهم وكفرهم.

٢- وقيل: نزلت في المرائين؛ لأنهم لا يعملون إلا للدنيا؛ فلا ينفعهم يوم القيامة.

٣- وقيل: نزلت فيمن يريد مالًا بعمله الصالح.

والسياق يدل للقول الأول؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[هود:١٦].

تنبيه:

اقتصر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ الإشارة إلىٰ تكميل الآية الأولىٰ، وزدنا الآية التالية سهوًا وعسىٰ أن يكون خيرًا.

❁ **قوله: «وفي الصحيح عن أبي هريرة»:**

سبق الكلام علىٰ قول المؤلف: «وفي «الصحيح» في باب التفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «**تَعِس**». بفتح العين أو كسرها؛ أي: خاب وهلك.

قوله: «**عبد الدينار**»: الدينار: هو النقد من الذهب، والدينار الإسلامي زنته مثقال، وسماه عبد الدينار؛ لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه، وقدمه علىٰ طاعة ربه، ويقال في عبد الدرهم ما قيل في عبد الدينار، والدرهم هو النقد من الفضة، وزنة الدرهم الإسلامي سبعة أعشار المثقال؛ فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل.

وقد أراد المؤلف بهذا الحديث أن يبين أن من الناس من يعبد الدنيا؛ أي: يتذلل لها ويخضع لها، وتكون مناه وغايته، فيغضب إذا فقدت ويرضىٰ إذا وجدت، ولهذا سمَّي النبي ﷺ من هذا شأنه عبدًا لها، وهذا من يُعنىٰ بجمع المال من الذهب والفضة؛ فيكون مريدًا بعمله الدنيا.

قوله: «**تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة**»، وهذا من يعنىٰ بمظهره وأثاثه؛ لأن الخميصة كساء جميل والخميلة فراش وثير، ليس له هم إلا هذا الأمر، فإذا كان عابدًا لهذه الأمور؛ لأنه صرف لها جهوده وهمته؛ فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئًا من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا؟! فهذا أعظم.

قوله: «**إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط**»: يحتمل أن يكون المعطي هو الله؛ فيكون الإعطاء قدريًّا؛ أي: إن قدر الله له الرزق والعطاء رضي وانشرح صدره، وإن مُنع وحُرم المال سخط بقلبه وقوله، كأن يقول: لماذا كنت فقيرًا وهذا غنيًّا؟ وما أشبه ذلك؛ فيكون ساخطًا علىٰ قضاء الله وقدرة لأن الله منعه.

والله - سبحانه وتعالىٰ - يعطي ويمنع لحكمة، ويعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين لمن يحب. والواجب علىٰ المؤمن أن يرضىٰ بقضاء الله وقدره؛ إن أُعطي شكر، وإن مُنع صبر.

ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الإعطاء الشرعي؛ أي: إن أعطي من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضي، وإن لم يعط سخط، وكلا المعنيين حق، وهما يدلان علىٰ أن هذا الرجل لا يرضىٰ إلا للمال ولا يسخط إلا له؛ ولهذا سمّاه الرسول ﷺ عبدًا له.

قوله: «**تعس وانتكس**»: **تعس**؛ أي: خاب وهلك، **وانتكس**؛ أي: انتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له، فكلما أراد شيئًا انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد؛ ولهذا قال: «**وإذا شيك فلا أنتقش**»؛ أي: إذا أصابته شوكة؛ فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه.

وهذه الجمل الثلاث يحتمل أن تكون خبرًا منه ﷺ عن حال هذا الرجل، وأنه في تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذىٰ، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء علىٰ مَنْ هذه حاله؛ لأنه لا يهتم إلا للدنيا، فدعا عليه أن يهلك، وأن لا يصيب من الدنيا شيئًا، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه، وقد يصل إلىٰ الشرك عندما يصده ذلك عن طاعة الله حتىٰ أصبح لا يرضىٰ إلا للمال ولا يسخط إلا له.

قوله: «**طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله**»: هذا عكس الأول؛ فهو لا يهتم للدنيا، وإنما يهتم للآخرة؛ فهو في استعداد دائم للجهاد في سبيل الله.

و «**طوبىٰ** » فُعْلىٰ من الطيب، وهي اسم تفضيل، فأطيب للمذكر وطوبي للمؤنث، والمعني: أطيب حال تكون لهذا الرجل، وقيل: إن طوبىٰ شجرة في الجنة، والأول، أعم؛ كما قالوا في ويل: كلمة وعيد، وقيل: وادٍ في جهنم، والأول أعم.

وقوله: «**آخذ بعنان فرسه**»؛ أي: ممسك بمقود فرسه الذي يقاتل عليه.

قوله: «**في سبيل الله**»: ضابطه أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا للحمية أو الوطنية أو ما أشبه ذلك، لكن إن قاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلدًا إسلاميًّا يجب الذود عنه؛ فهو في سبيل الله، وكذلك من قاتل دفاعًا عن نفسه أو ماله أو أهله؛ فإن النبي ﷺ قال: «**من قُتِلَ دون ذلك، فهو شهيد**»[٢٨٦]، فأما من قاتل للوطنية المحضة؛ فليس في سبيل الله؛ لأن هذا قتال عصبية يستوي فيه المؤمن والكافر، فإن الكافر يقاتل من أجل وطنه.

قوله: «**أشعث رأسه، مغبرة قدماه**»؛ أي: رأسه أشعث من الغبار في سبيل الله، فهو لا يهتم بحاله ولا بدنه مادام هذا الآمر ناتجًا عن طاعة الله ﷻ وقدماه مغبرة في السير في سبيل الله، وهذا دليل علىٰ أن أهم شيء عنده هو الجهاد في سبيل الله، أما أن يكون شعره أو ثوبه أو فراشه نظيفًا، فليس له هم فيه.

قوله: «**إن كان في الحراسة؛ فهو في الحراسة، وإن كان في الساقة؛ فهو في الساقة**»: الحراسة والساقة ليست من مقدم الجيش؛ فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساقة أن يكون في مؤخرته، وللجملتن معنيان:

---

(٢٨٦) لم أجده بلفظ: «من قتل دون ذلك» إنما وجدته بلفظ: «من قتل دون ماله» أخرجه البخاري، كتاب: المظالم، باب: من قاتل دون ماله، برقم (٢٤٨٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ أن من قصد أخذ مال غيره...، برقم (٢٢٦/ ١٤١).

أحدهما: أنه لا يبالي أين وُضِعَ، إن قيل له: احرس؛ حرس، وإن قيل له: كن في الساقة؛ كان فيها، فلا يطلب مرتبة أعلىٰ من هذا المحل كمقدم الجيش مثلًا.

الثاني: إن كان في الحراسة أدىٰ حقها، وكذا إن كان في الساقة، والحديث صالح للمعنيين، يحمل عليهما جميعًا إذا لم يكن بينهما تعارض، ولا تعارض هنا.

قوله: «**إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**»؛ أي: هو عند الناس ليس له جاه ولا شرف، حتىٰ إنه إن استأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهل السلطة ليس له مرتبه؛ فإن شفع لم يُشَفّع، ولكنه وجيه عند الله وله المنزلة العالية؛ لأنه يقاتل في سبيله.

والشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

والاستئذان: طلب الإذن بالشيء.

والحديث قسَّم الناس إلىٰ قسمين:

الأول: ليس له هم إلا الدنيا؛ إما لتحصيل المال، أو لتجميل الحال؛ فقد استبعدت قلبه حتىٰ أشغلته عن ذكر الله وعبادته.

الثاني: أكبر همه الآخرة؛ فهو يسعىٰ لها في أعلىٰ ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أسدىٰ ما يجب عليه من جميع الوجوه.

ويستفاد من الحديث:

١- أن الناس قسمان كما سبق.

٢- أن الذي ليس له هم إلا الدنيا قد تتقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنىٰ أذية وهىٰ الشوكة، بخلاف الحازم الذي لا تهمه الدنيا، بل أراد الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قدره الله له.

٣- أنه ينبغي لمن جاهد في سبيل الله ألا تكون همه المراتب، بل يكون همه القيام بما يجب عليه؛ إما في الحراسة، أو الساقة، أو القلب، أو الجنب؛ حسب المصلحة.

٤- أن دنو الإنسان عند الناس لا يستلزم منه دنو مرتبته عند الله ﷻ، فهذا الرجل الذي إن شفع لم يشفّع وإن استأذن لم يُؤذن له قال فيه الرسول ﷺ: «**طوبىٰ له**»، ولم يقل: إن سأل لم يعط، بل لا تهمه الدنيا حتىٰ يسأل عنها، لكن يهمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول علىٰ ذوي السلطة للمصالح العامة.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: إرادة الإنسان بعمل الآخرة. وهذا من الشرك؛ لأنه جعل عمل الآخرة وسيلة لعمل الدنيا، فيطغىٰ علىٰ قلبه حب الدنيا حتىٰ يقدمها علىٰ الآخرة، والحزم والإخلاص أن يجعل عمل الدنيا للآخرة.

الثانية: تفسير آية هود. وقد سبق ذلك.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة: وهذه العبودية لا تدخل في الشرك مالم يصل بها إلىٰ حد الشرك، ولكنها نوع أخر يُخل بالإخلاص؛ لأنه جعل في قلبه محبة زاحمت محبة الله ﷻ ومحبة أعمال الآخرة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط: هذا تفسير لقوله ﷺ: «**عبد الدينار، عبد الدرهم، عبد الخميصة، عبد الخميلة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط**»، وهذه علامة عبوديته لهذه الأشياء أن يكون رضاه وسخطه تابعًا لهذه الأشياء.

الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».

السادسة: قوله: «وإذا شيك، فلا انتقش»: يحتمل أن تكون الجمل الثلاث خبرًا أو دعاء، وسبق شرح ذلك.

السابعة: الثناء علىٰ المجاهد الموصوف بتلك الصفات: فقوله في الحديث: «**طوبىٰ لعبد...**» يدل علىٰ الثناء عليه، وأنه هو الذي يستحق أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير وأصحاب الفرش والمراتب.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾:

الآية الثانية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٥، ١٦].

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

بيان أنَّ العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد، ويحبط العمل، ويفترق عن الباب الذي قبله؛ أنَّ هذا عملٌ لأجل دنيا يصيبها، والمرائي عمل لأجل المدح فقط.

﴿يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾؛ أي: يريد بعمله ثواب الدنيا وماها.

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾: نوفِّر لهم ثواب أعمالهم بالصحة، والسرور بالأهل والمال والولد.

﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾: لا ينقصون.

﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾: لأنَّهم لم يعملوا إلا للحياة الدنيا.

﴿وَحَبِطَ﴾: بطل.

﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾: في الآخرة فلم يكن لهم ثواب عليه؛ لأنهم لم يريدوا به الآخرة.

معنىٰ الآيتين إجمالًا:

أنَّ مَنْ كانت الدنيا همه وطلبته فنواها بأعماله ولم يلتفت للآخرة، جازاه الله بحسناته في الدنيا إن شاء تعالىٰ كما في الآية الأخرىٰ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآية [الأسرا:١٨]. ثم يفضي إلىٰ الآخرة وليس له حسنة يعطي بها جزاءً.

مناسبة ذكر الآيتين في الباب:

أنَّهما بينتا حكم من أراد بعمله الدنيا ومآله في الدنيا والآخرة.

ما يستفاد من الآيتين:

١- فيهما أنَّ الشرك محبط للأعمال، وأنَّ إرادة الدنيا وزينتها بالعمل محبطة له.

٢- فيهما أن الله قد يجزي الكافر وطالب الدنيا بحسناته في الدنيا ولا يبقىٰ له في الآخرة حسنة يجازىٰ بها.

٣- فيما التحذير الشديد من إرادة الدنيا بعمل الآخرة.

٤- فيهما الحث علىٰ إرادة الآخرة بالأعمال الصالحة.

❁ **قوله: «في الصحيح»:**

أي: «صحيح البخاري».

«**تعس**»: بكسر العين: سقط والمراد هنا: هلك.

«**الخميصة**»: ثوب خزٍّ أو صوفٍ معلمٍ، كانت من لباس الناس قديمًا.

«**الخميلة**»: بفتح الخاء: القطيفة.

«**انتكس**»؛ أي: عاوده المرض، وقيل: انقلب علىٰ رأسه، وهو: دعاء عليه بالخيبة.

«**شيك**»: أصابته شوكة.

«**فلا انتقش**»: فلا يقدر علىٰ انتقاشها؛ أي: أخذها بالمنقاش.

«**طوبىٰ**»: اسم للجنة أو شجرة فيها.

«**عِنان**»: بكسر العين: سير اللجام.

«**في سبيل الله**»؛ أي: جهاد المشركين.

«**أشعث رأسه**»: صفة لـ«عبدٍ» مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف، «**ورأسه**» فاعل، ومعناه: أنه ثائر الرأس شغله الجهاد عن التنعم بالادِّهان وتسريح الشعر.

«**مغبرة قدماه**»: صفة ثانية لـ«عبدٍ»، «**وقدماه**» فاعل؛ أي: علقهما الغبار والتراب بخلاف المترفين المتنعمين.

«**الحراسة**»: بكسر الحاء؛ أي: يكون في حماية الجيش غير مقصرٍ ولا غافلٍ.

«**في السَّاقة**»؛ أي: يكون في آخر الجيش؛ لأنه يقلب نفسه في مصالح الجهاد.

«**إن استأذن**»؛ أي: للدخول علىٰ الأمراء.

«**لم يؤذن له**»؛ لأنه لا جاه له عندهم؛ لكونه لا يقصد بعمله الدنيا والتزلف إلىٰ الأمراء.

«**وإن شفع**»؛ أي: ألجأته الحال إلىٰ أن يتوسط في أمرٍ يحبه الله ورسوله من قضاء حوائج الناس.

«**لم يشفع**»: بفتح الفاء المشددة؛ أي: لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يصور النبي ﷺ في هذا الحديث حالة رجلين: أحدهما من طلاب الدنيا، والآخر من طلاب الآخرة؛ فطالب الدنيا صار عبدًا لها يرضىٰ لها ويسخط لها، وذكر في حق هذا ما هو دعاء بلفظ الخبر: «**تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**»؛ أي: إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح، فلا نال المطلوب ولا خلص من المرهوب، وصار عبدًا لما يهواه من شهواته؛ لا صلة له بربه يخلصه بسببها مما وقع فيه.

ثم بين ﷺ حال عبد الله الصادق الساعي في مراضيه المبتعد عن مساخطه الصابر علىٰ مشقة النصب والتعب؛ وأنه لم يتفرغ للترف ونيل الملذات ولم يتظاهر أمام الناس حتَّىٰ يعرف لديهم ويكون ذا جاهٍ عندهم؛ لأنه لم يرد بعمله الدنيا ونيل الجاه، بل أراد به وجه الله والدار الآخرة؛ فجزاؤه أنَّ له الجنة أو شجرة فيها.

مناسبة ذكر الحديث في الباب:

أنَّ فيه ذمَّ العمل لأجل الدنيا، ومدح العمل لأجل الآخرة.

ما يستفاد من الحديث:

١- ذمُّ العمل لأجل الدنيا، ومدح العمل لأجل الآخرة.

٢- فضل التواضع.

٣- فضل الجهاد في سبيل الله.

٤- ذم الترف والتنعم، ومدح الخشونة والرجولة والقوة؛ لأن ذلك مما يعين على الجهاد في سبيل الله.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا»:

هذا الباب باب عظيم من أبواب هذا الكتاب ترجمه الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: **«باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا»**.

«من الشرك» يعني: من الشرك الأصغر أن يريد الإنسان بأعماله التي يعملها من الطاعات الدنيا ولا يريد بها الآخرة، وإرادة الإنسان الدنيا، يعني: ثواب الدنيا، فهو أعم من حال الرياء، فالرياء حالة واحدة من أحوال إرادة الإنسان الدنيا، فهو يصلي أو يزيد ويزين في صلاته لأجل الرؤية، ولأجل المدح، لكن هناك أحوال أخر لإرادة الناس بأعمالهم الدنيا، فلهذا عطف الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب على الذي قبله ليبين أن إرادة الإنسان الدنيا تأتي في أحوال كثيرة أعم من حال الرياء بخاصة، لكن الرياء جاء فيه الحديث وخافه النبي عليه الصلاة والسلام على أمته فهو في وقوعه كثير والخوف منه جلل.

وهذا الباب اشتمل على الحكم بأن إرادة الإنسان بعمله الدنيا من الشرك.

وقوله: **«إرادة الإنسان»** يعني: أن يعمل العمل وفي إرادته أي: الذي بعثه على العمل ثواب الدنيا، فهذا من الشرك بالله -جل جلاله- وسيأتي تفصيل أحوال ذلك.

قوله: «وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ...﴾[هود: ١٥، ١٦]»:

هذه الآية من سورة هود مخصوصة بقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[الإسراء: ١٨] فهي مخصوصة بمن شاء الله جل وعلا. فقوله هنا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ يعني: ممن أراد الله -جل وعلا- له ذلك وممن شاء الله، فهذا العموم الذي هنا مخصوص بآية الإسراء.

والذين يريدون الحياة الدنيا أصلًا وقصدًا وتحركًا هم الكفار، ولهذا نزلت هذه الآية في الكفار، لكن لفظها يشمل كل من أراد الحياة الدنيا بعمله الصالح، ولهذا جمع الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة له أحوال الناس فيما قاله السلف تفسيرًا لهذه الآية، وجعل كلام السلف يتناول أربعة أنواع من الناس كلهم يدخل في هذا الوعيد:

النوع الأول: ممن ركبوا هذا الشرك الأصغر وأرادوا بعملهم الحياة الدنيا أنه يعمل العمل الصالح وهو فيه مخلص لله -جل وعلا- ولكن يريد به ثواب الدنيا ولا يريد ثواب الآخرة، كأن يتعبد الله -جل وعلا- بالصلاة وهو فيها مخلص لله، أدّاها على طواعية واختيار وامتثال لأمر الله، لكن يريد منها أن يصح بدنه، أو وصل رحمه وهو يريد منه أن يحصل له في الدنيا الذكر الطيب والصلة ونحو ذلك، أو عمل أعمالًا من التجارة والصدقات وهو يريد بذلك تجارة يكون عنده مال فيتصدق، وهو يريد بذلك ثواب الدنيا.

فهذا النوع عمل العبادة امتثالًا للأمر، ومخلصًا فيها لله، ولكنه طامع في ثواب الدنيا، وليس له همة في الآخرة ولم يعمل هربًا من النار وطمعًا في الجنة، فهذا داخل في هذا النوع وداخل في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[هود: ١٥].

والأعمال التي يعملها العبد ويستحضر فيها ثواب الدنيا على قسمين:

القسم الأول: أن يكون العمل الذي عمله، واستحضر فيه ثواب الدنيا وأراده، ولم يرد ثواب الآخرة، لم يُرغب الشرع فيه بذكر ثواب الدنيا، مثل: الصلاة والصيام ونحو ذلك من الأعمال والطاعات، فهذا لا يجوز له أن يريد به الدنيا، ولو أراد به الدنيا، فإنه مشرك ذلك الشرك.

القسم الثاني: أعمال رتّب الشارع عليها ثوابًا في الدنيا، ورغّب فيها بذكر ثوابٍ لها في الدنيا، مثل صلة الرحم، وبر الوالدين، ونحو ذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه**»[٢٨٧]. فهذا النوع إذا استحضر في عمله حين يعمل ذلك العمل، استحضر ذلك الثواب الدنيوي، وأخلص لله في العمل ولم يستحضر الثواب الأخروي، فإنه داخل في الوعيد فهو من أنواع هذا الشرك، لكن إن استحضر الثواب الدنيوي والثواب الأخروي معًا، له رغبة فيما عند الله في الآخرة، ويطمع في الجنة، ويهرب من النار، واستحضر ثواب هذا العمل في الدنيا، فإنه لا بأس بذلك؛ لأن

---

(٢٨٧) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: من أحب البسط في الرزق، برقم (٢٠٦٧)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها، برقم (٢٥٥٧)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرع ما رغّب فيه بذكر الثواب في الدنيا إلا للحض عليه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من قتل قتيلًا فله سلبه»(٢٨٨). فمن قتل حربيًّا في الجهاد لكي يحصل على السلب، ولكن قصده من الجهاد الرغبة فيما عند الله -جل وعلا- مخلصًا فيه لوجه الله، لكن أتى هذا من زيادة الترغيب له ولم يقتصر على هذه الدنيا بل قلبه معلق أيضًا بالآخرة، فهذا النوع لا بأس به ولا يدخل في النوع الأول مما ذكره السلف في هذه الآية.

النوع الثاني مما ذكره السلف ممن يدخل تحت هذه الآية: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[هود: ١٥]: أنه يعمل العمل الصالح لأجل المال، فهو يعمل العمل لأجل ما يحصله من المال، مثل: أن يدرس ويتعلم العلم الشرعي لأجل الوظيفة فقط، وليس في همه رفع الجهالة عن نفسه ومعرفة العبد بأمر ربه ونهيه والرغب في الجنة، وما يقرب منها والهرب من النار وما يبعد عنها، فهذا داخل في ذلك، أو حفظ القرآن ليكون إمامًا في المسجد، ويكون له الرّزق الذي يأتي من بيت المال، فغرضه من هذا العمل إنما هو المال، فهذا لم يعمل العمل صالحًا وإنما عمل العمل الذي في ظاهره أنه صالح ولكن في باطنه قد أراد به الدنيا.

النوع الثالث: أهل الرياء الذين يعملون الأعمال لأجل الرياء.

النوع الرابع: الذين يعملون الأعمال الصالحة ومعهم ناقض من نواقض الإسلام، كمن يصلي ويزكي ويتصدق ويقرأ القرآن ويتلوه، ولكن هو مشرك الشرك الأكبر، فهذا وإن قال: إنه مؤمن فليس بصادق في ذلك؛ لأنه لو كان صادقًا لوحّد الله جل وعلا.

فهذه بعض الأنواع التي ذُكرت في تفسير هذه الآية وكلها داخلة تحت قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ فهؤلاء جميعًا أرادوا الحياة الدنيا وزينتها ولم يكن لهم همّ في رضا الله -جل وعلا- وطلب الآخرة بذلك العمل الذي عملوه.

وهنا إشكال أورده بعض أهل العلم: وهو أن الله -جل وعلا- قال في الآية التي تليها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[هود: ١٦] وأن هذه في الكفار الأصليين أو فيمن قام به مكفّر، أما المسلم الذي قامت به إرادة الدنيا فإنه لا يدخل في هذه الآية.

---

(٢٨٨) أخرجه البخاري، كتاب: فرض الخمس، باب: من لم يُخمّس الأسلاب، برقم (٣١٤٢)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: استحقاق القاتل سلب القتيل، برقم (١٧٥١)، وغيرهما من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

والجواب: أنه يدخل؛ لأن السلف أدخلوا أصنافًا من المسلمين في هذه الآية، والوعيد بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ فمن كانت إرادته الحياة الدنيا فلم يتقرب إلىٰ الله -جل وعلا- بشيء، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[هود: ١٥] فهؤلاء أرادوا الدنيا بكل عمل، وليس معهم من الإيمان والإسلام مصحح لأصل أعمالهم، فهؤلاء مخلدون في النار، أما الذي معه أصل الإيمان وأصل الإسلام الذي يصح به عمله، فهذا قد يحبط العمل، بل يحبط عمله الذي أشرك فيه وأراد به الدنيا، وما عداه لا يحبط؛ لأن معه أصل الإيمان الذي يصحح العمل الذي لم يخالطه شرك.

فهذه الآية فيها وعيد شديد، وهذا الوعيد يشمل كما ذكرنا أربعة أصناف، وكما قال أهل العلم: إن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي وإن كانت في الكفار، لكن لفظها يشمل من أراد الحياة الدنيا من غير الكفار.

✽ **قوله: «وفي الصحيح عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة ...إلخ»:**

وجه الشاهد من ذلك: أنه دعا علىٰ عبد الدينار، وعلىٰ عبد الدرهم، وعلىٰ عبد الخميصة؛ وعبد الدينار والدرهم هو الذي يعمل العمل لأجل الدينار، ولولا الدينار لما تحركت همته في العمل، ولولا هذه الخميصة لما تحركت همته في العمل، فهو إنما عمل لأجل هذا الدينار، لأجل هذه الدنيا، وما فيها من الدرهم، والجاه والمكانة، ونحو ذلك، وقد سماه النبي عليه الصلاة والسلام عابدًا للدينار، فدل ذلك علىٰ أنه من الشرك؛ لأن العبودية درجات، منها: عبودية الشرك الأصغر، ومنها عبودية الشرك الأكبر، فالذي يشرك بغير الله -جل وعلا- الشرك الأكبر هو عابد له، كأهل الأوثان، وعبدة الأصنام، وعبدة الصليب، وكذلك من يعمل الشرك الأصغر، ويتعلق قلبه بشيء من الدنيا فهو عابد، لذلك يقال: عبد هذا الشيء؛ لأنه هو الذي حرك همته، ومعلوم أن العبد مطيع لسيده أينما وجهه توجه، فهذا الذي حركته همته للدنيا وللدينار وللدرهم عبد لها؛ لأن همته معلقة بتلك الأشياء، وإذا وجد لها سبيلًا تحرك إليها بدون النظر هل يوافق أمر الله -جل وعلا- أو لا يوافق أمر الله -جل وعلا- وشرعه؟

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة، أي: كما في الآية وذلك بأن يعمل أعمالًا صالحة يريد بها الدنيا.

الثانية: تفسير آية هود، أي: قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود:١٥] الآية، والشاهد منها الوعيد فيمن لا يعمل إلا للدنيا.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة، أي لقوله: « **تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم**» إلخ.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، أي: معنىٰ كونه عبدًا لهذه الأشياء أنه إن أعطي منها شيئًا رضي وعمل،وإن لم يعط سخط ولم يعمل. فرضاه لغير الله وسخطه لغيره.

الخامسة: قوله: « **تعس وانتكس**»، أي: عاوده المرض وهو دعاء عليه، وقوله: « **وانتكس**» أي: عثر وانكب لوجهه،وهذا -أيضًا- دعاء عليه.

السادسة: قوله: «**وإذا شيك فلا انتقش**»، أي: إذا أصابته شوكة لم يقدر علىٰ أخذها بالمنقاش، وهذا -أيضًا- دعاء عليه.

السابعة: الثناء علىٰ المجاهد الموصوف بتلك الصفات. أي لقوله: « **طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه**»... إلخ الحديث، لكونه يعمل لله لا لغير ذلك من جاه أو غيره.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب ويحبط الأعمال.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا... ﴾.

س: اشرح هاتين الآيتين وبين مناسبتهما للباب؟

جـ: يقول تعالىٰ من كان يقصد بعمله الحياة الدنيا؛ أي: ثوابها وزينتها ومتاعها نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد وهم فيها لا ينقصون هذا في الدنيا، أما في الآخرة فليس لهم جزاء إلا النار، وقد أحبط الله أعمالهم التي عملوها في الدنيا وأبطلها فلا ثواب لهم فيها.

ومناسبة الآيتين للباب: أن فيهما وعيد لمن قصد بعمله الدنيا بإحباط وعمله ودخول النار.

قوله: «في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار ...»».

س: بين معاني الكلمات الآتية: تعس، الخميصة، الخميلة، انتكس، شيك، انتقش، طوبى، أشعث، الحراسة، الساقة، ثم اشرح الحديث شرحًا إجماليًا وبين مناسبته للباب؟

جـ: **تعس**: سقط والمراد هنا: هلك، الخميصة: كساء له أعلام، الخميلة: ثياب لها خمل كالقطيفة، انتكس: انكب علىٰ رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة، شيك: أصابته شوكه، فلا انْتُقِش: فلا يقدر علىٰ إخراجها بالمناقيش، طوبىٰ: اسم الجنة أو شجرة فيها يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها كما في الحديث، أشعث: قائم شعره؛ وذلك لأنه مشغول بالجهاد عن إصلاحه، الحراسة: حماية الجيش عن هجوم العدو، الساقة: مؤخرة الجيش.

المعنىٰ الإجمالي:

يدعو رسول الله ﷺ في هذا الحديث علىٰ طلاب الدنيا وعبَّادها فيقول لقد خاب وخسر عبد الدنيا ولقد شقىٰ وهلك عبد الدرهم والخميصة والخميلة حيث أراد بعمله غير الله فجعل مع الله شركاء في المحبة والعبودية وأن من كان هذه حاله فقد استحق أن يُدعىٰ عليه بما يسؤه في العواقب، ومن كان هذا شأنه فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات في الدنيا والآخرة، فطالب الدنيا لا

نال المطلوب ولا خلص من المكروه وصفه رسول الله ﷺ بقوله: «**إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط**»، فرضاه لغير الله وسخطه لغير الله.

وأما من أراد بعمله وجه الله فهذا هو السعيد الذي أعد الله له الجنة كما قال ﷺ: «**طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله**»؛ أي: في جهاد المشركين، ففيه الحث علىٰ العمل بما يحصل به خير الدنيا والآخرة.

ومناسبة الحديث للباب: أن العمل الصالح إذا كان القصد منه طلب الدنيا فهو شرك ينافي التوحيد.

س: ما معنى قوله في الحديث «إن استأذن لم يؤذن له»؟

جـ: المعنىٰ أنه إذا استأذن علىٰ الأمراء ونحوهم لم يأذنوا له؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة لكونه ليس ممن يطلب هذه الأمور وإنما يطلب ما عند الله ولا يقصد بعمله سواه.

س: وضح معنى قوله «وإن شفع لم يشفع»؟

جـ: المعنىٰ لو ألجأته الحال إلىٰ أن يشفع عند الأمراء ونحوهم في أمر يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته عندهم.

س: اذكر ما يستفاد من هذا الباب؟

جـ: يستفاد منه:

١ - تحريم إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

٢ - وعيد من قصد الدنيا بعمل الآخرة بإحباط عمله ودخول النار.

٣ - الحث علىٰ إخلاص العمل لله.

٤ - ترك حب الرئاسة والشهرة.

٥ - فضل الخمول والتواضع.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس الثامن والثلاثون:

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل [ما حرمه][٢٨٩] فقد اتخذهم أربابا

وقال ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!»[٢٩٠].

وقال أحمد بن حنبل: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلىٰ رأي سفيان، والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعلَّه إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك».

وعن عدي بن حاتم: أنه سمع النبيﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [التوبة:٣١]، فقلت له[٢٩١]: إنا لسنا نعبدهم.قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ ». فقلت: بلىٰ.قال: «فتلك عبادتهم»[٢٩٢]. رواه أحمد والترمذي وحسنه.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية النور.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: التنبيه علىٰ معنى العبادة التي أنكرها عدي.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

الخامسة: تحول الأحوال إلىٰ هذه الغاية، حتىٰ صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل

---

(٢٨٩) في نسختي الفوزان وابن باز: «ما حرمه الله».

(٢٩٠) لم أقف عليه بهذا اللفظ مسندًا.

(٢٩١) في نسخة ابن قاسم: «فقلت».

(٢٩٢) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة التوبة، برقم (٣٠٩٥) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (٣٢٩٣).

الأعمال، وتسمىٰ الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الأحوال إلىٰ أن عُبِدَ من دون الله من ليس من الصالحين، وعُبِدَ بالمعنىٰ الثاني من هو من الجاهلين.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «فقد اتخذهم أربابًا»:

أي: شركاء مع الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة:٣١]. وإنما تجب طاعة الأحبار والرهبان إذا أمروا بطاعة الله، فهي تبع لا استقلال، وأما إذا أمروا بمعصية الله فلا سمع لهم ولا طاعة؛ «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[٢٩٣] كما هو معلوم بالضرورة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولما كانت هذه الطاعة من أنواع العبادة -بل هي العبادة- فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به علىٰ ألسن رسله، نبه المصنف بهذه الترجمة علىٰ وجوب اختصاص الرب تعالىٰ بها، وأنه لا يطاع سواه إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله، والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال وتحليل الحرام.

قوله: «وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء...»:

«يوشك»؛ أي: يقرب ويدنو ويسرع، وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما جواب لمن قال له: إن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلىٰ الحج، ويريان إفراد الحج أفضل. وكان ابن عباس يرىٰ أن التمتع بالعمرة إلىٰ الحج واجب؛ لحديث سراقة بن مالك حين أمرهم النبي ﷺ أن يجعلوها عمرة، ويحلوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة: ألعامنا هذا أم للأبد؟ فقال: «**بل للأبد**»[٢٩٤]. وحديث: «**افعلوا ما أمرتكم به؛ فلولا أني سقت الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم به**»[٢٩٥] في أحاديث؛ فلهذا قال ابن عباس -لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر- «**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من**

---

(٢٩٣)أخرجه البزار (١٩٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه الطبراني (١٨/ ١٧٠) من حديث عمران بن الحصين، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٧٥٢٠).

(٢٩٤)أخرجه مسلم، كتاب: الحج، باب: بيان وجوه الإحرام...، برقم (١٤١/ ١٢١٦) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢٩٥)انظر التخريج السابق.

السماء». الحديث. فإذا كان هذا قول ابن عباس في الخليفتين الراشدين، فكيف بمن ترك قول رسول الله ﷺ لقول من هو دونهم؟ وقال الشافعي: أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد. وما زال العلماء يجتهدون في الوقائع، لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم، وفي عصر الأئمة الأربعة إنما طلب الحديث ممن هو عنده باللقاء والسماع، ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين، ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف، ودونوا الأحاديث، ورووها بأسانيدها، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها، وناسخها ومنسوخها، والفقهاء صنفوا في كل مذهب، وذكروا حجج المجتهدين، فسهل الأمر على طالب العلم، فعليه أن ينظر في مذاهب العلماء، وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل، إذا كان له ملكة يقتدر بها، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾[النساء:٥٩]. وإذا لم يكن له ملكة، سأل أعلم من يجده؛ لقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[النحل:٤٣]. وفي كلام ابن عباس ما يدل على أنه من بلغه الدليل فلم يأخذ به تقليدًا لإمامه فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ؛ لمخالفة الدليل، وأجمع الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي قد يخفى دليلها، فهذا هو الذي عناه العلماء بقولهم: لا إنكار في مسائل الاجتهاد، وأما من خالف الكتاب والسنة فيجب الرد عليه بالإجماع، وليس ما خالف الكتاب والسنة مذهبًا لأحد من الأئمة، وهم أجلُّ من أن يقال ذلك في حقهم، لتصريحهم بذلك، ونهيهم عن تقليدهم إذا استبانت السنة.

۞ قوله: «وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته»:

أي: عرفوا إسناد الحديث، وصحة إسناد الحديث، فإذا صح إسناد الحديث فهو دليل على صحة الحديث عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء.

۞ قوله: «يذهبون إلى رأي سفيان»:

هو الثوري الإمام الزاهد الثقة الفقيه تقدمت ترجمته، كان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور، يذكره العلماء في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة، فقول الإمام أحمد إنكار منه لذلك، وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذي يكون به المرء كافرًا، وقد عمت البلوى بهذا المنكر، خصوصًا ممن ينتسب إلى العلم، نصبوا الحبائل في الصد عن الكتاب والسنة، كقولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع، وقولهم: الذي قلَّدناه أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التي غايتها ترك الكتاب والسنة، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، ومعه بعض العلم لا

كله، وإن ظنوا أنهم اتبعوا الأئمة، فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم واتبعوا غير سبيلهم، وذلك إنما نشأ عن الإعراض عن تدبر الكتاب والسنة، والإقبال على كتب من تأخر، والاستغناء بها عن الوحيين، والواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه كائنا من كان، كما قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:٣]. فإذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها، وعرف أقوالهم، وجب عليه أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة؛ فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لا بد أن يذكر دليلًا، والحق في المسألة واحد، والمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقًا إلى معرفة المسائل، واستحضارها ذهنًا، وتمييزًا للصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون، وبذلك يعرف من هو أسعد بالدليل من العلماء، فيتبعه، والأئمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة، لعلمهم أن من العلم شيئا لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير. وقال مالك: كلٌّ يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ. وكلهم قالوا نحو ذلك، بل قال الشافعي: إذا صح الحديث بما يخالف قولي فاضربوا بقولي الحائط. لكن في كلام أحمد إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفها لقول إمام من الأئمة، وقال رسول الله ﷺ لمعاذ: «**كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال أقضي بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلوا. فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله**»(٢٩٦).

❁ **قوله: «والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ...﴾»:**

عدَّاه: بـ«عن» لتضمين معنى الإعراض؛ أي: فليحذر الذين يلوذون عن أمره ويدبرون معرضين، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ في الدنيا. قال الضحاك: يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ﴾ في الآخرة: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع على خلاف أمر رسول الله ﷺ. قال شيخ الإسلام: فإذا كان المخالف أمره قد حذر من الكفر والشرك أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضيًا إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الآمر كما فعل إبليس.

---

(٢٩٦) أخرجه الترمذي، كتاب: الأحكام، باب: القاضي كيف يقضي، برقم (١٣٢٧) من حديث معاذ وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي».

❁ **قوله: «أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك»:**

وفي رواية أبي طالب عنه قال: قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[البقرة:٢١٧] فيدعون الحديث عن الرسول ﷺ، وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي.

❁ **قوله: «لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»:**

أي: لعل الإنسان الذي تصح عنده سنة رسول الله ﷺ إذا رد بعض قول الرسول ﷺ أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك، تنبيه منه رحمه الله أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:٥]. وفي رواية الفضل عنه: وجعل يتلو: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[النساء:٦٥] الآية. وإذا كان رفع الصوت فوق صوته سببًا لحبوط العمل، فما ظنك برد أحكامه وسننه لقول أحد من الناس كائنًا من كان، وإذ علمت أن مخالفة أمره سبب للشرك، علمت أن من رد قوله وخالف أمره لقول أحمد أو غيره له النصيب الكامل، والحظ الوافر من هذه الآية.

❁ **قوله: «عن عدي بن حاتم رضي الله عنه»:**

هو الطائي المشهور بالسخاء والكرم، ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي، بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طي بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، قدم عدي رضي الله عنه على النبي ﷺ في شعبان سنة ٩هـ، فأسلم وثبت في الردة، وحضر فتوح العراق، وحروب علي، وعاش مائة وعشرين سنة، ومات سنة ٦٨هـ.

❁ **قوله: «رواه أحمد والترمذي وحسنه»:**

وروي من طرق تثبت أنه محفوظ، فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي وغيرهم. وقول عدي: لسنا نعبدهم. ظن أن العبادة المراد بها التقرب إليهم بأنواع العبادة من السجود والذبح والنذر، وقوله: «أليس يحرمون... إلخ» صريح في أن طاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣١]. وقال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:١٢١]. وهذا قد وقع فيه كثير

من الناس مع من قلدوه؛ لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد، وهو من هذا الشرك العظيم، والذنب الوخيم، ومنهم من يغلو في ذلك، ويعتقد أن الأخذ بالدليل غير ممكن اليوم كما تقدم.

قال شيخ الإسلام: وهؤلاء الذين: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣١] حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وعكسه، يكونون على وجهين:

أحدهما: أنهم يعلمون أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل، اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم بأنهم خالفوا دين الرسول ﷺ فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص. فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، ثم اتباع هذا المحرم والمحلل إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسول ﷺ، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه، ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ﷺ إذا اتبعه على خطئه، فله نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزًا عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ، وأما إن قلد شخصًا دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن الحق معه، فهذا من أهل الجاهلية، فإن كان متبوعه مصيبًا كان عمله صالحًا، وإن كان متبوعه مخطئًا كان آثمًا، كمن قال في القرآن برأيه فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار.

قال المصنف: وفيه تقريب الأحوال إلى هذه الغاية، حتى صارت عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين، وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم بما يخالف ما شرعه الله ورسوله، فقد عمت به البلوى قديمًا وحديثًا في أكثر البلاد، بعد الخلفاء الراشدين، وهلم جرًّا، وقد قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص:٥٠].

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «باب من أطاع العلماء والأمراء في...»** (٢٩٧):

ووجه ما ذكره المصنف ظاهر فإن الرب والإله هو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وهو الذي يؤلَّه، ويعبَد وحده لا شريك له، ويطاع طاعة مطلقة، فلا يعصىٰ بحيث تكون الطاعات كلها تبعًا لطاعته، فإذا اتخذ العلماء والأمراء علىٰ هذا الوجه، وجعل طاعتهم هي الأصل وطاعة الله ورسوله تبعًا لها فقد اتخذهم أربابًا من دون الله، يتألهم ويحاكم إليهم، ويقدم حكمهم علىٰ حكم الله ورسوله، وهذا هو الكفر بعينه، فإن الحكم كله لله كما أن العبادة كلها لله.

والواجب علىٰ كل أحد أن لا يتخذ غير الله حكمًا، وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلىٰ الله ورسوله، وبذلك يكون دين العبد كله لله وتوحيده خالصًا لوجه الله وكل من حاكم إلىٰ غير حكم الله ورسوله فقد حاكم إلىٰ الطاغوت، وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب.

فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكيم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه وفي كل الحقوق كما ذكره المصنف في الباب الآخر فمن تحاكم إلىٰ غير الله ورسوله فقد اتخذ ذلك ربًّا وقد حاكم إلىٰ الطاغوت.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله: «باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ...»**:

أراد المؤلف بهذه الترجمة تحقيق التوحيد واتباع الشريعة وتعظيم أمر الله ونهيه والحذر من تقليد الشيوخ والأمراء فيما يخالف شرع الله وهو التقليد الأعمىٰ.

فالواجب علىٰ أهل العلم والإيمان أن يعظموا أمر الله ونهيه، وأن يحلوا ما أحل الله وأن يحرموا ما حرم الله ورسوله وألا يطيعوا أمر أحدًا في خلاف ذلك؛ فالطاعة إنما تكون في المعروف فطاعتهم في خلاف شرع الله حرام، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فلا يطيع والده أو ولده أو زوجه في خلاف الشرع من الحل والحرمة.

وطاعتهم فيما يخالف الشرع هو اتخاذهم آلهة من دون الله كما سيأتي إن شاء الله.

❁ **قوله: «قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول لكم...»**:

«يوشك»: يقرب.

---

(٢٩٧) دمج الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بين شرحه لهذا الباب والباب الذي بعده..فتنبه.

«حجارة من السماء»: وعيد لهم بالعقوبة.

المعنى: أحتج عليكم في المسألة بأمر الله ورسوله فتخالفون وتردون علي بخلاف أمر الله ورسوله بقول أبي بكر وعمر، فهذا يدل على أنه لا يجوز مخالفة أمر الله ورسوله ولو قال أبو بكر وعمر وهم خير الناس بعد الأنبياء فمن دونهم من باب أولى ألا يطاعوا فيما يخالف الشرع، وهذا حث من ابن عباس على اتباع الشرع والحذر من تعظيم الرجال فيما يخالف الشرع.

قوله: «قال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى قول سفيان».

أي: عرفوا أنه صحيح إلى النبي ﷺ والصحابة، وهذا من إنكار الإمام أحمد على من يفعل ذلك وأنه لا يليق به، ثم قال: والله يقول ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

الفتنة: الشرك لعله إن رد بعض قوله أن يقع في شيء من الزيغ فيهلك، فيخشى عليه من الفتنة أن يفتتن ويقع في الشرك والردة، وهذا فيه حذر أيضًا عن مخالفة النص وإن كان المخالف عالمًا عظيمًا، وكان الصحابة ومن بعدهم يصرحون بأنه لا يجوز طاعتهم في مخالفة أمر الله ورسوله، فالوعيد فيمن استحل المحرم بفتوى زيد وهو يعلم أنه خلاف الشرع.

۞ **قوله: «عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي يقرأ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ...﴾[التوبة:٣١]»:**

فمن أطاع العلماء والأمراء في تحليل الحرام أو العكس، واعتقاد أن هذا جائز مع العلم بأنه خلاف شرع الله، فهذا يكون عبادة لهم وكفر، أما إذا اتبعهم جهلًا أو اجتهادًا فهذا لا يكون عبادة لهم ولا يدخل في الوعيد؛ لأن الإنسان مطالب بسؤال العلماء والأخذ بفتواهم فيما لا يعلم مخالفته لشرع الله.

قال العلامة ابن عثيمين:

۞ **قوله: «باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ...»:**

«من» يحتمل أن تكون شرطية، بدليل قوله: «**فقد اتخذهم**»؛ لأنها جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة؛ أي: «**باب الذي أطاع العلماء**».

وقوله: «**فقد أتخذهم**»؛ خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء؛ لأن الاسم الموصول كالشرط في العموم، وعلى الأول تقرأ «**بابٌ**» بالتنوين، وعلى الثاني بدون تنوين، والأول أحسن.

والمراد بالعلماء: العلماء بشرع الله، وبالأمراء: أولو الأمر المنفذون له، وهذان الصنفان هم المذكوران في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء:٥٩]؛

فجعل الله طاعته مستقلة، وطاعة رسوله مستقلة، وطاعة أولي الأمر تابعة؛ ولهذا لم يكرر الفعل ﴿أَطِيعُوا﴾، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وأولو الأمر هم أولو الشأن، وهم العلماء؛ لأنه يستند إليهم في أمر الشرع والعلم به، والأمراء؛ لأنه يستند إليهم في تنفيذ الشرع وإمضائه، وإذا استقام العلماء والأمراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور؛ لأن العلماء أهل الإرشاد والدلالة، والأمراء أهل الإلزام والتنفيذ.

قوله: «في تحريم ما أحل الله»؛ أي: في جَعْله حرامًا؛ أي: عقيدة أو عملًا.

«أو تحليل ما حرم الله»؛ أي: في جعله حلالًا عقيدة أو عملًا، فتحريم ما أحل الله لا ينقص درجة في الإثم عن تحليل ما حرم الله، وكثير من ذوي الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلىٰ تحريم ما أحل الله أكثر من تحليل الحرام، بعكس المتهاونين، وكلاهما خطأ، ومع ذلك؛ فإن تحليل الحرام فيما الأصل فيه الحل أهون من تحريم الحلال؛ لأن تحليل الحرام إذا لم يتبين تحريمه فهو مبني علىٰ الأصل وهو الحل ورحمة الله سبحانه سبقت غضبه؛ فلا يمكن أن نحرم إلا ما تبين تحريمه، ولأنه أضيق وأشد، والأصل أن تبقىٰ الأمور علىٰ الحل والسعة حتىٰ يتبين التحريم.

أما في العبادات فيشدَّد؛ لأن الأصل المنع والتحريم حتىٰ يبينه الشرع كما قيل:

والأصلُ في الأشْياء حِلٌّ وامْنَعْ ... عِبادةً إلَّا بإذنِ الشارعِ

قوله: «أربابًا». جمع رب، وهو المتصرف المالك.

والتصرف نوعان: تصرف قدري، وتصرف شرعي.

فمن أطاع العلماء في مخالفة أمر الله ورسوله؛ فقد اتخذهم أربابًا من دون الله باعتبار التصرف الشرعي؛ لأنه اعتبرهم مشرعين واعتبر تشريعهم شرعًا يعمل به، وبالعكس الأمراء.

❁ **قوله: «قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم...»:**

قول ابن عباس: «حجارة من السماء»؛ أي: من فوق تنزل عليكم عقوبة لكم، ونزول الحجارة من السماء ليس بالأمر المستحيل، بل هو ممكن، قال تعالىٰ في أصحاب الفيل: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[الفيل:٣، ٤] وقال تعالىٰ في قوم لوط: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾[القمر:٣٤].

والحاصب: الحجارة تحصبهم من السماء.

❁ **قوله: «أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر عمر؟!»:**

أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب، قال النبي ﷺ **«إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا»**. رواه مسلم(٢٩٨)، وروي عنه ﷺ أنه قال: **«اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»**(٢٩٩)، وقال ﷺ **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»**(٣٠٠) ولم يعرف عن أبي بكر وعمر أنهما خالفا نصًّا برأيهما، فإذا كان قول أبي بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقولهما قول الرسول ﷺ فإنه يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء، فما بالك بمن يعارض قوله ﷺ بمن هو دون أبي بكر عمر؟! والفرق بين ذلك كما بين السماء و الأرض؛ فيكون هذا أقرب للعقوبة.

وفي الأثر التحذير عن التقليد الأعمى والتعصب المذهبي الذي ليس مبنيًّا على أساس سليم.

وبعض الناس يرتكب خطأً فاحشًا إذا قيل له: قال رسول الله ﷺ قال: لكن في الكتاب الفلاني كذا وكذا، فعليه أن يتقي الله الذي قال في كتابه: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٦٥] ولم يقل ماذا أجبتم فلانًا وفلانًا، أما صاحب الكتاب، فإنه إن علم أنه يحب الخير ويريد الحق؛ فإنه يُدعي له بالمغفرة والرحمة إذا أخطأ، ولا يقال: إنه معصوم، يعارض بقوله قول الرسول ﷺ.

❁ **قوله: «وقال أحمد بن حنبل عجبت لقوم عرفوا...»:**

قول أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«عجبت». العجب نوعان:**

الأول: عجب استحسان؛ كما في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «كان الرسول ﷺ يعجبه التيامن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله»(٣٠١).

الثاني: عجب إنكار؛ كما في قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [الصافات:١٢] والعجب في كلام الإمام أحمد هنا عجب إنكار.

---

(٢٩٨) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة فيها، باب: قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، برقم (٣١١/ ٦٨١) من حديث أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢٩٩) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: في مناقب أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، برقم (٣٦٦٢) من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٣٠٠) أخرجه الترمذي، كتاب: العلم، باب: الأخذ بالسنة واجتناب البدع، برقم (٢٦٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٣٠١) أخرجه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: التيمن في الوضوء والغسل، برقم (١٦٨)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: التيمن في الطهور وغيره، برقم (٦٧/ ٢٦٨) وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

قوله: «الإسناد»: المراد به هنا رجال السند لا نسبة الحديث إلىٰ راويه؛ أي: عرفوا صحة الحديث بمعرفة رجاله.

قوله: «يذهبون إلىٰ رأي سفيان»؛ أي: سفيان الثوري؛ لأنه صاحب المذهب المشهور وله أتباع لكنهم انقرضوا؛ فهم يذهبون إلىٰ رأي سفيان وهو من الفقهاء ويتركون ما جاء به الحديث!

قوله: «والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾»: الفاء عاطفة، واللام للأمر؛ ولهذا سُكِّنَت وجزم الفعل بها، لكن حرك بالكسر؛ لالتقاء الساكنين.

قوله: ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾: الضمير يعود للرسول ﷺ؛ بدليل أول الآية، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾[النور:٦٣].

فإن قيل: لماذا عدي الفعل بـ: ﴿عَنْ﴾ مع أن «يخالف» يتعدىٰ بنفسه؟

أجيب: أن الفعل ضمن معنىٰ الإعراض؛ أي: يعرضون عن أمره زهدًا فيه وعدم مبالاة به.

و ﴿أَمْرِهِۦٓ﴾: واحد الأوامر وليس واحد الأمور؛ لأن الأمر هو الذي يخالف فيه، وهو مفرد مضاف؛ فيعم جميع الأوامر.

﴿فِتْنَةٌ﴾: الفتنة فسرها الإمام أحمد: بالشرك، وعلىٰ هذا يكون الوعد بأحد أمرين: إما الشرك، وإما العذاب الأليم.

قوله في حديث عدي بن حاتم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾: الضمير يعود للنصارىٰ؛ لأن اليهود لم يتخذوا المسيح ابن مريم إلهًا، بل أدعوا أنه ابن زانية وحاولوا قتله، وادعوا أنهم قتلوه، ويحتمل أن يعود الضمير لليهود والنصارىٰ جميعًا ويختص النصارىٰ باتخاذ المسيح ابن مريم، وهذا هو المتبادر من السياق مع الآية التي قبلها.

❁ قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾:

الأحبار: جمع حَبر، وحِبر، بفتح الحاء وكسرها، وهو العالم الواسع العلم، والرهبان: جمع راهب، وهو العابد الزاهد.

قوله: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مشاركين لله ﷻ في التشريع؛ لأنهم يحلون ما حرم الله فيحله هؤلاء الأتباع، ويحرمون ما أحل الله فيحرمه الأتباع.

قوله: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾؛ أي: اتخذوه إلهًا مع الله، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، والعبادة: التذلل والخضوع، واتباع الأوامر واجتناب النواهي.

قوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾: هو الله ﷻ، وإله؛ أي: مألوه معبود مطاع، وليس بمعنى آله؛ أي: قادر على الاختراع، فإن هذا المعنى فاسد ذهب إليه المتكلمون أو عامتهم؛ فيكون معنى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ على هذا القول: لا رب إلا الله، وهذا ليس بالتوحيد المطلوب بهذه الكلمة؛ إذ لو كان كذلك لكان المشركون الذين قاتلهم رسول الله ﷺ موحدين؛ لأنهم يقولون: لا رب إلا الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[المؤمنون:٨٧]، وهذه إحدى القراءتين، وهي سبعية.

قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: «سبحان »: اسم مصدر، وهي معمول أو مفعول لفعل محذوف وجوبًا تقديره يسبح سبحانًا؛ أي: تسبيحًا، لأن اسم المصدر بمعنى المصدر؛ فسبحان: مفعول مطلق عاملها محذوف وجوبًا وهي ملازمة للإضافة: إما إلى مضمر؛ كما في الآية: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، أو إلى مظهر، كما في ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

والتسبيح: التنزيه؛ أي: تنزيه الله عن كل نقص، ولا يحتاج أن نقول: ومماثلة المخلوقين؛ لأن المماثلة نقص، ولكن إذا قلناها؛ فذلك من باب زيادة الإيضاح حتى لا يُظن أن تمثيل الخالق بالمخلوق في الكمال من باب الكمال، فيكون المعنى: تنزيه الله عن كل ما لا يليق به من نقص أو مماثلة المخلوقين.

وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: مما سواه من المسيح ابن مريم والأحبار والرهبان، فهو متنزه عن كل شرك وعن كل مشرك به.

وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: هذا من البلاغة في القرآن؛ لأنها جاءت محتملة أن تكون «ما» مصدرية، فيكون المعنى عن شركهم، أو موصولة، ويكون المعنى: سبحان الله عن الذين يشركون به، وهي صالحة للأمرين؛ فتكون شاملة لهما؛ لأن الصحيح جواز استعمال المشترك في معنييه إذا لم يكن بينهما تعارض، فيكون التنزيه عن الشرك وعن المشرك به.

قوله: «**إنا لسنا نعبدهم**»؛ أي: لا نعبد الأحبار والرهبان، ولا نسجد لهم ولا نركع ولا نذبح ولا ننذرهم لهم، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان بدليل قوله. «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟!**».

فإن هذا الوصف لا ينطبق على عيسى أبدًا؛ لأنه رسول الله، فما أحله؛ فقد أحله الله، وما حرمه؛ فقد حرمه الله، وقد حاول بعض الناس أن يُعِل الحديث لهذا المعنى مع ضعف سنده، والحديث حسنه الترمذي والألباني وآخرون وضعفه آخرون.

ويجاب على التعليل المذكور بأن قول عدي: «**لسنا نعبدهم**» يعود على الأحبار والرهبان، أما عيسى ابن مريم؛ فالمعروف أنهم يعبدونه.

وبدأ بتحريم الحلال؛ لأنه أعظم من تحليل الحرام، وكلاهما محرم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[النحل:١١٦].

قوله: «فتلك عبادتهم»: ووجه كونها عبادة: أن من معنى العبادة الطاعة، وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله، أما إذا كانت في طاعة الله؛ فهي عبادة لله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، كما لو أمرك أبوك بالصلاة فصليت؛ فلا تكون قد عبدت أباك بطاعتك له، ولكن عبدت الله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله؛ ولأن أمر غير الله بطاعة الله وامتثال أمره هو امتثال لأمر الله.

ويستفاد من الحديث:

١- أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة.

٢- أن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما في عبادة الله؛ فهي عبادة الله.

٣- أن اتباع العلماء والعباد في مخالفة شرع الله من اتخاذهم أربابًا.

واعلم أن اتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتابعهم في ذلك راضيًا بقولهم، مقدمًا له، ساخطًا لحكم الله؛ فهو كافر لأنه كره ما أنزل الله فأحبط الله عمله، ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله؛ فهو كافر.

الثاني: أن يتابعهم في ذلك راضيًا بحكم الله وعالمًا بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد، ولكن لهوى في نفسه اختاره، كأن يريد مثلًا وظيفة، فهذا لا يكفر، ولكنه فاسق وله حكم غيره من العصاة.

الثالث: أن يتابعهم جاهلًا، فيظن أن ذلك حكم الله؛ فينقسم إلى قسمين:

أ- أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه؛ فهو مفرِّط أو مقصِّر، فهو آثم؛ لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

ب- ألَّا يكون عالمًا ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليدًا ويظن أن هذا هو الحق، فهذا لا شيء عليه؛ لأنه فعل ما أمر به وكان معذورًا بذلك؛ ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال إن: «من أفتي بغير علم؛ فإنما إثمه على من أفتاه»[٣٠٢]، لو قلنا: بإثمه بخطأ غيره؛ للزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه.

---

(٣٠٢) أخرجه أبو داود، كتاب: العلم، باب: التوقي في الفتيا، برقم (٣٦٥٧)، وابن ماجه، في المقدمة، باب: اجتناب الرأي والقياس، برقم (٥٣)، وأحمد (٢/ ٣٢١) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٦٠٦٨).

فإن قيل: لماذا لا يكفر أهل القسم الثاني؟

أجيب: إننا لو قلنا بكفرهم لزم من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله.

فائدة:

وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف:

١- قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة:٤٤]

٢- وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[المائدة:٤٥].

٣- وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾[المائدة:٤٧].

واختلف أهل العلم مع ذلك:

فقيل: إن هذه الأوصاف لموصوف واحد؛ لأن الكافر ظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤]، وفاسق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾[السجدة:٢٠]؛ أي: كفروا.

وقيل: إنها لموصوفين مُتعدِّدين، وإنها على حسب الحكم، وهذا هو الراجح.

فتكون كافرًا في ثلاثة أحوال:

أ -إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة:٥٠]، فكل ما خالف حكم الله؛ فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعي على أنه لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله فالمُحل والمُبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتد، وذلك كمن اعتقد حلّ الزنا أو الخمر أو تحريم الخبز أو اللبن.

ب - إذا اعتقد أن حكم غير الله مثل حكم الله.

جـ - إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله. بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائده:٥٠]، فتضمنت الآية أن حكم الله أحسن الأحكام، بدليل قوله تعالى مقررًا ذلك: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾[التين:٨]، **فإذا كان الله أحسن الحاكمين أحكامًا وهو أحكم الحاكمين، فمن ادَّعى أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن فهو كافر؛ لأنه مُكذب للقرآن.**

ويكون ظالمًا: إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله أحسن الأحكام، وأنه أنفع للعباد والبلاد، وانه الواجب تطبيقه، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله؛ فهو ظالم.

ويكون فاسقًا: إذا كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوًىٰ في نفسه مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق، لكن حكم بغيره لهوًىٰ في نفسه؛ أي: محبة لما حكم به لا كراهة لحكم الله ولا ليضر أحدًا به، مثل: أن يحكم لشخص لرشوة رُشِيَ إياها، أو لكونه قريبًا أو صديقًا، أو يطلب من ورائه حاجة، وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه، فهذا فاسق، وإن كان أيضًا ظالمًا، لكن وصف الفسق في حقه أولىٰ من وصف الظلم.

أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله؛ فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين؛ فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله، وعندما نقول بأنه كافر؛ فنعني بذلك أن هذا الفعل يوصل إلىٰ الكفر.

ولكن قد يكون الواضع له معذورًا، مثل أن يغرر به كأن يقال: إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلىٰ الناس.

فيوجد بعض العلماء وإن كانوا مخطئين يقولون: إن مسألة المعاملات لا تعلق لها بالشرع، بل ترجع إلىٰ ما يصلح الاقتصاد في كل زمان بحسبه، فإذا اقتضىٰ الحال أن نضع بنوكًا للربا أو ضرائب علىٰ الناس، فهذا لا شيء فيه.

وهذا لا شك في خطئه؛ فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا، فهم علىٰ خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لا علماء الملة.

ومما لا شك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والمواريث وغيرها؛ فالشرع كامل من جميع الوجوه، قال تعالىٰ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة:٣].

وكيف يقال: إن المعاملات لا تعلق لها بالشرع وأطول آية في القرآن نزلت في المعاملات، ولولا نظام الشرع في المعاملات لفسد الناس؟!

وأنا لا أقول: نأخذ بكل ما قاله الفقهاء؛ لأنهم قد يصيبون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الإحوال تقع بين الناس إلا في كتاب الله وسنة رسوله ما يزيل إشكالها ويحلها، ولكن الخطأ إما من نقص العلم أو الفهم وهذا قصور، أو نقص التدبر وهذا تقصير.

أما إذا وفق الإنسان بالعلم أوالفهم وبذل الجهد في الوصول إلىٰ الحق؛ فلابد أن يصل إليه حتىٰ في المعاملات، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[النساء:٨٢] وقال تعالىٰ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾[المؤمنون:٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾[ص:٢٩] وقال تعالىٰ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النحل:٨٩]، فكل شيء يحتاجه الإنسان في دينه أو دنياه، فإن القرآن بينه بيانًا شافيًا.

ومن سَنَّ قوانين تخالف الشريعة وادَّعي أنها من المصالح المرسلة؛ فهو كاذب في دعواه؛ لأن المصالح المرسلة والمقيدة إن أعتبرها الشرع ودل عليها فهي حق ومن الشرع، وإن لم يعتبرها فليست مصالح، ولا يمكن أن تكون كذلك؛ ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمىٰ بالمصالح المرسلة، بل ما اعتبره الشرع فهو مصلحة، وما نفاه فليس بمصلحة، وما سكت عنه فهو عفو.

والمصالح المرسلة توسع فيها كثير من الناس؛ فأدخل فيها بعض المسائل المنكرة من البدع وغيرها، كعيد ميلاد الرسول، فزعموا أن فيه شحذًا للهمم وتنشيطًا للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله ﷺ، وهذا باطل؛ لأن جميع المسلمين في كل صلاة يشهدون أن محمدًا عبده ورسوله ويصلون عليه، والذي لا يحيىٰ قلبه بهذا وهو يصلي بين يدي ربه كيف يحيىٰ قلبه بساعة يُؤْتَىٰ فيها بالقصائد الباطلة التي فيها من الغلو ما ينكره رسول الله ﷺ؟! فهذه مفسدة وليست بمصلحة.

فالمصالح المرسلة وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار؛ فلا شك أن مرادهم نصر الله ورسوله، ولكن استخدمت هذه المصالح في غير ما أراده أولئك العلماء وتوسع فيها، وعليه؛ فإنها تقاس بالمعيار الصحيح، فإن أعتبرها الشرع قُبلت، وإلا؛ فكما قال الإمام مالك: «**كلُّ أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر**»، وهناك قواعد كليات تطبق عليها الجزئيات.

وليعلم أنه يجب علىٰ الإنسان أن يتقي ربه في جميع الأحكام؛ فلا يتسرع في البت بها خصوصًا في التكفير الذي صار بعض أهل الغيرة والعاطفة يطلقونه بدون تفكير ولا رَوِيَّة، مع أن الإنسان إذا كفر شخصًا ولم يكن الشخص أهلًا له؛ عاد ذلك إلىٰ قائله، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيره؛ فيكون مباح الدم والمال، ويترتب عليه جميع أحكام الكفر، وكما لا يجوز أن نطلق الكفر علىٰ شخص معين حتىٰ يتبين شروط التكفير في حقه يجب أن لا نجبُن عن تكفير من كفره الله ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المُعَيَّن وغير المُعَيَّن، فالمعين يحتاج الحكم بتكفيره إلىٰ أمرين:

١ - ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر.

٢ - انطباق شروط التكفير عليه، وأهمها العلم بأن هذا مُكفِّر، فإن كان جاهلًا؛ فإنه لا يُكفَّر؛ ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالمًا بالتحريم، هذا وهو إقامة حد وليس بتكفير، والتحرز من التكفير أولىٰ وأحرىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥] وقال تعالىٰ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة:١١٥] ولابد مع توفر الشروط من عدم الموانع، فلو قام الشخص بما يقتضي الكفر إكراهًا أو ذهولًا لم يكفر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل:١٠٦] ولقول الرجل الذي وجد دابته في مهلكة: «**اللهم! أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[٣٠٣]، فلم يؤاخذ بذلك.

✿ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير آية النور. وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣] وسبق تفسيرها.

الثانية: تفسير آية براءة. وهي قوله تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة:٣١]الآية، وقد سبق ذلك.

الثالثة: التنبية علىٰ معنىٰ العبادة التي أنكرها عدي؛ لأن العبادة هي التعبد لهم بالطاعة، والتذلل لهم بالركوع والسجود والنذر وما أشبهه، لكن بيَّن ﷺ المراد من عبادتهم بأنها طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان؛ أي: إذا كان أبو بكر وعمر لا يمكن أن يُعَارَض قول النبي ﷺ بقولهما؛ فما بالك بمن عارض قول النبي ﷺ بقول من دونهما؟! فهو

---

(٣٠٣)أخرجه مسلم، كتاب: التوبة، باب: في الحض علىٰ التوبة والفرح بها، برقم (٧/ ٢٧٤٧)، وأصل الحديث عند البخاري دون هذه الزيادة في كتاب: الدعوات، باب: التوبة، برقم (٦٣٠٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

أشد وأقبح، وكذلك مثَّل الإمام أحمد بسفيان الثوري وأنكر علىٰ مَن أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله ﷺ، واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ...﴾ الآية.

الخامسة: تحول الأحوال إلىٰ هذه الغاية حتىٰ صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال.. إلخ: يقول المؤلف رحمه الله تعالىٰ: تغيرت الأحوال إلىٰ هذه الغاية حتىٰ صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال... وهذا لا شك أنه أشد من معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبي بكر وعمر.

ثم قال: «**ثم تغيرت الأحوال إلىٰ أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين**»؛ أي: يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب، ويوصف بما لا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لا يستحقون أن يكونوا بمنزلة أبي بكر وعمر.

ثم قال: «**وعبد بالمعنىٰ الثاني**»: وهو الطاعة والاتباع مَن هو من الجاهلين؛ فأطيع الجاهل في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، كما يوجد في بعض النظم والقوانين المخالفة للشريعة الإسلامية؛ فإن واضعيها جهال لا يعرفون من الشريعة ولا الأديان شيئًا، فصاروا يعبدون بهذا المعنىٰ، فيطاعون في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

وهذا في زمان المؤلف؛ فكيف بزماننا؟! وقد قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «**لا يأتي زمان علىٰ الناس إلا وما بعده شر منه، حتىٰ تلقوا ربكم**»[٣٠٤]، وقال النبي ﷺ للصحابة: «**ومن يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»[٣٠٥]، وعصر الصحابة أقرب إلىٰ الهدىٰ من عصر من بعدهم.

والناس لا يُحسُّون بالتغير؛ لأن الأمور تأتي رويدًا رويدًا، ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء؛ لوجد التغير الكثير المزعج. نسأل الله السلامة، فعلينا الحذر، وأن نعلم أن شرع الله يجب أن يُحمَىٰ وأن يُصان، ولا يطاع أحد في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله أبدًا مهما كانت منزلته، وأن الواجب أن نكون عبادًا لله عز وجل تذللًا وتعبدًا وطاعة.

---

(٣٠٤) أخرجه البخاري، كتاب: الفتن، باب: لا يأتي علىٰ الناس زمان إلا والذي بعده شر منه، برقم (٧٠٦٨) وغيره من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣٠٥) سبق تخريجه.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «باب من أطاع العلماء والأمراء...»:

مناسبة ذكر هذا الباب في كتاب التوحيد:

لما كانت الطاعة من أنواع العبادة، نبَّه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الباب علىٰ وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالىٰ بها، وأنَّه لا يطاع أحدٌ من الخلق إلَّا إذا كانت طاعته في غير معصية الله.

«أربابًا»؛ أي: شركاء مع الله في التشريع.

❁ **قوله**: «قال ابن عباس...إلخ»:

أي: قاله لمن ناظره في متعة الحج وكان هو يأمر بها؛ لأمر الرسول ﷺ بها، فاحتج عليه المخالف بنهي أبي بكر وعمر عنها، واحتجَّ ابن عباس بسنة رسول الله ﷺ.

«يوشك»؛ أي: يقرب ويدنو ويسرع.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

أنَّ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يتوقع أن ينزل الله عقوبة من السماء عاجلة شنيعة بمن يقدم قول أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا علىٰ قول رسول الله ﷺ؛ لأنَّ الإيمان بالرسول ﷺ يقتضي متابعته وتقديم قوله علىٰ قول كل أحدٍ كائنًا من كان.

مناسبة ذكره في الباب:

أنَّه يدل علىٰ تحريم طاعة العلماء والأمراء فيما خالف هدي الرسول ﷺ، وأنَّها موجبة للعقوبة.

ما يستفاد من الأثر:

١- وجوب تقديم قول الرسول ﷺ علىٰ قول كل أحدٍ.

٢- أنَّ مخالفة هدي الرسول ﷺ توجب العقوبة.

❁ **قوله**: «وقال أحمد بن حنبل...»:

التراجم:

١- أحمد هو: الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، مات سنة ٢٤١هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢- سفيان هو: أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، مات سنة ١٦١هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

«قال أحمد»؛ أي: لما قيل له: إن قومًا يتركون الحديث ويذهبون إلىٰ رأي سفيان أو غيره من الفقهاء.

«عرفوا الإسناد وصحته»؛ أي: عرفوا صحة إسناد الحديث؛ لأن صحة الإسناد تدل علىٰ صحة الحديث.

﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾؛ أي: أمر الله أو الرسول ﷺ، وعدي الفعل بـ«عن» لتضمنه معنىٰ الإعراض.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾: محنة في الدنيا.

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في الآخرة.

«لعله»؛ أي: الإنسان تصحُّ عنده سنة الرسول ﷺ.

«إذا ردَّ بعض قوله»؛ أي: قول النبي ﷺ.

«من الزيغ»؛ أي: العدول عن الحق وفساد القلب.

المعنىٰ الإجمالي:

ينكر الإمام أحمد علىٰ من يعرف الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ ثم بعد ذلك يقلد سفيان أو غيره فيما يخالف الحديث، ويعتذر بالأعذار الباطلة؛ ليبرر فعله. مع أنَّ الفرض والحتم علىٰ المؤمن إذا بلغه كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ وعلم معنىٰ ذلك في أيِّ شي كان أن يعمل به ولو خالفه من خالفه، فبذلك أمرنا ربنا تبارك وتعالىٰ وأمرنا نبينا ﷺ ثم يتخوف الإمام أحمد علىٰ من صحت عنده سنة رسول الله ﷺ، ثم خالف شيئًا منها أن يزيغ قلبه فيهلك في الدنيا والآخرة، ويستشهد بالآية المذكورة، ومثلها في القرآن كثير كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:٥].

مناسبة ذكر ذلك في الباب:

التحذير من تقليد العلماء من غير دليلٍ، وترك العمل بالكتاب والسنة وأن ذلك شرط في الطاعة.

ما يستفاد من الأثر:

١- تحريم التقليد علىٰ من يعرف الدليل وكيفية الاستدلال.

٢- جواز التقليد لمن لا يعرف الدليل؛ بأن يقلد من يثق بعلمه ودينه من أهل العلم.

قوله: «عن عدي بن حاتم رضي الله عنه...»:

أ- التراجم:

عدي: هو عدي بن حاتم الطائي، صحابي شهير حسن الإسلام، مات سنة ٦٨هـ وله ١٢٠ سنة رضي الله عنه.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾: جعلوا.

﴿أَحْبَارَهُمْ﴾: علماء اليهود.

﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾: عباد النصارىٰ.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حيث اتبعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحلَّ.

«لسنا نعبدهم»: ظن أن العبادة يراد بها التقرب إليهم بالسجود ونحوه فقط.

«أليس يحرمون...إلخ»: بيان لمعنىٰ اتخاذهم أربابًا.

المعنىٰ الإجمالي:

حينما سمع هذا الصحابي الجليل تلاوة الرسول ﷺ لهذه الآية التي فيها الإخبار عن اليهود والنصارىٰ بأنهم جعلوا علماءهم وعبادهم آلهة لهم يشرعون لهم ما يخالف تشريع الله فيطيعونهم في ذلك، استشكل معناها؛ لأنه يظن أن العبادة مقصورة علىٰ السجود ونحوه، فبيَّن له الرسول ﷺ أنَّ من عبادة الأحبار والرهبان: طاعتهم في تحريم الحلال و تحليل الحرام، خلاف حكم الله تعالىٰ ورسوله ﷺ.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ طاعة المخلوق في معصية الله عبادة له من دون الله، لا سيما في تشريع الأحكام، وسن القوانين المخالفة لحكم الله.

ما يستفاد من الحديث:

١- إنَّ طاعة العلماء وغيرهم من المخلوقين في تغيير أحكام الله - إذا كان المطيع يعرف مخالفتهم لشرع الله - شرك أكبر.

٢- أنَّ التحليل والتحريم حق لله تعالىٰ.

٣- بيان لنوع من أنواع الشرك وهو شرك الطاعة.

٤- مشروعية تعليم الجاهل.

٥- أنَّ معنىٰ العبادة واسع يشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

<u>قال العلامة صالح آل الشيخ:</u>

❁ **قوله**: «باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ...»:

هذا الباب والأبواب بعده في بيان مقتضيات التوحيد، ولوازم تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن شهادة أن لا إله إلا الله تقتضي وتستلزم أن يكون العبد مطيعًا لله -جل وعلا- فيما أحل وما حرم، محلًّا للحلال ومحرمًا للحرام، لا يتحاكم إلا إليه -جل وعلا- ولا يحكِّم في الدين إلا شرع الله جل وعلا.

والعلماء وظيفتهم تبيين معاني ما أنزل الله -جل وعلا- علىٰ رسوله ﷺ وليست وظيفتهم التي أذن لهم بها في الشرع أن يحللوا ما يشاءون، أو أن يحرموا ما يشاءون، بل وظيفتهم الاجتهاد في فقه

النصوص، وأن يبينوا ما أحل الله وما حرم جل وعلا، فهم أدوات ووسائل لفهم نصوص الكتاب والسنة، ولذلك كانت طاعتهم تبعا لطاعة الله ورسوله، يطاعون فيما فيه طاعة لله -جل وعلا- ولرسوله، وما كان من الأمور الاجتهادية فيطاعون؛ لأنهم هم أفقه بالنصوص من غيرهم، فتكون طاعة العلماء والأمراء من جهة الطاعة التبعية لله ولرسوله، أما الطاعة الاستقلالية فليست إلا لله -جل وعلا- حتى طاعة النبي عليه الصلاة والسلام إنما هي تبع لطاعة الله -جل وعلا- فإن الله هو الذي أذن بطاعته وهو الذي أمر بطاعة رسوله ﷺ، وهذا معنى الشهادة له بأنه رسول الله، قال جل وعلا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء: ٨٠] وقال جل وعلا: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[النساء: ٦٤]، فالطاعة الاستقلالية نوع من أنواع العبادة، فيجب إفراد الله -جل وعلا- بها، وغير الله -جل وعلا- إنما يطاع لأن الله -جل وعلا- أذن بطاعته، ويطاع فيما أذن الله به في طاعته، فالمخلوق لا يطاع في معصية الله؛ لأن الله لم يأذن أن يطاع مخلوق في معصية الخالق -جل وعلا- وإنما يطاع فيما أطاع الله -جل وعلا- فيه على النحو الذي يأتي.

فهذا الباب عقده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليبين أن الطاعة من أنواع العبادة، بل إن الطاعة في التحليل وفي التحريم هي معنى اتخاذ الأرباب، كما قال الله جل وعلا: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾[التوبة: ٣١] وما سيأتي من بيان حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فقوله: «**باب من أطاع العلماء والأمراء**» العلماء والأمراء هم أولو الأمر في قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[النساء: ٥٩]، قال **العلماء**: أولو الأمر يشمل من له الأمر في حياة الناس في دينهم -وهم العلماء- وفي دنياهم -وهم الأمراء- وقد قال جل وعلا: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ ولم يكرر فعل الطاعة.

قال ابن القيم وغيره: «**دل هذا على أن طاعة ولي الأمر ليست استقلالًا وإنما يطاعون في طاعة الله ورسوله ﷺ، فإذا أمروا بمعصية فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**».

والأمور الاجتهادية التي ليس فيها نص من الكتاب والسنة فإنهم يطاعون في ذلك لأن الله أذن به، ولما في ذلك من المصالح المرعية في الشرع.

قوله: «**في تحريم ما أحل الله**» يعني في تحريم الأمر الذي أحله الله، بحيث هناك حلال في الشرع فيحرمونه، أي: يحرمه العالم، أو يحرمه الأمير، فيطيعه الناس، وهم يعلمون أنه حلال، لكن يطيعونه في التحريم، ومثاله: أن الله أحل أكل الخبز فيقولون: الخبز عليكم حرام دينًا، فلا تأكلوه تدينًا، ويحرمونه لأجل ذلك، فإن أطاعوهم كان ذلك طاعة لهم في تحريم ما أحل الله.

قوله: «**أو تحليل ما حرم الله**» يعني أحلوا ما يعلم أن الله حرمه، مثاله: حرم الله الخمر فأحله العلماء أو أحله الأمراء، فمن أطاع عالمًا أو أميرًا في اعتقاد أن الخمر حلال، وهو يعلم أنها حرام، وأن الله حرمها فقد اتخذه ربًّا من دون الله جل وعلا.

ففي هذا الباب حكم وشرط، فالحكم قوله في آخره: «**فقد اتخذهم أربابًا**» وهو جزاء الشرط، والشرط قوله: «**من أطاع العلماء والأمراء**» وضابط هذا الشرط ما بينهما وهو قوله: «**في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه**» وهذا يستفاد منه -يعني من اللفظ- أنهم عالمون بما أحل الله فحرموه طاعة لأولئك، عالمون بما حرم فأحلوه طاعة لهم.

قوله في آخره: «**فقد اتخذهم أربابًا**» ذلك لأجل آية سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وحديث عدي بن حاتم في ذلك.

والأرباب جمع الرب، والرب والإله لفظان يفترقان إذا اجتمعا، ويجتمعان إذا افترقا؛ لأن الرب هو السيد المالك المتصرف في الأمر، والإله هو المعبود، وقد سئل المصنف الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الفرق بين الإله والرب في مثل هذه السياقات في نحو قوله: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝٨٠ ﴾[آل عمران: ٨٠]، وفي نحو قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: ما معنىٰ الربوبية هنا؟ قال: الربوبية هنا بمعنىٰ الألوهية، بمعنىٰ المعبود؛ لأن من أطاع علىٰ ذلك النحو فقد عَبَد، لقول النبي ﷺ لعدي بن حاتم حين قال: «**لسنا نعبدهم**» فعدي فهم من كلمة ﴿أَرۡبَابٗا﴾ العبادة، وقال النبي ﷺ مقررًا لذلك: «**أليس يحرمون ...** » إلخ، فهو إقرار منه عليه الصلاة والسلام بأن معنىٰ الربوبية هنا العبودية.

فلهذا قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما سئل: «**الألوهية والربوبية أو كلمة الرب والإله من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت**» يعني: كلفظة الفقير والمسكين، والإسلام والإيمان، ونحوهما؛ لأن الإله يطلق علىٰ المعبود، وجاء في نصوص كثيرة إطلاق الرب علىٰ المعبود كما ذكرنا في الآيات وفي الحديث، وكقوله عليه الصلاة والسلام في مسائل القبر: «... **فيأتيه ملكان فيسألانه من ربك؟**» يعني: من معبودك؛ لأن الابتلاء لم يقع في الرب الذي هو الخالق الرازق المحيي المميت.

إذًا لفظ (الرب) و(الإلهية) من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت، فقد يطلق على الأرباب آلهة، وعلى الآلهة أرباب، وهل هذا الإطلاق لأجل اللغة؟ يعني أن أصله في اللغة يدخل هذا في هذا، وهذا في ذاك، أو أنه لأجل اللزوم والتضمن؟ الظاهر -عندي- الأخير، وهو أنه لأجل اللزوم والتضمن، فإن الربوبية مستلزمة للألوهية، والألوهية متضمنة للربوبية، فإذا ذُكر الإله فقد تضمن ذكر ذلك ذكر الرب، وإذا ذكر الرب استلزم ذلك ذكر الإله، ولهذا قال -جل وعلا- هنا: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[آل عمران: ٨٠] يعني: آلهة، لاستلزام لفظ الربوبية للإلهية، وكذلك قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ يعني: آلهة معبودين كما أتى تفصيله في الحديث.

قوله: «**قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول لكم...**»:

هذا الحديث رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح، وإسناده عن عبد الرزاق، عن معمر، عن طاوس، عن ابن عباس، أو نحو ذلك، وقد ذكر إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع الفتاوى بنصه، فذكر الإسناد والمتن، وغالب الذين خرجوا كتاب التوحيد قالوا: إن هذا الأثر لا أصل له بهذا اللفظ، وهذه جراءة منهم حيث إنهم ظنوا أن كتب الحديث بين أيديهم، ولو تتبعوا كتب أهل العلم لوجدوا أن إسناده والحكم عليه موجود في كتبهم.

ووجه الاستشهاد ما اشتمل عليه هذا الأثر، وهو قوله: «**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله، وتقولون قال أبو بكر وعمر**» لأن الواجب على المسلم إذا سمع حديثًا عن النبي ﷺ وعلم فقهه، أو بينه له أهل العلم ألا يترك ذلك الحديث وفقهه لقول أحد كائنًا من كان، إذا كان الحديثُ ظاهرًا في الدلالة على ذلك، وكان القول الآخر لا دليل عليه، أما إذا كانت المسألة اجتهادية في الحديث من جهة الفهم فهذا مجاله واسع، وابن عباس رضي الله عنهما يحمل كلامه هذا على أن هؤلاء الذين قالوا له تلك المقالة، قالوا له: قال أبو بكر وعمر، عارضوا قوله في المتعة بقول أبي بكر وعمر الذي هو مناقض لصريح قول النبي ﷺ، ومعلوم أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا يذهبان إلى أن إفراد الحج أفضل من التمتع، وابن عباس كان يوجب أفضلية التمتع ويسوق الأدلة في ذلك، وقول أبي بكر وعمر أخذ به طائفة من أهل العلم كمالك وغيره، بل قال طائفة: إن إفراد الحج وسفره مرة أخرى للعمرة خير له من أن يجمع بين حج وعمرة في سفرة واحدة، كما هو اختيار شيخ الإسلام وغيره من المحققين.

والمقصود من ذلك أن كلام ابن عباس هذا ليس في المسألة الفقهية، يعني: أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لم يسق قول ابن عباس لخصوص مسألة التمتع والإفراد، ولكن في مسألة عموم لفظه، وهو أن لا يُعارض قول النبي ﷺ الظاهر معناه بقول أحد لا دليل له على قوله، ولو كان ذلك القائلُ أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فكيف بمن دونهما من التابعين أو من الصحابة، فكيف بأئمة أهل المذاهب وأصحاب أهل المذاهب رحمهم الله تعالى؟! واحترام العلماء وأهل المذاهب واجب، لكن أجمع أهل العلم على أن من استبانت له سنة من سنن الرسول ﷺ لم يكن له أن يتركها لقول أحد كائنًا من كان.

❁ **قوله: «وقال الإمام أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان»:**

وسفيان هو: ابن سعيد بن مسروق الثوري أحد العلماء المعروفين، وكان له مذهب وله أتباع.

قوله: «**يذهبون إلى رأي سفيان**» يدل على أن سفيان لم يكن له مستند على ما ذهب إليه، وهو عالم من العلماء، وأحد الزهاد الصالحين المشهورين، ولكن قد تخفاه السنة فيكون قد حكم برأيه أو بتقعيد عنده، لكن السنة جاءت بخلاف ذلك، فلا يسوغ أن يجعل رأي سفيان في مقابل الحديث النبوي.

❁ **قوله: «والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»:**

إذا رد بعض قول النبي ﷺ لقول أحد يُخشى عليه أن يعاقب فيقع في قلبه زيغ، قال الله -جل وعلا- عن اليهود: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:٥].

فهم زاغوا بمحض إرادتهم واختيارهم، مع بيان الحجج وظهور الدلائل والبراهين لكن لما زاغوا أزاغ الله قلوبهم عقوبة منه لهم على ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: نوع شرك، وقد يصل ذلك إلى الشرك الأكبر بالله -جل وعلا- إذا كان في تحليل الحرام مع العلم بأنه حرام، وتحريم الحلال مع العلم بأنه حلال.

❁ **قوله: «عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي يقرأ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ...﴾[التوبة:٣١]»:**

فيه أنه فهم من قوله: ﴿أَرْبَابًا﴾ أنهم المعبودون.

❁ **قوله: « قال عليه الصلاة والسلام: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟!...»»:**

هذا الحديث فيه بيان أن طاعة الأحبار والرهبان قد تصل إلىٰ الشرك الأكبر، واتخاذ أولئك أربابًا ومعبودين، والأحبار هم العلماء، والرهبان هم العبّاد.

وطاعة الأحبار في التحليل والتحريم علىٰ درجتين:

الدرجة الأولىٰ: أن يطيع العلماء أو الأمراء في تبديل الدين، يعني في جعل الحرام حلالًا وفي جعل الحلال حرامًا، فيطيعهم في تبديل الدين، وهو يعلم أن الحرام قد حرمه الله، ولكن أطاعهم تعظيمًا لهم، فحلل ما أحلوه طاعة لهم وتعظيمًا وهو يعلم أنه حرام، يعني: اعتقد أنه حلال وهو حرام في نفسه، أو حرّم حلالًا تبعًا لتحريمهم، وهو يعلم أن ما حرموه حلال، ولكنه حرم تبعًا لتحريمهم، هذا يكون قد أطاع العلماء أو الأمراء في تبديل أصل الدين، فهذا هو الذي اتخذهم أربابًا، وهو الكفر الأكبر والشرك الأكبر بالله -جل وعلا- وهذا هو الذي صرف عبادة الطاعة إلىٰ غير الله، ولهذا قال الشيخ سليمان رَحِمَهُ اللهُ في شرحه لكتاب التوحيد: «**الطاعة هنا في هذا الباب المراد بها طاعة خاصة، وهي الطاعة في تحليل الحرام أو تحريم الحلال**» وهذا ظاهر.

الدرجة الثانية: أن يطيع الحبر، أو يطيع الأمير، أو يطيع الرهبان في تحريم الحلال أو في تحليل الحرام من جهة العمل، أطاع وهو يعلم أنه عاص بذلك ومعترف بالمعصية لكن اتبعهم عملًا وقلبه لم يجعل الحلال حرامًا متعينًا أو سائغًا، ولكن أطاعهم حبًّا له في المعصية، أو حبًّا له في مجاراتهم، ولكن في داخله يعتقد أن الحلال هو الحلال، والحرام هو الحرام، فما بدل الدين، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «**هذا له حكم أمثاله من أهل الذنوب**».

وهاتان الدرجتان هما من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ هذه الآية، فهذا له حكم أمثاله من أهل الذنوب والعصيان؛ لأنه ما حرم الحلال ولا أحل الحرام، وإنما فعل الحرام من جهة العصيان، وجعل الحلال حرامًا من جهة العصيان لا من جهة تبديل أصل الدين.

ويريد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بذكر الرهبان وبإيراده للآية: التنبيه علىٰ أن الطاعة في تحليل الحرام، وتحريم الحلال جاءت أيضًا من جهة الرهبان والعباد، وهذا موجود عند المتصوّفة وأهل الغلو في التصوف، والغلاة في تعظيم رؤساء الصوفية، فإنهم أطاعوا مشايخهم والأولياء الذين زعموا أنهم أولياء، أطاعوهم في تغيير الملة، فهم يعلمون أن السنة هي كذا وكذا، وأن خلافها بدعة، ومع

ذلك أطاعوهم تعظيمًا للشيخ وتقديسًا للولي، أو يعلمون أن هذا شرك والدلائل عليه من القرآن والسنة ظاهرة، لكن تركوه وأباحوا ذلك الشرك وأحلوه؛ لأن شيخهم ومُقَدَّمهم ورئيس طريقتهم أحله، وهذا كان في نجد كثيرًا إبّان ظهور الشيخ بدعوته، وهو موجود في كثير من الأمصار، وهو نوع من اتخاذ أولئك العباد أربابًا من دون الله -جل وعلا- وهذا المقام أيضًا فيه تفصيل على نحو الدرجتين اللتين ذكرتهما عن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية النور، أي: قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور:٦٣]، والشاهد منها الوعيد علىٰ من ترك قوله ﷺ وخالف أمره.

الثانية: تفسير آية براءة، أي: قوله تعالىٰ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[التوبة:٣١]، والشاهد منها أن الله أخبر أنهم اتخذوا أربابًا وشركاء بطاعتهم فيما يخالف الشرع.

الثالثة: التنبيه علىٰ معنىٰ العبادة التي أنكرها عدي، أي: أنه أنكر أنهم يركعون لهم ويسجدون ويدعونهم؛ لظنه أن العبادة خاصة بمثل هذا فأخبره أن طاعتهم في ذلك عبادة لهم، وإشراك مع الله، وهذا مع الاعتقاد،كما فصل ذلك الشيخ تقي الدين.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر، وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان، أي: إن ابن عباس ذكر الوعيد علىٰ من ترك قول الله ورسوله لقول أبي بكر وعمر، وأحمد ذكر ذلك لمن تركه لقول سفيان الثوري ومرادهما التمثيل لا التخصيص بذلك.

الخامسة: تغير الأحوال إلىٰ هذه الغاية حتىٰ صار عند الأكثر، وعبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمىٰ الولاية عبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلىٰ أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنىٰ الثاني: من هو من الجاهلين، أي: إن الأمر صار أعظم مما ذكر ابن عباس وأحمد حتىٰ صار عند الأكثر عبادة الرهبان يعني العباد وهو الأخذ بقولهم مطلقًا هو أفضل الأعمال، ولو خالف قول الله ورسوله ويسمونها الولاية وعبادة الأحبار وهم العلماء وهو الأخذ بقولهم مطلقًا، ولو خالف قول الله ورسوله هو أفضل الأعمال، ويسمون ذلك العلم والفقه، ثم ازداد الأمر شناعة إلىٰ أن أخذ بقول أناس غير صالحين وهذا أقبح من الأول، وعبد بالمعنىٰ وهو الاقتداء بالعلماء وعبادتهم من هو من الجاهلين أي: أخذ بأقوال أناس جاهلين وقدمت علىٰ الشرع وسميت علمًا وفقهًا وهذا أقبح من تقديم قول من هو من العلماء علىٰ الشرع وإن كان جميع ذلك قبيحًا فالمعنىٰ الأول من جهة الولاية، والثاني من جهة العلم والفقه.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

ج: هي أن طاعة الرؤساء في تحريم الحلال وتحليل الحرام شرك أكبر ينافي التوحيد.

قوله: «قال ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبو بكر وعمر».(٣٠٦) رواه الإمام أحمد في المسند جزء ١ ص ٣٣٧».

س: ما معنى يوشك؟ وما مقصود ابن عباس بهذا القول؟

ج: معنىٰ يوشك: يقرب ويدنو ويسرع، ومقصود ابن عباس: الرد علىٰ من قال: إن أبا بكر وعمر لا يريان التمتع بالعمرة إلىٰ الحج وأن إفراد الحج أفضل، وابن عباس يرىٰ أن التمتع واجب بدليل أن الرسول ﷺ امربه وليس لأحد أن يعارض قول الرسول ﷺ لرأي أحد.

قوله: «وقال الإمام أحمد: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون...»».

س: ما نوع عجب الإمام أحمد، اشرح قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الآية، وما وجه استدلال الإمام أحمد بها؟

ج: عجب الإمام أحمد بمعنىٰ الإنكار علىٰ أولئك الذين يعرفون إسناد الحديث وأنه صحيح عن رسول الله ﷺ لا مجال للكذب والطعن فيه ويتركونه ويأخذون برأي بعض الناس كسفيان الثوري.

ومعنىٰ الآية: فليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ وأمره أن تصيبهم فتنة في قلوبهم من كفر أو شرك أو نفاق أو بدعة أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا بقتلٍ أوحدٍّ أو حبسٍ ونحو ذلك بسبب خلافهم أمر الرسول ﷺ، أو يصيبهم عذاب أليم في الآخرة.

ووجه استدلال أحمد بهذه الآية: أن رد قول الرسول ﷺ أو بعضه سبب لزيغ القلب الذي يكون به المرء كافرًا وذلك هو الهلاك في الدنيا الآخرة.

(٣٠٦) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٧) بنحوه.

❁ **قوله:** «عن عدي بن حاتم أنه سمع النبيﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ... ﴾».

س: اشرح قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ من هم الأحبار والرهبان؟ اذكر مناسبة الحديث للباب؟

جـ: يخبر الله تعالى أن هؤلاء المشركين اتخذوا علماءهم وعبادهم معبودين من دون الله حيث أطاعوهم في معصية الله بتحريم الحلال وتحليل الحرام، والأحبار هم العلماء، والرهبان هم العباد.

ومناسبة الحديث للباب:

أنه أفاد أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عباده لهم من دون الله ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله.

س: اذكر ما يستفاد من هذا الباب؟

جـ: يستفاد منه:

١ - تحريم طاعة الرؤساء في معصية الله.

٢ - أن طاعة العلماء والأمراء في تحليل الحرام وتحريم الحلال عبادة لهم من دون الله.

٣ - لا تجوز معارضة قول الرسول ﷺلرأي أحد.

٤ - الوعيد الشديد على من خالف أمر الرسول ﷺ

والله سبحانه وتعالى أعلم.



الدرس التاسع والثلاثون:

باب قوله تعالى

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى...﴾ الآيات [النساء:٦٠-٦٢].

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:١١].

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف:٥٦].

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية [المائدة:٥٠].

وعن عبد الله بن عمر(٣٠٧)، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به». (٣٠٨)

قال: النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب «الحجة» [بإسناد صحيح](٣٠٩).

وقال الشعبي: «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود، خصومة؛ فقال: اليهودي: نتحاكم إلىٰ محمد؛ [لأنه](٣١٠) عرف أنه لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلىٰ اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة، فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾(٣١١) [النساء:٦٠]» الآية.

---

(٣٠٧) في نسخة ابن قاسم والفوزان: «عمرو».

(٣٠٨) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة»(١٥)، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢/ ١٦٩) والسلفي في «معجم السفر» (١/ ٣٧٥)، وابن الجوزي في «ذم الهوىٰ» (١٨)، وعزاه ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٢٨٩) إلىٰ الحسن بن سفيان يعني في«الأربعين»، وصححه النووي في «الأربعين»، وعزاه السيوطي في الدر المنثور(٢/ ١٧٨) إلىٰ الأصبهاني، وضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ١٢-١٣).

(٣٠٩) في نسخة ابن باز: «بإسناد حسن».

(٣١٠) ساقطة من جميع النسخ، والمثبت من نسخة السعدي.

(٣١١)أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٤/ ١٥٥) عن الشعبي وهو بذلك منقطع ولم أجد من وصله، وانظر «فتح الباري»(٥/ ٣٧).

وقيل: «نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلىٰ النبي ﷺ، وقال الآخر: إلىٰ كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلىٰ عمر، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم. فضربه بالسيف فقتله»(٣١٢).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة علىٰ فهم الطاغوت.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

الرابعة: تفسير ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الخامسة: ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولىٰ.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

السابعة: قصة عمر مع المنافق.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾»:

ترجم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآية، الدالة علىٰ كفر من أراد التحاكم إلىٰ غير كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وإن كان مع ذلك يدعي الإيمان بما أنزل الله علىٰ رسوله والمرسلين قبله، كما ذكر ذلك في سبب نزولها أنها نزلت في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذلك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف، كما ذكره المصنف. أو أنها نزلت في جماعة من المنافقين ممن أظهر الإسلام وأبطن الكفر، أرادوا أن يتحاكموا إلىٰ حكام الجاهلية أو غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فحيث كان التوحيد هو معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله مشتملًا

(٣١٢) أخرجه البغوي في «تفسيره» (١/ ٤٤٦) من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وانظر «فتح الباري» (٥/ ٣٨).

علىٰ الإيمان بالرسول ﷺ مستلزمًا له، نبه المصنف علىٰ ما تضمنه التوحيد واستلزمه، من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع؛ إذ هذا هو مقتضىٰ الشهادة ولازمها، فمن عرفها لا بد له من الانقياد لحكم الله، والتسليم لأمره الذي جاء علىٰ يد رسوله ﷺ، فمن شهد أن لا إله إلا الله، ثم عدل إلىٰ تحكيم غير الرسول ﷺ في موارد النزاع، فقد كذب في شهادته. ومعنىٰ الآية أن الله أنكر علىٰ من يدعي الإيمان بما أنزله الله علىٰ رسوله وعلىٰ الأنبياء قبله، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلىٰ غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإن قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ استفهام إنكار وتبكيت، وذم لمن عدل عن الكتاب والسنة، ورغب فيما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا، كما تقدم من قول ابن القيم: إنه ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فكل من حاكم إلىٰ غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فقد حاكم إلىٰ الطاغوت الذي أمر الله عباده المؤمنين أن يكفروا به؛ أي: بما جاءهم به الطاغوت الذي يتحاكمون إليه؛ فإن التحاكم ليس إلا إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله، ومن كان يحكم بهما. فمن حاكم إلىٰ غيرهما فقد تجاوز به حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله، وكذلك من عبد شيئًا دون الله فإنما عبد الطاغوت، فهو الذي دعا إلىٰ كل باطل وزينه لمن فعله، وهذا ينافي التوحيد؛ فإن التوحيد هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله. فمن دعا إلىٰ تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول، ورغب عنه، وجعله شريكًا لله في الطاعة، وخالف ما جاء به الرسول ﷺ فيما أمر الله به في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[النساء:٦٥] الآية. وفي آية الباب أنكر الله زعمهم الإيمان وأكذبهم؛ لما في ضمن ﴿يَزْعُمُونَ﴾ من نفي إيمانهم؛ فإن ﴿يَزْعُمُونَ﴾ إنما يقال غالبا لمن ادعىٰ دعوىٰ هو فيها كاذب، يحققه قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، فإذا اختل هذا الركن لم يكن موحدًا، ومن لم يكفر بالطاغوت لم يؤمن بالله، والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصح به الأعمال، وتفسد بفساده، كما في قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[البقرة:٢٥٦].

قوله: «﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ الآيات»:

يعني: أن الشيطان يريد أن يضل هؤلاء -المتحاكمين إلىٰ الطاغوت- عن سبيل الحق والهدىٰ ضلالًا بعيدًا، فيجور بهم جورًا شديدًا، فبين تعالىٰ في هذه الآية أن التحاكم إلىٰ الطاغوت مما يأمر به الشيطان، ويزينه لمن أطاعه، وأن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله، وأكده بالمصدر، ووصفه

بالبعد، فدل علىٰ أن ذلك من أعظم الضلال، والبعد عن الهدىٰ، فلا يمكنهم الرجوع إلىٰ الحق أبدا، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء:٦١] فإن المنافقين يكرهون الحق وأهله، ويهوون ما يخالفه من الباطل، فيمتنعون بذلك من المصير إليك لتحكم بينهم، ويمنعون غيرهم، فبين تعالىٰ صفتهم، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن فإنه في غاية البعد من الإيمان، قال ابن القيم: هذا دليل علىٰ أن من دعي إلىٰ تحكيم الكتاب والسنة فأبىٰ أنه من المنافقين، و ﴿يَصُدُّونَ﴾ لازم، وهو بمعنىٰ يعرضون؛ لأن مصدره ﴿صُدُودًا﴾. وما أكثر من اتصف بهذا الوصف خصوصًا من يدعي العلم، فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة نبيه إلىٰ أقوال من يخطئ كثيرًا، ممن ينتسب إلىٰ الأئمة الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده، وجعلوا قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم، الذي لا تصح الفتوىٰ إلا به، بل ومن يجعل المعتمد النظم والقوانين الإفرنجية ويدعي الإسلام. وقال شيخنا: المرتضي بالسياسات والقوانين كافر يجب قتله، وإن المنافقين أشد من الكفار الخلص، ومن ظن أن حكم غير رسول الله ﷺ أحسن من حكمه فهو كافر بإجماع المسلمين فالله المستعان.

❁ **قوله:** «وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾»:

قال أبو العالية وغيره: يعني: لا تعصوا في الأرض؛ لأن من عصىٰ الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض، فدلت الآية علىٰ أن كل معصية فساد في الأرض. ومناسبة الآية للترجمة أن التحاكم إلىٰ غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو من أعظم الفساد في الأرض، ولغرورهم المؤمنين بقولهم الذي لا حقيقة له، وموالاتهم الكافرين، يقولون: نريد أن نداري الفريقين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، وفي الآية التنبيه علىٰ عدم الاغترار بأهل الأهواء، وإن زخرفوها بالدعوىٰ، والتحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم علىٰ صحته دليل من كتاب أو سنة، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة، تخرج صاحبها من الحق، وتدخله في الباطل.

❁ **قوله:** «وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾»:

قال أكثر المفسرين: أفسدوا فيها بالمعاصي، والدعاء إلىٰ غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعثة الرسل، وبيان الشريعة والدعاء إلىٰ طاعة الله؛ فإن عبادة غير الله والدعوة إلىٰ غيره والشرك به، هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة هو بالشرك بالله، ومخالفة أمره، ولا صلاح للأرض

ولأهلها إلا أن يكون الله هو المعبود وحده دون ما سواه، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع له ولرسولهﷺ، وغيره وإنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الله وطاعة رسولهﷺ، فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة. ووجه مطابقة الآية للترجمة أن التحاكم إلىٰ غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد في الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله وهو سبيل المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥].

قوله: «وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية»:

قال ابن كثير: ينكر تعالىٰ علىٰ كل من خرج عن حكم الله، المشتمل علىٰ كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلىٰ ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات، كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكسخان الذي وضع لهم كتابًا مجموعًا من أحكام اقتبسه من شرائع شتىٰ، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره، وصار في بنيه شرعًا، يقدمونه علىٰ الحكم بالكتاب والسنة، ومن فعل ذلك فهو كافر، يجب قتاله حتىٰ يرجع إلىٰ حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا في كثير. وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٥٠]. استفهام إنكار؛ أي: لا حكم أحسن من حكمه تعالىٰ، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك؛ أي: ومن أعدل من الله حكما لمن عقل عن الله شرعه، وآمن وأيقن أنه تعالىٰ أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالح عباده، القادر علىٰ كل شيء، والحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

قوله: «**عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله**ﷺ **قال: «لا يؤمن أحدكم ...»**:

الهوىٰ مقصور، مصدر هواه أحبه، وشرعًا: ميل النفس إلىٰ مشتهيات الطبع؛ أي: لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان حتىٰ يكون ما تهواه نفسه وتحبه وتميل إليه. «**تبعًا**» موافقًا لما جاء به الرسولﷺ، وحتىٰ لا يخرج عنه إلىٰ ما يخالفه بحال، فهذه صفة أهل الإيمان الخلص، وأما إن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو أكثرها، فإنه ينتفي عنه من الإيمان كماله الواجب، كما في حديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[٣١٣] الحديث؛ يعني: أنه بالمعصية ينتفي عنه كمال الإيمان الواجب وينقص إيمانه، فلا يطلق عليه

---

(٣١٣) أخرجه البخاري، كتاب: المظالم، باب: النهبىٰ بغير إذن صاحبه، برقم (٢٤٧٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان نقص الإيمان بالمعاصي...، برقم (١٠٠/ ٥٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

الإيمان إلا بقيد المعصية أو الفسوق، فيقال: مؤمن عاص، أو يقال: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فيصير معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به، لا الإيمان المطلق، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وبه جاء الكتاب والسنة، وأن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، خلافًا للخوارج والمعتزلة؛ فإن الخوارج يكفرون بالذنوب، والمعتزلة لا يطلقون عليه الإيمان، ويقولون بتخليده في النار، وكلا الطائفتين ابتدع في الدين، وترك ما دل عليه الكتاب والسنة. وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]. فقيد ما دون الشرك بالمشيئة، وتواترت الأحاديث بها يحقق ما عليه أهل السنة، كما في «الصحيحين» وغيرهما: «**أنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة من إيمان**»(٣١٤).

قوله: «قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب«الحجة» بإسناد صحيح»:

هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي بإسناد صحيح في كتاب «الحجة علىٰ تارك المحجة»، وهو كتاب يتضمن ذكر أصول الدين علىٰ قواعد أهل الحديث والسنة. ورواه الطبراني وأبو بكر بن عاصم والحافظ أبو نعيم في الأربعين التي شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار، ومعناه صحيح قطعًا، وشاهده في القرآن كثير، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾[النساء:٦٥] الآية، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾[الأحزاب:٣٦]، وقوله: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[القصص:٥٠]. ونحو هذه الآيات. وسمىٰ الهوىٰ المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلها، فقال: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية:٢٣]؛ أي: لا يهوىٰ شيئًا إلا ركبه، ووصف المشركين باتباع الهوىٰ في مواضع كثيرة من كتابه، وسائر البدع إنما تنشأ عن تقديم الهوىٰ علىٰ محبة الله ومحبة ما يحبه. والنووي: هو محيي الدين أبو زكريا يحيىٰ بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن حزام بن محمد بن جمعة، الحزامي الحواربي الشافعي، الإمام المشهور، صاحب المصنفات المفيدة، ولد بنوىٰ قرية من قرىٰ دمشق سنة ٦٣١هـ، وتوفي سنة ٦٧٦هـ.

---

(٣١٤) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالىٰ ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾، برقم (٧٤١٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها، برقم (٣٢٥/ ١٩٣) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

قوله: «وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة»:

الخصومة: الجدل، وتخاصم القوم واختصموا: تجادلوا وتنازعوا. والشعبي: هو عامر بن شراحيل الكوفي، عالم زمانه تقدمت ترجمته. قال مكحول: ما رأيت أفقه منه. وروى ابن إسحاق وغيره أنه كان بين الجلاس بن الصامت قبل توبته ومعتب بن قشير ورافع بن زيد وبشير، وكانوا يدعون الإسلام فدعاهم رجال من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ فدعوهم إلى الكهان، فنزلت الآية. وروي عن ابن عباس أن المنافق اسمه بشر، فالله أعلم.

قوله: «فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة»:

هي بتثليث الراء وأصلها من الرشاء الذي يوصل به إلى الماء، الجعل يعطيه أحد الخصمين للقاضي أو غيره ليحكم له، أو يحمل له على ما يريد، ورشاه أعطاه الرشوة، وراشاه مراشاة حاباه وصانعه.

قوله: «فاتفقا على أن يأتيا كاهنًا في جهينة»:

جهينة: حي مشهور من قضاعة، والكاهن: طاغوت يتحاكمون إليه كما في سائر أحياء العرب في الجاهلية، انتهى كلام الشعبي رحمه الله. رواه ابن جرير وابن المنذر بنحوه. وفيه ما يدل على أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى، وهو أشد عداوة منهم لأهل الإيمان، كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانتهم العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان، ومن تدبر ما في التاريخ، وما وقع منهم من الوقائع، عرف أن هذا حال المنافقين قديما وحديثا، وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم، وحضه على جهادهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾[التوبة:٧٣].

قوله:«فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، ولابن جرير وغيره في سبب نزولها، تفاخرت النضير وقريظة، فدخلوا المدينة إلى أبي برزة الكاهن الأسلمي، وذكر القصة. وأبو برزة هذا غير أبي برزة الصحابي.

قوله: «وقال الآخر إلى كعب ابن الأشرف» يهودي من طيئ من بني نبهان، وأمه من بني النضير، وكان شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له، وقد خرج اللعين إلى مكة يحرض على قتاله ﷺ، ويرثي قتلى بدر لقريش، ويفضل دين الجاهلية على دين الإسلام، ولما رجع إلى المدينة أخذ ينشد الأشعار، يهجو بها رسول الله ﷺ ويشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فانتقض بذلك عهده، حتى قال رسول الله ﷺ: من

لي بكعب بن الأشرف؛ فإنه قد آذىٰ الله ورسوله؟ فقال محمد بن مسلمة: أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم، قال: فأذن لي أن أقول له شيئًا، قال: قل، فأتاه فقال له: إن هذا الرجل قد سألنا الصدقة، وإنه قد عنانا، قال: وأيضًا والله لتملنه، قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتىٰ ننظر إلىٰ أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا، قال: نعم أرهنوني نساءكم، ثم قال: أبناءكم، ووعده أن يرهنه الأمة، فواعده أن يأتيه ليلًا، فأتاه هو وأبو نائلة، ومعهما عباد ابن بشر وأبو عبس، فنزل إليهم، فقالت، له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ - وفي رواية: أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم- قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلىٰ طعنة بليل لأجاب، قال محمد: فإذا جاء فإني مائل بشعره فأشمه، فإذا استمكنت منه فدونكم فاضربوه، فلما نزل متوشحا، قالوا: نجد منك ريح الطيب، قال: نعم تحتي فلانة أعطر نساء العرب، قال: تأذن لي أن أشمه؟ قال: نعم، فاستمكن منه، ثم قال: دونكم فقتلوه»[٣١٥]، وذلك في السنة الثالثة من الهجرة.

هذه القصة رويت من طرق متعددة؛ فهي مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولًا يغني عن الإسناد، وفيها أن المنافق المغموص بالنفاق، إذا أظهر نفاقه قتل، كما في «الصحيحين» وغيرهما. والنبيﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفًا للناس؛ فإنه قال: «لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[٣١٦]. وفيها أيضًا أن من طعن في شيء من الدين، أو في أحكام النبيﷺ قتل، وأن معرفة الحق لا تكفي عن العمل والانقياد؛ فإن اليهود يعلمون أن محمدًا رسول الله، ويتحاكمون إليه في كثير من الأمور.

قال العلامة ابن باز:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ...﴾:

أراد المؤلف بيان التحذير من التحاكم إلىٰ غير الله وأن الواجب التحاكم إلىٰ شريعة الله في كل الأمور كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥] ..الآية.

---

(٣١٥) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: قتل كعب بن الأشرف، برقم (٤٠٣٧)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، برقم (١٨٠١) وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣١٦) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: سورة المنافقون، برقم (٤٩٠٥)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، برقم (٦٣/ ٢٥٨٤) وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وقال تعالىٰ ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[المائدة:٤٩] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[المائدة:٤٤، ٤٥، ٤٧] فهذه تدل علىٰ وجوب التحاكم إلىٰ شرع الله وأنه لا يجوز التحاكم إلىٰ غيره كائنًا من كان وهذا أصلٌ مجمع عليه.

وتبين الآية أن بعض الناس يدعي الإيمان والإسلام وهو ليس كذلك بل هو من المنافقين. فإذا جاءت الحوادث والخصومات طلبوا التحاكم إلىٰ غير الله وإلىٰ الطاغوت وهو كل ما عبد من دون الله، وكل من حكم بغير ما أنزل الله عن عمد وهوىٰ، فالمنافقون يريدون من يوافق هواهم ويأخذ الرشوة ليحكم لهم بغير شرع الله، وهذا دليل علىٰ نفاقهم وهؤلاء شأنهم الإعراض عن الحق كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ فالواجب الحذر ومن أخلاقهم الذميمة.

قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾:

فيزعمون أنهم مصلحون مع إفسادهم لجهلهم وضلالهم ونفاقهم انقلبت عليهم الأمور حتىٰ صار الفساد صلاحًا؛ ولهذا قال تعالىٰ ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾:

وصلاح الأرض باتباع الشرع وتحكيمه، وفسادها بمخالفة أمر الله والتحاكم إلىٰ غيره.

قوله: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾:

أي: يريد هؤلاء المتحاكمين إلىٰ اليهود وغيرهم من الطواغيت التحاكم إلىٰ حكم الجاهلية، وهل هناك حكم أحسن من حكم الله؟ فهو أعلم بمصالح عباده والعالم بما تنتهي إليه أمورهم وعواقبهم فهو عالم بكل شيء.

قوله: «عن عبد الله بن عمر مرفوعًا: لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به»:

أي: لا يؤمن الإيمان الكامل الواجب حتىٰ يكون هواه إرادته وقصده وطلبه تبعًا لما جئت به، وهكذا ينبغي أن تكون ميول المؤمن ونياته خاضعة لحكم الله.

وضعف بعض العلماء هذا الحديث ولكن معناه صحيح.

قوله: «قال الشعبي: كان بين رجلين من المنافقين واليهود خصومة»:

وقيل: فهذا يدل علىٰ أن المنافق أشر من اليهود؛ لأنهم يلبسون علىٰ الناس أمرهم ويحصل بهم الضلال فصاروا بذلك في الدرك الأسفل من النار.

فالواجب التحاكم إلىٰ شرع الله وعدم الرضىٰ بغيره، وتدل قصة عمر أن التحاكم إلىٰ غير شرع الله كفرٌ وردةٌ، ومن كره حكم الله فهو كافر.

وفي القصتين نظر لكن المعنىٰ صحيح.

الشعبي: عامر بن شراحيل.

فائدة:

«خلق الله آدم علىٰ صورته»[٣١٧]؛ أي: خلق الله آدم سميعًا بصيرًا متكلمًا ذا وجه ويد وقدم ونحوه مما هو ثابت فالله يسمع وآدم يسمع والله متكلم وآدم متكلم... ولكن لا يشبه في الذات ولا في الصفات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورىٰ:١١].

أما من قال أن الضمير يرجع إلىٰ آدم فخطأ وقصده الفرار من التشبيه.

قال العلامة ابن عثيمين:

هذا الباب له صلة قوية بما قبله؛ لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، وهذا فيه الإنكار علىٰ من أراد التحاكم إلىٰ غير الله ورسوله، وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه أربع آيات:

الآية الأولىٰ ما جعلها ترجمة للباب، وهي قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾[النساء:٦٠]: الاستفهام يُراد به التقرير والتعجب من حالهم، والخطاب للنبي ﷺ.

❁ **قوله:** ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾:

هذا يُعيّن أن يكون الخطاب للنبي ﷺ هنا، ولم يقل الذين آمنوا؛ لأنهم لم يؤمنوا، بل يزعمون ذلك وهم كاذبون، والذي أُنزل إلىٰ النبي ﷺ الكتاب والحكمة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[النساء:١١٣]، قال المفسرون: الحكمة السنة، وهم يزعمون أنهم آمنوا بذلك، لكن أفعالهم تكذب أقوالهم، حيث يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوت لا إلىٰ الله ورسوله.

---

(٣١٧) أخرجه البخاري، كتاب: الاستئذان، باب: بدء السلام، برقم (٦٢٢٧)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، برقم (٢٨٤١) وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله: ﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾: صيغة مبالغة من الطغيان؛ ففيه اعتداء وَبغي، والمراد به هنا كل حكم خالف حكم الله ورسوله، وكل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله علىٰ رسوله، أما الطاغوت بالمعني الأعم؛ فقد حَدَّه ابن القيم بأنه: كل ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع، وقد تقدَّم الكلام عليه في أول كتاب التوحيد.

قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: أمرهم الله بالكفر بالطاغوت أمرًا ليس فيه لبس ولا خفاء، فمن أراد التحاكم إليه، فهذه الإدارة علىٰ بصيرة؛ إذ الأمر قد بين لهم.

قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: جنس يشمل شياطين الإنس والجن.

قوله: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ أي: يوقعهم في الضلال البعيد عن الحق، ولكن لا يلزم من ذلك أن ينقلهم إلىٰ الباطل مرة واحدة، ولكن بالتدريج.

فقوله: ﴿بَعِيدًا﴾؛ أي: ليس قريبًا، لكن بالتدريج شيئًا فشيئًا حتىٰ يوقعهم في الضلال البعيد.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾[النساء:٦١]؛ أي: قال لهم الناس: أقبلوا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ نفسه في حياته وسنته بعد وفاته، والمراد هنا الرسول ﷺ نفسه في حياته.

قوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، الرؤية هنا رؤية حال لا رؤية بصر، بدليل قوله: ﴿تَعَالَوْاْ﴾؛ فهي تدل علىٰ أنهم ليسوا حاضرين عنده، والمعني: كأنما تشاهدهم.

وقوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: إظهار في موضع الإضمار لثلاث فوائد:

الأولىٰ: أن هؤلاء الذين يزعمون الإيمان كانوا منافقين.

الثانية: أن هذا لا يصدر إلا من منافق؛ لأن المؤمن حقًّا لابد أن ينقاد لأمر الله ورسوله بدون صدود.

الثالثة: التنبيه؛ لأن الكلام إذا كان علىٰ نسق واحد قد يغفل الإنسان عنه، فإذا تغير؛ حصل له انتباه.

وقوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ جواب «إذا»، وكلمة «صد» تستعمل لازمة؛ أي: يوصف بها الشخص ولا يتعداه إلىٰ غيره، ومصدرها صدود؛ كما في هذه الآية، ومتعدية؛ أي: صد غيره، ومصدرها صد؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[الفتح:٢٥].

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾[النساء:٦٢]. الاستفهام هنا يراد به التعجب؛ أي: كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة، والمصيبة هنا تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعدم تضاد المعنيين.

فالدنيوية مثل: الفقر، والجدب، وما أشبه ذلك، فيأتون يشكون إلىٰ النبي ﷺ، فيقولون: أصابتنا هذا المصائب ونحن ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

والشرعية: إذا أظهر الله رسوله علىٰ أمرهم؛ خافوا وقالوا: يا رسول الله! ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: الباء: هنا للسببية، ﴿ما﴾ اسم موصول، و﴿قَدَّمَتْ﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره بما قدمته أيديهم، وفي اللغة العربية يطلق هذا التعبير باليد ويراد به نفس الفاعل؛ أي: بما قدموه من الإعمال السيئة.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾. ﴿إِنْ﴾ بمعني: «ما»؛ أي: ما أردنا إلا إحسانًا بكوننا نسلم من الفضيحة والعار، وتوفيقًا بين المؤمنين والكافرين أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان؛ أي: نمشي معكم ونمشىٰ مع الكفار، وهذه حال المنافقين؛ فهم قالوا: أردنا أن نحسن المنهج والمسلك مع هؤلاء وهؤلاء ونوفق بين الطرفين.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[النساء:٦٣]. توعدهم الله بأنه يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخداع؛ فالله علَّام الغيوب، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾[ق:١٦]، بل إن الله أعلم منك بما فيك، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وهذا من أعظم ما يكون من العلم والخبرة أن الله يحول بين المرء وقلبه؛ ولهذا قيل لأعرابي: **بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم.**

فالإنسان يعزم علىٰ الشيء ثم لا يدري إلا وعزيمته منتقضة بدون سبب ظاهر.

قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار.

قوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾: أي: ذَكِّرهم وخَوِّفهم، لكن لا تجعلهم أكبر همك، فلا تخافهم، وقم بما يجب عليك من الموعظة لتقوم عليهم الحجة.

قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا﴾: أختلف المفسرون فيها علىٰ ثلاثة أقوال:

الأول: أن الجار والمجرور في أنفسهم متعلق ببليغ؛ أي: قل لهم قولًا بليغًا في أنفسهم؛ أي: يبلغ في أنفسهم مبلغًا مؤثرًا.

الثاني: أن المعني: أنصحهم سرًّا في أنفسهم.

الثالث: أن المعني: قل لهم في أنفسهم -أي: في شأنهم وحالهم قولًا- بليغًا في قلوبهم يؤثر

عليها، والصحيح أن الآية تشمل المعاني الثلاثة؛ لأن اللفظ صالح لها جميعًا، ولا منافاة بينها، وهذه قاعدة في التفسير ينبغي التنبيه لها، وهي أن المعاني المحتملة للآية والتي قال بها أهل العلم إذا كانت الآية تحتملها وليس بينها تعارض: فإنه يؤخذ بجميع المعاني.

وبلاغة القول تكون في أمور:

الأول: هيئة المتكلم بأن يكون إلقاؤه علىٰ وجه مؤثر، وكان النبيﷺ إذا خطب؛ احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتىٰ كأنه منذر جيشًا، يقول: صبَّحكم ومَسَّاكم(٣١٨).

الثاني: أن تكون ألفاظه جزلة مترابطة محدودة الموضوع.

الثالث: أن يبلغ من الفصاحة غايتها بحسب الإمكان، بأن يكون كلامه: سليم التركيب، موافقًا للغة العربية، مطابقًا لمقتضىٰ الحال.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه: إن هذه الآيات تنطبق تمامًا علىٰ أهل التحريف والتأويل في صفات الله؛ لأن هؤلاء يقولون: إنهم يؤمنون بالله ورسوله، وإذا قيل لهم تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول؛ يعرضون، ويصدون ويقولون: نذهب إلىٰ فلان وفلان، وإذا اعترض عليهم؛ قالوا: نريد الإحسان والتوفيق، وأن نجمع بين دلالة العقل ودلالة السمع. ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتوىٰ الحموية».

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾.

الإفساد في الأرض نوعان:

الأول: إفساد حسي مادي: وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثاني: إفساد معنوي، وذلك بالمعاصي؛ فهي من أكبر الفساد في الأرض، قال تعالىٰ: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الروم:٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾[الشورىٰ:٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[الأعراف:٩٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾[المائدة:٦٥ -٦٦].

---

(٣١٨) أخرجه مسلم، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (٨٦٧) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: وهذه دعوى من أبطل الدعاوى، حيث قالوا: ما حالنا وما شأننا إلا الإصلاح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾[البقرة:١٢]. ﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاح، والجملة مؤكدة بأربع مؤكِّدات؛ وهي: ﴿أَلَآ﴾، و ﴿إِنَّ﴾.وضمير الفصل ﴿هُمْ﴾، والجملة الاسمية؛ فالله قابل حصرهم بأعظم منه؛ فهؤلاء الذين يُفسدون في الأرض ويدَّعون الإصلاح هم المفسدون حقيقة لا غيرهم.

ومناسبة الآية للباب ظاهرة، وذلك أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله من أكبر أسباب الفساد في الأرض.

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يشمل الفساد المادي والمعنوي كما سبق.

قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾: من قبل المصلحين، ومن ذلك الوقوف ضد دعوة أهل العلم، والوقوف ضد دعوة السلف، والوقوف ضد من ينادي بأن يكون الحكم بما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾: من باب تأكيد اللوم والتوبيخ؛ إذا كيف يفسد الصالح وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والخبث والشر؟ فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضي الإنسان في فساده قبل الإصلاح، وإن كان المطلوب هو الإصلاح بعد الفساد.

ومناسبة الآية للباب: أن التحاكم إلى ما أنزل الله هو الإصلاح، وأن التحاكم إلى غيره هو الإفساد.

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾: الاستفهام للتوبيخ، و ﴿حكم﴾: مفعول مقدم لـ ﴿يَبْغُونَ﴾، وقُدِّم لإفادة الحصر، والمعنى: أفلا يبغون إلا حكم الجاهلية.

و ﴿يَبْغُونَ﴾: يطلبون، والإضافة في قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ تحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى: أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يبغون، فيريدون أن يعيدوا هذه الأمة إلى طريق الجاهلية التي أحكامها معروفة، ومنها البحائر، والسوائب، وقتل الأولاد.

ثانيهما: أن يكون المعنى: أفحكم الجهل الذي لا ينبني على العلم يبغون، سواء كانت عليه الجاهلية السابقة أو لم تكن، وهذا أعم.

والإضافة للجاهلية تقتضي التقبيح والتنفير، وكل حكم يخالف حكم الله؛ فهو جهل وجهالة، فإن كان مع العلم بالشرع؛ فهو جهالة، وإن كان مع خفاء الشرع؛ فهو جهل، والجهالة هي العمل بالخطأ سفهًا لا جهلًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾[النساء:١٧]، وأما مَن يعمل السوء بجهل فلا ذنب عليه، لكن عليه أن يتعلم.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾: ﴿من﴾: اسم استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أحسن من الله حكمًا، وهذا النفي مُشرَب معنى التحدي، فهو أبلغ من قوله: «لا أحسن من الله حكمًا»؛ لأنه متضمن للنفي وزيادة.

وقوله: ﴿حُكْمًا﴾. تميز؛ لأنه بعد اسم التفضيل، وهو مبهم، فبيَّن هذا التمييز المبهم وميزه.

والحكم هنا يشمل الكوني والشرعي.

فإن قيل: يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها، فأين الحُسن في ذلك؟

أُجيب: أن الغايات المحمودة في هذه الأمور تجعلها حسنةً، كما يضرب الإنسان ولده تربية له، فيعد هذا الضرب فعلًا حسنًا، فكذلك الله يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم، قال تعالىٰ في القرية التي قلب الله أهلها قردة خاسئين: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٦٦]، وهذا الحسن في حكم الله ليس بينًا لكل أحد، كما قال تعالىٰ: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وكلما ازداد العبد يقينًا وإيمانًا ازداد معرفة بحسن أحكام الله، وكلما نقص إيمانه ويقينه؛ ازداد جهلًا بحسن أحكام الله؛ ولذلك تجد أهل العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات المتشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضًا، وعلىٰ هذا، فإنه يتبين قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحسن أحكام الله الكونية والشرعية.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. خبر لا يدخله الكذب ولا النسخ إطلاقًا؛ ولذلك هدىٰ الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فجمعوا بين المتشابهات والمختلفات من النصوص، وقالوا: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧]، وعرفوا حسن أحكام الله تعالىٰ، وأنها أحسن الأحكام وأنفعها للعباد وأقومها لمصالح الخلق في المعاش والمعاد، فلم يرضوا عنها بديلًا.

❁ **قوله: «في حديث عبد الله بن عمر: لا يؤمن أحدكم»:**

أي: إيمانًا كاملًا إلا إذا كان لا يهوىٰ ما جاء به النبي ﷺ بالكلية، فإنه ينتفي عنه الإيمان بالكلية؛ لأنه إذا كره ما أنزل الله؛ فقد حبط عمله لكفره، قال تعالىٰ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[محمد:٩].

قوله: «**حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**». الهوي بالقصر هو: الميل، وبالمد هو: الريح، والمراد الأول.

و «حتىٰ»: للغاية، والذي جاء به النبي ﷺ هو القرآن والسنة.

وإذا كان هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، لزم من ذلك أن يوافقه تصديقًا بالأخبار، وامتثالًا للأوامر، واجتنابًا للنواهي.

واعلم أن أكثر ما يطلق الهوىٰ علىٰ هوىٰ الضلال لا علىٰ هوىٰ الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد:١٤]، وغيرها من الآيات الدالة علىٰ ذم من اتبع هواه، ولكن إذا كان الهوىٰ تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، كان محمودًا، وهو من كمال الإيمان، وقد سبق بيان أن مَن اعتقد أن حكم غير الله مساوٍ لحكم الله، أو أحسن، أو أنه يجوز التحاكم إلىٰ غير الله؛ فهو كافر.

وأما مَن لم يكن هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، فإن كان كارهًا له، فهو كافر، وإن لم يكن كارهًا ولكن آثر محبة الدنيا علىٰ ذلك؛ فليس بكافر، لكن يكون ناقص الإيمان.

قوله: «**قال النووي: حديث صحيح**». صححه النووي وغيره، وضعفه جماعة من أهل العلم، منهم ابن رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم»، ولكن معناه صحيح.

۞ **قوله**: «**في أثر الشعبي: وقال الشعبي**»:

أي: في تفسير الآية.

قوله: «**رجل من المنافقين**». هو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وسمي منافقًا من النافقاء، وهي جُحر اليربوع، واليربوع له جُحر له باب وله نافقاء - أي: يحفر في الأرض خندقًا حتىٰ يصل منتهىٰ جحره ثم يحفر إلىٰ أعلىٰ، فإذا بقي شيء قليل بحيث يتمكن من دفعه برأسه توقف، فإذا حُجر عليه من الباب خرج من النافقاء.

قوله: «**ورجل من اليهود**»: اليهود هو المنتسبون إلىٰ دين موسىٰ عليه السلام، وسموا بذلك إما من قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:]؛ أي: رجعنا، أو نسبة إلىٰ أبيهم يهوذا، ولكن بعد التعريب صار بالدال.

قوله: «**إلىٰ محمد**»؛ أي: النبي ﷺ، ولم يذكره بوصف الرسالة؛ لأنهم لا يؤمنون برسالته، ويزعمون أن النبي الموعود به سيأتي.

قوله: «**عرف أنه لا يأخذ الرشوة**»؛ تعليل لطلب التحاكم إلىٰ النبي ﷺ.

والرشوة: مُثَلثةُ الراء؛ فيجوز الرِّشوة، والرَّشوة، والرُّشوة، وهي: المال المدفوع للتوصل إلىٰ شيء.

قال أهل العلم: «لا تكون محرمة إلا أذا أراد الإنسان أن يتوصل بها إلىٰ باطل أو دفع حق، أما مَن بذلها ليتوصل بها إلىٰ حق له منع منه أو ليدفع بها باطلًا عن نفسه؛ فليست حرامًا علىٰ الباذل، أما علىٰ آخذها؛ فحرام».

قوله: «فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة»، كأنه صار بينهما خلاف، وأبىٰ المنافق أن يتحاكما إلىٰ النبي ﷺ.

والكاهن: مَن يدَّعي علم الغيب في المستقبل، وكان للعرب كُهان تنزل عليهم الشياطين بخبر السماء، فيقولون: سيحدث كذا وكذا، فربما أصابوا مرة من المرات، وربما أخطئوا، فإذا أصابوا ادَّعوا علم الغيب، فكان العرب يتحاكمون إليهم؛ فنزل قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ ...﴾ الآية.

قوله: «وقيل»: ذكر هذه القصة بصيغة التمريض، لكن ذكر في «تيسير العزيز الحميد» أنها رُويت من طرق متعددة، وأنها مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولًا يُغني عن الإسناد، ولها طرق كثيرة ولا يضرها ضعف إسنادها.اهـ.

قوله: «رجلين»: هما مبهمان؛ فيحتمل أن يكونا من المسلمين المؤمنين، ويحتمل أن يكونا من المنافقين، ويحتمل غير ذلك.

قوله: «إلىٰ كعب بن الأشرف». وهو رجل من زعماء بني النضير.

قوله: «أكذلك»: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: أكذلك الأمر.

قوله: «فضربه بالسيف»: الضارب عمر.

وهذه القصة والتي قبلها تدل علىٰ أن من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ كافر يجب قتله، ولهذا قتله عمر رضي الله عنه.

فإن قيل: كيف يقتله عمر رضي الله عنه والأمر إلىٰ الإمام وهو النبي ﷺ؟

أجيب: أن الظاهر أن عمر لم يملك نفسه لقوة غَيرته فقتله؛ لأنه عرف أن هذا ردة عن الإسلام، وقد قال النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»(٣١٩).

❁ **قوله: «فيه مسائل»:**

الأولىٰ: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة علىٰ فهم الطاغوت: وهي قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

قوله: «وما فيها من الإعانة علىٰ فهم الطاغوت»؛ أي: أن الطاغوت مشتق من الطغيان، وإذا كان كذلك؛ فيشمل كل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع؛ فالأصنام والأمراء والحكام الذين يُحلون الحرام ويحرمون الحلال طواغيت.

---

(٣١٩) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: لا يُعذَّبُ بِعَذَابِ الله، برقم (٣٠١٧) وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: ففيها دليل على أن النفاق فساد في الأرض؛ لأنها في سياق المنافقين، والفساد يشمل جميع المعاصي.

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: وقد سبق.

الرابعة: تفسير ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾: وقد سبق ذلك، وقد بينا أن المراد بحكم الجاهلية كل ما خالف الشرع، وأُضيف للجاهلية للتنفير منه وبيان قبحه، وأنه مبني على الجهل والضلال.

الخامسة: ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولى: وقد سبق.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب: فالإيمان الصادق يستلزم الإذعان التام والقبول والتسليم لحكم الله ورسوله، والإيمان الكاذب بخلاف ذلك.

السابعة: قصة عمر مع المنافق: حيث جعل عدوله عن الترافع إلى النبي ﷺ مبيحًا لقتله لردته، وأقدم على قتله لقوة غيرته فلم يملك نفسه.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ: وهذا واضح من الحديث.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾ الآيات:

تمام الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾[النساء:٦٠، ٦٢].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

نبه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الباب على ما تضمنه التوحيد و استلزمه من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع؛ إذ هذا من مقتضى الشهادتين؛ فمن تلفظ بالشهادتين ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول فقد كذب في شهادته.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: استفهام وتعجب واستنكار.

﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا ...﴾؛ أي: يدعون الإيمان بذلك وهم كاذبون.

﴿يَتَحَاكَمُوا﴾؛ أي: يتخاصموا.

﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾: هو كثير الطغيان، والمراد به هنا كعب بن الأشرف اليهودي، وهو يشمل كل من حكم بغير ما أنزل الله.

﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: يرفضوا طاعة الطاغوت.

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: بأمره لهؤلاء وتزيينه لهم التحاكم إلىٰ الطاغوت.

﴿أَن يُضِلَّهُمۡ﴾: أن يصدهم عن سبيل الحق والهدىٰ.

﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾: فيجوز بهم جورًا شديدًا.

﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: في القرآن من الحكم بين الناس.

﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه.

﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ أي: الذين يدَّعون الإيمان وهم كاذبون.

﴿يَصُدُّونَ﴾: يعرضون، في موضع نصب علىٰ الحال.

﴿عَنكَ﴾: إلىٰ غيرك.

﴿صُدُودٗا﴾: مصدر «صدَّ» أو اسم مصدرٍ.

﴿فَكَيۡفَ﴾؛ أي: ماذا يكون حالهم؟ وماذا يصنعون؟

﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾: إذا نزلت بهم عقوبة من قتلٍ ونحوه.

﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ أي: بسبب التحاكم إلىٰ غيرك وعدم الرضا بحكمك، هل يقدرون علىٰ الفرار منها؟

﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾: للاعتذار حين يصابون، معطوف علىٰ إصابتهم، أو علىٰ يصدون.

﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾؛ أي: ما أردنا بالمحاكمة إلىٰ غيرك.

﴿إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا﴾؛ أي: الإصلاح بين الناس.

﴿وَتَوۡفِيقًا﴾: تأليفًا بين الخصمين ولم نرد مخالفتك.

المعنىٰ الإجمالي للآيات:

أن الله – سبحانه وتعالىٰ – أنكر علىٰ من يدعي الأيمان بما أنزل الله علىٰ رسوله وعلىٰ الأنبياء قبله، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلىٰ غير كتاب الله وسنة رسوله، ويحاكم إلىٰ الطاغوت الذي أمر الله عباده المؤمنين أن يكفروا به؛ ولكن الشيطان يريد أن يضل هؤلاء المتحاكمين إلىٰ الطاغوت عن سبيل الهدىٰ والحق ويبعدهم عنه؛ وإذا دعي هؤلاء إلىٰ التحاكم إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا إعراض استكبار وتمنع – فماذا يكون حالهم وصنيعهم إذا نزلت بهم المصائب واحتاجوا إلىٰ الرسول في ذلك؟! ليدعو الله لهم ويحل مشاكلهم – فجاءوه يعتذرون

عمَّا صدر منهم بأنَّهم لم يريدوا مخالفته في عدولهم إلىٰ غيره، وإنما أراد الإصلاح والتأليف بين الناس، فيبدون هذه الأعذار الباطلة ليبرروا فعلهم حينما يفتضحون.

ما يستفاد من الآيات:

١- وجوب التحاكم إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله والرِّضا بذلك والتسليم له.

٢- أنَّ من تحاكم إلىٰ غير الشريعة الإسلامية فليس بمؤمن، وليس بمصلح وإن ادَّعىٰ أنه يقصد الإصلاح.

٣- أنَّ مَن حكم بغير ما أنزل الله فهو طاغوت، ومن تحاكم إلىٰ غير ما أنزل الله فهو متحاكم إلىٰ الطاغوت، وإن سماه بأي أسم.

٤- وجوب الكفر بالطاغوت.

٥- التحذير من كيد الشيطان وصده الإنسان عن الحق.

٦- أنَّ من دعي التحاكم إلىٰ ما أنزل الله وجب عليه الإجابة والقبول، فإن أعرض فهو منافق.

٧- أنَّ دعوىٰ قصد الإصلاح ليست بعذرٍ في الحكم بغير ما أنزل الله.

❁ **قوله:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾:

أي: المنافقين.

﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بالكفر وغيره من أنواع المعاصي.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: وليس ما نحن فيه بفساد.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يذكر من صفات المنافقين أنَّهم: إذا نُهوا عن ارتكاب المعاصي التي تسبب الفساد في الأرض بحلول العقوبات، وأمروا بالطاعة التي فيها صلاح الأرض أجابوا: بأن شأننا الإصلاح؛ لأنهم تصوَّروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ من دعا إلىٰ التحاكم إلىٰ غير ما أنزل الله أو دعا إلىٰ المعاصي فقد أتىٰ بأعظم الفساد في الأرض.

ما يستفاد منها:

١- التحذير من تحكيم النظم والقوانين المخالفة للشريعة، وإن ادَّعىٰ أصحابها أنَّ قصدهم الإصلاح.

٢- أنَّ دعوىٰ الإصلاح ليست بعذرٍ في ترك ما أنزل الله.

٣- التحذير من الأعجاب بالرأي.

٤- أنَّ مريض القلب يتصور الحق باطلًا والباطل حقًّا.

٥- أنَّ النية الحسنة لا تسوغ مخالفة الشرع.

❁ قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾:

﴿لَا﴾: ناهية.

﴿تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بالشرك والمعاصي.

﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: ببعث الأنبياء وشرع الأحكام وعمل الطاعات.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

ينهىٰ الله سبحانه عباده عن الإفساد في الأرض - بالمعاصي والدعاء إلىٰ طاعة المخلوقين في معصية الخالق - بعد إصلاحه سبحانه إيَّاها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلىٰ طاعة الله؛ فإنَّ عبادة غير الله والدعوة إلىٰ غيره والشرك به والظلم والمعاصي هي أعظم فساد في الأرض.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ من يدعو إلىٰ التحاكم إلىٰ غير ما أنزل الله فقد أتىٰ بأعظم الفساد في الأرض.

ما يستفاد من الآية:

١- أنَّ المعاصي إفساد في الأرض.

٢- أنَّ الطاعة إصلاح للأرض.

٣- أنَّ تحكيم غير ما أنزل الله إفساد في الأرض.

٤- أنَّ صلاح البشر وإصلاحهم لا يكون إلا بتحكيم ما أنزل الله.

❁ قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ...﴾:

تمام الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

﴿أَفَحُكْمَ﴾: استفهام إنكاري.

﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: ما كان قبل الإسلام وكل ما خالف الإسلام فهو من الجاهلية.

﴿يَبْغُونَ﴾: يطلبون.

﴿وَمَنْ﴾؛ أي: لا أحدٌ.

﴿أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾: هذا من استعمال أفعلِ التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك.

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: عند قوم يوقنون فإنَّهم هم الذين يتدبرون الأمور فيعلمون أنَّ لا أحسن حكمًا من حكم الله.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

ينكر تعالىٰ علىٰ من خرج عن حكم الله تعالىٰ - المشتمل علىٰ كل خيرٍ وعدلٍ، والناهي عن كل شر - إلىٰ ما سواه من: الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستندٍ من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات والأعراف القبليَّة.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ من ابتغىٰ غير حكم الله - من الأنظمة والقوانين الوضعية - فقد ابتغىٰ حكم الجاهلية.

ما يستفاد من الآية:

١- وجوب تحكيم شريعة الله.

٢- أنَّ من خالف شرع الله فهو من حكم الجاهلية.

٣- بيان مزية أحكام الشريعة وأنَّها هي الخير والعدل والرحمة.

٤- أنَّ تحكيم القوانين الوضعية والنظم الغربية كفر.

❁ **قوله:** «قال النووي...»:

التراجم:

النووي هو: محي الدين أبو زكريا يحيىٰ بن شرف النووي - نسبة إلىٰ نوىٰ قرية بالشام - وهو إمام مشهور صاحب تصانيف مفيدة، توفي سنة ٦٧٦هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

«**الحُجة**»: أي: كتاب «الحجة علىٰ تارك المحجة» للشيخ أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي.

وهذا الحديث في إسناده مقال - لكنَّ معناه صحيح قطعًا وإن لم يصح إسناده وله شواهد من القرآن كقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

«**لا يؤمن أحدكم**»؛ أي: لا يحصل له الإيمان الواجب ولا يكون من أهله.

«**هواه**»؛ أي: ما يهواه وتحبه نفسه وتميل إليه.

«**تبعًا لما جئت به**»: فيحب ما أمر به الرسول ﷺ ويكره ما نهىٰ عنه.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أنَّ الإنسان لا يكون مؤمنًا الإيمان الكامل الواجب حتىٰ تكون محبته تابعة لما جاء به الرسولﷺ من: الأوامر والنواهي وغيرها، فيحب ما أمر به ويكره ما نهىٰ عنه.

مناسبة الحديث للباب:

نفي الإيمان عمن لم يطمئن إلىٰ شرع الله ويحبه، ويكره ما خالفه من القوانين والنظم الوضعية.

ما يستفاد من ا لحديث:

١- وجوب محبة كل ما جاء به الرسولﷺ ولا سيما من التشريع والعمل به.

٢- وجوب بغض كل ما خالف شريعة الرسولﷺ والابتعاد عنه.

٣- انتفاء الإيمان عمَّن يميل بقلبه إلىٰ مخالفة ما جاء به الرسولﷺ ولو عمل به ظاهرًا.

❁ **قوله**: «وقال الشعبي...»:

التراجم:

الشعبي هو: عامر بن شراحيل الشعبي، وقيل: عامر بن عبد الله بن شراحيل الشعبي الحميري أبو عمرو الكوفي ثقة حافظ فقيه من التابعين. قيل مات سنة ١٠٣ هـ رَحِمَهُ اللَّهُ، وقيل غير ذلك.

«من المنافقين»: جمع منافقٍ وهو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

«اليهود»: جمع يهودي - من هاد إذا رجع - وقيل اليهودي نسبة إلىٰ يهودا بن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

«خصومة»؛ أي: جدال ونزاع.

«الرشوة»: ما يعطىٰ لمن يتولىٰ شيئًا من أمور الناس ليحيف مع المعطي ومن ذلك: ما يعطيه أحد الخصمين للقاضي أو غيره ليحكم له، مأخوذة من الرشاء الذي يتوصل به إلىٰ الماء.

«جهينة»: قبيلة عربية مشهورة.

«فنزلت»: هذا بيان لسبب نزول الآية الكريمة.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

يروي الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ هذه الآية الكريمة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية. نزلت بسبب ما حصل من رجل يدَّعي الإيمانَ ويريد أنْ يتحاكم إلىٰ غير الرسولﷺ؛ تهربًا من الحكم العادل، مما حمله علىٰ التحاكم إلىٰ الطاغوت من غير مبالاة بما يترتب علىٰ ذلك من مناقضة للإيمان؛ مما يدل علىٰ كذبه في ادعائه الإيمان؛ فمن عمل مثل عمله فهو مثله في هذا الحكم.

مناسبة الأثر للباب:

أنَّ التحاكم إلىٰ غير شرع الله يناقض الإيمان بالله وكتبه.

ما يستفاد من الأثر:

١- وجوب التحاكم إلىٰ شريعة الله.

٢- أنَّ التحاكم إلىٰ غير شريعة الله ينافي الإيمان.

٣- فيه كشف لحقيقة المنافقين، وأنَّهم شر من اليهود.

٤- تحريم أخذ الرشوة، وأن أخذ الرشوة من أخلاق اليهود، وقد لعن النبي ﷺ معطيها وآخذها.

قوله: «**وقال الآخر: إلىٰ كعب بن الأشرف...**».

التراجم:

كعب بن الأشرف: يهودي عربي من طيء وأمه من بني النضير، كان شديد العداوة للنبي ﷺ.

«**وقيل نزلت**»؛ يعني: الآية المذكورة سابقًا.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

هذا الأثر فيه بيان قول آخر -غير ما سبق- في سبب نزول الآية الكريمة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية. وأن القصة لما بلغت عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستثبتها قتل الذي لم يرض بحكم رسول الله ﷺ.

مناسبة ذكره في الباب:

أنَّ فيه دليلًا علىٰ كفر من احتكم إلىٰ غير شرع الله واستحقاقه للقتل؛ لأنه مرتد عن دين الإسلام.

ما يستفاد من الأثر:

١- أنَّ تحكيم غير الله تعالىٰ، ورسوله ﷺ في فضِّ المنازعات ردَّةٌ عن الإسلام.

٢- أنَّ المرتد عن دين الإسلام يقتل.

٣- أنَّ الدعاء إلىٰ تحكيم غير شرع الله من صفات المنافقين ولو كان المدعو إلىٰ تحكيمه إمامًا فاضلًا كعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٤- مشروعية الغضب لله ولرسوله ولدينه.

٥- مشروعية تغيير المنكر باليد لمن يقدر علىٰ ذلك.

٦- أنَّ معرفة الحق لا تغني عن العمل به والانقياد له.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾»:

هذا الباب من الأبواب العظيمة المهمة في هذا الكتاب، وذلك لأن إفراد الله -جل وعلا- بالوحدانية في ربوبيته وفي إلهيته يتضمن ويقتضي ويستلزم -جميعًا- أن يفرد في الحكم، فكما أنه -جل وعلا- لا حكم إلا حكمه في ملكوته، فكذلك يجب أن يكون لا حكم إلا حكمه فيما يتخاصم فيه الناس، وفي الفصل بينهم، فالله -جل وعلا- هو الحَكَم، وإليه الحكم سبحانه، قال جل وعلا: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾[غافر: ١٢]، وقال جل وعلا: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام: ٥٧]، فتوحيد الله -جل وعلا- في الطاعة وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله لا يكون إلا بأن يكون العباد محكِّمين لما أنزل الله -جل وعلا- علىٰ رسوله. فترك تحكيم ما أنزل الله علىٰ رسوله ﷺ بحكم الجاهلية، أو بحكم القوانين، أو بحكم سواليف البادية، أو بكل حكم مخالف لحكم الله -جل وعلا- هذا من الكفر الأكبر بالله -جل جلاله- ومما يناقض كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وقد عقد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب ليبين أن الحكم بما أنزل الله فرض، وأن ترك الحكم بما أنزل الله وتحكيم غير ما أنزل الله في شئون المتخاصمين وتنزيل ذلك منزلة القرآن أن ذلك شرك أكبر بالله -جل وعلا- وكفر مخرج من ملة الإسلام.

قال الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول رسالته «**تحكيم القوانين**»: إن من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين علىٰ قلب سيد المرسلين، ليكون حكمًا بين العالمين، مناقضة ومحادة لما نزل من رب العالمين. انتهىٰ كلامه بمعناه.

فلا شك أن إفراد الله بالطاعة، وإفراده بالحكم، وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، كل ذلك يقتضي ألا يُحكم إلا بشرعه، فلهذا كان الحكم بالقوانين الوضعية، أو الحكم بسواليف البادية من الكفر الأكبر بالله -جل وعلا- لقوله تعالىٰ في هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾[النساء: ٦٠].

فمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة جلية، وهي أن التحاكم إلىٰ غير شرع الله قدح في أصل التوحيد، وأن الحكم بشرع الله واجب، وأن تحكيم القوانين أو سواليف البادية أو أمور الجاهلية منافٍ لشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ فإن من مقتضيات شهادة أن محمدًا رسول الله أن يطاع فيما أمر، وأن يصدق فيما أخبر، وأن يجتنب ما نهىٰ عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

فالحكم بين المتخاصمين لابُدَّ أن يرجع فيه إلىٰ حكم من خلق المتخاصمين، ومن خلق الأرض والسماوات، فالحكم الكوني القدري لله -جل وعلا- وكذلك الحكم الشرعي لله -جل وعلا- فيجب ألا يكون بين العباد إلا تحكيم أمر الله -جل وعلا- فإن ذلك هو حقيقة التوحيد في طاعة الله -جل وعلا- في مسائل التخاصم بين الخلق.

قوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾[النساء: ٦٠]»:

فقوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ يدل علىٰ أنهم كذبة، فلا يجتمع الإيمان مع إرادة الحكم والتحاكم إلىٰ الطاغوت.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ هذا ضابط مهم، وشرط في نفي أصل الإيمان عمن تحاكم إلىٰ الطاغوت، فإن من تحاكم إلىٰ الطاغوت قد يكون بإرادته -وهي الطواعية والاختيار والرغبة في ذلك وعدم الكراهة- وقد يكون بغير إرادته، بأن يكون مجبرًا علىٰ ذلك، وليس له في ذلك اختيار، وهو كاره لذلك، فالأول هو الذي ينتفي عنه الإيمان، إذ لا يجتمع الإيمان بالله وبما أنزل علىٰ النبي ﷺ، وما أنزل من قبله مع إرادة التحاكم إلىٰ الطاغوت، فالإرادة شرط؛ لأن الله -جل وعلا- جعلها في مساق الشرط، فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ و﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟﴾ هذا مصدر، يعني: يريدون التحاكم إلىٰ الطاغوت، والطاغوت: اسم لكل ما تجاوز به العبد حده من متبوع، أو معبود، أو مطاع، كما تقدم بيانه.

قوله: «﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾»:

يعني: أن يكفروا بالطاغوت، وأن يكفروا بكل تحاكم إلىٰ غير شرع الله -جل وعلا- فالأمر بالكفر بالتحاكم إلىٰ الطاغوت أمر واجب، ومن إفراد التوحيد، ومن إفراد تعظيم الله -جل وعلا- في ربوبيته، فمن تحاكم إلىٰ الطاغوت بإرادته، فقد انتفىٰ عنه الإيمان أصلًا كما دلت عليه الآية.

قوله: «﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾»:

دل ذلك علىٰ أن هذا من وحي الشيطان، ومن تسويله.

قوله: «وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾[البقرة: ١١]»:

الإفساد في الأرض: الإشراك بالله، وبتحكيم غير شرع الله، فالأرض إصلاحها بالشريعة والتوحيد، وإفسادها بالشرك بأنواعه الذي منه الشرك في الطاعة؛ ولهذا ساق الشيخ هذه الآية تحت هذا الباب، لأجل أن يبين لك أن صلاح الأرض بالتوحيد الذي منه إفراد الله -جل وعلا- بالطاعة، وألّا يحاكم إلا إلىٰ شرعه، وأنّ إفساد الأرض بالشرك الذي منه أن يُجعل حكم غير الله -جل وعلا- جائز التحاكم إليه.

وهذه الآية ظاهرة في أن من خصال المنافقين أنهم يسعون في الشرك وفي مسائله وأفراده، ويقولون: إنما نحن مصلحون وفي الحقيقة أنهم المفسدون ولكن لا يشعرون؛ لأنهم إذا أرادوا الشرك ورَغِبوا فيه وحاكموا وتحاكموا إلىٰ غير شرع الله فإن ذلك هو الفساد والسعي فيه سعي في الإفساد.

❁ **قوله**: «وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾[المائدة: ٥٠]»:

وحكم الجاهلية هو أن يحكم بعضهم علىٰ بعض، بأن يسن البشر شريعة فيجعلوها حَكَمًا، والله -جل وعلا- هو الذي خلق العباد، وهو أعلم بما يصلحهم، وما فيه العدل في الفصل بين الناس في أقضيتهم وخصوماتهم، فمن حاكم إلىٰ شرائع الجاهلية فقد حكّم البشر، ومعنىٰ ذلك أنه اتخذه مطاعًا من دون الله، أو جعله شريكًا لله -جل وعلا- في عبادة الطاعة، والواجب أن يجعل العبد حكمه وتحاكمه إلىٰ الله -جل وعلا- دون ما سواه، وأن يعتقد أن حكم الله -جل وعلا- هو أحسن الأحكام، ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[الأنعام: ١١٤]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، فدل علىٰ أن حكم غيره إنما هو -كما قال طائفة- زبالة أذهان ونحاتة أفكار لا تساوي شيئًا عند من عقل تصرف الله -جل وعلا- في ملكه وملكوته، وأن ليس ثَمَّ حكم إلا حكم الرب جل وعلا.

وهذه المسألة -أعني مسألة التحاكم إلىٰ غير شرع الله- من المسائل التي يقع فيها خلط كثير، خاصة عند الشباب في هذه البلاد وفي غيرها، وهي من أسباب تفرق المسلمين؛ لأن نظر الناس فيها لم يكن واحدًا، والواجب أن يتحرىٰ طالب العلم ما دلت عليه الأدلة وما بيّن العلماء من معاني تلك الأدلة وما فقهوه من أصول الشرع والتوحيد وما بينوه في تلك المسائل.

ومن أوجه الخلط في ذلك: أنهم جعلوا المسألة -مسألة الحكم والتحاكم- واحدة، يعني: جعلوها صورة واحدة، وهي متعددة الصور.

فمن صورها: أن يكون هناك تشريع لتقنين مستقل، يضاهىٰ به حكم الله -جل وعلا- وهذا التقنين من حيث وضعُه كفر، والواضع له، والمشرِّع والسانّ لذلك، وجاعل هذا التشريع منسوبًا إليه وهو الذي حكم بهذه الأحكام، هذا المشرِّع كافر، وكفره ظاهر؛ لأنه جعل نفسه طاغوتًا، فدعا الناس إلىٰ عبادته، عبادة الطاعة وهو راضٍ، وهناك من يحكم بهذا التقنين-وهذه الحالة الثانية- فالمشرِّع حالة، ومن يحكم بذلك التشريع حالة، ومن يتحاكم إليه حالة، ومن يجعله في بلده من جهة الدول هذه حالة رابعة.

فصارت عندنا الأحوال أربعًا:

المشرِّع، ومن أطاعه في جعله الحلال حرامًا والحرام حلالًا، ومناقضة شرع الله، هذا كافر. ومن أطاعه في ذلك فقد اتخذه ربًا من دون الله. والحاكم بذلك التشريع فيه تفصيل، فإن حكم مرة أو مرتين أو أكثر من ذلك ولم يكن ذلك ديدنًا له وهو يعلم أنه عاصٍ بتحكيم غير شرع الله، فهذا له حكم أمثاله من أهل الذنوب، ولا يكفَّر حتىٰ يستحلّ، ولهذا تجد أن بعض أهل العلم يقول: الحاكم بغير شرع الله لا يُكفّر إلا إذا استحلّ، وهذا صحيح، ولكن لا تنزّل هذه الحالة علىٰ حالة التقنين والتشريع، كما قال ابن عباس: «**ليس الكفر الذي تذهبون إليه، هو كفر دون كفر**». يعني: أن من حكم في مسألة أو في مسألتين بهواه بغير شرع الله وهو يعلم أنه عاصٍ ولم يستحل، هذا كفر دون كفر.

أما الحاكم الذي لا يحكم بشرع الله بتاتًا ويحكم دائمًا ويُلزم الناس بغير شرع الله، فهذا من أهل العلم من قال: يكفر مطلقًا ككفر الذي سنّ القانون؛ لأن الله -جل وعلا- قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فجعل الذي يحكم بغير شرع الله مطلقًا طاغوتًا، وقال: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾.

ومن أهل العلم من قال: حتىٰ هذا النوع لا يكفر حتىٰ يستحل؛ لأنه قد يعمل ذلك ويحكم وهو يعتقد في نفسه أنه عاصٍ، فله حكم أمثاله من المدمنين علىٰ المعصية الذين لم يتوبوا منها.

والقول الأول -وهو أن الذي يحكم دائمًا بغير شرع الله ويلزم الناس بغير شرع الله أنه كافر- هو الصحيح -عندي- وهو قول الجدّ الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته «**تحكيم القوانين**» لأنه لا يصدر في الواقع من قلب قد كفر بالطاغوت، بل لا يصدر إلا ممن عظّم القانون، وعظّم الحكم بالقانون.

الحالة الثالثة: حال المتحاكمين، يعني: الذي يذهب هو وخصمه ويتحاكمون إلىٰ قانون، فهذا فيه تفصيل -أيضًا- وهو إن كان يريد التحاكم إلىٰ الطاغوت، وله رغبة في ذلك، ويرىٰ أن الحكم بذلك سائغ ولا يكرهه، فهذا كافرٌ أيضًا؛ لأنه داخل في هذه الآية، ولا تجتمع -كما قال العلماء- إرادة التحاكم إلىٰ الطاغوت مع الإيمان بالله، بل هذا ينفي هذا، والله -جل وعلا- قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾.

وأما إن كان لا يريد التحاكم ولا يرضاه، وإنما أجبر علىٰ ذلك، كما يحصل في البلاد الأخرىٰ، من إلزامه بالحضور مع خصمه إلىٰ قانوني أو إلىٰ قاضٍ يحكم بالقانون، أو أنه علم أن الحق له في الشرع فرفع الأمر إلىٰ القاضي في القانون لعلمه أنه يوافق حكم الشرع فهذا الذي رفع أمره في الدعوىٰ علىٰ خصمه إلىٰ قاضٍ قانوني لعلمه أن الشرع يعطيه حقه وأن القانون وافق الشرع في ذلك فهذا الأصح أيضًا -عندي- جائز.

وبعض أهل العلم يقول: يتركه ولو كان الحق له، والله -جل وعلا- وصف المنافقين بقوله: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [النور: ٤٩] فالذي يرىٰ أن الحق ثبت له في الشرع وما أجاز لنفسه أن يترافع إلىٰ غير الشرع إلا لأنه يأتيه ما جعله الله -جل وعلا-له مشروعًا، فهذا لا يدخل في إرادة التحاكم إلىٰ الطاغوت فهو كاره ولكنه حاكَم إلىٰ الشرع فعلم أن الشرع يحكم له فجعل الحكم الذي عند القانوني وسيلة للوصول إلىٰ الحق الذي ثبت له شرعًا.

الحال الرابعة: حال الدولة التي تحكم بغير الشرع، تحكم بالقانون، فالدول التي تحكم بالقانون -أيضًا- فقد فصل الشيخ محمد بن إبراهيم الكلام في هذه المسألة في فتاويه، وخلاصة قوله: أن الكفر بالقانون فرض، وأن تحكيم القانون في الدول إن كان خفيًّا نادرًا فالأرض أرض الإسلام، يعني: أن الدولة دولة إسلام، فيكون له حكم أمثاله من الشركيات التي تكون في الأرض، قال: «**وإن كان ظاهرًا فاشيًا، فالدار دار كفر**» يعني: الدولة دولة كفر، فيصبح الحكم علىٰ الدولة راجعًا إلىٰ هذا التفصيل:

إن كان تحكيم القانون قليلًا وخفيًّا، فهذه لها حكم أمثالها من الدول الظالمة، أو التي لها ذنوب وعصيان ووجود بعض الشركيات في دولتها، وإن كان ظاهرًا فاشيًا -والظهور يضاده الخفاء، والفشو يضاده القلة- قال: «**فالدار دار كفر**».

وهذا التفصيل هو الصحيح؛ لأننا نعلم أنه صار في دول الإسلام تشريعات موافقة لشرع الله جل وعلا، والعلماء في الأزمنة الأولىٰ ما حكموا علىٰ الدار بأنها دار كفر ولا علىٰ تلك الدول بأنها دول كفرية إلا لأن الشرك له أثر في الدار، وإذ قلنا: الدار فنعني الدولة، فمتىٰ كان التحاكم إلىٰ الطاغوت ظاهرًا فاشيًا فالدولة دولة كفر، ومتىٰ كان قليلًا خفيًا أو كان قليلًا ظاهرًا وينكر، فالأرض أرض إسلام، والدار دار إسلام، والدولة دولة إسلام.

فهذا التفصيل يتضح به هذا المقام وبه تجمع بين كلام العلماء، ولا تجد مضادة بين قول عالم وعالم، ولا تشتبه المسألة إن شاء الله تعالىٰ.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية النساء، وما فيها من الإعانة علىٰ فهم الطاغوت، أي: قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وأما ما فيها من الإعانة علىٰ فهم الطاغوت فلأنه صدر الآية بـ ﴿يَزْعُمُونَ﴾، الذي يقال غالبًا علىٰ غير المحقق، وأخبر أنه من إرادة الشيطان، وأنه ضلال وأكده بالمصدر ووصفه بالبعد.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[البقرة:١١] الآية، أي: ومن الفساد في الأرض التحاكم إلىٰ غير الشرع.

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[الأعراف:٥٦]، أي: ومن الفساد فيها التحاكم إلىٰ الطاغوت.

الرابعة: تفسير: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة:٥٠]، أي: هذا إنكار من الله عز وجل علىٰ من طلب التحاكم إلىٰ غير الشرع.

الخامسة: ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولىٰ، أي: قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[النساء:٦٠]، الآية، أي: بسبب التحاكم إلىٰ الكاهن أو غيره.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب أي: الصادق ما كان هوىٰ صاحبه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، والكاذب بخلافه.

السابعة: قصة عمر مع المنافق، أي: إنه قتله لما لم يرض بالتحاكم إلىٰ رسول الله ﷺ.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، أي: كما دل عليه الحديث المذكور، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء:٦٥].

* الأسئلة *

س: اشرح هذه الآية، ثم بين سبب نزولها وما الذي يستفاد منه؟

جـ: يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ من يدعي الإيمان بما أُنزل علىٰ رسوله ﷺ وعلىٰ الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلىٰ غير كتاب الله وسنة رسوله من الطواغيت، وبين تعالىٰ في هذه الآية أن التحاكم إلىٰ الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه وأنه مما أضل به الشيطان من أضله وأكده بالمصدر ووصفه بالبعد فدل علىٰ أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدىٰ.

وسبب نزول الآية:

ما قاله الشعبي كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودي نتحاكم إلىٰ محمد لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة -وهي ما يعطيه أحد الخصمين للقاضي ليحكم له- وقال المنافق نتحاكم إلىٰ اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة فيتحاكما إليه فنزلت.

وقيل نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما نترافع إلىٰ النبي ﷺ وقال الآخر إلىٰ كعب بن الأشرف -اليهودي- ثم ترافعا إلىٰ عمر فذكر له أحدهما القصة فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ أكذلك قال نعم فضربه بالسيف فقتله. ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٩٢.

والآية أعم من ذلك فإنها ذامة لكل من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلىٰ ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت. وانظر تفسير بن كثير جزء ١ ص ٥١٩ لهذه الآية.

ويستفاد من قصة سبب النزول:

١ - أن من دعىٰ إلىٰ تحكيم الكتاب والسنة فأبىٰ أنه من المنافقين.

٢ - أن من أظهر الكفر والنفاق يقتل.

٣ - أن من يحكم بغير ما أنزل الله فإنما يحكم بالطاغوت.

٤ - تحريم أخذ الرشوة علىٰ الحكم.

٥ - أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارىٰ وأنه أشد عداوة منهم لأهل الإيمان.

قوله: «قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:١١]».

س: اشرح هذه الآية وما الذي تفيده، وبين مناسبتها للباب؟

جـ: يقول الله تعالىٰ إذا قيل للمنافقين لا تفسدوا في الأرض؛ يعني: لا تعصوا في الأرض؛ لأن من عصىٰ الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء.

وتفيد الآية: عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها والتحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم علىٰ صحته دليل من كتاب أو سنة.

ومناسبة الآية للباب: أن التحاكم إلىٰ غير كتاب الله وسنة رسوله من أعمال المنافقين ومن الإفساد في الأرض ومن الحكم بالطاغوت.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف:٥٦]».

س: اشرح هذه الآية وبين علاقتها بالباب؟

جـ: يقول الله تعالىٰ لا تفسدوا في الأرض بالمعاصي والدعاء إلىٰ غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل وإنزال الشريعة.

ومناسبة الآية للباب: أن التحاكم إلىٰ غير كتاب الله وسنة رسوله من أعظم ما يفسد في الأرض وأنه لا صلاح لها إلا بتحكيم الكتاب والسنة وهو سبيل المؤمنين.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٥٠]».

س: اشرح هذه الآية وما الذي تفيده وبين مناسبتها للباب؟

جـ: ينكر الله تعالىٰ علىٰ من خرج عن حكم الله المشتمل علىٰ كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلىٰ ما سواه من الآراء والأهواء والبدع والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات.

وتفيد الآية: التحذير من حكم الجاهلية واختياره علىٰ حكم الله ورسوله.

ومناسبة الآية للباب: أن من عدل عن الكتاب والسنة وفضل حكم الجاهلية عليها فقد حكم بالطاغوت.

قوله: «عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ قال لا يؤمن أحدكم ...».

س: اشرح هذا الحديث وبين مناسبته للباب وما هو الهوى؟

ج: يخبر الرسول ﷺ أن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب حتىٰ تكون محبته تابعة لما جاء به؛ فيحب ما أمر به ويعمل به ويكره ما نهي عنه ويجتنبه.

والهوىٰ: ما تهواه النفس وتحبه وتميل إليه.

ومناسبة الحديث للباب: أنه أبان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإرادتهم.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم



الدرس الأربعون:

باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الرعد:٣٠].

وفي «صحيح البخاري»: قال علي «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!»[٣٢٠].

وَرَوَىٰ عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: «أنه رأىٰ رجلًا انتفض لما سمع حديثًا عن النبيﷺ في الصفات، استنكارًا لذلك، فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه؟!»[٣٢١] انتهىٰ.

ولما سمعت قريش رسول اللهﷺ يذكر الرحمن، أنكروا ذلك، فأنزل الله [فيهم][٣٢٢]: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد:٣٠][٣٢٣].

فيه مسائل:

الأولىٰ: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

الثانية: تفسير آية الرعد.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعة: ذكر العلة: أنه يُفضي إلىٰ تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئًا من ذلك، وأنه أهلكه.



(٣٢٠) أخرجه البخاري تعليقًا، كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، برقم (١/ ٢٢٥- فتح)، عن علي ﷺ موقوفًا.

(٣٢١) أخرجه عبد الرزاق، برقم (٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في «السنة»(٤٨٥) ، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ٢١٣).

(٣٢٢) ساقطة من نسخة الفوزان.

(٣٢٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٨٥)من طريق ابن جريج مرسلًا.

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله:** «باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات»:

أي: هذا باب بيان حكم من جحد شيئًا من أسماء الله تعالىٰ وصفاته، وأنه يكفر بذلك، ولما كان التوحيد لا يحصل إلا بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته، نبه عليه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتقدم أن أنواع التوحيد الثلاثة متلازمة، فمن أقر بربوبية الله تعالىٰ وإلهيته وجحد أسماءه وصفاته أو شيئًا منها فقد كفر.

❁ **قوله:** «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾» الآية:

وسبب نزول الآية معلوم، ويأتي طرف منه، والمراد أن بعض كفار قريش يجحدون اسم الرحمن عنادًا، فأنزل الله هذه الآية، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]. فالرحمن: اسمه وصفته، ودل هذا الاسم علىٰ أن الرحمة وصفه القائم به سبحانه، وهي من صفات الكمال. ومطابقة الآية للترجمة ظاهرة؛ لأن الله سمىٰ جحود اسم من أسمائه كفرًا، فدل علىٰ أن جحود شيء من أسمائه وصفاته كفر، فمن جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة ونحوهم، فله نصيب من الكفر، بقدر ما جحده من الاسم أو الصفة، وإن أقر بجنسها لكن زعم أنها أعلام محضة، لا تدل علىٰ صفات قائمة به تعالىٰ، فجحود معنىٰ هذا الاسم ونحوه من الأسماء كجحود لفظه؛ فإن الجهمية يزعمون أنها لا تدل علىٰ صفة قائمة بالله تعالىٰ، وتبعهم علىٰ ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، فلهذا كفرهم كثير من أهل السنة. قال ابن القيم:

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي ... عَشْرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

فجحدوا ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل علىٰ أصل فاسد أصلوه من عند أنفسهم، ولم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه، ثم عطلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات، فشبهوا أولًا، وعطلوا ثانيًا، وشبهوا ثالثًا بكل ناقص أو معدوم، وتركوا ما دل عليه صريح الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة من إثبات ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله، علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]. وصنف أئمة السنة في الرد عليهم المصنفات الكثيرة المشهورة، كالإمام أحمد وطبقته، وشيخ الإسلام وطبقته،

وخلق لا يحصون من أهل السنة والجماعة. وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾؛ أي: قل يا محمد ردًّا عليهم في كفرهم بالرحمن: ﴿هُوَ﴾؛ أي: الرحمن عز وجل: ﴿رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود سواه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[الرعد:٣٠]؛ أي: إليه مرجعي وتوبتي.

قوله: «وفي صحيح البخاري قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله»:

أسنده البخاري. وفي لفظ: «**أتحبون أن يكذب الله ورسوله**». زاد ابن أبي إياس في كتاب العلم له عن عبد الله بن داود عن معروف: ودعوا ما ينكرون؛ أي: ما يشتبه عليهم فهمه، مما قد يؤدي إلىٰ رد الحق وعدم قبوله، ويفضي بهم إلىٰ التكذيب. وقال ابن مسعود: «**ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة**»[٣٢٤]. رواه مسلم. وكان معاوية ينهىٰ عن القصص؛ لما فيه من التساهل في النقل، ويقول: لا يقص إلا أمير أو مأمور. وهذا الأثر قاله علي رضي الله عنه حين كثر القصاص في خلافته، وصاروا يذكرون أحاديث لا تعرف من هذا القبيل، فربما استنكرها بعض الناس وردها، وقد يكون لبعضها أصل ومعنىٰ صحيح، فيقع بعض المفاسد لذلك. وضابطه: أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فأرشدهم أن لا يحدثوا عامة الناس إلا بما هو معروف، ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال والحرام الذي كلفوا به علمًا وعملًا، دون ما يشغل عن ذلك، أو يؤدي إلىٰ رد الحق وعدم قبوله، فيفضي إلىٰ التكذيب. وفي الأثر دليل علىٰ أنه إذا خشي ضررًا من تحديث الناس ببعض ما لا يعرفون فلا ينبغي، وليس علىٰ إطلاقه؛ فإن كثيرًا من الدين والسنن يجهله الناس، فإذا حدثوا به كذبوا بذلك وأعظموه، فلا يترك العالم تحديثهم، بل يعلمهم برفق ويدعوهم بالتي هي أحسن.

قوله: «وروىٰ عبد الرزاق عن معمر»:

معمر بفتحتين وسكون العين، ابن راشد، أبو عروة بن أبي عمرو الأزدي الحداني مولاهم البصري ثم اليماني، أحد الأعلام، شهد جنازة الحسن البصري، وروىٰ عن قتادة وثابت والزهري، وهو أحد أصحابه يروي عنه كثيرًا، وعنه يحيىٰ بن أبي كثير وابن عيينة وابن المبارك وطبقتهم، مات سنة ١٥٣هـ.

---

(٣٢٤) أخرجه مسلم في المقدمة، باب: النهي عن الحديث بكل ما سمع، برقم (٥)، عن ابن مسعود موقوفًا.

❁ **قوله: «عن ابن طاوس»:**

هو أبو محمد الأبناوي عبد الله بن طاوس اليماني الفقيه بن الفقيه، روىٰ عن أبيه وعطاء وعمرو بن شعيب وغيرهم، وعنه ابناه طاوس ومحمد، وعمرو بن دينار ومعمر وخلق، قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية، مات سنة ١٣١هـ. وأبوه طاوس بن كسيان الجندي الإمام العلم، مولىٰ بحير بن ريسان، وقيل: مولىٰ همدان، من أبناء الفرس، كان ينزل الجند، وقيل اسمه ذكوان، وطاوس لقبه. وقال ابن حبان: «أمه من فارس وأبوه من النمر بن قاسط».

قوله: «عن أبيه عن ابن عباس أنه رأىٰ رجلًا انتفض لما سمع حديثًا عن النبيﷺ في الصفات استنكارًا لذلك»؛ أي: اضطرب وارتعد من وقع ما ورد علىٰ قلبه، لما سمع الحديث في الصفات؛ لجهله بذلك، والاستنكار: استفهامك شيئًا تنكره، واستنكر الأمر جهله.

❁ **قوله: «ما فرق هؤلاء؟»:**

بفتح الفاء والراء وضم القاف مخففًا، و (ما) استفهامية؛ أي: ما خوف هؤلاء وفزعهم، يستفهم من أناس من أصحابه، يشير إلىٰ أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، إذا سمعوا شيئا من محكم القرآن حصل معهم فرق؛ أي: خوف، فإذا سمعوا شيئًا من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين للمعنىٰ، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه الله علىٰ عباده، والمراد: الإنكار عليهم؛ فإن الواجب علىٰ العبد التسليم والإذعان والإيمان بما صح عن الله ورسولهﷺ، وإن لم يحط به علمًا. ولهذا قال الشافعي: «آمنت بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنت برسول الله وما جاء عن رسول الله، علىٰ مراد رسول اللهﷺ». ولا يتم الإيمان إلا بقبول اللفظ بمعناه الذي دل عليه ظاهرًا، فإن لم يقبل معناه أورده، أو شك فيه لم يكن مؤمنًا به، فيكون هلاكًا. ويجوز فتح القاف مع تشديد الراء وتخفيفها؛ أي: ما فرق هذا وإضرابه بين الحق والباطل، ولا عرفوا ذلك.

❁ **قوله: «يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه»:**

أي: يجدون لينًا وقبولًا للمحكم، ويهلكون عندما يشتبه عليهم فهمه ومعرفته، والهلاك يقال لمن ارتكب أمرًا عظيمًا، فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن. وذكر ابن جرير وغيره عن جماعة من الصحابة وغيرهم، أن المحكم هو الناسخ الذي يعمل به، والمتشابه هو المنسوخ. وقيل: ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾ و ﴿الٓمٓر﴾، ولم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم بإدخال

أسماء الله تعالىٰ وصفاته أو شيء منها في المتشابه الذي استأثر الله بعلم معانيه، أو لا معنىٰ له، بل هي حق علىٰ حقيقتها، ولها معان حقيقة فهمها السلف علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته، وفسروها بما يخالف تأويل الجهمية وأضرابهم، وما قاله النفاة أنها من المتشابه دعوىٰ بلا برهان، وفي الأثر دليل علىٰ ذكر آيات الصفات وأحاديثها بحضرة عوام المؤمنين وخواصهم، وأن من رد شيئًا منها أو استنكره بعد صحته فهو ممن لم يفرق بين الحق والباطل، وينكر عليه استنكاره، وفيه دليل علىٰ أن من أنكر شيئًا من الصفات فهو من الهالكين؛ لأن الواجب الإيمان به، فهمه أو لم يفهمه.

❁ **قوله:** «**ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن؛ أنكروا ذلك...**»:

قال قتادة وغيره من السلف: لما صالح النبي ﷺ قريشًا كتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقالوا: أما الرحمن فلا نعرفه، وكان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهم. وقال مجاهد وغيره: قالوا: لا نكتب الرحمن، ولا ندري ما الرحمن؟ ولا نكتب إلا باسمك اللهم، فنزلت الآية. وعن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يدعو ساجدًا: «يا رحمن يا رحيم»، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا، وهو يدعو مثنىٰ مثنىٰ، فأنزل الله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الإسراء:١١٠] ذكر ذلك ابن جرير وغيره.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «**من جحد شيئًا من الأسماء والصفات**»:

أصل الإيمان وقاعدته التي ينبني عليها هو الإيمان بالله، وبأسمائه، وصفاته، وكلما قوي علم العبد بذلك وإيمانه به، وتعبد لله بذلك، قوي توحيده، فإذا علم أن الله متوحد بصفات الكمال؛ متفرد بالعظمة والجلال والجمال، ليس له في كماله مثيل، أوجب له ذلك أن يعرف ويتحقق أنه هو الإله الحق وأن إلهية ما سواه باطلة، فمن جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته فقد أتىٰ بما يناقض التوحيد وينافيه، وذلك من شعب الكفر.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «**من جحد شيئًا من الأسماء والصفات** »:

هذا الباب عقده المؤلف لبيان وجوب إثبات أسماء الله وصفاته علىٰ الوجه اللائق به سبحانه وتعالىٰ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل وألا يغتر بأقوال أهل الاعتزال وأهل الباطل، بل يجب الأخذ بما قاله أهل السنة والجماعة من الصحابة ومن سلك سبيلهم وهو الذي

جاءت به الرسل جاءوا بإثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق به، وهكذا فعل الصحابة وتابعوهم أمروا آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت وأثبتوا ما دلت عليه من الأسماء والصفات عملًا بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]؛ أي: لا سمي له ولا كفؤ له سبحانه وتعالى.

وأنكرت الجهمية الأسماء والصفات وتأولوا الأسماء حتى صاروا معطلة ومقتضى قولهم نفي وجود الله بالكلية ولهذا حكم عليهم أهل السنة بالكفر، والواجب قتلهم إن لم يتوبوا فيستتابوا لذلك لإنكارهم ما جاء في الكتاب العزيز والسنة المطهرة والإجماع.

وأطلق المؤلف الترجمة ولم يحكم على جاحد الأسماء والصفات، وحكمه الكفر.

❁ **قوله**: «قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾»:

بين الله تعالى أن الرحمن هو ربنا وإلهنا وإن كفر الكافرين بالرحمن كفر بالله فيجب على المؤمن أن يحذر من صفات هؤلاء الضالين، عليه أن يسلك مسلك أهل العلم والإيمان، وسمى إنكارهم الصفة: كفر بالرحمن فدل على كفر من أنكر الصفات.

❁ **قوله**: «وفي «صحيح البخاري» قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون ...»»:

لفظ البخاري: «أتحب أن يكذب الله ورسوله» فالمؤلف رواه بالمعنى.

والمعنى: أنه يجب على الواعظ والمذكر أن يذكر الناس بالألفاظ التي يعرفونها والأساليب التي يعقلونها حتى يستفيدوا وينتفعوا.لأن كل قوم لهم أساليب؛ لأنك إذا حدثت قومًا بما لا يفهمون قد يصدقونك على غير ما أردت.

وقد يفهمون غير ما قصدت.سواء في أسماء الله وصفاته أو أحكامه سواء باللغة العربية أو الإنجليزية أو الأردية أو غيرها، والعرب أنفسهم يختلفون في فهمهم فيحدث كل أناس بما يعرفون من العبارات التي اعتادوها حتى يفهموا ما قلت وحتى لا يكذب الله ورسوله.

وهؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله في لغات الصفات وقعوا في خطر عظيم؛ لأنهم تأولوا الصفات على غير تأويله وتكلموا فيها بغير ما ينبغي حتى عطلوا صفات الله.

وكثير منهم قد يكون فهم الأمر علىٰ غير ما هو عليه لعجمته، كما قال بعض السلف لعمرو ابن عبيد قال: إن العصاة مخلدون في النار؛ لأن الله أوعدهم بذلك، فقالوا له: إن الله يخلف إيعاده ولا يخلف موعده؛ لأن إخلاف الإيعاد كرم وجود وأما إخلاف الموعد فلؤم لهذا يتنزه الله عنه، وقالوا له: من عجمتك أوتيت؛ أي: ظننت إخلاف الإيعاد أمر مستقبح وليس كذلك كما قال الشاعر:

وأني وإن أوعدتـــــه أو واعدتـــــه لمخلــف إيعــادي ومنجــز موعــدي

فهذا مدح.

قوله:« وروىٰ عبد الرزاق بن معمر بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس أنه رأىٰ رجلًا...»: هذا سند عظيم.

«ما فرق هؤلاء»؛ أي: ما خوفهم وجزعهم؛ أي: ما أوجب لهم هذا الخوف والجزع؟

«ويجدون رقة»؛ أي: أنهم إذا سمعوا الآيات المحكمات من القرآن والسنة يجدون رقة وخشوعًا وإذا سمعوا آيات الصفات اشتبهت عليهم وهلكوا عندها بالجزع والإنكار وهذا يدل علىٰ أن هذا الشيء قديم وإنه وجد في زمن من الصحابة فيهلكون عند الآيات والأحاديث التي تشتبه عليهم بإنكارها والشك فيها والريب، فدل علىٰ أن إنكار ما بَيَّنَه الله لعباده أو الشك فيه هلاك.

والحق الإيمان بما أخبر الله به ورسوله فإن فهمته فالحمد لله وإلا فكله إلىٰ عالمه وقل: الله أعلم بمراده واسأل أهل العلم، وإياك والإنكار والجزع فإنه طريق المنافقين والهالكين، أما أهل السنة والجماعة فيؤمنون بكل ما جاء في الكتاب والسنة ويرقون له ويعملون به وإذا اشتبهت عليهم الآيات ردوها إلىٰ المحكمات والبينات وفسروها بما اتضح من حكم الله ولا يضربون كتاب الله وسنة رسوله بعضها ببعض ولا يشكون، ويعلمون أن المتشابه لا يخالف المحكم بل هو من جنس المحكم ويكلون ما جهلوا إلىٰ العالم بالكيفية وهو الله سبحانه.وأما معانيها فمعلومة من طريق اللغة العربية التي خاطب الله بها الناس، ولذا قال مالك حين سئل كيف استوىٰ؟ قال: الاستواء معلوم..والسؤال عنه بدعة؛ أي: عن الكيفية.

فبين أن معنىٰ الاستواء معلوم والكيفية مجهولة.

فائدة:

من قال أن الجنة والنار تفنيان فهو كافر فقد قال الله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[هود:١٠٨] ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾[الحجر:٤٨].

أما القول بفناء النار فقول باطل غلط، والصواب: عدم الفناء وهو ما عليه أهل السنة والجماعة.

فائدة:

أجمع المسلمون على أن الأرض ساكنة والشمس تجري، والذين يقولون بدوران الأرض حول الشمس يسعون إلى القول بأن الشمس ساكنة وهذا كفر ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا...﴾ [يس:٣٨].

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات» الجحد: الإنكار، والإنكار نوعان»:

الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحدًا أنكر اسمًا من أسماء الله أوصفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة، مثل أن يقول: ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه، أو ليس له عين؛ فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.

الثاني: إنكار تأويل، وهو أن لا ينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها، وهذا نوعان:

١- أن يكون للتأويل مُسَوِّغ في اللغة العربية؛ فهذا لا يُوجب الكفر.

٢- أن لا يكون له مُسَوِّغ في اللغة العربية؛ فهذا حكمه الكفر؛ لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيبًا، مثل أن يقول: المراد بقوله تعالى ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[القمر:١٤] تجري بأراضينا؛ فهذا كافر؛ لأنه نفاها نفيًا مطلقًا، فهو مُكذِّب.

ولو قال في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]؛ المراد بيديه: السماوات والأرض؛ فهو كفر أيضًا؛ لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية؛ فهو مُنكر ومكذب، لكن إن قال: المراد باليد النعمة أو القوة فلا يكفر؛ لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة، قال الشاعر:

وَكَم لِظَلام الليل عندك من يَد ... تُحَدِّثُ أَنَّ المانَوِيَّةَ تَكذِبُ

فقوله: من يد؛ أي: من نعمة؛ لأن المانوية يقولون: إن الظلمة لا تخلق الخير، وإنما تخلق الشر.

قوله: «من الأسماء»: جمع اسم، واختلف في اشتقاقه؛ فقيل: من السمو، وهو الارتفاع، ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر.

وقيل: من السِّمة وهي: العلامة، ووجهه: أنه علامة على مسماه، والراجح أنه مشتق من كليهما.

والمراد بالأسماء هنا: أسماء الله ﷻ، وبالصفات صفات الله ﷻ، والفرق بين الاسم والصفة أن الاسم ما تسمى به الله والصفة ما اتصف بها.

البحث في أسماء الله:

المبحث الأول:

أن أسماء الله أعلام وأوصاف، وليست أعلامًا محضة؛ فهي من حيث دلالتها على ذات الله تعالى أعلام، ومن حيث دلالتها على الصفة التي يتضمنها هذا الاسم أوصاف، بخلاف أسمائنا؛ فالإنسان يسمي ابنه محمدًا وعليًّا دون أن يلحظ معنى الصفة، فقد يكون اسمه عليًّا وهو من أوضع الناس، أو عبد الله وهو من أكفر الناس، بخلاف أسماء الله؛ لأنها متضمنة للمعاني، فالله هو العلي لعلو ذاته وصفاته، والعزيز يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا.

ودلالة الاسم على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: دلالة مطابقة، وهي دلالته على جميع معناه المحيط به.

الثاني: دلالة تَضَمُّن، وهي دلالته على جزء معناه.

الثالث: دلالة التزام على أمر خارج لازم.

مثال ذلك: الخالق يدل على ذات الله وحده، وعلى صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفة الخلق فيه دلاله مطابقة، ويدل على العلم والقدرة دلالة التزام.

كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[الطلاق:١٢]؛ فَعَلْمْنَا القدرة من كونه خلق السماوات والأرض، وعَلّمنَا العلم من ذلك أيضًا؛ لأن الخلق لابد فيه من علم، فمن لا يعلم لا يخلق، وكيف يخلق شيئًا لا يعلمه؟!

المبحث الثاني:

أن أسماء الله مترادفة متباينة، **المترادف:** ما أختلف لفظه واتفق معناه، **والمتباين:** ما اختلف لفظه ومعناه؛ فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله ﷻ؛ لأنها تدل على مسمى واحد، فالسميع، البصير، العزيز، الحكيم؛ كلها تدل على شيء واحد هو الله، ومتباينة باعتبار معانيها؛ لأن معنى الحكيم غير معنى السميع وغير معنى البصير، وهكذا.

المبحث الثالث:

أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور: «**اللهم! إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك.**.. إلى أن قال: **أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في**

علم الغيب عندك»[٣٢٥] وما أستأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يُعلَم به، وما ليس بمعلوم فليس بمحصور.

وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة »[٣٢٦]: فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه: أن مَن أحصىٰ من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقوله: «من أحصاها » تكميل للجمله الأولىٰ، وليست استئنافية منفصلة، ونظير هذا قول القائل: عندي مائة فرس أعدتها للجهاد في سبيل الله؛ فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المائة بل معناه: أن هذه المائة مُعدَّة لهذا الشيء.

المبحث الرابع:

الاسم من أسماء الله يدل علىٰ الذات وعلىٰ المعنىٰ كما سبق؛ فيجب علينا أن نؤمن به اسمًا من الأسماء، ونؤمن بما تَضمَّنه من الصفة، ونؤمن بما تَدُلّ عليه هذه الصفة من الأثر والحكم إن كان الاسم معتديًا؛ فمثلًا: السميع، نؤمن بأن من أسمائه تعالىٰ: السميع، وأنه دال علىٰ صفة السمع، وأن لهذا السمع حُكمًا وأثرًا وهو أنه يسمع به؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١]، أما إن كان الاسم غير متعد؛ كالعظيم، والحي، والجليل؛ فتثبت الاسم والصفة، ولا حكم له يتعدىٰ إليه.

المبحث الخامس:

هل أسماء الله تعالىٰ غيره، أو أسماء الله هي الله؟

إن أُريد بالاسم اللفظ الدال علىٰ المسمىٰ؛ فهي غير الله ﷻ، وإن أُريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ؛ فهي المسمىٰ.

فمثلًا: الذي خلق السماوات والأرض هو الله؛ فالاسم هنا هو المُسَمَّىٰ، فليست «اللام، والهاء » هي التي خلقت السماوات والأرض، وإذا قيل: اكتب باسم الله.فكتبت بسم الله، فالمراد

---

(٣٢٥) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٢)، وابن حبان، برقم (٩٧٢)، وأبو يعلىٰ، برقم (٥٢٩٧) وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحح الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٩٩).

(٣٢٦) أخرجه البخاري، كتاب: الشروط، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في القرار والشروط التي يتعارفها الناس بينهم وإذا قال مئة إلا واحدة أو ثنتين، برقم (٢٧٣٦)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: في أسماء الله تعالىٰ وفضل من أحصاها، برقم (٢٦٧٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

به: الاسم دون المسمىٰ، وإذا قيل: اضرب زيدًا.فضربت زيدًا المكتوب في الورقة لم تكن ممتثلًا؛ لأن المقصود المسمىٰ، وإذا قيل: اكتب زيد قائم، فالمراد: الاسم الذي هو غير المسمىٰ.

البحث في صفات الله:

المبحث الأول:

تنقسم صفات الله إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: ذاتية، ويقال معنوية.

الثاني: فعلية.

الثالث: خبرية.

فالصفات الذاتية: هي الملازمة لذات الله، والتي لم يزل ولا يزال متصفًا بها، مثل: السمع والبصر وهي معنوية؛ لأن هذه الصفات معانٍ.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها، مثل: النزول إلىٰ السماء الدنيا، والاستواء علىٰ العرش، والكلام من حيث آحاده، والخلق من حيث آحاده، لا من حيث الأصل؛ فأصل الكلام صفة ذاتية، وكذلك الخلق.

والخبرية: هي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله؛ فلا يقال هكذا، بل يقال: صفات خبرية ثبت بها الخبر من الكتاب والسنة، وهي ليست معنىً ولا فعلًا، مثل: الوجه، والعين، والساق، واليد.

المبحث الثاني:

الصفات أوسع من الأسماء؛ لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تكون اسمًا، وهناك صفات كثيرة تطلق علىٰ الله وليست من أسمائه؛ فيوصف الله بالكلام والإرادة، ولا يسمي بالمتكلم أو المريد.

المبحث الثالث:

إن كل ما وصف الله به نفسه؛ فهو حق علىٰ حقيقته، لكن ينزه عن التمثيل والتكييف، أما التمثيل؛ فلقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ:١١]، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٧٤]، والتعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه؛ لوجوه ثلاثة:

أحدها: أن التمثيل هو الذي جاء به القرآن وهو منفي مطلقًا، بخلاف التشبيه؛ فلم يأت القرآن بنفيه.

الثاني: أن نفي التشبيه علىٰ الإطلاق لا يصح؛ لأن كل مَوجودَيْن فلا بد أن يكون بينهما قَدر مشترك يشتبهان فيه ويتميز كل واحد بما يختص به، فـ: «الحياة» مثلًا وصف ثابت في الخالق والمخلوق، فبينهما قدر مشترك، ولكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق تليق به.

الثالث: أن الناس اختلفوا في مسمىٰ التشبيه، حتىٰ جعل بعضهم إثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسه تشبيهًا، فإذا قلنا من غير تشبيه؛ فَهِمَ هذا البعض من هذا القول نفي الصفات التي أثبتها الله لنفسه.

وأما التكييف؛ فلا يجوز أن نُكيِّف صفات الله، فمن كيَّف صفة من الصفات، فهو كاذب عاص. كاذب؛ لأنه قال بما لا علم عنده فيه، عاص؛ لأنه واقع فيما نهىٰ الله عنه وحَرَّمه في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ..﴾ الآية [الأعراف:٣٣]؛ ولأنه لا يمكن إدراك الكيفية؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠] وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣].

وسواء كان التكييف باللسان تعبيرًا أو بالجنان تقديرًا أو بالبيان تحريرًا، ولهذا قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين سئل عن كيفية الاستواء: «الكيف مجهول، والسؤال عنه بدعه»، وليس معنىٰ هذا أن لا نعتقد أن لها كيفية، بل لها كيفية، ولكنها ليست معلومة لنا؛ لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود؛ فالاستواء والنزول واليد والوجه والعين لها كيفية، لكننا لا نعلمها؛ ففرق بين أن نثبت كيفية معينه ولو تقديرًا وبين أن نؤمن بأن لها كيفية غير معلومة، وهذا هو الواجب، فنقول: لها كيفية، لكن غير معلومة.

فإن قيل: كيف يُتَصَوَّر أن نعتقد للشيء كيفية ونحن لا نعلمها؟

أجيب: إنه متصور، فالواحد منا يعتقد أن لهذا القصر كيفية من داخله، ولكن لا يعلم هذه الكيفية إلا إذا شاهدها، أو شاهد نظيرها، أو أخبره شخص صادق عنها.

❁ **قوله: « قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية»:**

﴿وَهُمْ﴾.أي: كفار قريش. ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾. المراد: أنهم يكفرون بهذا الاسم لا بالمسمىٰ، فهم يُقرُّون به، قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، وفي حديث سهيل بن عمرو: «**لما أراد النبي ﷺ أن يكتب الصلح في غزوة الحديبية قال للكاتب: اكتب**

بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب باسمك اللهم»(٣٢٧)، وهذا من الأمثلة التي يراد بها الاسم دون المسمىٰ.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الإسراء:١١٠]؛ أي: بأي اسم من أسمائه تدعونه، فإن له الأسماء الحسنىٰ، فكل أسمائه حسنىٰ، فادعوا بما شئتم من الأسماء، ويراد بهذه الآية الإنكار علىٰ قريش.

وفي الآية دليل علىٰ أن من أنكر اسمًا من أسمائه تعالىٰ فإنه يكفر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد:٣٠]؛ ولأنه مكذب لله ولرسوله، وهذا كفر، وهذا وجه استشهاد المؤلف بهذه الآية.

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: خبر «لا» النافية للجنس محذوف، والتقدير: لا إله حق إلا هو، وأما الإله الباطل فكثير، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾[لقمان:٣٠].

قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: عليه وحده؛ لأن تقديم المعمول يدل علىٰ الحصر، فإذا قلت مثلًا: «ضربت زيداً» فإنه يدل علىٰ أنك ضربته، ولكن لا يدل علىٰ أنك لم تضرب غيره، وإذا قلت: «زيدًا ضربت» دلت علىٰ أنك ضربت زيدًا ولم تضرب غيره، وسبق معنىٰ التوكل وأحكامه.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾؛ أي: إلىٰ الله. و ﴿مَتَابِ﴾ أصلها متابي، فحذفت الياء تخفيفًا، والمتاب؛ بمعنىٰ: التوبة، فهو مصدر ميمي؛ أي: وإليه توبتي.

والتوبة: هي الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ من المعصية إلىٰ الطاعة، **ولها شروط خمسة**:

١- الإخلاص لله تعالىٰ بأن لا يحمل الإنسان علىٰ التوبة مراعاة أحد أو محاباته أو شيء من الدنيا.

٢- أن تكون في وقت قبول التوبة، وذلك قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت.

٣- الندم علىٰ ما مضىٰ من فعله، وذلك بأن يشعر بالتحسر علىٰ ما سبق ويتمنىٰ أنه لم يكن.

٤- الإقلاع عن الذنب، وعلىٰ هذا، فإذا كانت التوبة من مظالم الخلق، فلابد من رد المظالم إلىٰ أهلها أو استحلالهم منها.

٥- العزم علىٰ عدم العودة، والتوبة التي لا تكون إلا لله هي توبة العبادة، كما في الآية السابقة، وأما التوبة التي بمعنىٰ الرجوع، فإنها تكون له ولغيره، ومنه قول عائشة حين جاء النبي ﷺ فوجد نمرقة فيها

---

(٣٢٧) أخرجه البخاري، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) وغيره من حديث المسور بن مخرمة، ومروان رضي الله عنهما.

صور، فوقف بالباب ولم يدخل، وقالت: «أتوب إلىٰ الله ورسوله ﷺ ماذا أذنبت»[٣٢٨] فليس المراد بالتوبة هنا توبة العبادة؛ لأن توبة العبادة لا تكون للرسول ولا لغيره من الخلق بل لله وحده، ولكن هذه توبة رجوع، ومن ذلك أيضًا حين يضرب الإنسان ابنه لسوء أدبه، يقول الابن: أتوب.

۞ **قوله**: «في أثر علي رضي الله عنه: حدثوا الناس»:

أي: كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ.

قوله: «**بما يعرفون**»؛ أي: بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقولهم حتىٰ لا يفتنوا؛ ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «إنك لن تحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[٣٢٩].

ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لا يمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويدًا رويدًا حتىٰ تستقر عقولهم، وليس معنىٰ «بما يعرفون»؛ أي: بما يعرفونه من قبل؛ لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل.

قوله: «**أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!**»: الاستفهام للإنكار؛ أي: أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يكذب الله ورسوله؛ لأنك إذا قلت: قال الله وقال رسوله كذا وكذا، قالوا: هذا كذب إذا كانت عقولهم لا تبلغه، وهم لا يكذبون الله ورسوله، ولكن يكذبونك بحديث تنسبه إلىٰ الله ورسوله، فيكونون مكذبين لله ورسوله، لا مباشرة ولكن بواسطة الناقل.

فإن قيل: هل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس وإن كانوا محتاجين لذلك؟

أجيب: لا ندعه، ولكن نحدثهم بطريق تبلغه عقولهم، وذلك بأن ننقلهم رويدًا رويدًا حتىٰ يتقبلوا هذا الحديث ويطمئنوا إليه، ولا ندع ما لا تبلغه عقولهم ونقول: هذا شيء مستنكر لا نتكلم به.

ومثل ذلك العمل بالسنة التي لا يعتادها الناس ويستنكرونها، فإننا نعمل بها ولكن بعد أن نخبرهم بها، حتىٰ تقبلها نفوسهم ويطمئنوا إليها.

ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة في الدعوة إلىٰ الله عز وجل، وأنه يجب علىٰ الداعية أن ينظر في عقول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته.

---

(٣٢٨) سبق تخريجه.

(٣٢٩) أخرجه مسلم (١/ ١٠)، في المقدمة، باب: النهي عن الحديث بكل ما سمع، برقم (٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

مناسبة هذا الأثر لباب الصفات:

مناسبته ظاهرة؛ لأن بعض الصفات لا تحتملها أفهام العامة فيمكن إذا حدثتهم بها كان لذلك أثر سيء عليهم، كحديث النزول إلى السماء الدنيا (٣٣٠) مع ثبوت العلو، فلو حَدّثت العاميَّ بأنه نفسه ينزل إلى السماء الدنيا مع علوه على عرشه، فقد يفهم أنه إذا نزل؛ صارت السماوات فوقه وصار العرش خاليًا منه، وحينئذ لابد في هذا من حديث تبلغه عقولهم فَتُبين لهم أن اللهﷻ ينزل نزولًا لا يماثل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، وأنه لكمال فضله ورحمته يقول: «**من يدعوني فأستجيب له..** » الحديث.

والعامي يكفيه أن يتصور مطلق المعنىٰ، وأن المراد بذلك بيان فضل اللهﷻ في هذه الساعة من الليل.

قوله: «**في أثر ابن عباس: انتفض**»:

أي: اهتز جسمه، والرجل مبهم، والصفة التي حُدث بها لم تبين، وبيان ذلك ليس مهمًّا، وهذا الرجل انتفض استنكارًا لهذه الصفة لا تعظيمًا لله، وهذا أمر عظيم صعب؛ لأن الواجب علىٰ المرء إذا صح عنده شيء عن الله ورسوله أن يقر به ويصدق ليكون طريقه طريق الراسخين في العلم حتىٰ وإن لم يسمعه من قبل أو يتصوره.

قوله: «**ما فرق**». فيها ثلاث روايات:

١- «فرَقُ»، بفتح الراء، وضم القاف.

٢- «فرَّق»، بفتح الراء مشددة وفتح القاف.

٣- «فرَقَ»، بفتح الراء مخففة، وفتح القاف.

فعلىٰ رواية «فرق» تكون «ما» استفهامية مبتدأ، و «فرق»: خبر المبتدأ؛ أي: ما خوف هؤلاء من إثبات الصفة التي تليت عليهم وبلغتهم، لماذا لا يثبتونها للهﷻ كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله؟ وهذا ينصب تمامًا علىٰ أهل التعطيل والتحريف الذين ينكرون الصفات، فما الذي يخوفهم من إثباتها والله تعالىٰ قد أثبتها لنفسه؟

---

(٣٣٠) أخرجه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: الدعاء نصف الليل، برقم (٦٣٢١)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، برقم (٧٥٨) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

وعلى رواية «فرّق» أو «فَرَقَ» تكون فعلًا ماضيًا بمعنى ما فرقهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾[الإسراء:١٠٦]؛ أي: فرقناه.و «ما» يحتمل أن تكون نافية، والمعنى: ما فرق هؤلاء بين الحق والباطل، فجعلوا هذا من المتشابه وأنكروه ولم يحملوه على المحكم، ويحتمل أن تكون استفهامية والمعنى: أي شيء فرقهم فجعلهم يؤمنون بالمحكم ويهلكون عند المتشابه؟

قوله: «**يجدون رقة عند محكمه**»؛ الرقة: اللين والقبول، و «**محكمه**»؛ أي: محكم القرآن.

قوله: «**ويهلكون عند متشابهه**»؛ أي: متشابه القرآن.

والمحكم الذي اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفى معناه، فلا يعلمه الناس، وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا ذكر المحكم مفردًا دون المتشابه، فمعناه المتقن الذي ليس فيه خلل: لا كذب في أخباره، ولا جور في أحكامه، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥]، وقد ذكر الله الإحكام في القرآن دون المتشابه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾[يونس:١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[هود:١].

وإذا ذكر المتشابه دون المحكم صار المعنى أنه يشبه بعضه بعضًا في جودته وكماله، ويصدق بعضه بعضًا ولا يتناقض، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾[الزمر:٢٣]، والتشابه نوعان: تشابه نسبي، وتشابه مطلق.

والفرق بينهما: أن المطلق يخفى على كل أحد، والنسبي يخفى على أحد دون أحد، وبناء على هذا التقسيم ينبني الوقف في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران:٧] فعلى الوقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يكون المراد بالمتشابه: المتشابه المطلق، وعلى الوصل ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ يكون المراد بالمتشابه: المتشابه النسبي، وللسلف في ذلك قولان:

القول الأول: الوقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وعليه أكثر السلف، وعلى هذا، فالمراد بالمتشابه المتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، وذلك مثل كيفية وحقائق صفات الله، وحقائق ما أخبر الله به من نعيم الجنة وعذاب النار، قال الله تعالى في نعيم الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة:١٧]؛ أي: لا تعلم حقائق ذلك؛ ولذلك قال ابن عباس: «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء»(٣٣١).

---

(٣٣١) أورده المتقي الهندي في «كنز العمال»، برقم (٣٩٢٣٧)، وعزاه للضياء عن ابن عباس، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (٢١٨٨)، وفي «صحيح الترغيب»، برقم (٣٧٦٩)، وفي «صحيح الجامع»، برقم (٥٤١٠).

والقول الثاني: الوصل، فيقرأ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾، وعلىٰ هذا، فالمراد بالمتشابه المتشابه النسبي، وهذا يعلمه الراسخون في العلم ويكون عند غيرهم متشابهًا، ولهذا يروىٰ عن ابن عباس، أنه قال: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله»(٣٣٢) ولم يقل هذا مدحًا لنفسه أو ثناء عليها، ولكن ليعلم الناس أنه ليس في كتاب الله شيء لا يعرف معناه، فالقرآن معانيه كلها بينة، لكن بعض القرآن يشتبه علىٰ ناس دون آخرين حتىٰ العلماء الراسخون في العلم يختلفون في معنىٰ القرآن، وهذا يدل علىٰ أنه خفي علىٰ بعضهم، والصواب بلا شك مع أحدهم إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحتمل المعنيين جميعًا بلا منافاة ولا مرجح لأحدهما، فإنها تحمل عليهما جميعًا.

وبعض أهل العلم يظنون أن في القرآن ما لا يمكن الوصول إلىٰ معناه، فيكون من المتشابه المطلق، ويحملون آيات الصفات علىٰ ذلك، وهذا من الخطأ العظيم، إذ ليس من المعقول أن يقول تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩] ثم تستثني آيات الصفات وهي أعظم وأشرف موضوعًا وأكثر من آيات الأحكام، ولو قلنا بهذا القول، لكان مقتضاه أن أشرف ما في القرآن موضوعًا يكون خفيًّا، ويكون معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: آيات الأحكام فقط، وهذا غير معقول، بل جميع القرآن يفهم معناه، إذ لا يمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله ﷺ إلىٰ آخرها لا تفهم معنىٰ القرآن، وعلىٰ رأيهم يكون الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجميع الصحابة يقرءون آيات الصفات وهم لا يفهمون معناها، بل هي عندهم بمنزلة الحروف الهجائية أ، ب، ت.. والصواب أنه ليس في القرآن شيء متشابه علىٰ جميع الناس من حيث المعنىٰ، ولكن الخطأ في الفهم.

فقد يقصر الفهم عن إدراك المعنىٰ أو يفهمه علىٰ معنىٰ خطأ، وأما بالنسبة للحقائق، فما أخبر الله به من أمر الغيب، فمتشابه علىٰ جميع الناس.

قوله: «ولما سمعت قريش رسول الله يذكر الرحمن»:

أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية وأمر النبي ﷺ أن يكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال: أما الرحمن، فلا والله ما أدري ما هي: وقالوا: إننا لا نعرف رحمانًا إلا رحمن اليمامة. فأنكروا الاسم دون المسمىٰ، فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: بهذا الاسم من أسماء الله.

---

(٣٣٢) أخرجه ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤٦٠)، والبغوي في «تفسيره» تفسير سورة آل عمران، آية (٧).

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسمًا من أسماء الله الثابتة في الكتاب أو السنة، فهو كافر لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾.

وقوله: «**ولما سمعت قريش**»: الظاهر -والله أعلم- أنه من باب العام الذي أريد به الخاص، وليس كل قريش تنكر ذلك، بل طائفة منهم، ولكن إذا أقرت الأمة الطائفة على ذلك ولم تنكر، صح أن ينسب لهم جميعًا، بل إن الله نسب إلى اليهود في زمن النبي ﷺ ما فعله أسلافهم في زمن موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾[البقرة:٦٣]، وهذا لم يكن في عهد المخاطبين.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات: عدم؛ بمعنى: انتفاء؛ أي: انتفاء الإيمان بسبب جحد شيء من الأسماء والصفات، وسبق التفصيل في ذلك.

الثانية: تفسير آية الرعد. وهي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد:٣٠]. وسبق تفسيرها.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع. وهذا ليس على إطلاقه، وقد سبق التفصيل فيه عند شرح الأثر.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر.

وهي أن الذي لا يبلغ عقله ما حدث به يفضي به التحديث إلى تكذيب الله ورسوله، فيكذب ويقول: هذا غير ممكن، وهذا يوجد من بعض الناس في أشياء كثيرة مما أخبر به النبي ﷺ مما يكون يوم القيامة، كما أخبر النبي ﷺ: «**إن الأرض يوم القيامة تكون خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته**»(٣٣٣)، وما أشبه ذلك، وكما أن الصراط أحد من السيف وأدق من الشعرة وغير هذه الأمور، لو حدثنا بها إنسانًا عاميًّا لأوشك أن ينكر، لكن يجب أن تبين له بالتدريج حتى يتمكن من عقلها مثل ما نعلم الصبي شيئًا فشيئًا.

وقوله: «**ولو لم يتعمد المنكر**»؛ أي: ولو لم يقصد المنكِر تكذيب الله ورسوله، ولكن كذب نسبة هذا الشيء إلى الله ورسوله، وهذا يعود بالتالي إلى رد خبر الله ورسوله.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئًا من ذلك وأنه أهلكه: وذلك قوله: «ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة؛ أي: لينًا عند محكمه فيقبلونه، ويهلكون عند متشابهه فينكرونه؟ ».

---

(٣٣٣) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: يقبض الله الأرض، برقم (٦٥٢٠)، ومسلم، كتاب: صفة المنافقين وأحكامهم، باب: نزل أهل الجنة، برقم (٢٧٩٢) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾:

تمام الآية: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان التوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وكان الإيمان بالله لا يحصل إلا بتحقق هذه الثلاثة؛ نبه المصنف بهذا الباب على هذا النوع؛ ليبين حكم من جحده.

قوله: «باب من جحد... إلخ»:

أي: أنه يكفر بذلك.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: كفار قريش.

﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: يجحدون هذا الاسم، مع إيمانهم بالله، فالرحمن اسم من أسماء الله، والرحمة صفة من صفاته.

﴿قُلْ﴾: يا محمد! ردًّا عليهم في كفرهم بالرحمن.

﴿هُوَ رَبِّي﴾؛ أي: الرحمن ﷻ ربي وإن كفرتم به.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق سواه.

﴿عَلَيْهِ﴾: لا على غيره.

﴿تَوَكَّلْتُ﴾: فوضت أموري كلها إليه واعتمدت عليه.

﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾: مرجعي وتوبتي.

المعنى الإجمالي للآية:

أن الله سبحانه وتعالى ينكر على مشركي قريش جحودهم لاسمه الرحمن، ويأمر رسوله محمدًا ﷺ أن يردَّ عليهم هذا الجحود ويعلن إيمانه بربه وأسمائه وصفاته، وأنه سبحانه هو الذي يستحق العبادة وحده، ويتوكل عليه ويرجع إليه في جميع الأمور ويتاب إليه من الذنوب.

مناسبة الآية للباب:

أن جحود شيء من أسماء الله وصفاته كفر.

ما يستفاد من الآية:

١- أنَّ جحود شيء من الأسماء والصفات كفر.

٢- وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته.

٣- وجوب التوكل على الله والتوبة إليه.

٤- وجوب إخلاص العبادة لله.

قوله: «صحيح البخاري»:

أي: الكتاب الذي جمع فيه البخاري الأحاديث الصحيحة. والبخاري هو الإمام محمد بن إسماعيل البخاري نسبة إلى بخارى بلدة في المشرق، وكتابه أصح كتاب بعد كتاب الله.

المعنى الإجمالي للأثر:

يرشد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى أنه لا ينبغي أن يحدث عامة الناس إلاَّ بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه من التوحيد وبيان الحلال والحرام ويترك ما يشغل عن ذلك؛ مما لا حاجة إليه أو كان مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله مما يشتبه عليهم فهمه، ويصعب عليهم إدراكه؛ وقد قال ذلك حينما كثر القصاص؛ أي: الوعاظ في خلافته.

مناسبة الأثر للباب:

يأتي بيانها بعد ذكر الأثر الذي بعده.

ما يستفاد من الأثر:

أنَّه إذا خُشي ضرر من تحديث الناس ببعض ما لايفهمون؛ فلا ينبغي تحديثهم بذلك وإن كان حقًّا.

قوله: «وروى عبد الرزاق...»:

«التراجم»:

١- عبد الرزاق: هو عبد الرزاق بن همام الصنعاني الإمام الحافظ صاحب المصنفات مات سنة ٢١١هـ رحمه الله.

٢- معمر: هو أبو عروة معمر بن راشد الأزدي البصري ثقة ثبت مات سنة ١٥٤هـ رحمه الله.

٣- ابن طاوس هو: عبد الله بن طاوس اليماني ثقة فاضل عابد مات سنة ١٣٢هـ رحمه الله.

«انتفض»؛ أي: ارتعد.

«فقال»؛ أي: ابن عباس.

«ما»: استفهامية.

«فرق»: بفتح الفاء والراء؛ أي: خوف.

«هؤلاء»: يشير إلىٰ أناسٍ يحضرون مجلسه من عامة الناس.

«رقة»: لينًا وقبولًا.

«محكمه»: ما وضح معناه فلم يلتبس علىٰ أحدٍ.

«متشابهه»: ما اشتبه عليهم فهمه.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

ينكر ابن عباس رضي الله عنهما علىٰ أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس يحصل منهم خوف عندما يسمعون شيئًا من أحاديث الصفات ويرتعدون استنكارًا لذلك، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب بما صح عن رسول الله ﷺ عرفوا معناه أو لم يعرفوه، فتركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن، وبعضهم يحمله علىٰ غير معناه الذي أراده الله فيهلك بذلك.

مناسبة الأثر للباب:

بعدما ذكر المؤلف أثر علي رضي الله عنه الذي يدل علىٰ أنه لا ينبغي تحديث الناس بما لا يعرفون، ذكر هذا الأثر الذي يدل علىٰ أنَّ نصوص الصفات ليست ممَّا ينهىٰ عن التحديث به؛ بل ينبغي ذكرها وإعلانها؛ فليس استنكار بعض الناس لها بمانع من ذكرها، فما زال العلماء قديمًا وحديثًا يقرءون آيات الصفات وأحاديثها بحضرة العوامِّ والخواصِّ.

ما يستفاد من الأثر:

١- أنَّه لا مانع من ذكر آيات الصفات وأحاديثها بحضرة عوام الناس وخواصِّهم من باب التعليم.

٢- أنَّ من ردَّ شيئًا من نصوص الصفات أو استنكره بعد صحته فهو من الهالكين.

٣- الإنكار علىٰ من استنكر شيئًا من نصوص الصفات.

❁ قوله: «ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن...»:

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

يذكر الرحمن؛ يعني: حين كتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» في صلح الحديبية فقالوا: أمَّا

الرحمن، فلا نعرفه، ولا ندري ما الرحمن، ولا نكتب إلاَّ باسمك اللهم[٣٣٤] فيكون هذا هو سبب نزول الآية، وقيل: قالوا ذلك حينما سمعوا الرسول ﷺ يدعو في سجوده ويقول: «يا رحمن يا رحيم» فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا وهو يدعو اثنين: الرحمن، والرحيم[٣٣٥] وهذا سبب آخر لنزول الآية ولا مانع أن تنزل الآية لسببين أو أكثر. وتقدمت هذه الآية وما يتعلق بها في أول الباب.

ما يستفاد من الأثر:

١- ثبوت الأسماء والصفات لله ﷻ.

٢- أنَّ تعدد الأسماء لا يدل على تعدد المسمىٰ.

٣- مشروعية دعاء الله بأسمائه وصفاته.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: «باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات»:

هذا الباب ترجم له إمام هذه الدعوة بقوله: «**باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات**» يعني وما يلحقه من الذم، وأن جحد شيء من الأسماء والصفات منافٍ لأصل التوحيد ومن خصال الكفار والمشركين.

وقد ذكرنا فيما سبق أن توحيد الإلهية عليه براهين، ومن براهينه توحيد المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، فمن أدلة توحيد الإلهية توحيد الربوبية كما سبق في «باب قول الله تعالىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾[الأعراف: ١٩١] »، وكذلك توحيد الأسماء والصفات برهان علىٰ توحيد الإلهية، ومن حصل عنده ضلال في توحيد الأسماء والصفات فإن ذلك سيتبعه ضلال في توحيد الإلهية، ولهذا تجد المبتدعة الذين ألحدوا في أسماء الله وفي صفاته من هذه الأمة من الجهمية، والمعتزلة، والرافضة، والأشاعرة، والماتريدية، ونحو هؤلاء، تجد أنهم لما انحرفوا في باب توحيد الأسماء والصفات لم يعلموا حقيقة معنىٰ توحيد الإلهية، ففسروا (الإله) بغير معناه، وفسروا (لا إله إلا الله) بغير معناها الذي دلت عليه اللغة ودل عليه الشرع، وكذلك لم يعلموا متعلقات الأسماء والصفات وآثارها في ملك الله -جل وعلا- وسلطانه، لهذا عقد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب لأجل أن يبين

(٣٣٤) سبق تخريجه.

(٣٣٥) أخرجه ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٩٤).

أن تعظيم الأسماء والصفات من كمال التوحيد وأن جحد الأسماء والصفات منافٍ لأصل التوحيد، فالذي يجحد اسمًا سمىٰ الله به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ وثبت ذلك عنه وتيقنه فإنه يكون كافرًا بالله -جل وعلا- كما قال سبحانه عن المشركين: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد: ٣٠].

والواجب علىٰ العباد من هذه الملة أن يوحدوا الله -جل وعلا- في أسمائه وصفاته، ومعنىٰ توحيد الله في أسمائه وصفاته: أن يتيقن ويؤمن بأن الله -جل وعلا- ليس له مثيل في أسمائه ولا في صفاته كما قال جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾[الشورىٰ: ١١] فنفىٰ وأثبت، نفىٰ أن يماثل الله شيء -جل وعلا- وأثبت له صفتي السمع والبصر.

قال العلماء: قدّم النفي قبل الإثبات علىٰ القاعدة العربية المعروفة أن التخلية تسبق التحلية، فيجب أن يخلو القلب من كل براثن التمثيل ومن كل ما كان يعتقده المشركون الجاهلون من تشبيه الله بخلقه، أو تشبيه خلق الله به، فإذا خلا القلب من كل ذلك، وبرئ من التشبيه والتمثيل، أثبت ما يستحقه الله -جل وعلا- من الصفات، فأثبت هنا صفتين وهما السمع والبصر.

وسبب ذكر السمع والبصر هنا في مقام الإثبات دون غيرهما من الصفات أو دون ذكر غير اسم السميع والبصير من الأسماء؛ لأن صفتي السمع والبصر مشتركة بين أكثر المخلوقات الحية، فجلُّ المخلوقات الحية التي حياتها بالروح والنفس لا بالنماء فإن السمع والبصر موجود فيها جميعًا، فالإنسان له سمع وبصر وسائر أصناف الحيوانات لها سمع وبصر، فالذباب له سمع وبصر يناسبه، والبعير له سمع وبصر يناسبه، وكذلك الطيور، والأسماك، والدواب الصغيرة، والحشرات كل له سمع وبصر يناسبه.

ومن المتقرر عند كل عاقل أن سمع هذه الحيوانات ليس متماثلًا، وأن بصرها ليس متماثلًا، وأن سمع الحيوان ليس مماثلًا لسمع الإنسان، فسمع الإنسان ربما كان أبلغ وأعظم من سمع كثير من الحيوانات وكذلك البصر، فإذا كان كذلك اشتراك المخلوقات التي لها سمع وبصر في السمع والبصر، فإذا كان اشتراكًا في أصل المعنىٰ، ولكل سمع وبصر بما قدر له وما يناسب ذاته، فإذا كان كذلك ولم يكن وجود السمع والبصر في الحيوان وفي الإنسان مقتضيًا لتشبيه الحيوان بالإنسان، فكذلك إثبات السمع والبصر للملك الحي القيوم ليس علىٰ وجه المماثلة للسمع والبصر في الإنسان أو في المخلوقات، فلله -جل وعلا- سمع وبصر يليق به، كما أن للمخلوق سمعًا وبصرًا يليق بذاته الحقيرة الوضيعة، فسمع الله كامل مطلق من جميع الوجوه لا يعتريه نقص، وبصره كذلك.

واسم الله (السميع) هو الذي استغرق كل الكمال في صفة السمع، وكذلك اسم الله (البصير) هو الذي استغرق كل الكمال في صفة البصر، فدل ذلك علىٰ أن النفي مقدم علىٰ الإثبات، وأن النفي يكون مجملًا، والإثبات يكون مفصلًا، فالواجب علىٰ العباد أن يعلموا أن الله -جل جلاله- متصف بالأسماء الحسنىٰ وبالصفات العلىٰ، وألّا يجحدوا شيئًا من أسمائه وصفاته، فمن جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته فهو كافر؛ لأن ذلك صنيع الكفار والمشركين.

والإيمان بالأسماء والصفات يقوي اليقين بالله، وهو سبب لمعرفة الله، والعلم به، بل إن العلم بالله ومعرفة الله -جل وعلا- تكون بمعرفة أسمائه وصفاته، وبمعرفة آثار الأسماء والصفات في ملكوت الله -جل وعلا- وهذا باب عظيم ربما يأتي له زيادة إيضاح عند «**باب قول الله تعالىٰ:** ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠] ».

فتلخص من هذا أن لقوله: «**باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات**» صلة وطيدة بكتاب التوحيد من جهتين:

الجهة الأولىٰ: أن من براهين توحيد العبادة توحيد الأسماء والصفات.

الثانية: أن جحد شيء من الأسماء والصفات شرك وكفر مخرج من الملة، وأن من ثبت عنده الاسم، أو ثبتت الصفة، وعلم أن الله -جل وعلا- أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ ثم جحدها ونفاها أصلًا فإن هذا كفر؛ لأنه تكذيب بالكتاب وبالسنة.

❁ **قوله:** «**قوله تعالىٰ:** ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد: ٣٠] **الآية**»:

الرحمن: من أسماء الله -جل وعلا- والمشركون والكفار في مكة كانوا يقولون: لا نعلم الرحمن إلا رحمن اليمامة، فكفروا باسم الله (الرحمن)، وهذا كفر بنفسه، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يعني: باسم الله (الرحمن) وهذا اسم من أسماء الله الحسنىٰ، وهو مشتمل علىٰ صفة الرحمة؛ لأن (الرحمن) فيه صفة الرحمة، ومبني علىٰ وجه المبالغة، فالرحمن أبلغ في اشتماله علىٰ صفة الرحمة من اسم (الرحيم) ولهذا لم يتسم به علىٰ الحقيقة إلا الله -جل وعلا- فهو من أسماء الله العظيمة التي لا يشركه فيها أحد، أما (الرحيم) فقد أطلق الله -جل وعلا- علىٰ بعض عباده بأنهم رحماء، وأن نبيه ﷺ رحيم كما قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[التوبة: ١٢٨].

والاسم والصفة بينهما ارتباط من جهة أن كل اسم لله -جل وعلا- مشتمل علىٰ صفة، فأسماء الله ليست جامدة، بل كل اسم من أسماء الله مشتمل علىٰ صفة، فالاسم من أسماء الله يدل علىٰ مجموع شيئين

بالمطابقة، وهما: الذات والصفة التي اشتمل عليها الاسم، ويدل علىٰ أحدهما: الذات، أو الصفة بالتضمن؛ ولهذا نقول: كل اسم من أسماء الله متضمن لصفة من صفات الله ودال بالمطابقة علىٰ كل من الذات والصفة، أي: الذات المتصفة بالصفة حتىٰ لفظ الجلالة (الله) الذي هو علم علىٰ المعبود بحق -جل وعلا- مشتق علىٰ الصحيح من قولي أهل العلم؛ لأن أصله (الإله) حذفت همزته تخفيفًا لكثرة دعائه وندائه بذلك في أصل العربية، فهو مأخوذ من (الإلهة) وهي العبادة، فلفظ الجلالة (الله) ليس اسمًا جامدًا، بل هو مشتق من ذلك.

وجميع الصفات التي تتضمنها الأسماء كلها دالة علىٰ كمال الله -جل وعلا- وعلىٰ عظمته، فالعبد المؤمن إذا أراد أن يكمل توحيده فليعظم العناية بالأسماء والصفات؛ لأن معرفة الاسم والصفة يجعل العبد يراقب الله -جل وعلا- وتؤثر هذه الأسماء والصفات في توحيده وقلبه وعلمه بالله ومعرفته كما سيأتي في تقاسيم الأسماء والصفات.

❁ **قوله: «وفي «صحيح البخاري» قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون ...»**:

وهذا فيه دليل علىٰ أن بعض العلم لا يصلح لكل أحد؛ فإن من العلم ما هو خاص ولو كان نافعًا في نفسه ومن أمور التوحيد، لكن ربما لا يعرفه كثير من الناس، وهذا من مثل بعض أفراد توحيد الأسماء والصفات كبعض مباحث الأسماء والصفات، وذكر بعض الصفات لله -جل وعلا- فإنها لا تناسب كل أحد حتىٰ إن بعض المتجهين إلىٰ العلم قد لا تطرح عليه بعض المسائل الدقيقة في الأسماء والصفات، ولكن يؤمرون بالإيمان بذلك إجمالًا، والإيمان بالمعروف والمعلوم المشتهر في الكتاب والسنة أما دقائق البحث في الأسماء والصفات فإنما هي للخاصة، ولا تناسب العامة والمبتدئين في طلب العلم؛ لأن منها ما يُشكل، ومنها ما قد يئول بقائله إلىٰ أن يكذب الله ورسوله، كما قال هنا علي رضي الله عنه: **«حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذّب الله ورسوله؟!»**.

فمناسبة هذا الأثر لهذا الباب: أن من أسباب جحد الأسماء والصفات أن يحدّث المرء الناس بما لا يعقلونه من الأسماء والصفات؛ لأن عامة الناس عندهم إيمان إجمالي بالأسماء والصفات يصح معه توحيدهم وإيمانهم وإسلامهم، فالدخول في تفاصيل ذلك غير مناسب إلا إذا كان المخاطب يعقل ذلك ويعيه، وليس أكثر الناس كذلك، ولهذا نهىٰ الإمام مالك رحمه الله لما حدِّث عنده بحديث الصورة نهىٰ المتحدث بذلك؛ لأن العامة لا يحسنون فَهْم مثل هذه المباحث، وهكذا في بعض المسائل في الأسماء والصفات لا تناسب العامة، فقد يكون سبب الجحد تحديث الرجل ببحث لا يعقله، فيئول به ذلك إلىٰ أن يجحد شيئًا من العلم بالله -جل وعلا- أو يجحد شيئًا من الأسماء والصفات.

فالواجب على المسلم وبخاصة طالب العلم ألّا يجعل الناس يكذّبون شيئًا مما قاله الله -جل وعلا- أو أخبر به رسوله ﷺ، ووسيلة ذلك التكذيب أن يحدّث الناس بما لا يعرفون، وبما لا تبلغه عقولهم، كما جاء في الحديث الآخر: «**ما أنت بمحدّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة**»[٣٣٦] وقد بوّب على ذلك البخاري في «الصحيح» في (كتاب العلم) بقوله: «**باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه**»، وهذا من الأمر المهم الذي ينبغي للمعلّم والمتحدّث والواعظ والخطيب أن يعيه، وأن يحدّث الناس بما يعرفون وأن يجعل تقوية التوحيد وإكمال توحيدهم والزيادة في إيمانهم بما يعرفون لا بما ينكرون.

۞ **قوله**: «وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما «**أنه رأى رجلًا انتفض لما سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات استنكارًا لذلك،...**»:

هذا الرجل لما لم يعرف هذه الصفة انتفض؛ لأنه فهم من هذه الصفة المماثلة أو التشبيه، فخاف من تلك الصفة، والواجب على المسلم أنه إذا سمع صفة من صفات الله في كتاب الله أو في سنة النبي ﷺ أن يجريها مجرى جميع الصفات، وهو أن إثبات الصفات لله -جل وعلا- إثبات بلا تكييف، وبلا تمثيل، فإثباتنا للصفات على وجه تنزيه الله -جل وعلا- عن المثيل والنظير في صفاته وأسمائه، فله من كل اسم وصفة أعلى وأعظم ما يشتمل عليه من المعنى؛ ولهذا قال ابن عباس هنا: «**ما فرق هؤلاء؟**» يعني: ما سبب خوف هؤلاء؟ لماذا فرقوا؟ خافوا من هذه الصفة ومن إثباتها.

قوله: «**يجدون رقة عند مُحْكمه**» يعني: إذا خوطبوا بالمحْكَم الذي يعرفون، وجدوا في قلوبهم رقة لذلك، والمحكم: هو ما يُعلم، أي: الذي يعلمه سامعه هذا هو المحكم.

قوله: «**ويهلكون عند متشابهه؟**» فإذا سمعوا في الكتاب أو السنة شيئًا لا تعقله عقولهم هلكوا عنده، وخافوا، وفرقوا، وأولوا، ونفوا أو جحدوا، وهذا من أسباب الضلال.

والمتشابه: الذي يشتبه علمه على سامعه. والقرآن والعلم والشريعة كلها محكمة، وكلها متشابهة، ومنها محكم، ومنها متشابه، فهذه ثلاثة أقسام:

---

(٣٣٦) أخرجه مسلم في المقدمة، باب: النهي عن الحديث بكل ما سمع، برقم (٥)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا عليه.

فالأول: المحكم كما قال جل وعلا: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[هود: ١-٢]، فالقرآن كله محكم، بمعنىٰ: أن معناه واضح، وأن الله -جل وعلا- أحكمه، فلا اختلاف فيه ولا تباين، وإنما يصدق بعضه بعضًا كما قال جل وعلا: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾[النساء: ٨٢].

والقرآن والشريعة أيضًا متشابهة كلها، بمعنىٰ: أن بعضها يشبه بعضًا، فهذا الحكم يشبه غيره، وهذه المسألة تشبه تلك؛ لأنها تجري معها في قاعدة واحدة، فنصوص الشريعة يصدق بعضها بعضًا ويئول بعضها إلىٰ بعض وقد قال جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾[الزمر: ٢٣]، فقال: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ فالقرآن متشابه، يعني: أن بعضه يشبه بعضًا، فهذا خبر في الجنة، وهذا خبر في الجنة، وبعض الأخبار يفصل بعضًا، وهذه قصة وهذه قصة، وكل تصدق الأخرىٰ، وتزيدها تفصيلًا، وهكذا كل ما في القرآن.

والقرآن أيضًا والشريعة والعلم منه محكم ومنه متشابه باعتبار آخر كما جاء في آية آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[آل عمران: ٧]، فمنه محكم وهو الذي اتضح لك علمه، ومنه متشابه: وهو الذي اشتبه عليك علمه.

وبهذا نعلم أنه ليس عند أهل السنة والجماعة -أتباع السلف الصالح- شيء من المتشابه المطلق الذي لا يعلمه أحد، بمعنىٰ أنه لا توجد مسألة من مسائل التوحيد، أو من مسائل العمل(٣٣٧) يشتبه علمها علىٰ كل الأمة، هذا لا يوجد، بل ربما اشتبه علىٰ بعض الناس، وبعضهم يعلم المعنىٰ، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾[آل عمران: ٧] علىٰ أحد وجهي الوقف، فهذا المتشابه الموجود الذي هو قيسم للمحكم قد يشتبه علىٰ بعض الناس، فإذا اشتبه عليك علم شيء من التوحيد أو من الشريعة فإن الواجب ألا تفرق عنده وألا تخاف وألا تتهم الشرع وإلا وقع في قلبك شيء من الزيغ؛ لأن الذين يتبعون المتشابه، بمعنىٰ: لا يؤمنون به، فإن هؤلاء هم الذين في قلوبهم زيغ، وهذا الذي عناه ابن عباس رضي الله عنهما حين قال: «**يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه**» يريد به هذا الوجه من أن الذين يهلكون عند المتشابه هم أهل الزيغ الذين قال الله -جل وعلا- فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾[آل عمران: ٧].

---

(٣٣٧) كذا بالأصل ولعل الصواب العلم.

فأهل الزيغ يتبعون المتشابه ابتغاء أحد أمرين إما أن يبتغوا بالمتشابه الفتنة، وإما أن يبتغوا به التأويل، والواجب أن يُردّ المتشابه إلىٰ المحكم، فنعلم أن الشريعة يُصدق بعضها بعضًا، وأن التوحيد بعضه يدل علىٰ بعض، وكالقاعدة المعروفة في الصفات التي ذكرها عدد من الأئمة كالخطابي وشيخ الإسلام في التدمرية: «**أن القول في بعض الصفات كالقول في بعض**» و«**أن القول في الصفات كالقول في الذات يحتذىٰ فيه حذوه وينهج علىٰ منواله**».

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد: ٣٠]: فإنكار الصفة أو إنكار الاسم بمعنىٰ عدم التصديق بذلك هذا جحد، وهذا يختلف عن التأويل، فالتأويل والإلحاد له مراتب يأتي بيانها إن شاء الله تعالىٰ.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات، أي لقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد:٣٠] . لما قالوا ما نعرف الرحمن، وجحد الصفة كجحد الاسم.

الثانية: تفسير آية الرعد، أي: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، يعني: قريش لما جحدوا اسم الرحمن نزلت فيهم الآية.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع، أي لقول علي: حدثوا الناس بما يعرفون.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر، أي: إنه نهى عن ذلك لئلا يكذب الله ورسوله ولو لم يتعمد المكذب المنكر للحق، ولكنه يفهمه على غير وجهه.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئًا من ذلك وأنه أهلكه، أي: قوله: ما فرق هؤلاء يجدون رقة عند محكمه... إلخ، وقوله: وأنه أهلكه يعني لقوله: ويهلكون عند متشابهه، وهذا ينافي الإيمان؛ لأنه لا يتم إلا بإثبات الجميع.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن من جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته فقد أتىٰ بما يناقض التوحيد وينافيه وذلك من شعب الكفر.

قوله: « قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد:٣٠]»:

س: اذكر سبب نزول هذه الآية وما حكم من جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته.

جـ: سبب نزولها أن مشركي قريش جحدوا اسم الرحمن عنادًا وأنكروه فنزلت.

فالرحمن: اسم من أسماء الله تعالىٰ دل هذا الاسم علىٰ أن الرحمة صفته سبحانه وهي من صفات الكمال يجب الإيمان بها وإثباتها لله تعالىٰ كما يليق بجلاله وعظمته كسائر أسمائه وصفاته فمن جحد شيئًا منها فهو كافر.

قوله: «وفي صحيح البخاري» قال علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون ...»[(٣٣٨)].

س: ما سبب هذا القول وضح ذلك؟

جـ: سببه -والله أعلم- ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس علىٰ أهل الحكايات والقصص وأهل الوعظ فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف فربما استنكرها بعض الناس وردوها وقد يكون لبعضها أصل ومعنىٰ صحيح فيقع بعض المفاسد بسبب ذلك فأرشدهم أمير المؤمنين رضي الله عنه إلىٰ أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه من بيان الحلال من الحرام الذي كلفوا به دون ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدي إلىٰ رد الحق وعدم قبوله فيفضي بهم إلىٰ التكذيب.

---

(٣٣٨) سبق تخريجه.

❁ **قوله:** «وروىٰ عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس أنه...».

س: بين معاني الكلمات الآتية: انتفض، ما فرق هؤلاء يجدون رقة، ما مقصود ابن عباس بهذا القول؟

ج: انتفض: من الانتفاض؛ أي: تحرك واضطرب من هول ما سمع.

ما فرق هؤلاء: الفرق: الخوف، أي: ما خوف هؤلاء من آيات الصفات واستنكارهم لها؛ أي: ليس خوفهم بشيء لإيمانهم ببعض الحديث وكفرهم ببعضه فالاستفهام إنكاري.

يجدون رقة، أي: لينًا وقبولًا للمحكم وهو الواضح الذي لا غموض فيه.

ويهلكون عند متشابهه، أي: ما يشتبه عليهم فهمه ومعرفته فينكرونه.

يشير ابن عباس إلىٰ قوم ممن يحضر مجلسه من عامة الناس فإذا سمعوا شيئًا من محكم القرآن ومعناه حصل معهم الخوف وإذا سمعوا شيئًا من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين لهم فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه الله علىٰ عباده المؤمنين.

س: اذكر ما يستفاد من هذا الباب؟

ج: يستفاد منه:

١ - عدم إيمان من جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته.

٢ - ترك التحديث بما لا يفهمه السامع؛ لأنه يفضي إلىٰ تكذيب الله ورسوله الذي هو الهلاك.

٣ - وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



الدرس الحادي والأربعون:

باب قول الله تعالى
﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ الآية [النحل: ٨٣].

قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي». وقال عون بن عبد الله: «يقولون: لولا فلان، لم يكن كذا». وقال ابن قتيبة: «يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا».

وقال أبو العباس - بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «أن[٣٣٩] الله تعالىٰ قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر...» الحديث[٣٤٠]، وقد تقدم: - «وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلىٰ غيره ويشرك به».

قال بعض السلف: «هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا... ونحو ذلك مما هو جار علىٰ ألسنة كثيرة[٣٤١]»

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير معرفة النعمة وإنكارها.

الثانية: معرفة أن هذا جار علىٰ ألسنة كثيرة.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب قول الله تعالىٰ ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾[النحل:٨٣]»:

ترجم المصنف بهذه الآية؛ حضًا علىٰ التأدب مع جناب الربوبية عن الألفاظ الشركية الخفية، كنسبة النعم إلىٰ غير الله؛ فإن ذلك باب من أبواب الشرك الخفي؛ لدلالتها علىٰ كفرهم بنعم الله،

---

(٣٣٩) في نسخة السعدي وابن باز: «وأن».

(٣٤٠) سبق تخريجه.

(٣٤١) في نسخة السعدي وابن باز: «كثير».

بإضافتها إلىٰ غيره وإشراكه فيها، مع معرفتهم أن الله هو مسديها، وأنهم إنما جحدوها عتوًّا وعنادًا. وذكر بعض ما ذكره بعض العلماء في معناها، وذكر المفسرون عن السدي وغيره: هي نبوة محمدﷺ. وعن آخرين أنها ما عدد الله في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

قوله: «**قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي** »:

ولفظه قال: «هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب، يعرف هذا كفار قريش ثم ينكرونه، بأن يقولوا هذا كان لآبائنا فورثونا إياه». رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما، وقائل هذا، جاحد نعمة الله، غير معترف بها.

قوله: «**وقال عون بن عبد الله**»: هو ابن عتبة بن مسعود الهذلي، أبو عبد الله الكوفي الزاهد، روىٰ عن أبيه وعائشة وابن عباس، وعنه قتادة وأبو الزبير والزهري، وثقه أحمد وابن معين، مات قبل ١٢٠هـ.

قوله: «**يقولون: لولا فلان لم يكن كذا**»: قال: إنكارهم إياها أن يقول الرجل: لولا فلان لم يكن كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا. رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وهذا يتضمن قطع إضافة النعمة عمن لولاه لم تكن، فإنه –سبحانه– هو وحده المنعم علىٰ الحقيقة.

قوله: «**وقال ابن قتيبة: هذا بشفاعة آلهتنا**»؛ أي: أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الذي يرزقهم، ثم ينكرونه بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا، وهذا يتضمن الشرك، مع إضافة النعم إلىٰ غير وليها، والآية تعم ما ذكره العلماء في معناها. وابن قتيبة: هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري قاضي دينور، النحوي اللغوي صاحب التصانيف البديعة المشهورة، روىٰ عن إسحاق بن راهويه وجماعة، وتوفي سنة ٢٧٦هـ.

❁ **قوله**: «**وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه أن الله قال: أصبح ...**»:

أي في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

قوله: «**وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلىٰ غيره ويشرك به**»؛ يعني: مثل قوله: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾[الواقعة:٨٢]، ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل:٨٢]. وخبر: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**». وما قاله بعض السلف.

❁ **قوله**: «**قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا**»:

أي ماهرًا في صنعته، وهو صاحب السفينة، سمي بذلك لملازمته الماء الملح، ومعناه أن الله إذا أجرىٰ السفينة وسلمها، نسبوا ذلك إلىٰ الريح والملاح، ونسوا الله ﷻ الذي أجرىٰ لهم الفلك

في البحر رحمة بهم، وإن كان المتكلم بذلك لم يقصد أن الريح والملاح هو الفاعل لذلك من دون خلق الله وأمره، وإنما أراد أنه سبب لذلك، لكن لا ينبغي أن يضيف ذلك إلا إلى الله وحده، فهو المنعم على الإطلاق: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

قوله: «ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير»: وكلام الشيخ يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها، وأسند أسبابها إلى غيره مما هو مذكور في كلام المفسرين وغيره. قال المصنف: «**وفيه اجتماع الضدين في القلب، وتسمية هذا الكلام إنكارا للنعمة**».

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣] »:

الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولًا واعترافًا كما تقدم وبذلك يتم التوحيد فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر ليس معه من الدين شيء.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعي غيره كما هو جار على ألسنة كثير من الناس فهذا يجب على العبد أن يتوب منه وأن لا يضيف النعم إلا إلى موليها وأن يجاهد نفسه على ذلك ولا يتحقق الإيمان إلا بإضافة النعم إلى الله قولًا واعترافًا.

فإن الشكر الذي هو رأس الإيمان مبني على ثلاثة أركان: اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره والتحدث بها والثناء على الله بها والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته والله أعلم.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾»:

أراد المؤلف الحث على الاعتراف بنعم الله وشكره سبحانه على ذلك؛ لأن كثيرًا من الناس قد يشغل عن هذا فيتمتع بنعم الله ولكنه لا يشكره بل ينسبه إلى أسبابه وقوته وأعماله ونحو ذلك ويعقل عن المنعم سبحانه، ولو شاء الله لسلبه الأسباب وسلبه القوة فهو الذي أعطاه السمع والبصر والذكاء والحذق وغير ذلك.

وهذا من خلق الكافرين أن يقول مثلًا: هذا مالي ورثته من آبائي وما أشبه ذلك.

﴿ثم ينكرونها﴾: أي: يتمتعون بها ويعرفونها ثم ينسبونها إلى آلهتهم وأوثانهم من باب النكران بالنعم.

قوله: «**قال مجاهد: هو قول الرجل ورثته عن آبائي**»؛ أي: يقول ذلك؛ تبجحًا وتعظمًا بهذا الشيء من غير أن يعترف بنعم الله ويغفل عن ذلك، وليس المراد أن يقولها بقصد الإخبار؛ لأنه لا بأس أن يخبر بهذا علىٰ أنه سبب، بل أن يقول ذلك غافلًا ناسيًا المنعم الحقيقي.

قوله: «**وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا**»: وهذا خطأ أيضًا؛ لأنه ينبغي أن يقول لولا الله ثم كذا فينسب النعم إلىٰ الله؛ لأنه هو المسدي والمعطي سبحانه وتعالىٰ.

قوله: «**قال ابن قتيبة: يقولون: هذه بشفاعة آلهتنا فينسبونها إلىٰ آلهتهم**»: وهذا كذلك من قول الكافرين والواجب علىٰ المسلم أن يخالفهم وينسب النعم إلىٰ الله؛ لأنه هو المسبب تلك الأسباب وعليه أن يقوم بالشكر والعمل بأوامره. ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل:٥٣].

قوله: «قال أبو العباس: هذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف ...»:

أي: تبجحًا بذلك واعترافًا وافتخارًا بذلك علىٰ غيره.

قوله: «قال بعض السلف: هو كقولهم كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا»:

أي: إذا سارت السفينة ووصلت سالمة قالوا هذا، ونسوا المنعم الذي يسر الريح وعلم الملاح حتىٰ صار حاذقًا، والواجب: أن ينسبها إلىٰ الله تعالىٰ مع معرفة الأسباب كأن يقول: إن الله يسر لنا ريحًا طيبة فهذا لا بأس به.

وهذا القول من دقة السلف وعنايتهم وحرصهم علىٰ شكر الله والاعتراف له سبحانه وتعالىٰ.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «**قول الله تعالىٰ**: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»:

قوله: ﴿يَعْرِفُونَ﴾»؛ أي: يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله.

قوله: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: واحدة والمراد بها الجمع، فهي ليست واحدة، بل هي لا تحصىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[إبراهيم:٣٤]، والقاعدة الأصولية: **أن المفرد المضاف يعم**، والنعمة تكون بجلب المحبوبات، وتطلق أحيانًا علىٰ رفع المكروهات.

قوله: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾؛ أي: ينكرون إضافتها إلىٰ الله؛ لكونهم يضيفونها إلىٰ السبب متناسين المسبب الذي هو الله -سبحانه-، وليس المعنىٰ أنهم ينكرون هذه النعمة، مثل أن يقولوا: ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة، ولكن ينكرونها بإضافتها إلىٰ غير الله، متناسين الذي خلق السبب فوُجِد به المسَّبب.

قوله: «**الآية**»؛ أي: إلىٰ آخر الآية، وهي منصوبة بفعل محذوف تقديره: أكمل الآية.

قوله ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: أكثر العارفين بأن النعمة من الله: الكافرون؛ أي: الجاحدون كونها من الله، أو الكافرون بالله ﷻ.

وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ بعد قوله: ﴿يَعْرِفُونَ﴾ الجملة الأولىٰ أضافها إلىٰ الكل، والثانية أضافها إلىٰ الأكثر، وذلك لأن منهم من هو عامي لا يعرف ولا يفهم، ولكن أكثرهم يعرفون ثم يكفرون.

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن من أضاف نعمة الخالق إلىٰ غيره، فقد جعل معه شريكًا في الربوبية؛ لأنه أضافها إلىٰ السبب علىٰ أنه فاعل، هذا من وجه، ومن وجه آخر: أنه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات، وترك الشكر مناف للتوحيد؛ لأن الواجب أن يُشكر الخالق المنعم – سبحانه وتعالىٰ – فصارت لها صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد العبادة فمن حيث إضافتها إلىٰ السبب علىٰ أنه فاعل هذا إخلال بتوحيد الربوبية، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية.

قوله: «**قال مجاهد**»: هو إمام المفسرين في التابعين، عرض المصحف علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما يوقفه عن كل آية ويسأله عن تفسيرها، وقال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به؛ أي: كافيك، ومع هذا، فليس معصومًا عن الخطأ.

قوله: «**ما معناه**». أي: كلامًا معناه، وعلىٰ هذا فـ «ما»: نكرة موصوفة، وفيه أن الشيخ رحمه الله لم ينقله بلفظه.

قوله: «**هو قول الرجل**». هذا من باب التغليب والتشريف؛ لأن الرجل أشرف من المرأة وأحق بتوجيه الخطاب إليه منها، وإلا؛ فالحكم واحد.

قوله: «**هذا مالي ورثته عن آبائي**»: ظاهر هذه الكلمة أنه لا شيء فيها، فلو قال لك واحد: من أين لك هذا البيت؟ قلت: ورثته عن آبائي، فليس فيه شيء؛ لأنه خبر محض.

لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملكه للمال إلىٰ السبب الذي هو الإرث متناسيًا المسبب الذي هو الله، فبتقدير الله ﷻ أنعم علىٰ آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله ﷻ انتقل هذا البيت إلىٰ ملكك عن طريق الإرث، فكيف تتناسىٰ المسبب للأسباب القدرية والشرعية فتضيف الأمر إلىٰ ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم؟! فمن هنا صار هذا القول نوعًا من كفر النعمة.

أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق، فلا شيء في ذلك؛ ولهذا ثبت أن النبي ﷺ قيل له يوم الفتح: «**أتنزل في دارك غدًا؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل من دار أو رباع** »[(٣٤٢)] فبين ﷺ أن هذه الدور انتقلت إلىٰ عقيل بالإرث.

فتبين أن هناك فرقًا بين إضافة الملك إلىٰ الإنسان علىٰ سبيل الخبر، وبين إضافته إلىٰ سببه متناسيًا المسبب وهو الله ﷻ.

قوله: «**وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا**»:

وهذا القول من قائله فيه تفصيل إن أراد به الخبر وكان الخبر صدقًا مطابقًا للواقع، فهذا لا بأس به، وإن أراد بها السبب، **فلذلك ثلاث حالات**:

الأولىٰ: أن يكون سببًا خفيًا لا تأثير له إطلاقًا، كأن يقول: لولا الولي الفلاني ما حصل كذا وكذا، فهذا شرك أكبر؛ لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا الولي تصرفًا في الكون مع أنه ميت، فهو تصرف سري خفي.

الثانية: أن يضيفه إلىٰ سبب صحيح ثابت شرعًا أو حسًا، فهذا جائز بشرط أن لا يعتقد أن السبب مؤثر بنفسه، وأن لا يتناسىٰ المنعم بذلك.

الثالثة: أن يضيفه إلىٰ سبب ظاهر، لكن لم يثبت كونه سببًا لا شرعًا ولا حسًا، فهذا نوع من الشرك الأصغر، وذلك مثل: التولة، والقلائد التي يقال إنها تمنع العين، وما أشبه ذلك؛ لأنه أثبت سببًا لم يجعله الله سببًا، فكان مشاركًا لله في إثبات الأسباب.

ويدل لهذا التفصيل أنه ثبت إضافة «لولا » إلىٰ السبب وحده بقول النبي ﷺ في عمه أبي طالب: «**لولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل من النار** »[(٣٤٣)] ولا شك أن النبي ﷺ أبعد الناس عن الشرك، وأخلص الناس توحيدًا لله تعالىٰ، فأضاف النبي ﷺ الشيء إلىٰ سببه، لكنه شرعي حقيقي، فإنه أذن له بالشفاعة لعمه بأن يخفف عنه، فكان في ضحضاح من النار، عليه نعلان يغلي

---

(٣٤٢) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: توريث دور مكة وبيعها وشرائها وأن الناس في المسجد الحرام سواء خاصة، برقم (١٥٨٨)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: النزول بمكة للحاج وتوريث دورها، برقم (٤٣٩/ ١٣٥١) وغيرهما من حديث أسامة بن زيد ﵄.

(٣٤٣) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل الصحابة ﵃، باب: قصة أبي طالب، برقم (٣٨٨٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب...، برقم (٣٥٧/ ٢٠٩) وغيرهما من حديث العباس ﵁.

منهما دماغه لا يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، لأنه لو يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا أو مثله هان عليه بالتسلي، كما قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

وابن القيم رَحِمَهُ اللهُ – وإن كان قول العالم ليس بحجة لكن يستأنس به – قال في القصيدة الميمية يمدح الصحابة:

أولئك أتباع النبي وحزبه ... ولولا هُمو ما كان في الأرض مسلم
ولولا هُمو كادت تميد بأهلها ... ولكن رواسيها وأوتادها هم
ولولا هُمو كانت ظلامًا بأهلها ... ولكن هُمو فيها بدور وأنجم

فأضاف «لولا» إلى سبب صحيح.

قوله: «**وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا**»: هؤلاء أخبث ممن سبقهم؛ لأنهم مشركون يعبدون غير الله، ثم يقولون: إن هذه النعم حصلت بشفاعة آلهتهم، فالعزى مثلًا شفعت عند الله أن ينزل المطر، فهؤلاء أثبتوا سببًا من أبطل الأسباب لأن الله ﷻ لا يقبل شفاعة آلهتهم؛ لأن الشفاعة لا تنفع إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولًا، والله ﷻ لا يأذن لهذه الأصنام بالشفاعة، فهذا أبطل من الذي قبله؛ لأن فيه محذورين:

١ – الشرك بهذه الأصنام.

٢ – إثبات سبب غير صحيح.

❁ **قوله: «وقال أبو العباس»:**

هو شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية.

قوله: «**وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره..**»: وذلك مثل الاستسقاء بالأنواء، وإنما كان هذا مذمومًا؛ لأنه لو أتى إليك عبد فلان بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد، كان هذا سوء أدب مع السيد وكفرانًا لنعمته، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق، لما يأتي:

١ – أن الخالق لهذه الأسباب هو الله، فكان الواجب أن يُشْكَر وتضاف النعمة إليه.

٢- أن السبب قد لا يؤثر، كما ثبت في «صحيح مسلم» أنه ﷺ قال: «**ليس السَّنة ألَّا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا ثم لا تنبت الأرض**»(٣٤٤).

٣- أن السبب قد يكون له مانع يمنع من تأثيره، وبهذا عرف بطلان إضافة الشيء إلىٰ سببه دون الالتفات إلىٰ المسبب جل وعلا.

❁ **قوله**: «كانت الريح طيبة»:

هذا في السفن الشراعية التي تجري بالريح، قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾[يونس:٢٢]، فكانوا إذا طاب سير السفينة قالوا: كانت الريح طيبة، وكان الملاح -هو قائد السفينة- حاذقًا؛ أي: مجيدًا للقيادة، فيضيفون الشيء إلىٰ سببه وينسون الخالق جل وعلا.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير معرفة النعمة وإنكارها، وسبق ذلك.

الثانية: معرفة أن هذا جار علىٰ ألسنة كثيرة.وذلك مثل قول بعضهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا، وما أشبه ذلك.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة؛ يعني: إنكارًا لتفضل الله تعالىٰ بها وليس إنكارًا لوجودها؛ لأنهم يعرفونها ويحسون بوجودها.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب وهذا من قوله: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣]، فجمع بين المعرفة والإنكار، وهذا كما يجتمع في الشخص الواحد خصلة إيمان وخصلة كفر، وخصلة فسوق وخصلة عدالة.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾:

تمام الآية: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[النحل: ٨٣]

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ المصنف أراد بهذا الباب بيان وجوب التأدب مع الربوبية، بتجنب الألفاظ الشركية الخفية كنسبة النعم إلىٰ غير الله؛ لأن ذلك ينافي كمال التوحيد.

---

(٣٤٤) أخرجه مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في سكنىٰ المدينة وعمارتها قبل الساعة، برقم (٤٤/ ٢٩٠٤)، وأحمد (٢/ ٣٥٨) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التراجم:

١- مجاهد هو: شيخ التفسير مجاهد بن جبر المكي الإمام الرباني من تلاميذ ابن عباس مات سنة ١٠٤هـ على الراجح رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢- عون هو: عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعودٍ الهذلي ثقة عابد مات حوالي سنة ١٢٠هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣- ابن قتيبة هو: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الحافظ صاحب التفسير وغيره من المؤلفات مات سنة ٢٧٦هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿ يَعۡرِفُونَ ﴾؛ أي: يعرف المشركون.

﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾: اختلف في المراد بها، وقد ذكر المصنف جملة من أقوال العلماء في ذلك.

«ورثته عن آبائي...إلخ»: وقائل هذه الأقوال ونحوها منكر لنعمة الله بإضافتها إلى غيره، جاحد لها غير معترف بها، والآية تعم ما ذكره العلماء في معناها.

المعنى الإجمالي للآية:

أنَّ المشركين يعترفون بنعم الله التي عددها عليهم - في سورة النحل وغيرها - أنها من الله، ثم ينكرونها بإضافتها إلى غيره من آلهتهم وآبائهم وغيرهم، فهم متناقضون في ذلك.

ما يستفاد من الآية:

١- أنَّ المشركين معترفون بتوحيد الربوبية.

٢- وجوب نسبة النعم إلى الله سبحانه وتعالى وحده.

٣- التحذير من نسبة النعم إلى غير الله؛ لأنه شرك في الربوبية.

٤- وجوب التأدب في الألفاظ، وتحريم الاعتماد على الأسباب.

❁ **قوله:** «**وقال أبو العباس...**»:

«**التراجم**»: أبو العباس هو شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

«**وقد تقدم**»؛ أي: في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

«**الملاح**»: قائد السفينة.

«**السلف**»: هم المتقدمون من علماء هذه الأمة من الصحابة والتابعين وأتباعهم.

المعنى الإجمالي للأثر:

أنَّ السفن إذا جرين بريح طيبة بأمر الله جريًا حسنًا نسبوا ذلك إلى طيب الريح وحذق قائد السفينة؛ ونسوا ربهم الذي أجرى لهم الفلك في البحر رحمة بهم؛ فيكون هذا من جنس نسبة المطر إلى الأنواء.

حكم من فعل ذلك: فيه تفصيل:

١- إن كان المتكلم بذلك لم يقصد أنَّ الريح والملاح ونحو ذلك هو الفاعل لذلك من دون خلق الله وأمره، وإنَّما أراد نسبتها إلىٰ السبب فقط فهذا شرك أصغر؛ لأنه أضاف النعمة إلىٰ غير الله، والواجب إضافتها إلىٰ الله.

٢- وإن كان يقصد أن هذه الأشياء تفعل ذلك من دون الله؛ فهذا شرك أكبر.

والأول هو الذي يجري علىٰ ألسنة كثير من المسلمين فيجب الحذر منه.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣] »:

هذا الباب من الأبواب العظيمة في هذا الكتاب وبخاصة في هذا الزمن، لشدة الحاجة إليه، وترجمة المصنف -رفع الله بها مقامه في الجنة- بقوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل: ٨٣] » فوصف الكفار في سورة النحل التي تسمىٰ سورة النِّعم، وصفهم بأنهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، وإنكار النعمة أن تنسب إلىٰ غير الله، وأن يجعل المتفضل بالنعمة غير الذي أسداها وهو الله جل وعلا.

فالواجب علىٰ العبد أن يعلم أن كل النعم من الله -جل وعلا- وأن كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كل نعمة إلىٰ الله -جل وعلا- وأن إضافة النعم إلىٰ غير الله نقص في كمال التوحيد، ونوع شرك بالله -جل وعلا- ولهذا تكون مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد أن ثمة ألفاظًا يستعملها كثير من الناس في مقابلة النعم أو في مقابلة اندفاع النقم، وتكون تلك الألفاظ نوع شرك بالله -جل وعلا- بل هي شرك أصغر بالله -جل وعلا- فنبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الباب علىٰ ما ينافي كمال التوحيد من الألفاظ، وأن نسبة النعم إلىٰ الله -جل وعلا- واجبة.

قوله: «قول الله تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣] »:

أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أن لفظ (المعرفة) يستعمل في القرآن وفي السنة غالبًا فيما يذم من أخذ المعلومات كقوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[البقرة: ١٤٦]، وكقوله في هذه الآية: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل: ٨٣].

وهذا علىٰ جهة الأكثرية، وإلا فقد وردت المعرفة بمعنىٰ العلم كما جاء في «صحيح مسلم» من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بعث معاذًا إلىٰ اليمن قال له: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب**

فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعرفوا الله، فإن عرفوا الله»، فهذا يدل علىٰ أن بعض من روىٰ الحديث من التابعين جعل المعرفة بمعنىٰ العلم، وهم حجة في هذا المقام فيدل علىٰ أن استعمال المعرفة بمعنىٰ العلم لا بأس به.

وهذا الباب معقود لألفاظ يكون استعمالها من الشرك الأصغر، ذلك أن فيها إضافة النعمة إلىٰ غير الله، والله -جل وعلا- قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وهذا نص صريح في العموم؛ لأن مجيء النكرة في سياق النفي يدل علىٰ العموم ظهورًا، فإن سُبقت النكرة بـ(من) دلت علىٰ العموم نصًا، والتنصيص في العموم معناه أنه لا يخرج شيء من أفراده، فدلت الآية علىٰ أنه لا يخرج شيء من النعم أيًا كان ذلك الشيء، صغيرًا كان أو كبيرًا، عظيمًا أو حقيرًا، لا يكون إلا من الله -جل وعلا- فكل النعم صغُرت أو عظُمت، هي من الله -جل جلاله- وحده، وأما العباد فإنما هم أسباب تأتي النعم علىٰ أيديهم، وأسباب في إيصال النعمة إليك، فمن كان سببًا في معالجتك، أو سببًا في تعيينك، أو سببًا في نجاحك، أو نحو ذلك لا يدل علىٰ أنه هو ولي النعمة، أو هو الذي أنعم، فإن ولي النعمة هو الرب -جل وعلا- وهذا من كمال التوحيد فإن القلب الموحد يعلم أنه ما ثم شيء في هذا الملكوت إلا والله -جل وعلا- هو الذي يرسله، وهو الذي يمسك ما يشاء كما قال سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] فكل النعم من الله -جل وعلا- والعباد أسباب في ذلك، فالواجب إذًا أن تنسب النعمة إلىٰ المسدي، لا إلىٰ السبب؛ لأن السبب لو أراد الله -جل وعلا- لأبطل كونه سببًا، وهذا السبب إذا كان آدميًا فقلبه بين إصبعين من أصابع الله -جل وعلا- لو شاء لصده عن أن يكون سببًا، أو أن ينفعك بشيء، فالله -جل وعلا- هو ولي النعمة.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالىٰ- **«ما من أحد تعلق بمخلوق إلا وخذل، وما من أحد تعلق بمخلوق في حصول نفع له أو اندفاع مكروه عنه إلا خذل، وهذا في غالب المسلمين؛ وذلك لأن الواجب علىٰ المسلم أن يعلق قلبه بالله، وأن يعلم أن النعم إنما هي من عند الله، والعباد أسباب يسخّرهم الله -جل جلاله- وهذا هو حقيقة التوحيد ومعرفة تصرف الله -جل وعلا- في ملكوته»**.

۞ **قوله: «قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي»:**

يعني: أن قول الرجل: **«مالي ورثته عن آبائي»** منافٍ لكمال التوحيد ونوع شرك؛ لأنه نسب هذا المال إليه ونسبه إلىٰ آبائه، وفي الواقع أن هذا المال أنعم الله به علىٰ آبائه ثم أنعم الله به علىٰ هذا المؤمن إذ جعل الله -جل وعلا- قسمة الميراث تصل إليه، وهذا كله من فضل الله -جل وعلا-

ومن نعمته، والوالد سبب في إيصال المال إليك، ولهذا لا يجوز للوالد أو لصاحب المال أن يقسم الميراث على ما يريد هو؛ لأن المال في الحقيقة ليس مالًا له كما قال جل وعلا: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[النور: ٣٣]، فهو مال الله -جل وعلا- يقسمه كيف يشاء «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم**».(٣٤٥).

فالواجب على العبد أن يعلم أن ما وصله من المال، أو وصله من النعمة عن طريق آبائه هو من فضل الله -جل وعلا- ونعمته، ووالده أو والدته أو قرابته سبب من الأسباب، فيحمد الله -جل وعلا- على هذه النعمة، ويقابل ذلك السبب بجزائه إما بدعاء وإما بغيره.

❁ **قوله**: «وقال عون بن عبد الله: «**يقولون: لولا فلان لم يكن كذا**»»:

كقول القائل: لولا الطيار لذهبنا في هلكة، ولولا سائق السيارة كان ماهرًا لذهبنا في كذا وكذا، أو يقول: لولا أن الشيخ كان معلّمًا وأفهمنا هذه المسألة لما فهمناها قطُّ، أو يقول: لولا المدير الفلاني لفصلت، ونحو ذلك من الألفاظ التي فيها تعلق حصول الأمر بهذه الواسطة.
والأمر إنما حصل بقضاء الله وبقدره، وبفضل الله وبنعمته من حصول النعم، أو اندفاع المكروه والنقم، ولهذا يجب على العبد أن يوحّد فيقول: لولا الله ثم فلان، فيجعل مرتبة السبب ثانية، ولا يجعلها هي الأولى أو الوحيدة؛ لأن الله -جل وعلا- هو المسدي للنعم المتفضل بها.

قوله: «**لولا فلان لم يكن كذا**» إنما قال هنا: «**فلان**» من جهة كثرة الاستعمال، أما في الواقع فإن الناس يستعملونها فيما يتعلقون به من جمادات، كبيت، أو سيارة، أو طيارة، أو بقعة، أو مطر، أو ماء، أو سحاب، أو هواء، ونحو ذلك، فنسبة النعمة إلى إنسان، أو إلى بقعة، أو إلى فعل فاعل، أو إلى صنعة، أو إلى مخلوق، كل ذلك من نسبة النعم إلى غير الله وهو نوع من أنواع الشرك في اللفظ وهو من الشرك الأصغر بالله جل وعلا، كما سيأتي بعده إن شاء الله تعالى.

❁ **قوله**: «وقال ابن قتيبة: «**يقولون**: هذا بشفاعة آلهتنا»»:

يعني: إذا حصلت لهم نعمة، أو جاءتهم أمطار، أو مال، أو نجحوا في تجارتهم، إذا حصل لهم ذلك توجهوا إلى الأولياء، أو توجهوا إلى الأنبياء، أو توجهوا إلى الأصنام أو إلى الأوثان،

---

(٣٤٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، والبخاري في «الأدب المفرد»، برقم (٢٧٥)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا عليه، وصححه الألباني في «الصحيحة»، برقم (٢٧١٤).

فصرفوا لهم شيئًا من العبادة فقالوا: الآلهة شفعت لنا فلذلك جاءنا الخير، فيتذكرون آلهتهم وينسون أن المتفضل بذلك هو الله -جل وعلا- وأن الله سبحانه لا يقبل شفاعة شركية من تلك الشفاعات التي يذكرونها.

قوله: «وقال أبو العباس -بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «وإن الله تعالىٰ قال: أصبح من عبادي مؤمن بي كافر ... » الحديث وقد تقدم-: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذمُّ سبحانه من يضيف إنعامه إلىٰ غيره ويشرك به.

قوله: «قال بعض السلف: هو كقولهم كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا، ونحو ذلك مما هو جار علىٰ ألسنة كثير»:

وهذا باب ينبغي الاهتمام به وتنبيه الناس عليه؛ لأن نعم الله علىٰ أهل الإيمان في كل مكان كثيرة لا حصر لها، ولهذا يجب أن تنسب النعم إلىٰ الله -جل وعلا- وأن يُذكر بها وأن يُشكر؛ لأن من درجات شكر النعمة أن تُضاف إلىٰ من أسداها كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[الضحىٰ: ١١]، فأول درجات الشكر التحديث بالنعمة كأن تقول: هذا من فضل الله، وهذه نعمة الله، فإذا التفت القلب إلىٰ مخلوق فإنه يكون قد أشرك، هذا النوع من الشرك المنافي لكمال التوحيد.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير معرفة النعمة وإنكارها، أي: إنهم يعرفون أن الله هو المنعم بها ذكر في سورة النحل وغيرها ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، بإضافتها إلىٰ غيره.

الثانية: معرفة أن هذا جار علىٰ ألسنة كثير، أي: إضافة النعم إلىٰ غير الله.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة، أي: لكونه إضافة لها إلىٰ غير المنعم بها وهذا عين الجحد.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب، أي: معرفة النعمة وإنكارها.



* الأسئلة *

قوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

س: اشرح هذه الآية وبين مناسبتها لكتاب التوحيد؟

جـ: يذم الله سبحانه من يضيف إنعامه إلىٰ غيره ويشرك به كقول الرجل هذا مالي ورثته عن آبائي وكقولهم: لولا فلان لم يكن كذا، وقولهم: هذا بشفاعة آلهتنا، وقولهم: كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا ونحو ذلك مما هو جار علىٰ ألسنة كثير من الناس.

ومناسبة الآية لكتاب التوحيد: أن إضافة نعم الله إلىٰ غيره بالقلب واللسان كفر ينافي التوحيد.

وأما إضافتها إلىٰ غير الله باللسان مع اعتقاد أنها من عند الله فهو ينافي كمال التوحيد؛ لأن الواجب أن تضاف النعم إلىٰ مسديها وهو الله وحده وبذلك يتم التوحيد.

س: ما المقصود بقولهم: كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا، ومن هو الملاح؟

جـ: الملاح: هو قائد السفينة؛ والمعنىٰ أن الله إذا أجرىٰ السفينة وسلمها نسبوا ذلك إلىٰ الريح وصاحب السفينة ونسوا ربهم.

س: ما المراد بالنعمة المذكورة في الآية؟

جـ: المراد بها ما أنعم الله به من النعم المعنوية كالإسلام والقرآن وبعثة محمد ﷺ والنعم المادية كالصحة والمال وغيرها.

س: ما حقيقة هذا الإنكار المذكور في الآية؟

جـ: حقيقته جحد النعم المعنوية والإعراض عنها وعدم إتباعها ونسبة النعم المادية إلىٰ غير الله.

س: ما سبب اختلاف عبارات المفسرين في معنى الآية؟

جـ: سببه شمول الآية لكل ذلك ولغيره مما هو في معناه.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

الدرس الثاني والأربعون:

باب قول الله تعالى

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة:٢٢].

وقال ابن عباس في الآية: «الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله، وحياتك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا، لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار، لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلانًا، هذا كله به شرك»[(٣٤٦)] رواه ابن أبي حاتم.

وعن [ابن][(٣٤٧)] عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[(٣٤٨)]. رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا»[(٣٤٩)].

وعن حذيفة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»[(٣٥٠)] رواه أبو داود بسند صحيح.

وجاء عن إبراهيم النخعي: «أنه يُكره[(٣٥١)]: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك»[(٣٥٢)]. قال: «ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان»[(٣٥٣)]

---

(٣٤٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير»(٢٢٩).

(٣٤٧) ساقطة من جميع النسخ، والمثبت من نسخة السعدي، وهو الموافق لما في مصادر التخريج.

(٣٤٨) أخرجه أبو داود، كتاب: الإيمان والنذور، باب: في كراهية الحلف بالآباء، برقم (٣٢٥١)، والترمذي، كتاب: النذور والإيمان، باب: ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، برقم (١٥٣٥)، وأحمد (٢/ ١٢٥) وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٦٢٠٤).

(٣٤٩) أخرجه عبد الرزاق، برقم (١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة، برقم (١٢٢٨١)، والطبراني (٨٩٠٢)، وصححه الألباني في «الإرواء»، برقم (٢٥٦٢).

(٣٥٠) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: لا يقال خبثت نفسي، برقم (٤٩٨٠) من حديث حذيفة رضي الله عنهما وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣٥١) في نسخة ابن باز: «كره»، وفي نسخة ابن قاسم والفوزان: «يكره أن يقول الرجل».

(٣٥٢) أخرجه عبد الرزاق، برقم (١٩٨١١).

(٣٥٣) روي هذا مرفوعًا عن النبي ﷺ أخرجه إسحاق بن راهويه، برقم (٢٤٠٩).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية: أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها(٣٥٤) تعم الأصغر.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقًا فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين «الواو» و «ثم» في اللفظ.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾»:

ترجم المصنف -رحمه الله- بهذه الآية الكريمة، التي ابتدأها الله عز وجل بأعلى المقامات التي أجلها عبادة الله وحده، وامتن عليهم بإيجادهم، وما أوجده لأجلهم، فلا يجعلوا له أندادا؛ أي: شركاء ونظراء، يصرفون لهم شيئًا مما يستحقه سبحانه وتعالى، فيقعوا في الشرك الأصغر أو الأكبر، وساق في الباب ما ألحق بالأصغر، فإن من تحقيق التوحيد الاحتراز من الشرك بالله في الألفاظ، وإن لم يقصد المتكلم بها معنى لا يجوز، بل ربما تجري على لسانه من غير قصد، وإن كانت الآية نزلت في الأكبر، فالسلف يحتجون بما نزل في الأكبر على الأصغر، كما فسرها ابن عباس وغيره، وقد قال تعالى في أول الآية بعد أن عدد فرق المكلفين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:٢١] تنجون من عذاب الله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[البقرة:٢٢]؛ أي: ومن كان هذا وصفه فهو المستحق أن يعبد وحده: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢]: أشباهًا ونظراء، تصرفون أنواع العبادة أو شيئًا منها لهم، كحال عبدة الأوثان، الذين كانوا يعبدونها من دون الله، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٨٤] أنه ربكم لا يرزقكم غيره. قال أبو العالية وقتادة: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢]؛ أي: عدلاء شركاء. وقال ابن زيد: هي الآلهة التي جعلوها معه، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له. وقال قتادة ومجاهد: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية

---

(٣٥٤) في نسخة السعدي: «بأنها».

الله، وقال ابن عباس: أي: لا تشركوا به شيئا من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه ربكم، لا يرزقكم غيره. وقال مجاهد: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. حكاه ابن كثير وغيره، وذكر حديث الحارث الأشعري «إن الله أمر يحيىٰ بن زكريا بخمس كلمات: أَوَّلهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترىٰ عبدًا من خالص ماله، بذهب أو ورق، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلىٰ غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك، وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا»(٣٥٥). وهذه الآية دالة علىٰ توحيد الله بالعبادة، وقد استدل بها كثير من المفسرين علىٰ وجود الصانع، وهي دالة علىٰ ذلك بطريق الأولىٰ، والآيات الدالة علىٰ هذا المقام كثيرة جدًّا.

❁ **قوله: «قال ابن عباس في الآية: الأنداد هو الشرك أخفي من ...»**:

الصفا: الحجر الأملس، ذكر ما مثل به من الشرك؛ لخفائه علىٰ الأكثر حتىٰ لا يكاد يفطن له، ولا يعرفه إلا القليل، وضرب المثل لخفائه بما هو أخفىٰ شيء؛ أي: أنه أخفىٰ من دبيب النمل الأسود علىٰ الصفا الأسود في ظلمة الليل الأسود، وهذا يدل علىٰ شدة خفائه علىٰ من يدعي الإسلام، وعسر التخلص منه.

قوله: «**وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلانة وحياتي**»؛ أي: من الشرك الحلف بغير الله كالحلف بحياة المخلوق، والحلف بالمخلوق شرك.

قوله: «**وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص**»: وفي بعض الأصول: كلبة، وهي واحدة الكلاب، وهي ما تتخذ لحفظ المواشي وغيرها، واللصوص: السراق جمع لص ويثلث.

قوله: «**ولولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص**»: البط: من طير الماء، الأوز، واحدته بطة، يتخذ في البيوت، فإذا دخلها غير أهلها استنكره وصاح، والواجب نسبة ذلك إلىٰ الله، فهو الذي يحفظ عباده، ويكلؤهم بالليل والنهار.

قوله: «**وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت**»؛ لأن المعطوف بالواو يكون مساويًا للمعطوف عليه.

---

(٣٥٥) أخرجه الترمذي، كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، برقم (٢٨٦٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، وابن خزيمة، برقم (٩٣٠) وغيرهم من حديث الحارث الأشعري ﷺ، وصححه الألباني، في «صحيح الجامع»، برقم (١٧٢٤).

قوله: «وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلان»؛ أي: لا تجعل في مقالتك فلانًا، بل لولا الله وحده. ولا تقل: لولا الله وفلان. قال الشارح: ثبت بخط المصنف فلان بلا تنوين.

قوله:«هذا كله به شرك. رواه ابن أبي حاتم»؛ أي: هذا كله شرك بالله تعالىٰ، وقد وقع هذا اليوم علىٰ ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك، فيجب التنبه لهذه الأمور؛ فإنها أكبر الكبائر، وهذا من ابن عباس رضي الله عنهما تنبيه بالأدنىٰ من الشرك علىٰ الأعلىٰ، وتقدم تفسيره للآية أيضًا.

قوله: «وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»:

وفي رواية: «فقد كفر». وفي رواية: «فقد أشرك». والصواب عن ابن عمر رضي الله عنهما، وورد مثل هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه بهذا اللفظ، والشرك والكفر قد يطلقان بمعنىٰ واحد، وهو الكفر بالله، وقد يفرق بينهما، فيخص الشرك بقصد الأوثان وغيرها من المخلوقات مع الاعتراف بالله، فيكون الكفر أعم. وما أورده المصنف يحتمل أن يكون شكًّا من الراوي، ويحتمل أن تكون «أو» بمعنىٰ الواو، فيكون قد كفر وأشرك، كما جاء مصرحًا به عند أحمد: «فقد كفر وأشرك». ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر، كما قال الجمهور: لا يكفر كفرًا ينقل عن الملة، لكنه من الشرك الأصغر، كما نص عليه ابن عباس وغيره. لكن ما يفعله عباد القبور، وهو ما إذا طلب منهم اليمين بالله أسرعوا، وإذا طلب منهم اليمين بالشيخ أو حياته ونحوه لم يقدم أحدهم عليه إن كان كاذبًا، فهذا شرك أكبر بلا ريب؛ لأنه صار المحلوف به عنده أخوف وأجل وأعظم من الله عز وجل وهذا ما بلغ إليه شرك عباد الأصنام، فمن كان جهد يمينه الحلف بالشيخ ونحوه فهو أكبر شركًا منهم. وفيه دليل علىٰ أنه لا تجب الكفارة بالحلف بغير الله مطلقًا؛ لأنه لم يذكر فيه كفارة، فليس فيه كفارة إلا النطق بكلمة التوحيد والاستغفار.

قوله: «رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم»: وأقره الذهبي، وكذا أخرجه أحمد من طرق، وأبو داود، وصححه ابن حبان. وقال ابن العراقي: إسناده ثقات. وفي«الصحيح» وغيره عن ابن عمر مرفوعًا: **«إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»**(٣٥٦). وعن بريدة مرفوعًا **«من حلف بالأمانة فليس منا»**(٣٥٧). رواه أبو داود، وتواترت النصوص بالنهي عن الحلف

---

(٣٥٦) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: من لم ير إكفار من قال ذلك متأولًا أو جاهلًا، برقم (٦١٠٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: النهي عن الحلف بغير الله تعالىٰ، برقم (٣/ ١٦٤٦) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣٥٧) أخرجه أبو داود، كتاب: الإيمان والنذور، باب: في كراهية الحلف بالأمانة، برقم (٣٢٥٣)، وأحمد (٥/ ٣٥٢)، وابن حبان، برقم (٤٣٦٣) وغيرهم من حديث بريدة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٥٤٣٦).

بغير الله، ودلت على أنه شرك، لكنه لا يخرجه عن الملة، ولا يوجب له حكم الكفار. وأجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله أو بصفاته، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره، وأما قوله: «أفلح وأبيه»[٣٥٨]، «أما وأبيك»[٣٥٩]. فقد أجيب عنه بأنه ليس من جنس اليمين المقصودة، بل هو مما يجري على الألسن من غير قصد، كقولهم: تربت يداك، أو أنه كان قبل النهي عن الحلف بغير الله ثم نسخ، فما ورد فيه ذكر الحلف بغير الله فهو جار على العادة قبل النهي؛ لأن ذلك هو الأصل، حتى ورد النهي؛ يؤيده ما في «الصحيح» عن ابن عمر وغيره، وقيل غير ذلك.

❁ **قوله:** «وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا»:

رواه الطبراني وابن جرير وغيرهما، قال المنذري: ورواته رواة الصحيح. وجاء عن ابن عباس وابن عمر نحوه، وذلك أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة، والحلف بغير الله شرك وكفر، وإن كان أصغر فهو أكبر من الكبائر بإجماع السلف.

قال شيخ الإسلام: «وإنما رجح ابن مسعود الحلف بالله كاذبًا، على الحلف بغيره صادقًا؛ لأن الحلف بالله توحيد، والحلف بغيره شرك، وإن قدر الصدق في الحلف بغيره، فحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب، أسهل من سيئة الشرك» اهـ.

فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار، كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه وإنزال حوائجه به، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها.

❁ **قوله:** «وعن حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان...»:

ورواه أحمد وابن أبي شيبة والنسائي وابن ماجه والبيهقي، وله شواهد، ومعناه صحيح بلا ريب؛ وذلك لأن العطف بـ«الواو» يقتضي المساواة؛ لأنها في وضعها لمطلق الجمع، فلا تقتضي

---

(٣٥٨) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، برقم (١١)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: (١)، برقم (٣٩٢) وغيرهما من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٣٥٩) أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، باب: بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، برقم (١٠٣٢) وأصل الحديث عند البخاري دون هذه اللفظة «أما وأبيك» وقد رواه في كتاب: الزكاة، باب: أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح، برقم (١٤١٩) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ترتيبا ولا تعقيبا، وتسوية المخلوق بالخالق في نوع من أنواع العبادة شرك، فإن كان في الأصغر مثل هذا فهو أصغر، وإن كان في الأكبر فهو أكبر، كقول الله عنهم: ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء:٩٨] بخلاف المعطوف بـ«ثم»؛ فإن المعطوف بها يكون متراخيًا عن المعطوف عليه بمهلة، فلا محذور لكونه صار تابعًا.

❁ **قوله: «وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك ...»:**

رواه عبد الرزاق وابن أبي الدنيا، وتقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك، وهذا في الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب، فإنه يجوز في حقه ما هو تحت قدرته ووسعه، وأما الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم ولا قدرة لهم علىٰ نفع ولا ضر، فلا يقال في حقهم شيء من ذلك، فلا يجوز التعلق عليهم بشيء ما، بوجه من الوجوه، والقرآن يبين ذلك، وينادي بأنه يجعلهم آلهة إذا سئلوا شيئًا من ذلك، أو رغب إليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر، ومطابقة الحديثين والأثرين للترجمة ظاهرة علىٰ ما فسره ابن عباس في الآية.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]»:

الترجمة السابقة علىٰ قوله تعالىٰ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ الآية[البقرة:١٦٥] يقصد بها الشرك الأكبر بأن يجعل لله ندًّا في العبادة والحب والخوف والرجاء وغيرها من العبادات.

وهذه الترجمة المراد بها: الشرك الأصغر كالشرك في الألفاظ: كالحلف بغير الله وكالتشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ كلولا الله وفلان وهذا بالله وبك وكإضافة الأشياء ووقوعها لغير الله كلولا الحارس لأتانا اللصوص ولولا الدواء الفلاني لهلكت ولولا حذق فلان في المكسب الفلاني لما حصل فكل هذا ينافي التوحيد

والواجب: أن تضاف الأمور ووقوعها ونفع الأسباب إلىٰ إرادة الله وإلىٰ الله ابتداء ويذكر مع ذلك مرتبة السبب ونفعه فيقول: لولا الله ثم كذا؛ ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره فلا يتم توحيد العبد حتىٰ لا يجعل لله ندًّا في قلبه وقوله وفعله.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أراد المؤلف بهذا الباب تحذير الناس من اتخاذ الأنداد، وهو جمع ند، وهو المثل والنظير، وسمىٰ الله من اتخذ إلهًا: أندادًا؛ لأنهم عبدوه مع الله كالقبور والأشجار والكواكب وغيرها كلها تسمىٰ: أندادًا إذا دعاه أو استغاث به أو طلب منه شيئًا أو اعتقد نفعه أو ضره.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: تعلمون أنه الخلاق الرزاق وهو الإله الحق سبحانه وتعالىٰ، وقال ذمًّا لبعض الناس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ والمقصود من كل هذا الدعوة إلىٰ الإخلاص لله وحده؛ لأنه المعبود الحق والإله الحق كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[البقرة:١٦٣] ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[المؤمنون:١١٧].

❁ **قوله: «قال ابن عباس في الآية: الأنداد هو الشرك أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صفاة سوداء»**[٣٦٠]:

فسر ابن عباس كل ما ذكر بأنه شرك، ومراده أنه داخل في الشرك الأصغر؛ لأن الشرك الأصغر يدخل في اتخاذ الأنداد، والأعظم من ذلك دعوة الأصنام والأحجار فإنه شرك أكبر.

وهنا التنبيه علىٰ الشرك الخفي - الشرك الأصغر- لأنه يوصل إلىٰ الشرك الأكبر فذكره؛ ليحذر الناس من هذا وهذا ولما قيل للنبي ﷺ: «**ما شاء الله وشئت قال: أجعلتني لله ندًّا؟ قل ما الله وحده**»[٣٦١] فجعل قوله: «**ما شاء الله وشئت....**»؛ اتخاذًا للأنداد فوجب الحذر من مثل هذه الكلمات وغيرها؛ لأن الواو تقتضي المشاركة والمساواة ويلحق بهذا: لولا البط في الدار، وكذلك

---

(٣٦٠) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٦، ٣٧) من طريق محمد بن إسحاق بن خزيمة عن حسان بن عباد البصري عن أبيه عن سليمان عن أبي مجلز وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال أبو نعيم: «غريب من حديث سليمان عن أبي مجلز وعكرمة، لم نكتبه إلا من هذا الوجه»، وقال في (٣/ ١١٤): « غريب من حديث سليمان وأبي مجلز وعكرمة، تفرد به عباد البصري وعنه ابنه حسان» وحسنه الألباني بشواهده في «السلسلة الضعيفة» (٨/ ٢٣١).

(٣٦١) أخرجه -بنحوه- أحمد (١/ ٢٨٣) وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٣٩).

الكلب معهما ينبهان أهل البيت على الغريب وهذا خطأ بل يقول: لولا الله ثم البط؛ لأن السبب الوحيد هو الله وهذه أسباب فلا ينبغي أن توكل إليها الأمور بل لله وحده.

فلذلك لا تذكر وحدها ولا بالتشريك مع الله بل تؤخر بثم.

وكذلك قولهم: لولا فلان لغرق فلان فهذا خطأ بل يقول: ثم فلان.

❁ **قوله:** «وعن عمر مرفوعًا: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»:

الصواب هنا عن ابن عمر... والشك يحتمل أنه من ابن عمر أو أحد الرواة.

والمعنى واحد؛ لأن الحلف بغير الله تعظيم له وأنه صالح لهذا الحلف وهذا لا يليق إلا بالله فهذا الذي يعظم؛ لأنه عالم السر وأخفى وعالم ما في القلوب.

وكانت العرب تحلف بآبائها والمعظمين، وكان هذا موجودًا في أول الإسلام ثم نهى النبي ﷺ عنه وحذر منه وقال: «**ولا تحلفوا بآبائكم ولا أمهاتكم ولا الأنداد**»(٣٦٢) وقال: «**من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»(٣٦٣) وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عمر نفسه عن النبي ﷺ: «**من حلف بشيء دون الله فقد أشرك**»(٣٦٤) هذه رواية عمر.

وهذا من الشرك الأصغر وقد يكون من الأكبر إذا قام بقلب الحالف أن هذا المحلوف به له شأن ويتصرف في الكون ويستحق أن يعبد من دون الله، وإلا فهو من الأصغر؛ ولهذا ورد أنهم في أول الإسلام يحلفون بآبائهم ثم نهوا عنه إجلالًا للتوحيد وتعظيمًا لجناب الله ودفعًا للذرائع الموصلة إلى الشرك.

❁ **قوله:** «قال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا»:

لأن الحلف بغير الله شرك والحلف بالله كاذبًا معصية، والشرك أعظم من الكذب وجنس الشرك أخطر من جنس المعاصي، والكذب لا يجوز ومحرم.

---

(٣٦٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الإيمان والنذور، باب: في كراهية الحلف بالآباء، برقم (٣٢٤٨)، والنسائي، كتاب: الإيمان والنذور، باب: الحلف بالأمهات، برقم (٣٧٦٩) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٧٢٤٩).

(٣٦٣) أخرجه البخاري، كتاب: البر والصلة، باب: من لم ير إكفار من قال ذلك متأولًا أو جاهلًا، برقم (٦١٠٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: النهي عن الحلف بغير الله تعالى، برقم (١٦٤٦) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣٦٤) أخرجه أحمد (١/ ٤٧)، والحاكم (١/ ١١٧) وغيرهما من حديث عمر رضي الله عنه.

❁ **قوله:** «عن حذيفة مرفوعًا: لا تقولوا: ما شاء الله وما شاء فلان ولكن قولوا...»:

لأن الواو تقتضي المساواة والتشريك فلا تجوز بخلاف ثم فإنها للتراخي فهي جائزة، والكمال أن يقول: لولا الله وحده.

❁ **قوله:** «وجاء عن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقال: أعوذ بالله وبك...»:

فلا يجوز: أعوذ بفلان، ولا بالله وبفلان، بل يقول: أعوذ بالله، ثم، وهذا من كمال التوحيد والواجب على المسلم أن يحرص على كمال توحيده وإيمانه وأن يبتعد عن الشرك دقيقه وجليله، وأن يبتعد عن المعاصي فإنها تنقص التوحيد والإيمان واليقين.

فائدة:

حديث «**أفلح وأبيه**»[٣٦٥] هذا قبل النهي في أول الإسلام.

- لا يجوز أن يقول: لولا الله ثم النبي لما اهتدينا.
- حديث «**لا يخاف إلا الله والذئب**»[٣٦٦] ليس من هذا الباب بل هو جائز.
- إذا قال: بذمتك أسألك.أو بالأمانة: إن قصد به الحلف لم يجز وإلا فلا، وجاز.
- يجوز أن يقول أعوذ بالله منك؛ لأن النبي قال: «**لقد عذت بعظيم**»[٣٦٧] ثم تركها.
- إذا قال رجل لمن أحسن إليه: أنت المنقذ العظيم فهذا بحسب نيته، والأفضل أن يقول: لولا الله ثم أنت لأن قوله: أنت المنقذ العظيم، قد توحي بشيء.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التي لم يفعلها غيره: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[البقرة:٢١، ٢٢]، فكل من أقر بذلك لزمه أن لا يعبد إلا المقر له؛ لأنه لا يستحق العبادة

---

(٣٦٥) سبق تخريجه.

(٣٦٦) أخرجه البخاري، كتاب: الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، برقم (٦٩٤٣) وغيره من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

(٣٦٧) أخرجه البخاري، كتاب: الطلاق، باب: من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق، برقم (٥٢٥٤) وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها.

من لا يفعل ذلك، ولا ينبغي أن يعبد إلا من فعل ذلك، ولذلك أتىٰ بالفاء الدالة علىٰ التفريع والسببية؛ أي: فبسبب ذلك لا تجعلوا لله أندادًا.

و ﴿لَا﴾: هذه ناهية؛ أي: فلا تجعلوا له أندادًا في العبادة، كما أنكم لم تجعلوا له أندادًا في الربوبية، وأيضًا لا تجعلوا له أندادًا في أسمائه وصفاته؛ لأنهم قد يصفون غير الله بأوصاف الله ﷻ، كاشتقاق العزىٰ من العزيز، وتسميتهم رحمن اليمامة.

قوله: ﴿أَندَادًا﴾ جمع ند، وهو الشبيه والنظير، والمراد هنا: أندادًا في العبادة.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجملة في موضع نصب حال من فاعل ﴿تَجْعَلُوا﴾؛ أي: والحال أنكم تعلمون؛ والمعنىٰ: وأنتم تعلمون أنه لا أنداد له – يعني في الربوبية – لأن هذا محط التقبيح من هؤلاء أنهم يجعلون له أندادًا وهم يعلمون أنه لا أنداد له في الربوبية، أما في الألوهية، فيجعلون له أندادًا، قالوا للنبي ﷺ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥]، ويقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»[٣٦٨]، وهذا من سفههم، فإنه إذا صار مملوكًا، فكيف يكون شريكًا، ولهذا أنكر الله عليهم في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، إذ الأنداد بالمعنىٰ العام – بقطع النظر عن كونه يخاطب أقوامًا يقرون بالربوبية – يشمل الأنداد في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قوله: «وقال ابن عباس في الآية»:

أي: في تفسيرها.

قوله: «**هو الشرك**». هذا تفسير بالمراد؛ لأن التفسير تفسيران.

١- تفسير بالمراد، وهو المقصود بسياق الجملة بقطع النظر عن مفرداتها.

٢- تفسير بالمعني؛ وهو الذي يسمىٰ تفسير الكلمات.

فعندنا الآن وجهان للتفسير:

أحدهما: التفسير اللفظي وهو تفسير الكلمات، هذا يقال فيه: معناه كذا وكذا.

والثاني: التفسير بالمراد، فيقال: المراد بكذا وكذا، والأخير هنا هو المراد.

فإذا قلنا: الأنداد: الأشباه والنظراء، فهو تفسير بالمعنىٰ وإذا قلنا: الأنداد الشركاء أو الشرك

---

(٣٦٨) أخرجه مسلم، كتاب: الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، برقم (٢٢ / ١١٨٥) وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فهو تفسير بالمراد، يقول ﷺ: «الأنداد هو الشرك » فإذًا؛ الند: الشريك المشارك لله سبحانه وتعالىٰ فيما يختص به.

وقوله: «**دبيب**»؛ أي: أثر دبيب النمل – وليس فعل النمل.

وقوله: «**علىٰ صفاة** »: هي الصخرة الملساء.

وقوله: «**سوداء**»: وليس علىٰ بيضاء، إذ لو كان علىٰ بيضاء، لبان أثر السير أكثر.

وقوله: «**في ظلمة الليل**»: وهذا أبلغ ما يكون في الخفاء.

فإذا كان الشرك في قلوب بني آدم أخفىٰ من هذا، فنسأل الله أن يعين علىٰ التخلص منه؛ ولهذا قال بعض السلف: «ما عالجت نفسي معالجتها علىٰ الإخلاص». ويروىٰ عن النبي ﷺ أنه لما قال مثل هذا، قيل له: «**كيف نتخلص منه؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم**»(٣٦٩).

وقوله: «**والله وحياتك**». فيها نوعان من الشرك.

الأول: الحلف بغير الله.

الثاني: الإشراك مع الله بقوله: والله! وحياتك! فضمها إلىٰ الله بالواو المقتضية للتسوية فيها نوع من الشرك، والقسم بغير الله إن اعتقد الحالف أن المقسم به بمنزلة الله في العظمة، فهو شرك أكبر، وإلا؛ فهو شرك أصغر.

وقوله: «**وحياتي**»: فيه حلف بغير الله، فهو شرك.

وقوله: «**لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص**»: كليبة تصغير كلب، والكلب ينتفع به للصيد وحراسة الماشية والحرث.

وقوله: «**لولا كليبة هذا** » يكون فيه شرك إذا نظر إلىٰ السبب دون المسبب، وهو الله ﷻ، أما الاعتماد علىٰ السبب الشرعي أو الحسي المعلوم، فقد تقدم أنه لا بأس به، وأن النبي ﷺ قال: «**لولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار** »(٣٧٠) لكن قد يقع في قلب الإنسان إذا قال: لولا كذا لحصل كذا أو ما كان كذا، قد يقع في قلبه شيء من الشرك بالاعتماد علىٰ السبب بدون نظر إلىٰ المسبب، وهو الله ﷻ.

---

(٣٦٩) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٣)، والطبراني في «الأوسط»، برقم (٣٤٧٩)، وابن أبي شيبة، برقم (٢٩٥٤٧) وغيرهم من حديث أبي موسىٰ ﷺ، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (٣٦).

(٣٧٠) سبق تخريجه.

وقوله: «لولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص». البط طائر معروف، وإذا دخل اللص البيت وفيه بط، فإنه يصرخ، فينتبه أهل البيت ثم يجتنبه اللصوص.

وقوله: «وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت»: فيه شرك؛ لأنه شرك غير الله مع الله بالواو، فإن اعتقد أنه يساوي اللهﷻ في التدبير والمشيئة، فهو شرك أكبر، وإن لم يعتقد ذلك واعتقد أن الله سبحانه وتعالىٰ فوق كل شيء، فهو شرك أصغر، وكذلك قوله: «لولا الله وفلان».

وقوله: «هذا كله به شرك». المشار إليه ما سبق، وهو شرك أكبر أو أصغر حسب ما يكون في قلب الشخص من نوع هذا التشريك.

﴿ قوله: «وعن عمر»:

صوابه عن ابن عمر، نبه عليه الشارح في «تيسير العزيز الحميد».

قوله: «في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: من حلف بغير الله»:

«من »: شرطية، فتكون للعموم.

قوله: «أو أشرك». شك من الراوي، والظاهر أن صواب الحديث «أشرك».

وقوله: «من حلف بغير الله»: يشمل كل محلوف به سوىٰ الله، سواء بالكعبة أو الرسولﷺ أو السماء أو غير ذلك، ولا يشمل الحلف بصفات الله؛ لأن الصفة تابعة للموصوف، وعلىٰ هذا، فيجوز أن تقول: وعزة الله لأفعلن كذا.

وقوله: «بغير الله»: ليس المراد بغير هذا الاسم، بل المراد بغير المسمىٰ بهذا الاسم، فإذا حلف بالله أو بالرحمن أو بالسميع، فهو حلف بالله.

والحلف: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة بالباء أو التاء أو الواو.

وحروف القسم ثلاثة: الباء والتاء، والواو.

والباء: أعمها؛ لأنها تدخل علىٰ الظاهر والمضمر وعلىٰ اسم الله وغيره، ويذكر معها فعل القسم ويحذف، فيذكر معها فعل القسم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾[الأنعام:١٠٩]، ويحذف مثل قولك: بالله لأفعلن، وتدخل علىٰ المضمر مثل قولك: الله عظيم أحلف به لأفعلن، وعلىٰ الظاهر كما في الآية وعلىٰ غير لفظ الجلالة، مثل قولك: بالسميع لأفعلن، وأما الواو، فإنه لا يذكر معها فعل القسم، ولا تدخل علىٰ الضمير، ويُحلف بها مع كل اسم، وأما التاء، فإنه لا يذكر معها فعل القسم وتختص بالله ورب، قال ابن مالك:

.... والتـــــاء لله ورب

والحلف بغير الله شرك أكبر إن اعتقد أن المحلوف به مساوٍ لله تعالىٰ في التعظيم والعظمة، وإلا؛ فهو شرك أصغر.

وهل يغفر الله الشرك الأصغر؟

قال بعض العلماء: إن قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾[النساء:١١٦]، أي: الشرك الأكبر ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ يعني: الشرك الأصغر والكبائر.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر؛ لأن قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ مصدر مؤول، فهو نكرة في سياق النفي، فيعم الأصغر والأكبر، والتقدير: لا يغفر شركًا به أو إشراكًا به.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾[الشمس:١] وقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[البلد:١] وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾[الليل:١] وما أشبه ذلك من المخلوقات التي أقسم الله بها، فالجواب عنه من وجهين:

الأول: أن هذا من فعل الله والله لا يُسأل عما يفعل، وله أن يقسم سبحانه بما شاء من خلقه، وهو سائل غير مسئول وحاكم غير محكوم عليه.

الثاني: أن قسم الله بهذه الآيات دليل علىٰ عظمته وكمال قدرته وحكمته، فيكون القسم بها الدال علىٰ تعظيمها ورفع شأنها متضمنًا للثناء علىٰ الله ﷻ بما تقتضيه من الدلالة علىٰ عظمته.

وأما نحن، فلا نقسم بغير الله أو صفاته؛ لأننا منهيون عن ذلك.

وأما ما ثبت في «صحيح مسلم» من قوله ﷺ: «**أفلح وأبيه إن صدق**»[٣٧١].

فالجواب عنه من وجوه:

الأول: أن بعض العلماء أنكر هذه اللفظة، وقال: إنها لم تثبت في الحديث؛ لأنها مناقضة للتوحيد، وما كان كذلك، فلا تصح نسبته إلىٰ رسول الله ﷺ، فيكون باطلًا.

الثاني: أنها تصحيف من الرواة، والأصل: «**أفلح والله إن صدق**».

وكانوا في السابق لا يشكلون الكلمات «أبيه» تشبه، «الله» إذا حذفت النقط السفلىٰ.

---

(٣٧١) سبق تخريجه

الثالث: أن هذا مما يجري على الألسنة بغير قصد، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَـٰنَ﴾[المائدة:٨٩]، وهذا لم ينو فلا يؤاخذ.

الرابع: أنه وقع من النبي ﷺ وهو أبعد الناس عن الشرك، فيكون من خصائصه، وأما غيره، فهم منهيون عنه؛ لأنهم لا يساوون النبي ﷺ في الإخلاص والتوحيد.

الخامس: أنه علىٰ حذف مضاف، والتقدير: «أفلح ورب أبيه».

السادس: أن هذا منسوخ، وأن النهي هو الناقل من الأصل، وهذا أقرب الوجوه ولو قال قائل: نحن نقلب عليكم الأمر، ونقول: إن المنسوخ هو النهي، لأنهم لما كانوا حديثي عهد بشرك نهوا أن يشركوا به كما نهي الناس حين كانوا حديثي عهد بشرك عن زيارة القبور ثم أُذن لهم فيها(٣٧٢)؟

فالجواب عنه: أن هذا اليمين كان جاريًا علىٰ ألسنتهم، فتركوا حتىٰ استقر الإيمان في نفوسهم ثم نهوا عنه، ونظيره إقرارهم علىٰ شرب الخمر أولًا ثم أمروا باجتنابه.

أما بالنسبة للوجه الأول، فضعيف؛ لأن الحديث ثابت، وما دام يمكن حمله علىٰ وجه صحيح، فإنه لا يجوز إنكاره.

وأما الوجه الثاني، فبعيد وإن أمكن، فلا يمكن في قوله ﷺ لما سئل: **«أي الصدقة أفضل؟ فقال: أما وأبيك لتنبأنه»**(٣٧٣).

وأما الوجه الثالث، فغير صحيح؛ لأن النهي وارد مع أنه كان يجري علىٰ ألسنتهم كما جرىٰ علىٰ لسان سعد فنهاه النبي ﷺ، ولو صح هذا، لصح أن يقال لمن فعل شركًا اعتاده لاينهىٰ؛ لأن هذا من عادته، وهذا باطل.

وأما الرابع، فدعوىٰ الخصوصية تحتاج إلىٰ دليل، وإلا؛ فالأصل التأسي به.

وأما الخامس: فضعيف؛ لأن الأصل عدم الحذف، ولأن الحذف هنا يستلزم فهمًا باطلًا، ولا يمكن أن يتكلم الرسول ﷺ بما يستلزم ذلك بدون بيان المراد، وعلىٰ هذا يكون أقربها الوجه السادس أنه منسوخ، ولا نجزم بذلك لعدم العلم بالتاريخ، ولهذا قلنا: أقربها والله أعلم، وإن كان النووي رحمه الله

---

(٣٧٢) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، برقم (١٠٦ / ٩٧٧)، وأبو داود، كتاب: الجنائز، باب: في زيارة القبور، برقم (٣٢٣٥)، والترمذي، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، برقم (١٠٥٤) وغيرهما من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٣٧٣) سبق تخريجه.

ارتضىٰ أن هذا مما يجري علىٰ اللسان بدون قصد، لكن هذا ضعيف لا يمكن القول به، ثم رأيت بعضهم جزم بشذوذها لانفراد مسلم بها عن البخاري مع مخالفة راويها للثقات، فالله أعلم.

❁ **قوله: «في أثر ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا»:**

اللام: لام الابتداء، و «أن» مصدرية، فيكون قوله: «**أن أحلف**» مؤولًا بمصدر مبتدأ تقديره لحلفي بالله.

قوله: «أحب إليَّ». خبر المبتدأ، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:١٨٤].

قوله: «كاذبًا» حال من فاعل «أحلف».

قوله: «أحب إلي». هذا من باب التفضيل الذي ليس فيه شيء من الجانبين، وهذا نادر في الكلام، لأن التفضيل في الأصل يكون فيه المعنىٰ ثابتًا في المفضل وفي المفضل عليه، وأحيانًا في المفضل دون المفضل عليه، وأحيانًا لا يوجد في الجانبين، فابن مسعود رضي الله عنه لا يحب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذبًا أهون عليه من الحلف بغيره صادقًا، فالحلف كاذبًا بالله محرم من وجهين:

١-أنه كذب، والكذب محرم لذاته.

٢-أن هذا الكذب قرن باليمين، واليمين تعظيم لله عز وجل، فإذا كان علىٰ كذب صار فيه شيء من تنقص لله عز وجل، حيث جعل اسمه مؤكدًا لأمر كذب؛ ولذلك كان الحلف بالله كاذبًا عند بعض أهل العلم من اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار.

وأما الحلف بغير الله صادقًا، فهو محرم من وجه واحد وهو الشرك، لكن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذبًا، وأعظم من اليمين الغموس إذا قلنا: إن الحلف بالله كاذبًا من اليمين الغموس؛ لأن الشرك لا يغفر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[النساء:١١٦]، وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشرك، فهو أعظم الذنوب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]، وسئل النبي ﷺ: «**أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»(٣٧٤) والشرك متضمن للكذب، فإن الذي جعل غير الله شريكًا لله

---

(٣٧٤) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، برقم (٤٤٧٧)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، برقم (١٤١ / ٨٦) وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

كاذب، بل من أكذب الكاذبين، لأن الله لا شريك له.

❁ **قوله: «في حديث حذيفة رضي الله عنه: لا تقولوا»:**

«**لا**» ناهية، ولهذا جزم الفعل بعدها بحذف النون.

قوله: «**ما شاء الله وشاء فلان**»: والعلة في ذلك أن الواو تقتضي تسوية المعطوف بالمعطوف عليه، فيكون القائل: ما شاء الله وشئت مسويًا مشيئة الله بمشيئة المخلوق، وهذا شرك، ثم إن اعتقد أن المخلوق أعظم من الخالق، أو أنه مساو له، فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه أقل، فهو شرك أصغر.

قوله: «**ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**»: لما نهي عن اللفظ المحرم بين اللفظ المباح؛ لأن «ثم» للترتيب والتراخي، فتفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه.

أما بالنسبة لقوله: «**ما شاء الله فشاء فلان**»، فالحكم فيها أنها مرتبة بين مرتبة «الواو» ومرتبة «ثم»، فهي تختلف عن «ثم» بأن «ثم» للتراخي والفاء للتعقيب، وتوافق «ثم» بأنها للترتيب، فالظاهر أنها جائزة، ولكن التعبير بـ «ثم» أولى؛ لأنه اللفظ الذي أرشد إليه النبي ﷺ، ولأنه أبين في إظهار الفرق بين الخالق والمخلوق.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ - إثبات المشيئة للعبد؛ لقوله: «**ثم شاء فلان**»، فيكون فيه رد على الجبرية حيث قالوا: إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار.

٢ - أنه ينبغي لمن سد على الناس بابًا محرمًا أن يفتح لهم الباب المباح؛ لقوله: «**ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**»، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾[البقرة:١٠٤]، لما نهاهم عن قول راعنا، قال: ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ وكذلك النبي ﷺ لما جيء له بتمر جيد وأخبره الآتي به أنه أخذ الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة، قال: «**لا تفعل ولكن بع الجمع بالدراهم، ثم اشتر بالدراهم جنيبًا**»[٣٧٥]؛ أي: تمرًا جيدًا فأرشده إلى الطريق المباح حين نهاه عن الطريق المحرم.

وفي هذا فائدتان عظيمتان:

الأولى: بيان كمال الشريعة وشمولها، حيث لم تسد على الناس بابًا إلا فتحت لهم ما هو خير منه.

---

(٣٧٥) أخرجه البخاري، كتاب: الوكالة، باب: الوكالة في الصرف والميزان، برقم (٢٣٠٣)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: بيع الطعام مثلًا بمثل، برقم (٩٥ / ١٥٩٣) وغيرهما من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

والثانية: التسهيل على الناس ورفع الحرج عنهم، فعامل الناس بهذا ما استطعت، كلما سددت عليهم بابًا ممنوعًا، فافتح لهم من المباح ما يغني عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلًا حتى لا يقعوا في الحرج.

قوله: «عن إبراهيم النخعي»:

من فقهاء التابعين، لكنه قليل البضاعة في الحديث، كما ذكر ذلك حماد بن زيد.

قوله: «**يكره أعوذ بالله وبك**»: العياذ: الاعتصام بالمستعاذ به عن المكروه، واللياذ بالشخص: هو اللجوء إليه لطلب المحبوب، قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

وهذان البيتان يخاطب بهما رجلًا، لكن كما قال بعضهم: هذا القول لا ينبغي أن يكون إلا لله.

وقوله: «**أعوذ بالله وبك**». هذا محرم؛ لأنه جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضي التسوية وهو الواو.

ويجوز بالله ثم بك، لأن «ثم» تدل على الترتيب والتراخي.

فإن قيل: سبق أن من الشرك الاستعاذة بغير الله، وعلى هذا يكون قوله: أعوذ بالله ثم بك محرمًا.

أجيب: أن الاستعاذة بمن يقدر على أن يعيذك جائزة؛ لقوله ﷺ في «صحيح مسلم» وغيره: «**من وجد ملجًا، فليعذ به**»[٣٧٦] لكن لو قال: أعوذ بالله ثم بفلان. وهو ميت، فهذا شرك أكبر لأنه لا يقدر على أن يعيذك، وأما استدلال الإمام أحمد على أن القرآن غير مخلوق بقوله ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»[٣٧٧]: ثم قال رحمه الله: والاستعاذة لا تكون بمخلوق فيحمل كلامه على أن الاستعاذة بكلام لا تكون بكلام مخلوق بل بكلام غير مخلوق، وهو كلام الله، والكلام تابع للمتكلم به، إن كان مخلوقًا، فهو مخلوق، وإن كان غير مخلوق، فهو غير مخلوق.

---

(٣٧٦) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٦٠١)، ومسلم، كتاب: الفتن، باب: نزول الفتن كمواقع القطر، برقم (١٠ / ٢٨٨٦) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٧٧) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء، باب: في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، برقم (٥٤ / ٢٧٠٨)، والترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا نزل منزلًا، برقم (٣٤٣٧) وغيرهما من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد. وقد سبق.

الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢] نازلة في الأكبر؛ لأن المخاطب بها هم المشركون، وابن عباس فسرها بما يقتضي الشرك الأصغر؛ لأن الند يشمل النظير المساوي على سبيل الإطلاق أو في بعض الأمور.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك. لحديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقًا، فهو أكبر من اليمين الغموس.

واليمين الغموس عند الحنابلة أن يحلف بالله كاذبًا، وقال بعض العلماء -وهو الصحيح: أن يحلف بالله كاذبًا ليقتطع بها مال امرئ مسلم.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ؛ لأن الواو تقتضي المساواة، فتكون شركًا، وثم تقتضي الترتيب والتراخي، فلا تكون شركًا.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: «باب قوله الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنَّه لما كان من تحقيق التوحيد الاحتراز من الشرك بالله في الألفاظ، وإن لم يقصده المتكلم بقلبه؛ نبَّه المؤلف رحمه الله بهذا الباب على ذلك وبيَّن بعض هذه الألفاظ لتجتنب هي وما ماثلها.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي: أشباهًا ونظراء تصرفون لهم العبادة أو شيئًا منها.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنه ربكم لا يرزقكم غيره ولا يستحق العبادة سواه.

«**في الآية**»: أي: في تفسير الآية.

«**دبيب النمل**»: مشيه.

«**على صفاة**»؛ الصفا: الحجر الأملس.

«**كليبة**»: تصغير كلبة وهي هنا: التي تتخذ لحفظ المواشي وغيرها.

«**اللصوص**»: جمع لص وهم: السراق.

«**البط**»: جمع بطة وهي من طيور الماء تتخذ في البيوت، فإذا دخلها غير أهلها استنكرته وصاحت.

«لا تجعل فيها فلانًا»؛ أي: لا تجعله في مقالتك فتقول: لولا الله وفلان، بل قل: لولا الله وحده.

«هذا كله به شرك»؛ أي: هذه الألفاظ المذكورة وما شابهها شرك بالله؛ أي: شرك أصغر.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

أنَّ الله - تبارك وتعالىٰ - ينهىٰ الناس أن يتخذوا له أمثالًا ونظراء يصرفون لهم شيئًا من عبادته، وهم يعلمون أن الله وحده الخالق الرازق؛ وأنَّ هذه الأنداد عاجزة فقيرة ليس لها من الأمر شيء. وما ذكره ابن عباس أمثلة؛ لاتخاذ الأنداد؛ لأن لفظ الآية يشملها وإن كانت شركًا أصغر والآية نازلة في الشرك الأكبر؛ فالسلف يستدلون بما نزل في الشرك الأكبر علىٰ الشرك الأصغر.

ما يستفاد من الآية:

١- التحذير من الشرك في العبادة.

٢- أنَّ المشركين مقرون بتوحيد الربوبية.

٣- أنَّ الشرك الأصغر خفي جدًّا وَقَلَّ من يتنبه له.

٤- وجوب تجنب الألفاظ الشركية ولو لم يقصدها الإنسان بقلبه.

قوله: «عن عمر»:

صوابه عن ابن عمر.

«من حلف»: الحلف: اليمين، وهي توكيد الحكم بذكر معظمٍ علىٰ وجه مخصوص.

«بغير الله»؛ أي: بأيِّ مخلوق من المخلوقات.

«كفر أو أشرك»: يحتمل أن يكون هذا شكًّا من الراوي. ويحتمل أن تكون «أو» بمعنىٰ الواو فيكون كفر وأشرك. والمراد: الكفر والشرك الأصغران.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر ﷺ في هذا الحديث خبرًا معناه النهي: أنَّ من أقسم بغير الله من المخلوقات فقد اتخذ ذلك المحلوف به شريكًا لله وكفر بالله؛ لأنَّ الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنَّما هي لله وحده، فلا يحلف إلا به أو بصفة من صفاته.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّه يدل علىٰ أنَّ من حلف بغير الله فقد اتخذ المحلوف به ندًّا لله.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم الحلف بغير الله وأنه شرك وكفر بالله.

٢- أنَّ التعظيم بالحلف حق لله سبحانه وتعالىٰ فلا يحلف إلا به.

٣- أنَّ الحلف بغير الله لا تجب به كفارة؛ لأنه لم يذكر فيه كفارة.

❁ **قوله**: «لأن»:

«اللام»: لام الابتداء و«أن» مصدرية، والفعل بعدها منصوب في تأويل مصدرٍ مرفوع علىٰ الابتداء.

«أحبُّ...إلخ»: خبرُ المبتدأ.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: إقسامي بالله علىٰ شيء أنا كاذب فيه أحب إلي من إقسامي بغير الله علىٰ شيء أنا صادق فيه؛ وإنما رجح الحلف بالله كاذبًا علىٰ الحلف بغيره صادقًا؛ لأنَّ الحلف بالله في هذه الحالة فيه حسنة التوحيد، وفيه سيئة الكذب، والحلف بغيره صادقًا فيه حسنة الصدق وسيئة الشرك، وحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق. وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك.

مناسبة الأثر للباب:

أنه يدل علىٰ تحريم الحلف بغير الله.

ما يستفاد من الأثر:

١- تحريم الحلف بغير الله.

٢- أنَّ الشرك الأصغر أعظم من كبائر الذنوب كالكذب، ونحوه من الكبائر.

٣- جواز ارتكاب أقل الشرَّين ضررًا إذا كان لابد من أحدهما.

٤- دقة فقه ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

❁ **قوله**: «لا تقولوا»:

لا: ناهية والفعل بعدها مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون.

«**ما شاء الله وشاء فلان**»: لأن العطف بالواو يقتضي الجمع والمساواة.

«**ما شاء الله ثم شاء فلان**»: لأن العطف بثم يقتضي الترتيب والتراخي.

«**يكره**»: الكراهة في عرف السلف يراد بها التحريم.

«**أعوذ**»: العوذ: الالتجاء إلىٰ الغير والتعلق به.

«**لولا**»: حرف امتناع لوجودٍ؛ أي: امتناع شيءٍ لوجود غيره.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

ينهىٰ ﷺ أن يعطف اسم المخلوق علىٰ اسم الخالق بـ«الواو»، بعد ذكر المشيئة ونحوها؛ لأنَّ المعطوف بها يكون مساويًا للمعطوف عليه؛ لكونها إنَّما وضعت لمطلق الجمع فلا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا؛ وتسوية المخلوق بالخالق شرك، ويجوِّز ﷺ عطف المخلوق علىٰ الخالق بـ«ثم»؛ لأنَّ المعطوف بها يكون متراخيًا عن المعطوف عليه بمهلةٍ فلا محذور فيه؛ لكونه صار تابعًا. والأثر المروي عن النخعي يفيد ما أفاده الحديث.

ويختصُّ هذا الحكم - وهو العوذ بالمخلوق - بالمخلوقين الأحياء الذين لهم قدرة، دون الأموات والعاجزين فلا يجوز أن يسند إليهم شيء.

مناسبة الحديث والأثر للباب:

أنَّهما يدلان علىٰ النهي عن قول: «ما شاء الله وشاء فلان» ونحو ذلك؛ لأنه من اتخاذ الأنداد لله الذي نهت عنه الآية التي في أول الباب علىٰ ما فسَّرها به ابن عباس.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم قول: «ما شاء الله وشئت»، وما أشبه ذلك من الألفاظ مما فيه العطف علىٰ الله بـ«الواو»؛ لأنه من اتخاذ الأنداد لله.

٢- جواز قول: «ما شاء الله ثم شئت»، وما أشبه ذلك ممَّا فيه العطف علىٰ الله بـ«ثم»؛ لانتفاء المحذور فيه.

٣- إثبات المشيئة لله، وإثبات المشيئة للعبد، وأنَّها تابعة لمشيئة الله تعالىٰ.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]»:

هذا «**باب قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾** [البقرة: ٢٢]»، وفيه بيان أن هناك ألفاظًا فيها التنديد، والتنديد معناه: أن تجعل غير الله ندًّا له، فيكون التنديد في نسبة النعم إلىٰ غير الله، ويكون في الحلف بغير الله، ويكون في قول: ما شاء الله وشاء فلان، وغير ذلك من الألفاظ.

فهذا الباب فيه بيان أن التنديد يكون في الألفاظ، والتنديد هنا المراد به: التنديد الأصغر الذي هو شرك أصغر في الألفاظ، وليس التنديد الكامل الذي هو الشرك الأكبر.

❁ قوله: «قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾»:

هذا عام يشمل اتخاذ الأنداد بالشرك الأكبر، ويشمل أيضًا اتخاذ الأنداد بأنواع الإشراك التي دون الشرك الأكبر؛ لأن قوله: ﴿أَندَادٗا﴾ نكرة في سياق النهي، فتعم جميع أنواع التنديد، والتنديد منه ما هو مخرج من الملة، ومنه ما لا يخرج من الملة.

ولهذا ساق عن ابن عباس أنه قال: «**الأنداد: هو الشرك، أخفىٰ من دبيب النمل**» فجعل مما يدخل في هذه الآية الشرك الخفي أو شرك الألفاظ التي تخفىٰ علىٰ كثير من الناس.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة، من أن حقيقة التوحيد ألا يكون في القلب إلا الله -جل وعلا- وألا يتلفظ بشيء فيه جعل غير الله -جل وعلا- شريكًا أو ندًّا له كمن حلف بغير الله، أو كمن قال: ما شاء الله وشاء فلان، أو لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ونحو هذه الألفاظ.

قوله: «**لا تجعل فيها فلانًا، هذا كله شرك**» يعني: لا تقل: لولا الله وفلان، بل قل: لولا الله لحصل كذا، هذا هو الأكمل، فالذي ينبغي في استعمال هذه الألفاظ أن تنسب إلىٰ الله، فظهر لنا هنا أن ثمة درجتين: كاملة، وجائزة، وغير ذلك لا يجوز:

فالدرجة الأولىٰ -وهي الكاملة-: أن تقول لولا الله لحصل كذا.

والدرجة الثانية -وهي الجائزة-: أن يقول: لولا الله ثم فلان لما حصل كذا، فهذه جائزة، وهي توحيد، لجعله مرتبة فلان نازلة عن مرتبة إنعام الله، ولكن هذا ليس هو الكمال، ولهذا قال ابن عباس هنا: «**لا تجعل فيها فلانًا**» لأن الكمال أن تقول: لولا الله لأتانا اللصوص، ولولا نعمة الله لما حصل كذا، ولولا فضل الله لما حصل كذا، هذه هي المرتبة الكاملة، والجواز أن تقول: لولا الله ثم فلان.

وأما الذي لا يجوز والذي قال فيه ابن عباس: «**كله به شرك**» فهو أن يقول: لولا الله وفلان، بالواو؛ لأن (الواو) تفيد التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه دون تراخٍ في المرتبة، أما (ثم) فتفيد التراخي في المرتبة، أو التراخي في الزمن علىٰ ما هو معلوم في هذا المبحث في حروف المعاني من النحو، فلهذا كان قول القائل: لولا الله وفلان شركًا، أو ما شاء الله وشاء فلان شركًا أصغر. والواجب أن يقول: لولا الله، أو أن يقول: ما شاء الله وحده، كما سيأتي في باب بعد ذلك.

فاتضح من هذا أن الكمال أن ينسب ذلك إلىٰ الله -جل وعلا- وحده، وأن الجائز أن يقول: لولا الله ثم فلان.

❁ **قوله**: «**وعن عمر بن الخطاب** رضي الله عنه **أن رسول الله** ﷺ **قال: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»:

قوله: «**من حلف بغير الله**» يعني: عقد اليمين بغير الله -جل وعلا- «**فقد كفر أو أشرك**».

واليمين هي: تأكيد الكلام بمعظّم به بين المتكلم والمخاطب، بأحد حروف القسم الثلاثة: الواو أو الباء أو التاء، والواجب ألا يؤكّد الكلام إلا بالله -جل وعلا- لأن المعظَّم على الحقيقة هو الله -جل وعلا- وأما البشر فليسوا بمعظمين بحيث يحلف بهم، نعم ربما عُظِّموا بشيء يناسب ذاتهم التعظيم البشري اللائق بهم، أما التعظيم الذي يصل إلى حد أن يُحلف به فهذا إنما هو لله جل وعلا.

فالواجب إذًا ألا يؤكد الكلام إلا بالله -جل وعلا- إذا أراد الحلف، فمن كان حالفًا فليحلف بالله، أو ليؤكد الكلام بالله -جل وعلا- باستخدام أحد الأحرف الثلاثة: الواو، أو الباء، أو التاء.

وأما إذا استخدم غير هذه الأحرف كلفظ (في) ونحو ذلك فإنه لا يعد حلفًا إلا إن كان في قلبه أنه يمين ولكنه أخطأ في التعبير، فالعبرة بما في النفس من المعاني، أما ما في اللفظ فإنه في هذا المقام يُؤَوَّل إلى ما في القلب؛ لهذا قال هنا: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**» وإنما كفر أو أشرك؛ لأنه عظّم هذا المخلوق كتعظيم الله -جل وعلا- في الحلف به، وكفره وشركه شرك أصغر، وقد يصل إلى أن يشرك بالحلف شركًا أكبر إذا عظّم المحلوف به كتعظيم الله -جل وعلا- في العبادة.

فالحلف بغير الله تعالى تعظيم لذلك المحلوف به في الحلف، فإن انضاف إلى ذلك تعظيم المحلوف به تعظيم عبادة صار شركًا أكبر، كحلف الذين يعبدون الأوثان بأوثانهم فإنه شرك أكبر؛ لأنه يعظّم ذلك الوثن، أو ذلك القبر، أو تلك البقعة، أو ذلك المشهد، أو ذلك الولي، يعظمه كتعظيم الله في العبادة

فيكون حلفه بمعظّم به في العبادة، ويكون شركًا أصغر بمجرد الحلف بغير الله، فكل من حلف بغير الله فهو مشرك الشرك الأصغر وقد يصل في بعض الأحوال إلى أن يكون مشركًا الشرك الأكبر إذا كان يعبد هذا الذي حلف به.

وهناك يمين بغير الله في اللفظ فهذه أيضًا شرك، ولو لم يعقد القلب اليمين، كمن يكون دائمًا على لسانه استعمال الحلف بالنبي، أو بالكعبة، أو بالأمانة، أو بولي، ونحو ذلك وهو لا يريد حقيقة اليمين وإنما يجري على لسانه مجرى اللغو، فهذا أيضًا شرك؛ لأنه تعظيم لغير الله جل وعلا.

❁ قوله: «وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا»:

هذا لأجل عظم الحلف بغير الله -جل وعلا- وأن الحلف بغير الله شرك، وأما الكذب فإنه كبيرة والشرك الأصغر هذا أعظم من الكبائر، فلهذا استحب أن يكذب مع التوحيد وألا يصدق مع الشرك؛ لأن حسنة التوحيد أعظم من سيئة الكذب، ولأن سيئة الشرك أشنع من سيئة الكذب.

❁ قوله: «وعن حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان...»:

هذا من جهة الإرشاد إلىٰ ما ينبغي أن يقال، فلا تجعل مشيئة العبد مقارنة مشتركة بمشيئة الله، بل الواجب أن يُنزه العبد لفظه حتىٰ يعظم الله -جل وعلا- والقلب المعظِّم لله -جل وعلا- لا يمكن أن يستعمل لفظًا فيه جعل لمخلوق في مرتبة الله -جل وعلا- في المشيئة، أو في الحلف، أو في الصفات ونحو ذلك، لهذا قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان» وهذا النهي للتحريم؛ لأن التشريك في المشيئة شرك أصغر بالله جل وعلا.

قوله: «ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» لأن (ثم) تفيد التراخي في المشيئة، وهذا لأن مشيئة العبد تبع لمشيئة الله -جل وعلا- قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾[التكوير: ٢٩]، فمشيئة العبد ناقصة ومشيئة الله كاملة.

❁ قوله: «وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك ...»:

لأن (الواو) تقتضي التشريك في الاستعاذة، والاستعاذة كما ذكرنا لها جهتان: جهة ظاهرة، وجهة باطنة، أما الباطنة وهي: الالتجاء، والاعتصام، والرغب، والرهب، وإقبال القلب علىٰ المستعاذ به، فهذه لا تصلح إلا لله.

والاعتماد في الاستعاذة علىٰ المخلوق فيما أقدره الله عليه جائز؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق ظاهرًا فيما أقدره الله عليه جائزة، لهذا «كان يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك» والكراهة في استعمال السلف يراد منها غالبًا المحرم، وقد ترد لغير المحرم ولكن يستعملونها فيما لا نص فيه.

ومجيء الكراهة بمعنىٰ التحريم في القرآن في قوله تعالىٰ لما ذكر الكبائر في سورة الإسراء: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾[الإسراء: ٣٨]، وفي القراءة الأخرىٰ: (كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) أي: محرمًا التحريم الشديد.

«ويجوز أن يقول: بالله ثم بك» لما فيها من التراخي «قال: ويقولون: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان».

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد، أي: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وهذا من اتخاذ الأنداد في الشرك الأصغر.

الثانية: أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر؛ أي: لأن هذه الآية نزلت في قريش وهم يشركون الشرك الأكبر. فاستدل بها ابن عباس على ما ذكر من الشرك الأصغر.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك، أي لقوله: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**».

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقًا فهو أكبر من اليمين الغموس؛ أي: لأن الحلف بغير الله شرك أصغر، واليمين الغموس كبيرة والشرك وإن كان أصغر فهو أكبر من الكبائر.

الخامسة: الفرق بين «الواو» و «ثم» في اللفظ، أي: ما كان بـ «الواو» لا يجوز لأنها تقتضي التسوية والتشريك، وما كان بـ «ثم» فيجوز؛ لأنها للتراخي فلا تقتضي تسوية ولا تشريكًا.

* الأسئلة *

❁ **قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.**

س: اشرح هذه الآية وما هي الأنداد وما معنى جعل الند لله؟

جـ: يقول الله تعالىٰ: لا تشركوا بالله شيئًا من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه لا يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيد الله هو الحق الذي لا شك فيه.

قال ابن عباس: الأنداد هو الشرك أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صفاة سوداء في ظلمة الليل.

والأنداد جمع ند: وهو المثل والنظير والشبيه. ومعنىٰ جعل الند لله: صرف أنواع العبادة أو شيء منها لغير الله.

س: ما هو الغرض من هذا الباب؟

جـ: الغرض منه النهي عن الشرك الأصغر كالحلف بغير الله والتشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ كلولا الله وفلان وهذا بالله وبك وكإضافة الأشياء لغير الله كلولا الحارس لأتانا السارق ولولا الدواء الفلاني لهلكت ونحو ذلك فكل هذا وما في معناه شرك ينافي كمال التوحيد؛ لأن الواو تقتضي مساواة المعطوف للمعطوف عليه والواجب أن تضاف الأمور كلها إلىٰ الله ابتداء ويؤتىٰ بعد ذلك بمرتبة السبب فيقال: لولا الله ثم كذا ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره.

❁ **قوله: «عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من حلف بغير الله...».**

س: ما معنى أو ما نوع هذا الشرك وضح ذلك؟ ما الذي يفيده الحديث؟

جـ: «أو» يحتمل أنها شك من الراوي ويحتمل أنها عاطفة؛ بمعنىٰ: «الواو» فيكون قد كفر وأشرك فإن اعتقد أن للمحلوف به من العظمة مثل ما لله فهو شرك أكبر وإن لم يعتقد ذلك فهو شرك أصغر ويفيد تحريم الحلف بغير الله وأنه شرك.

❁ **قوله:** «وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا»[٣٧٨].

س: لماذا اختار ابن مسعود الحلف بالله كاذبًا على الحلف بغيره صادقًا مع أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من الكبائر.

جـ: اختار ذلك لأن الحلف بغير الله شرك والشرك أكبر الكبائر وإن كان أصغر.

❁ **قوله:** «وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان...».

س: علل لذلك مع التوضيح وما حكم الاستعاذة بغير الله؟

جـ: تعليل ذلك أن المعطوف بالواو في اللغة العربية لمطلق الجمع فلا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا وتسوية المخلوق بالخالق شرك.

بخلاف المعطوف بثم فإن المعطوف بها يكون متأخرًا عن المعطوف عليه بمهلة فلا محذور فيه لكونه صار تابعًا.

والاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر وإن كانت فيما يقدر عليه المخلوق فهذا جائز ما لم يكن لفظه موهمًا التشريك بين الله وغيره.

وهذا إنما هو في الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب في الشيء وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر فلا يجوز التعلق عليهم بشيء ما بوجه من الوجوه. والله سبحانه وتعالى أعلم.



(٣٧٨) سبق تخريجه.

الدرس الثالث والأربعون:

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر(٣٧٩) أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حَلَفَ بالله؛ فليصدقْ، ومن حُلِفَ له بالله؛ فليرضَ، ومن لم يرض، فليس من الله». رواه ابن ماجه بسند(٣٨٠) حسن(٣٨١).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

الثالثة: وعيد من لم يرض.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله»:

أي من الوعيد لكونه من الفعل المنافي لكمال التوحيد؛ لدلالته على قلة تعظيمه لجناب الربوبية؛ فإن القلب الممتلئ بمعرفة عظمة الله وجلاله لا يفعل ذلك.

قوله: «لا تحلفوا بآبائكم»:

فيه النهي عن الحلف بالآباء، ولا مفهوم له، فقد تقدم النهي عن الحلف بغير الله مطلقًا، وأنه من الشرك.

قوله: «من حلف بالله فليصدق»:

أي: وجوبًا؛ لأن الصدق مما أوجبه الله على عباده، وحضهم عليه في كتابه، ولو لم يحلف بالله، فكيف إذا حلف به؟ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

(٣٧٩) في نسخة ابن باز: «عن عمر»، والمثبت موافق لما في مصدري التخريج.

(٣٨٠) في نسخة ابن قاسم: «بإسناد».

(٣٨١) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الطلاق، باب: من حلف له بالله فليرض، برقم (٢١٠١)، والبيهقي، برقم (٢٠٥١٢) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

[التوبة:١١٩]. وقال: ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ﴾[الأحزاب:٣٥]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾[النحل:١٠٥]. وهو حال أ هل البر كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[البقرة:١٧٧] إلىٰ قوله: ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾[البقرة:١٧٧]. وفيه تأكد وجوب الصدق في اليمين بالله، لأن اليمين الغموس من الكبائر.

قوله: «ومن حلف بالله فليرضَ... » ولفظه: «ومن لم يرض بالله فليس من الله»(٣٨٢). وله شواهد من الكتاب والسنة، وهذا وعيد شديد لمن لم يرض، أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة علىٰ خصمه إلا اليمين، فأحلفه فلا ريب أنه يجب عليه الرضىٰ، وظاهره وإن كان يعتقد كذبه في الباطن. قال الشارح: وحدثت عن المصنف أنه حمل حديث الباب علىٰ اليمين في الدعاوىٰ اهـ. ولا يستحلفه بغير الله تعالىٰ أو صفة من صفاته كالطلاق والعتاق، والحالف إذا بلغ فسقه بحيث استعظم غير الله وحلف به، فليس محلًّا للصدق، ولا عبرة بحلفه أصلًا، وأما إذا كان مما يجري بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك، فهذا من حق المسلم علىٰ المسلم أن يقبل منه إذا حلف له معتذرًا أو متبريًا من تهمة، ومن حقه عليه أن يحسن به الظن إذا لم يتبين كذبه، كما قال عمر ﷺ: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا. وهو من محاسن الأخلاق ومكارمها، وكمال العقل وقوة الدين.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «باب من لم يقنع في الحلف بالله»:

ويراد بهذا إذا توجهت اليمين علىٰ خصمك وهو معروف بالصدق أو ظاهره الخير والعدالة، فإنه يتعين عليك الرضا والقناعة بيمينه؛ لأنه ليس عندك يقين يعارض صدقه، وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم وإجلاله يوجب عليك أن ترضىٰ بالحلف بالله، وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرض إلا بالحلف بالطلاق أو دعاء الخصم علىٰ نفسه بالعقوبات فهو داخل في الوعيد؛ لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله واستدراك علىٰ حكم الله ورسوله.

وأما من عرف منه الفجور والكذب وحلف علىٰ ما تيقن كذبه فيه، فإنه لا يدخل تكذيبه في الوعيد للعلم بكذبه، وأنه ليس في قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلىٰ يمينه، فتعين إخراج هذا النوع من الوعيد؛ لأن حالته متيقنة والله أعلم.

---

(٣٨٢) سبق تخريجه.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله: «باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله»:**

أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان وجوب القنع باليمين وإن كان في نفسه شيء من صدق الحالف أو علم كذبه أو تهمته بذلك، ومع ذلك فعليه أن يقنع بالحكم الشرعي ويرضىٰ به؛ لأنه ليس للناس إلا ما ظهر وكذلك ليس للقاضي إلا ما ظهر بشهادة العدول أو يمين الخصم عند عدم البينة.

❁ **قوله: «عن ابن عمر مرفوعًا: لا تحلفوا بآبائكم من حلف بالله فليصدق ومن...»**(٣٨٣):

لا تحلفوا بآبائكم: نهىٰ عن الحلف بالآباء والأمهات وغيرهم، وكانوا يحلفون بهم في أول الإسلام وفي أول الهجرة إلىٰ المدينة ثم نهىٰ عنه.

«**من حلف بالله فليصدق**»: أي: يجب علىٰ من حلف بالله أن يصدق ويتحرىٰ الصدق ويحذر الكذب ولهذا قال النبيﷺ: «**من حلف علىٰ يمين وهو كاذب لقي الله تعالىٰ وهو عليه غضبان**»(٣٨٤) فيجب الحذر من الحلف بالله كاذبًا خاصة في الخصومات، واقتطاع حق المسلم باليمين الكاذبة ولهذا ورد في الحديث الآخر: «**من ؤ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله عليه النار وحرم عليه الجنة**» **قالوا: وإلا كان شيئًا يسيرًا.قال: «وإن كان قدر النواة**»(٣٨٥) رواه مسلم فالواجب الحذر من ذلك وألا يأخذ حق أخيه المسلم إلا ببينة شرعية ووجه شرعي، وإذا طلب اليمين فليحذر الكذب.

«**من حلف بالله فليرض**»: هذا هو الشاهد أي: ليرض وليقنع وليس له إلا هذا؛ لأنه هو الذىٰ فرط ولم يُشهد ولم يكتب ولم يجعل بينة فعليه أن يلوم نفسه، وليس له إلا الحكم الشرعي باليمين لتفريطه وسوف يعطيه الله حقه يوم القيامة.

«**ومن لم يرضَ فليس من الله**»: وعيد شديد علىٰ من لم يرضَ بحكم الله ولم يطمئن إليه.

---

(٣٨٣) سبق تخريجه.

(٣٨٤) أخرجه -بنحوه- البخاري، كتاب: المساقاة، باب: الخصومة في البئر والقضاء فيها، برقم (٢٣٥٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، برقم (٢٢٠/ ١٣٨) وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣٨٥) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجره بالنار، برقم (٢١٨ / ١٣٧) ولكن فيه «قضيبا من آراك» بدلا من: «قدر النواة»، والنسائي، كتاب: آداب القضاة، باب: القضاء في قليل المال وكثيره، برقم (٥٤١٩) وغيرهما من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

فائدة:

كفارة من حلف كاذبًا أن يتوب ويرد الحق لأصحابه.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أن الاقتناع بالحلف بالله من تعظيم الله؛ لأن الحالف أكد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين وهو تعظيم المحلوف به، فيكون من تعظيم المحلوف به أن يصدق ذلك الحالف، وعلىٰ هذا يكون عدم الاقتناع بالحلف بالله فيه شيء من نقص تعظيم الله، وهذا ينافي كمال التوحيد، **والاقتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرين:**

الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية، فإنه يجب الرضا بالحلف بالله فيما إذا توجهت اليمين علىٰ المدعىٰ عليه فحلف، فيجب الرضا بهذا اليمين بمقتضىٰ الحكم الشرعي.

الثاني: أن يكون ذلك من الناحية الحسية، فإن كان الحالف موضع صدق وثقة، فإنك ترضىٰ بيمينه، وإن كان غير ذلك، فلك أن ترفض الرضا بيمينه، ولهذا لما **قال النبي ﷺ لحويصة ومحيصة: «تبرئكم يهود بخمسين يمينًا». قالوا: كيف نرضي يا رسول الله بأيمان اليهود؟** (٣٨٦) فأقرهم النبي ﷺ علىٰ ذلك.

قوله: في الحديث: «لا تحلفوا»:

«لا» ناهية، ولهذا جزم الفعل بعدها بحذف النون، و**«آباؤكم»**: جمع أب، ويشمل الأب والجد، وإن علا فلا يجوز الحلف بهم؛ لأنه شرك، وقد سبق بيانه.

قوله ﷺ: «من حلف بالله؛ فليصدق، ومن حلف له بالله، فليرض» (٣٨٧). **هنا أمران:**

الأمر الأول: للحالف؛ فقد أُمر أن يكون صادقًا، والصدق: هو الإخبار بما يطابق الواقع، وضده الكذب، وهو: الإخبار بما يخالف الواقع، فقوله: **«من حلف بالله، فليصدق»**؛ أي: فليكن صادقًا في يمينه، وهل يشترط أن يكون مطابقًا للواقع أو يكفي الظن؟

---

(٣٨٦) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: إكرام الكبير ويبدأ الأكبر الكلام والسؤال، برقم (٦١٤٢)، ومسلم، كتاب: القسامة، باب: القسامة، برقم (١/ ١٦٦٩) وغيرهما من حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه.

(٣٨٧) سبق تخريجه.

الجواب: يكفي الظن؛ فله أن يحلف علىٰ ما يغلب علىٰ ظنه؛ كقول الرجل للنبي ﷺ: والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني. فأقره النبي ﷺ.

الثاني: للمحلوف له، فقد أمر أن يرضىٰ بيمين الحالف له.

فإذا قرنت هذين الأمرين بعضهما ببعض، فإن الأمر الثاني يُنَزّل علىٰ ما إذا كان الحالف صادقًا؛ لأن الحديث جمع أمرين: أمرًا موجهًا للحالف، وأمرًا موجهًا للمحلوف له، فإذا كان الحالف صادقًا؛ وجب علىٰ المحلوف له الرضا.

فإن قيل: إن كان صادقًا فإننا نصدقه وإن لم يحلف؟

أُجيب: أن اليمين تزيده توكيدًا.

قوله: «**ومن لم يرض، فليس من الله**». أي: من لم يرض بالحلف بالله إذا حلف له؛ فليس من الله، وهذا تبرؤ منه يدل علىٰ أن عدم الرضا من كبائر الذنوب، ولكن لا بد من ملاحظة ما سبق، وقد أشرنا أن في حديث القسامة دليلًا علىٰ أنه إذا كان الحالف غير ثقة؛ فلك أن ترفض الرضا به؛ لأنه غير ثقة، فلو أن أحدًا حلف لك، وقال: والله؛ إن هذه الحقيبة من خشب. وهي من جلد، فيجوز أن لا ترضىٰ به لأنك قاطع بكذبه، والشرع لا يأمر بشيء يُخالف الحس والواقع، بل لا يأمر إلا بشيء يستحسنه العقل ويشهد له بالصحة والحسن، وإن كان العقل لا يدرك أحيانًا مدىٰ حسن هذا الشيء الذي أمر به الشرع، ولكن ليعلم علم اليقين أن الشرع لا يأمر إلا بما هو حسن؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠]، فإذا اشتبه عليك حُسن شيء من أحكام الشرع؛ فاتهم نفسك بالقصور أو بالتقصير، أما أن تتهم الشرع، فهذا لا يمكن، وما صح عن الله ورسوله، فهو حق وهو أحسن الأحكام.

۞ **قوله**: «**فيه مسائل**»:

الأولىٰ: النهي عن الحلف بالآباء. لقوله: «**لا تحلفوا بآبائكم**»، والنهي للتحريم.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضىٰ. لقوله: «**ومن حلف له بالله، فليرض**»، وسبق التفصيل في ذلك.

الثالثة: وعيد من لم يرض. لقوله: «**ومن لم يرض، فليس من الله**».

الرابعة: ولم يذكرها المؤلف -أمر الحالف أن يصدق؛ لأن الصدق واجب في غير اليمين، فكيف باليمين؟!

وقد سبق أن من حلف على يمين كاذبة أنه آثم، وقال بعض العلماء: إنها اليمين الغموس.

وأما بالنسبة للمحلوف له، فهل يلزمه أن يصدق أم لا؟

المسألة لا تخلو من أحوال خمس:

الأولى: أن يُعلم كذبه؛ فلا أحد يقول: إنه يلزم تصديقه.

الثانية: أن يترجح كذبه؛ فكذلك لا يلزم تصديقه.

الثالثة: أن يتساوى الأمران؛ فهذا يجب تصديقه.

الرابعة: أن يترجح صدقه، فيجب أن يصدق.

الخامسة: أن يعلم صدقه؛ فيجب أن يصدقه.

وهذا في الأمور الحسية، أما الأمور الشرعية في باب التحاكم، فيجب أن يرضى باليمين ويلتزم بمقتضاها؛ لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعي، وهو واجب.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ عدم الرضا بالحلف بالله ينافي كمال التوحيد؛ لدلالته على قلة تعظيم الربِّ جلَّ جلاله.

«**ما جاء فيمن... إلخ**»: أي: من الوعيد.

«**الحلف**»: القسم.

❁ **قوله**: «لا تحلفوا بآبائكم»:

نهي عن القسم بالآباء؛ لأنه هو المعروف عندهم ولا مفهوم له؛ لتقدم النهي عن القسم بغير الله مطلقًا.

«**فليصدق**»؛ أي: وجوبًا تعظيمًا لليمين بالله؛ لأنَّ الصدق واجب ولو لم يحلف بالله فكيف إذا حلف به!

«**فليرض**»؛ أي: وجوبًا تعظيمًا لليمين بالله. وهذا عام في الدعاوى وغيرها.

«**فليس من الله**»: هذا وعيدٌ؛ أي: فقد برئ الله منه.

معنى الحديث إجمالًا:

ينهى ﷺ عن الحلف بالآباء؛ لأنَّ الحلف تعظيم للمحلوف به، والتعظيم حق لله سبحانه، ثم

يأمر من حلف بالله أن يكون صادقًا فيما يحلف عليه؛ لأنَّ الصدق ممَّا أوجبه الله علىٰ عباده مطلقًا، فكيف إذا حلفوا بالله! ويأمر ﷺ من حُلِفَ له بالله في خصومةٍ أو غيرها أن يرضىٰ باليمين؛ لأنَّ ذلك من تعظيم الله، ثم يبين ﷺ الوعيد الشديد في حقِّ من لم يرض بالحلف بالله؛ لأنَّ ذلك يدل علىٰ عدم تعظيمه لله.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه الوعيد الشديد في حقِّ من لم يقنع بالحلف بالله.

ما يستفاد من الحديث:

١- الوعيد الشديد في حقِّ من لم يقنع بالحلف بالله.

٢- وجوب الصدق في اليمين.

٣- تحريم الكذب في اليمين.

٤- حسن الظنِّ بالمسلم ما لم يتبين خلافه.

٥- وجوب تصديق من حلف بالله إذا كان من أهل الإيمان.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: «باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله»:

قوله: «لم يقنع» استفاد منه كثير من الشراح أن المراد بهذا الباب ما يكون عند توجه اليمين علىٰ أحد المتخاصمين، فإنه إذا كانت الخصومة، وتوجهت اليمين في الدعوىٰ فإن الواجب علىٰ الآخر أن يقنع بما حلف عليه الآخر بالله -جل وعلا- فخصوا ما جاء الدليل، وخصوا هذا الباب بمسألة الدعاوىٰ، يعني: اليمين عند القاضي.

وقال بعض أهل العلم: «**إن الحديث عام، والحديث حسنه طائفة من أهل العلم، كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقوله: «من حُلف له بالله فليرض» هذا عام في كل حلف، سواء كان عند القاضي أو لم يكن عند القاضي، وهذا القول أوجه وأصوب ظاهرًا؛ لأن سبب الرضىٰ بما حُلف عليه بالله هو التعظيم لله -جل وعلا- فإن تعظيم الله في قلب العبد يجعله يصدق من حلف له بالله، ولو كان كاذبًا، لكن له ألا يبني عليه لكن يصدقه ولا يظهر تكذيبًا له لتعظيم الله -جل وعلا- «من حُلف له بالله فليرض» فليجعل توحيده وتعظيمه لله -جل وعلا- له وكذب ذاك في الحلف بالله عليه.**

وقال طائفة من أهل العلم -وهذا قول ثالث-: إن هذا راجع إلىٰ من عُرف صدقه في اليمين، أما من كان فاجرًا فاسقًا لا يبالي إذا حلف أن يحلف كاذبًا فإنه لا يجب تصديقه؛ لأن تصديقه -والحالة هذه- مع قيام اليقين أو القرائن العامة بكذبه ليس بداخل في الحديث؛ لقوله في أول الحديث: «**من حلف بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرض**» فتعلق قوله: «**من حُلف له بالله**» بما قبله، وهو قوله: «**من حلف بالله فليصدق**» يعني: من حلف له من كان صادقًا فليرض.

قوله: «**ومن لم يرض**» أي: من لم يرض باليمين بالله «**فليس من الله**» فيدل علىٰ أن فعله من الكبائر؛ لأن قوله: «**ليس من الله**» هذا ملحق لفعله بالكبائر.

وهذا الباب فيه نوع تردد عند الشراح، والظاهر في المراد منه أن الإمام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكره تعظيمًا لله -جل وعلا- وقد ذكر في الباب قبله من حلف بغير الله، وأن حكمه أنه مشرك، فهذا فيه أن الحلف بالله يجب تعظيمه، وألّا يحلف المرء بالله إلا صادقًا، وألّا يحلف بآبائه، وألّا يحلف بغير الله، ومن حُلف له بالله فواجب عليه الرضىٰ تعظيمًا لاسم الله، وتعظيمًا لحق الله -جل وعلا- حتىٰ لا يقع في قلبه استهانة باسم الله الأعظم، وعدم اكتراث به أو بالكلام المؤكد به.

فتلخص من هذا أن كثيرًا من أهل العلم جعلوا قول المصنف: «**باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله**» خاصًا بما إذا توجهت اليمين علىٰ أحد المتخاصمين عند القاضي، وأن طائفة من أهل العلم قالوا في قوله: «**ومن حلف له بالله فليرض**» إن هذا عام في كل من حُلف له بالله فإنه يجب عليه الرضىٰ، وآخرون قالوا: يفرّق بين من ظاهره الصدق، ومن ظاهره الكذب، والله أعلم.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي عن الحلف بالآباء، أي لقوله: «**لا تحلفوا بآبائكم**».

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضىٰ، أي: إذا لم يظهر له كذب الحالف تعظيمًا للمحلوف به ورضا بالحكم الشرعي الذي جعل له اليمين علىٰ خصمه إذا كان عند حاكم من حكام المسلمين.

الثالثة: وعيد من لم يرض، أي لقوله: « **ومن لم يرض فليس من الله**».



* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن عدم القناعة بالحلف بالله وعدم الرضاء به ينافي كمال التوحيد؛ لأن ذلك استخفاف بالله وتنقص له.

س: اذكر المقصود بهذا الباب ومتى يجب رضاء المحلوف له بالحلف ومتى لا يجب؟

جـ: المقصود أنه إذا توجهت اليمين على خصمك وهو معروف بالصدق أو ظاهره الخير والعدالة فيحلف، فإنه يجب عليك الرضاء بيمينه إعظامًا لله وإجلالًا له.

وأما من عرف منه الفجور والكذب وحلف على ما تيقن كذبه؛ فإنه لا يجب عليك الرضاء بيمينه ولا يدخل تكذيبه في الوعيد.

قوله: «عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لا تحلفوا بآبائكم ...».

س: ما الذي يفيده هذا الحديث اذكر الشاهد منه للباب؟

جـ: يفيد:

١ - تحريم الحلف بالآباء.

٢ - وجوب الصدق في اليمين.

٣ - وجوب الرضاء على المحلوف له بالله.

٤ - وعيد من لم يرض بالحلف بالله.

والشاهد من الحديث للباب قوله: «**ومن لم يرض فليس من الله**».

والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرس الرابع والأربعون:

باب قول: «ما شاء الله وشئت»

عن قتيلة: «أن يهوديًا أتىٰ للنبي[٣٨٨] ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت»[٣٨٩]. رواه النسائي وصححه.

وله أيضًا عن ابن عباس، أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت فقال: «أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء الله وَحْدَهُ»[٣٩٠].

ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: «رأيت كأني أتيت علىٰ نفر من اليهود، قلت[٣٩١]: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله قالوا: وأنتم[٣٩٢] لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارىٰ، فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم[٣٩٣] لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت، أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال[٣٩٤]: هل أخبرت بها أحدًا؟ قلت: نعم قال: فحمد الله، وأثنىٰ عليه، ثم قال: أما بعد؛ فإن طفيلًا رأىٰ رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة[٣٩٥] يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»[٣٩٦].

---

(٣٨٨) في نسخة السعدي وابن قاسم وابن باز والفوزان: «النبي».

(٣٨٩) أخرجه النسائي، كتاب: الإيمان والنذور، باب: الحلف بالكعبة، برقم (٣٧٧٣) من حديث قتيلة، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٣٩٠) سبق تخريجه.

(٣٩١) في نسخة ابن قاسم والفوزان: «فقلت».

(٣٩٢) في نسخة ابن قاسم والفوزان: «وإنكم».

(٣٩٣) في نسخة ابن باز: «وأنتم».

(٣٩٤) في نسخة الفوزان: «فقال».

(٣٩٥) زاد في نسخة الفوزان: «كان».

(٣٩٦) أخرجه ابن ماجه (٢١١٨)، وأحمد (٥/ ٧٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٣٨).

فيه مسائل:

الأولىٰ: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوىٰ.

الثالثة: قوله ﷺ: «أجعلتني لله ندًّا؟!» فكيف بمن قال: [«ما لي من ألوذ به سواك...»][٣٩٧] والبيتين بعده؟

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر؛ لقوله: «يمنعني كذا وكذا».

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

السادسة: أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام. تكملة تبليد المتون وبعد ذلك رفع البلد عن الهوامش وعن الآيات وتخريج الآيات.



قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب قول: ما شاء الله وشئت»:

وأنه من الشرك؛ لما فيه من التسوية بين الخالق والمخلوق في المشيئة.

قوله: «عن قتيلة أن يهوديًّا أتىٰ النبي...»:

قتيلة: بمثناة مصغر، بنت صيفي الأنصارية، صحابية مهاجرة، لها هذا الحديث في سنن النسائي، ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفي، ورواه الطبراني وابن سعد وابن منده وغيرهم. والحديث نص في أن هذا اللفظ من الشرك؛ لأن النبي ﷺ أقر اليهودي علىٰ تسميته بذلك، ونهىٰ عنه، وقال لمن قال ذلك: «أجعلتني لله ندًّا»[٣٩٨]؟ وأقر من سماه تنديدًا، كما جاء بلفظ «إنكم تنددون» وأرشد إلىٰ استعمال اللفظ البعيد من الشرك، والعبد وإن كان له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا قدرة له علىٰ أن يشاء شيئًا إلا إذا كان الله قد شاءه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[التكوير:٢٩]. قال الشارح: ولو أتىٰ بـ(ثم) وأراد أنه شريك لله تعالىٰ في المشيئة فالنهي باق بحاله، بل يكون في هذه الصورة أشد ممن أتىٰ بالواو، مع عدم هذا الاعتقاد، وفيه قبول الحق

---

(٣٩٧) في نسخة السعدي: «يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك».

(٣٩٨) سبق تخريجه.

ممن جاء به كائنًا من كان، وبيان النهي عن الحلف بالكعبة، وأنه شرك مع أنها بيت الله التي حجها فرض، وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام، لا يصلح منه شيء، لا لملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه، ولا غير ذلك من سائر المخلوقات.

❁ **قوله**: «أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده»:

وفي رواية: «قل ما شاء الله وحده» ورواه ابن ماجه وابن مردويه وغيرهما. وهذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك؛ لوجود التسوية في العطف بالواو، وفيه أن من سَوَّىٰ العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله ندًّا لله؛ لقوله: «**أجعلتني لله ندًّا**»[٣٩٩] أي: شريكًا، استفهام إنكار؛ أي: ليس لك أن تسويني بالله. قال ابن القيم: هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة، فكيف بمن يقول: أنا متوكل علىٰ الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، ويقول: نذرًا لله ولفلان، وأنا تائب لله ولفلان، وأرجو الله وفلانًا ونحو ذلك، فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك أن قائلها أولىٰ بجواب النبي ﷺ. وفيه أن رسول الله ﷺ حمىٰ حمىٰ التوحيد، وسد طرق الشرك في الأقوال والأفعال، وقال المصنف: فكيف بمن قال: يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك، يشير إلىٰ صاحب البردة حيث جعل عياذه ولياذه بغير الله.

❁ **قوله**: «ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها»:

الطفيل: هو ابن عبد الله بن الحارث بن سخبرة بن جرثومة الخير بن عادية ابن مرة بن الأوس بن النمر بن عثمان الأزدي، صحابي له هذا الحديث، قدم أبوه عبد الله مكة قبل الإسلام، فحالف أبا بكر، وتوفي عن أم رومان، فخلف عليها أبو بكر، فولدت له عبد الرحمن وعائشة. وابن ماجه إنما روىٰ عن حذيفة بهذا اللفظ، وعن الطفيل بنحوه، ورواه أحمد والنسائي، ورجح الحفاظ أن ابن عيينة وهم في روايته عن حذيفة.

قوله: رأيت كأني أتيت علىٰ نفر...»؛ أي: نعم القوم أنتم، لولا ما أنتم عليه من الشرك والمسبة لله بنسبة الولد إليه، وهذا لفظ الطبراني. وفي رواية له ولأحمد: «رأيت فيما يرىٰ النائم كأني مررت برهط من اليهود، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن اليهود» والرهط والنفر: الجماعة أقل من العشرة.

---

(٣٩٩) سبق تخريجه.

قوله: «**قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون...**»: عارضوه بشيء مما في المسلمين من الشرك الأصغر؛ أي: نعم القوم أنتم لولا ما فيكم من هذا الشرك، وكذلك جرىٰ له مع نفر من النصارىٰ، وفيه معرفة اليهود والنصارىٰ للشرك وإن كان أصغر، وهم مع ذلك يشركون بالله الشرك الأكبر.

قوله: «**فحمد الله وأثنىٰ عليه**»: فيه سنة تقديم حمد الله والثناء عليه في الخطب، وحسن خلقهﷺ، وعدم احتجابه عن الناس كالملوك، واعتنائه بالرؤيا؛ لأنها من أقسام الوحي.

قوله: «**أما بعد: فإن طفيلًا رأىٰ رؤيا أخبر بها...**»، وفي رواية أحمد والطبراني: «**إنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم أن أنهاكم عنها**»(٤٠٠). وهذا الحياء ليس حياء عن الإنكار عليهم، بل كانﷺ يكرهها؛ ويستحيي أن ينكرها، لأنه لم يؤمر بإنكارها، فلما جاء الأمر الإلهي بالرؤيا الصالحة خطبهم، ونهىٰ عن ذلك نهيًا بليغًا.

قوله: «**فلا تقولوا: ما شاء الله وشاءمحمد...**»؛ هذه الرؤيا حق، أقرهاﷺ وعمل بمقتضاها، ونهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد؛ لما فيه من مطلق التسوية بين الخالق والمخلوق، وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله وحده، كما في الحديث قبله، ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص، وأبعد عن الشرك، وأفضل وأكمل من قول: **ما** شاء الله ثم شاء محمد؛ لما في قول: ما شاء الله وحده من التصريح بالتوحيد، المنافي للتنديد من كل وجه، فالبصير يختار لنفسه أعلىٰ مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص، ويجوز أن يقال: ما شاء الله ثم شاء فلان كما تقدم. وفيه معنىٰ قولهﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»(٤٠١). وإن كانت هذه رؤيا منام، فقد أقرها رسول اللهﷺ وأخبر أنها حق. قال المصنف: وفيه أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي، وأنها قد تكون سببًا لشروع بعض الأحكام.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله**: «**باب قول ما شاء الله وشئت**»:

هذه الترجمة داخلة في الترجمة السابقة ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢]

---

(٤٠٠) سبق تخريجه.

(٤٠١) أخرجه البخاري، كتاب:التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، برقم (٥٩٨٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ومسلم، كتاب: الرؤيا، باب:(١)، برقم (٨/ ٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «باب قول: ما شاء الله وشئت»:

أراد المؤلف بيان حكم قول: «ما شاء الله وشاء فلان» وما أشبه ذلك وأنه يجب أن يقول: ثم فلان وهذا هو مقتضى التوحيد والإخلاص، وفيه كمال التوحيد والبعد عن الشرك دقيقه وجليله، فحكم هذا أنه لا يجوز فقول المؤلف: باب كذا.. أي: حكم كذا.

فالأكمل: ما شاء الله وحده.وما شاء الله ثم شاء فلان وهذا جائز، وما شاء الله وشاء فلان لا يجوز وهو من الشرك الأصغر ومنقص للتوحيد وهكذا أمثاله.

❁ **قوله:** «عن قتيلة: أن يهوديًا أتى النبيﷺ فقال: إنكم تشركون، وتقولون...»[٤٠٢]:

فيه أن الناس من أهل الباطل قد يفهمون أشياء ومسائل إذا كان عندهم هوى وإن كانوا هم واقعون في ذنب وفسق وكفر أعظم من ذلك: ولهذا عاب اليهود على المسلمين - لما في قلوبهم من الغيظ والحقد على الرسولﷺ - وقد أصابوا في قولهم، ولهذا أمرهم النبيﷺ أن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت وأن يقولوا، ورب الكعبة.

❁ **قوله:** «وله أيضًا عن ابن عباس أن رجلًا قال للنبيﷺ ما شاء الله وشئت...»:

«**أجعلتني لله ندًا**»: وفي لفظ: «**أجعلتني لله عدلًا**».

❁ **قوله:** «لابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت...»:

«**إنكم لأنتم القوم لولا**»: أي: أنكم تستحقون المدح لولا قولكم كذا.

قوله: «**وكان يمنعني كذا وكذا**: وفي رواية «**وكان يمنعني الحياء أن أنهاكم عنها**»؛ أي: لأنه لم يأت فيها من الله نهي فلما جاءت الرؤيا كانت سببًا للمنع ونزل الوحي بمنعها وأن يقولوا: ما شاء الله وحده.

وقد ورد فيما أخرج الشيخان في قصة الأعمى والأبرص والأقرع قوله: «**فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**»[٤٠٣] وهذا هو الواجب.

وهذا القول: ما شاء الله وفلان من الشرك الأصغر وقد يكون من الأكبر إذا أراد أن له أشياء مستقلة يتصرف فيها.

---

(٤٠٢) سبق تخريجه.

(٤٠٣) أخرجه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٤٦٤)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، برقم (١٠/ ٢٩٦٤) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال العلامة ابن عثيمين:

۞ **قوله: «باب قول: ما شاء الله وشئت »:**

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن قول: «ما شاء الله وشئت» من الشرك الأكبر أو الأصغر؛ لأنه إن اعتقد أن المعطوف مساوٍ لله؛ فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به في اللفظ؛ فهو أصغر، وقد ذكر بعض أهل العلم أن من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر.

قوله: «أن يهوديًّا»: اليهودي: هو المنتسب إلى شريعة موسى عليه السلام، وسموا بذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[الأعراف:١٥٦]؛ أي: رجعنا، أو لأن جدهم اسمه يهوذا بن يعقوب؛ فتكون التسمية من أجل النسب، وفي الأول تكون التسمية من أجل العمل، ولا يبعد أن تكون من الاثنين جميعًا.

قوله: «إنكم تشركون»؛ أي: تقعون في الشرك أيها المسلمون.

قوله: «ما شاء الله وشئت». الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساويًا للمعطوف عليه، وهو الله عز وجل حيث كان العطف بالواو المفيدة للتسوية.

قوله: «والكعبة». الشرك هنا أنه حلف بغير الله، ولم ينكر النبي ﷺ ما قال اليهودي، بل أمر بتصحيح هذا الكلام؛ فأمرهم إذا حلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة؛ فيكون القسم بالله.

وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله، ثم شئت؛ فيكون الترتيب بـ«ثم» بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق، وبذلك يكون الترتيب صحيحًا، أما الأول، فلأن الحلف صار بالله، وأما الثاني؛ فلأنه جُعِل بلفظ يتبين به تأخر مشيئة العبد عن مشيئة الله، وأنه لا مساواة بينهما.

ويُستفاد من الحديث:

١ - أن النبي ﷺ لم ينكر على اليهودي مع أن ظاهر قصده الذم واللوم للنبي ﷺ وأصحابه؛ لأن ما قاله حق.

٢ - مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان مَنْ نبه عليه ليس من أهل الحق.

٣ - أنه ينبغي عند تغيير الشيء أن يغير إلى شيء قريب منه؛ لأن النبي ﷺ أمرهم أن يقولوا: «ورب الكعبة»، ولم يقل: احلفوا بالله، وأمرهم أن يقولوا: «**ما شاء الله، ثم شئت**».

إشكال وجوابه:

وهو أن يقال: كيف لم ينبه علىٰ هذا العمل إلا هذا اليهودي؟

وجوابه: أنه يمكن أن الرسول ﷺ لم يسمعه ولم يعلم به.

ولكن يقال: بأن الله يعلم، فكيف يقرهم؟

فيبقىٰ الإشكال، لكن يجاب: إن هذا من الشرك الأصغر دون الأكبر؛ فتكون الحكمة هي ابتلاء هؤلاء اليهود الذين انتقدوا المسلمين بهذه اللفظة مع أنهم يشركون شركًا أكبر ولا يرون عيبهم.

قوله: في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**أن رجلًا قال للنبي ﷺ**». الظاهر أنه قاله للنبي ﷺ تعظيمًا، وأنه جعل الأمر مُفوضًا لمشيئة الله ومشيئة رسوله.

قوله: «**أجعلتني لله ندًّا؟!**»: الاستفهام للإنكار، وقد ضمن معنىٰ التعجب، ومن جعل للخالق ندًّا، فقد أتى شيئًا عجابًا.

والنِّد: هو النظير والمساوي؛ أي: أجعلتني لله مساويًا في هذا الأمر؟!

قوله: «**بل ما شاء الله وحده**». أرشده النبي ﷺ إلىٰ ما يقطع عنه الشرك، ولم يرشده إلىٰ أن يقول: ما شاء الله ثم شئت حتىٰ يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بَعُدَت.

يستفاد من الحديث:

١ - أن تعظيم النبي ﷺ بلفظ يقتضي مساواته للخالق شرك، فإن كان يعتقد المساواة؛ فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك؛ فهو أصغر، وإذا كان هذا شركًا؛ فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ؟!

هذا أعظم؛ لأنه ﷺ ليس له شيء من خصائص الربوبية، بل يلبس الدرع، ويحمل السلاح، ويجوع، ويتألم، ويمرض، ويعطش كبقية الناس، ولكن الله فضله علىٰ البشر بما أُوحي إليه من هذا الشرع العظيم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ فهو بشر، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾، ثم جاء التمييز بينه وبين بقية البشر بقوله تعالىٰ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[الكهف: ١١٠]، ولا شك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضلة التي بها الكمالات من كل وجه: أعطاه من الصبر العظيم، وأعطاه من الكرم ومن الجود، لكنها كلها في حدود البشرية، أما أن تصل إلىٰ خصائص الربوبية؛ فهذا أمر لا يمكن، ومن ادعىٰ ذلك، فقد كفر بمحمد ﷺ وكفر بمن أرسله.

فالمهم أننا لا نغلو في الرسول - عليه الصلاة والسلام - فننزله في منزلة هو ينكرها، ولا نهضم حقه الذي يجب علينا فنعطيه ما يجب له، ونسأل الله أن يعيننا علىٰ القيام بحقه، ولكننا لا ننزله منزله الرب عز وجل.

٢ - إنكار المنكر وإن كان في أمر يتعلق بالمنكر؛ لقوله ﷺ: **«أجعلتني لله ندًّا»**؟!، مع أنه فعل ذلك تعظيمًا للنبي ﷺ، وعلىٰ هذا إذا انحنىٰ لك شخص عند السلام؛ فالواجب عليك الإنكار.

٣ - أن من حسن الدعوة إلىٰ الله ﷻ أن تذكر ما يباح إذا ذكرت ما يحرم؛ لأنه ﷺ لما منعه من قوله: **«ما شاء الله وشئت»** أرشده إلىٰ الجائز وهو قوله: **«بل ما شاء الله وحده»**.

❁ **قوله**: في حديث الطفيل: «رأيت كأني أتيت علىٰ نفر من اليهود»:

أي: رؤيا في المنام

وقوله: **«كأن»**. اسمها الياء، وجملة **«أتيت»** خبرها.

وقوله: **«علىٰ نفر»**. من الثلاثة إلىٰ التسعة، واليهود أتباع موسىٰ.

قوله: **«لأنتم القوم»**: كلمة مدح؛ كقولك: هؤلاء هم الرجال.

وقوله: **«عزير»**. هو رجل صالح ادعىٰ اليهود أنه ابن الله، وهذا من كذبهم، وهو كفر صريح، واليهود لهم مثالب كثيرة، لكن خُصت هذه؛ لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم.

قوله: **«ما شاء الله وشاء محمد»**: هذا شرك أصغر؛ لأن الصحابة الذين قالوا هذا ولا شك أنهم لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله، فانتقدوا عليهم تسوية مشيئة الرسول ﷺ بمشيئة الله ﷻ باللفظ مع عظم ما قاله هؤلاء اليهود في حق الله - جل وعلا.

قوله: **«تقولون: المسيح ابن الله»**. هو عيسىٰ بن مريم وسمي مسيحًا بمعني ماسح، فهو فعيل بمعني فاعل؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ بإذن الله؛ كالأكمه والأبرص.

والشيطان لعب بالنصارىٰ، فقالوا: هو ابن الله؛ لأنه أتىٰ بدون أب، كما في القرآن: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[الأنبياء:٩١]، قالوا: هو جزء من الله؛ لأن الله أضافه إليه، والجزء هو الابن.

والروح علىٰ الراجح عند أهل السنة: ذات لطيفة تدخل الجسم وتحل فيه كما يحل الماء في الطين اليابس، ولهذا يقبضها الملك عن الموت وتكفن ويصعد بها ويراها الإنسان عند موته؛ فالصحيح، أنها ذات وإن كان بعض الناس يقول: إنها صفة، ولكنه ليس كذلك، والحياة صحيح أنها صفة لكن الروح ذات، إذًا نقول لهؤلاء النصارىٰ: إن الله أضاف روح عيسىٰ إليه كما أضاف البيت والمساجد والناقة إليه وما أشبه ذلك علىٰ سبيل التشريف والتعظيم، ولا شك أن المضاف إلىٰ الله يكتسب شرفًا وعظمة، حتىٰ إن بعض الشعراء يقول في معشوقته:

لا تَدْعُني إلا بِيَا عَبْدَها ... فإنَّه أَشْرَفُ أَسْمَائي

قوله: «فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت»: المقصود بهذه العبارة الإبهام؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[طه:٧٨]، والإبهام قد يكون للتعظيم كما في الآية المذكورة، وقد يكون للتحقير حسب السياق، وقد يراد به معنىً آخر.

قوله: «هل أخبرت بها أحدًا؟ »: سأل النبي ﷺ هذا السؤال؛ لأنه لو قال: لم أخبر أحدًا؛ فالمتوقع أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - سيقول له: لا تخبر أحدًا هذا هو الظاهر، ثم يبين له الحكم - عليه الصلاة والسلام -، لكن لما قال: إنه أخبر بها، صار لا بد من بيانها للناس عمومًا؛ لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه، بخلاف إذا كان خاصًّا؛ فهذا يخبر به من وصله الخبر.

قوله: «فحمد الله»: الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

قوله: «وأثنىٰ عليه»؛ أي: كرر ذلك الوصف.

قوله: «أما بعد»: سبق أنها بمعني مهما يكن من شيء بعد؛ أي: بعد ما ذكرت؛ فكذا وكذا.

قوله: «يمنعني كذا وكذا »؛ أي: يمنعه الحياء كما في رواية أخرىٰ، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن من أن ينهي عنها دون أن يأمره الله بذلك. هذا الذي يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة إن كانت محفوظة: أن الحياء الذي يمنعه ليس الحياء من الإنكار؛ لأن الرسول ﷺ لا يستحي من الحق ولكن الحياء من أن ينكر شيئًا قد درج علىٰ الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار، مثل الخمر بقي الناس يشربونها حتىٰ حُرِّمت في سورة المائدة، فالرسول ﷺ لما لم يؤمر بالنهي عنها سكت، ولما حصل التنبيه علىٰ ذلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارىٰ رأىٰ ﷺ أنه لابد من إنكارها لدخول اللوم علىٰ المسلمين بالنطق بها.

قوله: «قولوا: ما شاء الله وحده»: نهاهم عن الممنوع، وبين لهم الجائز.

❁ **قوله: «فيه مسائل»:**

الأولىٰ: معرفة اليهود بالشرك الأصغر: لقوله: «إنكم لتشركون».

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوىٰ؛ أي: إذا كان له هوىٰ فهم شيئًا، وإن كان هو يرتكب مثله أو أشد منه؛ فاليهود مثلًا أنكروا علىٰ المسلمين قولهم: «**ما شاء الله وشئت** » وهم يقولون أعظم من هذا، يقولون: عزير ابن الله، ويصفون الله تعالىٰ بالنقائص والعيوب.

ومن ذلك بعض المقلدين يفهم النصوص علىٰ ما يوافق هواه؛ فتجده يحمل النصوص من الدلالات ما لا تحتمل، كذلك أيضًا بعض العصريين يحملون النصوص ما لا تحتمله حتىٰ توافق

ما اكتشفه العلم الحديث في الطب والفلك وغير ذلك، كل هذا من الأمور التي لا يحمد الإنسان عليها؛ فالإنسان يجب أن يفهم النصوص علىٰ ما هي عليه، ثم يكون فهمه تابعًا لها، لا أن يُخضع النصوص لفهمه أو لما يعتقده؛ ولهذا يقولون: استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل؛ لأنك إذا اعتقدت ثم استدللت ربما يحملك اعتقادك علىٰ أن تُحرِّف النصوص إلىٰ ما تعتقده، كما هو ظاهر في جميع الملل والمذاهب المخالفة لما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - تجدهم يحرفون هذه النصوص لتوافق ما هم عليه، والحاصل: أن الإنسان إذا كان له هوىٰ؛ فإنه يحمل النصوص ما لا تحتمله من أجل أن توافق هواه.

الثالثة: قولهﷺ: **«أجعلتني لله ندًّا»؟! هو قوله: «ما شاء الله وشئت»**.

وقوله: **«فكيف بمن قال: ما لي من ألوذ به سواك والبيتين بعده... »** يشيررَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أبيات للبوصيري في البردة - القصيدة المشهورة -، يقول فيها:

يـا أَكْـرَمَ الخَلْـقِ مـا لِي مَـنْ أَلُـوذُ بِـهِ ... سِـواكَ عِنـدَ حُلـولِ الحَـادِثِ العَمِـمِ
إنْ لَمْ تَكُـنْ آخِـذًا يـومَ المَعـادِ يَـدِي ... عفـوًا وإلا فَقُـلْ يـا زَلَّـةَ القَـدَمِ
فـإنَّ مِـنْ جـودِكَ الـدُّنيا وضَرَّتَهـا ... ومِـنْ عُلُومِـكَ عِلْـمُ اللَّـوْحِ والقَلَـمِ

وهذا غاية الكفر والغلو؛ فلم يجعل لله شيئًا، والنبيﷺ شرفه بكونه عبد الله ورسوله، لا لمجرد كونه محمد بن عبد الله.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر: لقوله: **«يمنعني كذا وكذا»**؛ لأنه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شيء من إنكاره.

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي: تؤخذ من حديث الطفيل، ولقولهﷺ: **«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»**(٤٠٤).

وهذا موافق للواقع بالنسبة للوحي الذي أُوحي إلىٰ النبيﷺ؛ لأن أول الوحي كان بالرؤيا الصالحة من ربيع الأول إلىٰ رمضان، وهذا ستة أشهر، فإذا نسبت هذا إلىٰ بقية زمن الوحي، كان جزءًا من ستة وأربعين جزءًا؛ لأن الوحي كان ثلاثًا وعشرين سنة وستة أشهر مقدمة له.

والرؤيا الصالحة: هي التي تتضمن الصلاح، وتأتي منظمة وليست بأضغاث أحلام.

---

(٤٠٤) سبق تخريجه.

أما أضغاث الأحلام؛ فإنها مشوشة غير منظمة، وذلك مثل التي قصها رجل على النبي ﷺ قال: إني رأيت رأسي قد قطع، وإني جعلت أشتد وراءه سعيًا. فقال النبي ﷺ: **«لا تحدث الناس بتلاعب الشيطان بك في منامك»**[٤٠٥]، والغالب أن المرائي المكروهة من الشيطان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[المجادلة: ١٠]، ولذلك أرشد النبي ﷺ لمن رأى ما يكره أن يتفل عن يساره، أو ينفث ثلاث مرات، وأن يقول: **«أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت. وأن يتحول إلى الجانب الآخر، وأن لا يخبر أحدًا»**[٤٠٦]. وفي رواية: **«أمره أن يتوضأ وأن يصلي»**.

السادسة: **أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام**: من ذلك رؤيا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أنه يذبح ابنه، وهذا الحديث، وكذلك أثبت النبي ﷺ رؤيا عبد الله بن زيد في الأذان، وقال النبي ﷺ: **«إنها رؤيا حق»**[٤٠٧]، وأبو بكر رضي الله عنه أثبت رؤيا من رأى ثابت بن قيس بن شماس؛ فقال للذي رآه: إنكم ستجدون درعي تحت بُرْمة، وعندها فرس يستن. فلما أصبح الرجل ذهب إلى خالد بن الوليد وأخبره، فذهبوا إلى المكان ورأوا الدرع تحت البرمة عندها الفرس، فنفذ أبو بكر وصيته؛ لوجود القرائن التي تدل على صدقها، لكن لو دلت على ما يخالف الشريعة؛ فلا عبرة بها، ولا يلتفت إليها؛ لأنها ليست رؤيا صالحة.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: «باب قول: ما شاء الله وشئت»:**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أن هذا الباب داخل في باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا...﴾ وقد سبق بيان مناسبته.

---

(٤٠٥) أخرجه مسلم، كتاب: الرؤيا، باب: لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام، برقم (١٤/ ٢٢٦٨) وغيره من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤٠٦) أخرجه البخاري، كتاب: التعبير، باب: إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها برقم (٧٠٤٤)، ومسلم، كتاب: الرؤيا، برقم (٤/ ٢٢٦١) من حديث أبي قتادة.

(٤٠٧) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: كيف الأذان، برقم (٤٩٩)، والترمذي، كتاب: الصلاة، باب: بدء الأذان، برقم (١٨٩)، وأحمد (٤/ ٤٣) وغيرهم من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٦٥٠).

❁ قوله: «عن قتيلة...»:

التراجم: قُتَيلةُ: بضم القاف وفتح التاء مصغرًا بنت صيفي الجهنية صحابية رضي الله عنها.

«قول: ما شاء الله وشئت»؛ أي: ما حكم التكلم بذلك هل يجوز أم لا؟ وإذا كان لا يجوز فهل هو شرك أو لا؟

«تشركون»؛ أي: الشرك الأصغر.

«ما شاء الله وشئت»: وهذا فيه تشريك في مشيئة الله.

«وتقولون»: والكعبة: وهذا قسم بغير الله.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

ذكر هذا اليهودي للنبي ﷺ أنَّ بعض المسلمين يقع في الشرك الأصغر حينما تصدر منه هذه الألفاظ التي ذكرها، فأقرَّه النبي ﷺ علىٰ اعتبارها من الشرك، وأرشد إلىٰ استعمال اللفظ البعيد من الشرك بأن يحلفوا بالله، وأن يعطفوا مشيئة العبد علىٰ مشيئة الله بـ«ثم» التي هي للترتيب والتراخي؛ لتكون مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه بيان أنَّ قول: «ما شاء الله وشئت» شرك.

ما يستفاد من الحديث:

١- أنَّ قول: «ما شاء الله وشئت»، والحلف «بغير الله» شرك؛ لأن الرسول ﷺ أقرَّ اليهوديَّ علىٰ اعتبارهما من الشرك.

٢- معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

٣- فهم الإنسان إذا كان له هوىٰ.

٤- قبول الحق ممن جاء به وإن كان عدوًّا مخالفًا في الدين.

٥- أنَّ الشرك الأصغر لا يخرج من الملة.

٦- الابتعاد عن الألفاظ المخلة بالعقيدة واستبدالها بالألفاظ البعيدة عن الشرك بالله.

٧- أنَّ العالم إذا نهىٰ عن شيء فإنه يبين البديل الذي يُغْنِي عنه إذا أمكن.

٨- أنَّ النهي عن الشرك عام لا يصلح منه شيء حتىٰ بالكعبة التي هي بيت الله في أرضه فكيف بغيرها؟!

٩- إثبات المشيئة لله، وإثبات المشيئة للعبد، وأنَّها تابعة لمشيئة الله.

قوله: «وله»:

أي: النسائي.

«أجعلتني»: استفهام إنكارٍ.

«ندًّا»؛ أي: شريكًا.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أنكر ﷺ علىٰ من عطف مشيئة الرسول علىٰ مشيئة الله بـ«الواو»؛ لما يقتضيه هذا العطف من التسوية بين الله وبين المخلوق، واعتبر هذا من اتخاذ الشريك لله، ثم أسند المشيئة إلىٰ الله وحده.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ قول: «ما شاء الله وشئت» وما أشبه هذا اللفظ من اتخاذ الند لله المنهي عنه بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢].

ما يستفاد من الحديث:

١- النهي عن قول: «ما شاء الله وشئت» وما أشبهه مما فيه عطف مشيئة العبد علىٰ مشيئة الله بـ«الواو» وما أشبه ذلك.

٢- أن من سَوَّىٰ العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد اتخذه ندًّا لله.

٣- إنكار المنكر.

٤- أنَّ رسول الله ﷺ قد حَمَىٰ حِمَىٰ التوحيد، وسد طرق الشرك.

قوله: «ولابن ماجه عن الطفيل...»:

التراجم: الطفيل هو: الطفيل بن عبد الله بن الحارث بن سخبرة الأزدي صحابي رضي الله عنه، وليس له إلا هذا الحديث.

«علىٰ نفرٍ»: النفر: رهط الإنسان وعشيرته اسم جمع يقع علىٰ الرجال خاصة.

«لأنتم القوم»؛ أي: نعم القوم أنتم.

«لولا أنكم تقولون: عزيرٌ ابن الله»؛ أي: لولا ما أنتم عليه من الشرك بنسبة الولد إلىٰ الله؛ وهذا لأنَّ عزيرًا كان يحفظ التوراة عن ظهر قلبٍ، فقالوا فيه هذه المقالة وقيل لأنه نبي.

«تقولون: ما شاء الله وشاء محمد»: عارضوه بذكر شيء ممَّا في بعض المسلمين من الشرك الأصغر.

«تقولون المسيح»؛ أي: عيسىٰ بن مريم عليه السلام.

«ابن الله»: فتشركون بالله بنسبة الولد إليه. وإنما قالوا هذا في عيسىٰ؛ لأنّه من أمٍّ بلا أب.

«حمد الله وأثنىٰ عليه»: الحمد هو: الثناء علىٰ الجميل الاختياري من الإنعام وغيره، والثناء هو: تكرار المحامد.

«كان يمنعني كذا وكذا»: هو الحياء كما في الرواية الأخرىٰ؛ لأنه حينذاك لم يؤمر بإنكارها.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر الطفيل رضي الله عنه أنه رأىٰ في منامه أنه مرَّ علىٰ جماعة من أهل الملَّتين، فأنكر عليهم ما هم عليه من الشرك بالله بنسبة الولد إليه - تعالىٰ الله عن ذلك - فعارضوه بذكر ما عليه بعض المسلمين من الشرك الأصغر الوارد في بعض ألفاظهم، وعندما أصبح قصَّ هذه الرؤيا علىٰ النبي ﷺ فأعلنها الرسول ﷺ وأنكر علىٰ الناس التكلم بهذه الكلمة الشركية، وأمرهم أن يتلفظوا باللفظ الخالص من الشرك.

مناسبة الحديث للباب:

أنه أفاد أن التلفظ بـ«ماشاء الله وشاء محمد» وما أشبهها من الألفاظ شرك أصغر كما سبق.

ما يستفاد من الحديث:

١- الاعتناء بالرؤيا، وأنها سبب لتشريع بعض الأحكام وقت حياة الرسول ﷺ.

٢- أنَّ قول: «ما شاء الله وشاء فلان» وما أشبه ذلك شرك أصغر.

٣- معرفة اليهود والنصارىٰ بالشرك الأصغر، مع ما هم عليه من الشرك الأكبر من أجل الطعن بالمسلمين.

٤- تقديم حمد الله والثناء عليه في الخطب، وقول: أمَّا بعد، فيها.

٥- استحباب قصر المشيئة علىٰ الله، وإن كان يجوز أن يقول: ما شاء الله ثم شاء فلان.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب قول: ما شاء الله وشئت»:**

هذا الباب ترجمه بقوله: «باب قول ما شاء الله وشئت» وهذه المسألة تقدم الكلام عليها في باب قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، وأن قول القائل: ما شاء الله وشئت شرك في اللفظ، وتشريك في المشيئة، وهذا من الشرك الأصغر.

والباب واضح من حيث ما اشتمل عليه، لكن فيه فوائد، منها:

❁ **قوله: «عن قتيلة أن يهوديًا أتىٰ النبي ﷺ فقال: «إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة،...»:**

فيه من الفوائد ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في مسائل الباب حيث قال: فيه فهم الإنسان إذا كان له هوىٰ. فهؤلاء اليهود هم أهل الشرك يقولون: عزير ابن الله، ويشركون بالله -جل وعلا- لكنهم مع كونهم مشركين نقموا علىٰ أهل الإسلام أنهم يشركون، وهذا لأجل الطعن فيهم، فالهوىٰ وطلب تنقص أهل الإسلام والنقد عليهم ومخاطبتهم بما يسوؤهم، كل هذا قصدًا لهم، ولهذا فهموا من أين يدخلون! فأهل الإسلام أهل التوحيد، قالوا لهم: إنكم تشركون، وهم أهل الشرك، فردوا عليهم بما قالوا، ومما يستفاد منه أن صاحب الهوىٰ قد يفهم الصواب، فإذا فهم الصواب فإن الواجب أن يُقبل منه؛ لأن المسلم يجب عليه أن يقبل الحق ممن جاء به، ولو كان يهوديًا أو نصرانيًا، فهذا اليهودي والنصراني توجها إلىٰ المؤمنين بالقدح فيهم بالشرك، ولم يمنع النبي ﷺ من قبول الحق الذي قالوه أنهم يهود، بل قَبِل ما جاء به ذلك اليهودي فأوصاهم أن يتركوا ذلك التنديد؛ لأن الحق هو ضالة المؤمن أينما وجده أخذه، فلا يمنعه من قبول الحق أن قاله مشرك، أو قاله كافر، أو قاله فاسق، أو قاله مبتدع، أو قاله ضال، إذا كان الكلام في نفسه حقًا؛ لأنه كما جاء قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها»**.(٤٠٨).

والحديث الذي بعده واضح.

❁ **قوله: «لابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت علىٰ نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله، ...»:**

هذا فيه أن صاحب الهوىٰ أو صاحب الملة الباطلة قد يردّ علىٰ صاحب الحق بأن عنده باطلًا كما أن عند ذاك باطلًا، فإذا واجهه بذلك فالواجب عليه أن يتجرد للحق وأن لا يرد الحق لأجل أن من أتىٰ به صاحب باطل، فالقاعدة عند أهل السنة والإيمان أن البدعة لا ترد ببدعة، والباطل لا يرد بباطل، وقد حصل كثير من البدع في تاريخ الإسلام، وحصلت الشبهات، وقويت بعض

---

(٤٠٨) أخرجه الترمذي، كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه علىٰ العبادة، برقم (٢٦٨٧)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الحكمة، برقم (٤١٦٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، وقال: ضعيف جدًا، برقم (٤٣٠٢).

الضلالات بسبب أن من وجّه بحق لم يتقبله ورده؛ لأن الذي واجهه بذلك الحق صاحب باطل، فلما لم يقبل الحق صار يوجّه الأدلة ويؤولها، من أجل إبطال ذلك الحق، وهذا كما فعله طائفة من أهل البدع، والواجب أيضًا ألا ترد البدعة ببدعة، وإنما ترد البدعة بحق، وإذا جهل المرء كيف يرد البدعة بحق، فليصبر حتىٰ يتعلم، أو يسأل أهل العلم، وليس من الواجب عليك أن ترد مباشرة، بل إذا وجهت بحق ولو كان من أضل الضلال فاقبل، فإبليس -الشيطان- قُبل منه بعض الحق الذي جاء به، وأرشد إليه أبا هريرة، وهؤلاء اليهود والنصارىٰ في هذين الحديثين قبلنا منهما حقًّا أرشدونا إليه في أعظم المسائل وأجل المطالب، وهو في توحيد الله جل وعلا.

وهذه المسائل ليست من الشرك الأكبر، بل من الأصغر كما دل عليه قوله في آخره: «قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها» والنهي عن الشرك في الألفاظ أتىٰ بالتدريج في تاريخ بَعْثة النبي عليه الصلاة والسلام، وتبليغه أمته بالأوامر والنواهي، فكان الحلف بالآباء جائزًا، ثم نهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك. وكذلك قول: ما شاء الله وشئت، ثم نهاهم عن ذلك، ولهذا قال المصنف في مسائل كتاب التوحيد: فيه أن الشرك فيه أكبر وأصغر، لقوله: «كان يمنعني كذا وكذا» وأما الشرك الأكبر فلا يجوز أن يؤخَّر إنكاره أو أن يمنع عنه مانع، أما الشرك في الألفاظ فقد تكون المصلحة والفقه -فقه الدعوة وفقه ترتيب الأهم فالأهم وتقديم الأهم علىٰ المهم- أن يُؤَخَّر بعضه لتتم المصلحة العظمىٰ، أما الشرك الأكبر فلا مصلحة تبقىٰ مع وجوده.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر، أي لقوله: «**إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت**»... إلخ.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى، أي: إن اليهود والنصارى لما كان لهم هوى على المسلمين فَهِمُوا ما يعيبونهم به وهو قولهم: « **تقولون ما شاء الله وشاء محمد**».

الثالثة: قوله ﷺ: « **أجعلتني لله ندًّا**» فكيف بمن قال: ما لي من ألوذ به سواك والبيتين بعده؟! أي: إذا كان هذا قد جعله ندًّا لله بقوله: « **ما شاء الله وشئت**» فكيف بقول البوصيري في البردة: «**يا أكرم الخلق**»... إلخ ما ذكر فهذا أعظم شركًا ومحاداة لله ورسوله.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: يمنعني كذا وكذا، أي: قوله: ما شاء الله وشاء محمد ليس بشرك أكبر لقوله: يمنعني كذا وكذا،يعني: الحياء كما ثبت في رواية أحمد والبيهقي بإسناد صحيح، ولو كان شركًا أكبر لبادرهم بالإنكار عليهم والنهي عنه.

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي، أي لقوله: إن طفيلا رأى رؤيا.

السادسة: أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام، أي: إذا كان ذلك في وقت التشريع كما في هذا الحديث أما بعد ذلك فلا.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن التشريك بين الله وبين خلقه في المشيئة من الشرك الأصغر المنافي لكمال التوحيد.

❁ **قوله: «عن قتيلة أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون تقولون ما شاء الله...».**

س: من هي قتيلة وما الذي يدل عليه هذا الحديث؟

جـ: قتيلة هي بنت صيفي صحابية مهاجرة ويؤخذ من حديثها:

١ - قبول الحق ممن جاء به ولو كان يهوديًّا.

٢ - تحريم قول: ما شاء الله وشئت وأنه من الشرك.

٣ - أن الذي ينبغي قول ما شاء الله ثم شئت.

٤ - النهي عن الحلف بالكعبة وأنه من الشرك.

❁ **قوله: «لابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت...»:**

س: من هو الطفيل؟ وما رأيك في رؤياه هذه؟ وما الذي يستفاد منها؟ وما معنى قوله: إنكم لأنتم القوم؟ وما المقصود بقوله: إنكم تقولون كلمة كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها؟ وما معنى نفر؟

جـ: الطفيل: هو أخو عائشة أم المؤمنين لأمها صحابي جليل.

وهذه الرؤيا حق حيث أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها فنهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله وحده.

ويستفاد من هذا الحديث: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي وأنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام.

ومعنى قوله إنكم لأنتم القوم؛ أي: إنكم أنتم الكاملون لو لا أنكم تشركون. والنفر: الجماعة.

والمقصود بقوله: «إنكم تقولون كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها»: كناية عن شيء لم يذكر وفي بعض الروايات أنه كان يمنعه الحياء منهم وهذا قبل أن يؤمر بإنكارها، فلما جاء الأمر الإلهي بالرؤيا الصالحة أنكرها ونهاهم عنها نهيًا بليغًا ولم يستح من ذلك.

س: ما الفرق بين قول: ما شاء الله ثم شاء فلان وبين قول: ما شاء الله وحده؟

جـ: الفرق بينهما أن قول: ما شاء الله وحده أكمل في الإخلاص وأبعد عن الشرك؛ لأن فيه تصريحًا بالتوحيد المنافي للشرك من كل وجه.

س: ما معنى حديث ابن عباس المتقدم أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت فقال: «أجعلتني لله ندًّا ما شاء الله وحده»! وما الذي يستفاد منه؟

جـ: المعنىٰ ما ينبغي أن تسويني في الله بالمشيئة.

ويستفاد منه: أن هذا شرك لوجود التسوية في العطف بالواو وأن من سوىٰ العبد بالله فقد جعله شريكًا لله.

والله أعلم وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.



الدرس الخامس والأربعون:

باب من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالىٰ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية [الجاثية: ٢٤].

وفي «الصحيح » [عن أبي هريرة عن النبيﷺ، قال] (٤٠٩): «قال الله تعالىٰ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار » (٤١٠).

وفي رواية: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر » (٤١١).

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته أذىً لله.

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر».

الرابعة: أنه قد يكون سابًّا ولو لم يقصده بقلبه.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله**: «باب من سبَّ الدهر فقد آذىٰ الله»:

لأنهم إذا أضافوا إلىٰ الدهر ما نالهم من الشدائد، فإنما سبوا فاعله حقيقة وهو الله سبحانه، والساب مرتكب أحد أمرين: إما مسبة الله أو الشرك، فإن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك، وهو يسب من فعله فقد سب الله تعالىٰ الله وتقدس.

ومناسبة هذا الباب للكتاب ظاهرة؛ لأن سب الدهر يتضمن الشرك، ولفظ الأذىٰ في اللغة: هو لما خف أمره وضعف أثره من الشر والمكروه، وهو بخلاف الضر، فقد أخبر سبحانه، أن العباد لا يضرونه، لكن يؤذونه إذا سبوا مقلب الأمور.

---

(٤٠٩) في نسخة ابن قاسم: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ».

(٤١٠) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، سورة الجاثية، باب: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، برقم (٤٨٢٦)، ومسلم، كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر، برقم (٢/ ٢٢٤٦) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤١١) أخرجه مسلم، كتاب: الألفاظ من الأدب...، باب: النهي عن سب الدهر، برقم (٥/ ٢٢٤٦) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❁ **قوله:** «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا...﴾ الآية [الجاثية:٢٤]»:

أي: يقول مشركو العرب والفلاسفة الإلهيون وأضرابهم: ما حياتنا إلا حياة الدنيا التي نحن فيها، لا حياة سواها تكذيبًا منهم بالبعث بعد الموت،: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثَمَّ معاد ولا قيامة، جحدًا للمنقول ومكابرة للمعقول؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛أي: ما يفنينا إلا ممر الليالي والأيام، فيسبون الدهر، والله يقول: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**»[٤١٢]. وأكذبهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: يقين علم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: يتوهمون ويتخيلون، ومطابقة الآية للترجمة ظاهرة؛ لأن من سب الدهر فقد شاركهم في سبه، وإن لم يشاركهم في الاعتقاد.

❁ **قوله:** «وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:...»:

الحديث أخرجاه في «الصحيحين» وغيرهما من طريق معمر وغيره من أوجه عن أبي هريرة وغيره، بهذا اللفظ وغيره، وفي الحديث زيادة وهي «**بيدي الأمر**» وفي رواية: «**لا تقولوا: يا خيبة الدهر؛ فإني أنا الدهر أرسل الليل والنهار، فإذا شئت قبضتهما**»[٤١٣]. وفي رواية: «**يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار**»[٤١٤]. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم بلفظ: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾[الجاثية:٢٤] الآية. فقال الله: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**»[٤١٥] وأخرج ابن إسحاق عن أبي هريرة: «**يقول الله: استقرضت عبدي فلم يعطني، ويسبني عبدي: وادهراه، وأنا الدهر**»[٤١٦].

قال بعض السلف: كانت العرب في جاهليتها من شأنها ذم الدهر؛ أي: سبه عند النوازل، فكانوا إذا أصابهم شدة أو بلاء أو ملامة قالوا: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، وقالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلىٰ الدهر ويسبونه، وإنما فاعل ذلك هو الله، فإذا أضافوا ما نالهم من الشدائد إلىٰ الدهر فإنما سبوا الله عز وجل؛ لأن الله هو الفاعل لذلك حقيقة، فنهىٰ الله

---

(٤١٢) سبق تخريجه.

(٤١٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٨) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٤٣٤٤).

(٤١٤) سبق تخريجه.

(٤١٥) سبق تخريجه.

(٤١٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٠)، و ابن خزيمة، برقم (٢٤٧٩)، أبو يعلىٰ، برقم (٦٤٦٦) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (٣٤٧٧).

عن سب الدهر بهذا الاعتبار، وقد تبين معناه من قوله: «بيدي الأمر أقلب الليل والنهار». وتقليبه: تصرفه تعالىٰ فيه بما يحبه الناس ويكرهونه.

❁ **قوله: «لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»:**

ومعنىٰ هذه الرواية هو ما صرح به من قوله: «**وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار**» يعني: أن ما يجري فيه من خير وشر إنما هو بإرادة الله وتدبيره، بعلم منه تعالىٰ وحكمة لا يشاركه في ذلك غيره، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالواجب حمده في الحالتين، وحسن الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف:١٢٨].

قال المصنف: وفيه أنه يكون سابًّا وإن لم يقصده بقلبه، ونسبة الفعل إلىٰ الدهر، ومسبته قد فشت في كلام العرب، كقول ابن المعتز:

يـا دهـر ويحـك مـا أبقيـت لي أحـدا … وأنـت والـد سـوء تأكـل الولـدا

وقول أبي الطيب:

قبحـا لوجهـك يـا زمـان … فإنـه وجـه لـه في كـل قـبح برقـع

وهذا ونحوه داخل في الحديث وفيه مفاسد، منها: سب من ليس أهلًا للسب؛ فإن الدهر خلق مسخر، ومنها: أن سبه متضمن للشرك، فإنما سبه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه مع ذلك ظالم، ومنها: أن السب إنما يقع علىٰ من فعل هذه الأفعال، ورب الدهر هو المعطي المانع الخافض الرافع، والدهر ليس له من الأمر شيء، فمسبته مسبة لله عز وجل ومنها: هذه سنة خبيثة، وعكسه قولهم: هذه تبسمة زمان يعني للأوقات التي يكثر فيها الخير، وليس منه وصف السنين بالشدة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾[يوسف:٤٨]. وقال بعض الشعراء:

إن الليـالي مـن الزمـان مهولـة … تطـوىٰ وتنـشر بينهـا الأعـمار

فقـصارهن مـع الهمـوم طويلـة … وطـوالهن مـع السـرور قـصار

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «باب من سبَّ الدهر فقد آذىٰ الله»:**

وهذا واقع كثيرًا في الجاهلية، وتبعهم علىٰ هذا كثير من الفساق والمجان والحمقىٰ، إذا جرت تصاريف الدهر علىٰ خلاف مرادهم جعلوا يسبون الدهر والوقت، وربما لعنوه. وهذا ناشئ من ضعف الدين ومن الحمق والجهل العظيم؛ فإن الدهر ليس عنده من الأمر شيء، فإنه مُدبر مُصَّرف والتصاريف الواقعة فيه تدبير العزيز الحكيم، ففي الحقيقة يقع العيب والسب علىٰ مدبره.

وكما أنه نقص في الدين، فهو نقص في العقل، فيه تزداد المصائب، ويعظم وقعها ويغلق باب الصبر الواجب وهذا مناف للتوحيد، أما المؤمن فإنه يعلم أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته، فلا يتعرض لعيب ما لم يعبه الله ولا رسوله، بل يرضىٰ بتدبير الله، ويسلم لأمره، وبذلك يتم توحيده وطمأنينته.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب من سب الدهر فقد آذىٰ الله»:

أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان أن سب الدهر وغيره من المعاصي من جملة الأشياء التي تناقض التوحيد وتضعفه وتنافي كماله، فالواجب الحذر من الأسباب التي تضعف الإيمان من المعاصي وسب الدهر وسب الريح وسب ما لا يستحق السب وما يغضب الله.

لأن الدهر مخلوق مدبر ليس في يده تصرف، فهو مدبر من الله تعالىٰ وهو الليل والنهار فسبه إيذاء لله، والله لا يضره شيء ولكن المعاصي تؤذي الله؛ لأنها تغضبه كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[الأحزاب:٥٧] .

وسب الدهر هو سب الزمان وهو الليل والنهار كأن يقول: قاتل الله هذه الساعة ولعن الله هذه الساعة وهذا اليوم ولا بارك الله في هذا اليوم وما أشبه ذلك، فسب الدهر هو شتمه أو لعنه أو الدعاء عليه، أما وصفه بالشدة فليس من السب كأن يقول: هذا يوم شديد وعسر ونحس أو بارد أو حار.

قوله: «وفي «الصحيح» عن أبي هريرة مرفوعًا: «قال الله تعالىٰ: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر...»»:

فبين هنا معنىٰ الدهر وأنه الليل والنهار وهو الذي يقلبه فسبه سب للذي خلقه وقلبه فلا يجوز ذلك، وقد غلط من قال: أن الدهر من أسماء الله كابن حزم، والمقصود أنه خالق الدهر ومكون الكائنات في الدهر.

ومن ذلك قول الرسولﷺ : «**لا تسبوا الريح**»[٤١٧] وهكذا سب الإبل والغنم والبقر وسب كل من لا يستحق السب فسب هذه نقص في إيمانه وتوحيده.

---

(٤١٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: النهي عن سب الريح، وأحمد (٥/ ١٢٣) وغيرهما من حديث أبي بن كعب ﷺ، وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا هاجت الريح، برقم (٥٠٩٧)، وابن ماجه،، كتاب: الأدب، باب: النهي عن سب الريح، برقم (٣٧٢٧) وغيرهما وكلاهما صحيح: وصحح الألباني الأول، في «صحيح الجامع»، برقم (٧٣١٧)، والثاني، برقم (٧٣١٦).

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب من سبَّ الدهر فقد آذى الله»:

السب: الشتم، والتقبيح، والذم، وما أشبه ذلك.

الدهر: هو الزمان والوقت.

وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللوم؛ فهذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده، وما أشبه ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات، ومثل هذا اللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط - عليه الصلاة والسلام -: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[هود:٧٧].

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبه الدهر أن الدهر هو الذي يقلب الأمور إلى الخير والشر؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقد أن مع الله خالقًا؛ لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكل من اعتقد أن مع الله خالقًا فهو كافر، كما أن من اعتقد أن مع الله إلهًا يستحق أن يعبد؛ فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاد أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل؛ لكن يسبه لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده؛ فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السفه في العقل والضلال في الدين؛ لأن حقيقة سبه تعود إلى الله - سبحانه -؛ لأن الله تعالى هو الذي يصرف الدهر ويكون فيه ما أراد من خير أو شر، فليس الدهر فاعلًا، وليس السبب يُكَفِّر؛ لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة.

قوله: «**فقد آذى الله**»: لا يلزم من الأذية الضرر؛ فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذلك، ولهذا أثبت الله الأذية في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[الأحزاب:٥٧]، وفي الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**»(٤١٨)، ونفى عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾[آل عمران:١٧٦]، وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني**»(٤١٩) رواه مسلم

---

(٤١٨) سبق تخريجه.

(٤١٩) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، برقم (٥٥/ ٢٥٧٧) وغيره من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

❁ **قوله**: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾»:

المراد بذلك المشركون الموافقون للدهرية - بضم الدال علىٰ الصحيح عند النسبة؛ لأنه مما تغير فيه الحركة -والمعني: وما الحياة والوجود إلا هذا؛ فليس هناك آخرة، بل يموت بعض ويحيا آخرون، هذا يموت فيدفن وهذا يولد فيحيا، ويقولون: إنها أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء سوىٰ هذا.

قوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: ليس هلاكنا بأمر الله وقدره، بل بطول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته، فالمهلك لهم هو الدهر.

قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾: ﴿ما﴾: نافية، و ﴿عِلْمٍ﴾: مبتدأ خبره مقدم ﴿لَهُم﴾، وأكد بـ ﴿مِنْ﴾، فيكون للعموم؛ أي: ما لهم علم لا قليل ولا كثير، بل العلم واليقين بخلاف قولهم.

قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: ﴿إِنْ﴾: هنا نافية لوقوع ﴿إِلَّا﴾ بعدها؛ أي: ما هم إلا يظنون.

الظن هنا بمعني الوهم؛ فليس ظنهم مبنيًّا علىٰ دليل يجعل الشيء مظنونًا، بل هو مجرد وهم لا حقيقة له؛ فلا حجة لهم إطلاقًا، وفي هذا دليل علىٰ أن الظن يستعمل بمعني الوهم، وأيضًا يستعمل بمعني العلم واليقين، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[البقرة:٤٦].

والرد علىٰ قولهم بما يلي:

أولًا: قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾. وهذا يرده المنقول والمعقول:

أما المنقول: فالكتاب والسنة تدل علىٰ ثبوت الآخرة ووجوب الإيمان باليوم الآخر، وأن للعباد حياة أخرىٰ سوىٰ هذه الحياة الدنيا، والكتب السماوية الأخرىٰ تقرر ذلك وتؤكده.

وأما المعقول: فإن الله فرض علىٰ الناس الإسلام والدعوة إليه والجهاد لإعلاء كلمة الله، مع ما في ذلك من استباحة الدماء والأموال والنساء والذرية، فمن غير المعقول أن يكون الناس بعد ذلك ترابًا لا بعث ولا حياة ولا ثواب ولا عقاب، وحكمة الله تأبىٰ هذا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص:٨٥]؛ أي: الذي أنزل عليك القرآن وفرض العمل به والدعوة إليه لابد أن يردك إلىٰ معاد تجازىٰ فيه ويجازىٰ فيه كل من بلغته الدعوة.

ثانيًا: قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: إلا مرور الزمن.

وهذا يرده المنقول والمحسوس:

فأما المنقول: فالكتاب والسنة تدل علىٰ أن الإحياء والإماتة بيد الله ﷻ كما قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يونس:٥٦]، وقال عن عيسىٰ - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران:٤٩].

وأما **المحسوس**: فإننا نعلم من يبقىٰ سنين طويلة علىٰ قيد الحياة، كنوح عليه السلام وغيره ولم يهلكه الدهر، ونشاهد أطفالًا يموتون في الشهر الأول من ولادتهم، وشبابًا يموتون في قوة شبابهم؛ فليس الدهر هو الذي يميتهم.

مناسبة الآية للباب:

أن في الآية نسبة الحوادث إلىٰ الدهر، ومن نسبها إلىٰ الدهر؛ فسوف يسب الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه.

۞ **قوله**: «**وفي الصحيح عن أبي هريرة...إلىٰ آخره**»:

هذا الحديث يسمىٰ الحديث القدسي أو الإلهي أو الرباني، وهو كل ما يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل، وسبق الكلام عليه في باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.

قوله: «**قال الله تعالىٰ**»: تعالىٰ مشتق من العلو، وجاءت بهذه الصيغة للدلالة علىٰ ترفعه - جل وعلا - عن كل نقص وسفل؛ فهو متعال بذاته وصفاته، وهي أبلغ من كلمة علا؛ لأنها تحمل معنىٰ الترفع والتنزه عما يقوله المعتدون علوًّا كبيرًا.

قوله: «**يؤذيني ابن آدم**»؛ أي: يلحق بي الأذىٰ؛ فالآية لله ثابتة ويجب علينا إثباتها؛ لأن الله أثبتها لنفسه، فلسنا أعلم من الله بالله، ولكنها ليست كأذية المخلوق؛ بدليل قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١] وقدم النفي في هذه الآية علىٰ الإثبات لأجل أن يرد الإثبات علىٰ قلب خال من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ علىٰ الوجه اللائق به تعالىٰ، وأنه لا يماثل في صفاته كما لا يماثل في ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه؛ فليس فيه احتمال للتمثيل، إذ لو كان احتمال التمثيل جائزًا في كلامه سبحانه وكلام رسوله فيما وصف به نفسه؛ لكان احتمال الكفر جائزًا في كلامه سبحانه وكلام رسوله.

قوله: «**ابن آدم**»: شامل للذكور والإناث، وآدم هو أبو البشر، خلقه الله تعالىٰ من طين وسواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وعلمه الأسماء كلها.

واعلم أنه من المؤسف أنه يوجد فكرة مضلة كافرة، وهي أن الآدميين نشئوا من قرد لا من طين، ثم تطور الأمر بهم حتىٰ صاروا علىٰ هذا الوصف، ويمكن علىٰ مر السنين أن يتطوروا حتىٰ يصيروا ملائكة، وهذا القول لا شك أنه كفر وتكذيب صريح للقرآن؛ فيجب علينا أن ننكره إنكارًا بالغًا، وأن لا نقره في كتب المدارس، فمن زعم هذه الفكرة يقال له: بل أنت قرد في صورة إنسان، ومثلك كما قال الشاعر:

إذا مـــا ذكرنـــا آدمًـــا وفعالـــه ... وتزويجـــه بنتيـــه بابنيـــه في الخنـــا

علمنـا بـأن الخلـق مـن نـسل فـاجر ... وأن جميـع النـاس مـن عنـصر الزنـا

وأجابه بعض العلماء بجواب، فقال: أنت الآن أقررت أنك ولد زنا، وإقرارك على نفسك مقبول وعلى غيرك غير مقبول، ومثلك كما قال الشاعر:

كَـــذلِكَ إقرارُ الفَتَـــىٰ لازِمٌ لَـــهُ ... وفي غَـيْرِهِ لَغْـوٌ كـما جَـاءَ شَرْعُنـا

ولكن أنا في الحقيقة يؤلمني أن يوجد هذا بين أيدي شبابنا؛ فبعض الناس أخذوا به على أنه أمر محتمل، والواقع أنه لا يحتمل سوى البطلان والكذب والدس على المسلمين بالتشكيك بما أخبرهم الله به عن خلق آدم وبنيه.

وأيضًا مما يحذر عنه كلمة فكر إسلامي؛ إذ معنى هذا أننا جعلنا الإسلام عبارة عن أفكار قابلة للأخذ والرد، وهذا خطر عظيم أدخله علينا أعداء الإسلام من حيث لا نشعر، والإسلام شرع من عند الله وليس فكرًا لمخلوق.

قوله: «**يسب الدهر**»: الجملة تعليل للأذية أو تفسير لها؛ أي: بكونه يسب الدهر؛ أي: يشتمه ويقبحه ويلومه وربما يلعنه - والعياذ بالله - يؤذي الله، والدهر: هو الزمن والوقت، وقد سبق بيان أقسام سب الدهر.

قوله: «**وأنا الدهر**»؛ أي: مدبر الدهر ومصرفه، لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠]، ولقوله في الحديث: «**أقلب الليل والنهار**»، والليل والنهار هما الدهر.

ولا يقال بأن الله هو الدهر نفسه، ومن قال ذلك، فقد جعل الخالق مخلوقًا، والمقلِّب بكسر اللام مقلَّبًا بفتح اللام.

فإن قيل: أليس المجاز ممنوعًا في كلام الله وكلام رسوله وفي اللغة؟

أجيب: إن الكلمة حقيقة في معناها الذي دل عليه السياق والقرائن، وهنا في الكلام محذوف تقديره: وأنا مقلب الدهر؛ لأنه فسره بقوله: «**أقلب الليل والنهار**»، والليل والنهار هما الدهر؛ ولأن العقل لا يمكن أن يجعل الخالق الفاعل هو المخلوق المفعول، المقلِّب هو المقلَّب، وبهذا عُرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله؛ كابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنه قال: «إن الدهر من أسماء الله»، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث، وغفلة عن الأصل في أسماء الله، فأما مدلول الحديث، فإن السابين للدهر لم يريدوا سب الله، وإنما أرادوا سب الزمن؛ فالدهر هو الزمن في مرادهم، وأما الأصل في أسماء الله؛

فالأصل في أسماء الله أن تكون حسنىٰ؛ أي: بالغة في الحسن أكمله، فلابد أن تشتمل علىٰ وصف ومعني هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله تعالىٰ أسمًا جامدًا أبدًا؛ لأن الاسم الجامد ليس فيه معنىٰ أحسن أو غير أحسن، لكن أسماء الله كلها حسنىٰ؛ فيلزم من ذلك أن تكون دالة علىٰ معان، والدهر اسم من اسماء الزمن ليس فيه معنىٰ إلا أنه اسم زمن، وعلي هذا؛ فينتفي أن يكون اسمًا لله تعالىٰ لوجهين:

الأول: أن سياق الحديث يأباه غاية الإباء.

الثاني: أن أسماء الله حسنىٰ، والدهر اسم جامد لا يحمل معنىٰ إلا أنه اسم للأوقات.

فلا يحمل المعنىٰ الذي يوصف بأنه أحسن، وحينئذٍ فليس من أسماء الله تعالىٰ، بل إنه الزمن، ولكن مقلب الزمن هو الله، ولهذا قال: «**أقلب الليل والنهار**».

قوله: «**أقلب الليل والنهار**»؛ أي: ذواتها وما يحدث فيهما؛ فالليل والنهار يقلبان من طول إلىٰ قصر إلىٰ تساو، والحوادث تتقلب فيه في الساعة وفي اليوم وفي الأسبوع وفي الشهر وفي السنة، قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران:٢٦]، وهذا أمر ظاهر، وهذا التقليب له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر؛ لأن حكمة الله أعظم، من أن تحيط بها عقولنا، ومجرد ظهور سلطان الله ﷻ وتمام قدرته هو من حكمة الله؛ لأجل أن يخشىٰ الإنسان صاحب هذا السلطان والقدرة، فيتضرع ويلجأ إليه.

۞ **قوله**: «**وفي رواية: لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر**»:

وفائدة هذه الرواية أن فيها التصريح في النهي عن سب الدهر.

قوله: «**فإن الله هو الدهر**»: وفي نسخة: «**فإن الدهر هو الله**»، والصواب: «**فإن الله هو الدهر**».

وقوله: «**فإن الله هو الدهر**»؛ أي: فإن الله هو مدبر الدهر ومصرفه، وهذا تعليل للنهي، ومن بلاغة كلام الله ورسوله قرن الحكم بالعلة لبيان الحكمة وزيادة الطمأنينة، ولأجل أن تتعدىٰ العلة إلىٰ غيرها فيما إذا كان المعلل حكمًا؛ فهذه ثلاث فوائد في قرن العلة بالحكم.

۞ **قوله**: «**فيه مسائل**»:

الأولىٰ: النهي عن سب الدهر: لقوله: «**لا تسبوا الدهر**».

الثانية: تسميته أذىً لله: تؤخذ من قوله: «**يؤذيني ابن آدم**».

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر»: فإذا تأملنا فيه وجدنا أن معناه أن الله مقلب الدهر ومصرفه، وليس معناه أن الله هو الدهر، وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: أنه قد يكون سابًّا ولو لم يقصده بقلبه: تؤخذ من قوله: «يؤذيني ابن آدم،، يسب الدهر». ولم يذكر قصدًا ولو عبر الشيخ بقوله: أنه قد يكون مؤذيًا لله وإن لم يقصده؛ لكان أوضح وأصح؛ لأن الله صرح بقوله: «**يسب الدهر**». والفعل لا يضاف إلا لمن قصده.

وقد فات على الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بعض المسائل، منها: تفسير آية الجاثية، وقد سبق ذلك.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾:

تمام الآية: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن سب الدهر يتضمن الشرك؛ لأن ساب الدهر إذا اعتقد أنه فاعل مع الله فهو مشرك.

«**آذى الله**»: حيث وصفه بصفات النقص.

﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: منكرو البعث.

﴿مَا هِىَ﴾؛ أي: الحياة.

﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: التي في الدنيا وليس هناك حياة أخروية.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يموت بعضٌ ويحيا بعض بأن يولدوا.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: مرور الزمان.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾؛ أي: القول.

﴿مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: لا دليل لهم عليه، وإنَّما قالوه بناءً على التقليد والإنكار لما لم يحسُّوا به ولم يحيطوا بعلمه.

المعنى الإجمالي للآية:

يخبر تعالى عن الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار البعث أنهم يقولون: ليس هناك حياة غير حياتنا الحاضرة، لا حياة سواها يموت بعضنا ويولد البعض الآخر، وليس هناك سبب لموتنا سوى مرور الزمن وتكرار الليل والنهار، فرد الله عليهم بأنهم ليس لهم حجة على هذا الإنكار إلاَّ مجرد الظنِّ والظنُّ ليس بحجة. والمفروض فيمن نفى شيئًا أن يقيم البرهان على نفيه، كما أنَّ من أثبت شيئًا فإنه يقيم الدليل على إثباته.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ من سب الدهر فقد شارك هؤلاء الدهرية في سبه وأن لم يشاركهم في الاعتقاد.

ما يستفاد من الآية:

١- إثبات البعث والرد علىٰ من أنكره.

٢- ذم من ينسب الحوادث إلىٰ الدهر.

٣- أن من نفىٰ شيئًا فهو مطالب بالدليل علىٰ نفيه كالمثبت.

٤- أنَّ الظنَّ لا يعتمد عليه في الاستدلال في العقائد.

قوله: «في الصحيح»:

أي: «صحيح البخاري».

«**يؤذيني**»: يتنقصني.

«**يسب الدهر**»؛ أي: يذمه ويلومه عند المصائب التي تنزل.

«**وأنا الدهر**»؛ أي: صاحب الدهر ومدبر الأمور التي ينسبونها إلىٰ الدهر.

«**أقلب الليل والنهار**»: بالمعاقبة بينهما ومايجري فيهما من خير وشر.

«**وفي رواية**»؛ أي: لمسلم وغيره.

«**فإن الله هوالدهر**»؛ أي: هو الذي يُجري فيه ما أراده من خير وشر.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يروي الرسولﷺ عن ربهﷻ: أنَّ الذي يسب الدهر عند نزول المصائب والمكاره إنما يسب الله -تعالىٰ- يؤذيه بالتنقص؛ لأنه سبحانه هو الذي يُجري هذه الأفعال وحده؛ والدهر إنَّما هو خلق مسخر، وزمن تجري فيه الحوادث بأمر الله تعالىٰ.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه أنَّ من سب الدهر فقد آذىٰ الله؛ أي: تنقصه.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم سب الدهر.

٢- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر.

٣- أنَّ الدهر خلق مسخر.

٤- أنَّ الخلق قد يؤذون الله بالتنقص ولا يضرونه.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب من سبَّ الدهر فقد آذىٰ الله»:**

الدهر هو: الزمان، كاليوم والليلة، والأسابيع، والأشهر، والسنين، والعقود، هذا هو الدهر. وهذه الأزمنة مفعولة لا فاعلة، فهي لا تفعل شيئًا، وإنما هي مسخَّرة يسخرها الله جل جلاله، وكل يعلم أن السنين لاتأتي بشيء، وإنما الذي يفعل هو الله -جل وعلا- في هذه الأزمنة؛ ولهذا كان سبّ هذه السنين سبًّا لمن تصرف فيها، وهو الله -جل جلاله- لهذا عقد المؤلف هذا الباب ليبين أن سب الدهر ينافي كمال التوحيد، وأن سب الدهر يعود علىٰ الله -جل وعلا- بالإيذاء؛ لأنه سبٌّ لمن تصرف في هذا الدهر.

فمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة، وهو أن سبّ الدهر من الألفاظ التي لا تجوز، والتخلص منها واجب واستعمالها منافٍ لكمال التوحيد، وهذا يحصل من الجهلة كثيرًا فإنهم إذا حصل لهم في زمان شيء لا يسرهم سبوا ذلك الزمان، ولعنوا ذلك اليوم، أو لعنوا تلك السنة، أو لعنوا ذلك الشهر، ونحو ذلك من الألفاظ الوبيلة، أو شتموا الزمان، وهذا لا شك لا يتوجه إلىٰ الزمن؛ لأن الزمن شيء لا يفعل وإنما يُفعل فيه، وهو أذية لله جل وعلا.

❁ **قوله: «باب من سبَّ الدهر»:**

السب في أصله: التنقص، أو الشتم، فيكون بتنقص الدهر، أو يكون بلعنه، أو بشتمه، أو بنسبة النقائص إليه، أو بنسبة الشر إليه ونحو ذلك، وهذا كله من أنواع سبِّه. والله -جل وعلا- هو الذي يقلب الليل والنهار.

قوله: «**فقد آذىٰ الله**» كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب الليل والنهار**» ففيه رعاية للفظ الحديث.

وسبّ الدهر -كما ذكرنا- محرم، وهو درجات وأعلاها لعن الدهر؛ لأن توجه اللعن إلىٰ الدهر أعظم أنواع المسبة وأشد أنواع الإيذاء، وليس من مسبة الدهر وصف السنين بالشدة، ولا وصف اليوم بالسواد، ولا وصف الأشهر بالنحس، ونحو ذلك؛ لأن هذا مقيد، وهذا جاء في القرآن في نحو قوله جل وعلا: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾[فصلت: ١٦]، فوصف الله -جل وعلا- الأيام بأنها نحسات، والمقصود: في أيام نحسات عليهم، فوصف الأيام بالنحس؛ لأنه جرىٰ عليهم فيها ما فيه نحس عليهم، ونحو ذلك قوله -جل وعلا- في سورة القمر: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾[القمر: ١٩]،

فهذا ليس من سب الدهر؛ لأن المقصود بهذا أن الوصف ما حصل فيها كان من صفته كذا وكذا على هذا المتكلم، وأما سبه بأن ينسب الفعل إليه فيسب الدهر لأجل أنه فعل به ما يسوؤه فهذا هو الذي يكون أذية لله جل وعلا.

❁ **قوله**: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾[الجاثية: ٢٤]»:

هذه الآية ظاهرة في أن نسبة الأشياء إلىٰ الدهر من خصال المشركين أعداء التوحيد، فنفهم منه أن خصلة الموحدين أن ينسُبوا الأشياء إلىٰ الله -جل وعلا- ولا ينسُبوا الإهلاك إلىٰ الدهر، بل الله -جل وعلا- هو الذي يحيي ويميت.

❁ **قوله**: «**وفي الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال**: «**قال الله تعالىٰ: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار...**»:

قوله: «**وأنا الدهر**» لا يعني أن الدهر من أسماء الله -جل وعلا- ولكنه رتّبه علىٰ ما قبله، وهو قوله: «**يسب الدهر وأنا الدهر**» لأن حقيقة الأمر أن الدهر لا يملك شيئًا، ولا يفعل شيئًا، فسب الدهر سب لله؛ لأن الدهر فعل الله -جل وعلا- فيه، فهو ظرف للأفعال وليس مستقلًّا، فلهذا لا يفعل، ولا يَحرم، ولا يعطي، ولا يُكرم، ولا يُهلك، وإنما الذي يفعل هذه الأشياء مالك الملك المتفرد بالملكوت وتدبير الأمور الذي يجير ولا يجار عليه.

فقوله -إذًا-: «**وأنا الدهر**» فيه نفي نسبة الأشياء إلىٰ الدهر، وأن هذه الأشياء تنسب إلىٰ الله -جل وعلا- فيرجع مسبة الدهر إلىٰ مسبة الله -جل وعلا- لأن الدهر لا ملك له، والله هو الفاعل.

«**أقلب الليل والنهار**» والليل والنهار هما الدهر، فالله -جل وعلا- هو الذي يقلبهما، فليس لهما من الأمر شيء.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر، أي لقوله: لاتسبوا الدهر.

الثانية: تسميته أذىً لله، أي لقوله: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر.

الثالثة: التأمل في قوله فإن الله هو الدهر، أي: مصرف الدهر لقوله أدبر الليل والنهار.

الرابعة: أنه قد يكون سابًا ولو لم يقصده، أي: لكونه جعل ذلك سبًّا بمجرد القول ولم يفرق بين من قصد ومن لم يقصد.

* الأسئلة *

❁ **قوله:** «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ...﴾ [الجاثية:٢٤]».

س: اشرح هذه الآية وبين مناسبتها لهذا الباب.

جـ: يخبر الله تعالىٰ عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكارهم المعاد أنهم يقولون ما حياة إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها ولا حياة سواها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثمَّ معاد ولا قيامة وما يفنينا إلا مرور الليالي والأيام وطول العمر إنكارًا منهم؛ أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم.

ومناسبة الآية للباب: أن الله ذم فيها من نسب الإهلاك إلىٰ الدهر.

❁ **قوله:** «**في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالىٰ: يؤذيني ابن آدم ...**».

س: اذكر معنى هذا الحديث، وبين مناسبته للباب، وما حكم سب الدهر مع التعليل؟

جـ: **معناه:** أن العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلىٰ أو نكبة جعلوا يسبون الدهر ويقولون: يا خيبة الدهر؛ فيسندون إليه تلك الأفعال وإنما فاعلها هو الله تعالىٰ فكان مرجع سبها إليه؛ لأنه هو المتصرف فيها كما قال: «**أقلب الليل والنهار**» وتقليبه: تصرفه تعالىٰ فيه بما يحبه الناس ويكرهونه.

وقوله: «**فإن الله هو الدهر**» فسر هذه الكلمة بالكلمة الأخرىٰ وهي قوله: «**وأنا الدهر أقلب الليل والنهار**»؛ يعني: أن ما يجري فيه من خير وشر بإرادة الله تعالىٰ وتدبيره وعلمه وحكمته لا شريك له في ذلك.

فسب الدهر محرم؛ لأنه مسبة لله وأذية له لقوله: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر**».

فساب الدهر بين أمرين إما مسبة الله أو الشرك به، فإن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك. وإن اعتقد أن الله وحده هو الفاعل لذلك وهو يسب من فعله فقد سب الله تعالىٰ.

ومناسبة الحديث للباب: أن من أضاف إلىٰ الدهر فعلًا من الأفعال أو أمرًا من الأمور فقد آذىٰ الله تعالىٰ ولا يضر الله شيئًا.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس السادس والأربعون:

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في «الصحيح » عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أَخْنَعَ اسم عند الله: رجل تسمىٰ ملك الأملاك، لا مالك إلا الله »(٤٢٠).

قال سفيان: «مثل شاهان شاه». وفي رواية: «أغيظ رجل علىٰ الله يوم القيامة وأخبثه »(٤٢١)

قوله: «أخنع»؛ يعني: أوضع.

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي، عن التسمي بملك الأملاك.

الثانية: أن ما في معناه مثله، كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل(٤٢٢) الله سبحانه.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه»:

كحاكم الحكام وسلطان السلاطين، وسيد السادات. أشار المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ النهي عن ذلك قياسًا علىٰ ما في حديث الباب؛ لكونه شبهه في المعنىٰ. وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد؛ لمنافاة هذه الألفاظ لكماله، فيكون فيه شائبة من الشرك وإن لم يكن أكبر، ولا يخفىٰ ما في إطلاقه علىٰ غير الله من الجرأة علىٰ الله، وسوء الأدب معه؛ فإن كل لفظ يقتضي التعظيم والكمال، لا يكون إلا لله وحده.

---

(٤٢٠) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: أبغض الأسماء إلىٰ الله تعالىٰ، برقم (٦٢٠٦)، ومسلم كتاب: الآداب، باب: تحريم التسمي بملك الأملاك، وبملك الملوك، برقم (٢٠/ ٢١٤٣) وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤٢١) أخرجه مسلم، كتاب: الآداب، باب: تحريم التسمي بملك الأملاك، وبملك الملوك، برقم (٢١/ ٢١٤٣)، وأحمد (٢/ ٣١٥) وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤٢٢) في نسخة السعدي: «لإجلال».

❁ **قوله**: «إن أخنع اسم عند الله رجل...»:

فهو الذي يستحق هذا الاسم، ولا يصدق إلا عليه، فهو ملك الأملاك لا مالك أعظم ولا أكبر منه، فهو مالك الملك، وأزِمَّة الملوك بيده، و«تسمىٰ» بفتح التاء أي: سمىٰ نفسه، وقيل: بضم الياء التحتية؛ أي: يدعىٰ بذلك، وأكد النبي ﷺ تحريم التسمي بذلك بقوله: «**لا مالك إلا الله**»، فالذي تسمىٰ بذلك قد كذب وفجر، وبلغ الغاية في الكفر، وارتقىٰ إلىٰ ما ليس له بأهل، فصار أحقر الناس عند الله يوم القيامة، معاملة له بنقيض قصده. وأخرج الطبراني: «**اشتد غضب الله علىٰ من زعم أنه ملك الأملاك**»(٤٢٣).

قوله: «**مثل شاهان شاه**» بكسر النون والهاء، وقد تنون، وهو عند العجم عبارة عن ملك الأملاك وسلطان السلاطين، ولهذا مَثَّل به سفيان بن عيينة؛ لأنه عبارة عنه بلغة العجم، فمراده - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - أن الحديث متناول لمثل هذا بأي لسان كما هو ظاهر، فلا ينحصر في لفظ بعينه، بل كل ما أدىٰ إلىٰ هذا المعنىٰ فهو داخل في الحديث.

قوله: «**أغيظ رجل علىٰ الله يوم القيامة وأخبثه**»: أغيظ من الغيظ، وأخبث من الخبث، والغيظ مثل الغضب والبغض، فيكون بغيضا إلىٰ الله، خبيثا عنده، مغضوبا عليه، فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه، وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم، فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل: وضعه عند الله يوم القيامة، فصار أبغض الخلق إلىٰ الله وأخبثهم عنده وأحقرهم؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم؛ لتعاظمه في نفسه علىٰ خلق الله بنعم الله عليه، عكس من تواضع لله؛ فإن الله يرفعه. وهذه من الصفات التي نؤمن بها ونثبتها علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته، وزعم بعض المتأخرين أن التسمي بقاضي القضاة ونحوه جائز، واستدل بحديث «**أقضاكم علي**»(٤٢٤). ورده العراقي وغيره، وقال: لا يخفىٰ ما في ذلك من الجرأة علىٰ الله، وسوء الأدب معه.

---

(٤٢٣) أخرجه الطبراني، برقم (١٢١١٣) وغيره من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٩٨٨).

(٤٢٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فضائل الخباب، برقم (١٥٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

هذا هو معنىٰ «أخنع»، ورواه مسلم عن أحمد عن أبي عمرو الشيباني. قال القاضي عياض: معناه: أنه أشد الأسماء صغارًا، وبذلك فسره أبو عبيد، والخانع الذليل، فيفيد ما تقدم في معنىٰ «أغيظ»، أنه يكون حقيرًا بغيضًا عند الله، وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم كالقيام علىٰ المعظمين، كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضًا وغير ذلك.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه، وقوله: باب احترام أسماء الله تعالىٰ...» (٤٢٥):

وهاتان الترجمتان من فروع الباب السابق، وهو أنه يجب أن لا يجعل لله نِدَّ في النيات والأقوال والأفعال. فلا يسمىٰ أحد باسم فيه نوع مشاركة لله في أسمائه، وصفاته؛ كقاضي القضاة، وملك الملوك، ونحوها وحاكم الحكام، أو بأبي الحكم ونحوه. وكل هذا حفظ للتوحيد ولأسماء الله وصفاته. ودفع لوسائل الشرك حتىٰ في الألفاظ التي يُخشىٰ أن يتدرج منها إلىٰ أن يظن مشاركة أحدٍ لله في شيء من خصائصه وحقوقه.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه»:

أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان النهي عن الأسماء التي يكون لها تعلق بمشابهة أسماء الله تعالىٰ؛ لأنه سبحانه له أسماء يختص بها ليس لأحد أن يتسمىٰ بها مثل: الرحمن ومالك الملك والخلاق ورب العالمين وحاكم الحكام وسلطان السلاطين ونحوها؛ لأن من كمال التوحيد وتمام التوحيد عدم التسمي بهذه الأسماء، والتسمي بها ينقص التوحيد والإيمان، ودخول فيما لا ينبغي.

وكذلك قاضي القضاة وهذا يقع في بعض الدول وإن كانوا يريدون به قاضي قضاة البلد لكن إطلاقه غير مناسب ولا ينبغي.

أما إذا قيد: قاضي قضاة مصر أو مكة وغير ذلك فهذا أسهل، وتركه أولىٰ كأن يسمىٰ: رئيس القضاة أو أمين القضاة مما يبتعد به عن هذه الصفات المطلقة.

قوله: « **وفي «الصحيح» عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: إن أخنع اسم عند الله: رجل...»**

أخنع: أوضع وأذل وأردأ اسم.

---

(٤٢٥) دمج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بين شرحه لهذا الباب والباب الذي بعده..فتنبه.

فأنكر النبي ﷺ هذا الاسم؛ لأنه يوهم وصفًا لا يليق به، ولا يليق إلا بالله تعالىٰ فليس الإنسان ملك الأملاك بل هو ليس أهلًا له، وعليه أن يتسمىٰ بالأسماء الأخرىٰ التي تليق به.

شاه شاه: اسم عند العجم معناه ملك الملوك.

قال العلامة ابن عثيمين:

۞ **قوله:** «باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه»: أي: وضع الشخص لنفسه هذا الاسم، أو رضاه به من غيره.

قوله: «**قاضي القضاة**»: قاضي: بمعنىٰ حاكم، والقضاة؛ أي: الحكام، و «**أل**» للعموم.

والمعنىٰ: التسمي بحاكم الحكام ونحوه، مثل: ملك الأملاك، وسلطان السلاطين، وما أشبه ذلك، مما يدل علىٰ النفوذ والسلطان؛ لأن القاضي جمع بين الإلزام والإفتاء، بخلاف المفتي؛ فهو لا يلزم، ولهذا قالوا: القاضي جمع بين الشهادة، والإلزام، والإفتاء؛ فهو يشهد أن هذا الحكم حكم الله، وأن الحق للمحكوم له علىٰ المحكوم عليه، ويفتي؛ أي: يخبر عن حكم الله وشرعه، ويلزم الخصمين بما حكم به.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن من تسمىٰ بهذا الاسم؛ فقد جعل نفسه شريكًا مع الله فيما لا يستحقه إلا الله؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك إلا الله سبحانه وتعالىٰ، فالله هو القاضي فوق كل قاضٍ، وهو الذي له الحكم، ويرجع إليه الأمر كله كما ذكر الله ذلك في القرآن.

وقد تقدم أن قضاء الله ينقسم إلىٰ قسمين:

١- قضاء كوني.

٢- قضاء شرعي.

والقضاء الكوني لابد من وقوعه، ويكون فيما أحب الله وفيما كرهه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤] فهذا قضاء كوني متعلق بما يكرهه الله؛ لأن الفساد في الأرض لا يحبه الله، والله لا يحب المفسدين، وهذا القضاء الكوني لابد أن يقع ولا معارض له إطلاقًا.

وأما النوع الثاني من القضاء، وهو القضاء الشرعي؛ فمثل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] والقضاء الشرعي لا يلزم منه وقوع المقضي، فقد يقع وقد لا يقع، ولكنه يتعلق فيما يحبه الله، وقد سبق الكلام عن ذلك.

فإن قلت: إذا أضفنا «القضاة » وحصرناها بطائفة معينة، أو ببلد معين، أو بزمان معين، مثل أن يقال: قاضي القضاة في الفقه، أو قاضي قضاة المملكة العربية السعودية، أو قاضي قضاة مصر أو الشام، أو ما أشبه ذلك؛ فهل يجوز هذا؟

فالجواب: أن هذا جائز؛ لأنه مقيد، ومعلوم أن قضاء الله لا يتقيد، فحينئذٍ لا يكون فيه مشاركة لله ﷻ، علىٰ أنه لا ينبغي أيضًا أن يتسمىٰ الإنسان بذلك أو يسمىٰ به وإن كان جائزًا؛ لأن النفس قد تصعب السيطرة عليها فيما إذا شعر الإنسان بأنه موصوف بقاضي قضاة الناحية الفلانية، فقد يأخذه الإعجاب بالنفس والغرور حتىٰ لا يقبل الحق إذا خالف قوله، وهذه مسألة عظيمة لها خطرها إذا وصلت بالإنسان إلىٰ الإعجاب بالرأي بحيث يرىٰ أن رأيه مفروض علىٰ من سواه؛ فإن هذا خطر عظيم، فمع القول بأن ذلك جائز لا ينبغي أن يقبله اسمًا لنفسه أو وصفًا له، ولا أن يتسمىٰ به.

فإذا قُيد بزمان أو مكان ونحوهما؛ قلنا: إنه جائز، ولكن الأفضل ألا يفعل، لكن إذا قيد بفن من الفنون؛ هل يكون جائزًا؟

مقتضىٰ التقييد أن يكون جائزًا، لكن إن قيد بالفقه بأن قيل: «عالم العلماء في الفقه»، وقلنا: إن الفقه يشمل أصول الدين وفروعه علىٰ حد قول الرسول ﷺ: **«من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»**(٤٢٦)؛ صار فيه عموم واسع، ومعنىٰ هذا أن مرجع الناس كلهم في الشرع إليه؛ فهذا في نفسي منه شيء، والأولىٰ التنزه عنه.

وأما إن قيد بقبيلة؛ فهو جائز، لكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف أن لا يغتر ويعجب بنفسه، ولهذا قال النبي ﷺ للمادح: **«قطعت عنق صاحبك»**(٤٢٧).

وأما التسمي بـ«شيخ الإسلام»، مثل أن يقال: شيخ الإسلام ابن تيمية، أو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب؛ أي: أنه الشيخ المطلق الذي يرجع إليه الإسلام؛ فهذا لا يصح؛ إذ إن أبا بكر رضي الله عنه أحق بهذا الوصف؛ لأنه أفضل الخلق بعد النبيين، ولكن إذا قصد بهذا الوصف أنه جدد في الإسلام وحصل له أثر طيب في الدفاع عنه؛ فلا بأس بإطلاقه.

---

(٤٢٦) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين»، برقم (٧٣١٢)، ومسلم كتاب: الزكاة، باب: النهي عن المسألة، برقم (٩٨/ ١٠٣٧) وغيرهما من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٤٢٧) أخرجه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: إذا زكىٰ رجلٌ رجلًا كفاه، برقم (٢٦٦٢)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط...، برقم (٦٥/ ٣٠٠٠) وغيرهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

وأما بالنسبة للتسمية بـ «الإمام»؛ فهو أهون بكثير من التسمي بـ «شيخ الإسلام»؛ لأن النبي ﷺ سمى إمام المسجد إمامًا ولو لم يكن عنده إلا اثنان.

لكن ينبغي أن ينبه أنه لا يتسامح في إطلاق كلمة إمام إلا على من كان قدوة وله أتباع؛ كالإمام «أحمد» و«البخاري» و«مسلم» وغيرهم ممن له أثر في الإسلام؛ لأن وصف الإنسان بها لا يستحق هضم للأمة؛ لأن الإنسان إذا تصور أن هذا إمام وهذا إمام هان الإمام الحق في عينه، قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ومن ذلك أيضًا: «آية الله، حجة الله، حجة الإسلام»؛ فإنها ألقاب حادثة لا تنبغي؛ لأنه لا حجة لله على عباده إلا الرسل.

وأما آية الله، فإن أريد به المعنى الأعم؛ فلا مدح فيه؛ لأن كل شيء آية لله، كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وإن أريد المعنى الأخص؛ أي: أن هذا الرجل آية خارقة؛ فهذا في الغالب يكون مبالغًا فيه، والعبارة السليمة أن يقال: عالم مفتٍ، قاضٍ، حاكم، إمام لمن كان مستحقًّا لذلك.

قوله: «في الصحيح » سابق الكلام عليها.

قوله: «إن أخنع اسم»؛ أي: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى، فأوضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك؛ لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا، فالملوك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة؛ فجعل مرتبته فوق مرتبتهم، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ، ولهذا عوقب بنقيض قصده؛ فصار أوضع اسم عند الله إذا قصده أن يتعاظم حتى على الملوك، فأهين، ولهذا كان أحب اسم عند الله ما دل على التذلل والخضوع؛ مثل: عبد الله وعبد الرحمن، وأبغض اسم عند الله ما دل على الجبروت والسلطة والتعظيم.

قوله: «لا مالك إلا الله»؛ أي: لا مالك على الحقيقة الملك المطلق إلا الله تعالى.

وأيضًا لا ملك إلا الله ﷻ، ولهذا جاءت آية الفاتحة بقراءتين: (ملك يوم الدين) و ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة:٤]، لكي يجمع بين الملك وتمام السلطان؛ فهو - سبحانه - ملك مالك، ملك ذو سلطان وعظمة وقول نافذ، ومالك متصرف مدبر لجميع مملكته.

فالله له الخلق والملك والتدبير؛ فلا خالق إلا الله، ولا مدبر إلا الله، ولا مالك إلا الله، قال تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[فاطر:٣]، فالاستفهام بمعني النفي، وقد أشرب

معنى التحدي؛ أي: إن وجدتموه فهاتوه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الحجر:٨٦] فيها توكيد وحصر، وهذا دليل انفراده بالخلق، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾[الحج:٧٣]، فـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول يشمل كل من يُدعىٰ من دون الله: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾، وهذا علىٰ سبيل المبالغة؛ وما كان علىٰ سبيل المبالغة؛ فلا مفهوم له كثرة أو قلة.

وقال تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[الملك:١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[آل عمران:٢٦]، وهذا دليل انفراده بالملك، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾[يونس:٣١] وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[المؤمنون:٨٨ - ٨٩].

قوله: «**قال سفيان هو ابن عيينة: مثل شاهان شاه**». وهذا باللغة الفارسية؛ فشاهان: جمع بمعنىٰ أملاك، وشاه مفرد بمعنىٰ ملك، والتقدير: أملاك ملك؛ أي: ملك الأملاك، لكنهم في اللغة الفارسية يقدمون المضاف إليه علىٰ المضاف.

قوله: «وفي رواية: أغيظ رجل علىٰ الله يوم القيامة وأخبثه».

أغيظ: من الغيظ وهو الغضب؛ أي: أغضب شيء عند الله ﷻ وأخبثه هو هذا الاسم، وإذا كان سببًا لغضب الله وخبيثًا؛ فإن التسمي به من الكبائر.

وقوله: «**أغيظ**». فيه إثبات الغيظ لله ﷻ؛ فهي صفة تليق بالله ﷻ كغيرها من الصفات، والظاهر أنها أشد من الغضب.

❁ **قوله: «فيه مسائل»:**

الأول: النهي عن التسمي بملك الأملاك: وتؤخذ من قول الرسول ﷺ: «**إن أخنع اسم عند الله ﷻ رجل تسمىٰ ملك الاملاك**»، والمؤلف يقول: «النهي عن التسمي»والنهي شرعًا لا يستفاد من الصيغة المعينة المعروفة فحسب، بل إذا ورد الذم عليه، أو سب فاعله، أو ما أشبه ذلك؛ فإنه يفيد النهي، وصيغة النهي هي المضارع المقرون بـ«لا» الناهية، مثل: لا تفعل، ولكن إذا كان هناك ذم أو وعيد أو ما أشبه ذلك؛ فهو متضمن للنهي وزيادة.

الثانية: أن ما في معناه مثله كما قال سفيان: والذي في معناه: قاضي القضاة، وحاكم الحكام، وشاهان شاه في الفارسية.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه؛ أي: لم يقصد أنه ملك الأملاك أو قاضي القضاة؛ لعلمه أن هناك من هو أبلغ ملكًا وأحكم قضاء.

وإذا سمينا شخصًا بقاضي القضاة أو حاكم الحكام وهو ليس كذلك، بل هو من أجهل القضاة ومن أضعف الحكام؛ جمعنا بين أمرين: بين الكذب، والوقوع في اللفظ المنهي عنه، وأما إذا كان أعلم أهل زمانه، أو أعلم أهل مكانه، ويرجع القضاة إليه؛ فهذا وإن كان القول مطابقًا للواقع لكنه منهي عنه، مع أن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله - سبحانه - يؤخذ من قوله: «لا مالك إلا الله»، فالرسول ﷺ أشار إلى العلة، وهي: «**لا مالك إلا الله**»؛ فكيف تقول: ملك الأملاك وهو لا مالك إلا الله ﷻ؟.

الفرق بين ملك ومالك:

ليس كل ملك مالكًا، وليس كل مالك ملكًا؛ فقد يكون الإنسان ملكًا، ولكنه لا يكون بيده التدبير، وقد يكون الإنسان مالكًا ويتصرف فيما يملكه فقط؛ فالملك مَنْ مَلَكَ السلطة المطلقة، لكن قد يملك التصرف فيكون ملكًا مالكًا، وقد لا يملك فيكون ملكًا وليس بمالك، أما المالك، فهو الذي له التصرف بشيء معين؛ كمالك البيت، ومالك السيارة وما أشبه ذلك؛ فهذا ليس بملك؛ يعني: ليس له سلطة عامة.

ويستفاد من الحديث أيضًا:

١ - إثبات صفة الغيظ لله ﷻ، وأنه يتفاضل لقوله: «**أغيظ**»، وهو اسم تفضيل.

٢ - حكمة الرسول ﷺ في التعليم؛ لأنه لما بين أن هذا أخنع اسم وأغيظه أشار إلى العلة، وهو: «**لا مالك إلا الله**»، وهذا من أحسن التعليم والتعبير، ولهذا ينبغي لكل إنسان يعلم الناس أن يقرن الأحكام بما تطمئن إليه النفوس من أدلة شرعية أو علل مرعية، قال ابن القيم:

العِلْمُ مَعْرِفَةُ الهُدَىٰ بِدَلِيلِهِ ... مَا ذاكَ والتَّقْلِيدُ يَسْتَوِيانِ

فالعلم أن تربط الأحكام بأدلتها الأثرية أو النظرية؛ **فالأثرية**: ما كان من كتاب أو سنة أو إجماع، **والنظرية**: العقلية؛ أي: العلل المرعية التي يعتبرها الشرع.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** «باب التسمي بقاضي القضاه ونحوه»

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

بيان أنَّ التسمِّي باسمٍ فيه مشاركة لله في التعظيم شركٌ في الربوبية.

«**التراجم**»: سفيان هو: سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي، ثقة حافظ فقيه، ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ وسكن مكة ومات فيها سنة ١٩٨هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

«**ونحوه**»؛ أي: نحو قاضي القضاة مثل: حاكم الحكام، وسلطان السلاطين، وسيد السادات.

قوله: «**في الصحيح**»؛ أي: في «الصحيحين».

«**يُسمَّىٰ**»: مبني للمجهول؛ أي: يُدْعىٰ بذلك ويرضىٰ به وفي بعض الروايات: تسمىٰ بالتاء؛ أي: سمي نفسه بذلك.

«**الأملاك**»: جمع ملك بكسر اللام.

«**لا مالك إلا الله**»: هذا رد علىٰ من فعل ذلك بأنه وضع نفسه شريكًا لله فيما هو من خصائصه.

«**شاهان شاهٍ**»: هو عبارة عند العجم عن ملك الأملاك، وهذا تمثيل لا حصر.

قوله:«**وفي رواية**»؛ أي: لمسلم في «صحيحه».

«**أغيظ رجل**»: الغيظ: مثل الغضب والبغض؛ أي: أنَّه يكون بغيضًا إلىٰ الله.

«**وأخبثه**»؛ أي: أبطله؛ أي: يكون خبيثًا عند الله مغضوبًا عليه.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر ﷺ أن أوضع الناس عند الله ﷻ من تسمَّىٰ باسم يحمل معنىٰ العظمة والكبرياء التي لا تليق إلا بالله، كملك الملوك؛ لأنَّ هذا فيه مضاهاة لله، وصاحبه يدَّعي لنفسه أو يُدعىٰ له أنه ندٌّ لله؛ فلذلك صار المتسمِّي بهذا الاسم من أبغض الناس إلىٰ الله وأخبثهم عنده.

مناسبة الحديث للباب:

أنه يدل علىٰ تحريم التسمِّي بقاضي القضاة ونحوه قياسًا علىٰ تحريم التسمِّي بملك الملوك الوارد ذمُّه والتحذيُر منه.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم التسمِّي بقاضي القضاة ونحوه.

٢- وجوب احترام أسماء الله تعالىٰ.

٣- الحث علىٰ التواضع واختيار الأسماء المناسبة للمخلوق والألقاب المطابقة له.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه»:

التوحيد يقتضي من الموحِّد المؤمن بالله -جل وعلا- أن يعظّمه وألا يجعل مخلوقًا في منزلة الله -جل وعلا- فيما يختص به؛ لأنه قد يجعل المخلوق في منزلة الله لشبهة وصفٍ قام به، ككون القاضي هو رئيس القضاة أو أعلم، فيُجعل في اللفظ والتسمية قاضيًا للقضاة، فلهذا نبه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على أن التسمّي بالأسماء التي معناها إنما هو لله -جل وعلا- لا يجوز، والتوحيد يقتضي ألا يوصف بها إلا الله وألا يسمىٰ بها إلا الله جل وعلا.

فتسمية غير الله بتلك الأسماء التي ستأتي لا تجوز ومحرم بل هي أخنع الأسماء وأوضع تلك الأسماء وأبغض الأسماء إلىٰ الله جل جلاله.

قوله: «باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه»:

«التسمي» يشمل ما إذا سمىٰ نفسه، أو سماه غيره به فرضي، أما إذا سماه غيره به فلم يرض، فإنه لا يدخل في الذم، لعدم الرضا، فيلحق الوعيدُ المسمِّيَ، ومن رضي بذلك الاسم.

قوله: **«بقاضي القضاة ونحوه»**: ونحو قاضي القضاة مثل: ملك الأملاك، وشاهان شاه، ونحو ذلك، وقاضي القضاة: هو الذي يقضي بين القضاة، تقول: قاضي المسلمين، يعني: الذي يقضي بين المسلمين، وقاضي الرياض، يعني: الذي يقضي في الخصومات التي بين أهل الرياض، فقاضي القضاة لفظ حقيقة معناه: الذي يقضي بين القضاة، وهذا إنما هو لله -جل جلاله- فهو الذي يقضي بين العباد، وبين القضاة وبين العبيد، فهو قاضي القضاة علىٰ الحقيقة سبحانه وتعالىٰ فيخبر عنه بذلك؛ لأن **«قاضي القضاة»** ليست من أسماء البشر، فالذي يقضي بين القضاة هو الله جل جلاله.

والذين أطلقوا هذه التسمية علىٰ كبير القضاة، أو علىٰ كبير العلماء لا يعنون بها أن ذاك يقضي بين القضاة، وإنما يعنون بها أنه وصل إلىٰ مرتبة في القضاء أو في العلم أعلىٰ من درجة القاضي، فصار قاضي القضاة كما شاع في الزمن المتأخر في الدولة العثمانية أنهم يسمون المفتي شيخ الإسلام، ووكيل المفتي: وكيل شيخ الإسلام، وهي تسمية خاصة.

وقد انتشر في بلاد المسلمين التسمية بقاضي القضاة ونحوه منذ القرن الرابع الهجري إلىٰ أوقات متأخرة قريبة من هذا الزمان، والواجب علىٰ العبد ألا يجعل هذه التسمية جارية علىٰ لسانه، ولا أن يرضىٰ بها.

وكذلك ملك الأملاك، أو شاهان شاه، يعني: ملك الأملاك؛ لأن فيه تسمية البشر بما يختص بالله، فإن ملك الأملاك هو الله جل وعلا، والأملاك واسعة، والإنسان إنما يطلق عليه أنه مالك للشيء المعين، وليس مالكًا لكل شيء، فالذي يملك كل شيء هو الله وحده، والبشر يملكون بالإضافة بعض الأشياء.

وكذلك الملك -بالضم- وهو نفاذ الأمر والسيطرة فإنه يكون في بعض الأرض وليس في كل الأرض، فالذي يملك يقال له: مالك إذا كان يملك مِلكًا، أو مَلِك إذا كان يملك مُلكًا، بمعنىٰ: نفاذ الأمر، ويضاف إلىٰ بقعته، فيقال: ملك المملكة العربية السعودية، وملك الأردن، ونحو ذلك.

وأما الإطلاق العام ملك الأملاك، أو شاهان شاه، فإن الأملاك منها ما هو علىٰ الأرض، ومنها غير ذلك، وهذا إنما هو لله -جل وعلا- فالتوحيد يوجب ألا يتسمَّىٰ بذلك أحد، وألا يُرضىٰ بتسمية أحد بذلك، حتىٰ لو وجد في بعض الكتب لا ينقل كما هو، وقد يغلط بعض الباحثين وبعض طلبة العلم فينقل قولًا عن بعض أهل العلم المتقدمين، ممن يجوزون في مثل هذه الألفاظ، وفيه: «**وقال قاضي القضاة كذا**» «**وكان قاضي القضاة كذا**» ولايغيره، والواجب أن يغيره تعظيمًا لله -جل وعلا- وأمانة النقل التي يدّعون هي في مرتبة دون توحيد الله -جل وعلا- بكثير كثير، فالواجب تغيير ذلك، وهذا من توحيد الله وتغيير اشتراك الخلق مع الله -جل وعلا- في حقه فيما يزعمه بعض الخلق.

❁ **قوله: «في الصحيح عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمىٰ ملك الأملاك...»**:

«**أخنع**» يعني: أوضع، وأحقر، وأبعد الأسماء عند الله، رجل تسمّىٰ مَلِك الأملاك.

قوله: «**لا مالك إلا الله**» وهذا من أساليب الحصر، يعني: أن الملك إنما هو لله وحده، وهناك فرق بين مالك وملك، فمالك: اسم فاعل من المِلك، يقال: **ملَك الشيء**، يعني: اقتناه وصار مختصًا به من المِلك، وهذا راجع إلىٰ التصرف بالأعيان.

وأما المُلك -بالضم- فالاسم منه المَلِك، وهو الذي ينفُذ أمره ونهيه، فالملك راجع إلىٰ الأعيان، والملك راجع إلىٰ المعاني، هذا في قول عدد من محققي أهل اللغة.

❁ **قوله: «قال سفيان: «مثل شاهان شاه، وفي رواية: أغيظ رجل علىٰ الله يوم القيامة وأخبثه»**:

وسبب كونه أغيظ رجل وأخبث رجل أنه جعل نفسه مماثلًا لله -جل وعلا- في الحق بهذه التسمية.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك، أي لقوله: إن أخنع اسم إلخ.

الثانية: أن ما في معناه مثله كما قال سفيان، أي: ما كان معنىٰ ملك الأملاك فهو مثله في النهي عنه كما مثل سفيان بن عيينة أحد الرواة بشاه أنشاه وهو عبارة عن ملك الملوك عند العجم.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه مع القطع بأن القلب لم يقصده، أي: إن هذا التغليظ المذكور لمن تسمىٰ بذلك ولو لم يقصد حقيقته؛ لكون النهي مطلقا من غير فرق بين القاصد وغيره.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه، أي: إن هذا النهي لأجل الله سبحانه أن يسمي غيره بشيء لايليق إلا به جل وعلا.



* الأسئلة *

س: لماذا أتى المؤلف بهذا الباب وما مناسبته لكتاب التوحيد؟

جـ: أتىٰ المؤلف بهذا الباب إشارة إلىٰ أن التسمي بقاضي القضاة ونحوه مثل التسمي بملك الأملاك في المعنىٰ المنهي عنه في هذا الباب.

ومناسبته لكتاب التوحيد: أن التسمي بهذا الاسم ونحوه معصية وأن من اتصف به فقد أتىٰ بما ينافي كمال التوحيد.

قوله: «وفي «الصحيح» عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: إن أخنع اسم عند الله رجل تسمىٰ ملك الأملاك لا مالك إلا الله. قال سفيان: مثل: شاهان شاه، وفي رواية: أغيض رجل علىٰ الله وأخبثه».

س: بين معاني الكلمات الآتية: أخنع، وأغيض، من هو سفيان، وما المقصود بقوله: مثل: شاهان شاه، اشرح الحديث؟

جـ: أخنع؛ يعني: أوضع، أغيض من الغيض وهو مثل الغضب والبغض فيكون بغيضًا إلىٰ الله مغضوبًا عليه.

وسفيان هو ابن عيينة، وشاهان شاه هو عند العجم في لغتهم عبارة عن ملك الأملاك، ومراد سفيان أن الحديث متناول لهذا وما في معناه بأي لغة كان، ففيه التحذير من كل ما فيه تعاظم.

فقد أخبر الرسولﷺ أن أبغض الرجال إلىٰ الله يوم القيامة وأخبثهم وأوضعهم وأحقرهم من تعاظم في نفسه وتسمىٰ بما لا يليق به.

س: لماذا نهي عن التسمي بقاضي القضاة وملك الملوك وحاكم الحكام ونحوهم؟

جـ: نهي عن ذلك؛ لأن هذا الاسم والوصف لا يصلح إلا الله.

س: ما الذي يستفاد من هذا الباب؟

جـ: تحريم التسمي بقاضي القضاة وملك الأملاك ونحوهما والوعيد الشديد علىٰ من تسمىٰ بذلك.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس السابع والأربعون:

باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح، أنه كان يكنىٰ أبا الحكم؛ فقال له النبي(٤٢٨) ﷺ: «إن الله هو الحَكَمُ، وإليه الحُكْمُ». فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء، أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين.فقال: «ما أحسن هذا! فما لك من الولد؟ ». قلت شريح، ومسلم، وعبد الله.قال: «فمن أكبرهم؟ ». قلت: شريح.قال.«فأنت أبو شريح». رواه أبو داود وغيره(٤٢٩).

فيه مسائل:

الأولىٰ: [احترام أسماء الله وصفاته](٤٣٠)ولو لم يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة.اختيار أكبر الأبناء للكنية.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله:** «باب احترام أسماء الله تعالىٰ...»:

أي: وجوب احترام أسماء الله تعالىٰ، وهو تعظيمها ووجوب تغيير الاسم لأجل احترام أسماء الله تعالىٰ، وذلك من تحقيق التوحيد. واحترمه: رعىٰ حرمته وهابه، وغَيَّر الاسم: حوّله وبدله، وجعل غيره مكانه.

❁ **قوله:** «عن أبي شريح أنه كان يكنىٰ أبا الحكم»:

أبو شريح هو هانئ بن يزيد الكندي، أسلم يوم الفتح، له عشرون حديثًا، اتفقا علىٰ حديثين

---

(٤٢٨) في نسخة ابن قاسم: «فقال النبي».

(٤٢٩) أخرجه أبو داود، كتاب: الأداب، باب: في تغيير الاسم القبيح، برقم (٤٩٥٥)، والنسائي، كتاب: آداب القضاة، باب: إذا حكَّموا رجلًا فقضىٰ بينهم، برقم (٥٣٨٧) وغيرهم من حديث هانئ رضي الله عنه، وقال الألباني في «المشكاة»، برقم (٤٧٦٦): «إسناده جيد».

(٤٣٠) في نسخة السعدي: «احترام صفات الله وأسماء الله».

منها، وانفرد البخاري بحديث، وروىٰ عنه أبو سعيد المقبري، ونافع بن جبير وطائفة، قال ابن سعد مات بالمدينة سنة ٦٨ هـ. و«يكنىٰ» بسكون الكاف وفتحها، ما صُدِّر بأم أو أب، وقد تكون بالأوصاف كأبي المعالي، أو إلىٰ ما يلابسه كأبي هريرة، وقد تكون للعلمية الصرفة كأبي بكر، واللقب ما أشعر بمدح كـ(زين العابدين) ونحوه، أو ذم كأنف الناقة ونحوه.

❁ **قوله: «إن الله هو الحكم، وإليه الحكم»:**

الحكم: اسم من أسماء الله تعالىٰ، الذي إذا حكم لا يرد حكمه، وهذه الصفة لا تليق بغير الله تعالىٰ. قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾[الرعد:٤١]. فهو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة، يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزله علىٰ أنبيائه ورسله، وما من قضية إلا وله تعالىٰ فيها حكم مما أنزله علىٰ نبيه من الكتاب والحكمة، لكن قد يخفىٰ علىٰ بعض الناس، وقد يسر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء، فلا تجتمع هذه الأمة علىٰ ضلالة، وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحدًا، فمن رزقه الله قوة الفهم وأعطاه ملكة يقتدر بها علىٰ فهم الصواب من أقوال العلماء ومستنداتهم، أدرك الصواب من ذلك. وإليه سبحانه الحكم؛ أي: الفصل بين العباد في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الشورىٰ:١٠]، وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فالحكم إلىٰ الله، هو الحكم إلىٰ كتابه وكذا الرد إليه هو الرد إلىٰ كتابه، والرد إلىٰ الرسول هو الرد إليه في حياته وإلىٰ سنته بعد وفاته، وتقدم قولهﷺ لمعاذ: «**بم تحكم**»؟ قال: بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد؟**»، قال: بسنة رسول الله. قال: «**فإن لم تجد**»؟ قال: أجتهد رأيي. وهو من أجل علماء الصحابة، فساغ له الاجتهاد بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط في الأحكام، ممن يجهل حكم الله ورسوله، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له، مع الجهل بالكتاب والسنة. وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله عز وجل يحكم بينهم سبحانه بعلمه، والحكم إنما هو بالحسنات والسيئات، يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات، وإلا أخذ من سيئات المظلوم فطرح علىٰ سيئات الظالم، ولا يظلم أحدًا مثقال ذرة. وفيه دليل علىٰ المنع من التسمي بأسماء الله تعالىٰ المختصة به، والمنع مما يوهم عدم الاحترام لها كالتكني بأبي الحكم ونحوه.

❁ **قوله: «إن قومي إذا اختلفوا في شيء...»:**

أي: أنا لم أُكَنِّ نفسي بهذه الكنية، وإنما كنت أحكم بينهم فكنوني بها، والمعنىٰ - والله أعلم- أن أبا شريح كان مرضيًّا عند قومه، يتحرىٰ ما يصلحهم إذا اختلفوا فيرضون صلحه، فسموه أبا

الحكم لذلك، لأن مدار صلحه على الرضا لا على الإلزام، ولا على أحكام الكهان وأهل الكتاب، ولا إلى أوضاع الجاهلية. وأما ما يحكم به الجهلة من الأعراب ونحوهم فليس من هذا الباب، لما فيه من النهي الشديد، والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وهذا كثير، فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه، ويحكم بما كانوا يحكمون به، ومنهم من يحكم بالقوانين اليونانية، وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه إذا اختلفوا، وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده، فيعتمد على قول من قلده، ويدع ما دل عليه الكتاب والسنة.

قوله: «ما أحسن هذا»:

أي: ما أحسن هذا الحكم بينهم، لما صار صاحب إنصاف وتحرٍ للعدل بينهم، والإرضاء لهم من الجانبين استحسنه ﷺ، أو ما أحسن ما ذكرته من الكنية، والأول أولى.

قوله: «رواه أبو داود وغيره»:

فرواه النسائي والحاكم، وزاد: «**فدعا له ولولده**». وقال ابن مفلح: وإسناده صحيح، وكناه بالكبير فهو السنة، كما جاء في غير ما حديث، وإن لم يكن له ابن فيكنى بأكبر بناته، وكذلك المرأة، وغير كنيته ﷺ؛ لأن الله هو الحكم على الإطلاق، ومنه تسمية الأئمة بالحكام، فينبغي ترك ذلك والنهي عنه لهذا الحديث، وفيه الرعاية للأكبر منا في التكريم، وأن استعمال الاسم الشريف الحسن مكروه في حق من ليس كذلك.

<u>قال العلامة ابن باز:</u>

❁ **قوله: «باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك »:**

أراد المؤلف بيان وجوب احترام أسماء الله والحذر من امتهانها أو احتقارها أو تسمية غير الله بها من الأسماء التي اختص الله بها، ولهذا شرع تغيير الاسم؛ لأجل احترامها وتعظيمها.

والأسماء قسمان:

١ - أسماء لا يسمى بها سوى الله سبحانه: كالرحمن والخالق ورب العالمين وغيره.

٢ - أسماء يسمى بها غيره سبحانه، فيكون لله ما يليق به وللعبد ما يليق به والمراد بها هنا الأول.

قوله: «عن أبي شريح أنه كان يكني أبا الحكم فقال له النبي: إن الله هو الحكم».

قوله: «**ما أحسن هذا**»؛ أي: ما أحسن هذا العمل الذي هو الإصلاح بينهم والتوسط ليرضوا وتزول الخصومات وهذا شيء مطلوب وخير.

فوائد الحديث:

ينبغي احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك ولهذا غير كنيته من أبي الحكم إلىٰ أبي شريح، وفيه أن الأفضل أن يكنىٰ الإنسان بأكبر أولاده.

وفيه شرعية الإصلاح بين الناس وأنه شيء مطلوب، وينبغي لكبراء الناس أن يتوسطوا بين قومهم في حل الخصومات حتىٰ لا تبقىٰ الشحناء والعداوة.

والإصلاح بينهم أفضل من الحكم؛ لأن الحكم يحصل به حزازات، لكن إذا اصطلحوا عن طيب نفس كان أفضل لزوال ما في النفوس وتحل المحبة والمودة.

قوله: «**رواه أبو داود**»: ظاهر كلام المؤلف أنه يرىٰ أن الحديث صالح للحجة ولهذا اعتمده واكتفىٰ به، واستدل به أنه لا يسمىٰ بالحكم وأبي الحكم؛ لأن هذا وصف لله تعالىٰ وهو الحاكم بين عباده وله الحكم في الدنيا بشرعه، وفي الآخرة بحكم بنفسه.

ولكن يرد علىٰ هذا ما جاء في الأحاديث الصحيحة الكثيرة من أسماء كالحكم والحكيم ولم يغيرها النبيﷺ وهي أصح من هذه الرواية، وهذا مما يدل علىٰ أن الحديث في صحته نظر؛ لأن النبيﷺ قد أقر بعض الأسماء كحكيم بن حزام والحكم بن عمرو الغفاري وأسماء أخرىٰ ولم يغيرها، ولو كانت منكرة لغيرها؛ ولأن الحكم يكون بالشرع بين الناس ولا يضره أن يتسمىٰ بذلك، وأن يسمىٰ القاضي والحاكم وما أشبه ذلك.

قال العلامة ابن عثيمين:

۞ **قوله**: «**باب احترام أسماء الله تعالىٰ وتغيير الاسم لأجل ذلك** »:

أسماء اللهﷻ هي: التي سمىٰ بها نفسه أو سماه بها رسولهﷺ. وقد سبق لنا الكلام فيها في مباحث كثيرة منها:

هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟

وقلنا: باعتبار دلالتها علىٰ الذات، مترادفة؛ لأنها تدل علىٰ ذات واحدة، وهو اللهﷻ، وباعتبار دلالتها علىٰ المعنىٰ والصفة التي تحملها متباينة، وإن كان بعضها قد يدل علىٰ ما تضمنه الآخر من باب دلالة اللزوم، فمثلًا: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ يتضمن الدلالة علىٰ العلم المستفاد من اسم العليم، لكنه بالالتزام، وعلىٰ القدرة المستفادة من اسم القدير، لكن بالالتزام.

الثاني: هل أسماء الله مشتقة أو جامدة؛ يعني: هل المراد بها الدلالة على الذات فقط، أو على الذات والصفة؟

الجواب: على الذات والصفة، أما أسماؤنا نحن؛ فيراد بها الدلالة على الذات فقط، فقد يسمى محمدًا وهو من أشد الناس ذمًا، وقد يسمى عبد الله وهو من أفجر عباد الله.

أما أسماء الله ﷻ، وأسماء الرسول ﷺ، وأسماء القرآن، وأسماء اليوم الآخر، وما أشبه ذلك؛ فإنها أسماء متضمنة للأوصاف.

الثالث: أسماء الله بعضها معلوم لنا وبعضها غير معلوم بدليل قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح في دعاء الكرب: «**أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي**...»(٤٣١) ومعلوم أن ما استأثر الله بعلمه لا يعلمه أحد.

الرابع: أسماء الله؛ هل هي محصورة بعدد معين؟

والجواب: غير محصورة، وقد سبق الكلام على ذلك، والجواب عن قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة**»(٤٣٢).

الخامس: أن هذه التسعة والتسعين غير معينة، بل موكولة لنا لنبحث حتى نحصل على التسعة والتسعين، وهذا من حكمة إبهامها لأجل البحث حتى نصل إلى هذه الغاية، ولهذا نظائر، منها: أن الله أخفى ليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، وساعة الإجابة في الليل؛ ليجتهد الناس في الطب.

السادس: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يترتب عليه دخول الجنة ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

أولًا: الإحاطة بها لفظًا.

ثانيًا: فهمها معنى.

---

(٤٣١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وابن حبان، برقم (٩٧٢)، والطبراني، برقم (١٠٣٥٢) وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٩٩)

(٤٣٢) أخرجه البخاري، كتاب: الشروط، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس بينهم وإذا قال مئة إلا واحدة أو ثنتين، برقم (٢٧٣٦)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، برقم (٦/ ٢٦٧٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثالثًا: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها، لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠] بأن تجعلها وسيلة إلىٰ مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور! وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب! اغفر لي، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرني من عقابك.

الوجه الثاني: أن تتعرض في عبادتك لما تقضيه هذه الأسماء، فمقتضىٰ الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالبًا لرحمة الله، ومقتضىٰ الغفور المغفرة، إذًا افعل ما يكون سببًا في مغفرة ذنوبك، هذا هو معنىٰ إحصائها، فإذا كان كذلك؛ فهو جدير لأن يكون ثمنًا لدخول الجنة، وهذا الثمن ليس علىٰ وجه المقابلة، ولكن علىٰ وجه السبب؛ لأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة وليست بدلًا، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**»(٤٣٣).

فلا تغتر يا أخي بعملك، ولا تعجب فتقول: أنا عملت كذا وكذا وسوف أدخل الجنة، قال تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾[الحجرات:١٧]، هذا باعتبار ما نراه نحن نحو أعمالنا؛ فيجب أن نرىٰ لله المنة والفضل علينا، لكن باعتبار الجزاء، قال تعالىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[الرحمن:٦٠]؛ فنؤمن بأن الله تعالىٰ يجزي الإحسان بالإحسان.

السابع: أسماء الله ﷻ ودلالتها علىٰ الذات والصفة جميعًا دلالة مطابقة، ودلالتها علىٰ الذات وحدها أو علىٰ الصفة وحدها دلالة تضمن، ودلالتها علىٰ أمر خارج التزام.

مثال ذلك: ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾ دل علىٰ الذات، وهو الرب ﷻ وعلي الصفة وهي الخلق جميعًا دلالة مطابقة، ودل علىٰ الذات وحدها أو علىٰ الصفة وحدها دلالة تضمن، ودل علىٰ القدرة والعلم دلالة التزام.

الثامن: أسماء الله ﷻ لايتم الإيمان بها إلا بثلاثة أمور إذا كان الاسم متعديًا: الإيمان بالاسم اسمًا لله، والإيمان بما تضمنه من صفة وما تضمنه من أثر وحكم؛ فالعليم مثلًا لا يتم الإيمان به حتىٰ نؤمن بأن العليم من أسماء الله، ونؤمن بما تضمنه من صفة العلم، ونؤمن بالحكم المرتب علىٰ ذلك، وهو أنه يعلم كل شيء، وإذا كان الاسم غير مُتعدٍّ؛ فنؤمن بأنه من أسماء الله وبما يتضمنه من صفة.

---

(٤٣٣) أخرجه البخاري، كتاب: المرضىٰ، باب: نهي تمني المريض الموت، برقم (٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب: صفات المنافقين، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالىٰ، برقم (٧١/ ٢٨١٦) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التاسع: أن من أسماء الله ما يختص به؛ مثل الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك، ومنها ما لا يختص به، مثل: الرحيم، السميع، العليم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[الإنسان:٢] وقال تعالىٰ عن النبي ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

قوله: «باب احترام أسماء الله»؛ أي: وجوب احترام أسماء الله؛ لأن احترامها احترام الله ﷻ ومن تعظيم الله ﷻ؛ فلا يسمىٰ أحد باسم مختص بالله، **وأسماء الله تنقسم إلىٰ قسمين:**

الأول: ما لا يصح إلا لله، فهذا لا يسمىٰ به غيره، وإن سمي وجب تغييره، مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

الثاني: ما يصح أن يسمىٰ به غير الله؛ مثل: الرحيم، والسميع، والبصير، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي به، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به علىٰ أنه علم محض.

قوله: «**عن أبي شريح**»: هو هانئ بن يزيد الكندي، جاء وافدًا إلىٰ النبي ﷺ مع قومه.

وقوله: «**يكنىٰ أبا الحكم**»؛ أي: ينادىٰ به.والكنية ما صدر بأب أو أم أو أخ أو عم أو خال، وتكون للمدح كما في هذا الحديث، وتكون للذم كأبي جهل، وتكون لمصاحبة الشيء وملازمته؛ كأبي هريرة، وتكون لمجرد العلمية كأبي بكر رضي الله عنه، وأبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لأنه ليس له ولد.

قوله: «**إن الله هو الحكم وإليه الحكم**». «**هو الحكم**»؛ أي: المستحق أن يكون حاكمًا علىٰ عباده، حاكمًا بالفعل، يدل له قوله: «**وإليه الحكم**».

وقوله: «**وإليه الحكم**»: الخبر فيه جار ومجرور مقدم، وتقديم الخبر يفيد الحصر، وعلىٰ هذا يكون الحكم راجعًا إلىٰ الله وحده.

وحكم الله ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: كوني، وهذا لا راد له؛ فلا يستطيع أحد أن يرده، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[يوسف:٨٠].

الثاني: شرعي، وينقسم الناس فيه إلىٰ قسمين: مؤمن وكافر؛ فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرض به ولم يحكم به فهو كافر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الشورىٰ:١٠].

وأما قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾[التين:٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٥٠]؛ فهو يشمل الكوني والشرعي، وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي؛ لأنه في سياق الحكم الشرعي، والشرعي يكون تابعًا للمحبة والرضا والكراهة والسخط، والكوني عام في كل شيء. وفي الحديث دليل علىٰ أن من أسمائه تعالىٰ: «**الحكم**».

وأما بالنسبة للعدل؛ فقد ورد عن بعض الصحابة أنه قال: «إن الله حكم عدل» ولا أعرف فيه حديثًا مرفوعًا، ولكن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾[المائدة:٥٠] لا شك أنه متضمن للعدل، بل هو متضمن للعدل وزيادة.

قوله: «**فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني**». هذا بيان لسبب تسميته بأبي الحكم.

قوله: «ما أحسن هذا»: الإشارة تعود إلىٰ إصلاحه بين قومه لا إلىٰ تسميته بهذا الاسم؛ لأن النبي ﷺ غيَّره.

قوله: «**شريح ومسلم وعبد الله**». الظاهر: أنه ليس له إلا الثلاثة، لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذكر والأنثىٰ، فلو كان عنده بنات لعدهن.

قوله: «فأنت أبو شريح». غيره النبي ﷺ، لأمرين:

الأول: أن الحكم هو الله، فإذا قيل: يا أبا الحكم! كأنه قيل: يا أبا الله!

الثاني: أن هذا الاسم الذي جُعل كنية لهذا الرجل لوحظ فيه معنىٰ الصفة وهي الحكم، فصار بذلك مطابقًا لاسم الله، وليس لمجرد العلمية المحضة، بل للعلمية المتضمنة للمعنىٰ، وبهذا يكون مشاركًا لله - سبحانه وتعالىٰ - في ذلك، ولهذا كناه النبي ﷺ بما ينبغي أن يكنىٰ به.

❁ **قوله: «فيه مسائل»:**

الأولىٰ: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه.

قوله: «**ولو لم يقصد معناه**»: هذا في النفس منه شيء؛ لأنه إذا لم يقصد معناه؛ فهو جائز، إلا إذا سمي بما لا يصح إلا لله مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبهه؛ فهذه لا تطلق إلا علىٰ الله مهما كان، وأما ما لا يختص بالله؛ فإنه يسمىٰ به غير الله إذا لم يلاحظ معنىٰ الصفة، بل كان المقصود مجرد العلمية فقط؛ لأنه لا يكون مطابقًا لاسم الله، ولذلك كان في الصحابة من اسمه «الحكم» ولم يغيره النبي ﷺ؛ لأنه لم يقصد إلا العلمية، وفي الصحابة من اسمه «حكيم» وأقره النبي ﷺ. فالذي يحترم من أسمائه تعالىٰ ما يختص به، أو ما يقصد به ملاحظة الصفة.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك. وقد سبق الكلام عليه.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية: تؤخذ من سؤال النبي ﷺ: «**فمن أكبرهم؟ قال: شريح. قال: فأنت أبو شريح**».

ولا يؤخذ من الحديث استحباب التكني؛ لأن النبي ﷺ أراد أن يغير كنيته إلىٰ كنية مباحة ولم يأمره النبي ﷺ أن يكنىٰ ابتداء.

ويستفاد من الحديث ما يلي:

١ - أنه ينبغي لأهل الوعظ والإرشاد والنصح إذا أغلقوا بابًا محرمًا أن يبينوا للناس المباح، وقد سبق تقرير ذلك.

٢ - أن الحكم لله وحده؛ لقوله ﷺ: «**وإليه الحكم**»، أما الكوني؛ فلا نزاع فيه إذ لا يعارض الله أحد في أحكامه الكونية.

وأما الشرعي؛ فهو محك الفتنة والامتحان والاختبار، فمن شرع للناس شرعًا سوىٰ شرع الله ورأىٰ أنه أحسن من شرع الله وأنفع للعباد، أو أنه مساوٍ لشرع الله، أو أنه يجوز ترك شرع الله إليه؛ فإنه كافر لأنه جعل نفسه ندًّا لله ﷻ، سواء في العبادات أو المعاملات، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠]؛ فدلت الآية علىٰ أنه لا أحد أحسن من حكم الله ولا مساوٍ لحكم الله؛ لأن «أحسن» اسم تفضيل: معناه: لا يوجد شيء في درجته، ومن زعم ذلك، فقد كذب الله ﷻ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المائدة: ٤٤]، وهذا دليل علىٰ أنه لا يجوز العدول عن شرع الله إلىٰ غيره، وأنه كفر.

فإن قيل: قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[المائدة: ٤٧]

قلنا: قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١] وهذا دليل علىٰ كفرهم؛ لأنه قال: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾، وهذا إنكار لإيمانهم؛ فظاهر الآية أنهم يزعمون بلا صدق ولا حق.

فقوله ﷺ: «**وإليه الحكم**» يدل علىٰ أن من جعل الحكم لغير الله؛ فقد أشرك.

فائدة:

يجب علىٰ طالب العلم أن يعرف الفرق بين التشريع الذي يجعل نظامًا يمشىٰ عليه ويستبدل به القرآن، وبين أن يحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله؛ فهذا قد يكون كفرًا أو فسقًا أو ظلمًا.

فيكون كفرًا إذا اعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مماثل له.

ويكون فسقًا إذا كان لهوىٰ في نفس الحاكم. ويكون ظلمًا إذا أراد مضرة المحكوم عليه، وظهور الظلم في هذه أبين من ظهوره في الثانية، وظهور الفسق في الثانية أبين من ظهوره في الثالثة.

٣ - تغيير الاسم إلىٰ ما هو أحسن إذا تضمن أمرًا لا ينبغي، كما غير النبي ﷺ بعض الأسماء المباحة، ولا يحتاج ذلك إلىٰ إعادة العقيقة كما يتوهمه بعض العامة.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «**باب احترام أسماء الله تعالىٰ وتغيير الاسم لأجل ذلك**»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ احترام أسماء الله تعالىٰ وتغيير الاسم من أجل ذلك من تحقيق التوحيد.

قوله: «**عن أبي شريح...**»

«**التراجم**»: أبو شريح اسمه: هانئ بن يزيد الكندي، صحابي نزل الكوفة وتُوُفيَ بالمدينة سنة ٦٨ هـ رضي الله عنه.

«**احترام أسماء الله**»؛ أي: تعظيمها، واحترمه: رعىٰ حرمته وهابه.

«**تغيير الاسم**»؛ أي: تحويله وتبديله وجعل غيره مكانه.

«**من أجل ذلك**»؛ أي: لأجل احترام أسماء الله.

«**يكنىٰ**»: الكنية ما صدِّر بأب أو أمٍّ.

«**الحكم**»: من أسماء الله تعالىٰ ومعناه: الحاكم الذي إذا حكم لا يرد حكمه.

«**وإليه الحكم**»؛ أي: الفصل بين العباد في الدنيا والآخرة.

«**إنَّ قومي... إلخ**»؛ أي: أنا لم أُكَنِّ نفسي بهذه الكنية وإنما كناني بها قومي.

«**ما أحسن هذا**»؛ أي: الإصلاح بين الناس والحكم بينهم بالإنصاف وتحري العدل.

«**فأنت أبو شريح**»: كناه بالأكبر رعاية؛ لأنه أولىٰ بذلك.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

استنكر النبي ﷺ علىٰ هذا الصحابي تكنّيه بأبي الحكم؛ لأنَّ الحكم من أسماء الله، وأسماء الله يجب احترامها؛ فبين له الصحابي سبب هذه التكنية، وأنه كان يصلح بين قومه ويحل مشاكلهم بما يرضي المتنازعين، فاستحسن النبي ﷺ هذا العمل دون التكنية؛ ولذلك غيَّرها فكنَّاه بأكبر أولاده.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّه يدلُّ علىٰ المنع من إهانة أسماء الله بالتسمِّي بأسمائه تعالىٰ المختصة به والتكنِّي بذلك.

ما يستفاد من الحديث:

١- فيه تحريم امتهان أسماء الله تعالىٰ والمنع ممَّا يوهم عدم احترامها كالتكنِّي بأبي الحكم ونحوه.

٢- أنَّ الحكم من أسماء الله تعالىٰ.

٣- جواز الصلح والتحاكم إلىٰ من يصلح للقضاء وإن لم يكن قاضيًا وأنَّه يلزم حكمه.

٤- أنه يكنَّىٰ الرجل بأكبر بنيه.

٥- مشروعية تقديم الكبير.

٦- مشروعية تغيير الاسم غير المناسب إلىٰ اسمٍ مناسبٍ.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

۞ **قوله: «باب احترام أسماء الله تعالىٰ وتغيير الاسم لأجل ذلك»:**

هذا الباب فيه إرشاد إلىٰ الأدب الذي يجب أن يصدر من قلب الموحّد ومن لسانه، فإن الموحد متأدِّب مع الله -جل وعلا- ومتأدّب مع أسمائه وصفاته، ومع دينه، فلا يهزل -مثلًا- بشيء فيه ذكر الله، ولا يلقي الكلمة عن الله -جل وعلا- دون أن يتدبر ما فيها، وكذلك لا يسمِّي أحدًا بأسماء الله -جل وعلا- ويغير الاسم لأجل هذا، فأسماء الله -جل وعلا- يجب احترامها، وتعظيمها، ومن احترامها أن يُجعل ما لا يصلح إلا لله منها لله وحده، وألا يسمىٰ به البشر.

قوله: «**باب احترام أسماء الله تعالىٰ**» هذا الاحترام قد يكون مستحبًّا من جهة الأدب، وقد يكون واجبًا، فأسماء الله تعالىٰ يجب احترامها، بمعنىٰ يجب ألّا تمتهن، ويستحب احترامها أيضًا فيما كان من الأدب ألا يوصف به غير الله جل وعلا.

وهذا راجع إلىٰ تعظيم شعائر الله -جل وعلا- قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [الحج:٣٢]، وقال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ

لَهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[الحج: ٣٠]، قال أهل العلم: الشعائر: جمع شعيرة، وهي كل ما أشعر الله بتعظيمه، يعني: أَعلم بتعظيمه فهو شعيرة، ومما أشعر الله بتعظيمه أسماؤه الحسنىٰ -جل وعلا- فيجب احترامها وتعظيمها، ولهذا يستدل أهل العلم علىٰ وجوب ألا تُمتهن أسماء الله الموجودة في الجرائد، أو في الأوراق، أو أن تُرمىٰ، أو أن توضع في أمكنة قذرة، وعلىٰ وجوب احترام كل ما فيه اسم الله بهاتين الآيتين، وبالقاعدة العامة في ذلك.

قوله: «**وتغيير الاسم لأجل ذلك**» ساق فيه حديث أبي شريح أنه كان يُكْنىٰ أبا الحكم، و«**يُكْنَىٰ**» بالتخفيف هي الفصيحة، أما يُكَنَّىٰ فهي لغة ضعيفة، تقول: فلان يكنىٰ بكذا، أما يُكنّىٰ فليست بجيدة؛ لأن يُكْنىٰ هي التي كان عليها غالب الاستعمال فيما ذكره أهل اللغة.

❁ **قوله**: «إن الله هو الحكم، وإليه الحكم»:

والحكم من أسماء الله -جل وعلا- والله -جل وعلا- لم يلد ولم يولد، فتكنية المخلوق بأبي الحكم غير لائقة؛ لأن الحكم من أسماء الله، والله -جل وعلا- لم يلد ولم يولد ولم يكن كفوًا أحد، هذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ فإن الحكم، وهو بلوغ الغاية في الحكم والفصل بين المتخاصمين، راجع إلىٰ من له الحُكم وهو الله -جل جلاله- وأما البشر فإنهم لا يصلحون أن يكونوا حكامًا أو أن يكون الواحد منهم حكمًا علىٰ وجه الاستقلال ولكن يكون حكمًا علىٰ وجه التبع، ولهذا أنكر النبي عليه الصلاة والسلام علىٰ أبي شريح هذه التكنية، فقال له: «**إن الله هو الحكم**» ودخول (هو) بين لفظ الجلال وبين اسم (الحكم) يدل علىٰ اختصاصه بذلك كما هو مقرر في علم المعاني؛ لأن (هو) ضمير عماد أو ضمير فصل لا محل له من الإعراب، وفائدته أن يجعل الثاني مختصًا بالأول.

«**وإليه الحكم**» يعني: أن الحُكم إليه لا إلىٰ غيره، فاسم (الحكم) الذي يفيد استغراق صفات الحكم ليس إلا إلىٰ الله جل وعلا.

❁ **قوله**: «إن قومي إذا اختلفوا في شيء...»:

ذاك الرجل علل فقال: «**إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين، فقال: «ما أحسن هذا!» و«ماأحسن هذا!»**» راجع إلىٰ الحُكم، وعائد إلىٰ الإصلاح، وهو أنه يُصلح ويحكم بينهم، فيرضىٰ كلا الفريقين، وهل حكم بينهم بالشرع، أو حكم بينهم بما عنده، يعني: بما يراه؟

الجواب: أنه حكم بينهم بما يراه، ولو كان الحكم بينهم بالشرع لجاز إطلاق الحكم علىٰ من يحكم بين المتخاصمين بالشرع، أما إطلاقه علىٰ الفاصل بين المتخاصمين بغير الشريعة فإن هذا مخالف للأدب.

فالواجب ألا يسمىٰ أحد بالحكم أو الحاكم أو نحو ذلك إلا إذا كان منفذًا لأحكام الله - جل جلاله لهذا قال سبحانه: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾[النساء: ٣٥]، فسمّىٰ المبعوث من هذا وهذا حكمًا؛ لأنهما يحكمان بالشرع، فالذي يحكم بما حكم به الله الذي هو الحكم يقال له: حكم؛ لأنه حكم بحكم من له الحكم، وهو الله -جل جلاله- فيسوغ إطلاق ذلك ولا بأس به؛ لأن الله -جل وعلا- وصف من يحكمون بشرعه بأنهم حكام وهم القضاة، فقال -جل وعلا- في سورة البقرة: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ١٨٨]، فقوله: ﴿ٱلْحُكَّامِ﴾ هو جمع الحاكم، وساغ إطلاق ذلك عليه؛ لأنه يحكم بالشرع.

والمقصود أن من الأدب ألا يسمَّىٰ أحد بشيء يختص الله -جل وعلا- به، ولذلك أورد المؤلف هذا الباب إثر الباب الذي قبله، لأجل هذه المناسبة، فتسميته «ملك الأملاك» مشابهة لتكنية «أبي الحكم» من جهة أن في كلٍّ منهما اشتراكًا في التسمية، لكن فيها اختلاف من جهة أن «أبا الحكم» راجع إلىٰ شيء يفعله هو، وهو أنه يحكم فيرضون بحكمه وذاك «ملك الأملاك» ادعاء ليس له شيء، ولهذا كان أخنع اسم عند الله جل جلاله.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه، أي: بترك تسمية المخلوق بها ولو لم يقصد معناه الخاص بالله.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك، أي: كما غير التكنية بأبي الحكم إلى أبي شريح وقال: إن الله هو الحكم.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية، أي لقوله: فمن أكبرهم؟ قال: شريح. قال: فأنت أبو شريح.



* الأسئلة *

❁ قوله: «عن أبي شريح أنه كان يكنىٰ أبا الحكم فقال له النبيﷺ: إن الله هو الحكم...».

س: ما هي الكنية؟

جـ- الكنية ما صُدرت بأب أو أم.

س: ما معنى قوله: إن الله هو الحكم وإليه الحكم؟

جـ: معنىٰ «الحكم» هو الذي إذا حكم لا يرد حكمه وهذه الصفة لا تليق بغير الله تعالىٰ، وإليه الحكم؛ أي: الفصل بين العباد في الدنيا والآخرة.

س: ما معنى قوله: ما أحسن هذا؟

جـ: أي: ما أحسن الحكم والإصلاح بين الناس.

س: ما الذي يؤخذ من قوله: فأنت أبو شريح؟

جـ: يؤخذ منه تقديم الأكبر من الأبناء للكنية.

س: ما مناسبة حديث أبي شريح للباب؟

جـ: هي أن التسمي بشيء من أسماء الله والتكني بها مما ينافي كمال التوحيد؛ لأن فيه مشابهة لأسماء الله مثل «الحكم».



الدرس الثامن والأربعون:

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول[٤٣٤]

وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ الآية [التوبة:٦٥].

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة، دخل حديث بعضهم في بعض: «أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء؛ يعني: رسول اللهﷺ وأصحابه القراء.فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول اللهﷺ، فذهب عوف إلىٰ رسول اللهﷺ ليخبره؛ فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلىٰ رسول اللهﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض[٤٣٥] ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء[٤٣٦] الطريق». قال ابن عمر: «كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول اللهﷺ، وإن الحجارة تنكب[٤٣٧] رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب؛ فيقول له رسول اللهﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾[التوبة:٦٥]، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه»[٤٣٨].

فيه مسائل:

الأولىٰ: وهي العظيمة، أن من هزل بهذا[٤٣٩] كافر.

الثانية: أن هذا [هو][٤٤٠] تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان.

---

(٤٣٤) زاد في نسخة ابن باز: «فهو كافر».

(٤٣٥) في نسخة ابن قاسم: «نخوض ونلعب».

(٤٣٦) في نسخة ابن باز والفوزان: «عنا».

(٤٣٧) في نسخة ابن قاسم: «لتنكب».

(٤٣٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩-١٨٣٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٧٢، ١٧٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤٣٩) زاد في نسخة السعدي: «فهو».

(٤٤٠) ساقطة من نسخة السعدي.

الثالثة: الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله ﷺ.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله:** «باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول»:

أي: باب بيان حكم من هزل بشيء فيه ذكر الله ﷻ أو القرآن أو الرسول ﷺ، يعني: فقد كفر لاستخفافه بالربوبية والرسالة، وذلك مناف للتوحيد، وكفر بالإجماع، ولو لم يقصد حقيقة الاستهزاء، والهزل المزح، والهذي ضد الجد، وهو أن لا يراد باللفظ ظاهره ومعناه، بل يراد به غير ذلك لمناسبة تقتضيه.

❁ **قوله:** «وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾»:

أي: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين الذين تكلموا بكلمة الكفر استهزاء، ليقولن معترفين ومعتذرين: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[التوبة: ٦٥]؛ أي: لم نقصد الاستهزاء والتكذيب، وإنما قصدوا الخوض في الحديث واللعب، وخاض في الحديث أفاض فيه، وفي الباطل دخل فيه. واللعب ضد الجد مزح، وفي الأمر استخف به وفعل فعلًا يقصد به اللذة والتنزه، فأخبرهم الله على لسان رسوله ﷺ أن عذرهم هذا لا يغني عنهم من الله شيئًا، وأنهم كفروا بعد إيمانهم بهذه المقالة التي استهزءوا بها، ولم يعبأ باعتذارهم.

قال شيخ الإسلام: وقول من يقول: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولًا بقلوبهم لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة: ٦٦]؛ فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان فهم لم يظهروا للناس، إلا لخواصهم وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك، ولم يدل اللفظ أنهم ما زالوا منافقين. وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾[التوبة: ٦٦]؛ أي: مخشي بن حمير الأشجعي حليف بني سلمة، قال ابن إسحاق: قال: لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم

أبي، فكان الذي عناه بالآية، فسمي عبد الرحمن، وسأل أن يقتل شهيدًا لا يعلم مكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر. وقوله: ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾[التوبة: ٦٦]؛ أي: لا يعفىٰ عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[التوبة: ٦٦]؛ أي: بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

قوله: «حديث بعضهم في بعض»:

أي: ما ذكر عنهم مجموعًا من رواياتهم متقارب المعنىٰ، وقد ذكره كذلك شيخ الإسلام؛ فلذلك دخل بعضه في بعض. ومحمد بن كعب أو ابن سليم بن أسد أبو حمزة القرظي من حلفاء الأوس، كان أبوه من سبي قريظة، روىٰ عن جماعة من الصحابة، وعنه يزيد بن عجلان وموسىٰ بن عبيدة وغيرهم، ثقة عالم. قال نافع: ما رأيت أحدًا أعلم منه في تأويل القرآن، توفي سنة ١٢٠ هـ. وزيد بن أسلم هو العدوي مولىٰ عمر، أبو عبد الله أو أبو أسامة المدني، ثقة عالم، روىٰ عن أبيه وابن عمر وأبي هريرة وغيرهم، وعنه أولاده الثلاثة وغيرهم، قال نافع لعلي بن الحسين: تخطأ مجالس قومك لعبد عمر، فقال: إنما يجلس الرجل إلىٰ من ينفعه في دينه، وأثر ابن عمر رواه ابن جرير وغيره بنحو هذا اللفظ، وأثر ابن كعب وزيد وقتادة معروف، لكن بغير هذا اللفظ والمعنىٰ متقارب.

قوله: «أنه قال رجل في غزوة تبوك»: وكانت في رجب سنة ٩ هـ. قال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ومخشي بن حمير الذي تاب الله عليه، وهو لم يقل ذلك، وإنما حضره.

قوله:«ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا»: ولفظ ابن جرير وغيره: ما أرىٰ قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا؛ أي: أوسع، يريد كثرة الأكل، وهو وإن كان مذمومًا لكن المنافقون قد افتروا أعظم فرية في نسبة ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم أقنع الناس، وأحسنهم اقتصادًا في الأكل وغيره، والمنافقون والكفار أوسع بطونًا، وأكثر أكلًا كما صرحت بذلك الأحاديث، وأدرك بالحس والمشاهدة. والقراء جمع قارئ، وهم عند السلف الذين يقرءون القرآن، ويعرفون معانيه، أما قراءته من غير فهم معناه فلا يوجد في ذلك العصر، وإنما حدث بعد ذلك من جملة البدع.

قوله:«ولا أكذب ألسنًا»: بل المنافقون أكذب خلق الله كما وصفهم الله بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[المجادلة: ١٨] والصحابة رضي الله عنهم عدول بالإجماع، اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه وحفظه، وهم من الصدق بالمنزلة العالية، والغاية التي ليس فوقها غاية رضي الله عنهم وأرضاهم.

قوله: «**ولا أجبن عند اللقاء**»؛ يعني: لقاء العدو، وقد كذب في ذلك، بل المنافقون هم الجبناء: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[المنافقون:٤]، وشجاعة الصحابة رضي الله عنهم مشهورة، وما ظهر لهم من الشجاعة والبطولة لا يعرف لها نظير؛ ولهذا قال له عوف: كذبت أي: فيما نسبته إليهم.

قوله: «**يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء**»: وفي رواية ابن إسحاق: يشيرون إلى رسول الله ﷺ، وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم مقرنين في الحبال؛ إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين.

قوله: «**فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق**»: فيه المبادرة بالإنكار والشدة على المنافقين، وجواز وصف الرجل بالنفاق إذا ظهر منه ما يدل عليه.

قوله: «**لأخبرن رسول الله ﷺ** »: هذا ونحوه من النصيحة لله ورسوله ﷺ، وليس من النميمة في شيء، فذكر أفعال الفساق لولاة الأمور ليردعوهم، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا من الغيبة والنميمة.

قوله: «**فوجد القرآن قد سبقه**»؛ أي: قد جاء الوحي من الله بما قالوه. وفي رواية: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. وفي رواية ابن إسحاق: فقال رسول الله ﷺ لعمار: «**أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قد قلتم كذا وكذا**»(٤٤١).

فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه.

قوله: «**ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق**»؛ أي: لم يقصدوا حقيقة الاستهزاء، وإنما قصدوا الخوض واللعب، والمراد الهزل لا الجد والتحدث كما يتحدث الركبان إذا ركبوا رواحلهم، وقصدوا ترويح أنفسهم، وتوسيع صدورهم ليسهل عليهم السفر، وقطع الطريق.

قوله: «**قال ابن عمر: «كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ** »:

نِسعة بكسر النون سير مضفور عريض يشد به الرحال، سمي نسعا لطوله، أو يجعل زماما للبعير وغيره، والحقب أيضًا حبل أو سير يشده الرحال في بطن البعير، ويقال: إنهما واحد. وفي رواية: وأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وقال محمد بن كعب وغيره: وإن رجليه ليسفعان الحجارة، وما يلتفت إليه. وفي رواية ابن إسحاق: فقال وديعة بن ثابت

---

(٤٤١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٨٥)، ولم أقف عليه عند ابن إسحاق.

ورسول الله ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[التوبة: ٦٥]. وقال مخشي ما تقدم ذكره عنه.

قوله: «**فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، ما يلتفت إليه ولا يزيد عليه**»: رواه ابن جرير وغيره، أي: ما يلتفت رسول الله ﷺ إلى المنافق فيقبل عذره، ولا يزيده على قوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[التوبة:٦٥،٦٦]؛ أي: فليس لكم عذر؛ لأن هذا لا يدخله الخوض واللعب، وإنما تحترم هذه الأشياء وتعظم ويخشع عندها، إيمانًا بالله ورسوله، وتعظيمًا لآياته وتصديقًا وتوقيرًا، والخائض واللاعب متنقص لها. ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله وعدم احترامهم، أو الوقيعة فيهم لأجله، وفيه أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها، أو عمل يعمله، قال المصنف: القول الصريح في الاستهزاء هذا وما شابهه، وأما الفعل الصريح فمثل مد الشفة، وإخراج اللسان ورمز العين، وما يفعله كثير من الناس عند الأمر بالصلاة والزكاة فكيف بالتوحيد؟ وقال: فيه - وهي العظيمة- أن من هزل بهذا أنه كافر، والفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله، وبين العفو الذي يحبه الله والغلظة على أعداء الله، وأن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول»:

أي: فإن هذا مناف للإيمان بالكلية، ومخرج من الدين؛ لأن أصل الدين: الإيمان بالله وكتبه ورسله ومن الإيمان تعظيم ذلك. ومن المعلوم أن الاستهزاء والهزل بشيء من هذه أشد من الكفر المجرد؛ لأن هذا كفر وزيادة احتقار وازدراء

فإن الكفار نوعان: معرضون ومعارضون؛ فالمعارض المحارب لله ورسوله، القادح بالله وبدينه ورسوله أغلظ كفرًا وأعظم فسادًا والهازل بشيء منها من هذا النوع.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﷺ فهو كافر»:

هذا الباب لبيان حكم المستهزئين بالله وبالقرآن وبالرسول ﷺ وأن حكمهم أنهم مرتدون إذا كانوا مسلمين وإن الاستهزاء ردة وكفر. فجواب الشرط: فقد كفر وهو معلوم لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

۞ **قوله**: «عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة...»:

«**أرغب بطونًا**»؛ أي: أكثر أكلًا.

أجبن عند اللقاء؛ أي: ليسوا بشجعان.

قال عوف بن مالك: كذبت؛ هذا فيه إنكار المنكر ممن سمعه وأن عليه منعه لا سيما في مثل هذا المنكر العظيم الذي فيه سب لله ورسوله ودينه.

«**فوجد القرآن سبقه**»؛ أي: نزلت فيهم وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ... ﴾ فهذا يبين أن المستهزئ بالقرآن أو السنة أو الرسول ﷺ فهو كافر، ولو زعم أنه يقضي بها الوقت أو يتحدث حديث الركب ويقطع الطريق أو أنه غير متعمد لذلك فهو كافر؛ لأن التلاعب بهذا لا يجوز لا في الطريق ولا في غيره؛ لأنه يدل علىٰ نفاق في قلبه وخبث وحقد علىٰ أهله، والمسلم لا يستطيع أن يقول مثل هذا الذي قاله الرجل وخاصة قوله:

«**أكذب ألسنًا**»: فهذا تكذيب للرسول ﷺ وأصحابه، وفيه رمي لهم بالجبن وأنهم حريصون علىٰ الأكل وهذا يدل علىٰ الحرص علىٰ الدنيا.

فجاء الرجل يعتذر فلم يكن النبي ﷺ يبالي بما يقول ولا يرد عليه إلا بقوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ ...﴾؛ أي: أنه لم يقبل عذره وبين له أنه كافر بهذا العمل.

فهذا يبين أن المستهزئ بالشرع كافر بعد الإيمان إذا تنقص الرسول، أو قال: أنه جبان أو كذاب أو لم يبلغ الرسالة وما أشبه ذلك مما يدل علىٰ التنقص، وهكذا من قال أن القرآن متناقض أو أنه لم يستوف ما يحتاجه الناس أو الشريعة لم تستوف ما يحتاجه الناس وما أشبه ذلك مما هو علىٰ سبيل الذم والنقص.

أما إذا قال أن القرآن قد جاءت السنة ببيان أشياء ليست فيه فهذا حق، لكن إن قاله قاصدًا الذم وأن الناس بحاجة إلىٰ القوانين وأن النصوص لا تكفي فهذا كفر أكبر ورده، وكذا من قال أن الجنة خيال ليست حقيقة.

قال العلامة ابن عثيمين:

۞ **قوله**: «باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول»:

هذه الترجمة فيها شيء من الغموض، والظاهر أن المراد من هزل بشيء فيه ذكر الله مثل الأحكام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسول ﷺ، فيكون معطوفًا علىٰ قوله بشيء.

والمراد بالرسول هنا: اسم الجنس، فيشمل جميع الرسل، وليس المراد محمدًاﷺ، فـ«أل» للجنس وليست للعهد.

قوله: «من هزل». سخر واستهزأ ورآه لعبًا ليس جدًا.ومن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله؛ فهو كافر؛ لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة.كيف يسخر ويستهزئ بأمر يؤمن به؟! فالمؤمن بالشيء لابد أن يعظمه وأن يكون في قلبه من تعظيمه ما يليق به.

والكفر كفران: كفر إعراض، وكفر معارضة، والمستهزئ كافر كفر معارضة؛ فهو أعظم ممن يسجد لصنم فقط، وهذه المسألة خطيرة جدًّا، ورب كلمة أوقعت بصاحبها البلاء بل والهلاك وهو لا يشعر؛ فقد يتكلم الإنسان بالكلمة من سخط اللهﷻ لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار.

فمن استهزأ بالصلاة - ولو نافلة -، أو بالزكاة، أو الصوم، أو الحج؛ فهو كافر بإجماع المسلمين، كذلك من استهزأ بالآيات الكونية بأن قال مثلًا: إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال: إن وجود البرد في أيام الصيف سفه؛ فهذا كفر مخرج عن الملة؛ لأن الربﷻ كل أفعاله مبنية على الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها بل لا نستطيع بلوغها.

ثم اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سب الله أو رسوله أو كتابه: هل تقبل توبته؟

على قولين:

القول الأول: أنها لا تقبل، وهو المشهور عند الحنابلة، بل يقتل كافرًا، ولا يُصلى عليه، ولا يدعى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين، ولو قال: إنه تاب أو إنه أخطأ؛ لأنهم يقولون: إن هذه الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيها التوبة.

وقال بعض أهل العلم: إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة؛ كقوله تعالى ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر:٥٣]، ومن الكفار من يسبون الله، ومع ذلك تقبل توبتهم، وهذا هو الصحيح، إلا أن ساب الرسولﷺ تقبل توبته ويجب قتله، بخلاف من سب الله؛ فإنها تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسولﷺ، بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه بأنه يغفر الذنوب جميعًا، أما ساب الرسولﷺ؛ فإنه يتعلق به أمران:

الأول: أمر شرعي لكونه رسول اللهﷺ، ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب.

الثاني: أمر شخصي لكونه من المرسلين، ومن هذا الوجه يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته علىٰ أنه مسلم، فإذا قتل؛ غسّلناه وكفَّناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد ألف كتابًا في ذلك اسمه «الصارم المسلول في حكم قتل ساب الرسول»، أو «الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول»؛ وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ، وكذا لو قذفه؛ فإنه يقتل ولا يجلد.

فإن قيل: أليس قد ثبت أن من الناس من سب الرسول ﷺ وقبل منه وأطلقه؟

أجيب: بلىٰ، هذا صحيح، لكن هذا في حياته ﷺ، وقد أسقط حقه، أما بعد موته؛ فلا ندري، فننفذ ما نراه واجبًا في حق من سبه ﷺ.

فإن قيل: احتمال كونه يعفو عنه أو لا يعفو موجب للتوقف؟

أجيب: إنه لا يوجب التوقف؛ لأن المفسدة حصلت بالسب، وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم، والأصل بقاؤه.

فإن قيل: أليس الغالب أن الرسول ﷺ عفا عمن سبه؟

أجيب: بلىٰ، وربما كان في حياة الرسول ﷺ إذا عفا قد تحصل المصلحة ويكون في ذلك تأليف، كما أنه ﷺ يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم؛ لئلا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، لكن الآن لو علمنا أحدًا بعينه من المنافقين لقتلناه، قال ابن القيم: إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط.

❁ **قوله: « قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾»**:

الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: سألت هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون بالاستهزاء بالله وكتابه ورسوله والصحابة.

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ﴾: جواب القسم، قال ابن مالك:

واحذف لدىٰ اجتماع شرط وقسم   جواب ما أخرت فهو ملتزم

ولهذا جاءت اللام التي تقترن بجواب القسم دون الفاء التي تقع في جواب الشرط.

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ﴾؛ أي: المسئولون.

قوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾؛ أي: ما لنا قصد، ولكننا نخوض ونعلب، واللعب يقصد به الهزء، وأما الخوض؛ فهو كلام عائم لا زمام له. هذا إذا وصف بذلك القول، وأما إذا لم يوصف به القول؛ فإنه يكون الخوض في الكلام واللعب في الجوارح.

وقوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر؛ أي: ما شأننا وحالنا إلا أننا نخوض ونعلب.

قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتعجب؛ فينكر عليهم أن يستهزئوا بهذه الأمور العظيمة، ويتعجب كيف يكون أحق الحق محلًّا للسخرية؟

قوله: ﴿أَبِاللَّهِ﴾؛ أي: بذاته وصفاته.

قوله: ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾: جمع آية، ويشمل: الآيات الشرعية؛ كالاستهزاء بالقرآن، بأن يقال: هذا أساطير الأولين - والعياذ بالله -، أو يستهزئ بشيء من الشرائع؛ كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج.

والآيات الكونية؛ كأن يسخر بما قدره الله تعالىٰ، كيف يأتي هذا في هذا الوقت؟ كيف يخرج هذا الثمر من هذا الشيء؟ كيف يخلق هذا الذي يضر الناس ويقتلهم؟ استهزاءً وسخرية.

قوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: المراد هنا محمد ﷺ.

قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾: المراد بالنهي التيئيس؛ أي: انهم عن الاعتذار تيئيسًا لهم بقبول اعتذارهم قوله ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾؛ أي: بالاستهزاء وهم لم يكونوا منافقين خالصين بل مؤمنين، ولكن إيمانهم ضعيف؛ ولهذا لم يمنعهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

قوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[التوبة:٦٦].

﴿نَّعْفُ﴾: ضمير الجمع للتعظيم؛ أي: الله ﷻ.

وقوله: ﴿عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾: قال بعض أهل العلم: هؤلاء حضروا وصار عندهم كراهية لهذا الشيء لكنهم داهنوا فصاروا في حكمهم لجلوسهم إليه، لكنهم أخف لما في قلوبهم من الكراهة؛ ولهذا عفا الله عنهم وهداهم للإيمان وتابوا.

قوله: ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾: هذا جواب الشرط؛ أي: لا يمكن أن نعفو عن الجميع، بل إن عفونا عن طائفة، فلابد أن نعذب الآخرين.

قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾: الباء للسببية؛ أي: بسبب كونهم مجرمين بالاستهزاء وعندهم جرم والعياذ بالله، فلا يمكن أن يوفقوا للتوبة حتىٰ يُعفىٰ عنهم.

ويستفاد من الآيتين:

١- بيان علم الله ﷻ بما سيكون؛ لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾، وهذا مستقبل؛ فالله عالم ما كان وما سيكون، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[هود:١٢٣].

٢- أن الرسول ﷺ يحكم بما أنزل الله إليه حيث أمره أن يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ....﴾.

٣- أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله من أعظم الكفر؛ بدليل الاستفهام والتوبيخ.

٤- أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله أعظم استهزاء وقبحًا؛ لقوله: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ...﴾ وتقديم المتعلق يدل على الحصر كأنه مابقي إلا أن تستهزءوا بهؤلاء الذين ليسوا محلًّا للاستهزاء، بل أحق الحق هؤلاء الثلاثة.

٥- أن المستهزئ بالله يكفر، لقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

٦- استعمال الغلظة في محلها، وإلا؛ فالأصل أن من جاء يعتذر يرحم، لكنه هنا ليس أهلًا للرحمة.

٧- قبول توبة المستهزئ بالله؛ لقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ...﴾، وهذا أمر قد وقع، فإن من هؤلاء من عفي عنه وهدي للإسلام وتاب وتاب الله عليه، وهذا دليل للقول الراجح أن المستهزئ بالله تقبل توبته، لكن لابد من دليل بين على صدق توبته؛ لأن كفره من أشد الكفر أو هو أشد الكفر، فليس مثل كفر الإعراض أو الجحد.

وهؤلاء الذين حضروا السب مثل الذين سبوا، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[النساء:١٤٠] وهم يستطيعون المفارقة، والنبي ﷺ امتثل أمر الله بتبليغهم، حتى إن الرجل الذي جاء يعتذر صار يقول له: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[التوبة:٦٧] ولا يزيد على هذا أبدًا مع إمكان أن يزيده توبيخًا وتقريعًا.

قوله: «عن ابن عمر»:

هو عبد الله.

وقوله: «**وحمد بن كعب، وزيد بن أسلم وقتادة**». والثلاثة تابعيون؛ فالرواية عن ابن عمر مرفوعة، وعن الثلاثة الآخرين مرسلة.

قوله: «**دخل حديث بعضهم في بعض**»؛ أي: إن هذا الحديث مجموع من كلامهم، وهذا يفعله بعض أئمة الرواة كالزهري وغيره، فيحدثه جماعة بشأن قصة من القصص كحديث الإفك مثلًا؛ فيجمعون هذا ويجعلون في حديث واحد، ويشيرون إلى هذا، فيقولون مثلًا: دخل حديث بعضهم في بعض، أو يقول: حدثني بكذا وبعضهم بكذا، وما أشبه ذلك.

قوله: «**في غزوة تبوك**»: تبوك في أطراف الشام، وكانت هذه الغزوة في رجب حين طابت الثمار، وكان مع الرسول ﷺ في هذه الغزوة نحو ثلاثين ألفًا، ولما خرجوا رجع عبد الله بن أُبي بنحو نصف المعسكر، حتى قيل: إنه لا يدرى أي الجيشين أكثر: الذين رجعوا، أو الذين ذهبوا؟ مما يدل على وفرة

النفاق في تلك السنة، وكانت في السنة التاسعة، وسببها أنه قيل للنبي ﷺ: إن قومًا من الروم ومن متنصرة العرب يجمعون له؛ فأراد أن يغزوهم ﷺ إظهارًا للقوة وإيمانًا بنصر الله ﷻ.

قوله: «ما رأينا»: تحتمل أن تكون بصرية، وتحتمل أن تكون علمية قلبية.

قوله: «مثل قرائنا». المفعول الأول، والمراد بهم الرسول ﷺ وأصحابه.

قوله: «أرغب بطونًا». المفعول الثاني؛ أي: أوسع، وإنما كانت الرغبة هنا بمعنىٰ السعةِ؛ لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان في الأكل.

قوله: «ولا أكذب ألسنًا»: الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع، والألسن: جمع لسان، والمراد: ولا أكذب قولًا، واللسان يطلق علىٰ القول كثيرًا في اللغة العربية؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤]؛ أي: بلغتهم.

قوله: «ولا أجبن عند اللقاء»: الجبن: هو خور في النفس يمنع المرء من الإقدام علىٰ ما يكره؛ فهو خلق نفسي ذميم؛ ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ منه (٤٤٢) لما يحصل فيه من الإحجام عما ينبغي الإقدام إليه؛ فلهذا كان صفة ذميمة، وهذه الأوصاف تنطبق علىٰ المنافقين لا علىٰ المؤمنين، فالمؤمن يأكل بمعي واحد: ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه، والكافر يأكل بسبعة أمعاء، والمؤمن أصدق الناس لسانًا ولا سيما النبي ﷺ وأصحابه، فإن الله وصفهم بالصدق في قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨].

والمنافقون أكذب الناس؛ كما قال الله فيهم: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر:١١] وجعل النبي ﷺ الكذب من علامات النفاق(٤٤٣)، والمنافقون من أجبن الناس، قال تعالىٰ: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ...﴾ [المنافقون:٤] فلو سمعوا أحدًا ينشد ضالته، لقالوا: عدو عدو، وهم أحب الناس للدنيا؛ إذ أصل نفاقهم من أجل الدنيا ومن أجل أن تحمي دماؤهم وأموالهم وأعراضهم.

---

(٤٤٢) أخرجه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: التعوذ من أرذل العمر، برقم (٦٣٧١)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من العجز والكسل وغيره، برقم (٢٧٠٦) وغيرهما من حديث أنس ﵁.

(٤٤٣) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: علامات المنافق، برقم (٣٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق، برقم (٥٩) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﵁.

قوله: «**كذبت**»؛ أي: أخبرت بخلاف الواقع، وفي ذلك دليل علىٰ تكذيب الكذب مهما كان الأمر، وأن السكوت عليه لا يجوز.

قوله: «**ولكنك منافق**»: لأنه لا يطلق هذه الأوصاف علىٰ رسول اللهﷺ وأصحابه رجل تسمي بالإسلام إلا منافق، وبهذا يعرف أن من يسب أصحاب رسول اللهﷺ أنه كافر؛ لأن الطعن فيهم طعن في الله ورسوله وشريعته.

فيكون طعنًا في الله؛ لأنه طعن في حكمته، حيث اختار لأفضل خلقه أسوأ خلقه.

وطعنًا في الرسولﷺ: لأنهم أصحابه، والمرء علىٰ دين خليله، والإنسان يُستدل علىٰ صلاحه أو فساده أو سوء أخلاقه أو صلاحها بالقرين.

وطعنًا في الشريعة: لأنهم الواسطة بيننا وبين الرسولﷺ في نقل الشريعة، وإذا كانوا بهذه المثابة؛ فلا يوثق بهذه الشريعة.

قوله: «فوجد القرآن قد سبقه»؛ أي: بالوحي من الله تعالىٰ، والله عليم بما يفعلون وبما يريدون وبما يبيتون، قال تعالىٰ: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾[النساء:١٠٨].

قوله: «**وقد ارتحل وركب ناقته**»: الظاهر أن هذا من باب عطف التفسير؛ لأن ركوب الناقة هو الارتحال.

قوله: «**كأني أنظر إليه**»: كأن إذا دخلت علىٰ مشتق؛ فهي للتوقع، وإذا دخلت علىٰ جامد؛ فهي للتشبيه، وهنا دخلت علىٰ جامد، والمعنىٰ: كأنه الآن أمامي من شدة يقيني به.

قوله: «**بنسعة**»: هي الحزام الذي يربط به الرحل.

قوله: «**والحجارة تنكب رجليه**»؛ أي: يمشي والحجارة تضرب رجليه وكأنه - والله أعلم - يمشي بسرعة، ولكنه لا يحس في تلك الحال؛ لأنه يريد أن يعتذر.

قوله: «**وما يزيده عليه**»؛ أي: لا يزيده علىٰ ما ذكر من توبيخ امتثالًا لأمر اللهﷻ، وكفىٰ بالقول الذي أرشد الله إليه نكاية وتوبيخًا.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ وهي العظيمة: أن من هزل بهذا كافر؛ أي: من هزل بالله وآياته ورسوله.

الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان؛ أي: سواء كان منافقًا أو غير منافق ثم استهزأ؛ فإنه يكفر كائنًا من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله: النميمة: من نم الحديث؛ أي: نقله ونسبه إلىٰ غيره: وهي نقل كلام الغير للغير بقصد الإفساد، وهي من أكبر الذنوب، قالﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**»(٤٤٤) وأخبر عن رجل يعذب في قبره؛ لأنه كان يمشي بالنميمة(٤٤٥)، وأما النصحية لله ورسوله؛ فلا يقصد بها ذلك، وإنما يقصد بها احترام شعائر اللهﷻ وإقامة حدوده وحفظ شريعته، وعوف بن مالك نقل كلام هذا الرجل لأجل أن يقام عليه الحد أو ما يجب أن يقام عليه وليس قصده مجرد النميمة، من ذلك لو أن رجلًا اعتمد علىٰ شخص ووثق به، وهذا الشخص يكشف سره ويستهزئ به في المجالس، فإنك إذا أخبرت هذا الرجل بذلك؛ فليس هذا من النميمة، بل من النصيحة.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة علىٰ أعداء الله: العفو الذي يحبه الله: هو الذي فيه إصلاح؛ لأن الله اشترط ذلك في العفو فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى:٤٠]؛ أي: كان عفوه مشتملًا علىٰ الإصلاح، وقال بعضهم: أي: أصلح الود بينه وبين من أساء إليه، وهذا تفسير قاصر والصواب أن المراد به أصلح في عفوه؛ أي: كان في عفوه إصلاح.

فمن كان عفوه إفسادًا لا إصلاحًا، فإنه آثم بهذا العفو، ووجه ذلك من الآية ظاهر؛ لأن الله قال: ﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾؛ ولأن العفو إحسان والفساد إساءة، ودفع الإساءة أولىٰ، بل العفو حينئذٍ محرم.

والنبيﷺ غلظ علىٰ هذا الرجل لكونهﷺ لم يلتفت إليه، ولا يزيد علىٰ هذا الكلام الذي أمره الله به مع أن الحجارة تَنْكُب رجل الرجل، ولم يرحمه النبيﷺ ولم يرق له، ولكل مقام مقال؛ فينبغي أن يكون الإنسان شديدًا في موضع الشدة، لينًا في موضع اللين، لكن أعداء اللهﷻ الأصل في معاملتهم الشدة، قال تعالىٰ في وصف الرسولﷺ وأصحابه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح:٢٩]، وقال تعالىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[التوبة:٧٣]، ذكرها الله في سورتين من القرآن مما يدل علىٰ أنها من أهم ما يكون، لكن استعمال اللين أحيانًا للدعوة والتأليف قد يكون مستحسنًا.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل: الأصل في الاعتذار أن يقبل لا سيما إذا كان

---

(٤٤٤) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: ما يكره من النميمة، برقم (٦٠٥٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان غلظ تحريم النميمة، برقم (١٠٥) وغيرهما من حديث حذيفة ﷺ.

(٤٤٥) أخرجه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: من الكبائر أن لا يستتر من بوله، برقم (٢١٨)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: الدليل علىٰ نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، برقم (٢٩٢) وغيرهما من حديث ابن عباس ﷺ.

المعتذر محسنًا، لكن حصلت منه هفوة، فإن علم أنه الاعتذار باطل؛ فإنه لا يقبل.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾:

تمام الآية: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾[التوبة:٦٥].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

بيان حكم من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﷺ وأنه كفر منافٍ للتوحيد.

«باب من هزل...إلخ»؛ أي: باب بيان حكم من فعل ذلك.

«هزل»: الهزل: المزاح ضد الجد.

﴿ وَلَئِن ﴾: اللام لام القسم.

﴿سَأَلْتَهُمْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: سألت هؤلاء المنافقين عن استهزائهم بك وبالقرآن.

﴿لَيَقُولُنَّ ﴾: معتذرين.

﴿نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾: ولم نقصد الاستهزاء والتكذيب، وإنَّما قصدنا الخوض في الحديث واللعب.

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ ﴾؛ أي: قل لهم توبيخًا لهم علىٰ استهزائهم والخطاب للنبي ﷺ إنَّ عذركم هذا لن يغني عنكم من الله شيئًا.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يقول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ولئن سألت هؤلاء المنافقين الذين تكلموا بكلمة الكفر استهزاءً؛ فإنَّهم سيعتذرون بأنَّهم لم يقصدوا الاستهزاء والتكذيب، وإنما قصدوا الخوض في الحديث، فأخبرهم أنَّ عذرهم هذا لا يغني عنهم من الله شيئًا.

مناسبة الآية للباب:

أنَّها تدلُّ مع ما بعدها علىٰ كفر من هزل بشيءٍ فيه ذكر الله أو الرسول ﷺ أو القرآن.

ما يستفاد من الآية:

١- أنَّ الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر ينافي التوحيد.

٢- أنَّ من فعل الكفر وادعىٰ أنه لم يعلم أنه كفر لا يعذر بذلك.

٣- وجوب تعظيم ذكر الله وكتابه ورسوله ﷺ.

٤- أنَّ من تلفظ بكلام الكفر، كفر ولو لم يعتقد ما قال بقلبه.

قوله: «عن ابن عمر...»:

التراجم:

١- ابن عمر هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

٢- محمد بن كعب هو: محمد بن كعب بن سليم القرظي المدني وهو ثقة عالم، مات سنة ١٢٠هـ رحمه الله.

٣- زيد بن أسلم هو مولىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو ثقة مشهور مات سنة ١٣٦هـ رحمه الله.

٤- قتادة هو: قتادة بن دعامة السدوسي مفسر حافظ مات سنة ١١٧هـ تقريبًا رحمه الله.

٥- عوف بن مالك هو: عوف بن مالك الأشجعي أول مشاهده خيبر، وروىٰ عنه جماعة من التابعين توفي سنة ٧٣هـ رضي الله عنه.

«**دخل حديث بعضهم في بعضٍ**»؛ أي: أنَّ الحديث مجموع من رواياتهم.

«**قرائنا**»: القراء: جمع قارئ، وهم عند السلف: الذين يقرءون القرآن ويعرفون معانيه.

«**أرغب بطونًا**»؛ أي: أوسع بطونًا يصفونهم بسعة البطون وكثرة الأكل.

«**عند اللقاء**»؛ يعني: لقاء العدو.

«**فوجد القرآن قد سبقه**»؛ أي: جاء الوحي من الله بما قالوه قبل وصوله إلىٰ الرسول ﷺ.

«**إنما كنا نخوض...إلخ**»؛ أي: نتبادل الحديث ولم نقصد حقيقة الاستهزاء.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

يصف هؤلاء الرواة ما حصل من المنافقين من الوقيعة برسول ﷺ وأصحابه والسخرية بهم؛ وذلك لما تنطوي عليه قلوب هؤلاء المنافقين من الكفر والحقد، وقد أظهر الله ذلك علىٰ ألسنتهم فقالوا ما قالوا، فأنكر عليهم من حضرهم من المؤمنين الصادقين؛ غيرة لله ولدينه، ثم ذهب ليرفع أمرهم إلىٰ الرسول ﷺ، ولكنَّ الذي يعلم السرَّ وأخفىٰ قد سمع مقالتهم وأخبر بها رسوله قبل وصول ذلك المؤمن، وحكم عليهم سبحانه بالكفر وعدم قبول اعتذارهم، ثم جاء أحد هؤلاء المنافقين معتذرًا إلىٰ الرسول ﷺ فرفض النبي ﷺ قبول اعتذاره؛ لأمر الله له بذلك، فلم يزد في رده عليه علىٰ ما قاله الله - سبحانه وتعالىٰ - في حقهم من التوبيخ والتقريع.

مناسبة الأثر للباب:

أنَّ فيه بيانًا وتفسيرًا للآية الكريمة.

ما يستفاد من الأثر:

١- بيان ما تنطوي عليه نفوس المنافقين من العداوة لله ورسوله والمؤمنين.

٢- أنَّ من استهزأ بالله وآياته ورسوله؛ فهو كافر وإن كان مازحًا.

٣- أنَّ ذكر أفعال الفساق لولاة الأمور؛ ليردعوهم ليس من الغيبة والنميمة، بل هو من النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

٤- الغلظة على أعداء الله ورسوله.

٥- أنَّ من الأعذار ما لا ينبغي قبوله.

٦- الخوف من النفاق؛ فإنَّ الله سبحانه أثبت لهؤلاء إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوه.

٧- أنَّ الاستهزاء بالله أو بالرسول أو بالقرآن ناقضٌ من نواقض الإسلام ولو لم يعتقد ذلك بقلبه.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «**باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول**»:

التوحيد الخالص في القلب، بل أصل التوحيد لا يُجامع الاستهزاء بالله جل وعلا، وبرسوله، وبالقرآن؛ لأن الاستهزاء معارضة، والتوحيد موافقة، ولهذا قال بعض أهل العلم: «الكفار نوعان: معرضون كمن قال الله فيهم: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾[الأنبياء: ٢٤]. ومعارضون، وهم المجادلون أو الذين يعارضون بأنواع المعارضات لأجل إطفاء نور الله، ومن ذلك الاستهزاء ونحوه.

فالتوحيد استسلام وانقياد وقبول وتعظيم، والهزء والاستهزاء بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول معارضة؛ لأنه منافٍ للتعظيم، ولهذا كان كفرًا أكبر بالله -جل وعلا- إذ لا يصدر الاستهزاء بالله، أو برسوله ﷺ أو بالقرآن من قلب موحد أصلًا، بل لابُدَّ أن يكون إما منافقًا أو كافرًا مشركًا.

قوله: «**باب من هزل**» الهزل خلاف الجد، وصفته: أن يتكلم بكلام فيه الهزل والاستهزاء والعيب إما بالله أو بالقرآن أو بالرسول ﷺ.

وقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هنا: «**باب من هزل بشيء**» الباء هذه، هل هي التي يُذكر بعدها وسيلة الهزل، أو الباء التي يذكر بعدها المهزول به؟ الظاهر هو الثاني، فعلى الأول يكون المعنى: أنه ذكر

الله بشيء فيه هزل، وذكر الرسول بشيء فيه هزل، يعني: هزل، وهو يذكر هذه الأشياء.

وعلى الثاني يكون معنى: «من هزل بشيء فيه ذكر لله» أن المستهزأ به أو المهزول به هو ذكر الله، أو القرآن، أو الرسول، ومعلوم أن المعنى المراد هو الثاني؛ لأن الشيخ يريد أن المستهزأ به هو الله، أو الرسول أو القرآن اتباعًا لنص الآية.

فمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة، وهو أن الهزل والاستهزاء بالله أو بالرسول أو بالقرآن منافٍ لأصل التوحيد، وكفر مخرج من الملة لكن بضابطه الذي ذكرناه، وهو الاستهزاء -وهو الاستنقاص واللعب والسخرية- يكون بالله -جل جلاله- أو يكون بالرسول ﷺ، أو يكون بالقرآن، وهذا هو الذي جاء فيه النص، قال جل وعلا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة: ٦٥،٦٦]، فمن استنقص الله -جل وعلا- أو هزل بذكره لله -جل وعلا- يعني: حينما ذكر الله -جل وعلا- استهزأ وهزل ولم يظهر التعظيم في ذلك فتنقص الله -جل وعلا- كما يفعله بعض الفسقة، والذين يقولون الكلمة ولا يلقون لها بالًا تهوي ببعضهم في النار سبعين خريفًا، أو هزل بالقرآن أو استهزأ بالقرآن أو السنة، يعني: بالنبي عليه الصلاة والسلام، فإنه كافر الكفر الأكبر المخرج من الملة، هذا ضابط هذا الباب.

ويخرج عن ذلك ما لو استهزأ بالدين فإن الاستهزاء بالدين فيه تفصيل، فإن المستهزئ بالدين أو السابّ له، أو اللاعن له، قد يريد دين المستهزأ به، ولا يريد دين الإسلام أصلًا، فلا يرجع استهزاؤه إلى واحد من الثلاثة، فلهذا نقول: الكفر يكون أكبر إذا كان الاستهزاء بأحد الثلاثة التي ذكرنا ونصت عليها الآية، أو كان راجعًا إلى أحد الثلاثة.

أما إذا كان الاستهزاء بشيء خارج عن ذلك، فإنه يكون فيه تفصيل، فإن كان هزل بالدين، فيُنظر هل يريد دين الإسلام، أو يريد تدين فلان؟ ومثال ذلك أن يأتي واحد من المسلمين ويستهزئ -مثلًا- بهيئة أحد الناس وهيئته يكون فيها التزام بالسنة، فهل يكون هذا مستهزئًا الاستهزاء الذي يخرجه من الملة؟

الجواب: لا. لأن هذا الاستهزاء راجع إلى تدين هذا المرء، وليس راجعًا إلى الدين أصلًا، فيعرّف بأن هذا سنة عن النبي ﷺ، فإذا علم أنه سنة، وأقرّ بذلك، وأن النبي فعله ثم استهزأ، بمعنى استنقص أو هزل بالذي اتبع السنة مع علمه بأنها سنة ولإقراره بصحة كونها سنة فهذا

راجع إلىٰ الاستهزاء بالرسول.

وكذلك الاستهزاء بكلمات قد يكون مرجعها إلىٰ القرآن، وقد لا يكون مرجعها إلىٰ القرآن فيكون فيه تفصيل، فالخلاصة -إذًا- أن الاستهزاء إذا كان بالله أو بصفاته، أو بأسمائه، أو بالرسول عليه الصلاة والسلام، أو بالقرآن فإن هذا كفر، وإن كان الاستهزاء غير ذلك فينظر، إن كان راجعًا إلىٰ أحد الثلاثة فهو كفر أكبر، وإن كان غير ذلك فإنه يكون محرمًا ولا يكون كفرًا أكبر.

❁ **قوله**: « قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[التوبة: ٦٥،٦٦]»:

هذه الآية نص في أن المستهزئ بالله، أو بالرسول، وبآيات الله -جل وعلا- والمقصود بها آيات الله -جل وعلا- الشرعية، يعني: القرآن، أن هذا المستهزئ كافر، وأنه لا ينفعه اعتذاره بأنه كان في هزل ولعب، بل هو كافر؛ لأن تعظيم الله -جل وعلا- وتوحيده يوجب عليه أن لا يستهزئ.

وهذه الآية نزلت في المنافقين، وبعض أهل العلم قال: ليست في المنافقين، وهذا غلط وليس بصواب، لأسباب منها: أن هذه السورة -التي منها هذه الآية- هي في حال المنافقين، ولأن سياق الآية -سابقها ولاحقها- يدل علىٰ أن الضمائر ترجع إلىٰ المنافقين. قال -جل وعلا- قبل هذه الآية في سورة «براءة»: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[التوبة:٦٤،٦٥]، فالآية السابقة لآية الباب هي في المنافقين نصًا، فالضمير -إذًا- في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ يعود علىٰ من ذكر قبل هذه الآية، وهم المنافقون المنصوص عليهم بقوله: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ وكذلك ما بعدها من الآيات في المنافقين في قوله جل وعلا: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾[التوبة:٦٧]، والأدلة علىٰ ذلك كثيرة.

فالصواب في ذلك أن المراد بالآية هم المنافقون، وأما أهل التوحيد فإنه لا يصدر منهم استهزاء أصلًا ولو استهزءوا لعلمنا أنهم غير معظمين لله، وأن توحيدهم ذهب أصلًا؛ لأن الاستهزاء يطرد التعظيم.

فالواجب علىٰ المسلمين جميعًا وعلىٰ طلبة العلم خاصة أن يحذروا من مزالق الكلام؛ لأن كثيرين يتكلمون بكلام لا يلقون له بالًا، ربما استهزءوا، أو ربما تكلموا بكلام فيه شيء من الهزل، وفيه شيء من

الضحك، وكان في أثناء هذا الكلام ذكر الله، أو فيه قراءة القرآن، أو فيه ذكر بعض العلم، وهذا مما لا يجوز، وقد يدخل أحدهم في قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار سبعين خريفًا**»(٤٤٦). نسأل الله -جل وعلا- السلامة والعافية.

فالواجب على العبد أن يعظم الله، وأن لا يتلفظ إلا بكلام عقَله قبل أن يقوله؛ لأن اللسان هو مورد الهلاك، قال معاذ للنبي عليه الصلاة والسلام: أو مؤاخذون يا رسول الله بما نقول؟ قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم، أو قال: وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم**»(٤٤٧).

فالله الله في اللسان فإنه أعظم الجوارح خطرًا، ومما يتساهل فيه أكثر الناس، فاحذر الخوض فيما لا يعنيك، وبخاصة فيما يتعلق بالدين، أو بالعلم، أو بأولياء الله، أو بالعلماء، أو بصحابة النبي عليه الصلاة والسلام، أو بالتابعين، فإن هذا مورده خطير، والله المستعان، فقد عظمت الفتنة، والناجي من سلمه الله جل وعلا.



---

(٤٤٦) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: حفظ اللسان، برقم (٦٤٧٧)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، برقم (٢٩٨٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٤٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الإيمان، باب: حرمة الصلاة، برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، برقم (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، وغيرهم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٥١٣٦).

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة أن من هزل بهذا أنه كافر، أي لقوله: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٦].

الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان، أي: من استهزأ بالله وآياته ورسوله فقد دلت الآية على أنه كافر على أي حالة وقع ذلك وبأي فعل كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله، أي: إن ما ذكره عوف من كلام هؤلاء من النصيحة لا من النميمة؛ لأنها نقل الحديث بين الناس على جهة الإفساد بينهم.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله، أي: إنه لم يعف عن هؤلاء؛ لكونهم يستحقون الغلظة وهي المناسبة في حقهم لا العفو الذي يحبه الله؛ لكونه غير مناسب هنا.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل، أي: مثل اعتذار هؤلاء والسبب -والله أعلم- أنهم غير صادقين في ذلك.



* الأسئلة *

س: ما علاقة هذا الباب بكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن السخرية والتهكم والاستهزاء بالإسلام والمسلمين كفر ينافي التوحيد.

قوله: «قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[التوبة:٦٥، ٦٦] ».

س: اشرح هذه الآية واذكر ما يستفاد منها؟

جـ: يقول الله تعالى: لرسوله محمد ﷺ إنك لو سألت أولئك المنافقين الذين تكلموا في حقك وفي حق أصحابك بما لا يليق من الاستهزاء والسخرية ليقولن لك يا محمد معتذرين إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب؛ لنقطع به الطريق ولم نقصد الاستهزاء؛ ولكن أخبرهم أن معذرتهم لا تغني عنهم من عذاب الله شيئًا؛ وأنهم بهذا التهكم والاستهزاء قد كفروا بعد إيمانهم.

ويستفاد من الآية: تحريم الاستهزاء بالدين وأهله وأنه كفر.

قوله: «عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة...».

س: ما معنى قول المؤلف دخل حديث بعضهم في بعض؟

جـ: يعني: رواة الحديث؛ أي: أنه مجموع من رواياتهم.

س: ما معنى قول المنافقين ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء؟ ومن يقصدون بهذا الكلام؟

جـ: معناه أن هؤلاء الذين يقرءون القرآن أكثر رغبة في الأكل وأكذب من ينطق وأكثر الناس جبنًا وأخوفهم عند لقاء العدو، يعنون رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد كذبوا في ذلك فرسول الله ﷺ وأصحابه أقل الناس أكلًا وأصدقهم حديثًا وأشجع من كافح وناضل في سبيل الله، والمنافقون بالعكس، كما وصفهم الله بذلك.

س: هل إخبار عوف بن مالك لرسول الله ﷺ بما قاله المنافقون من النميمة أو من النصيحة؟ وما الفرق بينهما؟

جـ: ليس من النميمة بل من النصيحة، والفرق بينهما أن النميمة تكون علىٰ جهة الإفساد والنصيحة تكون علىٰ جهة الإصلاح.

س: ما المقصود بنسعة ناقة رسول الله؟

جـ: هو سير يجعل زمامًا للبعير وقيل هو ما تشد به الرحال.

س: ما معنى قوله ما يلتفت إليه وما يزيده عليه؟

جـ: المعنىٰ أن الرسول ﷺ لم يلتفت إلىٰ المنافق ولم يقبل عذره لكذبه ولم يزده علىٰ قوله: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

س: اذكر ما يستفاد من حديث الباب المتقدم؟

جـ: يستفاد منه:

١ - أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمله أو اعتقاد يعتقده.

٢ - الخوف من النفاق الأكبر.

٣ - جواز وصف الرجل بالنفاق إذا ظهر منه ما يدل عليه.

٤ - أن الاستهزاء بآيات الله ورسوله كفر.

٥- أن الإنسان إذا فعل الكفر ولم يعلم أنه كفر لا يعذر بذلك، بل يكفر وأن الساب كافر بطريق الأولىٰ.

والله أعلم وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.



الدرس التاسع والأربعون:

باب قول الله تعالى(٤٤٨)

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ... ﴾[فصلت:٥٠].

قال مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به.

وقال ابن عباس: يريد من عندي.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨].

قال قتادة: علي علم مني بوجوه المكاسب، وقال آخرون: علي علم من الله أني له أهل.

وهذا معني قول مجاهد: أوتيته علىٰ شرف.

وعن أبي هريرةﷺ، أنه سمع النبيﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمىٰ؛ فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا فأتىٰ الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لونٌ حسن وجلدٌ حسن ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطي(٤٤٩)لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو(٤٥٠)البقر -شك إسحاق-. فأُعطي ناقة عُشَرَاء، فقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتىٰ الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن(٤٥١) ويذهب عني الذي(٤٥٢) قذرني الناس به، فمسحه، فذهب عنه [قذره](٤٥٣)، وأعطي شعرًا حسنًا.فقال:(٤٥٤) أي(٤٥٥) المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل.فأعطي بقرة حاملًا، قال(٤٥٦): بارك الله لك فيها. قال: فأتي الأعمىٰ، فقال: أي شيء أحب

(٤٤٨)في نسخة السعدي: «باب ما جاء في قول الله تعالىٰ».

(٤٤٩)في نسخة السعدي: «وأعْطي».

(٤٥٠)زاد في نسخة السعدي: «قال».

(٤٥١)زاد في نسخة ابن قاسم: «جلد حسن».

(٤٥٢)في نسخة السعدي: «هذا الذي قد»، وفي نسخة ابن قاسم والفوزان: «الذي قد».

(٤٥٣)ساقطة من نسخة السعدي وابن قاسم وابن باز والفوزان، والمثبت من نسخة ابن عثيمين.

(٤٥٤)في نسخة ابن قاسم، ابن باز، والسعدي: «قال».

(٤٥٥)في نسخة ابن قاسم، السعدي، وابن باز: «فأي».

(٤٥٦)في نسخة ابن قاسم: «وقال».

إليك؟ قال: يرد[٤٥٧] الله إلي بصري فأُبصر به الناس[٤٥٨] فمسحه، فرد الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم.فأُعطي شاة والدًا.فأنتج هذان وولدَّ هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتىٰ الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين [وابن سبيل][٤٥٩] قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيرًا أتبلَّغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة. فقال [له][٤٦٠]: كأني أعرفك! ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك اللهﷻ المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر.فقال: إن كنت كاذبًا، فصيرك الله إلىٰ ما كنت.

قال: وأتىٰ الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا؛ فصيرك الله إلىٰ ما كنت.

قال: [وأتي الأعمىٰ في صورته][٤٦١]، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك[٤٦٢]؛ شاة أتبلَّغ بها في سفري.قال: قد كنت أعمىٰ فرد الله عليَّ بصري؛ فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله

لا أجهدك اليوم بشيء[٤٦٣] أخذته لله.فقال: أمسك[٤٦٤] مالك؛ فإنما ابتُليتم؛ فقد رضي الله عنك، وسخط علىٰ صاحبيك». أخرجاه.[٤٦٥]

---

(٤٥٧) في نسخة السعدي وابن قاسم والفوزان: «أن يرد».

(٤٥٨) زاد في نسخة السعدي: «قال».

(٤٥٩) سقط من نسخة السعدي والفوزان.

(٤٦٠) ساقطة من نسخة ابن القاسم.

(٤٦١) في نسخة ابن قاسم: «ثم إنه أتىٰ الأعمىٰ في صورته وهيئته».

(٤٦٢) زاد في نسخة ابن قاسم: «وأعطاك المال».

(٤٦٣) في نسخة السعدي: «شيئًا».

(٤٦٤) في نسخة ابن قاسم: «أمسك عليك».

(٤٦٥) أخرجه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٤٦٤)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٤) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾[فُصِّلَت:٥٠].

الثالثة: ما معنى قوله. ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[القصص:٧٨].

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ ...﴾»:

أراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة بيان أن زعم الإنسان استحقاقه ما حصل له من النعم بعد الضراء مناف لكمال التوحيد، أي: يقول تعالى: ولئن آتينا الإنسان خيرا وعافية وغنى، من بعد بلاء وشدة أصابته، ليقولن: إني كنت مستحقه، فكفر نعمة الله إذا لم ينسبها إليه تعالى.

قوله: «**وقال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به**»؛ أي: بكسبي وأنا خليق به وجدير به، رواه عبد بن حميد وابن جرير بنحوه.

قوله: «**وقال ابن عباس: يريد من عندي**»؛ أي: يريد بقوله: ﴿هَٰذَا لِي﴾ هذا من عندي.

قوله: «وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾»:

قاله قارون فخسف الله به الأرض عقوبة له.

قوله: «**قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب**»: رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وقال ابن كثير: قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ على خبر عندي.

قوله: «**وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل**»: قاله السدي والبغوي وابن جرير وغيرهم.

قوله: «**وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف**»: رواه ابن جرير وغيره، وليس فيما ذكروه اختلاف، وإنما هو أفراد المعنى. ونحو هاتين الآيتين قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الزمر: ٤٩]، أي: أنه في حال الضر يضرع إليه، ثم إذا خوله نعمة منه طغى وبغى. وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الزمر: ٤٩]، أي: لما يعلم الله استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصيص لما

خولني هذا، قال الله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾[الزمر: ٤٩] أي: ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[غافر: ٥٧] أنه استدراج وامتحان، ليشكر أو يكفر: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[الزمر: ٥٠] يعني: قارون وأشباهه، فإنه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه: لولا أنه يستحق ذلك لما أعطي.

❁ **قوله: «وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من ...»**:

بالنصب بدل من اسم «إن»، والأبرص من به داء البرص، وهو بياض يظهر في ظاهر البدن لفساد المزاج، والأقرع من به قرع، وهو داء يصيب الصبيان في رءوسهم، ثم ينتهي بزوال الشعر أو بعضه، والقرع الصلع. والأعمى من فقد بصره، ولا يقع إلا على العينين جميعا.

قوله: «فأراد الله أن يبتليهم»؛ أي: يختبرهم بنعمته كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾. ولفظ البخاري: «بدا لله» بالباء الموحدة والدال المهملة، وكسر لام الجلالة، قال ابن قرقور: ضبطناه بالهمز يعني ابتدأ، ورواه كثير من الشيوخ بلا همز.

قوله:«لونٌ حسنٌ، وجلدٌ حسنٌ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به»: اللون هيئة كالبياض والحمرة، والجلد ظاهر البشرة وهو: غشاء الجسد، و«قذرني» بكسر الذال، أي: كرهوا مخالطتي، ونفروا عني، واستأذوا من رؤيتي، وعدوني مستقذرا من أجله.

قوله: «فأي المال أحب إليك»: لما زال عنه البرص الذي هو أكره منظر، وكان لا يبرأ في العادة، خيره في أنفس الأموال، ليجمع له أكبر النعم البدنية والمالية اختبارًا.

قوله: «شك إسحاق»؛ أي: ابن عبد الله بن أبي طلحة، راوي الحديث.

قوله: «فأعطي ناقة عشراء»: بضم العين وفتح الشين وبالمد، وهي: الحامل التي أتى على حملها عشرة أشهر أو ثمانية، وقيل: يقال لها إلى أن تلد، وهي من أنفس الإبل.

قوله: «بارك الله لك فيها»: أي: دعا له الملك بالبركة، وهو مجاب الدعوة بإذن الله.

قوله: «قد قذرني الناس به»: وعابوني به.

قوله: «فمسحه فذهب عنه»: ولم يكن البرء من عادته غالبا.

قوله: «وأعطي شعرًا حسنًا»: بعد أن كان أقرع يقذره الناس.

قوله: «**بارك الله لك فيها**»؛ أي: دعا له الملك بالبركة، كما دعا لمن قبله، وحاملًا أي: حبلىٰ، ولم يقل حاملة؛ لأن هذا نعت لا يكون إلا للإناث.

قوله: «**فمسحه فرد الله إليه بصره**»: الذي لم يكن البرء من عادته.

قوله: «**فأعطي شاة والدًا**»؛ أي: ذات ولد. وقال بعضهم: الشاة الوالد التي عرف منها كثرة الولد والنتاج، ودعا له بالبركة.

قوله: «**فأنتج هذان وولد هذا**»: أنتج بفتح الهمزة والتاء. وفي رواية: فنتج. وقال غير واحد: بالضم فيها؛ أي: تولىٰ صاحب الناقة وصاحب البقرة نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة، وولَّد بتشديد اللام؛ أي: تولىٰ ولادها، وهو بمعنىٰ نتج في الناقة، فالمولد والناتج والقابلة بمعنىٰ واحد.

قوله: «**فكان لهذا واد...**»؛ أي: كان لكل واحد منهم ما يملأ الوادي من الإبل والبقر والغنم.

قوله: «**ثم إنه أتىٰ الأبرص في صورته وهيئته**»؛أي: أتىٰ الملك في صورة الأبرص التي كان عليها أولا لما اجتمع به، وهو كونه أبرص فقيرًا ترقيقًا لقلبه، وإنما ذكره حالته الأولىٰ ليكون أبلغ في إقامة الحجة عليه.

قوله: « **رجل مسكين**»: رجل خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنا.

قوله: «**قد انقطعت بي الحبال في سفري**»: الحبال بالحاء المهملة والباء الموحدة؛ أي: أسباب المعيشة في سفري، وقيل الطريق. وفي رواية لمسلم: بالياء المثناة التحتية جمع حيلة؛ أي: لم يبق لي حيلة أراد أنك كنت هكذا، وليس بتعريض بل هو تصريح علىٰ وجه ضرب المثال والإيهام أنه صاحب القصة؛ ليتيقظ المخاطب كما أوهم الملكان داود أنهما صاحبا القصة.

قوله: «**فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك** »؛ أي: فلا وصول لي إلىٰ مرادي إلا بالله سبحانه ثم بك، إظهارا لشدة حاجته إليه.

قوله: «**بعيرًا أتبلغ به سفري**»: بعيرًا منصوب بمحذوف تقديره: أسألك بالذي: إلخ، يعني: أطلب منك بعيرًا أتبلغ به، أي: أتوصل به، من البلغة وهي الكفاية. وفي البخاري: «أتبلغ عليه»، أي: أتوصل عليه إلىٰ مرادي، عدد عليه ما أنعم الله به عليه ليكون أرق له.

قوله: «**فقال الحقوق كثيرة**»، أي: حقوق المال كثيرة علي، ولا أقدر علىٰ أدائها، أو حقوق المستحقين كثيرة فلا يحصل لك بعير، وهو إنما أراد دفعه، وليس بصادق.

قوله: «**ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا...** »: استفهام توبيخ، يذكره ما كان عليه من قبل، وما أنعم الله به عليه؛ ليعترف لله.

قوله: «**إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر**»: نصب كابرًا بنزع الخافض، أي: ورث هذا المال من كبير، ورثه عن كبير آخر في الشرف، فجحد نعم الله عليه مع قرب تجددها، ومع تصريح السائل الخبير، بما وجب عليه لها من الشكر الذي هو أعظم الأسباب في هذه النعم، ومع شدة حاجة السائل، فلم يقر لله بنعمة، ولم ينسبها إليه، ولا أدىٰ حقه فيها، فحل عليه السخط؛ لمبالغته في جحد النعمة وكفر مسديها.

قوله: «**إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلىٰ ما كنت**»؛ أي: ردك الله إلىٰ ما كنت عليه سابقًا من البرص والفقر، أو رده بلفظ الماضي مبالغة في الدعاء عليه.

قوله: «**ثم إنه أتىٰ الأقرع في صورته**»: لم يقل وهيئته اختصارًا أو اكتفاءً.

قوله: «**فقال له مثل ما قال لهذا**»؛ أي: قال للأقرع مثل ما قاله للأبرص، رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك الشعر الحسن، والجلد الحسن، بقرة أتبلغ بها في سفري.

قوله: «**ورد عليه مثل ما ردَّ عليه هذا**»؛ أي: كرد الأبرص علىٰ هذا السائل بقوله: الحقوق كثيرة، فقال له الملك: ألم تكن أقرع يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر.

قوله: «**إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلىٰ ما كنت**»؛ أي: إلىٰ ما كنت عليه قبل من القرع والفقر.

قوله: «**ثم إنه أتىٰ الأعمىٰ في صورته وهيئته**»: وهي أنه أعمىٰ فقير.

قوله: «**فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل**»؛ أي: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أو تطلبه من مالي. ولفظ البخاري: «لا أحمدك» بالحاء المهملة والميم، أي: علىٰ ترك شيء، أو أخذ شيء مما تحتاج إليه من مالي، ويحتمل: لا أطلب منك الحمد، أي: لا أمتن عليك.

قوله: «**أمسك عليك مالك، فإنما ابتليتم**»؛ يعني: أنت ورفيقاك، والمعنىٰ: اختبرتم هل تذكرون سوء حالتكم، وتشكرون نعمة ربكم عليكم أو لا؟

قوله: «**أخرجاه**»؛ أي: البخاري ومسلم وهذا لفظه، فالأعمىٰ اعترف بنعمة الله عليه، ونسبها إلىٰ من أنعم عليه بها، وأدىٰ حق الله فيها، فاستحق الرضىٰ من الله بقيامه بشكر النعمة، لما أتىٰ بأركانها: الإقرار بها، ونسبتها إلىٰ المنعم، وبذلها فيما يحب، وكفر صاحباه نعمة الله عليهما، فاستحقا السخط بذلك.

قال ابن القيم: الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضًا، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها فقد كفرها، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقرَّ بها، ولكن لم يخضع له، ولم يحبه ولم يرض به وعنه، لم يشكرها أيضًا، ومن عرفها وعرف المنعم بها، وأقرَّ بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في رضاه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها؛ فلا بد للشكر من علم القلب وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له، وفي هذا الحديث بيان حال من كفر النعم ومن شكرها، وجواز ذكر من مضى ليتعظ به من سمعه، ولا يكون ذلك غيبة فيهم، ولعله السر في ترك تسميتهم.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: « قول الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾[فصلت: ٥٠] »:

مقصود هذه الترجمة أن كل من زعم أن ما أوتيه من النعم والرزق؛ فهو بكده وحذقه وفطنته أو أنه مستحق لذلك لما يظن له على الله من الحق؛ فإن هذا مناف للتوحيد؛ لأن المؤمن حقًّا من يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويثني على الله بها، ويضيفها إلى فضله وإحسانه ويستعين بها على طاعته ولا يرى له حقًّا على الله وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه؛ فبهذا يتحقق الإيمان والتوحيد وبضده يتحقق كفران النعم والعجب بالنفس والإدلال الذي هو من أعظم العيوب.

قال العلامة ابن باز:

قوله: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾:

هذا الباب عقده المؤلف لبيان ما غلب على النفوس من إنكارها النعم وجحدها وكفرانها وعدم الاعتراف بها لمعطيها سبحانه وتعالى.

وفي الآية: إن هذا: القول طبيعة من طبيعة بني آدم إلا من عصمه الله، من إنكارهم النعم ونسبتها لنفسه وعدم الاعتراف بها لخالقها ﷻ فمن شأنه الكفر بالنعم وأن يقول هذا عملي ومن أسبابي وغير ذلك.

والمقصود من هذا: الحث على شكر النعم وإسنادها لله وإن كان له أسباب لكن كله بفضل الله، هو الذي أنبت له النبات ويسر له التجارة والربح، ولا مانع أن يسنده إلى سبب من الأسباب لكن يبين أولًا أنها من الله ويشكر ثم لا مانع من ذكر الأسباب لكن إن نسبها إلى أسبابه ونسي المنعم فهذا منكر.

❁ **قوله: «عن أبي هريرة مرفوعًا: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمىٰ...»:**

هذا الحديث فيه فوائد عظيمة قصها النبي ﷺ للعظة ولئلا نقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل من الأخطاء.

فهؤلاء الثلاثة ابتلاهم الله بالضراء أولًا ثم بالسراء، فكفر اثنان بنعمة الله.

وشكر واحد وهذا شاهد لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣]، وفيه الحث علىٰ شكر النعم والاعتراف بها لله.

والأدب في السؤال حيث قال: لا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك.

وفيه بيان قدرة الله وأنه يقول للشيء كن فيكون.

وعلىٰ المؤمن أن يكون علىٰ حذر من عقوبة الله ومداومة الشكر له سبحانه.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله: «باب ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ ...﴾»:**

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلىٰ عمله وكسبه؛ ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلىٰ الله لكنه زعم أنه مستحق لذلك وأن ما أعطاه الله ليس محض تفضل، لكن لأنه أهل؛ ففيه نوع من التعلي والترفع في جانب العبودية.

وقد ذكر الشيخ فيه آيتين:

الآية الأولىٰ: ما ترجم به المؤلف، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ ﴾: الضمير يعود علىٰ الإنسان، والمراد به الجنس. وقيل: المراد به الكافر. والظاهر أن المراد به الجنس؛ إلا أنه يمنع من هذه الحال الإيمان، فلا يقول ذلك المؤمن، قال تعالىٰ قبلها: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت:٤٧ - ٤٩]، هذه حال الإنسان من حيث هو إنسان، لكن الإيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة.

قوله: ﴿مِّنَّا﴾: أضافه الله إليه؛ لوضوح كونها من الله، ولتمام منته بها.

قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾؛ أي: أنه لم يذق الرحمة من أول أمره، بل أصيب بضراء؛ كالفقر وفقد الأولاد وغير ذلك، ثم أذاقه بعد ذلك الرحمة حتىٰ يحس بها وتكون لذتها والسرور بها أعظم مثل الذائق للطعام بعد الجوع.

قوله: ﴿مَسَّتْهُ﴾؛ أي: أصابته وأثرت فيه.

قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾: هذا كفر بنعمة الله وإعجاب بالنفس، واللام في قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم المقدر قبل اللام في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾.

قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾: بعد أن انغمس في الدنيا نسي الآخرة؛ بخلاف المؤمن إذا أصابته الضراء لجأ إلىٰ الله، ثم كشفها، ثم وجد بعد ذلك لذة وسرورًا يشكر الله علىٰ ذلك، أما هذا؛ فقد نسي الآخرة وكفر بها.

قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

﴿إن﴾: شرطية وتأتي فيما يمكن وقوعه وفيما لا يمكن وقوعه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥]، والمعنىٰ: علىٰ فرض أن أرجع إلىٰ الله إن لي عنده للحسنىٰ. والحسنىٰ: اسم تفضيل؛ أي: الذي هو أحسن من هذا، واللام للتوكيد.

قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: فلننبئن هذا الإنسان، وأظهر في مقام الإضمار من أجل الحكم علىٰ هذا القائل بالكفر ولأجل أن يشمله الوعيد وغيره.

قوله مجاهد: «**هذا بعملي، وأنا محقوق به**»؛ أي: هذا بكسبي وأنا مستحق له.

قوله ابن عباس: «**يريد من عندي**»؛ أي: من حذقي وتصرفي وليس من عند الله.

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: في القرآن آيتان: آية قال الله فيها: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزُمر:٤٩]، الثانية: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، والظاهر من تفسير المؤلف أنه يريد الآية الثانية.

قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: في معناه أقوال:

الأول: قال قتادة: علىٰ علم مِنِّي بوجوه المكاسب، فيكون العلم عائدًا علىٰ الإنسان؛ أي: إنني عالم بوجوه المكاسب ولا فضل لأحد علي فيما أوتيته، وإنما الفضل لي، وعليه يكون هذا كفرًا بنعمة الله وإعجابًا بالنفس.

الثاني: قال آخرون: علىٰ علم من الله أني له أهل؛ فيكون بذلك مدلًّا علىٰ الله، وأنه أهل ومستحق لأن ينعم الله عليه، والعلم هنا عائد علىٰ الله؛ أي: أوتيت هذا الشيء علىٰ علم من الله أني مستحق له وأهل له.

الثالث: قول مجاهد: «**أوتيته على شرف**»، وهو من معنىٰ القول الثاني، فصار معنىٰ الآية يدور علىٰ وجهين:

الوجه الأول: أن هذا إنكار أن يكون ما أصابه من النعمة من فضل الله، بل زعم أنها من كسب يده وعلمه ومهارته.

الوجه الثاني: أنه أنكر أن يكون لله الفضل عليه، وكأنه هو الذي له الفضل علىٰ الله؛ لأن الله أعطاه ذلك لكونه أهلًا لهذه النعمة. فيكون علىٰ كلا الأمرين غير شاكر الله ﷻ، والحقيقة أن كل ما نؤتاه من النعم فهو من الله؛ فهو الذي يسرها حتىٰ حصلنا عليها، بل كل ما نحصل عليه من علم أو قدرة أو إرادة فمن الله؛ فالواجب علينا أن نضيف هذه النعم إلىٰ الله سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل:٥٣]، حتىٰ ولو حصلت لك هذه النعمة بعلمك أو مهارتك؛ فالذي أعطاك هذا العلم أو المهارة هو الله ﷻ، ثم إن المهارة أو العلم قد لا يكون سببًا لحصول الرزق؛ فكم من إنسان عالم أو ماهر حاذق ومع ذلك لا يوفق بل يكون عاطلًا؟!

وشكر النعمة له ثلاثة أركان:

١- الاعتراف بها في القلب.

٢- الثناء علىٰ الله باللسان.

٣- العمل بالجوارح بما يرضي المنعم.

فمن كان عنده شعور في داخل نفسه أنه هو السبب لمهارته وجودته وحذقه؛ فهذا لم يشكر النعمة، وكذلك لو أضاف النعمة بلسانه إلىٰ غير الله أو عمل بمعصية الله في جوارحه، فليس بشاكر لله تعالىٰ.

❁ **قوله**: «**وعن أبي هريرة** رضي الله عنه**، أنه سمع النبي** ﷺ **يقول: أن ثلاثة من بني إسرائيل**»:

جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود منها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[يوسف:١١١].

قوله: «**من بني إسرائيل**»: في محل نصب نعت لـ«**ثلاثة** » وبنو إسرائيل هم ذرية يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

قوله: «**أبرص**»؛ أي: في جلده برص، والبرص داء معروف، وهو من الأمراض المستعصية التي لا يمكن علاجها بالكلية، وربما توصلوا أخيرًا إلىٰ عدم انتشارها وتوسعها في الجلد، لكن رفعها لا يمكن؛ ولهذا جعلها الله آية لعيسىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾[المائدة:١١٠].

قوله: «أقرع»: من ليس علي رأسه شعر.

قوله: «أعمىٰ»: من فقد البصر.

قوله: «فأراد الله» وفي بعض النسخ: «أراد الله»: فعلىٰ إثبات الفاء يكون خبر «إن» محذوفًا دل عليه السياق تقديره: إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمىٰ أنعم الله عليهم فأراد الله أن يبتليهم. ولا يمكن أن يكون «أبرص وأقرع وأعمىٰ» خبرًا؛ لأنه بدل، وعلىٰ حذف الفاء يكون الخبر جملة: «أراد الله»، والإرادة هنا كونية.

قوله: «يبتليهم»؛ أي: يختبرهم؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء:٣٥] وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

قوله: «ملكًا»: أحد الملائكة: هم عالم غيبي خلقهم الله من نور وجعلهم قائمين بطاعة الله، لا يأكلون، ولا يشربون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لهم أشكال وأعمال ووظائف مذكورة في الكتاب والسنة، ويجب الإيمان بهم، وهو أحد أركان الإيمان الستة.

قال أهل اللغة: وأصل الـ«ملك» مأخوذ من الألوكة، وهي الرسالة، وعلي هذا يكون أصله مألك. فصار فيه إعلال قلبي، فصار ملأك، ثم نقلت حركة الهمزة إلىٰ اللام الساكنة وحذفت الهمزة تخفيفًا، فصار ملك؛ ولهذا في الجمع تأتي الهمزة: ملائكة.

قوله: «ويذهب»: يجوز فيه الرفع والنصب، والرفع أولىٰ.

قوله: «قذرني»؛ أي: استقذرني وكرهوا مخالطتي من أجله.

وقوله: «به» الباء للسببية؛ أي: بسببه.

قوله: «فمسحه»: ليتبين أن كل شيء سببًا وبرئ بإذن الله ﷻ، «فذهب عنه قذرة»: بدأ بذهاب القذر قبل اللون قبل اللون الحسن والجلد الحسن؛ لأنه يبدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب، كما يقال: التخلية قبل التحلية.

قوله: «قال: الإبل أو البقر -شك إسحاق-»، والظاهر: أنه الإبل كما يفيده السياق، وإسحاق أحد رواة الحديث.

قوله: «عشراء»: قيل: هي الحامل مطلقًا، وقال في «القاموس»: هي التي بلغ حملها عشرة أشهر أو ثمانية، سخرها الله ﷻ وذللها ولعلها كانت قريبة من الملك فأعطاه إياها.

قوله: «بارك الله لك فيها»: يحتمل أن لفظه لفظ الخبر ومعناه الدعاء وهو الأقرب؛ لأنه أسلم من التقدير، ويحتمل أنه الخبر محض، كأنه قال: هذه ناقة عشراء مبارك لك فيها ويكون المعني علىٰ تقدير «قد»؛ أي: قد بارك الله لك فيها.

قوله: «فأتىٰ الأقرع»: وهو الرجل الثاني في الحديث.

قوله: «فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن»: ولم يكتف بمجرد الشعر، بل طلب شعرًا حسنًا.

قوله: «الذي قذرني الناس به»؛ أي: القرع؛ لأنه إذا كان أقرع كرهه الناس واستقذره، وهذا يدل علىٰ أنهم لا يغطون رءوسهم بالعمائم ونحوها، وقد يقال: يمكن أن يكون عليه عمامة يبدو بعض الرأس من جوانبها؛ فيكرهه الناس مما بدا منها.

قوله: «فذهب عنه قذره»: يقال في تقديم ذهاب القذر ما سبق، وهذه نعمة من الله ﷻ أن يستجاب للإنسان.

قوله: «البقر أو الإبل»: الشك من إسحاق، وسياق الحديث يدل علىٰ أنه أعطي البقر.

قوله: «فأتىٰ الأعمىٰ»: هذا هو الرجل الثالث في هذه القصة.

قوله: «فأبصره به الناس»: لم يطلب بصرًا حسنًا كما طلبه صاحباه، وإنما طلب بصرًا يبصر به الناس فقط مما يدل علىٰ قناعته بالكفاية.

قوله: «فرد الله إليه بصره»: الظاهر أن بصره الذي كان معه من قبل هو ما يبصر به الناس فقط.

قوله: «قال: الغنم»: هذا يدل علىٰ زهده كما يدل علىٰ أنه صاحب سكينة وتواضع؛ لأن السكنية في أصحاب الغنم.

قوله: «شاة والدًا»، قيل: إن المعنىٰ قريبة الولادة، ويؤيده أن صاحبيه أعطيا أنثىٰ حاملًا، ولما يأتي من قوله: «فأنتج هذان وولد هذا»، والشيء قد يسمي بالاسم القريب؛ فقد يعبر عن الشيء حاصلًا وهو لم يحصل، لكنه قريب الحصول.

قوله: «فأُنتج هذان»: بالضم، وفيه رواية بالفتح: «فأَنتج»، وفي رواية: «فنتج هذان».

والأصل في اللغة في مادة «نتج»: أنها مبنية للمفعول والإشارة إلىٰ صاحب الإبل والبقر، و «أنتج»؛ أي: حصل لهما نتاج الإبل والبقر.

قوله: «وولد هذا»؛ أي: صار لشاته أولاد، قالوا: والمنتج من أنتج، والناتج من نتج، والمولد من ولد، ومن تولىٰ النساء يقال له: القابلة، ومن تولىٰ توليد غير النساء يقال له: منتج أو ناتج أو مولد.

قوله: «**فكان لهذا واد من الإبل**»: مقتضىٰ السياق أن يقول: فكان لذلك؛ لأنه أبعد المذكورين، لكنه استعمل الإشارة للقريب في مكان البعيد، وهذا جائز، وكذا العكس.

قوله: «**في صورته وهيئته**»: الصورة في الجسم، والهيئة في شكل واللباس، وهذا هو الفرق بينهما.

قوله: «**رجل مسكين**». خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أنا رجل مسكين، والمسكين: الفقير، وسمي الفقير مسكينًا؛ لأن الفقر أسكنة وأذلة، والغني في الغالب يكون عنده قوة وحركة.

قوله: «**وابن سبيل**»؛ أي: مسافر، سمي بذلك لملازمته للطريق؛ ولهذا سمي طير الماء ابن الماء لملازمته له غالبًا، فكل شيء يلازم شيئًا؛ فإنه يصح أن يضاف إليه بلفظ البنوة.

قوله: «**انقطعت بي الحبال في سفري**»: الحبال الأسباب؛ فالحبل يطلق علىٰ السبب وبالعكس، قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾[الحج:١٥]، ولأن الحبل سبب يتوصل به الإنسان إلىٰ مقصوده كالرشاء يتوصل به الإنسان إلىٰ الماء الذي في البئر.

قوله: «**فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**». «**لا**» نافية للجنس، والبلاغ بمعنىٰ الوصول، ومنه تبليغ الرسالة؛ أي: إيصالها إلىٰ المرسل إليه، والمعنىٰ: لا شيء يوصلني إلا بالله ثم بك؛ فالمسألة فيها ضرورة.

قوله: «**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن**»: السؤال هنا ليس سؤال استخبار بل سؤال استجداء؛ لأن «**سأل**» تأتي بمعنىٰ استجدىٰ وبمعنىٰ استخبر، تقول: سألته عن فلان؛ أي: استخبرته، وسألته مالًا؛ أي: استجديته واستعطيته، وإنما قال: «**أسألك بالذي أعطاك**»، ولم يقل: أسألك بالله؛ لأجل أن يذكره بنعمة الله عليه؛ ففيه إغراء له علىٰ الإعانة لهذا المسكين؛ لأنه جمع بين أمرين: كونه مسكينًا، وكونه ابن سبيل؛ ففيه سببان يقتضيان الإعطاء.

وقوله: «**بعيرًا**»: يدل علىٰ أن الأبرص أعطي الإبل، وتعبير إسحاق «**الإبل أو البقر**» من باب ورعه.

قوله: «**أتبلغ به في سفري**»؛ أي: ليس أطيب الإبل وإنما يوصلني إلىٰ أهلي فقط.

قوله: «**الحقوق كثيرة**»؛ أي: هذا المال الذي عندي متعلق به حقوق كثيرة، ليس حقك أنت فقط، وتناسىٰ - والعياذ بالله - أن الله هو الذي مَنَّ عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال.

قوله: «**كأني أعرفك**»: كأن هناك للتحقيق لا للتشبيه؛ لأنها إذا دخلت علىٰ جامد فهي للتشبيه، وإذا دخلت علىٰ مشتق؛ فهي للتحقيق أو للظن والحسبان، والمعنىٰ: أني أعرفك معرفة تامة.

قوله: «**ألم تكن أبرص يقذرك الناس**»: ذكّره الملك بنعمة الله عليه وعرفه بما فيه من العيب السابق حتىٰ يعرف قدر النعمة، والاستفهام للتقرير لدخوله علىٰ «لم»؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[الشرح:١].

قوله: «**كابرًا عن كابر**»: أنكر أن المال من الله، لكنه لم يستطع أن ينكر البرص. و «**كابرًا** » منصوبة على نزع الخافض؛ أي: من كابر؛ أي: ممن يكبرني وهو الأب، عن كابر له وهو الجد، وقيل: المراد الكبر المعنوي؛ أي: أننا شرفاء وسادة وفي نعمة من الأصل، وليس هذا المال مما تجدد، واللفظ يحتمل المعنيين جميعًا.

قوله: «**إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلىٰ ما كنت**»: «**إن**»: شرطية ولها مقابل؛ يعني: وإن كنت صادقًا فأبقي الله عليك النعمة.

فإن قيل: كيف يأتي بـ«**إن**» الشرطية الدالة علىٰ الاحتمال مع أنه يعرف أنه كاذب؟

أجيب: إن هذا من باب التنزل مع الخصم، والمعنىٰ: إن كنت كما ذكرت عن نفسك، فأبقىٰ الله عليك هذه النعمة، وإن كنت كاذبًا وأنك لم ترثه كابرًا عن كابر؛ فصيرك الله إلىٰ ما كنت من البرص والفقر، ولم يقل: «إلىٰ ما أقول»؛ لأنه كان علىٰ ذلك بلا شك. والتنزل مع الخصم يرد كثيرًا في الأمور المتيقنة، كقوله تعالىٰ: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[النمل:٥٩] ومعلوم أنه لا نسبة، وأن الله خير مما يشركون، ولكن هذا من باب محاجة الخصم لإدحاض حجته.

قوله: «**وأتىٰ الأقرع في صورته**»: الفاعل الملك، وهنا قال: «**في صورته**» فقط وفي الأول قال: «**في صورته وهيئته**»؛ فالظاهر أنه تصرف من الرواة، وإلا؛ فالغالب أن الصورة قريبة من الهيئة، وإن كانت الصورة تكون خلقة، والهيئة تكون تصنعًا في اللباس ونحوه، وقد جاء في رواية البخاري: «**في صورته وهيئته**».

قوله: «**فقال له مثل ما قال لهذا**»: المشار إليه الأبرص.

قوله: «**فرد عليه**»؛ أي: الأقرع.

قوله: «**مثل ما رد عليه هذا**»؛ أي: الأبرص. فكلا الرجلين - والعياذ بالله - غير شاكر لنعمة الله ولا معترف بها ولا راحم لهذا المسكين الذي انقطع به السفر.

قوله: «**فصيرك الله إلىٰ ما كنت عليه**»؛ أي: ردك الله إلىٰ ما كنت عليه من القرع الذي يقذرك الناس به والفقر.

قوله: «**فرد الله عليَّ بصري**»: اعترف بنعمة الله، وهذا أحد أركان الشكر، والركن الثاني: العمل بالجوارح في طاعة المنعم، والركن الثالث: الاعتراف بالنعمة في القلب، قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

قوله: «فوالله؛ لا أجهدك بشيء أخذته لله»، الجهد: المشقة، والمعني: لا أشق عليكم بمنع ولا مِنَّة، واعترافه بلسانه مطابق لما في قلبه؛ فيكون دالًّا علىٰ الشكر بالقلب بالتضمن.

قوله: «خذ ما شئت ودع ما شئت»: هذا من باب الشكر بالجوارح؛ فيكون هذا الأعمىٰ قد أتم أركان الشكر.

قوله: «لله»: اللام للاختصاص، والمعنىٰ: لأجل الله، وهذا ظاهر في إخلاصه لله فكل ما تأخذه لله فأنا لا أمنعك منه ولا أردك.

قوله: «إنما ابتليتم»؛ أي: اختبرتم، والذي ابتلاهم هو الله تعالىٰ، وظاهر الحديث أن قصتهم مشهورة معلومة بين الناس؛ لأن قوله: «إنما ابتليتم» يدل علىٰ أن عنده علمًا بما جرىٰ لصاحبيه وغالبًا أن مثل هذه القصة تكون مشهورة بين الناس.

قوله: «فقد رضي الله عنك»؛ يعني: لأنك شكرت نعمة الله بالقلب واللسان والجوارح.

قوله: «وسخط علىٰ صاحبيك»: لأنهما كفرا نعمة الله - سبحانه - وأنكرا أن يكون الله مَنّ عليهما بالشفاء والمال.

وفي هذا الحديث من العبر شيء كثير، منها:

١- أن الرسول ﷺ يقص علينا أنباء بني إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ بما جرىٰ، وهو أحد الأدلة لمن قال: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ولا شك أن هذه قاعدة صحيحة.

٢- بيان قدرة الله ﷻ بإبراء الأبراص والأقرع والأعمىٰ من هذه العيوب التي فيهم بمجرد مسح الملك لهم.

٣- أن الملائكة يتشكلون حتىٰ يكونوا علىٰ صورة البشر؛ لقوله: «فأتىٰ الأبرص في صورته»، وكذلك الأقرع والأعمىٰ، لكن هذا - والله أعلم - ليس إليهم وإنما يتشكلون بأمر الله تعالىٰ.

٤- أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحًا أو معاني أو قوىٰ فقط.

٥- حرص الرواة علىٰ نقل الحديث بلفظه.

٦- أن الإنسان لا يلزمه الرضاء بقضاء الله؛ أي: بالمقضي؛ لأن هؤلاء الذين أصيبوا قالوا: أحب إلينا كذا وكذا، وهذا يدل علىٰ عدم الرضا.

وللإنسان عند المصائب أربع مقامات:

-جزع، وهو محرم.

-صبر، وهو واجب.

-رضا، وهو مستحب.

-شكر، وهو أحسن وأطيب.

وهنا إشكال وهو: كيف يشكر الإنسان ربه على المصيبة وهي لا تلائمه؟

أجيب: أن الإنسان إذا آمن بما يترتب علي هذه المصيبة من الأجر العظيم عرف أنها تكون بذلك نعمة، والنعمة تشكر.

وأما قوله ﷺ: **«فمن رضي؛ فله الرضا، ومن سخط؛ فعليه السخط»** (٤٦٦)؛ فالمراد بالرضا هنا الصبر، أو الرضا بأصل القضاء الذي هو فعل الله؛ فهذا يجب الرضا به؛ لأن الله ﷻ حكيم، ففرق بين فعل الله والمقضي. والمقضي ينقسم إلى: مصائب لا يلزم الرضا بها، وإلى أحكام شرعية يجب الرضا بها.

٧- جواز الدعاء المعلق؛ لقوله: **«إن كنت كاذبًا؛ فصيرك الله إلى ما كنت»**، وفي القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[النور:٧]، ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[النور:٩]، وفي دعاء الاستخارة: **«اللهم! إن كنت تعلم...إلخ»**.

٨- جواز التنزل مع الخصم فيما لا يقر به الخصم المتنزل لأجل إفحام الخصم؛ لأن الملك يعلم أنه كاذب، ولكن بناء على قوله: إن هذا ما حصل، وإن المال ورثه كابرًا عن كابر، وقد سبق بيان وروده في القرآن، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ:٢٤]، ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه على هدى وأولئك على ضلال، ولكن هذا من باب التنزل معهم من باب العدل.

٩- أن بركة الله لا نهاية لها؛ ولهذا كان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

١٠- هل يستفاد منه أن دعاء الملائكة مستجاب أو أن هذه قضية عين؟ الظاهر أنه قضية عين، وإلا؛ لكان الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب، وقال الملك: آمين ولك بمثله، علمنا أن الدعاء قد استجيب.

---

(٤٦٦) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، برقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء، برقم (٤٠٣١)، والحاكم، برقم(٨٧٩٩) وغيرهم من حديث أنس ﵁، وحسنه الألباني في« صحيح سنن الترمذي».

١١- بيان أن شكر كل نعمة بحسبها؛ فشكر نعمة المال أن يبذل في سبيل الله، وشكر نعمة العلم أن يبذل لمن سأله بلسان الحال أو المقال، والشكر الأعم أن يقوم بطاعة المنعم في كل شيء.

ونظير هذا ما مر أن التوبة من كل ذنب بحسبه، لكن لا يستحق الإنسان وصف التوبة المطلق إلا إذا تاب من جميع الذنوب.

١٢- جواز التمثيل، وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها في الحقيقة، مثل أن يأتي بصورة مسكين وهو غني وما أشبه ذلك إذا كان فيه مصلحة وأراد أن يختبر إنسانًا بمثل هذا؛ فله ذلك.

١٣- أن الابتلاء قد يكون عامًّا وظاهرًا يؤخذ من قوله: «**فإنما ابتليتم**»، وقصتهم مشهورة كما سبق.

١٤- فضيلة الورع والزهد، وأنه قد يجر صاحبه إلىٰ ما تحمد عقباه؛ لأن الأعمىٰ كان زاهدًا في الدنيا؛ فكان شاكرًا لنعمة الله.

١٥- ثبوت الإرث في الأمم السابقة؛ لقوله: «**ورثته كابرًا عن كابر**».

١٦- أن من صفات الله ﷻ الرضا والسخط والإرادة، وأهل السنة والجماعة يثبتونها علىٰ المعنىٰ اللائق بالله علىٰ أنها حقيقة.

وإرادة الله نوعان: كونية، وشرعية. والفرق بينهما **أن الكونية** يلزم فيها وقوع المراد ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله، فإذا أراد الله شيئًا قال له كن فيكون. **وأما الشرعية**: فإنه لا يلزم فيها وقوع المراد ويلزم أن يكون محبوبًا لله؛ ولهذا نقول: الإرادة الشرعية بمعنىٰ المحبة والكونية بمعني المشيئة.

فإن قيل: هل الله يريد الخير والشر **كونًا أو شرعًا**؟

أجيب: أن الخير إذا وقع؛ فهو مراد لله كونًا وشرعًا، وإذا لم يقع؛ فهو مراد لله شرعًا فقط، وأما الشر فإذا وقع؛ فهو مراد لله كونًا لا شرعًا وإذا لم يقع؛ فهو غير مراد كونًا ولا شرعًا، واعلم أن الشر لا ينسب إلىٰ فعل الله -سبحانه-؛ ولكن إلىٰ مخلوقات الله، فكل فعل الله تعالىٰ خير؛ لأنه صادر عن حكمة ورحمة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**الخير كله بيديك، والشر ليس إليك**»[٤٦٧]، وأما مخلوقات الله؛ ففيها خير وشر.

---

(٤٦٧) أخرجه مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٧١)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، برقم (٧٦١) وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

وإثبات صفة الرضا لله -سبحانه- لا يقتضي انتفاء صفة الحكمة، بخلاف رضا المخلوق، فقد تنتفي معه الحكمة، فإن الإنسان إذا رضي عن شخص مثلًا فإن عاطفته قد تحمله علىٰ أن يرضىٰ عنه في كل شيء ولا يضبط نفسه في معاملته لشدة رضاه عنه، قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

لكن رضا الله مقرون بالحكمة، كما أن غضب الخالق ليس كغضب المخلوق؛ فلا تنتفي الحكمة مع غضب الخالق، بخلاف غضب المخلوق؛ فقد يخرجه عن الحكمة فيتصرف بما لا يليق لشدة غضبه.

ومن فسر الرضا بالثواب أو إرادته؛ فتفسيره مردود عليه، فإنه إذا قيل: إن معنىٰ «رضي»؛ أي: أراد أن يثيب، فمقتضاه أنه لا يرضىٰ، ولو قالوا: لا يرضىٰ لكفروا؛ لأنهم نفوها نفي جحود، لكن أولوها تأويلًا يستلزم جواز نفي الرضا؛ لأن المجاز معناه نفي الحقيقة، وهذا أمر خطير جدًّا؛ ولهذا بين شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم: أنه لا مجاز في القرآن ولا في اللغة، خلافًا لمن قال: كل شيء في اللغة مجاز.

١٧- أن الصحبة تطلق علىٰ المشاكلة في شيء من الأشياء ولا يلزم منها المقارنة؛ لقوله: «**وسخط علىٰ صاحبيك**»؛ فالصاحب هنا: من يشبه حاله في أن الله أنعم عليه بعد البؤس.

١٨- اختبار الله ﷻ بما أنعم عليهم به.

١٩- أن التذكير قد يكون بالأقوال أو الأفعال أو الهيئات.

٢٠- أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئًا لم يكن من أجل الاختبار؛ لقول الملك: إنه فقير وابن سبيل.

٢- أن هذه القصة كانت معروفة مشهورة؛ لقوله: «**فقد رضي الله عنك وسخط علىٰ صاحبيك**».

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير الآية: وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾، وقد سبق أن الضمير في قوله: ﴿أَذَقْنَاهُ﴾ يعود علىٰ الإنسان باعتبار الجنس.

الثانية: ما معنىٰ: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾: اللام للاستحقاق، والمعنىٰ: إني حقيق به وجدير به.

الثالثة: ما معنىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة: وقد سبق ذكر عبر كثيرة منها، وهذا

ليس استيعابًا، ومن ذلك الفرق بين الأبرص والأقرع والأعمىٰ؛ فإن الأبرص والأقرع جحدَا نعمة الله ﷻ والأعمىٰ اعترف بنعمة الله، عندما طلب الملك من الأعمىٰ المساعدة؛ قال: «خذ ما شئت»؛ فدل هذا علىٰ جوده وإخلاصه؛ لأنه قال: «فوالله؛ لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله ﷻ». وبخلاف الأبرص والأقرع حيث كانوا أشحاء بخلاء منكرين نعمة الله ﷻ.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾:

تمام الآية: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[فصلت:٥٠].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

بيان أنَّ زعم الإنسان استحقاقه ما حصل من النعم بعد الضراء منافٍ لكمال التوحيد.

﴿وَلَئِنْ﴾: اللام: لام قسم.

﴿أَذَقْنَاهُ﴾: آتيناه.

﴿رَحْمَةً﴾: غنًىٰ وصحةً.

﴿ضَرَّاءَ﴾: شدةٌ وبلاءٌ.

﴿قَائِمَةً﴾؛ أي: تقوم.

﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ أي: ولئن قامت الساعة -علىٰ سبيل الافتراض- ورجعت إلىٰ ربي.

﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: يكون لي عند الله في الآخرة الحالة الحسنىٰ من الكرامة؛ وذلك لاعتقاده أنَّ ما أصابه من نعم الدنيا فهو لاستحقاقه إيَّاه وليس لله فيه فضلٌ.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فلنخبرنهم.

﴿بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: بحقيقة أعمالهم، عكس ما اعتقدوه من حسن منقلبهم.

﴿غَلِيظٍ﴾؛ أي: شديدٍ.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر تعالىٰ أنَّ الإنسان في حال الضرِّ يضرع إلىٰ الله، وينيب إليه ويدعوه، وأنَّه في حال اليسر والسعة يتغير حاله، فينكر نعمة الله عليه، ويعرض عن شكرها؛ لزعمه إنَّه إنَّما حصلت له هذه النعمة بكدِّه وكسبه وحوله وقوته، وأعظم من ذلك أنه ينفي قيام الساعة وزوال الدنيا، ويقول: إن قدر قيام

الساعة فستستمر لي هذه الحالة الحسنة؛ لأنني أستحقها. ثم يعقب سبحانه علىٰ ذلك بأنَّه لا بد أن يوقف هذا وأمثاله من الكافرين علىٰ حقيقة أعمالهم الشنيعة ويجازيهم عليها بأشد العقوبة.

ما يستفاد من الآية:

١- وجوب شكر نعمة الله والاعتراف بأنَّها منه وحده.

٢- تحريم العجب والاغترار بالحول والقوة.

٣- وجوب الإيمان بقيام الساعة.

٤- وجوب الخوف من عذاب الله في الآخرة.

٥- وعيد من كفر بنعمة الله.

قوله: «أخرجاه»:

أي: البخاري ومسلم.

«أبرص»: الأبرص: من به داء البرص، وهو: بياض يظهر في ظاهر البدن لفساد المزاج.

«وأقرع»: هو: من به قرع، وهو: داء يصيب الصبيان في رءوسهم ثم ينتهي بزوال الشعر أو بعضه ويطلق القرع أيضًا علىٰ الصلع.

«وأعمىٰ»: هو: من فقد بصره.

«أن يبتليهم»؛ أي: يختبرهم بنعمته.

«قذِرني الناس»: بكسر: الذال؛ أي: كرهوا مخالطتي وعدوني مستقذرًا من أجله.

«شك إسحاق»: هو ابن عبد الله بن أبي طلحة راوي الحديث.

«عُشَراء»: بضم العين، وفتح الشين والمد، وهي: الناقة الحامل التي أتىٰ علىٰ حملها عشرة أشهر أو ثمانية.

«والدًا»؛ أي: ذات ولدٍ أو التي عُرِفَ منها كثرة الولد والنتاج.

«أنتج»؛ أي: تولىٰ صاحب الناقة وصاحب البقرة نتاجها.

«وولَّد»: بتشديد اللام؛ أي: تولَّىٰ ولادها.

«وكان لهذا واد...إلخ»؛ أي: كان لكل واحدٍ منهم ما يملأُ الوادي من الإبل والبقر والغنم.

«انقطعت بي الحبال»؛ أي: أسباب المعيشة.

«أتبلغ به»؛ أي: أتوصل به إلىٰ البلد الذي أريده.

«كابرًا عن كابرٍ»؛ أي: ورثت هذا المال عن كبير ورثه عن كبير آخر في الشرف.

«صيَّرك الله إلىٰ ما كنت»؛ أي: ردَّك إلىٰ حالك الأولىٰ برجوع العاهة إليك.

«لا أجهدك»؛ أي: لا أشق عليك برد شيءٍ تأخذه من مالي.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر ﷺ عن هؤلاء الثلاثة الذين أصيب كل منهم بعاهة في الجسم وفقرٍ من المال، ثم إنَّ الله سبحانه أراد أن يختبرهم، فأزال ما أصابهم من العاهات وأدرَّ عليهم الأموال، ثم أرسل إلىٰ كلِّ واحدٍ منهم الملك بهيئته الأولىٰ من: المرض والقرع والعمىٰ والفقر يستجديه شيئًا يسيرًا، وهنا تكشفت سرائرهم وتجلت حقائقهم؛ فالأعمىٰ اعترف بنعمة الله عليه ونسبها إلىٰ من أنعم عليه بها، فأدَّىٰ حق الله فيها، فاستحقَّ الرضا من الله، وكفر الآخران بنعمة الله عليهما وجحدا فضله فاستحقَّا السخط بذلك.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه بيان حال من كفر النعم ومن شكرها.

ما يستفاد من الحديث:

١- وجوب شكر النعمة في المال وأداء حق الله فيه.

٢- تحريم كفر النعمة ومنع حق الله في المال.

٣- جواز ذكر حال من مضىٰ من الأمم؛ ليتعظ به من سمعه.

٤- أنَّ الله يختبر عباده بالنعم.

٥- مشروعية قول: بالله ثم بك، فيكون العطف بـ«ثم» لا بـ«الواو» في مثل هذا التعبير.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ ...﴾ [فصلت: ٥٠]»:

هذا الباب كالأبواب التي قبله في بيان وجوب تعظيم الله -جل وعلا- في الألفاظ وأن النعم يجب أن تنسب إليه، وان يُشكر عليها فتُعزىٰ إليه، ويقول العبد: هذا أنعم الله عليّ به، والكذب في هذه المسائل، أو أن يتكلم المرء بكلام ليس موافقًا للحقيقة أو هو مخالف لما يعلمه من أن الله -جل وعلا- قد أنعم عليه بذلك فهذا قد يؤديه إلىٰ المهالك، وقد يسلب الله -جل وعلا- عنه النعمة بسبب لفظه.

فالواجب على العبد أن يتحرز في ألفاظه وبخاصة فيما يتصل بالله -جل وعلا- أو بأسمائه وصفاته، أو بأفعاله، وإنعامه، أو بعدله وحكمته، والتحرز في ذلك من كمال التوحيد؛ لأنه لا يصدر التحرز إلا عن قلب معظم لله، مجلٍّ لله، مخبتٍ لله، يعلم أن الله -جل وعلا- مطلع عليه، وأنه يُجلّ فوق كل جليل، وأنه يحب فوق كل محبوب، وأن يعظّم فوق كل معظم.

فالله -جل وعلا- يجب توقيره وتعظيمه في الألفاظ، ومن ذلك ما عقد له الشيخ هذا الباب حيث قال: «**باب ما جاء في قول الله تعالى:** ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾[فصلت: ٥٠].

❁ **قوله:** « **قال مجاهد في تفسيرها: «هذا بعملي، وأنا محقوق به»**»:

يعني: أنه نسب النعمة إلى نفسه، وأنه جدير وحقيق بها، وأن الله -جل وعلا- تفضل عليه لأنه مستحق لهذا الإنعام، والمال والجاه ولرفعة القدر عند الناس، فصار إليه ذلك الشيء من المال والرفعة والسمعة الطيبة؛ لأنه مستحق لذلك الشيء بفعله وبجهده ونحو ذلك مما قد يطرأ على قلوب ضعفاء الإيمان وضعفاء التوحيد.

والواجب أن يعلم العبد أنه فقير غير مستحق لشيء على الله -جل وعلا- وأن الله هو الرب المستحق على العبد أن يشكره، وأن يذكره، وأن ينسب النعم إليه، أما العبد فليس مستحقًّا في الدنيا بحق واجب على الله -جل وعلا- إلا ما أوجبه الله -جل وعلا- على نفسه.

ومثل قول القائل: هذا بعملي، وأنا محقوق به -بعد أن أتته رحمة من بعد ضراء- مثل هذا القول يكثر في ألفاظ الناس، كقول الطبيب مثلًا: هذا الذي حصل من شفاء المريض بسببي، أو نجاحي، ونيلي لهذا الأمر إنما بسبب جهدي، وبسبب تعبي، ونحو ذلك مما يجعل إنعام الله -جل وعلا- على العبد بذلك بسبب استحقاقه، أو ينسى الله -جل وعلا- وينسب الأشياء إلى نفسه؛ ولهذا قال:

❁ **قوله:** «**قال ابن عباس: يريد من عندي**»:

أي أنا الذي أتيت بهذا المال أو بهذه النعمة وهذا من عندي، ولم يتفضّل علي به.

فيدخل في هذا الوصف الذي جاء في الآية نوعان من الناس: من ينسب الشيء إلى نفسه، ولا ينسبه إلى الله -جل وعلا- أصلًا.

والثاني: أن ينسبه إلى الله تعالى، لكن يرى في نفسه مستحقًّا لذلك الشيء على الله -جل وعلا- كما يحصل من بعض المغرورين أنه إذا أطاع الله واتقاه، وحصلت له نعمة قال: حصلت لي

هذه النعمة من جراء استحقاقي لها، فأنا العابد لله -جل وعلا- ولا يستحضر أن الله -جل وعلا- يرحم عباده ولو حاسبه علىٰ عمله لم تقم عبادته وعمله بنعمة من النعم التي أسداها الله -جل وعلا- إليه.

فالواجب -إذًا- علىٰ العبد أن ينسب النعم جميعًا إلىٰ الله، وأن يشعر بأنه لا يستحق شيئًا علىٰ الله، وإنما الله هو المستحق للعبودية، وهو المستحق للشكر، وهو المستحق للإجلال، والعبد فقير مذنب مهما بلغ. وانظر إلىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه كيف علمه النبي عليه الصلاة والسلام أن يقول في آخر صلاته: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي**»(٤٦٨). إذا كان أبو بكر علمه الرسول عليه الصلاة والسلام أن يدعو بهذا الدعاء، فكيف بحال المساكين أمثالنا، وأمثال أكثر هذه الأمة؟ وكيف يظنون في أنفسهم أنهم يستحقون علىٰ الله شيئًا؟!

فتمام التوحيد -إذًا- أن يُجلّ العبد ربه تبارك وتعالىٰ ويعظمه، وألّا يعتقد أنه مستحق للنعم، أو أنها أوتيها بجهده، وجهاده، وعمله، وذهابه ومجيئه، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم؛ لأن فعل العبد سبب وهذا السبب قد يتخلف، وقد يكون مؤثّرًا، ثم إنه إذا أثر فلا يكون مؤثرًا إلا بإذن الله -جل وعلا- فرجع الأمر إلىٰ أنه فضل الله يؤتيه من يشاء.

قوله: «وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾[القصص: ٧٨]، قال قتادة: علىٰ علم مني بوجه المكاسب»:

هذه الآية في قصة قارون، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾[القصص: ٧٦]، إلىٰ أن قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾[القصص: ٧٨]، قال قتادة: «**علىٰ علم مني بوجوه المكاسب**» وهذا يحصل من كثير ممن أغناهم الله -جل وعلا- وأعطاهم أموالًا كثيرة، فتجد أحدهم ينسب الشيء إلىٰ نفسه، فيقول: أنا خبير بإدارة الأموال، وأنا أفهم في التجارة، وأنا عندي علم بوجوه المكاسب، ونحو ذلك، وينسىٰ أن الله -جل وعلا- هو الذي تفضل، ولو منع الله السبب الذي فعله من التأثير لم يصر شيئًا، فالله

---

(٤٦٨) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: الدعاء قبل السلام، برقم (٨٣٤)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، برقم (٢٧٠٥)، وغيرهما، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

-جل وعلا- هو الذي تفضل عليه، وهو الذي وفقه، وهو الذي هداه للفكرة، وهو الذي جعل السبب مؤثرًا، فالله هو المنعم ابتداء، وهو المنعم ختامًا، فالواجب إذًا أن يتخلص العبد من رؤية نفسه وأن يعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ويكثر من قولها، فإنها كنز من كنوز الجنة.

فهذا الباب معقود كما ذكرنا لتخليص القلب واللسان من ألفاظ واعتقادات باطلة، يظن المرء فيها أنه مستحق أشياء على الله -جل وعلا- والتوحيد هو أن يكون العبد ذليلًا خاضعًا بين يدي الله، يعلم أنه لا يستحق شيئًا على الله -جل وعلا- وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

❁ **قوله: «وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل»:**

وهذا يشمل أحد النوعين للذين ذكرتهما. **«وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف»**.

❁ **قوله: «عن أبي هريرة مرفوعًا: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى...»»:**

ثم ساق المؤلف حديث أبي هريرة الطويل، والدلالة منه ظاهرة، وأن الله -جل وعلا- عافى هؤلاء الثلاثة في أبدانهم، ورزقهم من فضله، ثم نسب اثنان منهم النعمة إلى أنفسهما، وثالث نسبها إلى الله، فجزى الله الأخير خيرًا، وأدام عليه النعمة، ورضي عنه، وعاقب الآخرَين، وسخط عليهما، وهذا فضل من الله ينعم ثم يثبت النعمة فيمن يشاء، ويصرفها عمن يشاء، ومن أسباب ثبات النعمة أن يعظّم العبد ربه، وأن يعلم أن الفضل بيد الله، وأن النعمة هي نعمة الله.

وفي ختام هذه الأبواب أوصي المسلم بأن يكون حذرًا من آفات اللسان، متثبتًا فيما يتكلم به، وأن يعلم أن كل خير إنما هو من الله، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولو سلبه الله العناية منه طرفة عين لهلك، ولكان من الخاسرين، فإن العبد أحوج ما يكون إلى الاعتراف بذنبه، والعلم بأسماء الله وبصفاته، وبآثار ذلك في ملكوته، وبربوبيته -جل وعلا- على خلقه، وبعبادته حق عبادته.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية، أي: قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ الآية.

الثانية: ما معنى قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾، أي: هذا بعملي وأنا محقوق به.

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾[القصص:٧٨]، أي: على علم مني بوجوه المكاسب.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر، أي: قصة هؤلاء الثلاثة فإن الأولين جحدوا نعمة الله فحل عليهما ما حل من سخط الله، والثالث اعترف بنعمة الله وشكرها فحصل له رضا الله عز وجل عنه.



* الأسئلة *

قوله: «قول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا ... ﴾».

س: اشرح هذه الآية وبين مناسبتها لكتاب التوحيد؟

جـ: يخبر الله تعالىٰ أن الإنسان الجحود لنعم ربه في حال الضر يهرع إلىٰ الله وينيب إليه وإذا أنعم الله عليه بالصحة وسعة الرزق ينكر ذلك ويقول إنما نلت هذه النعم بمجهودي وعمل واستحقاقي.

ومناسبة الآية لكتاب التوحيد:

أن تقييد نعم الله بشكره والثناء عليه بها من كمال التوحيد وأن إنكار النعم وجحودها من الكفر الذي ينافي كمال التوحيد.

قوله: «عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة ...»».

س: وضح معاني الكلمات الآتية: أبرص، أقرع، يبتليهم، قذرني الناس، ناقة عشراء، فأنتج هذان، وولد هذا، أتبلغ به في سفري، كابرًا عن كابر، فصيرك الله إلى ما كنت، انقطعت بي الحبال، لا أجهدك؟

جـ: أبرص: هو من به داء البرص، أقرع: هو من به داء القرع وهو داء يصيب الصبيان في رءوسهم ثم ينتهي بزوال الشعر كله أو بعضه، يبتليهم: يختبرهم بنعمته، قذرني الناس: عدوني قذرًا وسخًا فكرهوني، الناقة العشراء: هي الحامل التي أتىٰ علىٰ حملها عشرة أشهر، فأنتج هذان: أي: تولىٰ صاحب الناقة والبقرة نتاجها.ولَّد هذان: تولىٰ صاحب الشاة ولادتها واعتنا بها وحفظها، انقطعت بي الحبال: توقفت عني أسباب الرزق.

أتبلغ به في سفري؛ أي: ما يبلغني أهلي من الزاد.

كابرًا عن كابر: وارثًا عن وارث، وقيل: شريفًا كبيرًا عن شريف كبير.

فصيرك الله إلىٰ ما كنت عليه؛أي: ردك إلىٰ ما كنت عليه سابقًا من البرص أو القرع والفقر.

لا أجهدك: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أو تطلبه من مالي في سبيل الله ﷻ.

س: ما الذي يستفاد من حديث أبي هريرة في قصة الأبرص والأقرع، والأعمى، وبين مناسبته للباب؟

جـ: يستفاد منه:

١ - أن من جحد نعم الله ولم يعترف بها ونسبها إلى غيره فقد تعرض لسخط الله وأليم عذابه.

٢ - أن من اعترف بنعم الله ونسبها إليه وأدى حق الله فيها من زكاة وغيرها أنه قد استحق رضى الله وثوابه.

ومناسبته للباب: أن فيه وعيد لمن أنكر نعم الله وأضافها إلى غيره.

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾؟

جـ: المعنى أن الله تعالى لما أنعم على قارون بالأموال الكثيرة أنكر أن تكون من عند الله وزعم أنه أنما نالها على علم منه بوجوه المكاسب، وقيل على علم من الله أنه مستحق لذلك وقد كذب، وإنما هو مجرد فضل من الله وإحسان ونعمة أنعم بها عليه ليختبره أيطيع أم يعصي وهو الحكيم العليم.

والله سبحانه وتعالى أعلم.



الدرس الخمسون:

باب قول الله تعالى ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآية [الأعراف:١٩٠].

قال ابن حزمٍ: اتفقوا على تحريم كل اسمٍ معبَّدٍ لغير الله: كعبد عمرو[٤٦٩]، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب[٤٧٠].

وعن ابن عباس في [معنى][٤٧١] الآية، قال: «لما تغشَّاها آدم حملت، فأتاهما إبليس، فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما[٤٧٢] من الجنة، لتطيعانِّي[٤٧٣] أو لأجعلن له قرني إِيَّل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن[٤٧٤] يخوفهما، سمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا، ثم حملت، فأتاهما[٤٧٥]، فذكر لهما، فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾». رواه ابن أبي حاتم[٤٧٦].

وله بسندٍ صحيحٍ عن قتادة، قال: «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته»[٤٧٧].

وله بسندٍ صحيحٍ عن مجاهدٍ، في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾، قال: «أشفقا أن لا يكون إنسانًا»[٤٧٨].

وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما[٤٧٩].

---

(٤٦٩) في نسخة السعدي وابن قاسم وابن باز: «كعبد عمر».

(٤٧٠) ذكره ابن حزم في «مراتب الإجماع» (ص١٥٤).

(٤٧١) ساقطة من جميع النسخ، والمثبت من نسخة السعدي.

(٤٧٢) في نسختي السعدي وابن باز: «أخرجكما».

(٤٧٣) في نسخة السعدي: «لتطيعانني»، وفي نسخة الفوزان: «لتطيعنني».

(٤٧٤) زاد في نسخة السعدي والفوزان وابن قاسم وابن باز: «ولأفعلن».

(٤٧٥) زاد في نسخة ابن قاسم وابن باز: «فقال مثل قوله فأبيا أن يطيعاه، ثم حملت فأتاهما»، وزاد في نسخة الفوزان: «أيضًا فقال مثل قوله فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا ثم حملت فأتاهما».

(٤٧٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٣١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤٧٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٣١١)، والطبري (٩/ ١٤٧) عن قتادة رحمه الله

(٤٧٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٣٠٧) عن مجاهد رحمه الله

(٤٧٩) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ١٤٥).

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تُقصد حقيقتها.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة، والشرك في العبادة.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآية»:

أول الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف:١٨٩]؛ يعني: من أبينا آدم: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؛ يعني: حواء، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ويألفها، يمتن تعالى على عباده بذلك. وقيل في قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾: وطئها، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ لم يثقلها إنما هو نطفة وعلقة ومضغة، ﴿فَمَرَّتْ﴾ استمرت عليه واستخفته، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ كبر في بطنها وصارت ذات ثقل بحملها، ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:١٨٩] بشرًا سويًا، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك على هذه النعمة المتجددة، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠] فلم يؤديا شكرها على الوجه المرضي، بل أشركا في طاعة الله، كما روي بتسميته عبد الحارث ﴿إِبْلِيسَ﴾، وكان اسمه في الملائكة الحارث، ثم استطرد من ذكر الشخص إلى الجنس فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠]؛ أي: تنزه الله من إشراك كل مشرك في عبادته وطاعته.

وروى الترمذي عن سمرة مرفوعًا: «**لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**»(٤٨٠).

لكن قال ابن كثير: معلول من ثلاثة أوجه، وساق الروايات عن الحسن بغير هذا، وقال: هذه أسانيد صحيحة وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية.

---

(٤٨٠) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف، برقم (٣٠٧٧)، وأحمد (٥/ ١١)، والطبراني، (٧/ ٢١٥) وغيرهم من حديث سمرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي»

قوله: «قال ابن حزم: اتفقوا علىٰ تحريم كل اسم معبد لغير الله»:

لأنه شرك في الربوبية والإلهية؛ فإن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له، استعبدهم لعبادته وحده، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته، والعبودية عبوديتان: عبودية عامة كقوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[مريم:٩٣]. وعبودية خاصة بأهل الطاعة والإخلاص كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[الزمر:٣٦] ونحوها. وابن حزم: هو عالم الأندلس أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري، صاحب التصانيف توفي سنة ٤٥٦ هـ، وله ٧٢ سنة. وقوله: اتفقوا مراده أجمعوا لا حكاية الاتفاق علىٰ طريقة المتأخرين.

قوله: «كعبد عمر وعبد الكعبة وما أشبه ذلك»: كعبد النبي وعبد علي، وكان أهل الجاهلية يعبدون أولادهم لآلهتهم، كعبد اللات وعبد مناة. وقال ابن القيم وغيره: لا تحل التسمية بعبد علي وعبد الحسين وعبد الكعبة ونحو ذلك، وكيف تجوز وقد أجمع علىٰ تحريمها؟

قوله:«حاشا عبد المطلب»: استثناء من العموم؛ أي: فلم يتفقوا علىٰ تحريم التسمية به؛ لأن أصله من عبودية الرق، وذلك أن عمه المطلب بن هاشم بن عبد مناف قَدِمَ المدينة، وكان ابن أخيه هذا نشأ في أخواله بني النجار من الخزرج؛ لأن هاشمًا تزوج فيهم امرأة فجاءت منه بهذا الابن، وسماه شيبة، فلما شب في أخواله، وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلىٰ مكة بلد أبيه وعشيرته، فقدم به وهو رديفه، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر فحسبوه عبدًا للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب، فعلق به هذا الاسم ولزمه، فصار لا يذكر ولا يدعىٰ إلا به، فلم يبق للأصل معنىً مقصود، وأيضًا يجوز في الإخبار ما لا يجوز في الإنشاء، كما يقال: بنو عبد شمس، وبنو عبد الدار ونحو ذلك. وقال النبي ﷺ: **«أنا ابن عبد المطلب»** وقد صار معظمًا في قريش والعرب، فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته، وهو الذي حفر زمزم وصارت له وفي ذريته من بعده، وابنه عبد الله والد النبي ﷺ أحد بنيه، وتوفي في حياة أبيه بالمدينة، قدمها يمتار تمرًا وله ثماني عشرة سنة وقيل أكثر، ورسول الله ﷺ حمل في بطن أمه آمنة، وتوفيت أمه بالأبواء راجعة به ﷺ إلىٰ مكة من زيارة أخواله بني عدي بن النجار، وهو ابن ست سنين وأشهر، وحملته مولاته أم أيمن إلىٰ جده، فكان في كفالته إلىٰ أن توفي وللنبي ﷺ ثمان سنين، فأوصىٰ به إلىٰ عمه أبي طالب فكفله وآواه ونصره، إلىٰ أن توفي قبل الهجرة بثلاث سنين، ثم اشتد أذىٰ المشركين له فهاجر إلىٰ المدينة.

❁ **قوله**: «أو لأجعلن له قرني أيل»:

قرئ قرني بالتثنية وأيل بفتح الهمزة وكسر المثناة التحتية المشددة: ذكر الأوعال، يخوفهما بكونه يجعل للولد قرني وعل.

قوله: «ولأفعلن، ولأفعلن؛ يخوفهما»؛ أي: بغير ما ذكر، ويزعم أنه يفعل بهما غير ذلك لما يعرفان منه أنه صاحب مكر وخديعة، فإن لم يطيعاه كادهما.

قوله: «سمياه عبد الحارث»: قال سعيد بن جبير: كان اسمه في الملائكة الحارث، وكان مراده أن يسمياه بذلك؛ ليكون قد وجد له صورة الإشراك به.

قوله: «فأبيا أن يطيعاه»: لما يعلمان من الشؤم في طاعته لإخراجهما بها من الجنة.

قوله: «فخرج ميتًا»: ابتلاء من الله سبحانه وامتحانا للأبوين.

قوله: «فأدركهما حب الولد»؛ أي: حب سلامة الولد وهذا من الامتحان؛ فإن الإنسان لا عزم له، وإن عاين ما عساه أن يعاين من الآيات إلا بتوفيق الله، فإن الطبيعة البشرية تغلب عليه.

قوله قوله: «فخرج ميتًا»: ورواه غيره عنه، وعن غيره بنحوه.

❁ **قوله**: «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته»:

أي: أنهما أطاعاه في التسمية، لا أنهما أطاعاه في العبادة. قال المصنف: «وفيه أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها».

❁ **قوله**: «أشفقا ألا يكون إنسانًا»:

أي: خافا أن لا يكون الولد إنسانا، بل خافا أن يكون بهيمة، أو غير تام الخلقة، وكانت عائشة -رضي الله عنها- إذا بشرت بالمولود لم تسأل أذكر هو أم أنثىٰ، بل تسأل عن خلقته، هل هو ولد سوي أو لا؟ وفيه أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

❁ **قوله**: «وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما»:

أي: ذكر ابن أبي حاتم معنىٰ قول مجاهد عن الحسن البصري وسعيد بن جبير وغيرهما من التابعين كالسدي وغيره، وذكره غيره عن غير واحد من الصحابة والتابعين. وقال ابن كثير: كأن أصله - والله أعلم - مأخوذ من أهل الكتاب، وأما نحن فعلىٰ مذهب الحسن في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد المشركون من ذريته؛ ولهذا قال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] وساق ما رواه غير واحد عن الحسن أن هذا كان في بعض أهل الملل ولم

يكن بآدم، وذكر أن الخبر المرفوع لو كان محفوظًا لما عدل عنه هو ولا غيره، فدل على أنه موقوف، ويحتمل أنه من بعض أهل الكتاب. وقال ابن القيم: النفس الواحدة وزوجها آدم وحواء، واللذان: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾[الأعراف:١٩٠] المشركون من أولادهما، ولا يلتفت إلى غير ذلك مما قيل: إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولد فأتاهما إبليس فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث ففعلا؛ فإن الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن ليشرك به بعد ذلك.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «قول الله تعالى: قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا ...﴾ [الأعراف:١٩٠]»:

مقصود الترجمة: أن من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم. وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه، وألا يُعَبِّدوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم مناف للتوحيد.

قال العلامة ابن باز:

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الآية:

أراد المؤلف بيان تحريم التعبيد لغير الله، وأنه لا يجوز أن يعبد أحد لغير الله فلا يقال: عبد النبي أو الكعبة أو عبد الحسين وما أشبه ذلك، بل يكون التعبيد لله وحده كعبد الرحمن وعبد الله... إلخ؛ لأن الله ذم من فعل ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾.. وهذا ذم وعيب لمن فعله.

وهذا السياق في ذكر آدم وحواء حيث أطاعا الشيطان في تسمية عبد الحارث وقال آخرون: إن المراد بالآية: جنس من بني إسرائيل وأن هذا وقع في بني إسرائيل ولكن ظاهر السياق يأبي هذا بل هو كما قال ابن عباس، وغيره من السلف وإن المعصية قد وقعت منهما والمعصية قد تقع من الأنبياء إذا كانت صغيرة كما قال العلماء.

ويحتمل أنهما حين فعلا ذلك كانا يعتقدون ذلك جائزًا؛ فلهذا فعلا ولم يعلما أنه منكر وإنما كرهاه أولًا ثم خضعا لوسوسته وما أراد.

وبين الله فيما أنزله على رسوله ﷺ أنه لا يجوز، وهذا الحكم يناط بشريعة محمد ﷺ فهي الشريعة العامة، وما كان قبلنا ففيه إباحة لبعض المسائل ومنع لبعضها.

حاشا عبد المطلب: فمستثنى من النهي؛ لأن الرسول ﷺأقر ذلك ولم يغيره ومن الصحابة: عبد المطلب بن ربيعة؛ لأن الأصل فيه أنه تعبيد بالعتق والرق وسموه عبد المطلب - واسمه شيبة ابن هاشم - لأنهم ظنوه عبدًا للمطلب بسبب تغير وجهه من السفر والمطلب عمه. فأقر هذا الاسم في الإسلام بخلاف غيره من الأسماء.

شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته: لأنهم أطاعوه في هذا الاسم عن غير علم، وكل هذا من باب كمال التوحيد وكمال الخضوع لله وسد وسائل الشرك.

مسألة: قول الرسول ﷺ: «**أنا ابن عبد المطلب**»(٤٨١) هذا إخبار عن اسم ماضي فلا يضر لأنه مشتهر به مثل عبد مناف وعبد عمرو إذا كانت من باب الإخبار.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾:

الضمير يعود على ما سبق من النفس وزوجها؛ ولهذا ينبغي أن يكون الشرح من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ..﴾[الأعراف:١٨٩].

قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فيها قولان:

الأول: أن المراد بالنفس الواحدة: العين الواحدة؛ أي: من شخص معين، وهو آدم عليه السلام، وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؛ أي: حواء؛ لأن حواء خلقت من ضلع آدم.

الثاني: أن المراد بالنفس الجنس، وجعل من هذا الجنس زوجه، ولم يجعل زوجه جنس آخر، والنفس قد يراد بها الجنس؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[آل عمران:١٦٤]؛ أي: من جنسهم.

قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: سكون الرجل إلى زوجته ظاهر من أمرين:

أولًا: لأن بينهما من المودة والرحمة ما يقتضي الأنس والاطمئنان والاستقرار.

ثانيًا: سكون من حيث الشهوة، وهذا سكون خاص لا يوجد له نظير حتى بين الأم وابنها.

قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: تعليل لكونها من جنسه أو من النفس المعينة.

قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾؛ أي: جامعها، وعبارة القرآن والسنة التكنية عن الجماع، قال تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[النساء:٤٣]، وقال: ﴿ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[النساء:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[النساء:٢١]، كأن الاستحياء من ذكره بصريح اسمه أمر فطري؛ ولأن

---

(٤٨١) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: قول الله تعالى يوم حنين: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، برقم (٤٣١٦)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين، برقم (١٧٧٦) وغيرهما من حديث البراء رضي الله عنه.

الطباع السليمة تكره أن تذكر هذا الشيء باسمه إلا إذا دعت الحاجة إلىٰ ذلك، فإنه قد يصرح به؛ كما في قوله ﷺ لماعز وقد أقر عنده بالزنىٰ: «أنكتها؟» -لا يكني-»(٤٨٢)؛ لأن الحاجة هنا داعية للتصريح حتىٰ يتبين الأمر جليًّا، ولأن الحدود تدرأ بالشبهات.

وتشبيه علو الرجل المرأة بالغشيان أمر ظاهر، كما أن الليل يستر الأرض بظلامه، قال تعالىٰ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾[الليل:١]، وعبر بقوله: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ ولم يقل: غشيها؛ لأن تغشىٰ أبلغ، وفيه شيء من المعالجة؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها** »(٤٨٣)، الجلوس بين شعبها الأربع هذا غشيان، و «**جهدها** » هذا تغشي.

قوله: ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾: الحمل في أوله خفيف: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة.

قوله: ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦ﴾: المرور بالشيء تجاوزه من غير تعب ولا إعياء، والمعنىٰ: تجاوزت هذا الحمل الخفيف من غير تعب ولا إعياء.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾: الإثقال في آخر الحمل.

قوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾، ولم يقل: دعيا؛ لأن الفعل واوي؛ فعاد إلىٰ أصله.

قوله: ﴿ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾: أتىٰ بالألوهية والربوبية؛ لأن الدعاء يتعلق به جانبان:

الأول: جانب الألوهية من جهة العبد أنه داع، والدعاء عبادة.

الثاني: جانب الربوبية؛ لأن في الدعاء تحصيلًا للمطلوب، وهذا يكون متعلقًا بالله من حيث الربوبية.

والظاهر أنهما قالا: اللهم ربنا، ويحتمل أن يكون بصيغة أخرىٰ.

قوله: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾؛ أي: أعطيتنا.

وقوله: ﴿صَٰلِحٗا﴾؛ هل المراد صلاح البدن أو المراد صلاح الدين؛ أي: لئن آتيتنا بشرًا سويًّا ليس فيه عاهة ولا نقص، أو صالحًا بالدين، فيكون تقيًّا قائمًا بالواجبات؟

الجواب: يشمل الأمرين جميعًا، وكثير من المفسرين لم يذكر إلا الأمر الأول، وهو الصلاح البدني، لكن لا مانع من أن يكون شاملًا للأمرين جميعًا.

---

(٤٨٢) أخرجه البخاري، كتاب: المحاربين من أهل الكفر والردة، باب: فصل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت، برقم (٦٨٢٤) وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤٨٣) أخرجه البخاري، كتاب: الغسل، باب: إذا التقىٰ الختانان، برقم (٢٩١)، ومسلم، كتاب: الحيض، باب: نسخ الماء من الماء...، برقم (٣٤٨) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: من القائمين بشكرك على هذا الولد الصالح. والجملة هنا جواب قسم وشرط، قسم متقدم وشرط متأخر؛ والجواب فيه للقسم ولهذا جاء مقرونًا باللام: ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾: هنا حصل المطلوب، لكن لم يحصل الشكر الذي وعدا الله به، بل جعلا له شركاء فيما آتاهما.

وقوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾: هذا هو جواب «لما». والجواب متعقب للشرط وهذا يدل على أن الشرك منهما حصل حين إتيانه وهو صغير، ومثل هذا لا يعرف أيصلح في دينه في المستقبل أم لا يصلح؟ ولهذا كان أكثر المفسرين على أن المراد بالصلاح الصلاح البدني.

فمعاهدة الإنسان ربه أن يفعل العبادة مقابل تفضل الله عليه بالنعمة الغالب أنه لا يفي بها؛ ففي سورة التوبة قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[التوبة:٧٥ ، ٧٦]، وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾، فكانا من المشركين لا من الشاكرين، وبهذا نعرف الحكمة من نهي النبي ﷺ عن النذر؛ لأن النذر معاهدة مع الله ﷻ؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن النذر وقال: «**إنه لا يأتي بخيره، وإنما يُستخرج به من البخيل**»[٤٨٤]، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى تحريم النذر، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يميل إلى تحريم النذر؛ لأن رسول الله ﷺ نهى عنه ونفى أنه يأتي بخير.

إذًا؛ ما الذي نستفيد من أمرٍ نهى عنه الرسول ﷺ وقال: إنه لا يأتي بخير؟

الجواب: لا نستفيد إلا المشقة على أنفسنا وإلزام أنفسنا بما نحن منه في عافية، ولهذا؛ فالقول بتحريم النذر قول قوي جدًّا، ولا يعرف مقدار وزن هذا القول إلا من عرف أسئلة الناس وكثرتها ورأى أنهم يذهبون إلى كل عالم لعلهم يجدون خلاصًا مما نذروا.

فإن قيل: هذا الولد الذي آتاهما الله ﷻ كان واحدًا؛ فكيف جعلا في هذا الولد الواحد شركًا بل شركاء؟

(٤٨٤) أخرجه البخاري، كتاب: القدر، باب: إلقاء العبد النذر إلى القدر، برقم (٦٦٠٨)، ومسلم واللفظ له، كتاب: النذر، باب: النهي عن النذر وأنه لا يريد شيئا، برقم (١٦٣٩) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فالجواب أن نقول هذا على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يعتقدا أن الذي أتي بهذا الولد هو الولي الفلاني والصالح الفلاني ونحو ذلك؛ فهذا شرك أكبر لأنهما أضافا الخلق إلىٰ غير الله.

ومن هذا أيضًا ما يوجد عند بعض الأمم الإسلامية الآن؛ فتجد المرأة التي لا يأتيها الولد تأتي إلىٰ قبر الولي الفلاني، كما يزعمون أنه ولي الله. والله أعلم بولايته؛ فتقول: يا سيدي فلان! ارزقني ولدًا.

الوجه الثاني: أن يضيف سلامة المولود ووقايته إلىٰ الأطباء وإرشاداتهم وإلىٰ القوابل وما أشبه ذلك، فيقولون مثلًا سلم هذا الولد من الطلق؛ لأن القابلة امرأة متقنة جيدة؛ فهنا أضاف النعمة إلىٰ غير الله، وهذا نوع من الشرك ولا يصل إلىٰ حد الشرك الأكبر؛ لأنه أضاف النعمة إلىٰ السبب ونسي المسبب وهو الله ﷻ.

الوجه الثالث: أن لا يشرك من ناحية الربوبية، بل يؤمن أن هذا الولد خرج سالمًا بفضل الله ورحمته، ولكن يشرك من ناحية العبودية؛ فيقدم محبته علىٰ محبة الله ورسوله ويلهيه عن طاعة الله ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥]؛ فكيف تجعل هذا الولد ندًّا لله في المحبة وربما قدمت محبته علىٰ محبة الله، والله هو المتفضل عليك به؟!

وفي قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾؛ نقد لاذع أن يجعلا في هذا الولد شريكًا مع الله، مع أن الله هو المتفضل به، ثم قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

ومن تأمل الآية وجدها دالة علىٰ أن قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: من جنس واحد، وليس فيها تعرض لآدم وحواء بوجه من الوجوه، ويكون السياق فيها جاريًا علىٰ الأسلوب العربي الفصيح الذي له نظير في القرآن؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤]؛ أي: من جنسهم، وبهذا التفسير الواضح البين يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة.

أما علىٰ القول الثاني بأن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: آدم، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١]: حواء، فيكون معنىٰ الآية خلقكم من آدم وحواء. فلما جامع آدم حواء حملت حملًا خفيفًا، فمرت به، فلما أثقلت دعوا -أي آدم وحواء- الله ربهما: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، فأشرك أدم وحواء بالله، لكن قالوا: إنه إشراك طاعة لا إشراك عبادة، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهذا التفسير منطبق علىٰ المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسنبين - إن شاء الله تعالىٰ - وجه ضعفه وبطلانه.

وهناك قول ثالث: أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: آدم وحواء، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ انتقل من العين إلىٰ النوع؛ أي: من آدم إلىٰ النوع الذي هم بنوه؛ أي: فلما تغشىٰ الإنسان الذي تسلسل من آدم وحواء زوجته...إلخ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الجمع ولم يقل عما يشركان، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[الملك:٥]؛ أي: جعلنا الشهب الخارجة منها رجومًا للشياطين وليست المصابيح نفسها، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾[المؤمنون:١٢ - ١٣]؛ أي: جعلناه بالنوع، وعلىٰ هذا فأول الآية في آدم وحواء، ثم صار الكلام من العين إلىٰ النوع. وهذا التفسير له وجه، وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شيء من الركاكة لتشتت الضمائر.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فجمع لأن المراد بالمثنىٰ اثنان من هذا الجنس، فصح أن يعود الضمير إليهما مجموعًا؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾[الحجرات:٩] ولم يقل: اقتتلتا؛ لأن الطائفتين جماعة.

قوله: «اتفقوا»:

أي: أجمعوا، والإجماع أحد الأدلة الشرعية التي ثبتت بها الأحكام، والأدلة هي: الكتاب، والسنة والإجماع، والقياس.

قوله: «**وما أشبه ذلك**»: مثل: عبد الحسين، وعبد الرسول، وعبد المسيح، وعبد علي.

وأما قوله ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم..** »[٤٨٥] الحديث؛ فهذا وصف وليس علمًا، فشبه المنهمك بمحبة هذه الأشياء المقدم لها علىٰ ما يرضي الله بالعابد لها، كقولك: عابد الدينار؛ فهو وصف، فلا يعارض الإجماع.

قوله: «**حاشا عبد المطلب**»: حاشا الاستثنائية إذا دخلت عليها «ما» وجب نصب ما بعدها، وإلا جاز فيه النصب والجر. وبالنسبة لعبد المطلب مستثنىٰ من الإجماع علىٰ تحريمه؛ فهو مختلف فيه، فقال بعض أهل العلم: لا يمكن أن نقول بالتحريم والرسول ﷺ قال: «**أنا النبي لا كَذِبْ أنا ابنُ عبدِ المطلبْ**»[٤٨٦] فالنبي ﷺ لا يفعل حرامًا؛ فيجوز أن يُعبَّد للمطلب إلا إذا وجد ناسخ، وهذا تقرير ابن حزم رحمه الله، ولكن

---

(٤٨٥) أخرجه البخاري -بنحوه- كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراس في الغزو وفي سبيل الله، برقم (٢٨٨٦) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٨٦) سبق تخريجه.

الصواب تحريم التعبيد للمطلب؛ فلا يجوز لأحد أن يسمي ابنه عبد المطلب، وأما قوله ﷺ: «**أنا ابن عبد المطلب**»؛ فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء؛ فالنبي ﷺ أخبر أن له جدًّا اسمه عبد المطلب، ولم يرد عنه ﷺ أنه سمى عبد المطلب، أو أنه أذن لأحد صحابته بذلك، ولا أنه أقر أحدًا على تسميته عبد المطلب، والكلام في الحكم لا في الإخبار، وفرق بين الإخبار وبين الإنشاء والإقرار؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو عبد مناف شيء واحد**»(٤٨٧)، ولا يجوز التسمي بعبد مناف.

وقد قال **العلماء**: إن حاكي الكفر ليس بكافر؛ فالرسول ﷺ يتكلم عن شيء قد وقع وانتهى ومضى؛ فالصواب أنه لا يجوز أن يُعبَّد لغير الله مطلقًا لا بعبد المطلب ولا غيره؛ وعليه فيكون التعبد لغير الله من الشرك.

❁ **قوله**: «إبليس»:

على وزن إفعيل، فقيل: من أبلس إذا يئس؛ لأنه يئس من رحمة الله تعالى.

قوله: «**لتطيعاني**»: جملة قسمية؛ أي: والله لتطيعاني.

قوله: «**إيل**»: هو ذكر الأوعال.

قوله: «**سمياه عبد الحارث**»: اختار هذا الاسم؛ لأنه اسمه، فأراد أن يعبداه لنفسه.

قوله: «**فخرج ميتًا**». لم يحصل التهديد الأول، ويجوز أن يكون من جملة: «**ولأفعلن**»؛ و لأنه قال: «**ولأخرجنه ميتًا**».

❁ **قوله**: «شركاء في طاعته»:

أي: أطاعاه فيما أمرهما به، لا في العبادة لكن عبَّدا الولد لغير الله، وفرق بين الطاعة والعبادة، فلو أن أحدًا أطاع شخصًا في معصية الله لم يجعله شريكًا مع الله في العبادة، لكن أطاعه في معصية الله.

❁ **قوله**: «أشفقا أن لا يكون إنسانًا»:

أي خاف آدم وحواء أن يكون حيوانًا أو جنيًّا أو غير ذلك.

قوله: «**وذكر معناه عن الحسن**»: لكن الصحيح أن الحسن رحمه الله قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بني آدم كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» وقال: «أما نحن؛ فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته» اهـ.

---

(٤٨٧) أخرجه، البخاري، كتاب: المناقب، باب: مناقب قريش، برقم (٣٥٠٢)، والنسائي، كتاب: قسم الفيء، برقم (٤١٣٦) وغيرهما من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

وهذه القصة باطلة من وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبيﷺ، وهذا من الأخبار التي لا تُتلقىٰ إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة.

الوجه الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء؛ لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه؛ كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة:

إذا ما ذَكَرْنَا آدَمًا وفِعَالَهُ وتَزْويجَه بِنْتَيه بابْنَيِه بالخَنَا

عَلِمْنَا بأنَّ الخَلْقَ من نَسْلِ فاجِرٍ وأن جميعَ الناسِ من عُنْصرِ الزنا

فمن جوز موت أحد من الأنبياء علىٰ الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كان تابا من الشرك؛ فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالىٰ إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه وتابا من ذلك

الوجه الثالث: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلىٰ آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة(٤٨٨). وهو معصية، ولو وقع منه الشرك؛ لكان اعتذاره به أقوىٰ وأولىٰ وأحرىٰ.

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: «**أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة**»، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: «**أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة**»، فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفًا ولا عدلًا.

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: «**لأجعلن له قرني إيل** »: إما أن يُصدِّقا أن ذلك ممكن في حقه؛ فهذا شرك في الربوبية؛ لأنه لا يقدر علىٰ ذلك إلا الله، أولا يُصدقا؛ فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع: قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء؛ لقال: عما يشركان.

---

(٤٨٨) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالىٰ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، برقم (٧٤٤٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

فهذه الوجوه تدل علىٰ أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزهون عن الشرك مبرؤون منه باتفاق أهل العلم؛ وعلىٰ هذا، فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلىٰ بني آدم الذين أشركوا شركًا حقيقيًّا، فإن منهم مشركًا ومنهم موحدًا.

❁ **قوله: «فيه مسائل»:**

الأولىٰ: تحريم كل اسم معبد لغير الله: تؤخذ من الإجماع علىٰ ذلك، والإجماع الأصل الثالث من الأصول التي يعتمد عليها في الدين، والصحيح أنه ممكن وأنه حجة إذا حصل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩] و ﴿إِن﴾ هذه شرطية لا تدل علىٰ وقوع التنازع، بل إن فُرض ووقع؛ فالمرد إلىٰ الله ورسوله، فعلم منه أننا إذا أجمعنا فهو حجة.

لكن ادعاء الإجماع يحتاج إلىٰ بينة؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح؛ إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة، ولما قيل للإمام أحمد: إن فلانًا يقول: أجمعوا علىٰ كذا؛ أنكر ذلك وقال: وما يدريه لعلهم اختلفوا، فمن ادعىٰ الإجماع، فهو كاذب. ولعل الإمام أحمد قال ذلك؛ لأن المعتزلة وأهل التعطيل كانوا يتذرعون إلىٰ إثبات تعطيلهم وشبههم بالإجماع، فيقولون: هذا إجماع المحققين، وما أشبه ذلك.

وقد سبق أن الصحيح أنه لا يجوز التعبيد للمطلب، وأن قول الرسول ﷺ: «**أنا ابن عبد المطلب**»(٤٨٩) أنه من قبيل الإخبار وليس إقرار ولا إنشاء، والإنسان له أن ينتسب إلىٰ أبيه وإن كان معبدًا لغير الله، وقد قال النبي ﷺ: «**يا بني عبد مناف**»(٤٩٠)، وهذا تعبيد لغير الله لكنه من باب الإخبار.

الثانية: تفسير الآية؛ يعني قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا..﴾ الآية، وسبق تفسيرها.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها: وهذا بناء علىٰ ما ذُكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية، والصواب: أن هذا الشرك حق حقيقة، وأنه شرك من إشراك بني آدم لا من آدم وحواء؛ ولهذا قال تعالىٰ في الآية نفسها: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾[الأعراف:١٩١]، فهذا الشرك الحقيقي الواقع من بني آدم.

---

(٤٨٩) سبق تخريجه.

(٤٩٠) انظر ما أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، سورة الشعراء، باب: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾، برقم (٤٧٧١) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم: هذا بناء على ثبوت القصة، وأن المراد بقوله: ﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: بشرًا سويًا، وأتى المؤلف بالبنت دون الولد؛ لأن بعض الناس يرون أن هبة البنت من النقم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[النحل:٥٨ - ٥٩]، وإلا؛ فهبة الولد الذكر السوي من باب النعم أيضًا، بل هو أكبر نعمة من هبة الأنثى، وإن كانت هبة البنت بها أجر عظيم فيمن كفلها ورباها وقام عليها.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة وقبل ذلك نبين الفرق بين الطاعة وبين العبادة؛ فالطاعة إذا كانت منسوبة لله؛ فلا فرق بينهما وبين العبادة، فإن عبادة الله طاعته.

وأما الطاعة المنسوبة لغير الله؛ فإنها غير العبادة، فنحن نطيع الرسول ﷺ لكن لا نعبده، والإنسان قد يطيع ملكًا من ملوك الدنيا وهو يكرهه؛ فالشرك بالطاعة: أنني أطعته لا حبًّا وتعظيمًا وذلًّا كما أحب الله وأتذلل له وأعظمه، ولكن طاعته اتباع لأمره فقط، هذا هو الفرق.

وبناء على القصة؛ فإن آدم وحواء أطاعا الشيطان ولم يعبداه عبادة، وهذا مبني على صحة القصة.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** «قال ابن حزم...»:

التراجم: ابن حزم هو: عالم الأندلس أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري توفي سنة ٤٥٦هـ رحمه الله.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

بيان أنَّ تعبيد الأولاد وغيرهم لغير الله في التسمية شرك في الطاعة وكفر للنعمة.

❁ **قوله:** ﴿ءَاتَىٰهُمَا﴾:

أي: أعطى آدم وحواء ماطلباه من الولد الصالح.

﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: ولدًا سويًا.

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾؛ أي: جعلا لله شريكًا في الطاعة.

﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾؛ أي: ما رزقهما من الولد بأن سمياه عبد الحارث ولا ينبغي أن يكون عبدًا إلا الله.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: تنزه.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: عما يفعله أهل مكة من الشرك بالله، فهو انتقال من ذكر الشخص إلى ذكر الجنس.

❁ **قوله:** «**اتفقوا**»:

لعل مراده حكاية الإجماع.

«**علىٰ تحريم كل اسم معبدٍ لغير الله**»: لأنه شرك في الربوبية والإلهية؛ لأنّ الخلق كلهم ملك لله وعبيد له.

«**حاشا عبد المطلب**»؛ أي: فلم يتفقوا علىٰ تحريم التسمية به؛ لأن أصله من عبودية الرق، أو لأنَّه من باب الإخبار بالاسم الذي عُرف به المسمىٰ لا من باب إنشاء التسمية.

﴿تَغَشَّـٰهَا﴾: التغشي: كناية عن الجماع.

❁ **قوله:** «**أيل**»:

بفتح الهمزة وكسر الياء مشددة: ذكر الأوعال.

«**سمياه عبد الحارث**»: وكان الحارث اسم إبليس فأراد أن يسمياه بذلك؛ لتحصل صورة الإشراك به.

«**أدركهما حب الولد**»: أي: حب سلامة الولد وهذا من الامتحان.

«**أشفقا**»؛ أي: خافا.

«**أن لا يكون إنسانًا**»؛ أي: بأن يكون بهيمة.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر تعالىٰ عن آدم وحواء أنَّه لـمَّا أجاب دعاءهما ورزقهما ولدًا سويًّا علىٰ الصفة التي طلبا، لم يقوما بشكر تلك النعمة علىٰ الوجه المرضي كما وعدا بذلك، بل سمياه عبد الحارث؛ فعبَّداه لغير الله، ومن تمام الشكر أن لا يعبد الاسم إلا الله، فحصل منهما بذلك شرك في التسمية لا في العبادة. ثم نزَّه نفسه عن الشرك عمومًا في التسمية وفي العبادة.

ما يستفاد من الآية:

١- تحريم التسمية بكل اسمٍ معبدٍ لغير الله، كعبد الحسين، وعبد الرسول، وعبد الكعبة.

٢- أنَّ الشرك يقع في مجرد التسمية ولو لم تقصد حقيقتها.

٣- أنَّ هبة الله للرجل الولد السويَّ من النعم التي تستحق الشكر.

٤- أنَّ من شكر إنعام الله بالولد تعبيده لله.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآية»:

مناسبة هذا الباب للأبواب قبله أن جميع الأبواب في معنىً واحد، وهو أن شكر النعمة لله -جل وعلا- فيما أنعم به، يقتضي أن تُنسب إليه -جل وعلا- وأن يُحمد عليها، ويثنىٰ عليه بها، وأن تستعمل في مراضيه -جل وعلا- وأن يُتحدث بها، فالذي ينسب النعم إلىٰ نفسه لم يُحقّق التوحيد، فإنه جمع بين ترك تعظيم الله -جل وعلا- وبين ادّعاء شيء ليس له، وقد يعتقد في غيره أنه هو المنعم عليه، كقول القائل: لولا فلان لم يكن كذا، أو نحو تلك العبارات التي تدخل في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٢] وفي قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل: ٨٣]، فهذه الألفاظ وأمثالها راجعة إلىٰ عدم شكر النعمة، ومن شكر النعم أن الله -جل وعلا- إذا أنعم علىٰ عبد بولد، وجعله سليمًا معافىٰ، ورزقه بتلك النعمة -التي هي نعمة الولد- أن يشكر الله عليها، ومن عدم شكر النعمة تلك، ونسبتها إلىٰ غير الله أن يُعبّد الولد لغير الله -جل وعلا- فإن هذا مضاد للاعتراف بأن المنعم بذلك الولد هو الله -جل جلاله- وقد يصل ذلك إلىٰ حد الشرك الأكبر، إذا عبّد الولد لولي أو لعبد صالح، وهو يعني حقيقة العبودية التي هي أن هذا عبد لذاك؛ لأن ذاك إله، كمن يُعبّد لبعض المشايخ، فيقول: عبد السيد ويعنون به: السيد البدوي، ويقولون: عبد زينب، وعبد علي، وعبد عمرو، ونحو ذلك من الأسماء التي فيها اعتقادات.

فمن عبّد ولدًا لغير الله -جل وعلا- فقد نافىٰ شكر النعمة، ولهذا أتبع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب الأبواب قبله لما كان يشترك معها في هذا المعنىٰ، وأن الواجب علىٰ العبد أن يحقق التوحيد، وأن لا ينسب النعم إلىٰ غير الله -جل وعلا- فإن وقع منه ذلك فواجب عليه أن يبادر بالتوبة، وألا يقيم علىٰ ذلك.

قوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠﴾[الأعراف: ١٩٠]»:

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ الضمير هنا يرجع إلىٰ آدم وحواء، والذي عليه عامة السلف أن القصة في آدم وحواء حتىٰ قال الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إن نسبة ذلك إلىٰ غير آدم وحواء هو من التفاسير المبتدعة**» وسياق الآية لا يقتضي غير ذلك إلا بأوجه من التكلف، ولهذا اعتمد الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ التفسير الذي عليه عامة السلف، ففسر هذه الآية بأن المراد بها آدم وحواء، فقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ يعني: آدم وحواء صالحًا. وقوله: ﴿صَٰلِحًا﴾ يعني: من جهة الخلقة؛ لأنه كان يأتيهما ولد فيموت، أو يكون معيبًا فيموت، فالله -جل وعلا- رزقهما هذا الولد الصالح السليم في خلقته، المعافىٰ في بنيته، وكذلك هو صالح لهما من جهة نفعهما.

﴿جَعَلَا﴾ يعني: آدم وحواء. ﴿لَهُۥ﴾ يعني: لله جل وعلا، ﴿شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، وكلمة ﴿شُرَكَآءَ﴾ جمع شريك، والشريك في اللغة هو المقصود بهذه الآية، ومعنىٰ الشركة في اللغة: اشتراك اثنين في شيء، فجعلا لله -جل وعلا- شركاء فيما آتاهما، حيث سميا ذلك الولد عبد الحارث. والحارث هو إبليس، وهو الذي قال: «**إن لم تسمياه عبد الحارث لأفعلن، ولأفعلن، ولأجعلن له قرني أيل**» -وهو ذكر الوعل- وفي هذا تهديد بأن يشق بطن الأم، فتموت ويموت أيضًا الولد.

فلما رأت حواء ذلك، وأنها قد مات لها عدة بطون، أطاعت الشيطان في ذلك، فصارت الشركة شركة في الطاعة، وآدم وحواء عليهما السلام قد أطاعا الشيطان من قبل، حيث أمرهما بأن يأكلا من الشجرة التي نهاهما الله -جل وعلا- عنها، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**خدعهما مرتين**»[٤٩١]. وهذا هو المعروف عند السلف، فيكون إذًا قوله: ﴿شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ من جهة التشريك في الطاعة، ومعلوم أن كل عاصٍ مطيع للشيطان، وكل معصية لا تصدر من العبد إلا وثَمَّ نوع تشريك حصل في الطاعة؛ لأنه إما أن يطيع هواه، وإما أن يطيع الشيطان، ولهذا قال شيخ الإسلام وغيره من المحققين: «**إنه ما من معصية يعصي به العبد ربه إلا وسببها طاعة الشيطان أو طاعة الهوىٰ، وذلك نوع تشريك**» وهذا هو الذي حصل من آدم وحواء عليهما السلام، وهو لا يقتضي نقصًا في مقامهما، ولا يقتضي شركًا بالله -جل وعلا- وإنما هو نوع تشريك في الطاعة، والمعاصي الصغار جائزة علىٰ الأنبياء، كما هو معلوم عند أهل العلم، فإن آدم نبي مكلّم، وصغار الذنوب جائزة علىٰ الأنبياء، ولا تقدح في كمالهم؛ لأنهم لا يستقيمون عليها، بل يسرعون وينيبون إلىٰ الله -جل وعلا- ويكون حالهم بعدما وقع منهم ذاك أعظم من حالهم قبل أن يقع منهم ذلك؛ لأنه يكون لهم مقامات إيمانية واعتراف بالعبودية أعظم، وذل وخضوع أكبر بين يدي الله -جل وعلا- ومعرفة أكمل بتحقيق ما يجب لله -جل وعلا- وما يستحب.

فهذه القصة -كما ذكرنا- صحيحة، وآثار السلف الكثيرة تدل عليها، وسياق الآيات في آخر سورة الأعراف يدل عليها، والإشكال الذي أورده بعض أهل التفسير من المتأخرين، وهو أن آدم وحواء جعلا لله شركاء، وهذا نص الآية لا يمنع؛ لأن التشريك هنا تشريك فيما يدل عليه المعنىٰ اللغوي، وليس شركًا أصغر، ولا شركًا أعظم، وحاشاهما من ذلك، وإنما هو تشريك في

---

(٤٩١) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ١٥٠)، و«تفسير القرطبي»(٧/ ٣٣٨).

الطاعة، كما قال جل وعلا: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾[الفرقان:٤٣]، وكما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الجاثية: ٢٣]، فكل من جعل هواه متبّعا فقد جعله مطاعًا، وهذا نوع تأليه، لكن لا يقال: عبد غير الله، أو إلهًا غير الله، أو أشرك بالله -جل وعلا- لكن هو نوع تشريك، فكل طاعة للشيطان أو للهوىٰ فيها هذا النوع من التشريك، إذ الواجب علىٰ العبد أن يعظم الله -جل وعلا- وأن لا يطيع إلا أمره -جل وعلا- وأمر رسوله ﷺ.

فظهر بهذا التقرير أن هذه القصة لا تقتضي نقصًا في مقام آدم عليه السلام ولا في مقام حواء، بل هو ذنب من الذنوب تابا منه، كما حصل لهما أول مرة في الأكل من الشجرة، بل إن أكلهما من الشجرة ومخالفة أمر الله -جل وعلا- أعظم من هذا الذي حصل منهما هنا، وهو تسمية الولد عبد الحارث، وذلك أن الخطاب الأول كان من الله -جل وعلا- لآدم مباشرة خاطبه الله -جل وعلا- ونهاه عن أكل هذه الشجرة، وهذا خطاب متوجه إلىٰ آدم بنفسه، وأما هذه التسمية فإنه لم ينه عنها مباشرة، وإنما يفهم النهي عنها من وجوب حق الله -جل وعلا- فذاك المقام زاد علىٰ هذا المقام من جهة خطاب الله -جل وعلا- المباشر لآدم، وهذا أمر معروف عند أهل العلم، ولهذا فسر قتادة كلمة شركاء بقوله كما نقل الشيخ قال: «**له بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته**» وهذا الصحيح في تفسير الآية.

۞ **قوله**: «**قال ابن حزم: اتفقوا علىٰ تحريم كل اسم معبد لغير الله،...**»:

قول ابن حزم: (**اتفقوا**) يعني: أجمعوا، أي: أجمع أهل العلم فيما علمه هو أن التعبيد لغير الله محرم؛ لأن فيه إضافة النعم لغير الله، وفيه أيضًا إساءة أدب مع الربوبية والإلهية، فإن تعبيد الناس لغير الله -جل وعلا- غلط من جهة المعنىٰ، وأيضًا فيه نوع هضم لمقام الربوبية، فلذلك حرُم في شريعة الإسلام هذه التسمية، بل وفي شرائع الأنبياء جميعًا، فاتفق أهل العلم علىٰ ذلك، وأن كل اسم معبَّد لغير الله كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وعبد علي، وغير ذلك من الأسماء، فإن هذا وما أشبهه محرَّم ولا يجوز.

قوله: «**حاشا عبد المطلب**» يعني: لم يجمعوا عليه، فإن من أهل العلم من قال: تكره التسمية بعبد المطلب ولا تحرم؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال في غزوة حنين: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»(٤٩٢). قالوا: وجاء في أسماء الصحابة من اسمه عبد المطلب، ولهذا قالوا: لا

---

(٤٩٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: بغلة النبي ﷺ البيضاء، برقم (٢٨٧٤)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين، برقم (١٧٧٦)، وغيرهما من حديث البراء رضي الله عنه.

يحرم، وهذا القول ليس بصحيح في أن عبد المطلب لا تكره التسمية به ولا تحرم، وما استدلوا به ليس بوجيه، وذلك أن قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**» كان من جهة الإخبار، والإخبار ليس فيه تعبيد مباشر بإضافة ذلك المخلوق إلىٰ غير خالقه، وإنما هو إخبار، وباب الإخبار أوسع من باب الابتداء كما هو معلوم.

وأما تسمية بعض الصحابة بعبد المطلب، فالمحققون من الرواة يقولون: إن من سمِّي بعبد المطّلب فالصحيح أن اسمه المطلب بدون التعبيد، ولكن نقل بعبد المطلب؛ لأنه شاعت التسمية بعبد المطلب دون المطلب، فوقع خطأ في ذلك، وبحث هذه المسألة يطول، ومحله كتب الحديث وكتب الرجال.

❁ **قوله**: «**وعن ابن عباس في الآية: «لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس، فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لتطيعاني، أو لأجعلن له قرني أيِّل، فيخرج من بطنه فيشقه، ولأفعلن، ولأفعلن، ...»**»:

وهذا دليل علىٰ التفريق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة، فالشرك في العبادة كفر أكبر مخرج من الملة، أما الشرك في الطاعة فله درجات يبدأ من المعصية والمحرم وينتهي بالشرك الأكبر، فالشرك في الطاعة درجات كثيرة، وليس درجة واحدة، فقد يحصل شرك في الطاعة فيكون معصية، ويحصل شرك في الطاعة فيكون كبيرة، ويحصل شرك في الطاعة ويكون كفرًا أكبر، ونحو ذلك، أما الشرك في العبادة فهو كفر أكبر بالله -جل جلاله- ولهذا فرق أهل العلم بين شرك الطاعة وشرك العبادة، مع أن العبادة مستلزمة للطاعة، والطاعة مستلزمة أيضًا للعبادة، لكن ليس في كل درجاتها.

❁ **قوله**: « **وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾**[الأعراف:١٨٩]، **قال: أشفقا أن لا يكون إنسانًا** »:

يعني: خافا أن يكون له -كما قال الشيطان- له قرنا أيل، أو خلقته مختلفة، أو يخرج حيوانًا، أو قردًا، أو نحو ذلك، فقالا: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ يعني: ولدًا صالحًا سليمًا من الآفات سليمًا من الخلقة المشينة، فوعدا بأن يكونا من الشاكرين ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾ عبّدا ذلك للحارث خوفًا من أن يتسلط الشيطان عليه بالموت أو الإهلاك، فأخذتها شفقة الوالد علىٰ الولد فكان ذلك خلاف شكر تلك النعمة؛ لأن من شكر نعمة الولد أن يُعبد الولد لله الذي أنعم به وأعطاه وتفضل به.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله، أي: لما فيه من الإشراك مع الله في الربوبية.

الثانية: تفسير الآية أي: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾، أي: سالمًا سويا جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث عبداه لغير الله.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسميته لم تقصد حقيقتها، أي: إن التسمية بعبد الحارث إنما هو شرك بمجرد التسمية فقط،ولم يقصد حقيقة ما أراده الشيطان من التعبيد له.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم، أي: لما أنهما حلفا أن يشكرا الله إذا آتاهما صالحًا، أي: سويًّا لا عيب فيه، ولم يفرقا بين كونه ذكرًا أو أنثى، دل ذلك على أن هبة الله للإنسان البنت السوية من النعم خلافًا لما اشتهر عند العرب من كراهة البنات.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة، أي: إن ما جرى من الأبوين إن صح عنهما مجرد موافقة في التسمية فقط، وهذا من شرك الطاعة، وهو لا يصل إلى الشرك الأكبر، ولم يقصدا حقيقة التعبيد للشيطان الذي هو الشرك الأكبر، وهذا من إظهار العذر للأبوين.

* الأسئلة *

❁ **قوله:** «قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾».

س: اشرح هذه الآية، وبين مناسبتها لكتاب التوحيد؟

جـ: يخبرالله تعالىٰ عن الأبوين آدم وحواء أنهما لما رزقهما ولدًا صالحًا؛ أي: بشرًا سويًّا كما سألاه لم يؤديا شكر هذه النعمة علىٰ الوجه المرضي كما وعدا بذلك بل أشركا في طاعة الله حيث عبَّدا ولدهما لغير الله فسمياه عبد الحارث.ثم نزه نفسه عن شرك المشركين به في عبادته وطاعته.

ومناسبة الآية لكتاب التوحيد: أنها دلت علىٰ أن تعبيد الأولاد لغير الله شرك ينافي التوحيد.

❁ **قوله:** «**عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما تغشاها آدم حملت فأتاهما إبليس فقال إني...**».

س: بين معاني الكلمات الآتية: أيل، الحارث، أدركهما، أشفقا: خافا.

جـ: الأيل: ذكر الأوعال، والحارث: إبليس، أدركهما: غلب عليهما، أشفقا: خافا.

س: ما الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة؟

جـ: الفرق بينهما أن الشرك في الطاعة يكون بمجرد التسمية فقط ولا يقصد تعبيده لغير الله وهو معنىٰ قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾. كما قال قتادة شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته.

وأما الشرك في العبادة فهو أن يقصد تعبيده لغير الله وهو الذي أراده إبليس لعنه الله من الأبوين.

«**قال ابن حزم: اتفقوا علىٰ تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمر وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب**».

س: اشرح قول ابن حزم هذا ولماذا استثنى عبد المطلب من العموم؟

جـ: حكىٰ أبو محمد بن حزم عالم الأندلس اتفاق العلماء علىٰ تحريم ما عبد لغير الله لأنه شرك في الربوبية والإلاهية؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له وهو ربهم ومعبودهم الذي لا يستحق العبادة غيره.

واستثنىٰ عبد المطلب من العموم؛ لأن أصله من عبودية الرق وعبد المطلب هو جد النبي ﷺ لأبيه واسمه شيبه بن هاشم بن عبد مناف.وسبب تسميته عبد المطلب أن أهل مكة لما رأوه مع عمه المطلب حين قدم به من المدينة وكان قد نشأ بها ورأو لونه متغيرًا بسبب السفر والشمس ظنوه عبدًا للمطلب فسموه بذلك ولهذا استثني من العموم.

س: ما هو المقصود من هذا الباب؟

جـ: المقصود منه أن من أنعم الله عليهم بالأولاد وكمل الله عليهم النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه وأن لا يعبدوا أولادهم لغير الله أويضيفوا النعم لغيره فإن ذلك كفر للنعم مناف للتوحيد.

تنبيه:

ما ورد من أن المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ آدم وحواء هو قول جمهور المفسرين وورد فيه الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الحسن البصري عن سمرة قال ابن كثير وهو معلول من ثلاثة أوجه ذكرها في «تفسيره» جزء ٢ ص ٢٧٤، وفيه أثر عن ابن عباس رواه ابن أبي حاتم وتقدم.قال ابن كثير وكأنه -والله أعلم- أصله مأخوذ من أهل الكتاب.

والذي عليه المحققون من المفسرين وفي مقدمتهم الحسن البصري التابعي الجليل ثم الإمام بن كثير في «تفسيره» أن المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾: المشركون من ذريتهما، روىٰ ابن جرير بسنده عن الحسن قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم. وعن قتادة قال: كان الحسن يقول هم اليهود والنصارىٰ رزقهم الله أولادًا فهودوا ونصروا، قال ابن كثير: وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولىٰ ما حملت عليه الآية.والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

وقال ابن جزي في «تفسيره» وهذا القول أصح لثلاثة أوجه:

١ - أحدها أنه يدل علىٰ أن الذين أشركوا هم أولاد آدم وذريته لقوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٢ - الثاني أنه يقتضي براءة آدم وزوجه من قليل الشرك وكثيره وذلك هو حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٣ - الثالث أن ما ذكروا من قصة آدم وتسمية الولد عبد الحارث يفتقر إلىٰ نقل بسند صحيح وهو غير موجود في تلك القصة.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس الحادي والخمسون:

باب قول الله تعالى

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ الآية [الأعراف:١٨٠].

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: [﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾][٤٩٣]: «يشركون»[٤٩٤] وعنه: «سموا اللات من الإله، والعزَّي من العزيز»[٤٩٥]. وعن الأعمش: «يدخلون فيها ما ليس منها»[٤٩٦].

فيه مسائل:

الأولىٰ: إثبات الأسماء.

الثانية: كونها حسنىٰ.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

السادسة: وعيد من ألحد.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴾»:

أراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة الرد علىٰ من يتوسل بذوات الأموات، وأن المشروع التوسل بالأسماء الحسنىٰ، والصفات العليا، والأعمال الصالحة، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الأعراف:١٨٠] إخبار عن

(٤٩٣) سقط من نسخة ابن قاسم.

(٤٩٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٩٢) من قول قتادة، وليس من قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤٩٥) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٣٣) بنحوه من قول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤٩٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٩٢) من قول الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ

نفسه الشريفة أن له أسماء، وأنها حسنىٰ؛ يعني: قد بلغت الغاية في الحسن، فليس في الأسماء أحسن منها ولا أكمل، ولا يقوم غيرها مقامها؛ لما تدل عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال، وتفسير الاسم منها بغيره ليس بمرادف محض، بل علىٰ سبيل التفهيم والتقريب، فله سبحانه من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنىٰ، وأبعده عن شائبة النقص، فله من صفة العليم علمه بكل شيء، دون العالم الفقيه، والسميع سمعه بكل شيء، دون السامع، والرحيم رحمة بالمؤمنين، دون الشفيق، والكريم الجود والكرم دون السخي، وهكذا، فأسماؤه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا يعدل عما سمىٰ به نفسه إلىٰ غيره، كما لا يتجاوز ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسولهﷺ إلىٰ ما وصفه به المبطلون، وما يطلق عليه سبحانه من باب الأسماء والصفات توقيفي، بخلاف الأخبار فلا يجب أن يكون توقيفيًا. وقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]؛ أي: اسألوه وتوسلوا إليه بها، ودعاؤه بها أحد مراتب إحصائها الذي قال فيهﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة»(٤٩٧) متفق عليه.

المرتبة الأولىٰ: إحصاء ألفاظها وعددها.

الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

الثالثة: دعاؤه بها، وهو نوعان: دعاء ثناء وعبادة، ودعاء طلب ومسألة، فلا يثنىٰ عليه إلا بأسمائه الحسنىٰ. كذلك لا يسأل إلا بها، فيسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلًا بذلك الاسم، كقول: رب اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، والأسماء الحسنىٰ ليست منحصرة في تسعة وتسعين؛ لحديث: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»(٤٩٨). والحديث جملة واحدة. وقوله: «**من أحصاها دخل الجنة**»(٤٩٩) صفة لا خبر مستقل؛ لئلا يتوهم الحصر بالتسعة والتسعين اسما، فلا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد، والمعنىٰ: له سبحانه أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل

---

(٤٩٧) أخرجه البخاري، كتاب:الدعوات، باب: لله مئة اسم غير واحد، برقم (٦٤١٠)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: في أسماء الله تعالىٰ وفضل من أحصاها، برقم (٢٦٧٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤٩٨) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وابن حبان، برقم(٩٧٢)، والحاكم، برقم(١٨٧٧)، والطبراني (١٠/ ١٦٩) وغيرهم من حديث ابن مسعود ﷺ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٩٩).

(٤٩٩) سبق تخريجه.

الجنة، وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها، وأكثر التسعة والتسعين في الكتاب والسنة، وما جاء في الترمذي وغيره[٥٠٠] من عدها فذكر جماعة من الحفاظ المحققين أن سردها مدرج فيه، وأن جماعة من أهل العلم جمعوها من القرآن، وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:١٨١]؛ أي: اتركوهم وأعرضوا عن مجادلتهم: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:١٨١] وعيد شديد وتهديد أكيد ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يشركون غيره في أسمائه، كتسميتهم الصنم إلها، والإلحاد فيها: الميل بالإشراك والتعطيل والنكران. قال قتادة: يلحدون يشركون[٥٠١].

وعن ابن عباس: الإلحاد التكذيب[٥٠٢]. وعنه: إلحاد الملحدين أن ادعوا اللات[٥٠٣] في أسمائه، وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، فالإلحاد فيها إما بجحدها أو معانيها وتعطيلها أو تحريفها وإخراجها عن الحق، أو جعلها أسماء لهذه المخلوقات، وحقيقة الإلحاد فيها العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها.

قال ابن القيم[٥٠٤]: «الإلحاد في أسمائه العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت، وهو أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها كتسمية اللات من الإله.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارىٰ له أبا والفلاسفة له موجبًا بذاته أو علة فاعلة.

الثالث: وصفه بما يتعالىٰ عنه ويتقدس من النقائص، كقول اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

الرابع: تعطيل الأسماء الحسنىٰ عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول الجهمية: إنها ألفاظ مجردة، لا تتضمن صفات ولا معان، فيطلقون اسم السميع ويقولون: لا سمع له، ونحو ذلك.

الخامس: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالىٰ الله وتقدس عن قولهم علوًّا كبيرًا، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه اهـ.

---

(٥٠٠) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: (٨٣)، برقم (٣٥٠٧)، وابن حبان، برقم(٨٠٨)، والبيهقي (١٠/ ٢٧) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(٥٠١) سبق تخريجه.

(٥٠٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٩١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥٠٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «فسيره»(٦/ ٢٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥٠٤) انظر: «بدائع الفوائد»، لابن قيم الجوزية (١/ ١٧٩).

والذي عليه أهل السنة والجماعة إثبات أسماء الله تعالىٰ وصفاته علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ:١١]. والكلام في الصفات فرع علىٰ الكلام في الذات، يحتذىٰ فيه حذوه ومثاله، فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتًا حقيقة، لا تشبه ذوات المخلوقين، فكذلك له صفات حقيقة، لا تشبه صفات المخلوقين، فمن جحد ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ فقد كفر، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أوله علىٰ غير مما ظهر من معناه فهو جهمي، قد اتبع غير سبيل المؤمنين، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٥٠٥): ما يجري – صفة أو خبرًا – علىٰ الرب تعالىٰ أقسام، ما يرجع إلىٰ نفس الذات، كقولك: ذات وموجود، وما يرجع إلىٰ أفعاله كالخالق والرازق، والتنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتًا، إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس السلام، والاسم الدال علىٰ جملة أوصاف عديدة لا يختص بصفة معينة، بل دال علىٰ معان نحو المجيد العظيم الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل علىٰ هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، وصفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد علىٰ مفرديهما، نحو الغني الحميد، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنىٰ صفة كمال والحمد كذلك، واجتماع الغنىٰ مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الحميد المجيد العزيز الحكيم.

❁ **قوله**: «ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس»:

صوابه عن قتادة كما تقدم.

قوله: «**وعنه سموا اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز**»: رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وكذلك أثر الأعمش. وعن مجاهد: اشتقوا اللات من الله، واشتقوا العزىٰ من العزيز.

قوله: «**وعن الأعمش يدخلون فيها ما ليس منها**»؛ أي: يدخلون في أسماء الله ما لم يسم بها نفسه، ولم يسمه بها رسوله ﷺ كتسمية اللات من الإله ونحوه. والأعمش اسمه سليمان بن مهران أبو محمد الكوفي الفقيه، ثقة حافظ ورع، ولد سنة ٦١ هـ، ومات سنة ١٤٧ هـ.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله**: «قول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴾[الأعراف:١٨٠]»:

أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنىٰ، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها ودعاؤه بها.

---

(٥٠٥) انظر: «بدائع الفوائد»، لابن القيم (١/ ١٦٦).

فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه. فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنىٰ. فمن دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق. ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة. وذلك باستحضار معاني الأسماء الحسنىٰ وتحصيلها في القلوب حتىٰ تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها. وتمتلئ بأجل المعارف. فمثلًا أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلب تعظيمًا لله وإجلالًا له.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله وشوقًا له وحمدًا له وشكرًا.

وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعًا لله وخشوعًا وانكسارًا بين يديه وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات وحراسة للخواطر عن الأفكار الردية والإرادات الفاسدة.

وأسماء الغنىٰ واللطف تملأ القلب افتقارًا واضطرارًا إليه والتفاتًا إليه كل وقت، في كل حال.

فهذه المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبده بها لله لا يحصل العبد في الدنيا أجَّل ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي روح التوحيد وروحه.

ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخالص والإيمان الكامل الذي لا يحصل إلا للكمل من الموحدين.

وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلىٰ.

وأما الإلحاد في أسماء الله وصفاته فإنه ينافي هذا المقصد العظيم أعظم منافاة. والإلحاد أنواع:

إما أن ينفي الملحد معانيها، كما تفعله الجهمية ومن تبعهم.

وإما بتشبيهها بصفات المخلوقين، كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم.

وإما بتسمية المخلوقين بها كما يفعله المشركون، حيث سموا اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز، ومناة من المنان، فاشتقوا لها من أسماء الله الحسنىٰ، فشبهوها بالله ثم جعلوا لها من حقوق العبادة ما هو من حقوق الله الخاصة.

فحقيقة الإلحاد في أسماء الله هو الميل بها عن مقصودها: لفظًا أو معنىٰ، تصريحًا أو تأويلًا أو تحريفًا. وكل ذلك منافٍ للتوحيد والإيمان.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ...﴾ الآية:

بيَّن الله تعالىٰ أن له سبحانه الأسماء الحسنىٰ التي لا يعتريها نقص بل هي كمال كلها تدل علىٰ معانٍ عظيمة يوصف بها علىٰ الوجه اللائق به فيدعىٰ بها فيقال: يا رحمن... يا عزيز، يا غفور اغفر لنا.. وهكذا.

والإلحاد في أسمائه: الميل عن الحق والإشراك فيها مع الله كمن جعل لغير الله شيئًا من العبادة فقد أشرك فيها مع الله غيره وجعلها إلهًا، وصار كافرًا بذلك.

وهكذا من ألحد فيها بأن أمالها عن الحق وزعم أنه لا معنىٰ لها كالجهمية والمعتزلة الذين نفوا الصفات أو الأسماء والصفات جميعًا فقد ألحدوا؛ أي: مالوا عن الحق.

ومنه اللحد في القبر؛ أي: جعله مائل من جانب.

والإلحاد قسمان:

إلحاد أكبر: وهو ما يقع من الكفرة.

إلحاد ناقص: وهو ما يقع من بعض المسلمين في عدم انقيادهم للحق علىٰ التمام والكمال فيكون لهم نوع إلحاد وميل عن الحق فيفوتهم من الإيمان والإسلام بقدر ذلك.

قال الأعمش(٥٠٦): يدخلون فيها ما ليس منها: هذا نوع من الإلحاد أن يسمىٰ الله بأسماء ما أنزل بها من سلطان فهي نوع من الإلحاد؛ أي: نوع من الباطل.

وكذلك قول بعضهم في اللات من الإله والعزىٰ من العزيز؛ فهذا نوع إلحاد.

وكذلك الوقوع في المعاصي نوع من الإلحاد لكنه أصغر.

ومن جحد الله أو أشرك معه فهو إلحاد أكبر.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ ...﴾ الآية»:

هذا الباب يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن هذا الكتاب جامع لأنواع التوحيد الثلاثة: توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

---

(٥٠٦) سبق تخريجه.

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله ﷻ بما ثبت له من صفات الكمال على وجه الحقيقة، بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل؛ لأنك إذا عطلت لم تثبت، وإن مثلت لم توحد، والتوحيد مركب من إثبات ونفي؛ أي: إثبات الحكم للموحد ونفيه عما عداه، فمثلًا إذا قلت: زيد قائم؛ لم توحده بالقيام؛ وإذا قلت: زيد غير قائم؛ لم تثبت له القيام، وإذا قلت: لا قائم إلا زيد؛ وحدته بالقيام وإذا قلت لا إله إلا الله؛ وحدته بالألوهية، وإذا أثبت لله الأسماء والصفات دون أن يماثله أحد؛ فهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وإن نفيتها عنه؛ فهذا تعطيل، وإن مثلت؛ فهذا إشراك.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: طريق التوحيد هنا تقديم الخبر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ ففي الآية توحيد الأسماء لله.

وقوله: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: مؤنث أحسن؛ فهي اسم تفضيل، ومعنى الحسنى؛ أي: البالغة في الحسن أكمله؛ لأن اسم التفضيل يدل على هذا، والتفضيل هنا مطلق؛ لأن اسم التفضيل قد يكون مطلقًا مثل: زيد الأفضل، وقد يكون مقيدًا مثل: زيد أفضل من عمرو. وهنا التفضيل مطلق؛ لأنه قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: فأسماء الله تعالى بالغة في الحسن أكمله من كل وجه، ليس فيها نقص لا فرضًا ولا احتمالًا.

وما يخبر به عن الله أوسع مما يُسمي به الله؛ لأن الله يُخبر عنه بالشيء ويخبر عنه بالمتكلم والمريد، مع أن الشيء لا يتضمن مدحًا والمتكلم والمريد يتضمنان مدحًا من وجه وغير مدح من وجه، ولا يسمى الله بذلك؛ فلا يسمى بالشيء ولا بالمتكلم ولا بالمريد، لكن يخبر بذلك عنه.

وقد سبق لنا مباحث قيمة في أسماء الله تعالى:

الأول: هل أسماء الله تعالى أعلام أو أوصاف؟

الثاني: هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟

الثالث: هل أسماء الله هي الله أو غيره؟

الرابع: أسماء الله توفيقية.

الخامس: أسماء الله غير محصورة بعدد معين.

السادس: أسماء الله إذا كانت متعدية؛ فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة وبالحكم الذي يسمى أحيانًا بالأثر، وإن كانت غير متعدية؛ فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة.

السابع: إحصاء أسماء الله ومعناه:

١ - الإحاطة بها لفظًا ومعنى.

٢ - دعاء الله بها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، وذلك بأن تجعلها وسيلة لك عند الدعاء، فتقول: يا ذا الجلال والإكرام: يا حي يا قيوم! وما أشبه ذلك.

٣- أن تتعبد لله بمقتضاها، فإذا علمت أنه رحيم تتعرض لرحمته، وإذا علمت أنه غفور تتعرض لمغفرته، وإذا علمت أنه سميع اتقيت القول الذي يغضبه، وإذا علمت أنه بصير اجتنبت الفعل الذي لا يرضاه.

قوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾: الدعاء هو السؤال، والدعاء قد يكون بلسان المقال، مثل: اللهم! اغفر لي يا غفور وهكذا، أو بلسان الحال وذلك بالتعبد له؛ ولهذا قال العلماء: إن الدعاء دعاء مسألة ودعاء عبادة؛ لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله ويخاف عقابه. والأمر بدعاء الله بها يتضمن الأمر بمعرفتها؛ لأنه لا يمكن دعاء الله بها إلا بعد معرفتها. وهذا خلافًا لما قاله بعض المداهنين في وقتنا الحاضر: إن البحث في الأسماء والصفات لا فائدة فيه ولا حاجة إليه.

أيريدون أن يعبدوا شيئًا لا أسماء له ولا صفات؟! أم يريدون أن يداهنوا هؤلاء المحرفين حتىٰ لا يحصل جدل ولا مناظرة معهم؟! وهذا مبدأ خطير أن يقال للناس: لا تبحثوا في الأسماء والصفات، مع أن الله أمرنا بدعائه بها. والأمر للوجوب، ويقتضي وجوب علمنا بأسماء الله، ومعلوم أيضًا أننا لا نعلمها أسماء مجردة عن المعاني، بل لابد أن لها معاني فلا بد أن نبحث فيها؛ لأن علمها ألفاظًا مجردة لا فائدة فيه، وإن قدِّر أن فيه فائدة بالتعبد باللفظ؛ فإنه لا يحصل به كمال الفائدة.

واعلم أن دعاء الله بأسمائه له معنيان:

الأول: دعاء العبادة، وذلك بأن تتعبد لله بما تقتضيه تلك الأسماء، ويطلق علىٰ الدعاء عبادة، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾[غافر: ٦٠]، ولم يقل: عن دعائي؛ فدل علىٰ أن الدعاء عبادة.

فمثلًا: الرحيم يدل علىٰ الرحمة، وحينئذ تتطلع إلىٰ إسباب الرحمة وتفعلها.

والغفور يدل علىٰ المغفرة، وحينئذ تتعرض لمغفرة الله ﷻ بكثرة التوبة والاستغفار كذلك وما أشبه ذلك.

والقريب: يقتضي أن تتعرض إلىٰ القرب منه بالصلاة وغيرها، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

والسميع: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضي السمع، بحيث لا تُسمع الله قولًا يغضبه ولا يرضاه منك.

والبصير: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضىٰ ذلك البصر بحيث لا يرىٰ منك فعلًا يكرهه منك.

الثاني: دعاء المسألة، وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلًا بها إلىٰ الله تعالىٰ.

مثلًا: يا حي، يا قيوم اغفر لي وارحمني، وقالﷺ: «**فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»(٥٠٧)، والإنسان إذا دعا وعلل؛ فقد أثنىٰ علىٰ ربه بهذا الاسم طالبًا أن يكون سببًا للإجابة، والتوسل بصفة المدعو المحبوبة له سبب للإجابة؛ فالثناء علىٰ الله بأسمائه من أسباب الإجابة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾: ﴿وَذَرُواْ﴾: اتركوا، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة يلحدون صلة الموصول، ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وهو الإلحاد؛ أي: سيجزون جزاءه المطابق للعمل تمامًا؛ ولهذا يعبر الله تعالىٰ بالعمل عن الجزاء إشارة للعدل، وأنه لا يجزىٰ الإنسان إلا بقدر عمله.

والمعنى: ذروهم؛ أي: لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم: فإنهم علىٰ ضلال وعدوان، وليس المعنىٰ عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم؛ إذ لا يترك الظالم علىٰ ظلمه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وَذَرُواْ﴾ تهديدًا للملحدين. والإلحاد: مأخوذ من اللحد، وهو الميل، لحد وألحد بمعنىٰ مال، ومنه سُمي الحفر بالقبر لحدًا؛ لأنه مائل إلىٰ جهة القبلة.

والإلحاد في أسماء الله: الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئًا من الأسماء أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكام، ووجه كونه إلحادًا أنه مال بها عما يجب لها؛ إذ الواجب إثباتها وإثبات ما تتضمنه من الصفات والأحكام.

الثاني: أن يثبت لله أسماء لم يسم الله بها نفسه؛ كقوله الفلاسفة في الله: إنه علة فاعلة في هذا الكون تفعل، وهذا الكون معلول لها، وليس هناك إله. وبعضهم يسميه العقل الفعال؛ فالذي يدير هذا الكون هو العقل الفعال، وكذلك النصارىٰ يسمون الله أبًا وهذا إلحاد.

الثالث: أن يجعلها دالة علىٰ التشبيه؛ فيقول: الله سميع بصير قدير، والإنسان سميع بصير قدير، اتفقت هذه الأسماء؛ فيلزم أن تتفق المسميات، ويكن الله - سبحانه وتعالىٰ - مماثلًا للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلىٰ التوافق بالصفات. ووجه الإلحاد: أن أسماءه دالة علىٰ معان لائقة بالله لا يمكن أن تكون مشابهة لما تدل عليه من المعاني في المخلوق.

الرابع: أن يشتق من هذه الأسماء أسماء للأصنام؛ كتسمية اللات من الإله أو من الله، والعزىٰ من العزيز، ومناة من المنان حتىٰ يلقوا عليها شيئًا من الألوهية ليبرروا ما هم عليه.

---

(٥٠٧) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: الدعاء قبل السلام، برقم (٨٣٤)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، برقم (٢٧٠٥) وغيرهما من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

واعلم أن التعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه؛ لوجوه ثلاثة:

١- أنه هو الذي نفاه الله في القرآن؛ فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

٢- أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه، واشتراك في المعنىٰ من بعض الوجوه.

فمثلًا: الخالق والمخلوق اشتركا في معنىٰ الوجود، لكن وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه، وكذلك العلم والسمع والبصر ونحوها اشترك فيها الخالق والمخلوق في أصل المعنىٰ، ويتميز كل واحد منهما بما يختص به.

٣- أن الناس اختلفوا في معنىٰ التشبيه حتىٰ جعل بعضهم إثبات الصفات تشبيهًا، فيكون معنىٰ بلا تشبيه؛ أي: بلا إثبات صفات علىٰ اصطلاحهم.

قوله تعالىٰ: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: لم يقل يجزون العقاب إشارة إلىٰ أن الجزاء من جنس العمل، وهذا وعيد، وهو كقوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[الرحمن:٣١]، وليس المعنىٰ أن الله ﷻ مشغول الآن وسيخلفه الفراغ فيما بعد.

قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ العمل يطلق علىٰ القول والفعل، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧-٨] وهذا يكون في الأفعال والأقوال.

قول ابن عباس: «يشركون»: تفسير للإلحاد، ويتضمن الإشراك بها في جهتين:

١- أن يجعلوها دالة علىٰ المماثلة.

٢- أو يشتقوا منها أسماء للأصنام؛ كما في الرواية الثانية عن ابن عباس التي ذكرها المؤلف، فمن جعلها دالة علىٰ المماثلة؛ فقد أشرك لأنه جعل لله مثيلًا، ومن أخذ منها أسماء لأصنامه؛ فقد أشرك لأنه جعل مسميات هذه الأسماء مشاركة لله ﷻ.

قوله: «وعنه»:

أي: ابن عباس.

قوله: «**سموا اللات من الإله ..**»: وهذا أحد نوعي الإشراك بها أن يشتق منها أسماء للأصنام.

تنبيه:

فيه كلمة تقولها النساء عندنا وهي: «**وعزالي**»؛ فما هو المقصود بها؟

الجواب: المقصود أنها من التعزية؛ أي: أنها تطلب الصبر والتقوية وليست تندب العزىٰ التي هي الصنم؛ لأنها قد لا تعرف أن هناك صنمًا اسمه العزىٰ ولا يخطر ببالها هذا، وبعض الناس قال:

يجب إنكارها؛ لأن ظاهر اللفظ أنها تندب العزىٰ، وهذا شرك، ولكن نقول: لو كان هذا هو المقصود لوجب الإنكار، لكننا نعلم علم اليقين أن هذا غير مقصود، بل يقصد بهذا اللفظ التقوي والصبر والثبات علىٰ هذه المصيبة.

قوله: «عن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها»: هذا أحد أنواع الإلحاد، وهو أن يُسمَّىٰ الله بما لم يسم به نفسه، ومن زاد فيها فقد ألحد؛ لأن الواجب فيها الوقوف علىٰ ما جاء به السمع.

تتمة:

جاءت النصوص بالوعيد علىٰ الإلحاد في آيات الله تعالىٰ كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾[فصلت:٤٠]؛ فقوله: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ فيها تهديد؛ لأن المعنىٰ سنعاقبهم، والجملة مؤكدة بإن.

وآيات الله تنقسم إلىٰ قسمين:

١- **آيات كونية**؛ وهي كل المخلوقات من السماوات والأرض والنجوم والجبال والشجر والدواب وغير ذلك، قال الشاعر:

فَواعَجبًا كيف يُعصىٰ الإلهُ ... أَمْ كَيفَ يَجْحَدُه الجَاحِدُ

وفي كُلِّ شيء لَهُ آيةٌ ... تَدلُّ علىٰ أَنَّهُ واحد

والإلحاد في الآيات الكونية ثلاثة أنواع:

١- اعتقاد أن أحدًا سوىٰ الله منفرد بها أو ببعضها.

٢- اعتقاد أن أحدًا مشارك لله فيها.

٣- اعتقاد أن لله فيها معينًا في إيجادها وخلقها وتدبيرها.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾[سبأ:٢٢]، ظهير؛ أي: معين.

وكل ما يُخل بتوحيد الربوبية؛ فإنه داخل في الإلحاد في الآيات الكونية.

٢- **آيات شرعية**، وهو ما جاء به الرسل من الوحي كالقرآن، قال تعالىٰ: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾[العنكبوت:٤٩].

والإلحاد في الآيات الشرعية ثلاثة أنواع:

١- تكذيبها فيما يتعلق بالأخبار.

٢- مخالفتها فيما يتعلق بالأحكام.

٣- التحريف في الأخبار والأحكام.

والإلحاد في الآيات الكونية والشرعية حرام. ومنه ما يكون كفرًا؛ كتكذيبها، فمن كذَّب شيئًا مع اعتقاده أن الله ورسوله أخبرا به؛ فهو كافر. ومنه ما يكون معصية من الكبائر، كقتل النفس والزنا. ومنه ما يكون معصية من الصغائر؛ كالنظر لأجنبية لشهوة.

قال الله تعالىٰ في الحرم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الحج:٢٥]، فسمي الله المعاصي والظلم إلحادًا، لأنها ميل عما يجب أن يكون عليه الإنسان؛ إذ الواجب عليه السير علىٰ صراط الله تعالىٰ، ومن خالف؛ فقد ألحد.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: إثبات الأسماء؛ يعني: لله تعالىٰ، وتؤخذ من قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ﴾، وهذا خبر متضمن لمدلوله من ثبوت الأسماء لله، وفي الجملة حصر لتقديم الخبر، والحصر باعتبار كونها حسنىٰ لا باعتبار الأسماء. وأنكر الجهمية وغلاة المعتزلة ثبوت الأسماء لله تعالىٰ.

الثانية: كونها حسنىٰ؛ أي: بلغت في الحسن أكمله؛ لأن «حسنىٰ» مؤنث أحسن، وهي اسم تفضيل.

الثالثة: الأمر بدعائه بها: والدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة وكلاهما مأمور فيه أن يُدعىٰ الله بهذه الأسماء الحسنىٰ، وسبق تفصيل ذلك.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين؛ أي: ترك سبيلهم، وليس المعنىٰ أن لا ندعوهم ولا نبين لهم، والآية تتضمن أيضًا التهديد.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها: وقد سبق بيان أنواعه.

السادسة: وعيد من ألحد: وتؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾:

تمام الآية: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:١٨٠].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الباب الرد علىٰ من يتوسل إلىٰ الله بالأموات، وأنَّ المشروع التوسل إلىٰ الله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا.

التراجم:

الأعمش هو: سليمان بن مهران الكوفي الفقيه ثقة حافظ ورع مات سنة ١٤٧هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: التي بلغت الغاية في الحسن؛ فليس في الأسماء أحسن منها وأكمل ولا يقوم غيرها مقامها.

﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾؛ أي: اسألوه وتوسلوا إليه بها.

﴿وَذَرُوا ٱلَّذِينَ﴾؛ أي: اتركوهم وأعرضوا عن مجادلتهم.

﴿يُلْحِدُونَ﴾: الإلحاد: الميل؛ أي: يميلون بها عن الصواب إمَّا بجحدها أو جحد معانيها أو جعلها أسماء لبعض المخلوقات.

يلحدون في أسمائه؛ أي: يشركون غيره في أسمائه كتسميتهم الصنم إلهًا.

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: وعيدٌ شديدٌ وتهديدٌ بنزول العقوبة بهم.

قوله: «وعنه»:

أي: عن ابن عباس.

«**سموا اللات... إلخ**»: بيان لمعنىٰ الإلحاد في أسمائه: أنهم اشتقوا منها أسماءً لأصنامهم.

«**يدخلون فيها ما ليس منها**»؛ أي: يدخلون في أسماء الله ما لم يسم به نفسه ولم يُسمه به رسوله.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

أخبر تعالىٰ عن نفسه أن له أسماء قد بلغت الغاية في الحسن والكمال؛ وأمر عباده أن يسألوه ويتوسلوا إليه بها، وأن يتركوا الذين يميلون بهذه الأسماء الجليلة إلىٰ غير الوجهة السليمة، وينحرفون بها عن الحق بشتىٰ الانحرافات الضالة، وأن هؤلاء سيلقون جزاءهم الرادع.

ما يستفاد من الآية:

١- إثبات الأسماء والصفات لله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ ما يليق بجلاله.

٢- أن أسماء الله حسنىٰ.

٣- الأمر بدعاء الله والتوسل إليه بأسمائه.

٤- تحريم الإلحاد في أسماء الله بنفيها أو تأويلها أو إطلاقها علىٰ بعض المخلوقات.

٥- الأمر بالإعراض عن الجاهلين والملحدين وإسقاطهم من الاعتبار.

٦- الوعيد الشديد لمن ألحد في أسماء الله وصفاته.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴾»:**

هذا الباب في وجوب تعظيم أسماء الله الحسنىٰ، وأن من تعظيمها ألَّا يُلحد فيها، وأن يدعىٰ الله -جل وعلا- بها، والأسماء الحسنىٰ هي: الأسماء البالغة في الحسن نهايته، فالخلق يتسمون بأسماء، لكن قد لا تكون حسنة، أو قد تكون حسنة، ولكن ليست بالغة في الحسن نهايته؛ لأن الحسن في الأسماء يكون راجعًا إلىٰ أن الصفة التي اشتمل عليها ذلك الاسم تكونْ حقًّا موجودة فيمن تسمىٰ بها، والإنسان وإن تسمىٰ باسم فيه معنىٰ فقد لا يكون فيه من ذلك المعنىٰ شيء، فيسمّىٰ صالحًا، وقد لا يكون صالحًا، ويسمىٰ خالدًا وقد لا يكون خالدًا، ويسمىٰ محمدًا وقد لا يكون كثير خصال الحمد، وهكذا فإن الإنسان قد يسمىٰ بأسماء لكن لا تكون في حقه حسنىٰ، والله -جل وعلا- له الأسماء الحسنىٰ البالغة في الحسن نهايته، وهي الأسماء المشتملة علىٰ صفات الكمال، والجلال، والجمال، والقدرة، والعزة، والجبروت وغير ذلك، وله من كل اسم مشتمل علىٰ صفة أعلىٰ وأعظم وأسمىٰ المعاني التي اشتملت عليها الصفة.

وأهل العلم إذا فسروا الأسماء الحسنىٰ فإنما هو تقريب، ليدلُّوا الناس علىٰ أصل المعنىٰ، أما المعنىٰ بكماله فإنه لا يعلمه أحد إلا الله -جل جلاله- ولهذا قال ﷺ في دعائه: «**لا نُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**»(٥٠٨). فالناس حين يفسِّرون أسماء الله -جل وعلا- فإنهم يفسرون ذلك بما يقرب إلىٰ الأفهام المعنىٰ، أما حقيقة المعنىٰ علىٰ كماله فإنهم لا يعونه؛ لأن ذلك من الغيب، وكذلك الكيفية فإنهم لا يعلمونها؛ لأن ذلك من الغيب، فالله -جل وعلا- له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ.

ومن الأسماء ما لا يكون حسنًا إلا بقيد مثل الصانع، والمتكلم، والمريد، والفعّال أو الفاعل، ونحو ذلك، فهذه الأسماء لا تكون كمالًا إلا بقيد، وهو أن يكون متكلمًا بما شاء إذا شاء بما تقتضيه الحكمة وتمام العدل، فهذا يكون محمودًا، ولهذا ليس من أسماء الله المتكلم، وكذلك الصانع قد يصنع خيرًا، وقد يصنع غير ذلك، والله -جل وعلا- ليس من أسمائه الحسنىٰ الصانع، لاشتماله علىٰ هذا وهذا، فإذا أطلق من جهة الخبر فيُعنىٰ به ما يقيد بالمعنىٰ الذي فيه كمال، وكذلك فاعل أو فعّال، فإن الفعّال قد يفعل أشياء لا توافق الحكمة، وقد يفعل أشياء لا يريدها، بل مجبر عليها،

---

(٥٠٨) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: ما يُقال في الركوع والسجود، برقم (٤٨٦)، وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها.

والكمال أن يفعل ما يريد ولا يكون مجبرًا لكمال عزته وقهره، ولهذا قال الله -جل وعلا- عن نفسه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٦]؛ لأن تقييد كونه فعّالًا بما يريد، يدل علىٰ الكمال في أشياء كثيرة، وهي معروفة في مباحث الأسماء والصفات.

وأسماء الله الحسنىٰ تنقسم باعتبارات من جهة المعنىٰ، قال طائفة من أهل العلم: إن منها أسماء الجمال، وأسماء الجمال لله -جل جلاله- هي الأسماء المشتملة علىٰ حسن في الذات، أو حسن في المعنىٰ، وبرٌّ بالعباد والمخلوقين، فيكون من أسماء الجمال صفات الذات، واسم الله الجميل، ويكون من أسماء الجمال: البر، والرحيم، والودود، والمحسن، وما أشبه ذلك. ومن أسماء الله ما هو من الجلال، فيقال: هذه أسماء الجلال، وأسماء الجلال لله هي: التي فيها ما يدل العباد علىٰ جلال الله وعظمته وعزته -جل وعلا- وجلاله حتىٰ يُجلّ، من مثل: القهار، والجبار، والقدير والعزيز، ونحو ذلك، فهذه أسماء الجلال، وهناك أسماء في تقسيمات مختلفة، تطلب من كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أو من كلام الشراح، فإن المقصود هو أن العبد المؤمن الموحد ينبغي أن يتعرف إلىٰ الله -جل وعلا- بأسمائه وصفاته، ولا تتم حقيقة التوحيد في قلب العبد حتىٰ يعلم بأسماء الله -جل وعلا- ويعلم صفات الله -جل وعلا- فإن العلم بها تتم به حقيقة التوحيد.

والعلم بها علىٰ مراتب، منها: أن يعلمها إثباتًا، يعني: أن يثبت ما أثبت الله لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ ، فيؤمن أن هذا الاسم من أسماء الله، وأن هذه الصفة من صفات الله جل وعلا.

والثاني: أن يسأل الله -جل وعلا- بأسمائه وصفاته بما يوافق مطلوبه؛ لأن الأسماء والصفات نتعبد لله -جل وعلا- بها، بأن ندعوه بها كما جاء في هذه الآية، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

والثالث من الإيمان بالأسماء والصفات: أن ينظر إلىٰ آثار أسماء الله وصفاته في الملكوت، فإذا نظر إلىٰ آثار الأسماء والصفات في الملكوت وتأمل ذلك علم أن كل شيء ما خلا الله باطل، وأن الحقيقة أن الحق الثابت اللازم هو الله -جل وعلا- وأما ماسوىٰ الله فهو باطل، وزائل، وآيل إلىٰ الهلاك ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨] .

❁ **قوله:** «﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴾»:

اللام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ هي لام الاستحقاق، يعني: الأسماء الحسنىٰ البالغة في الحسن نهايته مستحقة لله -جل وعلا- والله مستحق ذلك.

﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ يعني: إذا علمتم أن الله هو المستحق لذلك وآمنتم به، فادعوه بها، وهذا أمر، والدعاء هنا فسّر بالثناء والعبادة، وفسّر بالسؤال والطلب، وكلاهما صحيح، فإننا ندعو الله بها، أي: نحمده ونثني

عليه بها، فنعبده متوسلين إليه بالأسماء الحسنىٰ، وما اشتملت عليه من الصفات العلىٰ، وكذلك أن نسأله بها، يعني: إذا كان لنا مطلوب نتوجه إلىٰ الله فنسأله بتلك الأسماء بما يوافق المطلوب، فإذا سألنا الله المغفرة نأتي بصفات الجمال، وإذا سألنا الله -جل وعلا- النصرة نأتي بصفات الجلال، وهكذا فيما يناسب، وهناك تفصيلات أيضًا لهذا الأمر.

والمقصود أن قوله جل وعلا: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ يعني: اسألوه بها، أو اعبدوه، وأثنوا عليه بها -جل وعلا- فيشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

والباء في قوله: ﴿بِهَا﴾ هي باء الوسيلة، أي: ادعوه متوسلين بها.

«قوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾»: ﴿وَذَرُواْ﴾ يعني: اتركوا، وهذا يوجب علىٰ المسلم أن يبتعد عن حال الذين يلحدون في أسماء الله -جل وعلا- والإلحاد في أسماء الله هو الميل والعدول بها عن حقائقها إلىٰ ما لا يليق بالله جل وعلا.

وهذا الإلحاد في أسماء الله وصفاته مراتب منها: أن يُسمِّي البشر المعبودين بأسماء الله، كما سموا اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز، ونحو ذلك.

ومن الإلحاد في أسماء الله: أن يُجعل لله -جل وعلا- ولد، وأن يُضاف المخلوق إليه إضافة الولد إلىٰ والده كحال النصارىٰ.

ومن الإلحاد: إنكار الأسماء والصفات، أو إنكار بعض ذلك، كما فعلت الجهمية الغلاة، فإنهم لا يؤمنون باسم من أسماء الله، ولا بصفة من صفات الله إلا الوجود والموجود؛ لأن هذه الصفة هي التي يستقيم معها برهانهم بحلول الأعراض في الأجسام، ودليل ذلك علىٰ الوحدانية كما هو معروف في موضعه.

ومن الإلحاد أيضًا والميل بها عن الحق الثابت الذي يجب لله -جل وعلا- فيها: أن تؤول وتُصرف عن ظاهرها إلىٰ معانٍ لا يجوز أن تصرف إليها، فيكون ذلك من التأويل، والواجب الإيمان بالأسماء والصفات وإثباتها، واعتقاد ما دلت عليه، وترك التعرض لها بتأويل ونحوه، وهذه قاعدة السلف فنؤمن بها ولا نصرفها عن حقائقها بتأويل أو مجاز أو نحو ذلك، كما فعل المعتزلة، وفعلته الأشاعرة، والماتريدية وطوائف، كل هذا نوع من أنواع الإلحاد.

وإذا تقرر ذلك علم أن الإلحاد منه ما هو كفر، ومنه ما هو بدعة بحسب ما ذكرنا، فالحال الأخيرة -وهي التأويل، ودعاء المجاز في الأسماء والصفات- بدعة وإلحاد لا يصل بأصحابه إلىٰ الكفر، أما نفي وإنكار وجحد الأسماء والصفات، فهذا كفر كحال الجهمية، والنصارىٰ ومشركي العرب.

❁ **قوله: «ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: يشركون...»:**

يعني: يجعلون اللات من الإله، فينادون اللات، وعندهم أنهم نادوا الإله، فصار شركًا.

«وعنه: سمّوا اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز، وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها»:

وهذه مرتبة من مراتب الإلحاد في أسمائه؛ لأن الله -جل وعلا- له الأسماء الحسنىٰ، فمن أدخل اسمًا لم يثبت في الكتاب والسنة أنه من أسماء الله فقد ألحد؛ لأنه مال وعدل عن الحق الذي يجب في الأسماء والصفات إلىٰ غيره، والحق هو أن تثبت لله ما أثبته لنفسه، إذ لا أحد أعلم بالله من الله -جل جلاله وتعاظم شأنه- وكذلك لا أحد أعلم من الخلق بالله -جل وعلا- من رسوله الخاتم محمد ﷺ، فمن أدخل فيها ما ليس منها فقد ألحد، كمن قال: إن من أسماء الله: الماكر، والمستهزئ، والصانع، وجعل ذلك من الأسماء الحسنىٰ، فإن هذا لا يجوز، ومنها ما يجوز بتقييد في باب الإخبار، ومباحث هذا الباب طويلة لاتصالها بالأسماء والصفات وهي معروفة في مبحث توحيد الأسماء والصفات.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء، أي لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ﴾.

الثانية: كونها حسنى أي لقوله: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

الثالثة: الأمر بدعائه فيها، أي لقوله ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين، أي لقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها، أي: الميل بها عن الصواب كتسميته بها لم يسم به نفسه واشتقاق أسماء المعبودات من أسمائه وتشبيهه بخلقه، وجحد ما وصف وسمى به نفسه وغير ذلك.

السادسة: وعيد من ألحد، أي لقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠].

* الأسئلة *

قوله: «قول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴾».

س: اشرح هذه الآية وبين مناسبتها لكتاب التوحيد؟

جـ: أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن له أسماء وأنها حسنىٰ؛ أي: قد بلغت الغاية في الحسن فلا أحسن منها ولا أكمل وأمرنا أن ندعوه بها؛ أي: نثني عليه ونسأله بها. وأمرنا أن نترك من عارض من الجاهلين الملحدين وأن لا نعدل بأسمائه وحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت أو أن نُدْخِل فيها ما ليس منها.

ثم توعد الملحدين في أسمائه بأنه سيجازيهم في الآخرة ويعذبهم بما عملوا.

ومناسبة الآية لكتاب التوحيد:

أن الإلحاد في أسماء الله ونفيها وتعطيلها ينافي التوحيد والإيمان.

س: بين مقصود المؤلف بهذا الباب؟

جـ: مقصوده الرد علىٰ من يتوسل بالأموات وأن المشروع هو التوسل بأسماء الله وصفاته والأعمال الصالحة.

س: ما هو الإلحاد، وما معنى الإلحاد في أسماء الله، واذكر أنواعه مع التمثيل لها؟

جـ: الإلحاد هو العدول عن القصد والميل والانحراف ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلىٰ جهة القبلة.

ومعنىٰ الإلحاد في أسماء الله العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت وهو أنواع:

١ - تسمية الأصنام بها كما يفعله المشركون حيث سموا اللات من الإله والعزىٰ من العزيز ومناة من المنان.

٢ - تسميته تعالىٰ بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارىٰ له أبًا.

٣ - وصفه تعالىٰ بالنقائص كقول اليهود إن الله فقير. وقولهم إنه استراح، وقولهم يد الله مغلوله.

٤ - تعطيل الأسماء الحسنىٰ عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية في أسماء الله أنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني فيقولون في السميع البصير مثلًا سميع بلا سمع بصير بلا بصر ونحو ذلك تعالىٰ الله عن قولهم.

٥ - تشبيه صفاته تعالىٰ بصفات خلقه كما يفعله المشبه فيقولون له وجه كوجهي ويد كيدي، تعالىٰ الله عن قول الملحدين علوًّا كبيرًا.

س: اذكر مذهب أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته؟

جـ: مذهبهم في ذلك الإيمان بأسماء الله وصفاته التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله وإثباتها علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ:١١].

س: ما مثال الأسماء الحسنى؟

جـ: الرحمن الرحيم، السمع البصير، العزيز الحكيم، الحليم العظيم، العلي الكبير، الحي القيوم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين إسمًا من احصاها دخل الجنة**»[٥٠٩] رواه البخاري ومسلم.

س: ما معنى إحصائها؟ وهل هي منحصرة في هذا العدد مع ذكر الدليل؟

جـ: لإحصائها ثلاث مراتب:

١ - إحصاء ألفاظها وعددها.

٢ - فهم معانيها ومدلولها.

٣ - دعاء الله بها دعاء عبادة وثناء ودعاء مسألة وطلب.

وهي غير منحصرة في هذا العدد بدليل قوله ﷺ: «**أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[٥١٠] فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سما به نفسه فأظهره لمن شاء من خلقه، وقسم أنزل به كتابه، وتعرف به إلىٰ عباده، وقسم استأثر به في علم غيبه فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه.

---

(٥٠٩) سبق تخريجه.

(٥١٠) سبق تخريجه.

س: ما كيفية سؤال الله بأسمائه الحسنى؟

جـ: يسأل لكل مطلوب بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله. فمن سأل الله العلم سأله باسمه العليم، ومن سأله الرزق سأله باسمه الرزاق، تقول يا عليم علمني، يا رزاق ارزقني، يا رحمن ارحمني، وهكذا بقية الأسماء الحسنىٰ.

س: كم أركان الإيمان بالأسماء الحسنى وما هي؟

جـ: ثلاثة: الإيمان بالاسم وبما دل عليه من المعنىٰ وبما تعلق به من الآثار؛ فنؤمن بأنه عليم ذو علم عظيم يعلم كل شيء، رحيم ذو رحمة اتصف بها ورحمته وسعت كل شيء، قدير ذو قدرة عظيمة ويقدر علىٰ كل شيء، وهكذا بقية الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا لربنا تبارك وتعالىٰ.

والله سبحانه وتعالىٰ اعلم.



الدرس الثاني والخمسون:

باب لا يقال: السلام على الله

في «الصحيح» عن ابن مسعودﷺ، قال: «كنا إذا كنا مع النبي[٥١١]ﷺ [في الصلاة][٥١٢]، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان. فقال النبيﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام»[٥١٣].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

الثانية: أنه تحية.

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

الرابعة: العلة في ذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ قوله: «باب لا يقال السلام على الله»:

لما كان حقيقة لفظ «السلام» السلامة والبراءة والخلاص والنجاة من الشرور والعيوب، فإذا قال المسلم: السلام عليكم، فهو دعاء للمسلم عليه، وطلب له أن يسلم من الشر كله، ومرجع السلامة إلى حظ العبد مما يطلبه من السلامة من الآفات والمهالك، والله هو المطلوب منه، لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، وهو الغني له ما في السماوات وما في الأرض، وهو السالم من كل تمثيل ونقص، وكل سلامة ورحمة له ومنه، وهو مالكها ومعطيها، استحال أن يسلم عليه سبحانه، بل هو المسلم على عباده، فهو السلام ومنه السلام، لا إله غيره. ولا رب سواه.

---

(٥١١) عند ابن قاسم والفوزان: «رسول الله».

(٥١٢) سقط من نسخة ابن باز.

(٥١٣) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، برقم (٨٣٥)، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: التشهد في الصلاة، برقم (٤٠٢) وغيرهما من حديث ابن مسعودﷺ.

❁ **قوله: «كنا إذا كنا مع رسول الله ﷺ في الصلاة، قلنا: السلام علىٰ الله من عباده»:**

أي: يقولون ذلك في التشهد بألفاظ، منها: كنا نقول قبل أن يفرض علينا التشهد: السلام علىٰ الله من عباده[٥١٤]، وفي رواية: قبل عباده[٥١٥]. وكذا رواه مسلم وأهل السنن وغيرهم.

قوله: **«السلام علىٰ فلان وفلان»**: وفي رواية يعنون الملائكة. وفي رواية: فنعد من الملائكة ما شاء الله. وفي رواية: علىٰ جبرائيل وميكائيل، وفلان وفلان.

قوله: **«فقال النبي ﷺ: لاتقولوا السلام علىٰ الله؛ فإن الله هو السلام»**: وفي رواية: **«ومنه السلام»**. وكان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة استغفر ثلاثاً. وقال: **«اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»**[٥١٦]. وفيه **«إن هذه تحية أهل الجنة ربهم تبارك وتعالىٰ»**. وقد قال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] وقوله: «فإن الله هو السلام»؛ أي: إن الله سالم من كل نقص ومن كل تمثيل؛ فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص، قال ابن القيم: السلام مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء، يتضمن الإنشاء والإخبار؛ فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الإنشائية، وهو معنىٰ السلام المطلوب عند التحية، وفيه قولان:

الأول: السلام هنا هو الله عز وجل، ومعنىٰ الكلام: نزلت بركته عليكم، ونحو ذلك، فاختير في هذا المعنىٰ من أسمائه ﷻ اسم السلام دون غيره من الأسماء.

الثاني: السلام مصدر بمعنىٰ السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية، قال: وفصل الخطاب أن يقال: الحق في مجموع القولين، فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما، وإنما يتبين بقاعدة: وهي أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنىٰ أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضي ذلك المطلوب، المناسب لحصوله حتىٰ إن الداعي مستشفع إلىٰ الله متوسل به إليه، والمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل، أتىٰ في طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالىٰ، وهو السلام الذي تطلب منه السلامة، فتضمن معنيين أحدهما ذكر الله، والثاني طلب السلامة، وهو مقصود المسلم.

---

(٥١٤) أخرجه، النسائي، كتاب: صفة الصلاة، باب: إيجاب التشهد، برقم (١٢٧٧)، والدارقطني، برقم (٤)، والبيهقي(٢/ ١٣٨) وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «إرواء الغليل»، (٢/ ٢٤)، وقال وأصله في «الصحيحين»، دون قوله: «قبل أن يفرض».

(٥١٥) أخرجه البخاري، كتاب: الاستئذان، باب: السلام اسم من أسماء الله تعالىٰ، برقم (٦٢٣٠) واللفظ له، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: التشهد في الصلاة، برقم (٤٠٢) وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥١٦) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة...، برقم (٥٩٢) وابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما يقال بعد التسليم، برقم (٩٢٤) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «**لا يقال: السلام على الله**»:

وقد بين ﷺ هذا المعنى بقوله: «**فإن الله هو السلام**» فهو تعالى السلام السالم، من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من خلقه له، وهو المسلم لعباده من الآفات والبليات؛ فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه في جميع أحوالهم، وهو الغني الحميد.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «**لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام**»:

السلام له معنيان:

١- أي: هو السالم من كل نقص وعيب؛ فله الكمال المطلق من جميع الوجوه في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

٢- المسلم لعباده؛ أي: الذي يعطي السلام، فلا يقال السلام على الله: لأن هذا دعاء، والله غني عن أحد، وليس بحاجة إلى دعاء الناس، وإنما المشروع هو تعظيمه وتقديسه والإيمان بأنه موصوف بصفات الكمال وأنه المحسن والضار.

ويقال للمخلوق: السلام عليه؛ لأنه محتاج إلى العافية والدعاء.

مسألة: لو قال: «لولا الرسول ما اهتدينا» وأراد دعوة الرسول لا بأس، والأفضل أن يقول: لولا الله ثم دعوة الرسول.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «**باب: لا يقال: السلام على الله**»:

هذه الترجمة أتى بها المؤلف بصيغة النفي، وهو محتمل للكراهة والتحريم، لكن استدلاله بالحديث يقتضي أنه للتحريم وهو كذلك.

والسلام له عدة معان:

١- التحية؛ كما قال: سلم على فلان؛ أي: حيَّاه بالسلام.

٢- السلامة من النقص والآفات؛ كقولنا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

٣- السلام: اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾[الحشر:٢٣].

قوله: «**لا يقال السلام على الله**»؛ أي: لا تقل: السلام عليك يا رب؛ لما يلي:

أ- أن مثل هذا الدعاء يُوهم النقص في حقه، فتدعو الله أن يسلم نفسه من ذلك؛ إذ لا يُدعي لشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلًا أن يتصف به، والله - سبحانه - منزه عن صفات النقص.

ب - إذا دعوت الله أن يسلم نفسه؛ فقد خالفت الحقيقة؛ لأن الله يُدعىٰ ولا يدعىٰ له، فهو غني عنا، لكن يثنىٰ عليه بصفات الكمال مثل غفور، سميع، عليم ...

ومناسبة الباب لتوحيد الصفات ظاهرة؛ لأن صفاته عليا كاملة كما أن أسماءه حسنىٰ، والدليل علىٰ أن صفاته عليا قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾[النحل:٦٠] وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الروم:٢٧].

والمثل الأعلىٰ: الوصف الأكمل، فإذا قلنا: السلام علىٰ الله أوهم ذلك أن الله - سبحانه - قد يلحقة النقص، وهذا ينافي كمال صفاته.

ومناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة؛ لأن موضوع الباب الذي قبله إثبات الأسماء الحسنىٰ لله المتضمنة لصفاته، وموضوع هذا الباب سلامة صفاته من كل نقص، وهذا يتضمن كمالها؛ إذ لا يتم الكمال إلا بإثبات صفات الكمال ونفي ما يضادها، فإنك لو قلت: زيد فاضل أثبت له الفضل، وجاز أن يلحقه نقص، وإذا قلت: زيد فاضل ولم يسلك شيئًا من طرق السفول؛ فالآن أثبت له الفضل المطلق في هذه الصفة. والرب - سبحانه وتعالىٰ - يتصف بصفات الكمال، ولكنه إذا ذكر ما يضاد تلك الصفة صار ذلك أكمل؛ ولهذا أعقب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الباب السابق بهذا الباب إشارة إلىٰ أن الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ لا يلحقها نقص.

والسلام اسم ثبوتي سلبي.

فسلبي؛ أي: أنه يراد به نفي كل نقص أو عيب يتصوره الذهن أو يتخيله العقل، فلا يلحقه نقص في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

وثبوتي: أي: يراد به ثبوت هذا الاسم له، والصفة التي تضمنها وهي السلامة.

❁ **قوله**: «**في الصحيح**»:

هذا أعم من أن يكون ثابتًا في «الصحيحين»، أو أحدهما، أو غيرها، وانظر: باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، وهذا الحديث المذكور في «الصحيحين».

قوله: «**كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة**»: الغالب أن المعية مع النبي ﷺ في الصلاة لا تكون إلا في الفرائض؛ لأنها هي التي يشرع لها صلاة الجماعة، ومشروعية صلاة الجماعة في غير الفرائض قليلة؛ كالاستسقاء.

قوله: «**قلنا: السلام علىٰ الله من عباده**»؛ أي: يطلبون السلامة لله من الآفات، يسألون الله أن يسلم نفسه من الآفات، أو أن اسم السلام علىٰ الله من عباده؛ لأن قول الإنسان السلام عليكم خبر بمعنىٰ الدعاء، وله معنيان:

١- اسم السلام عليك؛ أي: عليك بركاته باسمه.

٢- السلامة من الله عليك؛ فهو سلام بمعني تسليم، ككلام بمعني تكليم.

قوله: «**السلام علىٰ فلان وفلان**»؛ أي: جبريل وميكائيل، وكلمة فلان يُكنَّىٰ بها عن الشخص، وهي مصروفة؛ لأنها ليست علمًا ولا صفة؛ كصفوان في قوله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾[البقرة:٢٦٤]. وقد جاء في لفظ آخر: «**السلام علىٰ جبريل و ميكال**»(٥١٧) كانوا يقولون هكذا في السلام. فقال النبي ﷺ: «**لا تقولوا: السلام علىٰ الله؛ فإن الله هو السلام**»(٥١٨). وهذا نهي تحريم، والسلام لا يحتاج إلىٰ سلام، هو نفسه ﷻ سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب.

وفيه دليل علىٰ جواز السلام علىٰ الملائكة؛ لأن النبي ﷺ لم ينه عنه، ولأنه عليه الصلاة والسلام لما أخبر عائشة أن جبريل يسلم عليها قالت: «**عليه السلام**»(٥١٩).

❁ **قوله**: «**فيه مسائل**»:

الأولىٰ: **تفسير السلام**: فبالنسبة كونه اسمًا من أسماء الله معناه السالم من كل نقص وعيب، وبالنسبة لكونه تحية له معنيان:

الأول: تقدير مضاف؛ أي: اسم السلام عليك؛ أي: اسم الله الذي هو السلام عليك.

الثاني: أن السلام بمعنىٰ التسليم اسم مصدر كالكلام بمعنىٰ التكليم؛ أي: تخبر خبرًا يراد به الدعاء؛ أي: أسأل الله أن يسلمك تسليمًا.

الثانية: **أنه تحية**: وسبق ذلك.

الثالثة: **أنها لا تصلح لله**: وإذا كانت لا تصلح له كانت حرامًا.

الرابعة: **العلة في ذلك**: وهي أن الله هو السلام، وقد سبق بيانها.

الخامسة: **تعليمهم التحية التي تصلح لله**: وتؤخذ من تكملة الحديث: «**فإذا صلىٰ أحدكم، فليقل: التحيات**(٥٢٠) لله... »، وفيه حسن تعليم الرسول ﷺ من وجهين:

---

(٥١٧) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: التشهد في الآخرة، برقم (٨٣١) واللفظ له، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: التشهد في الصلاة، برقم (٤٠٢) وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥١٨) سبق تخريجه.

(٥١٩) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب من دعا صاحبه فنقص من اسمه حرفًا، برقم (٦٢٠١)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: في فضل عائشة رضي الله عنها، برقم (٢٤٤٧) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥٢٠) سبق تخريجه.

الأول: أنه حينما نهاهم علل النهي.

وفي ذلك فوائد:

١- طمأنينة الإنسان إلى الحكم إذا قرن بالعلة.

٢- بيان سمو الشريعة الإسلامية وأن أوامرها ونواهيها مقرونة بالحكمة؛ لأن العلة حكمة.

٣- القياس على ما شارك الحكم المعلل بتلك العلة.

الثاني: أنه حين نهاهم عن ذلك بين لهم ما يباح لهم؛ فيؤخذ منه أن المتكلم إذا ذكر ما ينهى عنه فليذكر ما يقوم مقامه مما هو مباح، ولهذا شواهد كثيرة من القرآن والسنة سبق شيء منها.

ويستفاد من الحديث:

أنه لايجوز الإقرار على المحرم؛ لقوله: «لا تقولوا: السلام على الله»، وهذا واجب على كل مسلم، ويجب على العلماء بيان الأمور الشرعية لئلا يستمر الناس فيما لا يجوز ويرون أنه جائز، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران:١٨٧].

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «باب لا يقال السلام على الله»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لمَّا كان السلام على الشخص معناه: طلب السلامة له من الشرور، والآفات، امتنع أن يقال السلام على الله؛ لأنَّه هو الغني السالم من كل آفةٍ ونقصٍ، فهو يُدعىٰ ولا يُدعىٰ له، ويطلب منه ولا يطلب له؛ فهذا الباب فيه وجوب تنزيه الله عن الحاجة والنقص ووصفه بالغنى والكمال.

❁ **قوله**: «في الصحيحين»:

أي: الصحيحين.

«قلنا السلام على الله»: أي: في التشهد الأخير، كما في بعض ألفاظ الحديث.

«لا تقولوا السلام على الله»: هذا نهي منه ﷺ عن التسليم على الله.

«فإن الله هو السلام»: تعليل للنهي، بأنَّ السلام من أسمائه سبحانه، فهو غني أن يسلم عليه.

المعنى الإجمالي للحديث:

يخبر ابن مسعود رضي الله عنه أنَّهم كانوا يسلمون على الله، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، وبيَّن لهم أنَّ ذلك لا يليق بالله؛ لأنه هو السلام ومنه السلام، فلا يليق به أن يسلم عليه، بل هو الذي يسلم على عباده ويسلمهم من الآفات.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي عن أن يقال: السلام علىٰ الله.

ما يستفاد من الحديث:

١- النهي عن السلام علىٰ الله.

٢- أنَّ السلام من أسمائه سبحانه.

٣- تعليم الجاهل.

٤- قرن الحكم بعلته.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب لا يقال السلام علىٰ الله»:**

مناسبة هذا الباب للباب الذي قبله: أن ترك قول السلام علىٰ الله هو من تعظيم الأسماء الحسنىٰ، ومن العلم بها، ذلك أن السلام هو الله -جل جلاله- والسلام من أسمائه سبحانه وتعالىٰ، فهو المتصف بالسلامة الكاملة من كل نقص وعيب، وهو المنزه والمبعد عن كل آفة ونقص وعيب، فله الكمال المطلق في ذاته، وصفاته الذاتية، وصفاته الفعلية -جل وعلا-.

والسلام في أسماء الله معناه أيضًا: الذي يعطي السلامة ويرزقها، وأثر هذا الاسم في ملكوت الله أن كل سلامة في ملكوت الله من كل شر يؤذي الخلق، فإنها من آثار هذا الاسم، فإنه لكون الله -جل وعلا- هو السلام فإنه يفيض السلامة علىٰ عباده.

إذا كان كذلك فالله -جل جلاله- هو الذي يفيض السلام، وليس العباد هم الذين يعطون الله السلامة فإن الله -جل وعلا- هو الغني عن خلقه بالذات، والعباد فقراء بالذات، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر:١٥]، فالعبد هو الذي يُعطىٰ السلامة، والله -جل وعلا- هو الذي يسلّم، ولهذا كان من الأدب الواجب في جناب الربوبية وأسماء الله وصفاته ألَّا يُقال: السلام علىٰ الله، بل يقال: السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين، السلام علىٰ فلان وفلان، السلام عليك يا فلان، ونحو ذلك، فتدعو له بأن يبارك باسم الله (السلام) أو أن تحل عليه السلامة.

فظهر بهذا أن وجه مناسبة هذا الباب للذي قبله ظاهرة. وأما مناسبته لكتاب التوحيد فهي أن الأدب مع أسماء الله -جل وعلا- وصفاته ألا يُخاطب بهذا الخطاب، وألَّا يقال: السلام علىٰ الله؛ لأن في هذا نقصًا في تحقيق التوحيد، فتحقيق التوحيد الواجب ألا تقال هذه الكلمة؛ لأن الله غني عن عباده، والفقراء هم الذين يحتاجون إلىٰ السلام.

۞ **قوله: «في الصحيح عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان...»:**

وإنما كانوا يقولون هذا مع كونهم موحدين عالمين بحق الله -جل وعلا- ظنًا أنها تحية لا تحوي ذلك المعنى، فجعلوها من باب التحية، والتحية في هذه الشريعة مرتبة بالمعنى، فالسلام على الله من عباده كأنهم قالوا: تحية لله من عباده، وهذا المعنى -وإن كان صحيحًا من حيث القصد- لكنه ليس بصحيح من حيث اللفظ؛ لأن هذا اللفظ لا يجوز من جهة أن الله -جل وعلا- هو السلام كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، والعباد مسلَّمون، أي: يسلمهم الله -جل وعلا- ويفيض عليهم السلامة وهم الفقراء المحتاجون، فليسوا هم الذين يعطون الله السلام، فمعنى: السلام على الله، يعني: السلامة تكون على الله من عباده، وهذا لا شك أنه باطل وإساءة في الأدب مع ما يجب لله -جل وعلا- في ربوبيته وأسمائه وصفاته.

لهذا قال لهم النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام**» وهذا النهي للتحريم، فلا يجوز لأحد أن يقول: السلام على الله؛ لأن السلام على الله مقتضٍ لانتقاص جناب الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

إذا كان كذلك، فما معنى قولك حين تسلم على أحد: السلام عليك يا فلان، أو السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؟ وهي تحية المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾[الأحزاب: ٤٤].
قال بعض أهل العلم: إن معناها: كل اسم لله -جل وعلا- عليكم، يعني اسم السلام عليكم، فيكون ذلك تبركًا بأسماء الله -جل وعلا- وبصفاته، فاسم السلام عليكم، يعني اسم الله عليكم، فيكون ذلك تبركًا بكل الأسماء ومنها اسم الله -جل وعلا- السلام، وهذا أحد المعنيين.

والثاني: ما قاله آخرون من أهل العلم: أن قول القائل: السلام عليكم ورحمة الله، يعني: السلامة التي اشتمل عليها اسم (السلام) عليكم، نسأل الله أن يفيضها عليكم، أو أن يكون المعنى: كل سلامة عليكم مني، فإنك لن تجد مني إلا السلامة، وهذا يصدق حين تُنكر، فتقول: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يعني: كل سلامة مني ستأتيك، فلن أخفرك في عرضك، ولن أخفرك في مالك، ولن أخفرك في نفسك، وكثير من المسلمين يقول هذه الكلمة، وهو لا يعي معناها؛ لأنه حين قال لمن أتاه: السلام عليكم، كأنه عاهده بأنه لن يأتيه منه إلا السلامة، ثم هو يخفر هذه الذمة، وربما أضره، أو تناول عرضه، أو تناول ماله، أو نحو ذلك.

فهذه فيه التنبيه على فائدة مهمة، وهي أنه ينبغي لكل طالب للعلم، بل كل عاقل بعامة إذا نطق بكلام أن يتبين ما معنى هذا الكلام، فكونه يستعمل كلامًا لا يعي معناه، هذا من العيب، إذ ليس من أخلاق الرجال أصلًا أن يتكلموا بكلام لا يعون معناه، فيأتي بكلام ثم ينقضه في فعله أو في قوله، هذا ليس من أفعال الذين يعقلون، فضلًا عن أن يكون من أفعال أهل العلم، أو طلبة العلم الذين يعون عن الله -جل وعلا- شرعه ودينه.

والصواب أن قول القائل: السلام عليكم، يشمل المعنيين الأول والثاني، فهو تبرك بكل اسم من أسماء الله، وتبرك باسم الله (السلام) الذي من آثاره السلامة عليك في دينك ودنياك، فهو دعاء لك بالسلامة في الدين، وفي الدنيا، وفي الأعضاء، والصفات، والجوارح، إلى آخر ذلك.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير السلام، أي: إنه السالم من الآفات والنقائص والعيوب، أو بمعنىٰ: الذي سلم عباده من أن يظلمهم.

الثانية: أنه تحية، أي لقوله: كنا نقول السلام علىٰ الله السلام علىٰ فلان.

الثالثة: أنها لا تصلح لله، أي لقوله: «**لا تقولوا السلام علىٰ الله**».

الرابعة: العلة في ذلك، أي: لأن الله هو السلام فلا حاجة إلىٰ أن يدعىٰ له بذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله، أي: قوله: « **التحيات لله**»... إلخ.



* الأسئلة *

س: ما منسابة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن اسم السلام لا يصلح إلا لله فمن سمىٰ به غير الله فقد أتىٰ بما يناقض التوحيد وينافيه.

قوله: «في «الصحيح» عن ابن مسعودﷺ قال: كنا إذا كنا مع النبيﷺ في الصلاة...».

س: اشرح هذا الحديث مبينًا معنى السلام المطلوب عند التحية في قول المسلم السلام عليكم؟

جـ: كان الصحابةﷺ في أول الإسلام يقولون في الصلاة قبل أن يفرض عليهم التشهد السلام علىٰ الله من عباده، السلام علىٰ جبريل وميكائيل، فنهاهم النبيﷺ عن ذلك، لأن السلام دعاء بالسلامة والله تعالىٰ هو المدعو وهو السلام أي: السالم من كل عيب ونقص وعن مماثلة احد من خلقه.

وهو المسلِّم لعباده من الآفات والبليات، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه المحتاجون إليه في جميع أحوالهم وهو الغني الحميد.

ومعنىٰ السلام المطلوب عند التحية اسم من أسماء الله وطلب السلامة منه فمعنىٰ السلام عليكم؛ أي: نزلت سلامة الله عليكم وحلت بكم.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



الدرس الثالث والخمسون:

باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في «الصحيح» عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكره له»(٥٢١).

ولمسلم: «وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»(٥٢٢).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

الثانية: بيان العلة في ذلك

الثالثة: قوله: «ليعزم المسألة».

الرابعة: إعظام الرغبة.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله:** «باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت»:

أي: أنه لا يجوز، لأنه يدل على فتور الرغبة، وقلة الاهتمام بالمطلوب، وينبئ عن قلة اكتراثه بذنوبه ورحمة ربه، وذلك مضاد للتوحيد.

❁ **قوله:** «ليعزم المسألة»:

أي ليجزم في مسألته، وليحقق رغبته، ويتيقن الإجابة؛ فإنه إذا فعل ذلك دل على علمه بعظيم ما يطلب من المغفرة والرحمة، قال القرطبي: نهى عن هذا القول؛ لأنه يدل على فتور الرغبة وقلة الاهتمام بالمطلوب، فإن هذا القول يتضمن أن هذا المطلوب إن حصل وإلا استغنى عنه، ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حالته الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدعاء، ودليل

---

(٥٢١) أخرجه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، برقم (٦٣٣٩)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، برقم (٢٦٧٨) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥٢٢) أخرجه البخاري، في «الأدب المفرد»، برقم (٦٠٧)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، برقم (٨/ ٢٦٧٩) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

علىٰ قلة معرفته بذنوبه وبرحمة ربه، وأيضا فإنه لا يكون موقنا بالإجابة، وفي الحديث: «ادعوا وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل»[٥٢٣].

❁ **قوله: «فإن الله لامكره له»:**

ولفظ مسلم «ليعزم علىٰ المسألة في الدعاء، فإن الله صانع ما شاء لا مكره له»[٥٢٤]؛ أي: لا فائدة في تقييده الاستغفار والرحمة بالمشيئة؛ فإن الله لا يضطره دعاء ولا غيره إلىٰ فعل شيء، بل يفعل ما يريد بخلاف العبد، فإنه قد يعطي السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره، فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول مسألته علىٰ مشيئة المسئول، مخافة أن يعطيه وهو كاره بخلاف رب العالمين؛ فإنه لا يليق به أن يعلق مسألته له بشيء، لسعة فضله وإحسانه وكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وليعزم المسألة؛ فإنه لا يعطي عبده شيئًا عن كراهة، ولا عن عظم مسألة، بل إعطاؤه دائم مستمر، يجود بالنوال قبل السؤال،: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل:٥٣] وقد يمنع لحكمة، فهو أعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخره لوقته المقدر، أو ليعطيه أكثر، فتبارك الله رب العالمين.

❁ **قوله: «وليعظم الرغبة»:**

بتشديد الظاء؛ أي: الطلبة والحاجة التي يريد في سؤاله ربه، فإنه سبحانه يعطي العظائم كرمًا وجودًا وإحسانًا، وليلح في السؤال، فإن الله يحب الملحين في الدعاء.

❁ **قوله: «فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»:**

يقال: تعاظم زيد هذا الأمر؛ أي: كبر عليه وعسر؛ أي: ليس شيء عند الله بعظيم، وإن عظم في نفس المخلوق لكمال فضله وجوده؛ فإن إعطاءه كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢].

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت»:**

الأمور كلها وإن كانت بمشيئة الله وإرادته، فالمطالب الدينية: كسؤال الرحمة المغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة علىٰ الدين: كسؤال العافية والرزق وتوابع ذلك، قد أمر العبد أن يسألها من ربه طالبًا ملحًّا جازمًا، وهذا الطلب عين العبودية ومخها.

---

(٥٢٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: (٦٦)، برقم (٣٤٧٩)، والحاكم، برقم(١٨١٧)، والطبراني في «الأوسط»، برقم(٥١٠٩) وغيرهم من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٥٢٤) تقدم تخريجه.

ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم، الذي ليس فيه تعليق بالمشيئة؛ لأنه مأمور به، وهو خير محض لا ضرر فيه، والله تعالىٰ لا يتعاظمه شيء.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعينة التي لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد. فالعبد يسأل ربه ويعلقه، علىٰ اختيار ربه له أصلح الأمرين، كالدعاء المأثور «**اللهم احيني إذا كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي**»(٥٢٥) وكدعاء الاستخارة(٥٢٦).

فافهم هذا الفرق اللطيف البديع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها، وأن الداعي يجزم بطلبها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التي لا يدري العبد عن عواقبها، ولا رجحان نفعها علىٰ ضررها. فالداعي يعلقها علىٰ اختيار ربه الذي أحاط بكل شيء علمًا وقدرةً ورحمةً ولطفًا.

قال العلامة ابن باز:

۞ **قوله: «باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت»:**

أراد المؤلف بهذا أن يبين أنه من كمال الإيمان وكمال التوحيد: العزم علىٰ المسألة وعدم التردد وأن المؤمن إذا دعا ربه فليعزم ولا يتردد فإن جود الله عظيم وهو الغني الحميد فلا يليق بالمؤمن أن يستثني في سؤاله، وإنما يستثني في سؤال المخلوق؛ لأنه قد يعجز أو يمتنع، أما الرب فهو الغني القادر.

۞ **قوله: «في الصحيح عن أبي هريرة مرفوعًا: لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي...»(٥٢٧):**

فلا يليق بالعبد أن يسأله بالاستثناء؛ لأنه كأنه يكون غير مضطر ولا محتاج إلىٰ هذا السؤال. الواجب العزم فإن الله لا مكره له وليس بعاجز.

۞ **قوله: «ولمسلم: وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»:**

بل هو الله تعالىٰ العظيم الشأن الغني الحميد وكل شيء يعطيه عباده؛ فهي عنده قليلة يسيرة وإن أعطاهم شيئًا عظيمًا سبحانه وتعالىٰ.

فعلىٰ المؤمن أن يكون شديد الرغبة فيما عند الله، شديد التعلق بالله، شديد اللجوء إليه والانكسار، وأن يسأله سؤال الراغب المضطر ولا يستثني، وكذلك إذا دعا لإخوانه لا يقول: غفر الله لك إن شاء أو رحمك إن شاء الله. بل يجزم ولا يقول إن شاء الله ولو تبركًا فلا يستثنىٰ أبدًا.

ولا يقول: اللهم اغفر لي ما شئت.

---

(٥٢٥) أخرجه البخاري، كتاب: المرض، باب: نهي تمني المريض الموت، برقم (٥٦٧١)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: تمني كراهة الموت لضر نزل به، برقم (٢٦٨٠) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥٢٦) أخرجه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: الدعاء عند الاستخارة، برقم (٦٣٨٢) وغيره من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥٢٧) سبق تخريجه.

فائدة:

الدبلة ليس لها أصل وهي من أعمال النصارى.

الأحاديث الواردة في سورة الكهف كلها ضعيفة ولكن يشد بعضها بعضًا وقد صح موقوفًا وهذا مما يقوي المرفوع(٥٢٨).

لا يجوز أن يقول: يا رسول الله لو رأيت حال الأمة لأشفقت عليها ولدعوت لها... إلخ.

لأنه ﷺ لا يسمع ولا يرى ما نقول له كما في الحديث: «**إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»(٥٢٩).

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «**باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت**»:

عقد المؤلف هذا الباب لما تضمنه هذا الحديث من كمال سلطان الله وكمال جوده وفضله، وذلك من صفات الكمال.

قوله: «**اللهم!**»: معناه: يا الله! لكن لكثرة الاستعمال حذفت «يا» النداء وعوض عنها الميم، وجعل العوض في الآخر تيمنًا بالابتداء بذكر الله.

قوله: «**اغفر لي**». المغفرة: ستر الذنب مع التجاوز عنه؛ لأنها مشتقة من المغفر، وهو ما يستر به الرأس للوقاية من السهام، وهذا لا يكون إلا بشيء ساتر واقٍ، ويدل له قول الله ﷻ للعبد المؤمن حينما يخلو به ويقرره بذنوبه يوم القيامة: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(٥٣٠).

قوله: «**إن شئت**»؛ أي: إن شئت أن تغفر لي فاغفر، وإن شئت فلا تغفر.

قوله: «**في الصحيح**»:

سبق الكلام على مثل هذه العبارة في كلام المؤلف، والمراد هنا الحديث الصحيح؛ لأن الحديث في «الصحيحين» كليهما.

---

(٥٢٨) منها حديث: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»، أخرجه، الحاكم، برقم(٣٣٩٢)، والبيهقي (٣/ ٢٤٩)، وفي «الشعب» (٢/ ٤٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٦٤٧٠).

(٥٢٩) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، سورة المائدة، باب: قوله تعالى ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، برقم (٤٦٢٥)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٦٠/ ٥٨) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥٣٠) أخرجه البخاري، كتاب: المظالم، باب: قول الله تعالى ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، برقم (٢٤٤١)، ومسلم، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، برقم (٢٧٦٨) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله ﷺ: «**لا يقل أحدكم**»: «لا»: ناهية بدليل جزم الفعل بعدها.

قوله: «**اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني**»: ففي الجملة الأولىٰ: «اغفر لي» النجاة من المكروه، وفي الثانية: «ارحمني» الوصول إلىٰ المطلوب؛ فيكون هذا الدعاء شاملًا لكل ما فيه حصول المطلوب وزوال المكروه.

قوله: «**ليعزم المسألة**»: «اللام» لام الأمر، ومعنىٰ عزم المسألة: أن لا يكون في تردد بل يعزم بدون تردد ولا تعليق.

و«المسألة»: السؤال؛ أي: ليعزم في سؤاله فلا يكون مترددًا بقوله: إن شئت.

قوله: «**فإن الله لا مكره له**»: تعليل للنهي عن قول: «**اللهم اغفر لي إن شئت؛ اللهم! ارحمني إن شئت**»؛ أي: لا أحد يكرهه علىٰ ما يريد فيمنعه منه، أو ما لا يريد فيلزمه بفعله؛ لأن الأمر كله لله وحده.

والمحظور في هذا التعليق من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه يُشعر بأن الله له مكره علىٰ الشيء، وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه، فكأن الداعي بهذه الكيفية يقول: أنا لا أكرهك، إن شئت فاغفر وإن شئت فلا تغفر.

الثاني: أن قول القائل: «إن شئت» كأنه يرىٰ أن هذا أمر عظيم علىٰ الله فقد لا يشاؤه لكونه عظيمًا عنده، ونظير ذلك أن تقول لشخص من الناس- والمثال للصورة بالصورة لا للحقيقة بالحقيقة- أعطني مليون ريال إن شئت، فإنك إذا قلت له ذلك؛ ربما يكون الشيء عظيمًا يتثاقله، فقولك: إن شئت؛ لأجل أن تهون عليه المسألة؛ فالله ﷻ لا يحتاج أن تقول له: إن شئت، لأنه - سبحانه وتعالىٰ - لا يتعاظمه شيء أعطاه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»[٥٣١].

❁ **قوله: «وليعظم الرغبة»:**

أي: ليسأل ما شاء من قليل وكثير ولا يقل: هذا كثير لا أسأل الله إياه؛ ولهذا قال: «**فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»؛ أي: لا يكون الشيء عظيمًا عنده حتىٰ يمنعه ويبخل به - سبحانه وتعالىٰ - كل شيء يعطيه، فإنه ليس عظيمًا عنده؛ فالله ﷻ يبعث الخلق بكلمة واحدة، وهذا أمر عظيم، لكنه يسير عليه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[التغابن:٧] وليس بعظيم، فكل ما يعطيه الله ﷻ لأحد من خلقه فليس بعظيم يتعاظمه؛ أي: لا يكون الشيء عظيمًا عنده حتىٰ لا يعطيه، بل كل شيء عنده هين.

---

(٥٣١) سبق تخريجه.

الثالث: أنه يشعر بأن الطالب مستغنٍ عن الله، كأنه يقول: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل فأنا لا يهمني، ولهذا قال: «وليعظم الرغبة»؛ أي: يسأل برغبة عظيمة، والتعليق ينافي ذلك؛ لأن المعلق للشيء المطلوب يشعر تعليقه بأنه مستغنٍ عنه، والإنسان ينبغي أن يدعوا الله تعالىٰ وهو يشعر أنه مفتقر إليه غاية الافتقار، وأن الله قادر علىٰ أن يعطيه ما سأل، وأن الله ليس يعظم عليه شيء، بل هو هين عليه، إذًا؛ من آداب الدعاء أن لا يدعو بهذه الصيغة، بل يجزم فيقول: اللهم اغفر لي، اللهم! ارحمني، اللهم! وفقني، وما أشبه ذلك، وهل يجزم بالإجابة؟

الجواب: إذا كان الأمر عائدًا إلىٰ قدرة الله، فهذا يجب أن تجزم بأن الله قادر علىٰ ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]. أما من حيث دعائك أنت باعتبار ما عندك من الموانع، أو عدم توافر الأسباب؛ فإنك قد تتردد في الإجابة، ومع ذلك ينبغي أن تحسن الظن بالله؛ لأن الله ﷻ قال ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فالذي وفقك لدعائه أولًا سيمن عليك بالإجابة آخرًا، لا سيما إذا أتىٰ الإنسان بأسباب الإجابة وتجنب الموانع، ومن الموانع الاعتداء في الدعاء، كأن يدعو بإثم أو قطيعة رحم. ومنها أن يدعو بما لا يمكن شرعًا أو قدرًا:

فشرعًا كأن يقول: اللهم اجعلني نبيًّا. وقدرًا بأن يدعو الله تعالىٰ بأن يجمع بين النقيضين، وهذا أمر لا يمكن؛ فالاعتداء بالدعاء مانع من إجابته، وهو محرم، لقوله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف:٥٥]، وهو أشبه ما يكون بالاستهزاء بالله سبحانه.

مناسبة الباب للتوحيد:

من وجهين:

١- من جهة الربوبية، فإن من أتىٰ بها يشعر بأن الله له مكره لم يقم بتمام ربوبيته تعالىٰ؛ لأن من تمام الربوبية أنه لا مكره له، بل إنه لا يسأل عما يفعل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣]. وكذلك فيه نقص من ناحية الربوبية من جهة أخرىٰ، وهو أن الله يتعاظم الأشياء التي يعطيها؛ فكان فيه قدح في جوده وكرمه.

٢- من ناحية العبد؛ فإنه يشعر باستغنائه عن ربه، وهذا نقص في توحيد الإنسان، سواء من جهة الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصفات؛ولهذا ذكره المصنف في الباب الذي يتعلق بالأسماء والصفات.

فإن قلت: ما الجواب عما ورد في دعاء الاستخارة: «**اللهم! إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت**

علام الغيوب، اللهم! إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري؛ فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري؛فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به»[٥٣٢]؟ وكذا ما ورد في الحديث المشهور: «اللهم احيني ما كانت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[٥٣٣].

فالجواب: أنني لم أعلق هذا بالمشيئة، ما قلت: فاقدره لي إن شئت، لكن لا أعلم أن هذا خير لي أو شر والله يعلم؛ فأقول: إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي فاقدره لي؛ فالتعليق فيه لأمر مجهول عندي لا أعلم هل هو خير لي أو لا؟ وكذا بالنسبة للحديث الآخر؛ لأن الإنسان لا يعلم هل طول حياته خير أو شر؟ ولهذا كره أهل العلم أن تقول للشخص: أطال الله بقاءك؛ لأن طول البقاء لا يعلم؛ فقد يكون خيرًا، وقد يكون شرًّا، ولكن يقال: أطال الله بقاءك علىٰ طاعته وما أشبه ذلك حتىٰ يكون الدعاء خيرًا بكل حال، وعلىٰ هذا؛ فلا يكون في حديث الباب معارضة لحديث الاستخارة ولا حديث: «اللهم! أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي»؛ لأن الدعاء مجزوم به وليس معلقًا بالمشيئة، والنهي إنما هو عما كان معلقًا بالمشيئة. لكن لو قال: اللهم! أغفر لي إن أردت وليس إن شئت؛ فالحكم واحد لأن الإرادة هنا كونية، فهي بمعني المشيئة؛ فالخلاف باللفظ لا يعتبر مؤثرًا بالحكم.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: النهي عن الاستثناء في الدعاء: والمراد بالاستثناء هنا الشرط، فإن الشرط يسمَّىٰ استثناء بدليل قوله ﷺ لضباعة بنت الزبير: «**حجي واشترطي؛ فإن لك علىٰ ربك ما استثنيت**»[٥٣٤]، ووجهه أنك إذا قلت: أكرم زيدًا إن أكرمك؛ فهو كقولك: أكرم زيدًا إلا ألا يكرمك؛ فهو بمعني الاستثناء في الحقيقة.

الثانية: بيان العلة في ذلك: وقد سبق أنها ثلاث علل:

١- أنها تشعر بأن الله له مكره، والأمر ليس كذلك.

٢- أنها تشعر بأن هذا أمر عظيم علىٰ الله قد يثقل عليه ويعجز عنه، والأمر ليس كذلك.

٣- أنها تشعر باستغناء الإنسان عن الله، وهذا غير لائق وليس من الأدب.

---

(٥٣٢)سبق تخريجه.

(٥٣٣)سبق تخريجه.

(٥٣٤)أخرجه البخاري، كتاب: النكاح، باب: الأكفاء في الدين، برقم (٥٠٨٩)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه، برقم (١٢٠٧) وغيرهما من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

الثالثة: قوله: «**ليعزم المسألة**»: تفيد أنك إذا سألت فاعزم ولا تتردد.

الرابعة: إعظام الرغبة: لقولهﷺ: «**وليعظم الرغبة**»؛ أي: ليسأل ما بدا فلا شيء عزيز أو ممتنع علىٰ الله.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر: يستفاد من قوله: «**فإن الله لا يتعاظمه شيء أو لا مكره له**» وقوله: «**وليعظم الرغبة**»، وفي هذا حسن تعليم الرسولﷺ إذا ذكر شيئًا قرنه بعلته.

وفي ذكر علة الحكم فوائد:

الأولىٰ: بيان سمو هذه الشريعة، وأنه ما من شيء تحكم به إلا وله علة وحكمة.

الثانية: زيادة طمأنينة الإنسان؛ لأنه إذا فهم العلة مع الحكم اطمأن، ولهذا لما سئلﷺ عن بيع الرطب بالتمر لم يقل حلال أو حرام، بل قال: «**أينقص إذا جف؟**». قالوا: نعم. فنهىٰ عنه[(٥٣٥)].

والرجل الذي قال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود - لم يقلﷺ الولد لك -، بل قال: هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانها؟ قال: حمر. قال: هل فيها من أورق -الأورق: الأشهب الذي بين البياض والسواد- قال: نعم. قال: من أين؟ قال: لعله نزعه عرق، قال: لعل ابنك نزعة عرق[(٥٣٦)]، فاطمأن، وعرف الحكم، وأن هذا هو الواقع؛ فقرن الحكم بالعلة يوجب الطمأنية ومحبة الشريعة والرغبة فيها.

الثالثة: القياس إذا كانت المسألة في الحكم من الأحكام؛ فليحق بها ما شاركها في العلة.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «**باب قول اللهم اغفر لي إن شئت**»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

لما كان قول: «اللهم اغفر لي إن شئت» يدل علىٰ فتور الرغبة، وقلة الاهتمام بالمطلوب، والاستغناء عن الله من ناحية، ويشعر بأن الله تعالىٰ قد يضطره شيء إلىٰ فعل ما يفعل؛ وفي هذين المحذورين مضادة للتوحيد؛ لذلك ناسب عقد هذا الباب في كتاب التوحيد.

«**باب قول اللهم... إلخ**»؛ أي: أنَّه لا يجوز.

---

(٥٣٥) أخرجه أبو داود، كتاب: البيوع، باب: في التمر بالتمر، برقم (٣٣٥٩)، والترمذي، كتاب: البيوع، باب: النهي عن المحاقلة والمزابنة، برقم (١٢٢٥)، والنسائي، كتاب: البيوع، باب: اشتراء التمر بالرطب، برقم (٤٥٤٥) وغيرهم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وصححه الألباني في« صحيح سنن أبي داود».

(٥٣٦) أخرجه البخاري، كتاب: الطلاق، باب: إذا عرض بنفي الولد، برقم (٥٣٠٥)، ومسلم، أوائل كتاب اللعان، برقم (١٥٠٠) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❁ **قوله**: «في الصحيح»:

أي: الصحيحين.

«**ليعزم المسألة**»؛ أي: ليجزم في طلبته ويحقق رغبته ويتيقن الإجابة.

«**لا مكره له**»؛ أي: لا يضطره دعاء ولا غيره إلىٰ فعل شيء.

❁ **قوله**: «وليعظِّم الرغبة»:

بتشديد الظاء أن: يلح في طلب الحاجة.

«**لا يتعاظمه شيء أعطاه**»؛ أي: لا يكبر ولا يعسر عليه.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

ينهىٰ ﷺ عن تعليق طلب المغفرة والرحمة من الله علىٰ المشيئة، ويأمر بعزم الطلب دون تعليق؛ ويعلل ذلك بأنَّ تعليق الطلب من الله علىٰ المشيئة يشعر بأن الله يثقله شيء من حوائج خلقه أو يضطره شيء إلىٰ قضائها، وهذا خلاف الحق؛ فإنه هو الغني الحميد الفعال لما يريد.

كما يشعر ذلك بفتور العبد في الطلب واستغنائه عن ربه؛ وهو لا غنىٰ له عن الله طرفة عين.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي عن تعليق طلب المغفرة من الله بالمشيئة وبيان علة ذلك.

ما يستفاد من الحديث:

١- النهي عن تعليق طلب المطلوب من الله -بمشيئته- والأمر بإطلاق سؤال الله دون تقييد.

٢- تنزيه الله عما لا يليق به، وسعة فضله، وكمال غناه، وكرمه وجوده سبحانه وتعالىٰ.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: «باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت»:

حقيقة التوحيد أن يوّحد العبد ربه -جل وعلا- بتمام الذل والخضوع، والمحبة، وأن يتضرع إلىٰ الله -جل وعلا- ويتذلل إليه بإظهار فقره التام إليه، وأن الله -جل وعلا- هو الغني عما سواه، وقول القائل: «**اللهم اغفر لي إن شئت**» يُفهم منه أنه مستغنٍ عن أن يُغفر له، كما يأتي العزيز أو المتكبر من الناس، فيقول لآخر لا يريد أن يتذلل له: افعل هذا إن شئت، يعني: إن فعلت ذلك فحسن، وإن لم تفعل فلستُ بمُلح عليك، ولست بذي إكرام، فهذا القول منافٍ لحاجةِ الذي قالها إلىٰ الآخر، ولهذا كان فيه عدم تحقيق التوحيد، ومنافاة لما يجب علىٰ العبد في جناب ربوبية الله -

جل وعلا- من أن يُظهر فاقته وحاجته لربه، وأنه لا غنىٰ به عن مغفرة الله، وعن غنىٰ الله، وعن عفوه، وكرمه وإفضاله، ونعمه طرفة عين، فقول القائل: «**اللهم اغفر لي إن شئت**» كأنه يقول: لست محتاجًا، إن شئت فاغفر، وإن لم تشأ فلستُ بمحتاج، وهذا فعل أهل التكبر، وأهل الإعراض عن الله -جل وعلا- ولهذا حرّم هذا اللفظ، وهو أن يقول: اللهم اغفر لي إن شئت، للحديث الذي ساقه المؤلف فقال:

❁ **قوله**: «**في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، ...**»:

قوله: «**ليعزم المسألة**» يعني: ليسأل سؤال عازم، سؤال محتاج، سؤال متذلل، لا سؤال مستغنٍ مستكبر، فليعزم المسألة، وليسأل سؤال جاد محتاج متذلل فقير يحتاج إلىٰ أن يعطىٰ ذلك، والذي إذا سأل، سأل أعظم المسائل، وهي المغفرة والرحمة من الله -جل وعلا- فيجب عليه أن يعظم هذه المسألة، ويعظم الرغبة وأن يعزم المسألة.

قوله: «**فإن الله لا مكره له**» أي: لا أحد يكرهه لتمام غناه، وتمام عزته وقهره وجبروته، وتمام كونهُ مقيتًا سبحانه وتعالىٰ، وهذا من آثار الأسماء والصفات.

ولهذا لا يجوز في الدعاء أن يواجه العبد ربه بهذا القول: «**اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت**» وهذا واضح ظاهر في الدعاء الذي فيه المخاطبة، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن هذا يتقيد بالدعاء الذي فيه خطاب، أما الدعاء الذي ليس فيه خطاب فيكون التعليق بالمشيئة ليس تعليقًا لأجل عدم الحاجة، أو منبئًا عن عدم الحاجة كهذا الدعاء، بل هو للتبرك كمن يقول: رحمه الله إن شاء الله، أو غفر الله له إن شاء الله، أو الله يعطيه من المال كذا وكذا إن شاء الله، ونحو ذلك فهذا قالوا: لا يدخل في هذا النوع؛ لأنه ليس علىٰ وجه الخطاب، وليس علىٰ وجه الاستغناء، ولكن الأدب يقتضي ألا يستعمل هذه العبارة في الدعاء مطلقًا؛ لأنها وإن كانت ليست بمواجهة فإنها داخلة في تعليق الدعاء بالمشيئة، والله -جل وعلا- **لا مكره له**، فعموم المعنىٰ المستفاد من قوله: «**فإن الله لا مكره له**» عموم هذا التعليل يشمل هذا وهذا، فلا شك أن قوله: «**اللهم اغفر لي إن شئت**» أعظم ولكن القول الآخر داخل أيضًا في علة النهي ومعنىٰ النهي، ولهذا لا يسوغ استعماله.

وقول النبي عليه الصلاة والسلام لمن عاده وقد أصابته الحمىٰ -كما رواه البخاري ومسلم وغيرهما-: «**طهور إن شاء الله**» قال: بل هي حمىٰ تفور[٥٣٧]...إلخ كلامه، هذا ليس فيه دعاء، وإنما هو من جهة الخبر، قال: يكون طهورًا **إن شاء الله**، فليس بدعاء، وإنما هو خبر، فافترق عن أصل المسألة.

وقال طائفة من أهل العلم من شراح البخاري: وقد يكون قوله: «**طهور إن شاء الله**» للبركة، فيكون ذلك من جهة التبرك، كقوله -جل وعلا- مخبرًا عن قول يوسف: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[يوسف: ٩٩]، وهم قد دخلوا مصر، وكقوله جل وعلا: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾[الفتح: ٢٧].



(٥٣٧) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٦١٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولم أقف عليه في «صحيح مسلم».

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء، أي لقوله: لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت.

الثانية: بيان العلة، أي: لأن الله لا مكره له.

الثالثة: قوله ليعزم المسألة، أي: يجزم في سؤاله ربه ولا يعلق ذلك على المشيئة.

الرابعة: إعظام الرغبة، أي لقوله: وليعظم الرغبة.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر، أي: لأن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه.



* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن تعليق الدعاء بالمشيئة مما ينافي كمال التوحيد لأنه سوء أدب مع الله حيث أنه يوهم دعوى الاستغناء عن مغفرة الله.

۞ قوله: «في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا يقل أحدكم اللهم...».

س: ما معنى قوله ﷺ ليعزم المسألة؟

جـ: أي: ليجزم في مسألته وليحقق رغبته.

س: ما فائدة قوله ﷺ فإن الله لا مكره له؟

جـ: إظهار لعدم فائدة تقييد الاستغفار والرحمة بالمشيئة فإن الله لا يضطره دعاء ولا غيره إلى فعل شيء بل يفعل ما يريد بخلاف المخلوق فإنه قد يعطي وهو كاره.

س: ما المقصود من قوله وليعظم الرغبة؟

جـ: أي: ليلح في سؤاله لربه حاجته فإنه يعطي العظائم كرمًا وجودًا وإحسانًا.

س: ما معنى قوله: «فإن الله لا تعاظمه شيء من أعطاه»؟

جـ: أي: ليس شيء عنده بعظيم لكمال غناه وإن عظم في نفس المخلوق.

س: لماذا نهى عن تعليق الدعاء بالمشيئة مع أن الأمور كلها لا تكون إلا بمشيئة الله؟

جـ: لأن الدعاء عبودية لله ولا تتم إلا بالطلب الجازم الذي لا تردد فيه.

والله سبحانه وتعالى أعلم.



الدرس الرابع والخمسون:

باب لا يقول: عبدي وأمتي

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضِّئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي، وغلامي»(٥٣٨).

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي عن قول: عبدي وأمتي.

الثانية: لا يقول العبد [لسيده](٥٣٩): ربي، ولا يقال له: أطعم ربك.

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد، حتىٰ في الألفاظ.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب: لايقول: عبدي وأمتي»:
لما في ذلك من إيهام المشاركة في الربوبية.

قوله: «في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يقل ...»:

لأن الإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد لله، منهي عن المضاهاة بهذا الاسم، لما فيه من التشريك في اللفظ، وإن كان يطلق لغة، فالنبي ﷺ نهىٰ عنه تحقيقًا للتوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك،

---

(٥٣٨) أخرجه البخاري، كتاب: العتق، باب: كراهية التطاول علىٰ الرقيق وقوله عبدي وأمتي، برقم (٢٥٥٢)، ومسلم، كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولىٰ والسيد، برقم (٢٢٤٩) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥٣٩) ساقطة من نسخة ابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي.

والله تعالىٰ رب العباد جميعهم، فإذا أطلق علىٰ غيره شاركه في الاسم، فنهىٰ عن ذلك لذلك، وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالىٰ، وإنما المعنىٰ أن هذا مالك له، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار فنهىٰ عنه حسمًا لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقًا للتوحيد، وبعدًا عن الشرك حتىٰ في اللفظ، وأما ما لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجماد فلا يمنع منه، كقوله: رب الدار، ورب الدابة.

❁ **قوله: «وليقل: سيدي ومولاي»:**

لأن مرجع السيادة إلىٰ معنىٰ الرئاسة علىٰ ما تحت يده، ولذلك يسمىٰ الزوج سيدا، قال تعالىٰ: ﴿**وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ**﴾[يوسف:٢٥]. وقال - عليه الصلاة والسلام -: «**إن ابني هذا سيد**»(٥٤٠). والمولىٰ كثير التصرف من ولي وناصر وابن عم وحليف وعتيق، وأصله من ولاية أمره وإصلاحه، فلا يمنع منه أن يوصف به مالك الرقبة، علىٰ أنه جاء في رواية: «**ولا يقل العبد: مولاي**»(٥٤١). والفرق بين الرب والسيد أن الرب من أسماء الله بالاتفاق واختلف في السيد، فإن قيل: ليس من أسمائه تعالىٰ، فواضح، وإلا فليس في الشهرة والاستعمال كلفظ الرب، ويأتي قوله: «السيد الله تبارك وتعالىٰ»(٥٤٢). ولمسلم أيضًا: «**ولا مولاي فمولاكم الله**»(٥٤٣). ولكن قد بَيَّن مسلم الاختلاف فيه عن الأعمش، وأن منهم من حذفها. وقال عياض: حذفها أصح، وقال الشارح: الجمع ممكن بحمل النهي علىٰ الكراهة، أو علىٰ خلاف الأولىٰ. وقال النحاس: لا نعلم بين العلماء خلافًا أنه لا ينبغي لأحد أن يقول لأحد من المخلوقين مولاي، وإن كان مملوكًا، قد حظر ذلك رسول الله ﷺ علىٰ المملوكين، فكيف بالأحرار.

---

(٥٤٠) أخرجه البخاري، كتاب: الصلح، باب: قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما إن ابني هذا سيد، برقم (٢٧٠٤) وغيره من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٥٤١) أخرجه، مسلم، كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: حكم إطلاق لفظ العبد...، برقم(٢٢٤٩/ ١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥٤٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في كراهية التمادح، برقم (٤٨٠٦)، وأحمد (٤/ ٢٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦/ ٧٠) وغيرهم من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٥٤٣) أخرجه، مسلم، كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: حكم إطلاق لفظ العبد...، برقم(٢٢٤٩/ ١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي»؛ لأن هذا الاسم من باب المضاف، ومقتضاه العبودية له، وصاحبه عبد لله متعبد بأمره ونهيه، فإدخال مملوكه تحت هذا الاسم يوهم التشريك؛ لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالىٰ، ولأن فيها تعظيمًا لا يليق بالمخلوق. وعن أبي هريرة مرفوعًا: «لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، ولا يقول المملوك: ربي وربتي، وليقل المالك: فتاي وفتاتي، وليقل المملوك: سيدي وسيدتي؛ فإنكم المملوكون والرب الله عز وجل»(٥٤٤).

رواه أبو داود بإسناد صحيح. والعبيد عبيد الله والإماء إماء الله، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] ففي إطلاق هاتين الكلمتين علىٰ غير الله تشريك في اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيمًا لله وأدبًا معه، وبعدًا عن الشرك، وتحقيقًا للتوحيد.

وقوله: «فتاي وفتاتي وغلامي»؛ لأنها ليست دالة علىٰ الملك كدلالة عبدي وأمتي، وإن كان قد ملكه امتحانًا وابتلاء من الله لخلقه، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾[الفرقان:٢٠]. وقد امتحن الله يوسف بالرق ودانيال حين سباه بختنصر، وله الحكمة البالغة في ذلك، فأرشد - عليه الصلاة والسلام - إلىٰ ما يؤدي المعنىٰ مع السلامة من الإيهام والتعاظم، مع أنها تطلق علىٰ الحر والمملوك، لكن إضافته تدل علىٰ الإخلاص، ومن أحسن مقاصد الشريعة ما نهىٰ عنه من هذه التسمية، لما فيها من رائحة الشرك، وإن كان لفظًا لم يقصد معناه، وما أرشد إليه مما يقوم مقام تلك الألفاظ، حماية لجناب التوحيد، فلا خير إلا دل الأمة عليه خصوصًا في تحقيق التوحيد، ولا شر إلا حذرها عنه خصوصًا ما يقرب من الشرك، فصلوات الله وسلامه عليه، قال المصنف: «وفيه التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتىٰ في الألفاظ».

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «باب لا يقول: عبدي وأمتي»:

وهذا علىٰ وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول عبدي وأمتي إلىٰ فتاي وفتاتي. تحفظًا عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور، ولو علىٰ وجه بعيد. وليس حرامًا؛ وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة، التي لا توهم محذورًا بوجه. فإن الأدب في الألفاظ دليل علىٰ كمال الإخلاص، خصوصًا هذه الألفاظ التي هي أمس بهذا المقام.

---

(٥٤٤) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: لا يقول المملوك ربي وربتي، برقم (٤٩٧٥)، وأحمد (٢/ ٤٢٣)، وأبو يعلىٰ، برقم (٦٥٠٦) وغيرهم من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قال العلامة ابن باز:

۞ **قوله:** «**باب لا يقول: عبدي، وأمتي**»:

هذا الباب مما ينافي كمال التوحيد؛ أي: عندما يخاطب الرجل غلامه أو جاريته فلا يقول: عبدي وأمتي تأدبًا مع الله تعالىٰ، بل يقول: فتاي وفتاتي وغلامي وخادمي ونحو ذلك؛ لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله، فهذا من باب الكمال والتأدب مع الله ﷻ والاعتراف له سبحانه بأنه المالك لكل شيء والمتصرف في كل شيء.

أما إذا قيل: عبد فلان أو إماء فلان فهذا من باب الأخبار؛ وهو أسهل وليس من باب الإضافة إلىٰ النفس.

۞ **قوله:** «**لا يقل أحدكم: أطعم ربك**»:

هذا من باب التأدب أيضًا؛ لأن رب الجميع هو الله، والله تعالىٰ لا يطعم فهو الغني؛ فلا يقال ذلك بإطلاق.

«**بل يقول: سيدي ومولاي وعمي**»؛ لأن هذه عبارات معروفة لا تشتبه بالربوبية، والسيد هو المالك والرئيس هو مالك لهذا الغلام.

وهكذا المولىٰ له معان كثيرة: فهو المالك والقريب والناصر.

وفي رواية: «**لا يقل: مولاي؛ فإن مولاكم الله**» [(٥٤٥)]: ولكن المحفوظ عند العلماء رواية الإذن بهذا؛ لأن كلمة المولىٰ مشتركة وقد قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١]؛ أي: لا ناصر لهم، بل هم مخذولون بالنسبة للناصر لدين الله، فلا حرج أن يقول: مولاي وسيدي، واصطلح الناس الآن بكلمة عمي؛ أي: لمن ملك وغير ذلك مما اصطلحوا عليه بدلًا من (الرب).

قال العلامة ابن عثيمين:

۞ **قوله:** «**باب لا يقول: عبدي وأمتي**»:

هذه الترجمة تحتمل كراهة هذا القول وتحريمه، وقد اختلف العلماء في ذلك، وسيأتي التفصيل فيه.

۞ **قوله:** «**في الصحيح**»:

سبق التنبيه علىٰ مثل هذه العبارة في كلام المؤلف، وهذا الحديث في «الصحيحين»؛ فيكون المراد بقوله «**في الصحيح**»؛ أي: في الحديث الصحيح، ولعله أراد «صحيح البخاري»؛ لأن هذا لفظه، أما لفظ مسلم؛ فيختلف عنه.

---

(٥٤٥) سبق تخريجه.

قوله ﷺ: «**لا يقل**». الجملة نهي. «**عبدي**»؛ أي: للغلام. و «**أمتي**»؛ أي: للجارية.

والحكم في ذلك ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: أن يضيفه إلىٰ غيره، مثل أن يقول: عبد فلان أو أمة فلان؛ فهذا جائز قال تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[النور:٣٢]، وقال النبي ﷺ: «**ليس علىٰ المسلم في عبده ولا فرسه صدقة**»(٥٤٦).

الثاني: أن يضيفه إلىٰ نفسه، وله صورتان:

الأولىٰ: أن يكون بصيغة الخبر، مثل: أطعمت عبدي، كسوت عبدي، أعتقت عبدي، فإن قاله في غيبة العبد أو الأمة؛ فلا بأس به، وإن قاله في حضرة العبد أو الأمة؛ فإن ترتب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منع، وإلا؛ فلا لأن قائل ذلك لا يقصد العبودية التي هي الذل، وإنما يقصد أنه مملوك.

الثانية: أن يكون بصيغة النداء، فيقول السيد: يا عبدي! هات كذا؛ فهذا منهي عنه، وقد اختلف العلماء في النهي: هل هو للكراهة أو التحريم؟ والراجح التفصيل في ذلك، وأقل أحواله الكراهة.

قوله ﷺ: «**لا يقل أحدكم: أطعم ربك...إلخ**»؛ أي: لا يقل أحدكم لعبد غيره، ويحتمل أن يشمل قول السيد لعبده حيث يضع الظاهر موضع المضمر تعاظمًا.

واعلم أن إضافة الرب إلىٰ غير الله تعالىٰ تنقسم إلىٰ أقسام:

القسم الأول: أن تكون الإضافة إلىٰ ضمير المخاطب؛ مثل: أطعم ربك، وضيء ربك؛ فيكره ذلك للنهي عنه؛ لأن فيه محذورين:

١- من جهة الصيغة؛ لأنه يوهم معنىٰ فاسدًا بالنسبة لكلمة رب؛ لأن الرب من أسمائه سبحانه، وهو سبحانه يطعِم ولا يطعَم، وإن كان بلا شك أن الرب هنا غير رب العالمين الذي يطعِم ولا يطعَم، ولكن من باب الأدب في اللفظ.

٢- من جهة المعني أنه يشعر العبد أو الأمة بالذل؛ لأنه إذا كان السيد ربًا كان العبد أو الأمة مربوبًا.

القسم الثاني: أن تكون الإضافة إلىٰ ضمير الغائب؛ فهذا لا بأس به؛ كقوله ﷺ في حديث أشراط

---

(٥٤٦) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: ليس علىٰ المسلم في فرسه صدقه، برقم (١٤٦٣)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: لا زكاة علىٰ المسلم في عبده وفرسه، برقم (٩٨٢) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

الساعة: «أن تلد الأمة ربها»[٥٤٧]، وأما لفظ «ربتها»[٥٤٨]، فلا إشكال فيه لوجود تاء التأنيث، فلا اشتراك مع الله في اللفظ؛ لأن الله لا يقال له إلا رب، وفي حديث الضالة -وهو متفق عليه: «حتىٰ يجدها ربها»[٥٤٩]، وقال بعض أهل العلم: أن حديث الضالة في بهيمة لا تتعبد ولا تتذلل؛ فليست كالإنسان، والصحيح عدم الفارق؛ لأن البهيمة تعبد الله عبادة خاصة، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾، وقال في الناس: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ليس جميعهم: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾[الحج:١٨]، وعلىٰ هذا؛ فيجوز أن تقول: أطعم الرقيق ربَّه، ونحوه...

القسم الثالث: أن تكون الإضافة إلىٰ ضمير المتكلم، بأن يقول العبد: هذا ربي؛ فهل يجوز هذا؟

قد يقول قائل: إن هذا جائز؛ لأن هذا من العبد لسيده، وقد قال تعالىٰ عن صاحب يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾[يوسف:٢٣]؛ أي: سيدي، ولأن المحذور من قول: ﴿رَبِّىٓ﴾ هو إذلال العبد، وهذا منتف؛ لأنه هو بنفسه يقول: هذا ربي.

القسم الرابع: أن يضاف إلىٰ الاسم الظاهر، فيقال: هذا رب الغلام؛ فظاهر الحديث الجواز، وهو كذلك ما لم يوجد محذور فيمنع، كما لو ظن السامع أن السيد رب حقيقي خالق ونحو ذلك.

قوله: «**وليقل: سيدي ومولاي**»: المتوقع أن يقول: وليقل سيدك ومولاك؛ لأن مقتضىٰ الحال أن يرشد ما يكون بدلًا عن اللفظ المنهي عنه بما يطابقه، وهنا ورد النهي بلفظ الخطاب، والإرشاد بلفظ التكلم، وليقل: «**سيدي ومولاي**»؛ ففهم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما سيأتي في المسائل- أن فيه إشارة إلىٰ أنه إذا كان الغير قد نهي أن يقول للعبد: أطعم ربك؛ فالعبد من باب أولىٰ أن يُنهىٰ عن قول: أطعمت ربي، وضَّأت ربي، بل يقول: سيدي ومولاي.

---

(٥٤٧) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام، برقم (٥٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله، برقم (٩، ١٠) وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥٤٨) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، برقم (٨)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: في القدر، برقم (٤٦٩٥) وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥٤٩) أخرجه البخاري، كتاب: اللقطة، باب: ضالة الغنم، برقم (٢٤٢٨)، ومسلم، كتاب: اللقطة، برقم (١٧٢٢) وغيرهما من حديث زيد بن خالد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأما إذا قلنا بأن أطعم ربك خاص بمن يخاطب العبد لما فيه من إذلال العبد بخلاف ما إذا قال هو بنفسه: أطعمت ربي، فإنه ينتفي الإذلال؛ فإنه يقال: إن الرسول ﷺ لما وجه الخطاب لمن يخاطب العبد وجه الخطاب إلىٰ العبد نفسه، فقال: «**وليقل: سيدي ومولاي**»؛ أي: بدلًا عن قوله: أطعمت ربي، وضأت ربي.

قوله: «**سيدي**»: السيادة في الأصل علو المنزلة؛ لأنها من السؤدد والشرف والجاه وما أشبه ذلك. والسيد يطلق علىٰ معان، منها: المالك، والزوج، والشريف المطاع.

وسيدي هنا مضافة إلىٰ ياء المتكلم وليست علىٰ وجه الإطلاق. فالسيد علىٰ وجه الإطلاق لا يقال إلا الله ﷻ، قال ﷺ: «**السيد الله**»(٥٥٠).

وأما السيد مضافة؛ فإنها تكون لغير الله، قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[يوسف:٢٥].

وقال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»(٥٥١)، والفقهاء يقولون: إذا قال السيد لعبده؛ أي: سيد العبد لعبده.

تنبيه:

اشتهر عند بعض الناس إطلاق السيدة علىٰ المرأة، فيقولون مثلًا: هذا خاص بالرجال، وهذا خاص بالسيدات، وهذا قلب للحقائق؛ لأن السادة هم الرجال، قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، وقال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[الأنعام:٦٢]، وقال ﷺ: «**إن النساء عوان عندكم**»(٥٥٢)، أي: بمنزلة الأسير، وقال في الرجل: «**راع في أهله ومسئول عن رعيته**»(٥٥٣)؛ فالصواب أن يقال للواحدة امرأة وللجماعة منهن نساء.

---

(٥٥٠) سبق تخريجه.

(٥٥١) أخرجه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ علىٰ جميع الخلائق، برقم (٢٢٧٨)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، برقم (٤٦٧٣) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥٥٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الرضاع، باب: حق المرأة علىٰ زوجها، برقم (١١٦٣)، وابن ماجه، كتاب: النكاح، باب: حق المرأة علىٰ زوجها، برقم (١٨٥١)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (٥/ ٣٧٢) وغيرهم من حديث عمرو بن الأحوص رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٥٥٣) أخرجه البخاري، كتاب: الوصايا، باب: تأويل قول الله تعالىٰ ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، برقم (٢٧٥١)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث علىٰ الرفق بالرعية، برقم (١٨٢٩) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله: «ومولاي»؛ أي: وليقل مولاي، والولاية تنقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: ولاية مطلقة، وهذه لله عَجَّلَ لا تصلح لغيره؛ كالسيادة المطلقة.

وولاية الله نوعان:

النوع الأول: عامة، وهي الشاملة لكل أحد، قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٦٢] فجعل له ولاية علىٰ هؤلاء المفترين، وهذه ولاية عامة.

النوع الثاني: خاصة بالمؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١] وهذه ولاية خاصة، ومقتضي السياق أن يقال: وليس مولىٰ الكافرين، لكن قال: ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: لا هو مولىٰ للكافرين ولا أولياؤهم الذين يتخذونهم آلهة من دون الله موالي لهم؛ لأنهم يوم القيامة يتبرؤون منهم.

القسم الثاني: ولاية مقيدة مضافة؛ فهذه تكون لغير الله، ولها في اللغة معان كثيرة، منها: الناصر، والمتولي للأمور، والسيد، والعتيق.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤] وقال ﷺ فيما يروي عنه: «**من كنت مولاه، فعليٌّ مولاه**» (٥٥٤)، وقال ﷺ «**إنما الولاء لمن أعتق**» (٥٥٥).

ويقال للسلطان ولي الأمر، وللعتيق مولىٰ فلان لمن أعتقه، وعليه يعرف أنه لا وجه لاستنكار بعض الناس لمن خاطب ملكًا بقوله: مولاي؛ لأن المراد بمولاي؛ أي: متولي أمري، ولا شك أن رئيس الدولة يتولي أمورها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]

قوله ﷺ «**ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي**» (٥٥٦): هذا خطاب للسيد أن لا يقول: عبدي وأمتي لمملوكه ومملوكته؛ لأننا جميعًا عباد الله، ونساؤنا إماء لله.

---

(٥٥٤) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، برقم (٣٧١٣)، وأحمد (١/ ١٥٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٥/ ١٣١) وغيرهم من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٥٥٥) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: البيع والشراء مع النساء، برقم (٢١٥٥)، ومسلم، كتاب: العتق، باب: إنما الولاء لمن أعتق، برقم (١٥٠٤) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥٥٦) سبق تخريجه.

قال النبي ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[٥٥٧].

فالسيد منهي أن يقول ذلك؛ لأنه إذا قال: عبدي وأمتي؛ فقد تشبه بالله ﷻ ولو من حيث ظاهر اللفظ؛ لأن الله ﷻ يخاطب عباده بقوله: عبدي؛ كما في الحديث: «**عبدي استطعمتك فلم تطعمني...**»[٥٥٨]وما أشبه ذلك.

وإن كان السيد يريد بقوله: «**عبدي**»؛ أي: مملوكي؛ فالنهي من باب التنزه عن اللفظ الذي يوهم الإشراك، وقد سبق بيان حكم ذلك.

وقوله: «**وأمتي**»: الأمة: الأنثى من المملوكات، وتسمى الجارية.

والعلة من النهي: أن فيه إشعارًا بالعبودية، وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتىٰ في اللفظ، ولهذا ذهب بعض أهل العلم ومنهم شيخنا عبد الرحمن السعدي رحمه الله إلىٰ أن النهي في الحديث ليس علىٰ سبيل التحريم، وأنه علىٰ سبيل الأدب والأفضل والأكمل، وقد سبق بيان حكم ذلك مفصلًا.

قوله: «**وليقل: فتاي وفتاتي**»: مثله جاريتي وغلامي، فلا بأس به.

وفي هذا الحديث من الفوائد:

١- حسن تعليم الرسول ﷺ، حيث إنه إذا نهىٰ عن شيء فتح للناس ما يباح لهم، فقال: «**لا يقل: عبدي وأمتي:، وليقل: فتاي وفتاتي**»، وهذه كما هي طريقة النبي ﷺ؛ فهي طريقة القرآن أيضًا، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾[البقرة:١٠٤]، وهكذا ينبغي أيضًا لأهل العلم وأهل الدعوة إذا سدوا علىٰ الناس بابًا محرمًا أن يفتحوا لهم الباب المباح حتىٰ لا يضيقوا علىٰ الناس ويسدوا الطرق أمامهم؛ **لأن في ذلك فائدتين عظيمتين:**

الأولىٰ: تسهيل ترك المحرم علىٰ هؤلاء؛ لأنهم إذا عرفوا أن هناك بدلًا عنه هان عليهم تركه.

الثانية: بيان أن الدين الإسلامي فيه سعة، وأن كل ما يحتاج إليه الناس؛ فإن الدين الإسلامي

---

(٥٥٧) أخرجه البخاري، كتاب: الجمعة، باب: هل علىٰ من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم، برقم (٩٠٠)، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: خروج النساء إلىٰ الصلاة إذا لم يترتب عليه فتنة، برقم (٤٤٢) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥٥٨) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض، برقم (٢٥٦٩)، وابن حبان، برقم(٩٤٤) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يسعه، فلا يحكم على الناس أن يتكلموا بشيء أو لا يفعلوا شيئًا إلا وفتح لهم ما يغني عنه، وهذا من كمال الشريعة الإسلامية.

٢- أن الأمر يأتي للإباحة؛ لقوله: «**وليقل: سيدي ومولاي**»، وقد قال العلماء: إن الأمر إذا أتى في مقابلة شيء ممنوع صار للإباحة، وهنا جاء الأمر في مقابلة شيء ممنوع، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة:٢].

قوله: «**فيه مسائل**»:

الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي: تؤخذ من قوله: «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي»، وقد سبق بيان ذلك.

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له أطعم ربك: تؤخذ من الحديث، وقد سبق بيان ذلك.

الثالثة: تعليم الأول «وهو السيد» **قول: فتاي وفتاتي وغلامي**.

الرابعة: تعليم الثاني «وهو العبد» **قول: سيدي ومولاي**.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ: وقد سبق ذلك.

وفي الباب مسائل أخرى لكن هذه المسائل هي المقصوده.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: «**باب لا يقول عبدي وأمتي**»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ التلفظ بهذه الألفاظ المذكورة يوهم المشاركة في الربوبية، فنُهي عنه تأدبًا مع الربوبية، وحماية للتوحيد بسدِّ الذرائع المفضية إلى الشرك.

قوله: «**في الصحيح**»:

أي: «الصحيحين».

«**لا يقل أحدكم**»: لا: ناهية، والفعل بعدها مجزوم بها؛ أي: لا يقل ذلك لمملوكه.

«**أطعم ربك**»: بفتح الهمزة أمرٌ من الإطعام.

«**وضيء ربك**»: أمرٌ من التوضئة، والنهي في الموضعين لمنع المضاهاة لله سبحانه؛ لأنه هو الرب. وهذا المنع يختص في منع الربوبية للإنسان، بخلاف غيره فيقال: رب الدار والدابة.

«**وليقل سيدي**»: لأنَّ السيادة معناها الرئاسة على ما تحت يده.

وأيضًا هناك فرقٌ بين الرب والسيد: فإن الرب من أسماء الله بالاتفاق بخلاف السيد فقد اختلف في كونه من أسماء الله. وعلىٰ القول بأنه منها فليس له من الشهرة وكثرة الاستعمال مثل ما للرب.

«ومولاي»: المولىٰ يطلق علىٰ معانٍ كثيرةٍ منها: المالك وهو المراد هنا.

«**ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي**»: لأن الذي يستحق العبودية هو الله سبحانه؛ ولأنَّ في ذلك تعظيمًا لا يستحقه المخلوق.

«**وليقل فتاي وفتاتي وغلامي**»: لأنَّ هذه الألفاظ لا تدل علىٰ العبودية كدلالة عبدي وأمتي، وفيها تجنب للإيهام والتعاظم.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

ينهىٰ ﷺعن التلفظ بالألفاظ التي توهم الشرك، وفيها إساءة أدب مع الله كإطلاق ربوبية إنسانٍ لإنسانٍ أو عبودية إنسانٍ لإنسانٍ؛ لأن الله هو الرب المعبود وحده. ثم أرشد ﷺإلىٰ اللفظ السليم الذي لا إيهام فيه؛ ليكون بديلًا من اللفظ الموهم، وهذا منه ﷺحماية للتوحيد وحفاظًا علىٰ العقيدة.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي عن قول: عبدي وأمتي.

ما يستفاد من الحديث:

١-النهي عن استعمال الألفاظ التي توهم الشرك.

٢-سد الطرق الموصلة إلىٰ الشرك.

٣-ذكر البديل الذي لا محذور فيه؛ ليستعمل مكان ما فيه محذور من الألفاظ.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب: لايقول: عبدي وأمتي»:

هذا الباب مع الأبواب قبله وما بعده كلها في تعظيم ربوبية الله -جل وعلا- وتعظيم أسماء الله -جل وعلا- وصفاته؛ لأن تعظيم ذلك من كمال التوحيد، وتحقيق التوحيد لا يكون إلا بأن يُعظّم الله -جل وعلا- في ربوبيته، وفي إلهيته، وفي أسمائه وصفاته.

فتحقيق التوحيد لا يكون إلا بالاحتراس من الألفاظ التي يكون فيها إساءة أدب مع ربوبية الله -جل وعلا- أو مع أسماء الله -جل وعلا- وصفاته، ولهذا عقد المؤلف هذا الباب فقال: «**باب لا يقول عبدي وأمتي**».

عبودية البشر لله -جل وعلا- عبودية حقيقية، وإذا قيل: هذا عبد الله، فهو عبد لله -جل وعلا- إما قهرًا أو اختيارًا، فكل من في السماوات والأرض عبد لله -جل وعلا- كما قال جل وعلا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾[مريم: ٩٣-٩٥]. فعبودية الخلق لله -جل وعلا- ظاهرة؛ لأنه هو الرب، وهو المتصرف، وهو خالق الخلق، وهو المدبر لشئونهم، فالله -جل وعلا- هو المتفرد بذلك سبحانه، فإذا قال الرجل لرقيقه: هذا عبدي، وهذه أمتي، كان فيه نسبة عبودية أولئك إليه، وهذا فيه منافاة لكمال الأدب الواجب مع الله -جل وعلا- ولهذا كان هذا اللفظ غير جائز عند كثير من أهل العلم، ومكروهًا عند طوائف آخرين.

وسبب النهي عن لفظ: (عبدي وأمتي) ما ذكرنا من وجوب تعظيم الربوبية، وعدم انتقاص عبودية الخلق لله جل وعلا.

❁ **قوله**: «**في الصحيح عن أبي هريرة**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أن رسول الله**ﷺ **قال: لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، وليقل سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي...**»:

هذا النهي في هذا الحديث اختلف فيه أهل العلم علىٰ قولين:

الأول: أنه للتحريم؛ لأن النهي الأصل فيه للتحريم إلا إذا صرفه عن ذلك الأصل صارف.

وقال آخرون: النهي هنا للكراهة، وذلك لأنه من جهة الأدب، ولأنه جاء في القرآن قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف: ٤٢]؛ ولأن الربوبية هنا المقصود بها ما يناسب البشر، فرب الدار، ورب العبد هو الذي يملك أمره في هذه الدنيا، فلهذا قالوا: النهي للكراهة وليس للتحريم، ومع ما جاء في بعض الأحاديث من تجويز إطلاق بعض تلك الألفاظ.

قوله: «**وليقل: سيدي ومولاي**» السيادة مع كون الله -جل وعلا- هو السيد، لكن السيادة بالإضافة لا بأس بها؛ لأن للبشر سيادة تناسبه.

«ومولاي» المولىٰ يأتي علىٰ معانٍ كثيرة، ومخاطبة البشر بقول: «مولاي» أجازه طائفة من أهل العلم، بناء علىٰ هذا الحديث، وقد جاء في صحيح مسلم النهي عن أن يقول: مولاي، فقال: «**لا تقولوا مولاي إنما مولاكم الله**» أو نحو ذلك، وهذا الحديث أعلّه بعض أهل العلم بأنه نقل بالمعنىٰ، فهو شاذ من جهة اللفظ، ومعارض لهذا الحديث الذي هو نص في إجازة ذلك،

فالصحيح جواز إطلاق لفظ «مولاي» و«سيدي» ونحو ذلك لأن المراد بالسيادة هنا سيادة تناسب البشر، وكذلك قول: مولاي مراد به ما يناسب البشر من ذلك، فليس اللفظان في مقام الربوبية المطلقة؛ لأنها أعظم درجة، ولأن العبودية لا تكون إلا لله -جل وعلا- وإطلاق ذلك على البشر لا يجوز.

فتحصل من ذلك: أن هذه الألفاظ -كما ذكرنا- يجب أن يُحترز فيها، وأن يتجنب ما ينافي الأدب مع مقام ربوبية الله -جل وعلا- وأسمائه سبحانه وتعالى، وعليه فلا يكون جائزًا أن يقول: عبدي وأمتي، أو أن يقول: أطعم ربك، وضئ ربك، ونحو ذلك.

هذا كله مختص بالتعبيد أو الربوبية للمكلفين، أما إضافة الربوبية إلى غير المكلف فلا بأس بها؛ لأن حقيقة العبودية لا تتصور فيها كأن تقول: رب الدار، ورب المنزل، ورب المال، ونحو ذلك، فإن الدار، والمنزل، والمال، ليست بأشياء مكلفة بالأمر والنهي، فلهذا لا تنصرف الأذهان أو يذهب القلب إلى أن ثمة نوعًا من عبودية هذه الأشياء لمن أضيفت إليه بل إن ذلك معروف أنه إضافة ملك؛ لأنها ليست مخاطبة بالأمر والنهي، وليس يحصل منها خضوع أو تذلل.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول عبدي وأمتي، أي لقوله: «**لا يقل أحدكم**» لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله.

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك، أي لقوله: لا يقل أحدكم أطعم ربك؛ لأن الرب على الإطلاق هو الله، وهذا النهي كله من باب الأدب لا من باب التحريم لورود ما يدل على جوازه.

الثالثة: تعليم الأول قول فتاي وفتاتي وغلامي، أي: تعليم الذي نهي عن قول عبدي وأمتي أن يقول: فتاتي وما ذكر معه.

الرابعة: تعليم الثاني قول سيدي ومولاي، أي: تعليم الذي نهي أن يقول: أطعم ربك قول سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ، أي: إن النهي عن هذه الألفاظ من باب تحقيق التوحيد في الألفاظ.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن إطلاق هاتين الكلمتين علىٰ غير الله مما ينافي كمال التوحيد لما فيهما من التشريك في اللفظ بين الخالق والمخلوق.

قوله: «في «الصحيح» عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: لا يقل أحدكم...».

س: اشرح هذا الحديث واذكر ما يستفاد منه؟

جـ: نهىٰ النبي ﷺ عن هذه الألفاظ تحقيقًا للتوحيد وسدًّا لوسائل الشرك؛ لأن الله تعالىٰ هو رب العباد جميعهم، فإذا أطلق علىٰ غيره شاركه في الاسم فنهىٰ عن ذلك تعظيمًا لله تعالىٰ، وأرشد ﷺ إلىٰ ما يقوم مقام هذه الألفاظ وهو قول سيدي ومولاي؛ لأن مرجع السيادة إلىٰ معنىٰ الرئاسة والمولىٰ من ولاية الأمر، وكذلك نهىٰ عن قول عبدي وأمتي؛ لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله كما قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم:٩٣].

ما يستفاد من هذا الحديث:

١ - النهي عن قول عبدي وأمتي.

٢ - لا يقول العبد ربي لا يقال له: أطعم ربك.

٣ - أن السيد يقول: فتاي وفتاتي وغلامي.

٤ - أن العبد يقول: سيدي ومولاي.

٥ - أن المقصود من ذلك تحقيق التوحيد والبعد عن الشرك.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس الخامس والخمسون:

باب لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «[من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه][٥٥٩]، ومن دعاكم، فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا، فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه[٥٦٠]، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[٥٦١] رواه أبو داود والنسائي بسندٍ صحيحٍ.

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

الثانية: إعطاء من سأل بالله[٥٦٢].

الثالثة: إجابة الدعوة.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه[٥٦٣].

السادسة: قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب: لا يرد من سأل بالله»:

لأن منع من سأل بالله أو بوجه الله من عدم إعظام الله وإجلاله، وقد جاء الوعيد على ذلك، فروى الطبراني عن أبي موسى مرفوعًا: «ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله ثم

---

(٥٥٩) في نسخة ابن قاسم والفوزان: «من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سأل بالله فأعطوه».

(٥٦٠) في نسخة ابن قاسم: «تكافئوه».

(٥٦١) أخرجه أبو داود، كتاب: الزكاة، باب: عطية من سأل بالله عز وجل، برقم (١٦٧٢)، والنسائي، كتاب: الزكاة، باب: من سأل بالله عزل وجل، برقم (٢٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٦٨) وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٥٦٢) سبق تخريجه.

(٥٦٣) سبق تخريجه.

منع سائله، ما لم يسأل هجرًا»[٥٦٤]. وله عن أبي عبيدة مولىٰ رفاعة بن رافع مرفوعا: «ملعون من يسأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله فمنع سائله»[٥٦٥].

قوله: «عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: من استعاذ بالله فأعيذوه»:

تعظيمًا لله وتقربًا إليه بذلك، فإذا قال: أعوذ بالله من شرك، أو شر فلان، فامنعوا الشر منه وكفوا عنه؛ لتعظيم اسم الله. ولما قالت الجونية لرسول الله ﷺ أعوذ بالله منك. قال: «**لقد عذت بمعاذ، الحقي بأهلك**»[٥٦٦].

قوله: «ومن سأل بالله فأعطوه»؛ أي: إذا قال: أسألك بالله أو بوجه الله، كما في حديث ابن عباس: «**من سألكم بوجه الله فأعطوه**»[٥٦٧]. رواه أحمد وأبو داود.

وفي رواية له: «**من سألكم بالله**».[٥٦٨] وله عن ابن عمر: «**من سألكم بالله فأجيبوه إلىٰ ما سأل**»[٥٦٩] فيكون بمعنىٰ أعطوه، وعن ابن عباس مرفوعًا: «**ألا أخبركم بشرار الناس؟ رجل يسأل بوجه الله ولا يعطي**»[٥٧٠]. رواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في صحيحه. وجاء من

---

(٥٦٤) أخرجه، الطبراني في «الدعاء»، برقم(٢١١٢) من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (٨٥١)

(٥٦٥) أخرجه الطبراني (٢٢/ ٣٧٧) من حديث أبي عبيدة مولىٰ رفاعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (٨٥٣).

(٥٦٦) أخرجه البخاري، كتاب: الطلاق، باب: من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق؟ برقم (٥٢٥٤) وغيره من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥٦٧) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في الرجل يستعيذ من الرجل، برقم (٥١٠٨)، وأحمد (١/ ٢٤٩)، وأبو يعلىٰ، برقم (٢٥٣٦) وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٥٦٨) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في الرجل يستعيذ من الرجل، برقم (٥١٠٩)، والنسائي، كتاب: الزكاة، باب: من سأل بالله عز وجل، برقم (٢٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٦٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٥٦٩) انظر ما قبله.

(٥٧٠) أخرجه الترمذي، واللفظ له، كتاب: فضائل الجهاد، باب: أي الناس خير، برقم (١٦٥٢)، والنسائي، كتاب: الزكاة، باب: من يسأل بالله عز وجل ولا يعطي به، برقم (٢٥٦٩)، وأحمد (١/ ٣٢٢)، وابن حبان، برقم (٦٠٤، ٦٠٥) وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

حديث أبي هريرة: «**ألا أخبركم بشر البرية**»؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**الذي يسأل بوجه الله ولا يعطي**»[٥٧١]. ويدخل فيه القسم عليه بالله أن يفعل كذا، ويجب إعطاء السائل مما له فيه حق كبيت المال، أو من في ماله فضل علىٰ حسب حاله ومسألته، أو يكون السائل مضطرًا فيجب دفع ضرورته، ويحتمل أن يكون المراد فيما لا مشقة فيه ولا ضرر، وقد حث الله علىٰ الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد:٧]، وغيرها.

وذكره في الأعمال التي أمر بها عباده وتعبدهم بها، ووعدهم عليها الأجر العظيم، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾[الأحزاب:٣٥] إلىٰ قوله ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾[الأحزاب:٣٥] وحث النبي ﷺ علىٰ الصدقة ورغب فيها في أحاديث كثيرة، فإذا سئل بوجه الله صار آكد وأوجب، إعظامًا لله وهيبة منه، أن يرد من سأل به.

قوله: «**ومن دعاكم فأجيبوه**»؛ أي: من دعاكم إلىٰ طعام فأجيبوه، والحديث أعم من الوليمة وغيرها، وهو يدل علىٰ الوجوب إلىٰ وليمة العرس وغيرها، وإن كانت وليمة العرس أوكد وأوجب، وإن كان يقصد إلزامه بالقسم وجبت إجابته، أو إكرامه فلا تجب عليه، حكاه الشيخ وغيره. وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**لو دعيت إلىٰ كراع لأجبت**»[٥٧٢]. ومن حقوق المسلمين بعضهم علىٰ بعض إجابة دعوة المسلم، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين، وإكرام الداعي ما لم يكن منكر أو يجر إلىٰ منكر.

قوله: «**ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه**»: المعروف اسم جامع للخير؛ أي: من أحسن إليكم أي إحسان فكافئوه علىٰ إحسانه بمثله أو خير منه؛ لأن المكافأة علىٰ المعروف من المروءة التي يحبها الله ورسوله، وفيها السلامة من البخل ومذمته، ولا يهملها إلا اللئام، وبعضهم يكافئ علىٰ الإحسان بالإساءة، بخلاف أهل التقوىٰ والمروءة، فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة، طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه، والمكافأة تخلص القلب من رق إحسان الخلق، ولا شك أنك إذا لم تكافئ من صنع إليك معروفًا بقي في قلبك له نوع تأله، فشرع قطع ذلك بالمكافأة ولو كافرًا، وهو أولىٰ من مكافأة المسلم، إذ منة المسلم أسلم من منة الكافر، ويدل له قوله: «**من أحسن إليكم فأحسنوا إليه**».

---

(٥٧١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (٨٥٥).

(٥٧٢) أخرجه البخاري، كتاب: النكاح، باب: من أجاب إلىٰ كُراعٍ، برقم (٥١٧٨) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «**فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له، حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه**»؛ أي: فإن لم تقدروا علىٰ مكافأته فادعوا له؛ أي: بالغوا في الدعاء له جهدكم حتىٰ تحصل المكافأة، أرشدهم ﷺ إلىٰ أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة يقوم مقام المكافأة للمعروف، فيدعو له علىٰ حسب معروفه، ووجه المبالغة أنه رأىٰ في نفسه تقصيرًا في المجازاة لعدم القدرة عليها فأحالها إلىٰ الله، ونعم المجازي سبحانه وتعالىٰ، وروىٰ الترمذي وغيره وصححه النسائي وابن حبان عن أسامة مرفوعًا: «**من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا، فقد أبلغ في الثناء**»(٥٧٣). قال الطيبي: وحذفت النون من «**تكافئوه**» إما تخفيفًا، أو سهوًا من النساخ، «**وتروا**» بضم التاء تظنوا، ويحتمل أنها مفتوحة، لما في أبي داود «**حتىٰ تعلموا أنكم قد كافأتموه**»(٥٧٤).

قوله: «رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح»: ورواه أحمد بإسناد صحيح وابن حبان والحاكم، وصححه النووي وغيره.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله**: «**باب لا يرد من سأل بالله**»:

هذا خطاب للمسئول وأنه إذا أدلىٰ علىٰ الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل. وهو السؤال بالله. أن يجيبه احترامًا وتعظيمًا لحق الله وأداءً لحق أخيه، حيث أدلىٰ بهذا السبب الأعظم.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله**: «**باب لا يرد من سأل بالله**»:

ذكر المؤلف هذا الباب نظرًا لما فيه من تعظيم الله وإجلاله في إعطاء من سأله وحديث ابن عمر من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ.

❁ **قوله**: «**عن ابن عمر مرفوعًا: من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سأل بالله فأعطوه**»(٥٧٥):

«**من سأل بالله فأعطوه**»: تعظيمًا لله وإجلالًا، وقد جاءت عدة أحاديث تدل علىٰ كراهة السؤال

---

(٥٧٣) أخرجه الترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: المتشبع بما لم يعطه، برقم (٢٠٣٥)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (٦/ ٥٣)، وابن حبان، برقم (٣٤١٣) وغيرهم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٥٧٤) سبق تخريجه.

(٥٧٥) سبق تخريجه.

بالله لما فيه من التشديد على الناس، ولكن من سأل حقًّا كالزكاة أو من بيت المال وجب أن يعطى، أما غير ذلك فالأفضل أن يعطى ولا ينبغي أن يسأل بالله عملًا بالأحاديث الدالة على كراهة ذلك.

«**ومن استعاذ بالله فأعيذوه**»: فمن استعاذ بالله شرع أن يعاذ ولهذا لما استعاذت عمرة بنت الجون من الرسول ﷺ قال لها: «**لقد عذت بمعاذ**»؛ أي: بعظيم «**فالحقي بأهلك**»[٥٧٦] فمن استعاذ بالله شرع أن يعاذ، إذا لم يكن حقًّا عليه، فإن استعاذ بالله في إسقاط حق عليه فلا يعاذ؛ لأن الله أمر بأداء الحقوق كما إذا قال: أعوذ بالله من أن تلزموني بالصلاة أو الزكاة، أو الدين، أو الكفارات و نحو ذلك. فإن استعاذ من تولية القضاء مع جود من يقوم مقامه أو الإمارة ونحو ذلك مما فيها خطر، وشرع أعاذته كما يروى عن ابن عمر لما أمره عثمان بالقضاء استعاذ بالله أن يولى القضاء فأعاذه عثمان وهذا -إن صح- فهو محمول على أن هناك من يقوم مقامه وكان الصالحون في عهد عثمان لذلك كثيرون.

«**ومن دعاكم فأجيبوه**»: لما في إجابة الدعوة من المصالح والتواصل والتآلف والتقارب؛ فلهذا شرعت الإجابة سواء كانت لعرس أو غيره وأهمها العرس وفي الحديث: «**من لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله**» مسلم[٥٧٧].

فالواجب أن تجاب إلا:

١-أن يكون له ما يمنعه كأن يكون مريضًا أو بعيدًا أو يشق عليه الإتيان ونحوه.

٢-أن كان فيها مانع: بأن يكون فيها منكر كالملاهي والأغاني والخمر فإن كانت الدعوة سليمة وجب أن يجيب أو تأكد - على الأقل لهذا الحديث وغيره.

-ولا تجب الدعوة إلا إذا خصه بها.

«**ومن صنع معكم معروفًا فكافئوه**»: هذا من مكارم الأخلاق وكمال الإيمان أن يكافأ على المعروف بما يستطيع إن كان مالًا فبالمال، وإن لم يكن فبالكلام الطيب والدعاء.

«**حتى تروا**»: يروي بفتح التاء؛ أي: حتى تعلموا، ويروي بضم التاء، أي: حتى تظنوا أنكم كافأتموه. والمعروف يتنوع.

---

(٥٧٦) سبق تخريجه.

(٥٧٧) أخرجه مسلم، كتاب: النكاح، باب: الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة، برقم (١٤٣٢)، والطبراني في «الأوسط» (٧٠٧٦) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا ينبغي دعاء صفات الله فلا يقال: يا وجه الله أو يا علم الله افعل كذا.

وإنما يدعي الله بأسمائه وصفاته فيقال: يا رحمن... فالصفات يتوسل بها ولا تدعىٰ، وقد نقل شيخ الإسلام الإجماع علىٰ هذا.

ويتوسل بها فيقول: «**أسألك بعفوك ورحمتك وأعوذ برضاك من سخطك..**» إلخ.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله: «باب لا يرد من سأل بالله»:**

«**لا**»: نافية بدليل رفع المضارع بعدها، والنفي يحتمل أن يكون للكراهة، وأن يكون للتحريم.

وقوله: «**من سأل بالله**»؛ أي: من سأل غيره بالله، والسؤال بالله ينقسم إلىٰ قسمين:

أحدهما: السؤال بالله بالصيغة، مثل أن يقول: أسألك بالله كما تقدم في حديث الثلاثة حيث قال الملك: «**أسالك بالذي أعطاك الجلد الحسن واللون الحسن بعيرًا**»(٥٧٨)

الثاني: السؤال بشرع الله ﷻ؛ أي: يسأل سؤالًا يبيحه الشرع؛ كسؤال الفقير من الصدقة، والسؤال عن مسألة من العلم، وما شابه ذلك.

وحكم من رد من سأل بالله الكراهة أو التحريم حسب حال المسئول والسائل، وهنا عدة مسائل:

المسألة الأولىٰ: هل يجوز للإنسان أن يسأل بالله أم لا؟

وهذه المسألة لم يتطرق إليها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فتقول أولًا: السؤال من حيث هو مكروه ولا ينبغي للإنسان أن يسأل أحدًا شيئًا إلا إذا دعت الحاجة إلىٰ ذلك، ولهذا كان مما بايع النبي ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئًا، حتىٰ إن عصا أحدهم ليسقط منه وهو علىٰ راحلته، فلا يقول لأحد: ناولنيه، بل ينزل ويأخذه(٥٧٩).

والمعنىٰ يقتضيه؛ لأنك إذا أعززت نفسك ولم تذلها لسؤال الناس بقيت محترمًا عند الناس، وصار لك منعة من أن تذل وجهك لأحد؛ لأن من أذل وجهه لأحد؛ فإنه ربما يحتاجه ذلك الأحد

---

(٥٧٨) سبق تخريجه.

(٥٧٩) أخرجه أبو داود، كتاب: الزكاة، باب: كراهية المسألة، برقم (١٦٤٢)، والنسائي، كتاب: الزكاة، باب: فضل من لا يسأل الناس شيئًا، برقم (٢٥٩٠)، وابن ماجه، كتاب: الزكاة، باب: كراهية المسألة، برقم (١٨٣٧) وغيرهم من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

لأمر يكره أن يعطيه إياه، ولكنه إذا سأله اضطر إلىٰ أن يجيبه، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ازهد فيما عند الناس يحبك الناس»(٥٨٠)، فالسؤال أصلًا مكروه أو محرم؛ إلا لحاجة أو ضرورة.

فسؤال المال محرم؛ فلا يجوز أن يسأل من أحد مالًا إلا إذا دعت الضرورة إلىٰ ذلك، وقال الفقهاء رحمهم الله في باب الزكاة: «إن من أبيح له أخذ شيء أبيح له سؤاله»، ولكن فيما قالوه نظر، فإن الرسول ﷺ حذر من السؤال، وقال: «إن الإنسان لا يزال يسأل الناس حتىٰ يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم»(٥٨١)، وهذا يدل علىٰ التحريم إلا للضرورة.

وأما سؤال المعونة بالجاه أو المعونة بالبدن، فهذه مكروهة، إلا إذا دعت الحاجة إلىٰ ذلك.

وأما إجابة السائل؛ فهو موضوع بابنا هذا، ولا يخلو السائل من أحد أمرين:

الأول: أن يسأل سؤالًا مجردًا؛ كأن يقول مثلًا: يا فلان! أعطني كذا وكذا، فإن كان مما أباحه الشارع له فإنك تعطيه؛ كالفقير يسأل شيئًا من الزكاة.

الثاني: أن يسأل بالله، فهذا تجيبه وإن لم يكن مستحقًّا؛ لأنه سأل بعظيم، فإجابته من تعظيم هذا العظيم، لكن لو سأل إثمًا أو كان في إجابته ضرر علىٰ المسئول؛ فإنه لا يجاب.

مثال الأول: أن يسألك بالله نقودًا ليشتري بها محرمًا كالخمر.

ومثال الثاني: أن يسألك بالله أن تخبره عما في سرك وما تفعله مع أهلك، فهذا لا يجاب؛ لأن في الأول إعانة علىٰ الإثم، وإجابته في الثاني ضرر علىٰ المسئول.

❁ **قوله**: «**قوله ﷺ: من سأل بالله**»:

«**من**»: شرطية للعموم.

قوله: «**فأعطوه**»: الأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثمًا أو ضررًا علىٰ المسئول؛ لأن في إعطائه إجابة لحاجته وتعظيمًا لله ﷻ الذي سأل به.

ولا يشترط أن يكون سؤاله بلفظ الجلالة بل بكل اسم يختص بالله، كما قال الملك الذي جاء إلىٰ الأبرص والأقرع والأعمىٰ: «**أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا**»(٥٨٢)

---

(٥٨٠) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الزهد في الدنيا، برقم (٤١٠٢)، والحاكم، برقم (٧٨٧٣)، والطبراني (٦/ ١٩٣) وغيرهم من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٥٨١) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: من سأل الناس تكثرًا، برقم (١٤٧٤)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: كراهة المسألة للناس، برقم (١٠٤٠) وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٥٨٢) سبق تخريجه.

قوله: «**ومن استعاذ بالله فأعيذوه**»: أي قال: أعوذ بالله منك؛ فإنه يجب عليك أن تعيذه، لأنه استعاذ بعظيم، ولهذا لما قالت ابنة الجون للرسول ﷺ: أعوذ بالله منك؛ قال لها «**لقد عذت بعظيم أو معاذ، الحقي بأهلك**»[٥٨٣].

لكن يستثنىٰ من ذلك لو استعاذ من أمر واجب عليه؛ فلا تعذه، مثل أن تلزمه بصلاة الجماعة، فقال أعوذ بالله منك.

وكذلك لو ألزمته بالإقلاع عن أمر محرم، فاستعاذ بالله منك، فلا تعذه لما فيه من التعاون علىٰ الإثم والعدوان، ولأن الله لا يعيذ عاصيًا، بل العاصي يستحق العقوبة لا الانتصار له وإعاذته.

وكذلك من استعاذ بملجأ صحيح يقتضي الشرع أن يعيذه -وإن لم يقل أستعيذ بالله؛ فإنه يجب عليك أن تعيذه كما قال أهل العلم: لو جنىٰ أحد جناية ثم لجأ إلىٰ الحرم؛ فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص في الحرم، ولكنه يُضيق عليه؛ فلا يبايع، ولا يشترىٰ منه، ولا يؤجر حتىٰ يخرج.

بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجناية في نفس الحرم؛ فإن الحرم لا يعيذه؛ لأنه انتهك حرمة الحرم.

قوله: «**ومن دعاكم فأجيبوه**». «**من**»: شرطية للعموم، والظاهر أن المراد بالدعوة هنا الدعوة للإكرام، وليس المقصود بالدعوة هنا النداء.

وظاهر الحديث وجواب إجابة الدعوة في كل دعوة، وهو مذهب الظاهرية.

وجمهور أهل العلم: أنها مستحبة إلا دعوة العرس؛ فإنها واجبة لقوله ﷺ فيها: «**شر الطعام الوليمة، يُدعىٰ إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها ومن لم يجب، فقد عصي الله ورسوله**»[٥٨٤]

وسواء قيل بالوجوب أو الاستحباب، فإنه يشترط لذلك شروط:

١- أن يكون الداعي ممن لا يجب هجره أو يسن.

٢- ألا يكون هناك منكر في مكان الدعوة، فإن كان هناك منكر، فإن أمكنه إزالته، وجب عليه الحضور لسببين:

إجابة الدعوة.

وتغيير المنكر.

وإن كان لا يمكنه إزالته حرم عليه الحضور؛ لأن حضوره يستلزم إثمه، وما استلزم الإثم، فهو إثم.

---

(٥٨٣)سبق تخريجه.

(٥٨٤)سبق تخريجه.

٣ - أن يكون الداعي مسلمًا، وإلا لم تجب الإجابة؛ لقولهﷺ: «**حق المسلم على المسلم ست...**»، وذكر منها: «**إذا دعاك فأجبه**»[٥٨٥]. قالوا: وهذا مقيد للعموم الوارد.

٤ - أن لا يكون كسبه حرامًا؛ لأن إجابته تستلزم أن تأكل طعامًا حرامًا، وهذا لا يجوز، وبه قال بعض أهل العلم. وقال آخرون: ما كان محرمًا لكسبه، فإنما إثمه على الكاسب لا على من أخذه بطريق مباح من الكاسب، بخلاف ما كان محرمًا لعينه، كالخمر والمغصوب ونحوهما، وهذا القول وجيه قوي، بدليل أن الرسولﷺ اشترى من يهودي طعامًا لأهله[٥٨٦]، وأكل من الشاة التي أهدتها له اليهودية بخيبر[٥٨٧]، وأجاب دعوة اليهودي[٥٨٨]، ومن المعلوم أن اليهود معظمهم يأخذون الربا ويأكلون السحت، وربما يُقوي هذا القول قولهﷺ في اللحم الذي تُصُدِّق به على بريرة: «**هو لها صدقة ولنا منها هدية**»[٥٨٩].

وعلى القول الأول؛ فإن الكراهة تقوى وتضعف حسب كثرة المال الحرام وقلته، فكلما كان الحرام أكثر كانت الكراهة أشد، وكلما قل كانت الكراهة أقل.

٥- أن لا تتضمن الإجابة إسقاط واجب أو ما هو أوجب منها، فإن تضمنت ذلك حرمت الإجابة.

٦- لا تتضمن ضررًا على المجيب، مثل أن تحتاج إجابة الدعوة إلى سفر أو مفارقة أهله المحتاجين إلى وجوده بينهم.

مسألة:

هل إجابة الدعوة حق الله أو للآدمي؟

الجواب: حق للآدمي، ولهذا لو طلبت من الداعي أن يقيلك فقبل؛ فلا إثم عليك، لكنها

---

(٥٨٥) أخرجه، البخاري في«الأدب المفرد»، برقم(٩٢٥، ٩٩١)، مسلم، كتاب: السلام، باب: من حق المسلم للمسلم رد السلام، برقم (٢١٦٢/ ٥) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥٨٦) أخرجه البخاري، كتاب: السلم، باب: الرهن في السلم، برقم (٢٢٥٢)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: الرهن وجوازه في الحضر والسفر، برقم (١٦٠٣) وغيرهما من حديث أم المؤمنين عائشة ﷺ.

(٥٨٧) أخرجه البخاري، كتاب: الهبة وفضلها، باب: قبول الهدية من المشركين، برقم (٢٦١٧) ومسلم، كتاب: السلام، باب: السم، برقم (٢١٩٠) وغيرهما من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٥٨٨) أخرجه أحمد (٣/ ٢١٠، ٢٧٠، ٣٨٩) من حديث أنس ﷺ، بلفظ: «أن يهوديًا دعا النبي ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنخة فأجابه»، وصححه الألباني في«إرواء الغليل» (١/ ٧١).

(٥٨٩) أخرجه، البخاري، كتاب: الهبة وفضلها، باب: قبول الهدية، برقم (٢٥٧٨)، ومسلم، كتاب: العتق، باب: إنما الولاء لمن أعتق، برقم(١٥٠٤/ ١١) وغيرهما من حديث عائشة ﷺ.

واجبة بأمر الله ﷻ، ولهذا ينبغي أن تلاحظ أن إجابتك طاعة لله وقيام بحق أخيك، لكن لصاحبها أن يسقطها كما أن له أن لا يدعوك أيضًا، ولكن إذا أقالك حياء منك وخجلًا من غير اقتناع؛ فإنه لا ينبغي أن تدع الإجابة.

مسألة:

هل بطاقات الدعوة التي توزع كالدعوة بالمشافهة؟

الجواب: البطاقات ترسل إلى الناس ولا يُدرىٰ لمن ذهبت إليه؛ فيمكن أن نقول: إنها تشبه دعوة الجَفَلىٰ فلا تجب الإجابة، أما إذا علم أو غلب علىٰ الظن أن الذي أرسلت إليه مقصود بعينه، فإنه لها حكم الدعوة بالمشافهة.

قوله: «**من صنع إليكم معروفًا؛ فكافئوه**»: المعروف: الإحسان، فمن أحسن إليك بهدية أو غيرها؛ فكافئه، فإذا أحسن إليك بإنجاز معاملة وكان عمله زائدًا عن الواجب عليه؛ فكافئه، وهكذا، ولكن إذا كان كبير الشأن ولم تجر العادة بمكافأته؛ فلا يمكن أن تكافئه؛ كالملك والرئيس... مثلًا إذا أعطاك هدية، فمثل هذا يدعىٰ له، لأنك لو كافأته لرأىٰ أن في غضًا من حقه فتكون مسيئًا له، والنبي ﷺ أراد أن تكافئه لإحسانه.

وللمكافأة فائدتان:

١ - تشجيع ذوي المعروف علىٰ فعل المعروف.

٢- أن الإنسان يكسر بها الذل الذي حصل له بصنع المعروف إليه، لأن من صنع إليك معروفًا فلابد أن يكون في نفسك رقة له، فإذا رددت إليه معروفه زال عنك ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد السفلي**»[٥٩٠] واليد العليا هي يد المعطي، وهذه فائدة عظيمة لمن صُنع له معروف، لئلا يري لأحد عليه منة إلا الله ﷻ، لكن بعض الناس يكون كريمًا جدًا، فإذا كافأته بدل هديته أعطاك أكثر مما أعطيته؛ فهذا لا يريد مكافأة، ولكن يُدعىٰ له، لقوله ﷺ: «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له**»[٥٩١]، وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغني، فإنه يدعو له. ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرة، لأنه من باب المسارعة إلىٰ أمر الرسول ﷺ؛ ولأن به سرور صانع المعروف.

---

(٥٩٠) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: لا صدقة إلا عند ظهر غنىٰ، برقم (١٤٢٧)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلىٰ، برقم (١٠٣٤) وغيرهما من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٥٩١) سبق تخريجه.

قوله: «حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه»: «تروا»؛ بفتح التاء بمعنىٰ تعلموا، وتجوز بالضم بمعنىٰ تظنوا؛ أي: حتىٰ تعلموا أو يغلب علىٰ ظنكم أنكم قد كافأتموه، ثم أمسكوا.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: إعاذة من استعاذ بالله: وسبق أن من استعاذ بالله وجبت إعاذته، إلا أن يستعيذ عن شيء واجب فعلًا أو تركًا، فإنه لا يعاذ.

الثانية: إعطاء من سأل بالله: وسبق التفصيل فيه.

الثالثة: إجابة الدعوة: وسبق كذلك التفصيل فيها.

الرابعة: المكافأة علىٰ الصنيعة؛ أي: علىٰ صنيعة من صنع إليك معروفًا، وسبق التفصيل في ذلك.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لا يقدر إلا عليه: وسبق أنه مكافأة في ذلك، وفيما إذا كان الصانع لا يُكافأ مثله عادة.

السادسة: قوله: حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه؛ أي: أنه لا يقصِّر في الدعاء، بل يدعو له حتىٰ يعلم أو يغلب علىٰ ظنه أنه قد كافأه.

وفيه مسائل أخرىٰ، لكن ما ذكره المؤلف هو المقصود.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: «باب لا يرد من سأل بالله»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

لأنَّ في عدم إعطاء من سأل بالله عدم إعظامٍ لله، وعدم إجلالٍ له؛ وذلك يُخل بالتوحيد.

من استعاذ بالله: أي: من لجأ إلىٰ الله وسألكم أن تدفعوا عنه شركم أو شر غيركم.

قوله: «فأعيذوه»:

أي: امنعوه مما استعاذ منه وكفوه عنه تعظيمًا لاسم الله.

ومن سأل بالله: بأن قال: أسألك بالله.

فأعطوه؛ أي: أعطوه ما سأل ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة رحمٍ.

ومن دعاكم؛ أي: إلىٰ طعام أو غيره.

فأجيبوه؛ أي: أجيبوا دعوته

ومن صنع إليكم؛ أي: من أحسن إليكم أي إحسانٍ.

معروفًا؛ المعروف: اسم جامع للخير.

فكافئوه؛ أي: علىٰ إحسانه بمثله أو خير منه.

فإن لم تجدوا؛ أي: لم تقدروا علىٰ مكافأته.

فادعوا له... إلخ؛ أي: فبالغوا في الدعاء له جهدكم.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يأمرﷺ في هذا الحديث بخصالٍ عظيمةٍ؛ فيها تعظيم حق الله سبحانه بإعطاء من سأل به، وإعاذة من استعاذ به، وتعظيم لحق المؤمن من إجابة دعوته، ومكافأته علىٰ إحسانه بمثله أو أحسن منه مع القدرة، ومع عدمها بإحالة مكافأته إلىٰ الله بطلب الخير له منه.

مناسبة الحديث للباب:

أَنَّ فيه الأمر بإعطاء من سأل بالله وعدم رده.

ما يستفاد من الحديث:

١ - أَنَّه لا يرد من سأل بالله إجلالًا لله وتعظيمًا له.

٢ - أنَّ من استعاذ بالله وجبت إعاذته ودفع الشر عنه.

٣- مشروعية إجابة دعوة المسلم لوليمةٍ أو غيرها.

٤- مشروعية مكافأة المحسن عند القدرة.

٥- مشروعية الدعاء للمحسن عند العجز عن مكافأته.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

۞ **قوله**: «باب: لا يرد من سأل بالله»:

هذا الباب مع الباب الذي قبله ومع ما سبقه -كما ذكرنا- كلها في تعظيم الله -جل وعلا- وربوبيته وأسمائه وصفاته؛ لأن تعظيم ذلك من إكمال التوحيد ومن تحقيق التوحيد، ومن سأل بالله -جل جلاله- فقد سأل بعظيم، ومن استعاذ بالله فقد استعاذ بعظيم، بل استعاذ بمن له هذا الملكوت، وله تدبير الأمر -جل وعلا- فكيف يرد من جعل مالك كل شيء وسيلة؟ ولهذا كان من تعظيم الله التعظيم الواجب ألا يردّ أحد سأل بالله -جل وعلا- فإذا سأل سؤالًا وجعل الله -جل وعلا- هو الوسيلة فإنه لا يجوز أن يرد تعظيمًا لله -جل وعلا- والذي في قلبه تعظيم الله -جل وعلا- ينتفض إذا ذكر الله كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال: ٢] بمجرد ذكر الله تجل القلوب لعلمهم بالله -جل وعلا- وما يستحق، وعلمهم بتدبيره وملكوته، وعظمة صفاته وأسمائه -جل وعلا- فإذا سأل أحد بالله

فإن قلب الموحد لا يكون رادًّا؛ لأنه معظِّم لله مجلٌ لله -جل وعلا- فلا يرد أحدًا جعل وسيلته إليه رب العزة سبحانه وتعالىٰ.

ومن أهل العلم من قال: «**إن السائل بالله قد تجب إجابته ويحرم رده، وقد لا يجب ذلك**» وهذا القول هو قول شيخ الإسلام ابن تيمية واختيار عدد من المحققين بعده، وهو القول الثالث في المسألة.

وأما القول الأول: فهو أن من سأل بالله حرُم أن يرد مطلقًا.

والقول الثاني: أن من سأل بالله استحب إجابته، وكره رده.

ومراد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحالة الوجوب: أن يتوجه السؤال إلىٰ معين في أمر معين، يعني: ألا يكون السائل عددًا من الناس بالله، ليحصل علىٰ شيء، فلهذا لم يدخل فيه السائل الفقير الذي يأتي فيسأل هذا ويسأل هذا كما لم يدخل فيه من يكون كاذبًا في سؤاله، أما إذا لم يتوجه إلىٰ معين في أمر معين، فإنه لا يجب عليه أن يؤتيه مطلبه ويجوز له أن يرد سؤاله، وعلىٰ هذا التفصيل يكون للمسألة ثلاثة أحوال:

حال يحرم فيها رد السائل، وحال يكره فيها رد السائل، وحال يباح فيها رد السائل بالله.

فيحرم رد السائل بالله إذا توجه إلىٰ معين في أمر معين، كما إذا خصّك بهذا التوجه، وسألك بالله أن تعينه وأنت قادر علىٰ أن تؤتيه مطلوبه.

ويستحب إذا كان التوجه ليس إلىٰ معين، كأن يسأل أشخاصًا كثيرين، ويباح إذا كان من سأل بالله يعرف منه الكذب.

قوله: «**باب لا يرد من سأل بالله**» فيه عموم لأجل الحديث الوارد.

❁ **قوله**: «**عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: من سأل بالله فأعطوه**»:

وإنما وجب إعطاؤه تعظيمًا لله جل وعلا.

«**ومن استعاذ بالله فأعيذوه**» من استعاذ منك بالله فيجب أن تعيذه، فمن قال: أعوذ بالله منك، تعظيمًا لله -جل وعلا- تجيبه إلىٰ ذلك وتتركه؛ لأن من استعاذ بالله فقد استعاذ بأعظم مستعاذ به، وفي قصة الجَوْنِيَّة التي دخل عليها النبي عليه الصلاة والسلام واقترب منها، قالت له: أعوذ بالله منك، فابتعد عنها عليه الصلاة والسلام وقال: «**لقد استعذتِ بمعاذٍ، ألحقي بأهلكِ**»(٥٩٢). فلما استعاذت بالله منه تركها عليه الصلاة والسلام.

---

(٥٩٢) أخرجه البخاري، كتاب: الطلاق، باب: من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق؟ برقم (٥٢٥٤) وغيره من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

قوله: «**ومن دعاكم فأجيبوه**» عامة أهل العلم علىٰ أن هذا مخصوص بدعوة العرس، وأما سائر الدعوات فهي علىٰ الاستحباب.

قوله: «**ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه**» من صنع إليك معروفًا فكافئه، ولتكن مكافأته من جنس معروفه، فإن كان معروفه من جهة المال فكافئه من جهة المال، وإن كان معروفه من جهة الجاه فكافئه من جهة الجاه، وهكذا.

وعلاقة هذا بالتوحيد كما قال المحققون: أن الذي صُنع له معروف يكون في قلبه ميل ونوع تذلل وخضوع في قلبه واسترواح لهذا الذي صنع إليه المعروف، ومعلوم أن تحقيق التوحيد لا يتم إلا بأن يكون القلب خاليًا من كل ما سوىٰ الله -جل جلاله- وأن يكون ذله وخضوعه وعرفانه بالجميل هو لله -جل وعلا- وتخليص القلب من ذلك يكون بالمكافأة علىٰ المعروف، وأنه إذا أدّىٰ إليك معروفًا فخلّص القلب من رؤية ذلك المعروف بأن ترد إليه معروفه، ولهذا قال: «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتىٰ تروا أنكم كافأتموه**» لأجل أن يتخلّص القلب من أثر ذلك المعروف، فترىٰ أنك دعوت له بقدرٍ ترجو معه أنك كافأته، وهذا لتخليص القلب مما سوىٰ الله -جل وعلا- وهذه مقامات لا يدركها إلا أرباب الإخلاص، وتحقيق التوحيد جعلنا الله وإياكم منهم.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: إعاذة من استعاذ بالله، أي: إنه يكف عنه تعظيمًا للمستعاذ به وهو الله.

الثانية: إعطاء من سأل بالله، أي: تعظيمًا للمسئول به إذا لم يكن علىٰ المسئول ضرر وإلا ففي الحديث: « لا ضرر ولا ضرار».

الثالثة: إجابة الدعوة، أي لقوله: «ومن دعاكم فأجيبوه»، وهذا إذا لم يكن ثم مانع من الإجابة.

الرابعة: المكافأة علىٰ الصنيعة، أي لقوله: ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه، أي لقوله: فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له.

السادسة: قوله: حتىٰ ترون أنكم قد كافأتموه، بمعنىٰ: أي: تعلموا علىٰ رواية من رواه بفتح التاء،وبمعنىٰ: تظنوا علىٰ رواية من رواه بضمها.



* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن رد من سأل بالله مما ينافي كمال التوحيد؛ لأن رده دليل على عدم إعظام الله تعالىٰ.

قوله: «عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: من سأل بالله فأعطوه ومن...».

س: ما المقصود بقوله ﷺ: «من سأل بالله فأعطوه»؟

جـ: أي: إذا قال أسألك بالله أو بوجه الله فأعطوه ما سأل ما لم يسأل حرامًا تعظيمًا لله.

س: ما معنى قوله: «ومن استعاذ بالله فأعيذوه»؟

جـ: أي: من استجار بالله فأجيروه فإذا قال أعوذ بالله من شرك أو من شر فلان فادفعوا الشر عنه.

س: ما المراد بقوله: «من دعاكم فأجيبوه»؟

جـ: أي: من دعاكم إلىٰ طعام ونحوه فأجيبوا دعوته وهذا من حقوق المسلمين بعضهم علىٰ بعض وهو من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين.

س: ما معنى قوله: «ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه»؟

جـ: أي: من أحسن إليكم فجازوه علىٰ إحسانه والمكافأة علىٰ المعروف من المروءة التي يحبها الله ورسوله.

س: لماذا أمر بمكافأة المعروف؟

جـ: ليخلص القلب من إحسان الخلق؛ لأنك إذا لم تكافئ من أحسن إليك بقىٰ في قلبك له نوع عبودية فشرع قطع ذلك بالمكافأة.

س: ما المقصود بقوله ﷺ: «فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له»؟

جـ: أي: إذا لم تقدروا علىٰ مكافأة من أحسن إليكم فادعوا له. أرشدهم ﷺ إلىٰ أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة مكافأة للمعروف فقد قال ﷺ: «**من صنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيرًا فقد أبلغ في الثناء**»

س: ما معنى قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه»؟

جـ: أي: حتىٰ تظنوا أو تعلموا أنكم قد قمتم بمكافأته.

س: ما هو الشاهد من حديث ابن عمر المتقدم للباب؟ وما الذي يستفاد منه؟

جـ: قوله: «ومن سألكم بالله فأعطوه»

ويستفاد منه:

١ - وجوب إعاذة من استعاذ بالله.

٢ - وجوب إعطاء من سأل بالله ما لم يسأل حرامًا أو مكروهًا.

٣ - الحث علىٰ إجابة الدعوة.

٤ - الترغيب في المكافأة علىٰ المعروف.

٥ - أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



الدرس السادس والخمسون:

باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»(٥٩٣). رواه أبو داود.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يُسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله**: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»:

أي: لا يجوز ذلك، إجلالًا لله وإكرامًا وإعظامًا له أن يسأل بوجهه العظيم ما هو حقير لديه من حوائج الدنيا، ما لم يرد به غاية المطالب وهي الجنة، أو الإعانة على أعمال الآخرة الموصلة إلى الجنة، وأما سؤال المخلوق بوجه الله، فتقدم النهي عنه في الباب قبله.

❁ **قوله**: «عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»:

روي بالنفي والنهي، وبالبناء للمجهول، وهو الذي في الأصل، وروي بالخطاب للمفرد؛ أي: لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، أو ما هو وسيلة إلى الجنة، وذكر الجنة إنما هو للتنبيه على الأمور العظام، لا للتخصيص، فقد قال ﷺ في دعائه منصرفه من الطائف حين كذبوه: «**اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي**»، وفي آخره: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات**»(٥٩٤). وحديث: «**اللهم أنت أحق من ذكر**»، وفي آخره: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض**»(٥٩٥). وحديث: «**أعوذ بوجه**

---

(٥٩٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الزكاة، باب: كراهية المسألة بوجه الله تعالى، برقم (١٦٧١) من حديث جابر رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(٥٩٤) أخرجه الطبراني في «الدعاء»، برقم(١٠٣٦) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة»، برقم (٢٩٣٣).

(٥٩٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٦٤) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٨): «رواه الطبراني وفيه فضال بن جبير، وهو ضعيف مجمع على ضعفه».

الله الكريم، وباسم الله العظيم، وبكلماته التامة»[٥٩٦] وأمثال ذلك مما هو ثابت عن النبي ﷺ وهو سؤال ما يقرب إلى الجنة، أو يمنع من الأعمال التي تمنع منها، فيكون السائل قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة، كما في الصحيح: «**اللهم إني أسألك الجنة، وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل**»[٥٩٧]. بخلاف ما يختص بالدنيا، كسؤال المال، والسعة في المعيشة رغبة في الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة، فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله، إعظامًا لله وإجلالًا له، وفيه إثبات الوجه لله كما دل عليه الكتاب والسنة، وهو صفة كمال لله يجب إثباته لله على ما يليق بعظمته وجلاله، من غير تكييف ولا تمثيل. وتأويل الجهمية له بالذات باطل، إذ لا يسمى ذات الشيء وحقيقته وجهًا.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله**: «**باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**»:

هذا خطاب للسائل: وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته وأن لا يسأل شيئًا من المطالب الدنيوية بوجه الله. بل لا يُسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد، وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم، ورضا الرب، والنظر إلى وجهه الكريم، والتلذذ بخطابه. فهذا المطلب الأسنى هو الذي يُسأل بوجه الله.

وأما المطالب الدنيوية والأمور الدنيئة وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه، فإنه لا يسأل بوجهه.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله**: «**باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**»:

هذا فيه: أنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة.

❁ **قوله**: «**عن جابر مرفوعًا: لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**[٥٩٨] **رواه أبو داود**»:

وذلك لأن الجنة هي أعلى المطالب وفيه النظر إلى وجه الله سبحانه، وفيها النعيم المقيم، ووجه الله له شرفه العظيم فلا يسأل به إلا الجنة.

---

(٥٩٦) أخرجه، النسائي في «الكبرى» (٦/ ١٩١)، والطبراني في «المعجم الأوسط»، برقم(٦٧٧٩)، و«الصغير»، برقم (٩٩٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٧٢): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه حماد بن عبد الرحمن وهو ضعيف».

(٥٩٧) أخرجه، ابن ماجه، كتاب: الدعاء، باب: الجوامع من الدعاء، برقم (٣٨٤٦)، وأحمد (٦/ ١٣٣، ١٤٦)، وابن حبان، برقم (٨٦٩) وغيرهم، من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»

(٥٩٨) سبق تخريجه.

وكذلك ما يقرب إليها كأن يسأل الإخلاص، والتوفيق للخير، والاستقامة على الطاعة، فما يقرب إلى الجنة هو من طلب الجنة.

وهذا من كمال التوحيد والإيمان ألا يسأل بوجه الله إلا الجنة أو ما يُقرب إليها كالعمل الصالح والاستقامة والعافية من مضلات الفتن.

وإسناد الحديث فيه لين وضعف لكنه ينجبر بما جاء في الروايات الأخرى من النهي عن السؤال بوجه الله، فيكون هذا خاصًا بالسؤال بوجه الله الكريم أو ما يقرب إليها وما يدعو إليها.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله**: «باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»:

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن فيه تعظيم وجه الله ﷻ، بحيث لا يسأل به إلا الجنة.

❁ **قوله**: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة: اختلف في المراد بذلك على قولين»:

القول الأول: أن المراد: لا تسألوا أحدًا من المخلوقين بوجه الله، فإذا أردت أن تسأل أحدًا من المخلوقين؛ فلا تسأله بوجه الله، لأنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، والخلق لا يقدرون على إعطاء الجنة فإذًا لا يسألون بوجه الله مطلقًا، ويظهر أن المؤلف يرى هذا الرأي في شرح الحديث، ولذلك ذكره بعد «**باب لا يرد من سأل بالله**».

القول الثاني: أنك إذا سألت الله، فإن سألت الجنة وما يستلزم دخولها، فلا حرج أن تسأل بوجه الله، وإن سألت شيئًا من أمور الدنيا، فلا تسأله بوجه الله، لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشيء من أمور الدنيا.

فأمور الآخرة تسأل بوجه الله؛ كقولك مثلًا: أسألك بوجهك أن تنجيني من النار، والنبي ﷺ استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالى: « ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قال: أعوذ بوجهك، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: أعوذ بوجهك، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥] قال: **هذه أهون أو أيسر**» (٥٩٩).

---

(٥٩٩) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: سورة الأنعام، باب: قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، برقم (٤٦٢٨) وغيره من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

ولو قيل: إنه يشمل المعنيين جميعًا، لكان له وجه.

وقوله: «بوجه الله». فيه إثبات الوجه لله ﷻ، وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السلف، فالقرآن في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٢٢]، والآيات كثيرة.

والسنة كما في الحديث السابق: «أعوذ بوجهك»(٦٠٠).

واختلف في هذا الوجه الذي أضافه الله إلىٰ نفسه: هل هو وجه حقيقي، أو أنه وجه يعبر به عن الذات وليس لله وجه بل له ذات، أو أنه يعبر به عن الشيء الذي يراد به وجهه وليس هو الوجه الحقيقي، أو أنه يعبر به عن الجهة، أو أنه يعبر به عن الثواب؟

فيه خلاف، لكن هدىٰ الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فقالوا: إنه وجه حقيقي؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، ولما أراد غير ذاته، قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨]، فـ ﴿ذِي﴾ صفة لرب وليست صفة لاسم، و ﴿ذُو﴾ صفة لوجه وليست صفة لرب، فإذا كان الوجه موصوفًا بالجلال والإكرام، فلا يمكن أن يراد به الثواب أو الجهة أو الذات وحدها؛ لأن الوجه غير الذات.

وقال أهل التعطيل: إن الوجه عبارة عن الذات أو الجهة أو الثواب، قالوا: ولو أثبتنا لله وجهًا حقيقيًّا للزم أن يكون جسمًا، والأجسام متماثلة، ويلزم من ذلك إثبات المثل لله ﷻ والله تعالىٰ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١]، وإثبات المثل تكذيب للقرآن، وأنتم يا أهل السنة تقولون: إن من اعتقد أن لله مثيلًا فيما يختص به فهو كافر، فنقول لهم:

أولًا: ما تعنون بالجسم الذي فررتم منه، أتعنون به المركب من عظام وأعصاب ولحم ودم بحيث يفتقر كل جزء منه إلىٰ الآخر؟ إن أردتم ذلك، فنحن نوافقكم أن الله ليس علىٰ هذا الوجه ولا يمكن أن يكون كذلك، وإن أردتم بالجسم الذات الحقيقية المتصفة بصفات الكمال؛ فلا محذور في ذلك والله تعالىٰ وصف نفسه بأنه أحد صمد، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١ - ٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصمد: الذي لا جوف له(٦٠١)

---

(٦٠٠) سبق تخريجه.

(٦٠١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٣٤٤) بنحوه من قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ثانيًا: قولكم: إن الأجسام متماثلة قضية من أكذب القضايا؛ فهل جسم الدب مثل جسم النملة؟ فبينهما تباين عظيم في الحجم والرقة واللين وغير ذلك. فإذا بطلت هذه الحجة بطلت النتيجة وهي استلزام مماثلة الله لخلقه.

ونحن نشاهد البشر لا يتفقون في الوجوه؛ فلا تجد اثنين متماثلين من كل وجه ولو كانا توأمين، بل قالوا: إن عروق الرجل واليد غير متماثلة من شخص إلىٰ آخر.

ويلاحظ أن التعبير بنفي المماثلة أولىٰ من التعبير بنفي المشابهة؛ لأنه اللفظ الذي جاء به القرآن؛ ولأنه ما من شيئين موجودين إلا ويشتبهان من وجه ويفترقان من وجه آخر، فنفي مطلق المشابهة لا يصح، وقد تقدم.

وأما حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم علىٰ صورته**»(٦٠٢)؛ ووجه الله لا يماثل أوجه المخلوقين؛ فيجاب عنه: بأنه لا يراد به صورة تماثل صورة الرب ﷻ بإجماع المسلمين والعقلاء؛ لأن الله ﷻ وسع كرسيه السماوات والأرض، والسماوات والأرضون كلها بالنسبة للكرسي - موضع القدمين - كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وفضل العرش علىٰ الكرسي كفضل الفلاة علىٰ هذه الحلقة؛ فما ظنك برب العالمين؟ فلا أحد يحيط به وصفًا ولا تخييلًا، ومن هذا وصفه لا يمكن أن يكون علىٰ صورة آدم ستون ذراعًا، وإنما يراد به أحد معنيين:

الأول: أن الله خلق آدم علىٰ صورة اختارها وجعلها أحسن صورة في الوجه، وعلي هذا؛ فلا ينبغي أن يقبح أو يضرب؛ لأنه لما أضافه إلىٰ نفسه اقتضىٰ من الإكرام ما لا ينبغي معه أن يقبح أو أن يضرب.

الثاني: أن الله خلق آدم علىٰ صورة الله ﷻ ولا يلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله ﷺ: «**إن أول زمرة تدخل الجنة علىٰ صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم علىٰ أضوء كوكب في السماء**»(٦٠٣)، ولا يلزم أن يكون علىٰ صورة نفس القمر؛ لأن القمر أكبر من أهل الجنة، وأهل الجنة يدخلونها طول أحدهم ستون ذراعًا، وعرضه سبعة أذرع كما في بعض الأحاديث.

---

(٦٠٢) أخرجه البخاري، كتاب: الاستئذان، باب: بدء السلام، برقم (٦٢٢٧)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن ضرب الوجه، برقم (٢٦١٢/ ١١٥) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦٠٣) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٤٦)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: أول زمرة تدخل الجنة علىٰ صورة القمر ليلة البدر، برقم (٢٨٣٤) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقال بعض أهل العلم: علىٰ صورته؛ أي: صورة آدم؛ أي: أن الله خلق آدم أول أمره علىٰ هذه الصورة، وليس كبنيه يتدرج في الإنشاء نطفة ثم علقة ثم مضغة.

لكن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنكر هذا التأويل، وقال: هذا تأويل الجهمية، ولأنه يفقد الحديث معناه، وأيضًا يعارضه اللفظ الآخر المفسر للضمير وهو بلفظ: «**علىٰ صورة الرحمن**»(٦٠٤).

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب: تؤخذ من حديث الباب، وهذا الحديث ضعفه بعض أهل العلم، لكن علىٰ تقدير صحته؛ فإنه من الأدب أن لا تسأل بوجه الله إلا ما كان من أمر الآخرة: الفوز بالجنة، أو النجاة من النار.

الثانية: إثبات صفة الوجه: وقد سبق الكلام عليه.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه يجب احترام أسماء الله وصفاته؛ فلا يسأل شيء من المطالب الدنيوية بوجهه الكريم؛ بل يُسأل به أهم المطالب وأعظم المقاصد وهو الجنة، فهذا من حقوق التوحيد.

❁ **قوله**: «لا يسأل»:

رُوي بالنفي وروي بالنهي.

بوجه الله: هو صفة من صفاته الذاتية يليق بجلاله وعظمته.

إلاَّ الجنة: أو ما هو وسيلة إليها من المقاصد العظام.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

ينهىٰ ﷺ أن يُسأل بوجه الله الكريم الأمور الحقيرة وحوائج الدنيا؛ إجلالًا لله وتعظيمًا له، ويقصر ﷺ السؤال بوجه الله علىٰ الجنة التي هي غاية المطالب.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي عن أن يسأل بوجه الله غير الجنة.

---

(٦٠٤) أخرجه الطبراني (١٢/ ٤٣٠) من حديث ابن عمر رَضِحَالِلَّهُعَنْهُمَا، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة»، برقم (١١٧٦).

ما يستفاد من الحديث:

١- إثبات الوجه لله سبحانه على ما يليق بجلاله كسائر صفاته.

٢- وجوب تعظيم الله واحترام أسمائه وصفاته.

٣- جواز سؤال الجنة - والأمور الموصلة إليها - بوجه الله والمنع من أن يسأل به شيء من حوائج الدنيا.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»:

هذا باب: «**لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة**» ومناسبته لكتاب التوحيد ظاهرة في تعظيم صفات الله -جل وعلا- الذاتية والفعلية من تحقيق التوحيد، ومن كمال الأدب والتعظيم لله -جل وعلا- فإن تعظيم الله -جل جلاله- وتعظيم أسمائه وصفاته يكون بأمور كثيرة، منها: ألا يسأل بوجه الله أو بصفات الله -جل جلاله- إلا المطالب العظيمة التي أعلاها الجنة.

قوله: «**لا يُسأل**» هذا نفي مضمّن النهي المؤكد، كأنه قال: لا يسأل أحد بوجه الله إلا الجنة، أو لا تسأل بوجه الله إلا الجنة، فعدل عن النهي إلى النفي؛ لكي يتضمن أن هذا منهي عنه وأنه لا يسوغ وقوعه أصلًا، لما يجب من تعظيم الله -جل جلاله- وتعظيم توحيده، وتعظيم أسماء الله -جل وعلا- وصفاته.

قوله: «**بوجه الله**» وجه الله -جل جلاله- صفة ذات من صفاته سبحانه، وهو غير الذات. والوجه في اللغة: ما يواجه به، وهو مجمع أكثر الصفات في اللغة، فالله -جل وعلا- متصف بالوجه على ما يليق بجلاله وعظمته، نثبت ذلك إثباتًا نعلم أصل المعنى، ولكن كمال المعنى أو الكيفية فإننا نكل ذلك إلى عالمه وإلى المتصف به -جل جلاله- ولكن نثبت على أصل عدم التمثيل والتعطيل، كما قال جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾ [الشورى: ١١].

قوله: «**إلا الجنة**» الجنة: هي دار الكرامة التي أعدها الله -جل وعلا- للمكلفين من عباده الذين أجابوا رسله، ووحدوه، وعملوا صالحًا، وهي أعظم مطلوب؛ لأن الحصول عليها حصول على أعظم ما يُسرُّ به العبد، فلهذا كان من غير السائغ واللائق بل كان من غير الجائز أن يُسأل الله -جل وعلا- بنفسه أو بوجهه أو بصفة من صفاته أو باسم من أسمائه الحسنى إلا أعظم مطلوب، فإن الله -جل وعلا- لا يُسأل بصفاته الأشياء الحقيرة الوضيعة، بل يسأل بها أعظم المطلوب، وذلك لكي يتناسب السؤال مع وسيلة السؤال، وهذا معنى هذا الباب، وهو أن من تعظيم

صفات الله -جل وعلا- ألّا تدعو الله بها إلا في الأمور الجليلة، فلا تسأل الله -جل وعلا- بوجهه أو باسمه الأعظم أو نحو ذلك في أمور حقيرة وضيعة لا تناسب تعظيم ذلك الاسم.

قوله: «عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**»:

رواه أبو داود ودلالة الحديث على ما بوّب له الإمام المصنف -رحمه الله تعالى- ظاهرة جلية، وقد قال العلماء هنا: إن وجه الله -جل وعلا- يسأل به الجنة، ولا يجوز أن يسأل به غيرها إلا ما كان وسيلة إلى الجنة، أو كان من الأمور العظيمة التي هي من جنس السؤال بالجنة، أو من لوازم السؤال بالجنة كالنجاة من النار، وكالتثبيت عند السؤال، ونحو ذلك.

فالأمر المطلوب الجنة أو ما قرّب إليها من قول أو عمل، والنجاة من النار أو ما قرب إليها من قول وعمل، فهذا يجوز أن تسأل الله -جل وعلا- إياه متوسلًا بوجهه العظيم سبحانه وتعالى.

وأما غير الوجه من الصفات أو من الأسماء فالأدب ألّا يسأل به إلا المطالب العظيمة، أما المطالب الوضيعة أو غيرها مما ليس بعظيم فلا يتوسل إليها بصفات الله الجليلة العظيمة، بل يقال: اللهم أعطني كذا، اللهم، أسألك كذا، والله أعلم.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجهه إلا غاية المطالب، أي: الجنة وما يقرب إليها ويباعد من النار وذلك تعظيمًا لوجه الله.

الثانية: إثبات صفة الوجه، أي: لله على ما يليق بجلاله وعظمته، وقد تقدم الجواب عن قول المؤلف فيه مسائل مع أنه لم يذكر إلا مسألتين في الكلام على مسائل باب النشرة.



* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن السؤال بوجه الله غير الجنة معصية ينافي كمال التوحيد حيث نهىٰ عنه ولعن فاعله.

۞ قوله: «عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة...»:

س: اشرح هذا الحديث واذكر ما يستفاد منه؟

جـ: هذا الحديث خطاب للسائل وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته، وأن لا يسأل شيئًا من المطالب الدنيوية بوجه الله بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم، ورضىٰ الرب والنظر إلىٰ وجهه الكريم، والتلذذ بخطابه فهذا المطلب الأسنىٰ هو الذي يسأل بوجه الله، وأما المطالب الدنيوية والأمور الدينية وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه فإنه لا يسألها بوجه الله، فقد جاء الوعيد علىٰ ذلك ففي الحديث: «ملعون من سأل بوجه الله وملعون من سُئل بوجه الله فمنع سائله ما لم يسأل هجرًا» (٦٠٥)

ويستفاد من الحديث:

١ - أنه لا يُسأل بوجه الله إلا أهم المطالب وهي الجنة.

٢ - إثبات صفة الوجه لله تعالىٰ كما يليق بجلاله وعظمته.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



(٦٠٥)

الدرس السابع والخمسون:

باب ما جاء في الـ «لو»

وقول الله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آل عمران:١٥٤]

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٦٨].

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»(٦٠٦).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الآيتين في آل عمران.

الثانية: النهي الصريح عن قول: «لو»، إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

الرابعة: الإرشاد إلىٰ الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص علىٰ ما ينفع مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك، وهو العجز.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب ما جاء في الـ«لو»»:

أي: من الوعيد والنهي عنه، والذم لمن عارض به عند الأمور المكروهة كالمصائب إذا جرىٰ بها القدر، لما فيه من الإشعار بعدم الصبر، والأسىٰ علىٰ ما فات مما لا يمكن استدراكه، والمضادة لكمال التوحيد، فالممنوع في (لو) التلهف علىٰ أمور الدنيا طلبًا أو هربًا، لا تمني القربات.

(٦٠٦) أخرجه، مسلم، كتاب: القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز...، برقم (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب: في القدر، برقم (٧٩) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❁ **قوله**: «وقول الله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ الآية»:

أي: يسر بعض المنافقين هذه المقالة في أنفسهم يوم أحد، معارضة للقدر، وروىٰ ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن الزبير(٦٠٧): «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف، أرسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير - ما أسمعه إلا كالحلم -: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[آل عمران:١٥٤] فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله هذه الآية، لقول معتب، ورد الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران:١٥٤]؛ أي: هذا قدر مقدر من الله، حتم لازم لا محيد عنه، والتلهف وقول «لو» لا يجدي إلا الحزن والتحسر، مع ما يخالط التوحيد من المعاندة للقدر الذي لا يكاد يسلم منها من وقع منه إلا من شاء الله.

❁ **قوله**: «وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ الآية»:

وهذه أيضًا معارضة للقدر من المنافقين بقولهم لمن خرج مع رسول الله ﷺ يوم أحد: لو سمعوا مشاورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾[آل عمران:١٥٨]؛ أي: إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل أو الموت فينبغي أن لا تموتوا، والموت لا بد آت إليكم: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء:٧٨] فادفعوا عن أنفسكم الموت، إن كنتم صادقين فيما تدعونه. قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي، يعني: أنه هو الذي قال ذلك، قال شيخ الإسلام - لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أبي في غزوة أحد قال -: فلما انخزل يوم أحد وقال: يدع رأيي ورأيه، ويأخذ برأي الصبيان أو كما قال انخزل معه خلق كثير كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك، فأولئك كانوا مسلمين، وكان معهم إيمان هو الضوء الذي ضرب الله به المثل، وهذا كثير في زماننا أو أكثرهم إذا ابتلوا بالمحنة التي يتضعضع فيها أهل الإيمان نقص إيمانهم كثيرًا، وينافق كثير منهم، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالبًا، وقد رأينا مثل هذا ورأىٰ غيرنا من هذا ما فيه عبرة. قال الشارح: ونحن رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو من إعانتهم العدو علىٰ المسلمين، وإظهار العداوة لهم والطعن في الدين.

(٦٠٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٢٣٠).

❁ **قوله: «في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: احرص على ما ينفعك»:**

الحديث في صحيح مسلم، وأوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص**»[(٦٠٨)] بالكسر والفتح من باب ضرب وسمع، بذل الجد واستفراغ الوسع «**على ما ينفعك**»؛ يعني: في معاشك ومعادك، وذلك هو سعادة الإنسان، وكماله كله في هذين الأمرين أن يكون حريصًا، وأن يكون على ما ينتفع به، والمراد الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه، مما شرعه الله لعباده من الأسباب الواجبة أو المستحبة أو المباحة.

❁ **قوله: «واستعن بالله»:**

لأنه لا يحصل له ذلك إلا إذا كان مستعينًا بالله، فإذا كان حريصًا على ما ينفعه، وكان في حالة السبب مستعينًا بالله وحده، معتمدًا عليه، تم مراده بإذن الله وحرصه على ما ينفعه عبادة لله واستعانة به وتوكلًا عليه: توحيد، فهو مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

قوله: «ولا تعجزن» بفتح الجيم وكسرها ونون التوكيد مخففة، والعجز ينافي الحرص على ما ينفع، وينافي الاستعانة بالله، فنهاه عن العجز وذمه، والعجز مذموم عقلًا وشرعًا، وأرشده قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بالله، وفي الحديث: «**الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**»[(٦٠٩)].

❁ **قوله: «وإن إصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان...»:**

أي وإن غلبك أمر ولم يحصل المقصود بعد بذل الجد والاستطاعة فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، فإنه لا يجدي عليك شيئًا، ولكن قل: قدر الله؛ لأن ما قدره لا بد أن يكون، والواجب التسليم للمقدور، وما شاء فعل؛ لأن أفعاله لا تصدر إلا عن حكمه. قال ابن القيم: والعبد إذا فاته المقدور له حالتان: حالة عجز وهي عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة فيها، بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والحزن، وهذا من عمل الشيطان، فنهاه عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية وهي النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر لم يفته ولم يغلبه عليه أحد، فقال: «**وإن أصابك**»... إلخ، فأرشده إلى

---

(٦٠٨) سبق تخريجه.

(٦٠٩) أخرجه، الترمذي: كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (٢٥)، برقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد، برقم (٤٢٦٠)، وأحمد (٤/ ١٢٤) وغيرهم من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

ما ينفعه حال حصول مطلوبه وحال فواته، ونهاه عن قول «لو»، وأخبره أنها تفتح عمل الشيطان، لما فيها من التأسف على ما فات، والتحسر والحزن ولوم القدر، فيأثم بذلك، وذلك من عمل الشيطان. وما ذاك لمجرد لفظ «لو»، بل لما قارنها من الأمور القائمة بقلبه، المنافية لكمال الإيمان، الفاتحة لعمل الشيطان، وأرشده إلى الإيمان بالقدر، والتفويض والتسليم للمشيئة، فهذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد، وهو يتضمن إثبات القدر، وإثبات الكسب، والقيام بالعبودية. وقال شيخ الإسلام في معنى الحديث(٦١٠): لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع من مقدور، ومن الناس من يجمع كلا الشرين، فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع، والاستعانة بالله، والأمر يقتضي الوجوب وإلا فالاستحباب، ونهى عن العجز، وقال: «**إن الله يلوم على العجز**»(٦١١) فعلى العبد أن يستقبل فعله الذي يدفع به أو يخفف، ولا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه، فإنه عجز محض، والله يلوم على العجز، ويحب الكيس ويأمر به، والكيس هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها، النافعة للعبد في معاشه ومعاده. وورد الأمر بالصبر والنهي عن العجز في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين:

أمر أُمر بفعله، فعليه أن يفعله ويحرص عليه، ويستعين الله ولا يعجز.

وأمر أصيب به من غير فعله، فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه. قال: والصبر واجب، والرضى درجة عالية، والإيمان بالقدر فرض، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[الحديد:٢٢-٢٣]. وليس العبد مأمورًا أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال، ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن:١١]. قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. ولما قال آدم لموسى: أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن أُخلق بأربعين سنة: حَجَّهُ؛ لأن موسى قال له: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة، فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله؛ لا لأجل كونها ذنبًا، وأما كونه لأجل الذنب فليس مرادًا له؛ فإن آدم قد تاب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لومه بالاتفاق. وأما قوله ﷺ: «**لولا أن أشق على أمتي**

---

(٦١٠) انظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/ ٣٨).

(٦١١) أخرجه أبو داود، كتاب: الأقضية، باب: الرجل يحلف على حقه، برقم (٣٦٢٧)، وأحمد (٦/ ٢٤)، والطبراني(١٨/ ٧٥) وغيرهم، من حديث عوف بن مالك ﷺ، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود».

لأمرتهم بالسواك»[٦١٢]. ونحو ذلك فمستقبل، لا اعتراض فيه علىٰ قدر ولا كراهة فيه؛ لأنه إنما أخبر عن مراده فيما كان يفعل لولا المانع، وكذلك قوله: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي**»[٦١٣]. ونحوه فهو إخبار لهم عما كان يفعل في المستقبل لو حصل، ولا خلاف في جواز ذلك، وإنما ينهىٰ عما هو في معارضة القدر، أو مع اعتقاد أن ذلك المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدور.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في الـ«لو»»:

اعلم أن استعمال العبد للفظة «لو» يقع علىٰ قسمين: مذموم ومحمود

أما المذموم فكأن يقع منه أو عليه أمر لا يحبه فيقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا فهذا من عمل الشيطان؛ لأن فيه محذورين:

أحدهما: أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذي ينبغي له إغلاقه، وليس فيها نفع.

الثاني: أن في ذلك سوء أدب علىٰ الله وعلىٰ قدره، فإن الأمور كلها والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره، وما وقع من الأمور فلا بد من وقوعه ولا يمكن رده.

فكان في قوله: لو كان كذا أو لو فعلت كذا كان كذا نوع اعتراض ونوع ضعف إيمان بقضاء الله وقدره.

ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد إلا بتركهما.

وأما المحمود من ذلك فأن يقولها العبد تمنيًا للخير كقوله ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولأهللت بالعمرة**»[٦١٤] وقوله في الرجل المتمني للخير «**لو أن لي مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان**»[٦١٥] و«**لو صبر أخي موسىٰ لقص الله علينا من نبأهما**»[٦١٦]؛ أي: في قصته مع الخضر.

---

(٦١٢) أخرجه، البخاري، كتاب: الجمعة، باب: السواك يوم الجمعة، برقم (٨٨٧)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: السواك، برقم (٢٥٢) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦١٣) أخرجه، البخاري، كتاب: التمني، باب: قول النبي ﷺ «لو استقبلت من أمري ما استدبرت»، برقم (٧٢٢٩)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: بيان وجوه الإحرام، برقم (١٢١٦/ ١٤١) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦١٤) سبق تخريجه.

(٦١٥) أخرجه، البخاري: كتاب: فضائل القرآن، باب: اغتباط صاحب القرآن، برقم (٥٠٢٦) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦١٦) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم...، برقم (١٢٢)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، برقم (٢٣٨٠) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

وكما أن «لو» إذا قالها متمنيًا للخير فهو محمود، فإذا قالها متمنيًا للشر فهو مذموم فاستعمال «لو» تكون بحسب الحال الحامل عليها.

إن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر، أو تمني الشر كان مذمومًا وإن حمل عليها الرغبة في الخير والإرشاد والتعليم كان محمودًا؛ ولهذا جعل المصنف الترجمة محتملة للأمرين.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «**باب ما جاء في الـ «لو»**»:

أي: في حكم هذه الكلمة وهل تجوز أو لا تجوز، والمقصود أنه لا ينبغي استعمالها لمعارضة القدر، بل يجب التسليم والصبر وعدم المعارضة للقدر بكلمة لو، عند موت قريب أو مرض أو مصيبة.

❁ **قوله:** «**وقوله تعالىٰ:** ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾»:

هذا ذم لهم وعيب.

❁ **قوله:** «﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾»:

فدل هذا علىٰ أنه لا يجوز استعمالها عند معارضة القدر في مرض أو هزيمة أو نحو ذلك وإن هذا من شأن المنافقين؛ لأن قدر الله ماض وشأنه نافذ وإنما شرع الأسباب لحكمة بالغة، فعلىٰ المسلم أن يتعاطىٰ الأسباب فإذا نزل القضاء فليس له أن يعترض بعد ذلك.

❁ **قوله:** «**وفي الصحيح عن أبي هريرة مرفوعًا: المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله...** »(٦١٧):

فإذا أصابك شيء فقل: «**قدر الله وما شاء فعل**»، وبعضهم ضبطها قدر الله وما شاء فعل أي: قدر الشيء الواقع، والمعنىٰ الأول أظهر؛ أي: أن هذا الواقع هو قدر الله؛ أي: مقدور الله ما شاء الله فعل.

لو تفتح عمل الشيطان؛ أي: تفتح علىٰ العبد عمل الشيطان أي: وساوسه وتشكيكه فينبغي للمؤمن أن يتجنبها حتىٰ لا يقع في حبائل الشيطان وإملائه ما لا ينبغي؛ لأن هذه أمور الله هو الذي قدرها؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] وقال ﷺ: «**ما من عبد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلفه خيرًا منها**»(٦١٨) فمثلًا إذا عولج مريض عند طبيب ثم مات لا يقولوا لو ذهبت به إلىٰ طبيب آخر أو الخارج...إلخ بل يقول: قدر الله وما شاء فعل، وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا يعترض بـ«لو».

---

(٦١٧) سبق تخريجه.

(٦١٨) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند المصيبة، برقم (٩١٨)، وأحمد (٦/ ٣٠٩) وغيرهما من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

أما إذا كانت «لو» لبيان ما ينبغي كقوله ﷺ: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت...»**(٦١٩) فهذا ليس اعتراضًا بل هو لبيان الأفضل، كقولك: لو علمت أن هذا واقع لفعلت كذا وكذا مما يبين للناس أنه الأفضل وكقول: لو علمت فلانًا مريضًا لزرته.

وما أشبه ذلك مما يخبر به عن أسفه على ما فات وليس على سبيل الاعتراض فهذا ليس داخلًا في الباب وإنما الممنوع الاعتراض على القدر.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «في الـ «لو»»:

دخلت «أل» على «لو» وهي لا تدخل إلا على الأسماء، قال ابن مالك:

بالجَرِّ والتَّنوينِ والنِّدَا وأل ومُسْنَدٍ للأسمِ تمييزٌ حَصَل

لأن المقصود بها اللفظ؛ أي: باب ما جاء في هذا اللفظ.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ جعل الترجمة مفتوحة ولم يجزم بشيء؛ لأن «لو» تستعمل على عدة أوجه:

الوجه الأول: أن تستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا محرم، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٦٨] في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أُبيّ في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلًا اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ، وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا، فرأينا خير من شرع محمد، وهذا محرم وقد يصل إلى الكفر.

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضًا، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٥٦]؛ أي: لو أنهم بقوا ما قتلوا، فهم يعترضون على قدر الله.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضًا؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه؛ لأن الندم يكسب النفس حزنًا وانقباضًا، والله يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط، قال ﷺ: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**(٦٢٠).

---

(٦١٩) سبق تخريجه.

(٦٢٠) سبق تخريجه.

مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئًا يظن أن فيه ربحًا فخسر، فقال لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة؛ فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيرًا، وقد نهي عنه.

الرابع: أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر علي المعصية، كقول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[الأنعام:١٤٨]، وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[الزخرف:٢٠]، وهذا باطل.

الخامس: أن تستعمل في التمني، وحكمه حسب المتمنىٰ: إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًا فشر، وفي الحديث عن النبيﷺ في قصة النفر الأربعة قال أحدهم: «**لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان؛ فهذا تمني خيرًا، وقال الثاني: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان. فهذا تمنىٰ شرًّا فقال النبيﷺ في الأول فهو بنيته فأجرهما سواء، وقال في الثاني: فهو بنيته، فوزرهما سواء**»(٦٢١).

السادس: أن تستعمل في الخبر المحض.

وهذا جائز، مثل: لو حضرت الدرس لاستفدت، ومنه قولهﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي، لأحللت معكم**»(٦٢٢)؛ فأخبر النبيﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدي ولأحل، وهذا هو الظاهر لي.

وبعضهم قال: إنه من باب التمني، كأنه قال: ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتىٰ لا أسوق الهدي.

لكن الظاهر: أنه خبر لما رأىٰ من أصحابه، والنبيﷺ لا يتمني شيئًا قدر الله خلافه.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

الآية الأولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ﴾: الضمير للمنافقين.

قوله: ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾؛ أي: ما قتل بعضنا؛ لأنهم لم يقتلوا كلهم؛ ولأن المقتول لا يقول.

قوله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾: ﴿لَوْ﴾: شرطية وفعل الشرط: ﴿كَانَ﴾، وجوابه: ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾، ولم يقترن الجواب باللام؛ لأن الأفصح إذا كان الجواب منفيًا عدم الاقتران، فقولك: لو جاء زيد ما جاء عمرو أفصح من قولك: لو جاء زيد لما جاء عمرو، وقد ورد قليلًا اقترانها مع النفي، كقول الشاعر:

ولَــوْ نُعْطَــىٰ الخِيَــار لَمَــا افْتَرَقْنَــا ... ولكِــنْ لا خِيَــارَ مَــع اللَّيَــالي

---

(٦٢١) أخرجه، الترمذي، كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا مثل أربعة نفر، برقم (٢٣٢٥)، وأحمد (٤/ ٢٣١) وغيرهما من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٦٢٢) سبق تخريجه.

قوله: ﴿هَٰهُنَا﴾؛ أي: في أحد.

قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾: هذا رد عليهم، فلا يمكن أن يتخلفوا عما أراد الله بهم.

وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: هذا من الاعتراض على الشرع؛ لأنهم عتبوا على الرسول ﷺ حيث خرج بدون موافقتهم، ويمكن أن يكون اعتراضًا على القدر أيضًا؛ أي: لو كان لنا من حسن التدبير والرأي شيء ما خرجنا فنقتل.

قوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾: الواو إما أن تكون عاطفة والجملة معطوفة على ﴿قَالُوا﴾، ويكون وصف هؤلاء بأمرين:

-بالاعتراض على القدر بقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

-وبالجبن عن تنفيذ الشرع «الجهاد» بقولهم: ﴿وَقَعَدُوا﴾، أو تكون الواو للحال والجملة حالية على تقدير «قد»؛ أي: والحال أنهم قد قعدوا، ففيه توبيخ لهم حيث قالوا مع قعودهم، ولو كان فيهم خير لخرجوا مع الناس، لكن فيهم الاعتراض على المؤمنين وعلى قضاء الله وقدره.

قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾؛ قيل: في النسب لا في الدين، وقيل: في الدين ظاهرًا؛ لأن المنافقين يتظاهرون بالإسلام، ولو قيل: إنه شامل للأمرين، لكان صحيحًا.

قوله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾. هذا غير صحيح، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وإن كنتم قاعدين، فلا تستطيعون أيضًا أن تدرءوا عن أنفسكم الموت.

فهذه الآية والتي قبلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون محكومًا بشرع الله.

مناسبة الباب للتوحيد:

أن من جملة أقسام «لو» الاعتراض على القدر، ومن اعترض على القدر؛ فإنه لم يرض بالله ربًّا، ومن لم يرض بالله ربًّا، فإنه لم يحقق توحيد الربوبية.

والواجب أن ترضى بالله ربًّا، ولا يمكن أن تستريح إلا إذا رضيت بالله ربًّا تمام الرضا، وكأن لك أجنحة تميل بها حيث مال القدر، ولهذا قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك**

لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»(٦٢٣)، ومهما كان؛ فالأمر سيكون على ما كان، فلو خرجت مثلًا في سفرٍ ثم أصبت في حادث، فلا تقل: لو أني ما خرجت من السفر ما أصبت؛ لأن هذا مقدر لابد منه.

قوله: «**وفي الصحيح**»؛ أي: «صحيح مسلم»، وانظر ما سبق في: «باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله».

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حذف منه جملة، وأتي بما هو مناسب للباب، والمحذوف قوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»(٦٢٤).

شرح الحديث:

قوله: «**القوي**»؛ أي: في إيمانه وما يقتضيه إيمانه؛ ففي إيمانه؛ يعني: ما يحل في قلبه من اليقين الصادق الذي لا يعتريه شك، وفيما يقتضيه؛ يعني: العمل الصالح من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحزم في العبادات وما أشبه ذلك.

وهل يدخل في ذلك قوة البدن؟

الجواب: لا يدخل في ذلك قوة البدن إلا إذا كان في قوة بدنه ما يزيد إيمانه أو يزيد ما يقتضيه؛ لأن «**القوي**» وصف عائد على موصوف وهو المؤمن؛ فالمراد: القوي في إيمانه أو ما يقتضيه، ولا شك أن قوة البدن نعمة، إن استعملت في الخير فخير، وإن استعملت في الشر فشر.

قوله: «**خير وأحب إلى الله**»: خير في تأثيره وآثاره، فهو ينفع ويُقتدي به، وأحب إلى الله باعتبار الثواب.

قوله: «**من المؤمن الضعيف**»: وذلك في الإيمان أو فيما يقتضيه لا في قوة البدن.

قوله: «**وفي كل خير**»؛ أي: في كل من القوي والضعيف خير، وهذا النوع من التذييل يسمى عند البلاغيين بالاحتراس حتى لا يظن أنه لا خير في الضعيف.

---

(٦٢٣) أخرجه، مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، برقم (٢٩٩٩)، وأحمد (٤/ ٣٣٢) وغيرهما من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦٢٤) سبق تخريجه.

فإن قيل: إن الخيرية معلومة في قوله: «خير وأحب»؛ لأن الأصل في اسم التفضيل اتفاق المفضل والمفضل عليه في أصل الوصف؟

فالجواب: أنه قد يخرج عن الأصل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾[الفرقان:٢٤] مع أن أهل النار لا خير في مستقرهم.

كذلك الإنسان إذا سمع هذه الجملة: «خير وأحب» صار في نفسه انتقاص للمؤمن المفضل عليه، فإذا قيل: «وفي كل خير» رفع من شأنه، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الحديد:١٠].

قوله: «احرص علىٰ ما ينفعك»؛ الحرص: بذل الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا.

وأفعال العباد بحسب السبر والتقسيم لا تخلو من أربع حالات:

١- نافعة، وهذه مأمور بها.

٢- ضارة، وهذه محذر منها.

٣- فيها نفع وضرر.

٤- لا نفع فيها ولا ضرر، وهذه لا يتعلق بها أمر ولا نهي، لكن الغالب أن لا تقع إلا وسيلة إلىٰ ما فيه أمر أو نهي، فتأخذ حكم الغاي؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

فالأمر لا يخلو من نفع أو ضرر، إما لذاته أو لغيره، فحديثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر، لكن قد يتكلم الإنسان ويتحدث لأجل إدخال السرور علىٰ غيره فيكون نفعًا، ولا يمكن أن تجد شيئًا من الأمور والحوادث ليس فيها نفع ولا ضرر، إما ذاتي أو عارض إنما ذكرناه لأجل تمام السبر والتقسيم.

والعاقل يشح بوقته أن يصرفه فيما لا نفع فيه ولا ضرر، قال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت»(٦٢٥).

واتصال هذه الجملة بما قبلها ظاهر جدًّا؛ لأن من القوة الحرص علىٰ ما ينفع.

---

(٦٢٥) أخرجه، البخاري، كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، برقم (٦٠١٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الحث علىٰ إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، برقم (٤٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﵁.

و «ما»: اسم موصول بفعل «ينفع»، والاسم الموصول يحول بصلته إلىٰ اسم الفاعل، كأنه قال: احرص علىٰ النافع، وإنما قلت ذلك لأجل أن أقول: إن النبي ﷺ أمرنا بالحرص علىٰ النافع، ومعناه أن نقدم الأنفع علىٰ النافع؛ لأن الأنفع مشتمل علىٰ أصل النفع وعلىٰ الزيادة، وهذه الزيادة لابد أن نحرص عليها؛ لأن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب ما يشتمل عليه تأكد ذلك الوصف، فإذا قلت: أنا أكره الفاسقين كان كل من كان أشد في الفسق إليك أكره؛ فنقدم علىٰ النافع لوجهين:

١- أنه مشتمل علىٰ النفع وزيادة.

٢- أن الحكم إذا عُلق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب تأكد ذلك الوصف وقوته.

ويؤخذ من الحديث وجوب الابتعاد عن الضارِ؛ لأن الابتعاد عنه انتفاع وسلامة لقوله: «**احرص علىٰ ما ينفعك**».

قوله: «**واستعن بالله**»: الواو تقتضي الجمع؛ فتكون الاستعانة مقرونة بالحرص، والحرص سابق علىٰ الفعل؛ فلابد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل من أوله.

والاستعانة: طلب العون بلسان المقال، كقولك: «اللهم أعني، أو: لا حول ولا قوة إلا بالله» عند شروعك بالفعل.

أو بلسان الحال، وهي أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلىٰ ربك ﷻ أن يعينك علىٰ هذا الفعل، وأنه إن وكلك إلىٰ نفسك وكلك إلىٰ ضعف وعجز وعورة.

أو طلب العون بهما جميعًا، والغالب أن من استعان بلسان المقال؛ فقد استعان بلسان الحال.

ولو احتاج الإنسان إلىٰ الاستعانة بالمخلوق كحمل صندوق مثلًا، فهذا جائز ولكن لا تشعر نفسك أنها كاستعانتك بالخالق، وإنما عليك أن تشعر أنها كمعونة بعض أعضائك لبعض، كما لو عجزت عن حمل شيء بيد واحدة؛ فإنك تستعين علىٰ حمله باليد الأخري، وعلىٰ هذا، فالاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه كالاستعانة ببعض أعضائك، فلا تنافي قوله ﷺ: «**استعن بالله**».

قوله: «**ولا تعجزن**»: فعل مضارع مبني علىٰ الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة، و «لا»: ناهية، والمعني: لا تفعل فعل العاجز من التكاسل وعدم الحزم والعزيمة، وليس المعني: لا يصيبك عجز؛ لأن العجز عن الشيء غير التعاجز؛ فالعجز بغير اختيار الإنسان، ولا طاقة له به، فلا يتوجه عليه نهي، ولهذا قال النبي ﷺ: «**صل قائمًا، فإن لم تستطع، فقاعدًا، فإن لم تستطع، فعلىٰ جنب**»(٦٢٦).

---

(٦٢٦) أخرجه، البخاري، كتاب: تقصير الصلاة، باب: إذا لم يطق قاعدًا صلىٰ علىٰ جنب، برقم (١١١٧) وغيره من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

فإذا اجتمع الحرص وعدم التكاسل، اجتمع في هذا صدق النية بالحرص والعزيمة بعدم التكاسل.

لأن بعض الناس يحرص علىٰ ما ينفعه ويشرع فيه، ثم يتعاجز ويتكاسل ويدعه، وهذا خلاف ما أمر به الرسول ﷺ، فما دمت عرفت أن هذا نافع، فلا تدعه؛ لأنك إذا عجَّزت نفسَك خسرت العمل الذي عملت ثم عودت نفسك التكاسل والتدني من حال النشاط والقوة إلىٰ حال العجز والكسل، وكم من إنسان بدأ العمل - ولا سيما النافع - ثم أتاه الشيطان فثبطه؟!

لكن إذا ظهر في أثناء العمل أنه ضار، فيجب عليه الرجوع عنه؛ لأن الرجوع إلىٰ الحق خير من التمادي في الباطل.

وذكر في ترجمة الكسائي أنه بدأ في طلب علم النحو ثم صعب عليه، فوجد نملة تحمل طعامًا تريد أن تصعد به حائطًا، كلما صعدت قليلًا سقطت، وهكذا حتىٰ صعدت، فأخذ درسًا من ذلك، فكابد حتىٰ صار إمامًا في النحو.

قوله: «**إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا**»(٦٢٧).

هذه هي المرتبة الرابعة مما ذكر في هذا الحديث العظيم إذا حصل خلاف المقصود.

فالمرتبة الأولىٰ: الحرص علىٰ ما ينفع.

والمرتبة الثانية: الاستعانة بالله.

والمرتبة الثالثة: المضي في الأمر والاستمرار فيه وعدم التعاجز وهذه المراتب إليك.

المرتبة الرابعة: إذا حصل خلاف المقصود؛ فهذه ليست إليك، وإنما هي بقدر الله، ولهذا قال: «**وإن أصابك.. **»، ففوض الأمر إلىٰ الله تعالىٰ.

قوله: «**وإن أصابك شيء**»؛ أي: مما تحبه ولا تريده ومما يعوقك عن الوصول إلىٰ مرامك فيما شرعت فيه من نفع.

فمن خالفه القدر ولم يأت علىٰ مطلوبه لا يخلو من حالين:

الأول: أن يقول: لو لم أفعل ما حصل كذا.

الثاني: أن يقول: لو فعلت كذا لأمر لم يفعله لكان كذا.

مثال الأول قول **القائل**: لو لم أسافر ما فاتني الربح.

ومثال الثاني: أن يقول: لو سافرت لربحت.

---

(٦٢٧) سبق تخريجه.

وذكر النبي ﷺ الثاني دون الأول؛ لأن هذا الإنسان عامل فاعل؛ فهو يقول: لو أني فعلت الفعل الفلاني دون هذا الفعل لحصلت مطلوبي، بخلاف الإنسان الذي لم يفعل وكان موقفه سلبيًّا من الأعمال.

قوله: «**كذا**»: كناية عن مبهم، وهي مفعول لفعلت.

قوله: «**لكان كذا**»: فاعل كان، والجملة جواب لو.

قوله: «**قدر الله**»: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا قدر الله.

وقدر بمعني مقدور؛ لأن قدر الله يطلق على التقدير الذي هو فعل الله، ويطلق على المقدور الذي وقع بتقدير الله، وهو المراد هنا؛ لأن القائل يتحدث عن شيء وقع عليه، فقدر الله أي: مقدوره، ولا مقدر إلا بتقدير؛ لأن المفعول نتيجة الفعل.

والمعنى: أن هذا الذي وقع قدر الله وليس إليَّ، أما الذي إليَّ فقد بذلت ما أراه نافعًا كما أمرت، وهذا فيه التسليم التام لقضاء الله ﷻ، وأن الإنسان إذا فعل ما أمر به على الوجه الشرعي، فإنه لا يلام على شيء ويفوض الأمر إلى الله.

قوله: «**وما شاء فعل**»: جملة مصدرة بـ «ما» الشرطية، و «شاء»: فعل الشرط وجوابه: «فعل»؛ أي: ما شاء الله أن يفعله فعله؛ لأن الله لا راد لقضائه ولا مُعقب لحكمه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[الرعد:٤١]، وقد سبق ذكر قاعدة، وهي أن كل فعل لله تعالى مُعلق بالمشيئة؛ فإنه مقرون بالحكمة، وليس شيء من فعله معلقًا بالمشيئة المجردة؛ لأن الله لا يُشرع ولا يفعل إلا لحكمة، وبهذا التقرير نفهم أن المشيئة يلزم منها وقوع المشاء، ولهذا كان المسلمون يقولون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما الإرادة ووقوع المراد، ففيه تفصيل:

فالإرادة الشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، وهي التي بمعنى المحبة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[النساء:٢٧] بمعنى يحب، ولو كانت بمعنى يشاء لتاب الله على جميع الناس.

والإرادة الكونية يلزم منها وقوع المراد؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[البقرة:٢٥٣].

قوله: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**»: «لو» اسم إن قصد لفظها؛ أي: فإن هذا اللفظ يفتح عمل الشيطان.

وعمله: ما يلقيه في قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن، فإن الشيطان يحب ذلك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[المجادلة:١٠]، حتىٰ في المنام يريه أحلامًا مخيفة؛ ليُعكر عليه صفوه ويُشوش فكره، وحينئذٍ لا يتفرغ للعبادة علىٰ ما ينبغي، ولهذا نهىٰ النبيﷺ عن الصلاة حال تشوش الفكر؛ فقالﷺ: «**لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان**»[٦٢٨]، فإذا رضي الإنسان بالله ربًّا، وقال: هذا قضاء الله وقدره، وأنه لابد أن يقع، اطمأنت نفسه وانشرح صدره.

ويستفاد من الحديث:

١- إثبات المحبة للهﷻ؛ لقوله: «خير وأحب».

٢- اختلاف الناس في قوة الإيمان وضعفه؛ لقوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف**»[٦٢٩].

٣- زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأن القوة زيادة والضعف نقص، وهذا هو القول الصحيح الذي عليه عامة أهل السنة.

وقال بعض أهل السنة: يزيد ولا ينقص؛ لأن النقص لم يرد في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾[المدثر:٣١] وقال تعالىٰ: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[الفتح:٤].

والراجح القول الأول؛ لأنه مع لازم ثبوت الزيادة ثبوت النقص عن الزائد، وعلىٰ هذا يكون القرآن دالًا علىٰ ثبوت نقص الإيمان بطريق اللزوم، كما أن السنة جاءت به صريحة في قولهﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن**»[٦٣٠]؛ يعني: النساء.

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية؛ فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كاليقين زيادة كيفية، ولهذا قال إبراهيم ﵇: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[البقرة:٢٦٠].

---

(٦٢٨) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: كراهية الصلاة بحضرة الطعام...، برقم (٥٦٠)، وأبو داود، كتاب: الطهارة، باب: أيصلي الرجل وهو حاقن؟ برقم (٨٩) وغيرهما، من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂.

(٦٢٩) سبق تخريجه.

(٦٣٠) أخرجه البخاري، كتاب: الحيض، باب: ترك الحائض الصوم، برقم (٣٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

والإنسان إذا أخبره ثقة بخبر، ثم جاء آخر فأخبره نفس الخبر؛ زاد يقينه، ولهذا قال أهل العلم: إن المتواتر يفيد العلم اليقيني، وهذا دليل على تفاوت القلوب بالتصديق، وأما الأعمال، فظاهر، فمن صلى أربع ركعات أزيد ممن صلى ركعتين.

٤- أن المؤمن وإن ضعف إيمانه فيه خير؛ لقوله: «**وفي كل خير**».

٥- أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها؛ لقوله: «**أحرص على ما ينفعك**»، فإذا امتثل المؤمن أمر الرسول ﷺ فهو عبادة وإن كان ذلك النافع أمرًا دنيويًا.

٦- أنه لا ينبغي للعاقل أن يمضي جهده فيما لا ينفع؛ لقوله: «**احرص على ما ينفعك**».

٧- أنه ينبغي للإنسان الصبر والمصابرة، لقوله: «**ولا تعجزن**».

٨- أن ما لا قدرة للإنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر، لقوله: «**ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**». وأما الذي يمكنك، فليس لك أن تحتج بالقدر.

وأما محاجة آدم وموسى حيث لام موسى آدم عليهما الصلاة والسلام، وقال له: «**لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال: أتلومني على شيء قد كتبه الله عليَّ**»(٦٣١)، فهذا احتجاج بالقدر.

فالقدرية الذين ينكرون القدر يُكذبون هذا الحديث؛ لأن من عادة أهل البدع أن ما خالف بدعتهم إن أمكن تكذيبه كذبوه، وإلا حرفوه، ولكن هذا الحديث ثابت في «الصحيحين» وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب؛ فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التي هي سبب الخروج بل احتج بالخروج نفسه.

معناه: أن فعلك صار سببًا لخروجنا، وإلا؛ فإن موسى عليه الصلاة والسلام أبعد من أن يلوم أباه على ذنب تاب منه واجتباه ربه وهداه، وهذا ينطبق على الحديث.

وذهب ابن القيم رحمه الله إلى وجه آخر في تخريج هذا الحديث، وهو أن آدم احتج بالقدر بعد أن مضى وتاب من فعله، وليس كحال الذين يحتجون على أن يبقوا في المعصية ويستمروا عليها؛ فالمشركون لما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]كذبهم الله؛ لأنهم لا يحتجون على شيء مضى ويقولون: تبنا إلى الله، ولكن يحتجون علي البقاء في الشرك.

---

(٦٣١)أخرجه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: وفاة موسى وذكره بعد، برقم (٣٤٠٩)، ومسلم، كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، برقم (٢٦٥٢) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٩- أن للشيطان تأثيرًا على بني آدم؛ لقوله: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**»، وهذا لا شك فيه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(٦٣٢).

فقال بعض أهل العلم: إن هذا يعني الوساوس التي يلقيها في القلب فتجري في العروق.

وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهذا ليس ببعيد على قدرة الله ﷻ، كما أن الروح تجري مجرى الدم، وهي جسم، إذا قبضت تُكفن وتُحنط وتصعد بها الملائكة إلى السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يضاده، وهي لمة الملك، فإن للشيطان في قلب ابن آدم لمة وللملك لمة، ومن وفّق غلبت عنده لمة الملك لمة الشيطان، فهما دائمًا يتصارعان نفس مطمئنة ونفس أمارة بالسوء وأما النفس اللوامة فهي وصف للنفسين جميعًا.

١٠ - حسن تعليم النبي ﷺ حين قرن النهي عن قول «لو» ببيان علته، لتتبين حكمة الشريعة، ويزداد المؤمن إيمانًا وامتثالًا.

❁ **قوله**: «**فيه مسائل**»:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران. وهما:

الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾.

الثانية: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾؛ أي: ما أخرجنا وما قتلنا، ولكن الله تعالى: أبطل ذلك بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، والآية الأخرى: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾، فأبطل الله دعواهم هذه بقوله: ﴿فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: إن كنتم صادقين في البقاء وأن عدم الخروج مانع من القتل، فادرءوا عن أنفسكم الموت، فإنهم لن يسلموا من الموت، بل لابد أن يموتوا، ولكن لو أطاعوهم وتركوا الجهاد؛ لكانوا على ضلال مبين.

الثانية: النهي الصريح عن قول «لو» إذا أصابك شيء؛ لقول الرسول ﷺ: «فإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا».

---

(٦٣٢) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتكاف، باب: هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب: المسجد، برقم (٢٠٣٥)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة...، برقم (٢١٧٥) وغيرهما من حديث أم المؤمنين صفية رضي الله عنها.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان: فالنهي عن قول «لو» علتها أنها تفتح عمل الشيطان وهو الوسوسة، فيتحسر الإنسان بذلك ويندم ويحزن.

الرابعة: الإرشاد إلىٰ الكلام الحسن؛ يعني قوله: «**ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**».

الخامسة: الأمر بالحرص علىٰ ما ينفع مع الاستعانة بالله: لقوله ﷺ: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله**».

السادسة: **النهي عن ضد ذلك، وهو العجز**؛ لقوله: «**ولا تعجزن**»، فإن قال قائل: العجز ليس باختيار الإنسان، فالإنسان قد يصاب بمرض فيعجز، فكيف نهىٰ النبي ﷺ عن أمر لا قدرة للإنسان عليه؟

أجيب: بأن المقصود بالعجز هنا التهاون والكسل عن فعل الشيء؛ لأنه هو الذي في مقدور الإنسان.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا...﴾:

تمام الآية: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[آل عمران:١٥٤].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ من كمال التوحيد الاستسلام للقضاء والقدر؛ وأنَّ قول: «لو» لا يُجدي شيئًا، وهو يشعر بعدم الرضا بالقدر وهذا مخل بالتوحيد.

ما جاء في اللو؛ أي: من الوعيد والنهي عنه.

﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول بعض المنافقين يوم أحدٍ معارضةً للقدر.

﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ أي: لو كان الاختيار إلينا.

﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾؛ أي: لما غُلبنا ولما قُتل من قُتل منا في هذه المعركة.

﴿لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾؛ أي: وفيكم من كتب الله عليه القتل.

﴿لَبَرَزَ﴾؛ أي: خرج.

﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ﴾؛ أي: قُضي.

﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾؛ أي: منكم.

﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾؛ أي: مصارعهم فيقتلون ولم ينجهم قعودهم؛ لأن قضاء الله كائن لا محالة.

﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يختبر.

﴿مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾؛ أي: قلوبكم من الإخلاص والنفاق.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾؛ أي: يميز ما تنطوي عليه من النيات.

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: بما في القلوب فهو غني عن الابتلاء وإنما يفعله ليظهر للناس وليترتب عليه الثواب والعقاب.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر الله -سبحانه- عما كان يكنه المنافقون يوم وقعة أحدٍ من الاعتراض علىٰ القدر والتسخط لما وقع عليهم من الله، وأنَّهم يقولون: لو كان الاختيار والمشورة إلينا ما خرجنا؛ ولنجونا مما حصل من الهزيمة والقتل، فرد الله عليهم بأنَّ ما حصل قدر مقدر لا ينجي منه البقاء في البيوت؛ فالتلهف وقول: «لو» لا يجدي شيئًا.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ قول: «لو» في الأمور المقدرة؛ لا يجوز؛ وهو من كلام المنافقين.

ما يستفاد من الآية:

١- النهي عن قول: «لو» في الأمور المقدرة؛ لأنَّها تدل علىٰ التسخط علىٰ القدر وتجدد الأحزان في النفوس، أما قول: «لو» تندمًا علىٰ فوات الطاعة فلا بأس به؛ لأنه يدل علىٰ الرغبة في الخير.

٢- مشروعية الاستسلام للقضاء والقدر وعدم تسخطه.

٣- أنَّ الحذر لا يُنجي من القدر.

٤- أن من كُتب عليه الموت في محل فلا بد أن يذهب إليه، ولو حاول الامتناع عنه.

❁ **قوله:** ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾:

تمام الآية: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨].

﴿قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾؛ أي: قالوا للمسلمين المجاهدين، سُمُّوا إخوانهم؛ لموافقتهم في الظاهر، وقيل: إخوانهم في النسب.

﴿وَقَعَدُواْ﴾؛ أي: عن الجهاد.

﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾؛ أي: في القعود.

﴿مَا قُتِلُواْ﴾؛ أي: كما لم نقتل.

﴿قُلْ﴾؛ أي: لهؤلاء.

﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾؛ أي: ادفعوه عنها.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: في أن القعود ينجي منه.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

ينكر تعالىٰ علىٰ المنافقين الذين يعارضون القدر بقولهم لمن خرج مع رسول الله ﷺ يوم أحدٍ: لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل، ويرد عليهم بأنهم إن كانوا يقدرون علىٰ دفع القتل، عمن كُتب عليهم فليدفعوا الموت عن أنفسهم، فهي أولىٰ بالدفع عنها، فإذا لم يقدروا علىٰ الدفع عنها فغيرها من باب أولىٰ.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ قول: «لو» في الأمور المقدرة من سمات المنافقين.

ما يستفاد من الآية:

١ - التحذير من قول: «لو» علىٰ وجه المعارضة للقدر والتأسف علىٰ المصائب.

٢ - أن مقتضىٰ الإيمان الاستسلام للقضاء والقدر؛ وإنَّ عدم الاستسلام له من صفات المنافقين.

٣ - مشروعية مجادلة المنافقين وغيرهم من أهل الباطل؛ لإبطال شبههم ودحض إباطيلهم.

❁ **قوله: «أي: في الصحيح»:**

أي: في «صحيح مسلم».

احرص؛ الحرص هو: بذل الجهد واستفراغ الوسع.

علىٰ ما ينفعك؛ يعني: في معاشك ومعادك.

واستعن بالله؛ أي: اطلب الإعانة في جميع أمورك من الله لا من غيره.

ولا تعجزن: بكسر الجيم وفتحها؛ أي: لا تفرط في طلب ما ينفعك متكلًا علىٰ القدر، ومستسلمًا للعجز والكسل.

وإن أصابك شيء؛ أي: وإن غلبك أمرٌ ولم يحصل المقصود بعد بذل الجهد والاستطاعة.

فلا تقل: لو أني فعلت كذا؛ أي: فإنَّ هذا القول لا يجدي عليك شيئًا.

ولكن قل: قدر الله؛ أي: لأن ما قدره لابد أن يكون والواجب التسليم للمقدور.

فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان؛ أي: لما فيها من التأسف علىٰ ما فات والتحسر والحزن ولوم القدر.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يأمر النبي ﷺ في هذا الحديث بالحرص علىٰ النافع من الأعمال، والاستعانة بالله في القيام بها، وترقب ثمراتها، وينهىٰ عن العجز؛ لأنَّه ينافي الحرص علىٰ ما ينفع، ولَمَّا كان الإنسان معرضًا للمصائب في هذه الدنيا أمر بالصبر والتحمُّل وعدم التلوم بقول: لو أنني فعلت، لو أنني تركت؛ لأن ذلك لا يجدي شيئًا مع أنَّه يفتح علىٰ الإنسان ثغرةً لعدوه الشيطان يدخل عليه منها فيحزنه.

مناسبة ذكر الحديث في الباب:

أنَّ فيه النهي عن قول: «لو» عند نزول المصائب، وبيان ما يترتب علىٰ قولها من المفسدة.

ما يستفاد من الحديث:

١- الحث علىٰ الاجتهاد في طلب النفع العاجل والآجل ببذل أسبابه.

٢- وجوب الاستعانة بالله في القيام بالأعمال النافعة والنهي عن الاعتماد علىٰ الحول والقوة.

٣- النهي عن العجز والبطالة وتعطيل الأسباب.

٤- إثبات القضاء والقدر وأنَّه لا يُنافي بذل الأسباب والسعي في طلب الخيرات.

٥- وجوب الصبر عند نزول المصائب.

٦- النهي عن قول: «لو» علىٰ وجه التسخط عند نزول المصائب وبيانه مفسدتها.

٧- التحذير من كيد الشيطان.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب ما جاء في الـ«لو»»:

قلب الموحد المؤمن لا يكون محققًا مكملًا للتوحيد حتىٰ يعلم أن كل شيء بقضاء الله -جل وعلا- وبقدره، وأن ما فعله سبب من الأسباب، والله -جل وعلا- ماضٍ قدره في خلقه، وأنه مهما فعل فإنه لا يحجز قدر الله -جل وعلا- فإذا كان كذلك كان القلب معظمًا لله -جل وعلا- في تصرفه في ملكوته، وكان القلب لا يخالطه تمني أن يكون شيء فات علىٰ غير ما كان، وأنه لو فعل كذا لتغير ذلك السابق، بل الواجب أن يعلم أن قضاء الله نافذ، وأن قدر الله ماضٍ، وأن ما سبق من الفعل قد قدره الله -جل وعلا- وقدر نتائجه، فالعبد لا يمكنه أن يرجع إلىٰ الماضي فيغير. وإذا استعمل لفظ (لو) أو لفظ (ليت) وما أشبههم من الألفاظ التي تدل علىٰ الندم، وعلىٰ التحسر علىٰ ما فات، فإن ذلك يضعف القلب، ويجعله متعلقًا بالأسباب، منصرفًا عن الإيقان بتصريف الله -جل وعلا- في ملكوته، وكمال

التوحيد إنما يكون بعدم الالتفات إلىٰ الماضي فإن الماضي الذي حصل إما أن يكون مصيبة أصيب بها العبد فلا يجوز له أن يقول: لو فعلت كذا لما حصل كذا، بل الواجب عليه أن يصبر علىٰ المصيبة، وأن يرضىٰ بفعل الله -جل وعلا- ويستحب له الرضىٰ بالمصيبة.

وإذا كان ما أصابه في الماضي معصية فإن عليه أن يسارع في التوبة والإنابة، وألّا يقول: لو كان كذا لم يكن كذا بل يجب عليه أن يسارع في التوبة والإنابة حتىٰ يمحو أثر المعصية.

فتبين أن ما مضىٰ من المقدّر للعبد معه حالان: إما أن يكون ذلك الذي مضىٰ مصايب، فحالها كما ذكرنا، وإما أن يكون معايب ومعاصي فالواجب عليه أن يُنيب وأن يستغفر وأن يُقبل علىٰ الله -جل جلاله- وقد قال سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٨٢].

والشيطان يدخل علىٰ القلب، فيجعله يسيء الظن بربه -جل وعلا- وبقضائه وبقدره، وإذا دخلت إساءة الظن بالله ضعف التوحيد ولم يحقق العبد ما يجب عليه من الإيمان بالقدر والإيمان بأفعال الله -جل جلاله- ولهذا عقد المصنف هذا الباب؛ لأن كثيرين يعترضون علىٰ القدر من جهة أفعالهم، ويظنون أنهم لو فعلوا أشياء لتغير الحال والله -جل وعلا- قد قدّر الفعل وقدّر نتيجته، فالكل موافق لحكمته سبحانه وتعالىٰ.

❁ **قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾**[آل عمران: ١٥٤]، **وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾**[آل عمران: ١٦٨]»:

تقدم أن قول (لو) في الماضي لا يجوز وأنه محرم ودليل ذلك واضح من الآيتين. ومناسبة الآيتين للباب ظاهرة، وهو أن التحسر علىٰ الماضي بالإتيان بلفظ (لو) إنما هو من خصال المنافقين، قال -جل وعلا- عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ وقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ وهذا في قصة غزوة أحد كما هو معروف، فهذا من كلام المنافقين، فيكون استعمال (لو) من خصال النفاق، وهذا يدل علىٰ حرمتها.

❁ **قوله: «في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: احرص علىٰ ما ينفعك...»**:

وجه مناسبة هذا الحديث: قوله: «**وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا**» و(لو) هنا كانت علىٰ الماضي، وقوله: (فلا تقل) نهي، والنهي للتحريم؛ وهذا لأنه سوء ظن؛ ولأنه فتح عمل الشيطان، فالشيطان يأتي المصاب فيغريه بـ(لو) حتىٰ إذا استعملها ضعف قلبه وعجز، وظن أنه سيغير من قدر الله شيئًا، وهو لا يستطيع أن يغير من قدر الله شيئًا، بل قدر الله ماضٍ،

ولهذا أرشده عليه الصلاة والسلام أن يقول: «**قدّر الله وما شاء فعل**» لأن ذلك راجع إلىٰ قدره وإلىٰ مشيئته، هذا كله من النهي والتحريم راجع إلىٰ ما كان من استعمال (لو) أو (ليت) وما شابههما من الألفاظ في التحسر علىٰ الماضي، وتمني أن لو فعل كذا حتىٰ لا يحصل له ما سبق، كل ذلك فيما يتصل بالماضي.

أما المستقبل كأن يقول: لو يحصل لي كذا وكذا في المستقبل، فإنه لا يدخل في النهي؛ لأنها حينئذٍ تكون للتعليق في المستقبل، وترادف (إن).

فاستعمال (لو) في المستقبل الأصل فيه الجواز إلا إن اقترن بذلك اعتقاد أن فعله سيكون حاكمًا علىٰ القدر كاعتقاد بعض الجاهليين، أنه إن حصل لي كذا فعلت كذا تكبرًا وأنفة واستعظامًا لفعلهم وقدرتهم، فإن هذا يكون من المنهي؛ لأن فيه تجبرًا وتعاظمًا، والواجب علىٰ العبد أن يكون ذليلًا؛ لأن القضاء والقدر ماضٍ، وقد يحصل له الفعل ولكن ينقلب علىٰ عقبيه كحال الذي قال الله -جل وعلا- فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾[التوبة: ٧٥-٧٧] فإنهم قالوا: لئن كان لنا كذا وكذا لنفعلن كذا وكذا، فلما أعطاهم الله -جل وعلا- المال ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، فهذا فيه نوع تحكم علىٰ القدر وتعاظُم، فاستعمال (لو) في المستقبل إذا كانت في الخير مع رجاء ما عند الله بالإعانة علىٰ أسباب الخير فهذا جائز، أما إذا كان علىٰ وجه التجبر والاستعظام فإنه لا يجوز؛ لأن فيه نوع تحكم علىٰ القدر.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران أي: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران:١٦٨] وهذا قاله بعض المنافقين يوم أحد لخورهم وجبنهم.

الثانية: النهي الصريح عن قول «لو» إذا أصابك شيء، أي لقوله: وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان، أي: إن النهي عن لو لكونه يفتح عمل الشيطان ولا فائدة فيه.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن، أي: قول: قدر الله وما شاء فعل.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة، أي: كما دل عليه الحديث، وهذا عين الكمال فإن لم يحرص أو حرص على ما لا ينفعه أو حرص على ما ينفعه، ولم يستعن بالله فاته مقصوده.

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز، أي: ضد الحرص على ما ينفع، وهو العجز، فكم فوت العبد على نفسه بسبب ذلك مع تمكنه!



* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن من قال: لو معارضًا بها أقدار الرب تعالىٰ؛ كالبلايا والمصائب إذا جرىٰ بها القدر فإن هذا مما ينافي كمال التوحيد.

س: وضح حكم استعمال كلمة لو مع التمثيل؟

جـ: هو علىٰ قسمين مذموم ومحمود فإن استعملت علىٰ أمر ماض وحمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر كان مذمومًا لما في ذلك من الإشعار بعدم الصبر والأسف علىٰ ما فات مما لم يمكن استدراكه.

وإن استعملت علىٰ أمر مستقبل وحمل عليها الرغبة في الخير والإرشاد والتعليم كان محمودًا.

مثال الجائز: قوله ﷺ: «**لولا أن أشق علىٰ أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء**»[٦٣٣] أخرجه مالك وأحمد والنسائي وصححه ابن خزيمة.

ومثال المذموم: قوله تعالىٰ إخبارًا عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ وقول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾[آل عمران:١٦٨].

س: اشرح هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ وفي من نزلت؟

جـ: يقول تعالىٰ إخبارًا عن المنافقين الذين قالوا لإخوانهم ممن قتلوا في غزوة أحد مع رسول الله ﷺ لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج إلىٰ الجهاد ما قتلوا مع من قتل.

نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين وأصحابه الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد.

---

(٦٣٣) أخرجه مالك، برقم (١٤٦)، وأحمد (٢/ ٤٦٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٢/ ١٩٨)، وابن خزيمة، برقم(١٤٠) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٥٣١٧).

❁ **قوله:** قال تعالىٰ: «﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]».

س: من الذي قال هذا الكلام؟ ومتى، ولماذا، اذكر مناسبة الآيتين للباب؟

جـ: قاله بعض المنافقين يوم غزوة أحد لجزعهم وخوفهم من ذلك اليوم.

ومناسبة الآيتين للباب:

أن الله ذم فيهما المنافقين في معارضة القدر بـ «لو».

❁ **قوله:** «في «الصحيح» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «احرص علىٰ...»».

س: اشرح هذا الحديث واذكر ما يستفاد منه؟

جـ: يرشد الرسول ﷺ إلىٰ الحرص علىٰ ما ينفع مع الاستعانة بالله والحرص والجد والاجتهاد. والمراد حرص الإنسان علىٰ فعل الأسباب التي تنفعه في دنياه وأخراه مما شرعه الله لعباده وأمرهم به ويكون في حال فعله للسبب مستعينًا بالله وحده معتمدًا عليه في ذلك. ثم نهاه عن العجز وهو ترك العمل والركون إلىٰ الكسل وتمني الخير مع عدم القيام بأسبابه وأرشده إذا أصابه ما يكره أن يسلم للقضاء والقدر ويرضىٰ ويحتسب الثواب عليه، ونهاه عن استعمال لو وأخبر أنها تفتح عمل الشيطان لما فيها من التأسي علىٰ ما فات والتحسر ومعارضة القدر.

ويستفاد من الحديث:

١ - الأمر بالحرص علىٰ ما ينفع مع الاستعانة بالله.

٢ - النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

٣ - النهي عن قول لو إذا أصابك شيء؛ لأنها تفتح عمل الشيطان.

٤ - الإرشاد إلىٰ الكلام الحسن وهو قول قدر الله وما شاء فعل.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس الثامن والخمسون:

باب النهي عن سب الريح

عن أُبي بن كعب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أُمرت به»(٦٣٤) صححه الترمذي.

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي عن سب الريح

الثانية: الإرشاد إلىٰ الكلام النافع إذا رأىٰ الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلىٰ أنها مأمورة.

الرابعة: أنها قد تؤمر بخيرٍ وقد تؤمر بشرٍّ.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب النهي عن سب الريح»:

لكونها إنما تهب عن إيجاد الله لها وأمره إياها، فلا تأثير لها إلا بأمر الله، فمسبتها مسبة لله تعالىٰ واعتراض عليه، وهو قدح في التوحيد.

قوله: «عن أبي بن كعب رضي الله عنه»:

هو ابن قيس بن عبيد بن مريد بن معاوية بن النجار، أبو المنذر الأنصاري، سيد القراء، شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها، قال له النبي ﷺ: **«ليهنك العلم أبا المنذر»**(٦٣٥). وقال له: «أمرني ربي

---

(٦٣٤)أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: النهي عن سب الريح، برقم (٢٢٥٢)، وأحمد (٥/ ١٢٣)، والحاكم، برقم (٣٠٧٥) وغيرهم من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٦٣٥)أخرجه مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي، برقم (٨١٠)، وأحمد (٥/ ١٤١) وغيرهما، من حديث أبي كعب رضي الله عنه.

أن أقرأ عليك»[٦٣٦]. وكان عمر يسميه سيد العرب، قيل: إنه مات في خلافة عمر، وقيل في خلافة عثمان سنة ٣٠ هـ.

قوله: «أن رسول الله ﷺ قال: لا تسبوا الريح»:

أي: لا تشتموها ولا تلعنوها للحوق ضرر فيها، فإنها خلق من خلق الله مقهور مدبر، وإنما تهب بمشيئة الله وقدرته، فلا يجوز سبها فيرجع السب إلىٰ من خلقها وسخرها. وروىٰ أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعًا: «**الريح من روح الله، تأتي بالنعمة وبالعذاب، فلا تسبوها، ولكن سلوا الله من خيرها، وتعوذوا بالله من شرها**»[٦٣٧]. وروىٰ الترمذي عن ابن عباس أن رجلًا لعن الريح عند النبي ﷺ فقال: «**لا تلعنوا الريح، فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت اللعنة إليه**»[٦٣٨].

قوله: «فإذا رأيتم ما تكرهون»:

أي: من الريح إما شدة حرها أو بردها أو قوتها، فارجعوا إلىٰ ربكم بالتوحيد.

قوله: «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح...»:

أرشدهم ﷺ بالرجوع إلىٰ خالقها وآمرها الذي أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها عن قضائه أن يسألوه خيرها وخير ما فيها، والاستعاذة به من شرها وشر ما فيها، فما استجلبت نعمه بمثل طاعته وشكره، ولا استدفعت نقمه بمثل الالتجاء إليه والتعوذ به والاضطرار إليه ودعائه. وفي «الصحيح» عن عائشة -رضي الله عنها- قالت كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما**

---

(٦٣٦) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: مناقب أبي بن كعب رضي الله عنه، برقم (٣٨٠٩)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب قراءة القرآن...، برقم (٧٩٩) وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦٣٧) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا هاجت الريح، برقم (٥٠٩٧)، وابن ماجه، كتاب: الأدب، باب: النهي عن سب الريح، برقم(٣٧٢٧)، وأحمد (٢/ ٢٥٠) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٦٣٨) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في اللعن، برقم (٤٩٠٨)، والترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: اللعنة، برقم (١٩٧٨)، وابن حبان، برقم (٥٧٤٥) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

أرسلت به»[٦٣٩]. فشرع الله لعباده أن يسألوه ما ينفعهم، ويستعيذوا به من شر ما يضرهم، ففيه عبودية الله وحده، والطاعة له، والإيمان به، واستدفاع الشرور به، والتعرض لفضله ونعمته، وهذه حال أهل التوحيد.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «باب النهي عن سب الريح»:

وهذا نظير ما سبق في سب الدهر، إلا إن ذلك الباب عام في سب جميع حوادث الدهر هذا خاص بالريح. ومع تحريمه؛ فإنه حمق وضعف في العقل والرأي فإن الريح مصرفة مدبرة بتدبير الله وتسخيره، فالساب لها يقع سبه على من صرفها، ولولا أن المتكلم بسب الريح لا يخطر هذا المعنىٰ في قلبه غالبًا لكان الأمر أفظع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «باب النهي عن سب الريح»:

لما كان سب الريح وغيرها من المخلوقات نقصًا في الإيمان وقدحًا في التوحيد نبه المؤلف علىٰ ذلك ليعلم المؤمن أن سائر المعاصي تنقص التوحيد و تنقص وتضعفه، والإيمان يزيد وينقص، والتوحيد يزيد وينقص، وسب الريح ينقص الإيمان؛ لأن الريح مخلوق مدبر يرسل بالخير والشر فلا يسب الريح، بل يعمل المؤمن بما أمره به الرسول ﷺ في الحديث:

❁ **قوله:** «عن أُبي بن كعب مرفوعًا»:

عن أبي بن كعب مرفوعًا: «**لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أمرت به**»[٦٤٠].

وجاء في «الصحيحين» عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: «**اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك....** »[٦٤١].

وجاء في هذا أيضًا الدعاء: «**اللهم لا تجعلها ريحًا، واجعلها رياحًا، واجعلها رحمة، ولا**

---

(٦٣٩) أخرجه مسلم، كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح...، برقم (٨٩٩/ ١٥)، والترمذي، كتاب، الدعوات، باب: ما يقول إذا هاجت الريح، برقم (٣٤٤٩) وغيرهما من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٦٤٠) سبق تخريجه.

(٦٤١) سبق تخريجه.

تجعلها عذابًا»[٦٤٢] فهذا هو المشروع للمؤمن عند هبوب الريح وأن يجعلها رياحًا لا ريحًا؛ لأن الله أرسل الريح لهلاك قوم هود، أما الرياح فقد جعلها الله مبشرات ورحمة ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾[الروم:٤٦] وهذا هو كمال التوحيد والإيمان أن يمتثل أمر النبي ﷺ في ذلك، وألا يسب الريح ولا يسب غيرها من المخلوقات التي لم يشرع الله سبَّها.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب النهي عن السب الريح»:

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أطلق النهي ولم يفصح: هل المراد به التحريم أو الكراهة، وسيتبين إن شاء الله من الحديث.

قوله: «**الريح**»: الهواء الذي يُصرفه الله عَزَّ وَجَلَّ، وجمعه رياح.

وأصولها أربعة: الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب، وما بينهما يسمي النكباء، لأنها ناكبة عن الاستقامة في الشمال، أو الجنوب، أو الشرق، أو الغرب.

وتصريفها من آيات الله عَزَّ وَجَلَّ، فأحيانًا تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانًا تكون هادئة، وأحيانًا تكون باردة، وأحيانًا حارة، وأحيانًا عالية، وأحيانًا نازلة، كل هذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم علىٰ أن يصرفوا الريح عن جهتها التي جعلها الله عليه ما استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلًا، ولو اجتمعت جميع المكائن العالمية النفاثة لتوجد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلىٰ ذلك سبيلًا، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ بقدرته يصرفها كيف يشاء وعلي ما يريد؛ فهل يحق للمسلم أن يسب هذه الريح؟

الجواب: لا؛ لأن هذه الريح مسخرة مدبرة، وكما أن الشمس أحيانًا تضر بإحراقها بعض الأشجار، ومع ذلك لا يجوز لأحد أن يسبها، فكذلك الريح، ولهذا قال: «**لا تسبوا الريح**»[٦٤٣].

قوله: «لا تسبوا الريح»:

«لا» ناهية، والفعل مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، والريح مفعول به.

---

(٦٤٢) أخرجه الشافعي، برقم (٣٦١)، والطبراني (١١/ ٢١٣)، وأبو يعلىٰ، برقم (٢٤٥٦) وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة»، برقم (٤٢١٧) وقال: «ضعيف جدًّا».

(٦٤٣) سبق تخريجه.

والسب: الشتم، والعيب، والقدح، واللعن، وما أشبه ذلك، وإنما نهي عن سبها لأن سب المخلوق سب لخالقه فلو وجدت قصرًا مبنيًّا وفيه عيب فسببته، فهذا السب ينصب علىٰ من بناه، وكذلك سب الريح؛ لأنها مدبرة مسخرة علىٰ ما تقتضيه حكمة اللهﷻ.

ولكن إذا كانت الريح مزعجة، فقد أرشد النبيﷺ إلىٰ ما يقال حينئذٍ في قوله: «**ولكن قولوا: اللهم إنا نسألك...ألخ**».

قوله: «**من خير هذه الريح**»: الريح نفسها فيها خير وشر، فقد تكون عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار وتفيض البحار والأنهار، وقد تكون هادئة تبرد الجو وتكسب النشاط.

قوله: «**وخير ما فيها**»؛ أي: ما تحمله، لأنها قد تحمل خيرًا، كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم، وقد تحمل شرًا، كإزالة لقاح الثمار، وأمراض تضر الإنسان والبهائم.

قوله: «**وخير ما أمرت به**»: مثل إثارة السحاب وسوقه إلىٰ حيث شاء الله.

قوله: «**ونعوذ بك**»؛ أي: نعتصم ونلجأ.

قوله:« **من شر هذه الريح**»؛ أي: شرها بنفسها، كقلع الأشجار، ودفن الزروع، وهدم البيوت.

قوله: «**وشر ما فيها**»؛ أي: ما تحمله من الأشياء الضارة، كالأنتان، والقاذورات، والأوبئة وغيرها.

قوله: «**وشر ما أمرت به**»، كالإهلاك والتدمير، قال تعالىٰ في ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف:٢٥]، وتيبيس الأرض من الأمطار، ودفن الزروع، وطمس الآثار والطرق، فقد تؤمر بشر لحكمة بالغة قد نعجز عن إدراكها.

وقوله: «**ما أمرت به**»: هذا الأمر حقيقي؛ أي: يأمرها الله أن تهب ويأمرها أن تتوقف، وكل شيء من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلىٰ أمر الله، قال الله تعالىٰ للأرض والسماء: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت:١١]، وقال للقلم: «**اكتب. قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ قيام الساعة**»(٦٤٤).

---

(٦٤٤) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في القدر، برقم (٤٧٠٠)، والطبراني في «مسند الشاميين»، برقم(٥٨)، والبيهقي، برقم (١٠/ ٢٠٤) وغيرهم من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

❁ **قوله: «فيه مسائل»:**

الأولىٰ: النهي عن سب الريح. وهذا النهي للتحريم؛ لأن سبها سب لمن خلقها وأرسلها.

الثانية: الإرشاد إلىٰ الكلام النافع إذا رأىٰ الإنسان ما يكره؛ أي: منها، وهو أن يقول: «**اللهم إني أسألك من خيرها...** » الحديث، مع فعل الأسباب الحسية أيضًا، كالاتقاء من شرها بالجدران أو الجبال ونحوها.

الثالثة: الإرشاد إلىٰ أنها مأمورة؛ لقوله: «ما أمرت به».

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر؛ لقوله: «خير ما أمرت به، وشر ما أمرت به»(٦٤٥).

والحاصل: أنه يجب علىٰ الإنسان أن لا يعترض علىٰ قضاء الله وقدره، وأن لا يسبه، وأن يكون مستسلمًا لأمره الكوني كما يجب أن يكون مستسلمًا لأمره الشرعي؛ لأن هذه المخلوقات لا تملك أن تفعل شيئًا إلا بأمر الله سبحانه وتعالىٰ.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** «باب النهي عن سب الريح»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ سبَّ الريح سبٌّ لمدبرها وهو الله تعالىٰ؛ لأنها تجري بأمره، فسبّها مخل بالتوحيد.

❁ **قوله:** «عن أبي بن كعب»:

التراجم:

أُبيُّ هو: أبي بن كعب بن قيس الأنصاري سيد القراء شهد العَقَبَة وبدرًا والمشاهد كلها، قيل: مات في خلافة عمر، وقيل: في خلافة عثمان سنة ٣٠سنة ﵁.

لا تسبوا الريح؛ أي: لا تشتموها ولا تلعنوها للحوق ضررٍ بسَبَبِهَا.

فإذا رأيتم ما تكرهون؛ أي: من الريح إمَّا شدة حرِّها أو بردها أو قوتها.

«فقولوا اللهم...إلخ»: رجوع إلىٰ خالقها ومدبرها بسؤاله خيرها ودفع شرِّها.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

ينهىٰ ﷺ عن سب الريح؛ لأنها مخلوقة مأمورةٌ من الله، فسبها سب الله وتسخط لقضائه، ثم

---

(٦٤٥) سبق تخريجه.

أرشد ﷺ إلىٰ الرجوع إلىٰ خالقها بسؤاله من خيرها والاستعاذة به من شرِّها؛ لما في ذلك من العبودية لله - تعالىٰ - وذلك هو حال أهل التوحيد.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي عن سبِّ الريح.

ما يستفاد من الحديث:

١- النهي عن سب الريح؛ لأنها خلق مدبر فيرجع السب إلىٰ خالقها ومدبرها.

٢- الرجوع إلىٰ الله والاستعاذة به من شر ما خلق.

٣- أنَّ الريح تكون مأمورةً بالخير وتكون مأمورةً بالشرِّ.

٤- الإرشاد إلىٰ الكلام النافع إذا رأىٰ الإنسان ما يكره للسلامة من شره.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب النهي عن سب الريح»:

الريح مخلوق من مخلوقات الله مُسخّر، وهي واحدة الرياح، يجريها الله -جل وعلا- كما يشاء، وهي -كالدهر- لا تملك شيئًا، ولا تدبر أمرًا، فسبّ الريح كسبّ الدهر يرجع في الحقيقة إلىٰ أذية الله -جل وعلا- لأن الله هو الذي يصرِّف الريح كيف يشاء، فيجعل الريح تأتي بأمر مكروه، ليذكر العباد بالتوبة والإنابة، ويذكر بمعرفة قدرته عليهم، وأنه لا غنىٰ لهم عنه -جل وعلا- طرفة عين. وهو الذي يجعل الرياح بشرًا، فيسخِّرها -جل وعلا- لما فيه مصلحة العباد.

فهذا الباب عقده لبيان تحريم سبّ الريح، كما عقد ما قبله لبيان أن سبّ الدهر لا يجوز ومحرم؛ لأنه أذية لله -جل وعلا- وهذا الباب من جنس ذاك، لكن هذا يكثر وقوعه، فأفرده لكثرة وقوعه، وللحاجة إلىٰ التنبيه عليه.

قوله: «**باب النهي عن سبّ الريح**» النهي للتحريم، وسب الريح يكون بشتمها أو بلعنها، وكما ذكرنا في باب الدهر، فإنه ليس من سبها أن توصف بالشدة، كقول الله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[الحاقة: ٦،٧]، فهذا وصف للريح بالشدة، ومثل ذلك وصفها بالأوصاف التي يكون فيها شر علىٰ من أتت عليه كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝﴾[الذاريات:٤٢] فمثل هذا ليس من المنهي عنه.

قوله: «عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به**»»:

هذا يدل علىٰ أن الريح يكون فيها خير، وتؤمر وتنهىٰ، والله -جل وعلا- يرسل الرياح كيف يشاء، ويصرفها أيضًا -جل وعلا- عمن يشاء، فهي مسخَّرة بأمره -جل وعلا- والملائكة هي التي تصرِّف الريح بأمره -جل وعلا- فللريح ملائكة تصرفها كيف شاء ربنا -جل وعلا- وتقدس وتعاظم- فيكون فيها خير أو يكون فيها عذاب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا رأيت ما تكرهون فقولوا...** » فأرشدهم إلىٰ القول الآتي.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا رأىٰ شيئًا في السماء أقبل و أدبر، ودخل وخرج، ورُئي ذلك في وجهه حتىٰ تمطر السماء، فيسرّىٰ عنه، ويُسرّ عليه الصلاة والسلام، قالت له عائشة: يا رسول الله لم ذاك؟ قال: «**ألم تسمعي لقول أولئك -أو كما قال عليه الصلاة والسلام:** ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف: ٢٤-٢٥]»(٦٤٦).

فالخوف من الله -جل جلاله- إذا ظهرت هذه الحوادث أو التغيرات في السماء أو في الأرض واجب، والله -جل وعلا- يتعرف إلىٰ عباده بالرخاء، كما يتعرف إليهم بالشدة، حتىٰ يعرفوا ويعلموا ربوبيته وقهره وجبروته، ويعلموا حلمه وتودده ورحمته أيضًا لعباده.

فعلىٰ العبد إذا رأىٰ ما يكره أن يتضرع إلىٰ الله، ويستغيث به، وأن يسأله بقوله:«**اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به** » صححه الترمذي.

أسأل الله -جل وعلا- أن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وأن يجعل وسيلتنا التوحيد، وأن يجعل وسيلتنا إليه الإخلاص، فإنا مذنبون، ولولا رحمة الله لهلكنا، اللهم فاغفر جمًّا، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

---

(٦٤٦) أخرجه البخاري، كتاب، بدء الخلق، باب: ما جاء في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، برقم (٣٢٠٦)، ومسلم، كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح...، برقم (٨٩٩)، وغيرهما من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح، أي لقوله: « **لا تسبوا الريح**».

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره أي يقول: «**اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح**»... إلخ الحديث.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة، أي لقوله: « **ما أمرت به**».

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر، أي لقوله: « **نسألك خير ما أمرت به ونعوذ بك من شر ما أمرت به**».



* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

ج: هي أن الريح في تدبير مدبر وهو الله تعالىٰ فسبها اعتراض عليه فهو قادح في التوحيد.

قوله: «عن أُبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تسبوا الريح...».

س: اشرح هذا الحديث واذكر ما يستفاد منه؟

ج: ينهي رسول الله ﷺ عن سب الريح؛ لأنها إنها تهب عن إيجاد الله تعالىٰ وخلقه لها وأمره فمسبتها مسبة للفاعل الحقيقي وهو الله سبحانه، ويقول ﷺ حينما ترون ما تكرهون من الريح إذا هبت من شدة أو برودة أو حرارة فارجعوا إلىٰ ربكم بالتوحيد والدعاء، فأرشد ﷺ أمته إلىٰ ما فيه أدب مع الله وخضوع وتسليم لأمره وما ينفعهم من الدعاء الصالح عند هبوب الريح، وهو سؤاله تعالىٰ خيرها وخير ما فيها والاستعاذة من شرها وشر ما فيها، فتضمن هذا الدعاء عبودية الله وطاعته وطاعة رسوله واستدفاع الشرور بها والتعرض لفضله ونعمته.

ويستفاد من الحديث:

١ - النهي عن سب الريح.

٢ - الإرشاد إلىٰ الكلام النافع إذا رأىٰ الإنسان ما يكره عند هبوب الريح.

٣ - الإرشاد إلىٰ أنها مأمورة مدبرة.

٤ - أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس التاسع والخمسون:

باب قول الله تعالى
﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ...﴾
الآية [آل عمران:١٥٤].

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية:[الفتح:٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى: فسر هذا [الظن](٦٤٧) بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، [وفسر بأن ما أصابه](٦٤٨) لم يكن بقدر الله وحكمته.

ففسر(٦٤٩) بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يُتِمَّ أمرَ رسولهﷺ وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالةً مستقرةً يضمحل معها الحق، [أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره](٦٥٠)، أو أنكر أن يكون قدره لحكمةٍ(٦٥١) بالغةٍ يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئةٍ مجردةٍ، فـ ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[ص:٢٧]، وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده(٦٥٢).

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله، وليستغفره(٦٥٣) من ظنه بربه ظن السوء.

ولو فتشت من فتشت، لرأيت عنده تعنتًا على القدر وملامةً له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

---

(٦٤٧) ساقطة من نسخة ابن باز.

(٦٤٨) في نسخة السعدي، وابن باز: «وفسر بظنهم أن ما أصابهم».

(٦٤٩) في نسخة ابن باز: «وفسر».

(٦٥٠) سقط من نسخة ابن باز.

(٦٥١) في نسخة السعدي: «بحكمة».

(٦٥٢) زاد في نسخة ابن قاسم والفوزان: «ووعده الصادق».

(٦٥٣) في نسخة السعدي وابن قاسم وابن باز والفوزان: «ويستغفره»، والمثبت من نسخة ابن عثيمين.

فَـإِنْ تَـنْجُ مِنْهَـا تَـنْجُ مِـنْ ذِي عَظِيْمَـةٍ ... وإِلاَّ فَـإِنِّي لاَ إِخَالُـكَ نَاجِيًـا(٦٥٤)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله**: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ...﴾»:

أراد رحمه الله تعالىٰ بهذه الترجمة التنبيه علىٰ وجوب حسن الظن بالله؛ لأنه من واجبات التوحيد. وأول الآية: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾[آل عمران:١٥٤]. وهم أهل الإيمان والثبات والتوكل، الجازمين بأن الله ينصر رسوله، ويظهر دينه علىٰ الدين كله: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[آل عمران:١٥٤] لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾[آل عمران:١٥٤] وهو التكذيب بالقدر وأن الأمر لو كان إليهم - وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعًا لهم، يسمعون منهم - لما أصابهم القتل، ولكان النصر والظفر لهم، فأكذبهم الله ﷻ في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلىٰ أهل الجهل، الذين يزعمون بعد نفوذ القضاء والقدر أنهم كانوا قادرين علىٰ دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، ولما قيل لعبد الله بن أُبي: قتل بنو الخزرج اليوم، قال: وهل لنا من الأمر من شيء؟ أي: لو كان الأمر إلينا ما أصابهم القتل، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[آل عمران:١٥٤] فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرىٰ به كتابه السابق، وهذه الآية كقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾[الفتح:١٢] وقد ظن هؤلاء المنافقون أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها

---

(٦٥٤) انتهىٰ كلام ابن القيم باختصار. انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٢٢٩-٢٣٥).

الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة.

❁ **قوله:** «وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾»:

أي: على الذين يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن لا ينصروا على أعدائهم، وأن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، دائرة العذاب تدور عليهم: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾[الفتح:٦] وأبعدهم وأقصاهم من رحمته: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾[الفتح:٦] يصلونها يوم القيامة، وساءت منزلًا يصيرون إليه يوم القيامة.

❁ **قوله:** «**قال ابن القيم في الآية الأولى**»:

أي: على ما تضمنته وقعة أحد: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾[آل عمران:١٥٤] الآية.

❁ **قوله:** «**فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله...**»:

أي: يذهب ويتلاشى، حتى لا يبقى له أثر، والاضمحلال ذهاب الشيء جملة، وهذا تفسير غير واحد من المفسرين، وهو مأخوذ من تفسير قتادة والسدي وغيرهما، ذكره ابن جرير وغيره.

❁ **قوله:** «**وأن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته**»:

ذكره القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذلك أنهم تكلموا فيه فقال الله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾[آل عمران:١٥٤]؛ يعني: القدر خيره وشره من الله.

❁ **قوله:** «**ففسر بإنكار الحكمة**»:

فإن من أنكر أن ذلك لم يكن لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر فقد ظن بالله ظن السوء، ومنها قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾[آلعمران:١٥٤]؛ أي: يختبر ما فيها من الإيمان: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾[آل عمران:١٥٤] أن ينقيها فلو تركت في عافية دائمة لم تخلص من ميل النفوس، وحكم العادات، واستيلاء الغفلة، فاقتضت حكمة الله أن قيض لها من المحن ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتدارك خيف عليه من الهلاك.

❁ **قوله:** «**إنكار القدر**»:

أي: وفسر ظنهم بالله ظن السوء بإنكار القدر من أنهم لو لم يخرجوا ما قتلوا.

❁ **قوله:** «**وإنكار أن يتم أمر رسوله وأن يظهره..**»:

كما أخبر الله به في كتابه بقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣]وغيرها من الآيات والأخبار.

❁ **قوله:** «وهذا ظن السوء الذي ظنه المنافقون»:

وهي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[الفتح:٦].

❁ **قوله:** «وإنما كان هذا ظن السوء»:

وظن أهل الجاهلية أيضًا وهو المنسوب إلىٰ أهل الجهل.

❁ **قوله:** «لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه»:

وغير ما يليق بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء؛ لأن الذي يليق به سبحانه أن يظهر الحق علىٰ الباطل وينصره، فلا يجوز في عقل ولا شرع أن يظهر الباطل علىٰ الحق، بل يقذف بالحق علىٰ الباطل فيدمغه.

❁ **قوله:** «وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق»:

الذي لا يخلفه وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون، فمن ظن أنه لا ينصر رسوله ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، فقد ظن به ظن السوء، ونسبه إلىٰ خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وإلهيته تأبىٰ ذلك، وتأبىٰ أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة للمشركين، فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته.

❁ **قوله:** «فمن ظن أنه يديل الباطل علىٰ الحق...»:

اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا فقد ظن به ظن السوء؛ لأنه نسبه إلىٰ ما لا يليق بجلاله وكماله.

❁ **قوله:** «أو أنكر أن يكون ماجرىٰ...»:

أي: فذلك ظن السوء؛ لأنه نسبه إلىٰ ما لا يليق بربوبيته وملكه.

❁ **قوله:** «أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة...»:

وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية مطلوبة، هي أحب إليه من فواتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة، لإفضائها إلىٰ ما يحب، وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدىٰ، ولا شاءها عبثا، ولا خلقها باطلًا: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[ص:٢٧].

❁ **قوله: «وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء...»:**

وغالب بني آدم إلا من شاء الله يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به.

❁ **قوله: «ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه...»:**

لأن الله وعد رسوله أن ينصره، ويظهر أمره ودينه على الدين كله، فمن ظن أن دينه سيضمحل ولا يظهر على الدين كله فقد ظن به ظن السوء، ومن قنط من رحمته، وأيس من روحه، أو جوز عليه أن يعذب أولياءه على إحسانهم، ويسوي بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يترك خلقه سدى، أو أنه لا يجمعهم بعد الموت للثواب والعقاب فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح، وأنه يعاقبه بما لا صنع له فيه، وأنه يحسن منه كل شيء، حتى يعذب من أفنى عمره في طاعته فيخلده في الجحيم، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه، وترك الحق لم يخبر به، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابه وسنة رسوله، فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه وسلفه عبروا عن الحق بصريحه، دون الله ورسوله وأن الهدى في كلامهم، فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يقدر على إيجاده، وأنه كان معطلًا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، وأنه لا سمع له ولا بصر ولا علم ولا إرادة ولا كلام يقوم به، ولا يتكلم ولا يكلم، وأنه ليس فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه فيدعونهم ويرجونهم فقد ظن به ظن السوء.

❁ **قوله: «فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا...»:**

وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سيئ، ومتبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فإنها أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين وأرحم الراحمين، الغني الحميد الذي له الغنى التام والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأسماؤه كلها حسنى، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل:

فلا تظنن بربك ظن سوء   فإن الله أولىٰ بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيرًا   فكيف بظالم جان جهول

❁ **قوله: «ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتًا»:**

اقتراحًا عليه وأنه يستحق خلاف ما جرىٰ به القدر، بل يبوحون بذلك ويصرحون به جهارًا في كلامهم وأشعارهم، وهذه حالة كما قال ابن الجوزي وغيره قد شملت خلقًا كثيرًا من العلماء والجهال، أولهم إبليس، وقال: الواحد من العوام إذا رأىٰ مراكب مقلدة بالذهب والفضة، ودارًا مشيدة مملوءة بالخدم والزينة، قال: انظروا ما أعطاهم الله مع سوء أفعالهم، ولا يزال يلعنهم ويذم معطيهم، حتىٰ يقول: فلان يصلي الجماعات والجمع، ولا يؤذي الذر، ويظهر الإعجاب كأنه ينطق: لو كانت الشرائع حقًّا لكان الأمر بخلاف ما ترىٰ، وكان الصالح غنيًّا والفاسق فقيرًا، وقال صدقة بن الحسين الحداد وكان فقيهًا وعليه جرب، فقال: ينبغي أن يكون هذا علىٰ جمل لا علي، وكثير من العوام إذا رأىٰ رجلًا صالحًا مؤذىٰ قالوا: هذا ما يستحق، أو هذا ابن حلال كأن الله ظلمه أو يذمه كأنه لا يستحق، قدحًا في القدر، وارتفاعًا علىٰ الخالق جل وعلا في التحكم عليه، حتىٰ كأن المعترض قد ارتفع أن يكون شريكًا لله تعالىٰ في ملكه، والله سبحانه هو العليم الحكيم، يضع الأشياء مواضعها.

❁ **قوله: «فمستقل ومستكثر...»:**

من الاعتراض علىٰ قدر الله وحكمه.

❁ **قوله: «فإن تنتج منها تنتج من ذي عظيمة»:**

أي: من أمر ذي مصيبة عظيمة.

❁ **قوله: «وإلا فإني لا إخالك ناجيًا»:**

إخال بكسر الهمزة؛ أي: لا أظنك ناجيًا من الاعتراض علىٰ القدر، بل أكثر الخلق إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء بلسان حاله أو مقاله.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «قول الله تعالىٰ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[آل عمران:١٥٤]»:**

وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتىٰ يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه، وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله وتصديقه بكل ما أخبر به، وأنه

يفعله، وما وعد به من نصر الدين وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان.

وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد؛ لأنها سوء ظن بالله،ونفي لكماله وتكذيب لخبره، وشك في وعده. والله أعلم.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ ... ﴾»:

المقصود من هذا الباب أن كثيرًا من الناس لا يسلم لحكمة الله ولا يسلم لله قدره السابق ولا يسلم له سبحانه ما أراده من تنبيه العباد علىٰ أغلاطهم وأخطائهم حتىٰ يستعدوا وينتبهوا، بل أساءوا الظن بالله من وجوه كثيرة:

١ - فمنهم من يظن أن الأشياء التي تقع مما تخالف هواه لم تكن بحكمته ولم يكن بقدر سابق.

٢ - ومنهم من يظن أنه بمجرد المشيئة لا عن حكمة تقع.

٣ - ومنهم من يظن أن الله جار علىٰ العباد وظلمهم حتىٰ فعل كذا وكذا،وظلم فلان، وهزم فلان، فلماذا هذا كله؟!

فهذه ظنون الناس وهي كثيرة: ولهذا قال اللهﷻ في المنافقين ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ وهذا في قصة أُحد لما وقعت وجرىٰ للمسلمين ما جرىٰ من الهزيمة والجراح وقتل سبعين. نجم النفاق وتكلم المنافقون بما تكلموا به وظنوا بالله غير الحق وقالوا: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾؛ أي: هل لنا تصرف في شيء، ويقولون: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾؛ أي: أننا مجبورون، وليس لنا أمر، ولكن قادنا محمد إلىٰ هذا الأمر حتىٰ وقع ما وقع، وهذا كله من جهلهم وضلالهم ومن قلة بصيرتهم وعمىٰ قلوبهم، ولهذا ظنوا بالله ظن السوء، وظنوا أن ما وقع لم يكن لحكمة بالغة، وظنوا أن الله لا ينصر رسله، وأنه سيضمحل أمر هذا النبي، وأن ما وقع لم يكن إلا بمجرد المشيئة فصار ظنهم هذا إجماع بين سوء الظن بالله من جهة أنه لا ينصر رسله ولا أولياءه، ومن جهة أنه لم تقع هذه عن حكمة بل بمجرد المشيئة.

وهذا كله باطل؛ ولهذا بين سبحانه في كتابه العظيم حكمه وأسراره فيما يقضيه ويفعله ويشرعه وأنه يبتلىٰ عباده في السراء والضراء والشدة والرخاء ليمحص ما في قلوب المؤمنين ويمحق الكافرين ويتوب المؤمنون إليه ويستغفروه، ويعدوا للقاء الله سبحانه، والقيام بحقه كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ

أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٦٥ - ١٦٧].

فله سبحانه حكمة بالغة في ابتلاء هؤلاء وهؤلاء فالمؤمنون يبتلون ليتمحص إيمانهم ولتغفر سيئاتهم وليعدوا للقاء ربهم. والكفار يمحقون، والمنافقون يفضحون ويظهر خزيهم وباطلهم.

ولكن المنافقين فسدت قلوبهم وأساءوا الظن بالله ولهذا نصر الله المؤمنين كما وعدهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... ﴾ [محمد:٧] ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٤٠] ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحج:٤١] وهذا الوعد لا يقدح فيما يقع من هزيمة أحيانًا ليتخذهم شهداء ولحكمة بالغة أخرىٰ تقدم بعضها. ا هـ.

ولأن الناس لو نصروا دائمًا ولم يصبهم شيء من الخلل لربما ابتلوا بالعجب والكبرياء، وعدم الخضوع لله وعدم الاعتراف بتقصيرهم ونقصهم، وربما ظنوا أن هذا بحيلتهم وقوتهم وأعمالهم، فإذا ابتلاهم بشيء من هذه الأشياء انكسرت نفوسهم ورجعوا إلىٰ الله.

والواجب علىٰ المسلم أن يفتش نفسه ويحاسبها لعله يسلم من هذا البلاء، ولهذا من فتش نفسه وجد عندها عيوبًا ووجد عندها اعتراضًا علىٰ القدر وعجبًا بنفسه وبأعماله إلا من عصمه الله.

وعلىٰ المؤمن أن يؤمن بقضاء الله وقدره وأن له حكمة عظيمة فيما يصرفه وأن له قدر سابق وأن من حكمه وأسبابه العظيمة تهيئة عباده المؤمنين لما هو أفضل ورفع درجاتهم وليرجعوا إليه سبحانه وتعالىٰ.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ ... ﴾»:

ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

الأولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَظُنُّونَ﴾: الضمير يعود علىٰ المنافقين، والأصل في الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق علي اليقين، كما في قوله تعالىٰ ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة:٤٦]؛ أي: يتيقنون، وضد الراجح المرجوح، ويسمىٰ وهمًا.

قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: عطف بيان لقوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، و ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: الحال الجاهلية، والمعني: يظنون بالله ظن الملة الجاهلية التي لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني علىٰ الجهل.

والظن بالله ﷻ على نوعين:

الأول: أن يظن بالله خيرًا.

الثاني: أن يظن بالله شرًا

والأول له متعلقان:

١- متعلق بالنسبة لما يفعله في هذا الكون؛ فهذا يجب عليك أن تحسن الظن بالله ﷻ فيما يفعله سبحانه وتعالى في هذا الكون، وأن تعتقد أن ما فعله إنما هو لحكمة بالغة قد تصل العقول إليها وقد لا تصل وبهذا تتبين عظمة الله وحكمته في تقديره، فلا يظن أن الله إذا فعل شيئًا في الكون فعله لإرادة سيئة، حتى الحوادث والنكبات لم يحدثها الله لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير، فهذا واقع؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾[الأحزاب:١٧].

٢ – متعلق بالنسبة لما يفعله بك، فهذا يجب أن تظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لديك السبب الذي يوجب الظن الحسن، وهو أن تعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعلت ذلك، فعليك أن تظن أن الله يقبل منك ولا تسيء الظن بالله بأن تعتقد أنه لن يقبل منك، وكذلك إذا تاب الإنسان من الذنب، فيحسن الظن بالله أنه يقبل منه، ولا يسيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه.

وأما إن كان الإنسان مُفرِّطًا في الواجبات فاعلًا للمحرمات، وظن بالله ظنًا حسنًا، فهذا هو ظن المتهاون المتهالك في الأماني الباطلة، بل هو من سوء الظن بالله؛ إذ إن حكمة الله تأبى مثل ذلك.

النوع الثاني: وهو أن يظن بالله سوءً، مثل أن يظن في فعله سفهًا أو ظلمًا أو نحو ذلك؛ فإنه من أعظم المحرمات وأقبح الذنوب، كما ظن هؤلاء المنافقون وغيرهم ممن يظن بالله غير الحق.

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾. مرادهم بذلك أمران:

الأول: رفع اللوم عن أنفسهم.

الثاني: الاعتراض على القدر.

وقوله: ﴿لَّنَا ﴾ خبر مقدم.

وقوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾؛ أي: فإذا كان كذلك، فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره فالله ﷻ يفعل ما يشاء من النصر والخذلان.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ﴾ واحد الأمور لا واحد الأوامر؛ أي: الشأن كل الشأن الذي يتعلق بأفعال الله وأفعال المخلوقين كله لله سبحانه؛ فهو الذي يقدر الذل والعز والخير والشر، لكن الشر في مفعولاته لا في فعله.

قوله: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَ﴾؛ أي: ما لا يظهرون لك، فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق، فيخفي في نفسه مالا يبديه لغيره؛ لأنه يري من جبنه وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه، فهو يخفي الكفر والفسوق والعصيان.

قوله: ﴿مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾؛ أي: في أُحد، والمراد بمن «قتل»: من استشهد من المسلمين في أُحد؛ لأن عبد الله بن أُبي رجع بنحو ثلث الجيش في غزوة أُحد، وقال: إن محمدًا يعصيني ويطيع الصغار والشبان.

قوله: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾. هذا رد لقولهم: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾.

وهذا الاحتجاج لا حقيقة له؛ لأنه إذا كتب القتل على أحد، لم ينفعه تحصنه في بيته، بل لابد أن يخرج إلى مكان موته، والكتابة قسمان:

١- كتابة شرعية، وهذا لا يلزم منها وقوع المكتوب، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[النساء:١٠٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[البقرة:١٨٣].

٢- كتابة كونية، وهذه يلزم منها وقوع المكتوب كما في هذه الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[الأنبياء:١٠٥] وقوله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[المجادلة:٢١].

قوله: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾؛ أي: يختبر ما في صدوركم من الإيمان بقضاء الله وقدره والإيمان بحكمته، فيختبر ما في قلب العبد بما يقدره عليه من الأمور المكروهة، حتى يتبين من استسلم لقضاء الله وقدره وحكمته ممن لم يكن كذلك.

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾؛ أي: إذا حصل الابتلاء فقوبل بالصبر؛ صار في ذلك تمحيص لما في القلب؛ أي: تطهير له وإزالة لما يكون قد علق به من بعض الأمور التي لا تنبغي.

وقد حصل الابتلاء والتمحيص في غزوة أحد بدليل أن الصحابة لما ندبهم الرسول ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾[آل عمران:١٧٢] خرجوا إلى حمراء الأسد ولم يجدوا

غزوًا فرجعوا، ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾(٦٥٥) [آل عمران:١٧٤].

قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ جملة خبرية فيها إثبات أن الله عليم بذات الصدور؛ أي: بصاحبة الصدور، والمراد بها القلوب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦]؛ فالله لا يخفىٰ عليه شيء فيعلم ما في قلب العبد وما ليس في قلبه متي يكون وكيف يكون.

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾: المراد بهم: المنافقون والمشركون، قال تعالىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾[الفتح:٦]؛ أي: ظن العيب، وهو كقوله فيما سبق: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[آل عمران:١٥٤].

ومنه ما نقله المؤلف عن ابن القيم رحمهما الله: أنهم يظنون أن أمر الرسول ﷺ سيضمحل، وأنه لا يمكن أن يعود، وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾؛ أي: أن السوء محيط بهم جميعًا من كل جانب كما تحيط الدائرة بما في جوفها، وكذلك تدور عليهم دوائر السوء، فهم وإن ظنوا أنه تعالىٰ تخلىٰ عن رسوله وأن أمره سيضمحل، فإن الواقع خلاف ظنهم، ودائرة السوء راجعة عليهم.

قوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ الغضب من صفات الله الفعلية التي تتعلق بمشيئته ويترتب عليها الانتقام، وأهل التعطيل قالوا: إن الله لا يغضب حقيقة: فمنهم من قال المراد بغضبه الانتقام.

ومنهم من قال: المراد إرادة الانتقام، قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطب الانتقام، ولهذا قال النبي ﷺ «**إنه جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم**»(٦٥٦).

فيجاب عن ذلك: بأن هذا هو غضب الإنسان، ولا يلزم من التوافق في اللفظ التوافق في المثلية والكيفية، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورىٰ:١١]، ويدل علىٰ أن الغضب ليس هو الانتقام قوله تعالىٰ ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[الزخرف:٥٥].

---

(٦٥٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/١٧٩، ١٨٠)، الطبراني (١١/ ٢٧٤)، وعبد الرزاق (٥/ ٣٦٣)، والنسائي في « الكبرىٰ» (٦/ ٣١٧) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بسند صحيح.

(٦٥٦) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، برقم (٢١٩١)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: فتنة النساء، برقم (٤٠٠٠) مختصرًا، وأحمد (٣/ ٦١) واللفظ له، وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

فـ ﴿ءَاسَفُونَا﴾: بمعنى أغضبونا ﴿ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾؛ فجعل الانتقام مرتبًا على الغضب، فدل على أنه غيره.

وقوله: ﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾: اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: هيأها لهم وجعلها سكنًا لهم ومستقرًا.

قوله: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾؛ أي: مرجعًا يصار إليه.

و ﴿مَصِيرًا﴾: تمييز، والفاعل مستتر؛ أي: ساءت النار مصيرًا يصيرون إليه.

❁ **قوله**: «قال ابن القيم»:

هو محمد ابن قيم الجوزية، أحد تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الكبار الملازمين له رحمهما الله، وقد ذكره في «زاد المعاد» عقيب غزوة أحد تحت بحث الحكم والغايات المحمودة التي كانت فيها.

قوله: «في الآية الأولى»؛ يعني: قوله ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾، فسر بأن الله لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل؛ أي: يزول، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، يؤخذ هذا التفسير من قولهم.

﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهره الله على الدين كله.

ففسر بما يكون طعنًا في الربوبية وطعنًا في الأسماء والصفات؛ فالطعن في القدر طعن في ربوبية الله ﷻ؛ لأن من تمام ربوبيته ﷻ أن نؤمن بأن كل ما جرى في الكون فإنه بقضاء الله وقدره، والطعن في الأسماء والصفات تضمنه الطعن في أفعاله وحكمته، حيث ظننا أن الله تعالى لا ينصر رسوله وسوف يضمحل أمره؛ لأنه إذا ظن الإنسان هذا الظن بالله؛ فمعنى ذلك أن إرسال الرسول عليه الصلاة والسلام عبث وسفه؛ فما الفائدة من أن يُرسَل رسول ويؤمر بالقتال وإتلاف الأموال والأنفس، ثم تكون النتيجة أن يضمحل أمره وينسى؟ فهذا بعيد.

ولا سيما رسول الله ﷺ الذي هو خاتم النبيين؛ فإن الله تعالى قد أذن بأن شريعته سوف تبقى إلى يوم القيامة.

قال ابن القيم رحمه الله(٦٥٧): «وهذا هو ظن السوء الذي يظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح».

---

(٦٥٧) انظر: «زاد المعاد»، لابن القيم (٣/ ١٩٦).

وخلاصة ما ذكر ابن القيم في تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:

الأول: أن يظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، فهذا هو ظن المشركين والمنافقين في سورة الفتح، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾[الفتح:١٢].

الثاني: أن ينكر أن يكون ما جرىٰ بقضاء الله وقدره؛ لأنه يتضمن أن يكون في ملكه سبحانه ما لا يريد، مع أنَّ كل ما يكون في ملكه فهو بإرادته.

الثالث: أن ينكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد؛ لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعبًا وسفهًا، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يقدر شيئًا أو يُشرعه إلا لحكمة، قد تكون معلومة لنا وقد تقصر عقولنا عن إدراكها، ولهذا يختلف الناس في علل الأحكام الشرعية اختلافًا كبيرًا بحسب ما عندهم من معرفة حكمة الله سبحانه وتعالىٰ.

ورأي الجهمية والجبرية أن الله يقدر الأشياء لمجرد المشيئة لا لحكمة، قالوا: لأنه لا يُسأل عما يفعل، وهذا من أعظم سوء الظن بالله؛ لأن المخلوق إذا تصرف لغير حكمة سمي سفيهًا، فما بالك بالخالق الحكيم؟!

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[ص:٢٧]، فالظن بأنها خلقت باطلًا لا لحكمة عظيمة ظن الذين كفروا، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الدخان:٣٨ - ٣٩] الذي هو ضد الباطل، وهؤلاء قالوا: إن الله تعالىٰ خلقها باطلًا لغير حكمة، قال الله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: الذين يظنون أن الله خلقها باطلًا وعبثًا وسفهًا ولعبًا.

والمعتزلة على العكس من ذلك، يقولون: لا يُقدر إلا لحكمة، ويفرضون على الله ما يشاءون، وقد ذكر صاحب «مختصر التحرير الفتوحي» رَحِمَهُ اللَّهُ: أن في المسألة قولين في المذهب.

ولكن الصواب بلا ريب أنه لا يفعل شيئًا ولا يقدره على عبده ولا يشرع شيئًا إلا لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر.

قوله: «**وأكثر الناس**»؛ أي: من بني آدم لا من المؤمنين.

وقوله: «**يظنون بالله ظن السوء**»؛ أي: العيب فيما يختص بهم، كما إذا دعوا الله على الوجه المشروع يظنون أن الله لا يجيبهم، أو إذا تعبدوا الله بمقتضى شريعته يظنون أن الله لا يقبل منهم، وهذا ظن السوء فيما يختص بهم.

قوله: «فيما يفعله بغيرهم»، كما إذا رأوا أن الكفار انتصروا على المسلمين بمعركة من المعارك ظنوا أن الله يديل هؤلاء الكفار على المسلمين دائمًا، فالواجب على المسلم أن يحسن الظن بالله مع وجود الأسباب التي تقضتي ذلك.

قوله: «ولا يسلم من ذلك»؛ أي: من الظن السوء.

قوله: «إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده»: صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لا يسلم من ظن السوء إلا من عرف الله ﷻ وما له من الحِكَم والأسرار فيما يقدره ويشرعه، وكذلك عرف أسماءه وصفاته معرفة حقة لا معرفه تحريف وتأويل.

ولهذا حُجب المحرفون والمؤولون عن معرفة أسماء الله وصفاته، فتجد قلوبهم مظلمة غالبًا، تحاول أن تورد الإشكالات والتشكيك والجدل، أما من أبقى أسماء الله وصفاته على ما دلت عليه وسلك في ذلك مذهب السلف، فإن قلبه لا يَرِدُ عليه مثل هذه الاعتراضات التي ترد على قلوب أولئك المحرفين؛ لأن المحرفين إنما أتوا من جهة ظنهم بالله ظن السوء، حيث ظنوا أن الكتاب والسنة دلَّ ظاهرهما على التمثيل والتشبيه، فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه وينكرون ما أثبت الله لنفسه؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن كل معطل ممثل، وكل ممثل معطل».

أما كون كل معطل ممثلًا؛ فلأنه إنما عطل لكونه ظن أن دلالة الكتاب والسنة تقتضي التمثيل، فلما ظن هذا الظن السيئ بنصوص الكتاب والسنة أخذ يحرفها ويصرفها عن ظاهرها، فمثل أولًا، وعطل ثانيًا، ثم أنه إذا عطل صفات الله تعالى خوفًا من تشبيهه بالموجود؛ فقد شبهه بالمعدوم، وأما كون كل ممثل معطلًا؛ فلأن الممثل عطل الله تعالى من كماله الواجب حيث مثله بالمخلوق الناقص، وعطل كل نص يدل على نفي مماثلة الخالق للمخلوق.

وعلى هذا؛ فالذي عرف أسماء الله وصفاته معرفة على ما جرى عليه سلف هذه الأمة وأئمتها، وعرف موجب حكمة الله؛ أي: مقتضى حكمة الله؛ لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء.

وقوله: «موجب»؛ موجب بالفتح: هو المسبب الناتج عن السبب بمعنى المقتضى، وبالكسر: السبب الذي يقتضي الشيء بمعنى المقتضي، والمراد هنا الأول.

فالذي يعرف موجب حكمة الله وما تقتضيه الحكمة؛ فإنه لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء أبدًا، ولاحظ الحكمة التي حصلت للمسلمين في هزيمتهم في حنين وفي هزيمتهم في أُحد؛ فإن في ذلك حكمًا عظيمة ذكرها الله في سورة آل عمران والتوبة؛ فهذه الحكم إذا عرفها الإنسان لا يمكن

أن يظن بالله ظن السوء، وأنه أراد أن يخذل رسوله وحزبه، بل كل ما يجريه الله في الكون؛ كمنع الإنبات والفقر، فهو لحكمة بالغة قد لا نعلمها، ولا يمكن أن يظن أن الله بخل على عباده؛ لأنهﷻ أكرم الأكرمين، وعلى هذا فقس.

قوله: «**اللبيب**»: على وزن فعيل، ومعناه: ذو اللب، وهو العقل.

قوله: «**بهذا**»: المشار إليه هو الظن باللهﷻ؛ ليعتني بهذا حتى يظن بالله ظن الحق، لا ظن السوء وظن الجاهلية.

قوله: «**وليتب إلى الله**»؛ أي: يرجع إليه؛ لأن التوبة الرجوع من المعصية إلى الطاعة.

قوله: «**وليستغفره**»؛ أي: يطلب منه المغفرة، واللام في قوله: «**فليتب**» وقوله: «**وليستغفره**» للأمر.

قوله: «**تعنتًا على القدر وملامة له**»؛ أي: إذا قدر الله شيئًا لا يلائمه تجده يقول: ينبغي أن ننتصر، ينبغي أن يأتي المطر، ينبغي أن لا نصاب بالحوائج، وأن يوسع لنا في هذا الرزق وهكذا.

قوله: «**فمستقل ومستكثر**»: «**مستقل**»: مبتدأ، خبره محذوف، و «**مستكثر**»: مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: فمن الناس مستقل ومنهم مستكثر: ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[هود:١٠٥]، فـ ﴿وَسَعِيدٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: ومنهم سعيد، ولا يقال بأن ﴿وَسَعِيدٌ﴾ معطوف على شقي؛ لكونه يلزم أن يكون الوصفان لموصوف واحد.

قوله: «**وفتش نفسك: هل أنت سالم**»: وهذا ينبغي أن يكون في جميع المسائل مما أوجبه الله، فتش عن نفسك: هل أنت سالم من التقصير فيه؟ ومما حرمه الله عليك: هل أنت سالم من الوقوع فيه؟

قوله: «**فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة**»: «**تنج**» الأول فعل الشرط مجزوم بحذف الواو، «**تنج**» الثانية جوابه مجزوم بحذف الواو.

وقوله: «**من ذي عظيمة**»؛ أي: من ذي بلية عظيمة.

قوله: «**وإلا، فإني لا إخالك ناجيًا**»: التقدير؛ أي: وإلا تنج من هذه البلية، فإني لا إخالك ناجيًا. ومعني إخالك: أظنك، وهي تنصب مفعولين: الأول هنا الكاف، والثاني ناجيًا.

❁ **قوله**: «**فيه مسائل**»:

الأولى: تفسير آية آل عمران: وهي قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ..﴾ وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

الثانية: تفسير آية الفتح: وهي قوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ..﴾، وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

الثالثة: **الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر**؛ أي: ظن السوء والذي أخبر بذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وضابط هذه الأنواع أن يظن بالله ما لا يليق به.

الرابعة: **أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه**؛ أي: لا يسلم من ظن السوء بالله إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده وعرف نفسه ففتش عنها، والحقيقة أن الإنسان هو محل النقص والسوء، وأما الرب، فهو محل الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

ولا تَظُنَّ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ ... فَإِنَّ اللهَ أَوْلَىٰ بالجَمِيلِ

مناسبة الباب للتوحيد

إن ظن السوء ينافي كمال التوحيد، وينافي الإيمان بالأسماء والصفات؛ لأن الله قال في الأسماء: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، فإذا ظن بالله ظن السوء، لم تكن الأسماء حسنىٰ، وقال في الصفات: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النحل:٦٠]، وإذا ظن بالله ظن السوء، لم يكن له المثل الأعلىٰ.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ ...﴾:

تمام الآية: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[آل عمران:١٥٤].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

التنبيه علىٰ أن حسن الظن بالله من واجبات التوحيد، وأن سوء الظن بالله ينافي التوحيد.

﴿يَظُنُّونَ﴾؛ أي: المنافقون، والظن في الأصل - خلاف اليقين.

﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: غير الظن الحق.

﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: بدل من ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: الظن المنسوب إلىٰ أهل الجهل حيث اعتقدوا أنَّ الله لا ينصر رسوله والمراد بالجاهلية ما قبل الإسلام.

﴿يَقُولُونَ﴾: بدلٌ من ﴿يَظُنُّونَ﴾.

﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾: استفهام بمعنىٰ النفي؛ أي: ما لنا من النصر والظفر نصيب قط. أو قد مُنعنا من تدبير أنفسنا فلم يبق لنا من الأمر شيء.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾؛ أي: ليس لكم ولا لغيركم من الأمر شيء بل الأمر كله لله فهو الذي لا رادَّ لما شاءه وأراده.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾؛ أي: من الإنكار والتكذيب.

﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾؛ أي: غير الذي يُظهرون لك من الإيمان وطلب الاسترشاد.

وبقية المفردات تقدَّم شرحها في باب ما جاء في اللو.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر تعالىٰ عما حصل من المنافقين يوم أحدٍ أنَّهم ظنوا بالله الظن الباطل، وأنَّه لا ينصر رسوله، وأنَّ أمره سيضمحل، وأنَّ الأمر لو كان إليهم وكان الرسول ﷺ وأصحابه تبعًا لهم يسمعون منهم؛ لما أصابهم القتل، ولكان النصر والظفر لهم؛ فأكذبهم الله ﷻ في هذا الظنِّ، وبيَّن أنَّه لا يكون ولا يحدث إلا ما سبق به قضاؤه وقدره وجرىٰ به كتابه السابق وأنه لا راد لقضائه.

ما يستفاد من الآية:

١- أنَّ من ظنَّ أن الله يديل الباطل علىٰ الحق إدالة مستمرة يضمحل معها الحق اضمحلالًا لا يقوم بعده فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية.

٢- إثبات الحكمة فيما يجريه الله من ظهور الباطل أحيانًا.

٣- بيان خبث طوية المنافقين، وأنهم عند الشدائد يظهر ما عندهم من النفاق.

٤- إثبات القضاء والقدر.

٥- وجوب تنزيه الله عمَّا لا يليق به سبحانه.

٦- وجوب حسن الظن بالله تعالىٰ.

❁ **قوله:** ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾:

تمام الآية: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[الفتح:٦].

﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾؛ أي: المسيئين الظن بالله من المنافقين والمنافقات.

﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾: بفتح السين وضمها؛ أي: ظن الأمر السوء وهو: أن لا ينصر رسوله والمؤمنين.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: دائرة العذاب والذل لازمة لهم لا تتخطاهم.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾؛ أي: سخط عليهم وأبعدهم من رحمته.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾؛ أي: هيأ له في الآخرة.

﴿جَهَنَّمَ﴾؛ أي: النار الشديدة العذاب.

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾؛ أي: منزلًا يصيرون إليه يوم القيامة.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يقول تعالىٰ: علىٰ الذين يتهمون الله في حكمه، ويظنون أنَّه لا ينصر رسوله ﷺ وأصحابه وأتباعه، - علىٰ أعدائهم - دائرة العذاب وأبعدهم الله من رحمته، وهيأ لهم في الآخرة نارًا يصيرون إليها هي شر ما يصار إليه.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها أنَّ من ظنَّ أنَّ الله لا ينصر حزبه علىٰ أعدائه فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

ما يستفاد من الآية:

١- التحذير من سوء الظنِّ بالله ووجوب حسن الظنَّ به.

٢- أنَّ من ظنَّ أن الله لا ينصر رسوله ودينه فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

٣- وصف الله بأنَّه يغضب علىٰ أعدائه ويلعنهم.

٤- بيان عاقبة الكفار والمنافقين.

❁ **قوله: «قال ابن القيم...»:**

قال ابن القيم؛ أي: في زاد المعاد في الكلام علىٰ ما تضمنته وقعة أحدٍ، ومناسبة ذكر كلامه هنا توضيح معنىٰ الآية الكريمة.

«**فسر هذا الظنّ**»؛ أي: المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران:١٥٤]

«**سيضمحل**»؛ أي: يذهب ويتلاشىٰ حتىٰ لا يبقىٰ له أثرٌ والاضمحلال: ذهاب الشيء.

«**ففسر**»؛ أي: فسر هذا الظن بثلاثة تفاسير.

«**بإنكار الحكمة**»؛ أي: أنَّ ما أجراه في وقعة أحدٍ لم يكن لحكمةٍ بالغةٍ وهي التي أشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤]

«**وإنكار القدر**»؛ أي: أنهم لو أطاعونا ولم يخرجوا ما قتلوا.

«**وإنكار أن يتم أمر رسوله**»: حيث ظنوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفاصلة وأن الإسلام قد باد أهله.

«في سورة الفتح»؛ أي: الظن الذي ذكره الله عن المنافقين والمشركين في سورة الفتح في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ...﴾[الفتح:٦].

«يديل الباطل»؛ أي: يجعل له الدولة والغلبة.

«تعنتًا علىٰ القدر»؛ أي: اعتراضًا وافتراضًا عليه.

«فمستقلٌ ومستكثر»؛ أي: من هذا الاعتراض علىٰ القدر.

«فإن تنج منها»؛ أي: من هذه الخصلة.

«تنج من ذي عظيمةٍ»؛ أي: من أمرٍ ذي مصيبةٍ عظيمةٍ.

«إخالك»: بكسر الهمزة؛ أي: أظنك.

«ناجيًا»: من الاعتراض علىٰ القدر.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ...﴾»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن الله -جل وعلا- موصوف بصفات الكمال، وله -جل وعلا- أفعال الحكمة، وأفعال العدل، وأفعال الرحمة والبر، فهو سبحانه كامل في أسمائه، كامل في صفاته، كامل في ربوبيته، ومن كماله في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته أنه لا يفعل الشيء إلا لحكمة بالغة، والحكمة هي: أنه -جل وعلا- يضع الأمور في مواضعها التي توافق الغايات المحمودة منها، وهذا دليل الكمال. فالله -جل وعلا- له صفات الكمال وله نعوت الجلال والجمال، فلهذا وجب لكماله -جل وعلا- أن يُظنَّ به ظن الحق، وألّا يُظن به ظن السوء، وأن يعتقد فيه ما يجب لجلاله -جل وعلا- من تمام الحكمة، وكمال العدل، وكمال الرحمة، وكمال أسمائه وصفاته سبحانه وتعالىٰ، فالذي يظن به -جل وعلا- أنه يفعل الأشياء لا عن حكمة فإنه قد ظن به ظن النقص، وهو ظن السوء الذي ظنه أهل الجاهلية، فظن غير الحق بالله تعالىٰ منافٍ للتوحيد، وقد يكون منافيًا لكمال التوحيد، فمنه ما يكون صاحبه خارجًا عن ملة الإسلام أصلًا كظن غير الحق بالله تعالىٰ في بعض مسائل القدر -كما سيأتي ومنه ما هو منافٍ لكمال التوحيد، كعدم الإيمان بالحكمة، أو بأفعال الله -جل وعلا- المنوطة بالعلل التي هي منوطة بحكمته سبحانه البالغة، ولهذا قال جل وعلا: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[الأنعام:١٤٩]، في الرد علىٰ القدرية المشركة، وقد قال أيضًا جل وعلا: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾[القمر:٥]، فالله -جل وعلا- موصوف بكمال الحكمة، وكمال الحمد علىٰ أفعاله؛ لأن

أفعال الله -جل وعلا- قسمان: أفعال ترجع إلىٰ الحكمة والعدل، وأفعال ترجع إلىٰ الفضل والنعمة والرحمة والبر بالخلق، فالله -جل وعلا- يفعل هذا وهذا، وحتىٰ أفعاله التي هي أفعال بر وإحسان هي منوطة بالحكم العظيمة، وكذلك الأفعال التي قد يظهر للبشر أنها ليست في صالحهم أو ليست موافقة للحكمة، فإن ظنّ الحق بالله -جل وعلا- أن يُظن به، وأن يُعتقد أنه ليس ثَمَّ شيء من أفعاله إلا وهو موافق لحكمته -جل وعلا- العظيمة، إذ هو العزيز القهار، الفعال لما يريد.

فالواجب -تحقيقًا للتوحيد- أن يظن العبد بالله -جل وعلا- ظن الحق، وأما ظن السوء فهو ظن الجاهلية الذي هو منافٍ لأصل التوحيد في بعض أحواله، أو منافٍ لكمال التوحيد، فترجم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الباب ليبين أن ظن السوء بالله -جل وعلا- من خصال أهل الجاهلية، وهو منافٍ لأصل التوحيد، أو منافٍ لكماله بحسب الحال.

❁ **قوله**: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾[آل عمران: ١٥٤] »:

الظن يطلق ويراد به الاعتقاد، وقد يراد به ما يسبق إلىٰ الوهم، يعني: ما يسبق إلىٰ الذهن، فهم يعتقدون، أو يسبق إلىٰ أذهانهم -بما معهم من الشرك- أن الله -جل وعلا- ليست أفعاله أفعال حق، والله سبحانه هو الحق، وأفعاله كلها أفعال الحق، وذلك الظن هو ظن الجاهلية، فكل من ظن بالله غير الحق فقد ظن ظن الجاهلية، بمعنىٰ أنه ظن بالله -جل وعلا- غير الكمال، فهذا هو ظن الجاهلية. وأما ظنّ أهل التوحيد والإسلام فإنهم يظنون، يعني: يعتقدون ويعلمون ويسبق إلىٰ أذهانهم في أي فعل يحصل لهم أن الله -جل وعلا- موصوف بالكمال وبالحكمة البالغة، فسّر ذلك -جل وعلا- بقوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ وهذا فيه إنكار للحكمة، أو إنكار للقدر، ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾، وهذا في الرد علىٰ هؤلاء المنافقين أو المشركين.

❁ **قوله**: «وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾[الفتح: ٦]»:

يؤخذ من كلام ابن القيم الذي أورده المصنف أن السلف فسروا هذا الظن السوء بأحد ثلاثة أشياء وكلها صحيح:

الأول: إنكار القدر.

الثاني: إنكار الحكمة.

الثالثة: إنكار نصر الله -جل وعلا- لرسوله ﷺ، أو لدينه، أو لعباده الصالحين.

فهذه ثلاثة أشياء، ووجه كون إنكار القدر ظنًّا بالله ظن السوء أن تقدير الأمور قبل وقوعها من آثار

عزة الله -جل وعلا- وقدرته، فإن العاجز هو الذي تقع معه الأمور استئنافًا عن غير تقدير سابق، وأما الذي لا يحصل معه أمر حتىٰ يقدره قبل أن يوقعه، فيقع علىٰ وفق ما قدّر، فهو ذو الكمال، وهو ذو العزة، وهو الذي لا يغالب في ملكوته، ولهذا قال الشاعر في وصف رجل كامل:

لأنت تفري ما خلقتَ وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

الخلق هنا بمعنىٰ التقدير، يعني: لأنت تقطع ما قدّرت، وبعض القوم -وهم الناقصون إما لعدم قدرتهم، أو لعدم عزتهم، أو لجهلهم- يخلق، يعني: يقدر الأشياء، ثم يفري، أي: لا يستطيع أن يقطعها علىٰ وفق ما يريد.

فإنكار القدر ظنٌّ بالله -جل وعلا- ظن السوء؛ لأن فيه نسبة النقص إلىٰ الله -جل وعلا- والله -جل وعلا- هو الكامل في أسمائه، الكامل في صفاته -جل وعلا- الذي يجير ولا يجار عليه، والذي إليه الأمر كله، كما قال هنا:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، فلهذا كان كل ما يحصل من الرب -جل وعلا- في بريته موافقًا لقدره السابق الذي هو دليل كمال حكمته، وعلمه، وخلقه، وعموم مشيئته.

أما التفسير الثاني: فهو إنكار الحكمة، وحكمة الله -جل وعلا- ثابتة بالكتاب والسنة وبإجماع السلف، واسم الله (الحكيم) مشتمل علىٰ صفة الحكمة، فإنه -جل وعلا- حكيم بمعنىٰ: حاكم، وحكيم، بمعنىٰ: محكم للأمور، وحكيم بمعنىٰ: أنه ذو الحكمة البالغة، فهذه ثلاثة تفسيرات لاسم الله (الحكيم) وكلها صحيحة، وكلها يستحقها الله -جل وعلا- فإنه -جل وعلا- حكيم بمعنىٰ: حاكم، وحكيم بمعنىٰ: محكم كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[هود:١]، وقال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك:٣] لأجل إحكامه، وقال سبحانه وتعالىٰ أيضًا: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[يونس:١٠١]، ونحو ذلك من دليل إحكامه -جل وعلا- لما خلق.

والثالث: أنه ذو الحكمة، والحكمة في صفة الله -جل وعلا- تفسر -كما تقدم- بأنها وضع الأمور في مواضعها الموافقة للغايات المحمودة منها، ولهذا قال أهل السنة والجماعة، أهل الأثر الفقهاء بالكتاب والسنة: إن أفعال الله -جل وعلا- معللة، وكل فعل يفعله الله -جل وعلا- فله علة من أجلها فعل، وهذه العلة هي حكمته سبحانه وتعالىٰ، فإن أفعال الله -جل وعلا- منوطة بالعلل، وهذا أنكره المعتزلة؛ لأنهم قدرية، وأنكره الأشاعرة؛ لأنهم جبرية، فقالوا: إن أفعال الله -جل وعلا- ليست مرتبطة بالحكم، وهو يفعل لا عن حكمة، وهذا سوء ظن بالله جل وعلا،

ولهذا أورد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب ليبين أن تحقيق التوحيد، وتحقيق كمال التوحيد أن توقن بالحكمة البالغة لله -جل وعلا- ومن نفىٰ الحكمة في أفعال الله فهو مبتدع، توحيده قد انتفىٰ عنه كماله؛ لأن بدعته شنيعة، وكل البدع تنفي كمال التوحيد، ومنها ما ينفي أصل التوحيد.

والتفسير الثالث: في ظن الجاهلية وأهل النفاق ظن السوء بالله -جل وعلا- أن الله -جل وعلا- لا ينصر رسوله ﷺ، وأن الله -جل وعلا- لا ينصر كتابه، أو أنه يجعل رسوله أو دينه في اضمحلال حتىٰ يذهب ذلك الدين، هذا ظن سوء بالله -جل وعلا- ولهذا كان من براهين النبوات عند أهل السنة: أنه لم يدع أحد النبوة وهو كاذب في دعواه إلا ويخذل ويضمحل أمره، ومن براهينها: أن كل نبي قال: إنه مرسل من عند الله -جل وعلا- أيد بالآيات والبينات، ونُصر علىٰ عدوه، وجُعل دينه وأهل دينه في عزة علىٰ من سواهم، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾[غافر:٥١]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[الصافات: ١٧١-١٧٣]، فظن أهل الجاهلية أن الخير أو الدين سيضمحل، وأنهم إذا بذلوا إطفاء ذلك الأمر وحاربوه بكل ما أوتوا من وسيلة وقاوموهم فإنه سينتهي، وهذا مع كونه عملًا محرمًا لما يشتمل عليه من الظلم، فإنه أيضًا سوء ظن بالله -جل وعلا- وغرور بالقوة وبالنفس، والله -جل وعلا- ناصر رسله، والله -جل وعلا- ناصر عباده المؤمنين، ولكن قد يبتلي الله -جل وعلا- المؤمنين بعدم النصرة والظهور زمنًا طويلًا قد يبلغ مئات السنين، كما حصل في قصة نوح عليه السلام ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾[العنكبوت ١٤] ثم بعد ذلك نصره الله -جل وعلا- وهذا الظن السيئ يحصل -كما ذكر ابن القيم- من كثير من أهل الصلاح، بل من كثير من الناس، بل قد يحصل من بعض المنتسبين إلىٰ العلم، وسبب حدوث ذلك الظن السيئ في القلوب عدم العلم بما يستحقه الله -جل وعلا- وما أوجبه -جل وعلا- من الصبر والأناة ونحو ذلك من الواجبات.

فالمسألة متصل بعضها ببعض، فالذي يخالف ما أمر الله -جل وعلا- به شرعًا فيما يتصل بنصرة الدين، فإنه يقع في سوء ظن بالله -جل جلاله- وهذا مما ينافي كمال التوحيد الواجب.

ولهذا يجب علىٰ المؤمن أن يتحرز كثيرًا، وأن يحترس من سوء الظن بالله -جل وعلا- فإن بعض الناس قد ينال الشيء فيرىٰ أنه يستحق أكثر منه، وقد يحصل له الشيء بقضاء الله وبقدره فيظن أنه لا يستحق ذلك الشيء، أو أن الذي ينبغي أن يصاب به هو غيره، فينظر إلىٰ فعل الله -

جل وعلا- وقضائه وقدره على وجه الاتهام، وقلَّ من يسلم باطنًا وظاهرًا من ذلك، فكثيرون قد يسلمون ظاهرًا، ولكن في الباطن يقوم بقلوبهم ظن الجاهلية، واعتقاد السوء، ولهذا قال -جل وعلا- في الآية التي في صدر الباب: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ والظن محله القلب، فلهذا يجب على المؤمن أن يخلّص قلبه من كل ظن بالله غير الحق، وأن يتعلم أسماء الله -جل وعلا- وصفاته، وأن يتعلم آثار ذلك في ملكوت الله، حتى لا يقوم بقلبه إلا أن الله -جل جلاله- هو الحق، وأن فعله حق، حتى ولو كان في أعظم خطب ولو أصيب بأكبر مصيبة، أو أهين بأعظم إهانة، فإنه يعتقد أن فيما أصابه حكمة لتمام ملك الله -جل وعلا- وحكمته، وأنه يتصرف في خلقه كيف يشاء، وأن العباد مهما بلغوا فإنهم يظلمون أنفسهم، والله -جل وعلا- يستحق الإجلال والتعظيم، فخلّص قلبك -أيها المسلم، وخاصة طالب العلم- من كل ظن سوء بالله -جل وعلا- فلا تظنن في أمر قدّر الله وجوده أن غيره أفضل منه، وأن عدم حصوله أصلح، ولا في أمر قدّر الله عدم كونه أن وجوده أولى، فإن كل ذلك سوء ظن بالله -جل وعلا- ولهذا قال العلماء في معنى قول النبي ﷺ: «**إياكم والحسد، فإنه يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب**»(٦٥٨). سبب ذلك أن الحاسد ظَنَّ أن من أعطاه الله -جل وعلا- هذه النعمة أنه لا يستحقها، فحسده وتمنى زوالها عنه، فصار في ظن سوء بالله جل وعلا، فلهذا أكل ظنُّه حسناته، كما أكلت النار الحطب.

نسأل الله -جل وعلا- السلامة والعافية من أن نظن بالله -جل وعلا- غير الحق، ونسأله أن يجعلنا من المعظمين له، ومن المجلين لأمره ونهيه، المعظمين لحكمته سبحانه وتعالى.



(٦٥٨) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في الحسد، برقم (٤٩٠٣)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٢١٩٧).

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران، أي قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ الآية، أي: خلاف ما ورد به الشرع.

الثانية: تفسير آية الفتح، أي قوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] الآية، أي: خلاف ما أخبر به في كتابه وسنة رسوله ﷺ.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر، أي: ظن السوء بالله أنواع لا تحصر.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه، أي: لا يسلم من ظن السوء بربه إلا من عرف أسماء الله وصفاته، وأنه المنزه عن السوء الموصوف بكل خير وكمال، وعرف نفسه، وأنها مأوى كل سوء، فظن بها ذلك دون ربه العزيز الحكيم.



* الأسئلة *

قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ ...﴾:

س: ما المقصود بالذين يظنون بالله غير الحق وما هو الظن الذي ظنوه به، وما المقصود بظن السوء ولماذا كان ظن سوء؟

جـ: هم المنافقون وهذا الظن هو أنهم ظنوا أن الله سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل ويذهب ويتلاشىٰ وأن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته. ففسر هذا الظن بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم الله أمر رسوله وأن يظهره علىٰ الدين كله.

وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون وإنما كان ظن سوء؛ لأنه ظن غير ما يليق بالله سبحانه وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

س: ما هو الطريق إلى السلامة من ظن السوء بالله الذي وقع فيه أكثر الناس؟

جـ: هو معرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته، وموجب حكمته وحمده، والتوبة والاستغفار من هذا الظن.

س: ما الذي أراد المؤلف بهذا الباب؟

جـ: أراد التنبيه علىٰ وجوب حسن الظن بالله تعالىٰ؛ لأن ذلك من واجبات التوحيد وذلك انه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتىٰ يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله وتصديقه بكل ما أخبر به وأنه يفعله وما وعد به من نصر الدين وإحقاق الحق وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد؛ لأنها سوء ظن بالله ونفي لكماله وتكذيب لخبره وشك في وعده.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس الستون:

باب ما جاء في منكري القدر

وقال ابن عمر والذي نفس ابن عمر بيده؛ لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(٦٥٩). رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت؛ أنه قال لابنه: يا بني! إنك لن تجد طعم الإيمان حتىٰ تعلم أن ما أصابك لم يكن ليُخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فقال: رب! وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة».

يا بني! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات علىٰ غير هذا، فليس مني»(٦٦٠).

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالىٰ القلم، فقال له: اكتب، فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة»(٦٦١).

وفي رواية لابن وهب(٦٦٢): قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره، أحرقه الله بالنار»(٦٦٣).

وفي «المسند» و«السنن» عن ابن الديلمي، قال: «أتيت أُبَيَّ بن كعب، فقلت(٦٦٤): في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء، لعل الله يذهبه من قلبي. فقال: «لو أنفقت مثل أحدٍ ذهبًا، ما قبله الله منك حتىٰ تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت علىٰ

---

(٦٥٩) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، برقم (٨)، والنسائي، كتاب: الإيمان، باب: نعت الإسلام، برقم(٤٩٩٠) وغيرهما من حديث عمر رضي الله عنه.

(٦٦٠) تقدم تخريجه.

(٦٦١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣١٧)، وابن أبي عاصم (١٠٧)، والطبراني في «مسند الشاميين»، برقم (١٩٤٩) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ٥٠).

(٦٦٢) زاد في نسختي ابن قاسم والفوزان: «قال».

(٦٦٣) أخرجه عبد الله بن وهب في «القدر»، برقم (٢٦) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٦٦٤) زاد في نسخة ابن باز: «له».

غير هذا، لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعودٍ، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ»[٦٦٥] حديث صحيح رواه الحاكم في «صحيحه»[٦٦٦].

فيه مسائل:

الأولىٰ: بيان فرض الإيمان بالقدر.

الثانية: بيان كيفية الإيمان[٦٦٧].

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الإخبار بأن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتىٰ يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرىٰ بالمقادير في تلك الساعة إلىٰ [يوم][٦٦٨] قيام الساعة.

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته وذلك أنهم نسبوا الكلام إلىٰ رسول الله ﷺ فقط.



الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب ما جاء في منكري القدر»:

أي: من الوعيد الشديد، والقدر -بالفتح- ما يقدره الله من القضاء، ولما كان توحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القدر ذكر المصنف ما جاء من الوعيد فيمن أنكره، تنبيهًا علىٰ وجوب الإيمان به، وقد جاءت أحاديث كثيرة في ذم القدرية، وأنهم مجوس هذه الأمة، فعن ابن عمر مرفوعًا:

---

(٦٦٥) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في القدر، برقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه في المقدمة، باب: في القدر، برقم (٧٧)، وأحمد (٥/ ١٨٢) وغيرهم من حديث ابن الديلمي رَحِمَهُ اللَّهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٦٦٦) لم أقف عليه في «مستدرك الحاكم».

(٦٦٧) زاد في نسخة السعدي: «به».

(٦٦٨) ساقطة من نسخة السعدي، والمثبت من نسخة ابن عثيمين.

«القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»(٦٦٩). رواه أبو داود. وروىٰ من حديث حذيفة: «لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر»(٦٧٠) الحديث؛ يعني: أن الأمر مستأنف، لم يسبق به قدر ولا علم من الله، وإنما يعلمه بعد وقوعه. ومذهب أهل السنة ما دل عليه الكتاب والسنة أن الله خالق كل شيء، وربه ومليكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، قدر أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة، وغلاة القدرية ينكرون علمه المتقدم، وكتابته السابقة، ويقولون: الأمر أنف. وهذا القول أول ما حدث في الإسلام في أواخر عصر الصحابة، وأول من ظهر ذلك منه معبد الجهني كما سيأتي، وعامة القدرية ينكرون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فينكرون مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وينكرون أن للعباد إرادات وأفعالًا حقيقة وأن الله خالق أفعالهم وإراداتهم.

❁ **قوله**: «**وقال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده ...**»:

هذا الحديث رواه مسلم كما ذكره المصنف، وأهل السنن وغيرهم عن يحيىٰ بن يعمر قال: كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف. فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني برآء، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر».

قال شيخ الإسلام: وكذلك كلام ابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين فيهم كثير، حتىٰ قال فيهم الأئمة كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم: **إن المنكرين لعلم الله القدرية يكفرون**.

---

(٦٦٩) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في القدر، برقم (٤٦٩١)، والحاكم، برقم (٢٨٦)، والبيهقي(١٠/ ٢٠٣) وغيرهم، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٦٧٠) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في القدر، برقم (٤٦٩٢)، وأحمد (٢/ ٨٦)، (٥/ ٤٠٦)، والبيهقي(١٠/ ٢٠٣) وغيرهم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

قوله: «ثم استدل بقول النبي ﷺ: الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته ...»:

أي: قال ابن عمر حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل؛ يعني: جبرائيل عليه السلام كما صرح به في آخر الحديث، شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرىٰ عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع كفيه علىٰ فخذيه، فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فأخبره بأركانه، ثم سأله عن الإيمان، فأخبره كما ذكره المصنف، ثم سأله عن الإحسان ثم الساعة، وهذا حديث عظيم، وعليه مدار أصول الدين، وفيه أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلًا من أصول الدين وجحده، ويشبه من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[البقرة:٨٥].
والإيمان بالقدر هو الإيمان بأن الله علم ذلك في علمه القديم، وأنه كتبه وشاءه وأوجده.

قوله: «**وعن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان**»:

أي: حلاوة الإيمان كما تقدم في حديث أنس. وللترمذي: «**إن للإيمان طعمًا**». وهو كذلك فإن له حلاوة وطعمًا من ذاقه تسلىٰ به عن الدنيا وما عليها، وابن عبادة: هو الوليد، صرح به أحمد والترمذي، وُلِدَ في عهد النبي ﷺ أنصاري مدني ثقة من كبار التابعين، مات بعد السبعين.

قوله: «**حتىٰ تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»:

ولأحمد وغيره: قلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي فقال: أجلسوني. فقال: يا بني **إنك لن تجد** طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتىٰ تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه كيف أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. وفي الحديث: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان**»(٦٧١) وإنما يكون كذلك إذا كان مؤمنًا بالقدر.

قوله: «**سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم**»:

أي: أول شيء خلقه قبل خلق السماوات والأرض، لا قبل خلق العرش، وعليه الجمهور؛ لما روىٰ مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات**

---

(٦٧١) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، برقم (١٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، برقم (٤٣) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[٦٧٢]، وفي «الصحيح» من غير وجه عن عمران بن حصين مرفوعًا: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض»[٦٧٣]. وروى الدارمي وغيره نحوه، وقال: ثبت في النصوص الصحيحة أن العرش خُلِقَ أولًا. وعن ابن عباس قال: «إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئًا، فكان أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما هو كائن»[٦٧٤]. وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه، ونحوه للبيهقي عنه أنه سئل عن قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ على أي شيء؟ قال: على متن الريح. ويحمل حديث: «أول ما خلق الله القلم» على أنه أول المخلوقات من هذا العالم.

❁ **قوله: «فقال له: اكتب؛ فقال: رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»:**

وكذلك في حديث ابن عباس وغيره، وفيه بيان أنه إنما أمر حينئذ أن يكتب مقادير هذا الخلق إلى قيام الساعة، لا ما يكون بعد ذلك.

❁ **قوله: «يابني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني»:**

صححه أحمد والترمذي، وفيه ونحوه بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[الطلاق:١٢]. قال أحمد: القدر قدرة الرحمن. قال شيخ الإسلام: يشير إلى أن من أنكر القدر فقد أنكر قدرة الله، وأنه يتضمن إثبات قدرة الله على كل شيء»[٦٧٥]. اهـ. ونفاة القدر جحدوا كمال قدرة الله. قال بعض السلف: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا؛ يعني: إن أنكروا العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأنه في كتاب حفيظ فقد كذبوا القرآن، وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله. خلق أفعال العباد وأرادها فقد خصموا؛ لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه. وقد بيض المصنف رحمه الله تعالى آخر هذا الحديث ليعزوه ورواه أحمد والترمذي وأبو داود وهذا لفظه كما ذكره الشارح.

---

(٦٧٢) أخرجه مسلم، كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، برقم (٢٦٥٣)، والترمذي، كتاب: القدر، باب: (١٨)، برقم (٢١٥٦) وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٦٧٣) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، برقم (٧٤١٨) وغيره من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٦٧٤) سبق تخريجه.

(٦٧٥) انظر: «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٣/ ٢٥٤).

قوله: «وفي رواية لأحمد: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة» وتمامه: يا بني إن مت ولست علىٰ ذلك دخلت النار.

❁ **قوله:** «وفي رواية لابن وهب»:

هو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم أبو محمد المصري الثقة الفقيه، صاحب مالك، روىٰ عنه وعن عمرو بن الحارث وابن هانئ وحيوة وغيرهم، وعنه شيخه الليث بن سعد وابن مهدي وابن المديني وجماعة، وجمع وصنف وحفظ علىٰ أهل الحجاز ومصر وغيرهم ولد سنة ١٢٥ هـ، ومات سنة ١٩٧ هـ.

❁ **قوله:** «قال رسول الله ﷺ: فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»:

أي: فمن لم يؤمن بما قدره الله وقضاه فقد جحد قدرة الله التامة، ومشيئته النافذة، وخلقه لكل شيء، وتصرفه في كل شيء، وكذب بكتبه ورسله ووعده ووعيده، فاستحق أن يحرقه الله بالنار، لكفره وبدعته أعاذنا الله من ذلك.

❁ **قوله:** «وفي «المسند» و«السنن» عن الديلمي»:

أي: «وفي مسند الإمام أحمد»؛ «وسنن أبي داود» «وابن ماجه» عن عبد الله بن فيروز الديلمي نسبة إلىٰ جبل الديلم، أبو بسر بالمهملة ويقال: بالمعجمة، أخو الضحاك، من أبناء الفرس، وفيروز: قاتل الأسود العنسي، وعبد الله هذا ثقة من كبار التابعين، ومنهم من ذكره في الصحابة، كان يسكن بيت المقدس، روىٰ عن أبيه وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت وابن مسعود وحذيفة وغيرهم، وعنه أبو إدريس الخولاني وعمرو بن رويم ووهب بن خالد وغيرهم.

❁ **قوله:** «قال: أتيت أُبي بن كعب فقلت: في نفسي شيء من القدر...»:

ولفظ ابن ماجه قال: وقع في نفسي شيء من هذا القدر، خشيت أن يفسد عليَّ ديني وأمري؛ أي: شك واضطراب يؤدي إلىٰ شك فيه أو جحد له، فأتيت أبي بن كعب فقلت: يا أبا المنذر قد وقع في قلبي شيء من هذا القدر، فخشيت علىٰ ديني وأمري، فحدثني من ذلك بشيء، لعل الله أن ينفعني، فقال: «**لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم**»؛ أي: لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعتوهم وعصيانهم، فمحض عدله الخالص من شائبة الظلم، وهو أرحم الراحمين، ولولا فرط عتوهم وإبائهم عن طاعته واستحقاقهم للعذاب لما عذبهم، وهو الحكم العدل، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم.

❁ **قوله: «فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتىٰ تؤمن بالقدر»:**

ولفظ ابن ماجه: ولو كان لك جبل أحد ذهبًا، أو مثل جبل أحد ذهبًا تنفقه في سبيل الله ما قبله الله منك حتىٰ تؤمن بالقدر؛ أي: بأن جميع الأمور الكائنة خيرها وشرها بقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته وأمره، كما ذكر عن علي رضي الله عنه.

❁ **قوله: «وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وماأخطأك لم يكن ليصيبك... »:**

ففي هذه الأحاديث، وما في معناها: الوعيد الشديد علىٰ من لم يؤمن بالقدر، والحجة الواضحة علىٰ نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم، ومن مذهبهم تخليد أهل المعاصي في النار، وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر فلازم مذهبهم الحكم عليهم بالخلود في النار إن لم يتوبوا، وقد خالفوا ما تواتر من الكتاب والسنة.

❁ **قوله: «قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت ...»:**

ولفظ ابن ماجه: ولا عليك أن تأتي أخي عبد الله بن مسعود قال: فأتيت عبد الله بن مسعود فسألته، فذكر لي مثل ما قال أبي، وقال لي: ولا عليك أن تأتي حذيفة، فأتيت حذيفة فسألته فقال مثل ما قال عبد الله، فقال: ائت زيد بن ثابت فاسأله، فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه»[٦٧٦] بنحو ما تقدم عن أبي رضي الله عنه، وزيد بن ثابت الأنصاري كاتب النبي ﷺ، وأحد فقهاء الصحابة مات سنة ٤٥ هـ، وله ٥٦ سنة.

قال العلامة ابـن سعدي:

❁ **قوله: «باب ما جاء في منكري القدر»:**

قد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة: أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن لم يؤمن بهذا فإنه ما آمن بالله حقيقة. فعلينا أن نؤمن بجميع مراتب القدر؛ فنؤمن أن الله بكل شيء عليم، وأنه كتب في اللوح المحفوظ جميع ما كان وما يكون إلىٰ يوم القيامة، وأن الأمور كلها بخلقه وقدرته وتدبيره.

ومن تمام الإيمان بالقدر: العلم بأن الله لم يجبر العباد علىٰ خلاف ما يريدون، بل جعلهم مختارين لطاعتهم ومعاصيهم.

---

(٦٧٦) سبق تخريجه.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب ما جاء في منكري القدر»:

لما كان الإيمان بالقدر من أصول الإيمان وضع المؤلف هذا الباب؛ لأن هذا مما يحصل به التوحيد وينتفي به الكفر؛ أي: باب ما جاء من الوعيد الشديد والتحذير الأكيد من إنكاره والتكذيب به، وكان المسلمون في عهد النبي ﷺ قد آمنوا بالقدر وسلموا به لله ثم نبتت بعد ذلك نابتة في آخر عهد الصحابة وبعد ذلك، فأنكروا القدر وقالوا: الأمر أنف وزعموا: أن إثبات القدر يخالف العدل، وكيف تقدر الأمور ثم يعاقب العاصي والكافر علىٰ ما فعل؟ جهلًا منهم وضلالًا والتباسًا للأمر عليهم.

أما أهل الحق من أصحاب النبي ﷺ ومن سار علىٰ منهجهم من أهل السنة والجماعة قد آمنوا بالقدر وصدقوا به، وأن الله قدر المقادير وكتبها فلا يقع في ملكه ما لا يريد، بل قدر كل شيء أو أحصىٰ كل شيء، وهو العالم بكل شيء وكان الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: ناظروهم بالعلم فإن أقروا خصموا، وإن أنكروه كفروا، ومعنىٰ هذا: أن يقول: هل الله يعلم الأشياء قبل وجودها؟

فإذا قالوا: نعم، فهذا هو القدر، إن الله علم الأشياء قبل وجودها وكتبها عنده: من يسلم ومن يكفر ومن يعصي، وإن أنكروا أن الله تعالىٰ يعلم، كفروا؛ لأنهم نسبوا إلىٰ الله الجهل والضلال والله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾[الأنفال:٧٥]، وقال ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[الطلاق:١٢] فمن نسب إلىٰ الله الجهل، وأنه لا يعلم الأشياء فقد طعن في آيات الله وتنقصه فيكون كافرًا، ولذلك ذهب جماعة العلماء من أهل السنة والجماعة إلىٰ كفر القدرية وأنهم كفار؛ لأنهم كذبوا بقدر الله وأنكروا علمه وكذبوا هذه النصوص ونسبوا إلىٰ الله الجهل، وقد صح عنه ﷺ في حديث عمر: «**الإيمان أن تؤمن بالله... وبالقدر خيره وشره**».

ودل علىٰ هذا كتاب الله أيضًا حيث قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[الحديد:٢٢]؛ ولهذا قال: قال ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم... ».

وهكذا قال زيد بن ثابت وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وغيره، وهكذا قال أهل السنة والجماعة.

فالواجب علىٰ المسلم أن يؤمن بالقدر.

والإيمان بالقدر يشمل أربعة أمور:

١ -علم الله بالأشياء.

٢- كتابتها.

٣- وأنه خالق كل شيء ومقدر كل شيء.

٤- وإن ما شاء الله كان ما لم يشأ لم يكن.

فمن آمن بهذه المراتب فقد آمن بالقدر، ومن كذب بشيء منها فقد كذب بشيء من القدر.

❁ **قوله: «عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتىٰ..»:**

أي: لن تجد طمأنينة الإيمان وراحته وذوقه إلا أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك وهذا هو الإيمان بالقدر، فإذا آمن بهذا انشرح قلبه وعمل بما شرع الله له، ويأخذ بالأسباب وهو مطمئن القلب؛ لأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وهذا تفسير للقدر من باب تفسير الشيء ببعض معناه.

وهكذا قال الصحابة لعبد الله بن فيروز الديلمي التابعي المعروف لما سألهم فأخبروه: أن الله لن يقبل منه شيء حتىٰ يؤمن بالقدر وإلا فإن أعماله حابطة وهذا يدل أنهم أرادوا أنه يكفر بذلك لأن الله قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨] والذي لا يقبل أعماله ونفقاته هو الكافر الذي لم يتحقق فيه الإيمان فمن أنكر القدر فقد أخلَّ بشيء من الإيمان وبركن من أركان الإيمان وبذلك يحبط عمله.

وقد روىٰ مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»(٦٧٧) فالأمر قد أحكم ومضىٰ به علم الله وكتابته، وهو الخلَّاق ومدبر الأمور علىٰ ما قدرها سبحانه وتعالىٰ.

وهذا هو الحق وهو منهج أهل السنة والجماعة، من كان عليه كان علىٰ الحق ومن حاد عنه حاد عن الحق.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله: «باب ما جاء في منكري القدر»:**

قوله: «منكري»: أصله منكرين جمع مذكر سالم فحذفت النون للإضافة كما يحذف التنوين أيضًا، قال الشاعر:

---

(٦٧٧) سبق تخريجه.

كَأَنِّي تَنْوِينٌ وأَنْتَ إِضافَةٌ فَأَيْنَ تَرانِي لا تَحِلُّ جِوارِي

وقيل: «مكاني» بدل «جواري».

قوله: «**القدر**»: هو تقدير الله ﷻ للكائنات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله أو من شاء من خلقه.

قال بعض أهل العلم: القدر سر الله ﷻ في خلقه، ولا نعلمه إلا بعد وقوعه سواء كان خيرًا أو شرًّا.

والقدر يطلق علىٰ معنيين.

الأول: التقدير؛ أي: إرادة الله الشيء ﷻ.

الثاني: المقدر؛ أي: ما قدره الله ﷻ.

والتقدير يكون مصاحبًا للفعل وسابقًا له، فالمصاحب للفعل هو الذي يكون به الفعل، والسابق هو الذي قدره الله ﷻ في الأزل، مثال ذلك: خلق الجنين في بطن الأم فيه تقدير سابق علمي قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وفيه تقدير مقارن للخلق والتكوين، وهذا الذي يكون به الفعل؛ أي: تقدير الله لهذا الشيء عند خلقه.

والإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصًا، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنه من صفات الكمال لله ﷻ.

والناس في القدر ثلاث طوائف:

الأولىٰ: الجبرية الجهمية، أثبتوا قدر الله تعالىٰ وغلوا في إثباته حتىٰ سلبوا العبد اختياره وقدرته، وقالوا: ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه، فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منها ولا قدرة، ولا فرق بين أن ينزل من السطح عبر الدرج مختارًا وبين أن يُلقىٰ من السطح مكرهًا.

الطائفة الثانية: القدرية المعتزلة، أثبتوا للعبد اختيارًا وقدرة في عمله وغلوا في ذلك حتىٰ نفوا أن يكون لله تعالىٰ في عمل العبد مشيئة أو خلق، ونفىٰ غلاتهم علم الله به قبل وقوعه، فأكل العبد وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها واقعة باختياره التام وقدرته التامة وليس لله تعالىٰ في ذلك مشيئة ولا خلق، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاتهم.

استدل الأولون الجبرية بقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، والعبد وفعله من الأشياء، وبقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وبقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، فنفىٰ الله الرمي عن نبيه حين رمىٰ وأثبته لنفسه، وبقوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨].

ولهم شبه أخرىٰ تركناها خوف الإطالة.

والرد علىٰ شبهاتهم بما يلي.

أما قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فاستدلالهم بها معارض بالنصوص الكثيرة التي فيها إثبات إرادة العبد وإضافة عمله إليه وإثابته عليه كرامة أو إهانة، وكلها من عند الله، ولو كان مجبرًا عليها ما كان لإضافة عمله إليه وإثابته عليه فائدة.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، فهو حجة عليهم؛ لأنه أضاف العمل إليهم، وأما كون الله تعالىٰ خالقه؛ فلأن عمل العبد حاصل بإرادته الجازمة وقدرته التامة، والإرادة والقدرة مخلوقان لله ﷻ فكان الحاصل بهما مخلوقًا لله.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ فهو حجة عليهم، لأن الله تعالىٰ أضاف الرمي إلىٰ نبيه ﷺ، لكن الرمي في الآية له معنيان:

أحدهما: حذف المرمي، وهو فعل النبي ﷺ الذي أضافه الله إليه.

والثاني: إيصال المرمي إلىٰ أعين الكفار الذين رماهم النبي ﷺ بالتراب يوم بدر فأصاب عين كل واحد منهم، وهذا من فعل الله؛ إذ ليس بمقدور النبي ﷺ أن يوصل التراب إلىٰ عين كل واحد منهم.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾؛ فلعمر الله؛ إنه لحجة علىٰ هؤلاء الجبرية، فقد أبطل الله تعالىٰ حجة هؤلاء المشركين الذين احتجوا بالقدر علىٰ شركهم حين قال في الآية نفسها: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾[الأنعام:١٤٨]، وما كان الله ليذيقهم بأسه وهم علىٰ حق فيما احتجوا به.

ثم نقول: القول بالجبر باطل بالكتاب والسنة والعقل والحس وإجماع السلف، ولا يقول به من قدر الله حق قدره وعرف مقتضىٰ حكمته ورحمته.

فمن أدلة الكتاب:

قوله تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾[آل عمران:١٥٢]، فأثبت للعبد إرادة وقال تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[آل عمران:١٦٧]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[النمل:٨٨]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المنافقون:١١]، فأثبت للعبد إرادة وقولًا وفعلًا وعملًا.

ومن أدلة السنة: قول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوي**»[٦٧٨]، وقوله: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به، فأتوا منه ما استطعتم**»[٦٧٩].

ولهذا إذا أكره المرء على قول أو فعل وقلبه مطمئن بخلاف ما أكره عليه؛ لم يكن لقوله أو فعله الذي أكره عليه حكم فاعله اختيارًا.

وأما إجماع السلف على بطلان القول بالجبر؛ فلم ينقل عن أحد منهم أنه قال به، بل رد من أدرك منهم بدعته موروث معلوم.

وأما دلالة العقل على بطلانه؛ فلأنه لو كان العبد مجبرًا على عمله؛ لكانت عقوبة العاصي ظلمًا، ومثوبة الطائع عبثًا، والله تعالى منزه عن هذا وهذا؛ ولأنه لو كان العبد مجبرًا على عمله لم تقم الحجة بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق مع إرسال الرسل، وما كان الله ليقيم على العباد حجة مع انتفاء كونها حجة.

وأما دلالة الحس على بطلانه؛ فإن الإنسان يدرك الفرق بين ما فعله باختياره، كأكله وشربه وقيامه وقعوده، وبين ما فعله بغير اختياره؛ كارتعاشه من البرد والخوف ونحو ذلك.

واستدل الطائفة الثانية «القدرية» بقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[آل عمران:١٥٢]، فأثبت للعبد إرادة، وبقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[فصلت:٤٦]، ونحوها من النصوص القرآنية والنبوية الدالة على أن للعبد إرادة، وأنه هو العامل الكاسب الراكع الساجد ونحو ذلك.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن الآيات والأحاديث التي استدلوا بها نوعان:

نوع مقيد لإرادة العبد وعمله بأنه بمشيئة الله، كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[التكوير:٢٨ - ٢٩] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الإنسان:٢٩ - ٣٠]، وكقوله تعالى

---

(٦٧٨) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، برقم (١)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنية»، برقم (١٩٠٧) وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٦٧٩) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، برقم (٧٢٨٨)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، برقم (١٣٣٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في العمل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[البقرة:٢٥٣].

والنوع الثاني: مطلق؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة:٢٢٣]، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:٢٩]، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ..﴾ إلىٰ قوله ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء:١٨ - ١٩]، وهذا النوع المطلق يحمل علىٰ المقيد كما هو معلوم عند أهل العلم.

الثاني: أن إثبات استقلال العبد بعمله مع كونه مملوكًا لله تعالىٰ يقتضي إثبات شيء في مُلْك الله لا يريده الله، وهذا نوع إشراك به؛ ولهذا سمَّىٰ النبي ﷺ: «**القدرية مجوس هذه الأمة**»(٦٨٠).

الثالث: أن نقول لهم: هل تقرون بأن الله تعالىٰ عالم بما سيقع من أفعال العباد؟ فسيقول غير الغلاة منهم: نعم، نقر بذلك، فنقول: هل وقع فعلهم علىٰ وفق علم الله أو علىٰ خلافه؟ فإن قالوا: علىٰ وفقه؛ قلنا: إذًا قد أراده، وإن قالوا: علىٰ خلافه؛ فقد أنكروا علمه، وقد قال الأئمة رحمهم الله في القدرية: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصِموا، وإن أنكروه كفروا.

وهاتان **الطائفتان** الجبرية والقدرية ضالتان طريق الحق؛ لأنهما بين مفرط غال ومفرط مقصر؛ فالجبرية غلوا في إثبات القدر وقصروا في إرادة العبد وقدرته، والقدرية غلوا في إثبات إرادة العبد وقدرته وقصروا في القدر.

ولهذا كان الأسعد بالدليل والأوفق للحكمة والتعليل هم:

الطائفة الثالثة: أهل السنة والجماعة، الطائفة الوسط، الذين جمعوا بين الأدلة وسلكوا في طريقهم خير ملة؛ فآمنوا بقضاء الله وقدره، وبأن للعبد اختيارًا وقدرة؛ فكل ما كان في الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم؛ فإنه كائن بعلم الله تعالىٰ ومشيئته، وكل ما كان في الكون فمخلوق لله تعالىٰ، لا خالق إلا الله ولا مدبر للخلق إلا الله ﷻ، وآمنوا بأن للعبد مشيئة وقدرة، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[التكوير:٢٨، ٢٩]، فإذا شاء العبد شيئًا وفعله؛ علمنا أن مشيئة الله تعالىٰ قد سبقت تلك المشيئة.

---

(٦٨٠) سبق تخريجه.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين الدليل المنقول والمعقول؛ فأدلتهم علىٰ إثبات القدر هي أدلة المثبتين له من الجبرية، لكنهم استدلوا بها علىٰ وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة القدر.

وأدلتهم علىٰ إثبات مشيئة العبد وقدرته هي أدلة المثبتين لذلك من القدرية، لكنهم استدلوا بها علىٰ وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة مشيئة العبد وقدرته.

وبهذا نعرف أن كلًّا من الجبرية والقدرية نظروا إلىٰ النصوص بعين الأعور الذي لا يبصر إلا من جانب واحد؛ فهدىٰ الله أهل السنة والجماعة لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

حكاية:

مما يحكىٰ أن القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي دخل علىٰ الصاحب بن عباد وكان معتزليًّا أيضًا، وكان عنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، فقال عبد الجبار علىٰ الفور: سبحان من تنزه عن الفحشاء! فقال أبو إسحاق فورًا: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء! فقال عبد الجبار وفهم أنه قد عرف مراده: أيريد ربنا أن يعصىٰ؟ فقال أبو إسحاق: أَيُعْصَىٰ ربنا قهرًا؟ فقال له عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدىٰ وقضىٰ عليَّ بالردىٰ؛ أحسن إليَّ أم أساء؟

فقال له أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك؛ فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له، فيختص برحمته من يشاء. فانصرف الحاضرون وهم يقولون: والله؛ ليس عن هذا جواب. اهـ.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أهل السنة والجماعة وسط بين فرق المبتدعة في خمسة أصول ذكرها في «العقيدة الواسطية»؛ فلتُراجَع هناك.

مراتب القدر:

وهي أربع يجب الإيمان بها كلها:

المرتبة الأولىٰ: العلم، وذلك بأن تؤمن بأن الله تعالىٰ علم كل شيء جملة وتفصيلًا، فعلم ما كان وما يكون؛ فكل شيء معلوم لله، سواء كان دقيقًا أم جليلًا من أفعاله أو أفعال خلقه.

وأدلة ذلك في الكتاب كثيرة، منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩]، فالأوراق التي تتساقط ميتة أي: ورقة كانت صغيرة أو كبيرة في بر أو بحر؛ فإن الله تعالىٰ يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولىٰ.

ولاحظ سعة علم الله ﷻ وإحاطته، فلو فرض أنه في ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحاب متراكم ممطر وحبة في قاع البحر المائج العميق؛ فهذه ظلمات متعددة: ظلمة الطبقة الأرضية، وظلمة البحر، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الأمواج، وظلمة الليل؛ فكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾، ثم جاء العموم المطلق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ولا كتابة إلا بعد علم. ففي هذه الآية إثبات العلم وإثبات الكتابة.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج:٧٠]؛ ففي الآية أيضًا إثبات العلم وإثبات الكتابة.

المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دلت عليها الآيتان السابقتان.

المرتبة الثالثة: المشيئة؛ وهي عامة، ما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته؛ فلا يكون في ملكه ما لا يريد أبدًا، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[الأنعام:١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ الآية [البقرة:٢٥٣].

المرتبة الرابعة: الخلق؛ فما من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا الله خالقه ومالكه ومدبره وذو سلطانه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، وهذا العموم لا مخصص له، حتى فعل المخلوق مخلوق لله؛ لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو وصفاته مخلوقان؛ ولأن فعله ناتج عن أمرين:

١ - إرادة جازمة.

٢ - قدرة تامة.

والله هو الذي خلق في الإنسان الإرادة الجازمة والقدرة التامة؛ ولهذا قيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم.

والعبد يتعلق بفعله شيئان:

١ - خلق، وهذا يتعلق بالله.

٢- مباشرة، وهذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الواقعة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل:٣٢]، ولولا نسبة الفعل إلى العبد ما كان للثناء على المؤمن المطيع وإثابته فائدة، وكذلك عقوبة العاصي وتوبيخه.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بجميع هذه المراتب الأربع، وقد جمعت في بيت:

علم كتابه مولانا مشيئته   وخلقه وهو إيجاد وتكوين

وهناك تقديرات أخري نسبية: منها: تقدير عمري: حين يبلغ الجنين في بطن أمة أربعة أشهر يرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

ومنها: التقدير الحولي، وهو الذي يكون في ليلة القدر، يكتب فيها ما يكون في السنة، قال الله تعالىٰ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٤].

ومنها: التقدير اليومي: كما ذكره بعض أهل العلم واستدل له بقوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩]؛ فهو كل يوم يغني فقيرًا، ويفقر غنيًّا: ويوجد معدومًا، ويعدم موجودًا، ويبسط الرزق ويقدره، وينشئ السحاب والمطر، وغير ذلك.

فإن قيل: هل الإيمان بالقدر ينافي ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشيء باختياره؟

الجواب: لا ينافيه؛ لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله؛ كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل علىٰ الشام، وقالوا له: إن في الشام طاعونًا يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم، فقال بعضهم: نرجع. فعزم علىٰ الرجوع، فجاء أمين هذه الأمة أبو عبيده عامر بن الجراح، فقال: يا أمير المؤمنين! أفرارًا من قدر الله؟ فأجاب عمر: نفر من قدر الله إلىٰ قدر الله(٦٨١).

يعني: أن مُضِيَّنا في السفر بقدر الله ورجوعنا بقدر الله، ثم ضرب له مثلًا قال: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديًا له شعبتان إحداهما خصبة والأخرىٰ جدبة؛ أليس إن رعيت الخصبة فبقدر الله، وإن رعيت الجدبة فبقدر الله.

وقال أيضًا: أرايت لو رعىٰ الجدبة وترك الخصبة؛ أكنت معجِّزه؟ قال: نعم. قال: فسر إذًا. ومعنىٰ معجزه: ناسبًا إياه إلىٰ العجز.

فالإنسان وإن كان يفعل؛ فإنما يفعل بقدر الله.

فإن قيل: إذا تقرر ذلك؛ لزم أن يكون العاصي معذورًا بمعصيته؛ لأنه عصىٰ بقدر الله؟

أجيب: إن احتجاج العاصي بالقدر باطل بالشرع والنظر.

---

(٦٨١) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: ما يذكر في الطاعون، برقم (٥٧٢٩)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، برقم (٢٢١٩) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أما بطلانه بالشرع: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٤٨]؛ فهم قالوا هذا علىٰ سبيل الاحتجاج بالقدر علىٰ معصية الله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾، ولو كانت حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[الأنعام:١٤٨]؛ وهذا دليل واضح علىٰ بطلان احتجاجهم بالقدر علىٰ معصية الله، وقال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]؛ فأبطل الله الحجة علىٰ الناس بإرسال الرسل، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق حتىٰ مع إرسال الرسل، وهذا يدل علىٰ بطلان احتجاج العاصي علىٰ معصيته بقدر الله.

وأما بطلانه بالنظر؛ فنقول: لو فرض أنه نشر في جريدة ما عن وظيفة مرتبها كذا وكذا، ووظيفة أخرىٰ أقل منها؛ فإنك سوف تطلب الأعلىٰ، فإن لم يكن؛ طلبت الأخرىٰ، فإذا لم يحصل له شيء منها؛ فإنه يلوم نفسه علىٰ تفريطه بعدم المسارعة إليها مع أول الناس.

وعندنا وظائف دينية الصلوات الخمس كفارة لما بينها، وهي كنهر علىٰ باب أحدنا يغتسل منه في كل يوم خمس مرات، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة؛ فلماذا تترك هذه الوظائف وتحتج بالقدر وتذهب إلىٰ الوظائف الدنيوية الرفيعة، فكيف لا تحتج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا وتحتج به فيما يتعلق بأمور الآخرة؟!

مثال آخر: رجل قال: عسىٰ ربي أن يرزقني بولد صالح عالم عابد، وهو لم يتزوج؛ فنقول: تزوج حتىٰ يأتيك. فقال: لا، فلا يمكن أن يأتيه الولد، لكن إذا تزوج؛ فإن الله بمشيئته قد يرزقه الولد المطلوب.

وكذلك من يسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، ولا يعمل لذلك؛ فلا يمكن أن ينجو من النار ويفوز بالجنة؛ لأنه لم يعمل لذلك.

فبطل الاحتجاج بالقدر علىٰ معاصي الله بالأثر والنظر؛ ولهذا قال النبي ﷺ كلمة جامعة مانعة نافعة: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار. قالوا: يا رسول الله! أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له»[٦٨٢]، فالنبي ﷺ أعطانا كلمة واحدة، فقال «اعملوا» وهذا فعل أمر «**فكل ميسرٌ لما خلق له**».

---

(٦٨٢) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: قوله تعالىٰ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، برقم (٤٩٤٩)، ومسلم، كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، برقم (٢٦٤٧) وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وللإيمان بالقدر فوائد عظيمة، منها:

١- أنه من تمام توحيد الربوبية.

٢- أنه يوجب صدق الاعتماد على الله ﷻ؛ لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله.

٣- أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ اطمأننت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة.

٤- منع إعجاب المرء بعمله إذا عمل عملًا يشكر عليه؛ لأن الله هو الذي مَنَّ عليه وقدره له، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[الحديد:٢٢، ٢٣]؛ أي: فرح بطر وإعجاب بالنفس.

٥- عدم حزنه على ما أصابه؛ لأنه من ربه، فهو صادر عن رحمة وحكمة.

٦- أن الإنسان يفعل الأسباب؛ لأنه يؤمن بحكمة الله ﷻ وأنه لا يقدر الأشياء إلا مربوطةً بأسبابها.

قوله: «والذي نفس ابن عمر بيده»:

الصيغة هنا قسم، جوابه: جملة «لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله؛ ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر»:

وابن عمر رضي الله عنه وعن أبيه ذكر حكمهم بالنسبة لقبول عملهم ولم يقل هم كفار، لكن حكمه بأن إنفاقهم في سبيل الله لا يقبل يستلزم الحكم بكفرهم، وإنما قال ابن عمر ذلك جوابًا على ما نقل إليه من أن أناسًا من البصرة يقولون: إن الله ﷻ لم يقدر فعل العبد وإن الأمر أنف، وأنه لا يعلم بأفعال العبد حتى يعملها وتقع منه؛ فابن عمر حكم بكفرهم اللازم من قوله: «ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر»، والذي لا تقبل منه النفقات هو الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾[التوبة:٥٤]، ثم استدل ابن عمر بقول النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، فتؤمن بالجميع، فإن كفرت بواحد من هذه الستة؛ فأنت كافر بالجميع؛ لأن الإيمان كل لا يتجزأ؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾[النساء:١٥٠ - ١٥١].

ووجه استدلال ابن عمر: أن النبي ﷺ جعل الإيمان مبنيًا علىٰ هذه الأركان الستة، وإذا فات ركن من الأركان؛ سقط البنيان، فإذا أنكر الإنسان شيئًا واحدًا من هذه الأركان الستة؛ صار كافرًا، وإذا كان كافرًا؛ فإن الله لا يقبل منه.

قوله: «**أن تؤمن بالله**»: والإيمان بالله ﷻ يتضمن أربعة أمور:

١- الإيمان بوجوده.

٢- وبربوبيته.

٣- وبألوهيته.

٤- وبأسمائه وصفاته.

فمن أنكر وجود الله؛ فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شيء، لكنه أنكر أسماءه وصفاته، أو أنكر أن يكون مختصًا بها؛ فهو غير مؤمن بالله.

قوله: «**وملائكته**»: والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

١- الإيمان بوجودهم.

٢- الإيمان باسم من علمنا اسمه منهم.

٣- الإيمان بأفعالهم.

٤- الإيمان بصفاتهم.

فممن علمنا صفاته جبريل عليه السلام، علمناه علىٰ خلقته التي خلق عليها له ستمائة جناح، قد سد الأفق؛ كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ وهذا يدل علىٰ عظمته، وأنه كبير جدًا؛ فهو فوق ما نتصور، ومع ذلك يأتي أحيانًا بصورة بشر فأتىٰ مرة بصورة دحية الكلبي وأتىٰ مرة بصورة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب لا يرىٰ عليه أثر سفر ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجلس إلىٰ النبي ﷺ جلسة المتعلم المتأدب[٦٨٣].

قوله: «**وكتبه**»؛ أي: الكتب التي أنزلها علىٰ رسله.

والإيمان بالكتب يتضمن ما يلي:

١- الإيمان بأنها حق من عند الله.

---

(٦٨٣) سبق تخريجه.

٢- تصديق أخبارها.

٣- التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلىٰ هذا؛ فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة؛ لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن.

وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ في القرآن؛ لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

٤- الإيمان بما علمناه معينًا منها؛ مثل: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور، وصحف إبراهيم وموسىٰ.

٥- الإيمان بأن كل رسول أرسله الله معه كتاب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾[الحديد:٢٥]، وقال عيسىٰ: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[مريم:٣٠] وقال عن يحيىٰ كذلك.

تنبيه:

الكتب التي بأيدي اليهود والنصارىٰ اليوم قد دخلها التحريف والكتمان؛ فلا يوثق بها، والمراد بما سبق الإيمان بأصل الكتب.

قوله: «ورسله»: هم الذين أوحىٰ الله إليهم وأرسلهم إلىٰ الخلق ليبلغوا شريعة الله.

والإيمان بالرسل يتضمن ما يلي:

١- أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدقون.

٢- أن نؤمن بما صح عنهم من الأخبار، وبما ثبت عنهم من الأحكام، ما لم تنسخ.

٣- أن نؤمن بأعيان من علمنا أعيانهم، وما لم نعلمه، فنؤمن بهم علىٰ سبيل الإجمال، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وأن الله - سبحانه وتعالىٰ - أرسل لكل أمة رسولًا تقوم به الحجة عليهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥].

والبشر إذا لم يأتهم رسول يبين لهم فهم معذورون؛ لأنهم يقولون: يا ربنا! ما أرسلت إلينا رسولًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[طه:١٣٤]؛ فلابد من رسول يهدي به الله الخلق.

فإن قيل: قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[المائدة:١٩] يدل علىٰ أنه فيه فترة ليس فيها رسول؛ فهل قامت عليهم الحجة؟

الجواب: إن الفترة بين عيسىٰ ومحمد -عليهما الصلاة والسلام- طويلة، وقد قامت عليهم الحجة؛ لأن فيها بقايا؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في «صحيحه»: «**إن الله نظر إلىٰ أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»(٦٨٤)، وكما قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[هود:١١٦].

قوله: «**واليوم الآخر**»؛ أي: اليوم النهائي الأبدي الذي لا يوم بعده، وهو يوم القيامة الكبرىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، ذكر هذا في «**العقيدة الواسطية**»، وهو كتاب مختصر؛ لكنه مبارك من أفيد ما كتب في بابه.

وعلىٰ هذا؛ فالإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه من الإيمان باليوم الآخر.

والإيمان بالنفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلًا بُهمًا من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالموازين والصحف والصراط والحوض والشفاعة والجنة وما فيها من النعيم والنار وما فيها من العذاب الأليم، كل هذا من الإيمان باليوم الآخر.

ومنه ما هو معلوم بالقرآن، ومنه ما هو معلوم بالسنة بالتواتر وبالآحاد فكل ما صحت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من أمر اليوم الآخر، فإنه يجب علينا أن نؤمن به.

قوله: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**»: هنا أعاد الفعل ولم يكتف بواو العطف؛ لأن الإيمان بالقدر مهم، فكأنه مستقل برأسه.

والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله عَزَّ وَجَلَّ للأشياء كلها، سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم؛ فالعلم سابق علىٰ الكتابة، ثم إنه ليس كل معلوم لله سبحانه وتعالىٰ مكتوبًا؛ لأن الذي كُتب إلىٰ يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنه مكتوبة.

---

(٦٨٤) أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥/ ٦٣)، وأحمد (٤/ ١٦٢) وغيرهما من حديث عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا القدر، قال بعض العلماء: إنه سر من أسرار الله، وهو كذلك لم يطلع الله عليه أحدًا؛ لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا؛ إلا ما أوحاه الله ﷻ إلىٰ رسله أو وقع فعلم به الناس، وإلا؛ فإنه سر مكتوم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ الآية [لقمان:٣٤]، وإذا قلنا: إنه سر مكتوم؛ فإن هذا القول يقطع احتجاج العاصي بالقدر علىٰ معصيته؛ لأننا نقول لهذا الذي عصىٰ الله ﷻ وقال: هذا مقدر عليَّ: ما الذي أعلمك أنه مقدر عليك حتىٰ أقدمت؛ أفلا كان الأجدر بك أن تقدر أن الله تعالىٰ قد كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة؛ لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك؟

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]؛ فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يُطَّلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس، وينشرح له الصدر، وتنقطع به حجة البطالين.

وقوله: «خيره وشره»: الخير: ما يلائم العبد، والشر: ما لا يلائمه.

ومعلوم أن المقدورات خير و شر؛ فالطاعات خير، والمعاصي شر، والغنىٰ خير، والفقر شر، والصحة خير، والمرض شر، وهكذا.

وإذا كان القدر من الله، فكيف يقال: الإيمان بالقدر خيره وشره والشر لا ينسب إلىٰ الله؟

فالجواب: أن الشر لا ينسب إلىٰ الله، قال النبي ﷺ: «**والشر ليس إليك**»(٦٨٥)، فلا ينسب إليه الشر لا فعلًا ولا تقديرًا ولا حكمًا، بل الشر في مفعولات الله لا في فعله، ففعله كله خير وحكمة، فتقدير الله لهذه الشرور له حكمة عظيمة، وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]؛ تجد أن هذا الفساد الذي ظهر في البر والبحر كان لما يرجىٰ به من العاقبة الحميدة، وهي الرجوع إلىٰ الله ﷻ، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي:

ولدك حينما يشتكي ويحتاج إلىٰ كي تكويه بالنار؛ فالكي شر، لكن الفعل خير؛ لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شرًا محضًا، بل في محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيز مقتدر، صار ذلك شرًا بالنسبة له، وقد يكون خيرًا له من وجه آخر، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله به؛ فيكون خيرًا، قال تعالىٰ في القرية التي اعتدت في السبت: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٦٦].

---

(٦٨٥) أخرجه مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٧١)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، برقم (٧٦٠) وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تكسر من حدة نفسه؛ فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله، وكم من إنسان أذنب ذنبًا ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيرًا منه قبلها؛ لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحد من عليائها؛ فهذا آدم عليه الصلاة والسلام لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهداية إلا بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم، وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]؛ فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢].

والثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فخلفوا ماذا كانت حالهم بعد المعصية وبعد المصيبة التي أصابتهم، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم - صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبي منه -، ومن شدة ما في نفسه تنكرت نفسه عليه، فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبدًا، وصارت حالهم أيضًا بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل، وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذكروا بأعيانهم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] [٦٨٦]؛ فهذه آيات عظيمة تتلى في محاريب المسلمين ومنابرهم إلى يوم القيامة ويتقرب العبد إلى ربه بقراءة خبرهم واستماعه، وهذا شيء عظيم.

وسواء كان ذلك في الأمور الشرعية أو في الأمور الكونية، ولكن ها هنا أمر يجب معرفته، وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله - سبحانه وتعالى -، فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المقضي، أما قضاء الله نفسه؛ فهو خير، والدليل قول النبي ﷺ: «**الخير بيديك، والشر ليس إليك**» [٦٨٧]، ولم يقل: والشر بيديك؛ فلا ينسب الشر إلى الله أبدًا، فضلًا عن أن يكون بيديه، فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء؛ فالله

---

(٦٨٦) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: حديث كعب بن مالك وقول الله عز وجل ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾، برقم (٤١٥٦)، ومسلم، كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، برقم (٢٧٦٩٠) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٦٨٧) سبق فيما قبله.

لا يريد بقضاء الشر شرًّا، لكن الشر يكون في المقضي، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية؛ فهذا في المقضي، ومع ذلك؛ فهو وإن كان شرًّا في محله فهو خير في محل آخر، ولا يمكن أن يكون شرًّا محضًا، حتى المقضي وإن كان شرًّا ليس شرًّا محضًا، بل هو شر من وجه خير من وجه، أو شر في محل خير في محل آخر.

ولنضرب لذلك مثلًا: الجدب والفقر شر، لكنهما خير باعتبار ما ينتج عنهما، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١] والرجوع إلى الله ﷻ من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير وينتج خيرًا كثيرًا؛ فألم الفقر وألم الجدب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله ﷻ واشتغلوا بالمال، فإذا أصيبوا بفقر؛ رجعوا إلى الله، وعرفوا أنهم ضالون؛ فهذا الشر صار خيرًا باعتبار آخر.

كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه، لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره، أما بالنسبة له؛ فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضًا خير في غير السارق؛ فإن فيه ردعًا لمن أراد أن يسرق، وفيه أيضًا حفظ للأموال؛ لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده؛ امتنع من السرقة، فصار في ذلك حفظ لأموال الناس، ولهذا قال بعض الزنادقة:

يد بخمس مئين عسجدًا وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له ... ونستجير بمولانا من النار

لكنه أجيب في الرد عليه ردًّا مفحمًا؛ فقيل فيه:

قل للمعري عار أيما عاري ... جهل الفتى وهو من ثوب التقى عاري
يد بخمس مئين عسجدًا وديت ... لكنها قطعت في ربع دينار
حماية النفس أغلاها وأرخصها ... حماية المال فافهم حكمة الباري

۞ **قوله**: «في حديث عبادة: أنه قال لابنه: يابني!...إلخ»:

أفاد حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه ينبغي للأب أن يسدي النصائح لأبنائه ولأهله، وأن يختار العبارات الرقيقة التي تلين القلب، حيث قال «يا بني!»، وفي هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر.

قوله: «**لن تجد طعم الإيمان**»: هذا يفيد أن للإيمان طعمًا كما جاءت به السنة، وطعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة؛ فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتىٰ بعدها طعام آخر أزالها، لكن طعم الإيمان يبقىٰ مدة طويلة، حتىٰ إن الإنسان أحيانًا يفعل عبادة في صفاء وحضور قلب وخشوع لله ﷻ، فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلة؛ فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم.

قوله: «**حتىٰ تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك**»: قد تقول: ما أصابني لم يكن ليخطئني، هذا تحصيل حاصل؛ لأن الذي أصاب الإنسان أصابه، فلابد أن نعرف معنىٰ هذه العبارة؛ فتحمل هذه العبارة علىٰ أحد معنيين أو عليهما جميعًا:

الأول: أن المعنىٰ «**ما أصابك**»؛ أي: ما قدر الله أن يصيبك، فعبر عن التقدير بالإصابة؛ لأن ما قدر الله سوف يقع، فما قدر الله أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

الثاني: ما أصابك؛ فلا تفكر أن يكون مخطئًا لك، فلا تقل: لو أنني فعلت كذا ما حصل كذا؛ لأن الذي أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك؛ فكل التقديرات التي تقدرها وتقول: لو أني فعلت كذا ما حصل كذا هي تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئًا، وأيًّا كان؛ فالمعنىٰ صحيح علىٰ الوجهين، فما قدره الله أن يصيب العبد فلابد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيبًا للإنسان؛ فإنه لن يمنعه شيء، فإذا آمنت هذا الإيمان ذقت طعم الإيمان؛ لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لابد أن يقع علىٰ ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبدًا.

مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للنزهة، فدب بعض الأولاد إلىٰ بركة عميقة، فسقط، فغرق، فمات؛ فلا يقول: لو أنني ما خرجت لما مات الولد، بل لابد أن تجري الأمور علىٰ ما جرت عليه، ولا يمكن أن تتغير؛ فما أصابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضىٰ، ويعرف أنه لا مفر وأن كل التقديرات أو التخيلات التي تقع في ذهنه كلها من الشيطان؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان، وحينئذ يرضىٰ ويسلم، وقد أشار الله إلىٰ هذا المعنىٰ في قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

فأنت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك؛ ذقت حلاوة الإيمان، واطمأننت، واستقر قلبك، وعرفت أن الأمر جار علىٰ ما هو عليه لا يمكن أن يتغير؛ ولهذا كثيرًا ما يجد الإنسان أن الأمور

سارت ليصل إلىٰ هذه المصيبة؛ فتجده يعمل أعمالًا لم يكن من عادته أن يعملها حتىٰ يصل إلىٰ ما أراد الله ﷻ مما يدل علىٰ أن الأمور بقضاء الله وقدره.

قوله: «**وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»: نقول فيه مثل الأول؛ يعني: ما قَدّر أن يخطئك فلن يصيبك، فلو أن أحدًا سمع بموسم تجارة في بلد ما وسافر بأمواله لهذا الموسم، فلما وصل وجد أن الموسم قد فات؛ نقول له: ما أخطأك من هذا الربح الذي كنت تُعد له لم يكن ليصيبك مهما كان ومهما عملت، أو نقول: لم يكن ليصيبك؛ لأن الأمر لابد أن يجري علىٰ ما قضاه الله وقدره، وأنت جرب نفسك تجد أنك إذا حصلت علىٰ هذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان.

ثم استدل لما يقول بقوله: «**سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم**». القلم بالرفع، وروي بالنصب.

فعلىٰ رواية الرفع يكون المعنىٰ: أن أول ما خلق الله هو القلم، لكن ليس من كل المخلوقات، كما سنبينه إن شاء الله تعالىٰ.

وأما علىٰ رواية النصب؛ فيكون المعنىٰ: أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه له؛ يعني: خلقه ثم أمره أن يكتب، وعلىٰ هذا المعنىٰ لا إشكال فيه، لكن علىٰ المعنىٰ الأول الذي هو الرفع: هل المراد أن أول المخلوقات كلها هو القلم؟

الجواب: لا؛ لأننا لو قلنا: إن القلم أول المخلوقات، وإنه أمر بالكتابة عندما خلق، لكنا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم أن الله ﷻ خلق أشياء قبل هذه المدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ لم يزل ولا يزال خالقًا، وعلىٰ هذا؛ فيكون: إن أول ما خلق الله القلم يحتاج إلىٰ تأويل ليطابق ما علم بالضرورة من أن الله تعالىٰ له مخلوقات قبل هذا الزمن.

قال أهل العلم: وتأويله: إن المعنىٰ: أن أول ما خلق الله القلم بالنسبة لما نشاهده فقط من المخلوقات، كالسماوات والأرض.. فهي أولية نسبية، وقد قال ابن القيم في نونيته:

والناسُ مختلفون في القلم الذي ... كُتِبَ القضاءُ به من الديّان

هل كان قبلَ العرش أو هو بعدَه ... قولان عند أبي العلا الهمذاني

والحق أن العرش قبل لأنه ... قبل الكتابة كان ذا أركان

قوله: «فقال له: أكتب»: القائل هو الله ﷻ: يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله مدرك وعاقل ومريد، والدليل على هذا قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ أي: لابد أن تنقادا لأمر الله طوعًا أو كرهًا؛ فكان الجواب: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت:٩ - ١١]؛ فقد خاطب الله السماوات والأرض وأجابتا ودل قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ على أن لها إرادة وأنها تطيع؛ فكل شيء أمام الله؛ فهو مدرك مريد ويجيب ويمتثل.

قوله: «**قال: ربي وماذا أكتب؟** »: «ماذا»: اسم استفهام مفعول مقدم، و «أكتب»: فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة، هذا إذا ألغيت «ذا»، أما إذا لم تلغ؛ فنقول: «ما»: اسم استفهام مبتدأ، و«ذا»: خبره؛ أي: ما الذي أكتب؟ والعائد على الموصول محذوف تقديره: ما الذي أكتبه؟

وفي هذا دليل على أن الأمر المجمل لا حرج على المأمور في طلب استبانته، وعلى هذا، فإننا نقول: إذا كان الأمر مجملًا؛ فإن طلب استبانته لا يكون معصية؛ فالقلم لا شك أنه ممتثل لأمر الله -سبحانه وتعالى- ومع ذلك قال: «**رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»، فكتب المقادير.

فإن قيل: هل القلم يعلم الغيب؟

فالجواب: لا، لكن الله أمره، ولابد أن يمتثل لأمر الله، فكتب هذا القلم الذي يعتبر جمادًا بالنسبة لمفهومنا، كتب كل شيء أمره الله أن يكتبه؛ لأن الله إذا أراد شيئًا قال له: كن؛ فيكون على حسب مراد الله.

و «**كل**»: من صيغ العموم؛ فتعم كل شيء مما يتعلق بفعل الله أو بفعل المخلوقين.

وقوله: «**حتى تقوم الساعة**». الساعة هي القيامة، وأطلق عليها لفظ الساعة؛ لأن كل شيء عظيم من الدواهي له ساعة؛ يعني: الساعة المعهودة التي تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم، وذلك عند النفخ في الصور.

قوله: «**يابني! سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا**»؛ أي: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء.

قوله: «**فليس مني**». تبرأ منه الرسول ﷺ؛ لأنه كافر، والرسول ﷺ بريئ من كل كافر.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ - ملاطفة الأبناء بالموعظة، وتؤخذ من قوله: «يا بني!».

٢ - أنه ينبغي أن يلقن الأبناء الأحكام بأدلتها، وذلك أنه لم يقل: إن الله كتب.. وسكت،

ولكنه أسند إلىٰ الرسول ﷺ، فمثلًا: إذا أردت أن تقول لابنك: سم الله علىٰ الأكل، واحمد الله إذا فرغت؛ فإنك إذا قلت ذلك يحصل به المقصود، لكن إذا قلت: سم الله علىٰ الأكل، واحمد الله إذا فرغت؛ لأن النبي ﷺ أمر بالتسمية عند الأكل، وقال: «**إن الله ليرضىٰ عن العبد يأكل الأكلة ويحمده عليها، ويشرب الشربة ويحمده عليها**»(٦٨٨) إذا فعلت ذلك استفدت فائدتين:

الأولىٰ: أن تعود ابنك علىٰ اتباع الأدلة.

الثانية: أن تربيه علىٰ محبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الرسول ﷺ هو الإمام المتبع الذي يجب الأخذ بتوجيهاته، وهذه في الحقيقة كثيرًا ما يغفل عنها؛ فأكثر الناس يوجه ابنه إلىٰ الأحكام فقط، لكنه لا يربط هذه التوجيهات بالمصدر الذي هو الكتاب والسنة.

❁ **قوله**: «**وفي رواية لأحمد: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب..**»:

هذه الرواية تفيد أمرًا زائدًا علىٰ ما سبق، وهو قوله: «**فجرىٰ في تلك الساعة**»؛ فإنه صريح في أن القلم امتثل، والحديث الأول ليس فيه أنه كتب إلا عن طريق اللزوم بأنه سيكتب امتثالًا لأمر الله تعالىٰ؛ فيستفاد منه ما سبق من كتابة الله - سبحانه وتعالىٰ - كل شيء إلىٰ قيام الساعة، وهذا مذكور في القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج: ٧٠]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾؛ أي: من قبل أن نبرأ الخليقة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد: ٢٢].

قوله: «**إلىٰ يوم القيامة**»: هو يوم البعث، وسمي يوم القيامة؛ لقيام أمور ثلاثة فيه:

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[المطففين: ٥ - ٦].

الثاني: قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسل وعلىٰ الأمم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[غافر: ٥١].

الثالث: قيام العدل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[الأنبياء: ٤٧].

قوله: «**وفي رواية لابن وهب**»: ظاهره أن هذا في حديث عبادة، وابن وهب أحد حفاظ الحديث.

---

(٦٨٨) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب حمد الله تعالىٰ بعد الأكل والشرب، برقم (٢٧٣٤)، والترمذي، كتاب: الأطعمة، باب: الحمد علىٰ الطعام إذا فرغ منه، برقم (١٨١٦) وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قوله: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»: في هذا دليل علىٰ أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به، فإنه يحرق بالنار.

وقوله: «أحرقه الله بالنار»: بعد قوله: «فمن لم يؤمن» يدل علىٰ أن من أنكر أو شك فإنه يحرق بالنار؛ لأن لدينا ثلاث مقامات:

الأول: الإيمان والجزم بالقدر بمراتبه الأربع.

الثاني: إنكار ذلك.

وهذان واضحان؛ لأن الأول إيمان والثاني كفر.

الثالث: الشك والتردد.

فهذا يلحق بالكفر، ولهذا قال: «فمن لم يؤمن»، ودخل في هذا النفي من أنكر ومن شك.

وفي قوله: «أحرقه الله بالنار» دليل علىٰ أن عذاب النار محرق، وأن أهلها ليس كما زعم بعض أهل البدع يتكيفون لها حتىٰ لا يحسون لها بألم، بل هم يحسون بألم وتحرق أجسامهم، وقد ثبت في حديث الشفاعة أن الله يخرج من النار من كان من المؤمنين حتىٰ صاروا حُممًا(٦٨٩)؛ يعني: فحمًا أسود، وقد دل عليه القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[الحج:٢٢]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾[النساء:٥٦].

قوله: «في نفسي شيء من القدر»:

لم يفصح عن هذا الشيء، لكن لعله لَمَّا حَدَثَت بدعة القدر، وهي أول البدع حدوثًا صار الناس يتشككون فيها ويتكلمون فيها، وإلا، فإن الناس قبل حدوث هذه البدعة كانوا علىٰ الحق، ولا سيما أن رسول الله ﷺ خرج علىٰ أصحابه ذات يوم وهم يتكلمون في القدر، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام من ذلك، وأمرهم بأن لا يتنازعوا وأن لا يختلفوا، فكف الناس عن هذا(٦٩٠)؛ حتىٰ قامت بدعة القدرية وحصل ما حصل من الشبه، فلهذا يقول ابن الديلمي: «في نفسي شيء من القدر...».

---

(٦٨٩) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٦٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، برقم (١٨٤) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٦٩٠) أخرجه الترمذي، كتاب: القدر، باب: التشديد في الخوض في القدر، برقم (٢١٣٣)، وابن ماجه في المقدمة، باب: في القدر، برقم (٨٥)، وأبو يعلىٰ، برقم (٦٠٤٥) وغيرهم من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهم، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

قوله: «**فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي**»؛ أي: يذهب هذا الشيء، وهكذا يجب على الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلى أطباء ذلك المرض، وأطباء مرض القلوب هم العلماء، ولا سيما مثل الصحابة رضي الله عنهم؛ كأبي بن كعب، فلكل داء طبيب.

قوله: «**لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر**»: هذا يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الذي لا تقبل منه النفقات هم الكفار، وسبق نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله: «**حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»: قد سبق الكلام على هذه الجملة.

قوله: «**ولو مت على غير هذا؛ لكنت من أهل النار**»: «مُت» بالضم؛ لأنها من مات يموت، وفيه لغة أخرى بالكسر «مِت»؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمران:١٥٨] في إحدى القراءتين، وهي على هذه القراءة من مات يميت بالياء.

قوله: «**على غير هذا؛ لكنت من أهل النار**»: جزم أبي بن كعب رضي الله عنه بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار؛ لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها.

وهل هذا الدواء يفيد؟

الجواب: نعم يفيد، وكل مؤمن بالله إذا علم أن منتهى من لم يؤمن بالقدر هو هذا؛ فلابد يرتدع، ولا بد أن يؤمن بالقدر على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: «**فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت؛ فكلهم حدثني بمثل ذلك**»: المشار إليه الإيمان بالقدر، وأن يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهؤلاء العلماء الأجلاء كلهم من أهل القرآن.

فأبي بن كعب من أهل القرآن ومن كتبة القرآن، حتى إن الرسول ﷺ دعاه ذات يوم وقرأ عليه سورة: ﴿لَمْ يَكُنِ..﴾ البينة، وقال: «**إن الله أمرني أن أقرأها عليك، فقال: يا رسول الله! سماني الله لك. قال: نعم**». فبكى رضي الله عنه بكاء فرح أن الله عز وجل سماه باسمه لنبيه، وأمر نبيه أن يقرأ عليه هذه السورة[٦٩١].

---

(٦٩١) سبق تخريجه.

وأما عبد الله بن مسعود؛ فقد قال النبي ﷺ: «**من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل؛ فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**»(٦٩٢).

وأما زيد بن ثابت، فهو أحد كتاب القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه(٦٩٣).

وحذيفة بن اليمان صاحب السر الذي أسر إليه النبي ﷺ بأسماء المنافقين.

والحاصل أن هذا الباب يدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر بمراتبه الأربع.

مسألة: الإيمان بالقدر هل هو متعلق بتوحيد الربوبية، أو بالألوهية، أو بالأسماء الصفات؟

الجواب: تعلقه بالربوبية أكثر من تعلقه بالألوهية والأسماء والصفات، ثم تعلقه بالأسماء والصفات أكثر من تعلقه بالألوهية، وتعلقه بالألوهية أيضًا ظاهر؛ لأن الألوهية بالنسبة لله يسمى توحيد الألوهية، وبالنسبة للعبد يسمى توحيد العبادة، والعبادة فعل العبد؛ فلها تعلق بالقدر، فالإيمان بالقدر له مساس بأقسام التوحيد الثلاثة.

مسألة: هل اختلف الناس في القدر؟

الجواب: نعم، اختلفوا فيه على ثلاث فرق، وقد سبق.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر. دليله قوله: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

الثانية: بيان كيفية الإيمان؛ أي: بالقدر، وهو أن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ولم يتكلم المؤلف عن مراتب القدر؛ لأنه لم يذكرها، ونحن ذكرناها وأنها أربع مراتب جمعت اختصارًا في بيت واحد، وهو قوله:

عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ ... وَخَلْقُه وهوَ إيجادٌ وتَكْوِينُ

---

(٦٩٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فضل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، برقم (١٣٨)، وأحمد (١/ ٧)، وابن حبان، برقم (٧٠٦٦، ٧٠٦٧) وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٦٩٣) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، برقم(٤٦٧٩) وغيره من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

والإيمان بهذه المراتب داخل في كيفية الإيمان بالقدر.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به. تؤخذ من قول ابن عمر: «**لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر**». ويتفرع منه ما ذكرناه سابقًا بأنه يدل علىٰ أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الكافر هو الذي لا يقبل منه العمل.

الرابعة: الإخبار أن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتىٰ يؤمن به؛ أي: بالقدر، وهو كذلك؛ لقول عبادة بن الصامت لابنه: يا بني! إنك لن تجد طعم الإيمان... إلخ.

وقد سبق أن الإيمان بالقدر يوجب طمأنينة الإنسان بما قضاه اللهﷻ ويستريح؛ لأنه علم أن هذا أمر لابد أن يقع علىٰ حسب المقدور، لا يتخلف أبدًا، «**و لا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا؛ لأن لو تفتح عمل الشيطان**»[(٦٩٤)]، ولا ترفع شيئًا وقع مهما قلت.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله. ظاهر كلام المؤلف: الميل إلىٰ أن القلم أول مخلوقات الله، ولكن الصحيح خلافه، وأن القلم ليس أول مخلوقات الله؛ لأنه ثبت في «صحيح البخاري»: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه علىٰ الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر مقادير كل شيء**»[(٦٩٥)]، وهذا واضح في الترتيب؛ ولهذا كان الصواب بلا شك أن خلق القلم بعد خلق العرش، وسبق لنا تخريج الروايتين، وأنه علىٰ الرواية التي ظاهرها أن القلم أول ما خلق تحمل علىٰ أنه أول ما خلق بالنسبة لما يتعلق بهذا العالم المشاهد؛ فهو قبل خلق السماوات والأرض، فتكون أوليته نسبية.

السادسة: أنه جري بالمقادير في تلك الساعة إلىٰ يوم قيام الساعة؛ لقوله في الحديث: «**فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**».

وفيه أيضًا من الفوائد: توجيه خطاب الله إلىٰ الجماد، وأنه يعقل أمر الله؛ لأن الله وجه الخطاب إلىٰ القلم ففهم واستجاب، لكنه سأل في الأول وقال: «**ماذا أكتب؟** ».

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به؛ لقوله: «**من مات علىٰ غير هذا؛ فليس مني**»، وهذه البراءة مطلقة؛ لأن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء؛ لأن ابن الديلمي يقول: «فأتيت عبد الله

---

(٦٩٤) سبق تخريجه.

(٦٩٥) سبق تخريجه.

بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت» بعد أن أتىٰ أبي بن كعب؛ فدل هذا علىٰ أن من عادة السلف السؤال عما يشتبه عليهم.

وفيه أيضًا مسألة ثانية، وهي جواز سؤال أكثر من عالم للتثبت؛ لأن ابن الديلمي سأل عدة علماء، أما سؤال أكثر من عالم لتتبع الرخص، فهذا لا يجوز كما نص علىٰ ذلك أهل العلم، وهذا من شأن اليهود، فاليهود لما كان في التوراة أن الزاني يرجم إذا كان محصنًا وكثر الزنىٰ في أشرافهم؛ غيروا هذا الحد، ولما قدم النبي ﷺ المدينة، وزنىٰ منهم رجل بامرأة قالوا: اذهبوا إلىٰ هذا الرجل لعلكم تجدون عنده شيئًا آخر؛ لأجل أن يتتبعوا الرخص.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلىٰ رسول الله ﷺ فقط؛ لقول ابن الديلمي: «كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ»، وهذا مزيل للشبهة، فإذا نسب الأمر إلىٰ الله ورسوله؛ زالت الشبهة تمامًا، لكن تزول عن المؤمن، أما غير المؤمن؛ فلا تنفعه؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:١٠١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[يونس:٩٦،٩٧]، لكن المؤمن هو الذي تزول شبهته بما جاء عن الله ورسوله، كما قال تعالىٰ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦]؛ ولهذا لما قالت عائشة للمرأة: «كان يصيبنا ذلك؛ تعني: الحيض، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة»[٦٩٦] لم تذهب تعلل، ولكن لا حرج علىٰ الإنسان أن يذكر الحكم بعلته لمن لم يؤمن لعله يؤمن؛ ولهذا يذكر الله ﷻ إحياء الموتىٰ ويذكر الأدلة العقلية والحسية علىٰ ذلك؛ فقال في أدلة العقل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم:٢٧]؛ فهذه دلالة عقلية؛ فالعقل يؤمن إيمانًا كاملًا بأن من قدر علىٰ الابتداء فهو قادر علىٰ الإعادة من باب أولىٰ.

وذكر أدلة حسية، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾[فصلت:٣٩].

فإذًا لا مانع أن تأتي بالأدلة العقلية أو الحسية من أجل أن تقنع الخصم وتطمئن الموافق.

---

(٦٩٦) أخرجه مسلم، كتاب: الحيض، باب: وجوب قضاء الصوم علىٰ الحائض دون الصلاة، برقم (٣٣٥)، وأحمد (٦/ ٣٢) وغيرهما من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وفيه دليل رابع، وهو دليل الفطرة؛ فلا مانع أيضًا أن تأتي به للاستلال علىٰ ما تقول من الحق لتلزم الخصم به وتطمئن الموافق، وما زال العلماء يسلكون هذا المسلك، وقد مر علينا قصة أبي المعالي الجويني مع الهمداني، حيث إن أبا المعالي الجويني - غفر الله لنا وله - كان يقرر نفي استواء الله علىٰ عرشه، فقال له الهمداني: «دعنا من ذكر العرش؛ فما تقول في هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا: ما قال عارف قط: يا الله! إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو». فصرخ أبوالمعالي ولطم علىٰ رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني.

فإذًا الأدلة سمعية وعقلية وفطرية وحسية.

وأشدها إقناعًا للمؤمن هو الدليل السمعي؛ لأنه يقف عنده ويعلم أن كل ما خالف دلالة السمع فهو باطل، وإن ظنه صاحبه حقًّا.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في منكري القدر»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّه لَّما كان توحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القدر، والإيمان به ذكر المصنف ما جاء من الوعيد في إنكاره؛ تنبيهًا علىٰ وجوب الإيمان به.

«**ما جاء في منكري القدر**»؛ أي: من الوعيد الشديد. والقدر: بفتح القاف والدال: ما يقدره الله من القضاء وما يجري في الكون.

«**أُحُدٍ**»: بضمتين: جبل بقرب مدينة النبيﷺ من جهة الشام.

«**ثم استدل بقول النبيﷺ**»؛ أي: لَّما سأله جبريل عن الإيمان. ووجه الاستدلال: أنَّ النبيﷺ عدَّ الإيمان بالقدر من أركان الإيمان فمن أنكره لم يكن مؤمنًا متقيًا والله لا يقبل إلاَّ من المتقَّين.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لَّما بلغه أنَّ قومًا ينكرون القدر؛ بين أنَّهم بهذا الاعتقاد الفاسد قد خرجوا من الدين؛ حيث أنكروا أصلًا من أصوله، واستدلَّ علىٰ ذلك بحديث الرسولﷺ الذي ورد فيه أنَّ الإيمان بالقدر أحدُ أركان الإيمان الستة التي يجب الإيمان بها جميعًا؛ فمن جحد بعضها فهو كافرٌ بالجميع.

مناسبة الأثر للباب:

بيانُ حكم منكري القدر.

ما يستفاد من الأثر:

١- أنَّ إنكار القدر كفرٌ.

٢- أنَّ الأعمال الصالحة لا تقبل إلاَّ من المؤمن.

٣- الاستدلال على الأحكام من الكتاب والسنة.

قوله: «أنه قال لابنه...»:

التراجم:

١- قال لابنه: هو الوليد بن عبادة، ولد في عهد النبي ﷺ، وهو من كبار التابعين، ومات بعد السبعين رحمه الله.

٢- ابن وهبٍ: هو عبد الله بن وهب بن مسلم المصري الثقة الفقيه صاحب مالكٍ ولد سنة ١٢٥هـ وتوفي سنة ١٩٧هـ رحمه الله.

«**طعم الإيمان**»؛ أي: حلاوته؛ فإنَّ له حلاوةً وطعمًا من ذاقهما تسلى عن الدنيا وما عليها.

«**ما أصابك لم يكن ليخطئك...إلخ**»؛ أي: أنَّ ما قدر عليك من الخير والشرِّ فلن يتجاوزك وما لم يقدر عليك فلن يصيبك.

«**سمعت رسول الله...إلخ**»: هذا استدلال من عبادة على ما سبق.

«**إنَّ أول ما خلق الله القلم**»؛ أي: هو أول شيء خلقه الله قبل خلق السماوات والأرض، وليس هو أول المخلوقات مطلقًا.

«**من مات على غير هذا**»؛ أي: على غير الإيمان بالقدر.

«**فليس مني**»؛ أي: أنا بريء منه؛ لأنه منكرٌ لعلم الله القديم بأفعال العباد ومن كان كذلك فهو كافرٌ.

«**من لم يؤمن بالقدر**»؛ أي: بما قدره الله وقضاه في خلقه.

«**أحرقه الله بالنار**»: لكفره وبدعته؛ لأنَّه جحد قدرة الله التامة ومشيئته النافذة وخلقه لكل شيء وكذب بكتبه ورسله.

المعنى الإجمالي للأثر:

أنَّ عبادة بن الصامت رضي الله عنه يوصي ابنه الوليد بالإيمان بالقدر خيره وشره، ويبين له ما يترتب على الإيمان به من الثمرات الطيبة والنتائج الحسنة في الدنيا والآخرة، وما يترتب على إنكار القدر

من الشرور والمحاذير في الدنيا والآخرة، ويستدل على ما يقول بسنة الرسول ﷺ التي تثبت أنَّ الله قدر المقادير وأمر القلم بكتابتها قبل وجود هذه المخلوقات، فلا يقع في الكون شيء إلى قيام الساعة إلاَّ بقضاءٍ وقدرٍ.

مناسبة الأثر للباب:

أنَّ فيه وجوب الإيمان بالقدر، والتحذير من إنكاره والكفر به، وبيان الوعيد المترتب على ذلك.

ما يستفاد من الأثر:

١- وجوب الإيمان بالقدر.

٢- الوعيد الشديد المترتب على إنكار القدر.

٣- إثبات القلم وكتابة المقادير الماضية والمستقبلة به إلى قيام الساعة.

قوله: «وعن ابن الديلمي...»:

التراجم:

ابن الديلمي هو: عبد الله بن فيروز الديلمي ثقة من كبار التابعين، وأبوه فيروز قاتل الأسود العنسي الكذاب.

«**وفي المسند والسنن**»؛ أي: في «مسند الإمام أحمد»، «وسنن أبي داود»، «وابن ماجه».

«**في نفسي شيء من القدر**»؛ أي: شك واضطراب يؤدي إلى جحد.

«**لو أنفقت...إلخ**»: هذا تمثيل لا تحديد.

«**حتى تؤمن بالقدر**»؛ أي: بأنَّ جميع الأمور كائنة بقضاء الله وقدره.

«**ولو متَّ على غير هذا**»؛ أي: على غير الإيمان بالقدر.

«**لكنت من أهل النار**»؛ أي: لأنَّك جحدت ركنًا من أركان الإيمان، ومن جحد واحدًا منها فقد جحد جميعها.

المعنى الإجمالي للأثر:

يخبر عبد الله بن فيروز الديلمي أنَّه حدث في نفسه إشكال في أمر القدر، فخشي أن يُفضي به ذلك إلى جحوده، فذهب يسأل أهل العلم من صحابة رسول الله؛ لحل هذا الإشكال، وهكذا ينبغي للمؤمن أن يسأل العلماء عمَّا أُشكل عليه؛ عملًا بقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] فأفتاه هؤلاء العلماء كلهم بأنه لا بد من الإيمان بالقضاء والقدر. وأنَّ من مات وهو لا يؤمن به كان من أهل النار.

مناسبة ذكر الأثر في الباب:

بيان أنَّ الإيمان بالقدر أمرٌ حتمٌ، وأنَّه هو الذي رواه الصحابة عن نبيهم ﷺ.

ما يستفاد من الأثر:

١- الوعيد الشديد على من لم يؤمن بالقدر.

٢- سؤال العلماء عما أشكل من أمور الاعتقاد وغيره.

٣- أنَّ من وظيفة العلماء كشف الشبهات ونشر العلم بين الناس.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب ما جاء في منكري القدر»:

هذا «**باب ما جاء في منكري القدر**» ومناسبة هذا الباب للذي قبله أن إنكار القدر سوء ظن بالله -جل وعلا- ويكون هذا الباب كالتفصيل لما اشتمل عليه الباب الذي قبله.

ومناسبته لكتاب التوحيد ظاهرة، وهي أن الإيمان بالقدر واجب، ولا يتم توحيد العبد حتى يؤمن بالقدر، وإنكار القدر كفر بالله -جل وعلا- ينافي أصل التوحيد كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**القدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده**». يعني أن الإيمان بالقدر هو النظام، أي: السلك الذي تجتمع وتنظم فيه مسائل التوحيد حتى يقوم عقدها في القلب، فمن كذب بالقدر يكون قد قطع السلك، فنقض ذلك التكذيب أمور التوحيد، وهذا ظاهر، فإن أصل الإيمان أن يؤمن بالأركان الستة التي منها الإيمان بالقدر، كما ذكر ذلك الشيخ في حديث ابن عمر.

والقدر في اللغة: هو التقدير كما هو معروف، وهو وضع الشيء على نحو ما بها يريده واضعه، يقال قدر الشيء تقديرًا، وقدره قدرًا وقدرًا، وفي العقيدة عرفه بعض أهل العلم بقوله: «**إن القدر هو علم الله السابق بالأشياء، وكتابته لها في اللوح المحفوظ، وعموم مشيئته -جل وعلا- وخلقه للأعيان والصفات القائمة بها**». وهذا التعريف صحيح؛ لأنه يشمل مراتب القدر الأربع. وهذه المراتب على درجتين:

الدرجة الأولى: ما يسبق وقوع المقدر، وذلك مرتبتان: الأولى: الإيمان بالعلم السابق، والثانية: الإيمان بكتابة الله -جل وعلا- لعموم الأشياء، كما قال ﷺ: «**إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**» فقوله: «**قدر مقادير الخلق**» يعني: كتبها.

والدرجة الثانية: ما يقارن وقوع المقدر، فهذا له مرتبتان: الأولىٰ منهما: هي مرتبة عموم المشيئة، فإن الله -جلا- وعلا ما شاءه كان، وما لم يشأ لم يكن، والعبد لا يشاء شيئًا إلا إذا كان الله -جل وعلا- قد شاءه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٣٠] وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩] فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله جل وعلا. والمرتبة الثانية: وهي الإيمان بأن الله -جل وعلا- خالق لكل شيء، للأعيان وللصفات التي تقوم بالأعيان، أما الأعيان والذوات فإن الله -جل وعلا- خالقها باتفاق أهل الإسلام، يعني: الله -جل وعلا- هو الخالق للإنسان، وللحيوان، وللسماء وللأرض، وكذلك الإيمان بأن الصفات التي تقوم بتلك الأعيان الله -جل وعلا- هو الخالق لها، ومن ذلك أفعال العباد، ففعل العبد داخل في عموم خلقه -جل وعلا- قال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] وكلمة ﴿شَيْءٍ﴾ تعرّف بأنها ما يصح أن يعلم، فكل ما يصح أن يعلم يقال عنه شيء؛ فلهذا يدخل في عموم قوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ العباد وأفعال العباد، فهذه أربع مراتب. وإنكار القدر الذي بوّب عليه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يصدق علىٰ إنكار أي مرتبة من هذه المراتب، ولا يقال عن أحد إنه مؤمن بالقدر إلا إذا سلّم بها جميعًا، وآمن بها جميعًا، لدلالة النصوص علىٰ ذلك.

فمن منكري القدر: القدرية الغلاة، وهم نفاة القدر الذين أنكروا العلم السابق، فهؤلاء كفار، ينافي فعلهم أصل التوحيد، فمن أنكر العلم السابق، فقد أنكر القدر إنكارًا انتفىٰ معه أصل التوحيد، وكذلك من ينكر الكتابة، فإن إنكار الكتابة السابقة -مع العلم بالنصوص الدالة عليها- منافٍ لأصل التوحيد، ولا يستقيم معه الإيمان.

وأما إنكار المرتبتين الأخيرتين: عموم المشيئة، وعموم الخلق، كإنكار عموم خلق الله للأفعال كما هو مذهب المعتزلة ونحوهم فإنه ينافي كمال التوحيد، ولا يحكم عليهم بالكفر والخروج من الإسلام بذلك، وإن بُدِّعوا، وضُلِّلوا بسببه.

فإنكار القدر منه ما هو كفر مخرج من التوحيد مخرج من الملة، ومنه ما هو دون ذلك، ويكون منافيًا لكمال التوحيد، وبهذا يظهر صلة هذا الباب بكتاب التوحيد.

❁ قوله: «وقال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر»:

وإنما كان كذلك لأن الله -جل وعلا- لا يقبل من مسلم -إذ الإسلام شرط في صحة قبول الأعمال- ومن أنكر القدر، ولم يؤمن بالقدر، فإنه لا يكون مسلمًا، فلا يقبل منه عمل -إذًا- ولو أنفق مثل أحد ذهبًا حتىٰ يؤمن بالقدر.

❁ **قوله**: «**ثم استدل بقول النبي ﷺ: الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته ...**»:

دليل علىٰ أن القدر منه ما هو خير، ومنه ما هو شر، أي: خير بالنسبة لابن آدم، وشر بالنسبة لابن آدم، فالمكلف قد يكون عليه قدر هو بالإضافة إليه خير، وقد يكون عليه القدر بالإضافة إليه شر، وأما بالنسبة لفعل الله -جل وعلا- فالله -جل وعلا- أفعاله كلها خير؛ لأنها موافقة لحكمته العظيمة، فلهذا جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال في ثنائه علىٰ ربه: «**والشر ليس إليك**»(٦٩٧). فالله -جل وعلا- ليس في فعله شر، فالشر بما يضاف للعبد، فإذا أصيب العبد بمصيبة فهي شر بالنسبة إليه، أما بالنسبة إلىٰ فعل الله فهي خير؛ لأنها موافقة لحكمة الله -جل وعلا- البالغة، والله -سبحانه وتعالىٰ- له الأمر كله.

❁ **قوله**: «**وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان...** »:

وهذا لأن القضاء والقدر قد فُرغ منه، يعني: تقدير الأمور قد فرغ منه، والله -جل وعلا- قد قدّر الأشياء وقدّر أسبابها، فالسبب الذي سيفعله المختار من عباد الله مقدّر، كما أن نتيجته مقدرة، ومن الإيمان بالقدر الإيمان بأن الله -جل وعلا- جعلك مختارًا، وأنك لست مجبورًا، فالقول بالجبر لا يستقيم مع الإيمان بالقدر؛ لأن الإيمان بالقدر إيمان معه الإيمان بأن العبد مختار وليس بمجبر؛ لأن التكليف وقع بذلك.

والجبرية طائفتان: طائفة غلاة، وهم الجهمية، وغلاة الصوفية الذين يقولون: إن العبد كالريشة في مهب الريح، وحركاته حركات اضطرارية، ومنهم طائفة ليست بالغلاة، وهم الأشاعرة ونحوهم الذين يقولون بالجبر في الباطن، وبالاختيار في الظاهر، ويقولون: إن العبد له كسب، وهذا الكسب هو أن يكون العبد في الفعل الذي فعله محلًا لفعل الله -جل وعلا- فيُفعل به، فيكون هو محلًّا للفعل، ويضاف الفعل إليه علىٰ جهة الكسب، علىٰ ما هو معروف في موضعه من التفاصيل في كتب العقيدة المطولة.

---

(٦٩٧) أخرجه مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، برقم (٧٧١)، والترمذي، كتاب: الدعوات، باب: رقم (٣٢)، برقم (٣٤٢٢)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، برقم (٧٦٠)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم...»:

هذا فيه دليل على مرتبة الكتابة، وقوله: «**إن أول ما خلق الله القلم**» معناه -على الصحيح عند المحققين- أنه حين خلق الله القلم، فـ(أول) هنا ظرف بمعنى: حين، و(إنَّ) اسمها ضمير الشأن محذوف: إنه أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، يعني: حين خلق الله القلم، قال له: اكتب، فيكون قوله: اكتب هذا من جهة الظرفية، يعني: حين خلق الله القلم، قال له: اكتب.

وأما أول المخلوقات فالعرش سابق في الخلق على القلم، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي في الصحيح: «**قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**».(٦٩٨).

فقوله ﷺ: «**إن أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب**» يدل على أنه حين خلق الله القلم، قال له: اكتب، والكتابة كانت بعد الخلق مباشرة، ودل الحديث الثاني على أن العرش كان سابقًا، والماء كان سابقًا أيضًا، ولهذا فالقول الصحيح: أن العرش مخلوق قبل القلم، كما قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

والناس مختلفون في القلم الذي ... كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو بعده ... قولان عند أبي العلى الهمذاني
والحق أن العرش قبل لأنه ... عند الكتابة كان ذا أركان

إلى آخر ما في هذا الباب من مباحث في الإيمان بالقدر.

---

(٦٩٨) أخرجه مسلم، كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، برقم (٢٦٥٣)، والترمذي، كتاب: القدر، باب: (١٨)، برقم (٢١٥٦)، وأحمد (٢/ ١٦٩)، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: بيان فرض الإيمان بالقدر، أي لقوله: « **لو كان لأحدهم مثل أحدٍ ذهبًا ثم أنفقه ما قبله الله منه**»... إلخ الحديث.

الثانية: بيان كيفية الإيمان به، أي: أن تعلم أن: « **ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**».

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به، أي لقوله: « **لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتىٰ تؤمن بالقدر**».

الرابعة: الإخبار أن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتىٰ يؤمن به، أي لقوله: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتىٰ تؤمن بالقدر.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله، أي: إنه القلم وهذا علىٰ أحد القولين، والقول الآخر: أنه العرش.

السادسة: أنه جرىٰ بالمقادير في تلك الساعة إلىٰ قيام الساعة، أي لقوله في الحديث: « **فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**».

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به، أي لقوله: «**من مات علىٰ غير هذا فليس مني**».

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء، أي لقول ابن الديلمي وقع في نفسي شيء من القدر فأتيت به أبي بن كعب.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلىٰ رسول الله ﷺ، أي: إنه لما سأل أبي بن كعب، وابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت حدثوه عن النبي ﷺ أنه قال: « **لو أنفقت مثل أحد ذهبًا**»... إلخ ولم يفتوه بالرأي والتكلف.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن إنكار القدر مناف للإيمان والتوحيد.

س: ما حكم الإيمان بالقدر مع ذكر الدليل؟

جـ: واجب وركن من أركان الإيمان الستة.

❁ **قوله:** « قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩]».

س: ما كيفية الإيمان بالقدر؟ وبين مراتبه؟

جـ: هي أن تعتقد أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئة الله وقدرته وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ومراتب الإيمان بالقدر أربع.

١ - علم الله بالأشياء قبل كونها.

٢ - كتابته لها قبل خلق السماوات والأرض.

٣ - مشيئته لها المتناولة لكل موجود.

٤ - خلقه لها وإيجاده وتكوينه.

❁ **قوله:** « وقال بن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم... ».

س: ما الذي يستفاد من هذا الحديث واذكر مناسبته للباب؟

جـ: يستفاد منه:

١ - وجوب الإيمان بالقدر وأنه أصل من أصول الإيمان.

٢ - أن من لم يؤمن بالقدر فقد ترك أصلًا من أصول الدين وجحده.

٣ - إحباط عمل من لم يؤمن بالقدر خيره وشره، وهذه هي مناسبة الحديث للباب

❁ قوله: «وعن عبادة بن الصامت أنه قال لأبنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان... ».

س: اذكر ما يستفاد من هذا الحديث وبين مناسبته للباب؟

جـ: يستفاد منه:

١ - بيان شمول علم الله تعالىٰ وإحاطته بما كان وما يكون في الدنيا والآخرة.

٢ - الوعيد الشديد علىٰ عدم الإيمان بالقدر، وهذه هي مناسبة الحديث للباب.

٣ - أن أحدًا لن يجد طعم الإيمان حتىٰ يؤمن به.

٤ - براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

٥ - الإيمان بالقلم وأنه حين خلق جرىٰ بما يكون من المقادير إلىٰ يوم القيامة.

٦ - أن إنكار القدر من الكبائر.

٧ - وصية الوالد لولده.

❁ قوله: «وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي، قال: أتيت أبي بن كعب...».

س: بين ما يستفاد من هذا الحديث واذكر مناسبته للباب؟

جـ: يستفاد منه:

١ - مشروعية سؤال العلماء في إزالة الشبهة.

٢ - أن المفتي يجيب بنص الدليل مهما وجده.

٣ - أن من تاب من الذنب قبل أن يموت تاب الله عليه.

٤ - بيان كيفية الإيمان بالقدر.

٥ - وعيد من لم يؤمن بالقدر وأن عمله حابط كما تقدم، وهذه هي مناسبة الحديث للباب.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

الدرس الحادي والستون:

باب ما جاء في المصورين

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالىٰ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة» أخرجاه(٦٩٩).

ولهما عن عائشة رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»(٧٠٠).

ولهما عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم»(٧٠١).

ولهما عنه مرفوعًا: «من صور صورة في الدنيا؛ كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»(٧٠٢).

ولمسلم عن أبي الهياج؛ قال: قال لي علي: «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع صورة؛ إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا؛ إلا سويته»(٧٠٣).

فيه مسائل:

الأولىٰ: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبية علىٰ العلة، وهي ترك الأدب مع الله، لقوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

---

(٦٩٩) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد؛ باب: قول الله تعالىٰ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، برقم (٧٥٥٩)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان...، برقم (٢١١١) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧٠٠) أخرجه البخاري، كتاب: اللباس، باب: ما وطئ من التصاوير، برقم (٥٩٥٤)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان...، برقم (٢١٠٧) وغيرهما من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٧٠١) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: بيع التصاوير التي ليس فيها روح، برقم (٢٢٢٥)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان...، برقم (٩٩/ ٢١١٠) واللفظ له، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧٠٢) أخرجه البخاري، كتاب: اللباس، باب: من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ، برقم (٥٩٦٣)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان...، برقم (٢١١٠/ ١٠٠) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧٠٣) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: جعل القطيفة في القبر، برقم (٩٦٩)، وأحمد (١/ ٩٦) وغيرهما من حديث علي رضي الله عنه.

الثالثة: التنبية على قدرته وعجزهم؛ لقوله: «فليخلقوا ذرةً أو [حبةً][٧٠٤] أو شعيرة».

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابًا.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب ما جاء في المصورين»:

أي: من الوعيد الشديد والتهديد الأكيد، للمضاهاة بخلق الله، بل هو منشأ الوثنية، وما دخل على القرون قبلنا إنما هو من هذا الباب؛ لأن صورة المألوف تعظيم، وإذا ارتسمت في الحافظة وبقي ذكرها يمر على البصر الناظر إليها من رسمها لا بد أن تستولي على قلبه، وتحل فيه حلول التعبد له.

قوله: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: ...»:

أي: لا أظلم منه؛ فإن الله له الخلق والأمر، وهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء، وهو الذي صور جميع المخلوقات على غير مثال سبق، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ الآيات [السجدة:٧]. فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة، صار مضاهيا لخلق الله، فصار لا أظلم منه، وما صوره يعذب به يوم القيامة.

قوله: «فليخلقوا ذرة»:

تعجيز لهم؛ أي: فليخلقوا ذرة وهي صغار النمل فيها روح تتصرف بنفسها كهذه الذرة التي خلقها الله، وأنى لهم ذلك؟

(٧٠٤) ساقطة من نسخة ابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي.

❁ قوله: «أو يخلقوا حبة، أو يخلقوا شعيرة. أخرجاه»:

تعجيز لهم أيضًا؛ أي: فليخلقوا حبة حنطة فيها طعم تؤكل وتزرع وتنبت، ويوجد فيها ما يوجد في حبة الحنطة، وكذا الشعيرة ونحوها من الحب الذي يخلقه الله، وأنىٰ لهم السبيل إلىٰ ذلك؛ والمراد: تعجيزهم تارة بتكليفهم خلق صورة حيوان، وهو أشد، وتارة بتكليفهم خلق جماد وهو أهون، ومع ذلك لا قدرة لهم علىٰ ذلك كله، فإن الله هو المتفرد بذلك لا خالق غيره ولا رب سواه.

❁ قوله: «ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: أشد الناس عذابًا...»:

أي: يشابهون بما يصنعونه ما يصنعه الله. ولمسلم: «الذين يشبهون بخلق الله»[٧٠٥]. ولهما من حديث ابن عباس: «أشد الناس عذابا المصورون»[٧٠٦]. قال النووي: قيل: هذا محمول علىٰ صانع الصورة لتعبد وهو صانع الأصنام ونحوها، فهذا كافر وهو أشد الناس، وقيل: هو فيمن قصد المعنىٰ الذي في الحديث من مضاهاته خلقه، واعتقد ذلك فهذا كافر أيضا، وله من شدة العذاب ما للكافر، ويزيد عذابه بزيادة كفره، فأما من لم يقصد بها العبادة ولا المضاهاة فهو فاسق صاحب ذنب كبير، لا يكفر كصاحب المعاصي. وقال: قال العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم، وهو من الكبائر المتوعد عليها بهذا الوعيد الشديد، وسواء صنعه لما يمتهن أم لغيره فصنعه حرام بكل حال، وسواء كان في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها، فأما ما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام.

قال الحافظ: ويؤيد التعميم فيما له ظل وفيما لا ظل له ما أخرجه أحمد عن علي قال: كان رسول الله ﷺ في جنازة فقال: «أيكم ينطلق إلىٰ المدينة فلا يدع بها وثنًا إلا كسره، ولا قبرًا إلا سواه، ولا صورة إلا لطخها». وفيه ثم قال: «من عاد إلىٰ صنعة شيء من هذا فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ»[٧٠٧]. قال المنذري[٧٠٨]: إسناده جيد. وإذا كان هذا فيمن صور صورة علىٰ مثال ما خلقه الله من الحيوان، فكيف بمن سوىٰ المخلوق برب العالمين، وشبهه بخلقه وصرف له شيئًا من العبادة؟

---

(٧٠٥) أخرجه مسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان، برقم (٢١٠٧/ ٩١)، والنسائي، كتاب: الزينة، باب: ذكر أشد الناس عذابًا، برقم (٥٣٥٧) وغيرهما من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٧٠٦) أخرجه البخاري، كتاب: اللباس، باب: عذاب المصورين يوم القيامة، برقم (٥٩٥٠)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان، برقم (٢١٠٩) وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وليس من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧٠٧) أخرجه أحمد (١/ ٨٧، ١٣٨)، والطبراني في «الأوسط»، برقم(٣٤١٢)، وأبو يعلىٰ، برقم (٥٠٦) وغيرهم، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «غاية المرام»، برقم (١٤٤).

(٧٠٨) انظر: «الترغيب والترهيب» للمنذري (٤/ ٢٢)، برقم (٤٦٢٩)، وقال الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب»، برقم(١٧٩٥): «منكر».

قوله: «ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل مصور في النار»:

أي: لذي روح، لتعاطيه ما يشبه ما انفرد الله به من الخلق والاختراع.

قوله: «يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في نار جهنم»:

أي: تعذبه نفس الصورة بأن يجعل فيها روحًا، والباء بمعنى «في» أو يجعل له بكل صورة شخص يعذب به، وقد قال - عليه الصلاة والسلام - لعائشة: «**ما هذه النمرقة؟ قلت لتجلس عليها وتوسدها. قال: إن أصحاب هذه الصور يقال لهم: أحيوا ما خلقتم، وإن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه الصور**»(٧٠٩). قال الحافظ: قدم الجملة الأولى اهتمامًا بالزجر عن اتخاذ الصور؛ لأن الوعيد إذا حصل لصانعها فهو حاصل لمستعملها؛ لأنها لا تصنع إلا لتستعمل، فالصانع متسبب، والمستعمل مباشر، فيكون أولى بالوعيد، ويستفاد منه أنه لا فرق في تحريم التصوير بين أن تكون الصورة لها ظل أو لا، وبين أن تكون مدهونة أو منقوشة أو منقورة أو منسوجة، معلقة أو مفروشة. قال النووي: لا فرق في ذلك، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين. وقال بعض السلف: إنما ينهى عما كان له ظل، ولا بأس بالصورة التي ليس لها ظل وهذا مذهب باطل، فإن الستر الذي أنكر النبي ﷺ الصور فيه لا يشك أحد أنه مذموم، وليس لصورته ظل، مع باقي الأحاديث المطلقة في كل صورة. وقال الزهري: النهي في الصورة على العموم، وكذا استعمال ما هي فيه، ودخول البيت الذي هي فيه، سواء كانت رقمًا في ثوب، أو غير رقم، وسواء كانت في حائط أو ثوب أو بساط ممتهن أو غير ممتهن عملًا بظاهر الأحاديث، لاسيما حديث النمرقة الذي ذكره مسلم، وهذا مذهب قوي.

قوله: «ولهما عنه مرفوعًا: من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»:

وفي رواية: «**فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ أبدًا**»؛ أي: لا يمكنه ذلك، فيكون معذبًا دائمًا، فالحديث يدل على طول تعذيبه، وإظهار عجزه عما كان تعاطاه، ومبالغة في تحريمه، وبيان قبح فعله، وتقدم قوله: «**أحيوا ما خلقتم**»؛ أي: اجعلوه حيوانًا ذا روح كما ضاهيتم به، وهذا أمر تعجيز، ووعيد شديد؛ لأنه مغيًا بما لا يمكن، فالمراد به الزجر الشديد والوعيد بعقاب الكافر؛ ليكون أبلغ في الارتداع. ويستثنى من ذلك ما لا روح فيه؛ لقول ابن عباس: فإن أبيت فعليك بهذا الشجر. وإذا خص

---

(٧٠٩) أخرجه البخاري، كتاب: اللباس، باب: من كره القعود على الصور، برقم (٥٩٥٧)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان...، برقم (٢١٠٧/ ٩٦) وغيرهما من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ما فيه روح بالمعنىٰ من جهة أنه مما لم تجر عادة الآدميين بصنعته، وجرت عادتهم بغرس الأشجار مثلًا امتنع ذلك في مثل تصوير الشمس والقمر، ويتأكد المنع بما عبد من دون الله، فإنه يضاهي صور الأصنام التي هي الأصل في منع التصوير، لا سيما وقد جاء النهي عن التماثيل.

❁ **قوله: «ولمسلم عن أبي الهياج، قال: قال لي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا أبعثك على ما بعثني ...»:**

وتقدم لأحمد: «ولا صورة إلا لطختها»؛ أي: أزلتها ومحوتها. وفيه التصريح ببعثه ﷺ عليًّا وغيره لطمس الصور لما فيها من المضاهاة لخلق الله. وأبو الهياج اسمه حيان بن حصين الأسدي تابعي ثقة، روىٰ عن علي وعمار، وكان كاتبًا له، وعنه ابناه جرير ومنصور والشعبي وغيرهم.

❁ **قوله: «ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»:**

مشرفًا؛ أي: مرتفعًا، إلا سويته؛ أي: بالأرض، ففيه التصريح ببعثه لتسوية القبور، لما في تعليتها من الفتنة بأربابها، وتعظيمها وهو أكبر وسائل الشرك وذرائعه، بل هو الأصل في عبادتها، وصرف الهمم إلىٰ محو هذا وأمثاله من أكبر مصالح الدين ومقاصده وواجباته، ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور، فكثر التصوير واستعماله، وكثر البناء علىٰ القبور وزخرفت، وجعلت أوثانًا تعبد من دون الله، وصرف لها خالص التضرع والخشوع، والذبح لها والنذور، وغير ذلك من كل شرك محظور. قال ابن القيم[٧١٠]: ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهىٰ عنه وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأىٰ أحدهما مضادًّا للآخر مناقضًا له، بحيث لا يجتمعان، فنهىٰ عن الصلاة إلىٰ القبور وهؤلاء يصلون عندها وإليها، ونهىٰ عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد، مضاهاة لبيوت الله، ونهىٰ عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف علىٰ إيقاد السرج عليها، ونهىٰ أن تتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر، وأمر بتسويتها كما روىٰ مسلم عن أبي الهياج[٧١١] وذكره هو وحديث ثمامة بن شفي، وهو عند مسلم أيضًا قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم، فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[٧١٢].وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيوت،

---

(٧١٠) انظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ١٩٥) ط، دار المعارف.

(٧١١) سبق تخريجه.

(٧١٢) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: جعل القطيفة في القبر، برقم (٩٦٨)، وأبو داود، كتاب: الجنائز، باب: تسوية القبر، برقم(٣٢١٩) وغيرهما من حديث فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويعقدون عليها القباب، وذكر ما نهي عنه من تجصيصها والزيادة علىٰ ترابها، والتصريح بتحريم ذلك، وأنه قد آل الأمر بهؤلاء إلىٰ أن شرعوا للقبور حجًّا، ووضعوا لها مناسك، ولا يخفىٰ ما فيه من مشاقة دين الإسلام، والمفاسد التي يعجز عن حصرها، منها اتخاذها أعيادًا، والسفر إليها، ومشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها، والمجاورة عندها، وتعليق الستور عليها، وسدانتها والنذر لها ولسدنتها، واعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء، وتقضىٰ الحوائج وغير ذلك، والشرك الأكبر الذي يفعل عندها، وإيذاء أهلها، وتفضيلها علىٰ خير البقاع، والطواف بها، وتقبيلها، واستلامها وتعفير الخدود علىٰ تربتها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم فالله المستعان.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «باب ما جاء في المصورين»:

وهذا من فروع الباب السابق أنه لا يحل أن يجعل لله ندًّا في النيات، والأقوال، والأفعال. والند هو المشابه ولو بوجه بعيد. فاتخاذ الصور الحيوانية تشبه بخلق الله وكذب علىٰ الخلقة الإلهية، وتمويه وتزوير، فلذلك زجر الشارع عنه.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب ما جاء في المصورين»:

يريد المؤلف من هذا الباب بيان أن التصوير من جملة الكبائر التي تقدح في التوحيد وتعرض فاعله لغضب الله والنار وتنقص إيمانهم وتضعفه.

والمصورون: هم الذين يضاهئون بخلق الله في تصوير الحيوانات سواء باليد أو بأي آلة إذا كان المصور من ذوي الأرواح.

قوله: «من أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي...»:

هذا استفهام بمعنىٰ النفي؛ أي: لا أحد أظلم ممن عمل هذا العمل وهذا العامل، والمراد التحذير والتنفير من هذا العمل. وهذا الأسلوب جاء في القرآن في مواضع كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[الأنعام:٢١] وغيرها.

قوله: «يخلق كخلقي»؛ أي: يصور كتصويري. فإن كانت عندهم قوة، فليخلقوا ذرة يكون لها صفات الذرة من العقل والمشي وغيرها وهي مع صغرها فهي حيوان عجيب، أو ليخلقوا حبة لها صفات من الإنبات والنفع للناس. فإن كانوا يعجزون في الجماد والنبات، فكيف في الحيوان؟

❁ **قوله:** «ولهما عن عائشة مرفوعًا: أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»:

وقد أجمع العلماء على أن التصوير لذوات الأرواح من الكبائر والمحرمات إذا كان له ظل أما إذا لم يكن له ظل كالصور في الجدران والألواح والملابس وغيرها فقد رخص في هذا بعض التابعين. وأجمع الأئمة الأربعة والجمهور على أنه محرم أيضًا كالذي له ظل وهذا هو الصواب؛ لأن الأحاديث تعم ما كان له ظل وما لا ظل له وتشمل التصوير الشمسي وغيرها، ومما يدل على عمومها أن النبي ﷺ لما قدم على عائشة ورأى عندها سترًا فيه تصوير تغير وغضب وقال: «**إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[٧١٣] والستر ليس فيه شيء من الظل ومن جنسه التصوير الشمسي، ويدل عليه ما وقع يوم الفتح لما كان على الكعبة صور فقدم له أسامة ماء فمحاه النبي ﷺ.

فالواجب الحذر من هذا وأن يبتعد المؤمن عن هذه المحرمات ويجب إزالتها وإتلافها وطمسها.

❁ **قوله:** «ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»:

مشرفًا: مرتفعًا.

وقد نهى النبي ﷺ عن البناء على القبور؛ لأنه من وسائل الشرك وكذلك الصور من وسائل الشرك وإنما وقع الشرك في قوم نوح بسبب هذه الصور.

أما ما يتعلق بما وقع هذه الأيام من الحاجة إلى الصور فهذا يقيد بقيده، من باب الإكراه، إذا اضطر الإنسان إلى ذلك، فيفعله وهو كاره له، كالصور لحفيظة النفوس وما أشبه ذلك.

والصور تمنع دخول الملائكة في الحديث الصحيح[٧١٤].

ويستثنى من ذلك ما كان ممتهنًا فهذا لا يجوز تصويره ولو كان ممتهنًا، لكن إذا استعمل ممتهنًا في الفراش فلا يمنع دخول الملائكة كما أن الكلب الذي للحرث والزرع والماشية لا يمنع دخول الملائكة لأنه مأذون فيه ومرخص فيه، فلو اشترى بساطًا فيه صورة وجعله وسادة فهذا لا يضر؛ لأنه ممتهن والله أعلم.

---

(٧١٣) سبق تخريجه.

(٧١٤) سبق تخريجه.

صور المجاهدين الأفغان داخل في هذا المنع؛ لأن الجهاد يقوم بدون صور، وكذلك لا ينبغي التصوير بأشرطة الفيديو.

تحنيط الحيوانات لا ينبغي؛ لأنه إضاعة للأموال بلا فائدة وقد يحتج بها الناس بأنها صورة وقد يعتقد فيها باطلًا كما يعتقده بعض الناس أنها تمنع الجن وما أشبه ذلك.

والمنع في الحديث يشمل الصور التعليمية وغيرها.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في المصورين»:

يعني: من الوعيد الشديد.

ومناسبة هذا الباب للتوحيد:أن في التصوير خلقًا وإبداعًا يكون به المصور مشاركًا لله في ذلك الخلق والإبداع.

قوله في الحديث: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»: ينتهي سند هذا الحديث إلىٰ الله ﷻ، ويسمىٰ حديثًا قدسيًّا، وسبق الكلام عليه في باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.

❁ **قوله**: «ومن أظلم»:

«من»: اسم استفهام والمراد به النفي؛ أي: لا أحد أظلم، وإذا جاء النفي بصيغة الاستفهام كان أبلغ من النفي المحض؛ لأنه يكون مشربًا معنىٰ التحدي والتعجيز.

فإن قيل: كيف يجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤]وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]وغير ذلك من النصوص؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن المعنىٰ أنها مشتركة في الأظلمية؛ أي: أنها في مستوىٰ واحد في كونها في قمة الظلم.

الثاني: أن الأظلمية نسبية؛ أي: أنه لا أحد أظلم من هذا في نوع هذا العمل لا في كل شيء، فيقال مثلًا: من أظلم في مشابهة أحد في صنعه ممن ذهب يخلق كخلق الله، ومن أظلم في منع حق ممن منع مساجد الله، ومن أظلم في افتراء الكذب ممن افترىٰ علىٰ الله كذبًا.

قوله: «**يخلق**»: حال من فاعل ذهب؛ أي: ممن ذهب خالقًا.

والخلق في اللغة: التقدير، قال الشاعر:

ولأنـتَ تفْـرِي مـا خَلَقْـتَ   وبعـضُ النـاسِ يَخْلُـقُ ثُـم لا يفْـرِي

تفري؛ أي: تفعل، ما خلقت؛ أي: ما قدرت.

ويطلق الخلق على الفعل بعد التقدير، وهذا هو الغالب، والخلق بالنسبة للإنسان يكون بعد تأمل ونظر وتقدير، وأما بالنسبة للخالق؛ فإنه لا يحتاج إلى تأمل ونظر لكمال علمه، فالخلق بالنسبة للمصور يكون بمعنى الصنع بعد النظر والتأمل.

قوله: «**يخلق كخلقي**»: فيه جواز إطلاق الخلق على غير الله، وقد سبق الكلام على هذا والجواب عنه في أول الكتاب.

قوله: «**فليخلقوا ذرة**»: اللام للأمر، والمراد به: التحدي والتعجيز، وهذا من باب التحدي في الأمور الكونية، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾[الطور:٣٤] من باب التحدي في الأمور الشرعية.

والذرة: واحدة الذر، وهي النمل الصغار، وأما من قال: بأن الذرة هي ما تتكون منها القنبلة الذرية فقد أخطأ؛ لأن النبي ﷺ يخاطب الصحابة بلغة العرب وهم لا يعرفون القنبلة الذرية، وذكر الله الذرة؛ لأن فيها روحًا، وهي من أصغر الحيوانات.

قوله: «**أو ليخلقوا حبة**». «أو» للتنويع، أي: انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلى خلق الحبة التي هي أصل الزرع من الشعير وغيره وليس لها روح.

قوله: «**أو ليخلقوا شعيرة**»: يحتمل أن المراد شجرة الشعير، فيكون في الأول ذكر التحدي بأصل الزرع وهي الحبة، ويحتمل أن المراد: الحبة من الشعير ويكون هذا من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لأن حبة الشعير أخص من الحب. أو تكون «أو» شكًّا من الرواي.

فالله تحدى الخلق إلى يوم القيامة أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا حبة أو شعيرة.

فإن قيل: يوجد رز أمريكي مصنوع.

أجيب: إن هذا المصنوع لا ينبت كالطبيعي، ولعل هذا هو السر في قوله: «**أو ليخلقوا حبة**»، ثم قال: «**أو ليخلقوا شعيرة**»؛ لأن الحبة إذا غرست في الأرض فلقها الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾[الأنعام:٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾، أي: اجتمعوا لخلقه متعاونين عليه وقد هيئوا كل ما عندهم، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[الحج:٧٣].

قال العلماء: لو أن الذباب وقع على هذه الأصنام فامتص شيئًا من طيبها ما استطاعوا أن يستنقذوه منه، فيكون الذباب غالبًا لها، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾؛ أي: العابد والمعبود، ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾؛ أي: الذباب.

ويستفاد من هذا الحديث، وهو ما ساقه المؤلف من أجله: تحريم التصوير؛ لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مضاهيًا لله في صنعه، والتصوير له أحوال:

الحال الأولى: أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون؛ أي: ما له جسم على هيكل إنسان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها، فهذا أجمع العلماء فيما أعلم على تحريمه، فإن قلت: إذا صور الإنسان لا مضاهاة لخلق الله، ولكن صور عبثًا؛ يعني: صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئًا على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهي خلق الله، بل قصده العبث أو وضعه لصبي ليهدئه به؛ فهل يدخل في الحديث؟

فالجواب: نعم: يدخل في الحديث؛ لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة، فمتى حصلت المضاهاة ثبت حكمها؛ ولهذا لو أن إنسانًا لبس لبسًا يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبه بهم؛ نقول: التشبه منك بهم حاصل أردته أم لم ترده، وكذلك لو أن أحدًا تشبه بامرأة في لباسها أو في شعرها أو ما أشبه ذلك وقال: ما أردت التشبه، قلنا له: قد حصل التشبه، سواء أردته أم لم ترده.

الحال الثانية: أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط؛ فهذا محرم لعموم الحديث، ويدل عليه حديث النمرقة حيث أقبل النبي ﷺ إلى بيته، فلما أراد أن يدخل رأى نمرقة فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعرفت الكراهة في وجهه، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما أذنبت يا رسول الله؟ فقال: «**إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»(٧١٥)؛ فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم، وقوله في «صحيح البخاري»: «**إلا رقمًا في ثوب**»(٧١٦)، إن صحت الرواية هذه، فالمراد بالاستثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها.

الحال الثالثة: أن تلتقط الصور التقاطًا بأشعة معينة بدون أي: تعديل أو تحسين من الملتقط؛ فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

فالقول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك، فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويرًا؛ إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن متفقون على أن هذه صورة؛ فحركته تعتبر تصويرًا، فيكون داخلًا في العموم.

---

(٧١٥) سبق تخريجه.

(٧١٦) أخرجه البخاري، كتاب: اللباس، باب: من كره القعود على الصور، برقم (٥٩٥٨)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان...، برقم (٢١٠٦، ٨٥) وغيرهما من حديث أبي طلحة رضي الله عنه.

القول الثاني: أنها ليست بتصوير؛ لأن التصوير فعل المصور، وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله.

ويوضح ذلك لو أدخلت كتابًا في آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة؛ فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخص أمي لا يعرف الكتابة إطلاقًا أو أعمىٰ في ظلمة، وهذا القول أقرب؛ لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مبدعًا ولا مخططًا، ولكن يبقي النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حرامًا، وإذا كان لغرض مباح صار مباحًا؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلي هذا؛ فلو أن شخصًا صور إنسانًا لما يسمونه بالذكرىٰ، سواء كانت هذه الذكرىٰ للتمتع بالنظر إليه أو التلذذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه؛ فإن ذلك محرم ولا يجوز لما فيه من اقتناء الصور؛ لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك.

وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعية والرخصة والجواز وما أشبهه؛ فهذا يكون مباحًا، فإذا ذهب الإنسان الذي يحتاج إلىٰ رخصة إلىٰ هذا المصور الذي تخرج منه الصورة فورية بدون عمل لا تحميض ولا غيره، وقال: صورني، فصوره؛ فإن هذا المصور لا نقول: إنه داخل في الحديث؛ أي: حديث الوعيد علىٰ التصوير، أما إذا قال: صورني لغرض آخر غير مباح؛ صار من باب الإعانة علىٰ الإثم والعدوان.

الحال الرابعة: أن يكون التصوير لما لا روح فيه، وهذا علىٰ نوعين:

النوع الأول: أن يكون مما يصنعه الآدمي؛ فهذا لا بأس به بالاتفاق؛ لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة؛ مثل أن يصور الإنسان سيارته؛ فهذا يجوز؛ لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التي هي فرع من باب أولىٰ.

النوع الثاني: ما لا يصنعه الآدمي وإنما يخلقه الله؛ فهذا نوعان: نوع نام، ونوع غير نام، فغير النامي؛ كالجبال، والأودية، والبحار، والأنهار؛ فهذه لا بأس بتصويرها بالاتفاق، أما النوع الذي ينمو؛ فاختلف في ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم علىٰ جواز تصويره لما سيأتي في الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلىٰ منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله ﷻ، والحديث عام: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»؛ ولأن الله ﷻ تحدىٰ هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة[٧١٧] والحبة أو الشعيرة ليس فيها روح، لكن لا شك أنها نامية، وعلىٰ هذا،

---

(٧١٧) سبق تخريجه.

فيكون تصويرها حرامًا، وقد ذهب إلىٰ هذا مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ أعلم التابعين بالتفسير، وقال: إنه يحرم علىٰ الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم علىٰ الجواز، وهذا الحديث هل يؤيد رأىٰ الجمهور أو يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله؟

الجواب: يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله أمران:

أولًا: العموم في قوله: **«ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»**.

ثانيًا: قوله: **«أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»**، وهذه ليست ذات روح؛ فظاهر الحديث هذا مع مجاهد ومن يري رأيه، ولكن الجمهور أجابوا عنه بالأحاديث التالية، وهي أن قوله: **«أحيوا ما خلقتم»** (٧١٨) وقوله: **«كلف أن ينفخ بها الروح»** (٧١٩) يدل علىٰ أن المراد تصوير ما فيه روح، وأما قوله: **«أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»**؛ فذكر علىٰ سبيل التحدي؛ أي: أن أولئك المصورين عاجزون حتىٰ عن خلق ما لا روح فيه.

قوله: «**أشد**»:

كلمة أشد اسم تفضيل بمعنىٰ: أعظم وأقوىٰ.

قوله: «**الناس**» للعموم، والمراد الذين يعذبون.

وقوله: «**عذابًا**». تمييز مبين للمراد بالأشد؛ لأن التمييز كما قال ابن مالك:

اسـمٌ بمعنــىٰ مِــنْ مُبــينٌ نكـرة ... يُنـصَبُ تمييـزًا بـما قـد فَـسرهْ (٧٢٠)

والعذاب يطلق علىٰ العقاب ويطلق علىٰ ما يؤلم ويؤذي وإن لم يكن عقابًا، فمن الأول قوله تعالىٰ: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] أي: العقوبة والنكال؛ لأنه يدخل النار والعياذ بالله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨] ومن الثاني قول النبي عليه الصلاة والسلام: **«السفر قطعة من العذاب»** (٧٢١)، وقوله **«الميت يعذب بالنياحة عليه»** (٧٢٢).

---

(٧١٨) سبق تخريجه.

(٧١٩) سبق تخريجه.

(٧٢٠) ألفية ابن مالك (ص:٥٣) ط. ابن خزيمة.

(٧٢١) أخرجه البخاري، أبواب العمرة، باب: السفر قطعة من العذاب، برقم (١٨٠٤)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: السفر قطعة من العذاب...، برقم (١٩٢٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧٢٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من النياحة علىٰ الميت، برقم (١٢٩٢)، ومسلم، كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، برقم (٩٢٧) وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: «**يوم القيامة**». هو اليوم الذي يبعث فيه الناس، وسبق وجه تسميته بذلك.

وقوله: «**أشد**» مبتدأ، «**والذين يضاهئون**» خبره، ومعنىٰ يضاهئون؛ أي: يشابهون.

«**بخلق الله**»؛ أي: بمخلوقات الله - سبحانه وتعالىٰ -.

والذين يضاهئون بخلق الله هم المصورون؛ فهم يضاهئون بخلق الله سواء كانت هذه المضاهاة جسمية أو وصفية؛ فالجسمية أن يصنع صورة بجسمها، والوصفية أن يصنع صورة ملونة؛ لأن التلوين والتخطيط باليد وصف للخلق، وإن كان الإنسان ما خلق الورقة ولا صنعها لكن وضع فيها هذا التلوين الذي يكون وصفًا لخلق الله ﷻ.

هذا الحديث يدل علىٰ أن المصورين يعذبون، وأنهم أشد الناس عذابًا، وأن الحكمة من ذلك مضاهاتهم خلق الله ﷻ وليست الحكمة كما يدعيه كثير من الناس أنهم يصنعونها لتعبد من دون الله؛ فذلك شيء آخر، فمن صنع شيئًا ليعبد من دون الله؛ فإنه حتىٰ ولو لم يصور كما لو أتىٰ بخشبة وقال: اعبدوها؛ فقد دخل في التحريم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة:٢]؛ لأنه أعان علىٰ الإثم والعدوان.

وقوله: «**يضاهئون**». هل الفعل يشعر بالنية؛ بمعني: أنه لابد أن يقصد المضاهاة، أو نقول: المضاهاة حاصلة سواء كانت بنية أو بغير نية؟

الجواب: الثاني؛ لأن المضاهاة حصلت سواء نوىٰ أم لم ينو؛ لأن العلة هي المشابهة، وليست العلة قصد المشابهة، فلو جاء رجل وقال: أنا لا أريد أن أضاهي خلق الله، أنا أصور هذا للذكرىٰ مثلًا وما أشبه ذلك؛ نقول: هذا حرام؛ لأنه متىٰ حصلت المشابهة ثبت الحكم؛ لأن الحكم يدور مع علته كما قلنا فيمن لبس لباسًا خاصًّا بالكفار: إنه يحرم عليه هذا اللباس، ولو قال: إنه لم يقصد المشابهة؛ نقول: لكن حصل التشبه؛ فالحكم المقرون بعلة لا يشترط فيه القصد، فمتىٰ وجدت العلة ثبت الحكم.

فيستفاد من الحديث:

١- تحريم التصوير، وأنه من الكبائر؛ لثبوت الوعيد عليه، وأن الحكمة من تحريمه المضاهاة بخلق الله ﷻ.

٢- وجوب احترام جانب الربوبية، وأن لا يطمع أحد في أن يخلق كخلق الله ﷻ؛ لقوله: «**يضاهئون بخلق الله**»، ومن أجل هذا حرم الكبر؛ لأن فيه منازعة للرب ﷻ، وحرم التعاظم علىٰ الخلق؛ لأن فيه منازعة للرب - سبحانه وتعالىٰ -، وكذلك هذا الذي يصنع ما يصنع فيضاهي خلق الله فيه منازعة لله ﷻ في ربوبيته في أفعاله ومخلوقاته ومصنوعاته؛ فيستفاد من هذا الحديث وجوب احترام جانب الربوبية.

قوله: «**أشد الناس عذابًا**»: فيه إشكال؛ لأن فيهم من هو أشد من المصورين ذنبًا، كالمشركين والكفار، فيلزم أن يكونوا أشد عذابًا، وقد أجيب عن ذلك بوجوه:

الأول: أن الحديث علىٰ تقدير «مِنْ»؛ أي: من أشد الناس عذابًا بدليل أنه قد جاء ما يؤيده بلفظ: «**إن من أشد الناس عذابًا**».

الثاني: أن الأشدية لا تعني أن غيرهم لا يشاركهم، بل يشاركهم غيرهم، قال تعالىٰ ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] ولكن يشكل علىٰ هذا أن المصور فاعل كبيرة فقط؛ فكيف يسوىٰ مع من هو خارج عن الإسلام ومستكبر؟!

الثالث: أن الأشدية نسبية؛ يعني: أن الذين يصنعون الأشياء ويبدعونها أشدهم عذابًا الذين يضاهئون بخلق الله، وهذا أقرب.

الرابع: أن هذا من باب الوعيد الذي يطلق لتنفير النفوس عنه، ولم أر من قال بهذا، ولو قيل بهذا، لسلمنا من هذه الإيرادات، وعلىٰ كل حال ليس لنا أن نقول إلا كما قال النبي ﷺ «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**».

❁ **قوله: «ولهما»**:

أي: للبخاري ومسلم.

❁ **قوله: «كل مصور في النار»**:

«كل»: من أعظم ألفاظ العموم، وأصلها من الإكليل، وهو ما يحيط بالشيء، ومنه الكلالة في الميراث للحواشي التي تحيط بالإنسان.

فيشمل من صور الإنسان أو الحيوان أو الأشجار أو البحار، لكن قوله: «**يجعل له بكل صورة صورها نفسًا**» يدل علىٰ أن المراد صورة ذوات النفوس؛ أي: ما فيه روح.

قوله: «**يجعل له بكل صورة صورها نفس**». الحديث في «مسلم» وليس في «الصحيحين»، لكنه بلفظ «يجعل» بالبناء للفاعل، وعلي هذا تكون «نفسًا» بالنصب، وتمامه: «**فتعذبه في جهنم**».

قوله: «**يعذب بها**»: كيفية التعذيب ستأتي في الحديث الذي بعده أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

وقوله: «**كل مصور في النار**»؛ أي: كائن في النار.

وهذه الكينونة عند المعتزلة والخوارج كينونة خلود؛ لأن فاعل الكبيرة عندهم مخلد في النار، وعند المرجئة أن المراد بالمصور الكافر؛ لأن المؤمن عندهم لا يدخل النار أبدًا، وعند أهل السنة والجماعة أنه مستحق لدخول النار وقد يدخلها وقد لا يدخلها، وأن دخلها لم يخلد فيها.

وقوله: «**بكل صورة صورها**»: يقتضي أنه لو صور في اليوم عشر صور ولو من نسخة واحدة؛ فإنه يجعل له في النار عشر صور يقال له: انفخ فيها الروح، وظاهر الحديث أنه يبقىٰ في النار معذبًا حتىٰ تنتهي هذه الصور.

قوله: «كلف»:

أي: ألزم، والمكلف له هو الله ﷻ.

قوله: «**وليس بنافخ**»؛ أي: كلف بأمر لا يتمكن منه زيادة في تعذيبه، وعذب بهذا العذاب ليذوق جزاء ما عمل، وبهذا تزداد حسرته وأسفه، حيث إنه عذب بما كان في الدنيا يراه راحة له، إما باكتساب، إو إرضاء صاحب، أو إبداع صنعة.

قوله: «عن أبي الهياج»:

هو من التابعين.

قوله: «**قال لي علي**»: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: «**ألا أبعثك**»: البعث: الإرسال بأمر مهم؛ كالدعوة إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾[النحل:٣٦].

قوله: «**علىٰ ما بعثني**»: يحتمل أن تكون «علىٰ» علىٰ ظاهرها للاستعلاء؛ لأن المبعوث يمشي علىٰ ما بُعث عليه، كأنه طريق له، وهذا هو الأَوْلَىٰ، لأن ما وافق ظاهر اللفظ من المعاني فهو أولىٰ بالاعتبار، ويحتمل أن «علىٰ» بمعنىٰ الباء؛ أي: بما بعثني عليه.

وقد بعث النبي ﷺ عليًّا إلىٰ اليمن بعد قسمة غنائم حنين، وقدم علىٰ النبي ﷺ وهو في مكة في حجة الوداع(٧٢٣).

---

(٧٢٣) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما الى اليمن قبل حجة الوداع، برقم(٤٣٥٤)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: الإفراد والقران...، برقم (١٢٣١) وغيرهما من حديث أنس وابن عمر رضي الله عنهم.

قوله: «**أن لا تدع**»: «أن» مصدرية، «لا»: نافية تدع: منصوب بأن المصدرية وهي بدل بعض من كل من«ما»في قوله: «على ما بعثني»؛ لأن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب بأكثر من ذلك، لكن هذا مما بعثه النبي ﷺ.

قوله:«**صورة**»: نكرة في سياق النفي فتعم.

وجمهور **أهل العلم**: أن المحرم هو صور الحيوان فقط؛ لما ورد في «السنن» من حديث جبريل أن النبي ﷺ قال: «**فمر برأس التمثال يقطع، فيصير كهيئة الشجرة**»[٧٢٤]، وسبق بيان ذلك قريبًا.

قوله: «**إلا طمستها**»: إن كانت ملونة فَطَمْسُها بوضع لون آخر يزيل معالمها، وإن كانت تمثالًا فإنه يقطع رأسه؛ كما في حديث جبريل السابق، وإن كانت محفورة فيحفر على وجهه حتى لا تتبين معالمه؛ فالطمس يختلف، وظاهر الحديث سواء كانت تعبد من دون الله أولًا.

قوله: «**ولا قبرًا مشرفًا**»؛ أي: عاليًا.

قوله: «**إلا سويته**»: له معنيان:

الأول؛ أي: سويته بما حوله من القبور.

الثاني: جعلته حسنًا على ما تقتضيه الشريعة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[الأعلى:٢]؛ أي: سوى خلقه أحسن ما يكون، وهذا أحسن، والمعنيان متقاربان.

والإشراف له وجوه:

الأول: أن يكون مشرفًا بكبر الأعلام التي توضع عليه، وتسمى عند الناس «نصائل» أو «نصائب»، ونصائب أصح لغة من نصائل.

الثاني: أن يبني عليه، وهذا من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ: «**لعن المتخذين عليها المساجد والسرج**»[٧٢٥].

---

(٧٢٤) أخرجه أبو داود، كتاب: اللباس، باب: في الصور، برقم (٤١٥٨)، والترمذي، كتاب: الأدب، باب: أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة ولا كلب، برقم (٢٨٠٦)، وأحمد (٢/ ٣٠٥) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٧٢٥) أخرجه أبو داود، كتاب: الجنائز، باب: في زيارة القبور، برقم (٣٢٣٦)، والترمذي، كتاب: الصلاة، باب: كراهية أن يتخذ على القبر مسجدًا، برقم (٣٢٠) وغيرهما، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

الثالث: أن تشرف بالتلوين، وذلك بأن يوضع علىٰ أعلامها ألوان مزخرفة.

الرابع: أن يرفع تراب القبر عما حوله فيكون بينًا ظاهرًا.

فكل شيء مشرف؛ أي: ظاهر علىٰ غيره متميز عن غيره يجب أن يسوىٰ بغيره؛ لئلا يؤدي ذلك إلىٰ الغلو في القبور والشرك.

ومناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور:

أن كلًّا منهما قد يتخذ وسيلة إلىٰ الشرك، فإن أصل الشرك في قوم نوح أنهم صوروا صور رجال صالحين، فلما طال عليهم الأمد عبدوها، وكذلك القبور المشرفة قد يزداد فيها الغلو حتىٰ تجعل أوثانًا تعبد من دون الله، وهذا ما وقع في بعض البلاد الإسلامية، وقد أطال الشارح رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب في البناء علىٰ القبور؛ وذلك لأن فتنتها في البلاد الإسلامية قديمة وباقية، ما عدا بلادنا ولله الحمد؛ فإنها سالمة من ذلك، نسأل الله أن يديم عليها، وأن يحمي بلاد المسلمين من شرها.

عقوبة المصور ما يلي:

١- أنه أشد الناس عذابًا أو من أشدهم عذابًا.

٢- أن الله يجعل له في كل صورة نفسًا يعذب بها في نار جهنم.

٣- أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

٤- أنه في النار.

٥- أنه ملعون؛ كما في حديث أبي جحيفة في «البخاري» وغيره.

فائدتان:

الأولىٰ: «**كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ**» يقتضي أن المراد التصوير تصوير الجسم كاملًا، وعلىٰ هذا؛ فلو صور الرأس وحده بلا جسم أو الجسم وحده بلا رأس؛ فالظاهر الجواز، ويؤيده ما سبق في الحديث: «**مُرْ برأس التمثال فليقطع**»، ولم يقل: فليكسر، لكن تصوير الرأس وحده عندي فيه تردد، أما بقية الجسم بلا رأس فهو كالشجرة لا تردد فيه عندي.

الثانية: يؤخذ من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو قوله: «**أن لا تدع صورة إلا طمستها**» أنه لا يجوز اقتناء الصور، وهذا محل تفصيل؛ فإن اقتناء الصور علىٰ أقسام:

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المصور؛ لكونه ذا سلطان أو جاه أو علم أو عبادة أو أبوة أو نحو ذلك؛ فهذا حرام بلا شك، ولا تدخل الملائكة بيتًا فيه هذه الصورة؛ لأن تعظيم ذوي السلطة باقتناء صورهم ثلم في جانب الربوبية، وتعظيم ذوي العبادة باقتناء صورهم ثلم في جانب الألوهية.

القسم الثاني: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها؛ فهذا حرام أيضًا؛ لما فيه من الفتنة المؤدية إلىٰ سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكرىٰ حنانًا أو تلطفًا، كالذين يصورون صغار أولادهم لتذكرهم حال الكبر، فهذا أيضًا حرام للحوق الوعيد به في قوله ﷺ: «**إن الملائكة لا تدخل بيتًا في صورة**»(٧٢٦).

القسم الرابع: أن يقتني الصور لا لرغبة فيها إطلاقًا، ولكنها تأتي تبعًا لغيرها؛ كالتي تكون في هذه المجلات والصحف ولا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في هذه المجلات والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك؛ فالظاهر أن هذا لا بأس به؛ لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة؛ فهو أولىٰ.

القسم الخامس: أن يقتني الصور علىٰ وجه تكون فيه مهانةً ملقاة في الزبل، أو مفترشة، أو موطوءة؛ فهذا لا بأس به عند جمهور العلماء، وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة؛ لأن في ذلك امتهانًا للصورة ولا سيما إن كانت الملابس داخلية؟

الجواب: نقول: لا يلحق بذلك، بل لباس ما فيه الصور محرم علىٰ الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحوه؛ لظهور الفرق بينهما، وقد صرح الفقهاء رحمهم الله بتحريم لباس ما فيه صورة، سواء كان قميصًا أو سراويل أم عمامة أم غيرها.

وقد ظهر أخيرًا ما يسمىٰ بالحفائظ؛ وهي خرقة تلف علىٰ الفرجين للأطفال والحائض لئلا يتسرب النجس إلىٰ الجسم أو الملابس؛ فهل تلحق بما يلبس أو بما يمتهن؟

هي إلىٰ الثاني أقرب، لكن لما كان امتهانًا خفيًّا وليس كالمفترش والموطوء صار استحباب التحرز منها أولىٰ.

القسم السادس: أن يلجأ إلىٰ اقتنائها إلجاء؛ كالصور التي تكون في بطاقة إثبات الشخصية والشهادات والدراهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: التغليظ الشديد في المصورين. تؤخذ من قوله: «**أشد الناس عذابًا...**» **الحديث**.

الثانية: التنبيه علىٰ العلة، وهو ترك الأدب مع الله، تؤخذ من قوله: «**ومن أظلم ممن ذهب**

---

(٧٢٦) سبق تخريجه.

يخلق كخلقي». فمن ذهب يخلق كخلق الله؛ فهو مسيء للأدب مع الله ﷻ لمحاولته أن يخلق مثل خلق الله تعالىٰ، كما أن من ضاده في شرعه فقد أساء الأدب معه.

الثالثة: التنبيه علىٰ قدرته وعجزهم؛ لقوله: «**فليخلقوا ذرة أو شعيرة**»؛ لأن الله خلق أكبر من ذلك وهم عجزوا عن خلق الذرة أو الشعيرة.

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابًا؛ لقوله: «**أشد الناس عذابًا...** » الحديث.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها المصور في جهنم؛ لقوله: «**يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم**».

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح؛ لقوله: «**كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ**»، وهذا نوع من التعذيب من أشق العقوبات.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت؛ لقوله: «**أن لا تدع صورة إلا طمستها**».

ويؤخذ من حديث الباب أيضًا: الجمع بين فتنة التماثيل وفتنة القبور؛ لقوله: «**أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته**»؛ لأن في كل منهما وسيلة إلىٰ الشرك.

ويؤخذ منه أيضًا: إثبات العذاب يوم القيامة، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لأنه يجعل له بكل صورة صورها نفس فتعذبه في جهنم.

ويؤخذ منه: وقوع التكليف في الآخرة بما لا يطاق علىٰ وجه العقوبة.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «**باب ما جاء في المصورين**»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

لَمَّا كان التصوير وسيلة الشرك المضاد للتوحيد، ناسب أن يعقد المؤلف هذا الباب؛ لبيان تحريمه وما ورد فيه من الوعيد الشديد.

«**ما جاء في المصورين**»؛ أي: من الوعيد الشديد.

❁ **قوله**: «**ومن أظلم**»:

أي: لا أحد أظلم منه.

«**يخلق كخلقي**»؛ أي: لأنَّ المصور يُضاهي خلق الله.

«**فليخلقوا**»: أمرُ تعجيزٍ وتحدٍّ وتهديدٍ.

«ذرةً»: هي: النملة الصغيرة.

«أو ليخلقوا»: تعجيز آخر.

«حبةً»؛ أي: حبة حنطةٍ فيها طعم ومادة نباتٍ وإنتاجٍ.

«أو ليخلقوا»: تعجيز آخر.

«شعيرة»: نوعٌ آخر من الحبوب.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يروي النبيﷺ عن ربهﷻ أنه يقول: لا أحد أشد ظلمًا ممن يصور الصور علىٰ شكل خلق الله؛ لأنه بذلك يحاول مشابهة الله في فعله، ثم يتحداه اللهﷻ ويبين عجزه عن أن يخلق أصغر شيء من مخلوقاته وهو الذرة، بل هو عاجز عن أن يخلق ما هو أدنىٰ من ذلك وهو الجماد الصغير، ومع ذلك لا قدرة لهم علىٰ ذلك كله؛ لأنَّ الله هو المتفرد بالخلق.

مناسبة ذكر هذا الحديث في الباب:

أنَّه يدل علىٰ تحريم التصوير، وأنَّه من أظلم الظلم.

ما يستفاد من الحديث:

١ - تحريم التصوير، وبأي وسيلة وجد وأنَّ المصور من أظلم الظالمين.

٢- وصف الله أنه يتكلم.

٣- أنَّ التصوير مضاهاة لخلق الله، ومحاولة لمشاركته في الخلق.

٤ - أنَّ القدرة علىٰ الخلق من خصائص الله سبحانه وتعالىٰ.

قوله: «ولهما»:

أي: البخاريِّ ومسلم.

«**يضاهئون بخلق الله**»؛ أي: يشابهون بما يصنعونه ما يصنعه الله.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبرﷺ خبرًا؛ معناه: النهي والزجر، أنَّ المصورين أشد الناس عذابًا في الدار الآخرة؛ لأنَّهم أقدموا علىٰ جريمةٍ شنعاء وهي صناعتهم ما يشابه لخلق الله في صناعة الصور.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّه يدل علىٰ شدة عقوبة المصورين، ممَّا يفيد أنَّ التصوير جريمة كبرىٰ.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم التصوير بجميع أشكاله وبأي وسيلة وجد، وأنَّه مضاهاة لخلق الله.

٢- أنَّ العذاب يوم القيامة يتفاوت بحسب الجرائم.

٣- أنَّ التصوير من أعظم الذنوب، وأنه من الكبائر.

❁ **قوله**: «كل مصورٍ»:

أي: لذي روحٍ.

«**في النار**»: لتعاطيه ما يشبه ما انفرد الله به من الخلق والاختراع.

«**يجعل له بكل صورةٍ نفس يعذب بها**»: الباء؛ بمعنىٰ «في»؛ أي: يجعل له في كل صورة روح تعذبه نفس الصورة التي جعلت فيها الروح.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر ﷺ أنَّ مآل المصورين يوم القيامة إلىٰ النار، يعذبون فيها بأشد العذاب بأن تحضر جميع الصور التي صوروها في الدنيا، فيجعل في كل صورة منها روح ثم تسلط عليه بالعذاب في نار جهنم، فيعذب بما صنعت يده والعياذ بالله. ومن تعذيبه أيضًا أن يكلف ما لا يطيق وهو نفخ الروح في الصورة التي صوَّرَهَا.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه دليلًا علىٰ تحريم التصوير ووعيد المصورين.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم التصوير وأنه من الكبائر.

٢- تحريم التصوير بجميع أنواعه: تماثيل أو نقوشٍ، وسواءً كان رسمًا باليد أو التقاطًا بآلة التصوير الفوتوغرافية، إذا كانت الصورة من ذوات الأرواح، إلاَّ ما دعت إليه الضرورة.

٣- تحريم التصوير لأي غرض كان إلا لدفع ضرورة.

٤- في الرواية الأخيرة دليل علىٰ طول تعذيب المصورين وإظهار عجزهم.

٥- فيها أنَّ الخلق ونفخ الروح لا يقدر عليهما إلا الله تعالىٰ.

❁ قوله: «ولمسلم عن أبي الهياج...»:

التراجم:

أبو الهيَّاج هو: حيَّانُ بنُ حصينٍ الأسدي تابعيٌ ثقة.

«ألَا»: أداة تنبيهٍ.

«أبعثُكَ»: أوجِّهُكَ.

«لا تدع»: لا تترك.

«إلا طمستها»؛ أي: أزلتها ومحوتها.

«مشرفًا»؛ أي: مرتفعًا.

«إلا سويته»؛ أي: جعلته مساويًا للأرض.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يعرض أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه علىٰ أبي الهياج أن يوجهه إلىٰ القيام بالمهمة التي وجهه رسول الله ﷺ للقيام بها وهي: إزالة الصور ومحوها؛ لما فيها من المضاهاة لخلق الله والافتتان بها بتعظيمها؛ مما يئول بأصحابها إلىٰ الوثنية.

وتسوية القبور العالية حتىٰ تصير مساوية للأرض؛ لما في تعليتها من الافتتان بأصحابها واتخاذهم أندادًا لله في العبادة والتعظيم.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّه يدل علىٰ وجوب طمس الصور وإتلافها.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم التصوير ووجوب إزالة الصور ومحوها بجميع أنواعها.

٢- التواصي بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ العلم.

٣- تحريم رفع القبور ببناءٍ أو غيره؛ لأنَّه من وسائل الشرك.

٤- وجوب هدم القباب المبنية علىٰ القبور.

٥- أن التصوير مثل البناء علىٰ القبور وسيلة إلىٰ الشرك.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في المصورين»:

هذا «**باب ما جاء في المصورين**» والمصورون جمع تصحيح للمصور، والمصور: هو الذي يقوم بالتصوير، والتصوير معناه: التشكيل، تشكيل الشيء حتىٰ يكون علىٰ هيئة صورة لآدمي أو لغير آدمي من حيوان، أو نبات، أو جماد، أو سماء، أو أرض، فكل هذا يقال له: مصور، إذا كان يُشكل بيده شيئًا علىٰ هيئة صورة معروفة، هذا من حيث المعنىٰ، أما من حيث الحكم فسيأتي بيانه إن شاء الله.

قوله: «**باب ما جاء في المصورين**» يعني: من الوعيد، ومن الأحاديث التي فيها أنهم جعلوا أنفسهم أندادًا لله جل وعلا.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن التوحيد هو ألا يُجعل لله ند فيما يستحقه -جل وعلا- والتصوير تنديد من جهة أن المصور جعل فعله ندًّا لفعل الله -جل وعلا- ولهذا يدخل الرضىٰ بصنيع المصور في قول الله جل وعلا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾[البقرة: ٢٢] إذ ذلك حقيقته أنه جعل هذا المصور شريكًا لله -جل وعلا- في هذه الصفة، مع أن تصويره ناقص، وتصوير الله -جل وعلا- علىٰ جهة الكمال، لكن من جهة الاعتقاد لَمَّا جعل هذا المخلوق مصورًا، والله -جل وعلا- هو الذي ينفرد بتصوير المخلوقات كما يشاء، كان من كمال التوحيد ألّا يُرضىٰ بالتصوير، وأن لا يفعل أحد هذا الشيء؛ لأن ذلك لله -جل وعلا- فالتصوير من حيث الفعل منافٍ لكمال التوحيد، وهذا هو مناسبة إيراد هذا الباب في هذا الكتاب.

والمناسبة الثانية له: أن التصوير وسيلة من وسائل الشرك بالله -جل وعلا- والشرك ووسائله يجب وصدها وغلقُ الباب؛ لأنها تفضي بالناس إلىٰ الإشراك، فمناسبة الباب لكتاب التوحيد من جهتين:

الجهة الأولىٰ: جهة المضاهاة بخلق الله، والتمثيل بخلق الله -جل وعلا- وبصفته واسمه.

والثانية: أنه وسيلة للإشراك، نعم قد لا يُشرك بالصورة المعينة التي عُملت، ولكن الصورة من حيث الجنس هي وسيلة -ولا شك- من وسائل الإشراك؛ فإن شرك كثير من المشركين كان من جهة الصور، فكان من تحقيق التوحيد ألا تُقرر الصور لأجل أن الصورة وسيلة من وسائل المشركين في عباداتهم.

❁ **قوله**: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **قال الله تعالىٰ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، ...**»:

هذا فيه معنىٰ وفيه تمثيل، أما المعنىٰ فهو قوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**» فسبب الظلم أن العبد اعتدىٰ، فأراد أن يخلق كخلق الله -جل وعلا- والمقصود بذلك أن يصور كتصوير الله -جل وعلا- لخلقه.

«**فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**» معلوم أن الذرة -وهي واحد الذر، صغار النمل- من أصغر المخلوقات. وحبة الحنطة، أو حبة البر، أو حبة الرز، يمكن أن تُصنع، ولكن لا يمكن أن تكون كخلق الله -جل وعلا- وكذلك الشعيرة يمكن أن تصنّع شكلًا وأن تصور شكلًا، لكن يعجز أن يجعل فيها الحياة، فمثلًا حب البر، أو الشعير، أو الرز، أو نحو ذلك مما صنعه الله ينبت إذا وضع في الأرض، أما ما صنعه المخلوق فإنه لا تكون فيه حياة، فالرز الصناعي الذي يؤكل لو رمي في الأرض لما خرج منه ساق، ولما خرج له جذر، ولما كانت منه حياة، وأما الذي يكون من خلق الله -جل وعلا- فهو الذي أودع فيه سر حياة ذلك الجنس من المخلوقات، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن هذا علىٰ وجه التعجيز، فالذي يخلق كخلق الله -جل وعلا- هذا من جهة ظنه، أما من جهة الحقيقة فإنه لا أحد يخلق كخلق الله، ولهذا صار ذلك مشبهًا نفسه بالله -جل وعلا- فصار أظلم الخلق.

استدل مجاهد وغيره من السلف بقوله: «**أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**» علىٰ أن تصوير ما لا حياة فيه أو ما لا روح فيه محرم؛ لأنه ذكر الحبة والشعيرة، قالوا: فتصوير الأشجار وتصوير الحب ونحو ذلك لا يجوز.

وجمهور العلماء علىٰ خلاف ذلك، وأن الأمر في ذلك للتعجيز، وليس لجهة التعليل؛ ولهذا قال في الحديث الذي بعده: «**من صوّر صورة في الدنيا كلّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ**» فلما قال: «**كلّف أن ينفخ فيها الروح**» علمنا أن النهي في التصوير كان منصبًّا علىٰ ما فيه روح، يعني: علىٰ ما حياته بحلول الروح فيه، أما ما حياته بالنماء كالمزروعات والأشجار ونحوها فليس داخلًا في ذلك.

❁ **قوله**: «ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **أشد الناس عذابًا...**»:

هذا فيه تنبيه علىٰ العلة، وهذه العلة هي المضاهاة بخلق الله -جل وعلا- وهي إحدىٰ

العلتين اللتين من أجلهما حرِّم التصوير، فالتصوير حُرِّم وصار صاحبه من أشد الناس عذابًا لأجل أنه يضاهي بخلق الله -جل وعلا- ولأن الصورة وسيلة للشرك.

والمضاهاة بخلق الله -جل وعلا- التي رُتِّب عليها أن يكون فاعلها أشد الناس عذابًا يوم القيامة عند كثير من العلماء محمولة على المضاهاة التي تكون كفرًا؛ لأن المضاهاة في التصوير يكون كفرًا في حالتين:

الحالة الأولى: أن يصوّر صنمًا ليعبد، أو يصور إلهًا ليعبد، كأن يصور لأهل البوذية صورة بوذا، أو يصور للنصارى المسيح، أو يصور أم المسيح ونحو ذلك، فتصوير ما يعبد من دون الله -جل وعلا- مع العلم بأنه يعبد هذا كفر بالله -جل وعلا- لأنه صور وثنًا ليعبد، وهو يعلم أنه يعبد، فيكون شركًا أكبر، وكفرًا بالله جل وعلا.

والحالة الثانية: أن يصور الصورة ويزعم أنها أحسن من خلق الله -جل وعلا- فيقول: هذه أحسن من خلق الله، أو أنا فقت في خلقي وتصويري ما فعل الله -جل وعلا- فهذا كفر أكبر، وشرك أكبر بالله -جل جلاله- وهذا هو الذي حُمل عليه هذا الحديث وهو قوله: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**» وأما المضاهاة بالتصوير عامة بما لا يخرجه من الملة، كالذي يرسم بيده، أو ينحت التمثال، أو ينحت الصورة مما لا يدخل في الحالتين السابقتين فهو كبيرة من الكبائر، وصاحبها ملعون ومتوعد بالنار.

❁ **قوله**: «ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما: **سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل مصور في النار...**»:

قوله: «**نفس**» أفاد أن ذلك التصوير وقع لشي تحله النفس، وهو الحيوانات أو الآدمي، ولهذا كان الوعيد منصبًّا على ذلك.

«**كل مصوّر في النار**» هذا يفيد أن التصوير كبيرة من الكبائر.

❁ **قوله**: «ولهما عنه مرفوعًا: **من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ**»:

لأن الروح إنما هي من أمر الله جل وعلا.

❁ **قوله**: «ولمسلم عن أبي الهياج، قال: **قال لي علي رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألّا تدع صورة إلا طمستها، ...**»:

في هذا الحديث التنبيه على العلة الثانية من علتي تحريم التصوير، وهي أنه وسيلة من وسائل الشرك، ووجه الاستدلال من هذا الحديث: أنه قرن بين الصورة والقبر المشرف في وجوب

إزالتها، وبقاء القبر المشرف وسيلة من وسائل الشرك وكذلك للاقتران بقاء الصورة أيضًا وسيلة من وسائل الشرك، فالنبي عليه الصلاة والسلام بعث عليًّا ألَّا يدع صورة إلا طمسها؛ لأن الصور من وسائل الشرك، وألَّا يدع قبرًا مشرفًا إلا سواه؛ لأن بقاء القبور مشرفة يدعو إلىٰ تعظيمها وذلك من وسائل الشرك.

وهناك خلاف في بعض مسائل التصوير محله كتب الفقه والفتوىٰ من جهة التصوير الحديث الذي يكون بالآلات كالتصوير بالكاميرات المختلفة أو بالفيديو أو التليفزيون أو نحو ذلك.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: التغليظ الشديد في المصورين، أي لقوله: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي... إلخ وما بعده.

الثانية: التنبيه علىٰ العلة وهو ترك الأدب، مع الله لقوله: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي. أي: إن المصور علىٰ صورة ما خلق الله قد ترك الأدب معه؛ لأنه -سبحانه- هو الخالق البارئ المصور، فلا يليق بغيره أن يفعل مثل ذلك.

الثالثة: التنبيه علىٰ قدرته وعجزهم لقوله: فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة، أي: لما تحداهم أن يخلقوا مثل هذا وعجزوا عنه وقدر هو علىٰ خلق كل شي دل ذلك علىٰ قدرته وعجزهم.

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابًا، أي لقوله: « **أشد الناس عذابًا الذين يضاهئون بخلق الله**» إذا صور ما يعبد من دون الله قاصدًا ذلك؛ لأنه يكون كافرًا، أو أنه من أشد الناس عذابًا كما أشار إليه في «**فتح الباري**».

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها المصور في جهنم، أي لقوله: يجعل له بكل صورة صورها نفسًا يعذب بها في جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح، أي لقوله: كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت، أي لقول علي لأبي الهياج: ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألّا تدع صورة إلا طمستها.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن تصوير ذوات الأرواح مناف لكمال التوحيد؛ لأن فيه مشابهة لخلق الله تعالىٰ.

❁ **قوله: «عن ابن عباس سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل مصور في النار ...».**

ولهما عنه مرفوعًا: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ».

ويلاحظ أن: «كل» و«من» من ألفاظ العموم فتشمل كل صورة وكل مصور.

❁ **قوله: «وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: أشد الناس عذابًا يوم القيامة...».**

س: ما معنى يضاهئون بخلق الله؟

جـ: أي: يشابهون بتصويرهم خلق الله.

❁ **قوله:** «وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالىٰ:...».

س: ما المقصود بالذرة والحبة وما هو الغرض من ذلك وما الذي يستفاد من هذه الأحاديث المتقدمة؟

جـ: الذرة: واحدة الذر وهو صغار النمل، والمراد بالحبة: حبة القمح بقرينة ذكر الشعيرة أو المراد عموم الحبوب.

والغرض من ذلك: تعجيزهم تارة بتكليفهم خلق حيوان وهو أشد، وأخرىٰ بتكليفهم خلق جماد وهو أهون ومع ذلك فلا قدرة لهم علىٰ خلق شيء من ذلك.

ما يستفاد من الأحاديث:

١ – تحريم التصوير وأنه من الكبائر.

٢ – الوعيد الشديد للمصورين وأنهم أشد الناس عذابًا.

٣ – أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها المصور في جهنم ويكلف أن ينفخ فيها الروح.

قوله: «عن ابن الهياج الأسدي قال: قال لي علي رضي الله عنه: ألا أبعثك...».

س: بين معاني الكلمات الآتية: أبعثك، لا تدع، طمستها، مشرفًا، سويته. ما الذي يدل عليه هذا الحديث ولماذا أمر الرسول ﷺ بطمس الصور وتسوية القبور؟

جـ: أبعثك: أرسلك وآمرك، لا تدع: لا تترك، طمستها: أزلتها ومحوتها، مشرفًا: مرتفعًا عاليًا، سويته: هدمته وألحقته بالأرض. ويدل الحديث على:

١ - تحريم اتخاذ الصور ونصبها في المجالس وتعليقها في البيوت وغيرها.

٢ - وجوب إتلاف الصور ومحوها وإزالتها لمن يقدر على ذلك.

٣ - وجوب تسوية القبور المشرفة العالية وهدم القباب المبنية عليها.

وأمر بطمس الصور لما فيها من المضاهاة بخلق الله، وأمربتسوية القبور لما في تعليتها من الفتنة بأربابها وهو من وسائل الشرك.

س: ما حكم المصور في نفسه؟

جـ: إن قصد بتصويره المضاهاة بخلق الله أو عمل الصور؛ لتعبد من دون الله كصانع الأصنام و نحوها فهو كافر وعمله هذا مناف للتوحيد. فأما من لم يقصد بها العبادة ولا المضاهاة فهو فاسق صاحب ذنب كبير متعرض للوعيد الشديد والعقوبة البالغة.

س: ما المقصود بالصور المحرمة؟

جـ: هي صور الحيوانات ذوات الأرواح فأما الشجر ونحوه مما لا روح فيه فلا يحرم.

س: ما هي العلة التي لأجلها حرم التصوير وكيف عظمت عقوبة المصور؟

جـ: هي المشابهة بخلق الله وترك الأدب مع الله؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر فهو رب كل شئ ومليكه وخالقه وهو الذي يصور جميع المخلوقات ويجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة. فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مشابهًا لخلق الله فصار ما صوره عذابًا له يوم القيامة وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ. فكان أشد الناس عذابًا؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فتصوير الصور الحيوانية تشبه بخلق الله وكذب وافتراء علىٰ الله وتمويه وتزوير فلذلك زجر الشرع عنه.

خلاصة: ينقسم التصوير إلىٰ عدة أقسام:

١ - جائز كالشجر وما لا روح فيه.

٢ - الصور المجسمة والتماثيل محرم بالإجماع.

٣ - ما لا ظل له وليس بجسم محرم عند جمهور العلماء لعموم الأدلة.

٤ - يرىٰ البعض التسامح فيما عمت به البلوىٰ من إثبات الشخصيات كصور حفائظ النفوس وحفظ الأمن والحقوق وذلك بمقدار ما يفي بالغرض للضرورة. اهـ من (مقرر التوحيد للصف الثالث المتوسط ص ٦٩).



الدرس الثاني والستون:

باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»(٧٢٧). أخرجاه.

وعن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»(٧٢٨). رواه الطبراني بسند صحيح.

وفي «الصحيح» عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا؟، ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»(٧٢٩).

وفيه عن ابن مسعود، أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»(٧٣٠).

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار(٧٣١).

---

(٧٢٧) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: السهولة والسماحة في الشراء والبيع...، برقم (٢٠٨٧)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: النهي عن الحلق في البيع، برقم (١٦٠٦) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧٢٨) أخرجه الطبراني (٦/ ٢٤٦)، وفي «الأوسط»، برقم (٥٥٧٧)، وفي «الصغير»، برقم (٨٢١) من حديث سلمان رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٣٠٧٢).

(٧٢٩) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، برقم (٣٦٥٠)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: فضل الصحابة رضي الله عنهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، برقم (٢١٤/ ٢٥٣٥) وغيرهما من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٧٣٠) أخرجه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور، برقم (٢٦٥٢)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: فضل الصحابة رضي الله عنهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، برقم (٢٥٣٣) وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٧٣١) سبق فيما قبله.

فيه مسائل:

الأولىٰ: الوصية بحفظ الأيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه علىٰ أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ علىٰ القرون الثلاثة أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدهم.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار علىٰ الشهادة والعهد.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في كثرة الحلف»:

أي: من النهي عنه والوعيد لفاعليه: لما يترتب عليه من منافاة كمال التوحيد الواجب، والحلف بفتح المهملة وكسر اللام اليمين.

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾»

قال ابن عباس: يريد لا تحلفوا. وقال ابن جرير(٧٣٢): لا تتركوها بغير تكفير. وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا. وأراد المصنف من الآية ما قاله ابن عباس، وكلها متلازمة؛ فإنه يلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث، مع ما يدل عليه من الاستخفاف بالله، وعدم التعظيم له وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب.

❁ **قوله**: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»:

منفقة بفتح الميم والفاء مفعلة من النفاق بفتح النون، وهو الرواج ضد الكساد، والسلعة بكسر السين المتاع؛ أي: الحلف نفاق ورواج للسلع، وممحقة بفتح الميم والحاء، والمحق هو

---

(٧٣٢) نسبه ابن كثير لابن جرير، انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٢).

النقص والمحو، ومحق الله الشيء أذهب بركته، والمعنىٰ أنه إذا حلف علىٰ سلعة أنه أعطي فيها كذا وكذا، أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشتري صادقًا فيما حلف عليه، فيأخذها بزيادة علىٰ قيمتها، والبائع كاذب في ذلك، وإنما حلف طمعا في الزيادة، فيكون قد عصىٰ الله، فيعاقب بمحق البركة، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة بالكلية، فإن ما عند الله إنما ينال بطاعته، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي، فعاقبتها الاضمحلال والذهاب والعقاب الوبيل.

قوله: «**وعن سلمان** ﷺ»: هو أبو عبد الله الفارسي ابن الإسلام، ويقال له: سلمان الخير، أصله من أصبهان، وفي «الصحيح» عنه أنه من رام هرمز(٧٣٣)، وأنه تداوله بضعة عشر من رب إلىٰ رب(٧٣٤). وقال ابن منده: اسمه مايه بن لوذخشان بن مورسلا بن بهوذان من ولدان الملك، وكان أدرك وصي عيسىٰ، أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة، أول ما شهد الخندق، روىٰ عنه أنس وابن عباس وغيرهما، قال النبي ﷺ: «**سلمان منا أهل البيت**»(٧٣٥). قال الحسن: كان أميرًا علىٰ ثلاثين ألفًا، توفي سنة ٣٦ هـ، قيل: وله ٣٥٠ سنة.

قوله: «**ثلاثة لا يكلمهم الله**»: نفي كلام الله لهؤلاء العصاة وعيد شديد في حقهم، ودليل علىٰ أن الله يكلم من أطاعه، كما تواترت به النصوص من الكتاب والسنة، وأن الكلام صفة من صفات كماله، وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

قوله: «**ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**»: وهذا من تمام العقوبة لهم، والزكاة في الأصل الطهارة والنماء والبركة والمدح والزيادة؛ أي: لا يثني عليهم، ولا يطهرهم من دنس الذنوب. «ولهم عذاب أليم» موجع؛ فهؤلاء لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، وهذا زجر عظيم لمن له عقل عن تعاطي هذه الأعمال السيئة.

قوله: «**أشيمط زانٍ**»: صغره تحقيرا له؛ وذلك لأن داعي المعصية والفجور ضعيف في حقه، فدل علىٰ أن الحامل له علىٰ الزنا محبة المعصية والفجور، وعدم الخوف من الله وخشيته، وضعف

---

(٧٣٣) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل الصحابة ﷺ، باب: إسلام سلمان الفارسي ﷺ، برقم (٣٩٤٧)، عن سلمان الفارسي ﷺ، قال: «أنا من رام هرمز».

(٧٣٤) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل الصحابة ﷺ، باب: إسلام سلمان الفارسي ﷺ، برقم (٣٩٤٦)، عن سلمان ﷺ.

(٧٣٥) أخرجه الحاكم، برقم(٦٥٤١)، والطبراني (٦/ ٢١٢) من حديث عمرو بن عوف ﷺ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٣٢٧٢) وقال: «ضعيف جدًّا».

الداعي إلىٰ المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه، بخلاف الشاب فإن قوة داعي الشهوة منه قد يغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع إلىٰ نفسه بالندم ولومها علىٰ المعصية فينتهي ويراجع.

قوله: «**وعائل مستكبر**»؛ أي: فقير ليس له ما يدعوه إلىٰ الكبر؛ لأن الداعي إلىٰ الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة، والعائل الفقير لا داعي له إلىٰ أن يستكبر؛ فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل علىٰ أن الكبر طبيعة له، كامن في قلبه، فعظمت عقوبته، لعدم الداعي إلىٰ هذا الخلق الذميم الذي هو من أكبر المعاصي.

قوله: «**ورجل جعل الله بضاعته**»: بنصب الاسم الشريف؛ أي: جعل الحلف بالله بضاعته، وله من حديث عصمة بن مالك: «**اتخذ الأيمان بضاعة، يحلف في كل حق وباطل**»(٧٣٦). وسماه بضاعة له لملازمته له، وغلبته عليه، وهذا الشاهد من الحديث للترجمة، وكل هذه الأعمال تدل علىٰ أن صاحبها إن كان موحدًا فتوحيده ضعيف، وأعماله ضعيفة بحسب ما قام بقلبه، وظهر علىٰ لسانه وعمله، من تلك المعاصي العظيمة مع قلة الداعي إليها.

قوله: «**رواه الطبراني بسند صحيح**»: وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي ذر: «**ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**»(٧٣٧). وذكر منهم المنفق سلعته بالحلف الكاذب. وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة: «**رجل حلف علىٰ سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجل حلف علىٰ يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم**»(٧٣٨). وفي رواية: «**ورجل بايع رجلا سلعة بعد العصر، فحلف بالله لأخذها بكذا وكذا، فصدقه وهو علىٰ غير ذلك**»(٧٣٩). ففي هذه الأحاديث شدة الوعيد علىٰ كثرة الحلف، المنافي لكمال التوحيد.

---

(٧٣٦) سبق تخريجه.

(٧٣٧) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية، برقم (١٠٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٧٣٨) أخرجه البخاري، كتاب: المساقاة، باب: من رأي أن صاحب الحوض ...، برقم (٢٣٦٩)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية، برقم (١٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧٣٩) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية، برقم (١٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث في «صحيح البخاري»، بدون اللفظ المذكور.

قوله: «خير أمتي قرني»: الخبر في «الصحيحين»، وأكثر روايات البخاري: «خيركم قرني»[٧٤٠] علىٰ تقدير حذف المضاف؛ أي: أهل قرني، وجاء في رواية: «أهل قرني»[٧٤١] واختلف في القرن، فقيل: من أربعين إلىٰ مائة، وهو المعتبر، فخير الأمة قرنه لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والإيمان والأعمال الصالحة؛ لغلبة الخير فيه، وكثرة أهله، وقلة الشر وأهله، واعتزاز الإسلام، وكثرة العلم والعلماء، واشتداد الإنكار علىٰ من ابتدع، كالخوارج والقدرية ونحوهم.

قوله: «ثم الذين يلونهم»؛ أي: فضل الذين يلونهم علىٰ من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه والراغب فيه، والقائم به، والقرب من نور النبوة، وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزيل كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة، وتلك وإن ظهرت فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان والقتل، فيمن عاند منهم ولم يتب، وأما القرن الثالث فهو دون الأولين؛ لكثرة ظهور البدع فيه، لكن العلماء فيه متوافرون، وقد تصدىٰ كثير منهم لإنكارها، والإسلام إذ ذاك ظاهر والجهاد قائم.

قوله: «قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا»: هذا الشك من راوي الحديث عمران بن حصين رضي الله عنه، والمشهور من الروايات أن القرون المفضلة ثلاثة.

قوله: «ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون»: «قوم» بالرفع هكذا في بعض روايات البخاري وغيره، وهي مخالفة لقواعد الإعراب، والرواية المشهورة التي شرح عليها الشراح «قومًا» بالنصب، وجوَّز العيني رفعه بفعل محذوف تقديره يجيء قوم. وفي بعض الروايات «يجيء قوم»[٧٤٢]. وفي بعضها: «يكون قوم»[٧٤٣] لكن بدون ذكر إن بعدكم، «ويشهدون»؛ أي: الزور «ولا يستشهدون»؛ أي: لا تطلب منهم الشهادة لفسقهم أو لاستخفافهم بأمرها وعدم تحريهم الصدق، لقلة دينهم وضعف إيمانهم، والذم لمن شهد بالباطل؛ لما في بعض الألفاظ «ثم يفشو فيهم الكذب، حتىٰ يشهد الرجل ولا يستشهد»[٧٤٤]. ولقرنه

---

(٧٤٠) أخرجه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد علىٰ شهادة جور إذا أشهد، برقم (٢٦٥١)، وكتاب: الرقاق، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، برقم (٦٤٢٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٧٤١) لم أقف علي هذه الرواية في كتب الحديث، وإنما وقفت عليها في «فتح الباري» (٧/ ٥)، و«عمدة القاري» (١٦/ ١٧٠)، و«تحفة الأحوذي» (٦/ ٣٨٩) جميعًا عند شرحهم حديث «خير الناس قرني».

(٧٤٢) تقدم تخريجه.

(٧٤٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٥٧) من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه.

(٧٤٤) أخرجه الترمذي، كتاب: الشهادات، باب: باب منه، برقم (٢٣٠٣) من حديث عمر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٦/ ٢١٥).

بالخيانة، ولا منافاة بينه وبين حديث: «خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها»[٧٤٥]؛ لأن هذا في حقوق الله التي لا طالب لها، وفي حقوق الآدميين التي لو لم يأت بها الشاهد لضاع حق من هي له، لعدم علمه بها، وقيل: أي: يتحملون الشهادة من غير تحميل.

قوله: «**ويخونون ولا يؤتمنون**»؛ أي: يخونون من ائتمنهم، ولا يؤتمنون لخيانتهم الظاهرة، وفيه دلالة علىٰ أن الخيانة قد غلبت علىٰ كثير منهم أو أكثرهم.

قوله: «**وينذرون ولا يوفون**»؛ أي: لا يوفون ما وجب عليهم بالنذر، وهذا لا ينافي حديث النهي عن النذر، وأنه لا يأتي بخير، وإنما هو تأكيد لأمره، وتحذير من التهاون به بعد إيجابه، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل علىٰ ضعف إسلامهم، وقلة إيمانهم.

قوله: «**ويظهر فيهم السمن**»؛ يعني: المفرط للتوسع في المآكل والمشارب، والرغبة في الدنيا ونيل شهواتها، والتنعم بها، والغفلة عن الدار الآخرة والعمل لها، وليس المراد مطلق السمن؛ فإنه لا يخلو منه زمان، ولا عيب فيه. وفي حديث أنس: «**لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه، حتىٰ تلقوا ربكم**». سمعته من رسول الله ﷺ[٧٤٦] فما زال الشر يزيد في الأمة حتىٰ كثرت البدع، وفُشي الشرك، وعُمرت المساجد علىٰ القبور، وشُيِّدت عليها القباب، وعبدت من دون الله، وعادت الجاهلية الأولىٰ، بل صار كثير ممن ينتسب إلىٰ العلم يدعون إلىٰ البدع والشرك، ويبدع من ينكر ذلك ويكفر، ولكن لا تزال بحمد الله طائفة علىٰ الحق منصورة، تقوم بها الحجة علىٰ خلقه إلىٰ قيام الساعة.

قوله: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»: صرح في هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة من غير شك.

قوله: «قوله: «**ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**»: فيه الإشارة إلىٰ التسارع في الشهادة واليمين؛ لضعف الإيمان، والرغبة في الدنيا، وكثرة المعاصي والذنوب، فيخف أمر اليمين والشهادة عنده تحملًا وأداءً؛ لقلة خوفه من الله، وعدم مبالاته بذلك، وهذا من أعلام النبوة فإنه قد وجد ذلك.

---

(٧٤٥) أخرجه مسلم، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، برقم (١٧١٩)، وأبو داود، كتاب، الأقضية، باب: في الشهادات، برقم (٣٥٩٦) وغيرهما، من حديث زيد بن خالد ﷺ.

(٧٤٦) أخرجه البخاري، كتاب: الفتن، باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، برقم (٧٠٦٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

قوله: «**قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار**»: إبراهيم هو النخعي، ولعل مراده أصحاب عبد الله بن مسعود، كما هي عادته في النقل عنهم، وهكذا حال السلف الصالح، محافظة منهم على الدين الذي أكرمهم الله به، فلا يتركون شيئًا مما يكره إلا أنكروه، وفيه تمرين الصغار على طاعة ربهم، ونهيهم عما يضرهم، وفعلهم ذلك إنما هو لئلا يعتادوا إلزام أنفسهم بالعهود وهي الأيمان؛ لما يلزم الحالف من الوفاء، وربما أثم وكذا الشهادة، فإنه إذا اعتادها حال صغره سهلت عليه، فربما أداه ذلك إلى التساهل حال كبره، فإن من شب على شيء شاب عليه.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في كثرة الحلف»:

أصل اليمين إنما شرعت تأكيدًا للأمر المحلوف عليه وتعظيمًا للخالق؛ ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله وكان الحلف بغيره من الشرك، ومن تمام هذا التعظيم أن لا يحلف بالله إلا صادقا، ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثرة الحلف؛ فالكذب وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في كثرة الحلف»:

أراد المؤلف بهذا الباب بيان أن كثرة الحلف نقص في الإيمان ونقص في التوحيد؛ لأن كثرة الحلف تفضي إلى أشياء:

١ - التساهل في ذلك وعدم المبالاة.

٢ - الكذب.

٣ - ظن الكذب به.

فإن من كثرت أيمانه وقع في الكذب؛ فينبغي التقلل من ذلك وعدم الإكثار من الأيمان؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ فهذا الأمر للوجوب؛ فيجب حفظ اليمين إلا من حاجة لها، فالمؤمن يحفظها ويصونها إلا من حاجة ولمصلحة شرعية أو عند الخصومة والحاجة إليها ونحو ذلك، ولا يكثر منها لما سبق ولأنه يظن به الكذب.

قوله: حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب**»[٧٤٧] وفي لفظ «**للربح**»[٧٤٨] وهو يدل على أن كثرة الحلف من أسباب الوقوع في الخطأ؛ فهو يعتني باليمين يريد

---

(٧٤٧) تقدم تخريجه.

(٧٤٨) أخرجه مسلم، كتاب: المساقاة، باب: النهي عن الحلف في البيع، برقم (١٦٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أن ينفق السلعة، ولكنه يقع في الخطر وهو محق الكسب وقلة البركة، فهي مروجة للسلعة لأنه يحلف ويقول: والله إنها طيبة أنها كذا وكذا؛ فيغري الناس الذين يشترون منه فربما صدقوه، ولكنها ممحقة للربح الذي يتعاطاه بسبب تساهله في هذه الأيمان.

وفي حديث أبي ذر عند مسلم مرفوعًا: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل إزاره والمنان بما أعطىٰ والمنفق سلعته بالحلف الكاذبة**»(٧٤٩) فتنفيق السلعة قد تكون بالكذب أو بالصدق ولكن الإكثار منها توقع في الكذب، وربما جره الطمع إلىٰ أن يكذب فالواجب أن يحذر.

ثم هذه الأيمان من أسباب محق البركة والوقوع في الحرام.

قوله: حديث سلمان مرفوعًا: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم...**».

أشيمط زان؛ أي: شيخ أشمطه الشيب، والشمط: الشيب.

عائل مستكبر؛ أي: فقير مستكبر مع فقره يتكبر، والغنىٰ قد يتكبر من أجل المال، ولكن الفقير لا يدعوه إلىٰ التكبر إلا أن هذه سجية له وشيء استقر في قلبه.

«**ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه**»: ففي هذا حذر من هذه الخصال ومنها: زانىٰ الشيخ الكبير، فإن هذا عظيم؛ لأن الشاب قد يتوب ويقلع، أما الشيخ فلا يحمله علىٰ هذا إلا أنه شيء استقر وبقي في قلبه.

قال العلماء: وهذا يدل علىٰ أن الذنب يعظم مع قلة الداعي وضعفه.

قوله: وعن عمران مرفوعًا: «**خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»، قال عمران: فلا أدري.. أقال بعد قرنه مرتين أو ثلاثة..

لكن المحفوظ من حديث عمر رضي الله عنه في «المسند» أنه مرتين، ومن حديث ابن مسعود كذلك كما هو هنا.

ثم بعد ذلك قوم يشهدون ولا يستشهدون؛ أي: أن الأحوال تتغير بعد القرون المفضلة الثلاثة حتىٰ توجد الخيانة وعدم الوفاء بالنذر وشهادة الزور ويكثر هذا لضعف الإيمان وغلبة الجهل وكثرة الأغلاط.

---

(٧٤٩) تقدم تخريجه.

والوفاء بالنذر واجب وهو من صفات المؤمنين، والنذر لا ينبغي كما في الحديث: «**أنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج من البخيل**»[٧٥٠]، ولكن إذا نذر فعليه الوفاء، وهذا من نذر الطاعة أما نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به والصواب أن عليه كفارة يمين.

«**يظهر فيهم السمن**»؛ أي: سمن الأجسام لكثرة الغفلة والإغراق في النعيم والشهوات، ولكن يلزم أن يكون كل سمين متوعدًا وسيئًا بل قد يكون منهم الصالحون وهذا إشارة إلىٰ الغفلة والإعراض عن الاستعداد للآخرة.

«**خير الناس قرني**»: هذا يعم الناس كلهم في هذا القرن وهم الصحابة وهم خير الناس بعد الأنبياء ثم التابعين ثم تابعي التابعين.

ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادة: وهذا من قلة المبالاة والاستهتار لضعف الإيمان وقلته.

أما المؤمن فلا يشهد إلا عن صدق ولا يحلف إلا عن حاجة.

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا علىٰ الشهادة ونحن صغار؛ أي: كان السلف يؤدبون أبناءهم إذا شهدوا وحلفوا حتىٰ لا يعتاد هذا، إذا كذب فيشهد علىٰ كذبه بالأيمان الفاجرة والعهود الظالمة؛ أي: يؤدبونهم ويوجهونهم حتىٰ لا يعتادوه؛ لأن الصبي إذا اعتاده فقد يتساهل فيه في كبره، وهذا من عناية السلف بتربية أبنائهم علىٰ الأخلاق الفاضلة والتربية الصحيحة، وهذا هو الواجب علىٰ كل مسلم.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «باب ما جاء في كثرة الحلف»:

الحلف: هو اليمين والقسم، وهو تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم، وهي: الباء، والواو، والتاء.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن كثرة الحلف بالله يدل علىٰ أنه ليس في قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف بالله، وتعظيم الله تعالىٰ من تمام التوحيد.

---

(٧٥٠) أخرجه البخاري، كتاب: القدر، باب: إلقاء العبد النذر إلىٰ القدر، برقم (٦٦٠٨)، ومسلم، كتاب: النذر، باب: النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا، برقم (١٦٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

❁ قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾:

هذه الآية ذكرها الله في سياق كفارة اليمين، وكل يمين لها ابتداء وانتهاء ووسط؛ فالابتداء الحلف، والانتهاء الكفارة، والوسط الحنث، وهو أن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله، وعلى هذا كل يمين على شيء ماض فلا حنث فيه، وما لا حنث فيه فلا كفارة فيه، لكن إن كان صادقًا، فقد بر، وإلا فهو آثم؛ لأن الكفارة لا تكون إلا على شيء مستقبل.

وهل يجوز أن يحلف على ما في ظنه؟

الجواب: نعم، ولذلك أدلة كثيرة، منها قول المجامع في نهار رمضان لرسول الله ﷺ: والله، ما بين لا بتيها أهل بيت أفقر مني(٧٥١). لكن إن حلفت على مستقبل بناء على غلبة الظن ولم يحصل؛ فقيل: تلزمك كفارة، وقيل: لا تلزمك، وهو الصحيح، كما لو حلفت على ماض.

مثاله: فلو قلت: والله؛ ليقدمن زيد غدًا. بناء على ظنك، فلم يقدم؛ فالصحيح أنه لا كفارة عليك؛ لأنك حلفت على ما في قلبك وهو حاصل، كأنك تقول: والله؛ إن هذا هو ظني، لكن هل يجوز لك أن تحلف على ما في ظنك؟ سبق ذلك قريبًا.

إذًا؛ قوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بعد أن ذكر اليمين والكفارة والحنث؛ فما المراد بحفظ اليمين: هل هو الابتداء أو الانتهاء أو الوسط؟ أي: هل المراد: لا تكثروا الحلف بالله؟ أو المراد: إذا حلفتم فلا تحنثوا؟ أو المراد: إذا حلفتم فحنثتم فلا تتركوا الكفارة.

الجواب: المراد كلها؛ فتشمل أحوال اليمين الثلاثة؛ ولهذا جاء المؤلف بها في هذا الباب؛ لأن من معنى حفظ اليمين عدم كثرة الحلف، وإليك قاعدة مهمة في هذا، وهي أن النص من قرآن أو سنة إذا كان يحتمل عدة معاني لا ينافي بعضها بعضًا ولا مرجح لأحدها؛ وجب حمله على المعاني كلها.

والمراد بعدم كثرة الحلف: ما كان معقودًا ومقصودًا، أما ما يجري على اللسان بلا قصد، مثل: لا والله، وبلى والله، في عرض الحديث، فلا مؤاخذة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾[المائدة:٨٩].

---

(٧٥١) أخرجه البخاري، كتاب: الصوم، باب: إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء، برقم (١٩٣٥)، ومسلم، كتاب: الصيام، باب: تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان، برقم (١١١١) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا.

وكذلك من حِفظ اليمين عدم الحنث فيها، وهذا فيه تفصيل؛ لأن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «**إذا حلفت علىٰ يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها، فكفر عن يمينك، وائت الذي هو خير**»[٧٥٢]، فحفظ اليمين في الحنث أن لا يحنث إلا إذا كان خيرًا، وإلا، فالأحسن حفظ اليمين وعدم الحنث.

مثال ذلك: رجل قال: والله، لا أكلم فلانًا. وهو من المؤمنين الذين يحرم هجرهم؛ فهذا يجب أن يحنث في يمينه ويكلمه وعليه الكفارة.

مثال آخر: رجل قال: والله، لأعينن فلانًا علىٰ شيء محرم. فهذا يجب الحنث فيه والكفارة ولا يعينه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[المائدة:٢]. وإذا كان الأمر متساويًا والحنث وعدمه سواء في الإثم، فالأفضل حفظ اليمين.

كذلك من حفظ اليمين إخراج الكفارة بعد الحنث، والكفارة واجبة فورًا، لأن الأصل في الواجبات هو الفورية، وهو قيام بما تقتضيه اليمين.

والكفارة: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وهذا علىٰ سبيل التخيير، فمن لم يجد، فصيام ثلاثة أيام، وفي قراءة ابن مسعود متتابعة.

فحفظ اليمين له ثلاثة معانٍ:

١- حفظها ابتداء، وذلك بعدم كثرة الحلف، وليعلم أن كثرة الحلف، تضعف الثقة بالشخص وتوجب الشك في أخباره.

٢- حفظها وسطًا، وذلك بعدم الحنث فيها، إلا ما استثني كما سبق.

٣- حفظها انتهاء في إخراج الكفارة بعد الحنث.

ويمكن أن يضاف إلىٰ ذلك معنىٰ رابع، وهو أن لا يحلف بغير الله؛ لأن الرسول ﷺ سمَّىٰ القسم بغير الله حلفًا.

❁ **قوله: «الحلف»:**

المراد به الحلف الكاذب؛ كما بينته رواية أحمد: «**اليمين الكاذبة**»[٧٥٣]، أما الصادقة، فليس فيها عقوبة، لكن لا يكثر منها كما سبق.

---

(٧٥٢) أخرجه البخاري، كتاب: كفارات الأيمان، باب: الكفارة قبل الحنث وبعده، برقم (٦٧٢١)، ومسلم، كتاب: الأيمان، باب: ندب من حلف يمينًا فرأىٰ غيرها خيرًا منها، برقم (١٦٥٢) من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٧٥٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٥، ٢٤٢، ٤١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «منفقة للسلعة»؛ أي: ترويج للسلعة، مأخوذ من النفاق وهو مضي الشيء ونفاذه، والحلف على السلعة قد يكون حلفًا على ذاتها أو نوعها أو وصفها أو قيمتها.

الذات: كأن يحلف أنها من المصنع الفلاني المشهور بالجودة وليست منه.

النوع: كأن يحلف أنها من الحديد، وهي من الخشب.

الصفة: كأن يحلف أنها طيبة، وهي رديئة.

القيمة: كأن يحلف أن قيمتها بعشرة، وهي بثمانية.

قوله: «**ممحقة للكسب**»؛ أي: متلفة له، والإتلاف يشمل الإتلاف الحسي بأن يسلط الله على ماله شيئًا يتلفه من حريق أو نهب أو مرض يلحق صاحب المال فيتلفه في العلاج، والإتلاف المعنوي بأن ينزع الله البركة من ماله فلا ينتفع به لا دينًا ولا دنيا، وكم من إنسان عنده مال قليل، لكن نفعه الله به ونفع غيره ومَن وراءه، وكم من إنسان عنده أموال لكن لم ينتفع بها صار -والعياذ بالله- بخيلًا يعيش عيشة الفقراء وهو غني؛ لأن البركة قد محقت.

قوله: «**ثلاثة**»:

مبتدأ، وسوغ الابتداء بها أنها أفادت التقسيم.

قوله: «**لا يكلمهم الله**»: التكليم: هو إسماع القول، وأما ما يقدره الإنسان في نفسه؛ فلا يسمَّىٰ كلامًا علىٰ سبيل الإطلاق، وإن كان يسمَّىٰ قولًا بالتقييد بالنفس؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨] وقال عمر رضي الله عنه في قصة السقيفة: «**زورت في نفسي كلامًا**»(٧٥٤)؛ أي: قدرته. فالكلام عند الإطلاق لا يكون إلا بحرف وصوت مسموع. واختلف الناس في كلام الله إلىٰ ثمانية أقوال كما ذكره ابن القيم في «الصواعق المرسلة».

لكن إذا رجعنا إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأخذنا منهما عقيدتنا صافية، وقطعنا النظر عن هذه المجادلات؛ لأنه ما أوتي الجدل قوم إلا ضلوا؛ علمنا أن كلام الله حقيقي يسمع، ولكن الصوت ليس كأصوات المخلوقين، أما ما يسمع من كلام الله؛ فلا شك أنه بحروف يفهمها المخاطب؛ إذ لو كان يتكلم بحروف لا تشبه الحروف التي يتكلم بها المخاطب لم يفهم كلامه أبدًا، فالحروف التي تسمع هي حروف اللغة التي يخاطب الله بها من يخاطبه، والله عز وجل يخاطب كل أحد بلغته.

---

(٧٥٤) أخرجه البخاري، كتاب: المحاربين من أهل الكفرة والردة، باب: رجم الحبلىٰ من الزنىٰ إذا أحصنت، برقم (٦٨٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ونفي الكلام هنا دليل على إثبات أصله؛ لأنه لما نفاه عن قوم دل على ثبوته لغيرهم. وبهذه الطريقة استدل بعض أهل العلم على إثبات رؤية الله يوم القيامة للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين:١٥]، فما حجب الفجار عن رؤيته إلا ورآه الأبرار؛ إذ لو امتنعت الرؤية مطلقًا لكان الفجار والأبرار سواء فيها، كذلك هنا لو انتفى كلام الله ﷻ عن كل أحد، فلا وجه للتخصيص بنفي الكلام عن هؤلاء.

ولا يلزم من كلامه - سبحانه - أن يكون له آلة كالآدمي، كاللسان، والأسنان، والحلق، وما أشبه ذلك، كما لا يلزم من سماع الله أن يكون له أُذن، فالأرض مثلًا تسمع وتحدث وليس لها لسان ولا آذان، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[الزلزلة:٤، ٥] وكذا الجلد ينطق يوم القيامة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[فصلت:٢٠]، وكذا الأيدي والأرجل، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[النور:٢٤]؛ فالأيدي والأرجل والألسن والجلود والسمع والأبصار ليس لها لسان ولا شفتان، هذا هو المعلوم لنا.

فإن قيل: إن الله يكلم من هو أعظم منهم جرمًا وهم أهل النار؟

فالجواب: أن المراد بنفي الكلام هنا كلام الرضا، أما كلام الغضب والتوبيخ؛ فإن هذا الحديث لا يدل على نفيه.

وقوله: «**ولا يزكيهم**»: التزكية: بمعنى: التوثيق والتعديل؛ فيوم القيامة لا يوثقهم، ولا يعدلهم، ولا يشهد عليهم بالإيمان؛ لما فعلوه من هذه الأفعال الخبيثة.

وقوله: «**ولهم عذاب أليم**»: «**عذاب**»: عقوبة، و«**أليم**»؛ أي: شديد موجع مؤلم.

وقوله: «**أشيمط**»: هو الذي اختلط سواد شعره ببياضه لكبر سنه، وكبير السن قد بردت شهوته، وليس فيه ما يدعوه إلى الزنى، ولكنه زنا مما دل على خبث في إرادته؛ ولأنه عادة قد بلغ أشده واستوى وعرف الحكمة، وملكه عقله أكثر من هواه؛ فالزنى منه غريب؛ إذ ليس عن شهوة ملحة، ولكن عن سوء نية وقصد وضعف إيمان بالله، فصار السبب المقتضي لزناه ضعيفًا، والحكمة التي نالها ببلوغ الأشد كبيرة، وكأن تقادم سنه يستلزم أن يغلب جانب العقل، ولكنه خالف مقتضى ذلك؛ ولهذا صغره تحقيرًا لشأنه، فقال «**أشيمط**» تصغير أشمط.

قوله: «**زانٍ**». صفة لأشيمط، وهو مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة، والحركة التي على النون ليست حركة إعراب.

والزنىٰ: فعل الفاحشة في قبل أو دبر، وقد نهىٰ الله عنه وبيَّن أنه فاحشة؛ فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء:٣٢].

قوله: «عائل مستكبر»؛ أي: فقير، قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[الضحى:٨]، فالمقابلة هنا في قوله: ﴿فَأَغْنَىٰ ﴾ بينت أن عائلًا: فقيرًا.

والاستكبار: الترفع والتعاظم، وهو نوعان:

- استكبار عن الحق بأن يرده أو يترفع عن القيام به.

- واستكبار علىٰ الخلق باحتقارهم واستذلالهم، كما قال النبي ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(٧٥٥).

فالفقير داعي الاستكبار عنده ضعيف، فيكون استكباره دليلًا علىٰ ضعف إيمانه وخبث طويته؛ ولذلك كانت عقوبته أشد.

قوله: «ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»(٧٥٦)؛ أي: جعل الحلف بالله بضاعة له، وإنما ساغ التأويل هنا؛ لأن النبي ﷺ هو الذي فسره بذلك، حيث قال: «**لا يشتري إلا بيمينه...** »، وإذا كان المتكلم هو الذي أخرج كلامه عن ظاهره، فهو أعلم بمراده، وهذا كما في الحديث القدسي: «**عبدي! استطعمتك فلم تطعمني، استسقيتك فلم تسقني**»، فبينه الله ﷻ بقوله: «**عبدي فلان جاع فلم تطعمه، استسقاك فلم تسقه**»(٧٥٧).

فقوله: «لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»: استئنافية تفسيرية؛ لقوله: «**جعل الله بضاعته**»؛ ومعناها: أنه كلما اشترىٰ حلف، وكلما باع حلف طلبًا للكسب، واستحق هذه العقوبة؛ لأنه إن كان صادقًا، فكثرة أيمانه تشعر باستخفافه واستهانته باليمين ومخالفته قوله تعالىٰ: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾. وإن كان كاذبًا جمع بين أربعة أمور محذورة:

١- استهانته باليمين ومخالفته أمر الله بحفظ اليمين.

٢- كذبه.

---

(٧٥٥) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، برقم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٧٥٦) تقدم تخريجه.

(٧٥٧) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض؛ برقم (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- أكله المال الباطل.

٤- أن يمين غموس، وقد ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال: «**من حلف علىٰ يمين هو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان**»[(٧٥٨)].

وكل ما في هذا الحديث يجب الحذر منه والبعد عنه؛ لأن هذا ما يريده النبي ﷺ من الإخبار به، وإلا؛ فما الفائدة من سماعنا له إذا لم تظهر مقتضيات النصوص علىٰ معتقداتنا وأقوالنا وأفعالنا؟ فنحن والجاهل سواء؛ بل نحن أعظم؛ ولذلك لا ينبغي أن تمر علينا بلا فائدة فنعرف معناها فقط، بل يجب أن نعرف معناها ونعمل بمقتضاها، ثم يجب علينا أيضًا بوصفنا ممن آتاهم الله العلم أن نحذر الناس منها لنكون وارثين للرسول ﷺ؛ فالنبي ﷺ كان عالمًا عاملًا داعيًا، أما طالب العلم؛ فإنه ليس وارثًا للرسول عليه الصلاة والسلام حتىٰ يقوم بما قام به من العمل والدعوة، فعلينا أن نحذر إخواننا المسلمين من هذا العمل الكثير بين الناس، وهو جعل الله بضاعة لهم؛ لا يبيعون إلا بأيمانهم، ولا يشترون إلا بأيمانهم.

مناسبة الحديث للباب:

أن من جعل الله بضاعته؛ فإن الغالب أنه يكثر الحلف بالله ﷻ.

❁ **قوله**: «وفي الصحيح»:

أي: «**الصحيحين**»، وانظر كلامنا: في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «**خير أمتي قرني**»: «**خير**» مبتدأ، و «**قرني**»: خبر. وفي لفظ لهما: «**خيركم قرني**»، وفي حديث ابن مسعود عند البخاري: «**خير الناس قرني**»[(٧٥٩)]، وهذا هو المرادُ؛ إذ المراد بالخيرية هنا الخيرية المضافة إلىٰ الناس عمومًا وليس للأمة فقط؛ ولهذا ثبت عنه ﷺ، أنه قال: «**بعثت من خير قرون بني آدم**»[(٧٦٠)] وعليه؛ فالخيرية في القرن الأول خيرية عامة علىٰ جميع الناس وليس علىٰ هذه الأمة فقط.

---

(٧٥٨) أخرجه البخاري، كتاب: الخصومات، باب: كلام الخصوم بعضهم في بعض، برقم (٢٤١٦، ٢٤١٧)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، برقم (١٣٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٧٥٩) تقدم تخريجه.

(٧٦٠) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، برقم (٣٥٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما قوله: «**خير أمتي**»: فإنه يقال: إن الخيرية إذا كانت مضافة إلىٰ عموم الناس دخل فيها هذه الأمة، لكن إذا خصصناها بهذه الأمة خرج بقية الناس، والأخذ بالعموم الداخل فيه الخاص أولىٰ، وقد يقال: إن معنىٰ اللفظين واحد؛ فإن هذه الأمة خير الأمم، فإذا كان الصحابة خير قرونها لزم أن يكونوا خير الناس.

والقرن مأخوذ من الاقتران، والمراد: الطائفة المقترنون بشيء من الأشياء؛ كالملة، أو السن، أو ما أشبه ذلك. فمن العلماء من عرفه: بالطائفة كما سبق، ومنهم من عرفه بالزمن وهؤلاء اختلفوا فيه علىٰ أقوال: فمنهم من حدَّة بأربعين، ومنهم من حدَّه بثمانين، ومنهم من حدَّه بمائة، ومنهم من حدَّه بمئة وعشرين سنة.

فعلىٰ الأول يكون معنىٰ: «**خير أمتي قرني**»: خير أمتي الصحابة، سواء بلغوا مئة سنة أم لا، والمعروف أن آخر من مات من الصحابة مات سنة مئة وعشرة أو مئة وعشرين، فإذا قلنا: مئة وعشرين، فهذه المدة زائدة علىٰ المئة، وإذا اعتبرناها من البعثة تكون مئة وثلاثًا وثلاثين سنة؛ لأن التقويم مبتدأ من الهجرة، والهجرة كانت بعد البعثة بثلاث عشرة سنة، وهذا القرن الأول، أما التابعون؛ فإن آخرهم مات سنة مائة وثمانين، فيكون بينهم وبين الصحابة ستون سنة، وأما تابعو التابعين؛ فإن آخرهم مات سنة مئتين وعشرين، وهذا منتهي القرن الثالث.

فقرن الصحابة إن ابتدأته من البعثة صار ثلاثًا وثلاثين ومئة سنة، وإن ابتدأته من الهجرة صار عشرين ومئة سنة. وقرن التابعين ستون سنة. وقرن تابعي التابعين أربعون سنة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن القرن معتبر بمعظم الناس، فإذا كان معظم الناس الصحابة؛ فالقرن قرنهم، وإذا كان معظم الناس التابعين؛ فالقرن قرنهم، وهكذا.

قوله: «**أمتي**»: المراد أمة الإجابة؛ لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم خير.

قوله: «**فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا**»: وإذا كان عمران لا يدري؛ فالأصل أنه ذكر مرتين، فتكون القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو المشهور.

قوله: «**ثم إن بعدكم قوم**»: وفي رواية البخاري: «**ثم إن بعدكم قومًا**» بنصب «**قومًا**»، وهذا لا إشكال فيه، لكن في هذه الرواية برفع «**قوم**» فيه إشكال؛ لأن «**قوم**» اسم إن، وقد اختلف العلماء في هذا:

فقيل علىٰ لغة ربيعة: الذين لا يقفون علىٰ المنصوب بالألف، فلم يثبت الكاتب الألف، فصارت «قوم». وهذا جواب ليس بسديد؛ لأن الرواية ليست مكتوبة فقط، بل تكتب وتقرأ باللفظ عند أخذ التلاميذ الرواية من المشايخ، ولأن هذا ليس محل وقف.

وقيل: إن «إن» اسمها ضمير الشأن محذوف، إلحاقًا لها بأن المخففة، لأن «إن» المخففة تعمل بضمير الشأن، قال الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن

فإن المشددة هنا حملت علىٰ إن المخففة، فاسمها ضمير الشأن محذوف، وعليه يكون «**بعدكم**»: خبر مقدم، و «**قوم**»: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر «إن».

وقيل: «إن» هنا بمعنىٰ نعم، فيكون المعنىٰ ثم نعم بعدكم قوم، وهذا فيه تكلف.

والظاهر: القول الثاني إن صحت الرواية.

قوله: «**يشهدون**»؛ أي: يخبرون عما علموه مما شاهدوه أو سمعوه أو لمسوه أو شموه؛ لأن الشهادة أخبار الإنسان بما يعلم، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[الزخرف:٨٦]، ولا يشترط أن تكون بلفظ أشهد علىٰ الصحيح، وقد قيل للإمام أحمد: إن فلانًا يقول: «إن العشرة في الجنة ولا أشهد». فقال: إن قاله فقد شهد.

قوله: «**ولا يستشهدون**»؛ اختلف العلماء في معني ذلك:

فقيل: «**لا يستشهدون**»؛ أي: لا يطلب منهم تحمل الشهادة، فيكون المراد الذين يشهدون بغير علم فهم شهداء زور.

وقيل: لا يطلب منهم أداء الشهادة؛ فيكون المراد أداء الشهادة قبل أن يُدعىٰ لأدائها، فيكون ذلك دليلًا علىٰ تسرعهم في أداء الشهادة وعدم اهتمامهم بها.

ولكن هذا القول يشكل عليه حديث زيد بن خالد الذي رواه مسلم أن النبيﷺ قال: «**ألا أخبركم بخير الشهداء: الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها**»[٧٦١]، فهذا ترغيب في أداء الشهادة قبل أن يسألها بدليل قوله: «**ألا أخبركم بخير الشهداء**»، وظاهره: أنه معارض لحديث عمران؛ فجمع بعض العلماء بينهما بأن المراد بحديث زيد من يشهد بحق لا يعلمه المشهود له.

---

(٧٦١) أخرجه مسلم، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، برقم (١٧١٩) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

وجمع بعض العلماء بأن المراد بحديث زيد: من يشهد بشيء من حقوق الله تعالىٰ؛ لأن حقوق الله تعالىٰ ليس لها مطالب، فيؤدي الشهادة من غير أن يسألها، فيكون المراد بهم رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوهم.

وجمع بعضهم: بأن المراد بحديث زيد بن خالد أنه كناية عن السرعة بأداء الشهادة، فكأنه لشدة إسراعه يؤديها قبل أن يسألها.

وبعض العلماء رجح حديث عمران؛ لأنه في «الصحيحين»(٧٦٢) علىٰ حديث زيد بن خالد؛ لأنه في «مسلم». ولكن إذا أمكن الجمع؛ فلا يجوز الترجيح لأن مقتضاه إلغاء أحد النصين، والجمع هنا ممكن كما تقدم.

قوله: «**يخونون ولا يؤمنون**»؛ هذا هو الوصف الثاني لهم؛ أي: أنهم أهل خيانة وليسوا أهل أمانة، فلا يأتمنهم الناس، وليس المعنىٰ أنه تقع منهم الخيانة بعد الائتمان حتىٰ يقال: لماذا لم يقل: يؤتمنون ويخونون؟ فكأن الخيانة طبيعة لهم؛ فلخيانتهم لا يؤتمنون.

الخيانة: الغدر والخداع في موضع الائتمان، وهي من الصفات المذمومة بكل حال.

وأما المكر والخديعة؛ فهي مذمومة في حال دون حال، فقد تكون محمودة إذا كانت في مقاتلة عدو ماكر خادع لدلالتها علىٰ القوة والإيقاع بالعدو من حيث لا يشعر؛ ولهذا يوصف الله، سبحانه وتعالىٰ بالمكر والخداع في الحال التي يكون فيها مدحًا، قال تعالىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[النساء: ١٤٢].

وأما الخيانة، فلا يوصف الله بها أبدًا؛ لأنها ذم بكل حال؛ ولهذا كان قول العامة: خان الله من خان حرامًا؛ لأنهم وصفوا الله بما لا يصح أن يوصف به، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾[الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم.

قوله: «**ولا يؤتمنون**»؛ أي: ليسوا أهلًا للأمانة، فلا يؤتمنون علىٰ الدماء، ولا الأموال، ولا الأعراض، ولا أي شيء، والظاهر أن هذا في القرن الرابع؛ فما بالك بالقرن الخامس عشر؟! وفي حديث آخر: «**ويفشو بينهم الكذب**»(٧٦٣).

---

(٧٦٢) تقدم تخريجه.

(٧٦٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، برقم (٢١٦٥)، وأحمد (١/ ١٨) بنحوه، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قوله: «**وينذرون ولا يوفون**»: هذا هو الوصف الثالث لهم. النذر: إلزام الإنسان نفسه بالشيء، وقد يكون للآدمي، وهذا بمعنىٰ العهد الذي يوقعه الإنسان بينه وبين غيره، وقد يكون لله؛ كنذر العبادة يجب الوفاء به؛ فهم ينذرون لله ولا يوفون له، ويعاهدون المخلوق ولا يوفون له، وهذا من صفات النفاق.

قوله: «**ويظهر فيهم السمن**». هذا هو الوصف الرابع لهم، «**السمن**»: كثرة الشحم واللحم، وهذا الحديث مشكل؛ لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان؛ فكيف يكون صفة ذم؟!

قال أهل العلم: المراد أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب والترف، فيكون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها. أما السمن الذي لا اختيار للإنسان فيه؛ فلا يذم عليه، كما لا يذم الإنسان علىٰ كونه طويلًا أو قصيرًا أو أسود أو أبيض، لكن يذم علىٰ شيء يكون هو السبب فيه.

قوله: «**وفيه**»؛ أي: «في الصحيح»، وقد سبق الكلام علىٰ مثل هذه العبارة من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «**خير الناس**». دليل علىٰ أن قرنه خير الناس؛ فصحابته ﷺ أفضل من الحواريين الذين هم أنصار عيسىٰ، وأفضل من النقباء السبعين الذين اختارهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: «**ثم يجيء قوم**»؛ أي: بعد القرون الثلاثة.

قوله: «**تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**»: يحتمل ذلك وجهين:

الأول: أنه لقلة الثقة بهم لا يشهدون إلا بيمين، فتارة تسبق الشهادة وتارة تسبق اليمين.

الثاني: أنه كناية عن كون هؤلاء لا يبالون بالشهادة ولا باليمين؛ حتىٰ تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنهما متسابقتان.

والمعنيان لا يتنافيان؛ فيحمل عليهما الحديث جميعًا.

وقوله: «**ثم يجيء قوم**»: يدل علىٰ أنه ليس كل أصحاب القرن علىٰ هذا الوصف؛ لأنه لم يقل: ثم يكون الناس، الفرق واضح.

وهذه الأفضلية أفضلية من حيث العموم والجنس، لا من حيث الأفراد؛ فلا يعني أنه لا يوجد في تابعي التابعين من هو أفضل من التابعين، أو لا يوجد في التابعين من هو أعلم من بعض الصحابة، أما فضل الصحبة؛ فلا يناله أحد غير الصحابة ولا أحد يسبقهم فيه، وأما العلم والعبادة؛ فقد يكون فيمن بعد الصحابة من هو أكثر من بعضهم علمًا وعبادة.

تنبيه:

ساق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحديث في بعض النسخ بتكرار قوله: «ثم الذين يلونهم» ثلاث مرات، وهو في «الصحيحين» بتكرارها مرتين(٧٦٤).

قوله: «وقال إبراهيم»:

هو إبراهيم النخعي، من التابعين ومن فقهائهم.

قوله: «**كانوا يضربوننا على الشهادة ونحن صغار**» في نسخة: «**على الشهادة والعهد**»، والظاهر أن الذي يضربهم ولي أمرهم.

وقوله: «**على الشهادة**»؛ أي: يضربوننا عليها إن شهدنا زورًا، أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها، ويحتمل أن المراد بذلك ضربهم على المبادرة بالشهادة والعهد، وبه فسر ابن عبد البر.

وقوله: «**والعهد**»؛ أي: إذا تعاهدوا يضربونهم على الوفاء بالعهد.

قوله: «**ونحن صغار**»: الجملة حالية، وإنما يضربونهم وهم صغار للتأديب.

ويستفاد من كلام إبراهيم أن الصبي تقبل منه الشهادة؛ لأن قوله: «**ونحن صغار**»؛ أي: لم يبلغوا، وهذا محل خلاف بين أهل العلم.

فقال بعضهم: يشترط لأداء الشهادة أن يكون بالغًا، فإذا تحمل وهو صغير؛ لم تقبل منه حتى يبلغ.

وقال بعضهم: شهادة الصغار بعضهم على بعض مقبولة تحملًا وأداءً؛ لأن البالغ يندر أن يوجد بين الصغار.

وقال بعضهم: تقبل شهادة الصغار بعضهم على بعض إن شهدوا في الحال؛ لأنه بعد التفرق يحتمل النسيان أو التلقين، ولا يسع العمل إلا بهذا، وإلا؛ لضاعت حقوق كثيرة بين الصبيان.

ويستفاد من هذا الأثر جواز ضرب الصبي على الأخلاق إذا لم يتأدب إلا بالضرب.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان: يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾، والأمر وصية.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة: تؤخذ من قوله ﷺ: «**الحلف منفقة للسلعة...**» إلخ.

---

(٧٦٤) قلت: كلا؛ بل هو في «صحيح مسلم»، برقم (٢١٤/ ٢٥٣٥) بتكرارها ثلاث مرات، وشك عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال: فلا أدري أقال رسول الله ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاث.

الثالثة: الوعيد الشديد لمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمنيه: تؤخذ من قولهﷺ: «**ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه...**» إلخ في ضمن الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا يزكيهم.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي: تؤخذ من حديث سلمان، حيث ذكر الأشيمط الزاني والعائل المستكبر، وغلظ في عقوبتهم؛ لأن الداعي إلى فعل المعصية المذكورة ضعيف عندهما.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون: لقولهﷺ: «**ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه...**»(٧٦٥). ولكن هذا ليس على إطلاقه، بل النبيﷺ حلف ولم يستحلف في مواضع عديدة، بل أمره الله - سبحانه - أن يحلف في ثلاثة مواضع من القرآن بدون أن يستحلف:

في قوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾[يونس:٥٣].

وفي قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[التغابن:٧].

وفي قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[سبأ:٣].

وعليه؛ فإن الحلف إذا دعت الحاجة إليه أو اقتضته المصلحة؛ فإنه جائز بل قد يكون مندوبًا إليه؛ كحلف النبيﷺ في قصة المخزومية، حيث قال: «**وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»(٧٦٦) فقد وقع موقعًا عظيمًا، من هؤلاء القوم الذين أهمهم شأن المخزومية وممن يأتي بعدهم.

السادسة: ثناؤهﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث بعدهم: تؤخذ من قولهﷺ: «**خير الناس قرني...**»، وقوله: «**أو الأربعة**» بناءً على ثبوت ذكر الرابع، وأكثر الروايات وأثبتها على حذفه.

وقوله: «**وذكر ما يحدث**»: لو جعلت هذه المسألة مستقلة؛ لكان أبين وأوضح؛ لأن الإخبار عن شيء مستقبل ووقوعه كما أخبر دليل على رسالتهﷺ.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون: تؤخذ من حديث عمران، وكذا ذم الذين يخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، والذين يتعاطون أسباب السمن ويغفلون عن سمن القلب بالإيمان والعلم.

---

(٧٦٥) تقدم تخريجه.

(٧٦٦) أخرجه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾، برقم (٣٤٧٥)، ومسلم، كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، برقم (١٦٨٨) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

الثامنة: كون السلف يضربون على الشهادة والعهد: تؤخذ من قول إبراهيم النخعي: «كانوا يضربونها على الشهادة والعهد»؛ فيؤخذ منه تعظيم شأن العهد والشهادة وضرب الصغار على ذلك، ويؤخذ منه أيضًا عناية السلف بتربية أولادهم، وأن من منهجهم الضرب على تحقيق ذلك استنادًا إلى إرشاد نبيهم ﷺ، حيث أمر يضرب من بلغ عشر سنين على الصلاة، لكن يشترط لجواز الضرب:

الأول: أن يكون الصغير قابلًا للتأديب، فلا يضرب من لا يعرف المراد بالضرب.

الثاني: أن يكون التأديب ممن له ولاية عليه.

الثالث: أن لا يسرف في ذلك كمية أو نوعًا أو موضوعًا أو غير ذلك.

الرابع: أن يقع من الصغير ما يستحق التأديب عليه.

الخامس: أن يقصد تأديبه لا الانتقام لنفسه، فإن قصد الانتقام، لم يكن مؤدبًا بل منتصر.

قال العلامة ابن فوزان:

۞ **قوله:** «باب ما جاء في كثرة الحلف»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ من كمال التوحيد احترام اسم الله وعدم امتهانه بكثرة الحلف؛ لأنَّ ذلك يدلُّ على الاستخفاف به وعدم التعظيم له.

«**ما جاء في كثرة الحلف**»؛ أي: من النهي عنه، والحلف: بفتح الحاء وكسر اللام: اليمين.

۞ **قوله:** ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾:

أي: لا تحلفوا، وقيل: لا تتركوها بغير تكفير، وقيل: لا تحنثوا.

۞ **قوله:** «منفقة»:

بفتح الميم والفاء مفعلة من النفاق بفتح النون وهو: الرواج.

«**للسلعة**»: بكسر السين: المتاع.

«**ممحقة**»: بفتح الميم والحاء من المحق وهو: النقص والمحو.

المعنى الإجمالي للحديث:

يحذر ﷺ من التهاون بالحلف وكثرة استعماله؛ لترويج السلع وجلب الكسب؛ فإنَّ الإنسان إذا حلف على سعلةٍ أنه أُعطي فيها كذا وكذا أو أنَّه اشتراها بكذا وهو كاذبٌ فقد يظنه المشتري صادقًا فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة على قيمتها تأثرًا بيمين البائع، وهو إنما حلف طمعًا في الزيادة؛ فيكون قد عصى الله، فيعاقب بمحق البركة.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه التحذير من استعمال الحلف؛ لأجل ترويج السلع، وبيان ما يترتب على ذلك من الضرر.

ما يستفاد من الحديث:

١- التحذير من استعمال الحلف؛ لأجل ترويج السلع؛ لأنَّ ذلك امتهان لاسم الله تعالى وهو ينقص التوحيد.

٢- بيان ما يترتب على الأيمان الكاذبة من المضار.

٣- أنَّ الكسب الحرام وإن كثرت كميته فإنه منزوع البركة لا خير فيه.

❁ **قوله**: «عن سلمان رضي الله عنه...»:

التراجم:

سلمان لعله أبو عبد الله: سلمان الفارسي، أصله من أصبهان أو رام هرمز، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة وشهد الخندق وغيرها توفي سنة ٣٦هـ رضي الله عنه.

«**لا يكلمهم الله**»: هذا وعيد شديد في حقهم؛ لأنَّه سبحانه يكلم أهل الإيمان.

«**ولا يزكيهم**»؛ أي: لا يثني عليهم ولا يطهرهم من دنس الذنوب.

«**ولهم عذاب أليم**»: موجع؛ لأنَّهم لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم.

«**أشيمط**»: تصغير أشمط وهو الذي في شعره شمط؛ أي: شيب وصغر تحقيرًا له.

«**زانٍ**»؛ أي: يرتكب فاحشة الزنا مع كبر سنه.

«**وعائل مستكبرٌ**»: العائل: الفقير؛ أي: يتكبر مع أنه فقير، والكبر: بطر الحق وغمط الناس.

«**جعل الله بضاعته**»؛ أي: جعل الحلف بالله بضاعةً له؛ لكثرة استعماله في البيع والشراء.

المعنى الإجمالي:

يخبر ﷺ عن ثلاثة أصنافٍ من العصاة يعاقبون أشدَّ العقوبة؛ لشناعة جرائمهم.

أحدهم: من يرتكب فاحشة الزنا مع كبر سنِّه؛ لأن داعي المعصية ضعيفٌ في حقِّه فدلَّ على أن الحامل له على الزنا محبة المعصية والفجور، وإن كان الزنا قبيحًا من كل أحدٍ، فهو من هذا أشد قبحًا.

الثاني: فقيرٌ يتكبر على الناس، والكبر وإن كان قبيحًا من كل أحدٍ؛ لكن الفقير ليس له من المال ما يدعوه إلى الكبر فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أنَّ الكبر طبيعة له.

الثالث: من يجعل الحلف بالله بضاعةً له يكثر من استعماله في البيع والشراء فيمتهن اسم الله ويجعله وسيلةً لاكتساب المال.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه التحذير من كثرة الحلف في البيع والشراء.

ما يستفاد من الحديث:

١- التحذير من كثرة استعمال الحلف في البيع والشراء، والحث على توقير اليمين واحترام أسماء الله سبحانه.

٢- إثبات الكلام لله وأنه يكلم من أطاعه ويكرمه بذلك.

٣- التحذير من جريمة الزنا لاسيما من كبير السن.

٤- التحذير من الكبر لا سيما في حق الفقير.

قوله: «في الصحيح»؛ أي: صحيح مسلمٍ.

«قرني»؛ أي: أهل قرني وهم الصحابة، والقرن: كل طبقةٍ من الناس مقترنين في وقتٍ.

«ثم الذين يَلُونَهُم»: وهم: التابعون.

«ثم الذين يلونهم»: وهم: تابعو التابعين.

«يشهدون»؛ أي: شهادة الزور.

«ولا يستشهدون»؛ أي: لا يطلب منهم الشهادة؛ لفسقهم أو لاستخفافهم بأمرها وعدم تحرِّيهم الصدق.

«ويخونون»؛ أي: يخونون من ائتمنهم.

«ولا يؤتمنون»؛ أي: لا يأتمنهم الناس لظهور خيانتهم.

«وينذرون لا يوفون»؛ أي: لا يؤدون ما وجب عليهم بالنذر.

«ويظهر فيهم السمن»؛ أي: السمن كثرة اللحم، وذلك لتنعمهم وغفلتهم عن الآخرة.

المعنى الإجمالي:

يخبر ﷺ أنَّ خير هذه الأمة القرون الثلاثة وهم: الصحابة، والتابعون، وأتباع التابعين؛ لظهور الإسلام فيهم، وقُربهم من نور النبوة. ثم بعد هذه القرون المفضلة يحدث الشر في الأمة، وتكثر البدع، والتهاون بالشهادة، والاستخفاف بالأمانة والنذور، والتنعم في الدنيا، والغفلة عن الآخرة؛ وظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه ذمَّ الذين يتساهلون بالشهادة وهي نوع من اليمين.

ما يستفاد من الحديث:

١- فضل القرون الثلاثة أو الأربعة: الصحابة والتابعين وأتباعهم.

٢- ذمُّ التسرع في الشهادة.

٣- ذمُّ التهاون بالنذور ووجوب الوفاء بها.

٤- ذمُّ الخيانة في الأمانة والحث على أدائها.

٥- ذمُّ التنعُّم والرغبة في الدنيا والإعراض عن الآخرة.

٦- علمٌ من أعلام نبوته ﷺ حيث أخبر بالشيء قبل وقوعه فوقع كما أخبر.

قوله: «قال إبراهيم...»:

التراجم:

إبراهيم هو: أبو عمران إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي من التابعين ومن فقهائهم، مات سنة ٩٦هـ رحمه الله.

«**تسبق شهادة أحدهم يمينه...إلخ**»؛ أي: يجمع بين اليمين والشهادة، فتارة تسبق هذه وتارة تسبق هذه.

«**كانوا**»؛ أي: التابعون.

«**يضربوننا على الشهادة...إلخ**»؛ أي: لئلا يعتادوا إلزام أنفسهم بالعهود؛ لما يلزم الحالف من الوفاء، وكذا الشهادة لئلا يسهل عليهم أمرها.

المعنى الإجمالي للحديث:

يخبر ﷺ أن خير هذه الأمة القرون الثلاثة، ثم يأتي من بعدهم قوم يتساهلون في الشهادة واليمين؛ لضعف إيمانهم، فيخف عليهم أمر الشهادة واليمين تحمُّلًا وأداءً؛ لقلة خوفهم من الله وعدم مبالاتهم بذلك[٧٦٧].

---

(٧٦٧) تقدم تخريجه.

ويخبر إبراهيم النخعي عن التابعين أنهم يلقنون صغارهم تعظيم الشهادة والعهد؛ لينشأوا على ذلك ولا يتساهلوا فيهما.

مناسبة الحديث للباب:

أن فيه التحذير من التساهل باليمين والشهادة.

ما يستفاد من الحديث:

١ - أنَّ القرون المفضلة ثلاثة، وأنَّهم خير هذه الأمة.

٢ - ذمُّ التسرع في الشهادة واليمين.

٣ - علم من أعلام نبوته ﷺ فإنّه وجد ما أخبر به.

٤ - عناية السلف بتربية الصغار وتأديبهم.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب ما جاء في كثرة الحلف»:

هذا «باب ما جاء في كثرة الحلف» ومن الظاهر والبين أن القلب المعظّم لله -جل جلاله- الذي إذا ذُكر الله وجل قلبه أنه لا يكثر الحلف؛ لأن كثرة الحلف لا تجامع كمال التوحيد، فإن من كمل التوحيد في قلبه، أو قارب الكمال لا يجعل الله -جل وعلا- عرضة لأيمانه، فالذي إذا تكلم تكلم بالحلف، وإذا باع باع بالحلف، وإذا اشترى اشترى بالحلف ونحو ذلك لم يعظم التعظيم الواجب لله -جل وعلا- فإن الواجب على العبد أن يعظم الله -جل وعلا- وأن لا يكثر اليمين، والمقصود باليمين والحلف هنا: اليمين المعقودة التي عقدها صاحبها، أما لغو اليمين فإن هذا معفو عنه، مع أن الكمال فيه والمستحب أن يخلّص الموحّد لسانه وقلبه من كثرة الحلف في الإكرام ونحوه بلغو اليمين.

فمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة؛ وهي أن تحقيق التوحيد وكمال التوحيد لا يجامع كثرة الحلف، فكثرة الحلف منافية لكمال التوحيد. والحلف -كما ذكرنا- هو تأكيد الأمر بمعظّم، وهو الله جل جلاله.

فمن أكد وعقد اليمين بالله -جل وعلا- وأكثر من ذلك، فإنه لا يكون معظمًا لله -جل وعلا- إذ الله -سبحانه وتعالى- يجب أن يصان اسمه، ويصان الحلف به واليمين به إلا عند الحاجة إليها، أما كثرة ذلك وكثرة مجيئه على اللسان فهو ليس من صفة أهل الصلاح، ولهذا أمر

الله -جل وعلا- بحفظ اليمين، فقال: ﴿وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] وهذا الأمر للوجوب؛ لأنه وسيلة لتحقيق تعظيم الله -جل وعلا- وتحقيق كمال التوحيد، فقوله: ﴿وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ هذا إيجاب لأن يحفظ العبد يمينه، فلا يحلف عاقدًا اليمين إلا على أمر شرعي بيِّن، أما أن يحلف دائمًا، ويجعل الله -جل وعلا- في يمينه، فهذا ليس من تعظيم أسماء الله جل جلاله.

❁ **قوله: «وعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»**:

وسبب ذلك أنه نوع عقوبة، فإن هذا الذي يبيع بالحلف فإنه تنفق سلعته، ولكن كسبه يمحق؛ لأن محق الكسب يكون نوع عقوبة لأجل أنه لم يفعل الواجب من تعظيم الله جل وعلا.

❁ **قوله: «عن سلمان ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: أشيمط زان...»**:

يعني: من شمطه الشيب إذا خالطه، وقلبه متعلق بالزنى -والعياذ بالله- فإنه ليس عنده من الدواعي للزنى ما يجعله يقبل عليه كحال من كان شابًّا، فهو قد وخطه الشيب، فيكون إذًا في قلبه حب المعصية، وليست مسألة غلبة الشهوة؛ ولهذا كان من أهل هذا الوعيد العظيم بألا يكلمه الله، ولا يزكيه، وله عذاب أليم.

«وعائل مستكبر» هذا النوع الثاني -وهو من جنس الأول- فإن الاستكبار -كما قال العلماء- يكون استكبارًا في الذات، ويكون استكبارًا للصفات.

فإذا كان استكبارًا للصفات فهذا محرم، ولكنه أهون كمن يكون ذا جاه ورفعة، فيتكبر لأجل ما له من الجاه والرفعة، فهذا لا يجوز، لكن عنده ما يوقع في قلبه الشبهة والفتنة بالتكبر أو الاستكبار، أو يكون ذا مال، أو يكون ذا جمال، أو ذا سمعة، ونحو ذلك، فعنده سبب يجعله يتكبر، وهذا يكثر في أهل الغنى، فإن كثيرًا من أهل الغنى يكون عندهم نوع تكبر على الفقراء، أو من ليس من أهل الغنى، فهذا عنده وصف جعله يتكبر، لكن الأعظم أن يكون تكبره في الذات بألا يكون عنده صفة تجعله متكبرًا، وهذا هو النوع الأول، وهو استكبار للذات يرى نفسه كبيرًا، ويتعاظم، وهو ليس عنده شيء من الصفات تجعله كذلك، فهذا يكون فعله كبيرة من الكبائر العظيمة، ويدخل في هذا الحديث: **«وعائل مستكبر»** لأن العائل -وهو الفقير الكثير العيال- ليس عنده من الصفات ما يكون الاستكبار شبهة عنده أو لأجل تلك الصفات، أو يكون ثَمَّ فتنة عنده، إلا لما قام في نفسه الخبيثة من الكبر.

«**ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**» وهذا موطن الشاهد من الحديث، وهو ظاهر في أنه مذموم، وأنه صاحب كبيرة؛ لأنه جعل الله بضاعته، يبيع باليمين، ويشتري باليمين، وهذا لا يُجامع كمال التوحيد، بل لا يجامع تعظيم الله -جل وعلا- التعظيم الواجب، فيكون مرتكبًا لمحرم.

والحديثان اللذان بعده واضحان.

وأما قول إبراهيم النخعي: «**كانوا يضربوننا علىٰ الشهادة والعهد ونحن صغار**» فهذا فيه تأديب السلف لأولادهم ولذراريهم علىٰ تعظيم الله -جل وعلا- فإن الشهادة والعهد يجب أن يقترنا بالتعظيم لله -جل وعلا- والخوف من لقائه، والخوف من الظلم، فكانوا يؤدبون أولادهم علىٰ ذلك حتىٰ يتمرنوا وينشئوا علىٰ تعظيم توحيد الله وتعظيم أمر الله ونهيه.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان أي لقوله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة:٨٩] ومعناها: لا تحلفوا أو لا تحنثوا أو لا تتركوها بغير تكفير.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة أي: كما دل عليه حديث أبي هريرة فإنه إذا حلف أخذت منه السلعة، ولكن تمحق بركتها، وحينئذ لا خير فيها.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه أي: إنه من الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الدواعي أي لقوله: أشيمط زانٍ وعائل مستكبر فإنهما لا داعي لهما إلى المعصية فعظمت عقوبتهما بخلاف الشاب إذا زنى، والغني إذا تكبر، فإن لهما داعيًا إلى ذلك.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون أي لقوله: تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدها أي: كما في حديث عمران في الثلاثة وحديث ابن مسعود في الأربعة، ثم ذكر ما يحدث بعدها مما يخالف الشرع.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون أي لقوله: يشهدون ولا يستشهدون، وهذا إذا لم يحتج إلى شهادتهم، وإلا فقد ورد مدح ذلك.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد أي: لئلا يتساهلوا بها كما قاله إبراهيم النخعي.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن كثرة الحلف ينافي كمال التوحيد لأن اليمين إنما شرعت تأكيدًا لأمر المحلوف عليه وتعظيمًا للخالق؛ ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله وكان الحلف بغيره من الشرك ومن تمام هذا التعظيم ألا يحلف بالله إلا صادقًا ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثرة الحلف؛ فالكذب وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد.

۞ **قوله:** « قال تعالىٰ: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩]».

س: ما معنى هذه الآية، واذكر ما يستفاد منه وما هي الأيمان؟

جـ: المعنىٰ لا تتركوها بغير تكفير، وقيل احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا فيها وقيل لا تكثروا من الحلف، وهذا الأخير هو مراد المؤلف والحديث عام وشامل للجميع.

والأيمان جمع يمين وهي الحلف أمرهم الله تعالىٰ بحفظ الإيمان وعدم المسارعة إليها أو إلىٰ الحنث فيها.

ويستفاد من الآية: الأمر بحفظ الأيمان والنهي عن كثرة الحلف والنكث ما لم يكن علىٰ فعل بر أو إصلاح بين الناس لقوله ﷺ: «إني والله إن شاء الله لا أحلف علىٰ يمين فأرىٰ غيرها خيرًا منها إلا كفرت عن يميني وآتيت الذي هو خير»[٧٦٨] رواه البخاري ومسلم.

۞ **قوله:** «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ قال: ...».

س: ما المقصود بالحلف هنا وبين معاني الكلمات الآتية: منفقة، السلعة، ممحقة، وما معنى هذا الحديث؟

جـ: المقصود بالحلف هنا اليمين الكاذبة، ومعنىٰ منفقة: من النفاق بفتح النون وهو الرواج ضد الكساد. والسلعة: بكسر السين المتاع، ومعنىٰ ممحقة: من المحق وهو النقص والمحو والإبطال.

---

(٧٦٨) تقدم تخريجه.

ومعنى الحديث: أن الحلف الكاذب وإن زاد في المال فإنه يمحق البركة من البيع لأن الثمن وإن زاد لكن محق البركة يفضي إلا اضمحلال الزيادة.

❁ **قوله**: «عن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم...»».

س: ما الذي يؤخذ من نفي كلام الرب تعالى عن هؤلاء العصاة؟ وكيف عظمت عقوبتهم وما معنى لا يزكيهم؟

جـ: نفي كلام الله تعالى عنهم دليل على أنه تعالى يكلم من أطاعه وأن الكلام صفة من صفات كماله. ولما عظم ذنب هؤلاء الثلاثة عظمت عقوبتهم فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات. ومعنى لا يزكيهم لا يزيدهم خيرًا ولا يثني عليهم ولا يطهرهم من دنس الذنوب.

س: ما المراد بالأشيمط، ولماذا صُغر وكيف خُص بالوعيد على الزنا. مع أنه كبيرة وحرام على الصغير والكبير؟

جـ: الأشيمط تصغير أشمط وهو الرجل الكبير الذي علاه الشيب وصغر تحقيرًا له، وخص بالوعيد لأن داعي المعصية قد ضعف في حقه فدل على أن الحامل له على الزنا محبة المعصية والفجور وعدم خوفه من الله.

س: ما المقصود بالعائل، ولماذا خص بالوعيد على الكبر مع أنه معصية كبيرة في حق العموم؟

جـ: العائل: هو الفقير وخُص بالوعيد لأنه ليس له ما يدعوه إلى الكبر؛ لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرئاسة، والعائل الفقير لا داعي له إلى أن يستكبر فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أن الكبر طبيعة له كامن في قلبه فعظمت عقوبته لعدم الداعي لهذا الخلق الذميم الذي هو من أكبر المعاصي.

س: ما معنى قوله في الحديث:«ورجل جعل الله بضاعته»، وما هو الشاهد من حديث سلمان للباب؟

جـ: المعنى أنه جعل كثرة الحلف بالله بضاعته يبيع فيها ويشتري لملازمته له وغلبته عليه، وهذا هو الشاهد من الحديث للباب.

❁ **قوله**: «في الصحيح عن عمران بن حصين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ...».

س: ما هو القرن، وما المراد بقرن الرسول ﷺ والذين يلونهم، ولماذا فُضلوا على من بعدهم؟

جـ: القرن: أهل عصر متقاربة أسنانهم، مشتق من الاقتران في الأمر الذي يجمعهم، ومدته مائة سنة وقيل غير ذلك.

والمراد بقرن الرسول ﷺ الصحابة ثم التابعون ثم تابعوهم؛ أي: أن القرن الثاني التابعون والثالث تابعوهم.

وإنما فُضل قرن الرسول ﷺ علىٰ من بعدهم؛ لأنهم سبقوا إلىٰ الإيمان والهجرة والجهاد مع رسول الله ﷺ وفاقوا من بعدهم في العلم والإيمان والعمل الصالح.

ثم الذين يلونهم فضلوا علىٰ من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه والراغب فيه والقائم به وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزيل.

ثم القرن الثالث دون الأولين في الفضل لكثرة البدع فيه لكن العلماء متوافرون والإسلام فيه ظاهر والجهاد فيه قائم.

ثم ذكر الرسول ﷺ ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين وكثرة الأهواء.

س: ما الذي حمل أولئك القوم يشهدون ولا يستشهدون؟

جـ: حملهم علىٰ ذلك استخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحريهم للصدق وذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم.

س: ما الذي يدل عليه قوله:«ويخونون ولا يؤتمنون»؟

جـ: يدل علىٰ أن الخيانة قد غلبت علىٰ كثير منهم أو أكثرهم بحيث لا يعتمد عليهم لخيانتهم وعدم الثقة بهم.

س: ما المقصود بقوله:«وينذرون ولا يوفون»؟

جـ: المقصود أنهم لا يؤدون ما وجب عليهم؛ فظهور هذه الأعمال الذمية فيهم يدل علىٰ ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم.

س: ما المراد بقوله: «ويظهر فيهم السمن»، ولماذا؟

جـ: أي: يحبون التوسع في المآكل والمشارب وهي أسباب السمن لرغبتهم في الدنيا ونيل شهواتهم والتنعم بها وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها.

قوله: «في الصحيح عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني ...».

س: ما الذي يتضمنه هذا الحديث؟

جـ: يتضمن ما تضمنه الحديث الذي قبله من تفضيل القرون الثلاثة على من بعدهم. وهو صريح في أن القرون المفضلة ثلاثة لا غير. وفيه إشارة إلى عدم التسارع إلى الشهادة واليمين وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسي الآخرة فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملًا وأداء لقلة إيمانه وعدم خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك.

قال المؤلف: «وقال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار».

س: من هو إبراهيم ولماذا يضربونهم على ذلك وضح ما تقول؟

جـ: هو إبراهيم النخعي التابعي من أصحاب عبد الله بن مسعود.

وإنما فعلوا ذلك لأن لا يعتادوا إلزام أنفسهم بالعهد لما يلزم الحالف من الوفاء والكفارة وربما ترك ذلك فأثم. وكذلك الشهادة فإنه إذا اعتادها حال صغره سهلت عليه فربما أداه ذلك إلى التهاون بها والتساهل حال كبره. وفيه تمرين الصغار على طاعة ربهم ونهيهم عما يضر بصالحهم.

س: ما الذي يُستفاد من هذا الباب؟

جـ: ١ - الوصية بحفظ الأيمان.

٢- الإخبار بأن الحلف منفقه للسلعة ممحقة للبركة.

٣ - الوعيد الشديد على من لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

٤ - التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

٥ - ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

٦ - ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث بعدها.

٧ - ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

٨ - كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرس الثالث والستون:

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية [النحل:٩١].

وعن بُريدة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمرَّ أميرًا على جيشٍ أو سريةٍ، أوصاه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، فقال: اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال أو: خلال[٧٦٩]، فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، واخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، [فإن أبوا أن يتحولوا منها][٧٧٠]، فأخبرهم[٧٧١] أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم [حكم الله تعالى][٧٧٢]، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله، وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصنٍ، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حُكمك، فإنك لا تدري [أتصيب فيهم حكم الله أم لا][٧٧٣]»[٧٧٤] رواه مسلم.

---

(٧٦٩) في نسخة ابن قاسم والفوزان: «ثلاث خلال أو خصال»، والمثبت موافق لما في صحيح مسلم.

(٧٧٠) سقط من نسخة ابن باز، والمثبت موافق لما في صحيح مسلم.

(٧٧١) في نسخة ابن باز: «وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم»، والمثبت موافق لما في مسلم.

(٧٧٢) في نسخة ابن قاسم: «حكم المسلمين»، وفي الفوزان، وصحيح مسلم: «حكم الله الذي يجري على المؤمنين».

(٧٧٣) في نسخة ابن قاسم، وصحيح مسلم: «أتصيب حكم الله فيهم، أم لا».

(٧٧٤) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: تأمير الإسلام الأمراء على البعوث، برقم (١٧٣١).

فيه مسائل:

الأولىٰ: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين.

الثانية: الإرشاد إلىٰ أقل الأمرين خطرًا.

الثالثة: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله».

الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه»:

أي: من الدليل علىٰ وجوب حفظها والوفاء بها، والمراد التي تدخل في العهود، وأن عدم الوفاء عدم تعظيم له، فهو قدح في التوحيد.

قوله: «وقوله الله تعالىٰ: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾»:

أمر تعالىٰ بالوفاء بالعهود والمواثيق. والمحافظة علىٰ الأيمان، ومراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ما يجري بين الناس من الذمة أنه يجب الوفاء بذلك، وهو فرد من أفراد معنىٰ الآية، فإنها دالة علىٰ وجوب الوفاء بذلك.

قوله: « ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة علىٰ حث أو منع. قال مجاهد: يعني الحلف؛ أي: حلف الجاهلية. وروىٰ أحمد عن جبير بن مطعم مرفوعا: «**لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة**»[(٧٧٥)]؛ أي: أن الإسلام لا يحتاج معه إلىٰ الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن بالتمسك بالإسلام حماية وكفاية عما كانوا فيه. وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[النحل:٩١] تهديد ووعيد.

---

(٧٧٥) أخرجه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب: مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، برقم (٢٠٦/ ٢٥٣٠) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ **قوله: «كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا...»:**

أي: جعل شخصًا أميرًا على جيش؛ أي: جنود، أو سرية وهي القطعة من الجيش تخرج منه وتغير وترجع إليه، والغزاة أو الخيل من المائة إلى الأربعمائة ونحوها، فإن كثر فهو الجيش، سميت سرية؛ لأنها تسري في الليل غالبًا ويخفى ذهابها، وبريدة هو ابن حصيب الأسلمي تقدم، وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه.

❁ **قوله: «أوصاه بتقوى الله تعالى ومن معه من المؤمنين خيرًا»:**

أي: أوصاه في خاصته بتقوى الله؛ أي: بالتحرز بطاعته من عقوبته، وهي كلمة جامعة يدخل فيها فعل جميع الطاعات، واجتناب المحرمات، وأوصاه أيضًا بمن معه من المسلمين أن يفعل معهم خيرا من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاظم عليهم، وتعريفهم ما يحتاجون إليه في غزوهم، وما يحرم عليهم وما يكره.

❁ **قوله: «اغزوا باسم اله في سبيل الله»:**

أي: اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له، فتكون الباء في «**بسم الله**» هنا للاستعانة بالله، والتوكل عليه. و «**في سبيل الله**»؛ أي: طاعته كما في الراوية الأخرى. وفي الحديث: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر، فهو في سبيل الله**» (٧٧٦).

❁ **قوله: «قاتلوا من كفر بالله»:**

هذا العموم شمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم، وقد خصص من له عهد، وكذا الرهبان والنسوان ومن لم يبلغ الحلم؛ لأنه لا يكون منهم قتال غالبا، فإن حصل منهم قتال أو تدبير قتلوا.

❁ **قوله: «اغزوا ولا تغلوا»:**

كرر الأمر بالغزو اهتمامًا بأمره، ونهى عن الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة من غير قسمة لها، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ**﴾ [آل عمران:١٦١] وقال عليه الصلاة والسلام: «**الغلول عار ونار يوم القيامة**» (٧٧٧). ولا خلاف في تحريمه.

---

(٧٧٦) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: من سأل وهو قائم عالمًا جالسًا، برقم (١٢٣)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، برقم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٧٧٧) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الجهاد، باب: الغلول، برقم (٢٨٥٠) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (٩٨٥).

قوله: «ولا تغدروا ولا تمثلوا»:

تغدروا بكسر الدال؛ أي: لا تنقضوا العهد، والتمثيل التشويه بالقتيل، كجدع أنفه وأذنه، ونحو ذلك من العبث به.

قوله: «ولا تقتلوا وليدًا»:

الوليد المولود والصبي والعبد، وكذا النساء والرهبان؛ لأنهم لا يقاتلون، فإن قاتلوا قتلوا كما تقدم.

قوله: «فادعهم إلىٰ ثلاث خلال أو خصال»:

شك من الراوي، ووزنهما ومعناهما واحد، ويفسر أحدهما بالآخر.

قوله: «فأيتهنَّ ما أجابوك...»:

أيَّة منصوب بأجابوا؛ أي: فإلىٰ أيتهن أجابوك فاقبل منهم، كما تقول: جئتك إلىٰ كذا وفي كذا، فيعدىٰ إلىٰ الثاني بحرف الجر.

قوله: «ثم ادعهم إلىٰ الإسلام»:

كذا وقعت الرواية في جميع نسخ «صحيح مسلم» بزيادة: «ثم»، وذكر غير واحد أن الصواب إسقاطها كما في «سنن أبي داود»(٧٧٨)، وكتاب «الأموال»(٧٧٩) لأبي عبيد وغيرهما؛ لأن ذلك هو تفسير الثلاث الخصال لا غيرها، والابتداء بـ«ثم» يوهم ابتداء بغير الثلاث الخصال المذكورة في الحديث. وقال المازري: دخلت لاستفتاح الكلام، وفيه دلالة لما ذهب إليه مالك من الجمع بين الأحاديث في الدعوة، فإنه قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يدعوا، ولا تلتمس غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة، فيجوز أن تؤخذ غرتهم، وصححه الشارح وغيره؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا، ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون سببًا إلىٰ انقيادهم إلىٰ الإسلام، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين، فقد يظنون أنهم إنما يقاتلون للملك أو الدنيا، فيزيدون عتوًّا وعنادًا وبغضًا.

قوله: **«فإن أجابوك فاقبل منهم»**؛ أي: فاقبل منهم الإسلام وكف عنهم القتال.

---

(٧٧٨) أخرجه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في دعاء المشركين، برقم (٢٦١٢) من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٧٧٩) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في «الأموال» (١/ ٥٦)، برقم (٥١) من حديث بريدة رضي الله عنه.

❁ **قوله: «ثم ادعهم إلىٰ التحول من دارهم إلىٰ دار المهاجرين»:**

يعني: إلىٰ المدينة إذ ذاك، وكان في أول الأمر وجوب الهجرة إليها علىٰ كل من دخل في الإسلام. وفيه دليل علىٰ وجوب الهجرة علىٰ كل من أسلم، وهو في بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام إذا استطاع، وتجب أو تستحب إذا ظهرت المعاصي كما نص عليه أهل العلم.

❁ **قوله: «وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك ...»:**

أي: أخبرهم أنهم إن تحولوا من دار الشرك إلىٰ دار الإسلام، وهي إذ ذاك المدينة.

❁ **قوله: «فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما علىٰ المهاجرين»:**

أي: لهم ما لهم من الفيء والغنيمة ونحو ذلك، وعليهم ما عليهم من الجهاد وغيره.

❁ **قوله: «فإن أبوا أن يتحولوا منها...»:**

أي: فإن امتنعوا بعد أن أسلموا من الهجرة من البداوة وغيرها، إلىٰ دار المسلمين، ولم يجاهدوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين الساكنين في البادية من غير هجرة ولا غزو، فتجري عليهم أحكام الإسلام ولا يعطون من الخمس ولا من الفيء شيئا، وإنها لهم أن الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم، وبه أخذ الشافعي أن الصدقات للمساكين ونحوهم ممن لا حق لهم في الفيء، والفيء للأجناد. وَسَوَّىٰ مالك وأبو حنيفة بين المالين، وجوزا صرف كل منهما إلىٰ النوعين.

❁ **قوله: «إلا أن يجاهدوا مع المسلمين»:**

أي: فيكون لهم ما للمجاهدين المهاجرين وغيرهم من الخمس والفيء ونحو ذلك.

❁ **قوله: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية»:**

وهي المال الذي يعقد للكتابي عليه الذمة، فعلة من الجزاء، كأنها جزت عن قتله، وفيه حجة لمالك والأوزاعي وغيرهما في أخذها من كل كافر عربيًّا كان أو غيره، كتابيًّا كان أو غيره، واختاره الشيخ وغيره، ورجحه ابن القيم وغيره؛ لهذا الخبر وغيره، تؤخذ علىٰ الرجال الأحرار البالغين دون غيرهم، ممن كان تحت قهر المسلمين، لا ممن نأىٰ بداره، ويجب تحويلهم إلىٰ بلاد المسلمين أو حربهم.

❁ **قوله: «فإن هم أجابوك فاقبل منهم...»:**

أي: فإن أجابوك إلىٰ الجزية فاقبلها منهم، وكف عن قتالهم.

❁ **قوله: «فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»:**

أي: فإن أبوا عن الإسلام وعن الجزية فاستعن بالله وحده، فهو الذي بيده النصر والتأييد، وقاتلهم كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩] وقال: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة:٥] الآية.

❁ **قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن»:**

الحصن كل مكان محمي محرز، لا يوصل إلى جوفه، أو لا يقدر عليه لارتفاعه، وحاصرت أهله ضيقت عليهم، وأحطت بهم.

❁ **قوله: «وذمة اصحابكم أهون...»:**

الذمة هنا العهد، وتخفر بضم التاء تنقض، يقال: أخفرت الرجل نقضت عهده، وخفرته بعد أن أمنته وحميته وأجرته، والمقصود أنه ﷺ خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد، كبعض الأعراب وسواد الجيش، فكأنه يقول: إن وقع نقض من متعد معتد، كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله وعهد نبيه، ولعل ذلك للتنزيه.

❁ **قوله: «فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»:**

وهذا أيضا - والله أعلم - للتنزيه والاحتياط، وفيه أن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد؛ لأنه ﷺ نص على أن الله حكم حكما معينا، فمن وافقه فهو المصيب، ومن لم يوافقه فهو المخطئ.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه»:**

المقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يخشى منها نقض العهود والإخلال بها بعد ما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله، فإنه متى وقع النقض في هذه الحال كان انتهاكًا من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه وتركًا لتعظيم الله وارتكابًا لأكبر المفسدتين: كما نبه عليه ﷺ.

وفي ذلك أيضًا تهوين للدين والإسلام وتزهيد للكفار به؛ فإن الوفاء بالعهود خصوصًا المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلى تفضيله واتباعه.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «**باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه**»:

أي: باب ما جاء فيه من تعظيمها والتحذير من إخفارهما والتحذير أيضًا من جعلها للناس؛ لأن هذا وسيلة إلىٰ إخفارهما، فالواجب علىٰ ولاة الأمور ألا يجعلوا للناس ذمة الله وذمة نبيه، وإنما يجعلون لهم ذمة الرئيس والملك وأصحابه.

وهذا من باب تعظيم ذمة الله وذمة رسوله، وهو من باب إكمال التوحيد والإيمان، وإخفارهما نقص في التوحيد ووسيلة إلىٰ التلاعب.

❁ **قوله:** « **قال تعالىٰ:** ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾»:

فمن عاهد بذمة الله أو ذمة رسوله فعليه أو يوفي، وإن كان قد أخطأ في العهد بذمة الله ورسوله لكن عليه أن يوفي بذلك وعليه ألا يخفر بذلك.

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ أي: لا تنقضوا العهود بعد أن أكدتموها بالأيمان الشديدة والمعاهدة، بل أوفوا كما قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء:٣٤] وقال: «**يرفع لكل غادر يوم القيامة لواء عند استه ينادىٰ عليه: هذه غدرة فلان ابن فلان**»[٧٨٠] وهذا فيه وعيد عظيم ويدل علىٰ وجوب الوفاء بالعهد.

❁ **قوله:** «**عن بريدة قال...**»:

حديث بريدة بن الحصيب عند مسلم[٧٨١] أن النبيﷺ كان... فيوصيه في نفسه وفي جيشه أن يتقي الله فيهم وأوصىٰ الجيش بتقوىٰ الله.

«**ادعهم إلىٰ الإسلام**»؛ أي: ادعهم إلىٰ الشهادتين أولا قبل كل شيء كما في حديث معاذ حين بعثه إلىٰ اليمن، فإن أجابوا ونطقوا بالشهادتين علمهم بقية الفرائض.

قوله: «**يجري عليهم حكم الله**»؛ أي: في الأوامر والنواهي.

«**خصال أو خلال**»: شك من الراوي والمعنىٰ واحد وهذا من حرص الرواة رحمهم الله.

---

(٧٨٠) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: ما يدعىٰ الناس بآبائهم، برقم (٦١٧٧)، ومسلم واللفظ له، كتاب: الجهاد والسير، باب: تحريم الغدر، برقم (١٧٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧٨١) تقدم تخريجه.

«فإن أبوا فاسألهم الجزية»؛ أي: أبوا الدخول في الإسلام والهجرة فاسألهم الجزية وأقبل منهم، وهذا في اليهود والنصارى والمجوس كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[التوبة:٢٩].

فالسنة أطلقت من يؤخذ منهم الجزية، والقرآن قيد بأهل الكتاب وألحقت السنة بأهل الكتاب: المجوس في أخذ الجزية لا في حل الطعام والنساء وغيره.

فاستعن بالله وقاتلهم: فيه وجوب الاستعانة بالله وأن المؤمن يستعين بالله في قتال أعدائه ولا يعتمد على قوته فقط.

وإذا حاصرت أهل حصن؛ أي: الأبنية والقلاع حيث كان يتحصن بها أهل الكتاب غالبًا، ولم يكونوا مع الأعراب في البوادي.

فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه.. فإنكم أن تخفروا ذمتكم.

الإخفار: مصدر أخفر -رباعي- هو نقض العهد.

أما الخفر: فهو -ثلاثي- من خفر يخفره إذا حماه ونصره ومنه الخفير وهو الحامي، فأخفره؛ أي: أزال حمايته وعهده.

فالواجب على المسلمين ألا ينقضوا العهد والميثاق، ويخفروا، وليس لهم أن يجعلوا ذمة الله وذمة رسوله؛ لأنهم إذا وقعوا في الإخفار صار أسهل في حقهم من الإخفار في ذمة الله وذمة نبيه مع أن كلاهما لا يجوز، لكن بعض الشر أهون من بعض، وبعض الكبائر أشد من بعض.

وكذلك إذا طلبوا منهم أن ينزلهم على حكم الله فإنه لا يقبل بل يقول:

أنزلكم على حكم أصحابي، ولا بأس أن يقول: سوف اجتهد في إنزالكم على موافقة الشرع ولكن لا أستطيع أن أنزلكم على حكم الله؛ لأني قد أخطئ، فيعرض عليهم اجتهاده حسب ما يوفق الشرع؛ لأنه إذا أخطأ يكون قد كذب على الله فهذا من باب الحيطة، ومن باب الآداب الشرعية في إعطاء العهود والمواثيق وإنزال العدو إلى حكم يرضاه الله تعالى.

<u>قال العلامة ابن عثيمين:</u>

❁ قوله: «باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه»:

الذمة: العهد: وسمي بذلك؛ لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدَّيْن بدَيْنه في ذمته.

والله له عهد على عبادة: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

وللعباد عهد على الله، وهو لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ فهذا عهد الله عليهم، ثم قال: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[المائدة:١٢]، وهذا عهدهم على الله.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[البقرة:٤٠]، وللنبي ﷺ عهد على الأمة، وهو أن يتبعوه في شريعته ولا يبتدعوا فيها، وللأمة عليه عهد وهو أن يبلغهم ولا يكتمهم شيئًا. وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على ما هو خير(٧٨٢).

والمراد بالعهد هنا: ما يكون بين المتعاقدين في العهود كما كان بين النبي ﷺ وأهل مكة في صلح الحديبية.

۞ **قوله**: «تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ﴾»:

أمر من الرباعي من أوفى يوفي، والإيفاء إعطاء الشيء تامًّا، ومنه إيفاء المكيال والميزان.

قوله: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: يصلح أن يكون من باب إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله؛ أي: بعهدكم الله، أو بعهد الله إياكم؛ لأن الفعل إذا كان على وزن فاعَل اقتضى المشاركة من الجانبين غالبًا، مثل: قاتل ودافع.

قوله: ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾: فائدتها التوكيد والتنبيه على وجوب الوفاء؛ أي: إذا صدر منكم العهد؛ فإنه لا يليق منكم أن تدعوا الوفاء، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ نقض الشيء هو حل إحكامه، وشبه العهد بالعقدة؛ لأنه عقد بين المتعاهدين.

قوله: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: توكيد الشيء بمعني تثبيته، والتوكيد مصدر وكَّد، يقال: وكد الأمر وأكده تأكيدًا وتوكيدًا، والواو أفصح من الهمزة.

قوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾: الجملة حالية فائدتها قوة التوبيخ على نقض العهد واليمين. ووجه جعل الله كفيلًا: أن الإنسان إذا عاهد غيره قال: أعاهدك بالله؛ أي: أنه جعل الله عليه كفيلًا.

---

(٧٨٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، برقم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾: ختم الله الآية بالعلم تهديدًا عن نقض العهد؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله يعلم كل ما يفعل؛ فإنه لا ينقض العهد.

ومناسبة الآية للترجمة واضحة جدًّا؛ لأن الله قال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾. والعهد: الذمة.

ومناسبة الباب للتوحيد:

أن عدم الوفاء بعهد الله تنقُّص له، وهذا مخل بالتوحيد.

قوله: «إذا أمَّر»:

أي: جعله أميرًا، والأمير في صدر الإسلام يتولىٰ التنفيذ والحكم والفتوىٰ والإمامة.

قوله: «**أو سرية**»: هذه ليست للشك، بل للتنويع؛ فإن الجيش ما زاد علىٰ أربعمائة رجل والسرية ما دون ذلك.

والسرايا ثلاثة أقسام:

أ - قسم ينفذ من البلد، وهذا ظاهر، ويقسم ما غنمه كقسمة ما غنم الجيش.

ب - قسم يُنفذ في ابتداء سفر الجهاد، وذلك بأن يخرج الجيش بكامله ثم يبعث سرية تكون أمامهم.

ج - قسم ينفذ في الرجعة، وذلك بعد رجوع الجيش.

وقد فرق العلماء بينهما من حيث الغنيمة، فلسرية الابتداء الربع بعد الخمس؛ لأن الجيش وراءها، فهو ردء لها وسيلحق بها، ولسرية الرجعة الثلث بعد الخمس؛ لأن الجيش قد ذهب عنها؛ فالخطر عليها أشد.

وهذا الذي تعطاه السريتان راجع إلىٰ اجتهاد الإمام: إن شاء أعطىٰ وإن شاء منع حسبما تقتضيه المصلحة.

قوله: «أوصاه»: الوصية: العهد بالشيء إلىٰ غيره علىٰ وجه الاهتمام به.

قوله: «بتقوىٰ الله»: التقوىٰ: هي امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه علىٰ علم وبصيرة، وهي مأخوذة من الوقاية، وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله، وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

وقال بعضهم: التقوىٰ: أن تعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهىٰ عنه الله علىٰ نور من الله تخشىٰ عقاب الله.

وقال بعضهم:

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التقىٰ

واعمل كماشٍ فوق أرض الشواك يحذرُ ما يرىٰ

لا تحقِرَنَّ صغيرةً إن الجبال من الحصىٰ

وهذه التعريفات كلها تؤدي معنىً واحدًا وهذه الوصية بالتقوىٰ لأمير الجيش؛ لأن الغالب أن الأمير يكون معه ترفع يخشىٰ منه أن يجانب الصواب من أجله؛ ولأن تقواه سبب لتقوىٰ من تحت ولايته.

قوله: «**وبمن معه من المسلمين خيرًا**»؛ أي: أوصاه أن يعمل بمن معه من المسلمين خيرًا في أمور والآخرة، فيسلك بهم الأسهل، ويطلب لهم الأخصب إذا كانوا علىٰ إبل أو خيل، ويمنع عنهم الظلم، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وغير ذلك مما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

ويستفاد من هذا الحديث: أنه يجب علىٰ من تولىٰ أمرًا من أمور المسلمين أن يسلك بهم الأخير، بخلاف عمل الإنسان بنفسه؛ فإنه لا يلزم إلا بالواجب.

قوله: «**اغزوا باسم الله**»: يحتمل أنه أراد أن يعلمهم أن يكونوا دائمًا مستعينين بالله، ويحتمل أنه أراد أن يفتتح الغزو باسم الله. والأول أظهر، والثاني وأيضًا محتمل؛ لأن بعث الجيوش من الأمور ذات البال، وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله؛ فهو أبتر.

قوله: «**في سبيل الله**»: متعلق بـ «**اغزوا**»، وهو تنبيه من الرسول ﷺ علىٰ حسن النية والقصد، لأن الغزاة لهم أغراض، ولكن الغزو النافع الذي تحصل به إحدىٰ الحسنيين ما كان خالصًا لله، وذلك بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا لحمية أو شجاعة أو ليُرىٰ مكانه أو لطلب دنيا.

فإن قاتل لأجل الوطن: فمن قاتل لأنه وطن إسلامي تجب حمايته وحماية المسلمين فيه؛ فهذه نية إسلامية صحيحة، وإن كان للقومية أو الوطنية فقط؛ فهو حمية وليس في سبيل الله.

وقوله: «**في سبيل الله**»: تشمل النية والعمل؛ فالنية سبقت. والعمل: أن يكون الغزو في إطار دينه وشريعته، فيكون حسبما رسمه الشارع.

قوله: «**قاتلوا من كفر بالله**»: «**قاتلوا**»: فعل أمر وهو للوجوب؛ أي: يجب علينا أن نقاتل من كفر بالله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣] فإذا قاتلنا الذين يلوننا، فأسلموا؛ نقاتل من وراءهم، وهكذا إلىٰ أن نخلص إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها.

و «من»: اسم موصول، وصلته «كفر»، واسم الموصول وصلته يفيد العلية؛ أي: لكفره، فنحن لا نقاتل الناس عصبية أو قومية أو وطنية، نقاتلهم لكفرهم لمصلحتهم وهي إنقاذهم من النار. والكفر مداره على أمرين: الجحود، والاستكبار؛ أي: الاستكبار عن طاعته، أو الجحود لما يجب قبوله وتصديقه.

قوله: «**اغزوا**»: تأكيد، وأتى بها ثانية كأنه يقول: لا تحقروا الغزو، واغزوا بجد.

قوله: «**ولا تغلوا**»: الغلول: أن يكتم شيئًا من الغنيمة فيختص به، وهو من كبائر الذنوب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[آل عمران:١٦١]؛ أي: معذبًا به؛ فهو يعذب بما غل يوم القيامة ويعزر في الدنيا، قال أهل العلم: يعزر الغال بإحراق رحله كله؛ إلا المصحف لحرمته، والسلاح لفائدته، وما فيه روح؛ لأنه لا يجوز تعذيبه بالنار.

قوله: «**ولا تغدروا**»: الغدر: الخيانة، وهذا هو الشاهد من الحديث، وهذا إذا عاهدنا؛ فإنه يحرم الغدر، أما الغدر بلا عهد؛ فلنا ذلك لأن الحرب خدعة، وقد ذُكِرَ أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خرج إليه رجل من المشركين ليبارزه، فلما أقبل الرجل على علي صاح به علي: ما خرجت لأبارز رجلين، فالتفت المشرك يظن أنه جاء أحد من أصحابه ليساعده، فقتله علي رضي الله عنه.

وليعلم أن لنا مع المشركين ثلاث حالات.

الحال الأولى: أن لا يكون بيننا وبينهم عهد؛ فيجب قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائهم عنه وعن بذل الجزية، بشرط قدرتنا على ذلك.

الحال الثانية: أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه؛ فهنا يجب الوفاء لهم بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٧]، وقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾[التوبة:٤].

الحال الثالثة: أن يكون بيننا وبينهم عهد نخاف خيانتهم فيه، فهنا يجب أن ننبذ إليهم العهد ونخبرهم أنه لا عهد بيننا وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[الأنفال:٥٨].

قوله: «**ولا تمثلوا**»: التمثيل: التشويه بقطع بعض الأعضاء؛ كالأنف واللسان وغيرهما، وذلك عند أسرهم؛ لأنه لا حاجة إليه؛ لأنه انتقام في غير محله، واختلف العلماء فيما لو كانوا يفعلون بنا ذلك.

فقيل: لا يمثل بهم للعموم، والنبي ﷺ لم يستثن شيئًا؛ ولأننا إذا مثلنا بواحد منهم، فقد يكون لا يرضىٰ بما فعل قومه؛ فكيف نمثل به؟!

وقيل: نمثل بهم كما مثلوا بنا؛ لأن هذا العموم مقابل بعموم آخر، وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤].

وإذا لم نمثل بهم مع أنهم يمثلون بنا؛ فقد يفسر هذا بأنه ضعف، وإذا مثلنا بهم في هذه الحال؛ عرفوا أن عندنا قوة ولم يعودوا للتمثيل بنا ثانية.

والظاهر القول الثاني.

فإن قيل: قد نمثل بواحد لم يمثل بنا ولا يرضىٰ بالتمثيل؟

فيقال: إن الأمة الواحدة فعل الواحد منها كفعل الجميع، ولهذا كان الله ﷻ يخاطب اليهود في عهد الرسول ﷺ بأمور جرت في عهد موسىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة:٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة:٩٣]، وما أشبه ذلك.

قوله: «ولا تقتلوا وليدًا»؛ أي: لا تقتلوا صغيرًا؛ لأنه لا يقاتل؛ ولأنه ربما يسلم، وورد في أحاديث أخرىٰ: أنه لا يقتل راهب ولا شيخ فان ولا امرأة[٧٨٣]، إلا أن يقاتلوا، أو يحرضوا علىٰ القتال، أو يكون لهم رأي في الحرب، كما قتل دريد بن الصَّمَّة في غزوة ثقيف مع كبره وعماه[٧٨٤].

واستدل بهذا الحديث أن القتال ليس لأجل أن يسلموا، ولكنه لحماية الإسلام، بدليل أننا لا نقتل هؤلاء، ولو كان من أجل ذلك لقتلناهم إذا لم يسلموا، ورجح شيخ الإسلام هذا القول، وله رسالة في ذلك اسمها «**قتال الكفار**».

قوله: «**وإذا لقيت عدوك**»؛ أي: قابلته أو وجدته، وبدأ بذكر العداوة تهييجًا لقتالهم؛ لأنك إذا علمت أنهم أعداء لك؛ فإن ذلك يدعوك إلىٰ قتالهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١]، وهذا أبلغ وأعم من قوله في آية أخرىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة:٥١]، لكن خص في هذه الآية باليهود والنصارىٰ؛ لأن المقام يقتضيه.

---

(٧٨٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في دعاء المشركين، برقم (٢٦١٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(٧٨٤) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة أوطاس، برقم (٤٠٦٨)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل أبي موسىٰ وأبي عامر الأشعريين رضي الله عنهما، برقم (٢٤٩٨) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

والعدو ضد الولي، والولي من يتولىٰ أمورك ويعتني بك بالنصر والدفاع وغير ذلك، والعدو يخذلك ويبتعد عنك ويعتدي عليك ما أمكنه.

قوله: «من المشركين»: يدخل فيه كل الكفار، حتىٰ اليهود والنصارىٰ.

قوله: «**خصال أو خلال**»: بمعنىٰ واحد، وعليه؛ فـ«أو» للشك في اللفظ، والمعنىٰ لا يتغير.

قوله: «**فأيتهن ما أجابوك**»: «**أيتهن**»: اسم شرط مبتدأ، «ما»: زائدة، وهي تزاد بالشرط تأكيدًا للعموم، كقوله تعالىٰ: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الإسراء:١١٠]، والكاف مفعول به، والعائد إلىٰ اسم الشرط محذوف، والتقدير: فأيتهن ما أجابوك إليه؛ فاقبل منهم وكف عنهم فلا تقاتلهم.

قوله: «**ثم ادعهم**»: «**ثم**»: زائدة؛ كما في رواية أبي داود؛ ولأنه ليس لها معنىٰ، ويمكن أن يقال: إنها ليست من كلام الرسول ﷺ، بل من كلام الراوي علىٰ تقدير: ثم قال ادعهم.

وقوله: «**إلىٰ الإسلام**»؛ أي: المتضمن للإيمان؛ لأنه إذا أفرد شمل الإيمان، وإذا اجتمعا؛ افترقا، كما فرق النبي ﷺ بينهما في حديث جبريل.

والإيمان عند أهل السنة تدخل فيه الأعمال، قال ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[٧٨٥]، فإن أجابوا للإسلام؛ فهذا ما يريده المسلمون، فلا يحل لنا أن نقاتلهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**فاقبل منهم**».

قوله: «**ثم ادعهم إلىٰ التحول من دارهم إلىٰ دار المهاجرين**»: هذه الجملة تشير إلىٰ أن الذين قوتلوا أهل بادية، فإذا أسلموا؛ طلب منهم أن يتحولوا إلىٰ ديار المهاجرين ليتعلموا دين الله؛ لأن الإنسان في باديته بعيد عن العلم، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[التوبة:٩٧]؛ وهذا أصل في توطين البوادي.

وقوله: «**إلىٰ دار المهاجرين**». يحتمل أن المراد بها العين؛ أي: المدينة النبوية، ويحتمل أن المراد بها الجنس؛ أي: الدار التي تصلح أن يهاجر إليها لكونها بلد إسلام، سواء كانت المدينة أو غيرها.

ويقوىٰ الاحتمال الثاني - وهو أن المراد بها الجنس -: أنه لو كان المراد المدينة، لكان الرسول ﷺ يعبر عنها باسمها ولا يأتي بالوصف العام، ويقوي الاحتمال الأول: أن دار المهاجرين الأولىٰ هي المدينة، والظاهر الاحتمال الثاني.

---

(٧٨٥) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، برقم (٣٥)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: في رد الإرجاء، برقم (٤٦٧٦) وغيرها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «**فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما علىٰ المهاجرين**»: وهذا تمام العدل، ولا يقال: إن الحق لصاحب البلد الأصلي؛ فلهم ما للمهاجرين من الغنيمة والفيء، وعليهم ما عليهم من الجهاد والنصرة.

قوله: «**ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**»: يعني: إذا لم يتحولوا إلىٰ دار المهاجرين؛ فليس لهم في الغنيمة والفيء شيء.

والغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار بقتال أو ما ألحق به.

والفيء: ما يصرف لبيت المال؛ كخمس خمس الغنيمة، والجزية، والخراج، وغيرها.

وقوله: «**إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**»: يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة ما يستحقه غيرهم.

وأما الفيء؛ فاختلف أهل العلم في ذلك:

فعند الإمام أحمد: لهم حق في الفيء مطلقًا، ولهم حق في الغنيمة إن جاهدوا.

وقيل: لا حق لهم في الفيء، إنما الفيء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء، فهو عائد علىٰ الغنيمة؛ إذ ليس من في البلد مستعدًّا للجهاد ويتعلم الدين وينشره كأعرابي عند إبله.

فإذا أسلموا؛ فلهم ثلاث مراتب:

١- التحول إلىٰ دار المهاجرين، وحينئذ يكون لهم ما للمهاجرين وعليهم ما علىٰ المهاجرين.

٢- البقاء في أماكنهم مع الجهاد؛ فلهم ما للمجاهدين من الغنيمة، وفي الفيء الخلاف.

٣- البقاء في أماكنهم مع ترك الجهاد؛ فليس لهم من الغنيمة والفيء شيء.

وقوله: «**فإن هم أبوا**». «**هم**» عند البصريين: توكيد للفاعل المحذوف مع فعل الشرط، التقدير: فإن أبوا هم، وعند الكوفيين: مبتدأ خبره الجملة بعده.

والقاعدة عندنا إذا اختلف النحويون في مسألة: أن نتبع الأسهل، والأسهل هنا إعراب الكوفيين.

قوله: «**فاسألهم الجزية**»: سؤال عطاء لا سؤال استفهام، والفرق بين سؤال الاستفهام وسؤال العطاء: أن سؤال الاستفهام يتعدىٰ إلىٰ المفعول الثاني بـ «عن»، قال الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٢] وقد يكون المفعول الثاني جملة استفهامية؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤]

وأما سؤال الإعطاء، فيتعدي إليه بنفسه، كقولك: سألت زيدًا كتابًا.

قوله: «**الجزية**»: فعْلة من يجزىٰ يجزىٰ، وظاهر فيها أنها مكافأة علىٰ شيء، وهي عبارة عن مال مدفوع من غير المسلم عوضًا عن حمايته وإقامته بدارنا.

والذمي معصوم ماله ودمه وذريته مقابل الجزية، قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة:٢٩]؛ أي: يسلموها بأيديهم، لا يقبل أن يرسل بها خادمه أو ابنه، بل لابد أن يأتي بها هو.

وقيل: ﴿عَن يَدٍ﴾: عن قوة منكم، والصحيح أنها شاملة للمعنيين.

وقيل: ﴿عَن يَدٍ﴾: أن يعطيك إياها فتأخذها بقوة بأن تجر يده حتىٰ يتبين له قوتك، وهذا لا حاجة إليه.

وقوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ أي: يجب أن يتصفوا بالذل والهوان عند إعطائها، فلا يعطوها بأبهة وترفع مع خدم وموكب ونحو ذلك، وجعل بعض العلماء من صغارهم أن يطال وقوفهم عن تسلمها منهم.

قوله: «**فاستعن بالله وقاتلهم**»: بدأ النبي ﷺ بطلب العون من الله؛ لأنه إذا لم يعنك في جهاد أعدائه؛ فإنك مخذول، والجملة جواب الشرط.

قوله: «**وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك**»: الحصر: التضييق؛ أي: طوقتهم وضيقت عليهم بحيث لا يخرجون من حصنهم ولا يدخل عليهم أحد. والحصن: كل ما يتحصن به من قصور أو أحواش وغيرها.

قوله: «**أرادوك**»؛ أي: طلبوك، وضمَّن الإرادة معنىٰ الطلب، وإلا؛ فإن الأصل أن تتعدي بـ «مِنْ» فيقال: أرادوا منك.

قوله: «**فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه**»: الذمة: العهد، فإذا قال أهل الحصن المحاصرون: نريد أن ننزل علىٰ عهد الله ورسوله؛ فإنه لايجوز أن ينزلهم علىٰ عهد الله ورسوله، وعلل النبي ﷺ ذلك بقوله: «**فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون...**».

قوله: «**أن تخفروا**»: بضم التاء وكسر الفاء: من أخفر الرباعي؛ أي: غدر، وأما خفر يخفر الثلاثي فهي بمعنىٰ أجار والمتعين الأول.

وقوله: «**أن تخفروا**»: «**أن**»؛ بفتح الهمزة مصدرية بدليل رفع «**أهون**» علىٰ أنها خبر، وأن وما دخلت عليه محلها من الإعراب النصب علىٰ أنها بدل اشتمال من اسم «**إن**»، والتقدير: فإن إفخاركم ذممكم، والبدل يصح أن يحل محل المبدل منه، ولهذا قدرتها بما سبق.

قوله: «أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه»: لأن الغدر بذمة الله وذمة نبيه أعظم، وقوله: «أهون» من باب اسم التفضيل الذي ليس في المفضل ولا في المفضل عليه شيء من هذا المعني؛ لأن قوله: «أهون» يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه بالهون، والأمر ليس كذلك؛ لأن إخفار الذمم سواء كان لذمة الله وذمة رسوله أو ذمة المجاهدين؛ كله ليس بهين، بل هو صعب، لكن الهون هنا نسبي وليس علىٰ حقيقته.

فهنا أرادوا أن ينزلوا علىٰ العهد بدون أن يحكم عليهم بشيء، بل يعاهدون علىٰ حماية أموالهم وأنفسهم ونسائهم وذريتهم فنعطيهم ذلك.

قوله: «وإذا حاصرت»؛ أي: ضربت حصارًا يمنعهم من الخروج من مكانهم. «أهل حصن»: أهل بلد أو مكان يتحصنون به.

«فأرادوك»: طلبوا منك.

«حكم الله»، أي: شرع الله.

قوله: «ولكن أنزلهم علىٰ حكمك»: فإذا أرادوا أن ينزلوا علىٰ حكم الله؛ فإنهم لا يجابون؛ فإنا لا ندري أنصيب فيهم حكم الله أم لا؟

ولهذا قال: «أنزلهم علىٰ حكمك»، ولم يقل: وحكم أصحابك كما قال في الذمة؛ لأن الحكم في الجيش أو السرية للأمير، وأما الذمة والعهد؛ فهي من الجميع، فلا يحل لواحد من الجيش أن ينقض العهد.

وقوله: «لا تدري»؛ أي: لا تعلم «أتصيب فيهم حكم الله أم لا»، وذلك لأن الإنسان قد يخطيء حكم الله تعالىٰ.

وهذه المسألة اختلف فيها العلماء:

فقيل: إن أهل الحصن لا ينزلون علىٰ حكم الله؛ لأن قائد الجيش وإن اجتهد؛ فإنه لا يدري أيصيب فيهم حكم الله أم لا؟ فليس كل مجتهد مصيبًا.

وقيل: بل ينزلون علىٰ حكم الله، والنهي عن ذلك خاص في عهد النبي ﷺ فقط؛ لأنه العهد الذي يمكن أن يتغير فيه الحكم؛ إذ من الجائز بعد مضي هذا الجيش أن يغير الله هذا الحكم، وإذا كان كذلك؛ فلا تنزلهم علىٰ حكم الله؛ لأنك لا تدري أتصيب الحكم الجديد أو لا تصيبه؟

أما بعد انقطاع الوحي؛ فينزلون على حكم الله، واجتهادنا في إصابة حكم الله يعتبر صوابًا إذا لم يتبين خطؤه؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وقد قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦]، وهذا أصح؛ لأنه يحكم للمجتهد بإصابته الحكم ظاهرًا شرعًا وإن كان قد يخطيء، وإن حصل الاحتراز بأن يقول: ننزلك على ما نفهم من حكم الله ورسوله؛ فهو أولى؛ لأنك إذا قلت على ما نفهم صار الأمر واضحًا أن هذا حكم الله بحسب فهمنا، لا بحسب الواقع فيما لو اتضح خلافه.

واخترنا هذه العبارة؛ لأنه قد يتغير الاجتهاد، ويأتي أمير آخر فيحارب هؤلاء أو غيرهم ثم يتغير الحكم؛ فيقول الكفار: إن أحكام المسلمين متناقضة.

ويستفاد من هذا الحديث ما يلي:

١- تحريم التمثيل، والغلول، والغدر، وقتل الوليد، وقد سبق الكلام عليه.

٢- يشرع للإمام بعث الجيوش والسرايا.

٣- لا يجوز القتال قبل الدعوة؛ لأنه جعل القتال آخر مرحلة.

وأما ما ورد في «**الصحيح**» أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون (٧٨٦)؛ فقد أجيب: أن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة، ودعوة من بلغتهم الدعوة سنة لا واجبة، ويرجع فيها المصلحة.

٤- جواز أخذ الجزية من غير اليهود والنصارى والمجوس؛ لأن أهل الكتاب نص القرآن على أخذها منهم، والمجوس وردت به السنة، وأما ما عدا هؤلاء؛ **فاختلف أهل العلم**:

فقيل: لا تأخذ من غير هؤلاء، وقيل: لا تؤخذ من مشركي العرب؛ لأن فيها إذلالًا.

والصحيح أنها تؤخذ من جميع الكفار؛ لعموم قوله ﷺ «**من كفر بالله**»، ولم يقل: اليهود والنصارى.

٥- الإشارة إلى أن القتال ليس لإكراه الناس على أن يدخلوا في الإسلام، ولو كان كذلك ما شرعت الجزية؛ لأنه على هذا التقدير يجب أن يدخلوا في الدين أو يقاتلوا، وهذا هو الراجح الذي يؤيده القرآن والسنة، وأما قوله ﷺ «**أمرت أن أقاتل الناس...**» (٧٨٧) الحديث؛ فهو عام مخصوص بأدلة الجزية.

---

(٧٨٦) أخرجه البخاري، كتاب: العتق، باب: من ملك من العرب رقيقًا فوهب وباع وجامع و...، برقم (٢٥٤١)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام، برقم (١٧٣٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٧٨٧) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: قوله تعالى ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾، برقم (٢٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، برقم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

٦- عظم العهود، ولا سيما إذا كانت عهدًا لله ورسوله.

٧- جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش.

٨- أنه لايجوز أن ينزلهم على حكم الله؛ إما في عهد الرسولﷺ، أو مطلقًا حسب الخلاف السابق.

٩- أن المجتهد قد يصيب وقد يخطيء؛ لقولهﷺ: «**فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟**» وقال النبيﷺ: «**إذا حكم الحاكم، فاجتهد، فأصاب، فله أجران، وأن أخطأ، فله أجر واحد**»(٧٨٨)، وعليه؛ فهل نقول: إن المجتهد مصيب ولو أخطأ؟

الجواب: قيل: كل مجتهد مصيب.

وقيل: ليس كل مجتهد مصيبًا. **وقيل:** كل مجتهد مصيب في الفروع دون الأصول؛ حذرًا من أن نصوب أهل البدع في باب الأصول.

والصحيح أن كل مجتهد مصيب من حيث اجتهاده، أما من حيث موافقته للحق؛ فإنه يخطيء ويصيب، ويدل له قولهﷺ: «**فاجتهد فأصاب، واجتهد فأخطأ**»؛ فهذا واضح في تقسيم المجتهدين إلى مخطيء ومصيب، وظاهر الحديث والنصوص أنه شامل للفروع والأصول، حيث دلت تلك النصوص على أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، لكن الخطأ المخالف لإجماع السلف خطأ ولو كان من المجتهدين؛ لأنه لا يمكن أن يكون مصيبًا والسلف غير مصيبين، سواء في علم الأصول أوالفروع.

على أن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أنكرا تقسيم الدين إلى أصول وفروع، وقالا: إن هذا التقسيم محدث بعد عصر الصحابة، ولهذا نجد القائلين بهذا التقسيم يلحقون شيئًا من أكبر أصول الدين بالفروع، مثل الصلاة، وهي ركن من أركان الإسلام، ويخرجون أشياء في العقيدة اختلف فيها السلف، يقولون: إنها من الفروع؛ لأنها ليست من العقيدة، ولكن فرع من فروعها، ونحن نقول: إن أردتم بالأصول ما كان عقيدة؛ فكل الدين أصول؛ لأن العبادات المالية أو البدنية لا يمكن أن تتعبد لله بها إلا أن تعتقد أنها مشروعة؛ فهذه عقيدة سابقة على العمل، ولو لم تعتقد ذلك لم يصح تعبدك لله بها. والصحيح أن باب الاجتهاد مفتوح فيما سمي بالأصول أو الفروع، لكن ما خرج عن منهج السلف؛ فليس بمقبول مطلقًا.

---

(٧٨٨) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، برقم (٧٣٥٢)، ومسلم، كتاب: الأقضية، باب: بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، برقم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

١٠- أن باب الاجتهاد باقٍ؛ لقوله: «لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟ »، وبهذا يتبين ضعف قول من قال: إن باب الاجتهاد قد انسد، والواجب التقليد للأئمة، وهذا يترتب عليه الإعراض عن الكتاب والسنة إلىٰ آراء الرجال، وهذا خطأ، بل الواجب علىٰ من تمكن من أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن يأخذه منهما، لكن لكثرة السنن وتفرقها لا ينبغي للإنسان أن يحكم بشيء بمجرد أن يسمع حديثًا في هذا الحكم حتىٰ يتثبت؛ لأن هذا الحكم قد يكون منسوخًا أو مقيدًا أو عامًّا وأنت تظنه بخلاف ذلك.

وأما أن نقول: لا تنظر في القرآن والسنة؛ لأنك لست أهلًا للاجتهاد؛ فهذا غير صحيح، ثم إنه علىٰ قولنا: إن باب الاجتهاد مفتوح؛ لا يجوز أبدًا أن تحتقر آراء العلماء السابقين، أو أن تنزل من قدرهم؛ لأن أولئك تعبوا واجتهدوا وليسوا بمعصومين، فكونك تقدح فيهم أو تأخذ المسائل التي يلقونها علىٰ أنها نكت تعرضها أمام الناس ليسخروا بهم؛ فهذا أيضًا لا يجوز، وإذا كانت غيبة الإنسان العادي محرمة؛ فكيف بغيبة أهل العلم الذين أفنوا أعمارهم في استخراج المسائل من أدلتها، ثم يأتي في آخر الزمان من يقول: إن هؤلاء لا يعرفون، وهؤلاء يفرضون المحال ويقولون: كذا وكذا، مع أن أهل العلم فيما يفرضونه من المسائل النادرة قد لا يقصدون الوقوع، ولكن يقصدون تمرين الطالب علىٰ تطبيق المسائل علىٰ قواعدها وأصولها؟!

١٠- فيه إثبات الحكم لله ﷻ، وحكم الله ينقسم إلىٰ قسمين:

أ- حكم كوني، وهو ما يتعلق بالكون، ولا يمكن لأحد أن يخالفه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠].

ب- حكم شرعي، وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة، وهذا من الناس من يأخذ به ومنهم من لا يأخذ به، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [المتحنه:١٠].

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين: لو قال: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وبين ذمة المسلمين؛ لكان أوضح؛ لأنك عندما تقرأ كلامه تظن أن الفروق بين الثلاثة كلها، وليس كذلك؛ فإن ذمة الله وذمة نبيه واحدة، وإنما الفرق بينهما وبين ذمة المسلمين. والفرق أن جعل ذمة الله وذمة نبيه للمحاصرين محرمة، وجعل ذمة المحاصرين - بكسر الصاد - ذمة جائزة.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرًا: لقوله: «ولكن أجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك...» إلخ، وهذه قاعدة مهمة، وتقال على وجه آخر هو: ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما إذا كان لابد من ارتكاب إحداهما، وقد دل عليها الشرع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] فسب آلهة المشركين مطلوب، لكن إذا تضمن سب الله ﷻ صار منهيًّا عنه؛ لأن مفسدة سب الله أعظم من مفسدة السكوت عن سب آلهتهم، وإن كان في هذا السكوت شيء من المفسدة، ولكن نسكت لئلا نقع في مفسدة أعظم، وأيضًا العقل دل عليها.

وفيه قاعدة مقابلة، وهي: ترك أدنى المصلحتين لنيل أعلاهما، إذا كان لابد من ترك إحداهما، فإذا اجتمعت مصلحتان لا يمكن الأخذ بهما جميعًا؛ فخذ بأعلاهما، وإذا اجتمعت مفسدتان لا يمكن تركهما؛ فخذ بأدناهما.

الثالثة: قوله: «**اغزوا بسم الله في سبيل الله**»: يستفاد منها وجوب الغزو مع الاستعانة بالله والإخلاص والتمشي على شرعه.

الرابعة: قوله: «**قاتلوا من كفر بالله**». يستفاد منها وجوب قتال الكفار، وأن علة قتالهم الكفر، وليس المعنى أنه لا يقاتل إلا من كفر، بل الكفر سبب للقتال؛ فمن منع الزكاة يقاتل، وإذا ترك أهل بلد صلاة العيد قوتلوا، وكذا الأذان والإقامة، مع أنهم لا يكفرون بذلك.

وإذا اقتتلت طائفتان وأبت إحداهما أن تفيء إلى أمر الله؛ قوتلت، فالقتال له أسباب متعددة غير الكفر.

الخامسة: قوله: «**استعن بالله وقاتلهم**»: يفيد وجوب الاستعانة بالله، وأن لا يعتمد الإنسان على حوله وقوته.

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء. وفيه فرقان:

١ - أن حكم الله مصيب بلا شك، وحكم العلماء قد يصيب وقد لا يصيب.

٢ - تنزيل أهل الحصن على حكم الله ممنوع؛ إما في عهد الرسول ﷺ فقط أو مطلقًا، وأما على حكم العلماء ونحوه؛ فهو جائز.

فائدة:

لا ينبغي أن يقال لمفتٍ: ما حكم الإسلام في كذا، أو ما رأي الإسلام في كذا؛ فإنه قد يخطيء فلا يصيب حكم الإسلام، ولا يقول مفتٍ: حكم الإسلام كذا؛ لأنه قد يخطيء، ولكن يُقيِّد؛ فيقول: حكم الإسلام فيما أرى كذا وكذا إلا فيما هو نص واضح صريح؛ فلا بأس.

مثل أن يقال: ما حكم الإسلام في أكل الميتة؟ فيقول: حكم الإسلام في أكل الميتة أنه حرام.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟. وهذا ليس خاصًّا بالصحابة، بل حتىٰ مَنْ بعدهم؛ فإن له أن يحكم بما يرىٰ أنه حكم الله عند الحاجة.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾:

تمام الآية: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[النحل:٩١].

مناسب هذا الباب لكتاب التوحيد: التنبيه علىٰ أن الوفاء بالعهود تعظيم الله، وعدم الوفاء بها عدم تعظيم له؛ فهو قدحٌ في التوحيد.

❁ **قوله:** «ما جاء في ذمة الله»:

ذمة الله هي: العهد، وفيه الحث علىٰ حفظها والوفاء بها إذا أعطيت لأحدٍ.

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾: بالالتزام بموجبه من عقود البيعة والأيمان وغيرها.

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾؛ أي: أيمان البيعة أو مطلق الأيمان.

﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾؛ أي: بعد توثيقها بذكر الله تعالىٰ.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾؛ أي: شاهدًا عليك بتلك البيعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾؛ أي: من نقض الأيمان والعهود وهذا تهديدٌ.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يأمر تعالىٰ بالوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة علىٰ الأيمان المؤكدة بذكره؛ لأنهم بذلك جعلوه سبحانه شاهدًا ورقيبًا عليهم؛ وهو سبحانه يعلم أفعالهم وتصرفاتهم وسيجازيهم عليها.

مناسبة الآية للباب:

أنَّها تدل علىٰ وجوب الوفاء بالعهود، ومنها ما يجري بين الناس من إعطاء الذمة؛ فإنَّها يجب الوفاء بها؛ لأنَّها فردٌ من أفراد معنىٰ الآية.

ما يستفاد من الآية:

١- وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق.

٢- تحريم نقض العهود والأيمان الداخلة في العهود والمواثيق.

٣- إثبات العلم لله سبحانه وأنَّه لا يخفىٰ عليه شيء.

٤- وعيد من نقض العهود والمواثيق.

❁ **قوله**: «أمر أميرًا»:

أي: جعل شخصًا أميرًا.

«**علىٰ جيشٍ**»؛ أي: جنودٍ كثيرةٍ.

«**أو سريةٍ**»: هي: القطعة من الجيش تخرج منه وتُغَير وترجع إليه.

«**ومن معه**»؛ أي: بمن معه.

«**خيرًا**»؛ أي: أن يفعل بهم خيرًا.

«**اغزوا**»؛ أي: اشرعوا في فعل الغزو.

«**في سبيل الله**»؛ أي: في طاعته ومن أجله.

«**من كفر بالله**»؛ أي: لأجل كفرهم وخصَّ منه من لا يجوز قتله من الكفار كالنساء ومن له عهدٌ...إلخ.

«**ولا تغلوا**»: الغلول: الأخذ من الغنيمة قبل قسمها.

«**ولا تغدروا**»؛ أي: لا تنقضوا العهد.

«**ولا تمثلوا**»: التمثيل: تشويه القتيل بقطع أعضائه.

«**وليدًا**»: هو: الصبي والعبد.

«**ثلاث خلالٍ أو خصالٍ**»: شكٌّ من الراوي ومعناهما واحدٌ.

«**فاقبل منهم**»؛ أي: اقبل منهم الإسلام وكفَّ عنهم القتال.

«**دار المهاجرين**»: يعني: المدينة إذ ذاك.

«**فلهم ما للمهاجرين**»؛ أي: في استحقاق الفيء والغنيمة.

«**ما علىٰ المهاجرين**»: من الجهاد وغيره.

«**كأعراب المسلمين**»: الساكنين في البادية من غير هجرةٍ ولا غزوٍ.

«**فاسألهم الجزية**»؛ أي: اطلب منهم أن يدفعوا الجزية، وهي مالٌ يؤخذ من الكفار علىٰ وجه الصغار والذلة لهم، واشتقاقها من الجزاء كأنَّها جزاء عن القتل.

«**فإن أبوا**»؛ أي: امتنعوا عن الدخول في الإسلام ودفع الجزية.

«**حاصرت أهل حصنٍ**»: الحصن: كل مكانٍ محميٍّ محرزٍ، وحاصرتهم: ضيقت عليهم وأحطت بهم.

«ذمة الله وذمة نبيه»: الذمة هنا العهد.

«أن تخفروا ذممكم»؛ أي: تنقضوا عهودكم.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يذكر لنا هذا الصحابي الجليل بريدة بن الحصيب ﵁ ما كان يفعله النبي ﷺ عندما يرسل الجيوش والسرايا للقتال في سبيل الله، أنه كان يوصي القواد بالتحرز بطاعة الله من عقوبته بالتزام التقوىٰ، ويأمرهم بالشروع في الغزو مستعينين بالله ليقاتلوا الكفار؛ لإزالة كفرهم حتىٰ يكون الدين كله لله، وينهاهم عن الخيانة في العهود والأخذ من المغانم قبل قسمتها، وعن تشويه القتلىٰ وقتل من لا يستحق القتل من الولدان. وعندما يلاقون عدوهم فإنهم يخيرونهم بين ثلاثة أمورٍ: إمَّا أن يدخلوا في الإسلام، وإمَّا أن يؤدوا الجزية، وإمَّا أن يقاتلوهم. فإن دخلوا في الإسلام خيروا بين أمرين: إمَّا الانتقال إلىٰ دار الهجرة، ولهم ما للمهاجرين وعليهم ما علىٰ المهاجرين، وإمَّا البقاء مع أعراب المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. ثم يوصي ﷺ القواد عندما يحاصرون الكفار في معاقلهم؛ فيطلب الكفار منهم أن يجعلوا لهم عهد الله وعهد نبيه أن لا يجعلوا لهم ذلك، ولكن يجعلوا لهم عهدهم هم؛ فإن نقض عهد الله وعهد رسوله أعظم جرمًا من نقض عهودهم. وإذا طلبوا منهم النزول علىٰ حكم الله فلا يجيبوهم بل ينزلونهم علىٰ حكمهم هم واجتهادهم؛ خشية أن لا يصيبوا حكم الله تعالىٰ، فينسبون إلىٰ الله ما هو خطأ.

مناسبة ذكر الحديث في الباب:

أنَّ فيه النهي عن إعطاء ذمة الله وذمة رسوله للكفار؛ خشية عدم الوفاء بذلك، فتكون الجريمة عظيمةً، ويكون ذلك هضمًا لعهد الله، ونقصًا في التوحيد.

ما يستفاد من الحديث:

١- مشروعية بعث السرايا والجيوش للجهاد في سبيل الله.

٢- أنَّه يجب أنّ يكون القتال لإعلاء كلمة الله ومحو آثار الكفر من الأرض لا لنيل الملك وطلب الدنيا، أو نيل الشهوة.

٣- مشروعية تنصيب الأمراء علىٰ الجيوش والسرايا.

٤- أنه يشرع لولي الأمر أن يوصي القواد ويوضح لهم الخطة التي يسيرون عليها في جهادهم.

٥- أن الجهاد يكون بإذن وليِّ الأمر وتنفيذه.

٦- مشروعية الدعوة إلىٰ الإسلام قبل القتال.

٧- مشروعية أخذ الجزية من جميع الكفار.

٨- النهي عن قتل الصبيان.

٩- النهي عن التمثيل بالقتلىٰ.

١٠- النهي عن الغلول والخيانة في العهود.

١١- احترام ذمة الله وذمة نبيه والفرق بينهما وبين ذمة المسلمين.

١٢- طلب الاحتياط عن الوقوع في المحذور.

١٣- أنَّ المجتهد يخطئ ويصيب والفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

١٤- الإرشاد إلىٰ ارتكاب أقلِّ الأمرين خطرًا.

١٥- مشروعية الاجتهاد عند الحاجة.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه»:

هذا باب عظيم من الأبواب الأخيرة في هذا الكتاب، وهو «باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ» وذكر الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا الباب لأجل حديث بريدة الذي ساقه وفيه: «**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم أن تَخْفِروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**» وهذا لأجل تعظيم الرب -جل وعلا- وتعظيم رسوله ﷺ، فإن تعظيم الله -جل وعلا- في مناجاته وفي سؤاله وفي العبادة له -جل وعلا- وفي التعامل مع الناس هذا كله من كمال التوحيد، وهذا الباب من جهة التعامل مع الناس، كما جاء في الباب الذي قبله، فالباب الذي قبله وهو «باب ما جاء في كثرة الحلف» متعلق بتعظيم الله -جل وعلا- حين التعامل مع الناس، و«باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه» متعلق بالتعامل مع الناس في الحالات العسرة الصعبة، وهي حال الجهاد، فنبه بذلك علىٰ أن تعظيم الرب -جل وعلا- يجب أن يكون في التعامل ولو في أعصب الحالات، وهي الجهاد، فإن العبد يكون موقرًا لله تعالىٰ مجلًّا له، معظِّمًا لأسمائه وصفاته، ومن ذاك أن يعظم ذمة الله وذمة نبيه.

والذمة بمعنىٰ العهد، وذمة الله يعني: عهد الله وعهد نبيه؛ فإنه إذا كان يعطي بعهد الله ثم يخفر فقد خفر عهد الله -جل وعلا- وفجر في ذلك، وهذا منافٍ لكمال التوحيد الواجب؛ لأن الواجب علىٰ العبد أن يعظم الله -جل وعلا- وألا يخفر عهده وذمته؛ لأنه إذا أعطىٰ بذمة الله فإنه يجب عليه أن يوفِّي بهذه الذمة مهما كان، حتىٰ لا ينسب النقص لذمة الله -جل جلاله- لهذا كان إعطاء مثل هذه الكلمة مثل كثرة الحلف، فلا يجوز أن تجعل في العهد ذمة الله وذمة نبيه ﷺ، كما لا يجوز كثرة الأيمان؛ لأن في كل منهما نقصًا في تعظيم الرب جل جلاله.

❁ **قوله**: «وقوله الله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[النحل:٩١]»:

العهد في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ فُسِّر بالعقد، وفسر باليمين، فالعهد بمعنىٰ: العقد، كما قال جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾[الإسراء: ٣٤]، وقال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[المائدة: ١]، فالعقد والعهد بمعنىٰ، فلهذا فسر ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ بأنها العقود التي تكون بين الناس، وفسر أيضًا بأنه اليمين ودل عليه قوله بعدها: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ فيجب الوفاء بالعقد والوفاء باليمين تعظيمًا لحق الله -جل وعلا- لأن من أعطي اليمين بالله، فإن معناه أنه أكد وفاءه بهذا الشيء الذي تكلّم به، أكد ذلك بالله -جل وعلا- فإذا خالف وأخفر فمعنىٰ ذلك أنه لم يعظم الله -جل جلاله- تعظيمًا خاف بسببه من أن لا يقيم ما يجب لله -جل جلاله- من الوفاء باليمين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[النحل:٩١]. حين استشهدتم الله -جل جلاله- أو حين حلفتم بالله -جل جلاله- ولهذا كانت كفارة اليمين واجبة علىٰ ما هو مفصّل في موضعه من كتب الفقه.

والحديث ظاهر الدلالة علىٰ ما ذكرنا، ففيه تعظيم الله -جل جلاله- بأن لا يُعطي العبد الناس بذمة الله وذمة نبيه ﷺ، بل يعطي بذمته هو، وفي هذا تنبيه عظيم لأهل التوحيد وطلبة العلم الذين يهتمون بهذا العلم، ويعرف الناس منهم أنهم يهتمون بهذا العلم، ألا يبدر منهم ألفاظ أو أفعال تدل علىٰ عدم تخلقهم بهذا العلم، فإن التوحيد هو مقام الأنبياء والمرسلين، ومقام أولياء الله الصالحين، فأن يتعلم طالب العلم مسائل التوحيد، ثم لا تظهر علىٰ لسانه، أو علىٰ جوارحه، أو علىٰ تعامله لا شك أن هذا يرجع -ولو لم يشعر- إلىٰ اتهام ما يحمله من التوحيد والعلم الذي

هو علم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فتذكّر قول النبي عليه الصلاة والسلام هنا: «**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه**» لأجل أنه قد يدخل علىٰ أهل الإسلام أو علىٰ الدين نفسه من جهة فعلهم؛ لأنهم إذا خفروا هذه الذمة رجع إخفارهم إلىٰ ما حملوه من الإسلام ومن الدين، فهذه مسألة عظيمة، فينبغي أن تستحضر أن الناس ينظرون إليك -خاصة في هذا الزمان الذي هو زمان شبه وزمان فتن- علىٰ أنك تحمل سنة، وتحمل توحيدًا، وعلمًا شرعيًّا، فلا تعاملهم إلا بشيء فيه تعظيم الرب -جل وعلا- وحتىٰ تجعل أولئك يعظمون الله -جل وعلا- بتعظيمك له، ولا تستهن بشأن اليمين، ولا تخفر ذمة الله؛ لأن ذلك منقص لأثر ما تحمله من العلم والدين، فتذكّر هذا وتذكر أيضًا قوله عليه الصلاة والسلام هنا: «**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم علىٰ حكم الله، فلا تنزلهم علىٰ حكم الله، ولكن أنزلهم علىٰ حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا**» وذلك حتىٰ إذا حصل غلط فيكون الغلط منسوبًا إلىٰ مَنْ حَكَم إلىٰ هذا البشر، ولا يكون منسوبًا إلىٰ حكم الله، فيصد الناس عن دين الله، وكم من الناس ممن يحملون سنة وعلمًا أو يشار إليهم بالاستقامة يسيئون بأفعالهم وأقوالهم لأجل عدم تعظيمهم لله -جل وعلا- وما يجب لسنة النبي ﷺ، وما يدعوهم إليه الرب الكريم -جل وعلا- وتقدس- نبرأ إلىٰ الله -جل وعلا- من كل نقص ونسأله أن يعفو ويتجاوز عنا ويرحمنا جميعًا.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه، وذمة المسلمين، أي: إن ذمة المسلمين أهون وخطرها أقل.

الثانية: الإرشاد إلىٰ أقل الأمرين خطرًا، أي: إنه لما أرشد إلىٰ إنزالهم علىٰ ذمته وذمة أصحابه دون ذمة الله وذمة نبيه خوفًا من خفر ذلك مع أن الأول لا يجوز خفره لكنه أخف كان ذلك دليلًا علىٰ الإرشاد إلىٰ أقل الأمرين خطرًا.

الثالثة: قوله: اغزوا باسم الله، أي: مستعينين بالله.

الرابعة: قوله: قاتلوا من كفر بالله، أي: امتنع من الإيمان بالله.

الخامسة: قوله: استعن بالله وقاتلهم، أي: لكونه لا طاقة له بقتالهم إلا بإعانة الله.

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء، أي: حكم الله أعظم من حكم العلماء؛ ولذلك لا ينزل عليه من طلبه إلا مع العلم به.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟ أي لقوله: وإذا حاصرت أهل حصن... إلخ.



* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن نقض العهد دليل على عدم تعظيم الله تعالى فهو قادح في التوحيد.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾[النحل:٩١].

س: اشرح هذه الآية وبين مناسبتها للباب؟

جـ: يأمر الله تعالى بالوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة بعدم نقضها.

ومناسبة الآية للباب: أنها دلت على وجوب الوفاء بالعهود وتحريم نقضها.

عن بريدة ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، فقال: اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله...»[٧٨٩] الحديث رواه مسلم.

س: ما المقصود بالجيش والسرية وما هي تقوى الله، وما الذي تفيده هذه العبارة؟

جـ: السرية قطعة من الجيش تخرج منه تغير وترجع إليه، وقد حصرها بعض العلماء بأربعمائه ونحو ذلك.. والجيش ما كان أكثر من ذلك. وتقوى الله: التحرز بطاعته من عقوبته، وذلك بالعمل بما أمر الله والانتهاء عما نهى الله عنه. وتفيد هذه العبارة تأمير الأمراء ووصيتهم.

س: ما معنى قوله ومن معه من المؤمنين خيرًا؟

جـ: أي: أوصاه بمن معه أن يفعل معهم خيرًا من الرفق بهم والإحسان إليهم وخفض الجناح لهم وترك التعاظم عليهم.

---

(٧٨٩) تقدم تخريجه.

س: ما معنى قوله اغزوا باسم الله؟

جـ: أي: اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له متوكلين عليه.

س: اذكر الذين لا يجوز قتالهم في الجهاد ولماذا؟

جـ: هم المعاهدون والرهبان والنساء والصبيان غير البالغين. وإنما نهي عن قتالهم لأنهم لا يكون منهم قتال غالبًا وإن كان منهم قتال أو تدبير قوتلوا.

س: ما معنى قوله ﷺ: «لا تغلو ولا تغدروا ولا تمثلوا»، وما حكم هذه الأشياء؟

جـ: هذا نهي عن الغلول والغدر والتمثيل. والغلول: هو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها. والغدر: نقض العهد. والتمثل هنا: التشويه بالقتيل كقطع أنفه وأذنه والعبث به. والغدر والغلول حرام، والمثلة مكروهة.

س: ما الذي يؤخذ من قوله ﷺ: «ثم ادعهم إلى الإسلام»؟

جـ: يؤخذ منه أن الدعوة إلىٰ الإسلام تكون قبل القتال، إلا أن تكون قد بلغتهم الدعوة؛ فيجوز قتالهم ابتداء.

س: ماذا يستفاد من قوله ﷺ: «ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين»، وما المقصود بها؟

جـ: يستفاد منه وجوب الهجرة من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام. والمقصود بدار المهاجرين مدينة الرسول ﷺ وكانت الهجرة إلىٰ المدينة في أول الأمر واجبة علىٰ من دخل في الإسلام.

س: ما معنى قوله ﷺ: «وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين»؟

جـ: المعنىٰ إن أسلموا وهاجروا وجب عليهم ما يجب علىٰ المهاجرين من الغزو والجهاد. واستحقوا ما يستحق المهاجرون من الفيء والغنيمة والأجر.

س: ما المراد بقوله ﷺ: «فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى»؟

جـ: يعني من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد كسائر أعراب المسلمين الساكنين في البادية من غير هجرة ولا غزو؛ فتجري عليهم أحكام الإسلام ولا حق لهم في الغنيمة والفيء.

س: ما هي الخصال التي يدعى إليها المشركون قبل قتالهم؟

جـ: هي ثلاثة أشياء مرتبة:

١ - الدعوة إلىٰ الإسلام بأن يدعوا إلىٰ الشهادتين ثم إلىٰ الصلاة ثم إلىٰ الزكاة.

٢ - الدعوة إلىٰ الهجرة.

٣ - طلب الجزية منهم.

س: ما هي الجزية ومن تؤخذ منه؟

جـ: هي المال الذي يعقد الكتابي عليه، الذمة مأخوذة من الجزاء؛ لأنها أجزت عن قتله. وتؤخذ من كل كافر عربيًّا كان أو عجميًّا كتابيًّا أو مجوسيًّا أو غيرهم لهذا الحديث. وقيل: لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب والمجوس. وتؤخذ من الرجال الأحرار البالغين دون غيرهم. وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين في بلادهم.

س: ما هو الشاهد من حديث بريدة للباب؟

جـ: هو قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه».

س: ما هي الذمة وما معنى إخفارها؟

جـ: الذمة: العهد، وإخفارها: نقضها.

س: ما هو غرض المؤلف من إيراد هذا الباب؟

جـ: غرضه البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يخشىٰ منها نقض العهود والإخلال بها بعد ما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله. فإنه متىٰ وقع النقض في هذه الحال كان انتهاكًا من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه وتركًا لتعظيم الله، وفي ذلك أيضًا تهوين للإسلام وتزهيد للكفار به. فإن الوفاء بالعهود وخصوصًا المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلىٰ تفضيله وإتباعه.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

الدرس الرابع والستون:

باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلانٍ، فقال الله تعالى: من ذا الذي يتألَّىٰ عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك»(٧٩٠) رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد. قال أبو هريرة: «تكلم بكلمةٍ أوبقت دنياه وآخرته»(٧٩١).

فيه مسائل:

الأولىٰ: التحذير من التألِّي علىٰ الله.

الثانية: كون النار أقرب إلىٰ أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة... »(٧٩٢) إلىٰ آخره.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسببٍ هو من أكره الأمور إليه

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ قوله: «باب ما جاء في الإقسام علىٰ الله»:

أي: ذكر ما جاء من الأدلة الدالة علىٰ تحريم الحلف علىٰ الله، إذا كان علىٰ جهة الحجر علىٰ الله، والقطع بحصول المقسم علىٰ حصوله، وهو التألي، فأما إن كان علىٰ جهة حسن الظن بالله فقد قال ﷺ «إن من عباد الله من لو أقسم علىٰ الله لأبره»(٧٩٣).

---

(٧٩٠) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والأداب، باب: النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالىٰ، برقم (٢٦٢١) من حديث جندب بن جنادة رضي الله عنه.

(٧٩١) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في النهي عن البغي، برقم (٤٩٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص ٣٥٧).

(٧٩٢) سبق تخريجه.

(٧٩٣) أخرجه البخاري، كتاب: الصلح، باب: الصلح في الدية، برقم (٢٧٠٣)، ومسلم، كتاب: القسامة والمحاربين، باب: إثبات القصاص في الأسنان، برقم (٢٤/ ١٦٧٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

❁ **قوله: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان»:**

هذا ظاهر في قطعه بأن الله لا يغفر لذلك الرجل، فكأنه حكم علىٰ الله وحجر عليه، لما اعتقد له عنده من الكرامة والحظ والمكانة، وهذا لجهله بإلهية الحق وربوبيته سبحانه وتعالىٰ.

قوله: «من ذا الذي يتألّىٰ عليَّ»: التألي من الألية بتشديد الياء اليمين، يقال: آلىٰ يؤلي إيلاء، وتألىٰ يتألىٰ بالياء، والاسم الألية، استفهام إنكار، وفيه تحريم الإدلال علىٰ الله، ووجوب التأدب مع الله في الأقوال والأحوال، وأن حق العبد أن يعامل نفسه بأحكام العبودية، ويعامل ربه بما يجب له من أحكام الإلهية والربوبية.

قوله: «لإني قد غفرت له وأحبطت عملك»: فعومل هذا بنقيض قصده، وغفر لذلك بسببه.

قال المصنف: «وفيه أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه، وكون الجنة أقرب إلىٰ أحدنا من شراك نعله، والنار مثل ذلك».

❁ **قوله: «وفي حديث أبي هريرة...»:**

يشير إلىٰ ما رواه أبو داود وغيره عن أبي هريرة ﷺ: **«كان رجلان في بني إسرائيل متآخين، فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان المجتهد لا يزال يرىٰ الآخر علىٰ الذنب، فيقول: أقصر، فوجده يومًا علىٰ ذنب، فقال: له أقصر. فقال خلني وربي، أبعثت علي رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، ولا يدخلك الجنة. فقبضت أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا، أو كنت علىٰ ما في يدي قادرًا؟ فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة، وقال للآخر: اذهبوا به إلىٰ النار»** (٧٩٤).

قوله: «قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»: صح من حديث من أبي هريرة رواه البغوي وغيره عن عكرمة، قال: **«دخلت مسجد المدينة، فناداني شيخ قال: يا يماني تعال. وما أعرفه، قال: لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبدا، ولا يدخلك الجنة، قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة. فقلت: إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب، أو لزوجته، أو لخادمه، فقال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر كأنه يقول مذنب،**

---

(٧٩٤) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في النهي عن البغي، برقم (٤٩٠١)، وأحمد (٢/ ٣٦٢) مختصرًا، من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٤٤٥٥).

فجعل يقول أقصر عما أنت فيه، قال: فيقول: خلني وربي، أبعثت علي رقيبا؟ قال: فوالله لا يغفر الله لك، ولا يدخلك الجنة أبدا، قال: فبعث الله إليهما ملكا فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ قال: لا يا رب قال: اذهبوا به إلى النار»، قال أبو هريرة: «والذي نفسي بيده تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[٧٩٥]. «أوبقت»؛ يعني: أهلكت، وفي هذه الأحاديث بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرز من الكلام، وفي حديث معاذ قلت: «يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم -أو قال: على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم؟ »[٧٩٦]. رواه الترمذي وغيره وصححه.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «باب ما جاء في الإقسام على الله»:

الإقسام على الله هو في الغالب من باب العجب بالنفس والإدلال على الله وسوء الأدب معه، ولا يتم الإيمان حتى يسلم من ذلك كله.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب ما جاء في: الإقسام على الله»:

أي: باب ما جاء فيه الوعيد فإنه لما كان الإقسام على الله جرأة على الله ونقص في التوحيد وضعف في الإيمان ذكره المؤلف هنا.

قوله: « عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه ... »:

جندب: بفتح الدال وضمها لغتان.

حديث جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله... ».

من ذا الذي يتألى علي: التألي هو الحلف، والألية اليمين.

والحديث فيه التحذير من التألي على الله والإقسام عليه بأنه لا يفعل كذا ولا يفعل كذا، والله لا يغفر لفلان ونحوها، فكل هذا ظلم وجور لا يجوز؛ لأنه ليس للإنسان علم من الله ولا عندك

---

(٧٩٥) أخرجه -بهذا السياق- البغوي في «شرح السنة» (٧/ ٣٨٤/ ٤٠٨٢)، وأحمد (٢/ ٣٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧٩٦) أخرجه الترمذي، كتاب: الإيمان، باب: حرمة الصلاة، برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، برقم (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٥١٣٦).

حق عليه، ولو كان هذا الرجل فاعل كبيرة أو صاحب معصية، بل عليك أن تدعو له بالهداية؛ لأن الله قد يغفر له وأنت لا تدري.

وهذا فيه خطورة اللسان فيجب حفظه والحذر منه وهو نقص في التوحيد والإيمان.

❁ **قوله: «في حديث أبي هريرة: إن القائل رجل عابد»:**

أي: أن الذي حمله على هذا غيرته وعبادته التي يتعبدها على أن قال هذا الكلام السيئ وفي هذا أن الإنسان قد يغار غيرة خاطئة خاسرة، فيجترئ بها على الله، وقد يكون غيورًا فيأمر بالمعروف ينهي عن المنكر على غير بصيرة وقد ينكر منكرًا على غير بصيرة؛ ولذلك يجب التقيد بالقيود الشرعية في إنكار المنكر والنظر إلى الحدود التي حدها الله.

«**أوبقت دنياه وآخرته**»؛ أي: أهلكتها... لأنها كلمة خطيرة وفي الحديث: «**أن العبد ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا تهوي به في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**»(٧٩٧) رواه مسلم.

وفي لفظ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يتبين فيها يكتب الله بها سخطه إلى يوم يلقاه**»(٧٩٨)؛ أي: لا يثبت فيها.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله: «باب ما جاء في الإقسام على الله»:**

الإقسام: مصدر أقسم يقسم إذا حلف. والحلف له عدة أسماء، هي: يمين، وألية، وحلف، وقسم، وكلها بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[الواقعة:٧٥]، وقال: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾[البقرة:٢٢٦]؛ أي: يحلفون، وقال: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾[البقرة:٢٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾[التوبة:٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾[النور:٥٣].

واختلف أهل العلم في ﴿لَآ﴾ في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾؛ فقيل: إنها نافية على الأصل، وإن معنى الكلام: لا أقسم بهذا الشيء على المقسم به؛ لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، وهذا فيه تكلف؛ لأن من قرأ الآية عرف أن مدلولها الإثبات لا النفي.

---

(٧٩٧) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: حفظ اللسان، برقم (٦٤٧٨)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، برقم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧٩٨) تقدم تخريجه.

وقيل: إن ﴿لَآ﴾ زائدة، والتقدير أقسم.

وقيل: إن ﴿لَآ﴾ للتنبيه، وهذا بمعنىٰ الثاني؛ لأنها من حيث الإعراب زائدة.

وقيل: إنها نافية لشيء مقدر؛ أي: لا صحة لما تزعمون من انتفاء البعث، وهذا في قوله تعالىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[القيامة:١] فيه شيء من التكلف والصواب أنها زائدة للتنبيه.

والإقسام علىٰ الله: أن تحلف علىٰ الله أن يفعل، أو تحلف عليه أن لا يفعل، مثل: والله، ليفعلن الله كذا، أو والله؛ لا يفعل الله كذا.

والقسم علىٰ الله ينقسم إلىٰ أقسام:

الأول: أن يقسم بما أخبر الله به ورسوله من نفي أو إثبات؛ فهذا لا بأس به، وهذا دليل علىٰ يقينه بما أخبر الله به ورسوله، مثل: والله؛ ليشفعن الله نبيه في الخلق يوم القيامة، ومثل: والله، لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثاني: أن يقسم علىٰ ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه؛ فهذا جائز لإقرار النبيﷺ ذلك في قصة الربيع بنت النضر عمة أنس بن مالكؓ حينما «**كسرت ثنية جارية من الأنصار، فاحتكموا إلىٰ النبيﷺ، فأمر النبيﷺ بالقصاص، فعرضوا عليهم الصلح، فأبوا، فقام أنس بن النضر، فقال: أتكسر ثنية الربيع؟ والله يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع** - وهو لا يريد به رد الحكم الشرعي - **فقال الرسولﷺ: يا أنس! كتاب الله القصاص** - يعني: السن بالسن - **قال: والله، لا تكسر ثنية الربيع**»(٧٩٩)، وغرضه بذلك أنه لقوة ما عنده من التصميم علىٰ أن لا تكسر ولو بذل كل غال ورخيص أقسم علىٰ ذلك.

فلما عرفوا أنه مصمم ألقي الله في قلوب الأنصار العفو فعفوا، فقال النبيﷺ: «**إن من عباد الله من لو أقسم علىٰ الله لأبره**»(٨٠٠)، فهو لقوة رجائه بالله وحسن ظنه أقسم علىٰ الله أن لا تكسر ثنية الربيع، فألقىٰ الله العفو في قلوب هؤلاء الذين صمموا أمام الرسولﷺ علىٰ القصاص؛ فعفوا وأخذوا الأرش.

---

(٧٩٩) سبق تخريجه.

(٨٠٠) تقدم تخريجه.

فثناء الرسول ﷺ عليه شهادة بأن الرجل من عباد الله، وأن الله أبر قسمه ولين له هذه القلوب، وكيف لا وهو الذي قال: بأنه يجد ريح الجنة دون أحد، ولما استشهد وجد به بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، ولم يعرفه إلا أخته ببنانه(٨٠١)، وهي الربيع هذه، رضي الله عن الجميع وعنا معهم.

ويدل أيضًا لهذا القسم قوله ﷺ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»(٨٠٢).

القسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجر فضل الله ﷻ وسوء الظن به تعالى؛ فهذا محرم وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المُقسم، وهذا القسم هو الذي ساق المؤلف الحديث من أجله.

مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد:

أن من تألَّى على الله ﷻ؛ فقد أساء الأدب معه وتحجر فضله وأساء الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد، وربما ينافي أصل التوحيد؛ فالتألي على من هو عظيم يعتبر تنقصًا في حقه.

قوله: «قال رجل»- يحتمل أن يكون الرجل الذي ذكر في حديث أبي هريرة الآتي أو غيره -: **«والله؛ لا يغفر الله لفلان»**: هذا يدل على اليأس من روح الله، واحتقار عباد الله عند القائل، وإعجابه بنفسه.

والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر الذي يُغطى به الرأس عند الحرب، وفيه وقاية وستر.

قوله: «من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان»: «من»: اسم استفهام مبتدأ، «ذا» ملغاة، «الذي»: اسم موصول خبر مبتدأ، «يتألي»: يحلف؛ أي: من ذا الذي يتحجر فضلي ونعمتي أن لا أغفر لمن أساء من عبادي، والاستفهام للإنكار.

والحديث ورد مبسوطًا في حديث أبي هريرة أن هذا الرجل كان عابدًا وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية، فيقول: أقصر. فوجده يومًا على ذنب، فقال: أقصر. فقال: خلني وربي، أَبُعثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله؛ لا يغفر الله لك(٨٠٣).

---

(٨٠١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: قوله تعالى ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، برقم (٢٦٥١) واللفظ له، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد، برقم (١٤٨/ ١٩٠٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٨٠٢) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والأداب، باب: فضل الضعفاء والخاملين، برقم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨٠٣) تقدم تخريجه.

وهذا يدل علىٰ أن المسرف عنده حسن ظن بالله ورجاء له، ولعله كان يفعل الذنب ويتوب فيما بينه وبين ربه؛ لأنه قال: خلني وربي، والإنسان إذا فعل الذنب ثم تاب توبة نصوحًا ثم غلبته عليه نفسه مرة أخرىٰ؛ فإن توبته الأولىٰ صحيحة، فإذا تاب ثانية فتوبته صحيحة؛ لأن من شروط التوبة أن يعزم أن لا يعود، وليس من شروط التوبة أن لا يعود.

وهذا الرجل الذي قد غفر الله له؛ إما أن يكون قد وجدت منه أسباب المغفرة بالتوبة، أو أن ذنبه هذا كان دون الشرك فتفضَّلَ الله عليه فغفر له، أما لو كان شركًا ومات بدون توبة؛ فإنه لا يغفر له؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[النساء:١١٦].

قوله: «**وأحبطت عملك**»: ظاهر الإضافة في الحديث: أن الله أحبط عمله كله؛ لأن المفرد المضاف الأصل فيه أن يكون عامًّا.

ووجه إحباط الله عمله علىٰ سبيل العموم - حسب فهمنا والعلم عند الله -: أن هذا الرجل كان يتعبد لله وفي نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل علىٰ الله كأنه يمن علىٰ الله بعمله، وحينئذ يفتقد ركنًا عظيمًا من أركان العبادة؛ لأن العبادة مبنية علىٰ الذل والخضوع؛ فلابد أن تكون عبدًا لله ﷻ بما تعبدك به وبما بلغك من كلامه، وكثير من الذين يتعبدون لله بما تعبدهم به قد لا يتعبدون بوحيه، لأنه قد يصعب عليهم أن يرجعوا علىٰ رأيهم إذا تبين لهم الخطأ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويُحرفون النصوص من أجله، والواجب أن تكون لله عبدًا فيما بلغك من وحيه، بحيث تخضع له خضوعًا كاملًا حتىٰ تحقق العبودية.

ويحتمل معنىٰ «**أحبطت عملك**»؛ أي: عملك الذي كنت تفتخر به علىٰ هذا الرجل، وهذا أهون؛ لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غيره، لكن ظاهر حديث أبي هريرة يمنع هذا الاحتمال، حيث جاء فيه أن الله تعالىٰ قال: أذهبوا به إلىٰ النار.

ونظير هذا مما يحتمل العموم والخصوص قوله ﷺ في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده فيمن منع الزكاة: «**فإنَّا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا**»(٨٠٤). فقوله: «**وشطر ماله**»، هل المراد جميع ماله، أو ماله الذي منع زكاته؟ يحتمل الأمرين، فمثلًا: إذا كان عنده عشرون من

---

(٨٠٤) أخرجه أبو داود، كتاب: الزكاة، باب: في زكاة السائمة، برقم (١٥٧٥)، والنسائي، كتاب: الزكاة، باب: عقوبة مانع الزكاة، برقم (٢٤٤٤)، وأحمد (٥/ ٢) من حديث معاوية بن حيدة ﷺ، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٣/ ٢٦٣).

الإبل، فزكاتها أربع شياه، فمنع الزكاة؛ فهل نأخذ عشرًا من الإبل فقط مع الزكاة، أو إذا كان عنده أموال أخرىٰ من بقر وغنم ونقود نأخذ نصف جميع ذلك مع الزكاة؟ اختلف في ذلك:

فقيل: نأخذ نصف ماله الذي وقعت فيه المخالفة.

وقيل: نأخذ نصف جميع المال.

والراجح أنه راجع إلىٰ رأي الإمام حسب المصلحة، فإن كان أخذ نصف المال كله أبلغ في الردع؛ أخذ نصف المال كله، وإلا؛ أخذ نصف المال الذي حصلت فيه المخالفة.

❁ **قوله**: «تكلم بكلمة»:

يعني: قوله: والله، لا يغفر الله لك.

قوله: «**أوبقت**»؛ أي: أهلكت، ومنه حديث: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»[(٨٠٥)]؛ أي: المهلكات.

قوله: «**دنياه وأخرته**»؛ لأن من حبط عمله؛ فقد خسر الدنيا والآخرة.

أما كونها أوبقت آخرته؛ فالأمر ظاهر؛ لأنه من أهل النار والعياذ بالله، وأما كونها أوبقت دنياه؛ فلأن دنيا الإنسان حقيقة هي ما اكتسب فيها عملًا صالحًا، وإلا فهي خسارة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر:١ - ٣] وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الزمر:١٥]، فمن لم يوفق للإيمان والعمل الصالح، فقد خسر دنياه حقيقة؛ لأن مآلها للفناء، وكل شيء فانٍ فكأنه لم يوجد، واعتبر هذا بما حصل لك مما سبق من عمرك تجده مر عليك وكأنه لم يكن وهذا من حكمة الله ﷻ لئلا يركن إلىٰ الدنيا.

وقوله: «**قال أبو هريرة**»؛ يعني: في الحديث الذي أشار إليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: التحذير من التألي علىٰ الله؛ لقوله: «من ذا الذي يتألي علىٰ أن لا أغفر لفلان»، وكونه أحبط عمله بذلك.

---

(٨٠٥) أخرجه البخاري، كتاب: الوصايا، باب: قول الله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، برقم (٢٧٦٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثانية: كون النار أقرب إلىٰ أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك: هاتان المسألتان اللتان ذكرهما المؤلف تؤخذان من حبوط عمل المُتألي والمغفرة للمسرف علىٰ نفسه، ثم أشار إلىٰ حديث رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الجنة أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»[٨٠٦]، ويقصد بهما تقريب الجنة أو النار، والشراك: سير النعل الذي يكون بين الإبهام والأصابع.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة... » إلىٰ آخره: يشير المؤلف إلىٰ حديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يري أن تبلغ حيث بلغت يهوي بها في النار سبعين خريفًا»[٨٠٧]، أو «أبعد مما بين المشرق والمغرب»[٨٠٨]، وهذا فيه الحذر من مزلة اللسان، فقد يسبب الهلاك، ولهذا قال النبي ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»[٨٠٩]، وقال لمعاذ: «كف عليك هذا -يعني لسانه». قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم - أو قال: علىٰ مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟!»[٨١٠]

ولا سيما إذا كانت هذه الزلة ممن يقتدىٰ به، كما يحدث من دعاة الضلال والعياذ بالله؛ فإن عليه وزره ووزر من تبعه إلىٰ يوم القيامة.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه: فإنه قد غفر له بسبب هذا التأنيب، وهذه لم تظهر لي من الحديث ولعلها تؤخذ من قوله: «قد غفرت له».

لا شك أن الإنسان قد يُغفر له بشيء هو من أكره الأمور إليه، مثل الجهاد في سبيل الله، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

---

(٨٠٦) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الجنة أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك، برقم (٦٤٨٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٨٠٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: فيمن تكلم بكلمة يضحك به الناس، برقم (٢٣١٤)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، برقم (٣٩٧٠) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (١٦١٨).

(٨٠٨) تقدم تخريجه.

(٨٠٩) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: حفظ اللسان، برقم (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٨١٠) تقدم تخريجه.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في الإقسام علىٰ الله»:

مناسبة ذكر هذا الباب في كتاب التوحيد:

أنَّ الإقسام علىٰ الله إذا كان علىٰ وجه الحجر علىٰ الله فهو منافٍ للتوحيد؛ لأنه من سوء الأدب مع الله تعالىٰ.

«ما جاء في الإقسام علىٰ الله»؛ أي: من الأدلة علىٰ تحريم ذلك.

قوله: «من ذا الذي؟ »: استفهام إنكار.

«يتألَّىٰ عليَّ»؛ أي: يحلف، والألية: بتشديد الياء: الحلف.

أحبطت عملك؛ أي: أهدرته.

«أوبقت»؛ أي: أهلكت.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر النبي ﷺ علىٰ وجه التحذير من خطر اللسان، أنَّ رجلًا حلف أن الله لا يغفر لرجلٍ مذنبٍ؛ فكأنه حكم علىٰ الله وحجر عليه؛ لما اعتقد لنفسه عند الله من الكرامة والحظ والمكانة، ولذلك المذنب من الإهانة، وهذا إدلال علىٰ الله وسوء أدبٍ، معه، أوجب لذلك الرجل الشقاء والخسران في الدنيا والآخرة.

مناسبة ذكر الحديث في الباب:

أنَّه يدل علىٰ تحريم الإقسام علىٰ الله علىٰ وجه الحجر علىٰ الله والإعجاب بالنفس؛ وذلك نقص في التوحيد.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم الإقسام علىٰ الله إلَّا إذا كان علىٰ وجه حسن الظنِّ به وتأميل الخير منه.

٢- وجوب حسن الأدب مع الله.

٣- شدة خطر اللسان ووجوب حفظه.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب ما جاء في الإقسام على الله»:**

الإقسام على الله يكون على جهتين:

جهة يكون فيها التكبر والتجبر، ورفعة هذا المتألي نفسه حتى يجعل له على الله حقًّا، وهذا منافٍ لكمال التوحيد، وقد ينافي أصله، وصاحبه متوعد بالعقاب الذي جاء في مثل هذا الحديث، فهذا يتألى على الله -جل وعلا- أن يحكم بما اختاره هو من الحكم، فيقول: والله لا يحصل لفلان كذا تكبرًا واحتقارًا للآخرين، فيريد أن يجعل حكم الله كحكمه تأليًا واستكبارًا على الله أن يفعل الله -جل وعلا- ما ظنه هو، فهذا التألي والاستكبار نوع تحكم في أمر الله -جل وعلا- وفي فعله، وهذا لا يصدر من قلب معظم لله جل وعلا.

والجهة الثانية: أن يقسم على الله -جل جلاله- لا على جهة التألي، ولكن على جهة أن ما ظنه صحيح في أمر واقع له، أو في أمر يواجهه، فهذا يقسم على الله أن يكون كذا في المستقبل على جهة التذلل والخضوع لله لا على جهة التألي، وهذا هو الذي جاء فيه الحديث: **«ومن عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»**[٨١١]. لأنه لو أقسم على الله، لا على جهة التعاظم والتكبر والتألي، ولكن على جهة الحاجة والافتقار إلى الله، فحين أقسم أقسم محتاجًا إلى الله، وأكّد ذلك بالله وبأسمائه من جهة ظنه الحسن بالله -جل وعلا- فهذا جائز، ومن عباد الله من لو أقسم على الله لأبره؛ لأنه قام في قلبه من العبودية لله والذل والخضوع ما جعل الله -جل وعلا- يجيبه في سؤاله، ويعطيه طلبته ورغبته.

وأما الحال الأولى فهي حال المتكبر المترفع الذي يظن أنه بلغ مقامًا بحيث يكون فعل الله -جل وعلا- تبعًا لفعله، فتكبر واحتقر غيره، فبهذا التفصيل يتضح ما جاء في هذا الباب من الحديث.

❁ **قوله: « عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجلّ: من ذا الذي يتألى علي ألّا أغفر لفلان؟...»:**

هذا الذي قال: والله لا يغفر الله لفلان، كان رجلًا صالحًا، والآخر رجلًا فاسقًا، فقال الرجل الصالح: والله لا يغفر الله لفلان؛ لأن فلانًا هذا كان رجلًا فاسقًا مريدًا كثير العصيان، فتألى هذا العابد وعظّم نفسه وظن أنه بعبادته لله -جل وعلا- بلغ مقامًا يكون متحكمًا فيه بأفعال

---

(٨١١) أخرجه البخاري، كتاب: الصلح، باب: الصلح في الدية، برقم (٢٧٠٣)، ومسلم، كتاب: القسامة والمحاربين، باب: إثبات القصاص في الأسنان، برقم (٢٤/ ١٦٧٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الله، وأن الله لا يرد شيئًا طلبه، أو له أن يتحكم في الخلق، وهذا ينافي حقيقة العبودية التي هي التذلل لله -جل وعلا- فالله سبحانه وتعالىٰ عاقبه، فقال: «**من ذا الذي يتألىٰ علي؟**» يعني: يتعاظم ويتكبر عليّ ويحلف عليّ؛ لأن «**يتألىٰ**» من الأليَّة، وهي الحلف، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾[البقرة:٢٢٦]، والإيلاء من الأليّة وهي الحلف، فيتألىٰ، يعني: يحلف علىٰ جهة التكبر والتعاظم.

«**ألا أغفر لفلان، إني قد غفرت له، وأحبطت عملك**» فغفر للطالح، وأحبط عمل ذلك الرجل العابد، وهذا يبين لك عظم شأن مخالفة تعظيم الله -جل جلاله- وعظم مخالفة توحيد الله -سبحانه وتعالىٰ- فهذا الرجل الفاسق أتاه خير من حيث لا يشعر، وقيلت في حقه كلمة بحسب الظاهر أنها مؤذية له، وأن فيها من الاحتقار والازدراء له ما يجعله في ضعة بين الناس، حيث شهد عليه هذا الصالح بقوله: «**والله لا يغفر الله لفلان**» فكانت هذه الكلمة التي ساءته وآذته فيها مصلحة عظيمة له بأن غُفر له ذنبه، ولهذا نبّه الشيخ في مسائل الباب بمسألة معناها: أن من الابتلاء والإيذاء للشخص ما يكون أعظم أسباب الخير له، فليست العبرة باحتقار الناس، ولا بكلامهم، ولا بإيذائهم، ولا بتصنيفهم للناس، بل العبرة بحقيقة الأمر بها عند الله -جل جلاله- فالواجب علىٰ العباد جميعًا أن يعظموا الله، وأن يخبتوا إليه، وأن يظنوا أنهم أسوأ الخلق، حتىٰ يقوم في قلوبهم أنهم أعظم حاجة إلىٰ الله -جل وعلا- وأنهم لم يوفوا الله حقه، أما التعاظم في النفس، والتعاظم بالكلام والمدح والثناء ونحو ذلك، فليس من صنيع المجلين لله -جل وعلا- الخائفين من تقلب القلوب، فالله -جل وعلا- يقلب القلوب، ويصرفها كيف يشاء، فالقلب المخبت المنيب يحذر ويخاف دائمًا من أن يتقلب قلبه، فينتبه للفظه، وينتبه للحظه، وينتبه لسمعه، وينتبه لحركاته، لعل الله -جل وعلا- أن يميته غير مفتون ولا مخزي.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله، أي: الحلف عليه.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، أي: لكون هذا الرجل ذهب به إليها بمجرد هذه الكلمة.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك أي: لكون هذا المذنب بمجرد ما قيل له؛ قال الله له: ادخل الجنة برحمتي.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة**» إلخ، أي: إنه استوجب النار بسبب الكلمة التي قال وهي قوله: والله لا يغفر الله لفلان.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه، أي: إن هذا المذنب كان يكره أن يقال له: والله لا يغفر الله لك فغفر له بسببها.

* الأسئلة *

س: ما معنى الإقسام على الله وما حكمه؟

جـ: الإقسام على الله هو الحلف أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا.

وحكمه التحريم إذا كان على جهة الحجر على الله والقطع بحصول المقسم على حصوله. وهذا النوع مناف للتوحيد؛ لأنه سوء أدب مع الله. وأما إذا كان على جهة حسن الظن بالله فهو جائز لقوله ﷺ «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» (٨١٢)رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

قوله: «عن جندب عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «قال رجل والله لا يغفر الله لفلان فقال الله عز وجل من ذا الذي يتألي على أن لا اغفر لفلان إني قد غفرت له وأحبطت عملك» (٨١٣)رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة: «أن القائل رجل عابد»، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته» (٨١٤)رواه أحمد.

س: ما معنى يتألى، وما هو إحباط العمل، وما نوع الاستفهام في قوله: «من ذا الذي يتألى»، وما معنى أوبقت، اذكر ما يستفاد من هذا الحديث؟

جـ: معنى يتألى: يحلف، ومعنى إحباط العمل: إبطاله وذهابه، والاستفهام على جهة الإنكار والوعيد. ومعنى أوبقت: أهلكت.

ويستفاد من الحديث:

١ - التحذير من التألي على الله والإقسام عليه.

٢ - قرب الجنة والنار.

---

(٨١٢)تقدم تخريجه.

(٨١٣)تقدم تخريجه.

(٨١٤)تقدم تخريجه.

٣ - أن الإنسان قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

٤ - تحريم العجب بالنفس ووجوب التأدب مع الله في الأقوال والأفعال.

٥ - بيان خطر اللسان والتحرز من الكلام كما قالﷺ: «**وهل يكب الناس في النار على وجوهم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم**»[٨١٥] وقالﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها - أي: ما يفكر فيها - يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**»[٨١٦] متفق عليه.

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

---

(٨١٥) تقدم تخريجه.

(٨١٦) تقدم تخريجه.

الدرس الخامس والستون:

باب لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي إلى النبي[٨١٧] ﷺ، فقال: يا رسول الله: نُهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! سبحان الله!» فما زال يُسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه؛ ثم قال[٨١٨]: «ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه.. »[٨١٩] وذكر الحديث. رواه أبو داود.

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: «نستشفع بالله عليك».

الثانية: تغيره تغيرًا عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».

الرابعة: التنبيه على تفسير «سبحان الله!».

الخامسة: أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب لا يستشفع بالله على خلقه»:

أي: أن ذلك حرام، وهضم للربوبية، وقدح في توحيد العبد، فالله سبحانه هو الكبير المتعال، والاستشفاع طلب الشفاعة، وهي لا تطلب إلا من العلي الأعلى جل وعلا، فلا يجوز للعبد أن يطلب من الله الشفاعة إلى أحد من خلقه.

---

(٨١٧) في نسخة ابن قاسم: «إلى رسول الله».

(٨١٨) زاد في نسخة السعدي وابن باز والفوزان: «النبي ﷺ».

(٨١٩) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في الجهمية والمعتزلة، برقم (٤٧٢٦)، والطبراني، برقم(١٥٤٧) وغيرهما، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود».

قوله: «عن جبير بن مطعم رضي الله عنه»:

هو ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي، كان من أكابر قريش، أسلم قبل الفتح ومات سنة ٥٧ هـ.

قوله:«يا رسول الله نهكت الأنفس»: نهكت بضم النون أي: جهدت، كما في بعض الألفاظ: وضعفت وقلت وضنيت ودنفت ألفاظ مترادفة، نهكًا فهي منهوكة.

قوله:«وجاع العيال وهلكت الأموال »: ولفظه: جهدت الأنفس، وضاع العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام.

قوله:«فاستسق لنا ربك»؛ أي: اسأله أن يسقينا.

قوله:«فإنانستشفع بالله عليك...»: الاستشفاع بالرسولﷺ في حياته إنما المراد به استجلاب دعائه، ولذلك لم ينكره عليه، فإن دعاءه مستجاب، وكذا كل حي صالح يرجىٰ أن يستجاب له، لا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل، وقد «قال النبيﷺ لعمر: لا تنسنا من صالح دعائك»[٨٢٠] . وأما بعد وفاتهﷺ فلا يجوز طلب ذلك منهﷺ لاستحالة ذلك منه.

قوله:«فقال النبيﷺ : سبحان الله، سبحان الله »: لفظه فقال: «ويحك أتدري ما تقول» وسبح رسول اللهﷺ ، أي: سبح الله كثيرًا وعظمه، لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده، وهكذا كان يسبح إذا استعظم أمرا أو يكبر أو يهلل.

قوله:«فما زال يسبح حتىٰ عرف ذلك...»؛ أي: عرف الغضب في وجوه أصحاب رسول اللهﷺ ؛ لغضب رسول اللهﷺ لما سمع من الأعرابي هضمه لجناب الربوبية.

قوله:«ثم قال: ويحك أتدري ما الله»: ويح كلمة تقال للزجر أو للرحمة، واستعملتها العرب بمعنىٰ التعجب والتوجع، لا تريد بها إيقاع الهلكة، وفيه إشارة إلىٰ قلة علمه بعظمة الله وجلاله.

قوله:«إن شأن الله أعظم من ذلك»؛ أي: من أن يستشفع به إلىٰ أحد من خلقه، قال الشافعي: إنما يشفع عند من هو أعلىٰ منه، فهذا من أعظم النقص برب العالمين، فلذلك استعظمه رسول اللهﷺ .

---

(٨٢٠) أخرجه أبو داود، كتاب: سجود القرآن، باب: الدعاء، برقم (١٤٩٨)، والترمذي، كتاب: الدعوات، باب: (١١٠)، برقم (٣٥٦٢) وغيرهما، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٦٢٧٨).

قوله:«إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه»: ولفظه: «ويحك إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك» فهو رب كل شيء ومليكه، والخير كله بيده، لا مانع لما أعطىٰ، ولامعطي لما منع، ولا راد لما قضىٰ. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[فاطر:٤٤]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]. وما في أيديهم ملكه يتصرف فيه كيف يشاء، وهو الذي يشفع الشافع إليه، وقد أخرج أبو الشيخ عن أبي وجرة، قال: «لما قفل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أتاه وفد من بني فزارة، فقالوا: يا رسول الله ادع ربك أن يغيثنا، واشفع لنا إلىٰ ربك، ويشفع ربك إليك، فقال رسول الله ﷺ: ها أنا أشفع إلىٰ ربي، فمن الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا الله العظيم، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فهي تئط من عظمته، كما يئط الرحل الجديد»[٨٢١].

قوله:«وذكر الحديث رواه أبوداود» قال الذهبي: بإسناد حسن. ولفظه: «ويحك أتدري ما الله؟ إن عرشه علىٰ سماواته لهكذا، وقال بأصبعه- مثل القبة، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب»، قال ابن يسار في حديثه «إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته»[٨٢٢]. وفيه إثبات علو الله علىٰ خلقه، وأن عرشه فوق سماواته كالقبة، وتفسير سماواته بالعلو كما فسره الصحابة وغيرهم.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ قوله: «باب لا يستشفع بالله علىٰ خلقه»:

وأما الاستشفاع بالله علىٰ خلقه فهو تعالىٰ أعظم شأنًا من أن يُتوسل إلىٰ خلقه؛ لأن رتبة المتوسل به غالبًا دون رتبة المتوسل إليه وذلك من سوء الأدب مع الله، فيتعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه، فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع، وهو الكبير العظيم الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الكائنات بأسرها.

قال العلامة ابن باز:

❁ قوله: «باب لا يستشفع بالله علىٰ خلقه»:

ذكر المؤلف هذا الباب؛ لأنه من كمال التوحيد والإيمان، ولأن هذا من وسائل الشرك وهو الاستشفاع بالله علىٰ خلقه، فشأن الله أعظم من ذلك فلا يستشفع بالله علىٰ خلقه بأن يقول لأحد: إني استشفع بالله عليك، ولكن يستشفع بالمخلوق علىٰ المخلوق فيقال: يا فلان! أنا استشفع بفلان عليك،

---

(٨٢١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٣٨) من حديث يزيد بن عبد السلمي ﷺ.

(٨٢٢) تقدم تخريجه.

فهذا لا بأس به، أما على الله فلا تجوز؛ لأن شأن الله أعظم من ذلك، ومن شأن المشفوع به أن المشفوع إليه يكون أعظم، وهذا لا يليق بالله؛ لأن الله فوق الجميع. بل يسأل الله بأسمائه وصفاته.

قوله: « عن جبير بن مطعم قال »: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ؛ فقال: يا رسول الله!.

قال النبي ﷺ: سبحان الله!. هذا يقوله ﷺ في الأمور العظيمة المحبوب منها والمكروه، وفي الأشياء التي تعظم أو يتعجب منها أو ينكرها.

ولها أمثلة كثيرة كحديث الأنواط(٨٢٣)، وحديث أن الأمة شطر الجنة(٨٢٤)، وغيرها.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب لايستشفع بالله على خلقه»:

استشفع بالشيء؛ أي: جعله شافعًا له، والشفاعة في الأصل: جعل الفرد شفعًا، وهي: التوسط للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن الاستشفاع بالله على خلقه تنقص لله ﷻ؛ لأنه جعل مرتبة الله أدنى من مرتبة المشفوع إليه؛ إذ لو كان أعلى مرتبة ما احتاج أن يشفع عنده، بل يأمره أمرًا والله ﷻ لا يشفع لأحد من خلقه إلى أحد؛ لأنه أجلّ وأعظم من أن يكون شافعًا، ولهذا أنكر النبي ﷺ ذلك على الأعرابي، وهذا وجه وضع هذا الباب في كتاب التوحيد.

قوله: «**أعرابي**»: واحد الأعراب، وهم سكان البادية، والغالب على الأعراب الجفاء؛ لأنهم أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله.

قوله: «نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال»:

«**نهكت**»: أي: ضعفت.

و«**جاع العيال، وهلكت الأموال**»، أي: من قلة المطر والخصب، فضعف الأنفس بسبب ضعف القوة النفسية والمعنوية التي تحصل فيها إذا لم يكن هناك خصب، وجاع العيال لقلة العيش، وهلكت الأموال؛ لأنها لم تجد ما ترعاه.

---

(٨٢٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن باب: لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم، برقم (٢١٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨) وغيرهما، من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٨٢٤) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: سورة الحج، برقم (٤٧٤١)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: قوله يقول تعالى لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، برقم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قوله: «**فاستسق لنا ربك**»؛ أي: اطلب من الله أن يسقينا، وهذا لا بأس به؛ لأن طلب الدعاء ممن ترجىٰ إجابته من وسائل إجابة الدعاء.

قوله: «**نستشفع بالله عليك**»، أي: نجعله واسطة بيننا وبينك لتدعو الله لنا، وهذا يقتضي أنه جعل مرتبة الله في مرتبة أدنىٰ من مرتبة الرسول ﷺ.

قوله: «**ونستشفع بك علىٰ الله**»؛ أي: نطلب منك أن تكون شافعًا لنا عند الله، فتدعو الله لنا، وهذا صحيح.

قوله: «**سبحان الله! سبحان الله!**»: قاله ﷺ استعظامًا لهذا القول، وإنكارًا له، وتنزيهًا لله ﷻ عما لا يليق به من جعله شافعًا بين الخلق وبين الرسول ﷺ.

و «**سبحان**»: اسم مصدر منصوب علىٰ أنه مفعول مطلق من سبح بسبح تسبيحًا، وإذا جاءت الكلمة بمعنىٰ المصدر وليس فيها حروفه؛ فهي اسم مصدر، مثل: كلام اسم مصدر كَلّم والمصدر تكليم، ومثل: سلام اسم مصدر سَلّم والمصدر تسليم.

و «**سبحان**»: مفعول مطلق، وهو لازم النصب وحذف العامل أيضًا، فلا يأتي مع الفعل، فلا تقول: سبحت الله سبحانًا إلا نادرًا في الشعر ونحوه.

والتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به من نقص، أو عيب، أو مماثلة للمخلوق، أو ما أشبه ذلك.

وإن شئت أدخل مماثلة المخلوق مع النقص والعيب؛ لأن مماثلة الناقص نقص، بل مقارنة الكامل بالنقص تجعله ناقصًا، كما قال الشاعر:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ ... إذا قِيلَ إنَّ السَّيفَ أَمْضَىٰ مِنَ العَصَا

قوله: «**فما زال**»: إذا دخلت «ما» علىٰ زال الذي مضارعها يزال؛ صار النفي إثباتًا مفيدًا للاستمرار؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ ...﴾[الأنبياء:١٥]، وكقوله تعالىٰ في المضارع: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[هود:١١٨-١١٩]، وجملة «**يسبح**»: خبر زال.

❁ **قوله: «حتىٰ عرف ذلك في وجوه أصحابه»:**

أي: عرف أثره في وجوه أصحابه وأنهم تأثروا بذلك؛ لأنهم عرفوا أنه ﷺ لا يسبح في مثل هذا الموضع ولا يكرره إلا لأمر عظيم، ووجه التسبيح هنا أن الرجل ذكر جملة فيها شيء من التنقص لله تعالىٰ؛ فسبح النبي ﷺ ربه تنزيهًا له عما توهمه هذه الكلمة، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه في السفر إذا هبطوا واديًا سبحوا؛ تنزيهًا لله تعالىٰ عن السفول الذي

كان من صفاتهم، وإذا علوا نشزًا كبروا؛ تعظيمًا لله ﷻ، وأن الله تعالىٰ هو الذي له الكبرياء في السماوات والأرض.

قوله: «**ويحك**»: ويح: منصوب بعامل محذوف، تقديره: ألزمك الله ويحك، وتارة تضاف؛ فيقال: ويحك، وتارة تقطع عن الإضافة؛ فيقال: ويحًا لك، وتارة ترفع علىٰ أنها مبتدأ، فيقال: ويحه أو ويحٌ له، وهي وويل وويس كلها متقاربة في المعني.

ولكن بعض علماء اللغة قال: إن ويح كلمة ترحم، وويل كلمة وعيد.

فمعنىٰ ويحك: إني أترحم لك وأحن عليك.

ومنهم من قال: كل هذه الكلمات تدل علىٰ التحذير.

فعلىٰ معنىٰ أن ويح بمعنىٰ الترحم يكون قوله ﷺ ترحمًا لهذا الرجل الذي تكلم بهذا الكلام، كأنه لم يعرف قدر الله.

قوله: «**أتدري ما الله**»: المراد بالاستفهام التعظيم؛ أي: شأن الله عظيم، ويحتمل أن المعنىٰ: لا تدري ما الله، بل أنت جاهل به؛ فيكون المراد بالاستفهام النفي.

وقوله: «**ما الله**»: جملة استفهامية معلقة لـ «تدري» عن العمل؛ لأن درىٰ تنصب مفعولين، لكنها تعلق بالاستفهام عن العمل وتكون الجملة في محل نصب سَدَّت مسد مفعولي تدري.

قوله: «**إن شأن الله أعظم من ذلك**»؛ أي: إن أمر الله وعظمته أعظم مما تصورت حيث جئت بهذا اللفظ.

قوله: «**إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد**»؛ أي: لا يطلب منه أن يكون شفيعًا إلىٰ أحد، وذلك لكمال عظمته وكبريائه، وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول: نستشفع بالله عليك.

فإن قيل: أليس قد قال النبي ﷺ «**من سأل بالله فأعطوه**»[٨٢٥]، وهذا دليل علىٰ جواز السؤال بالله؛ إذ لو لم يكن السؤال بالله جائزًا لم يكن إعطاء السائل واجبًا؟!

والجواب أن يقال: إن السؤال بالله لا يقتضي أن تكون مرتبة المسئول به أدنىٰ من مرتبة المسئول بخلاف الاستشفاع، بل يدل علىٰ أن مرتبة المسئول به عظيمة، بحيث إذا سئل به أعطىٰ.

---

(٨٢٥) تقدم تخريجه.

علىٰ أن بعض العلماء قال: «من سألكم بالله»، أي: من سألكم سؤالًا بمقتضىٰ شريعة الله فأعطوه، وليس المعني من قال: أسألك بالله، والمعنىٰ الأول أصح، وقد ورد مثله في قول الملك: «أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن»[٨٢٦]

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: إنكاره علىٰ من قال: «نستشفع بالله عليك»: تؤخذ من قوله: **«سبحانه الله! أتدري ما الله»**، وقوله: **«إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه»**.

الثانية: تغيره تغيرًا عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

تؤخذ من قوله: **«فمازال يسبح حتىٰ عرف ذلك في وجوه أصحابه»**، وكونه يكرر سبحان الله هذا يدل علىٰ أنه تغير حتىٰ عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة، وهذا دليل علىٰ أن هذه الكلمة كلمة عظيمة منكرة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك علىٰ الله»؛ لأنه قال: لا يستشفع بالله علىٰ أحد؛ فأنكر عليه ذلك، وسكت عن قوله: «نستشفع بك علىٰ الله»؛ وهذا يدل علىٰ جواز ذلك، وهنا قاعدة وهي: إذا جاء في النصوص ذكر أشياء، فأنكر بعضها وسُكِت عن بعض؛ دل علىٰ أن ما لم ينكر فهو حق، مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[الأعراف:٢٨]؛ فأنكر قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وسكت عن قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ فدل علىٰ أنها حق، ومثلها عدد أصحاب الكهف، حيث قال عن قول: ﴿ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾، وسكت عن قول: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[الكهف:٢٢].

الرابعة: التنبيه علىٰ تفسير «سبحان الله!». لأن قوله: «إن شأن الله أعظم» دليل علىٰ أنه منزه عما ينافي تلك العظمة.

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء: وهذا في حال حياته، أما بعد وفاته فلم يكونوا يفعلونه؛ لأنه ﷺ انقطع عمله بنفسه وعبادته، ولهذا لما حصل الجدب في عهد عمر بن

(٨٢٦) تقدم تخريجه.

الخطاب رضي الله عنه استسقىٰ بالعباس، فقال: «اللهم! إن كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»[٨٢٧]. وتوسلهم بالنبي ﷺ كان بطلبهم الدعاء منه، ولهذا جاء في بعض الروايات: أن عمر كان يأمر العباس فيقوم فيدعو.

وبهذا نعرف أن القصة المروية عن الرجل العتبي الذي كان جالسًا عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي، فقال: السلام عليكم يا رسول الله! سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء:٦٤]، وإني قد جئت مستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك إلىٰ ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف، قال العتبي: فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال: «يا عتبي! بشر الأعرابي أن الله قد غفر له»[٨٢٨].

فهذه الرواية باطلة لا صحة لها؛ لأن صاحبها مجهول، وكذلك من رواها عنه مجهولون، ولا يمكن أن تصح؛ لأن الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ ولم يقل: إذا ظلموا، و «إذ» لما مضىٰ بخلاف «إذا»؛ والصحابة رضي الله عنهم لما لحقهم الجدب في زمن عمر لم يستسقوا بالرسول ﷺ، وإنما استسقوا بالعباس بن عبد المطلب بدعائه وهو حاضر فيهم[٨٢٩].

ومن فوائد الحديث:

١- أنه ينبغي أن يقدم الإنسان عند الطلب الأوصاف التي تستلزم العطف عليه؛ لقوله: **«نهكت الأنفس»**.

٢- الترحم علىٰ المذنب إذا قلنا: إن **«ويح»** للترحم.

---

(٨٢٧) أخرجه البخاري، كتاب: الاستسقاء، باب: سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، برقم (١٠١٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفًا عليه.

(٨٢٨) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٩١).

(٨٢٩) تقدم تخريجه.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: «باب لا يستشفع بالله علىٰ خلقه»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

بيان تحريم الاستشفاع بالله علىٰ خلقه؛ لأنه هضمٌ للربوبية وقدحٌ في توحيد العبد؛ لأنَّ الشافع يشفع عند من هو أعلىٰ منه والله تعالىٰ منزهٌ عن ذلك؛ لأنه لا أحد أعلىٰ منه.

قوله:«عن جبير بن مطعم...»:

التراجم:

جبير هو: جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي كان من أكابر قريش أسلم قبل الفتح ومات سنة ٥٧هـ رضي الله عنه.

«نُهكت»: بضم النون، أي: جهدت وضعفت.

«فاستسق لنا ربك»، أي: اسأله أن يسقينا بأن ينزل المطر.

«نستشفع بالله عليك»: نجعله واسطةً إليك.

«سبحان الله»، أي: تنزيهًا لله عما لا يليق به.

«عرف ذلك في وجوه أصحابه»، أي: عُرف الغضب فيها؛ لغضب رسول الله ﷺ.

«ويحك»: كلمة تقال للزجر.

«أتدري ما الله؟ »: إشارة إلىٰ قلة علمه بعظمة الله وجلاله.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يذكر هذا الصحابي أن رجلًا من البادية جاء إلىٰ النبي ﷺ يشكو ما أصاب الناس من الحاجة إلىٰ المطر؛ ويطلب من النبي ﷺ أن يسأل ربه أن ينزله عليهم؛ لكنه أساء الأدب مع الله؛ حيث استشفع به إلىٰ النبي ﷺ وهذا جهلٌ منه بحق الله؛ لأن الشفاعة إنما تكون من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، ولذلك أنكر عليه النبي ﷺ ذلك ونزه ربه عن هذا التنقص، ولم ينكر عليه الاستشفاع بالنبي ﷺ إلىٰ الله سبحانه بدعائه إياه.

مناسبة الحديث للباب:

أنه يدل علىٰ تحريم الاستشفاع بالله علىٰ أحدٍ من خلقه؛ لأنَّه تنقص ينزه الله عنه.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم الاستشفاع بالله علىٰ أحدٍ من خلقه؛ لما في ذلك من التنقص لله تعالىٰ.

٢- تنزيه الله عما لا يليق به.

٣- إنكار المنكر وتعليم الجاهل.

٤- جواز الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته، بأن يطلب منه أن يدعو الله في قضاء حاجة المحتاج؛ لأنَّه مستجاب الدعوة، أمَّا بعد موته فلا يطلب منه ذلك؛ لأن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك.

٥- التعليم بطريقة السؤال؛ لأنه أوقع في النفس.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب لا يستشفع بالله علىٰ خلقه»:

«**لا يستشفع**» يعني: لا يُجعل الله شفيعًا علىٰ الخلق؛ لأن شأن الله -جل وعلا- أعظم وأجل من أن يستشفع به، ويُجعل واسطة للانتفاع من أحد من الخلق، فالشفاعة المعروفة: أن تأتي إلىٰ أحد، وتطلب أن يكون شفيعًا عند آخر؛ لأن ذلك الآخر هو الذي يملك ما تريد والنفع عنده، وهذا يكون واسطة، ولا يستطيع أن ينفعك هو بنفسه إلا بأن يتوسط. والله -جل جلاله- لا يجوز أن يظنّ به ذلك الظن؛ لأنه ظن سوء بالله -جل جلاله- فالله -سبحانه- لا يصلح أن يُجعل واسطة لأحد أو إلىٰ أحد من الخلق أو علىٰ أحد من الخلق، بل هو -جل وعلا- الذي يملك الأمور جميعًا، فالاستشفاع بالله علىٰ الخلق يعني: أن يُجعل الله واسطة يتوسط العبد بربه علىٰ أحد من الخلق، وهذا منافٍ لكمال التوحيد، وعمل وقول من الأقوال المنافية لتعظيم الله -جل وعلا- التعظيم الواجب، ولهذا ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث جبير بن مطعم والشاهد منه قول الأعرابي للنبي عليه الصلاة والسلام: «**فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك وبك علىٰ الله**» يعني: نستشفع بالله نجعل الله -جل وعلا- واسطة يتوسط لنا عندك حتىٰ تدعو، والله -جل وعلا- هو الملك الحي القيوم الحق المبين، نواصي العباد بيديه، يصرفها كيف يشاء، فشأن الله أعظم من أن يستشفع به علىٰ أحد من خلقه، بل الرجل أو المكلف يستشفع بأحد من الخلق عند مخلوق آخر يحتاجه في شيء، والله -جل وعلا- هو الذي يملك الأشياء جميعًا، بيده الملك والملكوت، وهو الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وبيده خزائن كل شيء ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[الحجر:٢١]، فالعباد هم المحتاجون إلىٰ الله وشأن الله أعظم من ذلك، إذ المخلوق

حقير وضيع بالنسبة إلىٰ الرب -جل جلاله- فلا يصلح أن يُجعل الله -جل وعلا- واسطة عنده حتىٰ يقبل هذه الواسطة، بل شأن الله -جل وعلا- أعظم من ذلك، ولهذا قال سيد الخلق، وسيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام رادًّا علىٰ هذا الأعرابي الذي قال: نستشفع بالله عليك، وبك علىٰ الله فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**سبحان الله، سبحان الله!** » يعني: تنزيهًا، وتعظيمًا لله، وإبعادًا لله عن كل وصف سوء أو شائبة نقص، وعن كل ظن سوء به جل وعلا.

«**فما زال يكررها حتىٰ عُرف ذلك في وجوه أصحابه**» من شدة تسبيحه، وتنزيهه لربه -جل وعلا- وهذا من الغضب لله -جل جلاله- فصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، فما كان أعلمه بربه، وما كان أعرفه بربه!

ثم قال: «**ويحك أتدري ما الله؟! إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد**» فالله -جل وعلا- من علم أسماءه وعلم الصفات المستحقة له -جل وعلا- فإنه لن يخطر بخاطره ظن سوء به-جل وعلا- أو استنقاص له جل وعلا.

فهذا الباب فيه -كما في الأبواب قبله- ما ينبغي أن يتحرز منه الموحد من الألفاظ التي فيها سوء ظن بالله -جل وعلا- وتنقص لمقام الربوبية لله جل جلاله.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: إنكاره علىٰ من قال: نستشفع بالله عليك أي: نطلب من الله أن يطلب منك، وهذا ينافي عظمة الله عز وجل.

الثانية: تغيره تغيرًا عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة، أي: إنكارًا لهذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: نستشفع بك علىٰ الله، أي: نطلب منك أن تسأل الله لنا لكونه يقدر علىٰ ذلك.

الرابعة: التنبيه علىٰ تفسير سبحان الله، أي: تنزيهًا له عن هذا الكلام الذي لا يليق بجلاله وعظمته.

الخامسة: أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء، أي: في حياته يطلبون منه أن يستسقي الله لهم، وأما بعد موته فلم يفعلوا ذلك، بل عدلوا إلىٰ غيره كما فعل عمر مع العباس ومعاوية مع يزيد بن الأسود الجرشي.



* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن الاستشفاع بالله علىٰ خلقه مناف للتوحيد؛ لأن فيه تنقص لرب العالمين.

س: ما هو الاستشفاع وما حكم الاستشفاع بالله على خلقه مع التعليل؟

جـ: الاستشفاع هو طلب الشفاعة والاستشفاع بالله علىٰ خلقه حرام؛ لأنه تعالىٰ أعظم شأنًا من أن يتوسل به إلىٰ خلقه؛ لأن رتبة المتوسل به غالبًا دون رتبة المتوسل إليه وذلك سوء أدب مع الله؛ فيتعين تركه فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه؛ وكلهم يخافونه، فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع وهو الكبير العظيم الذي خضعت له الرقاب وذلت له الكائنات جميعها.

قوله: «عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال...».

س: وضح معاني الكلمات الآتية: نهكت، استسق لنا ربك، نستشفع، سبحان الله، ويحك، ما مرجع اسم الإشارة في قوله حتى عرف ذلك، وما الذي يستفاد من هذا الحديث، وبين مناسبته للباب؟

جـ: نُهكت: جهدت وضعفت، استسق لنا ربك: اسأله لنا السقيا وهي المطر، نستشفع: نطلب الشفاعة، سبحان الله: تنزيهًا لله عما لا يليق به، ويحك: كلمة تقال للزجر، والإشارة إلىٰ غضب الصحابة لغضب الرسول ﷺ.

ومناسبة الحديث للباب: أن النبي ﷺ أنكر فيه الاستشفاع بالله علىٰ خلقه واستعظمه ونهىٰ عنه.

ويستفاد منه:

١ - تحريم الاستشفاع بالله علىٰ خلقه؛ لأن شأنه أعظم من ذلك.

٢ - إثبات علو الله علىٰ خلقه وأن عرشه فوق سماواته؛ لأن في بعض الروايات الحديث «أن الله فوق عرشه وعرشه فوق سماواته».

س: ما معنى الاستشفاع بالرسول ﷺ، وما حكمه، وهل الاستشفاع خاص به، وما الفرق بين الحي والميت في الاستشفاع؟

جـ: الاستشفاع بالرسول ﷺ المراد به طلب دعائه وهو جائز في حياته. وأمَّا بعد وفاته فلا يجوز. وليس خاصًا به بل كل حي حاضر يرجىٰ أن يستجاب له فلا بأس أن يطلب منه الدعاء.

وأما الميت فإنما يشرع في حقه الدعاء له علىٰ جنازته وعلىٰ قبره وفي غير ذلك. وأما دعاؤه فلم يشرع بل قد دل الكتاب والسنة علىٰ النهي عنه والوعيد عليه. فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر فدعاؤه شرك.

وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم. وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.



الدرس السادس والستون:

باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: «انطلقت في وفد بني عامر إلىٰ رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «السيد الله تبارك وتعالىٰ». قلنا[٨٣٠]: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا. فقال: قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»[٨٣١]. رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أنس رضي الله عنه: «أن ناسًا قالوا: يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا! وسيدنا وابن سيدنا! فقال: يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»[٨٣٢].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تحذير الناس من الغلو.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: «أنت سيدنا».

الثالثة: قوله: «لا يستجرينكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: [قوله][٨٣٣]: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله**: «باب ما جاء في حماية المصطفىٰ ﷺ حمىٰ التوحيد...»:

حماية الشيء: صونه عما يتطرق إليه من مكروه وأذىٰ، والمصطفىٰ من الصفوة، فهو صفوة

---

(٨٣٠) في نسخة ابن قاسم والفوزان: «فقلنا».

(٨٣١) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في كراهية التمادح، برقم (٤٨٠٦)، وأحمد (٤/ ٢٤) من حديث عبدالله بن الشخير رضي الله عنه، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح»، برقم (٤٩٠٠).

(٨٣٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤١)، والنسائي في «الكبرىٰ»، برقم (١٠٠٧٨)، وابن حبان، برقم (٦٢٤٠) وغيرهم، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وصححه الألباني في «غاية المرام»، برقم (١٢٧).

(٨٣٣) ساقطة من نسخة ابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي.

الخليقة وأشرفها على الإطلاق، وحمايته حمى التوحيد: صونه عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص، وقد اشتمل هذا الكتاب مع اختصاره على ذلك أو أكثره، وعلى النهي عما ينافي التوحيد أو يضعفه، يعرف ذلك من تدبره.

❁ **قوله: «عن عبد الله بن الشخير ﷺ»:**

بكسر الشين وتشديد الخاء، هو ابن عوف بن كعب بن وقدان الحريشي ثم العامري، والد مطرف الفقيه، أسلم يوم الفتح، وله صحبة ورواية.

❁ **قوله: «انطلقت في وفد بني عامر...»:**

أي: عامر بن صعصعة من عدنان، وعامر بطون كثيرة، كانوا بعالية نجد، وكان في الوفد عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب، وأربد بن قيس بن جزء، وجبار بن سلمى، رؤساء القوم، وكان عامر يريد الغدر برسول الله ﷺ أو يشركه في الأمر، أو يكون له من بعده، وواعد أربد على ذلك فعصمه الله منهم، وهلكا ببعض الطريق، أربد بصاعقة، وعامر بطاعون في عنقه، وقيل: قرحة، ومات في بيت سلولية.

❁ **قوله: «السيد الله تبارك وتعالى»:**

يريد -عليه الصلاة والسلام- أن السؤدد حقيقة لله عز وجل وأن الخلق كلهم عبيد له، والسيد إذا أطلق عليه تعالى فهو بمعنى المالك والمولى والرب. قال ابن عباس: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[الإخلاص:٢] أي: السيد الذي كمل في جميع أنواع السؤدد(٨٣٤).

وقوله: «**وقوموا إلى سيدكم**»(٨٣٥) لعله لم يواجه به سعدا، وكذا قوله: «**أنا سيد ولد آدم**»(٨٣٦) إظهارا للشجاعة، فيكون فيه تفصيل، أو يدلان على الجواز، وحديثا الباب ونحوهما يدلان على الأدب مع الله عز وجل.

---

(٨٣٤) انظر: «تفسير البغوي» تفسير سورة الإخلاص، آية (٢).

(٨٣٥) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: إذا نزل العدو على حكم رجل، برقم (٤١٢١)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: جواز قتال من نقض العهد، برقم (٦٤ / ١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٨٣٦) أخرجه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، برقم (٣/ ٢٢٧٨)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، برقم (٤٦٧٣) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

قوله: **«فقلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا»** الفضل: الخير، خلاف النقيصة، وفضل فلان علىٰ غيره إذا غلبه بالفضل، وطال يطول طولا من باب قال، إذا فضل، والطول الفضل والعطاء والقدرة والغنىٰ.

قوله: **«قولوا بقولكم»** أرشدهم إلىٰ الأدب في ذلك فأمرهم أن يقولوا بقولهم من قبل هذه المقالة، ولا يتكلفوا الألفاظ التي ربما أدت إلىٰ الغلو، أو ما لا يحسن، وأمرهم أن يدعوه بمحمد رسول الله، كما سماه الله عز وجل.

قوله: **«أو بعض قولكم»** فيه حذف، أي: أودعوا بعض قولكم واتركوه، يريد بذلك الاقتصار في المقال، وذلك أنهم كانوا مدحوه فكره لهم المبالغة ونهاهم عنه.

قوله: **«ولا يستجركم الشيطان»** **«يستجرين»** بفتح المثناة التحتية، وسكون السين، وفتح المثناة الفوقية، وسكون الجيم، وكسر الراء، أي: لا يتخذنكم جريًا، ويقال: الوكيل. وفي النهاية: فيتخذكم جريًا، أي: رسولًا وكيلًا، الخير ضد الشر، واسم تفضيل، والخيرة من القوم الأفضل، وهو ﷺ خيار من خيار.

قوله: **«ولا يستهوينكم الشيطان»**، أي: يستهيمنكم، أو يذهب بعقولكم، أو يزين لكم هواكم، كره ذلك لهم لئلا يكون وسيلة إلىٰ الغلو فيه والإطراء، وتقدم قوله: **«لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»**(٨٣٧). ونهىٰ عن المدح وشدد القول فيه، وقال: **«ويحك قطعت عنق صاحبك»**(٨٣٨). وقال: **«إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»**(٨٣٩). فمواجهة الممدوح بمدحه ولو بما فيه من عمل الشيطان، لما قد تفضي محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح في نفسه، وذلك ينافي كمال التوحيد، ويوقع في أمر عظيم ينافي العبودية الخاصة، فالنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية، صار يكره أن يُمدح صيانة لهذا المقام، وإرشادًا للأمة إلىٰ ترك ذلك نصحًا لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده أو يضعفه من الشرك ووسائله.

---

(٨٣٧) أخرجه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: قوله تعالىٰ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾، برقم (٣٤٤٥)، وأحمد (١/ ٢٣، ٢٤) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٨٣٨) أخرجه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: إذا زكىٰ رجل رجلًا كفاه، برقم (٢٦٦٢)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط، برقم (٦٥ / ٣٠٠٠) من حديث أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه.

(٨٣٩) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط، برقم (٦٩ / ٣٠٠٢)، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: في كراهية التمادح، برقم (٤٨٠٤) وغيرهما من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

قوله: «أنا محمد عبد الله ورسوله...» أرشدهم أن يصفوه بصفتين هما أعلىٰ مراتب العبد، وقد وصفه الله بهما في مواضع من كتابه، وهما قوله: عبد الله ورسوله، ولم يحب أن يرفعوه فوق ما أنزله الله عز وجل من المنزلة التي رضيها له، ومع هذا التواضع أجمع أهل العلم علىٰ أنه أشرف الخلق، وأفضلهم علىٰ الإطلاق.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «باب ما جاء في حماية النبي ﷺ وسلم حمىٰ التوحيد»:**

تقدم نظير هذه الترجمة وأعادها المصنف اهتمامًا بالمقام فإن التوحيد لا يتم ولا يحفظ و لا يحصن إلا باجتناب جميع الطرق المفضية إلىٰ الشرك، والفرق بين البابين: أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية، وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال.

فكل قول يُفضي إلىٰ الغلو الذي يُخشىٰ منه الوقوع في الشرك، فإنه يتعين اجتنابه، ولا يتم التوحيد إلا بتركه.

والحاصل: أن تمام التوحيد بالقيام بشروطه، وأركانه، ومكملاته، ومحققاته، وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهرًا وباطنًا قولًا، وفعلًا وإرادةً واعتقادًا. وقد مضىٰ من التفاصيل ما يوضح ذلك.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله: «باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمىٰ التوحيد، وسد طرق الشرك»:**

هنا تكلم علىٰ حماية التوحيد من جهة الأقوال، قد تقدم طرق وباب حماية التوحيد من جهة الأفعال وحماية جناب التوحيد، والجناب هو الجزء منه، وهذا الباب في حمىٰ التوحيد والحمىٰ غير الذات، وخارج عن الذات، فهذه الترجمة أبلغ فيما يتعلق بالتوحيد وفيما يتعلق بالأقوال. فالرسول ﷺ حمىٰ جناب التوحيد وحمىٰ حماه من جهة القول والعمل حتىٰ لا يقرب الناس من الشرك ويقعوا فيه، وحذر من وسائله وذرائعه الموصلة إليه، وهذا من كمال البلاغ.

❁ **قوله: «عن عبد الله بن الشخير قال: انطلقت في وفد بني عامر إلىٰ النبي ﷺ فقلنا...»:**

السيد الله: هذا من باب التواضع خوفًا عليهم من الغلو، وإلا فإنه سيد ولد آدم ﷺ فقال ذلك تواضعًا ولئلا يقعوا في الغلو، فهو دليل أنه إذا قيل للإنسان: أنت سيدنا، ينبغي أن يقول: السيد الله حتىٰ لا يقع في قلبه شيء من التعاظم.

«**لا يستجرينكم الشيطان**»؛ أي: لا يجركم الشيطان إلىٰ ما لا ينبغي، أي: لا يتخذكم جريًا أي: رسلًا إلىٰ ما يبعث إلىٰ الشرك والغلو، والزموا الأقوال المعتادة كـ: أبا القاسم، يا رسول الله، يا نبي الله، ودعوا عنكم الأقوال التي قد تفضي إلىٰ الغلو.

❁ **قوله: «لا يستهوينكم»:**

لا يوقعنكم في الضلالة.

كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ...﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ...﴾، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ...﴾.

والمقصود من هذا سد الذرائع التي قد توصل الناس إلىٰ التساهل إلىٰ الشرك؛ فإنهم إن قالوا له: يا سيدنا وغير ذلك من الألفاظ التي يأتي بها الناس الآن من الغلو، فقد يجرهم إلىٰ أن يعبدوه من دون الله ويدعوه ويستغيثوا به يزعموا أنه يعلم الغيب وغير ذلك. وقد فعلوا كما قال صاحب البردة: يا أكرم الخلق ما لي.

فوقع في الغلو حتىٰ قال عن النبي ﷺ: أنه ينجي يوم القيامة، وأن من لا ينجيه النبي ﷺ فإنه لا ينجو وهذا من أعظم الغلو، وقال: إن عنده علم اللوح والقلم وإنه مطلع علىٰ كل شيء.

فالواجب علىٰ المسلم أن يحفظ لسانه وأن يقتصد في قوله سواء مع الرسول ﷺ أو مع غيره وعليه التأدب بالآداب الشرعية في أقواله وأعماله مع الرسل والصالحين والعلماء حتىٰ لا يقع في الغلو الذي وقع فيه اليهود والنصارىٰ، وأوصلهم إلىٰ أن عبدوا أولياءهم واستغاثوا بأنبيائهم وصلحائهم وعلمائهم، ووقعوا في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله: «باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمىٰ التوحيد، وسد طرق الشرك»:**

مناسبة الباب للتوحيد:

لما تكلم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما مضىٰ من كتابه علىٰ إثبات التوحيد؛ وعلىٰ ذكر ما ينافيه أو ينافي كماله؛ ذكر ما يحمي هذا التوحيد، وأن الواجب سد طرق الشرك من كل وجه حتىٰ في الألفاظ ليكون خالصًا من كل شائبة.

❁ **قوله: «انطلقت في وفد بني عامر»:**

الظاهر أن هذا وفد قدم علىٰ النبي ﷺ في العام التاسع؛ لأن الوفود كثرت في ذلك العام، ولذلك يُسمىٰ عام الوفود.

قوله: «**أنت سيدنا**»: السيد: ذو السؤدد والشرف، والسؤدد معناه: العظمة والفخر وما أشبهه.

وسيد: صفة مشبهة علىٰ وزن فيعل؛ لأن الياء الأولىٰ زائدة.

قوله: «السيد الله»: لم يقل ﷺ: سيدكم كما هو المتوقع؛ حيث إنه رد على قولهم: سيدنا لوجهين:

الوجه الأول: إرادة العموم المستفاد من «أل»؛ لأن «أل» للعموم، **والمعنى**: أن الذي له السيادة المطلقة هو الله ﷻ؛ ولكن السيد المضاف يكون سيدًا باعتبار المضاف إليه، مثل: سيد بني فلان، سيد البشر، وما أشبه ذلك.

الوجه الثاني: لئلا يتوهم أنه من جنس المضاف إليه؛ لأن سيد كل شيء من جنسه، والسيد من أسماء الله تعالى، وهي من معاني الصمد، كما فسر ابن عباس الصمد بأنه الكامل في علمه وحلمه وسؤدده(٨٤٠) وما أشبه ذلك.

ولم ينههم ﷺ عن قولهم: «**أنت سيدنا**»، بل أذن لهم بذلك؛ فقال: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم**»، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان فيترقوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة؛ لأن سيدنا سيادة خاصة مضافة، و«**السيد**» سيادة عامة مطلقة غير مضافة.

قوله: «**تبارك**»: قال العلماء: معني «تبارك»؛ أي: كثرت بركاته وخيراته، ولهذا يقولون: إن هذا الفعل لا يوصف به إلا الله؛ فلا يقال: تبارك فلان؛ لأن هذا الوصف خاص بالله.

وقول العامة: «**أنت تباركت علينا**» لا يريدون بهذا ما يريدونه بالنسبة إلى الله ﷻ، وإنما يريدون: أصابنا بركة من مجيئك، والبركة يصح إضافتها إلى الإنسان إذا كان أهلًا لذلك، قال أسيد بن حضير حين نزلت آية التيمم بسبب عِقد عائشة الذي ضاع منها: «**ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر**»(٨٤١).

قوله: «**وأفضلنا**»؛ أي: فضلك أفضل من فضلنا.

قوله: «**وأعظمنا طولًا**»؛ أي: أعظمنا شرفًا وغنى، والطول: الغنى، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾[النساء:٢٥] ويكون بمعنى العظمة، قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[غافر:٣]، أي: ذي العظمة والغنى.

قوله: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم**»: الأمر للإباحة والإذن كما سبق.

---

(٨٤٠) راجع تفسير الطبري «سورة الإخلاص الآية الثانية».

(٨٤١) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل الصحابة ﷺ، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذًا خليلًا»، برقم (٣٦٧٢)، ومسلم، كتاب: الحيض، باب: التيمم، برقم (١٠٨/ ٣٦٧) من حديث عائشة ﵂.

وقوله: «**قولوا بقولكم**»: يعني: قولهم: أنت سيدنا، أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك.

وقوله: «**أو بعض قولكم**»: يحتمل أن يكون شكًّا من الراوي، وأن يكون من لفظ الحديث؛ أي: اقتصروا علىٰ بعضه.

قوله: «**ولا يستجرينكم الشيطان**»: استجراه بمعنىٰ: جذبه وجعله يجري معه؛ أي: لا يستميلنكم الشيطان ويجذبنكم إلىٰ أن تقولوا قولًا منكرًا، فأرشدهم ﷺ إلىٰ ما ينبغي أن يفعل، ونهاهم عن الأمر الذي لا ينبغي أن يفعل؛ حمايةً للتوحيد من النقص أو النقض.

وقال في النهاية[٨٤٢]: «**لا يستجرينكم الشيطان**»؛ أي: لا يستغلبنكم فيتخذكم جريًا، أي: رسولًا ووكيلًا.

وعلىٰ التفسيرين؛ فمراد النبي ﷺ حماية التوحيد وسد كل طريق يوصل إلىٰ الشرك، والحماية من المنكر تعظم كلما كان المنكر أعظم وأكبر أو كان الداعي إليه في النفوس أشد.

ولهذا تجد أن باب الشرك حماه النبي عليه الصلاة والسلام حماية بالغة حتىٰ سد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه؛ لأنه أعظم الذنوب، وأيضًا باب الزنا حمي حماية عظيمة، حتىٰ منعت المرأة من التبرج وكشف الوجه وخلوتها بالرجل بلا محرم وما أشبه ذلك؛ لئلا يكون ذلك ذريعة إلىٰ الزنا؛ لأن النفوس تطلبه، وفي باب الربا أيضًا حمي الربا بحماية عظيمة، حتىٰ إن الرجل ليعطي الرجل صاعًا طيبًا من البر بصاعين قيمتهما واحدة، ويكون ذلك ربًا محرمًا مع أنه ليس فيه ظلم.

فالشرك قد يكون من الأمور التي لا تدعو إليه النفوس كثيرًا لكنه أعظم الظلم؛ فالشيطان يحرص علىٰ أن يوصل ابن آدم إلىٰ الشرك بكل وسيلة؛ فحماه النبي ﷺ حماية تامة محكمة حتىٰ لا يدخل الإنسان فيه من حيث لا يشعر، وهذا هو معنىٰ الباب الذي ذكره المؤلف.

تنبيه:

جرىٰ شراح هذا الحديث علىٰ أن النبي ﷺ نهاهم عن قول: سيدنا؛ فحاولوا الجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم**»[٨٤٣]، وقوله:«**قوموا إلىٰ سيدكم**»[٨٤٤]، وقوله في

(٨٤٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، لابن الأثير (١/ ٧٣٩).

(٨٤٣) تقدم تخريجه.

(٨٤٤) تقدم تخريجه.

الرقيق: «وليقل سيدي ومولاي»[٨٤٥] بواحد من ثلاثة أوجه:

الأول: أن النهي على سبيل الكراهة والأدب، والإباحة على سبيل الجواز.

الثاني: أن النهي حيث يخشى منه المفسدة، وهي التدرج إلى الغلو والإباحة إذا لم يكن هناك محذور.

الثالث: أن النهي بالخطاب؛ أي: أن تخاطب الغير بقولك: أنت سيدي أو سيدنا، بخلاف الغائب؛ لأن المخاطب ربما يكون في نفسه عجب وغلو وترفع، ثم إن فيه شيئًا آخر، وهو خضوع هذا المُتسيد له وإذلال نفسه له بخلاف ما إذا جاء من الغير، مثل: «قوموا إلى سيدكم»، أو على سبيل الغيبة، كقول العبد: قال سيدي ونحو ذلك، لكن هذا يرد عليه إباحته ﷺ للرقيق أن يقول لمالكه: سيدي.

والذي يظهر لي أن لا تعارض أصلًا؛ لأن النبي ﷺ أذن لهم أن يقولوا بقولهم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان بالغلو مثل «السيد»؛ لأن السيد المطلق هو الله تعالى، وعلى هذا؛ فيجوز أن يقال: سيدنا وسيد بني فلان ونحوه ولكن بشرط أن يكون الموجه إليه السيادة أهلًا لذلك، أما إذا لم يكن أهلًا كما لو كان فاسقًا أو زنديقًا، فلا يقال له ذلك حتى ولو فرض أنه أعلى منه مرتبةً أو جاهًا، وقد جاء في الحديث: «ولا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيدًا فقد أسخطتم ربكم ﷻ»[٨٤٦]، فإذا كان أهلًا لذلك وليس هناك محذور؛ فلا بأس به، وأما إن خشي المحذور أو كان غير أهل؛ فلا يجوز. والمحذور: هو الخشية من الغلو فيه.

❁ **قوله: «قالوا: يا رسول الله!»**:

هذا النداء موافق لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النور:٦٣]؛ أي: لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضًا، فتقولوا: يا محمد! ولكن قولوا: يا رسول الله! أو: يا نبي الله!

وفي الآية معنى آخر: أي: إذا دعاكم الرسول؛ فلا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضًا إن شئتم أجبتم وإن شئتم أبيتم؛ فهو كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال:٢٤]، وعلى المعنى الأولى تكون «دعاء» مضافة إلى المفعول، وعلى الثاني تكون مضافة إلى الفاعل.

---

(٨٤٥) تقدم تخريجه.

(٨٤٦) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: لا يقول المملوك ربي وربتي، برقم (٤٩٧٧)، وأحمد (٥/ ٣٤٦) وغيرهما، من حديث بريدة ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (٢٩٢٣).

قوله: «يا خيرنا»: هذا صحيح؛ فهو خيرهم نسبًا، ومقامًا، وحالًا.

قوله: «وابن خيرنا»: أي: في النسب لا في المقام والحال، وكذلك يقال في قوله: «وابن سيدنا».

قوله: «قولوا بقولكم»: سبق القول فيه.

قوله: «ولا يستهوينكم الشيطان»؛ أي: لا يستميلنكم الشيطان فتهووه وتتبعوا طرقه حتى تبلغوا الغلو، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾[الأنعام:٧١].

قوله: «أنا محمد عبد الله ورسوله»: محمد اسمه العلم، وعبد الله ورسوله وصفان له.

وهذان الوصفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول ﷺ ولذلك وصفه الله تعالىٰ بالعبودية في أعظم المقامات؛ فوصفه بها في مقام إنزال القرآن عليه، قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾[الفرقان:١]، ووصفه بها في مقام الإسراء، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾[الإسراء:١]، ووصفه بها في مقام المعراج، قال تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾[النجم:١٠]، ووصفه بها في مقام الدفاع عنه والتحدي، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة:٢٣].

وكذلك بالنسبة للأنبياء؛ قوله تعالىٰ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[الإسراء:٣]، وهذه العبودية خاصة، وهي أعلىٰ أنواع الخاصة.

والعبودية لله من أجل أوصاف الإنسان؛لأن الإنسان إما أن يعبد الله أو الشيطان، قال تعالىٰ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[يس:٦٠-٦١] قال ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خُلقوا له ... فبُلُوا برق النفس والشيطان

وقال الشاعر:

لا تَدْعُني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

قوله: «ورسوله»؛ أي: المرسل من عنده إلىٰ جميع الناس؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨].

ورسول الله ﷺ في قمة الطبقات الصالحة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء:٦٩]، والنبيون فيهم الرسول ﷺ، بل هو أفضلهم، ومن عبارة المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في الرسول ﷺ: «عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب».

وقد تطرف في الرسولﷺ طائفتان:

- طائفة غلت فيه حتىٰ عبدته، وأعدته للسراء والضراء، وصارت تعبده وتدعوه من دون الله.

- وطائفة كذبته، وزعمت أنه كذاب، ساحر، شاعر، مجنون، كاهن، ونحو ذلك.

وفي قوله: «**عبد الله ورسوله**» رد علىٰ الطائفتين.

قوله: «**ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي**»؛ «ما»: نافية، و«أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول «أحب»؛ أي: ما أحب رفعكم إياي فوق منزلتي؛ لا في الألفاظ، ولا في الألقاب، ولا في الاحوال.

قوله: «**التي أنزلني الله**»: يستفاد منه أن الله تعالىٰ هو الذي يجعل الفضل في عباده، وينزلهم منازلهم.

❁ **قوله: «فيه مسائل»:**

الأولىٰ: تحذير الناس من الغلو: تؤخذ من قوله: «ولا يستجرينكم الشيطان»، ووجهه: أن الرسول ﷺ جعل هذا من استجراء الشيطان، والإنسان يجب عليه أن يحذر كل ما كان من طرق الشيطان.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: «أنت سيدنا»: وتؤخذ من قوله: «السيد الله»؛ فينبغي أن يقول من قيل له ذلك: «السيد الله».

الثالثة: قوله: «لا يستجرينكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق:

ظاهر كلام المؤلف أن هذا من استجراء الشيطان؛ فهذه الكلمة يحتمل أن معناها أن ما قلتم من استجراء الشيطان.

ويحتمل أن المعنىٰ: قولوا بهذا القول، ولكن إياكم أن تغلوا، فإن هذا من استجراء الشيطان، وهذا ظاهر الحديث كما سبق.

الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي»؛ أي: إني أكره أن ترفعوني فوق منزلتي، وهي العبودية والرسالة؛ ففيها تواضعه ﷺ.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: «باب ما جاء في حماية المصطفىٰﷺ حمىٰ التوحيد وسده طرق الشرك»:**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

بيان أن التوحيد لا يتم إلا بتجنب كل قولٍ يُفضي إلىٰ الغلو في المخلوق، ويُخشىٰ منه الوقوع في الشرك.

❁ **قوله: «من عبد الله بن الشخير...»:**

التراجم:

ابن الشخير: بكسر الشين وتشديد الخاء هو: عبد الله بن الشخير بن عوف بن كعب بن وقدان الحريشي أسلم يوم الفتح وله صحبة ورواية.

«**حماية**»: حماية الشيء صونه عما يتطرق إليه من مكروهٍ وأذىً.

«**المصطفىٰ**»؛ أي: المختار من الصفوة وهي خالص الشيء.

«**حمىٰ التوحيد**»: صونه عمَّا يشوبه من الأعمال والأقوال التي تضاده أو تنقصه.

«**السيد الله**»؛ أي: السؤدد التام لله ﷻ، والخلق كلهم عبيد الله.

«**وأفضلنا فضلًا**»: الفضل: الخيرية ضد النقيصة - أي: أنت خيرنا.

«**طولًا**»: الطول: الفضل والعطاء والقدرة والغنىٰ.

«**قولوا بقولكم**»؛ أي: القول المعتاد لديكم ولا تتكلفوا الألفاظ التي تؤدي إلىٰ الغلوِّ.

«**أو بعض قولكم**»؛ أي: أو دعوا بعض قولكم المعتاد واتركوه، تجنبًا للغلوِّ.

«**لا يستجرينكم الشيطان**»: الجري: الرسول أي: لا يتخذكم جريًّا أي: وكيلًا له ورسولًا.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

لما بالغ هذا الوفد في مدح النبي ﷺ نهاهم عن ذلك؛ تأدبًا مع الله وحمايةً للتوحيد، وأمرهم أن يقتصروا علىٰ الألفاظ التي لا غلو فيها ولا محذور؛ كان يدعوه بمحمدٍ رسول الله كما سماه الله ﷻ.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي عن الغلو في المدح واستعمال الألفاظ المتكلفة التي ربما توقع في الشرك.

ما يستفاد من الحديث:

١- تواضعه ﷺ وتأدبه مع ربه.

٢- النهي عن الغلو في المدح ومواجهة الإنسان به.

٣- أنَّ السؤدد حقيقة لله سبحانه، وأنه ينبغي ترك المدح بلفظ السيد.

٤- النهي عن التكلف في الألفاظ وأنه ينبغي الاقتصاد في المقال.

٥- حماية التوحيد عما يخل به من الأقوال والأعمال.

❁ **قوله: «يا خيرنا»:**

أي: أفضلنا.

«يستهوينكم الشيطان»؛ أي: يُزين لكم هواكم، أو يذهب بعقولكم.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

كرهﷺ مدحه بهذه الألفاظ ونحوها؛ لئلا يكون ذلك وسيلة إلىٰ الغلوِّ فيه والإطراء؛ لأنه قد أكمل الله له مقام العبودية، فصار يكره أن يبالغ في مدحه؛ صيانةً لهذا المقام، وإرشادًا للأمة إلىٰ ترك ذلك؛ نصحًا لهم وحمايةً للتوحيد. وأرشدهم أن يصفوه بصفتين هما أعلىٰ مراتب العبد، وقد وصفه الله بهما في مواضع وهما: عبد الله ورسوله، ولا يريد أن يرفعوه فوق هذه المنزلة التي أنزله الله إيَّاها.

مناسبة الحديث للباب:

أنهﷺ نهىٰ أن يمدح بغير ما وصفه الله به؛ صيانةً للتوحيد وسدًّا لباب الغلو المفضي إلىٰ الشرك.

ما يستفاد من الحديث:

١- النهي عن الغلو في المدح، وتكلف الألفاظ في ذلك؛ لئلا يفضي إلىٰ الشرك.

٢- تواضعهﷺ وحرصه علىٰ صيانة العقيدة عمَّا يخلُّ بها.

٣- أنَّه عبد الله ورسوله، وليس له من الأمر شيء؛ والأمر كله لله سبحانه.

٤- التحذير من كيد الشيطان؛ وأنه قد يأتي من طريق الزيادة علىٰ الحد المشروع.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب ما جاء في حماية النبيﷺ حمىٰ التوحيد، وسد طرق الشرك»:**

النبي عليه الصلاة والسلام حَمَىٰ وحرس جناب التوحيد، وحَمَىٰ حِمَىٰ التوحيد، وسدّ كل طريق توصل إلىٰ الشرك، فإن في سنة النبي عليه الصلاة والسلام من الدلائل علىٰ قاعدة سد الذرائع ما يبلغ مائة دليل أو أكثر، وأعظم الذرائع التي يجب أن تُسد ذرائع الشرك التي توصل إليه، ومن تلك الذرائع قول القائل: أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا ونحو ذلك، فإن مثل هذه الأقوال فيها من التعظيم الذي لا يجوز أن يواجه به بشر، فإن النبي ﷺ هو سيد ولد آدم، كما أخبر به النبي -عليه الصلاة والسلام- لكن كَرِه المواجهة كما سيأتي.

فحماية النبي ﷺ حمىٰ التوحيد، وسده طرق الشرك كان في جهة الاعتقادات ومن جهة الأقوال والأفعال، فإذا تأملت سنته وما جاء في هذا الكتاب -كتاب التوحيد- وجدت أنه عليه الصلاة والسلام سدَّ الباب في الاعتقادات الباطلة، وسدّ الباب في الأفعال الباطلة، كقوله: «**اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٨٤٧]. وسدّ الباب أيضًا في الأقوال التي توصل إلىٰ الغلو المذموم، فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»[٨٤٨]. وهذا الباب أيضًا من ذلك في بيان حماية النبي ﷺ حمىٰ التوحيد، فيما يتعلق بالقول الذي قد يتبعه اعتقاد.

❁ **قوله: «عن عبد الله بن الشخير قال: انطلقت في وفد بني عامر إلىٰ النبيﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: السيد الله تبارك وتعالىٰ ...»:**

في هذا الحديث أن إطلاق لفظ السيد علىٰ البشر مكروه، ومخاطبته بذلك يجب سدّها، فلا يخاطب أحد بأن يقال له: أنت سيدنا علىٰ جهة الجمع، وذلك لأن فيها نوع تعظيم من جهة المخاطبة، يعني: الخطاب المباشر، والجهة الثانية من جهة استعمال اللفظ، والنبي عليه الصلاة والسلام سيد كما قال عن نفسه: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[٨٤٩]. ولكن مخاطبته عليه الصلاة والسلام مع كونه سيدًا كرهها ومنع منها، لئلا تؤدي إلىٰ ما هو أعظم من ذلك من تعظيمه والغلو فيه عليه الصلاة والسلام.

فهذه مناسبة الحديث لهذا الباب: أن في قوله عليه الصلاة والسلام: «**السيد الله تبارك وتعالىٰ**» مع كونه عليه الصلاة والسلام سيد ولد آدم، ما يفيد أنه عليه الصلاة والسلام حَمَىٰ حِمَىٰ التوحيد، وسدّ الطرق الموصلة إلىٰ الشرك، ومنها طريق الغلو في الألفاظ.

والقول للرجل بأنه سيد ونحو ذلك إذا كان علىٰ وجه المخاطبة له، والإضافة إلىٰ الجمع أشد وأعظم مما إذا كان بدون المخاطبة والإضافة إلىٰ الجمع. ومما ذكر العلماء: أن قوله عليه الصلاة والسلام: «**السيد الله تبارك وتعالىٰ**» يدل علىٰ أنه يكره كراهة شديدة أن يقال لبشر: إنه «**السيد**» هكذا بالألف واللام؛ لأن هذا قد يُفهم منه استغراق معاني السيادة؛ لأن البشر له سيادة تخصّه، ولهذا ترىٰ الذين يشركون ببعض الأولياء كالسيد البدوي يعظمون كلمة «السيد» ويكثر عندهم التعبيد للسيد، ويريدون

---

(٨٤٧)سبق تخريجه.

(٨٤٨)سبق تخريجه.

(٨٤٩)أخرجه الترمذي، كتاب: التفسير، باب: ومن سورة بني إسرائيل، برقم (٣١٤٨)، وابن ماجه في الزهد، باب: ذكر الشفاعة، برقم (٤٣٠٨)، وأحمد (٣/ ٢)، وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه والحديث صححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣/ ٢٣٩)، و «صحيح سنن الترمذي».

به السيد البدوي، فيكثر عندهم عبد السيد ونحو ذلك، ولا يريدون به الله -جل وعلا- ولكن يريدون به ذلك الذي اتخذوه معبودًا، وتوجهوا إليه ببعض أنواع العبادة، فيفهمون من كلمة «السيد»أنه ذو السيادة، وذو التصرف في الأمر، وهذا هو الذي اعتقدوه من أن للبدوي ولأمثاله تصرفًا في الأرض، وقبولًا للمطالب في الحاجات.

«قلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»: لأن هذا فيه الثناء والمدح بالمواجهة، وهذا من الشيطان، فالشيطان هو الذي يفتح هذا الباب أن يُمدح أحد ويعظّم في مواجهته، وذلك حتىٰ يعظُم في نفسه فيأتيه الخِذلان؛ لأن كل أحد تخلىٰ عن (لا حول ولا قوة إلا بالله) وتخلىٰ عن الازدراء للنفس، والذل والخضوع الذي يعلمه الله من قلبه، فإنه يُخذل، ويأتيه الأمر علىٰ غرة، ولهذا نهىٰ النبي ﷺ أن يقال مثل ذلك القول مواجهة، ونهىٰ عن المدح؛ لأن فيه إضرارًا بالمتكلم، وإضرارًا بالمقول فيه ذلك الكلام.

✿ **قوله: «وعن أنس رضي الله عنه أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ...»**:

هو عليه الصلاة والسلام كما وصفوه هو خيرهم، وهو سيدهم عليه الصلاة والسلام، لكنه حمىٰ جناب التوحيد، وحَمىٰ حِمىٰ التوحيد، حتىٰ لا يستدل أحد بعده عليه الصلاة والسلام بهذا الكلام علىٰ أنه يجوز أن يقال لمن ظن الناس فيه ذلك، بل سدّ الباب في نفسه وهو سيد ولد آدم، وهو خيرهم عليه الصلاة والسلام وأفضلهم، ولكن سدّ الباب حتىٰ لا يدخل أحد منه بإقراره هذا الفعل، فيعظّم أحد ويدخل الشيطان إلىٰ ذلك المعظمِ وإلىٰ المعظّم، فيجعل القلوب تتعلق بذلك المعظم حتىٰ يشرك به، وحتىٰ يُعظّم بما لا يجوز له من التعظيم.

وهذا الباب كالجامع لما يجب من سد الذرائع الموصلة إلىٰ الشرك، وهذا واجب علىٰ المسلم أن يسد كل طريق أو سبيل يجعل نفسه تتعاظم؛ لأن أعظم مقامات الشرف لك أن يعلم الله -جل وعلا- منك أنك متذلل خاضع بين يديه، وأنك خائف وجل تدعوه راغبًا راهبًا، فهذه صفة الخلّص من عباد الله -جل وعلا- الذين وعدهم الله -جل وعلا- بالخيرات فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء: ٩٠]، والخشوع نوعان: خشوع في القلب، وخشوع في الجوارح، وخشوع القلب بالتطامن والذل والخضوع بين يدي الله، وخشوع الجوارح بسكونها، كما قال جل وعلا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾[فصلت: ٣٩].

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو، أي لقوله: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا، أي: يقول: السيد الله.

الثالثة: قوله: لا يستجرينكم الشيطان مع أنهم لم يقولوا إلا الحق، أي: نهاهم عن ذلك حماية لجناب التوحيد لئلا يجرهم إلى ما لا يصلح فكيف بمن قال أعظم من ذلك؟! كصاحب البردة في أبياته التي تضمنت غاية الإطراء.

الرابعة: قوله: ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي! أي: منزلة العبودية الخاصة والرسالة العامة.



* الأسئلة *

س: ما المقصود بحمايته ﷺ حمى التوحيد؟

جـ: المقصود بذلك صونه عما يشوبه من الأقوال والأفعال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص.

قوله: «عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: «انطلقت في وفد بني عامر ...»».

س: ما معنى قولهم وأفضلنا فضلًا وأعظمنا طولًا؟

جـ: أي: أعظمنا شرفًا وفضلًا وجودًا. والطول هو الغنىٰ والقدرة والإنعام الواسع.

س: ما مراد الرسول ﷺ بقوله: السيد الله؟

جـ: يريد عليه الصلاة والسلام أن السؤدد الكامل حقيقة لله عز وجل وأن الخلق كلهم عبيد الله.

س: ما المراد بقوله: قولوا بقولكم أو بعض قولكم..؟

جـ: يعني: قولوا بقول أهل دينكم وملتكم وادعوني نبيًّا ورسولًا كما سماني الله في كتابه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾. وقوله: «أو بعض قولكم» أي: دعوا بعض قولكم واتركوه.

س: ما معنى قوله ﷺ: «ولا يستجرينكم الشيطان، ولا يستهوينكم»؟

جـ: أي لا يستغلبنكم الشيطان فيتخذكم جريًا؛ أي: رسولًا ووكيلًا كأنكم وكلاء الشيطان تنطقون علىٰ لسانه.

ومعنىٰ: «لا يستهوينكم»؛ أي: لا يقودنكم إلىٰ ما يهوىٰ من الغلو والبدع.

س: لماذا نهاهم الرسول ﷺ عن قولهم: أنت سيدنا وأفضلنا وخيرنا وأعظمنا مع أنهم لم يقولوا إلا الحق؟

جـ: نهاهم عن ذلك لأن لا يكون وسيلة إلىٰ الغلو فيه والإطراء.

وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للمدوح بالمدح - ولو بما هو فيه - من عمل الشيطان لما تفضي محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح في نفسه وذلك ينافي كمال التوحيد.

س: ما حكم إطلاق السيد على الإنسان؟

جـ: مختلف فيه فأجازه قوم واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار: «قوموا إلىٰ سيدكم». ومنعه قوم واحتجوا بقول النبي ﷺ: «السيد الله».

وروي عنه ﷺ أنه قال: **«لا تقولوا للمنافق: سيد فإنه إن يكن سيدًا فقد أسخطتم ربكم ﷻ»**[٨٥٠] رواه أبو داود وإسناده صحيح.

س: ما الذي يستفاد من هذا الباب؟

جـ: يستفاد منه:

١ - تحذير الناس من الغلو.

٢ - كراهة المدح والتحذير منه.

٣ - شفقته ﷺ علىٰ أمته ورأفته ورحمته بهم.

٤ - ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



---

(٨٥٠) تقدم تخريجه.

الدرس السابع والستون:

باب ما جاء في قول الله تعالى[٨٥١]

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية [الزمر:٦٧].

عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد! إنا نجد أن الله يجعل السماوات[٨٥٢] على إصبع، [والأرضين على إصبع][٨٥٣] والشجر على إصبع[٨٥٤]، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ[٨٥٥]: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الآية][٨٥٦] متفق عليه[٨٥٧].

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله»[٨٥٨].

وفي رواية للبخاري: «يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع»[٨٥٩] أخرجاه.

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ »[٨٦٠].

---

(٨٥١) في نسخة ابن قاسم، والفوزان: «باب قول الله تعالى»، وعند ابن باز: «باب في قول الله تعالى».

(٨٥٢) زاد في نسخة ابن قاسم: «السبع».

(٨٥٣) سقط من نسخة ابن قاسم.

(٨٥٤) زاد في نسختي ابن قاسم، وابن باز: «والماء على إصبع». وزاد في نسخة السعدي: «والماء».

(٨٥٥) زاد في نسختي السعدي، وابن باز: «رسول الله ﷺ».

(٨٥٦) ساقطة من نسخة الفوزان.

(٨٥٧) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: سورة الزمر، برقم (٤٨١١)، ومسلم، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٨٥٨) أخرجه مسلم، أوائل كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (١٩/ ٢٧٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٨٥٩) تقدم تخريجه.

(٨٦٠) أخرجه مسلم، أوائل كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٤/ ٢٧٨٨)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: في الرد على الجهمية، برقم (٤٧٣٢) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وروي عن ابن عباس، قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»[٨٦١].

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا[٨٦٢] ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس»[٨٦٣].

قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[٨٦٤].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء [وسماء] [٨٦٥] خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم»[٨٦٦] أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله. ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل ؟[عن عبد الله. قاله الحافظ الذهبي رحمه الله][٨٦٧] قال: «وله طرق»[٨٦٨].

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟. قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، من[٨٦٩] كل سماء إلىٰ سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش

---

(٨٦١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا عليه.

(٨٦٢) في نسخة ابن قاسم، والفوزان: «أنبأنا».

(٨٦٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣/ ٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٨٧) من حديث زيد بن أسلم رحمه الله مرسلًا.

(٨٦٤) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣/ ٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «شرح العقيدة الطحاوية» (٣١٢).

(٨٦٥) ساقطة من نسخة ابن قاسم، والسعدي، والفوزان.

(٨٦٦) أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٨٨٥)، واللالكائي في « أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٣٩٦)، وابن أبي زمنين في «أصول السنة»، ص(٤٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٨٦٧) سقط من نسخة ابن قاسم.

(٨٦٨) انظر: «العُلُوّ للعلي الغفار» للإمام الذهبي (ص ٤٥).

(٨٦٩) في نسخة ابن قاسم، والسعدي، والفوزان: «وبين».

بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالىٰ فوق ذلك، [وليس يخفىٰ][٨٧٠] عليه شيء من أعمال بني آدم»[٨٧١] . أخرجه[٨٧٢] أبو دواد وغيره.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنهﷺ ولم ينكروها ولم يتأولوها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبيﷺ ؛ صدَّقه ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من الرسولﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنىٰ والأرضين في الأخرىٰ.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدكم».

التاسعة: عظم الكرسيّ بالنسبة إلىٰ السماء[٨٧٣] .

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلىٰ الكرسيِّ.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسيِّ والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلىٰ سماء.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسيِّ.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسيِّ والماء.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

---

(٨٧٠) في نسخة ابن قاسم، والفوزان: «لا يخفىٰ».

(٨٧١) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في الجهمية والمعتزلة، برقم (٤٧٢٣)، وأحمد واللفظ له (١/ ٢٠٦) وغيرهما، من حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٦٠٩٣).

(٨٧٢) في نسخة ابن قاسم، والفوزان: «رواه».

(٨٧٣) في نسخة السعدي: «السماوات».

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات [بين أسفله وأعلاه خمسمائة سنة][(٨٧٤)]، والله أعلم[(٨٧٥)].

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾»:

أي: ما فيها من ذكر عظمة الله، وعلوه علىٰ خلقه، وما في معناها من الأحاديث والآثار، قال أهل التفسير: يقول تعالىٰ: ما عظم المشركون الله حق عظمته إذ عبدوا معه غيره، وكفروا نعمه، وكذا قال السدي: ما عظموه حق عظمته[(٨٧٦)]. وقال محمد بن كعب: لو قدروا الله حق قدره ما كذبوه. وقال ابن عباس: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله علىٰ كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره[(٨٧٧)].

❁ **قوله:** «﴿قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ...﴾ الآية»:

وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[الأنبياء:١٠٤] كطي الكتاب علىٰ ما فيه من المكتوب، وقال النبي ﷺ: «**يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيمينه**»[(٨٧٨)] الحديث. وقد ذكره المصنف. وعن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**»[(٨٧٩)] متفق عليه. واللفظ لأحمد. وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية يومًا علىٰ المنبر، ويقول هكذا بيده يحركها، يقبل بها ويدبر «**يمجد الرب نفسه: أنا الجبار أنا المتكبر، أنا العزيز الحكيم**». فرجف

(٨٧٤) في نسخة السعدي: «بين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة سنة».

(٨٧٥) زاد في نسخة السعدي: والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

(٨٧٦) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٨٠).

(٨٧٧) انظر: المصدر السابق.

(٨٧٨) تقدم تخريجه.

(٨٧٩) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: سورة الزمر، برقم (٤٨١٢)، ومسلم، أوائل كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٣/ ٢٧٨٧)، وأحمد (٢/ ٣٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

برسول الله ﷺ المنبر، حتىٰ قلنا: ليخرَّنَّ به(٨٨٠). وقال - عليه الصلاة والسلام -: «**تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده، كما يتكفأ أحدكم خبزته**»(٨٨١). وقد جاءت أحاديث كثيرة متعلقة بمعنىٰ هذه الآية، ومذهب السلف فيها وفي أمثالها إمرارها كما جاءت، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وأن لها معان حقيقة، أثبتوها وفسروها بما يوافق دلالتها، وكانوا إذا سئلوا عن شيء من ذلك لم ينفوا معناه، بل يثبتونه، وإنما ينفون الكيفية، كما قال مالك وغيره: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، وتبعهم السلف علىٰ ذلك.

✿ **قوله: «يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات السبع علىٰ إصبع»:**

الإصبع واحد الأصابع، يذكر ويؤنث، وفيه خمس لغات، وقيل عشر، فتح الهمزة وضمها وكسرها مع الحركات الثلاث في الباء، والعاشرة أصبوع، وأفصحهن، كسر الهمزة وفتح الباء. والحبر: بفتح الحاء وكسرها واحد أحبار اليهود، قيل: الكسر أفصح. وهو العالم بتحبير الكلام وتحسينه، سمي حَبرًا لما يبقىٰ من أثر علومه في قلوب الناس، وآثار أفعاله الحسنة المقتدىٰ بها. وقال أبو عبيد(٨٨٢): يرويه المحدثون كلهم بالفتح، أي: يجد الحبر ذلك الوصف في كتبهم. قال المصنف: وفيه أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها. وفيه إثبات الأصابع للرحمن جل وعلا، علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته، وفي الحديث: «**القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن**»(٨٨٣).

✿ **قوله: «والشجر علىٰ إصبع، والماء علىٰ إصبع، والثرىٰ علىٰ إصبع»:**

الثرىٰ: التراب الندي، ولعل المراد هنا الأرض، والشجر ما له ساق صلب كالنخل وغيره.

✿ **قوله: «وسائر الخلق علىٰ إصبع»:**

أي: وباقي المخلوقات علىٰ إصبع، وسائر الشيء باقيه باتفاق أهل اللغة.

---

(٨٨٠) أخرجه أحمد (٢/ ٧٢)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ»، (٤/ ٤٠٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٨٨١) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة، برقم (٦٥٢٠)، ومسلم، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: نزل أهل الجنة، برقم (٣٠/ ٢٧٩٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٨٨٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة (حبر).

(٨٨٣) أخرجه مسلم، كتاب: القدر، باب: تصريف الله تعالىٰ القلوب كيف شاء، برقم (١٧/ ٢٦٥٤)، وأحمد (٢/ ١٦٨) وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

❁ **قوله: «فيقول: أنا الملك، فضحك النبي...»:**

أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من طرق، وفي رواية: «**جاء رجل من أهل الكتاب إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم أبلغك أن الله يحمل الخلائق علىٰ إصبع، والسماوات علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، والثرىٰ علىٰ إصبع؟ فضحك النبي ﷺ حتىٰ بدت نواجذه**»[٨٨٤]. قال: وأنزل الله: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الحج:٧٤] الآية. والنواجذ جمع ناجذ، قيل: إنها أقصىٰ الأضراس، وهي أربعة تنبت بعد البلوغ، أي: استغرق في الضحك وبالغ فيه حتىٰ بدت، والمراد المبالغة في الضحك، من غير أن يراد ظهور نواجذه، أو هي الأسنان بين الضرس والناب كما في المصباح، أو الضواحك، وقال ثعلب: المراد الأنياب، وهي التي تبدو عند الضحك.

❁ **قوله: «ثم يهزهن فيقول: أنا الملك أنا الله»:**

سبحانه وتعالىٰ، فهو مالك الملك، ذو الألوهية والعبودية علىٰ خلقه أجمعين، وهززت الشيء من باب قتل، حركته فاهتز.

❁ **قوله: «أخرجاه»:**

هكذا في مسلم، قال الحميدي: وهي أتم. ورواية البخاري: إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماء بيمينه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يطوي الله السماوات السبع بما فيها من الخليقة، والأرضين السبع بما فيها من الخليقة، يطوي ذلك كله بيمينه، يكون ذلك في يده بمنزلة الخردلة، حبة صغيرة جدًّا. وهذه الأحاديث وما في معناها تدل علىٰ عظمة الله، وعظيم قدرته، وعظيم سلطانه، وقد تعرَّف إلىٰ عباده بصفات كماله، وعجائب مخلوقاته، وكلها تدل علىٰ جلاله وعظمته، وأنه هو المعبود وحده، لا شريك له في ربوبيته، ولا في إلهيته، وتدل علىٰ إثبات صفاته، كما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته. وفيها وفي غيرها إثبات اليمين والشمال، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «**وكلتا يدي ربي يمين مباركة**»[٨٨٥].

---

(٨٨٤) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الزمر، برقم(٤٨١١)، ومسلم، أوائل كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (١٩/ ٢٧٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٨٨٥) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: (٩٥)، برقم (٣٣٦٨)، وابن حبان (١٤/ ٤٠) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

❁ **قوله: «ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا «يطوي السموات...»»:**

رواه معاذ بن هشام الدستوائي، حدثنا أبي عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، ولفظه: «في يد الله». قال الشارح: وهذا الإسناد صحيح، وتقدم نحوه. وفيه إثبات الكف للرحمن، وعظمته وصغر السماوات والأرض وما فيهما بالنسبة إلىٰ عظمة الله غاية الصغر، مع ما ترىٰ من كبرهما وسعتهما.

❁ **قوله: «وقال ابن جرير: حدثني يونس»:**

هو ابن عبد الأعلىٰ أبو موسىٰ الصدفي الثقة، روىٰ عن ابن عيينة وابن وهب وغيرهما، وعنه ابن خزيمة وخلق، مات سنة ٢٦٤ هـ، وله ٩٢ سنة.

قوله: «أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي» هو زيد بن أسلم العدوي، مولىٰ عمر، أبو عبد الله، أو أبو سالم المدني، عالم ثقة مات سنة ١٣٦ هـ، وابنه عبد الرحمن يضعف، روىٰ عن أبيه، وابن المنكدر وغيرهما، وعنه ابن وهب وعكرمة ومسروق وغيرهم، مات سنة ١٨٢ هـ، ورواه أيضًا بهذا الطريق واللفظ: أصبغ بن الفرج وهو مرسل.

قوله: «ألقيت في ترس» بضم التاء القاع المستدير المتسع الأطلس، كما قيل:

وواجهت ترسًا من متون صحاري

ويقال: الترس صفحة فولاذ تحمل لاتقاء السيف، والمراد الأول، وفيه صغر السماوات بالنسبة إلىٰ الكرسي. وقال السدي: الكرسي تحت العرش، والسماوات والأرض في جوف الكرسي(٨٨٦). قال ابن عباس: الكرسي موضع القدمين(٨٨٧).

❁ **قوله: «وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول:...»:**

الفلاة: الصحراء الواسعة، أو المفازة لا ماء فيها، أو القفر، وأبو ذر هو الغفاري الصحابي المشهور، واسمه جندب بن جنادة بن سكن بن قيس بن بياض الغفاري، من السابقين إلىٰ الإسلام، ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء أصدق لهجة منه، توفي بالربذة سنة ٣١ هـ. وصنيع المصنف -رحمه الله

---

(٨٨٦) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤٠٩).

(٨٨٧) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٣٠١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٨٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا عليه.

- يوهم أن ذلك عطف علىٰ قول زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ وليس كذلك، فإن حديث أبي ذر رواه يحيىٰ بن سعيد العبشمي، حدثنا ابن جريج عن عطاء عن عبد الله بن عمير، عن أبي ذر: «أي آية أعظم؟ » قال: «آية الكرسي، **ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وفضل العرش علىٰ الكرسي كفضل الفلاة علىٰ تلك الحلقة**»، قال النووي: يحيىٰ الأموي صدوق، ولعله - رَحِمَهُ اللَّهُ - أراد عطفه علىٰ ابن جرير، فقد رواه هو وأبو الشيخ والبيهقي وابن مردويه، عن أبي ذر، أنه قال: سئل النبي ﷺ عن الكرسي فقال: «**يا أبا ذر ما السماوات السبع، والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش علىٰ الكرسي كفضل الفلاة علىٰ تلك الحلقة**»(٨٨٨).

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد، وأبو الشيخ والبيهقي عن مجاهد قال: «ما السماوات والأرض في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة، وما موضع كرسيه من العرش، إلا مثل حلقة في أرض فلاة»(٨٨٩)، أي: وسط فلاة، بل عَدَّ بعض أهل العلم أن السماوات السبع والأرضين السبع، وما فيهما وما بينهما بالنسبة إلىٰ العرش، كحلقة في فلاة من الأرض، من المتواتر، وفيه دلالة علىٰ عظم العرش بالنسبة إلىٰ الكرسي، وتقدم أنه فوق السماوات كالقبة. قال شيخ الإسلام(٨٩٠): العرش مقبب، ولم يثبت أنه مستدير مطلقًا، بل ثبت أنه فوق الأفلاك، وأن له قوائم، فيجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلىٰ الخالق جل وعلا في غاية الصغر.

❁ **قوله: «والعرش فوق الماء، والله فوق العرش...»:**

فهو سبحانه فوق جميع المخلوقات، مستوٍ علىٰ عرشه بائن من خلقه، فله العلو الكامل من جميع الوجوه، علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. قال شيخ الإسلام: «وهذا كتاب الله من أوله إلىٰ آخره، وسنة نبيه، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأمة، مملوء بما هو إما نص أو ظاهر أن الله فوق كل شيء، وأنه فوق العرش، فوق السماوات، مستو علىٰ عرشه». وقال أبو عمرو الطلمنكي في كتاب الأصول: أجمع المسلمون من أهل السنة علىٰ أن الله استوىٰ علىٰ عرشه بذاته. وقال فيه أيضًا: أجمع أهل السنة علىٰ أن

---

(٨٨٨) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٧٠)، وابن بطة في «الإبانة» (٣/ ١٨٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٤٠٤) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٨٨٩) أخرجه سعيد بن منصور (١/ ٤٩٢)، أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٣٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٤٠٥)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ٤٢٠) من قول مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٨٩٠) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» لشيخ الإسلام (٦/ ٥٥٦).

الله استوىٰ علىٰ عرشه علىٰ الحقيقة لا علىٰ المجاز. ثم قال: أجمع المسلمون أن معنىٰ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤]. ونحو ذلك من القرآن أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته، مستوٍ علىٰ عرشه كيف شاء، وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين، والأئمة المهتدين، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه، علىٰ لسان رسوله ﷺ علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثلوا ولم يكيفوا، وبَدَّعوا وضَلَّلوا مَنْ خالفه من الجهمية النفاة. وذكر ابن القيم مائة دليل من القرآن، وذكر أن عليه إجماع المرسلين، وليس في كتاب الله، ولا في سنة رسوله، ولا جاء عن أحد من السلف المقتدىٰ بهم حرف واحد يخالفه.

قوله: «أخرجه ابن مهدي عن حماد...»؛ يعني: ابن مسعود. وابن مهدي هو: عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن العنبري مولاهم، أبو سعيد البصري، ثقة حافظ، عارف بالرجال والحديث، قال ابن المديني: ما رأيت أعلم منه. روىٰ عن جرير وعكرمة وخلق، وعنه ابن المبارك وابن وهب وخلق، مات سنة ١٩٨ هـ. وحماد هو: ابن سلمة بن دينار البصري أبو سلمة، مولىٰ تميم ويقال: قريش، ثقة عابد أثبت الناس في ثابت، روىٰ عن ثابت وقتادة وخلق، وعنه ابن جريج والثوري وابن المبارك وخلائق، مات سنة ١٦٠ هـ. وعاصم هو: ابن بهدلة وهو ابن أبي النجود الأسدي مولاهم، الكوفي أبو بكر المقرئ، صدوق روىٰ عن زر وأبي وائل وأبي صالح وخلق، وعنه الأعمش والحمادان وجماعة، مات سنة ١٢٧ هـ وزر بكسر الزاي وتشديد الراء بن حبيش بن حباشة بن أوس بن بلال، الأسدي الكوفي، أبو مريم، ثقة جليل، أدرك الجاهلية، وروىٰ عن عمر وعلي وغيرهما، وعنه إبراهيم النخعي وعاصم وخلق، مات سنة ٨٣ هـ وله ١٣٧ سنة.

قوله: «ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل» هو سعيد بن سلمة الأسدي الكوفي، أدرك رسول الله ﷺ ولم يره، روىٰ عن أبي بكر وغيره من الصحابة، أدرك سبعًا من الجاهلية، ومات سنة ٧٢ هـ. والمسعودي هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الكوفي، ثقة روىٰ عن أبي إسحاق السبيعي، وعلقمة والقاسم وغيرهم، وعنه السفيانان وشعبة وعاصم وخلق، مات سنة ١٦٦ هـ.

قوله: «قال: وله طرق»:

وأخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب السنة، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وأبو عمرو الطلمنكي، واللالكائي، وابن عبد البر، والبيهقي وغيرهم.

قوله: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟»:

أخرج السؤال بصيغة الاستفهام ليكون أبلغ في النفوس.

قوله: «**قلنا: الله ورسوله أعلم**» فيه حسن الأدب مع الله، وإسناد العلم إلىٰ الرسولﷺ في حال حياته، وأما بعد وفاتهﷺ فيقال: الله أعلم.

قوله: «**وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة**»؛ الكثف: السُّمك والغلظ، ضد اللطافة، ويدل علىٰ المسافة بينهما ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾[الطلاق:١٢]. وفيه عظم السماوات، وسعة ما بينهن، وكذا الأرض مثلهن.

قوله:«**وبين السماء السابعة والعرش بحر...**» وتقدم في حديث ابن مسعود: «**وبين الكرسي والماء خمسمائة عام**». ولا منافاة بينهما؛ لأن الكرسي فوق السماوات، وهذا من أبهر آيات الله كما أن الأرض مغمورة بالبحر، واليابس منها نحو الربع، وهي محفوفة بعنصر الماء، كأنها عنبة طافية عليه، وهو فوقها ولا يطغىٰ عليها، وإنما انحسر الماء عن بعض جوانبها، لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها، وعمرانها ببني آدم، الذي له الخلافة علىٰ سائرها، فكذا السماوات بينها وبين العرش بحر، سُمْكه طول ما بين السماء والأرض.

قوله: «**والله فوق ذلك، لا يخفىٰ عليه شيء**»؛ هذا الحديث كأمثاله يدل علىٰ علو الله وعظمته، وعظم مخلوقاته، وفيه التصريح بأن الله فوق خلقه علىٰ عرشه، بائن من خلقه، كما جاء بذلك الكتاب والسنة، وله شواهد في الصحيحين وغيرهما، وأورده المصنف مختصرًا، والذي في سنن أبي داود عن العباس بن عبد المطلب، قال: «**كنت في البطحاء، في عصابة فيهم رسول اللهﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: ما تسمون هذه؟ قالوا: السحاب**». قال: «**والمزن**» قالوا: والمزن قال: «**والعنان**» قالوا: والعنان»[٨٩١]. قال أبو داود: ولم أتقن العنان جيدًا. قال: «**هل تدرون ما بُعد ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندري. قال: إن بُعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك، حتىٰ عدَّ سبع سماوات، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلىٰ سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلىٰ سماء، ثم علىٰ ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلىٰ سماء، ثم الله فوق ذلك**»[٨٩٢]. أخرجه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب. وقال الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن، وروىٰ أحمد

---

(٨٩١) أخرجه الترمذي، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الحاقة، برقم (٣٣٢٠) من حديث العباس ﵁؛ وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي».

(٨٩٢) تقدم تخريجه.

والترمذي نحوه من حديث أبي هريرة، وفيه: «**بُعد ما بين سماء إلىٰ سماء خمسمائة عام، وكذلك الأرضون**»[٨٩٣]. ولفظ أحمد في الأرضين سبعمائة عام، حتىٰ عد سبع أرضين، ولا منافاة بينها؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو بسير القافلة، ونيف وسبعين علىٰ سير البريد، وحكىٰ شيخ الإسلام وغيره الإجماع علىٰ أنها مستديرة، والمراد كل واحدة فوق الأخرىٰ محيطة بها، والتي تحتها في وسطها، حتىٰ ينتهي الأمر إلىٰ السفلىٰ، وفي وسطها المركز، وقال: الأفلاك مستديرة بالكتاب والسنة والإجماع.

خاتمة:

ابتدأ المصنف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- هذا المصنف القيم الذي لم يسبق إليه ببيان توحيد الإلهية؛ لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد، وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد، فقرره كما ترىٰ أحسن تقرير وأبينه، ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات؛ ليكون هذا الكتاب حاويًا لأنواع التوحيد الثلاثة التي أشار إليها العلامة ابن القيم بقوله:

والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان

علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

ولأن هذا العلم قد خاض فيه من ينتسب إليه ممن قد أخذ عن أهل الكلام وغيرهم، لظنهم أنهم علىٰ شيء، فقرروا مذهب الجهمية، وألحدوا في توحيد الأسماء والصفات، وخالفوا ما دلت عليه الآيات المحكمات، والنصوص الثابتة عن الثقات من غير التفات، فهدىٰ الله هذا الإمام -قدس الله روحه- إلىٰ معرفة التوحيد، فقرره ووضحه بالأدلة من الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة، ولقد -والله- وضَّح التوحيد الذي أُرسلت من أجله الرسل، وأُنزلت الكتب، أحسن توضيح، وبينه أبين تبيين، وزيَّف الشرك، وحذر منه أبلغ تحذير، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء، ورفع درجته في المهديين، ونظمنا في سلكهم أجمعين، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه والتابعين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدين.

---

(٨٩٣) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة الحديد، برقم (٣٢٩٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي».

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾»:**

ختم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه بهذه الترجمة.

وذكر النصوص الدالة علىٰ عظمة الرب العظيم وكبريائه؛ ومجده وجلاله وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه؛ لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين علىٰ أنه المعبود وحده، المحمود وحده الذي يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم وغاية الحب والتأله. وأنه الحق وما سواه باطل، وهذه حقيقة التوحيد ولبه وروحه، وسر الإخلاص.

فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه إنه جواد كريم.

وهذا آخر التعليق المختصر علىٰ كتاب التوحيد وتوضيح مقاصده. وقد حوىٰ من غرر مسائل التوحيد. ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن، الذي هو أصل الأصول، وبه تقوم العلوم كلها.

والحمد لله علىٰ تيسيره ومنته. وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله: «باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾»:**

هذا الباب الأخير في الكتاب جمع أنواع التوحيد الثلاثة.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ هذه الآية تبين عظمة قدرته سبحانه وتعالىٰ، وأنه يطوي السماوات والأرض ومن كان بهذه المتانة فهو أحق أن يعبد ويطاع، وهو الذي له الكمال في أسمائه وصفاته وأفعاله لا شبيه له ولا ند له ولا يقاس بخلقه، فهو القادر علىٰ كل شيء سبحانه.

❁ **قوله: «عن عبد الله بن مسعود قال: جاء حبر من أحبار اليهود إلىٰ رسول الله...»:**

حبر: بفتح الحاء وكسرها وهو العالم من علماء اليهود.

يا محمد! إنا نجد الله يجعل السماوات والأرض علىٰ إصبع؛: أي: أنه سبحانه يحمل هذه المخلوقات علىٰ أصابع خمسة فمع عظم هذه المخلوقات السماوات والأرض فإنه سبحانه يأخذها بيده ويهزها **«أنا الملك أنا الجبار»، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ أين ملوك الأرض؟ »** وتلا النبي ﷺ الآية تصديقًا له، وفي هذا إثبات الصفات لله، وأنه سبحانه له يمين وشمال، وأن كلتا يديه يمين كما في الحديث الآخر، وسمىٰ أحدهما يمينًا والآخر شمالًا من حيث الاسم، ولكن من حيث المعنىٰ والشرف كلتاهما يمين سبحانه وتعالىٰ، وليس في شيء منهما نقص.

وكذلك الكف قال: ما السماوات السبع والأرضين السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم.

قوله: «وعن ابن مسعود قال: ما بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام.... ».

قوله: «وعن العباس مرفوعًا: هل تدرون كم بين السماء والأرض قلنا الله ورسوله أعلم... »

وهذه من أحاديث الصفات ومن أحاديث العلو وقد أجمع أهل السنة والجماعة علىٰ أن الله سبحانه فوق عرشه، فوق جميع الخلق، وعلمه في كل مكان، والأدلة علىٰ ذلك أكثر من أن تحصر.

وحديث ابن مسعود حديث صحيح جيد، وحديث العباس وإن كان في سنده انقطاع لكنه ينجبر.

وله روايات أخرىٰ أن بين السماء الدنيا مسيرة إحدىٰ وسبعين سنة أو اثنتان وسبعون سنة أو ثلاث وسبعون سنة، وجمع بعض أهل العلم بينهما بأن السير يختلف، وأن خمسمائة عام بالنظر إلىٰ سير الأحمال، وسير الأقدام، والسير العادي.

وثلاث وسبعون سنة بالنظر إلىٰ السير الخفيف القوي، فإن مقداره يكون بمقدار السدس بالنسبة إلىٰ سير الأحمال المثقلة ونحو ذلك.

وعلىٰ كل تقدير فهذا يبين عظمة الله وعلوه، وأنه لا يخفي عليه شيء من أعمال بني آدم.

وفيه الدلالة علىٰ ارتفاع هذه المخلوقات، وسعة ما بينها من المسافات العظيمة وربك الخلاق جل وعلا هو الذي خلقها فهو أعظم منها وأكبر سبحانه وتعالىٰ.

والحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله: «باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ...﴾»:**

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ﴾: الضمير يعود علىٰ المشركين، و ﴿قَدَرُواْ﴾: عظموا؛ أي: ما عظموا الله حق تعظيمه حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته.

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: يحتمل أن تكون الواو للحال؛ أي: ما قدروا الله حق قدره في هذه الحال.

ويحتمل أن تكون للاستئناف؛ لبيان عظمة الله ﷻ، وهذا أقوىٰ؛ لأنه يعم هذه الحال وغيرها.

والقبضة: هي ما يقبض باليد، وليس المراد بها الملك كما قيل، نعم، لو قال: والأرض في قبضته؛ لكان تفسيرها بالملك محتملًا.

قوله: «**جميعًا**»: حال من الأرض؛ فيشمل بحارها وأنهارها وأشجارها وكل ما فيها، الأرض كلها جميعًا قبضته يوم القيامة، والسماوات علىٰ عظمها وسعتها مطويات بيمينه، قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[الأنبياء:١٠٤].

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. هذا تنزيه له عن كل نقص وعيب، ومما ينزه عنه هذه الأنداد، ولهذا قال: ﴿وَتَعَالَىٰ﴾، أي: ترفع.

قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: عن كل شرك يشركونه به، سواء جعلوا الخالق كالمخلوق أو العكس.

قوله: «حبر»:

الحبر: هو العالم الكثير العلم، والحبر يشابه البحر في اشتقاق الحروف، ولهذا كان العالم أحيانًا يسمىٰ بالحبر وأحيانًا بالبحر.

قوله: «**إنا نجد**»؛ أي: في التوراة.

قوله: «**فضحك النبي ﷺ**»: ولولا ما بعدها لاحتملت أن تكون إنكارًا، لأن من حدثك بحديث لا تطمئن إليه ضحكت منه، لكنه قال: «**تصديقًا لقول الحبر**»؛ فكانت إقرارًا لا غير، ويدل لذلك قوله: ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ الآية؛ فهذا يدل علىٰ أنه ﷺ أقره واستشهد لقوله بآية من كتاب الله، فضحكه واستشهاده تقرير لقول الحبر، وسبب الضحك هو سروره؛ حيث جاء في القرآن ما يُصدق ما وجده هذا الحبر في كتبه؛ لأنه لا شك أنه إذا جاء ما يصدق القرآن؛ فإن الرسول ﷺ سوف يسر به، وإن كان الرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن القرآن من عند الله، لكن تضافر البينات مما يُقوي الشيء، أرأيت أسامة بن زيد وأبوه زيد بن حارثة؟ هل كان عند النبي ﷺ شك في أن أسامة ابنٌ لزيد؟

الجواب: ليس عنده في ذلك شك، ولما مر بهما مجزز المدلجي -وهو من أهل القيافة- وقد تغطيا بقطيفة لم يبد منهما إلا أقدامهما، فنظر إلىٰ أقدامهما، فقال: إن الأقدام بعضها من بعض، فسر النبي ﷺ سرورًا عظيمًا حتىٰ دخل علىٰ عائشة مسرورًا تبرق أسارير وجهه، وقال: «**ألم تري إلىٰ مجزز المدلجي نظر إلىٰ أسامة بن زيد وإلىٰ زيد فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض**»[٨٩٤]؛ فالمهم

---

(٨٩٤) أخرجه البخاري، كتاب: الفرائض، باب: القائف، برقم (٦٧٧١)، ومسلم، كتاب: الرضاع، باب: العمل بإلحاق القائف الولد، برقم (٣٨/ ١٤٥٩) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

أن الرسول ﷺ دخل تبرق أسارير وجهه؛ لأن في ذلك تأييدًا للحق، وكان المشركون يقدحون في أسامة بن زيد وأبيه لاختلاف ألوانهما، فكان أسامة أسود شديد السواد وأبوه زيد شديد البياض، لكن الأمر ليس كما قالوا، بل هم كاذبون في ذلك، واختلاف اللون لا يوجب شبهة إلا لذي هوىٰ؛ فلعل المخالف في اللون نزعه عرق.

قوله: «**أصبع**»: واحدة الأصابع، وهي مثلثة الأول والثالث؛ ففيها تسع لغات، والعاشر أُصْبُوع، وفي هذا يقول الناظم:

وهَمْــزُ أَنْمُلَــة ثَلِّــثْ وثَالِثَـــة ... التِّــسْعِ في أُصْــبُعِ واخْــتُم بِأَصْــبُوعِ

قوله: «**أنا الملك**»: هذه الجملة تفيد الحصر؛ لأنها اسمية معرفة الجزئين؛ ففي ذلك اليوم لا ملك لأحد، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[غافر:١٦]، وكل الناس الملوك منهم والمملوكون علىٰ حد سواء يحشرون حفاة عراة غرلًا، وبهذا يظهر ملكوت اللهﷻ في ذلك اليوم ظهورًا بينًا؛ لأنه سبحانه ينادي: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

وقوله: «**الملك**»؛ أي: ذو السلطان، وليس مجرد المتصرف، بل هو المُتصرِّف فيما يملك علىٰ وجه السلطة والعلو، وأما «**المالك**» فدون ذلك، ولهذا يمتدح نفسه تعالىٰ بأنه **الملك**، وقوله تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة:٤] فيها قراءتان: «ملك، ومالك»؛ ليتبين بذلك أنه ملك مالك، فملك الله تعالىٰ متضمن لكمال السلطان والتدبير والملك، بخلاف غيره؛ فإن من ملوك الدنيا من يكون ملكًا لا يملك التصرف، ومنهم المالك وليس بملك.

قوله: «**حتىٰ بدت نواجذه**»؛ أي: ظهرت، ونواجذ: جمع ناجذ، وهو أقصىٰ الأضراس.

وهذا الضحك من النبيﷺ تقرير لقول الحبر؛ ولهذا قال ابن مسعود: «تصديقًا لقول الحبر»، ولو كان منكرًا ما ضحك الرسولﷺ ولا استشهد بالآية، ولقال له: كذبت كما كذب الذين ادعوا أن الذي يزني لا يرجم، ولكنه ضحك تصديقًا لقول الحبر وسرورًا بأن ما ذكره موافق لما جاء به القرآن الذي أوحي إلىٰ محمدﷺ.

قوله: ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ...﴾ الآية: هذا معنىٰ الآية التي لا تحتمل غيره، وأن السماوات مطويات كطي السجل للكتب بيمينه؛ أي: يده تبارك وتعالىٰ؛ لأن ذلك تفسيرهﷺ، وتفسيره في الدرجة الثانية من حيث الترتيب، لكنه كالقرآن في الدرجة الأولىٰ من حيث القبول والحجة.

وأما تفسير أهل التحريف؛ فيقول بعضهم: «قبضته»؛ أي: في قبضته وملكه وتصرفه، وهو خطأ؛ لأن الملك والتصرف كائن يوم القيامة وقبله.

وقول بعضهم: «السماوات مطويات»؛ أي: تالفة وهالكة؛ كما تقول انطوى ذكر فلان؛ أي: زال ذكره.

و «بيمينه»؛ أي: بقسمه؛ لأنه قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧] فجعلوا المراد باليمين القسم .. إلى غير ذلك من التحريفات التي يلجأ إليها أهل التحريف، وهذا لظنهم الفاسد بالله، حيث زعموا أن إثبات مثل هذه الصفات يستلزم التمثيل، فصارا ينكرون ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته رسوله وسلف الأمة بشبهات يدعونها حججًا.

فيقال لهم: هل أنتم أعلم بالله من الله؟ إن قالوا: نعم؛ كفروا، وإن قالوا: لا؛ قلنا هل أنتم أفصح في التعبير عن المعاني من الله؟

إن قالوا: نعم؛ كفروا، وإن قالوا: لا؛ خُصِموا، وقلنا لهم: إن الله بين ذلك أبلغ بيان بأن الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والرسول ﷺ أقر الحبر على ما ذكر فيما يطابق الآية، وهل أنتم أنصح من الرسول ﷺ لعباد الله؟ فسيقولون: لا.

فإذا كان كلامه تعالى أفصح الكلام، وأصدقه، وأبينه، وأعلم بما يقول؛ لزم علينا أن نقول مثل ما قال عن نفسه، ولسنا بمذنبين، بل الذنب على من صرف كلامه عن حقيقته التي أراده الله بها.

ومن فوائد الحديث:

إثبات الأصابع لله ﷻ لإقراره ﷺ هذا الحبر على ما قال.

والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله ﷻ؛ كاليد، وليس المراد بقوله: «على إصبع» سهولة التصرف في السماوات والأرض؛ كما يقوله أهل التحريف، بل هذا خطأ مخالف لظاهر اللفظ والتقسيم، ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره؛ ولقوله ﷺ «**إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن**»(٨٩٥).

وقوله: «بين أصبعين»: لا يلزم من البينية المماسة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما، ونقول: عنيزة بين الزلفي والرس، ولا يلزم أن تكون متصلة بهما، وتقول: شعبان بين ذي القعدة وجمادى، ولا ويلزم أن يكون مواليًا له؛ فتبين أن البينية لا تستلزم الاتصال في الزمن أو المكان، وكما ثبت عنه ﷺ: أن الله -

---

(٨٩٥)تقدم تخريجه.

سبحانه وتعالىٰ- يكون قِبَلَ وجه المصلي[٨٩٦]، ولا يلزم من المقابلة أن يكون بينه وبين الجدار أو السترة التي يصلي إليها؛ فهو قبل وجهه وإن كان علىٰ عرشه، **ومثال ذلك**: الشمس حين تكون في الأفق عند الشروق أو الغروب؛ فإن من الممكن أن تكون قبل وجهك وهي في العلو.

فتبين بهذا أن هؤلاء المحرفين علىٰ ضلال، وأن من قال: إن طريقتهم أعلم وأحكم؛ فقد ضل، ومن المشهور عندهم قولهم: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهذا القول علىٰ ما فيه من التناقض قد يوصل إلىٰ الكفر؛ فهو:

أولًا: فيه تناقض؛ لأنهم قالوا طريقة السلف أسلم، ولا يعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم وأحكم؛ لأن الأسلم يستلزم أن يكون أعلم وأحكم؛ فلا سلامة إلا بعلم بأسباب السلامة وحكمة في سلوك هذه الأسباب.

ثانيًا: أين العلم والحكمة من التحريف والتعطيل؟

ثالثًا: يلزم منه أن يكون هؤلاء الخالفون أعلم بالله من رسوله ﷺ وأصحابه؛ لأن طريقة السلف هي طريقة النبي ﷺ وأصحابه.

رابعًا: أنها قد تصل إلىٰ الكفر؛ لأنها تستلزم تجهيل النبي ﷺ وتسفيهه؛ فتجهيله ضد العلم، وتسفيهه ضد الحكمة، وهذا خطر عظيم.

فهذه العبارة باطلة حتىٰ وإن أرادوا بها معنىٰ صحيحًا؛ لأن هؤلاء بحثوا وتعمقوا وخاضوا في أشياء كان السلف لم يتكلموا فيها؛ فإن خوضهم في هذه الأشياء هو الذي ضرهم وأوصلهم إلىٰ الحيرة والشك، وصدق النبي ﷺ حين قال: «**هلك المتنطعون**»[٨٩٧]، فلو أنهم بقوا علىٰ ما كان عليه السلف الصالح ولم يتنطعوا؛ لما وصلوا إلىٰ هذا الشك والحيرة والتحريف، حتىٰ إن بعض أئمة أهل الكلام كان يتمنىٰ أن يموت علىٰ عقيدة أُمه العجوز التي لا تعرف هذا الضلال، ويقول بعضهم: ها أنا أموت علىٰ عقيدة عجائز نيسابور.

---

(٨٩٦) أخرجه البخاري، أبواب المساجد، باب: حك البزاق باليد من المسجد، برقم (٤٠٦)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن البصاق في المسجد، برقم (٥٠ / ٥٤٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٨٩٧) أخرجه مسلم، كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون، برقم (٧/ ٢٦٧٠)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة، برقم (٤٦٠٨) وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وهذا من شدة ما وجدوا من الشك والقلق والحيرة، ولا تظن أن العقيدة الفاسدة يمكن أن يعيش الإنسان عليها أبدًا، لا يمكن أن يعيش الإنسان إلا علىٰ عقيدة سليمة، وإلا ابتلي بالشك والقلق والحيرة، وقد قال بعضهم: أكثر الناس شكًّا عند الموت أهل الكلام، وما بالك -والعياذ بالله- بالشك عند الموت يختم للإنسان بضد الإيمان.

لكن لو أخذنا العقيدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بسهولة وبما جرىٰ عليه السلف، ونقول كما قال الرازي وهو من علمائهم ورؤسائهم: رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]؛ يعني: فأثبت، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ:١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي؛ لأنه أقر هذا الكلام، فقال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تروي غليلًا ولا تشفي عليلًا، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن.

والحاصل: أن هؤلاء المنكرين لما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله ﷻ؛ اعتمادًا علىٰ هذا الظن الفاسد أنها تقتضي التمثيل قد ضلوا ضلالًا مبينًا؛ فالصحابة ﭫ هل ناقشوا الرسول ﷺ في هذا؟ والذي نكاد نشهد به إن لم نشهد به أنه حين يمر عليهم مثل هذا الحديث يقبلونه علىٰ حقيقته، لكن يعلمون أن الله لا مثل له؛ فيجمعون بين الإثبات وبين النفي.

إذًا موقفنا من هذا الحديث الذي فيه إثبات الأصابع لله ﷻ أن نقر به ونقبله، وأن لا نقتصر علىٰ مجرد إمراره بدون معنىٰ، فنكون بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، بل نقرؤه ونقول: المراد به أصبع حقيقي يجعل الله عليه هذه الأشياء الكبيرة، ولكن لا يجوز أبدًا أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بألسنتنا: إنه مثل أصابعنا، بل نقول: الله أعلم بكيفية هذه الأصابع؛ فكما أننا لا نعلم ذاته المقدسة؛ فكذلك لا نعلم كيفية صفاته، بل نكل علمها إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

❁ **قوله: «ثم يهزهن»:**

أي: هزًّا حقيقيًّا، ليبين للعباد في ذلك الموقف العظيم عظمته وقدرته، وكان الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية ويقبض أصابعه ويبسطها؛ فصار المنبر يتحرك ويهتز(٨٩٨)؛ لأنه ﷺ كان يتكلم بهذا الكلام وقلبه مملوء بتعظيم الله تعالىٰ.

---

(٨٩٨) تقدم تخريجه.

فإن قلت: هل نفعل بأيدينا كما فعل النبيﷺ؟

فالجواب: إن هذا يختلف بحسب ما يترتب عليه؛ فليس كل من شاهد أو سمع يتقبل ذهنه ذلك بغير أن يشعر بالتمثيل؛ فينبغي أن نكف؛ لأن هذا ليس بواجب حتىٰ نقول: يجب علينا أن نبلغ كما بلغ الرسولﷺ بالقول والفعل، أما إذا كنا نتكلم مع طلبة علم أو مع إنسان مكابر ينفي هذا ويريد أن يحول المعنىٰ إلىٰ غير الحقيقة؛ فحينئذ نفعل كما فعل الرسولﷺ.

فلو قال قائل: إن الله سميع بصير، لكن قال: سميع بلا سمع وبصير بلا بصر، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام حين قرأ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[النساء:٥٨] وضع إبهامه علىٰ أذنه والتي تليها علىٰ عينه وأبو هريرة حين حدث به كذلك(٨٩٩)؛ فهذا الإنسان الذي يقول: إن الله سميع بلا سمع بصير بلا بصر نقول له هكذا.

وكذلك الذي ينكر حقيقة اليد ويقول: إن الله لا يقبض السماوات بيمينه، و معنىٰ قبضته؛ أي: في تصرفه؛ فهذا نقول له كما فعل الرسولﷺ.

فالمقام ليس بالأمر السهل، بل هو أمر صعب ودقيق للغاية؛ فإنه يخشىٰ من أن يقع أحد في محذور كان بإمكانك أن تمسك عنه، وهذا هو فعل الرسولﷺ في جميع تصرفاته إذا تأملتها، حتىٰ الأمور العملية قد يؤجلها إذا خاف من فتنة أو من شيء أشد ضررًا، كما أخر بناء الكعبة علىٰ قواعد إبراهيم؛ خوفًا من أن يكون فتنة لقريش الذين أسلموا حديثًا(٩٠٠).

قوله: «والماء والثرىٰ علىٰ إصبع»:

هذا لا ينافي قوله: **«الأرضين علىٰ إصبع»**؛ لأنه يقال: **«الماء والثرىٰ علىٰ إصبع»**؛ أي: الأرض كلها علىٰ إصبع، ويراد بالإصبع الجنس، وإلا لتناقض مع معنىٰ الحديث الذي قبله: **«الشجر علىٰ إصبع، والماء علىٰ إصبع، والثرىٰ علىٰ إصبع»**، إذ النكرة إذا كررت بلفظ النكرة؛ فالثاني غير الأول غالبًا، وإذا كررت بلفظ المعرفة؛ فالثاني هو الأول غالبًا، وفيقال: الماء والثرىٰ كناية عن الأرض كلها، أو إن الماء والثرىٰ علىٰ إصبع وسكت عن الباقي؛ إما اختصارًا أو اقتصارًا.

---

(٨٩٩) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في الجهمية والمعتزلة، برقم (٤٧٢٨) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحح إسناده الشيخ الألباني في «قصة الدجال» (٦٤).

(٩٠٠) تقدم تخريجه.

۞ **قوله: «ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا: يطوي الله السماوات...»:**

سبق معنىٰ هذا الحديث، وأن المراد بالطي الطي الحقيقي.

قوله: «**ثم يقول: أنا الملك**»: يقول ذلك ثناء علىٰ نفسه -سبحانه؛ وتنبيهًا علىٰ عظمته الكاملة وعلىٰ ملكه الكامل، وهو السلطان؛ فهو مالك ذو سلطان، وهذه الجملة كلا جزأيها معرفة، وإذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفة؛ فإن ذلك من طرق الحصر؛ أي: أنا الذي لي الملكية المطلقة والسلطان التام لا ينازعني فيهما أحد.

قوله: «**أين الجبارون؟**»: الاستفهام للتحدي، فيقول: أين الملوك الذين كانوا في الدنيا لهم السلطة والتجبر والتكبر علىٰ عباد الله؟ وفي ذلك الوقت يحشرون أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم.

قوله: «**يطوي الأرضين السبع**»: أشار الله في القرآن إلىٰ أن الأرضين سبع، ولم يرد العدد صريحًا في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾[الطلاق:١٢]، والمماثلة هنا لا تصح إلا في العدد؛ لأن الكيفية تتعذر المماثلة فيها؛ وأما السنة، فقد صرحت بعدة أحاديث بأنها سبع.

قوله: «**ثم يأخذهن بشماله**»: كلمة «شمال» اختلف فيها الرواة؛ فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكموا علىٰ من أثبتها بالشذوذ؛ لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر، ومنهم من قال: إن ناقلها ثقة، ولكنه قالها من تصرفه.

وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في «صحيح مسلم»: أن الرسول ﷺ قال: «**المقسطون علىٰ منابر من نور علىٰ يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين**»[(٩٠١)]، وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال.

ولكن إذا كانت لفظة شمال محفوظة، فهي عندي لا تنافي «**كلتا يديه يمين**»؛ لأن المعنىٰ أن اليد الأخرىٰ ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنىٰ، فقال: «**كلتا يديه يمين**»، أي: ليس فيها نقص، ويؤيد هذا قوله في حديث آدم:«**اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة**»[(٩٠٢)]، فلما كان الوهم يذهب إلىٰ أن إثبات الشمال؛ يعني: النقص في هذه اليد دون الأخرىٰ؛ قال:«**كلتا يديه يمين**»، ويؤيده أيضًا قوله: «**المقسطون علىٰ منابر من نور علىٰ يمين الرحمن**»؛ فإن المقصود بيان فضلهم ومرتبتهم، وأنهم علىٰ يمين الرحمن سبحانه.

---

(٩٠١) تقدم تخريجه.

(٩٠٢) أخرجه الترمذي كتاب: تفسير القرآن، باب: (٩٥)، برقم (٣٣٦٨)، والحاكم (١/ ١٣٢) وغيرهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٥٢٠٩).

وعلىٰ كلٍّ، فإن يديه -سبحانه- اثنتان بلا شك، وكل واحدة غير الأخرىٰ، وإذا وصفنا اليد الأخري بالشمال؛ فليس المراد أنها أقل قوة من اليد اليمنىٰ، بل كلتا يديه يمين.

والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله ﷺ؛ فنحن نؤمن بها ولا منافاة بينها وبين قوله: «**كلتا يديه يمين**» كما سبق، وإن لم تثبت؛ فلن نقول بها.

قوله: «**في كف الرحمن**»: هكذا ساقه المولف، والذي في ابن جرير: «**في يد الله**»(٩٠٣) ففيما ساقه المؤف إثبات الكف لله تعالىٰ، إن كان السياق محفوظًا وإلا ففيه إثبات اليد. أما الكف فقد ثبت في أحاديث أخرىٰ صحيحة.

قوله: «**إلا كخردلة**»: هي حبة نبات صغيرة جدًّا، يضرب بها المثل في الصغر والقلة، وهذا يدل علىٰ عظمته -سبحانه-، وأنه -سبحانه- لا يحيط به شيء، والأمر أعظم من هذا التمثيل التقريبي؛ لأنه تعالىٰ لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفهام.

قوله: «قال ابن جرير»:

هو المفسر المشهور رَحِمَهُ اللهُ، وله تفسير أثري يعتمد فيه علىٰ الآثار، لكن آفته أنه لم يمحص هذه الآثار، وأتىٰ بالصحيح والضعيف وما دون الضعيف أيضًا، وكأنه رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يقيد هذا وجعل الحكم بالصحة والضعف موكولًا إلىٰ القارئ، وربما كان يريد أن يرجع إليه مرة ثانية ويمحصه، ولكن لم يتيسر ذلك.

قوله: «**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس**»: الكرسي: موضع قدمي الله تعالىٰ، هكذا قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، والدراهم: جمع درهم، وهو النقد من الفضة، والترس: شيء من جلد أو خشب يحمل عند القتال يُتقىٰ به السيف والرمح ونحوهما.

قوله: «ما الكرسي في العرش»:

أي: بالنسبة إليه، والعرش هو المخلوق العظيم الذي استوىٰ عليه الرحمن ولا يقدر قدره إلا الله ﷻ، والمراد بالحلقة حلقة الدرع، وهي صغيرة وليست بشيء بالنسبة إلىٰ فلاة الأرض.

وهذا الحديث يدل علىٰ عظمته ﷻ، فيكون مناسبًا لتفسير الآية التي جعلها المؤلف ترجمة للباب.

---

(٩٠٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا موقوفًا.

قوله: «وعن ابن مسعود...»:

هذا الحديث موقوف على ابن مسعود، لكنه من الأشياء التي لا مجال للرأي فيها، فيكون له حكم الرفع؛ لأن ابن مسعود رضي الله عنه لم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات.

قوله: «**بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام**»: وعلى هذا تكون المسافة بين السماء الدنيا والماء أربعة آلاف سنة، وفي حديث آخر: «**إن كثف كل سماء خمسمائة عام**»[٩٠٤]، وعلى هذا يكون بين السماء الدنيا والماء سبعة آلاف وخمسمائة عام، وإن صح الحديث؛ فمعناه: أن علو الله جل جلاله بعيد جدًّا.

فإن قيل: يرد على هذا ما ذكره المعاصرون اليوم من أن بيننا وبين بعض النجوم والمجرات مسافات عظيمة؟

يقال في الجواب: إنه إذا صحت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنا نضرب بها عارضها عرض الحائط، لكن إذا قُدِّر أننا رأينا الشيء بأعيننا، وأدركنا بأبصارنا وحواسنا؛ **ففي هذه الحال يجب أن نسلك أحد أمرين**:

الأول: محاولة الجمع بين النص والواقع إن أمكن الجمع بينهما بأي طريق من طرق الجمع.

الثاني: إن لم يمكن الجمع تبين ضعف الحديث؛ لأنه لا يمكن للأحاديث الصحيحة أن تخالف شيئًا حسيًّا واقعًا أبدًا، كما قال شيخ الإسلام في كتابه «العقل والنقل»: «لا يمكن للدليلين القطعيين أن يتعارضا أبدًا، لأن تعارضهما يقتضي إما رفع النقيضين أو جمع النقيضين، وهذا مستحيل، فإن ظُنَّ التعارض بينهما؛ فإما أن لا يكون تعارض ويكون الخطأ من الفهم، وإما أن يكون أحدهما ظنيًّا والآخر قطعيًّا».

فإذا جاء الأمر الواقع الذي لا إشكال فيه مخالفًا لظاهر شيء من الكتاب أو السنة؛ فإن ظاهر الكتاب يؤول حتى يكون مطابقًا للواقع، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[الفرقان:٦١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[نوح:١٦]؛ أي: في السماوات.

والآية الثانية أشد إشكالًا من الآية الأولى؛ لأن الآية الأولى يمكن أن نقول: المراد بالسماء العلو، ولكن الآية الثانية هي المشكلة جدًّا، والمعلوم بالحس المشاهد أن القمر ليس في السماء نفسها، بل هو في فلك بين السماء والأرض.

---

(٩٠٤) تقدم تخريجه، من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

والجواب أن يقال: إن كان القرآن يدل على أن القمر مرصع في السماء كما يرصع المسمار في الخشبة دلالة قطعية؛ فإن قولهم: إننا وصلنا القمر ليس صحيحًا، بل وصلوا جرمًا في الجو ظنوه القمر.

لكن القرآن ليس صريحًا في ذلك، وليست دلالته قطعية في أن القمر مرصع في السماء؛ فآية الفرقان قال الله فيها: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[الفرقان:٦١]، فيمكن أن يكون المراد بالسماء: العلو، كقوله تعالى ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾[الرعد:١٧] والماء ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[البقرة:١٦٤]، وهذا التأويل للآية قريب.

وأما قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾: فيمكن فيها التأويل أيضًا بأن يقال: المراد لقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾: في جهتهن، وجهة السماوات العلو؛ وحينئذ يمكن الجمع بين الآيات والواقع.

قوله: «والله فوق العرش»: هذا نص صريح بإثبات علو الله تعالى علوًّا ذاتيًّا وعلو الله ينقسم إلى قسمين:

أ – علو الصفة، وهذا لا ينكره أحد ينتسب للإسلام، والمراد به كمال صفات الله؛ كما قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[النحل:٦٠].

ب – علو الذات، وهذا أنكره بعض المنتسبين للإسلام؛ فيقولون: كل العلو الوارد المضاف إلى الله به علو الصفة، فيقولون في قوله ﷺ: «والله فوق العرش»؛ أي: في القوة والسيطرة والسلطان، وليس فوقه بذاته، ولا شك أن هذا تحريف في النصوص وتعطيل في الصفات.

والذين أنكروا علو الله بذاته انقسموا إلى قسمين:

أ – من قال: إن الله بذاته في كل مكان، وهذا لا شك ضلال مقتض للكفر.

ب – من قال: إنه لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متصل بالخلق ولا منفصل عن الخلق، وهذا إنكار محض لوجود الله والعياذ بالله، ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا: صفوا العدم؛ ما وجدنا أبلغ من هذا الوصف، ففروا من شيء دلت عليه النصوص والعقول والفطر إلى شيء تنكره النصوص والعقول والفطر.

قوله: «لا يخفى عليه شيء من أعمالكم». يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح المرئي منها والمسموع، وذلك لعموم علمه وسعته، وإنما أتى بذلك بعد ذكر علوه ليبين أن علوه لا يمنع علمه بأعمالنا، وهو إشارة واضحة إلى علو ذاته تبارك وتعالى.

قوله: «العباس» يقال: العباس، وعباس، و«أل» هنا لا تفيد التعريف؛ لأن عباس معرفة لكونه علمًا، لكنها للمح الأصل؛ كما يقال: الفضل؛ لفضله، والعباس؛ لعبوسه على الأعداء، قال ابن مالك:

وبعض الأعلام عليه دَخلا للمح ما قد كان عنه نُقلا

قوله: «هل تدرون»: «هل»: استفهامية يراد بها أمران:

أ- التشويق لما سيذكر.

ب- التنبيه إلىٰ ما سيلقيه عليهم، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[الغاشية:١]، هذا تنبيه وتشويق إلىٰ شيء من آيات الله الكونية.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الصف:١٠]، هذا تنبيه وتشويق علىٰ شيء من آيات الله الشرعية وهو الإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾[الكهف:١٠٣] تنبيه وتحذير، وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾[المائدة:٦٠] تنبيه وتحذير، واختلاف هذه المعاني بحسب القرائن والسياق، وإلا؛ فالأصل في الاستفهام أنه طلب العلم بالشيء.

قوله: «كم»: استفهامية.

قوله: «قلنا: الله ورسوله أعلم»: جاء العطف بالواو؛ لأن علم الرسول من علم الله؛ فهو الذي يعلمه بما لا يدركه البشر.

وكذلك في المسائل الشرعية يقال: الله ورسوله أعلم؛ لأنه ﷺ أعلم الخلق بشرع الله، وعلمه به من علم الله، وما قاله ﷺ في الشرع فهو كقول الله؛ وليس هذا كقوله: «ما شاء الله وشئت»(٩٠٥)؛ لأن هذا في باب القدر والمشيئة، ولا يمكن أن يُجعل الرسول ﷺ مشاركًا لله في ذلك، بل يقال: ما شاء الله، ثم يعطف بـ «ثم»، والضابط في ذلك أن الأمور الشرعية يصح فيها العطف بالواو، وأما الكونية؛ فلا.

ومن هنا نعرف خطأ وجهل من يكتب علىٰ بعض الأعمال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾[التوبة:١٠٥] بعد موت الرسول ﷺ وتعذر رؤيته، فالله يرىٰ، ولكن رسوله لا يرىٰ؛ فلا تجوز كتابته؛ لأنه كذب عليه ﷺ.

---

(٩٠٥) تقدم تخريجه.

قوله: «خمسمائة سنة»: الميم الثانية في خمسمائة مكسورة والألف لا ينطق بها.

قوله: «**وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض**». وذلك خمسمائة سنة.

قوله: «**والله تعالىٰ فوق ذلك**»: هذا دليل علىٰ العلو العظيم لله ﷻ، وأنه -سبحانه- فوق كل شيء ولا يحيط به شيء من مخلوقاته، لا السماوات ولا غيرها، وعليه؛ فإنه -سبحانه- لا يوصف بأنه في جهة تحيط به؛ لأن ما فوق السماوات والعرش عدم، ليس هناك شيء حتىٰ يقال: إن الله أحاط به شيء من مخلوقاته؛ ولهذا جاء في بعض كتب أهل الكلام يقولون: لا يجوز أن يوصف الله بأنه في جهة مطلقًا، وينكرون العلو ظنًّا منهم أن إثبات الجهة يستلزم الحصر. وليس كذلك؛ لأننا نعلم أن ما فوق العرش عدم لا مخلوقات فيه، ما ثم إلا الله، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته أبدًا.

فالجهة إثباتها لله فيه تفصيل، أما إطلاق لفظها نفيًا وإثباتًا فلا نقول به؛ لأنه لم يرد أن الله في جهة، ولا أنه ليس في جهة، ولكن نفصل؛ فنقول: إن الله في جهة العلو؛ لأن الرسول ﷺ قال للجارية: «**أين الله؟**». وأين يستفهم بها عن المكان؛ فقالت: في السماء، فأثبتت ذلك، فأقرها النبي ﷺ عليه، وقال «**أعتقها؛ فإنها مؤمنة**»(٩٠٦).

وأهل التحريف يقولون: «أين» بمعني: «مَنْ»؛ أي: من الله؟ قالت: في السماء؛ أي: هو من السماء، وينكرون العلو.

وقد رد عليهم ابن القيم رحمه الله في كتبه ومنها «النونية» وقال لهم: اللغة العربية لا تأتي فيها «أين»؛ بمعني: «مَنْ»، وفرقٌ بين «أين و من».

فالجهة لله ليست جهة سفل، وذلك لوجوب العلو له فطرةً وعقلًا وسمعًا، وليست جهة علو تحيط به؛ لأنه تعالىٰ وسع كرسيه السماوات والأرض، وهو موضع قدميه؛ فكيف يحيط به تعالىٰ شيء من مخلوقاته؟! فهو في جهة علو لا تحيط به، ولا يمكن أن يقال: إن شيئًا يحيط به؛ لأننا نقول: إن ما فوق العرش عدم ليس ثم إلا الله -سبحانه-، ولهذا قال: «**والله تعالىٰ فوق ذلك**».

---

(٩٠٦) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، برقم (٣٣/ ٥٣٧) وغيره من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

قوله: «**وليس يخفىٰ عليه شيء من أعمال بني آدم**»: وقوله: «**أعمال**» إن قرنت بالأقوال صار المراد بها: أعمال الجوارح، والأقوال للسان، وإن أفردت شملت أعمال الجوارح وأقوال اللسان وأعمال القلوب، وهي هنا مفردة؛ فتشمل كل ما يتعلق باللسان أو القلب أو الجوارح، بل أبلغ من ذلك أنه لا يخفىٰ عليه شيء من أعمال بني آدم في المستقبل؛ فهو يعلم ما يكون فضلًا عما كان، قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[طه:١١٠]؛ أي: ما يستقبلونه وما مضىٰ عليهم، ولما قال فرعون لموسىٰ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾[طه:٥١]؛ أي: ما شأنها؟ قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ أي: محفوظة، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾: لا يجهل، ﴿وَلَا يَنسَى﴾[طه:٥١، ٥٢]: لا يذهل عما مضىٰ سبحانه وتعالىٰ.

والنبي ﷺ صدر هذا الأمر بهل الدالة علىٰ التشويق والتنبيه من أجل أن يثبت عقيدة عظيمة، وهو أنه تعالىٰ فوق كل شيء بذاته، وأنه محيط بكل شيء علمًا؛ لقوله: «**وليس يخفىٰ عليه شيء من أعمال بني آدم**»، فإذا علمنا ذلك؛ أوجب لنا تعظيمه والحذر من مخالفته؛ لأنه فوقنا؛ فهو عالٍ علينا، وأمره محيط بنا.

وفي الحديث صفتان لله: ثبوتية، وهي العلو المستفاد من قوله: «**والله فوق ذلك**».

وسلبية المستفادة من قوله: «**ليس يخفىٰ عليه شيء من أعمال بني آدم**»، ولا يوجد في صفات الله ﷻ صفة سلبية محضة، بل صفاته السلبية التي هي النفي متضمنة لثبوت ضدها علىٰ وجه الكمال، فيُنفىٰ عنه الخفاء لكمال علمه، ويُنفىٰ عنه اللُّغوب لكمال قوته، ويُنفىٰ عنه العجز لكمال قدرته، وما أشبه ذلك.

فإذا نفىٰ الله عن نفسه شيئًا من الصفات؛ فالمراد انتفاء تلك الصفة عنه لكمال ضدها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة:٢٥٥]، السِّنة: النعاس، والنوم: الإغفاء العميق، وذلك لكمال حياته وقيوميته؛ إذ لو كان ناقص الحياة لاحتاج إلىٰ النوم، ولو نام ما كان قيومًا علىٰ خلقه؛ لأنه حين ينام لا يكون هناك من يقوم عليهم؛ ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون لكمال حياتهم؛ ولأن النوم في الجنة يذهب عليهم وقتًا بلا فرح ولا سرور ولا لذة؛ لأن السرور فيها دائم؛ ولأن النوم هو الوفاة الصغرىٰ، والجنة لا موت فيها.

وليس في صفات الله نفي محض؛ لأن النفي المحض عدم لا ثناء فيه ولا كمال، بل هو لا شيء؛ ولأن النفي أحيانًا يرد لكون المحل غير قابل له، مثل قولك: الجدار لا يظلم.

وقد يكون نفي الذم ذمًّا، كما في قول:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حَبَّةَ خردلِ

فنفي الغدر عنهم والظلم ليس مدحًا، بل هو ذم يُنبئ عن عجزهم وضعفهم.

وقال آخر:

لكِنَّ قومي وإنْ كانوا ذَوِي عدد لَيْسوا من الشَّرِ في شَيْءٍ وإنْ هَانَا
يَجْزُون مِنْ ظُلم أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرةً ومِنْ إساءَةِ أَهْلِ السوءِ إحْسَانَا
كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يخْلُق لِخَشْيتِهِ سِوَاهُم مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إنْسَانا
فَلَيْتَ لي بهم قومًا إذَا رَكِبُوا شَنّوا الإغَارَة رُكْبَانًا وفُرْسَانا

فنفىٰ أن يكون لهم يد في الشر وبين أن ذلك لعجزهم عن الانتصار لأنفسهم، وتمنىٰ أن يكون له قوم خير منهم وأقوىٰ.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. وقد تقدم من حديث ابن مسعود، حيث أقر النبي ﷺ الحبر علىٰ أن الله يجعل السماوات علىٰ إصبع... إلخ.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها: كأنه يقول: إن اليهود خير من أولئك المحرفين لها؛ لأنهم لم يكذبوها ولم يتأولوها، وجاء قوم من هذه الأمة؛ فقالوا: ليس لله أصابع، وإن المراد بها القدرة؛ فكأنه يقول: اليهود خير منهم في هذا وأعرف بالله.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك: ظاهر كلام المؤلف بقوله: «ونزل القرآن» أنه بعد كلام الحبر، وليس كذلك؛ لأنه في حديث ابن مسعود قال: ثم قرأ قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، وهذا يدل علىٰ أن الآية نزلت من قبل، لكن مراد المؤلف أن القرآن قد نزل بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من الرسول ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم: ففيه دليل علىٰ جواز الضحك في تقرير الأشياء؛ لأن الضحك يدل علىٰ الرضا وعدم الكراهية.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنىٰ والأرضين في الأخرىٰ: وقد ثبتت اليدان لله تعالىٰ بالكتاب والسنة وإجماع السلف.

وقوله: «في الأخرىٰ» لا يعني أنه ينفي ذكر الشمال لما ذكره في المسألة التالية، وهي:

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال: وقد سبق الكلام علىٰ ذلك.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك: ووجه ذكرهم أنه إذا كان لهم تجبر وتكبر الآن؛ فليقوموا بذلك.

الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدهم»: يعني بذلك قوله في الحديث: «**ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدكم**»: هكذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ «في كف أحدكم» وقد ساق الأثر بقوله: «**كخردلة في يد أحدكم**» انظر كلامنا علىٰ الأثر.

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلىٰ السماء: حيث ذكر أنها بالنسبة للكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلىٰ الكرسي: لأنه جعل الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض بالنسبة للعرش.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء: ولم أرَ من قال: إن العرش هو الماء، لكن هناك من قال: إن العرش هو الكرسي؛ لحديث: «**إن الله يضع كرسيه يوم القيامة**»، وظنوا أن هذا الكرسي هو العرش.

وكذلك زعم بعض الناس أن الكرسي هو العلم؛ فقالوا في قوله تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: علمه.

والصواب: أن الكرسي موضع القدمين، والعرش هو الذين استوىٰ عليه الرحمن سبحانه، والعلم صفة في العالم يدرك بها المعلوم.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلىٰ سماء: وهو خمسمائة عام.

الثالثة عشرة: كم بين السماء والكرسي: وهو خمسمائة عام.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء: وهو خمسمائة عام.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء: وهي ظاهرة.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش: وهي ظاهرة.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض: وهو خمسمائة عام.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات بين أسفله وأعلاه خمسمائة سنة: وقد سبق الكلام على جميع هذه المسائل بأدلتها.

ويستفاد من أحاديث الباب:

١- أن الله لا يخفىٰ عليه شيء من أعمال بني آدم.

٢- التحذير من مخالفة الله ﷻ.

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وأسأل الله أن يختم لنا ولكم بالتوحيد؛ آمين.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** «**باب قول الله تعالىٰ:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ ...﴾»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يختم كتابه بهذا الباب المشتمل علىٰ النصوص الدالة علىٰ عظمة الله وخضوع المخلوقات له؛ مما يدل علىٰ أنه هو المستحق للعبادة وحده، وأن له صفات الكمال ونعوت الجلال.

«**باب قول الله تعالىٰ**»؛ أي: ما جاء في معنىٰ هذه الآية الكريمة من الأحاديث والآثار.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ أي: ما عظم المشركون الله حق تعظيمه؛ إذ عبدوا معه غيره.

﴿وَٱلْأَرْضُ﴾: جملة حالية.

﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: بجميع جهاتها وطبقاتها.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيهًا له.

﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: به من الأصنام والأنداد العاجزة الحقيرة.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر الله تعالىٰ أنَّ المشركين ما عظَّموا الله حقَّ تعظيمه؛ حيث عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر علىٰ كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته، والمخلوقات كلها بالنسبة إليه صغيرةٌ حقيرةٌ، ثم نزَّه نفسه عن شرك المشركين وتنقص الجاهلين.

تنبيه:

١- مذهب السلف في قوله تعالىٰ: ﴿..وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ

مَطْوِيَّتُۢ بِيَمِينِهِۦ ...﴾: هو إمراره كما جاء مع اعتقاد ما دلَّ عليه من غير تحريفٍ ولا تكييفٍ. والأحاديث والآثار الآتية تفسّرها وتوضِّحُها.

٢- ما يستفاد من هذه الآية يأتي بعد ذكر ما يتعلَّق بها من الأحاديث الواردة في هذا الباب.

قوله: «حبر»:

بفتح الحاء وكسرها أحد أحبار اليهود، وهو العالم بتحبير الكلام وتحسينه سمي حبرًا؛ لما يبقىٰ له من أثر علومه في قلوب الناس.

«**علىٰ أصبعٍ**»: واحد الأصابع يذكر ويؤنث.

«**الثرىٰ**»: التراب الندي، ولعل المراد به هنا: الأرض.

«**الشجر**»: ما له ساق صلب كالنخل وغيره.

«**وسائر الخلق**»؛ أي: باقيهم.

«**نواجذه**»: جمع ناجذٍ وهي: أقصىٰ الأضراس، وقيل: الأنياب، وقيل: ما بين الأسنان والأضراس، وقيل: هي الضواحك.

«**يهزهن**»: هز الشيء تحريكه أي: يحركهن.

«**الجبَّارون**»: جمع جبار وهو العاتي المتسلط.

«**كخردلة**»: هي حبةٌ صغيرةٌ جدًّا.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

ذكر عالمٌ من علماء اليهود للنبيﷺ ما يجدونه في كتابهم التوراة من بيان عظمة الله، وصغر المخلوقات بالنسبة إليه سبحانه وأنَّه يضعها علىٰ أصابعه، فوافقه النبيﷺ علىٰ ذلك، وسر به وتلا ما يصدقه من القرآن الكريم الذي أنزله الله عليه.

ما يستفاد من الآية والحديث برواياته:

١- بيان عظمة الله سبحانه وصغر المخلوقات بالنسبة إليه.

٢- أنَّ من أشرك به سبحانه لم يقدره حق قدره.

٣- إثبات اليدين والأصابع واليمين والشمال والكف لله سبحانه علىٰ ما يليق به.

٤- أنَّ هذه العلوم الجليلة التي في التوراة باقيةٌ عند اليهود الذين في زمن الرسولﷺ لم ينكروها ولم يحرِّفوها.

٥- تفرُّد الله سبحانه بالملك وزوال كل ملكٍ لغيره.

❁ **قوله: «تُرس»:**

بضم التاء: القاع المستدير المتسع، والترس أيضًا صفحة فولاذ تحمل لاتقاء السيف والمراد هنا المعنىٰ الأول.

«**فلاة**»: هي الصحراء الواسعة.

المعنىٰ الإجمالي للحديثين:

يخبر ﷺ عن عظمة الكرسيِّ والعرش، وأنَّ السماوات السبع علىٰ سعتها، وكثافتها، وتباعد ما بينها بالنسبة لسعة الكرسيِّ، كسبعة دراهم وضعت في قاعٍ واسعٍ، فماذا تشغل منه؟! إنَّها لا تشغل منه إلا حيِّزًا يسيرًا.

كما يخبر ﷺ في حديث أبي ذرٍّ أنَّ الكرسيَّ مع سعته وعظمته بالنسبة للعرش كحلقة حديدٍ وُضعت في صحراء واسعة من الأرض؛ وهذا يدل علىٰ عظمة خالقها وقدرته التامة.

مناسبة ذكر الحديثين في الباب:

أنَّهما يدلاَّن علىٰ عظمَة الله وكمال قدرته وقوة سلطانه.

ما يستفاد من الحديثين:

١ - أنَّ الكرسيَّ أكبرُ من السماوات، وأنَّ العرشَ أكبرُ مِنَ الكرسيِّ.

٢- عظمة الله وكمال قدرته.

٣- أنَّ العرش غير الكرسيِّ.

٤- الردُّ علىٰ من فسَّر الكرسيَّ بالملك أو العلم.

❁ **قوله: «هل تدرون؟»:**

أخرج الأخبار بصيغة الاستفهام؛ ليكون أبلغ في النفوس.

«**الله ورسوله أعلم**»: إسناد العلم إلىٰ الرسول ﷺ إنما يكون في حياته، أمَّا بعد وفاته فيقال: الله أعلم فقط.

«**كثف كل سماء**»: الكثف هو: السمك والغلظ.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر ﷺ عن المخلوقات العلوية، من حيث عظمتها وسعتها وتباعد ما بين أجرامها، فيخبر أنَّ السماوات سبع طباقٍ بعضها فوق بعضٍ، وأنَّ مسافة ارتفاعها عن الأرض مسيرة خمسمائة

عام، وبين كل سماءٍ والتي تليها مسافة خمسمائة عام، وسمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وفوقَ السماء السابعة الكرسيُّ، وفوق الكرسي البحر، بَيْنَهُ وبينه مسيرة خمسمائة عام، وعمق البحر كما بين السماء والأرض، وفوق البحر العرش، والله فوق العرش لا يخفىٰ عليه شيء من أعمال بني آدم.

مناسبة هذين الحديثين للباب:

بيانُ عظمة الله سبحانه وقدرته الباهرة وعُلُوّه علىٰ مخلوقاته وعلمه بأحوالهم.

ما يستفاد من الحديثين:

١- فيهما بيان عظمة الله وقدرته ووجوب إفراده بالعبادة.

٢- فيهما بيان صفة الأجرام العلوية وعظمتها واتِّسَاعِهَا وتباعُدِ أقطارها.

٣- فيها الردُّ الواضحُ علىٰ أهل النظريات الحديثة الذين لا يؤمنون بوجود السماوات والكرسيِّ والعرشِ، ويزعمون أنَّ الكون العلويَّ فضاءٌ وكواكبُ فقط.

٤- فيهما إثباتُ علوِّ الله علىٰ خلقه بذاتِهِ المقدسة؛ خلافَ ما تزعمه الجهمية والمعتزلة والأشاعرة الذين ينفون علوَّ الله علىٰ خلقِهِ.

٥- فيها إثباتُ علم الله المحيط بكل شيءٍ مع علوِّه فوق مخلوقاته.

٦- فيها مشروعية بيان هذه الحقائق العظيمة للناس؛ ليعرفوا عظمة الله وقدرته والله أعلم. وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمدٍ وآله وصحبه.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ...﴾»:

هذا «باب ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[الزمر:٦٧] »:

ختم به إمام هذه الدعوة شيخ الإسلام والمسلمين محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب التوحيد وختمه هذا الكتاب بهذا الباب ختم عظيم؛ لأن من علم حقيقة ما اشتمل عليه هذا الباب من وصف الله -جل وعلا- وعظمة الله -جل وعلا- فإنه لا يملك إلا أن يذل ذلًّا حقيقيًّا، ويخضع خضوعًا عظيمًا للرب -جل جلاله- والصحيح والواقع من حال الخلق أنهم لم يوقروا الله -جل وعلا- وما قدروا الله حق قدره، لا من جهة ذاته وقدرته وصفاته، ولا من جهة حكمته وبعثه لرسله، قال جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٩١]، فهذا في إنزال الكتاب وفي إرسال

الرسول، وقال -جل وعلا- في بيان صفة ذاته: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يعني: ما عظموه حق تعظيمه، ولو عظموه حق تعظيمه لما عبدوا غيره، ولما أطاعوا غيره، ولعبدوه حق العبادة، ولذلوا له ذلًّا وخضوعًا دائمًا، وأنابوا إليه بخشوع وخشية، ولكنهم ما قدروه حق قدره، يعني: ما عظموه حق تعظيمه الذي يجب لقدره -جل وعلا- وعظم ذاته -سبحانه وتعالىٰ- وصفاته.

ثم بين -جل وعلا- شيئًا من صفة ذاته العظيمة الجليلة، فقال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فإن عقل الإنسان لا يمكن أن يتحمل صفة الله -جل وعلا- علىٰ ما هو عليه، والله -جل وعلا- بين بعض صفاته فقال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ فإذا نظرت إلىٰ هذه الأرض علىٰ عظمها وعلىٰ غرور أهلها فيها، ونظرت إلىٰ حجمها وإلىٰ سعتها وإلىٰ ما فيها، فهي في قبضة الرحمن جل وعلا، يعني: في داخل قبضة الرحمن -جل وعلا- يوم القيامة، فنفهم من ذلك أن كف الرحمن -جل وعلا- وأن يد الرحمن -جل وعلا- أعظم من هذا، وكذلك السماوات مطويات كطي السجل في كف الرحمن -جل وعلا- كما قال سبحانه هنا: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وقال في آية سورة الأنبياء: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[الأنبياء: ١٠٤]، فهذه صفات الله -جل جلاله- فإن الأرض التي يتعاظمها أهلها، والسماوات التي يتعاظمها من نظر فيها، هي صغيرة وآيلة في الصغر إلىٰ أن تكون في كف الرحمن -جل وعلا- والله -سبحانه وتعالىٰ- أعظم من ذلك وأجل، بل هو -سبحانه وتعالىٰ- الواسع الحميد الذي له الحمد كله، وله الثناء كله، ويبين لك عظمة الرب -جل وعلا- في ذاته وعظمة الرب -جل وعلا- في صفاته، وإذا تأملت هذه الأحاديث وما اشتملت عليه تبين لك غرور أهل الأرض في الأرض، وبسعتها وبقواهم فيها، وأنها بالنسبة إلىٰ السماء تعتبر صغيرة، وأن بين الأرض وبين السماء الأولىٰ مسيرة خمسمائة سنة في مسيرة الراكب السريع، وكذلك بين السماء الأولىٰ والسماء الثانية مسيرة خمسمائة سنة، وهكذا حتىٰ تنتهي السبع سماوات، وكذلك السماوات السبع متناهية في الصغر أمام الكرسي، ولهذا مثّل النبي عليه الصلاة والسلام السماوات السبع في الكرسي الذي هو فوق ذلك، وهو أكبر بكثير من السماوات بقوله: «**إن السماوات السبع كدراهم سبعة ألقيت في ترس**» يعني: هذه السماوات صغيرة جدًّا بالنسبة إلىٰ الكرسي، بل كدراهم سبعة ألقيت في ترس، والترس مكتنفها متقوس عليها، فهي صغيرة فيه وهو واسعها، كما قال جل وعلا: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾[البقرة: ٢٥٥]. فالأرض التي أنت فيها نقطة صغيرة جدًّا بالنسبة إلىٰ السماء، والأرض

والسماوات مجتمعة في غاية الصغر بالنسبة للكرسي، والكرسي أيضًا فوقهما، وفوق ذلك عرش الرحمن -جل وعلا- والكرسي بالنسبة إلىٰ العرش كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، فهو متناهي الصغر بالنسبة إلىٰ عرش الرحمن، والذي هو مستوٍ عليه -جل وعلا- وهو فوقه -سبحانه وتعالىٰ- ولو تأمل الناس صفة الرب -جل وعلا- وما يجب له من الجلال، وما هو عليه -سبحانه وتعالىٰ- من صفات الذات، ومن صفات الفعل، وما عليه تلك الصفات من الكمال والجلال المطلق لاحتقروا أنفسهم، ولعلموا أنه لا ينجيهم ولا يشرفهم إلا أن يكونوا عبيدًا له وحده دون ما سواه، فهل يعبد المخلوق المخلوق؟!

إن الواجب أن يعبد المخلوق من هو متصف بهذه الصفات العظيمة، فهو الحقيق بأن يُذلّ له، وهو الحقيق بأن يطاع، وهو الحقيق بأن يُجلّ، وهو الحقيق بأن يُسأل، وهو الحقيق بأن يبذل كل ما يملكه العبد في سبيل مرضاته -جل وعلا- إذ هذا من قدره حق قدره، ومن تعظيمه حق تعظيمه، فإذا تأمل العبد صفات الربوبية وصفات الجلال وصفات الجمال لله -جل وعلا- وأن ذات الله -جل وعلا- عظيمة، وأنه -سبحانه وتعالىٰ- مستوٍ علىٰ عرشه، بائن من خلقه، علىٰ هذا العظم، علم أنه لا أحد يستحق أن يتوجه إليه بالعبادة وأن يعبد إلا الله -جل وعلا- وأن من عبد المخلوق الحقير الوضيع فإنه نازع الله -جل وعلا- في ملكه، ونازع الله -جل وعلا- في إلهيته، ولهذا يحق أن يكون من أهل النار المخلدين فيها والمعذبين عذابًا دائمًا؛ لأنه توجه إلىٰ هذا المخلوق الضعيف وترك الرب العلي القادر علىٰ كل شيء سبحانه وتعالىٰ.

ثم تأمل كيف أن ربك العزيز الحكيم المتصف بصفات الجلال، وهو -جل وعلا- فوق عرشه يأمر وينهىٰ في ملكوته الواسع الذي ما الأرض إلا كشبه لا شيء في داخل ذلك الملكوت، يفيض رحمته ويفيض نعيمه علىٰ من شاء، ويرسل عذابه علىٰ من شاء، وينعِّم من شاء، ويصرف البلاء عمن شاء، وهو سبحانه ولي النعمة والفضل فترىٰ أفعال الله -جل وعلا- في السماوات، وترىٰ عبودية الملائكة في السماوات لهذا الرب العظيم، المستوي علىٰ عرشه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**أطَّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم، وملك راكع، أو ملك ساجد**»[٩٠٧] تعظيمًا لأمر الله -

---

(٩٠٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا»، برقم (٢٣١٢)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الحزن والبكاء، برقم (٤١٩٠)، بلفظ: «...أطَّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله...» وغيرهما من حديث أبي ذر ﷺ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٤٩).

جل وعلا- وترى نفوذ أمر الله في ملكوته الواسع الذي لا نعلم منه إلا ما حولنا من هذه الأرض، وما هو قريب منها، بل نعلم بعض ذلك، والله -جل وعلا- هو المتصرف، ثم تنظر إلى أن الله الجليل العظيم المتصف بهذا الملك العظيم يتوجه إليك أيها العبد الحقير الوضيع فيأمرك بعبادته، وهي شرف لك لو شعرت، ويأمرك بتقواه وهي عز لك لو عقلت، ويأمرك بطاعته وذاك فخر لك لو علمت، فإنه إذا علمت حق الله، وعلمت صفات الله وما هو عليه من العلو المطلق في ذاته وفي صفاته -جل وعلا- وفي نفوذ أمره في السماوات السبع التي هي في الكرسي كدراهم ألقيت في ترس، ثم ما فوق ذلك، والجنة والنار وما في ذلك، وجدت أنك لا تتمالك إلا أن تخضع له -جل وعلا- خضوعًا اختياريًّا، وأن تذل له، وأن تتوجه إلى طاعته، وأن تتقرب إليه بما يحب، وأنك إذا تلوت كلامه تلوت كلام من يخاطبك به، ويأمر وينهى به، فيثمر عندك حينئذٍ من التوقير والتعظيم لله عز وجل غير ما كنت عليه قبل ذلك، ولهذا كان من أسباب رسوخ الإيمان في القلب وتعظيم الرب -جل وعلا- أن يتأمل العبد ويتفكر في ملكوت السماوات والأرض كما أمر الله -جل وعلا- بذلك حين قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٠١] وقال جل وعلا: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقال -جل وعلا- في وصف الخلّص من عباده: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٢] إلى آخر دعواتهم، وهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا، وعلى جنوبهم، ويتفكرون، ومع ذلك يسألون النجاة من النار، فهم في ذل وخضوع لما عرفوا من آثار توحيد الربوبية، ولما عرفوا من آثار توحيد الألوهية في القلب وفي النفس.

أسأل الله في ختام هذا الكتاب أن يجزي مؤلفه الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب عنا وعن المسلمين خير الجزاء، وأن يجزي كل من ساهم في شرح هذا الكتاب بما أفهمنا من معانيه، فإنه والله لكتاب عظيم، اشتمل على ما به نجاة العباد لو شعروا، وقرّب به الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ نصوص الكتاب والسنة، وأفهمنا دلائلها نرجو معه النجاة بعفو الله -جل وعلا- وكرمه.

هذا ووصية أخيرة أختم بها هذا المجلس المبارك فأوصي بالعناية بهذا الكتاب عناية عظيمة، وحفظه، ودراسته، وتأمل مسائله، ومعرفة ما فيه، فإنه الحق الذي كان عليه الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم من صالحي عباد الله، هذا وإن الانصراف عن مدارسة ما احتواه مما يجب على العبد

تجاه ربه لنذير سوء، وإن الإقبال عليه لمؤذن بالخير والبشرىٰ، وأسأل الله أن يغفر لنا زللنا وخطلنا، وأن يعفو عنا ما أخطأنا فيه، وأن يجعلنا من المعفو عنهم، ونسأل الله التسامح، وأن يجعلنا من المحققين لتوحيده، وأنه لا حول لناولا قوة إلا به، اللهم فكن لنا يا كريم، اللهم فكن لنا يا كريم، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، أي: يقبضها بيده حقيقة كما دل عليه الحديث.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها، أي قوله: إنا نجد أن الله يجعل السموات على أصبع والأرض على أصبع... إلخ مما هو دال على إثبات صفة الأصابع لله على ما يليق بجلاله وعظمته، فهذا مما بقي عندهم ولم ينكروه كما أنكروا صفة النبي ﷺ وغيرها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه ونزل القرآن بتقرير ذلك، أي: صدقه فيما قال ونزل القرآن موافقًا له لكونه قال حقًّا.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم، أي: ضحك لكونه قال حقًّا لا إنكارًا عليه كما يزعمه من تأول هذا الحديث وقال: إنه تعجب من تحريف اليهود.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين وأن السموات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى، أي: كما دل عليه حديث ابن عمر الذي في الصحيح وغيره.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال، أي: كما في الحديث المذكور الذي رواه مسلم، وأما حديث: «**وكلتا يديه يمين**» فلعله قاله دفعًا لتوهم النقصان بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك، أي: إن القادر على ذلك هو الجبار المتكبر حقيقة لا المخلوق الضعيف الحقير فإنه لا يليق به ذلك.

الثامنة: قوله: كخردلة في كف أحدهم، أي: إنه دليل على صغر المخلوقات بالنسبة إليه جل وعلا.

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء، أي لقوله: «**ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس**».

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي، أي لقوله: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**».

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء، أي لقوله: بين الكرسي والماء خمسمائة عام والعرش فوق الماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلىٰ سماء؟ أي: بينهما خمسمائة عام.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي؟ أي: بينهما خمسمائة عام.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء؟ أي: بينهما خمسمائة عام.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء، أي: لقوله في حديث ابن مسعود: «**والعرش فوق الماء**».

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش، أي لقوله: «**والله فوق العرش**».

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض؟ أي: بينهما خمسمائة سنة.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة، أي: كما في حديث العباس بن عبد المطلب.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السموات بين أسفله وأعلاه خمسمائة سنة -والله أعلم- أي: كما دل عليه حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

والحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، هذا آخر الكلام علىٰ هذه المسائل، وكان الفراغ منه آخر الخميس الموافق ٥/ ٩/ ١٤٠٨هـ في مكة المكرمة حرسها الله تعالىٰ.



* الأسئلة *

س: اشرح هذه الآية وبين مناسبتها لكتاب التوحيد؟

جـ: يقول الله تعالىٰ ما عظم الله حق عظمته هؤلاء المشركون حيث عبدوا معه غيره، فلم يؤمنوا بقدرة الله عليهم وهو العظيم الذي لا أعظم منه والقادر علىٰ كل شيء المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قدرته وقهره.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾؛ **فقد فسرها رسول الله ﷺ بقوله:** «يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنىٰ ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟! أين المتكبرون؟! ثم يطوي الأرضين السبع بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون؟! أين المتكبرون؟!»[٩٠٨]، وقال ﷺ: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟!»[٩٠٩].

ومناسبة الآية لكتاب التوحيد: أنها دلت علىٰ أن عبادة غير الله شرك تنافي توحيده وتعظيمه والإيمان به.

❁ **قوله:** «وروىٰ عن ابن عباس قال: ما السموات السبع والأرضون السبع ...».

س: ما هي الخردلة وما الذي يدل عليه هذا الحديث؟

جـ: الخردلة واحدة الخردل وهي حبة صغيرة جدًّا كالذي يرىٰ في شعاع الشمس الداخل في النافذة، ويدل الحديث:

١ - علىٰ عظمة الله تعالىٰ.

٢ - وعلىٰ صغر المخلوقات بالنسبة إليه.

٣ - أن السماوات السبع والأرضين السبع ومن فيهن في قبضته وتحت تصرفه وقهره.

---

(٩٠٨) تقدم تخريجه.

(٩٠٩) تقدم تخريجه.

قوله: «وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم...»».

س: ما هو الترس وما معنى ظهري فلاة وما الذي يدل عليه هذان الحديثان؟

جـ: الترس صفحة من فولاذ تحمل لاتقاء الضرب بالسيف.

ومعنىٰ ظهري فلاة وسط فلاة وهي المفازة، ويدل الحديثان:

١ - علىٰ عظم الكرسي بالنسبة للسماوات، كما قال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

٢ - عظم العرش بالنسبة للكرسي.

٣ - أن العرش غير الكرسي.

قوله: «وعن ابن مسعود قال: بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام ...».

س: اذكر ما يستفاد من هذين الحديثين وبين مناسبتهما للباب؟

جـ: يستفاد منهما:

١ - أن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام.

٢ - أن ما بين كل سماء إلىٰ سماء خمسمائة عام.

٣ - أن كثف (سمك) كل سماء خمسمائة عام.

٤ - أن بين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام.

٥ - أن بين الكرسي والماء خمسمائة عام.

٦ - أن البحر الذي فوق السماوات بين أسفله وأعلاه خمسمائة عام.

٧ - أن العرش فوق الماء.

٨ - أن الله تعالىٰ فوق العرش.

٩ - أنه تعالىٰ مطلع علىٰ عباده يعلم ما هم عاملون، ولا يخفىٰ عليه شيء من ذلك.

ومناسبة الحديثين للباب: أن فيهما دلالة علىٰ عظمة الله تعالىٰ وكماله وكبريائه وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته.

والله أعلم. وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضىٰ، وكما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه.

تم بحمد الله ومنته الجزء الثاني

من كتاب الجامع الفريد في شرح كتاب التوحيد وبه تم الكتاب

فهرس الجزء الثاني

الدرس التاسع والعشرون:

الدرس الثلاثون:

الدرس الحادي والثلاثون:

الدرس الثاني والثلاثون:

الدرس الثالث والثلاثون:

الدرس الرابع والثلاثون:

الدرس الخامس والثلاثون:

الدرس السادس والثلاثون:

الدرس السابع والثلاثون:

الدرس الثامن والثلاثون:

الدرس التاسع والثلاثون:

الدرس الأربعون:

الدرس الحادي والأربعون:

الدرس الثاني والأربعون:

الدرس الثالث والأربعون:

الدرس الرابع والأربعون:

الدرس الخامس والأربعون:

الدرس السادس والأربعون:

الدرس السابع والأربعون:

الدرس الثامن والأربعون:

الدرس التاسع والأربعون:

الدرس الخمسون:

الدرس الحادي والخمسون

الدرس الثاني والخمسون:

الدرس الثالث والخمسون:

الدرس الرابع والخمسون:

الدرس الخامس والخمسون:

الدرس السادس والخمسون:

الدرس السابع والخمسون:

الدرس الثامن والخمسون:

الدرس التاسع والخمسون:

الدرس الستون:

الدرس الحادي والستون:

الدرس الثاني والستون

الدرس الثالث والستون:

الدرس الرابع والستون:

الدرس الخامس والستون:

الدرس السادس والستون:

الدرس السابع والستون:



ت: ٠١٠٥٤٤٧٩٤٤